
صلاح نصر
الجزء الأول
الحرب النفسية
معركة الكلمة والمعتقد

والاتجاه الفردى يزعم أن الانسان خلق كل التنظيمات الاجتماعية ، والعلوم الفنية ، والقيم ، والمقاييس وذلك لمجرد وجود غرائز معينة فيه ، مثل : غريزة الجنس ، وغريزة حب الاجتماع •

اما النظرة الثقافية الاجتماعية فتمنح الفرد قوة ضئيلة أو دافعا ، ويزعم هذا الاتجاه أن الانسان ليس الا مجرد اللعبة لقوى اجتماعية معينة ، أو بمعنى آخر هو مجرد اناء فارغ تصب فيه الثقافة والصفات الاجتماعية • ومن مناصرى هذا الرأى دوركايم Durkheim (١) •

وقد جرى الكثير من الجدل والنقاش العقيم بين هاتين المدرستين ، ولكن فى السنوات الاخيرة كان هناك ميل من جانب أصحاب كلا الرأيين الى أن يتقاربوا بل كذلك الى أن يستعيروا من بعضهم البعض • وقد حان وقت التجاوز عن هذين الرأيين والوصول الى تفاهم أفضل لمركز الفرد فى المجتمع •

ويرى بعض العلماء الذين يحاولون التوفيق بين الرأيين أن على علم النفس الاجتماعى أن يبدأ من الفرد ، فانه اذا لم يكن هناك مخلوقات بشرية لكى تتعامل فيما بينهـــا فما كانت توجـد حينئذ ثقافة أو تنظيم اجتماعى ، ولكن ما ان يظهر التنظيم الاجتماعى الى عالم الوجود حتى يؤثر على الفرد • وهذا أمر حقيقى تماما كالقول بأنه على الرغم من أن الانســان صنع الآلة فان الآلة أيضا تصنع بدورها الانسان • فالانسان كان موجودا فى بداية الامر ولكن انتاجه ليس هو

---

(١) دوركايم ، اميل (١٨٥٨ - ١٩١٧) استاذ علم الاجتماع فى جامعة « بوردو » ثم بعد ذلك استاذ علم الاجتمـاع وعلم التربية فى جامعـة باريس ، رئيس تحرير مجـــلة L'annee Socialogique سبق كل علماء الاجتماع فى عصره وطور الكثير من الآراء التى جاءت قبله ، وضع دعامة « الفلسفة السياسية » وكان أهم ما كتب :

1) Division du travail social (1893).

2) Suicide (1897).

3) Les regles de la methode socialogique (1895).

والأخير ترجم الى الانجليزية بعنوان :

The rule of Sociological Method, London, 1938.

الانسان نفسه ، بل هو ينتج تنظيما اجتماعيا ، وماليا ، وعلوما فنية ، ولغة الى غير ذلك • كما أن الباعث ، والادراك ، والتعليم ، ورد الفعل للفرد ، كلها أمور ذات اهمية خاصة لعلم النفس الاجتماعى • ومن ناحية أخرى فان الانسان الذى يثور على المجتمع هو من نتاج هذا المجتمع نفسه • فاذا وضعنا هذه الحقائق فى اعتبارنا فان الجدل بين الاتجاه الفردى ، والاتجاه الثقافى يصبح بلا معنى ، ويظهر رأى واحد يضع فى اعتباره كلا من المجتمع ، والفرد •

ان علم النفس الاجتماعى يعالج وضع الفرد فى اطار اجتماعى ويعمل على تنمية شخصيته فى الوسط الاجتماعى ، كما أنه يهتم بنمو الاراء ، والمفاهيم ، والمقاييس لدراسة العمليات الجماعية ، ويدرس السلوك الجماعى فى كل من الوسط الطبيعى والتجارب المعدة ، وباختصار هو الدراسة العلمية لسلوك الجنس البشرى باستخدام أساليب تجريبية للتحرى والاستفسار •

يقول بونر Bonner « أصبح علم النفس الاجتماعى فى هذه الأيام تفاعليا ، ولم يعد الاهتمام موجها لرد الفعل نتيجة لأحد المثيرات ، بل موجها للتفاعل بين الفرد والفرد ، وبين الفرد والجماعة ، أو بين الجماعات وبعضها البعض(١) » •

وطبقا لما يراه سارجنت Sargent ووليامسون Williamson (٢) فان علم النفس الاجتماعى هو الدراسة العلمية للأشخاص باعتبارهم أعضاء فى جماعات مع الاهتمام بالعلاقات الاجتماعية والشخصية فيما بينهم • كما أنه يدرس

---

(١) بونر جون تيلور : عالم امريكى ، ولد بنيويورك عام ١٩٢٠ حصل على الدكتوراه من جامعة هارفارد سنة ١٩٤٧ ، عمل أستاذا مساعدا فى جامعة برنستون ١٩٤٧ ــ ١٩٥٨ ، كان محاضرا بجامعة لندن عام ١٩٥٩ ، ومن اهم مؤلفاته :

1) Cells and Societies, 1955.

2) The Evolution of Developments, 1958.

3) Growth and Form, 1959.

(٢) Sargent and Williamson R. C., Social Psychology, Ronald Press Company New york, 1950.

السلوك الفردى فى تأثيره على سلوك الآخرين ، وفى تأثره بسلوكهم • وقد يكون السلوك اما كامنا مستورا كالادراك والتفكير ، واما ظاهرا مثل القراءة أو الانتخاب •

السلوك الاجتماعى :

تعرف دائرة المعارف البريطانية السلوك(١) بانه المظهر الخارجى لنشاط الكائن الحى ، وتقول أن الخاصية الضرورية له هى الحركة التى توجد فى أغلب الحيوانات وفى بعض النباتات • هذه الحركة نتيجة تغيرات داخلية وخارجية يقال لها « المنبهات » •

كما توضح أن السلوك يمكن تصنيفه بعدة طرق كل منها مستقل عن الآخر، فمن الممكن أن ينظم فى طوابع مركبة تبعا لعوامل بيولوجية ووراثية ، أو بواسطة تفاعل المعرفة ، أو بالاثنتين معا • والواقع أن السلوك يتأثر فى الغالبية بكل هذه التنظيمات معا •

وكحديث عام فان السلوك يتأثر بأسباب داخلية ، وأسباب خارجية أيضا • ان السلوك ظاهرة معقدة تتعدد الاسباب المؤثرة فيها ، ولهذا فان لمشكلاتها عدة حلول متبادلة •

ومهما يكن من شىء فان عمليات الأبحاث التى تجرى حول المشكلات تحاول الوصول الى أسباب اختلاف السلوك البشرى عن طريق دراسة عوامل عدة أهمها : الوراثة ، العوامل الفسيولوجية ، البيئة الاجتماعية والبيولوجية ، العوامل النفسية ، المعرفة ، العقيدة ، الى غير ذلك من العوامل المؤثرة • ومن ثم فان دراستنا ستقتصر على بحث بعض العوامل الرئيسية التى تحدد سلوك الانسان من حيث هو عضو فى المجتمع الذى يعيش فيه •

---

(١) راجع دائرة المعارف البريطانية مادة Behaviour ٣ : ٣٢٥ سنة ١٩٦١ •

الأحوال البيولوجية :

حتى يستطيع الانسان أن يبقى يجب عليه أن يكيف نفسه طبقا لاحوال بيولوجية معينة • ان أعماله التى يمكنه أن يؤديها محدودة ، ويحدث أحيانا أن يتمنى أن تكون الطبيعة قد خلقته بشكل مغاير ، ويحدث أحيانا أخرى أن يتصرف كما لو كان غير مقيد بقوانين بيولوجية معينة ، ولكنه اذا غالى فى تصرفاته أكثر مما يجب أهلك نفسه فرديا أو جماعيا •

كان على الانسان فى شتى الحضارات أن يؤدى وظائف خاصة والا هلك • قد يكيف نفسه وفقا لظروف غير عادية ، ولكن فى حدود مرسومة . ومع ذلك فان هناك ألوانا من النشاط البيولوجى وجدت بالضرورة أو دائما فى كل نمط من أنماط المجتمع •

ولقد تمكن برونيسلو مالينوفسكى Bronislaw Malinowski (١) ـ عالم الانثروبولوجيا المشهور ـ أن يعد قائمة بكل :

الباعث	العمل	الدافع
الحاجة الى التنفس	استنشاق الأوكسيجين	التخلص من ثانى أوكسيد الكربون
الجوع	ابتلاع الأكل	الشبع
العطش	امتصاص السوائل	الارواء
الرغبة فى الجنس	العملية الجنسية	الاشباع
التعب	الراحة	استعادة النشاط العضلى والعصبى
التبرم او القلق	النشاط	التخلص من التعب

(١) مالينوفسكى ، برونيسلو كاسبر مالينوفسكى (١٨٨٤ ـ ١٩٤٢) عالم من علماء الانثروبولوجيا البولنديين ، تولى التدريس فى جامعة كراكوف فى بولنده وجامعة ليبزج فى المانيا ، وأخيرا تولى مركز استاذ علم الأنثروبولوجيا فى جامعات هارفارد وييل ولندن بعد ان هاجر الى امريكا •

الباعث	العمل	الدافع
النعاس	النوم	الاستيقاظ بعد استعادة النشاط
ضغط المثانة	التبول	زوال التوتر
ضغط القولون	التبرز	الاسترخاء المعوى
الخوف	الهرب من الخطر	الاسترخاء
الألم	تجنب الالم بعمل ايجابى	العودة الى الحالة الطبيعية

ويلاحظ مالينوفسكى أن النظام الماركسى يقر أن تتابع الجوع ، ثم التغذية ، ثم الشبع ، هو الأساس النهائى الذى تبنى عليه كل الدوافع الانسانية • وينتقد مالينوفسكى هذا التفسير ذا الاتجاه الواحد على أساس أن جسم الانسان يختلف من شخص الى آخر من الناحيتين التشريحية والفسيولوجية ، وعلى ذلك يجب مراعاة استقلال الدوافع المختلفة • وهو يقول « ان كل دافع يتطلب نوعا معينا من التصرف ، وكل نتيجة حيوية هى الى حد كبير مستقلة عن غيرها » •

ويوجز مالينوفسكى بعض انطباعاته على النحو التالى :

الحاجة الأساسية	الاستجابة الثقافية
التوالد	القرابة
الراحة الجسمانية	المأوى
السلامة	الحماية
الحركة	النشاط
النمو	التدريب
الصحة	علم الصحة

ان هذه الحاجات الأساسية واستجاباتها الثقافية تشكل جزءا صغيرا فقط من نظريات مالينوفسكى بشأن سلوك الانسان •

اما بالنسبة لعلم الاحياء فيقول هذا العالم « انه من الاهمية بمكان لو استطعنا من أجل دراستنا المقارنة لسلوك الانسان المنظم أن نتعلم من أولئك الذين يدرسون تشريح الانسان وفسيولوجيته المقارنة وبيئة كل نوع والحد الأدنى من شروط البيئة المادية التى تتفق مع النمو ، وتجدد الخلايا ، والحماية من الميكروبات ، وكفاية التوالد والتكاثر » •

ان علم الأجنة ميدان أخذ فى الاتساع على نحو لم يحدث فى كل فروع العلوم • ان كل اكتشاف جديد يشير الى أن ما لم يعرف بعد هو أكثر مما كنا نظن فى الماضى • ووفقا للاكتشافات الحالية يمكن أن نقول أن الحياة تنشأ بقوة النمو ، ونحن لا يعترينا أى شك فى أن هذه الفكرة سوف يكون لها تأثير كبير على سلوك الانسان • ومع ذلك فان مثل هذه التأملات النظرية هى أبعد ما تكون عن أن تصبح أهدافا عند تحليل سلوك الانسان •

وعند التطبيق العملى تكون دراسة الوراثة بالنسبة للفروق الانسانية على جانب كبير من الاهمية ، لان الناس تقريبا تميل الى تعميم مشاعرهم الجسمانية ونتوقع أن نجد نفس هذه المشاعر فى كل الاشخاص الآخرين ، ومما لا شك فيه أنه كان لهذا الميل نتائج سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية خطيرة •

ولكن هل يمكن أن نجرى اختبارا للتأثير على الصفات الوراثية المختلفة فى الاشخاص المختلفين ؟

ان نظريات الوراثة التى جاءت بها الدوائر العلمية فى الغرب(١) لم يتقبلها العلامة السوفييتى ليسنكو Lysenko ومدرسته(٢) • ففى السنوات ١٩٣٥ ـ

---

(١) راجع دائرة المعارف البريطانية مادة Soviet Genetics ١١ : ٤٩٥ سنة ١٩٦١ .

(٢) ليسنكو ، تروفيم دنيسوفيتش ليسنكو : اصلا من علماء الزراعة وله عدة اختبارات وتجارب فى العمليات التوليديه والتناسلية فى النبات والحيوان • ولد سنة ١٨٩٨ ، تعلم فى كييف ، منح جائزة ستالين مرتين ، ومنح وسام لنين للعلم عضو اكاديمية العلوم السوفييتية ، عضو عدة جمعيات ومؤسسات علمية فى اوديسا بجنوب الروسيا •

١٩٣٨ حدث جدال عنيف فى الاتحاد السوفييتى بين العلماء السوفييت الذين يتقبلون نظريات الوراثة الغربية حيث يطلق عليها اسم « المندلية والويزمانية والمورجانية » ، نسبة الى العلمـاء : مندل(١) ، وويزمان ، ومورجان(٢) ، وبين ليسنكو وأفراد مدرسته الذين أقاموا أسـاس نظريتهـم فى الوراثة على كتابات العـالم الروسى ف• بنجورين « ١٨٥٥ / ١٩٣٥ » محترف زراعة البسـاتين « Horticulturalist »

وانتهى الجدل والنقاش فى سنة ١٩٤٨ الى انتصار حاسم لمدرسة ليسنكو، فقد أعلن أن وجهات نظره قد وافقت عليها الحكومة السوفييتية وتقبلها الحزب الشيوعى •

والواقع أن أسس الخـلاف بين علماء التكوين التناسـلى « علم الوراثة » الغربيين ، وبين العلماء السوفييت هى خلافات نظرية من ناحية ، وعملية من ناحية أخرى ، فلقد بينت الاعتراضات النظرية أن « الجين » Gene « ميكروب الوراثة » وحدة متحركة بذاتها تحكم خاصيات الوراثة ، ولا يتكيف خاصة بواسطة البيئة •

ان هذا ليس بالامر الثابت ولا المستمر فى الفلسفة الشيوعية التى تقرر أن كل «الماديات» يجب أن تتشكل استجابة لأحوال البيئة والظروف المحيطة بها •

---

(١) مندل ، جريجور جوهان Gregor Johann Mendel (١٨٢٢ – ١٨٨٤) نمسوى الأصل من رجال الدين ولد فى سيليزيا النمسوية يوم ٢٢ من يوليو سنة ١٨٢٢ ، درس اثناء تدريبه فى الدير بعض العلوم ثم ارسل الى جامعة فيينا لدراسة الفيزياء ، والكيمياء ، وعلم الحيوان والنبات ، وبقى يدرس من ١٨٥١ الى ١٨٦٨ ولكنه لم ينجح فى الامتحان للعمل كمدرس ، ادت تجاربه سنة ١٨٥٦ فى حديقة الدير الى اكتشاف الاصول الرئيسية لعلم الوراثة •

(٢) توماس هنت مورجان Thomas Hunt Morgan (١٨٦٦ – ١٩٤٥) من علماء علم الاحياء اكتشف الاصول الرئيسية والتكوين التناسلى ، تولى رياسة اكاديمية العلوم الامريكية من ١٩٢٧ الى ١٩٣١ ، له عدة مؤلفات اهمها :

1) Evolution of Genetics, 1925.

2) Embryology and Genetics, 1933.

3) The Physical Basis of Heredity.

وقد وقفت الاعتراضات السوفييتية فى المجال العلمى التجريبى واهتمت بكون علماء الوراثة الغربيين عاجزين عن أن يعيدوا عن قصد وراثة عضو بشرى فى الاتجاه الذى يريدونه ، وانما عليهم أن ينتفعوا بمثل هذه التحولات الفجائية Mutations حيثما جرت بمحض الصدفة •

لقد ظهر أن التطبيق العملى التجريبى لنظريات مندل فى التوالد Breeding يحدث ببطء ، على حين قرر ليسنكو أنه قادر على تغيير الوراثة ويستطيع أن يتنبأ بهذا التغيير •

وفى سنة ١٩٥٢ خرج ليسنكو بنظرية جديدة للتطور تقوم على أساس احداث تغييرات فجائيـة فى نوع لتحويله الى آخر تحت ظروف بيئية مصطنعة ليست لصالح النوع الاول ، وفى هذه الحال تنتج حبوب القمح فجأة « جويدار » وهو نبات كالشعير «Rye» ولكن هذه النظرية قوبلت هى والادلة والبينات التى قامت على أساسها بهجوم عنيف حتى فى الاتحاد السوفييتى نفسه •

ولم يأخذ علماء الوراثة الغربيون أى نظرية لليسنكو مأخذ الجد •

وقد بذلت عدة محاولات قليلة فىالدول الغربية لاعادة التجارب السوفييتية ولكن كل النتائج التى وصل اليها كانت سلبية •

وبدأ نفوذ ليسنكو يضعف بعد سنة ١٩٥٢ وأعلن فى سنة ١٩٥٦ أنه طرد من وظيفته القيادية الرئيسية ، ولكن طرده هذا لم يؤد من فوره الى احياء نظريات مندل فى علم الوراثة فى الاتحاد السوفييتى •

هذا مثل يوضح كيف أن دراسة العلوم البيولوجية عند تطبيقها تكون معينا كبيرا لنا فى العلوم الاجتماعية • ان علم الوراثة هو أكثر العلوم علاقة بالعلوم الاجتماعية ، لأنه يعالج التأثيرات التى تحسن الصفات الموروثة بالنسبة للانسان•

الدافع المباشر للسلوك Motivation :

كثيرا ما نسأل أنفسنا فى بحثنا لسلوكنا الخاص أو لسلوك الآخرين لماذا فعلت أنا هذا ؟ ولماذا تصرف غيرى بطريقة مخالفة ؟ والحقيقة أننا ونحن نسأل على هذا النحو انما نثير مشكلة ما يدفع بنا الى أن نقوم بأعمال خاصة •

وبصفة عامة نجد فى تطور كل أنواع الحيوان أن الدوافع الاولية القديمة جدا التى أشاعت النشاط ومكنت من استمراره قامت على أسس فسيولوجية ، فالطفل ينشط أساسا بدوافع مثل « الجوع » و « الظمأ » و « الألم » ، ويستمر فى جعل احتياجاته معروفة حتى تلبى بواسطة أمه أو مربيته ، ونحن فى سن البلوغ نسلم بأننا نشعر بالجوع عندما تحتاج أجسامنا الى الغذاء ، ولكن عندما يتوقف كل منا ليفحص هذا السؤال : كيف أعرف أننى فى حاجة الى الغذاء ؟ فانه يجد أن الاجابة ليست واضحة بأى صورة كانت ، والرد المناسب الذى لا يعتبر غير مألوف قد يجىء فى الصورة التالية : « أعرف أننى جائع عندما أحس بعضة الجوع » أى تقلص المعدة أو انكماشها Stomach Contracions •

ومثل هذه الاجابة تعطى بيانا أو ايضاحا فى غاية البساطة لوجهة النظر التى نادى بها منذ أكثر من ربع قرن الفسيولوجى « وولتر كانون » Walter B. Cannon (١) • لقد ركز كانون الانتباه فى محاولته على تحديد المؤثرات الآلية الحرجة Critical Mechanisms التى تحفز وتحرض على البواعث الفسيولوجية •

---

(١) كانون ، وولتر برافورد (١٨٧١ - ١٩٤٥) استاذ علم الفسيولوجيا بجامعة هارفارد من سنة ١٩٠٦ - ١٩٤٢ ، ومن اهم مؤلفاته :

1) Bodily Cnange in Pain, Hunger and Fear. 1929.

2) Traumatic Shock, 1923.

3) The Way of an Investigator, 1945.

ومع أن هذه النظرية لدوافع الجوع تتمشى مع التجربة التى يسهل ادراكها وفهمها ، فثمة عـــدة أدلة مختلفة تدل على أن هذه التجربة الخاصـــة بالجوع والشعور به خاطئة غير صحيحة ، فمثلا لا يحس المرضى الذين تنزع أجزاء كبيرة من معداتهم بتقلصات فى المعدة بنفس دورات الاحساس بالجوع لدى الانســـان العادى ، وكنتيجة لهذا بدأ علماء الفسيولوجيا ، وعلماء علم النفس يبحثون عن محركات للدوافع فى الشبكة المركزية للاعصاب •

ويصف الدكتور « نيل ميللر » Neal E. Miller (١) فى بحث له تجارب تخلب اللب(٢) ، تـــدل على أن المؤثرات الآلية الحرجة التى يدرك بها المخلوق الحى أنه جائع أو أنه يحس بالظمأ انما توجـــد فى المنـــاطق تحت اللحائيـــة Subcortical Regions من المخ • ويقـــول ميللر : « ان فى عـــلم العقـــاقير النفسية Psycho-Pharmacology امكانيـــات عظيمة لزيادة تفهمنا للدوافع البيولوجية (للفأر والانسان) ، واننا نحاول أن نفتح فصـــلا جديدا مثـــيرا فى دراستنا وتفهمنا للسلوك » •

وليس هناك شك فى أن دراســـات مثل دراســـات الدكتور ميللر توسع مجالات معرفتنا لطبيعـــة الدوافع الفسيولوجية ، الا أنه بالرغم من أهمية هذه الدراسات فمثل هذا الاقتراب غير كامل نظرا لأن أغلب السلوك البشرى انما يستحث ويستمر بواسطة دوافع اجتماعية مدروسة أكثر مما يحدث من دوافع فسيولوجية(٣) •

---

(١) نيل ميللر .Miller. Neal. E « نيل ابلجر ميللر » ١٩٠٩ ـ درس بجامعة فيينا بعد تخرجه من جامعة ييل سنة ١٩٣٥ ، عمل فى عدة مراكز حكومية لابحاث علم النفس فى سلاح الطيران الأمريكى •

(٢) Central Stimulation and Other New Approaches to Motivation and Reward.

(٣) يناقش الدكتور روبرت سيرت فى بحث له بعنوان « تطور الشخصية فى الثقافة المعاصرة » أن الدوافع الاجتماعية تتطور •

على أن الدكتور ابراهام ماسلو (١) يوضح فى نظريته عن الدوافع البشرية بقوله « ان الدوافع البشرية قد ترتب فى تنظيم له معناه على أساس أن الطاقة التى لأحد الأبوين يمكن أن تنقل خاصيات معينة الى أطفاله ، أو قد يجىء هـذا الترتيب أحيانا عن طريق ظروف اضطرارية • ولكن الأخير يجىء بصفة خاصـة استجابة للحاجة الفسيولوجية أو للحاجة الى الامن والسلامة • ومع هذا فان المجتمع لو استطاع أن يوجد بيئة خيرة لكان من الممكن أن يتحرر الناس ليطوروا من حاجات احترام النفس ، والحب ، وواقعية النفس •

ويهتم ماسلو فى دراساته ببحث العوامل الاجتماعية بين الاشخاص ، تلك العوامل التى يمكن أن تسهل أو تكبت هذه الحاجات الاساسية • على أن ماسلو فى تفكيره فى سيكولوجية الدوافع البشرية يرى أن الدوافع الفسيولوجية نماذج قاطعة تدل على نقص فسيولوجى ، ويؤكد أننا « نحتاج » الى الحب كما « نحتاج » الى « الفيتامين ج » ، والشخص الذى تمتد جهوده الأساسية الى محاولة ادراك الشعور ، واحترام الذات ، أو الوصول الى الشعور بأنه موضع حب أشخاص آخرين ــ انما يفعل هذا نتيجة لنقص الدوافع على مثال ما يفعل انسان الغاب الذى يعيش فى الأحراش ، ويوجه كل جهوده للحصول على الغذاء •

ولقد سبق أن أشرنا من قبل الى الغرائز الاساسية التى تؤثر عـلى سلوك الانسان ، وذلك عند دراستنا للاحوال البيولوجية ، ولنبحث الان بطريقة أكثر تفصيلا السمات الموروثة •

---

(١) ماسلو ، ابراهام هارولد (١٩٠٨) : من رجـال التربيـة الأمريكيين ولد فى بروكلين عام ١٩٠٨ وحصل على الدكتوراه سنة ١٩٣٤ ، عضو عدة معاهد وهيئات لعلم النفس ، اهم مؤلفاته :

1) Principles of Abnormal Psychology, 1941.

2) Motivation and Personality, 1954.

3) Toward a Psychology of Being, 1962.

لقد كانت الغرائز حتى ربع قرن مضى من أكثر الامور الشائعة فى تفسير معظم السلوك البشرى والحيوانى ، ولكن علماء النفس فى الوقت الحاضر لا يعرضون للغرائز لأسباب مختلفة ٠

فلماذا طويت فكرة الغريزة وازداد اهتمامالعلماء بالدوافع ؟ لقد شعر الجميع أن لفظ الغريزة غامض الى حد ما ، وانه فى آخر الأمر لا يفسر حقا أى شىء بطريقة مرضية ٠ لماذا نحن جائعون ؟ لأن بنا غريزة الجوع ! ان ذلك التفسير يقدم لنا معلومات ضئيلة جدا ، فضلا عن أن علماء الاجناس كانوا يجمعون ببطء الدلائل على أن كثيرا من السلوك البشرى الذى يرجعه البعض الى الغريزة نشأ بسبب الأصل الثقافى ٠ وبالرغم من أن هذا الرأى ما زال قائما فيما يتعلق بالسلوك الحيوانى المعقد ، فان كثيرا من السلوك البشرى يمكن الآن تفسيره على أساس التدريب والخبرة ٠ وقد أشير فيما بعد الى أن كثيرا من سلوك الحيوان وسلوك الطفل هنا ليس أكثر من ردود فعل عادية وليس سلسلة معقدة من ردود الفعل كما تقترح نظرية الغريزة ٠

وهكذا يمكننا أن نتحدث الآن عن الدوافع على أساس أنها تعنى نفس ما تعنيه الغرائز ، ولكن نظرا لأنها أكثر غموضا فانها تقدم صورة أصدق عن النمط السلوكى ٠ ويجب التركيز هنا على أمرين فى سلوك ما :

١ ــ الدوافع : التى تنشأ مباشرة من احتياجات الجسم مثل : الطعام ، والأوكسيجين ، والنوم ٠

٢ ــ القلق : وهو الحالة التى يكون عليها الجسم عندما تصبح هذه الاحتياجات حادة ٠

وعند اشباع القلق المرتبط بالاحتياجات بطريقة خاصة تنشأ صلة بين الحاجة وبين الطريقة الخاصة لاشباعها وتحقيقها ، مثل تهدئة حالة الجوع عن طريق تناول الخضر فقط ٠

على أنه يجب علينا دراسة الدوافع من وجهة نظر السلوك الكلى وليس من وجهة نظر السلوك الجزئى • والسلوك الكلى يختص بأفعال السلوك الكلية مثل الزواج ، وبهذا نرضى حاجة الجنس بالشكل التقليدى • والسلوك الجزئى عادى ومنعزل نسبيا مثل البلع وافراز العرق • ان السلوك الناتج عن دافع ما يرجع الى الرغبة فى الامن الاجتماعى واشباع احتياجات اجتماعية معينة • ويمكننا أن نتساءل : « هل السلوك الناتج عن دافع يرجع الى الصفات الموجودة فى الميدان النفسى المباشر أم الى تأثير التجربة الماضية ونفوذها ؟ يجيب لوين(١) على ذلك بقوله : « ان الميدان النفسى يتكون من البيئة الطبيعية الخارجية ، والحالة النفسية الداخلية، وكذا الآثار العصبية للتجارب الماضية ، وبالرغم من أن الانسان هو سيد مصيره وقدره فى بعض الاحيان • فان ضغط العصور يقع عليه فى أحيان أخرى •• » •

وعندما لا يتم اشباع القلق الذى خلقته الاحتياجات فحينئذ يوجد توتر • ويختفى التوتر عندما تزول حالات التقلب وعدم الثبات من الميدان النفسى ، ولكن هذه الازالة قد لا تكون دائما أمرا ممكنا ، ويؤدى التوتر الذى لم يشبع الى خيبة أو فشل • وهناك ايمان عام بأن الفشل يؤدى دائما الى نتائج سيئة ، ولكن أحيانا قد تكون النتائج طيبة • فمثلا قد يؤدى الفشل الى زيادة المجهود ، كما أنه أيضا قد يؤدى الى قيام بصيرة أعظم فى المجال الادراكى والى تفهم أكبر له • وقد يفتح الفشل أعيننا على نواحى القصور فى قدراتنا ، وبهذا يمنعنا من اضاعة طاقاتنا فى سبيل الاهداف المستحيلة ، وقد يساعدنا على أن نركز آمالنا على مستوى معقول لتحقيقها • فالفشل فى احدى الامتحانات لدى أول محاولة قد يجعل الطالب يعمل بجد أكثر من ذى قبل وبذلك ينجح بدرجات مشرفة فى المحاولة الثانية ، أو قد يجعله يتخلى عن هذا الخط الدراسى ، ويتخذ له اتجاها آخر مختلفا قد يثبت فى النهاية أنه أكثر فائدة بالنسبة له •

---

(١) لوين كورت Kurt Lewin من علماء علم النفس الاجتماعى الامريكيين ، صاحب تجربة المطابقة Conformity لاثبات ان من الخطا تطبيق نتائج عملية ما على مواقف لا تصلح لها ، او تطبيق النتائج التى امكن الحصول عليها من بيئة ما على بيئة اخرى مع توقع نفس النتائج ، على ان التجربة اثبتت من ناحية اخرى ان وجهات نظر الفرد قد تتغير بتغير البناء الاجتماعى الذى يكون الفرد مؤديا دوره فيه •

ومن ناحية أخرى يؤدى الفشل غالبا الى طراز أو شكل غير سار من العدوان، فمثلا اذا أصابك الفشل بضر في أحد المجالات فانك قد تحاول أن تعوض ذلك بالحاق الأذى بشخص آخر في مجال آخر • فالرجل الذى احنقه رئيسه في المكتب وأثار فيه خيبة الأمل قد يعود لمنزله ويضرب ابنه • كما قد يحدث ارتداد ونكوص ، فاننا اذا أصابنا الفشل في تقدمنا نحو هدف معين فقد نرجع القهقرى الى نوع من السلوك أكثر بدائية أو أقل تعقيدا من سلوك الاطفال • ومن الأمثلة الدالة على ذلك أن تبدأ في الصراخ عندما تفشل في فهم معنى فقرة معقدة في كتاب ، أو أن تصرخ في وجه شخص يرفض أن يعطيك شيئا تود الحصول عليه منه • وقد يتناقش أحد الدبلوماسيين في السياسة الدولية على مستوى عال جدا مع زميل دبلوماسي آخر من دولة أخرى ولكنه يجد أن الامور لا تسير وفق هواه ، فيهبط فجأة الى مستوى الذم السوقى •

وفي النهاية قد ينسحب الانسان كلية من الموقف الذى شعر فيه بالفشل • وليس هذا سيئا بالدرجة التى يبدو بها على شرط أن يكون ذلك قد حدث في مرحلة تمهيدية ، وسرعان ما يدخل في موقف آخر أقل احتمالا للفشل • ولكنه ينبغى ألا يحمل معه الى الموقف الجديد المخاوف التى سببها الفشل في الموقف القديم ، أو يتخذ موقفا أشد خطورة ، بان يغلق نفسه عن المجتمع ويبتعد عن كل المواقف•

ويقول نيوكومب Newcombe (١) : « ان الدوافع مثل الألفاظ غير الفنية « يريد » و « يرغب » • ان مثل هذه الالفاظ تشير الى كل حالتنا الداخلية من التبرم والسخط وعدم الرضا ، أو القلق أو التوتر أو عدم التوازن ، كذا الى

---

(١) تيودور ميد نيوكومب ، حصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا سنة ١٩٢٩ ، استاذ علم النفس والاجتماع بجامعة ميتشيجان منذ سنة ١٩٤٦ عمل في منظمة العمليات الاستراتيجية « المخابرات الأمريكية » في صيف ١٩٤٤ ثم في قسم الروح المعنوية بادارة التدمير الاستراتيجى للسلاح الجوى الامريكى سنة ١٩٤٥ ، رئيس تحرير مجلة علم النفس منذ سنة ١٩٥٣ ، اهم مؤلفاته :

1) Experimental Social Psycology, 1937.

2) Personality and Social change, 1943.

3) Social Psycology, 1951.

ما يوجد فى البيئة مثل : الطعام أو الى آلام ، أو حل معضلة والى غير ذلك • ان الدوافع تشير الى كل من العوامل الداخلية ، والخارجية » •

والدوافع ليست عملية سهلة فى دراستها • ولقد أشار سارجنت ووبلياسون الى مشكلات معينة فى هذا الصدد يستحسن أن نضعها نصب أعيننا :

١ ـ انهـا عملية صعبة لأنها تتعلق « بأسباب » وليس « بكيفية » أو « ماهية » السلوك • كما أنها تختص بالتفسير أكثر من اهتمامها بالوصف • وكما يعرف كل عالم أو فيلسوف تماما ، فان البحث عن الأسباب لهو من أكثر أوجه النشاط التى تبعث على الحيرة وتؤدى الى الفشل ، وفى نفس الوقت هى مشوقة وجذابة وهامة •

٢ ـ اننا لا يمكننا بصورة مباشرة أن نلاحظ الدوافع التى تتولد لدينا ، ويمكننا فقط أن نستدل على وجودها من السلوك الخارجى • فاذا واظب رجل على تكديس الممتلكات فاننا نقول أن لديه رغبة التملك • ولكن وجه الخطورة فى تكوين مثل هذا الغرض هو أن الناس قد يقومون بنفس العمل نتيجة لدوافع مختلفة • فقد يقوم شخص بتكديس الأموال لمجرد متعة التملك ، كما قد يقوم آخر بالتصرف فيها فيما بعد فى أعمال الخير ، وقد يفعل ذلك ثالث من أجل الشعور بالأمن •

٣ ـ ما زال هناك بعض الابهام والالتباس بصدد معنى كلمة « دافع » Motive هل هى « قوة داخلية » مثل الغرائز القديمة ؟ هل هى الى حد ما استجابة للظروف الخارجية ؟ هل هى نزعة عرضية أو نزعة خاصة ؟ وهل الدوافع منفصلة عن الاتجاهات والعادات والعواطف والاهتمامات والعمليات الاخرى أو مكتنفة بها ؟

هذه كلها أسئلة من الصعب الاجابة عنها ، ولكنها قد تهدينا فى محاولة الوصول الى حل سهل ومعقول •

الادراك Perception :

ويمكن أن نسأل الآن : ما الذى يثير الدوافع ؟ فى الواقع نجد أن الادراك يلعب دورا كبيرا خلف هذه الدوافع ، وهو يعتمد أولا على طبيعة الحواس • فمثلا لا يستطيع الكفيف أن يدرك حيوانا مفترسا أمامه ، وعلى هذا فانه عندما يواجهه لا تكون لديه الدوافع التى تعمل على سلامته وأمنه ، اللهم الا اذا كانت لديه حاسة أخرى تساعده على ذلك كالشم والسمع مثلا ، كما يعتمد الادراك على العوامل المثيرة أو المواقف التى تؤثر على أعضاء الحواس ، وأخيرا يجب ألا ننسى موقف الشخص وقت الادراك • فمثلا قد يستسلم الشخص المكتئب أو اليائس الى حيوان مفترس بدلا من أن يهرب منه أو يدافع عن نفسه •

وتؤثر العوامل الاجتماعية على ادراكنا ، ولتفسير ذلك بطريقة سهلة نقول : اننا غالبا نرى ما يجبرنا المجتمع على أن نراه ، أو نفشل فى رؤية ما لا يرغب لنا المجتمع أن نراه ، ففى المجتمعات المقفلة حيث توجد تقاليد موروثة صارمة لحجاب المرأة يعتبر اهانة شديدة ومساسا للكرامة أن تظهر المرأة سافرة ، أو أن تشارك الرجل فى أعمال عامة •

والواقع أننا نميل لرؤية الأشياء بصورة مختلفة ونحن فى صحبة جماعة عما نكون ونحن بمفردنا • ويرجع هذا الاختلاف الى « الرأى العام » أو الى نفوذ الناس الآخرين علينا • ولكن استجابتنا لهذه التأثيرات الجماعية ليست مطلقة ، وانما تقف عند حد معين ، ولذا فنحن لانستطيع أن نتغاضى عن قيمة ادراك الفرد • لقد أيد ذلك كل من سارجنت ووليم سن بقولهما : « يدرك كل فرد الموقف ويفسره عن طريق قدراته الحواسية ، ومدى اتجاهه ، وخبرته الماضية ، ودوافعه ، واتجاهاته ، وتنبؤاته ، وما الى ذلك ، أى حسب نمطه الفريد من الخبرة والشخصية » •

وقد قام جودمان Goodman (١) بعمل تجربة على مجموعتين من الأطفال : احداهما فقيرة ، والأخرى متيسرة الحال ، وطلب من كل منهما أن تقدر حجم قطع معدنية من العملة قدمت اليها •

لقد وجد أن أطفال المجموعة الفقيرة زادت من تقديرها لحجم قطع العملة بدرجة كبيرة بمعنى أنهم كانوا يتصورون أن حجم قطعة العملة أكبر مما هى عليه فعلا ، بينما أطفال المجموعة المتيسرة لم تكن نزعتهم على هذا النحو • وكانت الفروق فى الادراك فيما يتعلق بهذا الامر بين الجماعتين مثيرة جدا ، وقد يفسر ذلك أثر الحاجة على الادراك بطريقة واضحة جدا •

وأجرى مثل هذه التجربة عام ١٩٤٧ ، اذ طلب الى مجموعتين من الأطفال أن تقوم كل منهما بتمرينات وحركات جسمانية أمام فصل من الفصول • وكان أطفال الفصل يعرفون أفراد الجماعتين معرفة جيدة ، فاحداهما كانت محبوبة ، والاخرى لا يميل اليها تلاميذ الفصل • وقد صار تكليف الاطفال فى المجموعة الأولى أن ترتكب بعض الأخطاء فى « تمرينهم » عمدا ، بينما أدت المجموعة الثانية تمريناتها دون ارتكاب مجرد خطأ واحد ، ومع ذلك فعندما طلب الى الفصل أن يقدر أى الأداءين كان أفضل ، كانت النتيجة أن وضعت المجموعة التى يميل اليها التلاميذ فى التقدير قبل المجموعة الاخرى •

ان دراسة الادراك أمر على جانب كبير من الاهمية لعلم النفس الاجتماعى ، لان اتجاهات الناس يمكن أن تتغير • ومن المهام الرئيسية لعالم النفس الاجتماعى أن يحاول على الاقل احداث مثل هذه التغييرات ، ولكن لكى نغير اتجاها ما يجب علينا أولا وقبل كل شىء أن نغير مفهوم الاشياء التى يبنى عليها هذا الاتجاه • وتغيير الاتجاه يعنى أيضا اعادة تنظيم الادراك •

---

(١) جودمان نلسون : فيلسوف امريكى ، ولد فى سومر فيل بولاية مساشوتس ٧ من اغسطس سنة ١٩٠٦ حصل على الدكتوراه من هارفارد سنة ١٩٤١ يعمل استاذا محاضرا فى هارفارد منذ سنة ١٩٥١ ، عضو الجمعية الأمريكية للمنطق ، أهم كتبه :

1) The Structure of Appearance, 1951.

2) Fact, Fiction and Forcast, 1955.

ان الادراك الاجتماعى هو المهارة التى نكتسبها من فهم : الدوافع ، والنوايا ، والذكاء ، والصفات الأخرى للأشخاص الذين نتصل بهم . ولهذا أهميته القصوى لأنه ما لم نفعل ذلك فلن نستطع أن نكيف سلوكنا لمواجهة احتياجات الظروف الخاصة التى تنشأ عندما يتجمع الناس. ان الشخص الذى يفتقر الى ادراك اجتماعى يحاول مثلا أن يمزح مع شخص فى حالة نفسية سيئة. ولسوف يقول بصفة مستمرة الشيء الملائم فى الوقت غير الملائم ، أو بالعكس يقول الشيء غير الملائم فى الوقت الملائم . ومثل هذا السلوك لن يجعلنا فقط أعضاء غير محبوبين فى المجتمع بل أنه أيضا سوف يعوق بدرجة كبيرة ازدهارنا المادى فى هذا العالم. على أننا نرى أنه لكى تكتمل الصورة لابد أن نشير الى مدرسة من مدارس علم النفس كان لها الأثر الكبير على نظرية السلوك . هذه المدرسة هى مدرسة السلوكية «Behaviourism» .

أثر ظهور المدرسة السلوكية :

السلوكية « تصور » أو « ادراك » لعلم النفس قدمه منسقا فى البداية الدكتور جون واطسون[1] فى سنة ١٩١٣ ، وكان لب هذا التصور « الأعمال الموضوعية للكائن البشرى التى يمكن ملاحظتها » .

(١) جون برودس واطسون John Broadus Watson (١٨٧٨-١٩٢٨) ولد بجرانفيل فى ٩ من يناير ١٨٧٨، حصل على الدكتوراه من جامعة شيكاغو ١٩٠٣ عمل استاذا لعلم النفس فى جامعة هوبكنز من ١٩٠٨-١٩٢٠ ثم انصرف الى الأعمال الخاصة. قام بعدة تجارب فى سيكلوجية الحيوان والطفل.

وقد فسر واطسون نظريته عن « السلوكية » بانها تجعل علم النفس الفرع التجريبى الموضوعى من علم الطبيعة بتحديده لدراسة العلاقة بين الحوادث البيئية « الحافزة » وبين السلوك « الاستجابة » ، ومن مستنتجاته :

(١) السلوك الواعى ناتج عن الانعكاسات المشروطة لظروف خاصة (بافلوف) .

(٢) يقل التفكير والتصور الى « ارجاع مبهم » للاستجابات الأصلية المتضمنة فى (الكلام) وغيره من صور السلوك الحركية .

(٣) يمكن توجيه الطفل المعافى صحيا ، الذى يحسن تعليمه فى اتجاه معين تبعا للمؤثرات البيئية . من أهم كتبه :

1) An Introduction to comparative Psychology.

2) Psychology From a Standpoint of a Behaviourist.

3) Behaviourism.

دائرة المعارف البريطانية ٢٣ : ٣٥ سنة ١٩٦١ .

ولقد فهم علم النفس في البداية على أنه «علم الوعي» أو «علم الادراك» والتجربة أو العقل ، وعلى حين لم تستبعد أوجه النشاط البدني فان قيمتها الكبرى هي في علاقاتها مع المظاهر العقلية ، وهكذا كان الاسلوب المميز لعلم النفس هو « فحص النفس » أو ما يسمى « التأمل الاستبطاني » Introspection •

ومن ثم فان « السلوكية » من كلمات واطسون نفسه :

« حاولت أن تعطى بداية جديدة خالصة لعلم النفس نابذة النظريات المعاصرة والنظريات القديمة(١) ، ومتخلصة كذلك من كل المصطلحات والتعاريف القائمة » •

وهكذا نبذت فكرة « فحص النفس » أو « التأمل الاستبطاني » ، واعتبر أن مثل هذه الأشياء التي تلاحظ لا تكون مقبولة الا اذا تمت بوساطة مراقبين مستقلين عن بعضهم البعض ، كل منهم يلاحظ ويراقب نفس الغرض او نفس الحادث ، وذلك على مثال ما يتم في علم الكيمياء • وفي ضوء هذا ، فان علم النفس يكون فرعا موضوعيا تجريبيا لعلم الطبيعة •

ولقد سأل السلوكيون أنفسهم : لماذا لا يجعلون ما يستطيعون ملاحظته الميدان الحقيقي لعلم النفس ؟ وهكذا حددوا لأنفسهم الأشياء التي يمكن ملاحظتها وصاغوا القوانين لهذه الأشياء وحدها ، ثم تساءلوا عما يستطيعون ملاحظته • انهم يلاحظون « السلوك » ، ويلاحظون كل ما يمكن أن يقوله الانسان البشرى أو ما يمكن أن يفعله • واذن فلتكن هذه هي النقطة الاساسية الرئيسية •

ان الكلام « فعل » وهو كذلك « سلوك » ، وسواء أكان « الكلام » حديثا اعلانيا مكشوفا ، أو كان تفكيرا في أعماق النفس فهو نوع من السلوك • وكانت

---

(١) John B. Watson, Psychology from a Standpoint of Behaviourist, 3 rd ed. P. Y. Lippircott, 1929.

وسيلة القياس التى وضعها الاخصائى فى السلوك أمامه دائما هى : هل يمكن وصف كل نوع من أنواع السلوك الذى يمكن أن يراه على أساس « الباعث أو المحرك » وعلى أساس « الاستجابة » ؟

كان ما يقصده بكلمة « الباعث » أو الحافز هو أى شىء له أثره فى البيئة العامة أو أى تغيير فى التكوين نفسه تبعا للاحوال الفسيولوجية للحيوان على مثال التغيير الذى نحصل عليه عندما نحول دون هذا « الحيوان الحى » ودون النشاط أو الممارسة الجنسية ، أو عندما نمنعه من الغذاء • ويعنى « بالاستجابة » أى شىء يفعله الحيوان مثل « الاتجاه بوجهه » نحو الضوء أو « الاشاحة » بوجهه بعيدا عنه ، أو الوثوب عند سماعه صوتا مفاجئا •

وهنا قد نستطيع أن ننفلت من هذا السياق لنؤكد أن كل فرد منذ طفولته يبدأ فى تكوين السلوك ، فالطفل الصينى يستخدم عضوين لالتقاط الأرز ، ويرتدى ثيابا خاصة ، ويتعلم كيف يتكلم الصينية ، ويجلس بطريقة خاصة ، ويعبد أسلافه وما شابه هذا منذ طفولته ، وفى المقابل يستخدم الطفل الغربى المسيحى منذ حداثته الشوكة ، والسكين ، ويرتدى ثيابا من طراز معين ، ويتعلم القراءة والكتابة والحساب فى طابع معين ، ويذهب الى الكنيسة •

ولكن المفروض أنه ليس من وظيفة « العالم السلوكى » أن يناقش ما اذا كانت هذه الأشياء التى يفرضها المجتمع تدفع أو تعطل من نمو الفرد أو من تكيفه وتواؤمه داخل المجتمع •

فالسلوكى يعمل تحت سلطة « انتداب » يتولاها المجتمع نفسه ، ولهذا فانه قد يجد فى طاقته أن يقول للمجتمع : « لو قررت أنت أن العضو البشرى يجب أن يسلك هذا السلوك المعين فانه يجب أن تعد المواقف اللازمة من أنواع خاصة معينة ككذا وكذا » •

ومهما بدت هذه المقترحات والآراء صريحة فقد كان لها تأثير ثورى على علم النفس ، وكذا على علم الاجتماع ، ثم على فكرة الانسان عن نفسه •

وفى الفترة من سنة ١٩٣٠ الى أواخر الأربعينات تطورت السلوكية الى ما يسمى « السلوكية الجديدة Neobehaviourism » فقد انتقل صولجان واطسون(١) الى هل(٢) Hull الذى حاول أن يترجم برامج الفروض العلمية العامة للسلوكية الكلاسيكية الى نظرية تجريبية تفصيلية للسلوك المتكيف «Adaptive» ، وكان القصد تحقيق الكشف عن قوانين أصولية كمية يمكن منها أن نستنبط بدقة المظهر الرئيسى للسلوك •

وقد تأثر الانتقال من السلوكية الكلاسيكية الى السلوكية الجديدة أو السلوكية العصرية الحديثة بوساطة استخلاص مجموعة من الفروض أو الفتاوى من فلسفة العلم نفسه ، مثل تحليل منطقية الفلسفة الموضوعية أو الوضعية(٣) والتى تعنى بطبيعة النظرية العلمية الصحيحة •

ولكن هل لم تكن الشخصية السائدة فى هذه الفترة فى الصورة التى كانت لواطسون فى فترة السلوك الكلاسيكية اذ كان لكثيرين مثل ادوارد تولمان و أ•ر • جوثرى ، وايجون برونزيك ، ونيل ميللر نفوذ هام وأثر كبير •

ولقد انحرف كثيرون من أصحاب مدرسة السلوكية الحديثة المعاصرة عن الطريق المرسوم فى الكثير من المشكلات والنظريات ، ولكن كانت دراستهم تنتسب الى السلوكية الحديثة نتيجة اتباعهم للاسلوب الموضوعى •

ويمكن أن يقال : أن هذه الفترة تميزت بالجهد فى صياغة التحليلات الصلبة ، وفى وضع « قوانين » السلوك بأكثر مما عنيت به السلوكية الكلاسيكية •

---

(١) يجب ملاحظة ان واطسون مات سنة ١٩٢٨ •

(٢) س•ل هل من علماء النفس الامريكيين ومن اهم كتبه الحديثة عن السلوكية :

1) Priniciples of Behaviour, 1943.
2) Essentials of Behaviour, 1951.
3) A Behaviour System, 1952.

واهمية هل فى الواقع ترجع الى انه عمل على تفسير برامج واطسون الى نظريات تفصيلية•

(٣) الفلسفة التى تبحث فى الظواهر دون الاسباب Positivism

على أننا نستطيع أن نميز مرحلة ثالثة بدات سنة ١٩٥٠ ، بظهور اتجاه نحو : تحرير عقيدة العالم السلوكى ، وتحرير ادراكه وتصوره المنسق ، مع الاهتمام من جانب الكثير من السلوكيين بمشكلات مثل : الادراك الحسى ، الشعور ، البصيرة ، التمييز ، والتى كان العلماء يمرون بها فى الماضى دون التوقف عندها ، على أساس أنهم نسبوها الى مجال العقل ، كما يمكن أن نرى ترحيبا لاستخدام الأساليب التأملية بوساطة أشخاص كانوا من قبل لا يرون صحة هذا الامر ٠

وقد تطورت النظرية السلوكية وطبقت على كل فترات تطور الانسان وكذلك سلوكه العام ، وميوله الاجتماعية السياسية ، بل امتدت الى تفسير ظهور الامراض النفسية والعقلية وكيفية علاجها وذلك بفضل العالم الانجليزى ايزنك(١) ٠

العلم والدين :

أثارت العلاقة بين العلم والدين انتباه الكثير من الفلاسفة والمفكرين ، وكان من نتيجتها ظهور بعض الكتابات الواهية العواطف ، والأهم من هذا كله كانت هذه العلاقة سببا فى الارتباك الشديد الذى اعترى عقول الناس حول القيم التى يعيشون وفقا لها ٠

واشتد الصراع بين الدين والعلم ، وظهرت المذاهب والمدارس الفلسفية المختلفة ، فمنها من نادى بامكان التوفيق بينهما ، ومنها ما رأت استحالة ذلك ، ومنها ما آمنت بوجود الله ولكنها تقيده بقوانينه او تقيده بنواميس المادة والقوة ، او تتطرف فى نزعتها فتزعم أنه من ثمرات التطور فى الكون الشامل ٠ الى غير ذلك من الفلسفات المختلفة التى عرفها الانسان عبر التاريخ ٠

---

(١) Eysenck, H. J., Cyclothymia and Schizothimia as a Dimension of Personality, Journal of Personality, XIX, Durham, N. C, 1950, PP. 123 - 52.

وفى محاولتنا للتعرف على هذه المشكلة نرى من المناسب أن نعرض باختصار لبعض هذه الفلسفات والمدارس التى توضح لنا كيف تنظر الجماعات المختلفة الى العلاقة بين الدين والعلم ، وهل فى استطاعة الانسان أن يوفق بينهما بغية الوصول الى دين أعمق وعلم أفضل ؟

يقول الفريد نورث هوايتهيد Alfred North Whitehead (١) : « أنه على الرغم من تقلص نفوذ الدين أحيانا وزيادته أحيانا أخرى ، فقد تقهقر مركزه فى العالم . ان سلطانه يهبط جيلا بعد جيل . ويقول هوايتهيد ان الدين يميل الى أن يفقد نفوذه حتى يصبح عبارة أو قاعدة مناسبه تضفى بعض التنميق على حياتنا • ففى خلال القرنين الماضيين يقف الدين موقف الدفاع ، بل اتسم موقف دفاعه بالضعف » •

ويعقد هوايتهيد مقارنة بين الموقف حيال العلم، والموقف حيال الدين بقوله : « فمثلا اذا أعلن داروين أو اينشتاين نظريات جديدة اعتبرنا هذا انتصارا للعلم. ان الجديد فى العلوم ـ وهو فى الوقت نفسه تفنيد للماضى ـ يعتبر تقدما • أما الانتقال من موقف دينى الى موقف دينى آخر فينظر اليه على أنه هزيمة للدين • ولن يستطيع الدين أن يستعيد سطوته الأولى الا اذا استطاع أن يواجه التغيير بنفس الروح التى يواجه العلم بها التغيير • وقد تكون مبادئه أبدية ولكن التعبير عن هذه المبادىء يحتاج الى تطور مستمر » • ومن ثم فان هوايتهيد يؤمن بالتوفيق بين العلم والدين ولكنه يرى أن العلم أكثر قابلية للتغيير والتطور من الدين •

---

(١) فيلسوف رياضى واقعى (١٨٦١) يعرف مذهبه بمذهب « الكيان العضوى Organism ومدرسة « الواقعية الحديثة » ، وهو يقول : ان الكون كله « كيان عضوى » كالبنية الحية فى تركيب اجزائه وان كل ما فيه من كيانات عضوية لها طبيعة الاجسام الحية فى تجمع الأعضاء وتساند الوظائف العضوية • وهو يتخيل أن الله له مكان فى هذا الكون ولا يتم لهذا الكون حقيقة لغيره ، ولكن الله فى هذا الكيان العضوى الأعظم انما يتولى التعديل والموازنة فيه على النحو الذى يتولاه دماغ البنية الحية •• فهو يريد ويفعل ، ولكنه لا يريد كل ما يشاء ، بل تاتيه دواعى الارادة احيانا من تلك البنية ، كما تاتيه منها دواعى العمل وميسرات التدبير والتصريف •

والواقع أن الخلاف بين الدين والعلم خلاف شكلى وليس جوهريا ، اذا نظرنا اليه نظرة عميقة رسخ ايماننا وازداد علمنا ، وللدلالة على هذا القول نعطى المثل التالى :

« قال جاليليو : ان الأرض تتحرك وأن الشمس ثابتة، وقالت محكمة التفتيش: أن الأرض ثابتة وأن الشمس تتحرك • ويقول أتباع نيوتون الفلكيون ان كلا من الأرض والشمس فى حركة • أما فى الوقت الحاضر فاننا نقول : أن كل ما سبق حقيقى وسليم بشرط أن تثبت معنى « الوقوف » و « الحركة » بنفس الطريقة التى تتطلبها الحقيقة السابقة • وفى الوقت الذى قام فيه النزاع بين جاليليو ، ومحكمة التفتيش كانت الطريقة التى نادى بها بهذه الحقائق ثمرة من ثمار البحث العلمى • ولكنها فى حد ذاتها لم تكن صحتها تزيد على صحة ما جاء فى كلام لجنة التفتيش• ولكن الافكار الجديدة الخاصة بالحركة النسبية لم تكن عرفت بعد ، ولهذا فان التصريحات التى كانت تعلن افتقدت المواصفات المطلوبة لاثبات صحتها • ولكن موضوع حركة الارض وحركة الشمس يعبر عن حقيقة واقعة من حقائق الكون • وكان لكل طرف من هذه الاطراف نصيب من هذه الحقائق الهامة • ولكن لقلة معارف ذلك العهد كانت الحقائق تبدو مفككة » •

ويناقض هوايتهيد ومدرسته فلسفات أخرى ينادى بها أولئك الذين يعملون فى حقل الدين أو العلم • اذ يرى بعض رجال الدين أن تفسيراتهم هى السلطة النهائية والمرجع الأخير ، وأن العلم يعتبر خاطئا اذا ناقض المعتقدات الدينية ، ويعتقد كثير منهم أن العلم هو العدو الحقود • وعلى عكس ذلك يعتقد بعض العلماء أن أى نوع من الدين خاطىء وأنه استمرار لخرافات العهود السالفة • انهم يؤمنون أن العلم حقيقة وأن الدين بلاهة •

ويمثل هذا الموقف تمثيلا بارزا جوليان هكسلى Julian Huxley (١) حيث يرى ألا سبيل الى الايمان فى الدين وفى العلم معا • انه يقول : « ان طريقتى

---

(١) هكسلى : جوليان سوريل هكسلى (١٨٨٧) حفيد توماس هنرى هكسلى كاتب انجليزى من علماء علم الاحياء وكان جده الذى مات سنة ١٨٩٥ احد العلماء الانجليز فى علم الاحياء •

الدين والعلم فى دراسة الكون والتفكير فيه لا يمكن التوفيق بينهما • ان عـدم امكان التوفيق بينهما يشبه تماما عدم امكان التوفيق بين السحر وبين الزراعة العلمية ، وبين الطب والعلاج بالسحر ، وبين مذهب الباطنية وبين علم الرياضيات العليا » • ثم يمضى فى كلامه فيقول : « ان تعميم نظرية نيوتون الخاصة بالجاذبية مكننا بل جعلنا نستغنى عن فكرة الله الذى يوجه النجوم كلا فى مجراه • ان تعميم فكرة داروين الخاصة بالارتقاء الطبيعى مكننا بل جعلنا نستغنى عن فكرة الله الذى يوجه تطوير الحياة • وأخيرا ان تعميم علم النفس الحديث ودراسات الدين المقارنة مكننا بل جعلنا نستغنى عن فكرة الله الذى يقوم بتوجيه الاجناس البشرية عن طريق الالهام وغيره » •

ويجدر بنا هنا أن نشير الى الفلسفة المادية التى تقول : انه يجب على الانسان أن يختار بين العلم ، والدين •

الواقع أن النزاع بين الدين والعلم يبدو واضحا خلال تاريخ الفكر الانسانى ؛ ففى بداية التاريخ الأول كان الناس ينقسمون الى فريقين : فريق يثق فى العقل الانسانى على أساس أنه هو وحده الذى يستطيع تفسير العالم • وفريق يلجأ الى تفسيرات فوق عقل البشر ويستخدم نواحى الايمان العاطفية •

الفريق الأول هم الماديون والملحدون • والفريق الثانى هم دعاة المثل العليا بأشكالهم المختلفة •

لقد أوضح ماركس وانجلز وخلفاؤهما كيف نشأت العقائد الدينية فيقولون: « ان الأديان هى ثمرة العقول الانسانية • ففى عصرنا الحالى تهتم الطبقات الحاكمة بالاحتفاظ بالاديان حتى تستطيع تأمين امتيازاتها • ان البورجوازيين القابضين على زمام السلطة يستغلون الاديان حتى يعموا بصائر الشعب • ان الاديان هى الأفيون الذى يتعاطاه المظلومون » •

« ما التناقض الداخلى الموجود فى الرأسمالية ؟ فطبقا للنظام الرأسمالى تكون طريقة انتاج السلع المادية اجتماعية جماعية ، بينما ملكية أدوات الانتاج ظلت

خاصه • ومن ثم كانت الازمات المتكررة المزمنة ، وبالتالى قامت الحروب • والحروب تعجل بنهاية الرأسمالية لأن الرأسمالية تحمل فكرة الحرب بين طياتها كما تحمل السحب عناصر العاصفة داخل طياتها •

ان المادية هى فلسفة العلم وتطبيقاته والعلم وحده هو القادر على تفسير العالم » •

وبين هؤلاء الذين يؤمنون بعدم وجود استحالة للتوفيق بين العلم والدين ، وبين الذين يؤمنون بضرورة اعتناق الواحد وطرح الثانى ، يوجد فريق ثالث يحاول أن يوفق بينها • انهم يؤمنون فى اله يختلف كل الاختلاف عما يعرضه أى دين ، انهم يؤمنون بوجود قوة خلاقة توجه هذا الكون • انهم يؤمنون بالدين ولكنهم يفندون الدين • انهم يؤمنون بالعلم ولكنهم يندون بالعلم • وينعت أعداء هذا المذهب بانه روحانية علمية أو أنه خروج على الدين ، بينما يقول أنصار هـذا المذهب : انه حل توصل اليه تفكير الانسان لأزمة أو مازق ، ويمثل هذه الطائفة الأخيرة روبرت ميليكيان (١) •

يقول ميليكيان : « لا يمكن أن تتأثر وظيفة الدين المسيحى أو يتأثر ايمانى بالمسيحية مثقال ذرة لو اكتشفنا أنه لم يكن هناك شخص اسمه المسيح فاذا كانت الأفكار والمثل العليا التى مثلها قد نبتت من تلقاء نفسها فى عقول الناس كانت النتيجة أكثر عجبا وأكثر الهاما مما هى الآن لأنهـا تبين كيف أن روح المسيح أكثر انتشارا فى جميع أرجاء الأرض مما ندرك » •

وهناك جماعة أخرى تسمى « اللاادرية » تقسم نفسها الى فريقين وان كانا يتداخلان فى أشياء كثيرة • يفكر الفريق الاول فى الكون ويصل به تفكيره الى أنه ليس هناك ما يمكن معرفته عنه على وجه الدقة • أما الفريق الآخر فيقبل الكون على علاته ولا يسأل نفسه كيف أو لماذا ؟ أنهم لا يقبلون الدين ، أو الالحاد ، أو أى طريق وسط ؛ فكل شىء سواء •

---

(١) ميليكيان ، روبرت اندروز (١٨٦٨ ــ ١٩٥٣) عالم امريكى من علماء الفيزياء والفلسفة الطبيعية حصل على جائزة نوبل سنة ١٩٢٣

وفى زحمة الحياة وغليانها نجد المواقف بين الدين والعلم تعمد الى الشد والجذب فمن قائل : « لا أستطيع أن أتصور وجود اله يكافىء ويعاقب من خلقهم بعد أن جعل أغراضهم من أغراضه • اله ليس الا انعكاسا لضعفهم • كما لا أستطيع أن أومن بأن الفرد يحيا بعد موت الجسد برغم أن هناك كثيرين من ذوى الأرواح الضعيفة يؤمنون بمثل هذه الأفكار نتيجة : اما للخوف، واما للأثرة الدينية. يكفينى أن أفكر وأتأمل فى لغز الحياة التى تدوم الى الابد ، وأن أفكر فى البناء المدهش لهذا الكون الذى نراه بغير وضوح ثم أحاول بكل تواضع أن أفهم جزءا صغيرا أو متناهيا فى الصغر من مظاهر الطبيعه » •

ومن بين كل هذه الاراء المتضاربة يظهر اتجاه دينى يلقى اللوم على العلم لأنه كان سبب حدوث كوارث الحروب ، ولأنه يسير فى طريق مستقل عن تعاليم الدين •

وفى رأى الكنائس المسيحية أن الحربين العالميتين تدلان على أن العلم لم ينجح فى مهمته • وهى تطالب بالعودة الى الدين كحل للمشكلات الاجتماعية •

اما العقلية العلمية فتتقدم برأيين : الاول ان الدين فى تاريخه الطويل لم يكن أداة للسلام ، الآخر أن الميادين التى سادها فساد التنظيم والخصام هى الميادين التى لم تطبق فيها الطريقة العلميه •

وبين هذه المواقف المتعارضة بين الدين والعلم يشعر الشخص العادى بعدم الامان • ألم يعمل العلم على اطالة عمره ؟ وفى نفس الوقت ألم يكن العلم هو الذى تسبب فى قيام حروب أكثر وحشية من الحروب السابقة ؟ ألا يهيىء له العلم وسائل الراحة فى حياته ؟ ولكن ألم يسبب الانتاج الواسع مشكلة البطالة ؟ ألا يعين الدين على انقاذ الروح ؟ ثم أليس الدين هو الذى يشهر بالعلم الذى يهيىء للانسان الامان المادى الذى يشتهيه ؟ الا يبشر الدين بالاخاء بين الناس ؟ ولكن أين قام الدين بمعارضة السياسة التى تدفع أمم العالم الى الحرب ؟ ألا يندد الدين بمن لا يؤمنون بالخالق ؟ ولكن ألا يسخر العلم ــ الذى أنتج القنبلة الذرية واستكشف الفضاء ــ من هذه الأفكار ؟

هذه آراء لبعض الفلسفات والمذاهب التى عالجت العلاقة بين الدين والعلم وهى تشير الى أن الدين والعلم قوتان كبيرتان لهما تأثير فعال فى حيـاة الانسان وسلوكه • وعلى الرغم من أن هناك تباينا وخلافا فى وجهات النظر بصدد العلاقة بينهما ، فنحن نرى أنه ليس من المحال التوفيق بين الدين والعلم ، بل أن التوفيق بينهما أمر واجب على كل انسان عاقل ، وذلك هو السبيل الوحيد لانتشاله من الارتباك والحيرة والجهل ، الى الايمان والاستقرار والعلم •

وفى هـذا العصر الذى نعيش فيه اليوم ، والذى يتسم بالتقـدم العلمى والاكتشافات الخارقة ، تظهر فى العالم موجة من الالحاد تلقى فى النفس الشك والقلق •

ونحن نقول : ان الايمان بالله اذا كان فى العصور الغابرة ايمانا غيبيا ، فان العلم فى هذا العصر عمقه وحققه ودعمه • ان هذا الايمان يقوم على أساس راسخ من العلم ، والمعرفة ، والعقيدة الحقة •

ان المرحلة الحاسمة التاريخية التى يمر بها مجتمعنا اليوم تقضى بأن ننظر الى الدين نظـرة أعمق بحيث تتمشى مع التطـور والتقـدم العلمى • ان الدين لا يتناقض قط مع العلم •

واذا بدا أن هناك خلافا حقيقيا بين الدين والعلم فهو غير صحيح ، وانما هذا حلاف شكلى يقع فى الحقيقة نتيجة ذلك الجدل السفسطائى بين رجال العلم ورجال الدين على أمور فرعية تتجدد مع تطور الظروف ، والأحوال ، والأزمان •

فاذا ما زود رجال الدين ، ورجال العلم أنفسهم بالمنطق السليم الذى يعتبره الطرفان معيارا للحقائق، استطاعوا أن يسعدوا البشرية بدين حق ، وعلم عميق .

الثقــافة والسلوك :

تلعب الثقافة دورا كبيرا فى سلوك الانسان • فلدى كل جماعة انسانية بعض آراء أو أفكار معينة ، وكل الذين يتقبلون هذه الآراء هم « الداخلون فى هذه الجماعة » ، وينظرون الى من لا يؤمنون بها على أنهم متخلفون ، وفى ضوء هذه الملاحظة نجد أنه فى كل موقف من المواقف يوجد «داخلون» فى الجماعة و «خارجون» على الجماعة • ولا يمكن لأفراد الجماعة الأولى الذين يعتقدون فى سلامة آرائهم أن يتقبلوا أفراد الجماعة الأخيرة على أنهم نظراء أو مساوون لهم •

ولا يهم الأساس الذى تبنى عليه احدى الجماعتين نفسها • فكل الحروب الدينية الكبرى التى فتكت بأوروبا لعدة قرون لم يكن أساسها فكرة جنس أو عنصر • كان المسيحيون يحـاربون المسيحيين ، وكان أفراد الأسرة الواحـدة يحاربون بعضهم بعضا • كان لا يمكن لعضو من أعضاء البروتستانت«الداخلين» أن يسمح بمكان لعضو من أعضاء الكاثوليك « الخارجين » وبالمثل كان الكاثوليك يعتبرون أنفسهم أنهم الأعضاء « الداخلون » وينظرون الى البروتستانت على أنهم الأعضاء « الخارجون » الذين أغواهم الشيطان •

ومثل آخر بالنسبة لقضية التمييز العنصرى التى نعتبرها أكثر القضايا اهدارا لآدمية الانســان • ففى أمريكا أحضر السود اليهـا كعبيد ، ووضعهم البيض فى زمرة الخارجين • لقد كان البيض فى الجنوب يريدون من يلقون عليـه اللوم عندما تعترضهم المشكلات الكبرى ، فكان الاسود أو الخارج هو الهـدف الواضح •

وهكذا أصبحت المشكلة اليوم هى أن الاسود وضع فى زمرة « الخارجين » • ولو أمكن نشر هذه الفكرة فى الجنوب لأمكن حل مشــكلة « السود » • ولكن طالما شعر الجنوبيون البيض أن مشكلاتهم فى الجنوب أساسها أو منشؤها انحطاط مستوى السود فسوف تزداد حدة التوتر •

ولقد اوضح علمـــاء الأجناس للطبيعة أن أى فكرة عن نقـــاوة جنس من الأجنـاس هراء • ولعل أحسن شرح لهـذا الموقف هو الرســالة التى كتبتهـا روث بندكيت Ruth Benedict (١) بعنـــوان « الأجنـاس البشرية » • لقـد صادف هذا العمل اهتماما كبيرا خاصـة حينما حظر تداوله بين أفراد القوات المسلحة فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وذلك لأنه يحارب نظرية « الفصل » ولأنه فضح الأساطير التى اصطنعت عن الأجناس •

لقد قام علماء الأجناس بتمزيق فكرة أن السود ينتمون الى جنس منحط • ان العبارة الآتية التى وردت فى كتاباتهم تحمل نفس الفكرة : « ليس هناك رجل أعقل أو أكثر حكمة من الرجل الاسود » •

ان عامل الفروق الفردية سبب تمردا لا نهاية له فى تاريخ العالم سواء كان هـذا التمرد خفيفا أو عنيفـا • والداخلون فى الجماعة يؤمنون بأن مثلهم العليا تتفق مع مثل الآخرين، ولذلك فهم لا يرضون ولا يتسامحون فى أن يعملوا مع أناس لهم مثل عليا مختلفة . أضف الى هذا الموقف الحقيقة التى تقول : ان أبرز حاجات الانسان النفسية هى استجابة الأفراد الآخرين العاطفية له • وعلى هذا الأساس يمكننا أن نصل الى القاعدة التى تقول أنه لكى تصل حضارة من الحضارات الى حالة استقرار يجب عليها :

- تحديد الأهداف التى يشترك فيها الجميع •
- السماح لكل فرد بمجال غير محـدود يعينه على أن يكيف شـخصيته وفق الخطة العامة •

---

(١) روث بنديكت Ruth Benedict (١٨٨٧) أصلا من علماء علم الأنثروبولوجيا ، وقد عنيت بدراسة الفولكلور لدى مختلف الشعوب الفطرية من الهنـود الحمر فى الولايات المتحدة الامريكية وبعض شعوب جزر الباسفيك الجنوبى •

بمعنى آخر يجب أن يكون هناك حد أقصى للتعاون مع حد أقصى للحرية الفردية ·

ويعالج رالف لنتون Ralph Linton (١) المشكلة من وجهة نظر مختلفة عندما يحاول أن يجمع بين علم الأجناس البشرية، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع من أجل دراسة الانسان · لقد وجد أن الجنس الانسانى قد وصل منذ مدة طويلة الى الاعتقاد بأن الجماعات المنظمة ـ وليست الأفراد ـ هى الوحدات البارزة فى النضال من أجل البقاء · ولكن على خلاف الحيوانات الاخرى نجد أن الانسان هو نهاية المطاف لعملية تطورية تتجه نحو زيادة الفردية · لهذا لا نعجب من أن يقول رالف لنتون : « اننا مخلوقات تشبه القرد ولكننا نحاول أن نعيش كما يعيش النمل الأبيض دون أن يكون لنا صفاته المميزة » ·

ان عدم وجود « غرائز » لدى الانسان تضفى أهمية على الثقافة · ان الأخيرة هى التى تزود أعضاء أى مجتمع بالتوجيه الذى لاغنى عنه فى كل شئون الحياة، ويختم لنتون كلامه بقوله : « بالرغم من العدد اللانهائى من الاختلافات الطفيفة فى استجابات الأفراد المختلفين ـ أو فى نفس الفرد فى أوقات مختلفة ـ نجد أن معظم أعضاء أى مجتمع من المجتمعات يستجيبون لموقف معين بنفس الطريقة تقريبا » ·

والواقع أن الفرد يستطيع أن يعتمد على الثقافة كموجه لسلوكه كما أن لها تاثيرا كبيرا على السلوك الاجتماعى ·

---

(١) رالف لنتون Ralph Linton (١٨٩٣ ـ ١٩٥٣) احد الانثروبولوجين الامريكيين ، اسهم فى تطوير علم الانثروبولوجيا واهم كتبه التى صدرت فى حياته :

The Study of Man, 1936.

The Cultural Background of Personality, 1945.

نشر كتابه « شجرة الثقافة » The Tree of Cultrre سنة ١٩٥٥ بعد موته ·

ويؤيد لنتون هذا الرأى بقوله : « ان أنماط الثقافة بالنسبة للانسان هى كالملابس الجاهزة اذ تمثل البيئة الثقافية حاجيات الفرد التقريبية ، ولكنها لا تلائمه تماما الا اذا تناولتها تعديل ، مثلها تماما مثل السترة فهى فى حاجة الى تعديلات داخل حدود » • وبصفة عامة نجد أن الحدود الثقافية من السعة بحيث تضم جميع الأفراد أو معظمهم •

التعلم Learning :

لقد رأينا من قبل أن الثقافة تحدد سلوكنا فى نواح كثيرة ، فهى تحدد لنا الى درجة كبيرة أى الأشياء تستحق النضال فى سبيلها ، كما أنها تشكل بل تملى علينا سلوكنا وعاداتنا ، انها تحدد لنا موقفنا تجاه الآخرين : أيهم نحب ، وأيهم نكره ؟ فمثلا فى جماعات ثقافية معينة قد يعجب كل شخص بالبطل الرياضى حتى اذا لم يكن له أى شغف بالالعاب • ان التعلم هو الوسيلة التى عن طريقها يتشرب المرء هذه العناصر من ثقافته ويجعلها عناصره •

وبالطبع يختلف الأفراد اختلافا كبيرا فى قدرتهم على التعلم • فالبعض يتعلم كثيرا ، والبعض يتعلم قليلا كما يتعلم البعض بسرعة أو أكثر من الآخرين ، ويقنع البعض بقدر ضئيل جدا ، بينما يتنافس الآخرون فى ذلك • ان حقيقة الاختلافات الشخصية هذه يمكن أن توجد فيما سبق أن بحثناه بالنسبة للدوافع والادراك • فالبعض سريع الخاطر يدرك بسرعة ، بينما البعض الآخر بليد بطىء الفهم ، وقد يمر بهم الكثير من الامور الهامة دون أن يلحظوها • ويندفع البعض بشدة فى اتجاهات متعددة ، بينما يمشى آخرون على مهل بأقل قدر من القوة الدافعة فيعيشون حياة خاملة تقريبا •

والتعلم من أكثر موضوعات علم النفس التى أجريت بشأنها التجارب ، وقد استخدمت فى هذه التجارب الحيوانات على نطاق واسع ابتداء من الفئران الصغيرة البيض الى الشمبانزى •

فهناك تجارب بافلوف (١) عن « الشرطية » والتى أثبتت احدى طرق التعلم وعرفت باسم « التعلم الشرطى » ، وقد ساهمت مساهمة حيوية فى زيادة معلوماتنا عن عملية التعلم ، وكان لها تاثير كبير على النظرية التعليمية العامة وكذلك على طريقة بناء الشخصبة ٠ والمبدأ الذى يقوم عليه الفعل المنعكس الشرطى هو فى الحقيقة مبدأ يسير جدا ٠ ان رد الفعل الطبيعى الذى ينشأ أساسا وأصلا من مثير طبيعى قد يرتبط بمثير صناعى حتى انه بعد فترة من الوقت يؤدى المثير الصناعى الى حدوث رد الفعل الطبيعى بنفس الطريقة التى قام بها المثير الأصلى أساسا ٠ وعملية ربط رد الفعل الطبيعى بمثير صناعى معروفة باسم « الشرطية » ، والموقف الأصلى الذى اكتشف فيه الفعل المنعكس حدث فى معمل بافلوف ، وكانت الشخصية الرئيسية هى كلب المعمل الذى كان ملاحظ المعمل يطعمه يوميا فى وقت محدد ٠ وقد حدث أن الجرس كان يدق قبل بضع دقائق من تقديم الطعام الى الكلب ، وبعد أن استمر ذلك الأمر فترة من الوقت ، وجد بافلوف أن فم الكلب بدأ يسيل منه اللعاب بمجرد أن يدق الجرس بينما لم يكن الطعام قد ظهر بعد ٠ ان ما حدث هو أن رد الفعل اللعابى ـ وهو رد الفعل الطبيعى لرائحة الطعام أو مشهده ـ ارتبط بالمثير الصناعى ، وهو دق الجرس ٠

وتتعلم الكائنات البشرية كثيرا بالشرطية ٠ فبتكرار اطلاقنا كلمة الوطن الأم على الدولة التى ننتمى اليها ننقل اليها الحب والاخلاص الذى نشعر به بالطبيعه نحو امهاتنا ٠

---

(١) بافلوف ، ايفان بتروفيتش Ivan Petrovitch Pavlow (١٨٤٩ ـ ١٩٣٦) فسيولوجى روسى ، نال جائزة نوبل فى الفسيولوجيا سنة ١٩٠٤ ، وقد اشتهر بتجاربه على الكلاب ، واستخدمت النتائج التى حصل عليها فى عمليات غسيل المخ كما سيجىء بالتفصيل فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ٠

وهنـــاك التعلم بالمحـــاولة والخطـأ Trial and error ، وقـد قام العـــالم الامريكى ثورنديك(١) باجراء تجـارب عديدة على أنواع مختلفـة من الحيوانات : كالكلاب ، والقطط ، والاسماك ، والقردة ، وذلك لدراسة قدرتها على التعلم • فمن تجاربه المأثورة أنه قد وضع قطا جائعا فى قفص لا يمكن أن يفتح بابه الا بالضغط على لوحة خشبية ، أو جذب حبل ، ثم رفع مزلاج صغير • ثم أغرى القط بقطعة من الســمك خارج القفص ، فلاحظ اضطرابه ، وهيـاجه وقيـامه بحركات عشوائية فاشلة ، الى أن اتفق أن مست يده أو جزء من جسمه لوحة الخشب أو المزلاج وانفتح الباب •

واخذ ثورنديك يسجل الزمن ، ثم يعيد التجربة ، ويسجل الزمن الذى يمضيه القط فى تخبطه ، وهكذا •

وقد استنبط ثورنديك أن الحركات العشـوائية التى يقوم بهـا الحيـوان تزول بالتدريج وباطراد فى محاولاته المتكررة ، كما كان الزمن اللازم لخروجه يتناقص ، وقد سجل ذلك برسم بيانى أطلق عليه « منحنى التعلم » •

ولو كان الحيوان يعرف الحل عن طريق الفهم والتفكير لانتقل فجـأة من حالة الجهل الى حالة العلم ، ولكنه يتعلم عن طريق التخطيط الحركى • ولقد سميت هذه الطريقة « التعلم بالمحاولة والخطأ » ، لأنها تتلخص فى محاولة عدة طرق يتضح أن أغلبها خاطىء •

واذا طبقنا ذلك على الانسان نرى أنه أفاد من محاولاته وملاحظاته السابقة ، اذ لا يكرر كثيرا من أخطائه السابقة ، بل غالبا ما يركز انتباهه على الأوضــاع التى سببت هذه الاخطاء فيما قبل •

---

(١) ثورنديك ، ادوارد لى Edward Lee Thorndike (١٨٧٤ – ١٩٤٩) احد علماء النفس والتربية الأمريكيين وكانت له شهرة بالاضافة الى هذا فى اللغة ، وله معجم فى مفردات اللغة الانجليزية •

وهناك عديد من الأسماء اللامعة مثل : واطسون، وسكينر ، وهل، أصحابها أكدوا تقريبا السمات الميكانيكية للتعلم وهى « المثير والاستجابة » •

ويرون أن التعلم هو الربط بين هذين الاثنين بوسائل مختلفة ، اذ أنه بمجرد تعلم شيء فانه يتكرر ويصبح عادة ببطء •

وعلى عكس هذا نجد وجهة النظر التى عرضها كوهلر ، وتولمان ، ولوين الذين يؤكدون حقيقة أن التعلم أساسا هو شكل من أشكال الفهم يبدأ فيه الموقف السلوكى كله فى العمل • وبدلا من تفتيت عملية التعلم الى مثير واستجابة يركزون على الموقف الاجمالى الذى يحدث فيه المثير والاستجابة • وتتحكم فى الطريقة التى ندرك بها المثير والطريقة التى نتفاعل بها نتيجة له عوامل ليست كلها فى المثير • وباختصار يعتبرون أن التعلم هو اجمالى أو جماعى ، وليس جزئيا ولا فرديا •

اننا نتعلم أشياء كثيرة فى فترة حياتنا • قد يتعلم الفلاح استخدام محراثه ، كما يتعلم آخر قيادة السيارات • ويتعلم الشخص اتجاهات معينة قد تغريه بعدئذ على أن يصبح محافظا أو متحررا • كما يتعلم حقائق حياته الخاصة وحقائق مجتمعه ، وكنتيجة لذلك قد يتحول ويصبح زعيما ، أو قائدا ، أو تابعا ، أو مختل الأعصاب ، أو شاعرا ، أو جراحا •

على أننا نود أن نشير هنا أن هناك كثيرا من الطرق الأخرى للتعلم ، مثل التعلم عن طريق الملاحظة أو عن طريق الاستبصار Insight حيث تعتمد هذه الطريقة أساسا فى حل المشكلة على ادراك أجزائها من علاقات كانت خافية فى أول الأمر — وغيرها من الطرق التى أثبتت صحتها •

ولن نستطرد فى شرح الطرق المختلفة للتعلم حتى لا نخرج بالقارىء عن الموضوع ، ويكفى ما ذكرناه لنؤكد أننا كبشر لا نستطيع أن نعيش فى مجتمع

ما لم نلاحظ بعنـاية كيف يتصرف الآخرون ؟ ولماذا يتصرفون بشـكل معين ؟ وعلى أساس تلك الملاحظات ومثلها نستطيع أن نستخرج مرشدا عمليا للعمل يوضح سلوكنا العام ٠

ان كل أشكال التعلم موجودة فى حياتنا الاجتماعية ، وما لم نحاول أن نصل الى جذورها ونتفهمها فانه سيواجهنا من المشكلات ما قد يسبب الكثير من تناقضات المجتمع ٠

* * *

ومن ثم فان هناك العديد من العوامل التى تؤثر على سلوك الفرد كعضو فى المجتمع ، وكما سبق أن قلنا : اننا سوف لا نعالج كل هذه العوامل ، فهناك غير ما ذكر عامل الشخصية ، والرأى العام ، والعوامل البيئية المختلفـة التى تلعب دورا كبيرا فى سلوك الانسان ٠٠ الخ ٠

ان الهدف الأساسى من هذا الفصل كما رأينـا هو أن يفهم القـارىء لماذا يختلف الناس فى سلوكهم ؟ وما هى العوامل التى تتحكم فى هذا السلوك ؟ وتلك التى تتأثر بها الجماعات طبقا لتكويناتها المختلفة ٠

وبالانتهاء من هذا الفصل نستطيع أن ننتقل الى لب الموضوع كما سيجىء فى الفصل التالى ٠

الفصل الثانى

الجذور التاريخية

بالرغم من انه قد يكون طبيعيا عند التعرض « للحرب النفسية » كصورة اخاذة لها أهميتها اليوم ـ أن يستهل الحديث بتعريف هذه الحرب وتحديد المصطلحات التى تستخدم فى معالجة موضوعها ـ وذلك حتى يمكن أن يتهيأ للقراء فكرة أساسية عن ذلك الموضوع قبل التعمق فى دراساته ـ فنحن نرى من الاوفق أن نبدأ بتقديم امثلة من التاريخ تكشف عن ماهية الحرب النفسية ، وتصور طابعها ، والوسائل المختلفة التى استخدمت فيها على مر العصور ، على أن نردف بالحديث عن وظيفة هذه الحرب ، وبذلك يتم الشكل العام الذى يكون من الميسور معه الانتقال من التعميم الى التخصيص ٠

الحرب النفسية والدعاية كلتاهما قديمة قدم الجنس البشرى نفسه ، لكنهما أخذتا فى العصر الحديث طابع التخصص مما جعلهما تبرزان فى الأضواء كموضوعين منفصلين ٠

وعلى الرغم من أن الساسة ورجال الدين عرفوا بالتلقين منذ القدم سر الاقوال والافعال التى تحرك الانسان ، فان التطور العلمى استطاع اليوم أن يكيف المخلوق البشرى لدرجة يتمكن بها ان يحل بعض القوى الخارجية المنظمة لمعرفته محل طبيعته ٠ والواقع أن هذا التطور لم يفعل الى الآن أكثر من تنمية الوسائل القديمة يساعده فى ذلك ما لديه من امكانيات ، ومع ذلك فقد خلقت هذه عديدا من المشكلات الاجتماعية ، والسياسية ذات أهمية كبرى ٠

ان التاريخ ملىء بالحوادث التى يمكن أن تروى أو تنقل لايضاح تطبيقات الحرب النفسية ، ومن اولى صور هذه الحرب تلك القصة الطريفة التى تحكى عن تحوتمس الثالث عندما هم بفتح مدينة يافا فى فلسطين واستعصى عليه امر فتحها فلجأ الى الحيلة ، والخديعة ، والمفاجاة ، فيقال أنه عندما هاجم بجيشه هذه المدينة ووجدها صعبة المنال اخذ يمكر بحاكم المدينة حتى ادخل فى روعه أنه ساخط على أعمال فرعون عازم على الغدر به والانضمام الى عدوه ، وظل يراسله من خارج الاسوار محتالا حتى جازت عليه الحيلة وخرج الحاكم لمقابلة القائد ٠ ولما اطمأن كل منهما الى صاحبه اخذ القائد المصرى يقص على حاكم يافا من اخبار قوة فرعون مما اثار دهشته وأرهب قلبه ، ولكن القائد فى آخر الامر ذكر لحاكم يافا أنه عليم بسر قوة فرعون، بل أنه يملك هذا السر وهو عصا سحرية يمتلكها فرعون يضرب بها الارض فيعطيه الله ما يشاء ٠ وطلب حاكم يافا من القائد أن يريه هذه العصا فاشترط الاخير أن يكونا على انفراد ، فلما اختلى بالحاكم عاجله بضربة قوية فصرعه ، ثم عهد الى مائتين من رجال الجيش المصرى فأخفاهم فى غرائر ثم امر بهم فحملوا الى المدينة يتقدمهم سائس خيل الحاكم يحمل رسالة وهمية من الحاكم الى زوجته ، وكانت الغرائر محروسة بطائفة اخرى من الجنود المصريين الذين اوصاهم القائد باطلاق من فيها من الجنود اذا دخلوا المدينة ٠ ولم تكد أبواب المدينة تفتح فى وجوههم حتى نفذ أمر القائد وانطلق الجنود المصريون يحتلون مرافق المدينة بينما هاجمها الجيش من الخارج ، وبتلك الحيلة البارعة تم الاستيلاء على يافا ، فقد مهدت الحرب النفسية التى شنها القائد المصرى على حاكم المدينة لهذا النصر الحاسم فى تاريخ مصر القديم ٠

وهناك مثال آخر حدث فى معركة قادش أيام رمسيس الثانى وقد كان الحيثيون قد تزعموا الحلف المعادى لمصر وأخذوا يثيرون الفتن فى سوريا وفلسطين ، فاضطر رمسيس الثانى سنة ١٨٩٤ ق٠م الى الخروج على رأس جيش كبير قسمه الى أربعة فيالق يعتمد كل منها على نفسه ، ثم تحركت هذه الفيالق حتى دخل اثنان منها الى مشارف مدينة قادش التى اتخذها العدو مركزا للفتن والمؤامرات ٠

وهنا لجأ العدو الى تدبير حيلة بارعة ، فقد ظهر فجأة فى أحد المعسكرات المصرية بدويان من أهل المنطقة ادعيا أنهما تشردا من جيش العدو ، وأن ملك الحيثيين قد تقهقر بجيشه شمالا الى مدينة حلب خوفا من الجيش المصرى ، وظل المصريون فى شك من هذه العملية حتى أنهم قاموا بضرب البدويين ضربا مبرحا ليعترفا بالحقيقة ، ولكنهما أصرا على أقوالهما وهنا تقدم الفيلقان المصريان دون حذر لتصديقهما أخبار انسحاب الحيثيين • وفجأة انقض عليهم جنود العدو الذين كانوا مختبئين وراء مشارف قادش وأحاطوا بهم من كل مكان وكادت تتم هزيمة المصريين ، لولا وصول رمسيس الثانى ومعه بعض حرسه الخاص وبعض الجنود الفلسطينيين فقام بشغل مؤخرة جيش العدو حتى وصلت باقى القوات المصرية وأمكنهم فى النهاية من دخول قادش بصعوبة •

ومن الطرائف التى تروى فى هذا الموضوع وهو ما يتصل بالخداع والمفاجأة فى نطاق الحرب النفسية ما يحدثنا به « القائد امنحتب » وهو أحد قواد تحوتمس الثالث فى مقبرته عن حادث طريف وقع فى شمالى سوريا ، فمنذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، أرسل قائد قوات العدو فى أثناء حصار المصريين لاحدى مدنه انثى فرس عمدا ، وتسللت الى المواقع ليلا قاصدا بذلك ايقاع الاضطراب بين الخيل الذكور(١) التى تجر العجلات الحربية فيربك صفوف القوات المصرية • ولكن امنحتب فطن لتلك الحيلة • وهجم على تلك الفرس وبقر بطنها بمجرد ظهورها فاحبط بذلك حيلة العدو •

كما نجد فى معركة مدين عام ١٢٤٥ ق•م صورة طريفة أخرى من صور الحرب النفسية القديمة حينما استخدم جدعون الاسرائيلى المصابيح والقاذفات فى تلك المعركة . وقد جاءت القصة فى الاصحاح السابع من سفر « القضاة » وتروى أن جدعون كان فى موقف تكتيكى سيىء ، اذ كان أهل مدين أكثر منه عددا وكانوا على وشك القضاء على قواته ، ولم تكن أساليب القتال العادية بقادرة على أن تحل المشكلة ، ومن ثم فان جدعون ـ مستندا الى الهام أعظم مما يمكن أن يكون لدى

---

(١) كانت جميع الخيول التى تجر العجلات الحربية ذكورا •

قادة عصره ــ تخير ثلاثمائة رجل لتنفيذ عملية يمكن بها أن يثير الاضطراب في صفوف العدو • كان يعرف جيدا أن من تكتيكات عصره أن يكون لكل مائة جندى حامل مشعل يضيء لهم الطريق بمشعله ، وبتزويده كلا من هؤلاء الرجال الثلاثمائة بمشعل وبوق أوجد ما يوهم العدو بوجود ثلاثين ألف رجل ، ولما كانت هذه المشاعل لا يمكن أن تضاء أو تطفأ آليا على مثال المصابيح الكهربية الحديثة فقد أخفى هؤلاء الجنود أنفسهم ، ولكى يحققوا تاثير المفاجاة وضعوا المصابيح مختفية داخل حواملها •

وصف جدعون جنوده خفية حول معسكر العدو ليلا ، ثم أطلق اشارة واحدة فاخرج الرجال كلهم المصابيح فى وقت واحد ، وبرزت الانوار مبعثرة حول المعسكر ، وراح الجنود ينفخون فى الأبواق بقوة كمن فقدوا عقولهم • وهب أهل مدين من نومهم مفزوعين ، وعم الاضطراب صفوفهم وقاتلوا بعضهم بعضا داخل معسكرهم ، واسرعوا بالفرار وفى أعقابهم الاسرائيليون يطاردونهم(١) •

* * *

على أن هذا اللون من الحرب النفسية باستخدام وسائل غير مالوفة وغير عادية لاثارة الفزع متواترة فى تاريخ كل البلاد القديمة ، ففى الصين القديمة حاول مرة الامبراطور ــ المغتصب للعرش ــ وانج مانج أن يدمر قبائل « الهون » بجيش يشتمل على قسم من « السحرة والعرافين العسكريين » بالرغم من أن امبراطور الهون العسكرى وجد أن الوسائل الصحيحة المستقيمة هى خير ما يمكن الاعتماد عليه • على أن وانج مانج كان تواقا الى التجديد ولا يبرأ من هذا الشغف المزمن الا باستحداث الوسائل غير العادية واستخدامها ، ففى سنة ٢٣ ميلادية فى أثناء محاولة كبح جماح حركة ناجحة لثوار خارجين على حكمه ، جمع كل الحيوانات الموجودة فى حدائق الحيوان الامبراطورية ، وبعث بهذه الحيوانات بما فيها النمور ، والفيلة ، والخراتيت وحيدة القرن لاثارة الرعب فى صفوف العدو ، ولكن

(١) سفر القضاة ــ اصحاح ٧ السطران ٢٢ ــ ٢٣

الثوار كانوا سباقين بالمبادأة فى الهجوم ، فقتلوا القائد الامبراطورى وانج صن وفى خضم الاضطراب انطلقت الحيوانات الضاربة من عقالها داخل جيش الامبراطور نفسه وافزعت الجنود • وحدثت بالصدفة فى نفس الوقت عاصفة عاتية زادت الموقف المضطرب من سيىء الى أسوأ • وكانت نتيجة ذلك ان هزمت جنود الامبراطور ، وفقد الامبراطور السيطرة على أعصابه مما اثر على نفسيته تاثيرا بالغا ، فاعتلت صحته وأسرف فى احتساء الخمر ولم يكن يتناول طعاما غير المحار ، وترك كل شىء تسيره الظروف ، ولما كان لا يستطيع ان يتمدد على فراشه أصبح يرقد جالسا على أريكة • وقد قتل وانج مانج فى نفس السنة وبقيت الصين بلا منهج سياسى حتى عصر وانج ــ آن ــ شيه « ١٠٢١ ــ ١٠٨٦ ميلادية » أى بعد قرابة ألف عام من مقتل وانج مانج ولا شك فى أن حربا نفسية لو أحسن توجيهها لكان من الممكن أن تغير سير التاريخ •

وكان السب والشتائم احدى الوسائل النفسية التى استخدمها الاقدمون فى منازعاتهم ففى عام ٨٠٠ قبل الميلاد وصف الشاعر اليونانى هوميروس القتال الذى دار بين اليونانيين والطرواديين ، وفى احدى قصائده الزاخرة بالبطولة وصف الشاعر موقف العدو الذى اتخذ لنفسه مأوى فى مكان بعيد أمين ، قال :

احم ، ايها المختال المفترى ، الشعر
الجميل وقوادى النساء ! هل تريد
ان تتسلح مرة لتجرب حظك فى القتال
ان اقواسك وجميع سهامك لن تنفعك؛
فانطلاق السهم بيد الرجل الجبان
العاجز لن يكون شديدا ••

وفى هذه القصيدة التى يذم فيها هوميروس الطرف الآخر صورة لما كان يقوم به المحاربون الأولون ، كان المحاربون الأولون فى كلا الجيشين اللذين يقفان وجها لوجه يستعينون بتبادل الشتائم حتى يؤثر كل طرف فى الروح

المعنوية لدى الطرف الآخر • ونلاحظ اليوم أن نفس هذا الأسلوب ما زال متبعا بين تلاميذ المدارس ، فهم فى مشاغباتهم مع بعضهم البعض يلجأون الى القتال النفسى •

ونوع آخر من الدعاية العسكرية فى تاريخ قديم جاء فى التشهير السياسى الذى يصدر فى مطلع الحرب وذلك بقصد تبرير قانونية موقف احد الجانبين أو ابرازها ، ففى الرواية الصينية الشهيرة « سان كيو San Kuo » النص المزعوم بالاعلان عن وجود جماعة موالية تناصر الثوار من « الهون » عند ابتداء العمليات العسكرية قرابة سنة ٢٠٠ ق•م ، وللنص طرافته ذلك لانه يجمع بين مختلف الاعمال والمهارات الفنية ، ولكنها منطقية معقولة وهى :

- تسمية العدو المعين •
- التوسل الى « الناس ذوى الفضل » •
- العطف على عامة الناس •
- تعضيد الحكومة الشرعية •
- تأكيد قوة الفرد وروحه المعنوية العالية •
- التضرع للعمل على قيام الوحدة •
- التوسل بالدين •

وقد ارتبط اصدار الاعلان بقيام هذه الجماعة باحتفال رسمى كبير :

« يواجه بيت هان أياما مليئة بالشرور ، لقد انحلت روابط السلطة الامبراطورية ولقد انتفع الوزير الثائر « تونج شاو » من الخلاف والنزاع ليرتكب الشرور • وقد حلت النكبات على الاسر الشريفة ، وعمت القسوة وشملت كل الجماعات العادية الفقيرة • نحن « شاو » زملاءه فى غمرة خوفنا على سلامة الامتيازات الامبراطورية قد جمعنا القوات العسكرية لانقاذ الدولة ، اننا نتعهد معا على أن نبذل غاية ما فى قوتنا ، ومن الضرورى ألا يكون هناك محل لأى بلبلة

ولا لأى عمل يقوم على الاثرة وحب النفس • ان من يولى ظهره لهذا الرجاء سيفقد حياته ، ولن يخلف وراءه نسلا له : وليشهد الله فى السماء • ولتشهد أمنا الأرض، ولتشهد الارواح الواعية لاسلافنا القدامى على كل ما قلناه • اللهم قد بلغنا » •

* * *

ولا شك أن التاريخ الاسلامى ملىء بعشرات الامثلة الحية والقوية التى تدل على أن العرب والمسلمين لم يفتهم من فنون الحرب الحديثة والاستراتيجية كثير مما نعرفه فى هذه الايام ، ولعل أروع هذه الامثلة هو ما حدث بعد وفاة الرسول — صلى الله عليه وسلم — بساعة واحدة وانتشار النبأ • واستغل الكفرة هذا الخبر على الفور وأخذوا يشنون الحرب النفسية ضد المسلمين ، زاعمين أن الاسلام انتهى ولن تقوم له قائمة • وأخذوا يروجون الشائعات الخبيثة لنشرها بين المسلمين وقالو : « لو كان محمد نبيا لظل بينكم ولم يمت ! » وقد بلغ من شدة هذه الحرب الباردة أن عمر بن الخطاب — وهو من أكبر زعماء المسلمين ، وأمير المؤمنين ، وثانى الخلفاء الراشدين — خرج من بيته مذعورا حاملا سيفه فى يده مهددا الكفار الذين يرجفون بموت محمد قائلا : انه سيضرب عنق من يروج هذا النبأ ، وظل الأمر فوضى والناس فى اضطراب ، وكاد بعضهم أن تتزعزع عقيدته • وفرح الكفار بهذه الفتنة الكبرى ، لولا أن خرج أبو بكر الصديق وحسم الموقف بخطبته المشهورة التى قال فيها بعد أن حمد الله وصلى على نبيه :

« أيها الناس : من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ، وكأنى بكم لم تستمعوا الى قول الله — سبحانه وتعالى — « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين » (١) •

---

(١) آل عمران آية ١٤٤

وهناك مثل آخر يدل على ما للتعبئة الروحية التى تنتج عن التوجيه المعنوى من أثر بالغ فى احداث التاريخ المتلاطمة .

وهذا المثل البارز فى التاريخ الاسلامى تلك القصة الخالدة لأحد قواد المسلمين الذى انقذ بها سمعة وطن وكرامة جيش ومصير أمة ذلك هو القائد « طارق بن زياد » الذى وقف على مشارف الجبل ابان فتح الاندلس ، ووجد أن جيش العدو يربى على مائة ألف فى حالة دفاع ، وجيشه اثنا عشر الفا فى حالة هجوم ، فما كان منه بعد أن عرف عظم المسئولية الا أن قام بحرق جميع سفن الاسطول التى اقلته من شمالى أفريقيا الى الأندلس وأشرك الجند فى حرقها وقام فيهم خطيبا فقال :

« ايها الجنود : العدو أمامكم والبحر وراءكم ،
وليس لكم والله الا الموت أو النصر ، ولا يعينكم
على هذا الا ما تستخلصون من أيدى عدوكم » .

فثبت الجنود وقاتلوا حتى انتصروا ، وكانت هذه الحرب النفسية حربا ايجابية أدت الى النصر كمثال على قوة الارادة وما يمكن للتاثير المعنوى أن يؤديه فى كسب معركة حاسمة .

وأظن أنه لا يغيب عن بالنا هذا المثال الثالث الذى يدل أيضا على الحنكة السياسية ، والخداع ، والمفاجأة ، ووضع العدو تحت ضغط معنوى مدمر حيث تتحول المعركة فى غير صالحه . ونقصد بذلك معركة صفين التى قامت بين على بن أبى طالب ، ومعاوية ، والتى تحمس فيها معاوية لهزيمة على والتنكيل به انتقاما لعزله أقارب عثمان من وظائفهم التى عينهم فيها . فلما التقى الجيشان أشار عمرو ابن العاص الداهية السياسى المحنك على معاوية ـ وقد قاربت المعركة أن تتحول فى غير صالح معاوية ـ اشار عليه أن يضع المسلمون المصاحف فوق أسنة السيوف ، ويهللون ويكبرون طالبين التحكيم ، وحل الخلاف بالطرق السلمية ، وبذلك ينجو معاوية من هزيمة محققة نتيجة هذه الخدعة . ثم تمضى الحرب النفسية وتصل الى أقصاها

حينما يقبل علي بن أبي طالب التحكيم فيختار وكيلا عنه أبا موسى الاشعرى ، ويختار معاوية ذلك الداهية عمرو بن العاص • واتفق الطرفان على أن يكون حكمهما نهائيا ، ويجتمع المسلمون في جمع كبير لسماع الحكم الذى اتفق عليه بين عمرو ، وأبى موسى على ان يخلع كل منهما صاحبه ويتفق المسلمون على خليفة آخر غيرهما • فيقوم أبو موسى ويعلن خلع صاحبه « على » كما يخلع خاتمه من أصبعه فيهلل المسلمون، ثم يقوم عمرو ويعلن موافقته على خلع على ثم يلقى قنبلته المدوية التى تفتقت عنها حيلته وخداعه وهى تثبيت معاوية فى مركزه خليفة للمسلمين كما يثبت سيفه فى غمده •

وكانت النتيجة المباشرة لهذه الحرب النفسية البـاردة المريرة هى حربا ساخنة استمرت بينهما زمنا وذهب ضحيتها عدد كبير من أبرياء المسلمين •

* * *

ولقد كانت احدى مظاهر الحرب النفسية فى الماضى ذات تاثير كبير حتى أن نتائجها لا تزال باقية حتى اليوم ، والفكرة العامة أن أعظم غزاة العالم تيموجين جنكيز خان قد حقق غزواته بالجحافل التى لا حصر لها فى خيالة التتر المتوحشين، الذين اندفعوا اندفاع السيل واستطاعوا أن يغزو مناطق فسـيحة من الأرض بعددهم الوافر • وقد كشفت الدراسات الحديثة عن أن امبراطورية الخان قامت على مستحدثات عسكرية مليئة بالجرأة :

١ ـ استخدام قوات خفيفة الحركة بدرجة كبيرة •

٢ ـ الانتفاع الكامل باعمال المخابرات وجمع المعلومات •

٣ ـ تنسيق استراتيجية تغطى نصف العالم •

٤ ـ تطبيق أساليب الدعاية بكل صورها المختلفة •

كان المغول فى وقت واحد يقاتلون أسرة سـونج فى الصـين ، ويحاربون الامبراطورية الرومانية المقدسة فى بروسيا بفـاصل آلاف الاميـال بين مسرحى

الحرب دون أن تعرف أسرة سونج بوجود الامبراطورية الرومانية ، ودون أن تعرف الامبراطورية الرومانية بوجود الأسرة الصينية الحاكمة بأكثر مما يمكن أن تكون دراية مستندة الى مجرد شائعات •

لقد استخدم المغول الجاسوسية للحصول على المعلومات اللازمة لشن حملاتهم، كما لجئوا الى الشائعات وغيرها من وسائل المبالغة لتجسيم عدد قواتهم وعنف جنودهم ، ولم يكن يهمهم ماذا يمكن أن يظن أعداؤهم ما داموا ينتفضون من الخوف والرعب ، وقد وصف الأوروبيون خيالة المغول الضاربة وان كانت أقل عددا من الحقيقة على أنها جحافل لا حصر لها ، ذلك لان عملاء المغول كانوا يهمسون بمثل هذه القصة في الطرقات • والى اليوم لا يقدر أغلب الاوروبيين سرعة هذه القوات ولا مهارة القيادة ، الامرين اللذين توافرا للمغول عندما وجهوا لهم الضربات منذ سبعة قرون •

ولقد استخدم جنكيز خان جواسيس العدو كوسيلة لارهاب جنود العدو انفسهم ، وعندما كان يستميل جواسيس العدو الى جانبه يروح يلقنهم الشائعات التى ينشرونها بين قواتهم • ولنرقب ماذا يقول أول أوروبى أرخ لجنكيز خان واصفا فى كلماته غير المألوفة الآن كيف أن جنكيز خان أطلق « خلية النحل » على ملك خوارزم أى جعله يعيش فى دوامة من الاضطراب • يقول المؤرخ : « ولقد جعل الجواسيس الذين بعث بهم ملك خوارزم لرؤية قوة جيشه وتعداده .. يقول فى وصف الامر بهذه الصورة : انهم ــ كما قال الجواسيس للسلطان ــ كاملو الرجولة شجعان لهم مظهر المصارعين لا يستنشقون شيئا الا رائحة الحرب والدماء ، ويبدون تشوقا الى القتال حتى أنه من النادر أن يستطيع القادة السيطرة عليهم وتهدئتهم • ومع هذه الوحشية التى يبدون فيها فانهم يجيدون الضبط والنظام ، ويطيعون قائدهم طاعة عمياء ، ويدينون بالولاء لاميرهم الى آخر حدود الولاء ، ويقنعون بما يصل اليهم من طعام • وليس من المدهش ان يختاروا الوحوش ليأكلوها ، ومع انهم مسلمون فلم يكن من الصعب أن يستعيضوا لونا من الغذاء عن لون آخر ، فهم لا يأكلون لحم الخنزير فحسب، بل أيضا يأكلون الذئاب والدببة

والكلاب عندما لا يكون هناك اى نوع آخر من اللحوم ، لا يفرقون بين ما يجوز شرعا أن يأكلوه وبين ما لا يجوز • وتضطرهم الحاجة الى الطعام لقوام الاود الى تناول كل ما يحرم على المسلمين تناوله من لحوم بعض الحيوانات • ثم يختتم الجواسيس كلماتهم بقولهم ــ أما عن عدد قوات جنكيز خان فان القوات تبدو كالجنادب « أبو النطيط » من المستحيل حصرها أو احصاؤها •

والواقع أن الامير قد أجرى عرضا لجنوده لاحصائهم فوجدهم سبعمائة ألف جندى • ولا يزال جواسيس العدو اليوم ــ كما كانوا بالامس ــ لهم نفعهم فى اضعاف معنويات العدو ، ولقد قام ملك « خوارزم » وشعبه بقتال رهيب برغم توقعهم أنهم يواجهون مقاتلين يأكلون الذئاب ولا حصر لعددهم ، ولكنهم كانوا قد تركوا قوة المبادأة بين يدى جنكيز خان ومن ثم كان مآلهم الهزيمة •

* * *

والحق أن تاريخ مغامرات القرصان فى العالم الجديد اقترن دائما بالبحر الكاريبى ، اذ كانت القرصنة بالاضافة الى حب المغامرة وكراهية الاسبان مصدر ربح ، وكان هذا الكسب هو الدافع الاساسى الذى جعل بعض الافراد الشديدى البأس القساة من رعايا انجلترا ، والاراضى المنخفضه ، وايطاليا ، وفرنسا يقبلون على القرصنة فى البحر الكاريبى •

وكان القراصنة الاولون مجرد أفراد استوطنوا « هيبانيولا » أسبانيا الجديدة وهى الجزيرة التى نعرفها اليوم باسم هاييتى وسان دومينجو ، وكانت بداية المتاعب يوم أن طردهم الاسبان من ديارهم فتولدت فى قلوبهم كراهية الاسبان وتحولت الى حقد شديد واستحال المستهترون الى مجرمين •

واستخدم القراصنة تكنيك الحرب النفسية البحرية فسدوا الطريق على السفن الاسبانية ، ونهبوها ، وأسروا بحارتها ، وهجموا على الموانى والبلاد الساحلية الاسبانية وحرقوها ، وأنزلوا الرعب فى كل مكان نتيجة استخدامهم عامل المفاجأة •

وكان القراصنة يقومون بهذه الحرب البحرية غير الرسمية لحسابهم الخاص، ولكن عندما اشتركت بريطانيا فى حرب معلنة ضد اسبانيا منحت القراصنة الانجليز تكليفا رسميا يبيح لهم تعقب سفن العدو .

وكان القراصنة يعملون وهم يعلمون أنه لو تصالحت بريطانيا واسبانيا فانهم يستطيعون الحصول على تصريح رسمى من البرتغال يبيح لهم العبث بالسفن والموانى الاسبانية فى البحر الكاريبى .

على أن القراصنة الفرنسيين لم يتوقفوا عن الاغارة على السفن والموانى الاسبانية فى البحر الكاريبى الا سنة ١٥٥٩ بعد معاهدة كاتو كامبرسيس(١) .

وثمة صورة اخرى من أساليب الحرب النفسية تظهر بوضوح فى استخدام كورتيز Cortez الاسبانى - الذى غزا المكسيك سنة ١٥١٩ - الخيل لنشر الارهاب النفسى فى صفوف الأزتيك Aztecs مع استغلاله التقاليد والأساطير المكسيكية للوصول دون أى مقاومة الى مدينة نيو مكسيكو « تينو سيتتلان Tenochititlan » ففى ١٠ أو ١٨ من فبراير سنة ١٥١٩ أبحر هيرمان كورتيز من كوبا فى احدى عشرة سفينة لغزو المكسيك ، وقد وصل اليها أيام حكم منتزوما الثانى « ١٤٦٦ - ١٥٢٠ » ، وكان ملكا محاربا ومشرعا ولكن تعاظمه وعجرفته واستبداده جعل القبائل الخاضعة لحكمه تسكن فى وادى المكسيك الأوسط .

ومع أن الأزتيك الذين كانوا يسودون كل القبائل الهندية الأخرى كانت لهم حضارة قديمة وكانت لهم حكومة منظمة ، فقد أفزعهم هؤلاء القادمون الجدد الذين يركبون الخيل ، ولم يكن الازتيك بناة الأهرام فى العالم الجديد يعرفون الخيول على خلاف هنود الشمال فى غربى الولايات المتحدة وفى كندا .

---

(١) تاريخ العالم للسير ج ٠ ا ٠ هامرتون ٦ : ٢٩٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ الترجمة العربية .

ولكن الواقع أن العامل النفسى الأكبر تأثيرا انحصر فى أن الملك منتزوما ـ ذكره هامرتون باسم موتكيزوما ـ كان قد تدرب ليكون قسيسا فى عقيدة الازتيك الذين كانوا يعبدون عددا من الآلهة ·

وكان تقويمهم يجمع بين تقويم المايا ـ الحضارة التى سبقتهم ـ وتقويمهم أى بين التقويم الذى يجعل السنة ٣٦٠ يوما ، والتقويم الذى يجعل السنة ٣٦٥ يوما مقسمة الى ١٨ شهرا كل منها عشرون يوما مع خمسة أيام نحوس ، ويلتقى هذان التقويمان كل ٧٢ عاما ·

وقد جاء الاسبان فى هذه الأيام النحوس عند التقاء التقويمين ·

والأمر الآخر أن الحرب عند الازتيك نوع من العبادة ولها طقوسها الدينية ، وتقضى أصول الدين بعدم افناء العدو بل على أسره حيا حتى يقدم للآلهة قربانا ·

ولهذا تردد الملك فى قتال الاسبان ولم يلجأ الى العنف فى أثناء سيرهم الشاق حتى يصلوا الى الهضبة ، فوجدوا عونا لهم فى القبائل التى تعارض سيادة الازتيك ·

وكان استغلال هذه التقاليد هو الذى أنقذ الأسبان ومكن كورتيز من الوصول الى عاصمة الازتيك حيث مات مونتزوما فى أسر الأسبان(١) ·

* * *

---

(١) تاريخ العالم ٦ : ١٠٠ ، ١٠١

دائرة المعارف البريطانية ٢ : ٨٣٣ ـ ٨٣٤

دائرة معارف امريكانا ـ مجلد ١ ص ٧٤٦

بريسكوت « غزو المكسيك » Priscott, Conquerd of Mexico

على أن تاريخ شركة الهنــد الشرقية(١) الذى اســتمر حتى أول نوفمبر سنة ١٨٥٨ حينما انتقلت الســيادة على الهنــد الى التــاج البريطانى ، يعتبر سلسلة من الحروب ضد البرتغال ، وضد الفرنسيين ، ومناصرة لبعض الأمراء والهنود ضد البعض الآخر سعيا وراء مصالح الشركة ، وبسطا لنفوذها حــول بومباى على الساحل الغربى ، وفى أرض البنغال على الساحل الشرقى ، ثم حول مدراس فضلا عن الحروب فى ميسور وضد المهراتا الى أن تم غزو السند وحتى تم تنظيم الحدود فى الشمال والشمال الغربى مع التبت ومع الافغان ٠٠ هــذا التاريخ كله يحمل فى طياته عاملا هاما هو الوسائل الدعائية التى استخدمتهــا شركة الهند الشرقية فى غزو الهند ضد أفضلية عددية كبيرة من الهنــود حتى عصر كلايف ٠

يقول أدموند تيلور (٢) :

فى الأيام الأولى لشركة الهند الشرقية أرغم الانجليــز على أن يســتخدموا بدرجة كبيرة ما يعتبر اليوم « الحرب النفســية السوداء » وذلك باســتخدامهم « الطابور الخامس » وباستخدام أساليب فجة من الدعاية السرية مما مهد الطريق لجنود الشركة وللكويزلنجيين الوطنيين الذين عينوا حــكاما ليخففوا العبء عن اداريى الشركة فى الأماكن المحتلة ٠

---

(١) فى سنة ١٦٠٠ م اعطت الملكة الياصابات لجون ميلدنهال Mildenhall احــد تجار لندن تصريحا ليتاجر باسم اتحاد تجار لندن فى الهند تحت اسم « شركة الهند الشرقية » وكان ميلدنهال يصف نفسه دائما بانه « سفير الملكة » وقد حصل بتاثير هذا اللقب المزعوم عام ١٦١٣ م من الأمير سليم « جهانجير » بوصفه امبراطور الهنــد على تصريح بانشاء محطات تجارية على الساحل الغربى للهند عند سورات Surat ، وقد وطد ميلدنهال اقدامه هناك حتى انه عندما ارسل البرتغاليون السفن لمنع اقامة هذه المحطة الانجليزية لم ينجحوا فى غرضهم بسبب سوء القيادة وارغموا على الانسحاب ٠ وفى عام ١٦٥٧ منح كرومويل (ايام الحرب الأهلية) الشركة عهدا جديدا ثم زاد منه شــارل الثانى بعد انتهاء حكم كرومويل ، ثم أعطيت بومباى للانجليز كجزء من المهر الذى اعطى للملك شارل الثانى عندما تزوج الاميرة البرتغالية كاترين أوف براجانزا ٠

(٢) راجع Edmund Taylor, Richer by Asia - London 1948 PP. 151 154.

وقد عمد الانجليز الى المناورة لابقاء القوى الوطنية السياسية المضادة لهم ضعيفة ومقسمة ، وبوساطة الدعاية نجحوا فى أن يملأوا عقول الهنود بخرافات مضللة ؛ فتظن كل مجموعة من المجتمع الهندى أن الجماعات الأخرى تقف منها موقف التضاد ٠

وكانت الحكومة الوطنية فى البلاد تستخدم الجواسيس باعداد كبيرة للتعرف على اتجاهات الرأى العام فى هذه البلاد الواسعة ولضبط أى تآمر حتى قيل أن العدد كان يصل فى هذا العصر المبكر الى ثلاثين الفا فى خدمة راجاه واحد من حكام الاقاليم ٠

وباستخدام الانجليز بدورهم مثل هؤلاء الجواسيس لم يخطر لهم أنهم يقومون بحرب نفسية منظمة ، ولكنهم فى الواقع كانوا يفعلون هذا دون قصد ، فلم يكن من السهل استخدام عدد كبير من الجواسيس فى أى بلد مهما كانت مساحته دون أن يكشف نشاطهم عن وجودهم ، ومن ثم تولدت بين الشعب عقدة الخوف من الجواسيس Spy Phobia وكراهية لهم ولما كان السبيل متسعا للشك فى أى شىء تولد داخل المجتمع كراهية متبادلة بين الأفراد ٠

وفى خضم هذه الظروف المواتية استغل الانجليز الخلافات العقائدية ، فمثلا اذا وطىء مسلم دون قصد منه ذيل بقرة رابضة فى الطريق ، أو دق هندوسى على طبله أمام مسجد أثناء اقامة الصلاة نشأت اضطرابات أشبه بالحرب الأهلية ، واستغل الانجليز هذه الخلافات لزيادة الشقة بين الجماهير ٠

وفى معركة بلاسى Plassey التى كسب بها كلايف لحملة الأسهم فى شرقى الهند الشرقى اقليم البنغال قام هذا الرجل بواحدة من أهم صور الطابور الخامس فى التاريخ ، فقبل أن يهاجم جيوش نواب البنغال ـ أى حاكم البنغال ـ عقد كلايف اتفاقا سريا مع المير جعفر أحد قادة جيش « النواب » وبواسطة

عميل هندى فى خدمة الشركة تم الاتفاق على أن يكون المير جعفر حاكما للبنغال تحت رياسة الشركة مقابل امداد كلايف بخطة الجيش الهندى ، ومقابل معاونته للانجليز فى المعركة .

وقد تمت الخيانة وانتصر كلايف ، وفضلا عن الغرامة التى فرضها على النواب المهزوم والتى وصلت الى ملايين الروبيات ؛ فان المير جعفر بعد أن خدم الشركة لعدة سنوات تخلصت منه الشركة بتوريطه فى مشكلة سياسية .

ويقول أدموند تايلور فى كتاب « تاريخ الهند لباول براثب : ان الغرامة وصلت الى خمسة ملايين دولار قسمت بين الشركة وبين كبار موظفيها ، نال كلايف وحده أكثر من نصف مليون دولار(١) » .

وتكررت قصة معركة بلاسى بعد نحو القرن فى حرب سنة ١٨٤٨ ضد السيخ وأمكن انقاذ الانجليز من الفناء نتيجه خيانة « قائدين » من قادة السيخ اللذين تركاحدهما جنوده بعد تحطيم كوبرى كان المنفذ الوحيد للانسحاب .

وبعد ثلاث سنوات ثار السيخ ثانية وأنقذ ضابط انجليزى « الملازم ادواردز » الموقف باستغلاله الخلاف بين الجماعات فشكل قوات من المسلمين لمناصرة الانجليز ضد السيخ ، وعاد الانجليز فى الثورة الكبرى سنة ١٨٥٧ فسلحوا السيخ ضد المسلمين .

وكان هجوم الانجليز على العقلية الهندية بوساطة الدعاية فريدا فى بابه ، اذ استخدموا الأسلوب العلمى ، ولم يعملوا مباشرة لاثارة الفرقة بين الجماعات . وانما كانت سياستهم تؤدى الى ذلك ، وعلى الرغم من أنهم ساووا بين الجماعات المختلفة فقد استخدموا الطوائف المختلفة فى كبت الثورات ، فاذا ما ثار السيخ استخدموا المسلمين لكبت الثورة ، واذا ما ثار المسلمون استخدموا السيخ فى القضاء على الثورة ، وبذلك كانوا يبقون الخلافات بين الجماعات مشتعلة دائما .

---

(١) تاريخ الهند لباول برائب .

وهكذا فباتباع الانجليز سياسة « فرق تسد » استطاعوا أن يوجدوا الحواجز ، التى تمنع وحدة الشعب ٠

ولقد استمرت هذه السياسة الى آخر لحظة ٠٠ وكانت آخر مراحلها عملية تقسيم شبه القارة الهندية بين الهند وباكستان باثارة الرابطة الاسلامية ضد حزب المؤتمر الهندى مما لا مجال لمناقشته هنا على هذه الصفحات ٠

وفى غزو المانشو(١) Manchus للصين صورة فعالة من أساليب الحرب النفسية ، ولما كانت الأفضلية العددية لدى الصينيين بنسبة « ٤٠٠ : ١ » فقد استخدم المانشو الارهاب كوسيلة لكبح هذه الافضلية العددية ٠

ففى عام ١٦٦٤ م استولى المانشو على بكين بعد أن هزموا جيش الفلاحين الصينيين الذين جمعهم لى تسى تسنج وكان هؤلاء أقوى مقاومة شعبية فى التاريخ

---

(١) كان المانشو هم النوشين الذين عاشوا فى جبال شنجباى الوافرة الموارد الطبيعية ، وقد عاش الناس فى مجتمعات ريفية يستثمرون أرض الغابات يزرعها لهم أسرى الهان ويصطادون اللؤلؤ من نهر موتانكيانج ، وقد وحد نورهاشو زعيم النوشيين كل القبائل فى وحدة واحدة سنة ١٦١٦ تحت حكمه وقسم رعاياه فى ثمانية اقسام وكان رؤساء هذه الأقسام يشتركون فى حكم الدولة ، وكان الناس كلهم يعملون وقت السلم فى الانتاج فاذا بدات الحرب تحولوا الى جنود ٠ وجمع نورهاشو ٦٠٠٠٠ جندى هزم بهم جيش أسرة منج فى جبال سارهو ثم تقدم ليصطدم من جديد بجيش المنج تحت اسوار مدينة نينجيوان ولكن النوشين لم ينجحوا فى المعركة ، وجرح نورهاشو فى القتال ، ثم مات عند ارتداده بقواته الى شنيانج ٠

وخلفه ابنه هونجتايشى فاطلق الهان من الأسر والرق ونظمهم مع رعاياه ككتائب تحت امرة ضباط منهم ثم نادى بنفسه امبراطورا سنة ١٦٣٦ م وغير اسم الشعب من « نوشين » الى « مانشو » ٠

واخضع هونجتايشى منغوليا الداخلية ثم بدا اغارات على الصين واستطاع ان ينفذ الى ما وراء سور الصين العظيم وتقدم جنوبا الى هوبيه وشانتونج وفى احدى هذه الاغارات حمل المانشو معهم ٣٦٠٠٠٠ اسير من الأهلين و ٥٥٠٠٠٠ راس من الماشية وعربات كثيرة من الأسلاب ٠

الحديث • واستمر قادة لى تسى شنج يتولون أعمال المقاومة بعد وفاته هو ، وامتدت هذه الأعمال الى الجنوب تحت امرة شيه-كو-فا احد وزراء حكومة منج •

وكانت الأفضلية العددية فى جانب الصينيين فضلا عن طول خطوط مواصلات هونجتايشى مع موطنه فى منغوليا فى الشمال ولكن المانشو استخدموا الارهاب كوسيلة لكبح الأفضلية العددية التى لدى الصينيين •

وأمر المانشو بأن يحلق كل السكان الصينيين شعرهم ويبقوا فقط خصلات من الشعر فى وسط الراس •

واستمروا يقذفون المقاومين فى كيانجين بالمقذوفات والسهام حتى هلك السكان كلهم بعد حصار استمر واحدا وثمانين يوما •

واستمرت المقاومة فى شياتنج مدة شهرين ، ومرة أخرى تكررت المذبحة •

وتابع المانشو عمليات الارهاب ضد المقاومة الشعبية مهدرين دم كل من يقع فى أيديهم ولم يستطيعوا القضاء على آخر مقاومة شعبية فى نانكنج الا فى سنة ١٨٥٩ .

وقد استمر حكم المانشو حتى سنة ١٩١٢ حيث قضت على حكمهم ثورة الزعيم صن يات سن •

* * *

وقد فشل الاتراك فى ميدان الحرب النفسية ابان الحملة العظيمة لسنة ١٦٨٣ فى الحرب بين تركيا والنمسا أيام محمد الرابع •

ففى أواخر سنى حكم السلطان محمد الرابع قامت فى النمسا حركة مضادة للملك ليوبولد الاول الذى تولى العرش بعد حرب الثلاثين سنة مغتصبا للعرش .

ورأس الحركة أحد أمراء المجر هو الكونت أمرى دى توكلى يعاونه عدد من الأمراء ، واتصل توكلى بحكومة الاستانة للاستعانة بجيوشها فى حركة للخروج على ليوبولد • وبدأ زحف القوات التركية بعد أن عينت الدولة العلية توكلى أميرا لبلاد المجر الوسطى ، ووصلت القوات التركية بقيادة الصدر الاعظم قره مصطفى باشا •

وعقد الصدر الأعظم مجلس الحرب ، ولكنه اختلف فى رأيه مع بعض قادته ، وامر بحصار فيينا سنة ١٦٨٣م ، واستمر حصارها شهرين أغفل الصدر الأعظم طوالهما اجتذاب الاهلين الذين يعيشون على خطوط مواصلاته وكذا الناس فى المناطق حول فيينا ، ولم يعمل على تفتيت عضد المدافعين الذين أمضهم الحصار • ولقد استولى على جميع قلاع فيينا الخارجية وهدم أسوارها بالمدافع ، وكاد يتم فتحها لولا أن وصل حنا سوبيسكى ملك بولونيا مع حاكم ساكس وحاكم بافاريا بجيوشهم بتحريض البابا ايناشتينسيوس الحادى عشر الذى أثار فى قلوبهم نار التعصب الدينى ، وقد اشتهر حنا سوبيسكى بعد ذلك بلقب « حامى النصرانيين(١) » •

* * *

وفى الثورة الأمريكية لعبت الحرب النفسية دورا كبيرا ، فان الحملة الدعائية التى قام بها الراديكاليون أعضاء حزب الأحرار Whig ، أدت الى التحدى الاستعمارى من جانب بريطانيا • وقد أخذت هذه الحملة طابع المهارة والتخصص وصحبت بداية العمليات العدائية محاولات لاجتذاب الأهالى المدنيين عن طريق المنشورات التى توزع باليد •

واستخدمت القوات الأمريكية فى معركة « بنكرهل » واحدة من أوائل صور الدعاية فى خط القتال الأمامى بتوزيع نشرات على الضباط والجنود الانجليز تحثهم بصورة مباشرة على ترك صفوف الجيش الانجليزى والانضمام اليهم ،

---

(١) العميد « اسماعيل سرهنك » حقائق الأخبار عن دول البحار ـ المجلد الأول طبع بولاق سنة ١٣١٢ هجرية •

وتعدهم بالأجر الكبير ، والغذاء الكثير ، والرعاية الصحية مع التحرر ، ولا تزال هذه الفكرة مثالا جيدا صالحا حتى اليوم للدعاية فى ميدان القتال .

ولجأ الأمريكيون الى استخدام الصحف على نطاق واسع للحث على ضم الناس الى صفوف الثوار دفاعا عن قضية المستعمرات الأمريكية ، وعندما اتجه أصحاب الصحف الى جانب المستوطنين الامريكيين الموالين لملك بريطانيا ، حذر أصحاب الصحف من موقفهم وطلب منهم الوقوف الى جانب الوطنيين الاحرار . وفى ضوء تهديد مماثل من جانب الموالين للتاج البريطانى أبدى بعض أصحاب الصحف رغبتهم فى ايقاف اصدار صحفهم ، فحذروا ثانية بأن تعطيل الصحف سيعتبر خيانة لأمريكا .

ولقد استغل الجانبان ما تحت أيديهم من صحف استغلالا جيدا ، ولكن صحف الانجليز لم تكن منتشرة خارج المدن التى كانت معاقل القوات البريطانية . على ان المقالات التى نشرت فى هذه الصحف أو تلك والتى عنيت بالحديث عن الموقف السياسى لكل جانب ، وناقشت أوجه الخلاف الاقتصادية ، كان لها دورها الهام وبخاصة فيما يتصل بعمليات سير الحرب .

وقد أوضح جورج واشنطن قائد « الجيش القارى » لقوات الثوار اهتمامه بالدعاية للحرب ، ووضع تدابير سياسية وعسكرية معتدلة كانت هى القاعدة التى عملت منها دعاية الوطنيين الأحرار .

وفى التاريخ امثلة تجعلنا نقول : ان بعض الحروب تأثرت بصورة ما بكتاب أو آخر . وكانت حرب الثورة الأمريكية واحدة من هذه الحروب ، وقد وضع توماس بين[1] كتابه الحس المعقول Common Sense الذى صدر فى سلسلة

---

(١) توماس بين Thomas Baine (١٧٣٧ - ١٨٠٩) انجليزى الأصل انتقل الى امريكا حيث عاش واشتهر بأنه مواطن امريكى ثورى ، كاتب ومفكر سياسى من طابع ممتاز ، وله عدة مؤلفات أهمها قصته « كوخ العم توم » ولها اكثر من ترجمة باللغة العربية .

من الكتيبات ، واكتسح ما فى الكتاب التفكير الامريكى اكتساح النار للهشيم • وقد أشارت الكتيبات الى بعض الأسس فى التفكير الأمريكى وأبرزت قضية الثورة فى جرأة وفى أسلوب سهل حتى أن المتحفظين بين المواطنين الثوار لم يستطيعوا مقاومة استخدامها فى الدعاية •

لقد صار الكتاب من أمهات الكتب فى الأدب الأمريكى ، وفى الوقت نفسه صارت له مكانة فى التاريخ على أساس أنه « الكتاب الذى كسب الحرب » •

وكانت تجربة أمريكافىالحرب المكسيكية أقل نجاحا ، ولقد شن المكسيكيون حربا نفسية ضد الأمريكيين ، حتى أنهم نجحوا فى جعل رجال المدفعية الامريكية يقومون بمذبحة داخل صفوف القواتالأمريكية نفسها خارج مدينة نيومكسيكو .

وشرح المؤرخون فى كل من البلدين وعلقوا على حوادث الخيانة والتآمر التى جرت فى كلا الجانبين • ولقد مارس الجانبان فى الحرب الأهلية الامريكية الحرب النفسية ، وبخاصة من ناحية انشاء وسائل الدعاية فى انجلترا وفى قارة أوروبا ، واستخدم الشماليون وسيلة تجنيد وحدات من السود ، ففكر الجنوبيون بدورهم قرابة نهاية الحرب فى تجنيد قوات من السود • وحتى ان لم يكن تجنيد السود الوسيلة البارزة الرئيسية فى الدعاية فانه كان يوضح شعور المجتمع بالنسبة لموقف كل جانب عن السبب الذى قامت من أجله الحرب بغض النظر عن موضوع البقاء فى الاتحاد أو الخروج عليه ، كما يوضح أن الشماليين والجنوبيين على السواء نقلوا عوامل الصراع السياسى كالعادة الى خط القتال •

* * *

ومن الأمور التى تدعو الى السخرية والعجب ما قام به نابليون بونابرت حينما حاول غزو مصر عام ١٧٩٨ ليستعبد أهلها ويستغل ثرواتها ، فقد ادعى أنه قدم لينتشل المصريين من براثن ظلم المماليك ، وخلع على نفسه لقب حامى الاسلام ، بل تطرف فى تبجحه ونفاقه فادعى أنه مسلم ، وأنه يحارب النصرانية فى روما التى أرادت أن تحارب المسلمين • ولم يمض وقت طويل حتى كانت خيول الغزاة الأفاقين تدوس الجوامع وتضرب الثوار بكل قسوة وعنف •

ونحن نضع أمام القارىء صورة المنشور الذى وجهه نابليون الى شعب مصر حينما وطئت قدماه مدينة الاسكندرية ، وهو يعطينا صورة واضحة من أساليب الحرب النفسية ٠

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه » .

« من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته يعرف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى ٠ فحضر الآن ساعة عقوبتهم ، وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها » ٠

« فأما رب العالمين القادر على كل شىء ، فانه قد حكم على انقضاء دولتهم » .

« يأيها المصريون ٠٠٠

« قد قيل لكم أننى ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم ، فذلك كذب صريح ٠٠ فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين : أننى ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، واننى ــ أكثر من المماليك ــ أعبد الله ــ سبحانه وتعالى ــ واحترم نبيه والقرآن العظيم » ٠

« وقولوا أيضا لهم : أن جميع الناس متساوون عند الله ، وأن الشىء الذى يميز بعضهم عن بعض هو : العقل، والفضائل، والعلوم فقط ، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ٠٠ فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء حسن فيها : من الجوارى الحسان ، والخيل العتاق ، والمساكن المفرحة » ٠

« فان كانت الأرض المصرية التزاما للماليك ، فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم • ولكن رب العالمين رءوف ، وعادل ، وحليم •

« ولكن بعونه تعالى ، من الآن فصاعدا ، لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية . فالعلماء ، والفضلاء ، والعقلاء بينهم سيدبرون الامور •• وبذلك يصلح حال الامة كلها » •

« وسابقا كان فى الأراضى المصرية : المدن العظيمة ، والخلجان الواسعة ، والمتجر المتكاثر •• وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك » •

ايها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد ••

« قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم ايضا مسلمون مخلصون ، واثبات ذلك انهم قد نزلوا فى رومية الكبرى ، وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية[1] الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين •

« ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى ، واعداء أعدائه • أدام الله ملكه •• ومع ذلك ان المماليك امتنعوا من اطاعة السلطان ، غير ممتثلين لأمره ، فما أطاعوا أصلا الا لطمع أنفسهم •

« طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تاخير فيصلح حالهم ، وتعلى مراتبهم » •

« طوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين ، فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا الينا بكل قلب •

---

(١) او « الكفاليرية » ماخوذة من الكلمة الافرنجية التى تعنى « فارس » وهم طائفة من مخلفات الحروب الصليبية استقرت فى مالطة •

« لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا الى الخلاص ولا يبقى منهم أثر ٠

المادة الأولى :

جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية ، واجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار اليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذى هو : أبيض ، وكحلى ، وأحمر ٠

المادة الثـانية :

كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار ٠

المادة الثالثة :

كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى أيضـا ينصب صنجاق السـلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه ٠

المادة الرابعة :

المشايخ فى كل بلد يختمون حالا جميع الارزاق والبيـوت والاملاك التى تتبع المماليك ، وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شىء منها ٠

المادة الخامسة :

الواجب على المشايخ والعلماء والقضـاء والائمة أنهم يلازمون وظائفهم ٠ وعلى كل أحد من أهالى البلدان أن يبقى فى مسكنه مطمئنا ، وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة ٠

« والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله ـ سبحانه وتعالى ـ لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عالى : أدام الله اجلال السلطان العثمانى ٠ أدام الله اجلال العسكر الفرنساوى ٠ لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية ٠

« تحريرا بمعسكر اسكندرية فى ١٣ شهر سيدور من اقامة الجمهور الفرنساوى » •

هكذا كان نابليون ، وقد عاد فهدد بالعقاب والضرب كل من يثور ضد المستعمر ، ولقد أراد أن يخضع أهل البلاد فتجرأ على كتاب الله الكريم وزعم أن ما حدث للبلاد نتيجة أطماعه فيها صرح به القرآن الكريم فى آيات كثيرة • ومما يؤسف له أن بعض المرتزقة من العلماء ساعدوه فى كتابة هذه الافتراءات ، بعد أن امتلأت بطونهم من يد المستعمر البغيض •

اننا لم نطل الوقوف أمام هذا المثال الا لما فيه من عبرة لأبناء هذا الجيل ، فالمستعمر مهما كان غرضه خبيث شرير ، قد يتخذ شكل الحمل الوديع أو حمامة السلام وهو حقيقة ليس الا حية ملساء تحمل سموم الفتك والدمار •

وبعد هذا السرد التاريخى لهذه القصص وتلك الأساطير نجد أن الوسائل الفعالة التى استعملت فى مضمار الحرب النفسية هى :

١ ـ الخداع عن طريق الحيل والايهام •

٢ ـ اثارة القلق باستخدام وسائل غير مألوفة •

٣ ـ الشتائم •

٤ ـ افتراءات العدو وعرض قضيته التى يحارب من أجلها •

٥ ـ خلق قوة خاصة جبارة لا تقهر •

٦ ـ التهديد بواسطة التسليح •

٧ ـ بث الذعر واطلاق الشائعات •

٨ ـ التحقير من قوة العدو •

٩ ـ الاغراء والتضليل والوعد •

١٠ ـ استغلال الخلافات الدينية والعقائدية •

١١ ـ الارهاب •

وينقص هذه القائمة ـ اذا ما قورنت بالحرب النفسية الحديثة ـ استعمال الوسائل المخططة على نطاق دولى واسع ، كما ينقصها كذلك استعمال الوسائل الفنية الحديثة ٠

وهكذا يمكن جمع شتات هذه الأمثلة لنخرج منها بنتيجة واحدة هى :

« يسعى دائما كل طرف من أطراف النزاع قبل المعركة المسلحة وفى أثنائها الى اضعاف موقف الطرف الآخر عن طريق شن هجوم عنيف على القوى الروحية والنفسية لديه ، وفى الوقت نفسه يسعى الى تقوية موقفه هو » ٠

دروس الحربين العالميتين :

على أن النماذج الحديثة تشمل العقائد التى تنطبق على الحرب النفسية وصارت اليوم اجراء عسكريا موطد القدم فى الجيوش الحديثة ٠

فقد شهدت الحرب العالمية الأولى تحول الحرب النفسية من وسيلة عرضية الى آلة عسكرية رئيسية ٠ وقيل فى تاريخ لاحق : أن الحرب النفسية كانت السلاح الذى كسب الحرب ، وراح أولئك الذين كانوا يتولون أمر الدعاية فى صفوف الحلفاء ينشرون الاعتقاد بأن مهارتهم كانت قاطعة ، وأن القتال العنيف الذى جرى فى الخنادق لم يكن بأكثر من شل حركة الجانبين المتضادين ٠

والواقع أننا اذا قدرنا الحرب النفسية فى خطوطها العريضة نستطيع أن نقرر أنها كانت سلاحا بين الاسلحة القاطعة فى حرب ١٩١٤/١٩١٨ ، فقد لعبت سياسة الحلفاء الملطفة ، ونقاط ويلسون الأربع عشرة ، وطابع الاهمال الذى اتصف به القيصر غليوم ، ثم انبعاث القوميات البولندية والفنلندية والتشيكية والسلافية ٠٠ دورا حقيقيا فى استسلام المانيا سنة ١٩١٨ ٠

ولكن هل كان هذا الدور أعظم من الدور الذى كان للمدافع والجنود والسفن والطائرات والدبابات ؟ فى الواقع ليس من السهل الاجابة عن هذا السؤال ، فمثله مثل سؤال عداء من عدائى المسافات الطويلة عما اذا كانت رئتاه أو ساقاه

أو رأسه قد أسهمت باكثر من غيرها فى فوزه • ولما كانت الحرب تدور بواسطة ــ وضد ــ كل أجزاء الشخصية البشرية ، من : بدنية ، ومهارة ، وذكاء ، وغيرها، فانه من المستحيل أن نميز بين دور سلاح وسلاح فى تحقيق الهدف •

ولقد احتلت الدعاية مكان الصدارة فى الحرب لان الأمم المشتركة فى الحرب جعلت وسائل الاتصال الجماهيرية جزءا من حياتها المدنية ، وتبعا لهذا لم يكن معدى من أن هذه المهارات التى تطورت فى الحياة المدنية يجب أن تنتقل الى المجال العسكرى ، وكانت جهود الحرب النفسية لكل من الدول المقاتلة البديل المباشر لدعايته غير السياسية فى أيام السلم • فأنشأت وزارة الخارجية البريطانية سنة ١٩١٤ مكتبا للدعاية ، ولكن الجزء الأكبر من الجهد كان يتم بوساطة المؤسسات الخاصة • وكانت نتيجة الصعاب التنظيمية التى قابلها الانجليز أن أصبح لديهم فى نهاية الحرب وكالتان منفصلتان : الأولى تتكون من وزارة الاستعلامات تحت رياسة لورد بيفربوك ومعها ادارة المخابرات تحت رياسة الكولونيل بوكان للقيام بأعمال الدعاية خارج بريطانيا • أما الوكالة الأخيرة فهى اللجنة القومية لاغراض الحرب وتقوم بأعمال الحرب النفسية داخل بريطانيا •

* * *

ولم ينجح الالمان فى دعايتهم فى الحرب العالمية الأولى ولا سيما فى الجبهة الداخلية ، فلقد بدأت الحكومة الامبراطورية الحرب سنة ١٩١٤ واثقة من قوتها ، ولكنها لم تقدر عوامل القوة بين صفوف الجماهير ، فقد كان القيصر غليوم الذى ورث عن سلفه عرشا وجيشا كبيرا يؤمن بأن الأمر لا يعنى به أحد سواه ، اما الجماهير فيحسن ان يبعدوا أنوفهم عن هذه الامور •

واستفادت المانيا الهتلرية من هذا الدرس • اذ وصلت النازية الى السلطة عن طريق استمالة الرجل العادى ، وطبق هتلر هذا التكنيك فى الميدان الدولى بادئا بتملق الجماهير فى كل مكان ، وقام بالعروض التى تدل على القوة ، ثم انتهى الى الوحشية الباردة التى لا يهمها كل ما يحدث فى سبيل تحقيق هدفها •

وكان لأمريكا فى الحرب العالمية الأولى هيئتـان للدعاية ، الوكالة المدنيـة للمعلومات والتى عرفت دوليا باسم لجنة كريل Creel نسبة الى رئيسـها مستر جورج كريل ، ثم الوكالة العسكرية ولها قسم للدعاية أو للحرب النفسية فى هيئة العمليات« G - 2D » بمركز رياسـة الحمـلة الامريكيـة تحت رياسـة النقيب هيبربلانكنهورن Heber Blankenhorn ٠

وقد وفقت لجنة كريل فى الحصول على معـاونة منسـقة من كل الادارات الحكومية الاخرى اذ أن رئيسها كان موضع ثقة الرئيس الامريكى ٠ وأعدت لجنة كريل متحدثين متطوعين يتحدثون فى كل المجتمعات الامريكية ، وظهرت لافتات كتب عليهـا «Four Minutes Men» بمعنى أن المتحـدث لا يتكلم غير أربع دقائق ، وأعدت أفلاما للدعاية عرضت فى كل أنحاء العالم ، وجاء وقت هـدد كريل شركات العرض السويسرية بمقاطعتها ما لم تعرض أفلام الدعاية الأمريكية كما أرسل كريل مبعوث الدعاية الى فرنسا ، وانجلترا ، وايطاليا ، وسويسره ، وهولنده ، وأسبانيا ، واسكنديناوه ، والمكسيك وغيرها من بلاد امريكا اللاتينية وكذا الصين وروسيا ٠

ثم جاءت الثورة البولشفية فى السنة الرابعة للحرب ، واستندت هـذه الثورة الى الدعاية، ثم استمرت الدعاية السلاح الرئيسى الفعال فى أيام البولشفيك ثم عند التحول الى الشيوعية ، وقد استخدمت الدعاية البولشفية الوسـائل التالية :

١ ـ تنظيمات الحزب الشيوعى ٠
٢ ـ اتحادات العمال ٠
٣ ـ المنظمات السرية ٠
٤ ـ البعثات التجارية والقنصلية ٠
٥ ـ النشرات التى ترسل بالبريد ٠
٦ ـ الملصقات والكتب والصحف ٠
٧ ـ الأفلام والراديو ٠

والواقع أن ما حققته الشيوعية فى ميدان الحرب النفسية كان يعتبر دائما جزءا خاصا من تطبيقات الماركسية ، ولم ينظر اليه على أنه فن يمكن أن تتعلمه أو تستخدمه أية شعوب أخرى لا تدين بالشيوعية • وكذلك اعتبر الاكتساح التاريخى الذى قامت به الجيوش الصينية الوطنية بين عامى ١٩٢٢ ، ١٩٢٧ مسألة صينية بحتة ، واغفلت الدروس التى كان من الممكن تعلمها من الحرب النفسية التى قام بها الشيوعيون الصينيون • وفى أثناء هذا كانت ألمانيا تخوض غمار حرب نفسية داخلية ، ولم يستيقظ العالم من غفوته ليدرك وجود هذا السلاح الجديد ، الا بعد أن وصل هتلر الى مركز مستشار الرايخ ، وبدأ استعمال تكتيكات « القمصان الرمادية » فى الشئون الخارجية •

وهنا يجب أن نشير الى حقيقة هامة ، فالنازيون من البداية لم يؤمنوا بالعقيدة التى يبشرون بها بالقدر الذى آمن الشيوعيون بعقيدتهم • فمن البداية اعتبر الشيوعيون الدعاية سلاحا جديدا قاسيا يمكن أن يؤدى الى تحقيق قوة حديثة • كان الشيوعيون قد أوضحوا بأن أقلية لها رسالة مقدسة من اختراعها يمكن أن تحصل على تعضيد الجماهير لحكومة تزعم أنها تهدف للعمل من أجل الشعب وان كانت لم تقم بوساطة الشعب ولا من بين صفوف الشعب ، واتخذ النازيون هذا مثلا يحتذى •

وجاء جهاز النازية الى حد بعيد تطبيقا للمثال الشيوعى، وان كان التطبيق لغاية مختلفة • كانت الغاية بالنسبة للنازية « حكم العالم » وكانت الغاية بالنسبة للشيوعية « قيام الشيوعية الدولية » • والمهم أن كليهما اعتبر أن أية وسيلة لها نفعها فى أى وقت ما دامت تؤدى الى الغاية البعيدة • ولما كان زعماء الحزب فى كليهما هم وحدهم الذين يقررون ما اذا كان عملا معينا يمكن أن يؤدى فعلا الى « الغاية » أصبح هدف العمل هو تحقيق السيطرة والسلطة •

ونمت الدعاية فى كلتا الدولتين لتكون « ايديولوجية » • على أن الذى جعل « الحرب النفسية » ذات طابع خاص فى الحرب العالمية الثانية حقيقة أن النازية والفاشية قاتلتا على أساس حرب تدار بأسلوب نفسى أى « الحرب الشاملة » •

الحرب النفسية فى فترة الحرب العالمية الثانية :

واستطاعت دول المحور « روما ـ برلين ـ طوكيو » أن تجعل شعوبها أولا راضية عن القيام بحرب عدوانية ، ثم قامت بتفتيت خصومها للحصول على النصر جزءا بعد آخر ، وكان عليها أن تخيف أعداءها المباشرين ، وأن تهدىء خصومها المنتظرين .

وقد اقتضت كل المحاولات التى سبقت العمليات العدائية استخداما واسع النطاق للدعاية « السوداء » برغم ما بذل من جهد كبير لاخفاء تلك الدعاية .

ولقد حقق الألمان فى ميدان الدعاية ثلاثة انتصارات :

١ ـ فى المجال السياسى بجعل كتلة كبيرة من الرأى العام الدولى ترى أن مستقبل العالم يتوقف على الاختيار بين الشيوعية والفاشية .

٢ ـ فى المجال الاستراتيجى بأن تبدو كل ضحية على أنها هى الضحية الأخيرة ، وبذلك كانوا يجدون فى كل مرة الفرصة للمضغ الجيد وازدراد ما يمضغونه .

٣ ـ فى الميدان السيكولوجى باستخدام « الذعر الكامل » بجعل الشعب الألمانى نفسه يخشى من تصفية الشيوعية له ، كما استخدمت أفلام عمليات الحرب الخاطفة لاخافة الجماعات الحاكمة فى دول أخرى ولتحطيم المعنويات ، وتسبب عن ذلك ما يسمى «بالانهيار العصبى» للأمم وذلك بابقائها دائما فى حالة شك وعدم تيقن مما يمكن أن يحدث لها غدا .

ومن ناحية أخرى لوحظ أن كلا من المانيا وبريطانيا وجدتا فى الاذاعة وسيلة فعالة يمكن توجيهها الى كل دول أوروبا على الموجات العادية ، بل تستطيع كل منهما أن تتداخل فى الاذاعة الاخرى بالقيام بما يسمى « أعمال الشوشرة » .

والحق أننا نجد أن كلا منهما ركز اهتمامه لجذب انتباه أكبر عدد من المستمعين والتأثير فى معتقداتهم ، وعواطفهم ، وولائهم سواء أكانوا أصدقاء أم محايدين أم أعداء •

وخرج الألمان مما يسمى « حرب الاذاعة » بدرس أو مبدأ أساسى هو عدم السماح لاذاعتهم أن تسبق الحوادث ، اذ كان الراديو الالمانى يعد المستمعين أحيانا بأشياء لا يستطيع أن يحققها العسكريون ، وكان الانجليز ينتهزون تلك الفرصة بالتقاط هذه النداءات وتوجيه أنظار المستمعين اليها ، مما جعل الالمان يضعون ضباط اتصال من الجيش فى الاذاعة لمراقبة الاذاعيين فى توجيه اذاعاتهم حتى لا يعدوا بما لا يمكن تحقيقه •

أما الولايات المتحدة فلم يكن لديها بعد بداية الحرب فى الشرق الاقصى بل حتى بعد اشتراكها فى العمليات الحربية بأوروبا أى أقسام مدنية أو عسكرية تتوافر لها وسائل الدعاية ، ولكن كان لها فى الواقع صلات غير مباشرة فى كل أنحاء العالم أقامتها مجموعة صحف Fortune - Life - Time فضلا عن الريدرزدايجست •

وكان يبدو ممكنا أن تضع الحكومة يدها على كل صحيفة ومجلة وكل محطة اذاعة فى البلاد ، وأن تنسق هذه كلها للمصلحة القومية ، ولكن هذا لم يكن مستطاعا مع وجود دستور ومع وجود محاكم تمكن من تنفيذ الدستور ، وبذلك وضح أنه يجب توقع تدخل من جانب وسائل النشر الخاصة •

وكان أول ما فعله الرئيس روزفلت أن عين دونوفان « منسقا للمعلومات » «C. O. I Co-ordinator of Information» وامتلأت ادارته بالاخصائيين ولا سيما فى القسمين الخاصين بالبحوث والتحليلات ، وجمعت أكوام من المعلومات السياسية ، والجغرافية، والاقتصادية ، ونسقت عمليات الاذاعة مع الاستراتيجية من جهة ومع السياسة الخارجية من جهة أخرى • ولكن الظاهرة الهامة أن كل المتاعب التى واجهها الامريكيون فى الحرب النفسية التى تولوها كانت تكمن فى الناحية الادارية •

وفى ١٣ من يونيو ١٩٤٢ أنشأ الرئيس روزفلت « ادارة معلومات الحرب » Office of War Information لتتولى السيطرة المباشرة وغير المباشرة على كل الدعاية المحلية والدعاية الخارجية فى نصف الكرة الغربى الذى بقى تحت ادارة لجنة روكفلر فى وزارة الخارجية ، وأخذت ادارة معلومات الحرب قسم الاذاعة من ادارة التنسيق COI التى تغير اسمها الى ادارة الخدمات الاستراتيجية Office of Strategic Services وحددت أغراضها بالآتى :

١ ــ استمرار جمع المعلومات .

٢ ــ القيام بالدعاية السوداء .

٣ ــ القيام بأعمال المؤامرات والتقويض بالتعاون مع السلطات العسكرية

* * *

ومع أن اليابانيين لم يخترعوا الا القليل فى الحرب النفسية فقد أحسنوا استخدام « الأنباء » كوسيلة لاجتذاب المستمعين الامريكيين ، فقد استمرت وكالة « دومى » Domei للأنباء تصدر نشراتها بالانجليزية ، واستمرت أجهزة مورس اللاسلكية فى ارسال الأنباء الى الصحف الامريكية .

ومن جهة أخرى طور الروس حتى من أنفسهم فى معركة الحرب النفسية ، اذ نجحوا فى تجميع مواطنيهم وتكتيلهم ضد العدو اذ طالبوا الشعب بأداء الصلوات فى الكنائس من أجل النصر ، وأطلقوا على الحرب اسم « الحرب الوطنية الكبرى » وأعادوا للألمان ذكرى فردريك وبعثوا نصيحة بسمارك بعدم القاء جنودهم فى أى مغامرة نحو الشرق من بلادهم ، وأثاروا طبقة «اليونكرز» ضد النازيين غير المحترفين ، الذين يحطمون الجيش الالمانى ، واستخدموا الاسرى الألمان فى الدعاية ، وجعلوا الجنرالات النازيين يتحولون الى حركة ألمانيا الحرة .

الشكل الحديث للحرب النفسية :

تمخضت الحرب العالمية الثانية عن صراع مذهبى كبير بين المنتصرين ، وأدى هذا الصراع الى أن عاش العالم فى جو من الاضطراب والقلق ، بدرجة فاقت ما كانت تتوقعه الشعوب التى قاست كثيرا من مآسى الحرب العالمية الثانية .

ان الحرب النفسية قد دخلت فى مرحلة لا هى حرب فعلية ، ولا هى سلام حقيقى . اذ حاول كل من المعسكرين أن يعالج المشكلات الدولية بطريقته الخاصة ، ومفهومه السياسى . وتسابق الطرفان فى ميدان الحرب النفسية بشكل لم يظهر فى التاريخ الحديث ، مما أدى الى ما سماه والتر لبمان « الحرب الباردة » باشكالها المختلفة . ان هذا الاصطلاح قد أصبح جزءا هاما من حديث المثقفين فى العالم أجمع . وعلى الرغم من المجادلات والآراء المختلفة التى دارت حوله فلم تلق أضواء للتفسير والشرح بقدر ما أثارت من اللبس والغموض .

ان الوصف الكامل الدقيق للمرحلة التاريخية الراهنة ، أن يتضح ، ولن يكتب الا بعد نهاية هذا الصراع المرير الذى لا يتحمل أعباءه وتضحياته الا تلك الشعوب الصغيرة التى يمارس على أرضها هذا النوع الجديد من الحرب النفسية .

ان معركة خليج الخنازير ، وأزمة صواريخ كوبا التى وصل فيها الارهاق النفسى لكل من المعسكرين الى درجة تهدد باندلاع عاصفة عاتية قد تودى بالمدنية والحضارة الانسانية ، تعطيان صورة واضحة عما قام به الطرفان من استغلال الحرب النفسية فى مفهومها الجديد على أوسع نطاق .

كما تعطينا الأحداث الجارية الآن فى فيتنام مظهرا ساخنا لحلقة من حلقات الحرب الباردة الدائرة بين المعسكرين ، ولا سيما بين كل من الصين الشعبية ، والولايات المتحدة فى جنوب شرقى آسيا . ومن المشاهد أن كلا من الولايات المتحدة ، وبريطانيا تعمل بصفة خاصة لزيادة احكام الحصار على الصين الشعبية فى منطقة جنوب وجنوب شرقى آسيا بمحاولتهما اقامة سلسلة جديدة من الاحلاف

تكمل الحصار الذى يمثله حلف جنوب شرقى آسـيا ، وذلك بمحاولة ادخال اليابان ، والفلبين ، ونيوزيلاندا ، وفيتنام الجنوبية ، وكوريا الجنوبية ، وغيرها فى نطاق هذه الأحلاف ٠

ان المظاهر الاساسية للحرب النفسية فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية أخذت أشكالا عديدة من كلا الطرفين ، فاحد هذه المظاهر التسابق العنيف فى التسلح النووى برغم الجهود التى تبذلها الأمم المتحدة نحو السـلام ، وكذا الحروب المحلية العديدة . ويمكن أن نقول : ان الصراع المذهبى بين الكتلتين والتحرر السريع لكثير من دول أفريقيا وآسيا قد جعل كلا من الطرفين يحاول أن يستعرض عضـلاته التى تسند مذهبـه الايديولوجى ، وقد أخـذت معركة الاذاعة السوداء حظا كبيرا فى هذا الصراع وبشكل لم يظهر فى التاريخ من قبل ، وساعد على ذلك التطور الكبير فى أجهزة الارسال ، والاستقبال ، وانتشار أجهزة الراديو الرخيصة فى جميع أنحاء العالم وسنتعرض بالتفصيل لهذا الموضـوع فيما بعد ٠ وفى كل يوم تطالعنا الصحافة ووكالات الأنبـاء بأنبـاء مثـيرة عن اكتشافات الفضاء ، ويحاول كل معسكر أن يبرز للعالم سبقه فى هذا المضمار .

ان التناقض الذى يسود العالم فى هذه الفترة الحرجة قد يؤدى الى القضاء على مصير الانسـانية ٠ فاذا لم تتفهم الامم المتحـدة وتلك القوى المتصـارعة مسئوليتها التـاريخية فى دعم السـلام حقيقة وبذل الجهود الخـالصة لتحقيق التعايش السلمى بين شعوب المجتمع الدولى ، فلا مفر من اشتعال حرب شاملة قد تقضى على البشرية فى نهاية الأمر ٠

الفصل الثالث

مفاهيم متغيرة

ليس من السهل بحال أن نضع تعريفا محددا للحرب النفسية ، أو نحدد مجالها • وحتى وقتنا هذا فان الحرب النفسية غير واضحة فى أذهان الكثيرين على الرغم من الكتابات الأجنبية العديدة التى عالجت هذا الموضوع . والحرب النفسية تبدو فى أذهان الناس بمفاهيم مختلفة متغيرة ، ولم يتمكن حتى أولئك الذين تخصصوا فى هذا الموضوع أن يضعوا هذا الاصطلاح فى اطار واضح المعالم •

وفى هذا الفصل سنحاول أن نعرض للمفاهيم المختلفة للحرب النفسية ، ولتعريف كثير من الثقات لها ، بأمل أن نبرز مجال هذا النوع من الحرب وحدوده .

عرفت الحرب النفسية أول ما عرفت فى ملحق معجم ويبستر الدولى الجديد للغة الانجليزية عام ١٩٤١ • وقد اعترف بالتعبير فى الأيام الأولى من الحرب العالمية الثانية عندما قام جماعة من الامريكيين بترجمة بعض المطبوعات الألمانية الهامة بهدف أن يدرك القادة الأمريكيون — العسكريون والمدنيون — أن دروس علم النفس يمكن بل يجب أن تستخدم فى كل نواحى الحرب فى الظروف الحديثة •

وحظى التعبير باعتراف سريع نسبيا فى خلال النزاع الذى كان قائما فى أوروبا وفى آسيا • وقبيل نهاية الحرب كان قد استقر فى كل مسرح عسكرى

وفى كل قيادة هامة وفى كل ادارة خاصة على القيام بهذا النشاط الذى كان يوصف فى الحرب العالمية الاولى أنه من قبيل الدعاية • وبتطور هذا التعبير فى أثناء الحرب اقتصر استعماله على نشاط الدعاية العسكرية • وكانت تطلق على الدعاية السياسية الاستراتيجية أسماء مختلفة ، ولكن قلما كان يوصف هذا النشاط بأنه حرب نفسية •

وبالرغم من أن عبارة « الحرب النفسية » صادفت قبولا واسعا فى الدوائر العسكرية فى الحرب العالمية الثانية ، فان استخدامها فى المطبوعات بعد الحرب كان بطيئا • دفيما عدا الكتاب الذى وصف الحرب النفسية الالمانية الذى نشر عام ١٩٤١ ، كان أول مؤلف أمريكى(١) استخدم هذه التسمية بصفة رسمية كعنوان لكتابه هو بول لاينبارجر • وفى العام التالى ظهر كتاب « الحرب النفسية ضد المانيا » لمؤلفه دانيل ليرنر •

ولقد ازدادت أهمية الحرب النفسية فى المانيا عندما قام الالمان الذين هزموا فى الحرب العالمية الاولى ببحث أسباب انهيارهم • واعتقد خبراء الالمان أن العدو قد تفوق عليهم فى استخدام أجهزة الاعلام الجماهيرية « وهى التى يشيرون اليها غالبا تحت اسم الدعاية » ، كما يرجع سبب هزيمتهم الى فشلهم فى استخدام كل أسلحتهم للتأثير بأقصى ما يمكن على ارادة الاعداء •

وكان رواج استخدام التعبير « الحرب النفسية » هو نتيجة التوسع السريع فى ازدياد عدد علماء علم النفس المتخصصين فى المانيا والولايات المتحدة وغيرهما من الدول الاوروبية • كان علماء النفس يبحثون لهم عن مكان تحت الشمس ، بمعنى أنهم كانوا يتوقون لأن يثبتوا أن بامكانهم استخدام مهاراتهم فى الدفاع القومى زمن الحرب • وفى بداية الحرب العالمية الثانية قام جماعة من الأمريكيين بترجمة بعض الكتب الالمانية الى اللغة الانجليزية بغرض أن ينتبه العسكريون الى فائدة علم النفس فى مجال من مجالات الحرب فى الظروف الحديثة •

---

(١) Linebarger M. A. Psychological Warfare, 2 ed Combat forces Press, Washington, D. C. 1954.

ولذلك عندما نقول : ان الحرب النفسية تسمية جديدة لفكرة قديمة قد يزداد غموضها ، فليس معنى هذا أننا ننكر أهمية التسمية • وبالرغم من أن الروس لم يهتموا بالتعبير كثيرا فقد كانوا أكثر ادراكا للفكرة الاساسية من الالمان• فقد عمد قادة الاتحاد السوفييتي الذين استولوا على الحكم الى أن يجمعوا بين الدعاية وبين الأعمال الأخرى تجاه الحكومات المترنحة والجماهير غير الراضية . ولم يشعر القادة السوفييت بضرورة ايجاد كلمة جديدة لمفهوم أو لفكرة مفهومة تماما ومطبقة تطبيقا كاملا •

وحتى بعد نشوب النزاع المسلح فى كوريا كان الكتاب يترددون فى استخدام هذه التسمية فيما عدا استخدامها فى الحرب العالمية الثانية ، للاشارة الى عنوان فرع ، أو قسم من فروع ادارة عسكرية أو أقسامها •

وبعد أن تورطت الولايات المتحدة والأمم المتحدة فى النزاع المسلح فى كوريا عام ١٩٥٠ ، وبعد أن افتتح الرئيس ترومان الحملة الاستراتيجية الامريكية الكبرى المسماه « حملة الحقيقة » دخلت هذه التسمية تدريجيا فى مجال المناقشات العامة ، وفى مناقشات الكونجرس الأمريكى وفى الصحف ، وذلك عند وصف الأنشطة التى كانت تقوم بها أجهزة الحكومة الامريكية والتى كانوا يطلقون عليها قبل ذلك اسم « استعلامات ما وراء البحار » • وفى سنتى ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ كان هذا الاسم يستخدم بطريقة غير مناسبة ليصف المجال الواسع للاتصالات الدولية التى تمتد من الدعاية العسكرية فى ميدان القتال الى التبادل السلمى للعلماء وقادة الرأى بين الدول الصديقة التى يسودها السلام •

تعريف الحرب النفسية :

ولقد جاء الاختلاف فى تحديد تعريف واضح للحرب النفسية ، نتيجة أن مجال نشاطها غير متفق على حدوده ، وحتى بين الهيئات المختلفة داخل دولة واحدة ، فان مفهوم الحرب النفسية يختلف وتفسره كل هيئة بشكل متغاير •

فمن بين أول التعاريف التى وضعت للحرب النفسية التى كان تجمع عليها القوات العسكرية الأمريكية أن : « الحرب النفسية هى استخدام أى وسيلة بقصد التأثير على الروح المعنوية ، وعلى سلوك أى جماعة لغرض عسكرى معين » .

وقبل مرور عام على اصدار ذلك التعريف ـ وقد لاقى قبولا رسميا من كل القوات العسكرية الثلاث ـ قامت مدرسة الجيش البرى العامة باصدار كتاب يعرف مفهوم الحرب النفسية كما يلى : « تتضمن الحرب النفسية استخدام الدعاية ضد عدو مع استخدام عمليات عسكرية أو اجراءات أخرى تدعو الحاجة اليها لتكملة مثل هذه الدعاية » .

وبعد ثمانية عشر شهرا أصدر الجيش الامريكى معجما جديدا يتضمن المصطلحات الحربية ، وقد عرف المعجم الحرب النفسية تعريفا مختلفا :

« الحرب النفسية هى استخدام مخطط من جانب الدولة فى وقت الحرب ، أو فى وقت الطوارىء لاجراءات دعائية بقصد التأثير على آراء وعواطف ومواقف وسلوك جماعات أجنبية عدائية أو محايدة أو صديقة بطريقة تعين على تحقيق سياسة الدولة وأهدافها » .

وبعد ثلاث سنوات أصدرت وزارة الحرب طبعة جديدة للمعجم ظهرت فيها تغييرات هامة فى هذا التعريف :

« الحرب النفسية هى استخدام مخطط من جانب دولة أو مجموعة من الدول للدعاية وغيرها من الاجراءات الاعلامية الموجهة الى جماعات عدائية ، أو محايدة ، أو صديقة للتأثير على آرائها وعواطفها ومواقفها وسلوكها بطريقة تعين على تحقيق سياسة وأهداف الدولة المستخدمة أو الدول المستخدمة » .

ومن أهم التغييرات التى طرأت على التعريف الأول هو استبعاد الكلمات « فى وقت الحرب أو فى وقت الطوارىء » . وقد أوحى بهذا الاستبعاد الاتجاه السائد فى ذلك الوقت بشأن وصف النشاط الذى كانت تقوم به ادارة الاستعلامات الدولية التابعة لوزارة الخارجية الأمريكية على أنه من قبيل الحرب النفسية .

العناصر الأساسية :

فى مارس عام ١٩٥٥ أصدرت وزارة الحرب الامريكية كتاب ميدان يتضمن أحدث الآراء الرسمية على مفاهيم الحرب ومبادىء الحرب النفسية • وقد عرف الكتاب الموضوع كما يلى :

« الحرب النفسية هى الاستخدام المخطط للدعاية وغيرها من الاعمال التى تستهدف قبل كل شىء التأثير على آراء وعواطف ، ومواقف ، وسلوك جماعات عدائية ، أو محايدة أو صديقة بطريقة تعين على تحقيق أهدافها القومية » •

ويجب أن نلاحظ أن هذا التعريف لا يحدد استخدام الحرب النفسية بزمن الحرب أو وقت اعلان الطوارىء ، كما أن التعريف يتضمن « الاستخدام المخطط » واعمالا أخرى • ويجب أن نقارن هذا التعريف بالتعريف الذى ظهر فى أحد مطبوعات الولايات المتحدة العسكرية الذى طبع فى مايو عام ١٩٥٥ :

« الحرب النفسية هى استخدام مخطط فى وقت الحرب أو وقت اعلان الطوارىء للدعاية الموجهة الى جماعات معادية أو محايدة أو صديقة بغرض المعاونة على تحقيق الأهداف والأغراض القومية » •

والسؤال الذى يتبادر الى الذهن هو هل يتضمن الحرب النفسية استخدام « أعمال أخرى » ، وهل هى مقصورة على « وقت الحرب » و « وقت اعلان الطوارىء » ؟ ويجوز أن تكون الاجابة عن هذا السؤال : « ان مجال الحرب النفسية وحدودها لا يقتصر على هذه النقاط » •

وهناك نسخة خطية للبحرية الامريكية أعدت عام ١٩٤٦ وأعيدت كتابتها عام ١٩٥٠ ثم نشرت فى دائرة محدودة ، جاء فيها ما يلى عن هذا الموضوع :

« ان المهمة الأساسية للحرب النفسية هى فرض ارادتنا على ارادة العدو بغرض التحكم فى أعماله بطرق غير الطرق العسكرية ووسائل غير الوسائل الاقتصادية » •

« وعمليات الحرب النفسية قد تكون قصيرة المدى وقد تكون بعيدة المدى • وأنواع نشاطها القصير المدى يشمل :

(أ) الدعاية الاستراتيجية •

(ب) دعاية القتال •

(ج) نشر الاخبار •

(د) خداع العدو بطريقة منظمة محكمة •

(هـ) دعاية سرية •

« وتتضمن الحرب النفسية بعيدة المدى نشر الأنباء بطريقة مستمرة وبوسائل شتى بغرض مساعدة السياسة الخارجية للدولة ورفع سمعتها ، والحصول على العطف والتأييد » •

وقد يكون من المفيد أن ندرس التعاريف الآتية التى صاغتها شخصيات عسكرية ومدنية لها مكانتها •

كتب جنرال مارك كلارك(١) يقول :

« يتضمن التعبير الواسع « الحرب النفسية » اى عمل من شأنه أن يجبر العدو على أن يحول رجاله وعتاده من الجبهة النشطة وتجعله يقيد رجاله واسلحته استعدادا لصد هجوم لن يأتى • ان موقفنا البرمائى فى « وتسان » هو مثل لذلك • لقد أجبرنا العدو على أن يبذل مجهودا كبيرا ويحرك عددا كبيرا جدا من الرجال وكمية ضخمة من العتاد ليعزز الدفاع عن ساحل لم يكن فى نيتنا أن نشن عليه هجوما » •

---

(١) Mark Clark, From the Danube to the Yalu, Harpers and Brothers, New York, 1955, P. 371.

وكتب توماس فانيلتر وزير الطيران الامريكى السابق بأن الحرب النفسية تتضمن الخداع فى علاقاتنا مع الآخرين :

« ان كلمة » حرب نفسية « ليست تسمية سليمة لأن كلمة الحرب تعنى أن الخداع يبرره خدمة أغراضنا . فالخداع عمل معروف فى تكتيك الحرب . وهو ليس عملا سليمافىوقت السلم سواء كان موجها نحو شعبنا ، أو نحو أصدقائنا ، أو نحو أولئك الذين لم يتحيزوا لجانب أو نحو الشعوب التى قامت روسيا والصين باستعبادها • ان الحرب النفسية لا تتفق مع مبادئنا وليست من قبيل الاعمال السليمة » •

« لقد شاع استخدام كلمة الحرب النفسية بعض الوقت حتى حدد استخدامها تقرير اللجنة التى كان يرأسها وليم جاكسون التى أوصت الولايات المتحدة أن تقلع عن الحرب النفسية • قال التقرير بضرورة الغاء مجلس الحرب النفسية لأن أساس تكوينه كان سوء فهم الحقيقة التى تقول بأن الاستراتيجية النفسية يمكن أن توجد بعيدة عن السياسات والاعمال الرسمية وانه يمكن معالجتها معالجة مستقلة بواسطة خبراء فى هذا الميدان » •

وبالرغم من ذلك فيواصل فانيلتر مناقشته للموضوع فيقع فيما يبدو انه متناقض مع ما سبق فيقول :

« وهذا لا يعنى عدم وجوب استمرار الحرب النفسية كتكتيك عسكرى ، كما لا يعنى عدم قيام الولايات المتحدة بشرح سياستها لحلفائها ، وللمحايدين ، وللشعوب المستعبدة بشرط أن يكون هذا الشرح صادقا ودقيقا » •

هل الحرب السياسية تسمية أفضل ؟

ويصف البريطانيون النشاط الذى يطلق عليه الأمريكيون اسم الحرب النفسية اسما آخر هو الحرب السياسية •

وقد وصف سير روبرت بروس لوكهارت(١) المدير العام للجنة التنفيذية للحرب السياسية ـ فى الحرب العالمية الثانية ـ الحرب السياسية بأنها عبارة عن : « تطبيق الدعاية لتخدم حاجة الحرب ٠٠ فغرضها الرئيسى هو تعبيد الطرق أمام القوات المسلحة وتسهيل مهمتها » ٠ ولا يختلف هذا المفهوم بأى حال عن التعاريف التى أوردها الكتاب الأمريكيون مثل لاينبارجر وليرنر ولاسويل وغيرهم عن الحرب النفسية ٠ ومع ذلك فان وجهة النظر الضيقة هذه عن طبيعة الحرب السياسية لاتمثل بالضرورة المبدأ البريطانى بالرغم من المناصب الكبيرة التى تولاها سير روبرت بروس لوكهارت فى الأجهزة السياسية وفى أجهزة الدعاية البريطانية ٠

وتقوم صحيفة رسمية تصدرها الحكومة البريطانية باعطاء مفهوم عن الحرب السياسية نلحظ فيه انحرافا شديدا ، فتقول :

« يمكن تعريف الحرب السياسية بانها شكل من أشكال الصراع بين الدول يسعى كل جانب فيه أن يفرض ارادته على خصومه بطرق غير طريقة القوات المسلحة ٠ ومن الناحية العملية يمكن أن نقول : ان السلاح الرئيسى للحرب السياسية هو عملية مشتركة بين الدبلوماسية والدعاية » ٠

وواضح أن مفهوم الحرب السياسية التى يتحدث عنها لوكهارت ينحرف نحو استخدامها فقط فى أوقات النزاع المسلح ٠ وعلى نقيض ذلك فالبيان البريطانى الرسمى يقول : انها تستخدم بصفة عامة فى وقت السلم وفى وقت الحرب الباردة ٠

لقد دخلت التسمية « الحرب السياسية » المعجم الأمريكى، وتوجد فى كتابة عدد كبير من محررى الصحف ٠ ومع ذلك فهناك فارق كبير فى الآراء بشأن كيفية استخدام هذه التسمية ٠

---

(١) Robert H. Bruce Lockhart Political Warefare, Journal of the Royal United Service Institution, London, 1950, PP. 193 - 206.

ويرى لاديسلاس فاراجو : ان الحرب السياسية مرادفة للحرب النفسية(١) :

« ان كلمة « حرب سياسية » هى تعبير بريطانى . ويطلق على هذا النشاط أسماء أخرى فى بلاد أخرى ، ففى الولايات المتحدة يطلقون على هذا النشاط اسم « الحرب النفسية » .

« انها هذا النوع من أعمال المخابرات التى تستخدم الافكار للتأثير على السياسات . انها تعالج الآراء وتنقلها الى الآخرين . وهى عملية منظمة لاغواء الآخرين بطرق غير عنيفة ، على نقيض الحرب العسكرية التى تفرض فيها ارادة المنتصر على الجانب المنهزم : اما بالعنف واما بالتهديد باستخدام العنف » .

وكتب جون سكوت(٢) ـ وهو مؤلف أمريكى ومراسل اجنبى ـ كتابا اسمه « الحرب السياسية : دليل للتعايش التنافسى » . وهو يضع فى هذا الكتاب تعريفا لهذا الاسم ويقول : انه يتضمن الأنشطة التى يطلق عليها الجيش « حربا غير تقليدية » والتى تطلق عليها البحرية « حربا خاصة » .

« ان الهدف الأساسى للحرب السياسية المدمرة هو اضعاف العدو ـ واذا امكن ـ تدميره بواسطة استخدام المناورات الدبلوماسية ، والضغط الاقتصادى والمعلومات ـ الصحيحة والمضللة ـ والاثارة والتخويف والتخريب والارهاب وعزل العدو عن أصدقائه ومؤيديه » .

« ومن الوسائل الكبرى التى تستخدم عند شن حرب سياسية هى نقل الأفكار » .

---

(١) Ladislas Farago War of Wits; The Anotomy of Espionage and Intelligence, Funk and Wagnell Co., New York 1954, P. 323.

(٢) John, Scott, Political Warfare, A. Guide to Competitive Co - existence, The John Day Co., New York, 1955.

صعوبة التعريف :

ويمكن أن ندرك الصعوبة التى تواجهنا عند تعريف الحرب النفسية من جراء المجموعة الكبيرة من المصطلحات التى شاعت عند الحديث عن الصراع الأيديولوجى الذى يسود العالم اليوم • وفيما يلى قليل من هذه المصطلحات الشائعة :

- الحرب الباردة •
- حرب الافكار •
- النضال من أجل الحصول على عقول الرجال وارادتهم •
- الحرب من أجل السيطرة على عقول الرجال •
- حرب الفكر •
- الحرب الايديولوجية أو العقائدية •
- حرب الأعصاب •
- الحرب السياسية •
- الاستعلامات الدولية •
- استعلامات ما وراء البحار •
- حملة الحقيقة •
- الدعاية •
- الدعاية الدولية •
- حرب الدعاية •
- حرب الكلمات •
- العدوان غير المباشر •
- الاثارة •
- الاعلام الدولى •

وقد تدوولت بعض هذه الاصطلاحات على أنها مرادفات للحرب النفسية لدى بعض الكتاب الذين طرقوا هذا الموضوع مساوين الحرب النفسية بالدعاية ٠

وهكذا تتردد تعاريف الحرب النفسية بين الاستعمال الضيق الذى ظهر فى الحربين العالميتين الأولى والثانية ، والمفاهيم الواسعة التى أدت الى انشاء المجلس الاستراتيجي السيكولوجى ـ أنشاه الرئيس ترومان عام ١٩٥١ ـ والتى أدت الى أن يعين الرئيس أيزنهاور مستر جاكسون كمستشار للحرب النفسية فى أوائل عام ١٩٥٣ ٠

وربما كان أفضـــل التعاريف للحرب النفسية والعســكرية هو الذى كتبه بول لينبارجر وهو من رواد الكتاب فى هذا الموضوع . وفى كتابه المعروف « الحرب النفسية » طبعة عــام ١٩٥٤ عرف لينبارجر الحرب النفسية بمعناها الضيق : « انها استخدام الدعاية ضد العدو مع اجراءات عملية أخرى ذات طبيعة عسكرية ، أو اقتصادية ، أو سياسية مما تتطلبه الدعاية » ، ثم يعرف الدعاية العسكرية بأنها « استخدام مخطط لأى شكل من أشكال الاعلام بقصد التأثير فى عقول وعواطف مجموعة معادية أو محايدة أو صديقة ، وذلك لتحقيق غرض استراتيجى أو تكتيكى معين » ٠

أما بالمعنى الواسع فقد عرف لاينبارجر الحرب النفسية بأنهـا : « تطبيق لبعض اجزاء علم النفس لمعاونة المجهودات التى تبذل فى المجــالات السياسـية ، والاقتصادية ، والعسكرية » ٠ وبدأ الثقات فى الموضوع أمثال : هارولد لاسويل ، وادوارد باريت يتحدثون عن الأسلحة الأربعة التى تملكها سياسة الولايات المتحدة الخارجية وهى : الدبلوماسية ، والعسكرية ، والاقتصاد ، والدعاية ٠

واخيرا اكتسبت الحرب النفسية المعنى الذى يقول : انها « النضال من أجل عقول الرجال وارادتهم » وذلك عندما ألقى الرئيس أيزنهاور خطابه الشهير فى حملة الانتخابات فى ٨ من أكتوبر ١٩٥٢ فى سان فرنسيسكو وقال فيه :

« يجب أن نكيف سياستنا الخارجية حتى توائم استراتيجية الحرب الباردة الموحدة المتماسكة ٠٠ وفى روحنا وفى عزيمتنا يجب أن نرى فى هذه الحرب الباردة فرصة كى نحصل على نصر دون خسارة فى الأرواح ٠ وكى نفوز فى نضال من أجل انقاذ السلام » ٠

وهكذا نرى أنه فى عام ١٩٥٣ أصبحت الحرب النفسية تعنى الحرب الباردة، أى النضال العالمى بين الشرق والغرب ٠

ونتيجة للمعانى الكثيرة المتنوعة التى أعطيت للحرب النفسية ونتيجة للتغير الذى يحدث لها بصفة مستمرة ، فاننا لم نحاول أن نعطى تعريفا معينا لمفهوم الحرب النفسية فى هذا الفصل ، ولكننا آثرنا أن نوضح المجال الذى يمكن أن تعمل فيه الحرب النفسية ، وهذا قد يبرز لنا المعنى المقصود من استخدام الاصطلاح فى كل مرة ٠

على أننا نرى أنه من الضرورى أن نشير هنا مرة أخرى الى الثمانية عشر اصطلاحا السابق ذكرها لاستخلاص معناها ٠

فالمصطلحات الخمسة الاولى « الحرب الباردة ـ حرب الافكار ـ النضال من اجل عقول الرجال وارادتهم ـ الحرب من أجل السيطرة على عقول الرجال ـ حرب الفكر » كلها مصطلحات مواقفية ٠ انها تصف عمليات نفسية فى العلاقات الدولية ، ويبدو أن الحرب الباردة تغطى أوسع مجال ٠ والحرب الباردة تشن اليوم بكل الوسائل فيما عدا الهجوم العسكرى المباشر على نطاق واسع . أما المصطلحات الاربعة الاخرى فتصف الدور الايديولوجى فى هذا النضال ٠

أما الحرب العقائدية ، وحرب الاعصاب ، والحرب السياسية فيمكن أن يكون لها معان مواقفية أى تعريف الأزمة الحالية بين الشرق والغرب ، أو معنى منوالى، أى وصف للاساليب المستخدمة لمواجهة هذه الازمة ٠ أما التسمية «الحرب السياسية» فهى كما سبق أن ذكرنا تسمية بريطانية تحمل معنى ترابط أدوات السياسة من

دبلوماسية واقتصاد وسلاح ٠٠ الخ فى وقت الحرب ٠ وهذه التسمية تقترب من معنى « الحرب النفسية » بمعناها الواسع . والحرب الخاصة بالأعصاب هو مصطلح سيكولوجى ، لأنه يستهدف رفع حدة التوتر عن عمد ٠

ويستخدم المصطلحان «الاستعلامات الدولية» و «استعلامات ما وراء البحار» فى الولايات المتحدة فى عملية توزيع الحقائق والمعلومات التى من شأنها موازنة المعلومات المضللة التى تثيرها الجماعات المعادية ضد الولايات المتحدة ٠

ويعرف لاسويل (١) الدعاية بأنها : « اختيار العبارات وترويجها بقصد التأثير على سلوك الجماهير » ٠ وبالمثل يمكن تعريف الدعاية الدولية على أنها « اختيار العبارات وترويجها بقصد التأثير على سلوك الجماهير فى المسائل الدولية المختلف عليها » ٠ وحرب الدعاية هى نفس العملية ٠ أما حرب الكلمات فتختص باختيار العبارات اللفظية فقط وترويجها ٠

والعدوان غير المباشر هو تسمية واسعة لمفاهيم التخريب والتحريض على الثورة ، كما تتضمن استخدام المعلومات والدعاية لأغراض هجومية ٠ والاثارة هى تسمية سوفييتية صرفة ، وهى تستخدم لتصف الدعاية بين الجماهير ٠ وبغض النظر عن المعنى الفنى الصرف للاعلام الدولى فهو يستخدم ليصف من يقول وماذا يقول ولمن يقول ومتى يقول وأثر ذلك فى العلاقات الخارجية ٠ ومن ثم فاننا نجد أن هناك عنصرا من كل مفهوم من المفاهيم السابقة حسب تعريف الحرب النفسية الذى نتقبله » ٠

---

(١) H. D. Lasswell, « Political and Psycological, Warfare » in Daniel Lerner (ed) Propagnda in War and Crisis, George W. Stewart, Publisher, Inc New Work 1950.

اعادة التقييم :

فى أثناء الحملة الانتخابية للرياسة أدلى دوايت أيزنهاور بوجهة نظره عن مدى مجال الحرب النفسية ، وذلك فى الخطاب الذى ألقاه فى سان فرنسيسكو والذى سبق أن أشرنا الى فقرة منه :

« يعتقد كثير من الناس أن الحرب النفسية تعنى مجرد استخدام الدعاية مثل راديو « صوت أمريكا » . وبطبيعة الحال تعتبر الدعاية ـ المكتوبة والشفوية ـ جزءا أساسيا لكسب الشعوب فى صفنا . ولكن ليست الدعاية هى الجزء الهام فى هذا النضال ... فهناك كثير من الأدوات السلمية مثل المعونة الاقتصادية المشتركة ، والتجارة والمقايضه ، والاتصالات الودية عن طريق الاسفار ، والمراسلات ، والالعاب الرياضية ، وتمثل هذه بعض الوسائل السياسية التى تساعد البرامج الرئيسية من اجل المعونة العسكرية المشتركة والأمن الجماعى » .

كان من اول الاعمال التى قام بها الرئيس أيزنهاور هو تعيين لجنة قوامها ثمانية أعضاء لدراسة مشكلة الحرب النفسية . وكان يرأس هذه اللجنة و . ه . جاكسون نائب نيويورك العام . وقد قام باستجواب ٢٥٠ شاهدا فى فترة الخمسة الشهور من ٣٠ من يناير حتى ٣٠ من يونيو ١٩٥٣ .

وقد جاء استنتاج اللجنة فى مقدمة هذا المقال . وفيما يلى ما قالته اللجنة عن الحرب النفسية :

« ... ان المجلس الاستراتيجى النفسى الحالى الذى أنشىء فى عام ١٩٥١ لا يفى بحاجة الحكومة الحقيقية ، وعلى ذلك يجب الغاؤه . وقد تم انشاؤه بناء على سوء فهم بأن الحرب النفسية يمكن أن توجد بعيدة عن السياسة الرسمية والاعمال الرسمية ، ولذلك يمكن معالجة موضوعاته معالجة مستقلة بواسطة خبراء فى هذا الميدان .

« وفى الحقيقة هناك ناحية نفسية لكل سياسة وكل عمل فى ميدان : الدبلوماسية ، أو الاقتصاد ، أو العسكرية • وهذا اعتبار يجب أن يلقى عناية أكبر ، سواء فى مرحلة تخطيط السياسة ومرحلة تنفيذها ، مع عدم استبعاد العوامل الاخرى •

« وباستثناء الدعاية لا توجد أدوات للحرب النفسية تتميز عن أدوات السياسة التقليدية • فكل عمل هام فى كل ادارة وكل هيئة حكومية له أثره فى النضال من أجل الحرية سواء من الناحية الايجابية أو الناحية السلبية • والمهمه الهامة هى خلق وعى فى دوائر الحكومه كلها بالنسبة لأثر الاعمال الحكومية اليومية ، وتنسيق هذه الاعمال وتوقيتها حتى تحصل من ورائها على الحد الاقصى من الفوائد •

« وأهم أغراض برنامج الاستعلامات هو تقديم الدليل لشعوب الدول الاخرى بأن آمالهم وأمانيهم من ناحية الحرية والتقدم والسلام انما يساعد على تحقيقها أهداف الولايات المتحدة وسياستها •

« ويجب أن توجه لتحقيق هذه الغاية مجهودات كل الاجهزة — الراديو والصحافة ، والمطبوعات ، والسينما ، وتبادل الاشخاص ، والمكتبات ، ومراكز الاستعلامات • ويجب أن توضح هذه انطباق أهدافنا مع أهداف الشعوب الاخرى• ويجب أن نقوم بتفسير هذه الأهداف • وهذه الرغبات نشترك فيها معهم بطرق تكفل قيام الآخرين بالانضمام لنا لتحقيقها •

« ولاخراج هذا الغرض الى حيز الوجود يجب أن تركز الاذاعات الامريكية ، والمادة المطبوعة على الهدف ، وذلك بنشر الأنباء الحقيقية مع اختيار طائفة معينة من الأنباء التى توضح أعمال الولايات المتحدة وسياستها ، وخاصه فيما يهم الدولة التى توجه اليها الاذاعة ، او الكتابة •

« ويجب أن تكون اللهجة والمادة قويه ومباشرة ، وأن نتجنب نغمة الدعاية • ويجب ألا يعوق أجهزة الاعلام شيء عن عرض تفنيد قوى حقيقى للاتهامات السوفييتية المضللة » •

ولم يكن يتسم هذا القرار بصفة المفاجاة الكاملة • فكانت هناك دلائل قبل ذلك من هذه الاتجاهات الفكرية بشأن الدعاية والحرب النفسية ـ وفى الحقيقة كان كارول قد قام فى عام ١٩٤٨ باستخدام نفس الكلمات تقريبا التى استخدمتها اللجنة ، عندما قدم آراءه بشأن ما يجب أن يكون عليه هدف الاستعلامات الامريكية فيما وراء البحار : « ان السياسة الامريكية الخارجية تحرز نجاحا اذا استطاعت أن تقنع الشعوب أن الأهداف الأمريكية لتنسجم مع آمال هذه الشعوب فى السلام ، وفى الحرية ، وفى الحرية الشخصية » •

تعليـــق :

ومن ثم نجد أن مدلولات الحرب النفسية واسعة متعددة لا يمكن تحديد مسئولياتها ، فهناك الحرب النفسية التى تقوم بها القوات المسلحة اثناء العمليات ، وتستخدم لتنفيذها أغلب وسائل الاعلام من : مطابع ، واذاعة ، ونشرات تسقطها الطائرات ، وذلك لتحقيق أهداف الحرب الحديثة •

كما أن الحرب النفسية كثيرا ما تستخدم لوصف أى صراع أيديولوجى بين الدول : فمنها الحرب الباردة ، والحرب الدائمة ، والنضال الممتد « على حد قول ماوتسى تونج » ••• الخ •

وقد نرى هنا أن نستخدم تعبير الحرب النفسيه أيضا لوصف عمليات تغيير الشخصية بوسائل فسيولوجية أو ميتافيزيقية ، ومن ذلك ما يسمى بغسيل المخ، أو اعادة البناء الذهنى ، أو التكنيك السيكولوجى • كما نرى أن تطبيق تعبيرالحرب النفسية يمكن أن يطلق على كل الأساليب والوسائل التى استخدمت ضد عقل الانسان فى تاريخه الطويل على الارض • ونظرا لأهمية هذا الموضوع قد أفردنا له الجزء الثانى بأكمله من هذا الكتاب •

ان العنصر الجديد فى المفهوم ليس فى العمل نفسه بل فى طبيعة هذا العمل وصفته ، وفى الحقيقة نجد أن هناك أربعه أشكال من النضال الدولى نستطيع أن نحصرها هى : الحرب النفسية ، والحرب السياسية ، والحربالاقتصادية ، والحرب الفعلية « العمليات الحربية » ويمكننا أن نضيف هنا أن مفهوم هذه الاصطلاحات يختلف من دولة لأخرى .

ان الحرب النفسيه ليست أفضل أو أسوأ من غيرها من أشكال الصراعات الدولية ، والاختلاف كله أن الانسان لا يصاب منها بضرر جسمانى نسبى اذا ما قورنت بحرب الاسلحة الاخرى . ومن ناحية تكاليفها نجد أنه لا يمكن مقارنة آثارها البالغة على العدو بالنسبة الى نفقاتها .

ويجب أن يكون معظم المادة التى تستخدم فى الحرب النفسية حقيقيا اذ أن من السهل الحصول على ما يؤيد الحقيقة بالوثائق . ولكن لا نستطيع أن ننكر قيمة نشر الشائعات المغرضة كسلاح . ولنبين أثر ترويج الشائعات كسلاح يمكن أن نضرب مثلا يسيرا اذا ما قام فرد وذكر لجيرانه أن نبأ ما قد نشرته صحيفة يومية فان المستمعين سيشغلون بالنبأ ولن يحاول معظمهم التحقق من صحة هذا النشر، مع أن الواجب الأول والأهم هـو البحث عن حقيقة نشر الخبر ، بل قد يتطوع الكثيرون مدفوعين بعقدة معرفة بواطن الأمور بترديد هذه الآكاذيب ، ويؤكدون لمستمعيهم أنهم قرأوا هذا الخبر بأنفسهم . ولقـد خصصنا الباب « الخامس » لدراسة هذا الموضوع الهام لما له من علاقه كبيرة وأثر بالغ على الحرب النفسية .

ومن جهة أخرى نستطيع أن نسبغ على الحرب النفسية وصفا يعكس عليهـا مستويات الاطار الزمنى والمكانى ونقصد هنـا الحرب النفسيـة الاسـتراتيجية والتكتيكية . فالحرب النفسية الاستراتيجية تهدف الى تحقيق الاتصال الجماهيرى والذى يوجه الى جمهور كبير أو على مساحة شاسعة . وتكون الحرب النفسية فى هذه الحالة غير محدودة بزمان أو مكان وهدفها التأثير على الآراء ووجهات النظـر والسلوك فى الخارج فى سبيل مساعدة الاهداف القومية للدوله .

ولا تستهدف الحرب النفسية الاستراتيجية فئة محدودة أو شعبا معينا • بل تعمل من أجل تحقيق الاهداف الاستراتيجية البعيدة للدولة طبقا للأهداف القومية . ومن أجل ذلك فهى شاملة بكل ما تحمله الكلمة من معان . وقد يستخدم فى الحرب النفسية الاستراتيجية أكثر من عنصر من عناصر الحرب ، فالى جانب الدعاية والحرب الباردة قد تلجأ الدول الى استخدام الحرب السياسية والحرب الاقتصادية ، وأحيانا الحرب العسكرية ، وأحيانا ما تتعارض بعض هذه العناصر مما يؤثر على أهداف الخطه السيكلوجية الاستراتيجية •

وفى أغلب الدول الكبرى تقوم الأجهزة الأهلية والحكومية بدورها فى الحرب مشاركة تحت اشراف مجلس التخطيط السيكلوجى الاستراتيجى ، والدور الأساسى لهذه الأجهزة هو الاتصال بالجماهير سواء عن طريق الدعاية بمختلف وسائلها أو عن طريق الاتصال المباشر ، ونظرا لتشعب الاتجاهات التى توجه الحرب النفسية الاستراتيجية ، وبالنسبة لارتباطها التام بالاهداف القوميه للدولة ، فان هذه الخطة تتغير تبعا لتغير أهداف الدولة ، وتبعا لتطور الأحداث الدولية التى تؤثر على اهداف الدولة القومية •

ولما كانت الحرب النفسية الاستراتيجية تعمل عادة فى المدى البعيد ، فان تقديراتها تكون عادة أبعد مدى من تقديرات المخابرات ، وتعتمد على قدرتها على تغيير الأحداث أكثر من اعتمادها على التقديرات الكلاسيكية •

أما الحرب النفسية التكتيكية فتوجه ضد جيوش العدو فى ميدان القتال • أو فى قواعده ، أو ضد رعايا الدولة بصفه عامة والموجودين منهم فى منطقة القتال بصفه خاصة •

وتكون العمليات النفسية فى هذه الحالة عمليات محلية تستهدف اضعاف مقاومة قوات العدو أو مطالبة الشعب بالتعاون مع القوات المتقدمة والقيام بعرقلة المجهود الحربى للدولة •

ويشرف على هذه العمليات ويديرها فرع العمليات النفسية بقيادة القوات العسكرية ، وتضع أجهزة الخدمة المدنية امكانياتها تحت تصرف قيادة القوات العسكرية .

وبالرغم من أن المبادىء العامة للحرب النفسية واحدة فان الوسائل تختلف لحد ما بين : العمليات التكتيكية ، والعمليات الاستراتيجية . ففى العمليات التكتيكية تعتمد الجيوش فى معظم الأحيان على : النشرات ، والملصقات ، والاذاعات المحلية ، ومكبرات الصوت ، والشائعات ، وحملات الهمس بالاضافة الى عمليات التخريب التى تساعد على تحطيم الروح المعنوية للقوات المقاتلة ، أو لرعايا الدولة .

وتهدف العمليات النفسية التكتيكية الى تحقيق هدف قريب ومحدود ، مثل استسلام القوات المقاتلة ، لذا فان العمليات النفسية كما يفهمها أفراد القوات المسلحة أضيق بكثير وأكثر تخصصا مما يعنيه الصحفيون أو السياسيون عند حديثهم عن الحرب النفسية .

ولا تقتصر مهمة فرع العمليات النفسية فى الجيش على العمل وقت الحرب ، بل تقوم القوات المسلحة بتولى العمليات النفسية التكتيكية فى فترة ما قبل الحرب فى جميع وسائل الاتصال العالمية ، وتستمر مسئولية القوات المسلحة فى توجيه العمليات النفسية فى ميدان المعركة حتى بعد ايقاف القتال ، والى أن تعود الحالة الى وضعها الطبيعى .

وعند بحث الحرب النفسية وغيرها من أدوات السياسة المتصلة بها يجب أن نذكر أنها تستخدم فى السلم ، كما تستخدم فى الحرب . ولا يمكن دائما أن نضع الخط الفاصل بين الحرب والسلم كما هو الحال فى الوقت الحاضر فى الحرب الباردة . ويمكن أن نقول بقيام حرب اذا كانت هناك أعمال عدائية ايجابية بين دولتين أو عندما تستأنف الأعمال العدائية فى أية لحظة .

وأدوات السياسة الرئيسية فى وقت السلم ووقت الحرب هى :

الدبلوماسية

الدعـــــاية

الاقتصــــــاد

الأسلحـــــة

وفى وقت الحرب يصبح التركيز على الاسلحة أمرا بارز الاهمية :

الحرب المسلحة :

الحرب التقليدية

الحرب النفسية

الحرب السياسية :

الحرب الدبلوماسية

حرب الدعـــــاية

الحرب الاقتصادية

فالسلم والحرب هما النمطان المستخدمان فى السياسة العامة فى كل وقت .



الحرب النفسية جزء من الحرب الشاملة

طبيعة الحرب الشاملة :

اعطى التطور الكبير فى صناعة الحرب الحديثة صورة الشمول ، بحيث تمتد المعارك لتشمل كل الجبهات وبكل ما يمكن استخدامه من أسلحة ، وفى هذه الحرب الشاملة توجد « جبهة داخلية » كما توجد « جبهات قتال » ، وتوجد كذلك الجبهة العسكرية كما توجد « الجبهة الاقتصادية » و « الجبهة السيكولوجية » ٠

ان الحرب العسكرية ، والحرب الاقتصادية ، والحرب النفسية ، تشكل معا نوعا من الحرب هو « الحرب الشاملة » ٠

وتتصل هذه الانواع الثلاثة من الحروب ببعضها البعض ، بحيث يكون النجاح العسكرى نصرا اقتصاديا اذا كانت نتيجته الاستيلاء على كميات كبيرة من موارد العدو أو سد طرق الامداد الهامة له ، وقد يكون كسبا سيكولوجيا اذا استطاع أن يخفض من معنويات العدو أو يجعل جنوده يتوقعون الهزيمة ، أو يهيىء شعب العدو للاستسلام والخضوع ٠

وقد يتحول النجاح الاقتصادى الى هزيمة عسكرية للعدو اذا أمكن أن يحرم من الامدادات الضرورية ، ومن الممكن أن يصير هذا نصرا سيكولوجيا اذا أضعف من معنويات العدو وجعله مستعدا للخضوع ٠

ومن جهة أخرى فلا فائدة من الانتصار العسكرى اذا أدى الى هزيمة سيكولوجية ، فاليابانيون مثلا أنزلوا بالاسطول الامريكى عند هجومهم المفاجى على بيرل هاربور الكثير من الخسائر ، ولكن الحصيلة النهائية للهجوم كانت خسارة لليابانيين ، لأن هذا الهجوم وحد صفوف الامريكيين وتناسى الناس الخلافات ، والفرقة ، والانقسام بين صفوفهم ، وتجمعوا للعمل من أجل غرض واحد هو سحق اليابان •

والحرب النفسية التى هى أحدث أسلحة الحرب توجه ضد : « الفكر » و « العقيدة » و « الشجاعة » و « الثقة » وضد الرغبة فى القتال ، وهى حرب دفاعية هجومية وذلك لأنها تحاول أن تبنى معنويات الشعب والجنود ، بينما تحطم فى الوقت نفسه معنويات العدو •

والحرب النفسية جزء من الحرب الشاملة تشن قبل الحرب ، وفى أثنائها ، وفى أعقابها ، ثم أنها لا تخضع لرقابة القانون ولا لعادات الحرب ، ولا تعرف على أساس وصف الارض أو نظام المعركة ، أو تبعا لمعارك لها أسماء فهى عملية مستمرة، وغالبا ما يظهر نجاحها أو فشلها بعد شهور بل ربما بعد سنوات من تنفيذها • ومع هذا فان النجاح يمكن أن يكون ساحقا برغم صعوبة تقديرها كميا ، كما ان الفشل قد يكون قاتلا وان كان غير ملموس ، ولكن يمكن الكشف عنه وادراكه •

والحرب النفسية لا تتواءم بسرعة مع النظريات المألوفة للحرب ، والعلم العسكرى برغم تطوره مدين بالكثير من أحكامه الى المعالم التى تحدد مفهومه التقليدى وهو التطبيق المنظم لعنف قانونى • ان الضابط أو الجندى يقوم بواجبه عادة فى استخدام العنف دون أن يكون من واجبه تحديد العدو • فان : مشكلات المبادأة بالحرب ، الاعتراف بالمحايدين ، تعيين الاعداء ، اعلان السلم •• كلها من قبيل المشكلات السياسية وتخرج عن نطاق مسئولية الجندى ، وحتى فى استخدام القوة دون قيام حالة الحرب فان الجندى يقوم بها فقط عندما توصف طبيعة العمليه بواسطة السلطات الأعلى ، ونعنى السلطات السياسية ، ويحدد الاعداء بواسطة القيادة العليا صاحبة السلطة • أما فى ميدان الحرب النفسية فان طبيعة

العملية تختلف من ناحية عدم استطاعة السلطات السياسية تحديد مفهومها تحديدا واقعيا ، اذ تبدأ الحرب النفسية نظرا لطبيعة أسلحتها وأدواتها ، ونظرا للمهام التى تشتمل عليها قبل اعلان الحرب بوقت طويل ، وتستمر بعد أن تتوقف العمليات العدائية العلانية • وغالبا ما يتجنب العدو فى الحرب النفسية التعريف بنفسه ، فهو يختفى أكثر الوقت وراء صوت الوطن ، الدين ، أو الصحافة أو الصديق •• الخ •

ولا يحتاج الضابط أو الجندى الى أن يدرس كل طبيعة الحرب لكى يدرك واجبه ويعرف طبيعته ، فان التقاليد والمهارة العسكريةوالنظام والعقيدة الصحيحة هى التى تمهد له ذلك • ولقد عين : صن تزو ، وفيجتس ، وفردريك ، وكلاوزيفتز مكان القتال من الحرب ، وقد قدروا قيمة طابعها العام •

ولكن كم من العقائد التقليدية يمكن أن تتغير فى ضوء الانفجار الذرى ؟ الواقع أن أحدا لا يعرف هذا ، ولكن مع أن الاسلحة تتطور فان الرجال سيبقون دائما الذين يحسنون استخدام هذه الاسلحة ، وستبقى الدوافع وعوامل الضعف فى مجال الحرب كما هى يتحكم فيها العامل البشرى مهما كان شكل هذه الوسائل ، ومهما تكن مخيفة رهيبة •

والحرب من حيث هى كل محددة تحديدا جيدا من الناحية التقليدية ، ويمكن أن نتفهم الحرب النفسية تبعا لعلاقتها بالعملية كلها ، فهى لا تعدو أن تكون مجرد آلة تستخدم فى مناسبة خاصة . لقد صارت عاملا تاما شاملا فى الموقف العسكرى، له أثره على أى قوة على ظهر الارض • وهى جزء من الحرب التى يمكن أن نعرفها فى أبسط صورها بأنها قتال رسمى منظم بين الرجال • وفى هذا المجال يجب أن نفرق بين الحرب والتقاتل أو القتل ، فمملكة الحيوان لا تعرف الحرب برغم أنها تتقاتل •

ان الرجال فقط هم الذين يعلنون الحرب ويشعلون نارها ويحددون نهايتها، وهم يقومون بهذا فقط ضد بشر مثلهم •

ومن الناحية الشكلية يمكن أن نعرف الحرب بأنها : « التطبيق المتبادل المشترك للعنف بواسطة جماعات حكومية مسلحة » •

فاذا لم يكن هذا متبادلا فانه لا يكون القتال حربا لان عملية قتل الرجال الذين لا يدافعون عن أنفسهم لا تعتبر حربا بل هى مذبحة او مجزرة ، أو ربما تكون جزاء أو عقابا •

واذا لم تكن الهيئات المشتركة فى القتال عامة حكومية فلن يعتبر العنف الذى تقوم به حربا ، وفى الحرب العالمية الثانية نجد أن دول المحور كانت الى حد ما تعنى بهذا التحديد لأنها لم تكن تعرف الى أى مدى مباشر ، والى أى درجة من السهولة واليسر سيحسب عليها نقض القواعد والاصول •

وليس من الضرورى لكى يكون للمقاتلين طابع رسمى حكومى أن يكون لهم كيان قانونى ، أو بمعنى آخر أن يكونوا جنودا دائمين ، اذ يكفى تبعا للعرف الدولى أن يتوافر لهم حد أدنى معقول من ناحية العدو وأن يكون لهم لون من التعريف ، أى يكون لهم طابع يتميزون به عن عامة الاهالى المدنيين ، وأن يكون لهم الغرض السياسى الذى يسعون لتحقيقه •

وأخيرا فان الحرب الفعلية يجب أن تكون عنيفة ، ولكن استنادا للقانون فى كل الدول الحديثة فان الضغط الاقتصادى أو السياسى أو المعنوى لا يعتبر حربا بمفهومها التقليدى • ان الحرب هى جعل الاعمال التى لا يستطيع أى فرد أن يقوم بها لمخالفتها للقانون وقت السلم قانونية عند عملها باسم الدولة •

والواقع انك حتى فى وقت الحرب لا تستطيع قتل العدو الا اذا فعلت هذا باسم الدولة ونيابة عنها ، فاذا قام أحد أفراد دولة ما فى حالة حرب مع دولة أخرى بقتل أحد رعايا الاعداء ؛ فان القاتل فى هذه الحالة يعتبر مجرما عاديا يطبق عليه قانون العقوبات • ومثال لذلك التهم التى وجهت فى محاكمات مجرمى الحرب ضد يابانيين وضد المان لقتلهم اناسا لم تكن حتى الحرب تمنحهم حق قتلهم .

ان حكومات العالم الحديث لتشعر بالغيرة على الحق الذى تحتكره وحدها لاستعمال العنف ، والحرب هى أعلى طراز لممارسة العنف ، كما أن الحرب الحديثة ليست مجرد لهو وميل للقتل ، والا لما كانت هناك حاجة الى هيئات أركان الحرب اذا كانت الحرب مجرد صورة من الوحشية أو مجرد لوثة جنون لقطع رقاب الناس ، بل على النقيض فان الحرب الحديثة ـ كاحدى وظائف المجتمع الحديث ـ انما تعكس التناقض الثقافي والسياسى الذى تنبع منه • ان المعركة الحديثة عملية أصولية ، طقوسية ، معقدة فنيا ، فالجندى يجب أن يقتل فيها الناس الذين يجب أن يقتلوا بطريقة صحيحة وفى التوقيت الصحيح والمكان الصحيح ، وأن يكون هذا لاغراض صريحة معترف بها •

ولكن لماذا نقاتل بهذا الاسلوب وعلى ذلك المنوال ؟ ولماذا نقاتل هنا وليس هناك ؟ ولماذا نفعل هذا الآن وليس فى وقت آخر ؟ لماذا هذا كله ؟

الواقع أن الاجابة سهلة ويسيرة ، ذلك لأن القتال يتم بين البشر ، والغرض من ذلك هو أن يحاول كل جانب تغيير آراء الآخر •

واحيانا قد لا يمكن استمالة بعض الافراد واقناعهم ومن ثم فمن الضرورى قتلهم ، أو « تحييدهم » بأى وسيلة بدنية مثل عزلهم « اعتقالهم » أو سجنهم[١] ولكن أغلب الافراد يتوقفون عن القتال عند الوصول الى نقطة لا تصل الى الفناء أو الانقراض ، ويمكن الوصول الى هذه النقطة لو حدث واحد من أمرين :

١ ـ اما أن يفقد المهزومون كل القدرة على التنظيم لفشلهم فى الاتفاق على القيادة وعلى الاساليب والوسائل ، ومن ثم فانهم ينفضون أيديهم من القتال لانهم لم يعد فى استطاعتهم القتال كمجموعة ، وقد حدث هذا من الامريكيين سكان الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة

(١) لقد وجد بعض النازيين وربما كان هتلر من بينهم أن العالم الغربى يثير نفورهم واشمئزازهم ، ومن ثم فقد قتلوا انفسهم لانهم لا يستطيعون الاستسلام ، اما فى ميدان الباسفيك فقد كان من الضرورى قتل الكثيرين من اليابانيين قبل ان يتقبلوا شروط الحلفاء

الامريكية في أبريل عام ١٨٦٥، فقد ترك رئيس الولايات الكونفدرالية القطار هو والوزراء في محطة ريتشموند ، أما الذين استقلوا القطار الى أبعد من هذا للجنوب فقد أصبحوا « لاجئين » • لقد حدث شيء لهم وللناس الذين من حولهم ، ولم يعد مستر ديفس يفكر في نفسه على أنه الرئيس ديفس • ولم يعد الناس يتقبلون قيادته ورياسته •

ولقد حدث شيء مثل هذا تماما في ألمانيا عام ١٩٤٥ اللهم الا بالنسبة للادميرال دونتز •

٢ ـ واما أن المهزومين يحتفظون بطاقتهم على التنظيم ويستطيعون أن يستخدموا تنظيمهم السياسي للاتصال بالعدو ولترتيب انهاء الحرب عن طريق الوسائل المنظمة للتمشي مع رغبات المنتصرين ، وقد حدث هذا عندما اعترفت بريطانيا باستقلال أمريكا، وعندما اعترف البوير بالسيادة الانجليزية ، وعندما وقعت فنلندا ما أملته عليها روسيا ، وعندما قرر اليابانيون التوقف عن القتال •

وفي بعض الاحوال يمتزج هذا كله معا ، فقد يريد أفراد الشعب أن يحل السلام مكان الحرب ، ولكنهم يجدون أن حكومتهم لا تحظى باعتراف العدو ، أو قد يظن المنتصرون أنهم حطموا حكومة العدو عندما تكون المنظمة الجديدة لا تختلف عن المنظمة القديمة الا في الشكل مع اختلاف قليل عن الاسم القديم ، ولكن لا يزال الزعماء القدامى موجودين ، ولا تزال الآراء القديمة مسيطرة سائدة •

ومن الواضح أنه مهما حدث فان الحروب تشن للوصول الى تغيير نفسي في العداء والخصومة ، وفي هذه الحال فان الحروب تقوم لهدف أو لغاية سيكولوجية ما لم يكن هدفها الافناء ، وهذا نادر جدا •

حقا ان الحرب تعلن ضد عقول الاعداء وليس ضد أجسامهم لتثبيتها، ويشهد بصحة ذلك تعليقات الكتاب العسكريين في كل عصر ، والقول الفصل والمثل السائر لكلاوزيفتز لينص على أن : «الحرب هي السياسة مستمرة بوسائل أخرى» .

وهذه الحقيقة هي في بساطة التعبير الحديث ، لواقع صحيح معترف به منذ عصر قديم ، فالحرب وسيلة من وسائل الاقناع الخطيرة غير الاقتصادية وغير السارة • ولكنها وسيلة لها تأثيرها عندما تفشل كل وسيلة أخرى •

شن الحرب على أساس نفسي :

بالرغم من أن جميع الاطراف المعنية في الحرب العالمية الثانية قد أبقت على جهودها مستمرة في الحرب النفسية طوال الحرب ، فان كثيرا من الكتاب اهتموا بدراسة تاريخ الرايخ الثالث، ووضعوا عدة عناوين كمحاولةلتسمية الاستراتيجية المرعبة الغريبة التي خطط لها هتلر في المدة ما بين عامي ١٩٣٦ ، ١٩٤١ ، وقد أطلق عليها ادموند تيلر « استراتيجية الارهاب » على ما جاء في كتاب له يحمل نفس الاسم « طبعة بوستون ١٩٤٠ » وسماها لاديسلاس فاراجو مؤلف « حرب الدهاء » والصحفي السياسي « حرب الاعصاب » ، وقد قدم دراساته للاستراتيجية الهتلريةفي كتاب طبع بنيويورك سنة ١٩٤١ بعنوان « الحرب النفسية الألمانية » ، وفي هذا الكتاب عرض خلاصة مئات الكتب والبحوث الالمانية المتصلة بعلم النفس، وبصناعة الحرب ، وأغلب مادة هذه الدراسات تقدم تجارب شخصية ودراسات في الطب النفسي والعقلي ، والكتاب ككل يعتبر عرضا أخاذا لبيان القدر الذي عمل به الألمان ليجعلوا حربهم حربا فنية . وتوالت البحوث الكثيرة الأخرى في هذا الميدان ، ووجد أن الجديد في الجهد الحربي الألماني انما يقبع في نطاق ميدانين اثنين :

١ ـ الدقة أو على الأقل مظهر الدقة في توقيت الجهود السياسة ، والتآمر والجهود العسكرية كلها معا وفي وقت واحد •

٢ ـ الاستخدام الجيد لنتائج علم النفس الحديث لتحقيق الأهداف العسكرية وادراكها •

ويبدو أن أساتذة علم النفس علموا رجال المخابرات السياسية والعسكرية الالمان كيف يضعون التقديرات والتنبؤات الممكن تنفيذها عمليا • وكانت تحليلات الألمان للدعاية المضادة الموجهة ضد النازية ممتازة ، فاذا ما أضفنا هذا كله الى العمليات الاستراتيجية ، والتكتيكية في الميدان تلك التي كانت ممتازة متفوقة على مثيلاتها باجماع الآراء ، فان التأثير لم يكن تأثير مجرد حرب ، بل تأثير هذا النوع الجديد من الحرب أي « الحرب النفسية » •

ومن الواضح أن هيئة أركان الحرب الالمانية فى غزو الالمـان لأوروبا قد استخدمت « تحليل الرأى العام » ، وظهر أن الكثير من هذه التحليلات لم يكن بأكثر من حدث رائع فاخر ٠ وفى مسير الحرب أشعل الالمان نيران حرب خاطفة كانت من الناحية : التكنولوجية ، والنفسية ، والعسكرية منطقية ومعقولة راحت تؤتى ثمارها ، واستخدمت دبلوماسيتهم ـ للافزاع والتهويل ـ التهديد بالحرب لدرجة جعلت التشيكوسلوفاكيين يسلمون أرض « السوديت » دون اطلاق طلقة واحدة . لقد انتفع الألمان لأقصى مدى بالتهديد باشعال نيران الحرب ، فلما اندلعت نيرانها فعلا حاولوا عن قصد أن يجعلوها تبدو مخيفة للغاية ٠

وليس ثمة قاعدة ـ أو بلغة أبسط ـ وصف للحرب النفسية فى كتب علم النفس ولا فى كتابات المشرعين للقانون الدستورى ، فان الشمول للحرب هو نتيجة للشكل الذى دارت به الحرب العالمية الثانية ٠ ان « السلاح السرى » الذى كان لدى الألمان يكمن فى السلطة التى أعطاها الألمان صراحة وعلانية لهتلر ، وفى استخدامه المطلق لهذه السلطة بطريقة فعالة دون ما تقدير لاى شيء ٠

لقد قاد الفوهرر الاخصائيين ولم يحـدث العكس ٠ واذا كان الالمان قد تباهوا على العالم بدقة توقيتهم للأشياء ، فليس لتوافر أخصائيين على درجة خاصة من المعـرفة تهيىء لهم أن يخترعوا نوعا جـديدا من الحرب ، بل بسبب نزوة سياسية بشعة كالحة جعلها هتلر تسيطر على كل الموارد الشاملة للرايخ الألمانى .

وبدا فى نهاية الامر أن العناصر التى جعلت الحرب النفسية ممكنة فى بداية الحرب العالمية الثانية هى نفسها التى أدت الى عقم ألمانيا ، والى خرابها الكامل عام ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ وهذه العناصر هى :

١ ـ السلطة الزائدة عن الحد ٠

٢ ـ الشعب الذى يعيش دون اخطاره بحقيقة الموقف ٠

٣ ـ الدعاية المركزة ٠

٤ ـ التخطيط السياسى السرى ٠

لقد تمشى هذا النوع من الحرب مع محاولات الوصول الى الشهوة المتعطشة للسلطة ونسقت الحرب بدرجة لا حد لنهايتها ، ثم شنت الحرب مستغلة الضعف السياسى والمعنوى للعدو .

وكانت الحرب النفسية الالمانية فى المفهوم الواسع لاشعال الحرب على أساس نفسى تتوقف بدرجة أكبر على ما يسمى بالصورة الخلفية للسياسة بأكثر مما تعتمد على التكنيك السيكولوجى . ومكنت عوامل متشعبة كثيرة ــ مثل انعدام الوحدة بين الضحايا المنتظرين مستقبلا ، وملاطفة الدول التى لا تتأثر تأثيرا مباشرا بذلك ، ومظاهر الاسلحة الجديدة عن طريق التطبيقات المخيفة لهذه الحرب، واستخدام الخوف من الحرب لكبح جماح الثائرين والميل الى تهدئتهم ، والوضع الجغرافى لألمانيا فى مركز المواصلات الاوروبية ــ من جعل « حرب الاعصاب » التى مارستها ألمانيا تبدو جديدة . ان مثل هذه الحرب النفسية ليست جديرة بالنجاح فى أى مكان اللهم الا للاعتداء بواسطة تلك الدول الفاشية أو الاستعمارية لتحقيق أطماعها وشهواتها فى أنحاء العالم . ان ما يسمى بالاستعمار الجديد والذى يوجهه الاستعمار ضد الدول المتحررة فى أفريقيا وآسيا فى النطاق الاقتصادى صورة جديدة من صور الحرب النفسية الحديثة(١) . ولكن من جهة أخرى فان هذه الحرب لا تستطيع العمل بحال ما ، أو بمعنى آخر يكون أثرها ضعيفا اذا ما كانت الدولة المستهدفة بالحرب متيقظة واعية ، ودرب شعبها على مجابهة أساليبها الى درجة كبيرة من الوعى السياسى والاجتماعى ، حتى يستطيع أن يتفهم أهداف مثل تلك العمليات غير الانسانية .

الحرب النفسية وعلم النفس :

على الرغم من أن لعلم النفس قواعده وأسسه ، فان الحرب النفسية يمكن ادارتها بأشخاص ليس لديهم معرفة بقواعد هذا العلم ، ودلت حوادث عدة عبر التاريخ فى الحرب النفسية على ذلك تماما ، فلم يكن جدعون مثلا ولا وانج مانج

---

(١) يرجع الى كتاب الحرب الاقتصادية فى المجتمع الانسانى لصلاح نصر ــ دار القلم ــ سنة ١٩٦٥ .

يعلمان شيئا عن القواعد الاساسية لعلم النفس ، ولكنهما استغلا بالغريزة جوانب ـ ناقشها هذا العلم ـ فى ارهاب العدو ، والقضاء على معنوياته حتى استطاعا أن يحققا نصرا حقيقيا .

على أن التاريخ القديم ملىء بالأمثلة التىأوجدت للعالم قادة عظماء وصلوا الى درجة عالية من المهارة الفنية فىاستخدام أساليب علم النفس استخداما صحيحا ، بل نستطيع أن نقول انهم أفادوا من هذا العلم بدرجة تضارع مايحققه اليوم مهرة علماء النفس المحدثين . ولكننا اليوم لم نعد نستطيع انتظار الموهوبين أو ذوى المواهب النادرة لتطبيق نظريات هذا العلم فى حروب العصر دون دراسة أو تخطيط . ونستطيع الآن أن نقول أن علم النفس الحديث يدور حول الغرائز ، والعواطف أكثر مما يدور حول التعليم ، كما يهتم بدراسة نفسية المجموعات والمنظمات .

ويمكن أن نتساءل ماذا يستطيع أن يقوم به علم النفس لصناعة الحرب فى وقتنا هذا ؟ الحقيقة أنه لم يكن علم النفس هو العنصر الفعال فى ادارة الحرب النفسية الحديثة ، الا أننا نؤكد أن العالم النفسى يساهم بمجهود فعال فى هذه الحرب . فهو يستطيع أن يجذب انتباه الجندى الى العناصر المكونة للعقل البشرى ، هذه الظاهرة التى تبقى فى الغالبية بعيدة عن نظره غير واضحة ، وهو يستطيع أن يتحكم فى عقلية الفرد وتفكيره ويحول سعة الحيلة الفردية الى جبن وخور جماعى ، وهو فى استطاعته أن يحول الثقة الى اهتزاز فى الشخصية والاستسلام والتكاسل الى ثورة عاتية . بهذه الوسائل وغيرها يخترق العقل اللاوعى للوصول الى الموارد التى يحتاج منها الى مادته . ومن ناحية أخرى يستطيع العالم النفسى أن يوضح الوسيلة الفنية أو التكنيكية التى تهدف الى ايضاح ما يخفى به العدو حقيقته ، فهو باختباراته العملية المتواصلة على الموارد التى يحصل عليها يخترق عقلية العدو ، فمثلا يمكن قياس نتائج اختباره لعدد معين من أسرى العدو فى مسرح معين من مسارح الحرب وفى فترة معينة خاصة ، وبهذه القياسات يضع تقديرا منطقيا معقولا ، ويمكنه أن يوضح الى حد كبير الوسائل التى قد يتأثر منها العدو تحت ظروف خاصة معينة .

قد لا يتوافر للعالم النفسى هذا المصدر ، أى مصدر الأسرى لاجراء اختباراته ، ولذا يعتمد الى حد كبير على مصادر أخرى كتحاليل الأنباء

أو الدعايات التى تذيعها أو تطلقها سلطات العدو الى شعبها أو جنودها فى الميدان • بهذه الوسيلة يسهل على القائمين بادارة الحرب النفسية حل عديد من المشكلات وتفهم الكثير من الأمور الغامضة التى لو أسيىء تقديرها لأدت الى أسوأ النتائج فى سير دفة الحرب •

ان رجل الدعاية عادة تكون لديه تطلعات نفسية بل نستطيع أن نقول أن متعته المتأصلة فى نفسه هى أن يخاطب عدوه فيعامله معاملة العدو للعدو ، وغالبا ما يخبره فى نشراته برأيه فيه ، بل قد يتمادى فيسخر منه ويهزأ بضعفه مما قد يسبب رد فعل عكسيا لخطة الدعاية • ان رجل الدعاية يجب أن يخبر العدو بالموضوعات أو الاشياء التى يبالى بها ، وعليه أن يبعد عواطفه الخاصة بمعزل عن العملية التى يمارسها • وهنا يستطيع العالم النفسى أن يعلم من يتولى أعمال الدعاية كيف يكون موضوعيا قادرا على تنسيق دعايته ، باردا هادئا لا تستثيره أى انفعالات نفسية • ولنتصور رجل دعاية فى دولة استعمارية يخاطب أحد شعوب دول أفريقيا الثائرة التى تحاول التحرر من الاستعمار قائلا لهم: « أيها الشرذمة من القتلة السفاكين يا من تعيشون فى الأدغال حياة بعيدة كل البعد عن المدنية والنور . أيها الجهلة يا من لا تعرفون من العلم والحياة الا ما يفرضه قانون الغاب ، أيها الحمقى ما هى رسالتكم فى الحياة ؟ انكم تعيشون فى المجاهل وتحتاجون الى من يستطيع أن يقودكم ، وينير الطريق أمامكم نحو المعرفة والنور » .

ان رجل الدعاية هذا لا يفعل أكثر من أن يزيد هؤلاء الثائرين الاحرار رغبة فى القتال والمقاومة للتحرر من قبضة هذا الوحش الذى ينادى بالمعرفة والعلم وهما بريئان منه •

وعلى عكس ذلك نرى فى التاريخ القديم مثلا رائعا لنجاح الدعاية حينما نحاول أن نرى الأشياء من وجهة نظر من توجه اليهم ، فحينما كان تيموستكليس الأغريقى « ٢٥٧ ــ ٤٦٠ ق•م » يحارب الفرس فى معركة أرتيمسيوم استطاع هذا السياسى المحارب أن يضم اليه الايونيون اهل جزر البحر الايونى • اذ قام بجمع أفضل سفن الملاحة لدى الاثينيين ــ أهل آثينا ــ وذهب الى مكان تتوافر فيه مياه صالحة للشرب ، ثم حفر فى الصخور بعض سطور موجهة الى الايونيين • وفى اليوم التالى حينما وصل الايونيون الى أرتيميسيوم أرض المعركة

وجدوا نقوشا محفورة فى الصخور تخاطبهم : « يا رجال ايونيا انكم تخطئون للقتال ضد آبائكم بمعاونتكم على استعباد اليونان • ولهذا نناشدكم الانضمام الينا ، فان لم تستطيعوا فابعدوا قواتكم عن المعركة وحثوا أهل كاريا على أن يفعلوا مثلكم ، واذا لم تستطيعوا لا هـذا ولا ذاك ، وتجدون انفسكم مرتبطين بضرورة ملحة ، فتمارضوا عندما نشتبك فى القتال ، واذكروا دائما أنكم من نسلنا ، وان العداء بيننا وبين المتوحشين انما هو من اجلكم » •

وليست الحرب ولا علم النفس بالامر الجديد المستحدث ؛ فكلا الاثنين قديم قدم الانسان نفسه ، ولكن لما كانت صناعة الحرب هى الصورة الابسط والطاقة الافضل من الناحية العملية نجد أنه أصبح لها تاريخ مسطور أقدم من تاريخ علم النفس ، بخاصة أن ما نعرفه اليوم فى نطاق علم النفس كان يعرف فيما مضى تحت أسماء : الدين ، والأخلاق ، والآداب ، والسياسة ، والطب ، وغير ذلك ، ولكن نتيجة التطور جعلت الحرب النفسية الحديثة ثمار الوعى النفسى والتطبيق العملى لعلم النفس الحديث فى الحروب . ان علم النفس كبقية فروع المعرفة يتطور نتيجة الدراسات المستمرة ، ولذا يجب الا نهمل أو نغفل اهميـة القدرة على استخدام هذا التطور كلما سنحت الفرصة بجرأة وسرعة فى الحرب النفسية •

ويستطيع العالم النفسى أيضا أن يحدد الوسيلة الفعالة التى يمكن استخدامها فى الحرب النفسية ، وهو بذلك يشير الى أى من هذه الوسائل أكثر فاعلية فى موقف معين ــ الراديو أو النشرات، أو مكبرات الصوت، أو العملاء ، أو غير ذلك . ويجب على العالم النفسى حينما يحدد الوسيلة أن يتصل برجال المخابرات للحصول على الموارد السيكولوجية الميسورة لديهم ، حتى يستطيع أن يضع خططه ويساعد على تنسيق الدعاية وتوقيتها حسب المواقف العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية . وليس من الضرورى أن يكون العالم النفسى حاضرا بنفسه لاعطاء نصيحته لرجال الحرب النفسية ، فقد يكون وجوده محققا فى الكتب التى يكتبها أو المحاضرات العلمية التى يلقيها ، أو دورات التعليم التى يعقدها لاعداد ضباط الحرب النفسية •

ان علم النفس أقرب العلوم كلها الى عمل رجل الدعاية ، بالرغم من أنه لايعدم الصلة بكثير من العلوم الاخرى ، فالحرب النفسية لايمكن فصلها عن علم

الانثروبولوجي الذى يبحث فى نواحى الانسان الفسيولوجية ، والتاريخية ، والتقسيمات الجغرافية ، والأجناس المختلفة ، ولا عن علم الاجتماع الذى يبحث فى دراسة الانسان بوصفه كائنا اجتماعيا له أوجه نشاط مختلفة • كذلك فان علم الاقتصاد وثيق الصلة برجل الدعاية ، فهو لايستطيع ان يعزل نفسه عن الفاعليات الاجتماعية التي لها صلة بالانتاج ، والتوزيع ، والاستهلاك ، والرخاء . ان جميع الاخصائيين فى هذه العلوم يسهمون بشيء كبير فىالحرب النفسية ، ولكننا نستطيع أن نقول : ان علم النفس هو الذى يشير الى ما يحتاج اليه رجل الدعاية من هذه العلوم الاخرى • وفى هذا المجال يجب ألا ننسى الدور الكبير الذى ساهم به علم النفس حديثا فيما يسمى عملية غسل المخ Brain Washing التى دخلت حديثا مجمع مصطلحات السياسة ، والتى تستخدم لتوجيه الفكر الانسانى، أو العمل الانسانى ضد رغبة الفرد الحر ، أو ضد ارادته ورغباته كما سيجيء بالتفصيل عند دراسة هذا الموضوع فى الجزء الثانى من هذا الكتاب •

علم النفس العسكرى :

والحرب النفسية ليست مع هذا هى الطريقة الوحيدة التى يسهم بها علم النفس فى انجاح القتال •

فمثلا يحتاج الجندى الى أن يتفهم الطبيعة البشرية حتى يستطيع أن يفهم نفسه ويفهم زملاءه ، ويجب أن يتعلم الضباط كيف يفسرون ، وكيف يؤثرون على سلوك أولئك الذين يتولون قيادتهم •

ومن الضرورى أن يعرف الجندى الكثير عن الاحتياجات البشرية وعن الدوافع والانفعالات • فاذا أحس بالخوف فعليه أن يعرف كيف يتصرف عندما يعتريه ، وعليه أن يعرف متى يكون الغضب نافعا ، ومتى يسبب المتاعب ؟ كما يجب أن يفهم أسباب القلق والشعور بعدم الطمأنينة وافتقاد الأمن ، وان يلم بأسباب وأثر انفعالات الغيظ والحقد بالنسبة للعدو ، وكذا الانفعال والتهيج Irritation ضد الزملاء ، وعن العلاقة بين الغذاء ، والعمليات الجنسية ، وبين الحياة العسكرية •

ومن الضرورى أن يعرف الجندى العلاقة بين كل هذه الأشياء وبين الروح المعنوية ، وهكذا فانه يتعلم كيف يتجنب العوامل المؤثرة على انخفاض الروح المعنوية ويعرف كيف يبنى ويقيم معنويات جيدة قوية .

ويجب ان يفهم كل جندى مشكلات التكيف العقلى للجنود بالنسبة للجيش أولا ، ثم بالنسبة للقتال فيما بعد ، وأن يفهم كذلك لماذا يشعر الجنود بأنهم غير آمنين على سلامتهم ؟ وما العوامل التى تخلق الشجاعة والجرأة ؟ وما علامات اقتراب الانهيار ؟ وكيف يمكن منعه ؟ وماذا يفعل نحوه اذا ما حدث ؟

ولقد صار اختيار القادة للقوات المسلحة واحدا من أهم المشكلات فى سيكولوجية الحرب . ان القائد الجيد هو الرجل الذى يستطيع أن يبنى ويقيم المعنويات الجيدة ، فكيف يستطيع أن يفعل هذا ؟ وأى نوع من الرجال يجب أن يكون هو ؟ ولو كان القائد ضعيفا أو قائدا غير جيد فهل يمكن جعله قائدا جيدا ؟ .

ومن الضرورى أيضا أن يتفهم الجندى عقلية الغوغاء والدهماء ، وأن يعرف عوامل الفزع التى تؤثر فى الجماهير . فقد يكون هذا وثيق الصلة بالجندى وعمله عندما يختلط الأهلون بعمليات القتال ، أى عندما تصير القرى والمدن وسكانها جزءا من جبهة القتال أو عندما تبدأ الجبهة الداخلية فى الانهيار والتقسيم .

وقد يمكن أن يحدث الفزع داخل صفوف العسكريين انفسهم حتى ولو كانوا جيدى التنظيم ، والضبط والربط اذا ما توافرت الظروف والأحوال التى تسبب هذا .

فما اذن هذه الظروف والاحوال التى تسبب الفزع ؟

ولماذا ينتشر الفزع وسط الجنود « الاحتياط » وليس بين الجنود العاملين النظاميين من أفراد الجيش ؟ .

ان تفهم لماذا يختلف الأفراد بعضهم عن بعض ، وكيف يمكن قياس الموارد البشرية ، ليعاون الجيش على وضع الرجال حيث يكونون اعظم نفعا .

التقاط الكفايات وحسن توجيه الجنود :

والقوات المسلحة فى حاجة الى عمال للراديو ، والى ميكانيكيين للدبابات ، وتحتاج أيضا الى مراقبين جويين وطيارين ، كذلك تحتاج الى ضباط قدر حاجتها الى كتبة عسكريين • لقد صار الجيش فى بساطة يحتاج الى أفراد للقيام بمئات الاعمال المختلفة ، ومن ثم صار فى حاجة الى المئات من الاخصائيين الذين تتوافر لهم كفايات وطاقات مختلفة متنوعة •

والكثير من هذه الأعمال فى الجيش لها ما يشابهها فى الحياة المدنية ، ولكن هناك أعمالا تتطلب تدريبا اضافيا عند التحاق الفرد بالجيش ، فسائق اللورى فى الحياة المدنية يجب أن يدرب عند التحاقه بالجيش على قيادة سيارات النقل الكبيرة فى الأوحال ، وفى الظلام ، وتحت النيران ، وفى أثناء السير ضمن قافلة كبيرة •

فما واجب القوات المسلحة بالنسبة لكل الاعمال التى تتطلب كفايات خاصة ، أو التى تتطلب مزيدا من التدريب ؟

يجب عليها أن تتخير أى بمعنى أدق تلتقط الجنود الذين تتوافر لهم المهارات الضرورية ، ومن الطبيعى أنه لا يوجد العدد الكافى اللازم لسد احتياجاتها ، ولهذا يجب أن يدرب الأفراد على مهارات جديدة ، ومن ثم يجب اختيار الذين يمكن أن يتعلموا بسرعة أى الذين تتوافر لهم « الشهية » للتعليم للقيام بالأعمال التى يكون فيها نقص ملحوظ •

وتتقرر قدرات الأفراد بواسطة الاختبارات ، والمقابلات ، والتسجيلات لأعمالهم السابقة . أما الذين لا تتهيأ لهم هذه القدرات المطلوبة ، فيمكن أن يختبر استعدادهم وتقاس درجات صلاحيتهم، وبذلك يدرب الأصلح والأكثر استعدادا •

ويشكل هذا العمل برامج ضخمة لتصنيف الأفراد تبعا للقدرات والطاقات، كما يتطلب انشاء عدد كبير من معاهد التدريب ومعسكراته •

ولكن ما صلة هذا بعلم النفس العسكرى وما صلته بسيكولوجية القتال ؟

الفكرة أنه عندما يوضع الرجل الصحيح فى المكان الصحيح يعود النفع على كل فرد ، فتستفيد القوات المسلحة ككل اذ أن الأعمال تتم بكفاية وعلى الوجه الصحيح ، ويستفيد « المقاتل » لأنه يشعر بسعادة حيث يمكن أن ينتفع من قدراته ومن طاقاته ، ومن شعوره بأن القوات المسلحة تعتمد عليه وتفيد بعمله .

والجندى يحتمل مسئولية عمله وترتفع معنوياته ، وهنا يعود النفع أيضا على القوات المسلحة اذ أنها تحتاج الى المعنويات أكثر مما تحتاج الى الكفايات ، كما تحتاج الى الولاء والحماس والغيرة مما يعتبر « لقاحا » ضد الهزيمة .

على أنه ليس على القوات المسلحة فقط أن تضع كل فرد فى مكانه الصحيح ، بل من واجب الفرد أيضا أن يعرف كيف ينتفع الى أقصى درجة من مواهبه وقدراته .

ومن أجل هذا هناك كثير من الوان المعرفة التى يجب أن يلم بها الجندى ويوضح هذا كيف صار القتال عملية مركبة .

ان الفكرة الأولية الفطرية للقتال ، هى أن الجندى يندفع عندما يواجه عائقا يعطل تحقيقه للغرض الموكل اليه ، ويندفع بقوة أكبر لو ازدادت المقاومة المعطلة ، ويغضب اذا ما اشتدت المقاومة ، ويتحول اذ ذاك اندفاعه الى قتال .

وفى هذا القتال يستخدم كل الوان المعرفة والمهارات ، وباستغلاله هذه المعرفة يعرف كيف يستخدم عينيه فى الظلام ، وكيف ينظم الوسيلة التى تجعله يسمع وهو داخل الطائرة بحركاتها ذات الأصوات العالية ، وهو بتفهمه الطبيعة البشرية يعرف كيف يقيم معنويات أفضل تتغلب على الخوف .

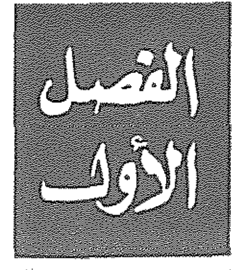
انه باختصار يقاتل باستخدامه كل موارد العلم بما فى هذا موارد علم النفس .

ومن واجبه أن يفعل هذا لأن الحرب صارت حربا شاملة .

الباب الثانى

التنظيم والأفراد

- الفصل الأول
  التنظيم للحرب النفسية
- الفصل الثانى
  مؤهلات الأفراد



التنظيم للحرب النفسية

واجهت مشكلات التنظيم الخاصة بالحرب النفسية معظم الدول الكبيرة فى نضالها وصراعها ، ولقد سبق أن أشرنا الى منظمات الحرب النفسية فى بعض الدول والأعمال التى وكلت اليها ، ولكن هذا لا يكفى فى مجال الحرب النفسية لمن يجب أن يمعن فى دراسة مشكلات تنظيم هذا النوع من الحرب التى أصبحت اليوم موضع عناية العالم أجمع .

وفى هذا الفصل سنحاول دراسة منظمات مختلفة فى دول متباينة فى : عقيدتها ، وأسلوبها السياسى ، وحياتها الاجتماعية حتى يمكننا أن نعرف أثر هذه العوامل المختلفة على التنظيم القائم فى كل منها .

وقد اخترنا فترتين زمنيتين لهذه الدراسة هما : فترة الحرب العالمية الأولى، وفترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها مباشرة ، حتى يمكننا أن ندرك الاختلاف فى مفهوم الحرب النفسية فى كل من هاتين الفترتين .

ونود أن نلفت النظر الى أن الهدف من هذه الدراسة ليس مجرد شرح التنظيمات المختلفة التى أنشأت لشن الحرب النفسية أو المساهمة فيها ، ولكن هدفنا هو أن نوضح الى أى مدى كان للعوامل الايديولوجية والبيئية والثقافية والسياسية وغيرها أثر كبير على شكل هذه المنظمات • وثمة نقطة أخرى يجب ألا تغيب عن بالنا وهى أهمية التخطيط السليم عند القيام بمثل هذا العمل ، وكذا ضرورة التنسيق الكامل المبنى على الايمان الراسخ بما يقوم به كل فرد فى هذا التنظيم ، ومحاولة حل مشكلات الادارة التى لا يخلو منها أى تنظيم •

منظمات الحرب النفسية فى الحرب العالمية الأولى :

الحقيقة أن كل الحكومات تقوم الى حد ما بالدعاية كجزء من مهامها العادية فى وقت السلم • انها تقوم بالدعاية لمصلحة أصدقائها ، وهذا أمر لا مفر منه •

لقد اعترفت الدول فى فترة الحرب العالمية الاولى أن تعبئة الرجال والعتاد لم تكن كافية ، اذ يجب أن تكون هناك تعبئة للرأى • وقد انتقلت السيطرة على الرأى ـ كما كانت على الحياة وعلى الممتلكات ـ الى أيد رسمية •

حقيقة ان سيطرة الحكومة على الرأى هى نتيجة حتمية للحرب الحديثة الشاملة ، ولكن المهم هو الى أى مدى تحاول الحكومة أن تقوم بدعايتها سرا ، والى أى مدى تقوم بها جهرا •

ان قوة الدعاية تزيد اذا أضيفت اليها سلطة الحكومة • واذا استثنينا حالات صغيرة ـ مثل تهريب مواد الدعاية داخل أراضى العدو المتاخمة ـ لاتفقد الحكومة شيئا اذا كانت كل عمليات الدعاية فى البلاد المحايدة والبلاد الصديقة تتم بشكل سافر ، والا حلت الريبة والشك محل الثقة التامة والتفاهم اللذين لا غنى عنهما ، وعلى سبيل المثال كانت لجنة الاستعلامات العامة الأمريكية على حق حينما قامت باخطار الحكومات المحايدة عن كل ما تريده داخل حدودها الحيادية •

ويعلق هارولد لاسويل على مشكلة التنظيم بقوله :

« واذا قبلنا المبدأ الذى يقول بضرورة القيام بالدعاية من جانب الحكومة المحاربة بشكل سافر تبقى أمامنا مشكلة التنظيم • فما الهيئات التى يجب أن تنفذ هذه العملية ؟ الى أى مدى يكون توحيد القيادة عمليا ؟ ان موضوع تنفيذ الحرب يضع عدة خدمات حكومية فى مهمة السيطرة على مصادر معينة للمعلومات . فهناك وزارة الخارجية فى الداخل، وهناك السلكان السياسى والقنصلى فى الخارج . هناك وزارتا الحرب والبحرية فى الداخل وهناك الملحقون العسكريون والبحريون فى الخارج • هناك الهيئة العامة لأركان الحرب ، وهناك مقر القيادة الميدانى ، وهناك وزارات الخدمات المختلفة التى تشترك فى مشكلات التموين والتنظيم الداخلى . ان مجرد تعدد هذه الهيئات كاف لأن يذكرنا بالقول الواضح بأن التأثير على المواقف تتضمنه كل مهمة وأنه غير ممكن الفصل الكامل بين الواحدة والأخرى » •

ويعود لاسويل فيقول :

« ان عدم التوحيد قد يسفر عن أخطار • فقد تحاول كل من وزارة الخارجية ومقر قيادة الميدان الاقناع بوسائل متضاربة مما ينال من سمعة الدعاية • قد يعلن العسكريون فى الداخل تدمير المبانى العامة فى البلاد المحتلة الأمر الذى يثير رعب الممثلين السياسيين فى البلاد المحايدة • وهناك احتمال انتشار الأخبار السيئة ذات الانواع المختلفة فى نفس الوقت ، مما يخلق حالة من القلق غير المرغوب فيه وذلك اذا قامت كل هيئة بنشر أخبارها على الجمهور • فقد تأتى أخبار عن : خسارة بحرية ، أو خسارة عسكرية ، أو خسارة جوية فى وقت يكون فيه نقص فى الدقيق أو تكون فيه مشكلات خاصة بالأجور أو الأسعار فى الداخل • فاذا كانت تتولى أمر هذه الأخبار هيئة مركزية فانه يمكن أن تقوم هذه بتوزيعها على فترة من الزمن ، وتجعل أثرها غير محسوس عن طريق الأخبار الطيبة عن الموقف العام •

ويؤدى عدم التوحيد الى ازدواج كبير فى المجهود • فاذا قام العسكريون بنشر نفس النشرة التى نشرها السلك الدبلوماسى ، وقاموا بتوزيعها بواسطة الملحقين العسكريين فى الخارج ، فى الوقت الذى يكون فيه الملحقون السياسيون يقومون بتوزيعها — فهذا العمل لا يخدم أى غرض • ومن الصعب مراجعة السياسة العامة فى ضوء مجهودات الدعاية اذا لم يكن هناك جهاز ينظم تصريف عملية الدعاية » •

ويرى لاسويل أنه قد تقع بعض الأخطاء نتيجة عملية التوحيد ، وقد يؤدى مشروع التوحيد الى معاداة بعض الهيئات الاخرى وتحطيم المعنويات •

فاذا تركزت السيطرة على الدعاية الخارجية والدعاية المحلية فى يد رجل واحد فقد يقاسى الآخرون من الرأس المسئول ٠

ولكن على الرغم من ذلك فان وجود أساس تنظيمى يحتفظ لكل هيئة من الهيئات المشتركة بدرجة كبيرة من الاستقلال الذاتى ضرورة لا غنى عنهـا فى الحرب النفسية ٠

واذا تساءلنا عن أشكال التنظيم التى كانت ممكنة فى هذه الفترة فاننا نجد الاجابة عن ذلك فيما اتبع فى الحرب العالمية الأولى ٠

قد تكون هناك ادارة واحدة مسئولة عن جميع أعمال الدعاية ، أو قد توجد لجنة يتفرع منها منفذون كل منهم مسئول عن فرع من فروع الدعاية ، مثل : الدعاية ضد العدو ، الدعاية فى البلاد المحايدة والبلاد الحليفـة ، الدعاية بين المدنيين ، الدعاية بين القوات المحاربة ٠

أما الطريقة الثالثة فتتم بتنظيم مؤتمر صحفى عام تشترك فيه كل الادارات ولـكن مع ترك كل أشـكال المجهودات الاخرى للهيئات المعنية ، وهى : وزارة الخارجية ، مقر القيادة العامة ، وزارة الحرب ، وزارة الداخلية ٠ وبصفة عامة فقد اتبعت الولايات المتحدة الطريقة الأولى ، واتبعت بريطانيا الطريقة الثانية واتبعت المانيا الطريقة الثالثة ٠

وعقب دخول الولايات المتحـدة الحرب أصدر رئيسـها أمرا بتأليف لجنـة للاستعلامات العامة . وكانت تتألف من وزراء البحرية والحرب والخارجية ومستر جورج كريل ٠ وفى الحقيقة كان مستر كريل مسئولا عن كل مظهر من مظاهر الدعاية سواء فى الداخل أو فى الخارج ٠ وكان من بين نتائج هذه الطريقة أن منح كل ممثل من ممثلى اللجنة فى الخارج هيبة ثلاث وزارات حكومية لاشباع كرامة كل منهم ٠

وبينما نشأ النظام الأمريكى بجرة قلم واحدة ، وظل دون تغيير فى أثناء الحرب ، فان النظام البريطانى اعتراه سلسلة طويلة من التغييرات المعقدة ، وقد كتب الميجور جنرال سير جورج أستون فى ذلك يقول :

« ان الساسة الحزبيين قوم شكاكون ، لا يأتمنون أى حكومة على أموال تنفقها على الدعاية خوف أن تصرفها لمصلحتها أكثر مما تصرفها على مصلحة البلاد. ولهذا السبب أنشئت (لجنة أهداف الحرب البرلمانية) من ممثلى كل الأحزاب . وقد أسند الى اللجنة عمل الدعاية فى الداخل ولكن وجه اليها كثير من النقد » .

وأنشئت ادارة صغيرة فى ولنجتون هاوس لاعداد النشرات والاعلانات ، وأصدرت ولنجتون هاوس تقرير « برايس » الذى اعتبر نصرا من انتصارات الحرب عن دعاية الجبهة ولكن مادته كتبت كما لو كانت صادرة عن هيئة خاصة لا رسمية . ثم تكونت بعد ذلك لجنة للأفلام واللاسلكى تحت رياسة مستر ماير ، ولكن كانت علاقتها بوزارة الداخلية ووزارة الخارجية غير مؤكدة . وأنشىء مكتب للصحافة فى أغسطس ١٩١٤ الحق بعد ذلك بوزارة الداخلية .

وكانت وزارة الخارجية تقوم بألوان النشاط الآتية على ما جاء على لسان مستر اكلاند وكيل وزارة الخارجية فى بيان ألقاه فى البرلمان :

« نحن نقوم الآن باتخاذ خطوات لنرى كيف اننا نمد صحافة الدول المحايدة بما يسمى أخبارا بكل معنى الكلمة فحسب ، بل كذلك بالأنباء التى قد تبدو لنا هنا عادية بينما تثير هى اهتمام البلاد الأخرى ، فمثلا الأحوال فى هذه البلاد أو المعلومات الخاصة بتجارتها وبموضوع العمالة وبموضوع التجنيد وغير ذلك من الموضوعات الخاصة ببلادنا والتى تهم فى نفس الوقت أصدقاءنا » .

وفى يناير عام ١٩١٧ تكونت ادارة الاستعلامات ، وكان الكولونيل بوكان يتولى أربع هيئات مبعثرة . وكان بوكان مسئولا أمام وزارة الحرب وأمام رئيس الوزراء ، كما أنشئت لجنة استشارية تتألف من لورد نورثكليف ولورد بيرنهام ومستر روبرت دونالد ومستر ك. ب. سكوت .

وكانت وزارة الحرب قد نظمت هيئة مستقلة للقيام بالدعاية ضد الجيش الألمانى والمدنيين . وأخيرا عين لورد بيفربروك فى فبراير عام ١٩١٨ وزيرا للاستعلامات . وعين فى نفس الوقت لورد نورثكليف مديرا للدعاية فى بلاد

الأعداء • وعين مديرون للمخابرات فى البلاد المحايدة وللدعاية السينمائية • وكان لورد نورثكليف مسئولا فنيا أمام لورد بيفربروك فى الشئون المالية ، ولكن كان له حق الاتصال المباشر برئيس الوزراء ووزارة الحرب • وكان الارتباك أسوأ من ذى قبل عندما ألحقت ادارة دعاية الاعداء بالبعثة الحربية البريطانية التى كان يعمل لها نورثكليف فى الشهور القليلة السابقة . وقد افتتحت مؤتمرات غير رسمية لتنسيق الجهود ، وأخيرا رأس لورد نورثكليف لجنة سياسة الدعاية ، وتحققت وحدة العمل وان كان ذلك على حساب جهد كبير مستمر لعدة سنوات •

وأهم فرق بين الخطة الأمريكية والخطة البريطانية هى أن الأخيرة وضعت الدعاية المحلية والخارجية فى يد موظفين منسقين • ولم يفرق النظام البريطانى بين نورثكليف وبيفربروك ، فكان لكل منهما مثلا حق الاتصال برئيس الوزراء وبوزارة الحرب • وكان البريطانيون يؤكدون ضرورة وجود استقلال ذاتى للادارات عند معالجة الدعاية فى الداخل أو فى الامبراطورية والدول المحايدة والحليفة والمعادية • كانت المصالح المتنوعة التى تجابه البريطانيين تبرر هذا الاجراء لأن المشكلات التى قامت أمامهم كانت مميزة تماما • لقد دخل الأمريكيون الحرب لا ليكسبوا المحايدين الى صفوفهم ولا ليوحوا الى فريق بأن يقف ضد فريق آخر • لقد كانت لهم رسالة يسيرة فى موضوع الدعاية ، وكان يمكن أن تقوم بها هيئة تنفيذية واحدة دون خطورة كبيرة •

ولقد كان للألمان الحد الأدنى من المجهود المنسق لشئون الدعاية • لقد كانت كل ادارة تسير فى طريق خاص بها ، وكان التعاون الرسمى الوحيد بينها يتم عندما ينعقد المؤتمر الصحفى الذى يتم مرتين أو ثلاث مرات فى كل أسبوع • وكان يشترك فى المؤتمر ممثلو وزارة الحرب وهيئة أركان الحرب وادارة البحرية والسلطات العسكرية ووزارة المستعمرات وهيئة البريد ووزارة الداخلية ووزارة الخزانة ووزارة التموين ووزارة الخارجية . وكانت رياسة المؤتمر تجيء بالتناوب ، كما اختار الصحفيون لجنة تتكلم باسمهم •

وكان على السلطات العسكرية أن تبنى عملها من الأساس • فعند بداية الحرب كان هناك موظف واحد يتصل بالصحافة • ولكن سرعان ما تكونت هيئة

ضخمة للصحافة لكتابة تقارير عن العمليات الحربية ولنشر صحافة الميدان وللرقابة على دخول الصحف المحلية ووصولها الى الجيش وللقيام بالدعاية ضد الأعداء .

وكانت وزارة الخارجية بطيئة فى عملها ولكن عندما وقعت موقعة المارن فى اكتوبر ١٩١٤ وظهر أن الصلح بعيد الوقوع تكون مكتب نشط كان يصدر كميات ضخمة من مادة الدعاية .

وعندما تطورت الحرب زاد الصراع حدة بين السلطات العسكرية والسلطات المدنية . لقد ثار غضب العسكريين عندما عرض « أرزبرجر » Erzeberger اقتراحا فى عام ١٩١٧ لعقد الصلح ، كما سبق أن ثاروا عندما تقدم « بثمان هولويج » Bethmann Hollweg بغصن الزيتون عام ١٩١٦ . لم يكن العسكريون يطيقون صبرا عند ذكر كلمة السلام أو الصلح . كانوا يريدون صلح المنتصر الذى يملى الشروط . لقد عرض لودندورف هذه الآراء على صحافة برلين لتعرض على الشعب . وفى الحال قبل اليساريون والوسط التحدى وشنوا هجوما على العسكريين لمحاولتهم التدخل فى السياسة . وحتى يتجنب المستشار الوقوع بين نار الحزبين ــ كما حدث لسلفه ــ رفض أن ينشىء وزارة مستقلة للدعاية .

لقد اقترح العسكريون ذلك فى مناسبات ثلاث مختلفة لأنهم كانوا قد بدأوا يشعرون بتأثير دعاية الحلفاء . وأخيرا أنشأت القيادة العامة هيئة صحافة كى تصل بها الى قلوب الشعب . ونجحت هذه الهيئة بالرغم من معارضة الصحف الكبرى ، وبتوجيه من الجنرال لودندورف رسمت خطة مفصلة لاثارة وطنية المدنيين والمقاتلين فى ٢٩ من يوليو ١٩١٧ .

أما الفرنسيون فقد عهدوا بدعايتهم الى الهيئات الدبلوماسية والهيئات العسكرية والهيئات البحرية ، ومن آن لآخر كانوا يستكملون هذا العمل فى الخارج بايفاد مندوب سام يجمع بين مهمة الدعاية وسواها من المهام الاقتصادية وغيرها . وكان لبيت الصحافة(١) عملاء ملحقون بالسفارات فى الخارج .

---

(١) لجنة شكلت عام ١٩١٨ للاشراف على الدعاية الأدبية والفنية خارج البلاد ، تحت اشراف وزير التعليم والفنون الرفيعة .

وبالرغم من أن مشكلة تنظيم حملات الدعاية لم تحل حلا مرضيا فى الحرب الاخيرة فان تجربة الحلفاء فى بعض المشروعات كانت كاملة لدرجة أسفرت عن مبادىء سليمة فى الادارة •

ويقترح سير آرتر سولتر(١) تنظيما يرى أنه حل مناسب لمشكلة الادارة :

« ليس هناك شيء عديم الاثر مثل وجود لجنة تتألف من أشخاص ليس لكل منهم دور معين أو سلطة تنفيذية شخصية ومع ذلك يحاول أن يوجه العمل التنفيذى • ولكن اذا كان هناك عدد من الاشخاص ـ لكل منهم سلطة تنفيذية مباشرة يستمر فى ممارستها فى مجاله الخاص ـ فانه يمكنهم أن يجتمعوا من وقت لآخر لدراسة اجراءاتهم المشتركة وتعديلها وفقا لخطة مشتركة • ثم يرجعون بعد ذلك الى وزاراتهم لتنفيذ ما اتفقوا عليه ، عند ذلك تصبح اللجنة ادارة مؤثرة للعمل التعاونى » •

فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية وما بعدها :

والآن ننتقل لدراسة تنظيمات الحرب النفسية لثلاث دول كبيرة تختلف كل منها عن الأخرى اختلافا كبيرا فى نظامها السياسى والعقائدى والاجتماعى بأمل أن نبين نظرة كل منها الى الحرب النفسية ومدى أثر ذلك على منظماتها •

التنظيم الألمانى :

بعد أسبوع من استيلاء النازى على الحكم حصل هتلر على مرسوم بتوقيع هاندنبرج بانشاء وزارة الدعاية وكان ملخص خطة التنظيم النازى للدعاية هو :

« يجب أن تتركز السيطرة على أنشطة الدعاية ، وسوف تتساوى مهمة الدعاية من حيث الأهمية مع أى مهمة حكومية أخرى • ويجب أن تتاح للقائمين على شئون الدعاية فرصة الحصول على كل المعلومات وكل الخطط الخاصة بالهيئات

---

(١) J. H. Salter, Irter - Allied Shipping Control (Sic) P. 257.

الأخرى وسوف تستقل هيئة الدعاية كل فرص الدعاية • ويجب ألا يسمح لهيئة أخرى بالعمل المستقل فى هذا الميدان • وسوف يشغل وظائف الدعاية ذات المسئولية أكثر الناس اخلاصا للحركة وأكفؤهم من الناحية الفنية • ويجب أن يتم احتكار السيطرة على كل أجهزة الأعلام الجماهيرية ويشمل ذلك الموسيقى والفن والمسرح والعمار والكتب والتجارة السياحية والاسواق والمعارض والمدارس وغيرها • وعلى قدر الامكان يجب أن تتم السيطرة على هذه الأجهزة بشكل لا تبدو فيه الرقابة على أنها مباشرة » •

ونتيجة لذلك أصبح رجل واحد ــ هو جوزيف جوبلز ــ مديرا للدعاية . ولكونه وزيرا فى الحكومة كان مسئولا أمام هتلر فقط • وهكذا أصبح جوبلز صاحب النفوذ الأول فى هيئات الدعاية الثلاث : وزارة الحرب وادارة الدعاية فى الحرب وغرفة الرايخ للثقافة • وكرئيس لكل من هذه الهيئات كان مسئولا فقط أمام هتلر •

وكان منصب جوبلز كثالث رجل فى النازى يعنى أن وزارته كانت قوة كبيرة فى الحكومة ، وكانت الحكومة تبدو كما لو كانت تعمل كأنها قسم متفرع من وزارة الدعاية • فكانت السياسات تنفذ أو تنبذ حسب تأثير رجل الدعاية • ولم تكن قوة الوزارة نتيجة لمكانة جوبلز المباشرة عند هتلر ، بل كانت ترجع لمعرفته بخطط الوكالات الحكومية الأخرى • وكانت مفكرة جوبلز تحتوى على أمثلة كثيرة عن استخدامه للخطط وغيرها ، فكتب فى احدى المناسبات يقول :

« كنت أناقش تكتيكاتنا بالنسبة للوزارات الاخرى . وانى أعتبر أن واجبى يقتضى أننى لا أقتصر على أن انظم وزارتى فحسب ، بل كذلك أحارب الانهزامية التى كانت شائعة فى دوائر برلين الحكومية » •

وقال فى مجال آخر :

« انى أتساءل ما اذا كان من الواجب أن أرسل رفاق الحزب كى يكونوا مخبرين أو مراقبين فى المحاكم المختلفة حتى أستطيع أن أقف على كل شىء بهدوء ، وأتمكن من اتخاذ الاجراءات ضد الاحكام التى لا تتمشى مع الوقت » •

وتدفقت التقارير السرية من كل الهيئـــات الى الوزارة ، وكانت وزارة الدعاية على اتصال بموقف الحزب كما كانت على علم بالأحداث الطيبة وغير الطيبة. وكانت حالة الرأى العام لا تحددها التقارير الواردة من الفروع المختلفة التابعة لوزارة الدعاية فحسب بل كذلك بواسطة الهيئات الاخرى مثل الجستابو التى كانت تتخصص فى عمل مسح للرأى العام • والى جانب هذه المصادر كانت هناك وكالات مخابرات تغذى الوزارة بالمادة السياسية •

ومن بين المنظمات التى كانت تضطلع بهذا العمل « معهد الجغرافيـــا السياسية » و « مكتب رينتروب » و « مؤسسة النشاط الالمانى فى الخـارج » و « الأكاديمية الالمانية » و « الجماعة العاملة فى الهندسة السياسية » و « الهيئة الاكاديمية للتبادل الاكاديمى » •

وحاولت وزارة الدعاية أن تنفذ مبـدأ السيطرة الواحـدة على الدعاية ، ولكنها لم تنجح فى ذلك النجاح الكامل • ففى وقت من الأوقات كانت لوزارة الدعاية السيطرة على الدعـاية الدبلوماسية • وقد نجح جوبلز فى وضع ملحقين للدعاية تحت اشراف وزارة الدعاية فى كل منصب خارجى وفى الوظائف الصغرى حيث لم تكن الخبرة الدبلوماسية أو الحذق ضرورية كان الوزير هو ملحق الدعاية وكان التدريب فى ميدان الدعاية أكثر من التدريب الدبلوماسى • وقامت هيئـات حكومية أخرى باستخدام وزارة الدعاية كوسيلة للاعلان عن نفسهـا ، وسلمت هذه السلطات رسميا الى وزارة الدعاية حال انشائها •

وقد نظم جوبلز وزارته على أساس أن تكون نواة لرجال الدعاية من الصفوة المختارة • وقد اختار هؤلاء من بين رجال الدعاية فى الحزب النازى الذين برهنوا على كفاءتهم فى الايام الاولى للنضال ، ووضع فى المناصب الادارية الصرفة الموظفون المدنيون ذوو الخبرة •

ويمكننا أن نلمس السبب فى موقف جوبلز ، ففى خطاب ألقاه فى قصر الرياضة قال :

« مادمنا نحن الاشتراكيين الوطنيين مقتنعون بأننا على صواب فلا يمكن أن نسمح لاحد غيرنا أن يدعى أنه على صواب كذلك ، فاذا كان على صواب فلابد أن يكون اشتراكيا وطنيا ، ولكنه اذا لم يكن اشتراكيا وطنيا فلا يمكن أن يكون على صواب ! » •

لقد كان جوبلز متعصبا ، وكتب يقول أثر اجتماع له مع هتلر : « هناك فى السماء يظهر سحاب يأخذ شكل الصليب المعقوف • انه ضوء يسطع فى كبد السماء • لقد أوضحت لى هذه الايام الطريق والاتجاه • لقد اختفت آخر شكوكى. سوف تعيش ألمانيا • فليعش هتلر ! » •

وكانت وزارة الدعاية تدير كلية سياسية لتدريب رجال الدعاية • كذلك تولت الوزارة ادارة المعهد الالمانى للشئون الدولية وجعلته مدرسة لتدريب النازيين الذين تسند اليهم مناصب فى الخارج • ولكى نأخذ فكرة عن التدريب يمكن أن نلقى نظرة على تخريج المتحدثين والخطباء الذين كان تدريبهم ينقسم الى قسمين : أيديولوجى وفنى ، وكان منهج الدراسة يشمل دراسة كتب مثل « كفاحى » و «الطبيعة تأليف روزنبرج» و «مبادىء وأهداف الاشتراكية الوطنية» « وكفاح فى برلين لجوبلز » و « كتاب فى نظرية الاجناس تأليف جنتر » • وكان الامتحان النهائى يعقد أمام لجنة مكونة من مندوبى ادارة الدعاية ومكتب التدريب الايديولوجى وكلية التدريب التابعة للحزب •

وحالما تكونت وزارة الثقافة العامة والدعاية تولت أمور الدعاية الخارجية • وتدل أقسام الوزارة على مدى سيطرتها : قسم الخارج ، قسم الترفيه ، قسم الافلام ، قسم الموسيقى ، قسم المسرح ، قسم الفنون الجميلة ، قسم الادب ، قسم الإذاعة ، قسم الصحافة المحلية ، قسم الصحافة الاجنبية ، قسم السياحة ، قسم تنسيق الدعاية •

وبالاضافة كان جوبلز رئيسا لادارة الدعاية بالحزب ، وأصبح بعد ذلك رئيس قسم الثقافة بالرايخ ، وكان الاخير قد أنشىء للاشراف على الانتاج ، وكان مقسما الى سبعة فروع تقابل النقابات المهنية للفنانين والعاملين فى ميدان الفكر •

ولم تقم وزارة الدعاية بحركة سـافرة للاستيلاء أو السيطرة على أجهزة الاتصال فيما عدا نظام الاذاعة الذى كانت تملكه الحكومة من قبل ، أما الصحف والمجلات فقد تركت فى يد أصحابها السابقين ، ولو أن الحزب قام بشراء بعض الصحف وجعلها من أجهزته .

وكان الضغط الاساسى لتوحيد الانتاج يتم عن طريق السيطرة المحكمة على مصادر المعلومات . ولما كان كل شىء يتم عن طريق وزارة الدعاية فقد أصبحت هذه ، المكان الوحيد الذى يمكن ان تستقى منه المعلومات .

ولقد نفذت الرقابة تحت ستار تهديد لا يكاد يكون مستترا ، فلقد كان شبح معسكرات الاعتقال والمصادرة تجعل أى محرر صحفى أو منتج فيلم يسير فى الصف مع القافلة .

وكانت غرفة الثقافة التابعة للرايخ هى التى تسيطر على ميدان الفنون . ولما كان لزاما على كل من يريد أن يعمل فى حقل الفنون أو فى حقل الاعمال الفكرية أن ينتمى الى غرفة الثقافة ، فقد كانت هذه الغرفة ــ بدلا من وزارة الدعاية ــ هى التى توجه الاعضاء وترشدهم الى الطريق المطلوب .

ويعالج كتاب هادا موفسكى عن الدعاية مناقشة كيفية استخدام الشعارات الصحيحة والتفسيرات التى كان النازى يصرون عليها . لقد كان النازى ينادى باستخدام « المنظمات العامة » و « التعاونيات » الى أقصى حد . وكانت هذه تبدو كما لو كانت معقدة بينما هى فى الحقيقة تتفق مع الاحوال المعيشية المختلفة . وكانت طرق الدعاية الرسمية التى تتبعها تتفق مع الاهـداف الرئيسية لحياة كل الامة ، وكانت قوة الدولة التنفيذية تجعل من المستحيل القيام بأية محاولة ــ سلبية أو ايجابية ــ لعبور هذا الخط وتعدى هذه الاهداف ! وكان يؤكد رسالة هذه المنظمات احتكار أجهزة الاعلام الجماهيرية والتعاون الكامل من جانب المدارس،

وقال : ان المدارس الالمانية يجب أن تقلع عن « ولائها لمبدأ الحرية والفردية • ويجب في المستقبل أن تكون المهام العامة للدعاية القومية متضمنة تحديد المادة التي تدرس في المعاهد التعليمية طالما هي متعلقة بأى شيء سياسي » •

وهو يحذر الاجهزة من عواقب عدم التعاون تعاونا كليا مع الحركة « فاذا رضيت النخبة الممتازة بمحض ارادتها عن وضع أنفسها في خدمة قضية أمتنا بكل اخلاص وعاطفة فلن تكون هناك حاجة لان ننتقص من حرية الصحافة عن طريق الرقابة او التشريع. بل سوف يكفى أن نتيح الفرصة من الناحية التشريعية أمام الجماعات المهنية كي تطهر أنفسها من العناصر غير المرغوب فيها وتوقف نشاطها » •

منظمات الحرب النفسية الأمريكية فى الحرب العالمية الثانية :

عندما دخلت أمريكا الحرب في ٧ من ديسمبر ١٩٤١ كانت مهمة نشر الدعاية في الخارج يتولاها كل من مكتب تنسيق الشئون الامريكية الذى كان يقصر نشاطه على أمريكا اللاتينية ، ومكتب تنسيق الاستعلامات الذى كان يعمل في باقى العالم •

وكان قد أنشيء فى ١٦ من أغسطس ١٩٤٠ مكتب تنسيق الشئون الأمريكية تحت ادارة نيلسون روكفلر للاضطلاع بمهمة تنمية العلاقات الطيبة بين الشعوب الامريكية • وكانت النظرة الى نواحي الاستعلامات المختلفة مثل الصحافة والاذاعة والسينما هى أنها جزء مكمل لبرنامج العلاقات العامة الثقافية والتجارية الذى كانت تقوم به متعاونة تعاونا وثيقا مع وزارة الخارجية •

وعندما أعلنت الحرب ساعد مكتب تنسيق الشئون الامريكية على اقناع شعوب أمريكا اللاتينية بضرورة قيام تضامن فى نصف الكرة الغربى حماية لمصالح هذا الجزء من العالم •

تنسيق المعلومات :

وفى ١١ من يوليو ١٩٤١ أنشىء مكتب تنسيق الاستعلامات بمقتضى أمر عسكرى أصدره الرئيس روزفلت ، وأسندت اليه مهمتان : الأولى تنسيق جمع المعلومات من جميع المصادر وتحليلها بما فى ذلك القوات المسلحة ، والأخيرة اذاعة المعلومات فى الخارج فى مناطق خارج أمريكا اللاتينية .

وكانت المهمة الثانية غير واضحة فى الامر الخاص بانشاء المكتب ، لكن كان مفهوما عند كل من رئيس الولايات المتحدة ورئيس مكتب التنسيق جنرال وليم دونوفان انه من الضرورى أن تنشا هيئة استعلامات خارجية كجزء مكمل لمكتب تنسيق الاستعلامات . وكان الرئيس قد أصدر توجيهاته ألا تشترك هذه الهيئة فى نشاط الاستعلامات المحلية .

وقام الجنرال دونوفان وكان كولونيلا فى ذلك الوقت بتعيين روبرت شيروود مديرا لهيئة الاستعلامات الخارجية F I S ، ومقرها مدينة نيويورك .

كانت هذه الهيئة ذات الاستقلال الذاتى تضطلع بترويج مبادىء الديمقراطية ونشر قضية الامم المتحدة وشرح أهداف الولايات المتحدة فى جميع أنحاء العالم فيما عدا أمريكا اللاتينية . وطبقا لتوجيهاتها كانت هيئة الاستعلامات الخارجية تشرح خططها ومشروعاتها الخاصة بسياسة الولايات المتحدة الخارجية والعسكرية بالاشتراك مع وزارات الخارجية والحرب والبحرية ، كما حاولت أن تحقق أهدافها الخاصة بعملياتها بالتعاون الوثيق مع الحكومة البريطانية .

وكانت هيئة الاستعلامات الخارجية تعمل على أساس افتراض أن الحكومة الديمقراطية لا يمكن أن تقوم بدعاية كاذبة فى الخارج كتلك التى كان يقوم بها جوبلز ، وان الاساس السليم الوحيد هو الصدق . وطبقا لهذا حاولت أن تقوم ببرنامج للدعاية تكون فيه الاخبار اليومية العنصر الاساسى .

وعندما دخلت أمريكا الحرب فى ديسمبر ١٩٤١ كان مكتب تنسيق الشئون الامريكية وهيئة الاستعلامات الخارجية يقدمان برامج على الموجة القصيرة ، ولكن

لم تستخدم فى البرامج الموجهة الى ما وراء البحار الا لغات قليلة ، فمثلا لم يوجه برنامج باللغة اليابانية على الموجة القصيرة الى الامبراطورية اليابانية الا بعد مرور ساعات من الهجوم على بيرل هاربور • وكانت محطات الارسال التابعة لهيئة الاستعلامات الخارجية مثبتة على الساحل الغربى للولايات المتحدة •

وبالرغم من استخدام الحرب النفسية على المستوى الاستراتيجى والمستوى التكتيكى فى الحرب العالمية الاولى فان الامريكيين بدأوا عمليات مشابهة فى الحرب العالمية الثانية دون الاستفادة من درس الحرب الاولى • وبالاضافة الى ذلك كان قادة القمة من الرئيس الى من هم أقل منه مشغولين فى المشكلات الاستراتيجية العامة العسكرية والسياسية من جهة ، ومن جهة أخرى لم يتفهموا امكانيات الحرب النفسية فى النضال العالمى ضد النازى وضد اليابانيين • وكانت النتيجة أن التفكير فى نوع التنظيم الذى تحتاج اليه عمليات الحرب النفسية لم يكن واضحا ولا ثابتا ، وكانت النتيجة العامة أن سادت الفوضى هذا المجال فى أثناء الشهور الستة التى أعقبت الهجوم على بيرل هاربور •

وقد أدى الارتباك الذى حدث بشأن كيفية تحقيق برنامج الدولة الخاص بمعلومات الحرب ــ فى الداخل وفى الخارج ــ الى تقديم عدة مقترحات عن كيفية اعادة تنظيم هذا المجهود • وكانت كل خطط اعادة التنظيم تشترك فى المظاهر المختلفة الآتية :

« لقد اعترف الجميع بأن الموقف الحالى ليس طيبا ، واقترح الجميع أن خطوط المسئولية الادارية يجب أن تحدد بوضوح ، وطالبوا بتخطيط أفضل وبنظام لتنسيق الانتاج » •

مكتب معلومات الحرب :

وفى ١٣ من يونيو ١٩٤٢ صدر أمر تنفيذىرقم ٩٦٨٢ بانشاء مكتب معلومات الحرب • وكان هذا الامر قد صدر بناء على مقترحات وردت فى مذكرة خاصة باعادة تنظيم خدمات معلومات الحرب التى قدمها رئيس الميزانية الى رئيس الولايات

المتحدة في ٧ من مارس ١٩٤٢ • ولكن نيلسون روكفلر رئيس مكتب تنسيق الشئون الأمريكية قاوم الحاق مكتبه في هيئة خاصة بالمعلومات الخارجية • وكانت النتيجة أن ترك الأمر الخاص بانشاء مكتب معلومات الحرب مكتب تنسيق الشئون الأمريكية خارج التنظيم الجديد •

وقد أنشيء مكتب معلومات الحرب بأن نقل اليه عدة خدمات خاصة بالمعلومات سواء الداخلية منها والخارجية • ومن بين الهيئات أو الخدمات التي ضمت الى مكتب معلومات الحرب الهيئات الآتية : مكتب الحقائق والارقام ، مكتب التقارير الحكومية ، نشاط المعلومات العامة الخاصة بمكتب ادارة الطوارىء ، هيئة المعلومات الخارجية التابعة لمكتب تنسيق المعلومات •

والواقع أن هيئة المعلومات الخارجية التابعة لمكتب تنسيق المعلومات ونشاطها هما ما يهم دارس الحرب النفسية ، فحينما ضمت الى مكتب معلومات الحرب أصبحت هيئة المعلومات الخارجية فرعا له فيما وراء البحار • أما الفرع المحلي لمكتب معلومات الحرب فكان يتألف من الموظفين الذين نقلوا اليه من مكتب الحقائق والارقام ومكتب التقارير الحكومية ومكتب ادارة الطوارىء ، وهذا لا يهم في كثير دارس الدعاية الخارجية والمعلومات الدولية •

أما بقية مهام مكتب تنسيق المعلومات الخاصة بجمع البيانات والمعلومات عن المناطق الخارجية فقد نقلت الى هيئة جديدة « مكتب الخدمات الاستراتيجية » تحت ادارة الكولونيل دونوفان ، ثم حول مكتب الخدمات الاستراتيجية بعد ذلك الى هيئة تابعة للهيئة المشتركة لرؤساء هيئة أركان الحرب •

ولم يقسم الامر الصادر بانشاء مكتب معلومات الحرب المسئولية بينه وبين مكتب الخدمات الاستراتيجية فيما يخص الحرب النفسية •

وفي السنة الاولى من وجود مكتب معلومات الحرب كان نشاط المعلومات المحلية هو السائد. وقد ظل فرع ما وراء البحار يؤدي عمله حتى آخر ربيع أو صيف عام ١٩٤٣ كما ظل وحدة قائمة بذاتها • وفي المدة منذ انشاء مكتب معلومات

الحرب فى يونيو ١٩٤٢ حتى ٩ من مارس ١٩٤٣ كانت هناك ثلاثة عوامل ذات أثر على طبيعة التنظيم جاءت نتيجة خبرة الحرب : الاول كان نشاط ما وراء البحار الخاص بمكتب معلومات الحرب ومكتب الخدمات الاستراتيجية غير محدد • الثانى كان تنسيق العمل بين مكتب معلومات الحرب ومكتب الخدمات الاستراتيجية ومكتب تنسيق الشئون الأمريكية تمزقه الخلافات • الأخير بالرغم من أن المجهودات الكبرى للقادة الكبار كانت خاصة بالبرامج المحلية فان مكتب الخدمات الاستراتيجية تحت القيادة الديناميكية للجنرال دونوفان كان يقوم برسم خطط بعيدة المدى خاصة بالحرب النفسية وعلاقتها بالحملات العسكرية المقبلة •• وكان لا يتقبل هذه الخطط روبرت شيروود رئيس فرع ما وراء البحار أو المر دافيز مدير مكتب معلومات الحرب •

ولقد حاولت الهيئة المشتركة لرؤساء أركان الحرب فى ديسمبر ١٩٤٢ فى أثناء العمليات العسكرية الامريكية فى الحرب العالمية الثانية أن تفض النزاع الذى كان قائما بين مكتب الخدمات الاستراتيجية ومكتب معلومات الحرب ، وذلك باصدار أمر يخول لمكتب الخدمات الاستراتيجية السلطة التامة لتخطيط البرنامج العسكرى للحرب النفسية وتنفيذه وتنسيقه • وقد ثبت بعد ذلك أن اصدار هذا الامر لم يكن مفيدا ، فلم يتغلغل الامر ليصل الى أساس المشكلة وهو عدم وجود تنسيق •

واستمرت منافسة الهيئات بعضها مع بعض ، وأدى ذلك الى أن أصبحت كل هيئة لا تعرف ما تخططه أو تفعله الهيئات الاخرى • وثبت أن منشور الهيئة المشتركة لرؤساء أركان الحرب لم يكن فيه حل للمشكلة ، لأنه لم يركز كثيرا على الفلسفة الأمريكية السائدة أو المفهوم السياسى السائد ، وهو أن الدعاية ـ ان لم تكن الحرب النفسية كلها ـ يجب أن تكون أولا وأخيرا مسئولية المدنيين .

ونتيجة لذلك تقدم مستر دافيز رئيس مكتب معلومات الحرب ومستر روكفلر رئيس مكتب تنسيق الشئون الامريكية باحتجاج الى الرئيس ضد اغتصاب العسكريين للسلطة •

وعقب هذا الاحتجاج المقدم للرئيس صدر أمر تنفيذى رقم ٩٣١٢ بتاريخ ٩ من مارس ١٩٤٣ حدد بوضوح مسئولية مكتب معلومات الحرب فى قيادات ما وراء البحار • وجاء فى الامر الجديد أن مكتب معلومات الحرب هو الهيئة المسئولة عن عمليات المعلومات والدعاية السافرة فى الخارج •

ولكن لم يوضح الامر تماما مهام الحرب النفسية التى يحتفظ بهـا مكتب الخدمات الاستراتيجية ، فمثلا لم يذكر الامر ما اذا كان مكتب معلومات الحرب أو مكتب الخدمات الاستراتيجية له سلطة على نشاط الثوار أو فى حملات الدعاية المستترة • ولم يغفل الأمر كثيرا نحو حل المشكلات الخاصة بتنسيق العمل بين الهيئات المنفصلة • ومع ذلك فقد كان تقدم الحرب هو الذى عمـل على حل أو تخفيف حدة هذه المنازعات بين الهيئات •

هيئات الحرب النفسية داخل المنشئات العسكرية :

وفى أوقات مختلفة فى أثناء سير الحرب كانت الهيئات العسكرية فى واشنطون تظهر اهتماما عاديا بعمليات الحرب النفسية • فأنشأت وزارة البحرية بصفة سرية فرع الحرب الخاص داخل نطاق مكتب المخابرات البحرية لتخطيط العمليات الخاصة بمنطقة الحرب النفسية والميادين المتصلة بها • وكان كابتن زاخارياس أحد الشخصيات المحركة لهذه الهيئة • فبالاضافة الى النداءات التى وجههـا زاخارياس لليابان عام ١٩٤٥ فان من أهم الاعمال المتصلة بالحرب النفسية التى قام بها موظفو البحرية كانت النداءات التى وجهت الى غواصات النازى •

أما فى وزارة الحرب فلم يكن تأييد الحرب النفسـيـة بنفس قوة وزارة البحرية • وقد تألفت جماعة الدراسات الخاصة قبل نشوب الحرب فعلا ، ولكن كانت هذه الجماعة جماعة استراتيجية على مستوى عال أكثر منها هيئة تخطيط للحرب النفسية • وفى أثناء عمرها القصير نسبيا اقتضى نشاطها انشاء حلقـة اتصال مع مكتب معلومات الحرب ومكتب تنسيق الشـئون الامريكيـة لتزويد

هذين المكتبين بالمعلومات العسكرية التى تساعد على اظهار الولايات المتحدة فى ضوء أفضل للعالم • ومن بين أعمالها الكبرى انشاء لجنة الحرب النفسية المشتركة داخل الهيئة المشتركة لرؤساء أركان الحرب •

ولجنة الحرب النفسية المشتركة عبارة عن هيئة عسكرية وتتكون عضويتها من موظفين عسكريين ، وقد حددت مهامها على النحو التالى :

« تبدأ وتشكل خطط الحرب النفسية ، وتقوم بتوجيه من اللجنة المشتركة لرؤساء أركان الحرب بتنسيق الحرب النفسية الخاصة بهيئات الولايات المتحدة الحكومية والتعاون مع الامم المهتمة لتحقيق الهدف الذى يتفق مع استراتيجية الحرب النفسية » •

لقد كان هذا عملا فيه طموح بالنسبة لجماعة عسكرية نظرا للبرامج العدائية التى كانت تمولها الهيئات المدنية والتى كانت تنال تأييد البيت الابيض وطبيعى أن لجنة الحرب النفسية المشتركة لم تقم بعمل كبير • وبعد انشاء مكتب معلومات الحرب رفض هذا المكتب أن يتعاون مع لجنة الحرب النفسية المشتركة • وأعادت الهيئة المشتركة لرؤساء أركان الحرب تنظيم لجنة الحرب النفسية المشتركة التى كانت مشغولة جدا بحل كثير من المشكلات الادارية الخاصة بمكتب الخدمات الاستراتيجية . وفى أواخر عام ١٩٤٢ توقف نشاط لجنة الحرب النفسية المشتركة وعطلت نهائيا بواسطة الهيئة المشتركة لرؤساء أركان الحرب • وبعد هذه الحركة لم تحاول أى لجنة من لجان الهيئة المشتركة لرؤساء أركان الحرب أن تمارس أى مسئولية دائمة لها صلة بعمليات الحرب النفسية •

منظمات الحرب النفسية فى القيادات العسكرية فيما وراء البحار :

كان الأمر رقم ٩٣١٢ بتاريخ ٩ من مارس ١٩٤٣ الذى أعاد تحديد مهام كل من مكتب معلومات الحرب ومكتب الخدمات الاستراتيجية مسئولا الى حد كبير

عن طبيعة منظمات الحرب النفسية التى أنشئت فى أثناء الحرب فى القيادات الموجودة فيما وراء البحار . كان هذا الجزء من الامر الذى نص على ضرورة الحصول على موافقة قائد الميدان معمولا به بدقة ، وكان ذا تاثير كبير على مدى العمليات التى كانت تتم وعلى نوعها .

كان تنظيم عمليات الحرب النفسية فى كل مكان يتم على أساس ارتجالى . لم يكن هناك تبادل كبير للمعلومات بين القيادة العسكرية الكبرى والقيادات الأخرى . ولهذا لا يمكن لانسان أن يصف بجرة قلم واحدة خصائص التنظيم الذى كان موجودا فى الجيش لسير عمليات الحرب النفسية فى الميدان . كانت هناك اختلافات هامة فى التركيب أو التشكيل بين كل قيادة والقيادة الاخرى .

وكانت المنطقة التى بدأت فيها الولايات المتحدة القيام بمجهود عسكرى فى الحرب النفسية فى الحرب العالمية الثانية هى شمال أفريقيا . لقد كانت طبيعة العملية « انجليزية أمريكية » وشخصية القائد « جنرال أيزنهاور » هى التى حددت لون التنظيم الذى كان ينفذ هذه الحملات فى القارة فى المدة من ١٩٤٣ حتى ١٩٤٥ ، وكان مفهوم جنرال أيزنهاور الخاص بالتنظيم العسكرى يتطلب انشاء هيئة موظفين عسكريين لتخطيط عمليات الحرب النفسية والاشراف عليها : وكانت هذه العملية قسمة مشتركة بين الامريكيين والبريطانيين .

وكان مفهوم التنظيم طبقا لقيادة الجنرال أيزنهاور أن يحقق التضامن بين المواهب الامريكية والبريطانية ، كما يهدف التنظيم الى استخدام الموظفين الذين يشغلون وظائف ذات مسئولية كبرى ، على حسب قدراتهم الفردية بغض النظر عما اذا كانوا ينتمون الى هيئات عسكرية أو يتبعون هيئة مدنية . وكانت نتيجة ذلك فى قيادات جنرال أيزنهاور فى شمال أفريقيا ١٩٤٣ ، وفى قيادة شمال غربى أوروبا ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ أن أسند أكبر منصب فى الحرب النفسية الى قائد أمريكى .

قسم الحرب النفسية « القيادة العليا لقوات الحلفاء » :

ولقد اسندت مهمة تخطيط واستخدام الحرب النفسية والتنفيذ الفعلى للعمليات فى منطقة قارة أوروبا الى قسم الحرب النفسية التابع للقيادة العليا لقوات الحلفاء • وكان هذا القسم جزءا خاصا من أجزاء القيادة العليا لقوات الحلفاء • وعلى خلاف أقسام القيادة الاخرى كان هذا القسم يسند اليه مهمتا تخطيط الافراد والعمليات •

وكانت مهام قسم الحرب النفسية هى :

- شن الحرب النفسية ضد العدو •
- استخدام كل الأجهزة الممكنة الخاصة بالحرب النفسية وحفظ الروح المعنوية للدول الصديقة التى كان يحتلها العدو واقناع شعوب البلاد بالانصياع لرغبات القائد الاعلى •
- القيام بعمل دعاية متضامنة فى البلاد الصديقة المتحررة •
- السيطرة على خدمات المعلومات فى الجزء الذى يحتله الحلفاء من ألمانيا •

وكان يساعد رئيس قسم الحرب النفسية أربعة نواب وقد أسند اليهم الاشراف على الفروع الآتية :

- الخطط والمنشورات •
- المخابرات •
- الاذاعة •
- النشرات •
- الصحافة •
- الأفلام •
- المطبوعات •
- العمليات الخاصة •

وفى الأقسام المستقلة والأقسام الفرعية لقسم الحرب النفسية كان يتولى بعضها بريطانيون والبعض الآخر أمريكيون • وعندما كانت الرياسة فى يد بريطانى كان نائب الرئيس الأقدم أمريكيا والعكس بالعكس • وكان هذا الاجراء يدفع المجموعة الى أن تفكر وتخطط وتعمل معا كفريق واحد أكثر من العمل كممثلين للهيئات المدنية أو الهيئات العسكرية لهذه الدولة أو تلك •

التنظيم السوفييتى للحرب النفسية :

انتشرت فى المحافل الغربية أسطورة تقول : أن الشيوعيين قد اكتشفوا قوة غامضة للكلمات ، ولكن هذه الفكرة تعتبر الى حد كبير غير دقيقة ، بل تعتبر فكرة خاطئة مضللة •

والواقع أنه لم يعد هناك غموض ولا ابهام فى العمليات النفسية عند السوفييت ، فقد توافر الآن الكثير من المعلومات التى أزالت الغطاء عن النظرية السوفييتية • فهناك كتابات لنين (١ ـ ٣) وستالين (٤ ـ ٥) ، وكذا اجراءات ومناقشات مجلس السوفييت الاعلى وغيره من الهيئات التى تناقش فى اجتماعاتها هذه العمليات ، كما تتوافر أيضا على سبيل المثال الكتيبات المعدة لتعليم الدعاة ، والكتب الدراسية لمدارس تعليم الشيوعية، والدوريات والنشرات التى تستخدم لنشر الدعاية وتقديم المعلومات للدعاة الذين يقومون بهذه الدعاية ، وغير ذلك من المراجع التى يمكن الاعتماد عليها •

على أن هذا ليس كل شيء فهناك دراسات كثيرة عن الدعاية السوفيتية ، كما أن هناك حصيلة تتزايد عن المعلومات المستقاة من أولئك الذين يفرون من

---

(١) Vladimir I. L, A Training Pamphlet , 1920.

(٢) „ „ Selected Works International Publishers Co, New York, 1935.

(٣) „ „ Collected Works, International Publishers, New York, 1927, 1 : 226.

(٤) Joseph Stalin, Problems of Leninism, Foreign Publishing House, Moscow, 1940, P. 211.

(٥) Joseph Stalin, Works State Publishing House, Moscow, 1946 - 1952.

الجانب السوفييتي « المرتدين » Defectors وغير هذا من المصـادر من داخل الفلك السوفييتي نفسه • ولذا فمن الصعب ـ في ضوء معلومات كهذه ـ أن يكون من الصحيح أو الدقيق أن نقول عن النظرية السوفييتية للعمليات النفسية : أنها مبهمة غامضة •

على أنه من جهة اخرى من المضلل أن نفكر في هذه العمليات السوفييتية على أساس الكلمات فالكلمة لا تقف وحدها في التخطيط السوفييتي ، ومن البداية قيل للشيوعيين بوسـاطة قادتهم : أن الـكلمات ليست كافيـة وانهـا يجب أن تندمج في الأفعال ، وأن تنغمر هي والأفعال معا في « التنظيم » ، والحقيقة الواضحة على ما يقول هارولد لاسويل Harold Lasswell (١) وكما أشار غيره : ان الشيوعيين لا يخوضون المعركة اطلاقا من أجل السـيطرة على عقـول الرجال عامة اللهم الا فيما هو ضروري لـكسب عدد معين من عقول الرجـال بقصد اكتساب المصادر المادية لقوة يظن أن عقول الجماهير تتأثر بها وتعمـل بوحيها •• أي بمعنى آخر أن المعركة تهدف الى اكتساب عقول الزعماء والقادة •

ولهذا فاننا عندما نحـاول أن نصف العمليات السيكولوجية السوفييتية فاننا لا نكون في الواقع متحدثين عن « سلاح الكلمات » بقدر ما نكون متحـدثين عن « سلاح خاص بالتنظيم » Organizational على ما يطلق عليه سلزنيك(٢) •

واذا كان السوفييت قد اكتشفوا أي شيء جديد فليس هو « قوة الكلمة » بل قوة الحزب المنظم والمكرس للقتال •

---

(١) Harold D; Lasswell, « The Strategy of Soviet Propaganda » Proceedings of the Political Science 1951 24: 66 76.

وقد اعيد نشرها في كتاب :

The Process and Effects of Mass Commumications Unversity of Illinois Press, 1954 PP. 537 - 547.

(٢) Philip Cleznisk, The Organizational Weapon Study of Bolshevik Strategy and Tactics McGraw - Hill Cy, New York 1952.

والحق أن هناك فكرة مجردة عن « حزب يعمل كله » مع استخدام الكلمات والأفعال فى تجمعات وطوابع تبعا للحاجة فى السلم أو فى الحرب لمناصرة وتعضيد أهداف الحزب ٠

ولهذا فان الطريق الى تفهم الحرب النفسية عن السوفييت انما يجىء عن طريق تفهم هذا الحزب المقاتل ٠٠ تفهم معتقداته واهدافه ووجهات نظر الحزب على النطاق العالمى وتنظيمه ثم تفهم عقيدته التكتيكية ، وهذه كلهـــا تتحكم فى التنظيم السوفييتى للحرب النفسية ٠

نواة التنظيم :

والخطوة الأولى فى الطابع الشيوعى هى بناء نواة تنظيم مقاتل منظم عنيف صلب ، ونجد هذا موضحا بعناية فى وثائق الحزب ، وقد جاءت هذه السطور فى احدى دراسات المؤتمر الدولى الثانى لسنة ١٩٢٠ :

« يجب أن يكون الهدف الأســاسى فى العمـل مجموعا بوســاطة الحزب الشيوعى أو بوساطة الافراد الشيوعيين ، هو ايجاد النواة الشيوعية فى كل مكان يمكن أن تتوافر فيه بروليتاريا أو شبه بروليتاريا حتى ولو بأعداد قليلة » ٠

والمشكلة فى هذه المرحلة هى الحصول على أنصار ومشايعين لتحويلهم من مجرد « مشايعين يناصرون بالموافقة ما يقــال لهم الى عقائديين يمكن مطالبتهم بالموافقة التامة على كل ما يلقى عليهم » ، ولهذا فان الدعاية الموجهة لهذا الغرض يجب أن تشتمل على محتوى عقائدى عالى الدرجة ، كما يجب الاعتماد تماما على مدارس التوعية فى الحزب ٠

ولقد أدت التوجيهات الماركسية بالبولشفيك الى أن يركزوا جهـدهم على الطبقة العاملة ، ويقول لنين فى كتيبه الصادر سنة ١٩٢٠ :

« يجب أن نكون قادرين على أن نصمد ازاء هذا كله وأن نتحمل أى تضحية بل نلجأ ـ لو قضت الضرورة ـ الى القيام بأى خدعة أو حيلة أو أى عمل غير

قانونى مهما كانت صورته ، والى أى مراوغات وحيل كى ننفذ الى داخل اتحادات العمال وأن نبقى داخلها ثم نتابع القيام بعملنا الشيوعى داخل هذه الاتحادات بأى ثمن » •

والواقع أن ذكره لاتحادات العمال بدلا من جماهير الطبقة العاملة يوضح نية البولشفيك فى تعبئة التنظيم القائم الموجود ، وقد جاء فى المؤتمر الدولى الثانى : « ولا يخشى الشيوعيون منظمات العمال الكبيرة التى لا تتبع أى حزب حتى ولو كانت رجعية الطابع ، فان الحزب الشيوعى يتابع عمله داخل مثل هذه المنظمات ويقوم بتعليم العمال دون كلل أو ملل » •

وعندما حولت المنظمات الشيوعية انتباهها من حافات أوروبا الى آسيا والبلاد الاقل اتجاها للصناعة بدأ الجهد الذى يبذل فى التنظيم يتحول نحو جماعات أخرى مثل العمال الزراعيين ، ففى الصين مثلا كان مركز الثقل للحركة الشيوعية فى المزارع لا فى المصانع ، ولكن كانت هذه تمثل المصادر المتوافرة للتوتر الذى تثيره الجماهير ، وتمثل القوة الخفية الكامنة ، ومن ثم فانه كالعادة كانت المناورة الأولى بناء القوة داخل الجماعات الاحتياطية القائمة وغير الراضية عن حالها •

وفور أن ينفذ أعضاء الحزب الى مراكز أعصاب المجتمع فانهم يبدأون المناورة بموافقة الحكومة نفسها ، وهم فى هذه المرحلة يكونون أقوياء بالقدر الذى يمكنهم من العمل كأحزاب وكاتحادات •• الخ ، كما أنهم يستطيعون عقد تحالفات مع جماعات أخرى ذات قوة •

يقول ستالين عن هذا :

« ان أولئك الذين لايثقون بانفسهم هم وحدهم الذين يخافون أن يقوموا بتحالفات موقوتة مع الناس الذين لا يوثق بهم ولا يعتمد عليهم » •

ولكن ستالين والزعماء الآخرين حذروا الحزب من الاستخدام السيىء لأى تحالف ، دون أن يغض النظر لحظة واحدة عن حقيقة أن هذا الحليف الموقوت هو عدو المستقبل •

فان الحزب اذا ما دخل فى علاقات غير العداء العلنى مع أى جماعة خارجية أخرى فانه يجب أن « يستخدم الحزب هذه الجماعة » والا « استخدمته هى » ، ولا يجوز بحال ما الاعتماد على معونة أى جماعة خارجية الا فى حالة التحالف الموقوت ، وتعتبر هذه التحالفات علاقات عابرة زائلة يمكن الدخول فيها بحرص وحذر ، واستخدامها كخطوات للوصول الى قوة أعظم •

الكلمات والأفعال :

ولقد عرف ستالين الزعامة السياسية بأنها :

« القدرة على اقناع الجماهير بصواب سياسة الحزب » ، وقد قال أيضا : « لو أن دعاية حزب صارت بسبب ما عرجاء ركيكة فلا معدى من أن يضعف عمل حزبنا ودولتنا » •

وقال لنين : « ان للدعاية أهمية قصوى للانتصار النهائى للحزب » •

ولكنه أضاف فى فرصة اخرى « لقد حققت ديكتاتورية البروليتاريا نجاحا بسبب أنها عرفت كيف تقرن الاكراه والالزام بالاستمالة والاقناع » فان الكلمات لم تكن كافية •

ولقد أشار الزعماء دون تغيير وتباين فى المعانى وان تباينت أو اختلفت فى الألفاظ الى أن ملايين الدعاة لايستطيعون وحدهم أن يحققوا نصرا ، فقال لنين[1] « لما كانت المسألة ـ ولا تزال حتى الآن ـ مسألة اكتساب طليعة البروليتاريا الى الشيوعية فان الدعاية ـ الى هذا الحد ـ تحتل مكان الصدارة ، وتعتبر دوائر الدعاية حتى مع كل ما فيها من نقص ذات نفع تحت هذه الظروف وتجىء بنتائج لها ثمارها ، ولكن عندما تكون المسألة مسألة الدور العملى للجماهير أو دور التنسيق والتدبير او كانت لتشكيل قوى الطبقات فى مجتمع معين للمعركة

---

(١) سلزنيك فى كتابه « السلاح التنظيمى » ص ٩ •

النهائية الحاسمة ، فان الدعاية والتى هى مجرد تكرار لحقائق الشيوعية الخالصة لا تكون ذات نفع ، وتكون وظيفة الدعاية اذ ذاك حث الطليعة واجتذابها ، ولكن واجب مناورة الجماهير فى المعركة ضد الراسماليين ليس هو بالامر الذى يمكن أن يتولاه رجل الدعاية وحده » .

ولقد قال لنين « يجب أن تكون كل خلية او كل لجنـــة من أفراد الحزب بمثابة قاعدة تعضد أعمال الاثارة والدعاية والتنظيم بين الجماهير ، اى يجب أن يذهب أفراد الخلايا واللجان الى حيث تكون الجماهير ، ويجب أن يوجهوا وعيهم فى كل خطوة نحو الشيوعية ، ويجب أن يربطوا بين كل مســالة خاصة وبين واجبات البروليتاريا ، ويجب أن يستخدموا كل محاولة لزيادة تدعيم قضــــية الطبقة ــ يقصد قضية طبقة البروليتاريا ــ وأن يستطيعوا بنشاطهم وبتاثيرهم المعنوى أن يحصلوا على الزعامة والقيادة فى كل منظمة قانونية للبروليتاريا » .

ولقد كان بلخانوف Plekhanov (١) هو الذى وضع التوضيح الشهير الذى يفرق بين « الدعاية » وبين « الاثارة » فقال :

« ان رجل الدعاية يقدم آراء كثيرة لفرد واحد أو لعدد قليل من الافراد ، ولكن المثير الذى يقوم باشعال الفتن يعرض رأيا واحدا أو أراء قليلة لجمع غفير من الناس(٢) .

كما قال لنين فى تعليقه على هذه التفرقة وصورة التباين بين « الدعاية » وبين « الاثارة » على ما يذكره بلخانوف :

« يثبت المثير انتباهه على ظلم أو جور ثابت معين يوجده أو يولده التضارب أو التناقض المتوارث فى الراسمالية ، ثم يعمل تبعــا لهذا على اثارة عدم رضا

(١) J. Peters, The Communistparty, A Manual on Organization, Workers Library, New York, 1935, P. 202.

(٢) G. Plekhanov, Sochineniya (Works), Gosudarstvennoe Gzdatel, Stvo, Moscow, 1927.

الجماهير وسخطها ضد هذا الظلم الصارخ تاركا لرجل الدعاية مسئولية اعطاء توضيح كامل للتناقضات ، وهذا هو السبب فى أن رجل الدعاية يعمل عن طريق الكلمة المكتوبة على حين يعمل المثير على أساس الكلمة الشفوية » .

ولهذا ففى التفكير الشيوعى لا يوجد حد فاصل بين رجل الدعاية وبين المثير ، فكلاهما تتطلبه الحاجة فى الحزب المقاتل ، وتتكيف كلمات كل منهما واعماله ضمن ألوان النشاط التنظيمية المختلفة للحزب .

التنظيم للقتال :

وليس من الضرورى أن نذكر هنا الكيان الكامل للحزب ، ولكن قد يكون من المرغوب فيه أن نوضح العلاقة بين « الدعاية » و « الاثارة » وبين الكيان الكامل للحزب .

ان أبرز النقاط التى يجب توضيحها هى أن السيطرة على نشاط الدعاية والاثارة انما يتم فى أعلى مراتب ودرجات رياسة الحزب ، وادارة الدعاية Agtiprop (١) واحدة من الادارات السبع فى اللجنة المركزية للحزب ، ولكنها لا ترسم السياسات الاساسية للدعاية فان هذا حق اللجنة المركزية نفسها ، ولا تتولى هذه الادارة أيضا ادارة برنامج الدعاية والاثارة وما الى هذا من نشاط مماثل ، فان مسئولية العمليات الجارية فى البرنامج تتولاها الوكالات الحكومية المعنية ، ولكن هذه الادارة فى الواقع تجمع وتحلل المعلومات التى يمكن على أساسها أن تقرر اللجنة المركزية كل ما يختص بالسياسات النفسية Psychological Politics وبعد ذلك تقوم اللجنة بتفسير هذه القرارات وتقسيمها ، ثم عن طريق فروعها وعن طريق وحدات الحزب المماثلة فى المناطق والنواحى ، تطمئن الادارة المركزية الى أن كل الآلة تسير بانتظام دون أى معوق .

---

(١) Agitprop اختزال الاسم قسم الدعاية والاثارة Propaganda and Agitation Section فى اللجنة المركزية للحزب .

وقد يمكن تصوير مدى أو مجال هذا اللون من نشاط الحزب بأن نوضح الاقسام والفروع التى فى الادارة المركزية للدعاية والاثارة (١) :

- قسم أو قطاع يتولى تعليم أعضاء الحزب كما يتولى تعليم المثقفين من غير أعضاء الحزب Non-Party Intelligentsia العقيدة الشيوعية .

- قسم لأعمال الاثارة يعتبر مسئولا عن التعليم السياسى للجماهير وعن تعبئة كل أفراد الشعب للقيام بما يريده الحزب .

- قسم مركزى للصحافة يشرف على صحف موسكو التى توزع فى كل انحاء الاتحاد السوفييتى ، ويجمع كل رؤساء التحرير ليصدر لهم التوجيهات ولنقد كل ما ينشر فى الصحف .

- قسم محلى للصحافة من واجبه اصدار التوجيهات Directives للسبعة الآلاف جريدة المحلية التى تصدر فى الاتحاد السوفييتى . ويعقد مؤتمرات أقليمية لرؤساء التحرير فى كل اقليم ويفحص بين حين وآخر ما ينشر فى هذه الصحف .

- مع أن الاذاعة والسينما تتولاهما ادارات حكومية مختصة فثمة قسمان للاذاعة وللسينما لمراقبة النشاط فى هذين المجالين وتوجيهه .

- قسم يعنى بما ينشر من دراسات أدبية اذ يقول لنين : « يجب أن تتمشى الآداب مع اتجاهات الحزب » .

- قسم للاشراف على الشئون الفنية : الموسيقى ، المسرح ، الرسم ونحو هذا .

- قسم علمى يشرف على التثقيف العلمى وعلى استخدام العلماء .

- قسم مدرسى لشرح سياسات الكرملين ولجمع المعلومات عن الموضوعات والمشكلات التى تتطلب توجيهات جديدة .

---

(١) Louis Nemzer, The Kremlin's Professional Staff : The Apperatus of The Central Committee, Communist Party of The Soviet Union, A. P. Review 44 : 46-63, 1950.

• وأخيرا قسم ثقافى للتوعية لتوجيه نشاط المنتديات واتحاد العمال وغرف المطالعة العامة والمراكز الثقافية الأخرى فى كل جمهوريات الاتحاد السوفييتى •

هذا التنظيم هو ما يطلق عليه دوميناش Domenach اسم « البرنامج الشامل » (١) فى المقال الذى كتبه عن « دعاية لنين » ذلك لأن كل حياة المواطن تكون غرضا لهذا البرنامج ، فالمدارس ابتداء من المرحلة الابتدائية تكرر على آذان الطفل سياسة الحزب وتعاليمه ومخططه ، والصحف على ما قال لنين لا تكون وسيلة للدعاية الجماعية ولا تكون عاملا للاثارة الجماعية فحسب بل تقوم أيضا بدور التنظيم الجماعى • والعلم والموسيقى ، والفن ، والسينما والآداب يجب ان تعبر كلها على ما قال زدانوف عن رغبة الحزب وارادته ، وفى كل مكان نجد « المراقبين » Observers و « المثيرون » Agitators وهؤلاء على ما يقول ديمتروف : « يجب أن يعارضوا دون مسالمة أو هوادة أى انحراف عن الاتجاه البولشفى •

هذا عن العمليات الشيوعية السيكولوجية داخل الفلك السوفييتى حيث توجه الدول الشيوعية ٩٠٪ من جهدها الخاص بالدعاية • أما خارج حدودها فالصورة تختلف وان كان هذا الاختلاف هو فقط فى الدرجة والتوقيت ، فالحزب المقاتل يعمل فى كل مكان ، ويستخدم نفس الاسلحة التنظيمية ويستجيب لنفس السيطرة الصلبة الجامدة •

أثر التنظيم فى الحرب النفسية :

الواقع أن روسيا السوفييتية هى اول دولة فى العالم استطاعت أن تخلق تنظيما شاملا لدعاة واداريين ومنظمين يعملون كل الوقت لخدمة الحزب كما أنها أول دولة فى العالم استطاعت أن تكرم وتكافىء هذه المجموعة الكبيرة من الناس الذين يعملون من أجل الحزب •

(١) Jean - Marie Domenach, «Leninist Propaganda» Public Opsinion Quarterly, 15: P. 272, 1951.

وبالاضافة لذلك فانه يسـاند هذا البنيان عون آخر للحرب النفسية ، ذلك هو الحجم الكبير والتباين الواسع لموارد القتال المتوافرة • فالحزب يشمل عددا كبيرا جدا من الاعضاء ، اذ يصل عدد اعضاء الحزب الشيوعى السوفييتى الى ستة ملايين عضو ، وقد لا نكون مغـالين اذا قلنـا ان كل عضـو من هؤلاء الاعضاء ـ الى حد ما ـ داعية مدرب •

كما ان كل وسائل الاتصال فى العالم الشيوعى توجه لخدمة الحزب ، وكذلك فان الجهاز كله حتى فى أوقات الفراغ يعتبر دائما فى خدمة الحزب ، ويقوم الحزب فى كل مكان من العالم باداء واجباته مستخدما أى وسيلة وافق عليها الحزب وارتضاها وأقرها ، ولا شك أن هذا كله يشـكل قوة مقـاومة صلبة عنيفـة لا مثيل لها •

ولقد أعد الحزب البرامج بحيث تمس المواطن فى كل مرحلة من مراحل حياته ، فهو يسيطر على الاغانى التى ينشدها والالعاب التى يمارسها وهو فى المرحلة الأولى من دراسته ، ثم يسيطر على المسرحيات التى يشاهدها وعلى الكتب والدوريات التى يطالعها والموسيقى التى يسمعها فى شيخوخته ، كما أن البرنامج هو الذى يحدد أنواع المنظمات التى يسهم فيها •

وبالاضافة الى هذا البرنامج الشامل توجد أسلحة الحث والاقناع والاصلاح والتهذيب ، فهنـاك التعليمـات والاوامر ، وكذا الدعـاة وقوميسرية الشئون الداخلية (١) NKVD •

على اننا نود أن نشير هنا الى ما سبق أن ذكرناه وهو عدم فصل السوفييت بين « الكلمة » و « الاجراء » فى عمليات الحرب النفسية ، ولذا فانهم لا يواجهون الا أقل المتاعب فى تكييف عمليات الحرب النفسية •

---

(١) NKVD هى Narodnii Kommissariat Vnutrennikh Del اى قوميسرية الشعب للشئون الداخلية •

الفصل الثانى

مؤهلات الأفراد

يلعب العامل البشرى دورا كبيرا فى عمليات الحرب النفسية التى يجب أن نعترف بأنها ليست نشاطا عاديا متجانسا ، ولهذا لا يمكن أن نحدد فى كلمات قليلة المؤهلات التى يجب أن تتوافر فيمن يعمل فى هذا النوع من النشاط •

وبالرغم من أننا قد نوافق على أن أعمال الدعاية تحتاج الى نوع فطرى من الذكاء ، فان كثيرا من المعلومات التى يحتاج اليها الشخص يمكن أن تكتسب • وفضلا عن ذلك فاننا فى حاجة الى مجموعة من المعايير نستطيع بواسطتها أن نميز الكفاءات والمهارات فى ميدان الدعاية ، وبمعنى آخر ما العوامل المهيئة لفرص النجاح التى يمكن أن نلمسها عند اختيار من سيعملون فى ميدان الحرب النفسية ؟

لقد كتب بالتفصيل عن مؤهلات العاملين فى الحرب النفسية سير روبرت بروس لوكهارت ، وهو من أقدر من عملوا من البريطانيين فى مجال الدعاية فى ربع القرن الماضى • وقد استقى كلامه من خبرته فى العمل فى ادارة المخابرات السياسية التابعة لوزارة الخارجية البريطانية ومن عمله كمدير عام للادارة التنفيذية للحرب السياسية ، وذلك خلال الحرب العالمية الثانية •

ويقول لوكهارت فى هذا الصدد (١) :

« لا يمكننى أن أقول أن الادارة التنفيذية للحرب السياسية كانت عبارة عن فريق سهل • لذا يجب على كل عامل فى ميدان الدعاية أن تكون له صفات

(١) Lockhart Robert H. Bruce, Political Warfare, Journal of The Royal United Services Institution 95, 1950.

« البريمادونة » أى الممثلة الاولى ـ كما قال ذلك أرنست تولر ـ يجب أن يولد بعين واحدة . كانت الادارة تتكون من موظفين مؤقتين يتصفون بروح الجماعة ولكن كانت تعوزهم معرفة الاجراءات الرسمية • لم يكن ينقصهم العقل وبخاصة فى التنظيم الذى كان موجودا فى ووبرن حيث جمع ركس ليبر مجموعة متنوعة من المواهب ودربهـا ، وهى التى أعطت الشـكل لسياسـة الدعاية التى اتبعت فيما بعد •

« كان تشكيل الادارة التنفيذية للحرب السياسية متنوعا تنوعا غير عادى• كانت تضم حفنة من العسكريين المحترفين ومن الموظفين المدنيين، أما البقية فكانوا من جهات شتى مثل الصحفيين ورجال الاعمـال وخبراء الاعلانات والمدرسـين والمؤلفين ورجال الادب والفلاحين والقضاة ورجال البورصة وعلماء النفس وعمداء الجامعات • وانى لا أعتقد أن مهنة معينة لها ميزة خاصة عند التدريب • فرجل الدعاية يولد ولا يصنع • ومما لا شك فيه أن الصحفيين كانوا أفضل من غيرهم فى ميدان الدعاية . كانوا يكتبون أحسن النشرات . كانوا أكثر الناس فهما لقيمة الكلمة الشفهية والكلمة المكتوبة • وفى ادارة كانت تتطلب دائما السرعة الفائقة كان الصحفيون وحدهم هم الذين لديهم الشعور بضرورة السرعة • ولما كانوا قد اعتادوا على العمل السريع الزوال فانهم يتفوقون فى مجال السـياسة ، وكانوا يشعرون أحيانا بخيبة الأمل عنـدما يواجهون ضرورة العمل الـدائم • وكان المدرسون ممتازين ، وكان العمداء يتمتعون بعقول ممتازة ولكنهم كانوا يميلون الى عدم تقبل النقد • وباستثناء حالة واحدة كان خبراء الدعاية سببا فى خيبة الامل • ولى رأى صريح فى رجال علم النفس • كنا نستخدم ثلاثة منهم ، وأحدهم على الاقل قام باداء عمل مفيد فى القسم الالمانى • وللتحليل النفسى دور أكيد فى الحرب السياسية ولكن لم يجر اختبار له فى الحرب حتى نستطيع استخلاص نتائج محددة • ومن وجهة نظرى الشخصية الخاصة بالدعاية أقول أن دورهما من الخبرة الخاصة عن بلد من البلاد أفضل من طن من المعلومات النظرية • ولا تنطبق هذه النظرية على علماء النفس فحسب ولكنها تنطبق أيضا على كل رجال الدعاية الذين استخدمناهم » •

ووصف لاينبارجر طبيعة العمل الجماعى فى ميدان الحرب النفسية بالنسبة للتخطيط والعمليات ، بقوله[1] :

« تتطلب الحرب النفسية المؤثرة أن يجمع الفرد الواحد أربع مهارات :

١ ـ معرفة عملية بتنظيم الحكومة وسياستها حتى يستطيع أن يفسر أغراض الحكومة وخططها تفسيرا سليما •

٢ ـ معرفة جيدة بالاجراءات العسكرية والبحرية والعمليات الحربية مع فهم كاف لفنون الحرب ـ البحرية منها وغير البحرية ـ وذلك حتى يكيف التصريحات الخاصة بالدعاية مع المواقف ومع عمليات الدعاية العملية •

٣ ـ معرفة مهنية بوسائل الأعلام أو على الأقل باحداها « نشر الكتب والمجلات والصحف ، والاذاعة ، الاعلان بفروعه المختلفة » او بمجال متصل بذلك اتصالا وثيقا كتسقط الاخبار السياسية ، والتعليم البصرى •

٤ ـ فهم وثيق على المستوى المهنى لمنطقة معينة مبنية على معرفة شخصية ومعلومات عن اللغة والتقاليد والتاريخ والسياسة العملية والعادات•

وفوق هذا فهناك مهارة خامسة تجعل من الشخص عاملا كاملا فى هذا الميدان •

٥ ـ فهم لعلم النفس وعلم الاجناس وعلم الاجتماع والتاريخ والعلوم السياسية » •

---

(١) Linebarger, Paul M. A., Psychdogical Warfare, 2d ed, Combat Forces Press, Washington, D. C., 1954, PP. 99-103.

ويعلق لاينبارجر على ذلك بخبث قائلا :

« ان الرجل الذى يتقدم ليقول أنه تتوافر فيه كل هذه المؤهلات الخمسة اما أن يكون منافقا واما عبقريا واما كليهما » ٠

ثم يعود فيقول :

« ٠٠٠ وليس هناك محارب نفسى كامل ٠ ومع ذلك فكل فريق من فرق الحرب النفسية يمثل كل هذه المهارات مجتمعة ٠ قد تتوافر اثنتان أو ثلاث منها فى بعض الاعضاء وقد لا تتوافر واحدة منها فى الاعضاء الآخرين ٠ ولكن كل العاملين فيما عدا العاملين فى أعمال معينة يمزجون كل هذه المؤهلات بعضها ببعض ٠

« ويجب على رجل الاعلان أو الصحفى الذى يقصد الحرب النفسية أن يتعلم شيئا عن الجماعات المعادية أو المحايدة أو الصديقة التى يخاطبها ، ويتعلم شيئا عن اجراءات حكومة الولايات المتحدة المدنيـة ، ويتعلم تنظيم الجيش والبحرية وعملياتهما ، ويتعلم شيئا عن علم النفس أو علم الاجتماع أو علم الاقتصاد حسب موضوع عمله » ٠

ويرفض دانيال ليرنر وجهـة النظر التى تقول أن رجل الدعاية موهوب لا مصنوع ، بل يؤمن بالرأى القائل بامكان خلق المهارات فيه :

« ٠٠٠ ويمكننا أن نبدأ من وجهة النظر التى تقول أن الذكاء هو عنصر لا غنى عنه ، ولما كان هذا المؤهل ضروريا فى كل العمليات الفكرية فانه لا يبين لنا الخصائص المميزة لرجل الدعاية ٠

« ٠٠٠ ويؤكد مستر كروسمان عاملين : القدرة على فرض النفس على تفكير المستمعين ، والقدرة على معرفة اللحظة المناسبه للكلام بقصد الحصول على اقصى تاثير » ٠

وفيما يلى بيان بالمؤهلات الأساسية اللازم توافرها فى رجل الدعاية :

١ ـ المعرفة الوثيقة بالمستمعين : تاريخهم ، لغتهم ، أساطيرهم ، معاهدهم، عاداتهم ، تركيبهم الاجتماعى ، سياستهم •

٢ ـ المعرفة التفصيلية بتطورات المستمعين : معتقداتهم التى تهدف الى التوحيد ، ما يشتكون منه ، معتقداتهم التى تهدف الى انقسامهم ، هواياتهم الشائعة فى الملابس والكلام ، تاريخ دعايتهم •

٣ ـ فكرة منظمة عن سياسية عملية الدعاية ، وتتطلب هذه ادراكا دائما بأن غرض الحرب النفسية هو استخدام آمال الهدف والمخاوف والرغبات فى استعمال العبارات لتحقيق أغراض السياسة •

٤ ـ فكرة منظمة عن عملية الثقافة النفسية الخاصة بتشكيل الآراء ، وتتطلب هذه ادراكا بأن الحرب النفسية تعمل داخل بيئة متسعة • واى عنصر من عناصر البيئة كفيل بأن يؤثر على بناء أى هدف • وتكمن مهارة عامل الدعاية فى قدرته على اكتشاف العناصر المؤثرة الحاسمة فى أى هدف وكيف يمكن استغلالها •

٥ ـ « انف فى السياسة » وهذه الصفة صعبة فى التحديد • لا يهم أن يفتح رجل الدعاية خياشيمه عندما يثار موضوع سياسى ، ولكن المهم أن يشم أو يحس العواقب السياسية لأى موضوع سواء كان الموضوع يعالج عبارات عقائدية عالية أو يعالج عبارات أولية للحياة بين جماعة من الناس •

٦ ـ فصاحة التعبير ، اذ يجب أن تكون لديه المقدرة على قوة التعبير ولكن تحت السيطرة • ان سهولة التعبير وطلاقته هى مهارات غير شائعة، كما هى الحال فى اللغات الاجنبية •

وليس المقصود مما تقدم أن نضع قائمة شـاملة بالصفات اللازمة لرجل الدعاية ، ولكن المقصود هو الاشارة الى أنواع المواهب والاهتمامات التى يمكن لرجل الدعاية أن يحصل عليها بالخبرة والتعليم والتى يمكنه أن يحولها الى مهارات تلاستعمال ٠

وهناك مهارات أخرى معينة لازمة فى مهام معينة ٠ فواضع الخطط يجب أن يعرف كيف يحول سياسة الاغراض السياسية التى يخدمها الى دعاية ، وكاتب النشرات يجب أن يعرف كيف يمكن تحويل سياسة الدعاية الى نصوص تقع تحت عين القراء ، والمذيع يجب أن يعرف نفس الشىء بالنسبة لتحويل سياسة الدعاية الى مادة تؤثر فى أسماع العدو ، ورجل المخابرات يجب أن يعرف كيف يختـار ويراقب ويسجل كل البيانات التى يعتمد عليها كل أعضاء الدعاية ٠

على أن هذه المهارات والصفات الطبيعيـة التى يجب أن تتوافر فى رجل الدعاية لا تكفى وحدها لنجاحه ، فبدون التدريب الذى يستهدف استمراره لعدة سنوات لا يمكن للقائمين بعمليات الحرب النفسية من أن ينفذوها على أكمل وجه ٠ وحتى ولو كان رجل الدعاية ذكيا بالفطرة ، فانه لا يستطيع أن يصبح بارزا بدون هذا التدريب السابق ٠ ان معرفة الهدف المعين ــ عن طريق الخبرة والتعليم ــ هى أساس تدريب رجل الدعاية الناجح ٠

كما أن من المؤكد أن التدريب سيسفر عن مستوى عال من رجال الدعاية ، مما يسهل اكتشاف أنبه الأفراد أثناء التدريب ، وربما كان أهم من ذلك اكتشاف الجماعات التى يمكن أن تعمل معا كفريق » ٠

ولننتقل الآن الى مناقشة المؤهلات المطلوبة فى العـاملين بميـدان الحرب النفسية حسب التقسيم الوظيفى لهم :

رجال الأفكار :

ان النشرات العامة التى تصدرها الادارة التنفيذية للحرب النفسية ، يجب أن تفسر فى ضوء أهداف الدولة قبل أن تترجم الى دعاية ٠ ويقوم بهذه المهمة رجال الافكار ، فهم الذين يعطون الشرارة التى تخلق الدعاية السليمة ٠

ان عبارة « رجل دعاية موهوب » لا تحل مشكلة الوصول الى معيار لاختيار رجال الأفكار فى المستقبل • ومن الواضح أيضا أن الخيال الذى يتيح رؤية العدو من الداخل يجب أن يستند الى معرفة بالعدو • وبعبارة أخرى بينما يمتلك رجل الدعاية ذو الافق الواسع بعض صفات غير محسوسة كالخيال والاحساس والادراك بدرجة تفوق ما عند الناس الآخرين ، فان هذه القدرات يكملها معين من الخبرة والمعرفة والتصرفات ، وهذه المؤهلات الاخيرة يمكن على الاقل ان تحدد وأن تبوب•

١ ــ يجب أن تكون لديه معرفة شخصية وثيقة بالشعب الهدف ، فلكى يربك العدو يجب أن يعرف الشىء الكثير عنه •

وتعتبر المعرفة الوثيقة بالجماعة الهدف هى الصفة المميزة لرجال الافكار بصفة عامة • وقد لخص الرجل الذى كان مسئولا عن عمليات راديو الميدان فى الجيش الأول الأمريكى المؤهلات المطلوبة فى رجل الأفكار فى الحرب النفسية يقوله :

« اعتقد أنه يجب أن تكون لديه معرفه واسعة بالناس والمنطقة التى سوف يعمل فيها • فاذا كان قد جاب هذه المنطقة قبل ذلك أو كانت لديه فرصة التعلم فيها فان ذلك يساعد كثيرا على تفهم الصفات النفسية لأهلها وتقاليدهم ومستوياتهم العامة الفنية والتربوية وموقف البلاد الاقتصادى بصفة عامة • أن الرجال الذين تفوقوا فى عملهم كانوا أولئك الذين عرفوا المنطقة أو كان لهم بها اهتمام خاص أو كان لهم فيها أقارب أو سافروا اليها أو تعلموا فيها أو أولئك الذين عرفوها جيدا » •

٢ ــ يجب أن يكون رجلا مثقفا جدا • وقد ثبت من خبرة الحرب العالمية الثانية أن الذين نالوا قسطا من الثقافة أعلى من المتوسط هم الذين كانوا أقدر من غيرهم على امتصاص المعلومات الضرورية عن البلاد الأجنبية • على أن الخبرة الناتجة عن المعيشة فى البلد الأجنبى لا تعد ضمانا بأن الفرد يهضم الاشياء اللازمة لمن يعمل فى ميدان الحرب

النفسية . وقال أحد الرجال وكان قد عمل ضابط اتصال فى عملية خاصة بالحرب النفســية : « ان الرجل الأكاديمى بأساسه الثقافى والتاريخى يستطيع أن يفهم هؤلاء الناس فهما كاملا حقيقيا أكثر بكثير من الشخص الذى أمضى هناك فترة من الزمن يعمل فى شركة تجارية ولكنه يفتقر الى هذا الاساس الثقافى » .

كما يرى الكثيرون من ذوى الخبرة أن الفئة التى لها هذا الاساس الثقافى المطلوب قد توجد بين الصحفيين ، ويبنون هــذا الرأى على أن حقيقة الشخص الذى يعمل فى مجال الصحافة وله نفس المؤهلات التى يتمتع بهــا الاكاديمى ، يتيح له عمله الصحفى أن يعرف ما فيه الكفاية عن ثقافة الشعب الهدف وتاريخه وهذا بدوره يجعله يدرك أحاسيسهم ومشاعرهم الحقيقية .

٣ ــ يجب أن يكون لديه ادراك سياسى . فقد يضع التعليم العالى الشخص فى موقف طيب ولكن الدراسة والاهتمام لهما قيمتهما الكبرى اذا وجها وجهة معينة . وقال أحد العاملين فى حقل الحرب النفسية وكان يحمل شهادة الدكتوراه فى العلوم السياسية « ان الحرب النفسية فى جوهرها هى 'السياسة . انها ليست علم نفس . انها سياسة . انها سلوك سيــاسى . انهــا عبارة عن مواقف الافراد ومواقف البــلاد ومواقف الجماعات وكيف تتغلغل فيها ! » .

وعلى أساس هذه النظرية يواصل المتحدث كلامه فيقول :

« يجب أن يكون لديه وعى ســياسى . يجب أن تكون عقليته سياسية . ان الرجال الذين يعملون فى هذا الميدان يجب أن تكون لديهم حاسة الســياسة التى يولد بها بعض الناس . لا يمكنك أن تفعل ذلك بعد قراءة كتاب عن السياسة. يجب أن تكون مهتما بكل عواطفك بالسياسة وبالشئون العالمية » .

٤ ــ يجب أن يلم بلغة الدولة الهــدف . فالرجل الذى عاش فى البلد الأجنبى وقتا طويلا وفى نفس الوقت يكون من الرجال ذوى الفكر

فانه يلم عادة بلغة القوم الذين عاش بينهم ، وهذا يساعده على تفهم كثير من العبارات الدارجة التى يستخدمها هؤلاء القوم والتى يكون لها تأثير عكسى لو استخدمت بطريقة غير صحيحة ٠

ويقول البعض : أن اللغة ليست لازمة لزوما تاما ، ولكن اذا كنت تقوم بطبع نشرات أو تدير محطة اذاعة فالواجب أن تستخدم خبراء لهذه العملية فى اللغات ٠

والواقع أن الحديث عن الاهمية البالغة للغة مغالى فيها ٠ ان المهم هو معرفة الطابع والسلوك القومى والاساس الذى يقومان عليه ٠

٥ ـ يجب أن يشعر ببعض الميل نحو الشعب الهدف ٠ وحتى يعرف ويفكر فى الطريقة التى يهاجم بها هيكل العدو المعنوى ، يجب أن يفهم عمليات تفكير العدو وانماط سلوكه وتصرفاته ومنطقه ، ثم يحاربها ٠

ويقول بعض الباحثين أن الكراهية حاجز يحول دون تحقيق ذلك ٠ ويؤكد هذه الحقيقة القول الآتى :

« أن أحسن من يقوم بالدعاية هو رجل لا يعرف الحقد ٠ فأنت اذا حقدت كنت متحيزا ، ويجب ألا تكون متحيزا ٠ أما اذا لم تكن متحيزا فقد توافر لديك الفهم ٠ فأولا يجب أن تفكر فيما تريد أن تفعله ٠ يجب أن تحدد رد الفعل الذى تريد أن تحققه ٠ وأنت لا تستطيع أن تفكر بوضوح فى رد فعل هؤلاء الناس طالما أعمت الكراهية بصرك. يجب أن تخطط عملك على وجهة نظر واضحة وضوحا كاملا ليس فيها غموض ٠ يجب أن تقول لنفسك : « لو أن س من الناس سيكون له رد فعل من نوع خاص ، ولو كان رد الفعل هذا ليس المطلوب فانه يجب أن أستمر فى البحث حتى أصل الى رد الفعل المطلوب حقيقة ٠ ان الرجل الذى يكره لا يستطيع أن يفعل هذا ! » ٠

وقد يكون رجل الأفكار فردا قويا ولكن ليس من اللازم أن يكون محبوبا من الجميع ٠ ان الشخصية المحبوبة والقدرة على التعامل فى يسر مع كل أنواع

الناس هى من العناصر الهامة فى عمل الحرب النفسية ولكن ليس من الضرورى أن يحتاج رجال الافكار الى هذه العوامل •

ان الرجال الذين يستطيعون التفكير فى الحيل القذرة الخاصة بالحرب النفسية هم فى العادة أقوياء الارادة ومن ذوى الرأى • انهم يحظون بالاعجاب ولكنهم قد يثيرون العداوة أو عدم الرضا • هكذا كان الحال مثلا مع ريتشارد كروسمان • الذى كان يعتبر رجل دعاية من الطراز الاول • كان كروسمان يوصف بأنه شخصية محبوبة ولكن من النوع الخطر ، وكان معظم الناس يقولون له هذا فى مواجهته •

وكان زملاء كروسمان يرونه خطرا لأنهم لم يكن فى استطاعتهم التنبؤ بما كان يفعله شخصيا أو سياسيا • ولكنهم فى نفس الوقت كانوا يعترفون أن هذا ما خلق منه رجل دعاية ممتازا •

وبالاضافة لذلك فان رجل الافكار يجب أن تتوافر فيه الشروط الآتية :

١ ــ أن يتصف بعدة مميزات اضافية كأن يكون عاش فى البلد الأجنبى وتشبع بروح أهله ، وكان حب استطلاعه كفيلا بأن يجعله يتعلم تاريخه الثقافى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى •

٢ ــ أن يكون لديه الاساس الكافى الذى يعينه على تفسير هذه المعرفة •

٣ ــ ألا يكره شعب هذه البلاد بدرجة تجعل كرهه يتدخل فى حكمه السياسى وحكمه الدعائى • أمثال هذا الشخص يوجدون فى الغالب فى الدوائر الاكاديمية والدوائر الصحفية •

ان العثور على أشخاص تتوافر فيهم كل هذه المؤهلات ليس بالأمر اليسير ، فهذه العبقرية غير المحدودة نادرة ، ولكننا لحسن الحظ لسنا فى حاجة الى كثير من هؤلاء الناس فى الحرب النفسية • وقد أوضح أحد كبار الاداريين الامريكيين ذلك بقـــوله :

« الحقيقة أننا لا نحتاج الا الى عدد قليل جدا من رجال الدعاية الحقيقيين • ويكفى جدا أن يكون فى المنظمة ستة من رجال الدعاية المحترفين » •

وذهب بعضهم الى القول أن كثرة العقول قد يفسد جو المنظمة الخاصة بالحرب النفسية •

وقال ادارى آخر : أنه اذا استحال العثور على شخص يجمع كل هذه الصفات فانه يمكن آن نعثر على رجلين أو ثلاثة تكون لديهم كل هذه الصفات بالتضامن :

« يحدث أحيانا الا تستطيع أن تجد من يجمع بين هذه المؤهلات فى ميدان الدعاية ، أى شخصا يعرف الكثير عن الناس الذين يخاطبهم ويتحدث عنهم ، ويعرف فى نفس الوقت كيف يتكلم ليحقق الغرض من كلامه • ولذلك تجد نفسك مضطرا الى أن توفق بين طلباتك • فتوجد الشخص المتخصص فى المنطقة وتوجد الصحفى أو الكاتب وهكذا • ويستمر هذا الوضع حتى يأتى الوقت بعد عدة شهور عندما يكون الصحفى أو الكاتب قد التقط وعرف الأشياء ذات المعنى بالنسبة للمنطقة ويقوم بها بنفسه » •

الاداريون :

ليس هناك عمل تجارى أو صناعى كبير يقلل من شأن الحاجة الى رجال لادارة أجهزة التنظيم وتنفيذ الخطط • وبالرغم من ذلك فطبقا للتقارير التى قدمها كبار المسئولين والتقارير المكتوبة عن عمليات الميدان المباشرة حدث فى خلال الحرب الماضية أن أهمل تدريب الاداريين للحرب النفسية • وقال ادارى مدنى عمل فى فرع الحرب النفسية التابع لقيادة الحلفاء الافريقية ، « انه كان من الصعب العثور على مثل هؤلاء الضباط » •

وكان هذا النقص نتيجة تخطيط خاطىء ، ومن ثم كانت الحاجة الى أشخاص لهم مؤهلات خاصة فى المجالات الادارية الصرفة • ولكن لا يكفى ـ كما قال

أحدهم ـ فى مجال الادارة أن نقول أن القدرة الادارية هى صفة مطلوبة • وهنا يثار سؤال : ما الذى يجعل من الشخص اداريا فى الحرب النفسية ؟ فمثـــلا هل الشخص ذو الخبرة الادارية صـــالح لأن يدير عمليـــة للحرب النفســـية ؟ هل احتياجات المهارة الخاصة بالادارى الذى يخـدم فى نفس الميدان مثل المهارات المطلوبة من الادارى الذى يعمل على مستوى السياسة أو تختلف عنها ؟ •

ونجد الاجابة عن بعض هذه الاسئلة اذا درسنا أســـــاس بعض الرجال الذين يعتبرهم زملاؤهم اداريين ممتازين فى مجـــال الحرب النفسية فى أثنـــاء الحرب العالمية الثانية واذا تصفحنا ردود الذين كانوا يبحثون مشكلة الادارة • وفى ضـــوء هذين النمطين من البيانات يمكن أن نستخلص ما يأتى عن ادارى الحرب النفسية المثالى :

١ ـ هو منفذ ذو خبرة ، فبالرغم من أن الاداريين قدسحبوا من ميادين متنوعة فان الرجال الذين نجحوا فى تولى المناصب الادارية فى عمليات الحرب النفسية فى أثناء الحرب الماضية هم أولئك الذين كانت لهم خبرة فى تشكيل المنظمات الواسعة وادارتها • لقد كانوا رجالا تحملوا المسئولية وكانت لديهم روح المبادأة • كانوا قد تعودوا على الاعمـــــال الروتينية ومراعاة التفاصيل • والأهم من ذلك كله أنه توافرت فيهم القـــدرة على معاملة المرءوسين • كل هذه الصفات هى عناصر لازمة فى ادارى الحرب النفسية •

وقد أكد أحد الاداريين بمكتب معلومات الحرب الامريكى القدرة على اختيار المسئولين بقوله :

« عندما بدأت عملى فى المجلة الالمانية ـ التى كان ماك كلور مسئولا عنها ـ ذهبت لمقابلته وقلت له : المفروض أن أدير هذه المجلة بناء عن تكليف من لندن لأنى كنت أدير مجلات أخرى بهـــا ، وأنت مسئول عن عملى • فكيف ســـتتولى الاشراف على ، لأن الواجب أن تشرف على بطريقة ما ؟ فرد على قائلا : هنـــاك طريقة واحدة للاشراف عليك ، فأنت مسئول عن المجلة • فاذا كانت مادتهـــا

رديئة فستذهب الى سلة المهملات • لقد كان يعرف كيف يكلف من يضطلع بالمسئولية • لقد كان يعرف أن هناك أشياء لاخبرة له فيها ، كذلك كان يعرف أن هناك أشياء تفوق معرفته لها معرفتنا !

ويضيف آخر صفة ثانية للادارى بقوله :

« ان الصفة الأساسية فى القائد هى استعداده لان يضع تحقيق المهمة فوق اعتبارات الشعبية الشخصية • فانت لا يمكن أن تكون شعبيا ومؤثرا فى نفس الوقت » •

هذه هى الصفات الاساسية التى يجب أن تتوافر فى الادارى الناجح • وهى لا تجعله مختلفا عن رجال الاعمال • ولكن هناك مواقف تقابل ادارى الحرب النفسية مما يحدد أمامه المجال عند اختيار موظفيه •

٢ ـ انه يقوم بأعمال من شأنها أن ترهف حاسته من جهة ردود الافعال العامة • ولما كان عمله متصلا بمواقف سريعة التغير فعليه أن يكون شخصا مرنا ذا حساسية بالنسبة لردود أفعال الناس الذين يتعامل معهم ، ويجب الا يكون متحيزا فى نظرته الضيقة ، لانه يجب أن يدرك معنى قراراته الخاصة بالناس الذين لهم أساس يختلف عن أساسه •

وقال أحد المدنيين الذى كان يرأس المطبوعات فى مكتب معلومات الحرب الأمريكى فى الشرق الأوسط عن موضوع حاجة الادارى الى النظرة الواسعة :

« ومن ناحية الشخصية فاهم شىء هو قدرته على أن يساير الناس فى المجالات التربوية والاجتماعية والقومية ، ويجب أن يحظى باحترامهم » •

وقال آخر ـ وهو ادارى كبير فى فرع الحرب النفسية التابع للقيادة الافريقية للحلفاء « ان ادارى الحرب النفسية يجب أن يكون رجلا سبق له أن تعلم كيف يكيف نفسه طبقا للظروف الاجنبية والاشخاص الاجانب » •

ويقول نفس الشخص « ان مديرى الصحف يصلحون لتولى الاعمال الادارية فى الحرب النفسية فيما يختص بالكتابة والنشر وتوزيع المادة المكتوبة أو برامج الاذاعة بسبب ما لديهم من خبرة سابقة » •

٣ ـ انه يعرف شيئا عن الاجراءات العسكرية • ولما كانت الحرب النفسية فى زمن الحرب تسير جنبا الى جنب مع العسكريين فمن المهم أن يكون الادارى ملما بالاجراءات العسكرية • كما يجب أن يفهم العـلاقة بين الحرب النفسية وبين العمليات العسكرية الشاملة •

لقد كان عـدم الالمام باجراءات الجيش عقبة كئودا أمام كثير من العاملين فى الحرب النفسية فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وقال أحد العـاملين الذين اشتركوا فى عمليتى التخطيط والادارة :

« ان نقطة الضعف أمام كثير من أفراد الحرب النفسية هى أنهم وجدوا من الصعب عليهم أن يكيفوا أنفسهم حسب متطلبات الجيش وأعماله الكتابية » •

٤ ـ يجب ألا يكون متخصصا • لقد أجمع الـكل على أن الرجل الذى يوضع لتولى الشـئون الادارية يجب ألا يكون متخصصا فى نوع واحـد من العمليات • ويقتضى عمل الادارى أن يكون لديه المام واضح بهدفه وأن يـكون قادرا على ان يظفر بمعاونة رجاله الكاملة فى تحقيقه • أما الاعمال الفنية فيمكن أن توكل الى متخصصين •

٥ ـ يجب أن يكون متفهما لعمليات الحرب النفسية المختلفة ، ولكى يكون اشرافه على الرجـال الذين يعملون تحت امرته ذا فاعلية يجب عليـه أن يتفهم العمليات المختلفة التى يكون مسئولا عنها ، وهذه المعرفة تتضمن المامه بالجانب الفنى والجانب الابتكارى لعمله •

وبالاختصـار فان الادارى النـاجح هو الذى يعرف كل شىء ويكون لديه أساس وخبرة وتنفيذية بالاعمال العـامة ، كما يجب أن يملك الشـخصية التى تتيح له التعامل فى يسر مع كل من المدنيين والعسكريين •

والواقع أن القيادة هى أهم من أى شىء آخر فى عمليات الحرب النفسية • ففى مقدورك أن تصادف الاشخاص الذين يعرفون المنطقة جيـدا ، أو الفنيين الناجحين أو الكتاب النابهين ، كما يمكنك أن تستأجر كل هؤلاء • ولكن القيادة والادارة هى أهم شىء لانجاز أى عمل من الأعمال •

رجال الاتصال :

وحتى تحقق الحرب النفسية أغراضها ــ ولا سيما فى الناحية التكتيكية ــ يجب أن تعتمد على التعاون بين هيئات كثيرة • فمثلا اذا كان الهدف هو الحصول على معلومات تكون أساسا لمادة النشرات أو اذاعات الراديو أو نداءات بمكبرات الصوت فالواجب أن تتصل بأسرى الحرب وتطلع على تقارير المخابرات • هذا يتطلب العمل الوثيق مع قسم المخابرات ، أما توزيع النشرات فيتطلب خدمات المدفعية وسلاح الطيران •

ومن ثم فان الحرب النفسية تحتاج الى بعض العاملين القادرين على تعبيد الطريق بالتعاون مع المنظمات والأفراد الذين لا يعملون فى الحرب النفسية وهؤلاء الافراد يسمون « ضباط الاتصال » • ولاهمية العمل الذى سيقومون به ، فانه لا بد أن تتوافر فى كل واحد منهم مؤهلات وصفات معينة يمكن أن نذكر أهمها فيما يلى :

١ ــ يجب أن يكون قادرا على أن يساير كل أنواع الناس • وقد أجمع الكل على أن العلاقات الناجحة مع غير العاملين بالحرب النفسية تسفر عن علاقات شخصية طيبة كان من العسير أن تتم •

ان طبيعة الانواع المختلفة من الجماعات التى يجب أن يتصل بها ضابط الاتصال تساعد على تحديد الصفات التى يجب أن تتوافر فيه • ان أهم صفتين يجب أن يتمتع بهما هما النظام وتفهم البشر •

٢ ــ يجب أن يتمتع بصفة المبادأة • وقال أحدهم ، وعلى الرغم من أنه لم يكن فى يوم من الأيام ضابط اتصال فقد كلف باقامة محطات راديو كلما توغل جيش الحلفاء فى أراضى الأعداء ــ يصف كيف كانت العلاقات تتوطد حالما يظهر عامل الحرب النفسية اهتماما فى مساعدة الجيش :

« عندما كنا نحاول أن نعرف ما كانوا يحتاجون اليه كان حبهم لنا يزداد • فعندما اعترضتهم مشكلة عبور الراين وعمل كوبرى من القوارب قمنا نحن بتكرار الاذاعة ثمانى مرات فى اليوم عن مستويات فيضان نهر الراين ، وهكذا تمكن مهندسوهم من أن يضعوا قواربهم عند المستوى المناسب ، وكان هذا ذا أثر كبير بالنسبة لعلاقاتهم بنا • فهنا اشتركنا فعلا فى عمل عسكرى معاون لهم ما كان فى استطاعتهم أن يقوموا به بمفردهم • وقد قدروا هذا العمل ، وكان هذا رائعا منا ! » •

٣ ــ يجب أن يكون شجاعا ، فقد يتطلب الموقف لياقة بدنية على مستوى عال • ان هذا القول يصدق على الأخص على الرجال الذين كانوا يعملون مع سلاح الطيران • وقد أكد ضابط مخابرات كان يعمل فى فرع الحرب النفسية التابع للقيادة العامة للحلفاء الحقيقة التى تقول ان رجال الاتصال فى السلاح الجوى يجب أن يعملوا مع الطيارين ورجال القوات الجوية ، ويجب الا يجفلوا من خروجهم فى مهمة لالقاء النشرات على العدو •

٤ ــ يجب أن يكون ملما الماما كاملا بالحرب النفسية • لقد أكد كثيرون من ذوى الخبرة قدرة ضباط الاتصال فى كسب الاصدقاء والتأثير على الناس • ومع ذلك فقد اعترف معظمهم أن الجاذبية وحدها لا تكفى • وقال احدهم وكان قد سبق له العمل فى بورما :

« ان ضابط الاتصال الذى يتعامل مع العسكريين يجب أن يعرف ما يتحدث عنه • يجب ألا يسالهم عما يفعلون بل يجب أن يخبرهم عن الحرب النفسية ويجب أن يقيم الدليل على كل ما يقول » •

ان ضابط الاتصال الخبير بعمليات الحرب النفسية قادر على أن يؤدى عمله أكثر من غيره ، وحتى يظفر بتعاون الجماعات الاخرى يجب أن تكون معلومات رجل الاتصال تامة عن عمله • يجب أن يفهم أهدافه • يجب أن يعرف ما فيه الكفاية حول العمليات الفعلية حتى يستطيع ان يقيم المواقف العسكرية مع المواقف السيكولوجية ، كما يجب أن يلم الماما كافيا بالعمليات السابقة حتى يمكنه أن يستشهد بالخبرات السابقة ويقيم الدليل على كفاية الحرب النفسية فى المواقف المشابهة •

٥ ـ يجب أن يفهم تنظيمات العسكريين وقدراتهم ، ويعرف كيف يعملون حتى يتجنب عداوة الناس الذين يسعى الى كسب تعاونهم •

ان المام ضابط الاتصال بعمل العسكريين ـ الى جانب أنه يساعده على تجنب الأخطاء ـ يفيده فى كل المناقشات التى يدخل فيها عن كيفية التصرف فى الحرب النفسية • لقد قال ضابط الاتصال فى المدفعية أن من الضرورى على ضابط اتصال المدفعية أن تكون لديه المهارة التى يحتاج اليها كل من يدرب ليكون رجل مدفعية ! كذلك اقترح بالنسبة للرجل الذى يصبح حلقة اتصال بين قادة الحرب النفسية وبين القوات الجوية فى شمال أفريقيا أن يكون فاهما للمشكلات التى قد تعترض العسكريين ، وقال « ان مهمته ليست أن يفضى الى القوات الجوية بما تريده منهم بل أن يعمل مع قيادة القوات الجوية ويكتشف ما عندها من امكانيات » •

وقد نمت الاحتياجات المطلوبة فى رجل الاتصال نتيجة للمواقف الغريبة للحرب النفسية فى أثناء الحرب العالمية الثانية • كانت مهام رجل الاتصال فى ذلك الوقت ذات شقين : كان عليه أن يكسر مقاومة الحرب النفسية من جانب العسكريين ، كما كان عليه أن يقوم بدور الوسيط بين المدنيين والعسكريين الذين كانوا فى أغلب الاحيان يتبادلون مواقف العداء •

ولما أصبحت الحرب النفسية تشكل موقفا أقل غموضا من ذى قبل تجاه المنظمات العسكرية أصبح فى الامكان تبسيط المؤهلات الواجب توافرها فى رجل الاتصال الذى يعمل فى الميدان •

ومما لا شك فيه أن رجل الاتصال يجب أن يتمتع بشخصية جذابة وبذكاء ظاهر وأن يكون منتظما ، كذلك يجب أن يكون متخصصا فى بعض الأنواع بالمنطقة التى تمارس فيها الحرب النفسية وحيث يعمل العسكريون • ومع ذلك ففى المستقبل لن يحتاج رجل الاتصال لان يتنقل بقاذفة القنابل التى تحمل المنشورات ، ولن يحتاج الى أن يجد حلا للمشكلات الفنية التى تنشأ فى كلا الجانبين اذ أنه سد الهوة التى كانت تفصل بينهما ، ولن يحتاج الى تقديم الرشوة الى العسكريين الذين ليس لديهم الاستعداد للايمان بقيمة الحرب النفسية •

٦ — يجب أن يعرف الجماعة الأجنبية التى يعمل معها • وعلى سبيل المثال : كان الرجل الأمريكى الذى يشغل وظيفة رجل الاتصال للحرب النفسية مع جماعة الراديو الفرنسية قد قضى بعض الوقت فى الدراسة كطالب فى فرنسا • كان يعرف الفرنسيين كما كان يعرف الأمريكيين • ونتيجة لهذا كان فى مقدوره أن يتعامل جيدا مع الفرنسيين وكان صالحا وناجحا حينما كان يقوم بدور المهدىء اذا ما تطور الأمر وأدى الى احتكاك •

٧ — يجب أن يعرف لغة الجماعة الأجنبية التى يتعامل معها • ان الطلاقة فى استخدام اللغة الخاصة بالجماعة الأجنبية التى يتصل بها أمر مفروغ منه بالنسبة للرجل الذى يعرف الأجانب وثقافتهم •

فاذا استطاع ضابط الاتصال أن يوطد صلته عن طريق اللغة مع الجهة المعارضة فانه يكسب المعركة • ويبدو أن المقدرة على التحدث باللغة حتى ولو لم تكن مصحوبة بالفهم التام للناس وثقافتهم تخدم عملية الاتصال خدمة جليلة •

٨ — يجب الا يكون محدود التفكير فى موقفه تجاه الأجانب • من المهم جدا أن الرجل الذى تختاره للتعامل مع الحلفاء أو الأجانب يجب ألا ينظر باحتقار نحو الأجانب • ويجب أن يكون قادرا على التعاطف مع الشعوب الأجنبية ، أما من الناحية المثالية فيجب أن يكون شخصا تتضمن خبرته معرفة وثيقة بالأجانب نتيجة لمعيشته فى الخارج •

الرجال المبتكرون :

يحدد الرجال المبتكرون شكل رسالة الحرب النفسية ومادتها ولذلك يعتبرون لب العمليات الخاصة بالحرب النفسية • انهم الرجال الذين يترجمون السياسات والافكار النابهة ويحولونها الى نشاط يومى ، وهم يقومون فى كل يوم بابتكار أفكار خاصة للنشرات وبرامج الراديو والاذاعة بمكبرات الصوت • وهم فى أغلب الأحوال إما كتاب واما فنانون، والفئة الأولى أكثر من الفئة الأخيرة ، يجب أن تتوافر فيهم على الأقل بعض المؤهلات الخاصة برجال الافكار ، ولكن الحرب العالمية الثانية أثبتت أنهم يستطيعون العمل بكفاية دون حاجة منهم الى هذه الشرارة الاضافية التى كانت تميز ريتشارد كروسمان وغيره من عباقرة الدعاية فى الحرب العالمية الثانية •

وفيما يلى بيان بالمؤهلات التى يجب أن تتوافر فى الكاتب الذى يساهم مساهمة فعالة فى الحرب النفسية سواء كان يكتب من مكتبه بمقر القيادة أو كان يعمل فى مكتب متنقل بالميدان :

١ ـ يجب أن يعرف هدفه معرفة تامة • ان جزءا من عمل الكاتب هو تفسير الهدف ومعرفة السياسة العامة ولذا فان الصفة الأساسية المطلوبة فى الكاتب هى أن يعرف هدفه معرفة كاملة

ان الكاتب ـ مثله مثل رجل الأفكار ـ يجب أن يكون قادرا على أن ينظر الى العالم بعيون الهدف ، وذلك حتى يستطيع أن يتنبأ بالطريقة التى سوف يفسر بها الهدف مضمون نشرته أو اذاعته ولقد مس ضابط فى الجيش كان يعمل فى حقل الحرب النفسية فى منطقة جنوب الباسفيك هذا الموضوع بقوله :

« انى أعتقد اولا أن الرجل يجب أن تتوافر لديه معرفة أساسية أو فهم للناس الذين يعمل ضدهم • يجب أن يعرف كيف يفكرون وكيف يتصرفون لان الرجل قد يقوم بعمل جليل بكتابة نشرات ضد الالمان ، ثم يكرر نفسه محاولا أن يفعل نفس الشىء ضد اليابانيين فيبوء بالفشل • ففلسفة الالمان وأعمالهم وردود

أعمالهم وتصرفاتهم نحو أشـياء معينة تختلف كل الاختـلاف عن ردود أفعال الآسيويين فى نفس الاشياء • ولهذا أعتقد اعتقادا جوهريا أن أى رجل يحاول أن يقوم بدعاية أو بدعاية مضـادة يجب أن يعرف النـاس الذين يوجه دعايته نحوهم •

ويبدو أنه من المتفق عليه أن الاقامة فى نفس المنطقة هى أفضل وسيلة بالنسبة للكاتب كى يحصل على المعلومات التى يريدها • وقد أوضح أحد كتاب النشرات الذين عملوا فى مكتب معلومات الحرب الامريكى باسام احدى مزايا المعيشة فى البلد الاجنبية فقال :

« اذا أنت عشت فى البلد الأجنبى يمكنك ان تضيف الى النشرة المرسلة الى الشخص العادى هذه اللمسة الخفيفة التى تشعر انك متصل به اتصالا وثيقا • بعبارة أخرى ان خبرة الحياة فى البلد الأجنبى ذاتيمة » •

٢ ـ يجب أن يكون طلقا فى استخدام اللغة الاجنبية • ولما كان الرجال المبتكرون يتعاملون مباشرة بواسطة اللغة المكتوبة أو اللغة المسموعة كان الالمام الكامل باللغة اهم لهم أكثر من رجال الافكار ولا يعنى هـذا دراسة الكتب المدرسية • فكتابة النشرات أو اعداد الاذاعات تحتاج كى تكون مؤثرة الى معاملة اللغة فى شكلها الحى الدارج •

وحتى يكون عمل الدعاية الذى تقوم به بالنسبة للعدو مؤثرا يجب أن تعرف اللغة مائة فى المائة • والا فالأفضل ألا تقوم به • فانت مثلا اذا كتبت نشرة واحتوت على غلطة هجاء واحدة فالأفضل لك أن تحرق النشرة كلها • ان أعظم سلاح يتسلح به هو أن يرى الجانب الآخر أنه يعرف كل شيء عنهم • ان سهولة التعبير بلغتهم أمر حيوى !

٣ ـ يجب أن تكون لديه القدرة على أن يعبر عن نفسه بوضوح وبدقة • لقد أشار كثيرون الى أن الحرب النفسية تطلب كتابا كبارا أو فنانين عبقريين • ان مهمة الكاتب أو الفنان هى أن يعيد مادة النشرات بشكل له معنى للمستمعين

وهذا يتطلب أقل ما يمكن من الكفاية ككاتب أو كفنان • وقد اكتشف عضو فى الفرقة الرابعة فى راديو لوكسمبورج أن الروائى المحترف لا تناسبه هذه الألوان من النشاط :

« هناك شاب كان كاتبا نابها • ولكنه كان كاتبا صرفا • كان يريد أن يكتب ما يشعر به • والكتاب الكبار أنانيون • انهم يحبون أن يكتبوا ما يرونه وما يشعرون به • انهم يحبون أن يختاروا موضوعاتهم • ان من نحتاج اليهم هم أناس لهم القدرة على أن يعبروا عن أنفسهم ببساطة وسهولة عن طريق الكتابة أو الكلمة المسموعة » •

وقد قال أحدهم ممن كانوا يقومون بتدريس أساليب الدعاية للرجال الذين يهيأون للعمل فى الشرق الأقصى ، وكان هو نفسه فى حياته المدنية روائيا معروفا :

« ليس للمهارة الأدبية أى صلة مطلقا بكتابة النشرات • وعندما بدأنا نجند الناس لكتابة النشرات اتجهنا بطبيعة الحال الى الكتاب سواء كانوا كتاب القصص الخيالية أو كتاب الصحف ، أو كتاب الاذاعة وغيرهم • وبينما أثبت كثير منهم كفايتهم ككتاب للنشرات فانه لم يكن مرجع ذلك الى مهارتهم الخاصة فى استخدام الكلمات • ان ما كانوا يحتاجون اليه فعلا هو الذكاء الاساسى ـ وانى أقول أن هذه هى الحاجة الجوهرية فى كل ميدان تقريبا ـ وذلك حتى يمكن للرجل أو المرأة أن تفهم بسرعة ما عناصر النشرة • ان المقدرة على الكتابة ليس لها علاقة بهذا ، ان المهم هو القدرة على فهم ضرورة التعبير عن الشىء باختصار حتى ولو كان بطريقة بها أخطاء فى النحو » •

وقال رئيس سابق بقسم النشرات فى فرع الحرب النفسية التابع للقيادة العامة للحلفاء :

« اذ لم يكن فى استطاعة الانسان أن يعبر عن نفسه بالكتابة فانه لا ينبغى أن يتوقع ممن يقرأ كتابته أن يعرف ما يتحدث عنه ، كما يجب أن يكون قادرا على التعبير عن نفسه بوضوح بالكلام • فقد تسنح له الفرصة كى يوجه حديثه الى الاعداء بواسطة الراديو أو بوسيلة أخرى •

واذا لم يكن لدى العامل المبتكر القدرة السهلة فى استخدام لغة الجماعة الهدف فانه يجب أن تكون لديه القدرة على أن يعبر عن نفسه بدقة وبفهم وبوضوح » •

٤ ـ يجب أن يكون لديه وعى سياسى • والكتاب كرجال الافكار لانهم يتعاملون مع مواقف حية ومتغيرة . يجب أن يكونوا رجالا لديهم الحاسة لفهم المغزى السياسى لما يقومون به •

ان النظرة الشاملة الى ما هو حادث أمر أساسى بالنسبة للرجل المبتكر فى الحرب النفسية • يجب أن يكون لديه اساس ثابت من الناحية السياسية •

٥ ـ يجب أن يكون متزنا من الناحية العاطفية وسهل التكيف • وهناك عوامل متنوعة فى بيئة عمله تتطلب من العامل المبتكر فى الحرب النفسية أن يكون ثابتا ومرنا فى نفس الوقت •

ولقد قال أحد مدرسى الحرب النفسية السابقين « هناك أشياء كثيرة تجرى وراء المسرح وعلى مسافات بعيدة تؤثر فى النهاية فيما تفعل لدرجة تتطلب منك عقلية فلسفية من ناحية قصور الناس الذين يتولون توجيهك أو الناس الذين تتعامل معهم ، وتحصل منهم على البيانات مما قد يجعلهم يبدون لك كما لو كانوا غير عقلاء او غير أذكياء أو يعوزهم التوجيه » •

ان الرجل المبتكر يجب أن يتمتع بحب النظام لدرجة تجعله ينفذ ما جاء فى المنشور سواء كان يوافق على محتوياته شخصيا أو لا يوافق . كما يجب أن يكون قادرا على التعامل فى يسر مع زملائه العاملين الذين لهم أساسات متباينة تماما ، وأخيرا فانه يجب أن يكون قادرا على أن يكيف أسلوبه وتكتيكه حتى يتفق مع ذوق مستمعه أو قارئه •

ومما لا شك فيه أن بعض الرجال المبتكرين الذين يعملون فى عملية خاصة بالحرب النفسية قد يعملون فى منطقة قتال أو منطقة قريبة من مناطق القتال •

ولذلك يجب على من يعملون فى الخارج أن يكون لديهم الاستعداد لمواجهة هذه الحقيقة التى تقول ان الظروف المعيشية التى يقابلونها ستكون مختلفة عن تلك التى اعتادوا عليها . أما بالنسبة للرجل المبتكر الذى يعمل فى منطقة قتال فانه يجب أن يكون قادرا ومستعدا على تحمل أخطار هذه الحياة دون تذمر أو تململ .

٦ - يجب أن يكون فى حالة جسمانية طيبة وأن تكون لديه اللياقة البدنية. فحتى يستطيع الرجال الموجودون فى الخطوط الامامية من الجبهة مقاومة متاعب الحياة يجب أن يتمتعوا بأحسن صحة • فالشخص الذى هو دون الكمال من الناحية الصحية لن يكون عقبة فى اتمام العمليات فحسب بل قد يعرض صحته للتدهور أيضا . وعندما يعمل الرجل المبتكر فى جبهة المعركة فلن يقل تعرضه لخطر الرصاص وشظايا القنابل عن الخطر الذى يتعرض له أحد جنود المشاه • ولذلك وحتى يستطيع أن يؤدى العملية المطلوبة منه يجب أن يكون لديه شجاعة شخصية •

٧ - يجب أن يكون لديه أساس فى الأمور العسكرية • وهناك سببان يجعلان من الضرورى على الرجل المكلف بعمل ابتكارى فى الجبهة أن يكون على خبرة فى القتال وأن يكون قد تلقى تدريبا عسكريا • فأول كل شىء عليه أن يكون قادرا على أن يحمى نفسه اذا تعرض لخطر ، كما يجب أن يعرف كيف يحفر الخنادق وماذا يفعل لو تعرض لقنابل العدو • واذا اشتبك مع العدو فى قتال تستعمل فيه الأسلحة الخفيفة فانه يجب أن يعرف كيف يستخدم الأسلحة •

٨ - يجب أن يكون قادرا على التفكير بسرعة • ففى منطقة القتال قد يتغير الموقف بسرعة ، وقد تبدو مادة الحرب النفسية كما لو كانت عتيقة لا تصلح للتوزيع • ولذلك يجب على الرجل المكلف بعملية الاذاعة أن يكون قادرا على اعادة كتابة مادته فى الحال ، وقد قيل فى ذلك :

« يجب على العاملين فى الحرب النفسية أن تكون مواردهم كبيرة ، بمعنى أنهم يجب أن يكونوا قادرين على أن يفكروا فى آراء جديدة فى الحال لان الوقت

لا يتسع • فانت لا تعرف ما يفكر فيه عدوك • ولذلك عليك أن تبتكر فى الحال وأن تستفيد أكبر فائدة ممكنة من كل موقف لان الاشياء لا تتم دائما وفق الخطة التى تضعها » •

ونوجز ماسبق فنقول ان العمل الابتكارى بالنسبة للحرب النفسية يتطلب من القائمين به معرفة تفصيلية بجماعة الهدف ، وأن يتمتع بطلاقة فى اللغة ، وقدرة على الكتابة والكلام بوضوح وبايجاز ، كما يجب أن يكون لديهم وعى سياسى وأن يخضعوا للنظام وأن يكونوا مرنين ، وكلما قربوا من الجبهة تطلب الأمر أن يكونوا فى حالة جسمانية لائقة • كما يجب أن يكونوا على أساس من ناحية الأمور العسكرية وقادرين على التفكير فى التو واللحظة •

الباحثون :

هناك جزء مكمل لعملية الحرب النفسية وهو الخاص بجمع الانباء وتقييمها ، وعلى أساسها يستند جزء كبير من الدعاية •

ويشمل ذلك الاستماع الى اذاعات العدو وقراءة دعايته المكتوبة والاطلاع على الوثائق المضبوطة واستجواب أسرى الحرب وتقييم كل المعلومات الواردة من كل هذه المصادر •

ويجب أن يكون الرجال الذين تسند اليهم هذه المهام مؤهلين تأهيلا عاليا فى نواح كثيرة • وفى بعض الاحيان تشبه مستويات اختيار الباحثين مستويات العاملين فى المجال الابتكارى • وعلى العموم يجب أن يكون الباحث من الطراز الممتاز سواء كان ذلك من ناحية الاساس أو من ناحية الشخصية :

١ ــ يجب أن يكون خبيرا فى لغة الجماعة الهدف • ونحن نذكر اللغة على أنها من أول المؤهلات التى يجب أن تتوافر فى الباحث • فعلى خلاف رجل الأفكار أو الكاتب لا يمكن للباحث أن يقوم بمهمته بدون ذلك •

فالمستجوب مثلا يشعر بالحيرة ما لم يكن فى مقدوره التحدث بحرية مع الاسير الذى يستجوبه • وهذا يعنى أن المستجوب « يجب الا يكون رجلا يتكلم اللغة من الناحية الاكاديمية فحسب بل يجب أن يتكلمها كما لو كان أحد أبنائها• ونفس هذه المهارة اللغوية يجب أن تتوافر بطبيعة الحال فى الشخص الذى يستمع الى اذاعات العدو ويقيمها والشخص الذى يتتبع ما تكتبه صحافة العدو •

٢ ـ يجب أن يعرف الشعب الهدف • وحتى يستطيع الباحث أن يقيم المادة التى يجمعها من أجهزة الاعلام الجماهيرية ومن العلاقات المباشرة بجنود العدو يجب أنْ يفهم الاحداث الجارية المختلفة والافكار الخاصة بالعدو ، ويأتى هذا الفهم نتيجة معرفة الشعب الهدف وثقافته •

٣ ـ يجب أن يتسم المستجوب بالمهارة مع النـاس ، كما يجب أن يكون ناضجا من الناحية العاطفية • وحتى يستطيع أن ينجح مع أسير الحرب ويحصل منه على المعلومات المطلوبة يجب على المستجوب أن يكون قادرا على أن يقيم صلة بينه وبين الاسرى كلهم ويتكلم معهم على مستواهم ، لكى يجعل كلا منهم يصب كل ما فى قلبه له كما يفعل الاخ نحو أخيه الاكبر • ويجب ألا يتعالى عليهم لانه بتعاليه لا يحصل على ما يريد . وقد يكون هذا مجديا من الناحية التكتيكية ـ مثلا عندما يريد معرفة موضع مدفع ـ ولكن اذا كان يريد معرفة معلومات غير عادية ، فانه يجب عليه أن يكون كلامه له فى مستوى الند للند •

على أن أهم ما يجب أن يتوافر فى المستجوب هو ان يكون ناضجا ، ويجب ألا يختار شـاب صغير لاسـتجواب كبار السن من الاسرى اذ أنه لن يسـتطيع ان يؤثر عليهم •

٤ ـ يجب أن يكون للمحلل أساس من العلوم السياسية • وكان هناك اتفاق على ضرورة وجود تدريب أكاديمى كبير خاص بكل نمط من أنماط التقييم الذى يحتاج اليه محلل الدعاية • فالباحث الذى من طبيعة عمله تحليل نتاج

دعاية العدو يجب أن يكون شخصا درس العلوم المتصلة بالعلاقات الانسانية والتاريخ والعلوم السياسية والاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع والرأى العام والدعاية ٠

ان رجلا تتوافر فيه هذه الشروط هو أفضل من يقوم بمهمة التحاليل ، ان هذا الرجل ـ طبقا لرأى احد رجال المخابرات الذين كانوا يعملون فى مكتب الخدمات الاستراتيجية الأمريكية ـ يستطيع أن يفهم بسرعة ، وعندما يقرأ فانه يعرف معنى ما يقرأ ٠ وهو يستطيع أن يميز بين الشائعة والحقيقة ، بين المعلومات الجوهرية وغير الجوهرية ٠

وبالرغم من أن العامل فى ميدان البحث يحتاج الى نفس المعلومات عن نفس المنطقة مثل « رجل الأفكار » ومثل الكتاب فانه الى جانب ذلك يجب ان تكون عقليته تحليلية أكثر منها مبتكرة ٠ فبدلا من أن يبنى شيئا من معلوماته نجد أن مهمته هى تحطيم المادة التى تمر بين أصابعه كى يقيمها ، كذلك نجد أن الرجل المبتكر ربما يكون قد حصل على مهارة نتيجة خبراته فى أمكنة متنوعة ، أما محلل الدعاية فعلى العكس قد حصل على مهارته نتيجة وجوده فى بيئة أكاديمية ٠ وبالاضافة الى ما تقدم ، يجب أن يعرف الباحثون لغة البلاد كما يعرفها أهلها ٠

الفنيون :

ان العمود الفقرى للحرب النفسية هو الرجال الذين يديرون المطابع وأجهزة الارسال الاذاعية ، ويقدمون كل الوسائل الميكانيكية التى تعمل على نشر ما صاغه المبتكرون من دعاية ٠ وهم ليسوا مهمين للحرب النفسية فقط ولكنهم يكونون أغلبية موظفيها ٠ وقال ادارى سابق كان يعمل فى قسم الحرب النفسية التابع للقيادة العليا لقوات الحلفاء فى الميدان الغربى : « أنت فى حاجة الى ٩٠٪ من الرجال ذوى المهارات المكيانيكية المنظمة » ٠

وهناك نفر قليل ساعدتهم خبرتهم على دراسة الرجل الفنى بتفصيل أكثر . ويمكننا من مجموع التعليقات أن نرسم صورة تبين المهارات أو الصفات التى يجب أن يتصف بها الفنى حتى يكون عمله مؤثرا فى الحرب النفسية • يجب أن تتوافر فى الرجل الفنى الخصائص التالية :

١ ـ معرفة عمله ، فمما لا شك فيه أن الرجل الذى يعهد اليه بآلة الطباعة يجب أن يعرف كيف يديرها . قد يصادفه نقص فى القطع او قد يحتاج الى ان يحل قطعا محل قطع مكسورة • ولذلك فالرجل الفنى المؤهل لكى يتغلب على عقبات من هذا النوع يجب ان يعرف آلاته بدرجة تتيح له أن يتلافى مثل هذه الازمات بدل أن يستسلم •

٢ ـ اتزانه من الناحية العاطفية • ولما كان يعمل فى الغالب تحت ظروف غير مواتية يتعرض فيها لأوجه نقص خطيرة فانه يجب أن يكون الرجل الفنى ذا طبيعة معتدلة •

وليس من المستحيل بالنسبة للرجل الفنى الذى حصل على المهارة المطلوبة أن يحصل أيضا على الطبيعة التى تجعله يثبت للفشل الذى قد يصادفه فى العمل فى منطقة القتال • ويعتقد أحد الرجال الذين عملوا فى الاشراف على آلات للطباعة : « ان من يعمل فى مثل هذا العمل الانتاجى يجب أن يتمتع بقدر كبير من الصبر » يجب أن يتذرع الشخص بالصبر التام عندما يتعرض للظروف التى يتعرض لها من يعمل فى هذه الظروف •

والى جانب كونه خبيرا ميكانيكيا ، يجب على الرجل الفنى الذى يعمل فى مجال الحرب النفسية أن تكون له شخصية ثابتة • أى أنه يجب ألا يهتز نتيجة مصادفته لمواقف لم يتنبأ بها •

٣ ـ يكون اهتمامه بالأفكار معادلا لاهتمامه بالآلات ، وقد لاحظ كثيرون أن الموظفين الفنيين لا يستلزم عملهم أن يكونوا خبراء فى اللغات أو فى المنطقة • ولكن حتى يستطيعوا القيام بأعمالهم بكفاية داخل المنظمة يجب أن تكون لديهم فكرة على الاقل عما تحاول الحرب النفسية أن تفعله •

ولكن مثل هذا التدريب قد لا يجدى مع الاشخاص الذين ليس لهم ميل الى الافكار ، ومن جهة أخرى فان الاستعداد العقلى وان كان مفيدا بالنسبة للرجل الفنى لا يمكن أن يكون بديلا للاستعداد الفنى والالمام بالعمل •

موظفو الخدمات :

يقول الرجال الذين كانوا يتولون اختيار موظفى وحدات الحرب النفسية فى الحرب العالمية الثانية : ان أى رجل يمكنه أن يقود سيارة نقل أو يطهو وجبة أكل ويركب ايريال يستطيع أن يؤدى نفس هذه المهام فى منظمة الحرب النفسية• ولكن التجربة أثبتت أن هذا الكلام ليس صحيحا •

فقد شكا كثيرون من حدوث الاحتكاكات ـ وأحيانا الاعمال العدائية ـ بين من يقومون بالعمل الفكرى ومن يؤدون أعمالا فى مستوى اعداد الطعام أو قيادة السيارات ونحو ذلك •

ان جماعة الحرب النفسية من وجهة نظر الكفاية يجب الا تكون مكانا لمن لا يصلحون • وتفصح التقارير التى كتبت عن الصعاب التى كان يلاقيها المسئولون على مستوى مرتفع فى الحرب العالمية الثانية عن ضرورة توافر شرطين فى رجل الخدمة :

١ ـ يجب أن يكون متوسط الذكاء • وبالرغم من أن عامل الخدمة لا يطلب منه أداء أعمال فريدة فى الحرب النفسية فانه يجب أن يفهم معنى الحرب النفسية ودوره فيها •

وبالرغم من أن تلقين رجال الخدمة هو موضوع يمكن العناية به فانهم يجب أن يكونوا قادرين على أن يعرفوا أهمية الحرب النفسية بشتى صورها ٠

ان فهم الحرب النفسية أمر ضرورى لا لضمان التعاون من جانب العاملين فى حقل الخدمة ولكن لاتقاء شر الشعور بالعبث الذى يسيطر عليهم ، وهم بذلك يشعرون بالفرق بين الحرب عن طريق العبارات والحرب باستخدام المدافع ، كما يشعرون بالفرق بين نوع العمل الذى يؤدونه ونوع العمل الذى يؤديه المبتكرون ٠

٣ ـ يجب أن يكون موظفو الخدمة من النضوج بحيث يقدرون العمل وينسجمون مع الناس ذوى الطبائع التى تختلف عن طبائعهم ٠

ان احتمال استخدام رجال كانت خبرتهم قد هيأت لهم الاتصال بأفراد من اجناس مختلفة يفيد فى عمليات الحرب النفسية ، اذ يكون لديهم خبرة وتجربة فى نطاق الاعمال ٠

كما يجب أن يكون الرجل الذى يحتمل أن يعمل فى منطقة القتال ـ بغض النظر عن وظيفته ـ فى حالة بدنية طيبة ٠ وقد كان هذا المؤهل أمرا بديهيا فى رأى ذوى الخبرة لأن رجال الخدمة فى الحرب الماضية كانوا يؤخذون من الجيش وهذا يعنى أن الرجال قد اختيروا وفق مستويات بدنية معترف بها ٠ وخلاصة القول ان عامل الحرب النفسية يجب أن يحب مهنته ، ويعيش فيها ، ويعطى نفسه كلها لمهنته ٠

* * *

وعندما يأتى موضوع الاختيار الفعلى للموظفين فان المستويات السابق بيانها لا ينبغى مراعاتها مراعاة حرفية ٠ فالانتاج فى الحرب النفسية يمثل المجهودات المجتمعة لعدد كبير من الناس ٠ انه نتيجة عمل فريق ٠ وهذه الحقيقة تفسح مجالا للمرونة فى اختيار الموظفين اللازمين لمعظم عمليات الحرب النفسية ٠

ان المعايير السابق ذكرها ليست الا دليلا نستعين به فى اختيـــار مجموعة الافراد القادرين على تأدية عملية الحرب النفسية بعملهم معا • والمهم ــ من ناحية التجنيد ــ أن نختار الأفراد الذين ينسجم كل منهم بيسر ضمن الوحدة التى يعمل فيها ، والذين يؤدى كل منهم دورا تحتاج اليه الوحدة مهما كان هذا الدور صغيرا فى عملية المهارات المطلوبة • ان هذا أفضل من أن نحاول التوفيق بين الأفراد الذين تتوافر فيهم مجتمعين المؤهلات الوظيفية المطلوبة •

الباب الثالث

التخطيط والعمليات

الفصل الأول
مشاكل التخطيط

الفصل الثاني
أهداف العمليات

الفصل الثالث
الحرب النفسية الدفاعية

الفصل الأول

مشاكل التخطيط

فى الحيـاة العادية يقوم الفرد غريزيا بعمل خطـة سريعة لاى مشـكلة ولو يسيرة تواجهه فى حياته اليومية • ان مجرد تفكيره فى عناصر هذه المشـكلة ومحاولته التمعن فى الطرق المفتوحة أمامه يوصلانه فى النهاية الى اتخاذ سبيل معين يحقق له التغلب على هذه المشكلة ، وهذا هو التخطيط فى أبسط صوره •

وفى الجيش حينمـا يقوم ضباط التشكيلات بوضع الخطط العسـكرية لوحداتهم ، لا يستطيعون القيام بذلك قبل دراسة كمية من المعلومات المتعلقة بالمسألة دراسة دقيقة مستفيضة • فاذا انتقلنا الى صورة أكبر نجد أن ضبـاط الاركان المسئولين عن التسليح فى الجيش لا يمكنهم أن يضعوا خطط التسليح قبل قيامهم بدراسة واسعة تفصيلية لعديد من المسائل التى تتحكم فى خطة التسليح ، فمثلا لا يستطيع من يضع الخطة أن يحدد نوع السلاح المناسب لجندى المشاه قبل أن يسأل نفســه مرارا عن نوع الغذاء الذى يتناوله هــذا الجندى وما الكميات التى تصرف له وما السعر الحرارى الذى يجب أن تعطيه الوجبات اليومية بحيث تمكنه من المحافظة على لياقته البدنية ، كما يجب أن يعرف قدرة هذا الجندى فى تحمل قطع المسافات المختلفة حاملا السلاح المناسب •

ولكن الامر ليس بهذه البساطة حينما توضع الخطط الاستراتيجية أو حينما يبدأ المختصـون فى اعداد التخطيـط القـومى الـكامل للدولة • ان الأمثـلة

السابقة لتبرز لنا كمية المعلومات الدقيقة المطلوبة وتوضح لنا عدد الأسئلة الهائلة التى تطرح عادة للمناقشة عند التخطيط لمثل هذا العمل الضخم ٠

فاذا ما ألقينا نظرة على تسلسل اجراءات التخطيط للعمليات الحربية نجد أنه يهبط متدرجا من أعلى قمة الهرم الى قاعدته ، اذ بعد أن تعين القمة ـ السلطة العليا ـ الهدف الاستراتيجى يبدأ التخطيط للعمليات الحربية فى المستويات المختلفة حتى تصل الى القاعدة فى أدنى مستوياتها ٠ وفى هذه الصورة نجد أن من يقوم بالتخطيط فى جميع هذه المستويات يستطيع أن يحدد احتياجاته مقدما، وأن يعين بالتفصيل مسئولية كل فرد فى العملية بل يستطيع أن يضع برنامجا زمنيا لتحقيق المراحل المختلفة من الخطة ٠

ولكن الأمر يختلف اختلافا بينا فىالتخطيط للحرب النفسية، فعلىالرغم من أنه قد يكون منالمستطاع أن تحدد الاهداف وعلىالرغم من أنالاحتياجات العامة قد تكون واضحة لمنيقومون بالتخطيط للحربالنفسية ، فمن جهة أخرى لاتستطيع الخطة أن تضع الحدود الزمنية التى يمكن تحقيق هذه الاهداف فى مداها ، ولا يمكنها ـ كما فى الخطط الحربية ـ أن تبرز العلاقة بين الاهداف المختلفة فى شكل واضح دقيق مقدما . وقد يكون من الميسور أن تحدد المسئوليات والواجبات لمن يقومون باعداد الحرب النفسية وتنفيذها ، ولكن نظرا لاختلاف طبائع الافراد الذين يشتركون فى تنفيذ الخطة ، والتناقض الوظائفى بينهم كما ظهر سابقا ، فان العامل البشرى يتحكم فى التخطيط الى مدى بعيد ٠ اذ تشترك فى هذه الحرب عناصر بشرية متباعدة التفكير والسلوك وادارات مختلفة غالبا ما تسيطر عليها عقدة الكرامة الوظائفية ٠

وعلاوة على ذلك فان الحرب النفسية مرتبطة ارتباطا وثيقا بسير العمليات الحربية ، ويتوقف نجاحها أو فشلها الذى لا يمكن ادراكه أو الاحساس به على المواقف السياسية والعسكرية المختلفة ٠ ان نجاح الحرب النفسية أو فشلها لا يظهر الا بعد مدى طويل ، وبصرف النظر عما تدعيه دعاية العدو وتزعم لنفسها أنها هى التى أدت الى نتيجة الحرب النفسية ، غير أنه فى الحقيقة لا يمكن ادراك

ذلك الا بنتائج العمليات الحربية التي تحقق النصر أو الهزيمة • ولنضرب مثلا بما حدث في الحرب العالمية الثانية من ادعاء كثير من النقاد بأن الانفجار الذرى الذى حدث في هيروشيما هو الذى أنهى الحرب ، ولكننا في الحقيقة اذا تعمقنا الدراسة نجد أن اليابان قد بدأت في محاولات الصلح قبل القاء هذه القنبلة بوقت طويل • ونعتقد أن الحرب النفسية هي التي كان لها الدور الفعال في استسلام اليابان • أن اذاعات زخارياس (١) السرية التي حولت فكر اليابانيين من الاستسلام الى فكرة التسليم والوسائل النفسية التي استخدمها الامريكيون للتمهيد بضرب هيروشيما يعتبران العاملين اللذين لعبا دورا فعالا في تحقيق النصر العسكرى •

ففى الخطة الاستراتيجية الامريكية التي وضعت في سنة ١٩٤٥ لتنفيذ احتلال اليابان تقرر هدف واضح هو شن حرب نفسية مشددة الغرض منها تحقير القيادة العليا اليابانية في نظر الشعب الياباني ، والحط من شأن أفرادها ، وبذلك يقل نفوذها بسبب ترددها وما يقوم بين أفرادها من النزاع الداخلى •

وكان القرار الذى اتخذته الولايات المتحدة للقيام بهذه الحملة النفسية يعنى أن يقوم بهذه المسئولية متحدث رسمى في منصب كبير للتعجيل بتسليم اليابان دون قيد أو شرط وبلا حاجة الى النزول في الاراضى اليابانية ومواجهة المقاومة العنيفة ، وأسندت هذه المهمة للقبطان زخارياس •

وقد ذكر لنا زخارياس في كتابه « مهمة سرية » Secret Mission مشروعا لاسلوب التطبيق العملى الذى شملته هذه الخطة لتحقيق الغرض المنشود. ونحن نضعه أمام القارىء كما جاء بالنص :

---

(١) القبطان ايليس زخارياس من البحرية عمل بالمخابرات الأمريكية ما يزيد على ربع قرن واختير عام ١٩٤٥ ليكون المتحدث الرسمى للحكومة الامريكية للتعجيل بتسليم اليابان دون قيد أو شرط • وقد قدم مشروعا للسلطات المختصة ببدء الحرب النفسية ضد اليابانيين ، وكان لاذاعاته الناجحة أثر كبير في استسلام ألمانيا ، وفى كتابه مهمة سرية اصدار شركة « ج ب » بوتمان وأولاده بنيويورك نص لأربع عشرة نشرة اذاعية •

تلقى على المتحدث الرسمى مسئولية :

١ ــ وضع أسس التطبيق الذى يتبعه بأن يخاطب شخصيا زعماء البحرية والعسكرية والدوائر السياسية والاقتصادية فى أحاديث ودية مباشرة وواقعية ، وأن يستغل تجاربه الماضية فى معرفة ما يؤثر على عقولهم ويستلفت أنظارهم • ثم عليه أن يناقش ــ بعناية ــ مكاسبهم وخسائرهم لكى يشد أزر الراغبين فى السلام والحط من شأن أولئك الذين يتولون زمام الامور ويحبذون فكرة استمرار الحرب •

٢ ــ استغلال الهيئات وجماعات الصفوة داخل القيادة العليا والذين يشعرون بأن الحرب خاسرة لا محالة أو من يعارضون الاستراتيجية الحالية •

٣ ــ يوضح فى تفصيلات وافية وعلى أسس سليمة موقف اليابان وما يعتريه من عوامل اليأس ، وان الاستمرار فى المقاومة لا جدوى منه •

٤ ــ استغلال اعتراف اليابانيين بضعفهم واختلال صفوفهم واستحالة وجود شىء لعلاج هذا الوضع •

٥ ــ استغلال خسائر القوات البحرية وعلاقتها بأرض الوطن ويضيف الى ذلك اندحارهم برا وبحرا •

٦ ــ يؤكد فى قوائم مفصلة الخسائر فى السفن والارواح ــ تلك الخسائر المتعاقبة ــ التى تؤدى الى انهيار القوة ومعدات القتال بوجه عام •

٧ ــ يؤكد تلك القوة الهائلة التى تضاف الى القوات الضخمة الموجهة الى الاراضى اليابانية أثر انهيار ألمانيا •

٨ ــ استغلال تنحى حليفهتم ايطاليا وعودة فرنسا كعامل قوى فى الحرب وهدفها واهتمامها بالمناطق التى تشرف عليها اليابان •

٩ ـ استغلال عدم توفيق اليابانيين فى تقدير موقف الروس فى الحرب وخاصة تلك الاحداث المذهلة والتى سبقت دخول اليابان فى الحرب مباشرة ٠

١٠ ـ استغلال الاحتكاك الموجود فعلا بين اليابان وألمانيا فى جميع النواحى ٠

١١ ـ استغلال خوف اليابانيين من الفوز ، ويتضح ذلك من تهويلهم ومبالغتهم حول التدابير التى تتخذ للدفاع عن أرض الوطن « ويعيد ذكرى بيانات قادة الجيش والبحرية الألمانية قبل النزول فى نورماندى » ٠

١٢ ـ يوضح أن التسليم غير المشروط لا يعنى أكثر من وقف الاعمال العدوانية نهائيا ، والتخلى عن الاسلحة طبقا لبيان الرئيس روزفلت الذى قدمه للكونجرس(١) ثم عليه أن يضرب أمثلة بألمانيا وغيرها من المناطق المحتلة بما فيها المناطق اليابانية التى سبق الاستيلاء

---

(١) استغل زخارياس اجزاء من بيان الرئيس الامريكى فى الكونجرس بخصوص اليابان فى حملته الاذاعية وكان يكررها فى اذاعاته للتأثير على تفكير الشعب اليابانى للتعجيل بالتسليم ٠ وكان نص البيان كما كان يذيعه وينسبه للرئيس الامريكى هو « لقد اندحرت المانيا النازية ٠٠ وشعر الشعب اليابانى بوطأة هجماتنا من البر والبحر والجو ٠ وطالما قرر قادة قواتهم المسلحة مواصلة الحرب ، فان قواتنا الضاربة وضرباتنا القوية المتلاحقة سوف تسبب تدميرا شاملا للانتاج الصناعى فى اليابان ولوسائل الشحن ولكل شىء من شأنه تدعيم النشاط العسكرى ٠ وكلما طالت فترة الحرب كلما ازداد شقاء الشعب اليابانى دون جدوى ـ ولن تتوقف ضرباتنا حتى تلقى القوات العسكرية البحرية اليابانية أسلحتها وتذعن للتسليم غير المشروط ٠

ماذا يعنى التسليم غير المشروط بالنسبة للشعب اليابانى ؟

معناه نهاية الحرب ٠٠ معناه نهاية نفوذ القادة العسكريين الذين جلبوا اليابان الى حافة الكارثة ٠٠ معناه عودة الجنود والبحارة الى عائلاتهم ومزارعهم وأعمالهم ٠٠ معناه وضع حد لهذه الآلام والشقاء الذى تعانيه اليابان بأمل يائس فى احراز النصر ٠

التسليم دون قيد أو شرط لا يعنى ابادة أو استعباد الشعب اليابانى ٠

عليها لكى يثبت عدم استخدام العنف ضد أى فرد فى تلك المناطق الا اذا أدانته قانونا لجنة جرائم الحرب • ويؤكـد بصورة قاطعة الامور التى سوف نتجنبها ولكن لا يذكر أى التزامات من ناحيتنا لكى تكافح تنبؤات اليابانيين الحالية التى توحى بالاعمال الوحشية .

١٣ ـ استغلال ما قد يلحق باليابانيين من الاحـداث ويربط بها حالة اليأس الذى لحق بزعامة النازى فى ألمانيا •

والحق أن المشروع السابق ذكره يقدم لنا صورة واضحة عن الاصول التى يجب أن تراعى عند كتابة مخطوطات الاذاعات ، وكيف يجب أن تعضد السياسة والتوجيهات القائمة ، كما يجب ألا تكشف عن شىء يعرض اجراءات الامن للخطر .

كما أنه يوضح لنا أهمية التأثير الزمنى والسيكولوجى للدعاية ، وضرورة تجنب اغضاب جانب من العدو ، واستغلال الخلافات الداخلية والخارجية للتفرقة والانقسام •

كما أن خطة الحرب النفسية التى وضعها الامريكيون ضد اليابان أتت ثمارها ولعبت دورا كبيرا فى استسلام اليابان •

وعلى الرغم من أن أثر القاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكى استولى على خيال العالم أجمع وجعله يعتقد أن اليابانيين لم يلجأوا الى التسليم الا نتيجة هذه القنبلة ، فان الحقيقة غير هذا . ان القنبلة الذرية كان لها أثر مخيف وصدمة رهيبة فى أذهان البشر ، كما كان لها أثر فى وضع حد للحرب بصورة مروعة ، الا أن الحرب النفسية التى شنت ضد اليابان قبل قذفها بالقنابل كان لهـا أثر فعال فى تهيئة اليابانيين ودفعهم الى اصدار قرار الاستسلام •

على أنه يجب ألا ننسى أن الحرب النفسية تختلف اختلافا جوهريا عن الحرب الفعلية من ناحية الشكل والاهداف ، فهى ليست الا مجرد سلاح مساعد لتحقيق أهداف العمليات الحربية وقت الحرب ، وتحقيق أهداف سياسية وقت السلم ،

علاوة على أن الذين يقومون باعـدادها وتنفيذها منتشرون بين أجهزة وادارات عديدة غير مرتبطة ببعضها البعض لا فى التنظيم ولا فى المسئوليات التى تقوم بها . ولذا يكون أمام من يقومون بوضع خطة الحرب النفسية مشكلات رئيسية تواجههم عند وضع الخطة العامة ، منها :

١ ــ الاستراتيجية الكبرى للدولة والى أى مـدى تتمشى خطـة الحرب النفسية لتحقيق أهداف الخطة الكبرى ٠

٢ ــ قيود الأسلحة المختلفة التى ستعاون فى تنفيذ الخطة ، ونعنى بها فى هذا المجال المواد والاحتياجات المطلوبة ٠

٣ ــ العامل البشرى ٠

٤ ــ الدعاية المضادة ٠

٥ ــ التوجيهات المكتوبة ٠

الاستراتيجية الكبرى :

نلاحظ فى أثناء الحروب أنه بالرغم من أن العلاقات الدبلوماسية تعتبر مقطوعة بين الدول المتحاربة ، فاننا نجـد أن للسياسة نفوذا كبيرا على محتوى الحرب النفسية ٠ ففى الحقيقة تنشأ علاقات بين هذه الدول يكون لها صفة خاصة من ناحية التوتر والحساسية والعنف ، ويزداد تخطيط نشاط كل جانب فى محاولة التعرف على نقاط ضعف الآخر ٠ فمثلا استـطاعت القوات المسلحة الامريكية وكذلك حكومة الولايات المتحدة أن تعرف عن اليابان فى الحرب العالمية الثـانية أكثر مما كان يمكن معرفته بالدراسة لمدة عشرين عاما وقت السلم ٠

ومن جهة أخرى نجد أن كل دولة فى زمن الحرب تحاول أن تصل الى نوايا العدو ومعرفة ما يهتم به فعلا ، وهى فى هذا الميدان تحاول أن تستغل نوايا العدو لصالحها ، وهنا يلعب رجل الدعاية دورا كبيرا فى جعل العدو فى حالة شك دائم فيما يرسمه من سياسة ٠

على أن الاستراتيجية الصحيحة للدعاية تعتمد على الاطار العام للسياسة وعلى الظروف التى تحقق النجاح أو تعرقله · ان الغرض الأساسى للسياسة يمتد من اعادة بناء المجتمع الى موضوعات محلية عاجلة كما يتضمن الاعتماد الكامل على الاقناع والقضاء التام على الدعاية ·

فلو فرض مثلا أن هناك خطة شاملة للتغير الاجتماعى عن طريق الوسائل السلمية ، فان المشكلة الأساسية للتخطيط الاستراتيجى تكمن فى التوازن بين تحقيق نجاح سريع والاستغناء عن بعض التفاصيل ، وعلى سبيل المثال فقد ارتدى الجزويت فى الصين ملابس العلماء المحليين كوسيلة لتعديل غرابة طريقة الحياة المسيحية ·

وفى التخطيط الاستراتيجى للدعاية لابد من أن يراعى تمشيها مع السياسة القومية للدولة ، فمثلا نجد فى ألمانيا الهتلرية أن استراتيجية الحزب الاشتراكى الوطنى قبل الاستيلاء على السلطة فى ألمانيا كانت تهدف الى منع تجمع الاشتراكيين والشيوعيين والمحافظين الذين كانوا بمثابة حجر عثرة أمام الحزب ، ولكن بمجرد أن استولت الاشتراكية الوطنية على الحكم ، انتقلت المشكلة الى نطاق السياسة الدولية وأصبح هدف الاستراتيجية منع الشرق أو الغرب من اتخاذ خطوات ايجابية ، بينما قامت ألمانيا باحتلال الراين واستيعاب النمسا وتقسيم تشيكوسلوفاكيا ثم أعلنت الحرب على بولندا · وبعد فسخ ألمانيا علاقتها مع الاتحاد السوفييتى أصبح الغرض الاستراتيجى الاساسى هو الفصل بين الشرق والغرب حتى يمكن تجنب القتال فى جبهتين ·

وهنا تظهر مشكلة كبيرة ، اذ يشعر رجل الدعاية أحيانا بالامتعاض اذا ما فاتته فرصة مواتية للدعاية نتيجة القيود التى تفرضها عليه السياسة القومية لدولته ، فهو ينظر فى تلك الحالة للموضوع نظرة حرفية بحتة ، غير مقدر المسئولية الكبرى لاهداف دولته القومية · وقد يؤدى اصراره على هدفه الدعائى الأصغر الى عدم نجاح الخطة الاستراتيجية الكبرى ·

ففي الحرب العالميــة الثانية لاحظ الاذاعيون الألمان الذين كانوا يوجهون برامجهم الى أوروبا الشرقية محاولين ابراز الاشتراكية الوطنية الالمانية في صورة مضادة للرأسمالية أن الاذاعة البريطانية كانت تسرع فى نقل أغلب البيانات المضادة للرأسمالية التى كان يذيعها الالمان لتعيد اذاعتها على دول غرب أوروبا حيت كان يزعم الالمان لتلك الشعوب أنهم يعادون الشيوعية ويدافعون عن مبدأ الملكية الخاصة ٠

وفى الواقع يكون من الصعب المحافظة على التوازن بين سياسات الجبهة الداخلية والحرب النفسية فى الميدان ، فأحيانا تكون العبارات التى توجه للعدو فى جبهة القتال بنجاح عامل مضايقة للشعب فى أرض الوطن ، وفى مثل تلك الحالة لابد للعدو من استغلالها باعادة ارسالها لتوجه الى شعب الجانب الآخر هادفة من ذلك التأثير على الاوضاع الداخلية لديه ٠ وعلى العكس فقد تسبب الدعاية الداخلية أحيانا أضرارا بالغة فى مسارح القتال اذا ما تسربت معلومات عن الجبهة الداخلية تؤثر على معنويات الجنود فى الميدان ، ومثال لذلك :

« لو فرضنا أن احدى الدول التى يعانى شعبها نقصا فى الغذاء والكساء قد وعدت جنود العدو فى اذاعتها بالغذاء الجيد والثياب الملائمة ــ اذا تركوا صفوفهم وهربوا ــ واستطاع الجانب الآخر أن يلتقط هذه الاذاعة ويعيــد توجيهها الى المدنيين فى الدولة التى وجهت هذا النداء ، فان النتيجة الحتمية أن هؤلاء المدنيين سوف يتأثرون تأثيرا بالغا من حكومتهم التى تحرمهم مطالب الحيــاة الضرورية لاعطائها للعدو المعتدى » ٠

ان الحرب النفسية الصحيحة السليمة يجب أن تضع فى الاعتبار حقيقة واضحة ، هى جعل هدفها النهائى انهاء الحرب بنجاح ٠

وهناك صلة هامة بين السياسة وبين الدعاية فى وصف طبيعة العدو ٠ وفى عمليات القتال يسهل فى أغلب الاوقات معرفة من هو العدو ، فهو الرجل الذى يرتدى كسوة عسكرية تخالف الكسوة العسكرية التى يرتديها جنودنا ، وهو

الذى يعمل مع أى قوة معادية ، ولكن الامر ليس بهذه السهولة بالنسبة للحرب النفسية • فهى تحاول أن تجعل جنود العدو يعتقدون أنهم ليسوا أعداء بل العدو المقصود عناصر أخرى مثل الملك أو الحاكم أو حزب سياسى أو نظام أو مذهب معين ، ولكن من جهة أخرى لا يكون هناك جدوى لمثل تلك المحاولة بعد عملية تدمير عنيفة بالطائرات أو المدفعية •

ومن النماذج الناجحة فى دعاية الحرب العالمية الثانية تلك التى قدمها الاخصائيون السوفييت على هذا المنوال ، فقبل نهاية الحرب كان السوفييت قد استطاعوا أن يضموا الى جانبهم عددا كبيرا من الجنرالات الألمان المقتنعين بأن هتلر الذى لا يعرف أى شىء عن حرفة الحرب يدمر الجيش الالمانى العظيم فى عمليات عدوانية كحملات الهواة ، وأعطت كلمات ستالين : « فلتعش الدولة الالمانية وليعش الشعب الالمانى » ثغرات للدعاة السوفييت يخرجون منها بمزاعم بأن ألمانيا ليست هى العدو بل أن العدو هو النازيون والنازيون فقط • ويعتبر ذلك حربا نفسية ذات مستوى عال لان السوفييت أقاموا بدعايتهم فكرة أن العمال والفلاحين الالمان نظرا لولائهم لطبقتهم انما يقفون آليا الى جانب الاتحاد السوفييتى موطن العمال ، وبذلك استطاع السوفييت أن يضموا الى جانبهم عددا كبيرا من شعب العدو •

واذا ما كانت حملة الحرب النفسية تدار لغرض سياسى محـدد تصبح السياسة عاملا مساعدا أكثر من أن تكون قيدا معطّلا ، ويستطيع القائم بأعمال الحرب النفسية أن يصف النظام السياسى لبلاده فى ضوء لامع ويستطيع أن يعلق ببعض أشياء للمجاملة عن زعماء العدو أو عن الاحزاب السياسية فى بلاد العدو مما قد يحقق النجاح باجتذابهم ، ولكن يجب ألا تصل هذه المجاملة الى ما يوصف « بقبلة الموت » على مثـال ما تقوم به دعاية الدول الاستعمارية والرجعية فى الافاضة بامتداح الخونة وعملائها فى الدول المتحررة •

فاذا كانت السياسة سياسة دفاعية ليست واضحة الاتجاه وجب أن تتجنب الحرب النفسية الاخطاء اللفظية ، ففى الحرب العالمية الثانية لم يكن الامريكيون

يستطيعون أن يقولوا أنهم ضد الحكومات ذات الحزب الواحد لان حليفتهم الكبرى كانت دولة ذات حزب واحـد ، ولم يكونوا يستطيعون أن يهاجموا المشروعات المتحررة للحكومتين الالمانية أو اليابانية لانه كان بين الحلفاء دول اشتراكية ، ولم يستطع الامريكيون اثارة مسألة التفرقة العنصرية لان تكوين الولايات المتحدة يجعلها معرضة لهجوم قاسي من هذه الناحية ٠

وعموما فان التخطيط يواجه مشكلة كبيرة تكمن فى طيات الاستراتيجية القومية للدولة ، حيث تتشعب العناصر المتعددة فى جمع فروع أجهزتها ، وحيث تتشابك الأهداف السياسية والاقتصادية والعسكرية وغيرها. ولذا فان لم تتمش خطة الحرب النفسية مع أهـداف هذه الاستراتيجية ومراحلهـا نجم عن ذلك كثير من الصعاب التى قد تؤدى فى بعض الاحيان الى أزمة بين الدول لا سيما فى فترات ما قبل الاعمال العدائية ، بل قد تضع الدولة فى موقف دولى فاضح ٠ ولنضرب لذلك مثلا ما قامت به الولايات المتحدة عـام ١٩٥٥ بارســال انذار للجمهورية العربية على لسان جورج الن ـ مبعوث دالاس ـ حينما أعلن الرئيس جمال عبد الناصر فى سبتمبر عـام ١٩٥٥ كسره احتكار الغرب للسلاح ٠ وقد كان رد الرئيس على هـذا الضغط السياسى السيكولوجى من جانب الولايات المتحدة أن واجه هذا التحدى السافر باعطائها درسا قاسيا فى آداب السلوك الدولى ٠

ويمكن أن نتساءل كم كان تأثير هذا التصرف من الحكومة الامريكية الذى اتسم بالرعونة لا على الرأى العام الدولى فحسب ، بل كذلك على الرأى العام لشعب الولايات المتحدة ٠ ان هذا مثل حى لعديد من الضغوط السياسية وأعمال التآمر التى كانت تمارسها وكالة المخابرات(١) المركزية الامريكية على الشعوب المتحررة التى تنشد التقدم والتى تعمل على تحقيق رفاهية مجتمعاتها بعيدة عن أى نفوذ أجنبى ٠

---

(١) راجع كتاب الحكومة المستترة بقلم ديفيد وايز وتوماس روس ٠

ان الأزمات الدولية قد تفرض على أى دولة أن تضع تخطيطا سابقا للعمليات العدائية ولكن من الضرورى قبل الوصول الى هذه المرحلة أن يقدر الموظفون المسئولون الذين يعملون فى ميدان الحرب النفسية الى أى مدى يستطيعون تحقيق التعاون بين جميع الهيئات فى حالة حدوث طارىء حقيقى ٠

القيود المختلفة :

مما لا شك فيه أن الحرب النفسية كأى نوع من الحرب لها قيود تؤثر على التخطيط ، فهناك قيود اجراءات الأمن التى سنشرحها بالتفصيل فى فصل قادم ، كما أن هناك القيود ووسائل الاعلام التى سنبحثها الآن ٠

الواقع أن هذه القيود يجب أن تكون محل اعتبار لدى كل من يعمل فى ميدان الحرب النفسية ، فمثلا لا يجوز أن تستخدم الحرب النفسية الاذاعة فى المناطق التى لا تعرف أجهزة الراديو ، ولا يجب أن تسقط الهيئة التى تتولى الحرب النفسية الكتيبات والنشرات على الناس الذين لا يعرفون القراءة والكتابة٠ ان هاتين القاعدتين تبدوان واضحتين ولكنهما مع هذا لا تراعيان فى كثير من الاحوال ٠ ولا ينبغى أن تفترض الحرب النفسية أن الانباء الشاملة أو الحملة التى توجه للتأثير على الروح المعنوية يمكن أن تحقق النتائج المرجوة ما لم تكن المعلومات الموثوق بها هى أساس الدعاية التى تلقى قبولا ممن توجه اليهم ٠

ومن السخف أن ترسل الاذاعات للجماهير عندما يكون معروفا أن الجماهير ليس لديها أجهزة استماع ، ولقد حدث هذا فى الاذاعات التى وجهتها هيئة الاستعلامات الأمريكية الى اليابان فى الجزء الاول من الحرب على الموجة القصيرة برغم التقارير التى تقول ان أجهزة الاستقبال على الموجة القصيرة غير معروفة خارج الدوائر الحكومية اليابانية أو خارج دوائر الأثرياء أصحاب الأعمال . وكان المعروف أن الحكومة اليابانية نفسها كانت تتسمع وأن محتويات الاذاعات الأمريكية كان يعاد ارسالها بواسطة محطات الاذاعة للجيش اليابانى ٠

ولقد اقترح فى صيف سنة ١٩٤٢ أن تذيع محطة اذاعة سان فرانسيسكو دعوة من « محبى الفنون الامريكية » تطلب من اليابانيين أن ينقلوا من مدنهم

الكبيرة كتبهم وآثارهم الفنية التى لا يمكن أن تقدر بمال قبل أن تقوم الطائرات الامريكية باغاراتها الفتاكة ، واذاعت محطة سان فرانسيسكو الرسالة ولكن لم يسمع اليابانيون شيئا عن ذلك من مصادر يابانية • وبعد أربعة أيام أذاع راديو لوكسمبرج الخاضع للألمان رسالة لليابانيين تخبرهم أن وزارة الجو الامريكية التى تجمع الوحوش الضارية اعتزمت تدمير الآثار الثقافية ، وقد أضاف المعلق الالمانى أن هذا ليدل على أعمال الامريكيين غير المتحضرين • وقد التقطت محطة نيويورك هذه الاذاعة الالمانية • واستمتع الكاتب الامريكى بانتشار رسالته التى دارت حول العالم ، هذه المتعة الشخصية سببت من الناحية الواقعية ضررا بالغا لأنها أعطت النازيين موضوعا آخر يستغلونه فى الدعاية المضادة •

على أن قيود الاعلام يمكن التغلب عليها باستخدام الوسيلة الصحيحة فى الوقت الصحيح المناسب ، فالاذاعة يمكن استخدامها حينما يتيسر للمستمعين اجهزة الاستقبال ، كما أن المواد المكتوبة (١) تلقى فى المناطق التى يتوافر فيها بعض الناس الذين يعرفون القراءة على الاقل •

ومن الضرورى عند بحث استخدام الاذاعة حصر العدو الذى يحتمل أن ينصت لها على أن يراعى مدى اهتمامه بالرقابة على الاستماع للاذاعة ، ومعرفة عادات الاهلين ، والتوتر الذى يكون قائما بين جنود العدو أو بين المدنيين ، وكذلك بحث العوامل الأخرى التى يمكن أن تؤثر فى الموقف •

وفى بعض الاحوال تجتاز الوسيلة المستخدمة كل العوائق المتوقعة ، فلقد أسقط الأمريكيون والانجليز النشرات على برلين ، وكانت تعلو أركان النشرات رموز وأرقام لتوضح السلسلة التى تتبعها كل نشرة ، وبذلك يمكن أن ترتب كل

---

(١) أعدت ادارة استعلامات الحرب فى الصين بناء على طلب مركز رياسة القول الأمامى للحلفاء نشرات تحتوى على صور ، لسكان الجبال الذين يعيشون بين الصين والتبت لتخبرهم بانقاذ الطيارين الامريكيين الذين تسقط طائراتهم ، فلم تكن من فائدة للتحدث فى الاذاعة لهؤلاء الناس بل كانت الاذاعة بمثابة البصق فى المحيط الواسع كما انه لم يكن فيهم من يستطيع القراءة فكانت الصورة هى الوسيلة الوحيدة للارشاد •

سلسلة لتكمل بعضها البعض٠وعلى الرغم من أن الالمان منعوا المدنيين من التقاط هذه النشرات وبعثوا بالجنود من الشباب الهتلرى لجمعها من الطرقات وحرقها ، فان الصبيان والفتيات قاموا بدورهم بلذة وسرور فى جمعها ٠ لقد أحرق الألمان الكثير من هذه النشرات ، ولكن جاء اكتشاف النازيين لهذه النشرات متأخرا جدا ٠ ان أطفال المدارس كان لديهم الشغف بجمع هذه النشرات مستخدمين الرموز والارقام لاعداد سلاسل كاملة منها ٠ وكان بعضها اندر من البعض الآخر ، ولهذا كان الأطفال يبحثون جادين عنها ويتبادلونها كما يحدث بين هواة جمع الطوابع وذلك لاعداد البومات طريفة ٠ ان مالم يجسر الآباء والامهات على جمعه من الطرقات كانوا يجدونه كاملا عند أطفالهم الصغار ، وبالطبع فان الذين وضعوا تخطيط هذه الحملة لم يفكروا بحال ما فى مثل تلك النتيجة ٠

العامل البشرى :

يلعب العامل البشرى دورا كبيرا فى التخطيط للحرب النفسية ، فالحرب النفسية تتطلب أشخاصا فى مستوى الاحتراف ، ففيهم العامل «Operator» الذى يقوم بنقل مواد الدعاية سواء تم هذا بالمواصلات اللاسلكية أو آلات الطباعة وغيرها ٠ هذا العامل غالبا لا يكون على مستوى عال من الامن ، وعلى الرغم من ذلك فهو يقوم بدور لا غنى عنه لاتمام أعلى استراتيجية فى الدولة ٠

وهناك الكاتب الذى يقوم باعداد المواد ، وعلى الرغم من أنه قد يكون مأجورا فمن الناحية النفسية لا تستطيع أن تحركه يمنة ويسرة كما تحرك صنبور الغاز ، اذ أنه مهما كان هذا الكاتب على أدنى مستوى فى حرفته ، فهو غالبا لا يستسيغ ان يتدخل فى تفكيره وآرائه الا بالدرجة التى قد تخدم قضية ما ٠ ان الكاتب فى مثل تلك الحالة لا يحتاج الى أكثر من ارشاد وتوجيه ٠ أما اذا قام المسئولون عن اعداد الحرب النفسية بالتدخل تفصيليا فى المواد التى يكتبها ، فان النتيجة التى لا مفر منها هو الخروج بمادة هزيلة ضعيفة لا حيوية فيها ، وبذا تفقد قيمتها التأثيرية على الذين ستوجه لهم ٠

وغالبا ما يحتاج الاعداد للحرب النفسية الى كثير من الفنانين والرسامين المهرة الذين قد يكون بعضهم موضع شبهة فى اتصالهم بالعدو ، أو قد يكونون من الاجانب المستوطنين الـذين يصلحون فى مثل تلك الحالة للعمل « كعميل مزدوج » Double Agent وهنا يجب ألا نغفل قيمة المعلومات السرية التى قد تتداول بين أيديهم (١) •

وعلى العموم فان أى عملية من عمليات الحرب النفسية يواجهها عائق فعال يفرضه عدم توافر الرجال ذوى الكفاية الخاصة فى هذا الميدان فالقائد العسكرى الذى يفترض أنه يحصل على معاونة جوية لمجرد رؤيته لبعض طائرات فى الجـو لهو قائد متسرع ، والميكرفون وحده لا يستطيع أن يحقق الاذاعة الناجحة •

ان الافراد الذين يستخدمون صوتهم فى عملهم يجب أن يجيدوا الحديث ، فان مجرد معرفة اللغة لا يكفى ، والذين يعملون بالكتابة يجب أن يكونوا فى مستوى الكتاب المحترفين •

على أنه من جهة أخرى يجب ألا يدفع الافراد المتوفرون عند القيام بواجبهم الى التغالى فى الاحتراف ، فكثيرا ما فشلت الدعاية لأن الذين كانوا يقومون بالعمل حاولوا القيام به على درجة عالية من الاحتراف (٢) •

وطالما سمح الموقف السـياسى العسـكرى فان الاجراء المعقول المنطقى أن يفحص انتاج الدعاية مع أشخاص من أسرى العدو العسكريين أو المدنيين ، ومن الممكن للمستجوب الحصيف النابه أن يدرك ما اذا كانت تعليقات هؤلاء الأسرى أمينة أو أنهم يقصدون الخديعة والتضليل •

---

(١) العميل المزدوج اصطلاح يطلق فى أعمال التجسس على العميل الذى يعمل لحساب منظمتين مختلفتين من منظمات المخابرات ، وغالبا ما يكون نشاطه معروفا لدى الطرفين •

(٢) عندما أراد المتحدثون اليابانيون أن يزعموا أنهم أمريكيون واستخدموا اللهجة العامية المهجورة التى كانت مستخدمة سنة ١٩٢٠ أثاروا من الاستخفاف والازدراء اكثر مما كان ممكنا أن يثيروه لو أنهم اسـتخدموا اللغـة الانجليزية الميسرة المسـتخدمة فى الكتب المدرسية •

وفى الحرب العالمية الثانية مكنت الاجراءات الجيدة للحرب النفسية فى كثير من الحالات من تحويل الاحتمالات الى مدخرات للاستغلال ، فكثيرا ما اضطرت جماعات الدعاية ـ لعدم وجود « أوركسترا عازفة » لديها ـ الى تسجيل برامج الموسيقى من محطات العدو ثم اعادتها مع تعليقات جديدة مذاعة بواسطة مذيعين من رجالها •

وقد يكون من العبث أن تحاول انشاء وفاق ومودة مع العدو مالم تكن تتكلم لغته باتقان ويسر ، والا فمن الأفضل أن نعترف بأنك أجنبى تحاول أن تحدثه بلغته • أن نفسية المستمع يروق لها صورة عدوه الاجنبى أكثر من هذا الشخص الذى تحاول أن تجعله يثق به ، وهو من وجهة نظره خائن لوطنه •

ان محاولة تكلم لغة العدو غالبا ما تكون أقل نجاحا من الاعتراض صراحة بالعائق الذى تواجهه ، وهذا يعنى فى الممارسة العملية حالتين :

أن يجيد المتحدث النطق بلغة العدو اجادة تامة ، أو لا يبذل أى جهد لاخفاء لهجته الأجنبية •

وعلى سبيل المثال وجد أن المستمعين الالمان يفضلون فى الاذاعات البريطانية الموجهة لألمانيا أن تكون فى أحاديث المذيعين نبرة انجليزية عند نطقهم الكلمات الألمانية ، وكان المستمعون النازيون نتيجة عدائهم للسامية لم يكونوا ينصتون للمتحدثين الذين تبدو فى لغتهم الألمانية لكنة يهودية مهما كانت فى اذاعاتهم من طرافة أو فى جدلهم ومناقشاتهم للموقف من أدلة واعية منطقية • ومن جهة أخرى كان المستمعون الألمان مستعدين للانصات الى انجليزى أصيل بل كانوا سيشعرون بخيبة أمل لو أن المتحدثين خاطبوهم بلغة ألمانية محكمة •

ويذكرنا هذا بأن البروتستانت الصينيين الذين يتبعون الكنيسة الصينية كانوا يفضلون سماع الوعظ من رجال الدين الامريكيين الذين ينطقون الكلمات الصينية بلهجة أمريكية ، حتى صارت هذه اللهجة الامريكية فى تقديرهم جزءا من

الدين • وكان من المدهش أن نجد الكنيسة مليئة بصينيين ينشدون الصلوات باللغة الصينية فى لهجة أمريكية تجعل بعض الكلمات خطأ فى معناها ، ولكنهم مع هذا يكررونها كما هى مثل ما يفعل الصينيون البوذيون عندما يتلون صلواتهم بلغة هندية لا يفهمون منها حرفا واحدا •

ومن جهة أخرى فان المتحدث الذى يجيد لغة العدو اجادة تامة يثير دائما السؤال التقليدى : « ماذا يفعل هذا الرجل هناك ؟ » والمواطن الخائن لا يستميل مستمعيه كما يستميلهم الاجنبى العادى الذى يخاطبهم بلغتهم بقدر ما يعرفها ، والمواطن الخائن يحتاج ناحية عاطفية قوية حتى يستطيع متابعة محاولاته ، فلقد كان لورد هاو هاو من هذا الطراز ، ولكن كانت له لهجة مسرحية أصيلة جعلت مستمعيه يقولون أنه يقف فى الجانب الخاطىء ولكنه يفعل هذا عن عقيدة على الاقل •

والمتحدث الذى يجيد اللغة سواء كان عدوا مرتدا أو صديقا من الثقات فى اللغة يواجه دورا صعبا فى بداية الحرب عندما تكون معنويات العدو لا تزال عالية وسكان بلاده لم يفكروا بعد فى أن يغيروا من موقفهم أو من الجانب الذى يعضدونه • ولكن عندما تقترب الحرب من نهايتها ويهبط المستوى المعنوى فان الفرصة تكون مواتية لاستغلال هذا الموقف •

ان رجل الحرب النفسية الذكى النابه يجب أن يحاول أن ينظر الى رجاله كما يراهم العدو ، ويجب أن يضع نصب عينيه دائما العوامل المعطلة التى يتعرضون لها ، فهم ان تحدثوا لغة جيدة أمكن النظر اليهم على أنهم خونة وهم اذا تحدثوا بصورة سيئة يصبحون محل سخرية المستمع •

ومن ثم نجد أن اختيار الأفراد الذين يعملون فى فروع الحرب النفسية من أكبر المشكلات التى تواجه التخطيط ، ولقد سبق أن شرحنا فى الباب السابق المؤهلات التى يجب أن تتوافر فى رجال الحرب النفسية •

وعموما فان التخطيط الجيد يجب أن يجىء على أساس تقدير الافراد المتوافرين واعتبارهم عاملا فعالا فى تقدير الموقف • ولذا فان العنصر البشرى

يجب أن ينظر اليه فى خطة الحرب النفسية من أعلى القمة حتى القاعدة ، كما أن التنسيق بين الذين يشتركون فى هذه الحرب يجب أن يبنى على أساس أن يتفهم الجميع أن الهدف البعيد هو تحقيق أهداف الخطة القومية للدولة ٠

الدعاية المضادة :

تعتبر الدعاية أحد العوامل المعطلة فى الحرب النفسية وتحد من آثارها ، لان قوة العدو المحاربة لا تتقابل معها بدنيا كما يحدث فى الحرب الفعلية ٠

ومع ذلك فان هذه هى النقطة التى تختلف بها الحرب النفسية عن أى حرب أخرى ، ويجب عدم الاكتراث بدعاية العدو الا عندما تعتبر مدخرا للاستثمار أو عندما يطلق أكذوبة ضخمة أو يقص قصة مخادعة مضلله يمكن بالقليل من التنقيح استخدامها فى الدعاية المضادة ٠

ولكن أغلب الموضوعات والابحاث الخاصة بالعدو تعتبر ضعيفة التأثير وخاصة تلك التى تمس الحرب الايديولوجية ٠ وقد قام النازيون والسوفييت بدعاية جيدة ضد بعضهم البعض عندما نزلوا الى مستوى مناقشة مطالب الحياة ولم يوفقوا فى دعايتهم عندما كانوا يحاولون نسج خيوط نظريات تدور حول طريقة تفكير كل منهما ٠

ان التفنيد أو الدحض عملية ممتعة حقا ، وقد يكون من الطريف اجادة المناقشة والجدل للرد على خصمك وتفنيد مزاعمه ورد ما يقول ، ولكن أفضل دعاية هى التى تبنى على أساس استخدام أخطاء العدو واستغلالها فى الدعاية المضادة وذلك باقامة مخطط دعائى لا صلة بينه وبين ما يكون العدو قد حققه من دعايته ٠

ولكن هذا لا يعنى اغفال قيمة « تحليل الدعاية » ، فمن الضرورى أن يكون ضمن تشكيل وحدة الحرب النفسية جماعة مخابرات لخدمة العملية ٠

فاذا ما قال العدو مثلا أن الحلوى التى ألقاها طياروك على مدنه كانت مسمومة وأنه قد أثبت هذا باسقاط بعض هذه الحلوى ــ بعد أن يكون رجاله قد سمموها فعلا ــ فلا محل لأن ترميه بالكذب ذلك لأنك لن تعرف لبعض الوقت ما اذا كانت حلوى مسمومة قد أسقطت أم لا ٠

واذا كان قائد العدو قد عرض على جنوده بعض صور لأسرى قد أسرهم الجانب الذى تعمل فيه أنت، وان هؤلاء الأسرى قد ذبحوا بواسطة رجالك، فليس من المنطق أن تطلب من أفراد العدو الاستسلام قبل أن تلقى عليهم صورا لأسرى منهم يحصلون على رعاية كريمة ٠

ان الدعاية الجيدة لا تحس بقلق من الدعاية المضادة ، انها لا تفترض قط أن رجل الدعاية للعدو رجل شريف « جنتلمان » انه بالوصف الصحيح كاذب ، وانك أنت ومستمعوك الشرفاء الوحيدون على الارض ٠

التوجيهات المكتوبة Written Directive :

ليس هناك مشكلة تواجه كبار واضعى السياسة فى ادارة الحرب النفسية أشد اثارة وصعوبة من مشكلة التنسيق الناجح بين المجهود الدعائى لهذه الادارة ومجهودات الهيئات الاخرى بما فى ذلك كل الاجهزة التى تعمل فى تنفيذ المخططات السياسية والاقتصادية والعسكرية فى الدولة ٠

ولما كان تنسيق الانتاج الدعائى وملاءمته للتغييرات فى السياسة ومع تطورات المواقف والظروف التى تجد فى العلاقات الدولية أمرا لا غنى عنه ، كان على ضباط تخطيط الحرب النفسية أن يسعوا دائما فى منظماتهم الخاصة الى ايجاد الوسائل التى تمكنهم من تحقيق التنسيق الافضل للجهد الدعائى ، وهنا تكمن الأهمية الخاصة للتوجيهات المكتوبة لادارة أعمال الحرب النفسية ٠

وقد ينظر الى التوجيه الدعائى Propaganda Directive على أنه بيان خاص عن السياسة يهدف الى الارشاد عن مجموعة كبيرة من الخطوات الواجب

اتخاذها فى حملات الحرب النفسية • وقد يبدو الهدف الرئيسى للتوجيه المكتوب كأنه وسيلة للالتزام بالخط الدعائى العام الذى يعبر عن السياسة الرسمية تعبيرا صادقا وأمينا ، الا أن ذلك لا يشكل أكثر من نصف المهمة ، اذ لابد أن يحاول التوجيه أن يشجع القائمين بالتنفيذ من استغلال المصادر والامكانيات المتاحة لهم استغلالا كافيا ، بحيث تتفق مع توجيهات السياسة •

ان التنويع والتلوين فى التعبير أمر مطلوب لتجنب وطأة الملل والتكرار فى الانتاج الدعائى ، كما يجب أن يهدف التوجيه الدعائى الى تشجيع مرونة التعبير مع الالتزام بالخط الدعائى •

ولقد دفع الاعتقاد القائل بأن الحرب النفسية تتطلب تنسيقا دقيقا بالكثيرين الى استنباط خاطىء ، وهو أن التنسيق يستلزم تركيزا تاما فى اعداد التوجيهات المكتوبة ، ولكن اذا رجعنا الى الوراء نجد أنه فى الحرب العالمية الثانية نتج كثير من المشكلات فى حرب الدعاية للحلفاء نتيجه التنظيم المعقد المبنى على المركزية ، وكذا للفهم غير الواضح للسلطة من جانب الذين كانوا يتولون اعداد التوجيهات المكتوبة ، مما حدا بالكثيرين الى توجيه النقد عن ضعف مستوى دعاية الحلفاء اذا ما قورنت بالدعاية الالمانية •

الا أنه من هـــذا الضعف ، ظهرت قوة خاصـــة تنـــاسبت مع كثير من الدول الديموقراطية التى خاضت الحرب ، فدعاية الحلفاء لم تهبط مطلقا الى مستوى الملل أو التكرار الذى كان يميز جزءا كبيرا من انتاج ألمانيا الدعائى ، والذى كان يفقد حيويته وقوته نتيجة التكرار الممل وعدم التنويع •

وعلى النقيض فان التلوين الذى ظهر فى الانتاج الدعائى للحلفاء ، وزيادة التنويع المتبـــاين الذى اتسمت به المصـــادر الخاصة ، أدى الى اهتمام الجماهير والمستمعين • وبعبارة مبسطة فان التنويع كان أكثر فاعلية وتأثيرا من التماثل والتطابق ولا سيما للجماهير التى تعرضت طويلا للدعاية الدكتاتورية •

على أنه اذا كان التوجيه الدعائى ذا سمة عامة ، فانه قد يفقد قيمته ، واذا كان مليئا بالتفاصيل فقد يتحطم على صخرة الأحداث قبل أن يتم توزيعه •

وقصارى القول ، فان ادارة حرب نفسية على مستوى دولى ـ ولا سيما خلال فترات التغييرات السريعة ـ تستلزم شيئا أكثر من التوجيهات المكتوبة •

وهنا قد يكون من المناسب أن نشير الى ملاحظة هامة ، أبداها ريتشارد هـ• س• كروسمان ، وهو من كبار مستشارى الدعاية البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية ، اذ يرى أن خطب روزفلت وتشرشل كانت أفضل توجيهات تلقاها المنفذون خلال الحرب العالمية الثانية •

لم تكن هذه الخطب بالبيانات الرسمية التى تتحدث تفصيليا عن الخطوة التالية فى الحرب النفسية ، بل كانت فى جوهرها تعمل على تعبئة رجال الدعاية ، وبذل الجهود الملائمة للسياسات الأساسية للحلفاء •

يقول كروسمان : « ان خطب روزفلت وتشرشل على أهميتها ، كان من الممكن أن تنسى لو لم تتكرر موضوعاتها الأساسية وعباراتها الرئيسية فى كل وسيلة من وسائل الدعاية • ان الارشاد والتوجيه الذى أتاحه روزفلت وتشرشل لكبار رجال الدعاية من خلال الخطب الرسمية والاتصال الشخصى كان يتكرر بطبيعة الحال فى صور مختلفة من جانب الزعماء الأقل مرتبة الى الجيش الكبير من العاملين فى جهاز الحرب النفسية للحلفاء » •

كما أن الاتصال الشخصى والمؤتمرات والاتصالات المتبادلة الحرة بين المخطط والمنفذ كل ذلك ساعد على ضمان التزام الهيئات المختلفة للخط الدعائى وتمشيه مع توجيهات السياسة ، وفى نفس الوقت احتفظ بالقوة الحيوية اللازمة التى جعلته ذا تأثير كبير وفعالية قوية •

ولقد ظهر خلال الحرب العالمية الثانية تقييم جديد لهذه المشكلة نتيجة لأن للتوجيهات المكتوبة تحديدات معينة ، كما أنها تتطلب السرعة فى اصدارها وتغييرها تبعا للمواقف المختلفة •

ظهر هذا التقييم بشكل واضح بين من كانوا يقومون بأعمال التنفيذ • اذ يرون أن الوظيفة الاساسية التى يحققها التوجيه المكتوب ، هى اتاحة الفرصة أمام المنفذين لحمايتهم من التدخل الذى لا داعى له من واضعى السياسة •

ولقد ذكر كروسمان رأى هذه المجموعة على النحو التالى :

« كلما ارتفع مستوى المسئول كان أكثر رغبة فى الحصول على التوجيه ، وأقل نظرة فى تفحص الانتاج أو المضمون الدعائى الحقيقى » •

ولكن يظهر بين الفينة والأخرى ما يناقض ذلك ، فالمسئول الكبير غالبا ما يطلب رؤية النص الكامل للمنشور أو الحديث الاذاعى المعادى بلغته الاصلية •

وحينئذ يصبح التوجيه لا قيمة له بالنسبة للمنفذ ، فاذا كان التوجيه قد صيغ صياغة بارعة ، فانه يوجد مبررا وسندا لمن يمارس العمل بأن يمنع تدخل واضعى السياسة ــ الذى يعتبر حرصهم وحذرهم المتناهى فى بعض الاحيان ، وتظاهرهم الشديد بالقوة فى أحيان أخرى ــ خطرا لا يمكن تجنبه على سلسلة العمل الجدى المستمر •

ثم ان التوجيه على ضوء هذه النظرة لا يحمى المنفذين فحسب حين تظهر احدى المشكلات ، بل ان هذا التوجيه يعمل أيضا كوسيلة نافعة أو أداة مفيدة لتهدئة الضغوط الخارجية غير ذات الموضوع التى يتعرض لها كل من منفذ الحرب النفسية وواضع سياسة الدعاية أو المخطط الدعائى •

وتحت وطأة الضغط الخارجي، فمن المحتمل أن يتذبذب الفرد بين نقيضين : أولهما الحذر والحرص ، وثانيهما الأفكار والآراء المتطرفة التى تتحدى كل خيال واسع وخصب ، وكلا النقيضين يعرقل دائما العمليات المؤثرة الفعالة •

ان التوجيهات المعدة اعدادا كافيا تعمل على التقليل من شدة هذه الاضطرابات أو ألوان الاختلال •

وعلى الرغم من هذه الملاحظات والمواقف تجاه « التوجيهات » فهى تظل دائما وبصورة واضحة الوسائل الاساسية فى ادارة حملات الحرب النفسية وتوجيه دفتها • الا أن التقدير الواقعى لفائدة هذه التوجيهات يحول بيننا وبين التعويل التام عليها لاداء المهام التى لا يحتمل أن تنهض بها أو تنجزها •



أهداف العمليات

قد يكون من السهل فى المعارك الحربية قتل جنود العدو وتدمير ممتلكاته وهذا الأسلوب من العمل العسكرى تتضح مظاهره وآثاره أمام الأعين ، ولكن الهزيمة الحقيقية تكمن فى عملية غزو العقل ٠

وقد يفكر بعض العسكريين فى الحرب على أساس العمل العسكرى فعلا ، جنود يتقدمون أو يتقهقرون ، اغارات بالقنابل على أرض العدو ، معارك بحرية وجويه ٠٠ الخ ، الا أن نجاح أغلب العمليات العسكرية يتوقف تماما على عوامل سيكولوجية ، ويتحقق النصر النهائى باستسلام جنود العدو ، ويخضع المواطنون فى النهاية لرغبات العدو الذى يقوم بالغزو ٠

لقد صد الجنود السوفييت فى الحرب العالمية الثانية فى معركة ستالينجراد هجمات الألمان العنيفة وقاوموا الحصار لمدة ثلاثة شهور متوالية ولم يستسلموا قط ، مع أن الجيش الألمانى تغلب بمجهود أقل على مدن فى قوة دفاعات ستالينجراد ، ولكن فى ستالينجراد فشلت كل نيران المدفعية والقاذفات المنقضة لأنها لم تستطع أن تحطم روح الاقتتال لدى المدافعين ٠

والواقع أن كلا من الجندى والمدنى هدف للحرب النفسية ، كما أن العمل السيكولوجى هو الذى مكن فى النهاية من حرمان العدو من ارادته فى المقاومة ، وهو الذى يفسد الجندى كفرد ويجعله آلة قتال غير صالحة لأنه ينتزع منه الشىء

الوحيد الذى يجعل الجندى يقاتل بروح وهو الأمل فى النجاح ، فالجندى المقاتل يكون أشبه بالدبابة التى لا يعلوها مدفع اذا فقد الأمل ٠

واذا نظرنا الى الأمر نظرة فاحصة نجد أن كل الحروب عسكرية كانت أو اقتصادية أو سياسية انما هى حرب نفسية ، لأنها تهدف الى تغيير العقل وتقبل رغبات العدو ٠

ولكى نستطيع أن نتفهم العمليات السيكولوجية فى الحرب النفسية ، لابد لنا أن نتعرف على أهدافها التى تحاول أن تحققها ٠

ويمكن تصنيف الأهداف التنفيذية التى تستخدم من أجلها الحرب النفسية بطرق عديدة ، وسنحاول فى هذا الفصل أن نعالج هذا الموضوع تحت رءوس موضوعات ثلاثة :

١ ـ الأهداف التى يمكن اعتبارها أهدافا سياسية بحتة ٠

٢ ـ الأهداف التى يتعذر وضع خط واضح لتحديد ما اذا كانت سياسية أو عسكرية ٠

٣ ـ الأهداف العسكرية البحتة ٠

الأهداف السياسية :

مما لا شك فيه أن الحرب النفسية ترتبط ارتباطا وثيقا بالاهداف السياسية للدولة ، ونستطيع أن نؤكد أن أغلب العمليات النفسية التى تقوم بها دولة ضد دولة أخرى تهدف الى تحقيق أهداف سياسية ٠

ولما كانت الأهداف السياسية تختلف فى طبيعتها من ناحية عامل الزمن ، فهناك سياسة بعيدة المدى وأخرى قصيرة الأجل أو متوسطة وهذا له اعتبار كبير وارتباط بالعمليات النفسية التى تشن لتحقيق هذه الأهداف ٠

ولكى نستطيع أن نتفهم ذلك ، يجب أن نعالج هذا الموضوع بدراستين تبين أولاهما الاستخدام الفعال للحرب النفسية لتعزيز الأهداف السياسية قصيرة الأجل وتصور أخراهما استخدام أساليب الحرب النفسية من أجل هدف محدد بعيد المدى ·

هدف سياسي محدود قصير الأجل :

لعبت جهود الدعاية الامريكية في الانتخابات الإيطالية عام ١٩٤٨ دورا كبيرا فى ابعاد الشيوعيين عن الحكم · ففى ذلك الوقت كان الحزب الشيوعى الايطالى من أقوى الأحزاب العاملة فى الدول الغربية · وبد أن الشيوعيين يسعون لكسب السيطرة على الحكومة بالحصول على أغلبية الأصوات فى الانتخابات ·

وكان كثير من المراقبين الغربيين يخشون أن يتمكن الشيوعيين من الحصول على أغلبية أو ما يقرب من الأغلبية من مجموع الأصوات ، أى نسبة لم يسمع عنها فى الدول التى تأخذ بنظام تعدد الأحزاب · لأن هذا يكفل لهم تمثيلا فى الوزارة ، ثم يمهد الطريق أمامهم للسيطرة على زمام الحكم ·

وأصبحت ايطاليا ميدان المعركة الأساسى فى الحرب الباردة ومسرحا لصراع ايديولوجى كبير ، فقامت الولايات المتحدة من جانبها بتنظيم حملة دعائية شاملة لتعزيز أهدافها السياسية فى ايطاليا ·

وكان أول ما قامت به الولايات المتحدة لمواجهة التهديد الشيوعى أن طبقت مشروع مارشال للمعونة الذى كان قد بدأ لتوه فى الوصول الى ايطاليا بكميات كبيرة · وكان هدف الولايات المتحدة من وراء ذلك مساندة مرشحى الحزب الديمقراطى المسيحى فى الانتخابات ، بزعامة دى جاسبيرى De Gasperi ·

كما بذل « جيمس س· دن James C. Dunn » السفير الأمريكى كل قدراته فى الاقناع للتأثير فى الناخبين الايطاليين لنبذ الشعارات والمؤثرات

الشيوعية ، اذ ألقى ما يقرب من أربعين خطابا بعد وصوله الى ايطاليا • وأهم هذه الخطب ما ألقاه لدى وصول سفن الفوث ، ولقد وصلت السفينة الستمائة قبل الانتخابات مباشرة •

وتضمنت هذه الخطب الجهود التى تبذلهـا الولايات المتحـدة لمسـاعدة ايطاليا ، والتضحية التى يتحملها الشعب الامريكى • كما أن بعض الخطب كانت تتضمن تحـذيرات غير مبـاشرة ، بأن المعونة الامريكية ستتوقف اذا انحـازت ايطاليا للشيوعية •

أما الخطب التى ألقاها السـفير الأمريكى « دن Dunn » بعد ذلك ، فكان من بينها خطاب ألقاه حين كان يقدم هدية أمريكية من أدوية « الستربتومايسين » الى أحد مستشفيات الأطفال فى ايطاليا • ووعد بتقديم المزيد فى المسـتقبل • وقبل الانتخابات بيومين اعلن فى خطاب عام أنه بصدد ارسال تقرير طيب عن الموقف السياسى فى ايطاليا الى حكومة الولايات المتحدة • كمـا أن الامريكيين المعروفين فى ايطاليـا كانوا يوجهون نداءات مبـاشرة الى الشعب الايطالى من الولايات المتحدة •

لقد كان السناتور « ليهمان Lehman » ، عن مدينة نيويورك وكذلك وزير الخارجية السابق « ستيمسون Stimson والقاضى روبرتس Roberts من المحكمة العليـا ، ومسز فرانكلين د• روزفلت ، جميعـا يرسلون برقيـات يعبرون فيها عن تأييدهم لرئيس الوزراء دى جاسبيرى• كما أن فنسانت أمبيلترى Vincent Impelliteri رئيس مجلس مدينـة نيـويورك ، كان يوجـه اذاعـة الى ايطاليا على موجة قصيرة ، وكذلك كان يفعل وليم دواير William O. Dwyer الذى كان يشـغل منصب العمـدة ، وآرثر بليس لين Arthur Bliss Lane السفير السابق فى بولندا ، وتوم كلارك Tom Clark النائب العام ووليام جرين William Green رئيس اتحاد العمل الامريكى •

كما أن المجلس الايطالى الأمريكى للعمل بعث بمعونة مالية الى أحد الزعماء السياسيين المناهضين للشيوعية • وكانت الصلوات فى كنيسة نيويورك تذاع

على موجة قصيرة الى ايطاليا ، وفى هذه الصلوات ، كانت تقدم الابتهالات والدعوات من أجل تحقيق نصر للغرب فى الانتخابات الايطالية .

أما فى ايطاليا نفسها ، فقد كان المسئولون الامريكيون يقومون بتوزيع نشرات على نطاق واسع تحدد الخطوط العريضة لمشروع مارشال . وكانت تعد معروضات خاصة تتألف من صور فوتوغرافية معروضة عرضا جذابا وبيانات احصائية ، وما شابه ذلك لعرضها على الفئات ذات الدخل المنخفض . كما أن أفراد مكتب الاستعلامات الأمريكى فى روما وغيرها من المدن الكبرى كانوا ينظمون ويعرضون معروضات تسمى « العامل فى أمريكا » ، وكان الهدف من هذه المعروضات أن توضح كيف تعيش عائلات الطبقة العاملة فى الولايات المتحدة .

واستخدمت الأفلام السينمائية فى ايطاليا باسلوب كان له أثر كبير على جهود الدعاية الامريكية ولقد أعرب احد المراقبين عن رأيه فى أن الافلام الأمريكية كانت من أشد الوسائل تأثيرا وفاعلية بين الوسائل المستخدمة فى الحملة الدعائية التى سبقت الانتخابات فى ايطاليا . ومن بين الأفلام التى وزعت فى ايطاليا خلال هذه الفترة ، كان فيلم « نينوتشكا Ninotchka » الذى أنتجته شركة مترو جولدوين ماير عام ١٩٣٩ وانفرد بتأثير خاص من بين كل الأفلام .

ان هذا الفيلم الذى كان يسخر من الحياة فى روسيا بأسلوب تهكمى ، نزع الى أن يترك المشاهدين باحساس مؤداه أنه اذا كانت هذه هى روسيا ، فهو يرجو الخلاص من مثل هذا المجتمع .

وبالاضافة لذلك فان « صوت أمريكا » كان يذيع عددا من البرامج من نيويورك يستهدف اقناع الناخبين الايطاليين بأن الشعب الامريكى يهتم اهتماما كبيرا بنتيجة الانتخابات ، وأنه يتعاطف مع مشكلاتهم وآمالهم .

ولقد كان المجهود الدعائى الامريكى مقترنا باجراءات معينة فى ميدان السياسة الدولية ، ولقد أدت هذه الاجراءات الى كسب عديد من الأصوات فى

الجانب المناهض للشيوعية • ومن بين هذه الاجراءات نذكر الخطوة الثلاثية لاعادة اقليم تريستا لايطاليا ، والمناقشة التي دارت في الامم المتحدة بطلب ايطاليا الانضمام لعضويتها • ولقد ساعد هذان الاجراءان على وضع الاتحاد السوفييتي في موقف حرج • ومن الاجراءات الهامة بنفس القدر ، الاعلان الذي أذيع في الثاني من أبريل عام ١٩٤٨ بأن الولايات المتحدة دفعت ٤٫٣٠٠٫٠٠٠ دولار لاسرى الحرب الايطاليين الذين عملوا في أثناء الأسر في الولايات المتحدة •

ومن أطرف أساليب الدعاية التي استخدمت للتأثير في الانتخابات الايطالية ، حملة كتابة الخطابات التي نظمت بين الامريكيين من أصل ايطالي المقيمين في الولايات المتحدة • كانت الخطة ترمي الى تشجيع تدفق الخطابات الشخصية من الامريكيين ذوي الاصل الايطالي في الولايات المتحدة لحث أصدقائهم وأقاربهم في ايطاليا على رفض الشيوعية في الانتخابات •

ولقد كان جنيروسو بوب Generoso Pope رئيس تحرير احدى الصحف الايطالية القوية في نيويورك ، أول من حث الأمريكيين الايطاليين على الكتابة الى أصدقائهم وأقاربهم في ايطاليا • ولقد شرح مستر بوب هذه الحملة على النحو التالي : « لقد بدأت الحملة ، وأنا أدرك أن شعب ايطاليا سوف يصدق الحقيقة عندما يقولها له أخ أو صديق أو قريب تربطه به وشائج الدم » •

وانضم آخرون الى جنيروسو بوب ، في طبع خطابات نموذجية لارسالها للخارج من الايطاليين في الولايات المتحدة الى مواطنيهم السابقين • وقد وصف فيكتور آنفوسو Victor Anfuso ، أحد مؤلفي هذه الخطابات السبب الرئيسي في حملة كتابة الخطابات بقوله :

« لقد أحسست أن كثيرا من الذين ينتمون الى أصل ايطالي يرغبون في الكتابة ، ولكن لم يتح لأي منهم الوقت أو الحقائق الكافية لصياغة الخطاب • ولكن بعد اعداد الخطابات ، لم يكن أمام المرسل سوى التوقيع ووضع الخطاب في مظروف وتوجيهه الى صديق أو قريب في ايطاليا » •

ولقد تولت الكنائس الكاثوليكية فى نيويورك ونيوجرسى توزيع الخطابات على الأفراد المقيمين فى دوائرها ، كما أسهمت فى الحملة عدة منظمات ايطالية أمريكية ٠

أما بالنسبة لمضمون هذه الخطابات ، ففيما يلى مقتطفات من أكثر هذه الخطابات انتشارا فى التوزيع :

« انه عيد القيامة ، والأجراس تدق فى بهجة وفرح فى هذا البلد الذى يعيش فيه أناس من كل جنس وكل دين جنبا الى جنب ٠٠٠ نود الاحتفال بهذا العيد المقدس نردد الأناشيد من أجل سلام الشعب ورخائه ٠ اننا نفكر فى بلدنا الجميل الحبيب ايطاليا التى نريد له بعد طول المعاناة ، أن يبنى نفسه من جديد وأن يتحرر من الطغيان والظلم ، ولهذا السبب نتطلع اليكم فى أمل ولهفة ٠ ففى الثامن عشر من أبريل ، اذ تذهبون الى صناديق الانتخابات ، يمكن أن تقرروا ليس مصير بلدكم فحسب بل ربما مصير العالم أجمع أيضا ٠

ومن ثم فلا تساوركم الدهشة اذا طلبنا منكم بل اذا التمسنا منكم ألا تلقوا بايطاليا بلدنا الجميل بين ذراعى الشيوعية المستبدة ٠

فليس لدى أمريكا اعتراض على الشيوعية داخل الاتحاد السوفييتى ، ولكن ما سبب فرضها على شعب آخر وأراض أخرى ؟ انهم بذلك يطفئون شعلة الحرية ٠

ولتثقوا فى صداقة أمريكا الاكيدة ولا ترفضوا المعونة التى ترغب هذه الأمة فى مواصلة تقديمها ، ولا تحطموا فى يوم واحد ، العمل الضخم الذى أنجزتموه فى توجيه ايطاليا نحو اعادة البناء والتعمير ٠

ذلك هو النداء الحار الذى يوجهه اليكم الامريكيون من ذوى الأصل الايطالى فى يوم عيد القيامة ، على أمل أن يستمر الاحتفال بقيامة الرب فى تلك الارض التى هى قلب الكاثوليكية » ٠

وعلى الرغم مما فى هذا الخطاب من معان تعبر عن تدخل سافر فى شئون داخلية لدولة أخرى فانه من وجهة نظر الدعاية كان له أثر كبير على توجيه الانتخابات الايطالية لصالح الغرب .

أما البطاقات المصورة التى وزعت بنفس الطريقـة ، فكانت تظهر ـ عن طريق الرسوم الساحرة والعبارات ـ التناقض بين الحياة فى ظل الرأسمالية ؛ والحياة فى ظل الشيوعية .

ويكشف تحليل مضمون الخطابات والبطاقات التى أرسلت الى ايطاليا خلال الحملة عن أن الموضوعات الاساسية التى كانت موضع تركيز هى :

١ ـ مجموعة من الموضوعات تؤكد العواقب الوخيمة المنتظرة اذا لم يهزم الشيوعيون ، اذ أن ايطاليا سوف تتعرض حينئذ لخطر السيطرة السوفييتية وضياع الدين والكنيسة ، وضياع الحياة العائلية ، وضياع الوطن والارض ، ووجود سياسة شيوعية مخربة فى ايطاليا ، ثم فقدان المعونة الامريكية فى المستقبل .

٢ ـ كما كانت هناك مجموعة ثانية من الموضوعات تؤكد الآثار المفيدة التى تعقب هزيمة الشيوعيين واندحارهم ، وتلك هى معونة من الولايات المتحدة وتحقيق الرخاء والاستقلال لايطاليا ، بعد تعميرها .

٣ ـ أما المجموعة الثالثة فكانت تبرز الصلات الوثيقة بين الولايات المتحدة وايطاليا . وكان يطلب من الناخبين أن يتذكروا المعونة الامريكية السابقة ، ثم الصلات العائلية بين المقيمين فى الولايات المتحدة ، والمقيمين فى ايطاليا .

٤ ـ وأخيرا كانت هناك مجموعة رابعة من الموضوعات التى تلعب بالمشاعر الوطنية للناخبين . فقد كانوا يذكرون بحروب ايطالية السابقة من أجل

الوحدة والاستقلال ، وبالدور الذى يمكن أن تلعبه ايطاليا فى أحداث العالم اذا حافظت على ديموقراطيتها • وكانت كل هذه الموضوعات تطرح فى لغة عاطفية مشوبة بالانفعال • وكان الوعد والوعيد يصوران بألوان صارخة ، كما كان الثواب والعقاب يصوران فى صور محددة واضحة ، أما النغمة الشخصية فى الخطابات فكانت تخاطب المرسل اليه كما يخاطب الصديق صديقه القريب الى نفسه • وكان القارىء فى النداءات كلها ، يذكر بالصلات الوثيقة بينه وبين الكاتب ، وبتشابه آمالهما لصالح ايطاليا •

وعلى الرغم من صعوبة تقدير أثر هذه الحملة الدعائية ، فثمة عدد من « المراقبين على الطبيعة » يؤكد أن حملة كتابة الخطابات كان لها أثر واضح فى الفوز على الشيوعيين فى نهاية المطاف •

وعلى سبيل المثال ، وصف آرنالدو كورتيسى Arnaldo Cortesi مراسل صحيفة نيويورك تايمز هذه الحملة بأنها أسلوب قوى وقال :

« لقد فهم كثيرون منها – أى من هذه الخطابات – لأول مرة أن الولايات المتحدة تعنى ما تقول حين تعلن أن المعونة الامريكية سوف تتوقف اذا صوتت ايطاليا لصالح الشيوعيين » •

كما تأكد الأثر العميق الذى خلفته الخطابات الامريكية بما قاله دون لويجى ستروزو Don Luigi Struso ، أحد الشخصيات القوية وراء الستار فى الحزب الديموقراطى المسيحى ، اذ كتب فى صحيفة الشعب Popolo الصباحية « ان الذين يتلقون هدايا من أعمامهم وأبناء أعمامهم فى الولايات المتحدة قد أنذروا بأنهم لن يحصلوا على دولار واحد بعد ذلك اذا تحولت ايطاليا الى الشيوعية ، ولقد كان لمثل هذه الخطابات تأثير قوى فى جنوب ايطاليا وفى قرى صقلية كقوة البرق » •

وعلى أية حال ، فلا بأس من ذكر ملاحظتين بالنسبة لحملة كتابة الخطابات وأثرها المحتمل على نتيجة الانتخابات الايطالية • فالامريكيون من أصل ايطالى

أيدوا هذه الحملة تأييدا غير مشروط ، كما أن أعضاء الحزب الشيوعى فى ايطاليا اعترضوا عليها اعتراضا قويا • فقد هاجموا حملة كتابة الخطابات ، باعتبارها تدخلا سافرا من الاجانب فى شئون ايطاليا • الا أنه لما كان الشيوعيون الايطاليون أنفسهم يتلقون صراحة وعلنا مساعدة أجنبية ، فمن المرجح أن هجومهم المضاد لم يكن مؤثرا التأثير التام •

وعموما فان تأثير حملة كتابة الخطابات باعتبارها وسيلة دعائية ، يكمن فى طابعها الشخصى ، اذ جمعت بين امكانية الوصول الى جمهور عام وبين امكانية الاقتراب من النداء أو المخاطبة الشخصية •

كما أن الجهد الدعائى الذى قامت به الولايات المتحدة كان له أثر كبير على الانتخابات الايطالية ، وبذلك حققت هدفا محدودا قصير الأجل •

هدف سياسى محدود طويل الأجل :

ابتداء من ٢٩ من أبريل حتى أوائل الخريف من عام ١٩٥٤ ، أسقطت على الأراضى التشيكية ما يزيد على مائة ألف من البالونات المصنوعة من مطاط النيوبرين المملوءة بالهيدروجين Hydrogen Filled Neoprene Rubber and Polyethylene ، ويستطيع كل منهما حمل ثقل وزنه ثلاثة أرطال ، وبذلك أسقط بين الشعوب التشيكية والسلافية حوالى خمسين مليونا من النشرات والاعلانات وأوراق الانتخاب والصحف المضادة لنظام الحكم •

وعندما انهمرت النشرات والمطبوعات الاخرى من البالونات ، اذاعت أجهزة ارسال راديو أوروبا الحرة القائمة فى ميونخ ، بيانات تفسيرية لشعب تشيكوسلوفاكيا ، ولقد دلت ألوان النشاط هذه على بداية « عملية الفيتو » Operation Veto ، أى أول جهد مستمر يصل الى سكان احدى بلاد الستار الحديدى بالكلمة المطبوعة والمذاعة على أساس الاجراء المنسق تنسيقا دقيقا •

وقد اختلف هذا الجهد عن الجهود السابقة المماثلة ، من حيث ان هذا الجهد كان المقصود به حملة بعيدة المدى ، كان هدفها – وليس الوسائل المبتكرة – هو الذى يحتل المقام الأول ٠

التنظيم :

قامت لجنة أوروبا الحرة[1] لتشن عمليات الاسقاط ، بانشاء مناطق للاسكان والمعيشة على مواقع حدود المانيا الغربية ٠ كما قامت بتجهيز اتصالات ميدانية ، ومرافق للتنبؤات الجوية ، وتدريب الفنيين ، وابتكار الوسائل الدقيقة لتتبع أساطيل البالونات الى أهدافها ٠

وابتدأت فى اسقاط صحيفتها « أوروبا الحرة » على الاراضى التشيكية منذ أوائل شهر يونيو ٠

كانت هذه الصحيفة تطبع فى ثمانى صفحات ويصدر عنها مليونان فى الطبعة الواحدة ، وكان من الممكن طيها فى حجم كتاب الجيب واطلاقها فى الهواء ٠

وليس هناك فى الواقع جديد فى استخدام البالونات لنشر مادة الدعاية ٠ فمنذ قرن مضى ، كتب أحد المنفيين الروس ويدعى، فلاديمير انجلسن Vlademir Engelson الى وزير الحرب الفرنسى فى الثالث والعشرين من عام ١٨٥٤ يقترح استخدام البالونات لنشر الرسائل التى تحث الشعب الروسى ضد الاشتراك فى حرب القرم ٠ الا أن البالونات كانت بطيئة فى اثبات وجودها كسلاح فعال للدعاية ٠

ولكن الجديد فى استخدام البالونات ، انها كانت للمرة الاولى برنامجا طويل الاجل مؤداه أن الكلمة المذاعة يمكن أن تحقق نتائج أكثر فعالية بالاشتراك مع الكلمة المطبوعة ٠

---

(١) المعروف ان لجنة أوروبا الحرة هى التنظيم الأكبر الذى يتدرج تحته راديو أوروبا الحرة ، وهى التى تنفرد بممارسة الحرب النفسية المنسقة بواسطة البالونات والاذاعات ٠

تحليل الهدف :

كان أول ما فعلته لجنة أوروبا الحرة هو استقصاء المصادر الاساسية للمقاومة التشيكية بتحليل الصحافة والاذاعة فى النظام الشيوعى والحديث الى آلاف الهاربين ، ثم ادماج هذه الشكاوى فى نداء من عشر نقاط للمعارضة الشعبية يحدد المطالب الملموسة التى يسعى لبلوغها ، مثل زيادة الاسكان ، ورفع الاجور ، وحرية تغيير العمل ، وحق المزارعين فى ترك المزارع الجماعية ٠

وكانت أول رسالة تبعث الى انحاء البلاد بواسطة البالون ، تتكون من مجموعة من الاعلانات ذات حجم صغير بحيث يمكن اخفاؤها فى راحة اليد ، وهى تتناول موضوع «المطالب العشرة» . وقبل انتخابات اللجان القومية فى ١٥ من مايو ببضعة أيام بدأت « بطاقات انتخاب المعارضة الشعبية » المطبوعة فى عشرين مليون نسخة ، تصل الى البلاد ٠ وكانت هذه البطاقة التى تسرد المطالب العشرة باعتبارها مطالب الشعب ، تؤكد أن البطاقة ترمى الى اقرار البرنامج الايجابى للمعارضة الشعبية ، فقد جاء بها :

« ان البطاقة الانتخابية للمعارضة الشعبية فى تشيكوسلوفاكيا لا تخص صناديق الانتخاب الحكومية ، بل تخص أيدى المواطنين الذين سيستخدمونها ، كل بحسب امكانياته ، كدليل على تضامن الشعب ، وكجزء أول من البرنامج التدريجى ضد النظام ٠ وان تحقيق هذه المطالب العشرة سوف يشكل مرحلة تاريخية على الطريق نحو تشيكوسلوفاكيا الحرة فى أوروبا الحرة المتحدة » ٠

المطالب العشرة للمعارضة الشعبية :

١ - نقابات العمال للنقابيين :

النقابيون ليسوا مسئولين الا أمام الذين انتخبوهم ، اذ يجب ألا يفرضوا فرضا أو يفصلوا بواسطة المجلس المركزى لنقابات العمال ٠ كما يجب أن يقوم النقابيون بالمساومة الجماعية لصالح العمال ، والمطالبة بتحسين الأجور ، وظروف

العمل ، وتطبيق تدابير السلامة ، وكذلك ضرورة وقف الاستقطاعات من الاجر • واذا كانت الاضرابات عن العمل هى الوسيلة الوحيدة لتحقيق المطالب العادلة فان الدولة باعتبارها ربا للعمل ، يجب ألا تضطهد العمال •

٢ ـ الزيادة فى الاجور :

فالقوة الشرائية لدخول العمال أقل بكثير عن مستوى ما قبل الحرب ، ومن ثم فعلى المصانع والمكاتب المركزية ، قبل نهاية أكتوبر من العام الحالى ، ان تزيد من الأجور والمرتبات ، وذلك بنسبة ١٥ ٪ للعمال الذين يتقاضون أقل من ١٫٠٦٠ كورونا تشيكية وبنسبة ١٢ ٪ للعمال الذين يتقاضون أكثر من ١٫٠٦٠ كورونا ، وأقل من ١٫٥٠٠ كورونا •

٣ ـ عدم تقييد العمال بأعمال معينة :

اذ لابد أن تتاح للعمال حرية ترك العمل دون اذن الادارة • ولا ينبغى ارغام العمال على قبول أعمال تفرضها الدولة ويجب أن تتاح الحرية للشباب لاختيار المهن التى يريدها •

٤ ـ عدم استغلال الدولة لوقت الفراغ :

يجب ألا تطيل ادارة المصنع ساعات العمل ، كما يجب أن يكون العمل يوم الأحد ، وأيام العطلات اختياريا وبمقابل صرف أجر اضافى • ويجب دفع أجر اضافى عن العمل زيادة على أربعين ساعة فى الاسبوع • ولا ينبغى تقليل أو اقتطاع الفراغ والأجازات لأى عذر من الأعذار •

٥ ـ انهاء السخرة :

يجب أن تتاح للفلاح حرية مغادرة المزارع الجماعية دون اضطهاد ، وكذلك استعادة الملكية التى طبقت عليها الأنظمة الجماعية والتى هى ملك حق له . ويجب

أن تكفل اللجان القومية معاملة متكافئة بين المزارعين الافراد وبين المزارع الجماعية فى الائتمانات وأسعار الشراء وفى المساحات البستانية الكبيرة ، وانشاء تنظيم للمزارعين ٠

٦ ـ عدم تحديد الحصص :

ان « حصص التسليم » شر موقوت بوقت محدد ، وطالما وجدت فان اللجان القومية المحلية عليهـا أن تبذل نفوذها وتأثيرها على اللجـان القومية بالمراكز لتضمن توزيعا عادلا لهذه الحصص ٠ وان عدم الوفاء بتقديم هذه الحصص يعكس التقديرات الخاطئة التى تضعها الدولة ٠ ولابد للجنة القومية المحلية أن تراعى أن الفلاح لايعاقب على اخطاء التخطيط ٠

٧ ـ الاستقلال الذاتى للجان القومية المحلية :

لابد أن تمثل المجالس ويمثل الموظفون فى اللجـان القومية المحلية مصـالح السكان المحليين الذين يدينون لهم بالولاء فى المقـام الأول ٠ ولابد أن تستعاد السلطة فى المجتمع وأن تحول دون تحول المدارس الى مراكز للتجنيد من أجل تشغيل الأطفال ٠

وفى اقليم سلوفاكيا لابد أن تدعم اللجان القومية الاسـتقلال الـذاتى للسلاف ، لا أن تدعم المركزية الشيوعية ٠

٨ ـ السلع للشعب :

يجب ارغام نظام الحكم على أن يفى بوعوده لانتاج المزيد من السلع الاستهلاكية، ولا سيما الادوات المنزلية والمنسوجات ٠ وسوف يتعاون الملاحظون والعمال فى وقف عجلة الانتاج الذى لا يخدم احتياجاتهم ، ومن ناحية أخرى يجب دفع عجلة الانتاج بالقدر الذى يفى بالسلع الاستهلاكية ٠

٩ ـ العودة الى خدمة المستهلك :

يقتضى الاجتياز أو الانطلاق عبر الفوضى البيروقراطية فى التخطيط المركزى، كما يقتضى أسلوب البيع بالجملة الذى انعدمت فيه الكفاءة ، من مديرى مخازن التجزئة أن يتقدموا مباشرة الى المصانع بطلب المنتجات اللازمة ٠

ولابد أن تعمل اللجان القومية المحلية باسلوب تدريجى غير رسمى على تحويل المشروعات الجماعية الى تعاونيات خاصة للملاك الأفراد ٠ وينطبق هذا بصفة خاصة على المطاعم والمخابز ، والمشروعات الحرفية الصغيرة والخدمات الشخصية وأعمال الاصلاح ٠

١٠ ـ الاسكان للعائلات ، لا للدولة :

يجب أن تسعى اللجان القومية لزيادة ميزانيات الاسكان وأن تتبين أن اختيار مواقع الاسكان يتم على أساس حاجة السكان ، لا تخطيط الدولة ، كما يجب أن يتم الاسكان على أسس عادلة ، لا على أسس سياسية ٠

ولقد كانت قائمة ما يريده الشعب داخل تشيكوسلوفاكيا مستقاة من المعلومات من داخل البلد ، ومستمدة من تقارير اللاجئين وأبنائهم وتحليل صحافة الشيوعيين واذاعتهم ، ومن ثم كان أساس المعارضة مرتكزا على أسباب محدودة من السخط ، ويرمى الى تحقيق غايات يمكن بلوغها ٠

رد فعل الهدف :

طبقا لما يرويه اللاجئون الذين هربوا خلال الشهور من مايو الى يوليو ، ان كل فرد تقريبا قد قرأ أو سمع « المطالب العشرة » ، وناقشها علنا ٠

وكان الشيوعيون المعروفون يتلقون نشرات المعارضة فى البريد ، وانتشرت مئات منها فى أحد اجتماعات انتخابات الحكومة التى تحدث فيها فاتسلاف كوبكى Vaclav Kopecky وزير الثقافة ٠

ولقد احتجت حكومة براغ على السفارة الامريكية فقالت « ان مؤلفى هذه النشرات ، يدعون الاهتمام بالحقوق والانجازات الاجتماعية للشعب التشيكى العامل ٠

ولقد استنكرت صحيفة برافدا الحملة ، فى هجوم مذهبى شديد ، ولكنها حرصت على منع نشر المضمون الدقيق للمطالب العشرة ، وباقتراب موعد انتخابات اللجان القومية نظم « زابوتوكى » Zapotocky رئيس الجمهورية دوريات بوليس خاصة ، ومتحدثين جددا ليواجه الموقف ٠

النشرات تكمل الهجوم الاذاعى وتعززه :

ويبدو أن الطريقة غير المتوقعة التى تلقف بها الشعب التشيكى المطالب العشرة وتبناها ، دفعت لجنة أوروبا الحرة الى أن تواصل عمليات البالون الى ما لا نهاية من خلال صحيفة نصف شهرية ، تهدف فى الواقع الى خلق صحافة تكمل الاذاعة المعارضة وتعززها ٠

وطبقا لما ترويه اللجنة ، فان النشرات وحدها أو الاذاعات وحدها لم تكن لتمكن من نشر « المطالب العشرة » ٠

ويقول جان سترانسكى Jan Stransky رئيس القسم التشيكى فى صحافة أوروبا الحرة « ان الرابطة أو الصلة المادية قوة روحية ٠ فأنت تعرف أن الغرب حاول احضار هذه الورقة اليك ، وبخلاف الرسالة التى تحملها فانها تصبح لونا من التعاويذ أو التمائم ٠ وبالنسبة للكلمة المطبوعة فان لها أثرا هاما باقيا ، فهى بعكس الكلمة المذاعة ، يمكنك الاحتفاظ بها والرجوع اليها أو أن تعيرها الى غيرك » ٠

ولقد جعلت النشرات الراديو أكثر اتصالا بالشعب ، كما أن الراديو بمستمعيه على نطاق واسع ومنتظم ، ضمن تأثيرا موحدا بالنسبة لعملية البالون ٠

تقدير النتائج :

الحقيقة أنه ليس ثمة شخص يمكن أن يجزم بشيء ، ولا يستطيع الفرد فى هذا المجال سوى أن يجمع عدد المزارعين الذين يغادرون المزارع فعلا ، وأن يراقب معايير العمل وجداول الاجور ليرى ما اذا كانت ترتفع أو تنخفض ، ويحلل السياسية الاستثمارية للانظمة ليرى ما اذا كانت ميزانيات الاسكان والسلع الاستهلاكية تزداد أو تنقص ، ثم تقيم نتائج انتخابات لجان المتاجر فى هذا الخريف •

والواقع أن هذه العملية نوع من العمليات النفسية التى تسود العالم اليوم فى هذا الصراع الايديولوجى الكبير بين مذهبين متناقضين تماما •

ونعود فنقول ان هذا العمل أشد خطورة من الحرب الساخنة ، فهو صراع عقلى مستمر يحاول أن يضغط على الشعوب لجعلها تنحاز الى عقيدة معينة ، فى جو من البلبلة والتشتت الذهنى دون أن تعرف حقيقة مصلحتها النابعة من وحيها وفكرها •

ان الهدف من هذه العملية لم يكن قصير الأجل ، اذ أن هذه العملية كانت ترمى الى هدف بعيد هو اعداد الشعب التشيكى ليوم تتجمع فيه الضغوط الخارجية والداخلية لتحقيق تغيرات أساسية حقيقية لمصلحة الغرب •

ونحن نقول ان مثل هذه الأعمال وان تحققت فى المدى البعيد ، فهى عمليات ترفضها المثل الانسانيه ، وتأباها القيم الاخلاقية •

اننا لا نؤمن الا بالعقيدة التى تنبع من ضمير المجتمع ووحيه وتقاليده وقيمه الاخلاقية دون أى ضغوط خارجية أو مساومات سياسية •

الأهداف السياسية العسكرية :

تظهر بالضرورة فى أى محاولة للتمييز بين الاهداف السياسية والعسكرية فى الحرب النفسية مجموعة من الأمثلة ، لا يتضح أنها عسكرية فى أغلبها أو سياسية فى أغلبها ، ومن ثم يمكننا أن نطلق عليها الاهداف السياسية العسكرية .

ويمكننا تحديد الأهداف السياسية العسكرية على النحو الآتى :

١ ـ ردع أى أمة معادية يحتمل أن تندمج مع دولة معادية أخرى أو مع حلف معاد .

٢ ـ ردع أى معتد محتمل أو فعلى عن ارتكاب أعمال عدوانية جديدة .

٣ ـ اضعاف أو تحطيم الوحدة بين الدول الاعضاء فى أى تحالف سياسى عسكرى .

٤ ـ تشجيع الانهيار والتفكك فى دولة العدو .

٥ ـ المساعدة فى اعادة التوجيه السياسى للمناطق التى حررت حديثا .

٦ ـ دعم روح المقاومة بين الشعوب المقهورة .

٧ ـ اضعاف نظام الرقابة والسيطرة الاجتماعية والسياسية فى دولة العدو .

٨ ـ دعم مركز النخبة المناهضة فى الدولة الهدف .

ولما كان شرح هذه الاهداف لا يحتاج الى تفاصيل أكثر ، بخاصة ان القارىء يجد كل يوم فى الصحف اليومية أمثلة وصورا كثيرة لهذه الاهداف ، فى هذا الصراع القائم اليوم فى العالم بين الشرق والغرب ، فقد آثرنا أن نذكر هذه الاهداف لتكون مرشدا لدراسة من يريد الزيادة والتوسع .

الأهداف العسكرية :

توجه الحروب النفسية ضد الجنود لتحقيق نوعين منفصلين من رد الفعل النفسي فى عقل جندى العدو ، أولهما هدم معنوياته أو كفايته العسكرية بصفة عامة • وفى هذه الحالة يصل الجندى الى أن يكون سلبيا غير متحمس لقضية الحرب ويمكن أن نطلق على هذا اللون من رد الفعل النفسى « العمليات المعنوية » Moral Operations؛ أما النوعالآخر من العملياتفيهدف الى تأثير أعنف بأن يؤدى بجندى العدو الى القيام بعمل واضح يؤثر تأثيرا مباشرا على المعركة كأن يستسلم أو يترك موقعه أو يقوم بثورة ، وهذا النوع من العمل ليس من السهل تحقيقه الا اذا بنى على خطة حكيمة مدروسة أحسن تنفيذها •

ان العمليات ضد الجنود تحتاج الى مجهود ضخم تتشابك فيهعوامل مختلفة من عسكرية وسياسية واقتصادية وسيكلوجية ، ولكن العامل المؤثر غالبا فىمثل تلك العمليات هو الموقف العسكرى الذى يجب أن يكون واضحا لدى من يديرون الحرب النفسية • ان تفهم أحوال الجنود من معنوية ومادية لهو الركيزة التى يجب أن يبنى عليها رجل الدعاية خطته • وهناك نقطة نفسية هامة يجب ألا تتعرض اليها العمليات النفسية ، وهى ولاء الجندى لوطنه اذ قد يؤدى ذلك الى ازدياد المقاومة • بل يجب الاستفادة من هذه النقطة واستغلالها بأن يفهم جنود العدو أنهم يقاتلون فى سبيل قضية خاسرة لا ناقة لهم فيها ولا جمل • فمثلا يمكن أن تعطى الدعاية الجيدة الفرصة لجنود العدو بأن يخلصوا أنفسهم من الالتزام بالولاء بتنمية غريزة حب البقاء فى نفوسهم وتفهيمهم أن الولاء الصحيح يتطلب البقاء ، ومن ثم يجب عليهم الاستسلام بدلا من القتل •

ونجد فى جيوش معظم الدول الحديثة أن الوحدات المقاتلة يصحبها دائما وحدات للدعاية • هذه الوحدات تستخدم فى أسلوبها طريقه الأحاديث العامة التى ترسل اذاعاتها من مراكز رياسة الجيوش أو من الوحدات المتنقلة الخفيفة الحركة ، وبذلك يمكن التحدث مباشرة الى جنود العدو • كما أن هذه الوحدات يمكنها أن تذيع من وراء خطوط العدو أو تسقط النشرات وراء الجبهة •

وعلى سبيل المثال فان وحدة الدعاية الالمانية هى التى أذاعت على الفرنسيين عام ١٩٤٠ الانباء التى أخبرتهم بأن لجنة هدنة فرنسية فى طريقها لتوقيع الهدنة مع السلطات الالمانية •

لقد كان لهذه الاذاعة تأثير هدام واسع النطاق على الروح المعنوية للجنود الفرنسيين ، وناقش الجنود الفرنسيون الأمر على أساس « لماذا ندافع عن الخط اليوم فنتعرض للموت اذا كانت الحرب ستنتهى غدا ؟ » ولذا تحطمت المقاومة •

وشكل آخر من عمل هذه الوحدات يظهر فى غزو بولندا فى الحرب العالمية الثانية ، اذ قامت وحدات الدعاية الالمانية بتشجيع التآخى بين الجنود •

وثمة صورة ثالثة من أعمال هذه الوحدات يظهر فى اسقاط النشرات والصحف وراء خطوط القتال • ومع أن الجيوش تحرم على الجنود الاطلاع على النشرات التى يسقطها العدو وراء خطوط القتال ، فان العدو يحاول أن يتحايل دائما على وصولها •

ففى الحرب العالمية الاولى استخدمت القوات الامريكية وسيلة لجعل الجنود الالمان ينقضون الاوامر ويحتفظون بالنشرات التى يسقطونها ، فقاموا بوضع « كوبون » داخل النشرات ، وكان هذا الكوبون بمثابة جواز مرور عبر خطوط القتال للجندى الذى يعتزم الاستسلام • وبالاضافة الى ذلك نشر فى هذا الكوبون بيان عن وجبات الغذاء التى تصرف للجنود الامريكيين ، ووعد أسرى الحرب بنفس مقادير الغذاء •

ولما كان الكثير من الجنود الالمان فى ذلك الوقت مجهدين ويقاسون الجوع لقلة الأغذية ، فانهم احتفظوا بهذه الكوبونات واستخدموها •

وفى الحرب العالمية الثانية أصدر السوفييت نشرة أطلقوا عليها اسم « الحقيقة » وفى أبريل سنة ١٩٤٢ كان قد صدر من هذه النشرة ٢٥٠ عددا جملة

ما طبع منها خمسة عشر مليون نسخة وزعت جميعها ، وبذلك بدا كأنهم وجهوا للألمان خمسة عشر مليون طلقة قاتلة دون اراقة أى دماء ٠

وقد وجد السوفييت عند استجواب أسرى الحرب أن الكثير من الجنود الالمان قرأوا هذه النشرات ، وبذلك كانوا على دراية بوجهات نظر السوفييت عن الحرب٠

وأسقط اليابانيون مثل هذه النشرات فوق « شونج كنج » وأجزاء أخرى من الصين ، وكانت هذه الدعاية تحث الصينيين على أن ينضموا الى اليابانيين للخلاص من عبودية بريطانيا وأمريكا ٠

وأسقطوا كذلك عددا من هذه النشرات على القوات الامريكية فى باتان(١)٠ وأسقطت قاذفات القنابل البريطانيه الالاف من الصحف المطبوعة على ورق رقيق على ألمانيا وعلى المناطق التى يحتلها الالمان ، وكانت كل من هذه الصحف تتكون من أربع صفحات بحجم ٨ بوصات مربعة ، ويمكن أن تلف لتكون أشبه بلفافة تبغ ، وكانت تنشر فيها بعض الصور كما تتضمن أحدث الانباء التى لا يمكن أن تميزها الرقابة الالمانية ٠

وفى الحرب العالمية الثانية نجد أمثلة كثيرة لمثـل تلك العمليـات اتخذت شكلين مختلفين من الدعاية البيضاء والسوداء ، كان الهدف منها تحطيم معنويات العدو ، ونستطيع أن نحصر على سبيل المثال أمثلة من ذلك ، فقد ألقيت على الجنود اليابانيين الذين كانوا يتضورون جوعا فى شمال بورما صورا ملونة عن الاغذية اليابانية اللذيذة الطعم ، وفى ميدان جنوب غرب الباسفيك ألقى الامريكيون رسوما كاريكاتورية توضح الجندى اليابانى المحروم يقاتل فى سبيل قضية خاسرة على حين أن ضباطه ينالون كل ألوان الخمر والطعام ويستمتعون بالنساء ٠ كما ألقيت نشرات على الجنود اليابانيين فى شمال الباسفيك تخبرهم بأنهـم سيتساقطون بقتالهم كما تتساقط أوراق الخريف ٠

---

(١) باتان Bataan شبه جزيرة غرب خليج مانيلا فى الفلبين واشتهرت بوقوف الجنـود الأمريكان سنة ١٩٤٢ ضد قوات كبيرة من اليابانيين ٠

ولقد تبارت كل الاطراف المعنية فى الحرب العالمية الثانية فى استخدام العمليات السوداء ضد العدو ، ومن أمثلة ذلك ما قام به الالمان ضد الجنود الفرنسيين وتضمنت الكثير من هذا النوع ، فمثلا كان يرسل للجنود الفرنسيين الذين يحاربون خارج أرض الوطن خطابات من بلادهم تخبرهم بأن زوجاتهم يرتكبن الزنا وأنهن مصابات بأمراض تناسلية معينة ٠ ومثل آخر وهو لا يزال يستخدم بواسطة بعض الدول فى وقتنا هذا فى أثناء العمليات الحربية لتلك الحروب المحدودة التى تقوم بين ربوع العالم ، وهو استخدام الاذاعة فى النداء على اسماء الجنود وذكر وحداتهم ثم تختلق القصص الكاذبة عما يدور بين عائلاتهم فى أرض الوطن من مخاز وخيانات زوجيه مما يجعل جنود العدو فى حالة يأس وقلق مستمر على ذويهم قد يؤدى بهم الى انهيار عصبى ٠

ونظرا لأهمية هذا النوع من العمليات وخاصة بالنسبه لأفراد القوات المسلحة ، فقد رأينا أن نعطى عدة أمثلة من خبرات الحرب العالمية الثانية وما بعدها حتى يتضح لنا الأثر الكبير الذى تسببه هذه العمليات فى تقويض الروح المعنوية والوحدة القوميـة ، وكذا لابراز عمليـات الخداع الاستراتيجى والتكتيكى الذى يحدث من كل جانب خلال الحرب ٠

عملية مينسميت Operation Mincemeat :

هذه العملية توضح كيف استطاع البريطانيون فى الحرب العالمية الثانية أن يخدعوا بأسلوب عجيب شاذ الالمان فيما يتعلق بالمكان الذى ينوى الحلفاء مهاجمته فى أوروبا عام ١٩٤٣ ٠

لقد كان تاريخ ماجور وليام مارتن وعمله فى البحرية الملكية البريطانية ، مثيرا ولو أنه قصير ٠ وبالرغم من أنه لم يكن معروفا عندما دخل الخدمة ، وأنه لم يكن فى البحريه من قبل فقد اسندت اليه وظيفة ضابط بحرى فورا ٠ وخلال أسابيع قليلة فى ربيع عام ١٩٤٣ ، كان مارتن الشخصية الاساسية فى خطة

أقنعت الالمان بأن الهجوم على صقلية كان من المقرر أن يكون عملية تمويه فقط ، وأدى هذا الى تقليل الألمان لدفاعاتهم فى صقلية ، مما أنقذ عددا كبيرا من أرواح الحلفـــاء ٠

والجزء العجيب حقا فى الخطة هو أن وليام مارتن فعل كل هذا من غير أن يرفع اصبعا واحدة ، فقد كان ماجور مارتن فى الحقيقة ميتا عندما كلف بالمهمة ٠

لم يكن اسم « مارتن » الاسم الحقيقى للجثة التى تعتبر الشخصية الرئيسية فى قصة « الرجل الذى لم يكن له وجود » ٠

ان القصة من أغرب القصص التى تمخضت عنها الحرب العالمية الثانية ، وفى الأحوال العادية تثير فى النفس الدهشة أكثر من التصديق ، ولكنها قصة نستطيع على أى حال الاستمتاع بها على أنها من أغرب القصص عن الخـداع فى التاريخ العسكرى الأخير ٠

لقـد كتب القصة أوين مونتاجيو ، وكان حينئذ ضابط مخـابرات فى البحرية البريطانية فقال :

« لقد خطر ببالى فكرة بدت لى لامعة ٠ فلماذا لا نسقط جثة انسان مرتد ملابس ضابط بريطانى بعيدا عن شاطىء أسبانياحيث تجرفه المياه الى الشاطىء ؟ وهو يحمل أوراقا تدل على أن الهجوم على صقلية لن يكون الشىء الحقيقى ، وان الضربات الحقيقية سوف توجه ضد سردينيا واليونان ٠ وافترض فى هذه الخطة أن الاسبان سيطلعون الالمان على الاوراق التى عثر عليهـا فى جيوب الضابط القتيل ٠

ولم يكن من السهل الحصول على الموافقة فقد كان لورد ايسماى Ismay متشككا، ولكن ونستون تشرشل وافق على الفكرة . وعندما اعترض شخص ما بأن فكرة ذر الرماد قد لا يصاحبها التوفيق من أولها وانها لن تعمل الا على اجتذاب

الانتباه الى غزو صقلية المعلق ، رد تشرشل بقوله : « اننى لا أرى فى ذلك ما يهم فلن يعرف أن الهدف هو صقلية الا المغفل فقط » •

ولكن بعد ذلك جاءت المتاعب العملية فالحصـول على جثة لم يكن بالامر السهل • فلابد أن تكون الجثة لشخص مات أخيرا ، جثة لشخص لا تعترض عائلته على هذا العمل ، شخص يبدو فى شكله كضابط ، وبعد أن قرر مونتاجيو اختطاف هذه الجثة من المقابر ، وجد الجثة ، وكانت جثة لشاب قد توفى بالالتهاب الرئوى ، وقد وافقت عائلته على الخطة بشرط ألا يذكر اسمه الحقيقى •

وكان ضابط المخابرات مونتاجيو يعمل حسابا لرجال المخابرات الألمان ، ولكى يخدعهم كان لابد أن تكون عملية التهويش والتزييف معدة اعدادا تاما • وجهزت الاوراق التى فرض أن يحملها ماجور وليام مارتن ، وهى بطاقة شخصية، وصورة فوتوغرافية للفتاة « بام » Pam خطيبته ، وخطابات الحب الاخيرة، واعقاب تذاكر المسرح وخطاب من البنك ، وخطاب من « والده » ، والاشياء العادية التى تملأ الجيوب • وكانت صورة البطاقة الشخصية صـورة رجل يشبهه تماما • وكانت الخطابات التى كان من المفروض أن يحملها الى شمال أفريقيا فى طائرة سقطت موقعة فعلا من ضباط كبار ، وكان خطاب من بين هذه الخطابات ممهورا بتوقيع « لورد لويس مونتباتن » • وللمحافظة على الجثة من التعفن والتحلل فى أثناء الرحلة الى اسبانيا ، وضعت فى صندوق كبير من الثلج الجاف •

وفى الساعة الرابعة والنصف من صباح ٣٠ من أبريل ، طفت الغواصـة Seraph وعلى ظهرها قائدها Lieut N. A. Jewell لمسافة ميل بعيدا عن فوهة نهر Huelva • وأخرج ماجور مارتن من الصندوق • وأحنى البحـارة رءوسهم عندما ألقى جويل Jewell الكلمات التى تقال للصلاة على روح الميت ، ثم دفعت جثة مارتن الى الماء حيث التقطتها مياه المد •

وكان مونتاجيو قد أطلق على هذه الخطـة اسـم كودى هو Mincemeat أى « اللحمة المفرومة » وفى يوم ما ـ ولم يمر وقت طويل على طفو جسم مارتن

نحو الشاطىء عند Huelva ـ تلقى تشرشل رسالة ـ وكان فى واشنطون حينذاك ـ من هيئة أركان الحرب الانجليزية وكانت الرسالة تقول « لقد ابتلعت اللحمة المفرومة ابتلاعا تاما » ومعنى الرساله أن الاعداء جازت عليهم الحيلة تماما ولكن لم تعرف الطريقة التى عرف بها الألمان الجثة ، وموقف الألمان منها الا بعد الحرب من مستندات وقعت فى يد بريطانيا •

وكما توقع مونتاجيو تماما عثر الاسبان على الجثة وعلى الاوراق ، وسلموها الى عميل المانى وجاء فى تقارير المخابرات الالمانية « أن المستندات التى ضبطت مع الجثة مستندات صحيحة تماما » • بل لقد ظل هتلر نفسه مؤمنا بصحة هذه المستندات لمدة اسبوعين بعد بدء غزو صقلية ، وأرسل المارشال روميل فعلا الى اليونان حيث كان يتوقع وقوع الهجوم الحقيقى • وسافرت من صقلية الى اليونان أعداد كبيرة من قوارب الطوربيد لدرجة أن الدوريات الالمانية كانت قليلة الفاعلية. وعبرت فرقة البانزر الاولى أوروبا كلها لمواجهة الغزو المتوقع لليونان • وفى صقلية نفسها نقلت قوات المحور من الجنوب ـ حيث وقع الهجوم فعلا ـ الى الشمال •

لقد أدى ماجور مارتن واجبه وأداه جيدا • ولا تزال جثته فى مقبرة Huelva حيث أشرف على ترتيبات الدفن نائب القنصل البريطانى وعلى حجر مقبرته نقش اسم « وليام مارتن » ـ ولكن ليست هناك اشارة الى رتبته •

الدعاية من أجل الخداع والتمويه الاستراتيجى :

وثمة نوع آخر من العمليات التى تستخدم للخداع أو التمويه الاستراتيجى تبرز فى محاولات جوبلز لتحويل الانتباه والاهتمام عن الهجوم القادم فى الجنوب •

ففى مايو عام ١٩٤٢ قام جوبلز بحملة من حملات الحرب النفسية كانت تهدف الى خداع السوفييت فيما يتعلق بالمكان الذى ينوى الالمان شن الهجوم عليه • وليس هناك دليل على أن جوبلز كان صاحب الفكرة نفسه أو أن قيادة

« الوهرماخت » هى التى طلبت منــه شن حملة الحرب النفسية • ومن الممكن ــ من مذكرات جوبلز ــ أن نعيد بناء قصة مترابطة لتخطيط جوبلز وتنفيذه لتلك المحاولة المشهورة ، محاولة الخداع عن طريق الدعاية •

ولم يظهر دليل أكثر من ذلك على أن مشروع أو خطة الخداع التى يحكى عنها جوبلز قد حققت أى نجاح ، ومع أنه من الممكن أن نفترض بأن حملة جوبلز كان من الممكن أن تحقق نجاحا لو أنها أدت الى أن تجعل السوفييت أكثر حذرا من الجبهة الوسطى ، فان من المهم أن نذكر أن جوبلز نفسه لم يكن واثقا ثقة كبيرة فى نجاح خطته • وتشــير كثير من الملاحظات فى مذكراته الى هذه النقطة وتعبر عن الشك فى كفاية الخطة • ومع ذلك فقد كان سلوكه هو « أن المرء يجب أن يحاول كل شىء » •

ويقول جوبلز فى مذكراته بتاريخ ١٥ من مايو ١٩٤٢ (١) :

« لأســباب معينــة نشرنا مقــالا (غير مرخص به من الســـلطات) فى فرانكفورتر زيتنج ــ مقالا يناقش الامكانيات الاقتصادية وامكانيات العمليات لهجوم يشن على موسكو • وبهذه المقالة نحاول تحويل اهتمام العدو الى قطاع مختلف تماما عن القطاع الذى ننوى فعلا مهاجمته • ومن المشكوك فيه جدا أن ننجح فى خداع البولشفيك » •

وكان جوبلز يقصد بكلمة « مقال غير مرخص به من السلطات » أنه عند ظهور المقال ســوف يهاجم الكاتب علانية ــ وان امتدح سرا ــ لافشائه أسرار خطط الحرب الالمانية والتى تعتبر مسألة من المسائل الممنوع تداولها •

وفى ذلك الوقت كانت النسخ المرسلة للبلاد الاجنبية قد أرسلت فعلا ، وهذا هو بيت القصيد ، اذ أراد جوبلز أن يقرأ هذا المقال فى الخارج •

---

(١) Louis P. Lochner (ed and transl) The Goebbels Diaries, Doubleday and Co. Inc, New York, 1948.

واختيرت جريدة « فرانكفورتر زيتنج » لكى تكون الوسيلة لهذه الخدعة لان الجريدة كانت مشهورة باستقلالها ، ولها جمهور أجنبى كبير قبل تولى النازيين السلطه • ولما أدرك النازيون أهميتها كوسيلة ممكنة للدعاية ، واصلوا اظهارها بمظهرها الاستقلالى مع أنها فى الحقيقة كانت غير ذلك شأنها شأن كل جريدة أخرى فى ألمانيا • وفى حملة الخداع التى قام بها جوبلز ، كان يحاول استغلال سمعة الجريدة السابقة •

ففى ٢٠ من مايو عام ١٩٤٢ ظهرت هذه الاضافة الى مذكراته « وفى أثناء هذا ظهرت المقالة فى فرانكفورتر زيتنج وهى ، المقالة التى كانت بايحاء منا ، والتى تهدف الى تحويل اهتمام جمهور العدو عن الجبهة الجنوبية » •

وصودر المقال رسميا وهوجم فى المؤتمرات الصحفية وتطورت الامور الى النقطة التى أستطيع فيها أن أوفد الدكتور كريج Kriegh الصحفى برحلة الى الجبهة الشرقية والى لشبونة لاقتراف أخطاء عديدة تدل على عدم الحذر والحرص بتوجيهات منا ، كأن يسكر ، وينشر الخبر - استنادا على انطباعاته - بأن الهجوم الألمانى مدبر للوسط لا للجنوب • واننى آمل أن نستطيع بهذه الطريقة أن ننشر هذا التقرير الزائف كشائعة فى أجهزة الدعاية فى العالم • وسوف نرى فى الأسابيع القادمة الى أى حد نتمكن من تضليل العدو • واننى لا أنتظر نجاحا كبيرا ولكن على المرء أن يحاول كل ما يستطيع فعله » •

وفى اضافة أخرى فى المذكرات فى اليوم التالى ٢١ من مايو سنة ١٩٤٢ ، نرى الخطوة التالية للحملة :

« استقبلت الصحفى كريج رئيس تحرير جريدة Scherl Verlog وهو الذى قام برحلة الى الجبهة الوسطى الشرقية بناء على أوامرى ، ولقد قررت أن يسافر بالطائرة الى البرتغال بناء على طلبى وهناك يقترف أخطاء عديدة تدل على عدم الحذر •• أخطاء تهدف الى الايحاء بأن الهجوم الالمانى القادم لن يكون على الجنوب ولكن على الوسط • ومن المقرر أن يقول أن لديه معلومات دقيقة عن

هذا الموضوع ، وانه استطاع اقناع نفسه بدقة هذه المعلومات عن طريق زيارة شخصية قام بها • ومن المفروض أن يبدى تلك الملاحظات فى بار حيث يظهر بمظهر السكير • واننى آمل أن تصل تلك الملاحظات الى آذان الصحفيين المحايدين، بل الى آذان الصحفيين المعادين • ولم يتضح بعد عما اذا كنا سوف ننجح بهذه الطريقة فى تحويل الاهتمام عن الجنوب » •

وظهرت ملاحظة جوبلز الأخيرة فى تاريخ ٢٣ من مايو سنة ١٩٤٢ :

« قدمت تقريرا للفوهرر عن محاولاتى لتحويل الاهتمام من الجبهة الجنوبية الى الجبهة الوسطى ، ولقد وافق الفوهرر موافقة تامة » •

عملية الدولار الأمريكى :

أما عملية الدولار الأمريكى فهى نوع آخر من استخدامات الحرب النفسية المستحدثة ونلخصها كما يلى :

فى ١٦ من أبريل سنة ١٩٥٣ وقبل توقف القتال فى كوريا بخمسة عشر اسبوعا استخدم السلاح الجوى الامريكى سلاحا جديدا أثبت فاعليته • وكنتيجة مباشرة لاستخدام هذا السلاح ظلت جميع طائرات الميج التابعة للجانب الآخر على الأرض لا تحلق لمدة ثمانية أيام • وحتى بعد أن بدأت الطائرات فى التحليق من جديد كانت الطائرات الميج التى تحلق فى الجو أقل بكثير عن ذى قبل •

ولم يكن السلاح الجديد سلاحا الكترونيا جديدا ولم يكن مادة متفجرة ذات قوة فائقة ، ولم يكن جهازا فنيا من أى نوع •• ولكنه كان «فكرة فى العمل» وهجوما نفسيا على الطرف الآخر •

ولقد أطلق على السلاح الجديد اسم « عملية مولاه » Operation Moolah لأنها تضمنت عرض مكافأة قدرها ٥٠٫٠٠٠ دولار لاى طيار يسلم طائرة ميج الى قوات الامم المتحدة علاوة على مكافأة اضافية قدرها ٥٠٫٠٠٠ دولار لاول طيار يقوم بهذا العمل •

وقد يبدو هذا أمرا سهلا ، ولكنه لم يكن كذلك • كان السلاح الجوى الأمريكي قد طالت به الرغبة لتوجيه هجوم مركز على عقول الطيارين الشيوعيين لتشجيعهم على الهرب ، ولكن السلاح الجوى لم يكن يعرف كيف يؤثر على نفسية هؤلاء الطيارين ، ولذلك انتظر نتائج الأبحاث التى كانت تجريها جامعة هارفارد • ولم يكن السلاح الجوى يعرف ماهية الكلمات التى من شأنها أن تؤثر فى نفوس الطيارين الشيوعيين • وأكثر من كل ذلك ، لم يعرف رجال السلاح الجوى مدى ما يمكن أن يحققه الهجوم النفسى من نتائج فى ميدان القتال • وكشفت الابحاث الاساسية التى أجرتها جامعة هارفارد على العقلية الشيوعية عن جوانب كثيرة فى عقلية الشيوعية ، جوانب يسهل التأثير عليها عند شن هجوم نفسى • وكانت معظم هذه الجوانب مغلقة غير معروفة ، وكل ما يمكن أن يقال هو أن « عملية مولاه » قامت على الضغط على عقلية الطيارين ، وبث روح التمرد فيهم على النظام الذين يتبعونه •

والواقع أن مثل هذه العملية تعتمد على الرشوة المادية بالاضافة الى العمليات النفسية • وفى رأينا أن هذه العمليات التى استخدمت مثيلاتها فى الماضى بصور متعددة قد تأتى برد فعل عكسى فتعمل على ازدياد للمقاومة ، فالمواطن الذى يذهب للحرب للدفاع عن قضية يؤمن بها لا يمكن أن يرتشى ولو بمال قارون •

صحيح أن هناك نفوسا ضعيفة فى كل مجتمع ، ولكنها قلة بحيث لا تستطيع أن تؤثر على قضية يؤمن بها المجموع •

عملية « ايتاليا كومبات » Italia Combatte

وتبرز هذه العملية كيف استخدمت الحرب النفسية لتأييد عمليات حركة المقاومة ، وتعتبر من حيث القيمة من أكثر العمليات التى تمت فى منطقة البحر المتوسط فى أثناء الحرب العالمية الثانية •

لقد جمعت هذه العملية بين النشرات وبين الاذاعة التى كانت تهدف الى اسداء النصيحة ورفع الروح المعنوية فى وحـدات المقاومة الايطالية الموالية للحلفاء والتى كانت تقوم بعمليات وراء خطوط الاعداء •

لقد استمرت هذه الوحدات منذ وقت نزول الحلفاء لاول مرة على الارض الايطالية حتى نهاية القتال فى ايطاليا ، تتلقف بصورة منتظمة جريدة أو نشرة تعليمات • وكان يلقى بهذه الجرائد والنشرات الطيارون الامريكيون والبريطانيون وكذا الطيارون الايطاليون الذين كانوا يعملون مع الحلفاء • ولما لم يكن من الممكن تغطية المنطقة كلها بالنشرات ، فقد استكملت تلك التغطية باستخدام الاذاعة على موجات متوسطة وقصيرة •

وفى مارس سنة ١٩٤٤ ، وضعت عملية « Italia Combatta » تحت اشراف البرت سبالدنج عازف الكمان الامريكى المشهور واستمر فى الاشراف على هـذا النوع الهام من العمل حتى نوفمبر سنة ١٩٤٤ عندما اضطره المرض الى العودة الى الولايات المتحدة ، وكان سبالدنج مؤهلا لهذا العمل بدرجة كبيرة •

وخلال الحرب أحيطت عمليات « ايتاليا كومبات » بسرية مطلقة ، فكانت تجمع المعلومات من مصادر متعددة سواء من مصادر الحلفاء ، أو مصادر ايطالية ، ومن مصادر صديقة أو معادية • وبغض النظر عن المصـدر الذى جمعت منه المعلومات السرية ، كانت تفحص تلك المعلومات بعناية قبل استخدامها • وفى بعض الأوقات كانت المعلومات هامة بدرجة أنها كانت تؤخذ مباشرة الى القائد الأعلى للحلفاء فى منطقة البحر الابيض ، من أجل استشارته ونصيحته •

وكانت « ايتاليـا كومبات » موجهة أحيـانا الى روما ـ قبل تحريرها ـ وكذلك الى جماعات المقاومة الـذين كانوا يعملون فى شمال ايطاليا ، وكانت أسماء الجواسيس الذين يتعاونون مع العدو ـ تذكر فى النشرات أو فى الاذاعة مما أدى الى أن يقوم أفراد المقاومة بتنفيذ حكم الاعدام فى عـدد كبير من هؤلاء الجواسيس ، وكانت تعطى تعليمات خاصة بارتكاب كل أنواع التخريب •

ولقد ذكر التقرير الرسمى للحرب النفسية للحلفاء فى منطقة البحر المتوسط الذى أعد عام ١٩٤٥ خصيصا لوزارة الحرب الامريكية : « انه ليس هناك أى شك فى أن (ايتاليا كومبات) كان لها أثر هائل على النظام والسلوك العام الذى أظهرته جماعات المقاومة ـ قبل وبعد اختراق الحلفاء لوادى البو » .

عملية « برادوك » :

وأخيرا نعطى مثلا يوضح استخدام الحرب النفسية بنجاح بغرض الضغط على أجهزة الأمن فى الدولة الهدف .

ففى أثناء الحرب العالمية الثانية قامت هيئة أفراد الحرب النفسية للحلفاء ، بعملية « برادوك » ، وكان الهدف هو أن تزيد من خطر ملايين العمال الاجانب فى المانيا على هيئة الأمن الداخلى الالمانى .

لقد كانت الوسيلة التى استخدمت هى اسقاط من أربعة الى خمسة ملايين لفافة من « المتفجرات الحارقة الزمنية القوية ذات الحجم الصغير على مناطق فى ألمانيا والنمسا حيث كان العمال الاجانب يتجمعون . وكانت كل ربطة من المواد المتفجرة تتضمن « كارت تعليمات » يصف طريقة الاستعمال ومكتوبا بتسع لغات ، علاوة على « دليل » يشير الى الأهداف المحتملة .

وبالاضافة لذلك استغلت الوسائل المألوفة فى الحرب النفسية ، فالدعوة الى حمل السلاح كانت توجه فى اذاعات خلال الليل من محطة اذاعة للحلفاء أطلق عليها Soldatensender Calais ، ولم تكن هذه الاذاعة تعرف نفسها على أنها اذاعة حليفة ، كما استخدمت النشرات الرسمية التى كانت مذيلة بتوقيع جنرال ايزنهاور .

كان هدف « برادوك » ، مزدوجا :

١ ـ الاستفادة بأكبر قدر ممكن من أعمال التخريب الفعلية التى يقوم بها العمال الأجانب .

٢ ـ تحطيم أعصاب قوى أمن الأعداء الى أقصى درجة ممكنة • وخلال الاسابيع الاولى من عام ١٩٤٥ ، عندما كان واضحا من الموقف العسكرى أن وضع حد سريع للحرب كان أمرا غير محتمل الوقوع ، رفض هدف التخريب •

وبالرغم من ذلك ، فان التقارير التى وردت الى الحلفاء من العواصم المحايدة مثل ستوكهولم وبرن والتى استخلصت من الاذاعة الالمانية قدمت الدليل على أن النداء الاذاعى أقلق المسئولين النازيين وحيرهم كثيرا • واستمر العمل فى تحقيق الهدف الثانى وهو :

« شغل ادارة الأمن الالمانية بجعلها فى حالة مستمرة من الخوف والترقب حتى أبريل سنة ١٩٤٥ ، عندما اتضح أن نهاية الحرب قريبة » •

ودلت الاستجوابات التى أجريت مع العمال الاجانب بعد انتهاء الحرب على وجود عقد نفسية فى اتجاهاتهم • فليس مجرد الخوف من البوليس هو الذى خلق فى هذه الجماعات روح التردد والاحجام عن القيام بأعمال التخريب ، ولكن أول عقدة نفسية كانت لدى هؤلاء العمال هى حينما فكروا تفكيرا منطقيا بأن مجهوداتهم لتخريب المصانع الالمانية هى جهود لم يكن لها داع نظرا الى التدمير الهائل الذى أحدثته قوات الحلفاء الجوية •

أما العقدة النفسية الثانية فهى قولهم بصراحة أن احجامهم عن الاشتراك فى أعمال التخريب يقوم على اعتبار أنهم لم يرغبوا فى القضاء على سير العمل فى مصنعهم • فالقضاء على سير العمل من شأنه أن يشكل عقبات شخصية لخسارتهم الاجور أو بطاقات التموين خلال الفترة المطلوب فيها اجراء اصلاحات أو الانتقال لمصنع آخر • ولذلك كان رجال الدعاية فى قوات الحلفاء غير واقعيين عندما طلبوا من العمال الاجانب أكثر مما يستطيع هؤلاء العمال أن يقدموه •

الفصل الثالث

الحرب النفسية الدفاعية

فى الحروب توجه الحرب النفسية جهودها وعملياتها ضد الجنود لتحطيم معنويات العدو مستهدفة من ذلك الحصول على « استجابات » بدرجة أكثر من عملها للحصول على عمل مباشر .

والواقع أن فى قدرة الحرب النفسية الحصول على عدة أهداف جملة وفرادى ، وأكثر هذه العمليات شيوعا هى التى تستهدف اعداد عقل جندى العدو للاستسلام فعلا ، وكذلك عدم القيام بأى عمل لصالح الجانب الذى يقاتل له ، وعندما لا يتطلب الاستسلام شيئا أكثر من السلبية فان النشرات تعتبر كافيه ونافعة ، وفى هذه الاحوال يكون كل ما يطلب من العدو هو أن يقاتل قتالا سيئا وأن يرفع يديه مستسلما عندما يطلب منه ذلك . وتتضمن عمليات تحطيم المعنويات أغراضا أخرى مثل تهييج جماعات العدو ضد بعضها بعضا ، والتثبيط العام لمعنوياته ، واخماد همة وعزم جنوده وقادته .

ولكى تكون عمليات تحطيم معنويات العدو ذات فاعلية فانها يجب أن تتجه نحو المعنويات الفعلية التى يعنى بها الجنود ويهتمون لها ، فالجنود الذين يتناولون غذاء جيدا لا يمكن تخويفهم باحتمال أنهم سيواجهون الجوع فى تاريخ قادم بعيد ، والجنود الذين يتوافر لهم ضباط أكفاء لا يمكن حثهم على القيام بثورة ، والجنود الذين تصل اليهم الرسائل تباعا لا يمكن أن يشعروا بنقص

معلوماتهم عمن تركوهم وراءهم فى أرض الوطن ، ومع هذا فان بعض النقاط الضعيفة فى تنظيم العدو يمكن أن تقدم الاهداف لعمليات تحطيم المعنويات ، فموقف الهزيمة مثلا يفرض اجهادا كبيرا على الجنود وعلى الضباط الذين يقومون بأعمال ذات مسئولية ، وفى مثل هذا الوقت يبرز التفكك داخل الوحدات ، ويكون المجال مهيأ لانتشار الشائعات على نطاق واسع كما يكون تأثير عمليات الدعاية ضد المعنويات ذا أثر بالغ ٠

وفى عام ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ وجه الحلفاء حربهم النفسية ضد ألمانيا الى القادة وجموع الجنود الالمان ، وقد بنيت عمليات الحرب النفسية التى وجهت الى القادة الألمان على أساس منطق التأثير فى أولئك الذين تتوافر لهم السلطة فى تحقيق الاستسلام على نطاق واسع ، ولكن الواقع تطور تطورا غريبا ٠

فان المعنويات الالمانية كانت أسوأ حالا فى الدرجات الاعلى عنها فى الدرجات الادنى ، وفى السنة الاخيرة من الحرب لم تنحط معنويات الجنود الالمان فى الجبهة الغربية الا بدرجة صغيرة على الرغم من أن الاغارات الجوية العنيفة التى كانت توجه الى وطنهم من خلفهم ، وذلك بالمقارنة الى ما كان يجب أن تنحط اليه معنوياتهم لو كانت لها صلة مباشرة بالموقف الاستراتيجى الذى كانت عليه ألمانيا ككل ٠ ومن جهة أخرى كانت المعنويات بين الضباط القادة ورجال هيئة أركان الحرب فى حالة تعسة ، وكانت المؤامرة الفاشلة Putsh التى قام بها الجنرالات الالمان فى الصيف السابق مقدمة شعور سابق لانهيار معنويات القيادة الالمانية العليا ٠

ولقد نشأ هذا الموقف غير العادى لان جهاز الدعاية للاشتراكية الوطنية « النازية » كان لا يزال يؤثر فى حشود الجنود ، وكان الضباط السياسيون لا يفتأون يلقون الخطب ، وكان الجنود يتلقون محادثات تشجيعية مع معلومات عن الحرب ٠ وهى معلومات مشوهة لا بارقة أمل فيها ولكنها على أية حال معلومات ٠ كما كانت تساق لهم الوعود عن امتيازات وعن راحة سيمنحونها ٠ وفى نفس الوقت زيد من ضبط وربط الجيش الالمانى تبعا للتقليد البروسى ، فضلا عن أنه بقى للجنود العاديين حتى فى شهور الهزيمة كل ما تلقوه فى

السنوات السابقة للحرب من امتيازات علاوة على ما علمته لهم دعاية هتلر الداخلية المستمرة غير المنطقية طوال سنى الحرب •

وعلى نقيض الجنود العاديين كان الضباط فى حالة سيئة وهم الذين يملكون القدرة على تفهم الأفضلية التى كانت لدى جيوش الحلفاء ، اذ كانوا يعرفون ما يكفى عن الاستراتيجية العالمية والاستراتيجية « القارية » فى أوروبا ، وعن الاستراتيجية المباشرة فى الجبهة الغربية ، وعن العوامل الاقتصادية وغير ذلك مما يمكنهم من أن يدركوا ادراكا أصيلا أن الموقف سيىء . وبالاضافة الى هذا فان كثيرا من طبقة الضباط كانوا يمتهنون النازية شخصيا على حين رحبوا بالنازية كوسيلة لتعبئة عامة الشعب فى الخط وراء القوات المسلحة ، حتى أولئك الضباط الذين كانوا مسئولين عن الدعاية فانهم بالطبيعة أحسوا بالحرج من كل الدعايات بما فيها دعاية حكومتهم ، وقد نقلوا نقدهم لها الى زملائهم الضباط •

وقد جاء دفاع الالمان ضد حرب الحلفاء النفسية بثماره ، فقد تابع الجنود القتال حتى عندما لم يكن للقتال نفع ، وعندما فكر قادتهم فى أن الوقت قد حان للاقلاع عن القتال ، لم يبقوا فى قياداتهم الا بسبب أن رجال الجستابو وعدوا بالموت الفورى لاى ضابط كبير حتى لو همس بكلمة « الهزيمة » •

لقد نجح الدفاع الألمانى ضد الحرب النفسية لانه قام على أساس عاملين اثنين :

١ ـ جودة الاغذية ، والتموين والمواصلات والأسلحة بالنسبة للجنود الألمان •

٢ ـ تنسيق الخدمات المعنوية لمقاومة الحرب النفسية •

ولقد توافر للجنود الالمان بالاضافة الى الاحوال الطيبة نسبيا التى كانوا فيها والتى أخفت عنهم الموقف الاستراتيجى المنهار للرايخ الثالث فيما وراء خطوطهم ، خدمات مجموعة من ضباط التوجيه المعنوى الذين كانوا يتولون

فعلا الحرب النفسية الدفاعية • فقد كان لدى أغلب القوات « سرايا الدعاية Porpaganda Kombanie » ولهذه السرايا طرافتها من الناحية التنظيمية ، فقد جمعت بين واجبات الدعاية من طباعة ونشر واذاعة الى استجواب الاسرى وغير هذا وبين واجب بناء الروح المعنوية ، ولم تقتصر خدماتها على العمل ضد العدو بل عملت على معاونة الجنود الالمان أنفسهم • ولما كان هؤلاء يخطرون باتجاهات دعاية الحلفاء فانهم كانوا قادرين أيضا على توزيع دعاية مضادة بسرعة وغالبا ما كانت تسبق دعاية الحلفاء •

ولقد اعتمدت الحرب النفسية الدفاعية على تلقين الوحدات عمليات الاستخفاف بالعدو والاستهزاء به ، وعدم تصديق الانباء التى يذيعها ، كما بثت الوحدات الخوف من أهداف العدو السياسية وأثارت كراهية عقلية العدو فى حملته • وكان ضباط الدعاية وضباط العمل ضد النشاط الهدام Countersubversion ورجال الشئون العامة يعملون أما من مكتب واحد واما أنهم كانوا يقومون بكل هذه الواجبات مقترنة معا مما مكن من استخدام دعاية مضادة مرنة •

ولم تكن أغلب هذه الدعاية المضادة للالمان دعاية مضادة حقا بالمعنى الفنى الصحيح ، فهى لم توجه ضد دعاية الحلفاء بل كانت معدة للمعنويات الالمانية ، ولم يترك بناء المعنويات الى الاجراءات الترويحية العارضة ولا للصحف والنشرات الدورية التى تصدر خاصة للجنود ولا لمنظمة الترفيه وما شابهها فحسب • بل صحب العمل بعمليات اخبارية موحدة مع تكرار عرض القضية الالمانية ، ومن ثم فانه لا يمكن القول أن الحرب النفسية التكتيكية الدفاعية التى مارسها الالمان ليست بعملية ناجحة تماما ولا بفاشلة تماما ، فهى على أية حال ساعدت القوات المسلحة الالمانية على الثبات وعاونت جهد النازية فى الحرب وخاصة فى المرحلة الأخيرة •

على أن الحرب النفسية الدفاعية فى المستويات العليا هى فى الواقع عملية تعارض ذاتى، فالحرب النفسية الجيدة لا توجه أبدا ضد حرب نفسية أخرى بل على

ما يقال فى اسلوب حرفى أن كلتا الحربين عندما تلتقيان تسير كل منها فى اتجاه مواز دون أن تلتقيا، فعندما ألقى الطيارون الأمريكيون القنابل على محطات الاذاعة الالمانية لم يكن هؤلاء الطيارون يقصدون اقصاء الدعاية الالمانية عن الهواء ، بل فعلوا هذا فى محاولة تحطيم شبكة المواصلات الألمانية . اذ أن من المحال احكام توجيه القنابل الى محطة اذاعة أو الى مطبعة تصدر نشرات دعاية بالقدر الذى يمكن من منع العدو من فرصة التحدث ، كما أن القارىء المدنى لا يمكن أن يقذف النشرة التى أسقطتها عليه الطائرة ثانية نحو الطائرة • وان كان مما لا شك فيه أن الطائرات الانجليزية عندما ألقت قنابلها على محطات الارسال فى «أبو زعبل» أيام العدوان الثلاثى كانت تستهدف اسكات محطة اذاعة القاهرة حتى لا تعبىء الشعور القومى والعرب ضد العدوان وضد التحالف الانجليزى الفرنسى الاسرائيلى •

اذا فالحرب النفسية الدفاعية توجه ضد عقل المستمع ، لخلق اتجاهات باعتقاد معين أو بالشك الذى يؤدى الى العمل المطلوب • ومن المهام الرئيسية للحرب النفسية الدفاعية اجتذاب الانتباه ثم استمرار الابقاء على هذا الاجتذاب ، ولكن الحرب النفسية التى تبدأ بتركيز انتباهها على ما يعرفه العدو لمقضى عليها بالفشل من البداية • وأحد الامثلة المشهورة ، الرسالة العاطفية التى وجهها روزفلت للفوهرر الالمانى شخصيا يوم ١٥ من أبريل سنة ١٩٣٩ ، وطلب منه فيها أن يعد بعدم الاعتداء على ٢١ دولة • وقد ذكر روزفلت فى رسالته أسماء هذه الدول ، وأعطت هذه الرسالة التى كانت هى رسالة دفاعية فى نغمتها واسلوبها لهتلر فرصة للرد على شبكة الاذاعة الالمانية الموجهة للعالم كله • وقد ألقى هتلر رده وسط عاصفة من ضحكات مجلس الريشستاغ وهتافه ، على الرغم من أن رسالة روزفلت كانت متزنة حكيمة فيها عوامل انسانية • وقد أثارت أحاسيس الناس الذين كانوا يتفقون معه فى وجهات نظره ، ولكنها لم تخلق شيئا فى الالمان الذين وجهت اليهم الرسالة أصلا، ولو كان الرئيس روزفلت قد وجه خطبة عنيفة مهددة فى وضوح وجلاء لكان من الممكن أن تخترق العقلية الألمانية فى ذلك الوقت •

وأخيرا علينا أن نذكر أن الحرب النفسية الدفاعية يجب أن تجعل من أهدافها أعمال « مقاومة التخريب المعنوى » و « مقاومة الجاسوسية » ، ولقد تفاخرت

منظمة التشيكا ـ البوليس السرى السوفييتى فى شكله الأول ـ ذات مرة بأن الرأسماليين المخربين ومثيرى المتاعب لا يستطيعون العمل فى الاتحاد السوفييتى لأن البوليس المخصص للعمل ضـد التخريب المعنوى يصل عـدد أفراده الى مائة مليون » ٠

والذى تقصده « التشيكا » أنها قد دربت معظم السكان على التبليغ عن أى فرد يخرج على الجماعة أو ينحرف عن الاتجاه العام للمجموعة ٠ ويمكن تحقيق تعاون شعبى مع الأجهزة المسئولة عن مقاومه التخريب والأمن عندما تتوافر لهذه الاجهزة كفاية فى عملها وعندما تكون موضع احترام الجماهير وتقديرهم نتيجة الثقة المتبادلة بينها وبين الشعب ٠

وتستطيع الحرب النفسية الدفاع عن أرض الوطن ضد عمليات العدو اذا تمكنت من أن تخلق وعيـا بالحذر من الدعاية وتجعل الناس قادرين على نقـد الاتجاهات والآراء المضـادة للسياسة القومية ٠ على أن التكتيكات الرسـمية المعدومة المهارة والاكتفاء بالتشهير العام بالانشقاق والخروج على رأى الجماعة مما يجعل المواطن يعتقـد ما اعتقده مستر بامبل فى رواية « أوليفر تويست » عندما قال أن « القانون حمار وغبى » ٠

ونحن لا نستطيع أن ننكر أن الحرب النفسية الدفاعية اذا ما قامت على اسلوب فنى صحيح لابد أن تنجح ضد عمليات العدو السوداء والمثيرة للعواطف والتى تهدف الى محاولة التفرقة السياسية أو تزييف الانباء بغية الحصول على انهيار معنوى بين الشعب ٠

ومع أن الحرب النفسية الدفاعية لا تستطيع أن تغير الانهيار المعنوى الناتج من الانهيار العملى داخل الوحدة السياسية أو القومية، ففى مقدورها أن تقلل من سرعة الانهيار ، ولذلك فنحن لا يمكن أن نستعيض بها عن القيادة السيئة ٠

والواقع أنه ليس هناك شىء يعوض القيادة السيئة ، وهذا يبرز لنا أهمية القيادة السياسية الجيـدة التى تستطيع أن توجه الشعب نحو رفاهيته وأمنه وتعمل على تحقيق آماله وأمانيه ٠

أهمية التوجيه المعنوى :

على أن التوجيه المعنوى فى القوات المسلحة يلعب دورا أساسيا فى الحرب النفسية الدفاعية • وفى كل الجيوش الحديثة توجد بالاضافة الى العلاقات العامة وحدات للتوعية والترفية تقع عليها مسئولية امداد الجنــود بوسائل الترفية ومعدات التعليم الثقافى ووسائل التوعية السياسية والاجتماعية •

ووحدات التوجيه المعنوى تعتبر عناصرالدفاع الاساسية ضد الحرب النفسية التى يمارسها العدو ويظهر نجاحها فى الاحتفاظ بالروح المعنوية العالية للجنود ومنعهم من التأثر بما يقوم به العدو من اجراءات الحرب النفسية على مدى نجاح برامجها فى الاحتفاظ بانتباه الجنود نحو ما يقوم به العدو من وسائل مغررة وتفهيمهم هدف العدو من هذه العمليات • ولذا فان التوعية المستمرة للجنود فى زمنى السلم والحرب تعتبر سلاحا دفاعيا فعالا ضد العدو عندما يحاول أن يشن حربه النفسية • وغالبا ما يكون لهذه الوحدات اذاعات خاصة توجه للقــوات المسلحة ، ففى الحرب العالمية الثانية أنشأت اذاعة القوات المسلحة الأمريكية خدمة اذاعية تغطى العالم كله مستهدفة بذلك ارشاد جميع الأمريكيين خارج بلادهم الى حقيقة الموقف • وعلى الرغم من الجهود التى قامت بها وحدات التوعية والتوجيه بالقوات الامريكيةفىالحرب العالميه الماضية فقد أغفلتالكثير منمفهوم الحربالنفسية التى كان يجب عليها أن تغرسها فى أذهان الجنود الامريكيين ، ولكن من ناحية أخرى حققت الكثــير فى ميدان الدعاية • وقد يرجع ذلك الى أن مفهوم الحرب النفسية بمعناه الحديث لم يتبين بوضوح للقوات الامريكية الا بعد ابتداء العمليات الحربية فى كوريا عام ١٩٥٠ •

وفى الجيش الألمانى والسوفييتى كانت وحدات التوجيه المعنوى أقساما من جهاز الدعاية المنسق الذى أخذ مسئولية الحرب النفسية والعــلاقات العامة والأنباء والثقافة الشعبية • وفى القوات اليابانية اهتمت وحدات التوجيه المعنوى بالترويج البدنى والعاطفى مستخدمة الصور والرسوم التى تجلب الحظ السعيد

وما الى ذلك من وسائل الترفيه عن الأفراد ، ولم تكن لها صلة مباشرة بأجهزة الأنباء والدعاية المنظمة الرسمية الا بنسبة لا تذكر ٠

ويمكننا أن نتساءل الآن : ما واجب كل فرد من أفراد قواتنا المسلحة فى ميدان الدفاع النفسى ؟

ان الحرب النفسية بالنسبة للعدو وسيلة طيعة فى يده . انه ينفق الكثير ويبذل مجهودا ضخما فى حربه النفسية ضدك لأنك الدرع الذى يحمى استقلال بلدك وكرامة وطنك وأهلك ٠

على أننا يمكن أن نجعل واجبات أفراد القوات المسلحة ومسئولياتهم فى هذا الميدان تحت بندين رئيسيين :

أ ــ واجبات القائد :

ان ضابط القوات المسلحة العربية الذى يحارب فى الخطوط الامامية من الجبهة مع وحدته وقت الحرب يعتبر هدفا له أهميته فى الهجوم النفسى الذىيشنه العدو سواء أكان ذلك فى السلم أم فى الحرب ٠

وكلما ازدادت نظرة العدو الى قواتنا المسلحة كعامل من العوامل الفعالة فى الدفاع عن نظامنا الاشتراكى وعن كرامتنا الوطنية ازدادت هجماته النفسية علينـــا ٠

ولذا فان على كل ضابط فى القوات المسلحة مسئولية كبيرة فى تلك المرحلة الحرب النفسية ، وهو بهذه المسئوليــه يسهم بدرجــة كبيرة فى تلك المرحــلة التاريخية الكبرى التى يمر بها وطننا فى مواجهة الاستعمار والرجعية وأعــداء الوطن ٠

وعلى العموم فان على كل ضابط مسئولية فى هذا الميدان يمكن أن نلخصها فى النقاط الآتية :

١ ـ يجب أن يكون لدى كل ضابط الوعى السياسى الكامل نحو مفهوم اشتراكيتنا وأهدافها ، وكذا يعرف ما تتخذه الحكومة أو القيادة العسكرية من اجراءات فيما يتعلق بمجال الدفاع النفسى ٠

٢ ـ كما يجب عليه فى نطاق عمله أن يتفاعل مع القوى الشاملة التى تعمل للدفاع ضد الهجمات النفسية التى يشنها العدو ، وعليه أن يتذكر دائما أنه مسئول عن تسليح جنوده نفسيا وفكريا ، وهذا يتطلب منه شخصية قوية وقدرة على الاقناع ٠ ان الوعى بالمسئولية والتسليح النفسى والايمان بالعقيدة الوطنية هى الاسلحة التى يستطيع بها الضابط أن يخوض حرب العدو النفسية التى تدور معاركها يوميا ، كما يجب عليه أن يتسلح بالنشاط والتحكم والخيال الخصب والشعور بالمسئولية ٠

٣ ـ وأخيرا يجب على الضابط أن يكون ملما بالمعلومات الأساسية الكافية التى تمكنه كفرد فى المجتمع من أن يخوض المعركة النفسية بنجاح ٠

ب ـ واجبات الجندى :

ان الجندى كالضابط تماما هدف من أهداف الحرب النفسية للعدو ، كما أنه ليس من الصعب عليه كفرد فى القوات المسلحة أن يدافع عن ذاته ضد أعمال الحرب النفسية ٠ وهناك ثلاثة أمور يجب على كل جندى مراعاتها للتسلح بها :

١ ـ الوعى بما يحاول أن يدبره العدو ضد وطنه من تآمر وتخريب مادى ومعنوى ، والمام عام بمفهوم نظامنا السياسى ٠

٢ ـ يجب أن يكون ملما بطرق وأشكال وامكانيات الحرب النفسية ، وكذا اتجاهاتها ونشاطها ٠

٣ ـ الجلد والنظام اللذان يجب أن يواجه بهما أية تأثير للحرب النفسية .

وفى النهاية فان الدفاع ضد الحرب النفسية يتطلب منك كمواطن شريف اليقظة ، على أن تعرف :

- ماذا يدبر العدو ضد الوطن ؟
- ما هدف دعايته ؟
- ماذا يريد العدو منك أن تفعله ؟
- ما أسلوب الحرب النفسية وطبيعة دعاية العدو ؟

فاذا ما تهيأت لك المعرفة بهذا كله ، لم يعد من السهل أن يخدعك العدو أو يضللك .

عليك أن تنظر الى العدو نظرة شك دائما فهو يتربص بوطنك فى كل وقت ، فاذا سمعت اذاعة أو سقطت فى يدك نشرة أو وصلت الى مسامعك شائعة ، فابحث عن المصدر واجعل الشك رائدك دائما فى مثل تلك الحالات ما دمت لا تستطيع أن تعرف كيف نشأت الفكرة .

تذكر أن اذاعات الراديو السوداء والنشرات لا تجىء من المصادر التى تزعم أنها قادمة منها ، كما أن الشائعات لا تتحدث عن مصادرها الا فى شكل مبهم غامض .

انتقد كل ما يصل الى سمعك أو يدك ، وحتى اذا سمعت شيئا تعرف أنه حقيقى فلا تثق بالتفسير الذى يصحبه . فكر جيدا وميز بين الحقائق التى تستطيع التثبت من مصادرها وبين تلك التى لا تستطيع التثبت منها . كما يجب عليك أن تميز بين الحقائق وبين التفسيرات المغرضة التى تدور حولها . استخدم عقلك دائما وفكر جيدا .

وكحديث عام لا تثق بالعدو أبدا ، فحينما يبدى مودته لك فهو يسعى للاضرار بك .

واذا وقعت أسيرا فى أيدى العدو فلا تذكر له الا اسمك ورتبتك ورقمك العسكرى ولا تحاول أن تجعل لسانك ينزلق فيما تعتقد أنه ليس هاما ، فان التفاصيل القليلة عن الحياة فى وحدتك أو فى أرض الوطن قد تكون هى كل ما يحتاج اليه العدو منك ، ومهما أظهر لك العدو من مودة فلا تحدثه عن أسرتك فى أرض الوطن . انه يريد الحصول على معلومات ، ولولا ذلك لما أضاع وقته فى التحدث اليك .

ثق دائما فى الله وفى وطنك وفى زعمائك وقادتك ، فانهم يعملون دائما لصالحك ، وتذكر أنهم الهدف الأكبر لاعداء وطنك ، لأنهم يدافعون عن مصالحك ويحرصون على مكاسبك .

طوارىء المستقبل :

الواقع أن هذا السياق انما يشير الى تجارب معروفة ، ولا يمكن معها التحول الى مجرد تخيلات وأوهام مستقبلة . ان هناك الكثير من المواقف التى لم تحدث من قبل ولكن من الممكن تخيلها ، ومن ثم فانها تستحق البحث والمناقشة فى ضوء التطور الذى يمكن أن يحققه تقدم استخدام الحرب النفسية مع تقدم الأساليب والوسائل المستخدمة فى تلك الحرب ، وعلى سبيل المثال لا الحصر :

١ ـ ماذا يستطيع أن يعمل قائد وحدة صغيرة اذا ما ظن جنوده أنهم قد تلوثوا بميكروب مرضى بوساطة طائرات العدو التى تعمل فى الحرب البكتريولوجية ؟

٢ ـ كيف يتصرف قائد وحدة لو قالت اذاعة العدو لجنوده أنهم سيتعرضون للاشعاع وأن هذا الاشعاع سيسبب لهم الاصابة بفقر الدم والسرطان والموت مالم يستسلموا مباشرة ؟

٣ ـ ماذا يفعل قائد وحدة وجد نفسه قد عزل تماما عن وسائل تموينه ، ثم وجد نفسه يعمل وحده فى منطقة خطرة ملوثة وجنوده أصبحوا ضحايا دعاية سوداء للعدو ؟

٤ ـ ماذا يفعل اذا ما خطر لجنوده أنهم لن يستبدل غيرهم بهم تلقائيا ، أو بسبب أعمال العدو فى أن حكومتهم قد أغفلتهم وان مواطنيهم قد هجروهم وتركوهم للعدو ؟

٥ ـ وماذا يفعل القائد لو أن وفدا يمثل مختلف أقسام وحدته قد جاءه فى ميدان المعركة وطلب الوفد منه أن ينصت لشكواهم ؟

ولنفترض أن القائد يعرف أن جنوده يشكون عن حق من نقص الغذاء أو من الخطر الذى يواجهونه ولكنه يعرف فى نفس الوقت أن العدو قد اجتذب بعض جنوده بالتضليل وان العدو قد جعلهم ينشرون مظاهر التذمر أو أنهم قد جاءوا يطالبون باعداد ملاجىء عميقة تقيهم ، بعد أن كانت نشرات دعاية العدو قد وجهت أنظار الجنود الى المطالبة بهذه الملاجىء ٠٠ فهل يعامل الجنود على أساس أنهم خونة أو على أساس أنهم حمقى قد ضللتهم دعاية العدو ؟

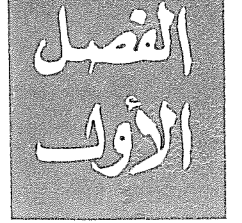
٦ ـ ماذا يفعل القائد لو واجه مشكلة خيانة سياسية أو مؤامرة تخريب بين صفوف وحدته ؟

ان كل هذه صور جديدة لم يعرفها القادة من قبل ، والجنود فى كل حرب سابقة كانوا يذهبون الى القتال وهم واثقون بقدرتهم على كسب الحرب ، ولكن مع حرب المستقبل لا يمكن ضمان هذه الثقة ومن غير المعروف ماذا يمكن أن يفعل الجنود لو عرفوا أن دورهم فى أرض الوطن قد دمرت وأن أسرهم قد مسحت باغارات ذرية قام بها العدو ؟

ان هذه كلها أسئلة من طراز جديد لها صلاتها الوثيقة بالحرب النفسية والقول بأن مثل هذه المشكلات لم تواجه أى قائد من قبل ليس يعنى أنها لن تحدث ، ومن ثم فان رجولة واستقامة وفطنة قادة الوحدات الصغيرة قد تتعرض لواجب غير متوقع ٠ واجب جعل واحداتهم تتماسك فى صلابة وقوة فى مواجهة هجوم نفسى مدمر ٠

الباب الرابع

مجالات التوصيل



الفصل الأول

مجالات التوصيل

قد يكون من المناسب الآن أن نبين وسائل التوصيل التي يمكن الاستفادة منها في مجهودات الحرب النفسية ٠

وعلى الرغم من أن هناك وسائل عديدة مقررة ثبت نجاحها فنحن لا نستطيع أن نتطرق اليها جميعا ٠ ولذا فسنقصر بحثنا على الوسائل الرئيسية التى استخدمتها الدول المختلفة فى توجيه مجهوداتها النفسية نحو الأهداف المحددة

ان معركة الاذاعة بنوعيها ـ العلنى والسرى ـ ونشرات الاستسلام والنشرات الصحفية واسقاط الكتيبات ومكبرات الصوت ، استخدمت كلها فى الماضى كأسلحة فعالة من أسلحة الحرب النفسية ٠

وليست هذه كل الوسائل ، فقد لعب الابتكار والمبادأة دورا كبيرا فى ايجاد وسائل أخرى منها الدبابة والطائرة ، حيث اتخذنا من وسائل الدعاية على ما سنرى بعد فى هذا الفصل ٠

لكن من الضرورى أن نلفت النظر هنا الى سلاح فتاك من أسلحة الحرب النفسية ونعنى به الشائعات ، ونظرا لخطورة هذا السلاح بخاصة أننا قاسينا منه الكثير فقد أفردنا له الباب التالى حتى يستطيع القارىء أن يتبين مدى خطورته ويتفهم الأساليب التى يستخدمها عدو الوطن لتقويض بنائنا أو تعويق تقدمنا ٠

ان اختيار أنسب الوسائل لمسألة تعتمد على تداخل عناصر عدة وتفاعلها منها توافر التسهيلات اللازمة ، وقدرة الجمهور المستمع على استقبال المادة المرسلة وفهمها • وفى اختيار الوسائل يجب أن نقدر :

- الأذواق والعادات والتقاليد لدى الجماعات التى نخاطبها •
- الوقت المتوفر لدينا لاتمام مهمة خاصة •

ونحن لن نناقش كل وسيلة ممكنة فى هذا الفصل خشية الاتساع ، فقد أردنا فى الحقيقة أن نبرز أو نقدم الأمثلة التى تغنى عن الأخرى فى كشف الوسائل العادية وغير العادية التى استخدمت فى الحرب النفسية ، ونوضح فى الوقت نفسه الاستخدام الاستراتيجى والتكتيكى للحرب النفسية فى أثناء السلم والحرب •

معركة الاذاعة :

لعبت الاذاعة فى الحرب العالمية الثانية دورا كبيرا داخل كل من المعسكرين المتنازعين ، وفتت فى عضد العدو ومزقت قواه المعنوية ، وقد اشتد أثرها خطورة بعد الحرب نتيجة التطور الكبير فى أجهزة الراديو وظهرت الترانزستورات الزهيدة الثمن التى يتمكن بها الملايين ممن لا يعرفون القراءة والكتابة من الاستماع الى الدعايات المختلفة التى ترسلها الدول •

واليوم تجد أن كلا من المعسكرين الشرقى والغربى يقوم يوميا بالدعاية فى مئات من ساعات الارسال ويتنافس تنافسا لا هوادة فيه للتأثير على عقول المستمعين •

الاذاعة على الموجة القصيرة :

تتحمل الاذاعة على الموجة القصيرة عبء الحرب النفسية عبر المسافات البعيدة ، ويظهر خطرها فى أنها تربط المكاتب والادارات التى تعد للحرب النفسية بمحطات فرعية تبادلية تعمل على الموجات العادية عن أن تكون وسيلة للارسال المباشر ، اذ غالبا لا تتوافر أجهزة الاستقبال على الموجة القصيرة بدرجة كبيرة لدى الافراد • ومن جهة أخرى فان المستمع العادى على هذه الموجات قد ينصت اليها حينما يحاول أن يستقبل أنباء هامة معروضة عرضا جيدا ، ولكنه لا يمكن أن يفضل الموسيقى على هذه الصيحات العالية التى تطير على أجنحة الأثير • وفضلا عن هذا فان استخدام جهاز استقبال على الموجة القصيرة فى وقت الحرب يتضمن رغبة متعددة مقصودة من جانب المستمع فى القيام بعمل شيء يعلم أنه يتعارض مع ولائه أو يعرضه لخطورة على أساس أن الاذاعة على الموجة القصيرة هى اذاعة من الخارج يقوم بها العدو •

وتمكن الموجة القصيرة من أن ترسل محطات الدعاية المتقدمة التى تعمل على الموجات العادية مواد تعد اعدادا طيبا فى أرض الوطن، حيث يستطيع عدد كبير من الاخصائيين العمل • فالأنباء يمكن أن تعد بعناية كما أن كل المواد الاخرى من تمثيليات وغيرها تعد بواسطة اخصائيين محترفين ويقوم بأدائها ممثلون أكفاء ، ويسجل هذا كله على أشرطة أو اسطوانات ثم ترسل الى المحطات الأمامية التى تذيعها على الموجات العادية حسب الظروف •

وبهذه الطريقة كانت المحطة الامريكية فى جزيرة سيبان فى الباسفيك تذيع الى اليابان مباشرة اذاعات لم يكن من الممكن أن تذاع على الهواء لو كانت الهيئة التى تعدها تعمل فعلا من الجزيرة • ولقد كان الناس الذين يعملون من سيبان مجرد فنيين اخصائيين فى المواصلات اللاسلكية ، وكانوا ينقلون المواد عن الاذاعات الامريكية من جزيرة هواى أو من اذاعة سان فرانسيسكو على الموجات القصيرة ثم يعيدون اذاعتها لليابان على الموجة العادية ، وقد سمع الملايين من

اليابانيين هذه الاذاعة على الموجات العادية مقابل عشرات أو حتى مئات يمكن أن يكونوا قد سمعوها من قبل على الموجة القصيرة مباشرة ٠

وفي الامكان استغلال الامكانيات المتوافرة فى أرض الوطن من اعداد مجموعة كبيرة من المواد معدة للاذاعة ، فيتهيأ بذلك فى المواقف الحساسة أو فى المواقف الغامضة المريبة أربعة أو خمسة برامج تبادلية تغطى الوقت المحدد للبرنامج الكامل ، ويمكن بتسجيل المواد على أشرطة أو اسطوانات أن تمرر وهى فى صورة صالحة وأن تعرض وتفحص وتراقب ويصدق عليها ، حيث لا يتسنى أن يتم هذا فى محطة أمامية تعمل فى منطقة العمليات ٠

وللاذاعة على الموجة القصيرة نفعها بالاضافة الى استخدامها كوسيلة لارسال مواد الاذاعة الى محطات التوزيع الامامية Relay Stations اذ تستطيع أجهزة الاستماع والتصنت للعدو وأجهزة مخابراته أن تلتقط هذه الاذاعات ، كما يستطيع أن يسمعها الأشخاص ذوو المكانة السياسية والاقتصادية فى بلاد العدو ، ومن ثم تكون الاذاعة على الموجة القصيرة بمثابة حديث موجه الى حكومة العدو والى الأشخاص الذين يتولون الزعامة فى بلادهم سواء كانوا داخل الحكومة أو خارجها ٠

لقد كانت الجوهو كيوكو Joho Kyoku (مجلس المعلومات الامبراطورى) والجيموشو Gaimusho (وزارة الخارجية) فى طوكيو تتصنتان الى الاذاعة الأمريكية التى ترسل من سان فرانسيسكو ، فكان كل ما يذاع من سان فرانسيسكو يصل الى أعلى السلطات فى اليابان ٠ وتحدث القبطان ايليس زخارياس – الى الزعماء اليابانيين الذين كان يعرفهم من قبل أيام عمله فى اليابان – من اذاعة سان فرانسيسكو واعترف اليابانيون أنفسهم بأن اذاعاته لعبت دورا هاما فى استسلام اليابان ٠

نشرات الأخبار على الموجة القصيرة .

ونشرات الأخبار شأنها شأن الاذاعات الدولية على موجة قصيرة احدى أدوات الحرب النفسية .

ان الحرب النفسية تعني ببساطة التلاعب بالكلمات ، وبعقول الناس وانفعالاتهم بطريقة من شأنها أن تخلق ردود أفعال عندهم تكون موالية للقضية المتبناة . ولذلك فالحرب النفسية الناجحة أو الدعاية السليمة تعتمد على ما يأتي حتى تصبح فعالة :

١ - تعريف واضح للأهداف أى اتفاق محدد لردود الأفعال التى يسعى الفرد الى خلقها أو ايجادها .

٢ - فهم مطلع ومتعاطف للجمهور المستمع من ناحية ظروفه الاجتماعية ، وحالته العقلية ، وآماله ومخاوفه ، وما يحبه وما يكرهه .

٣ - استخدام ماهر للغة والأفكار التى يمكن عن طريقها اجتذاب اهتمام المستمع وكسب ثقته .

أهداف نشرات الأخبار :

والواقع أن نشرات الأخبار الاذاعية على الموجة القصيرة تهدف الى :

١ - تغطية الأخبار التى لا يستطيع المستمع معرفتها بدون الاذاعات .

٢ - اقناع المستمعين بدقة الأنباء التى تذاع عليهم .

٣ - تفسير الأنباء فى حدود الحقيقة أو الصدق ، وبطرق تعمل على تعزيز موضوعات الدعاية الرئيسية المستخدمة .

٤ - التقليل من شأن العدو من حيث هو مصدر للأنباء .

فهم المستمع :

والواقع أيضا أن عملية اختيار مقتطفات من الأخبار لمعالجتها وتأكيد اهميتها أو تنفيذها لا تكون مجدية الا اذا وضع المرء نفسه في موقف المستمع ٠

ان اختيار الأنباء يحدده بدرجة كبيرة التقدير السليم لظروف المستمع وحالته العقلية ، فاذا ما فكر المرء فى نشرات الأخبار على هذا الضوء ازدادت درجة الوضوح فى التفرقة بين نشرات الأخبار المحلية ونشرات الأخبار من أجل الدعاية ٠

ونتيجة للخبرات الماضية وجد أن الحقائق التالية يجب أن توضع فى الاعتبار عند تقدير ظروف المستمعين وحالتهم العقلية :

١ – ان الاستماع لاذاعات على الموجة القصيرة فى بلاد ديكتاتورية أو فى بلاد تحتلها القوات العسكرية لبلاد ديكتاتورية هو أمر خطر ، ولذلك فمن المحتمل جدا أن يكون هذا الاستماع بصورة غير منتظمة بدرجة كبيرة ٠ وكنتيجة لذلك فضل أن تكون الاذاعات قصيرة ، وأن تؤكد أهمية الاخبار الاساسية فقط ، وأن تكرر الاخبار الهامة أحيانا ٠ ومن المهم الا يشتت انتباه المستمع بمسائل تافهة أو بمسائل ليس لها أثر فى حياته ٠

ولقد استندت فكرة تكرار الأنباء الهامة الى افتراض أن الاستماع لا يكون منتظما ، وأن تلخيص الاحداث الهامة فى الاخبار يحقق الغرض المنشود وهو الابقاء على الاهتمام بالأنباء ٠

٢ – ان الاستقبال على الموجة القصيرة تحت أحسن الظروف استقبال ردىء غالبا ، كما أن الرسائل المنقولة أو المذاعة تكون دائما معرضة للعرقلة من جانب مجموعات غير صديقة ٠ ولكى نتغلب على العقبات الطبيعية أو العقبات التى يصنعها الانسان يجب أن تكون الكلمات

المستعملة والالفاظ واضحة ، وأن تكون سرعة المتحدث دون السرعة التي تستخدم في نقل الأنباء المحلية • وفي المناطق التي يجب أن يشجع فيها التكرار يستحسن أن تذاع نشرة أخبار مرة في اليوم على الأقل وبسرعة الاملاء •

٣ ـ ويجب أيضا أن يكون نظام عرض الأخبار متفقا مع النظام الذى يسود حياة المستمع • فالمستمع في بلد يحتله العدو يهتم بالاخبار التي لها صلة ببيئته المألوفة لديه ، وبثرواته الخاصة ، وبأنباء العدو بخاصة اذا كانت سيئة ، وبسائر الانباء التي لها تأثير على الموقف وعلى كيان المستمع •

ومن الضرورى أيضا ألا تزدحم الاذاعات أو نشرات الاخبار بأسماء أماكن غير مألوفة • ومن الأفضل أن تكون نشرات الاخبار ـ ما أمكن ـ بديلات لرموز ملموسة مثل عدد الاميال التي تقدمتها القوات ، وعدد الاسرى الذين اعتقلوا ، وعدد القتلى من العدو ، وعلى المرء أن يقتصد في استخدام أسماء الأماكن حتى يتيح الفرصة للأثر الترابطي القوى لاسماء قليلة يمكن تذكرها بسهولة •

كما أن مقتطفات الانباء عن صراع عالمي يجب أن تجمع بطريقة من شأنها أن توضح أو تؤكد أهمية الجوانب العالمية في الصراع • ويجب أن تغطى الأنباء بطريقة تفضح أهداف العدو وأعماله وتقارن بالاعمال الطيبة من الجانب الآخر • فمثلا يمكن وضع الأنباء الخاصة « باستغلال العدو للاراضى التي يحتلها » بجانب الأنباء عن « أعمال انسانية يقوم بها الجانب الآخر » بحيث تلقى ضوءا قويا على المقارنة بين النوعين المختلفين من السلوك •

وهناك نقطة هامة أخرى وهي أن الشعارات التي لها معنى في ثقافة أو عقيدة المجتمع الذى يعد نشرات الاخبار الخارجية يجب أن تغلف بمغزى أو معنى عملى • ولذلك يجب اعادة صياغة كلماتها حتى تصير قادرة على أن تخلق في أذهان المستمعين صورا لأفكار مجردة •

ولكن من ناحية أخرى فان استخدام الشعارات التى تشكل تلاعبا بالألفاظ قد تحد من قيمة الانباء ، وتقلل الثقة فى المستمع .

والحقيقة أن استخدام الشعارات أمر يستحق التفكير المستمر بالنسبة للاخبار والتعليقات . كما أن صياغة الالفاظ والشعارات ، وعدد المرات التى تستخدم فيها تتطلب معرفة دقيقة بمنطقة الهدف الخاصة التى سوف تردد فيها تلك الشعارات .

كما أن نغمة الصوت وسرعته وصياغة نشرة الأخبار ، تشكل جزءا هاما من الحرب النفسية . فكل مجتمع يحتاج الى قدر معين من الاستهواء القائم على طريقة القاء الكلام ، أو وضوح التعبير ، أو الاسلوب المستخدم .

ولذا فان الاسلوب المستخدم فى اذاعة الانباء المحلية لا يتواءم مع الاذاعات التى توجه الى المجموعات هدف الحرب النفسية . والمذيع الناجح هو الذى يستطيع أن يتبين هذه كلها ويعمل على تحقيقها .

الاذاعة على الموجة العادية :

ونشير بعد ذلك الى أن أكثر أنواع الاستخدام للاذاعة ما يقع فى نطاق الاستقبال المستطاع على أجهزة الاستقبال العادية التى يملكها سكان بلاد العدو ، ويعنى هذا انشاء وسائل ارسال قريبة من أراضى العدو يمكن أن ترسل عليها وبواسطتها مواد البرامج .

وقد كان تحقيق هذا النوع من الاتصال بين الولايات المتحدة واليابان مستحيلا فى الفترة من عام ١٩٤١ حتى عام ١٩٤٤ .

وتكون « الاذاعة الاستراتيجية » شديدة الفاعلية اذا ما وجهت الاذاعة من مسافة قصيرة وعلى موجة عادية وكان من المعروف على التحقيق أن لدى المدنيين

فى بلاد العدو آلاف أجهزة الاستقبال ، اذ بذلك تتهيأ الفرصة لاجتذاب مجموعة ثابتة مستمرة ودائمة من المستمعين للتأثير فى معنوياتهم وأفكارهم واستخدامهم لنشر الشائعات التى تصل فى الغالبية الى كل فرد من سكان بلاد العدو • على انه من الضرورى أن يعمل المذيع على ألا يفقد المستمعون اهتمامهم باذاعته ولا أن يملوها ، ولهذا يجب أن يستهويهم دائما بسلسله متغيرة من البرامج •

الراديو الأسود والحرب الباردة :

تمخضت الحرب العالمية الثانية عن صراع ايديولوجى كبير بين المعسكرين الشرقى والغربى ، وأخذ هذا الصراع يشتد يوما بعد يوم الى أن ظهر فى الافق ما يطلق عليه الحرب الباردة • وكان من نتيجة هذه الحرب أن خاض الطرفان غمار حرب نفسية كادت تؤدى بالعالم الى حافة الهاوية فى مناسبات كثيرة •

لقد سبق أن بسطنا الدور الكبير الذى تلعبه الاذاعة فى الحرب النفسية ، والآن نشير الى خطورة ما يطلق عليه « الراديو الأسود » أو بمعنى أوضح الاذاعات السرية التى تنتشر بين أرجاء العالم • فهذه استخدمها الطرفان المتصارعان فى الحرب الباردة بينهما كأداة للتراشق بالكلمات والطعن فى الآخر ، ووجه كثير منها الى الدول النامية التى تحاول التحرر أو تنتهج سبيل التقدم والرقى • والادهى من ذلك أن كثيرا من هذه الاذاعات استخدمت لتحريض الشعوب على الثورة على حكامها ، على ما حدث فى مؤامرة جواتيمالا التى دبرت ضد الرئيس أربنز عام ١٩٥٤ أو فى محاولة غزو كوبا عام ١٩٦١ •

والحقيقة أن الاذاعات السرية « الراديو الأسود » ليست بشىء جديد ، فقد سبق أن أطلقت هذه العبارة على محطات الاذاعاتالسرية التى كان يستخدمها الألمان فى الحرب العالمية الثانية بعد قيام قواتهم باحتلالها البلاد التى توجد هذه المحطات بها ، ولقد كان الالمان يستخدمون هذه المحطات لايهام العدو بأنها ما زالت فى جانبه وبذلك يقع فى الكمين الذى نصبه الالمان له • أما فى الوقت

الحاضر فاننا نستطيع أن نطلق هذا الاصطلاح على أى محطة اذاعة سرية ، أو بمعنى آخر على أى ارسال غير شرعى وغير معترف به لأنه يعمل فى الخفاء بهدف التخريب والتدمير .

وليس الهدف من هذا البحث هو رصد محطات الاذاعات السرية التى تنتشر بين أرجاء المعمورة اذ لا تتسع صفحات هذا الكتاب لذلك ، كما أن الغرض ليس الدخول فى تفاصيل عملها الفنى ، ولكن ما يهمنا هو أن نبرز الدور الخطير الذى تلعبه فى الحرب النفسية فى هذا العصر الذى ازدادت فيه حدة الحرب الباردة بدرجة كبيرة وشكل مخيف .

ولهذا سنقصر بحثنا على ابراز خطورة هذا السلاح الفتاك وأثره فى معنويات الشعوب موضحين الدور الذى يلعبه الراديو الاسود فى الحرب الباردة باعطاء صور ونماذج حدثت فى أثناء الصراع الذى لا يزال العالم يعيش فيه حتى اليوم .

على أننا قبل أن نشرع فى ذلك نود أن نشير الى أن عمليات « الراديو الاسود » تنقسم الى قسمين : الارسال والاستقبال ، فبالاضافة الى قيام هذه المحطات السرية بعملية الارسال فان أجهزة الدول المختصة التى تخضع لها هذه المحطات تقوم بتسجيل اذاعات المحطات المضادة لتتبين ما يقوله الجانب المضاد .

وتقوم أجهزة المخابرات فى أغلب الدول بالاستماع الى ما تقوله الاذاعات الصديقة والمعادية ، ثم تسجل هذه الاذاعات على أشرطة ، وتحرر يوميا ثم تحلل لمعرفة كثير من نوايا الدول الاخرى وخططها ، وهذه العملية علنية ولا تتصف بالسرية ومعترف بها شرعا ، وان كنا نستطيع أن ندخلها فى نطاق التجسس المكشوف .

وهناك اذاعات تعتبر خليطا بين العلنية والسرية ، وهذه الاذاعات تأخذ اعانات من الشركات أو المؤسسات الكبرى أو أجهزة المخابرات كما فى الدول

الرأسمالية ، أو تمولها الدول كما فى النظام الشيوعى • وتتظاهر هذه الاذاعات بأنها اذاعات خاصة بالرغم من أنها تتلقى توجيهات يومية من الاجهزة المسئولة فى الدول التى تخضع لها •

والآن نستطيع أن نتناول بشىء من التفصيل دور هذه الاذاعات فى مضمار الحرب النفسية • فمن الأمثلة البارزة التى لعبت فيها الاذاعة السرية دورا كبيرا محطة سوان Swan (١) التى استخدمتها الولايات المتحدة فى عملية خليج الخنازير •

وهذه الجزيرة احدى جزر البحر الكاريبى التى تقع جنوب الحافة الغربية لجزيرة كوبا • والواقع أن موقع هذه الجزيرة من المواقع الممتازة لانشاء محطات الاذاعة السرية عليها ، فالسائح العادى يجد من الصعوبة أن يصل اليها لأنه ليس ثمة خط طيران مدنى يربط الجزيرة بالعالم الخارجى ، كما أن الباخرة الوحيدة التى تذهب اليها تستغرق حوالى خمسة أيام من أقرب ميناء على الشاطىء الامريكى اليها ولا يمكن لأى فرد أن يتوجه الى الجزيرة دون الحصول على تصريح سرى •

وقد لعبت اذاعة سوان دورا كبيرا فى تلك المؤامرة التى دبرتها المخابرات المركزية الامريكية ضد حكم كاسترو فى كوبا ، اذ قام راديو سوان باذاعة رسائل بالشفرة وناشد الشعب والقوات المسلحة الكوبية الثورة على كاسترو كما قدم تعليمات خاصة عن فن التخريب •

ففى الساعة ٣٫٤٤ صباحا يوم ١٨ من أبريل عام ١٩٦١ أرسلت اذاعة راديو سوان نداء الى ميليشيا جيش كاسترو تدعوها الى الثورة :

---

(١) يقال أن سوان هو اسم قرصان عاش فى القرن السابع عشر واتخذ هذه الجزيرة مركزا لنشاطه ، وقد ادعت الولايات المتحدة ملكية هذه الجزيرة عام ١٨٦٣ ونازعتها فى ملكيتها هندوراس •

« لقد حانت الساعة التى يجب فيها عليكم أن تحتلوا مواقعكم الاستراتيجية المشرفة على الطرق والسكك الحديدية • اسجنوا من يرفضون اطاعة أوامركم أو اطلقوا عليهم النار • يا رفاق البحرية هذه فرصتكم لتقديم الدليل على اخلاصكم ، تقدموا واحتلوا مراكزكم فى بحرية كوبا • الحرية يا رفاق القوات الجوية • استمعوا جيدا ، يجب أن تظل كل الطائرات جاثمة على الارض • اعملوا على ألا تقلع طائرة واحدة من طائرات كاسترو • حطموا أجهزتها اللاسلكية ، حطموا ذيولها ، حطموا آلاتها ، اثقبوا خزانات الوقود بها • ارفضوا العمل • بلغوا أصدقاءكم أن الحرية والشرف فى انتظار هؤلاء الذين ينضمون الينا ، كما أن الموت فى انتظار هؤلاء الخونة الذين لا ينضمون الينا » •

وبعد ثلاث ساعات أذيع البيان التالى :

« يا أهالى هافانا ، انتبهوا الى ما نقول • عاونوا جنود جيش التحرير الشجعان • يجب أن تتوقف محطات توليد الكهرباء عن مد المصانع بالكهرباء • فاليوم فى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والاربعين حينما تصدر الاشارة من هذه المحطة أضيئوا كل الانوار الموجودة بمنازلكم وأديروا كل الاجهزة الكهربية التى لديكم ولا تقلقوا • ان قوات جيش التحرير سوف تستأنف العمل بهذه المصانع سريعا » •

ومن الواضح أن هذه المحطة التى تدعى أنها تتحدث باسم جيش التحرير الكوبى ما هى الا اذاعة سرية تديرها المخابرات الامريكية لتساعد فى تلك العملية ، ولذلك فانها حاولت أن تخفى هذا النشاط بايجاد حجة لانشائها فأذيع أن شركة ملاحة جبل طارق بنيويورك قد استأجرت الاراضى فى جزيرة سوان لانشاء محطة اذاعة ، ومما يضحك أن موظفى هذه الشركة صرحوا بأنها لا تمتلك أى سفينة فى السنوات العشر السابقة من تاريخ اذاعة هذا البيان •

ولقد أعلن هورتون هيث الذى وصف نفسه بأنه المدير التجارى للمحطة أن راديو سوان سوف يقوم باذاعة الموسيقى والاوبرا والاخبار ، وأن ذلك عمل

تجارى محض ، كما ادعى أن شركة جبل طارق للملاحة كانت تستأجر الارض من سمز سميث الذى كان يعمل رئيسا لمجلس ادارة مصانع نسيج اينجتون القائم فى ١٩ شارع الكونجرس ببوسطن ٠

وحينما قام مراسل احدى الصحف الامريكية بسؤال سميث عن راديو سوان فى بوسطون عام ١٩٦٠ تجنب الاجابة بقوله « اسأل الحكومة » ٠

ولكن الحكومة أعلنت أنها تجهل كل شيء عن هذه المحطة الاذاعية ، وقال المتحدث باسم وزارة الخارجية الامريكية « ان المحطة الوحيدة التى أعرف شيئا عنها فى جزيرة سوان هى محطة الارصاد الجوية التابعة للولايات المتحدة » وبهذا الرد الدبلوماسى تجنب المتحدث الحديث عن محطة سوان لان الولايات المتحدة كانت قد أنشأت فعلا محطة الارصاد الجوية عام ١٩١٤ ٠

ومن الغريب أن لجنة المواصلات الفيدرالية المسئولة عن اعطاء التصاريح لكل محطة اذاعة تعمل فى نطاق الولايات المتحدة لم تعط تصريحا لراديو سوان أو لشركة جبل طارق للبواخر ، وقال متحدث باسم لجنة المواصلات الفيدرالية « نحن لا نعرف من الذى يملك هذه الجزيرة » ٠

وحينما بدأت المحطة عملها أخذت اذاعة كاسترو تبدى استياءها من هذه المحطة المعادية للثورة التى تدعمها الدولارات الامريكية ، ولقد استمر راديو هافانا فى مقاومه اذاعة راديو سوان والتشويش عليها ، وفى ٢٤ من أكتوبر عام ١٩٦٠ هاجمها راديو كاسترو بقوله « أولئك الكلاب البائسون الذين يتحدثون من راديو سوان » ، ثم قال فى يناير ١٩٦١ « ليس راديو سوان محطة اذاعية ولكنه قفص من الببغاوات المصابات بالهستريا » ٠ وفى سبتمبر عام ١٩٦٠ أعلن رومان ٠س٠ بوسنسكى الديمقراطى من شيكاغو وصاحب منظمة تدعى « راديو كوبا الحرة » أنه سيتعاون مع راديو سوان ، وقد وصف بوسنسكى راديو كوبا الحرة بأنه مؤسسة خاصة لها ست محطات فى فلوريدا ولويزيانا ٠

وكان راديو سوان يذيع فى أثنــاء الغزو الكوبى طوال النهــار والليل ، ويرسل بعض الرسائل بالشفرة ، مثل ذلك أنه أذاع فى الساعة ١٠ر٥٧ مساء ١٨ من أبريل ما يلى :

« انتبهوا ٠٠ ستانسلاوس ٠٠ القمر أحمر فى ١٩ من أبريل » ٠

وحتى بعد فشل الغزو استمر راديو سوان فى اذاعة أوامر غامضة لفرق لا وجود لها . ففى ٢٢ من أبريل أى بعد انتهاء الغزو بأيام ثلاثة أرسل راديو سوان أوامره بعدم الاستسلام لعدة فرق وأخبرها أن المعونة فى الطريق ، كما أرسلت الأوامر عن طريق هذه الاذاعة الى « الفرقة الثالثة » كى تتقدم ، وأمرت الفرقتين ٤ ، ٧ أن تتقدما حتى نقطة حدد مكانها ٠

وكان القناع الذى يختفى وراءه راديو سوان قد بدأ يشف عما يستره ، اذ كيف تكون هذه المحطة مؤسسة خاصة وفى نفس الوقت ترسل تلك الرسائل بالشفرات ، وترسل أيضا تعليمات وأوامر الى قوات تعمل فى عملية سرية ٠

ولذلك حدث تغيير جوهرى فى راديو سوان ، اذ تغير اسمه وأصبح يطلق عليه « راديو الامريكتين » ٠ ولكنه على الرغم من ذلك استمر فى اذاعاته للكوبيين يحثهم على القيام بحرق حقول القصب والقيام بمختلف أعمال التخريب ٠

ومحطة Wrul من المحطات ذات الموجة القصيرة التى ليس لها تاريخ مثيل فى الولايات المتحدة ، فقد لعبت هذه المحطة فى السنين الاخيرة دورا علنيا فى عمليات الحرب الباردة، وقد انضمت مع راديو سوان فى اذاعة برنامج «هافانا روز» الموجه ضد كاسترو ٠

وقد سبق أن قامت هذه المحطة عام ١٩٥٤ بمعاونة الثوار ضد الرئيس أربنز فى جواتيمالا ، وتلقت المحطة خطاب شكر من حــكومة كاستيلو أرماس لما قامت به من مساعدة فى الثورة ضد أربنز ، ووقع الخطاب جوزى تورون الذى كان يقوم بادارة محطــة « جواتيمالا الحرة » السرية ، قبل أن يتم القضــاء على حكومة أربنز ٠

ويعتبر « راديو أوروبا الحرة » أكبر المحطات السرية وأشدها اثارة للجدل• وتدعى هذه المحطة أنها محطة خاصة غير تجارية وليست حكومية توجه اذاعاتها عبر الستار الحديدى الى ثمانين مليون أسير فى بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا وبلغاريا •

ولقد بدأ راديو أوروبا الحرة ارساله عام ١٩٤٩ مع انشاء اللجنة القومية لأوروبا الحرة • وفى عام ١٩٥٠ قامت هذه اللجنة بدعوة عامة لجمع التبرعات ، ورأس هذه الدعوة الجنرال أيزنهاور والجنرال لوسيوس كلاى بطل عملية النقل الجوىالى برلين عام ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ ، وكان الغرض من هذه التبرعات جمع النقود لتمويل راديو أوروبا الحرة •

ولقد قال أيزنهاور فى أثناء قيامه بالدعوة لهذه الحملة « نحن فى حاجة الى محطات اذاعة قوية فى الخارج تقوم بالارسال دون أى خطر أو رقابة حكومية » •

وتحــدث كلاى فى نفس الموضــوع فمدح صــوت أمريكا ، ولكنــه قال « يبدو لى أننا فى حاجة الى صوت آخر ، صوت يتسم بالوقار الحكومى ولكن ينطلق قويا فى اذاعته » •

ولراديو أوروبا الحرة ثمان وعشرون محطة ارسال فى ثلاثة مواقع اثنان منها فى ألمانيا الغربية وهما ببليس بجوار فرانكفورت ، وهولز كرتن بجوار ميونخ ، والثالث فى جلوريا بجوار لشبونة ، ويوجد المركز الرئيسى لراديو أوروبا الحرة بجوار ميونيخ •

ولقد قال متحدث باسم المحطة « نحن نعتمد فى تمويل محطتنا على تبرعات الشعب الامريكى ، ونعتمد بخاصة على اعتمادات هيئة أوروبا الحرة • ان هذه المحطة خاصة تعمل طبقا للسياسة العامة للولايات المتحدة الامريكية •

وكانت « محطة أوروبا الحرة » مثار نقد شديد لما تقوم به من عمليات اثارة ضد الشعوب • وبالاضافة الى ما كانت تقوم باذاعته اشتركت فى عمليات البالون التى كانت ترسل عبر الستار الحديدى محملة بأوراق الدعاية • كما سبق أن وضح فى فصل « أهداف العمليات » •

وفى فبراير عام ١٩٥٦ ادعت حكومة تشيكوسلوفاكيا أن أحد البالونات التى قامت محطة أوروبا الحرة بارسالها فى الهواء تسببت فى اسقاط طائرة ركاب تشيكية فى ١٨ من يناير من العام نفسه فى جبال تاترا بسلوفاكيا . كما قامت موسكو بالاحتجاج على عمليات البالون هذه ، وادعت المجر أن البالونات الامريكية تسببت فى وقوع ثلاث حوادث للطيران .

وقد ردت محطة أوروبا الحرة على ذلك قائلة ان هذه البالونات ليست خطيرة ، وان الدول الاسيرة للشيوعية حاولت اسقاطها بالطائرات والمدفعية ، كما أن المخابرات التشيكوسلوفاكية حاولت مرتين أن تفجر مناطق اطلاق البالونات فى ألمانيا الغربية . واستمر توجيه النقد الى هذه المحطة حتى وصل الى ذروته فى ثورة المجر ، وأخذ العالم يتساءل - بل تساءل الذين يدفعون التبرعات لها - عما تقوم به هذه المحطة من اثارة للشعوب . وقد استمرت المحطة تعطى الوعود الزائفة للثوار بقرب وصول معونة الغرب وعدم الاستسلام وهى تعلم أن هذه المعونة لن تتحقق مما جعل كثيرا من المحايدين يدينونها فى مذبحة بودابست .

ويجدر بنا أن نتساءل هنا : ماذا كان هدف الولايات المتحدة فى سماحها لراديو أوروبا الحرة بتشجيع الشعب المجرى على الثورة برغم أنها لم تكن مستعدة لتقديم أى معونة حربية لها ؟

لقد ثار جدل عالمى حول مسئولية هذه المحطة وبالتالى حول أولئك الذين يشرفون عليها فى واشنطون، وحاولت كل الأطراف أن تتنصل من هذه المسئولية. فقامت محطة أوروبا الحرة بالرد على تصريح آنا كاتلى الزعيمة المجرية التى كانت قد هربت الى الغرب وهاجمت محطة راديو أوروبا الحرة بطريق غير مباشر، اذ قالت « لقد كانت النوايا طيبة وان لم تكن النتائج سعيدة » ، وكان رد الاذاعة أن تصريح الزعيمة ليس صحيحا . كما أعلن متحدث رسمى أن القول أن الغرب وعد بمساعدة المجر هو من اختلاق راديو شيوعى فى ألمانيا الشرقية كان يذيع برامجه تحت اسم راديو أوروبا الحرة .

وقامت حكومة ألمانيا الغربية بتشكيل لجنة للتحقيق فيما وجه الى هذه المحطه من اتهامات ، وأعلن أديناور فى ٢٥ من يناير عام ١٩٥٧ نتيجة هذا التحقيق فى مؤتمر صحفى قائلا أن المحطة بريئة من التهم الموجهة اليها وتقول : أنها وعدت شعب المجر بمعونة عسكرية أمريكية ، ثم أعلن اقفال باب المناقشة فى هذا الموضوع ٠

وقامت هيئة مجلس أوروبا بالتحقيق فى هذا الموضوع أيضا ، وقد شكلت الحكومات الغربية هذه الهيئة ، وأسفر تحقيقها فى ٢٧ من أبريل عام ١٩٥٧ عن أن المحطة لم تعلن عن مساعدة الغرب للمجر ، ولكنها أضافت أن بعض الاذاعات كانت تؤدى الى سوء فهم للموضوع ٠ وجاء فى التقرير « انه مما يؤسف له أن تمويل هذه المحطة أمريكى ولذلك فان القيادة السياسية والكلمة العليا فيها للأمريكيين » ٠

وفى يونيو عام ١٩٥٧ أذاعت اللجنة الخاصة التى ألفتها الامم المتحدة للتحقيق فى موضوع المجر بالاتهام الآتى لراديو أوروبا الحرة :

« لقد شعر المستمعون أن راديو أوروبا الحرة يعدهم بالمساعدة ، ولا شك أن هذه النغمة المتفائلة التى كان يرددها الراديو كانت تلقى آذانا صاغية ٠ ويمكن تلخيص اتجاه الشعب المجرى نحو هذه الاذاعة بما قاله أحد الطلاب « لقد كانت أملنا الوحيد ، وحاولنا أن نطمئن نفوسنا بها » ٠ ويبدو أن بعض اذاعات راديو أوروبا الحرة كان يوحى الى المجريين أن المعونة آتية لهم ٠ وترى اللجنة أن من الواجب فى مثل هذه الاحوال اتخاذ الحيطة والحذر الكبيرين فى الاذاعات الدولية » .

وعليه فان كل هذه التقارير تبين أن الاذاعة قد ساعدت على خلق شعور عند الشعب بأن المعونة فى طريقها اليهم ٠ وليس أدل على تأثير راديو أوروبا الحرة فى خلق هذا الشعور مما جاء من تلك الاذاعات التى كانت تذيع من داخل المجر فى آخر أيام الثورة وتناشد راديو أوروبا الحرة أن يعجل من المعونة الموعودة٠

وليست هذه المحطات كل ما تديره الولايات المتحدة فهنالك كثير من المحطات السرية توجه الى منطقة الشرق الأوسط بغية اثارة الشعوب المتحررة فى هذه المنطقة على ما سنرى ذلك بالتفصيل فيما بعد ٠

ويعتبر صوت أمريكا الصوت الرسمى لحكومة الولايات المتحدة الامريكية ، وهو الاداة التى تستخدمها المخابرات الامريكية وتقوم عن طريقها باذاعة حول العالم فى ثلاث وستين لغة ٠

وتبلغ مصروفات « صوت امريكا » ٢٢ مليون دولار فى السنة ، ويوجه ٤٠٪ من برامجه الى الدول الشيوعية ، ويوجد فى برلين الغربية محطة تبلغ قوتها ٣٠٠ر٠٠٠ وات يطلق عليها « رياس Rias » ، وهى توجه ارسالها طوال الليل والنهار الى برلين الشرقية وألمانيا الشرقية ، ويقال أنها تحت اشراف مجلس ادارة المخابرات الامريكية .USIA ٠ وفى عام ١٩٦٣ تم العمل فى انشاء محطة ارسال ضخمة فى جرينفيل فى نورث كارولينا وبذلك أصبحت هذه المحطة أكبر محطة طويلة الارسال فى العالم ٠

واذا كان هذا يكفى لكى يكشف عن الدور الكبير الذى يلعبه « الراديو الأسود » فى الحرب الباردة ، فقد يعن لنا أن نتساءل عن محطات الاذاعة السرية التى كانت تعمل ضدنا فى السنوات العشر الماضية . ونسرع فنقول اننا سنعرض لها فيما بعد ونحن بصدد عرضنا للحرب النفسية التى شنت علينا منعا للتكرار والملل ٠

نشرات الاستسلام كسلاح من أسلحة الاقناع :

تعتبر نشرات الاستسلام « مشاة » حرب دعاية ، فهى التى أنهت واجبا استمرت تقوم به الاذاعة لسنوات سابقة بقصد اضعاف معنويات الجبهة الداخلية. والاستخدام الفجائى لنشرات الاستسلام ضد عدو منتصر وغير مهيأ للاستسلام

لا قيمة له ، فلم تأت مثلا نشرات الاستسلام التى ألقاها اليابانيون على الجنود الامريكيين فى جنوب غربى الباسفيك دون أى تهيئة بأى ثمار لانها أسقطت على الجنود فى وقت ثبت لهم فيه أن الموقف يتحسن .

ويتطلب اعداد نشرات الاستسلام الاستخدام التكتيكى لكل العوامل الميسرة للطباعة ، وهذا واجب وحدة الدعاية مع ما يتهيأ لها من قدرة على الاتصال بالقوات البرية والجوية ومعرفة دقيقة جدا عن تحركات العدو وموقفه وتوزيع قواته. ويجب أن تلقى على جنود العدو النشرات التى تبين كيف أنهم ثبتوا فى مكانهم فلا يستطيعون حراكا ، كما يجب أن تهدف النشرات الى جعل الجنود يفقدون ثقتهم بقادتهم هذه الثقة التى تجعلهم يواصلون القتال . وعندما يبدو احتمال الاستسلام يجب أن تعطى للعدو أبسط التعليمات تبعا لما تسمح به الظروف .

ولقد كان من الصعب فى ميدان القتال فى الباسفيك السماح لليابانيين بالتقدم نحو خطوط الامريكيين للاستسلام ، اذ كان يشك أنهم يحملون معهم قنابل يدوية يقذفون بها الخطوط الامريكية فجأة دون أن يعنيهم ما تكون عليه نهايتهم، كما أن الكثيرين من اليابانيين تقدموا حتى خطوط الحلفاء ثم خانهم التوفيق فى ايضاح نواياهم الصحيحة بالاستسلام، وكانت النتيجة القيام باجراءات عنيفة ضد يابانيين آخرين لم يكن فى استطاعتهم الانتهاء الى قرار بالاستسلام أو عدمه ، وعلى هذا روعى أن النشرات اللامعة التى تحمل شرائط ملونة واضحة والتى يمكن رؤيتها من مدى بعيد هى أصلح اشارة للرغبة فى الاستسلام ، ودرب جنود الحلفاء على أن يتوقفوا عن اطلاق النيران عندما يرون جنديا يابانيا يحمل هذا النوع من النشرات .

وقد تعددت صور النشرات التى ألقيت على الجنود لحثهم على الاستسلام ، وكان فى بعضها بيانات حررها جنود من أسرى الحرب يذكرون فيها ما لقوه من رعاية ومن غذاء جيد .

كما أشارت بعض النشرات الى تأمين الجندى الذى يستسلم والى الرغبة فى تطبيق الاحكام التى نظمتها معاهدة جنيف لاسرى الحرب ، ووعدت بعض النشرات بأن يسمح للجندى الذى يستسلم بالاتصال بوطنه وأسرته بواسطة البريد .

والواقع أن عملية الاستسلام صعبة لانها ليست مجرد نقل الولاء من جانب الى آخر . انها عملية لها خطرها ولا سيما بالنسبة لجندى المشاة ، وتتطلب أعصابا قوية لتتم طواعية واختيارا ، فان الجندى الذى يقرر الاستسلام قد يتعرض للقتل بواسطة جندى أو ضابط من وحدته ، أو قد يقتله أى شخص تواق للقتل فى الجانب المضاد ، وقد يتعرض للمحاكمة بمجلس عسكرى بتهمة الخيانة اذا كسبت دولته الحرب وثبت أنه استسلم باختياره .

ويجب ملاحظة أن جندى العدو الذى يحمل معه نشرة من نشرات الاستسلام ليستخدمها عند الحاجة اليها تحول فى الواقع تحولا جزئيا الى جانب العدو .

وقد تلقى النشرات لأغراض أخرى غير الاستسلام مثل الهرب من المناطق المعرضة للخطر ، فعندما يكون معروفا أن بعض الوحدات وضعت بأمر قادتها فى منطقة خطرة ستتعرض لعملية تدمير واسعة النطاق من الجو ومن الارض ، فيمكن أن تلقى على الجنود نشرات تنصحهم بالجلاء عن تلك المناطق فى مواعيد محددة ، والهدف الرئيسى وراء هذا هو احداث فوضى فى تنظيمات العدو ، كما أنها تسبب ضغطا على خطوط المواصلات ولا سيما على بعض الطرق الرئيسية عندما تلقى هذه النشرات على المدنيين أو عندما توجه النصيحة بواسطة الاذاعة للجلاء عن المناطق التى ستتعرض للخطر ، وقد استخدم الانجليز هذا اللون من الحرب النفسية من اذاعتهم العربية فى قبرص أيام العدوان الثلاثى .

وقد بينت تجارب الحرب العالمية الثانية أن القوات التى تفقد روحها المعنوية تتأثر بهذه النشرات الى حد كبير بصرف النظر عما اذا كانت تتحدث عن الهرب من الجيش أو الاستسلام .

على أن هناك حقيقة واضحة هى أن القرار الفعلى للاستسلام قرار يصعب على الجندى اتخاذه ، فهناك عوامل كثيرة تعوق هذا القرار منها الولاء الشخصى والولاء للوطن والضغط الجماعى الى جانب الخوف من المجهول .

وليس من الصواب ـ الا اذا كانت هناك دلائل أكيدة ـ أن نفترض أن جنود العدو التى نواجهها ساخطة وتفكر فى الهرب . وكذا فان استخدام أفكار لا تستهوى الا الافراد الساخطين من الاعداء قد تأتى برد فعل عكسى .

على أنه من جهة أخرى قد يستسلم الجندىالشديد الولاء اذا اعتقد أن الموقف التكتيكى أصبح ميئوسا منه ، وأن مقاومته لا قيمة لها أو أنه لا جدوى عسكرية من الاستمرار فى الحرب أو أنه سيلقى معاملة طيبة عند الاستسلام .

ولا تحتاج النشرات التى تصدر فى أثناء المعارك فى معظم الاحوال الى استخدام أساليب الدعاية السياسية المعقدة ، اذ أن الجندى فى الميدان يكون محدود الأفق . فحينما يسمع صوت انفجار القنابل الشديدة من حوله أو صوت الدبابات وهى تتحرك نحوه فان الاعتبارات الايديولوجية تحتل المكان الثانى فى عقله .

كما يجب ألا تطغى الدعاية السياسية على الدعاية المحلية فىأرض المعركة ، وخير مثل لذلك الأخطاء التى وقعت فيها القوات الامريكية حينما اتخذت الدعاية الأمريكية الموجهة للجندى الالمانى فى أرض المعركة نفس الدعاية التى كانت توجهها الى الشعب الامريكى .

لقد كانت الحرب فى أوروبا تصور للشعب الامريكى أنها حرب ضد هتلر ، وقد وجهت نفس الصورة الى الجندى الالمانى بهدف تقليل مقاومته فى القتال . لقد كانت تهدف هذه الدعاية الى تحطيم الاعتقاد فى هتلر وفى الاسطورة التى خلقها . ولكن من جهة أخرى فان هذه الاهداف لابد أن تخضع أولا للغرض العاجل وهو كسب الحرب فى أقصر وقت وبأقل تكاليف ممكنة . ولقد عوقت

هذه الدعاية تقدم القوات الامريكية ، لأنه نتج عنها تقوية عزيمة المقاتلين الالمان الذين كانوا يؤمنون بزعيمهم ووطنهم ولم يرتضوا للعدو أن ينال منه أو يتهجم عليه ٠

الواقع أن النشرات التى تصدر فى أثناء المعارك انما هى فن يحتاج الى قدرة على التكيف مع الموقف الى جانب قدرة قوية فائقة وذكاء كبير من نوع خاص ٠ ومن جهة أخرى فان محاولات التعقيد والظهور بمظهر الذكاء المفرط كثيرا ما أضرت بالدعاية فى مناسبات كثيرة فى أثناء الحرب العالمية الثانية ٠

فمثلا ظهرت أخطاء كثيرة نتيجة ذلك فى احدى نشرات الالمان التى وجهت للفرقة الخامسة والاربعين مشاة الامريكية بعد معركة بلجيكا ، هذه الأخطاء توضح بعض النقاط الهامة الخاصة بكتابة هذه النشرات ٠ ونحن نوردها فيما يلى على سبيل المثال :

الى جنود الفرقة الخامسة والأربعين مشاة :

نشكركم على نشرتكم اللطيفة التى تقولون فيها اننا نحتاج الى بعض الراحة والى عطلات من آن لآخر ٠ ولكن ما رأيكم فى القروح الموجودة فى أقدامكم ؟ اننا لا يهمنا ألا نحصل على عطلة فى الوقت الحاضر ٠

انكم أيضا لا تحصلون على عطلات ٠ ان كل ما يهمنا هو أنكم لن تصلوا الى برلين !

لقد قيل لكم ان الحرب سوف تنتهى فى الخريف ٠ ان فرقتكم التى نعرفها جيدا منذ أيام صقلية لم تحقق شيئا مرموقا حتى الآن ٠

ان عددا كبيرا من زملائكم قد مات وسيكون الامر صعبا بالنسبة لمن سيحلون محلهم أليس كذلك ؟ لقد قال لنا زملاؤكم أنهم كانوا « يستمتعون » بالقتال ، ولا عجب فى ذلك !

فهم ليست لديهم فكرة عما يحاربون من أجله ٠

وقد قال أحدهم أنه يحارب من أجل الحرية ، ولكن يبدو أنه لم يكن من الجنود الأذكياء ٠

لقد تركتم الحرية وراءكم ٠

مع أهلكم فى وطنكم ٠٠ مع زوجاتكم وأبنائكم ٠٠ مع صديقاتكم اللاتى تحملون صورهن ٠

انكم وأنتم تطلقون النار من الأوحال تتعرضون للقتل أو للاصابة بعاهة ، وذلك من أجل تجار الحروب والتجار الجشعين الذين يستقرون فى بيوتهم ٠

ان زملاءكم سعداء لابتعادهم عن الوحل ٠ انهم واثقون من العودة الى الوطن أصحاء معافين ، فقد اختاروا الطريق المختصر ، أما أنتم فلا يزال أمامكم طريق طويل ٠ فحاولوا أن تحافظوا على حياتكم ان استطعتم وتذكروا أنكم لا تزالون مطلوبين للحرب فى اليابان ٠

ان الخطأ الواضح فى هذه النشرة هو أنه ليس من المفيد من الناحيه السيكولوجية أن يتبع أسلوب الرد فى الدعاية فى أثناء المعارك ، فالأفراد الذين تصل اليهم مثل هذه النشرة لا يعرفون الا القليل جدا عن الدعاية التى توجه لاعدائهم ٠

كما يجب أن نعرف أن السب والسخرية قد يثيران العداء أكثر مما يؤديان الى ايجاد الرغبة فى الاستسلام ، وحينما تحدثت هذه النشرة لافراد الفرقة ٤٥ بقولها « انها لم تحقق شيئا مرموقا حتى الآن » جعلت كثيرا من الجنود يستميتون فى القتال • وبالاضافة لذلك فان السخرية مما قاله الأسرى تجعل الوقوع فى الاسر شيئا غير مغر • ولكن أهم نقطه هى تأثير الدعوة الماكرة فى فكرة الاسر ، فان النشرة بقولها ان الامريكيين الذين وقعوافىالاسر سلكوا « الطريق المختصر » تدعو للقيام بعمل من أعمال الخيانة وهو الاستسلام •

ولذا فان هذه الطريقة لا تتسم بالحكمة وليست ضرورية حتى فى حالة الرجال الساخطين •

ان الحرب النفسية واستخدام أنواع التكتيك المختلفة فيها يمكن أن يوضحا الطريق الذى يبشر بالنجاح •

فالمقابلات الشخصية الطويلة مع أسرى الحرب المتعاونين ، والوثائق التى يمكن الحصول عليها من العدو والتى تتعلق بدعاية الجانب الآخر واختبارات الذاكرة التى تجرى على عينات من الأسرى وتحليل الدعاية المضادة ، كلها أشياء من أنواع التكتيك المختلفة التى لابد منها لاختبار مدى فاعلية أى طريقة جديدة فى الدعاية فى أثناء المعارك •

النشرات الصحفية كأسلحة للحرب :

ظهرت أهمية نشرات الاخبار التى تصدر فى أثناء المعارك فى الحرب العالمية الثانية كوسيلة فعالة من وسائل الحرب النفسية • وسنحاول هنا أن نحدد الدور الكبير الذى لعبته ثلاث نشرات كانت تصدرها القوات الأمريكية فى أوروبا وهى الـ Frontpost, Mirreilungen, Feldpost •ولقد أتاحت سياسة النازى التى كانت تقوم على منع الاخبار أو تشويهها بالنسبة للشعب والجنود الفرصة لدعاية الحلفاء لسد هذا الفراغ واشباع رغبة الجندى الالمانى فى الحصول على الأخبار •

ولم يكن امداد القوات الالمانية بالمطبوعات الجيدة الطبع والجيدة التحرير المشوقة مجرد خدمة بلا مقابل ، فقد أعد كل سطر بحيث يسهم فى الهدف الأساسى لدعاية الحلفاء ، وهو اضعاف قدرة العدو على المقاومة وتأكيد ضياع الامل فى موقفه وتشكيكه فى زعمائه وفى قضيته والوصول به الى الحالة العقلية التى تؤدى به الى التسليم • ومن ناحية أخرى كان ينظر الى هذه العوامل على أنها ستنقذ حياة جنود الحلفاء وتسرع فى انهاء الحرب •

لقد كانت فرقة الحرب النفسية الملحقة بالجيش الثانى عشر - وقد وضعت هذه الأهداف أمام عينيها - تعمل متخذة من الاخبار ذخيرة ومن الصحف المكتوبة بالالمانية سلاحا • لقد حررت الطبعة الاولى من الـ Frontpost فى خيمة العمليات فى حقل بالقرب من سانت سوفور St. Sauveur فى نورمانديا • وكانت الأخبار والمادة الخام التى تشكل منها الصورة النهائية تأتى فى ذلك الوقت عن طريق وحدة استكشاف تعمل من سيارات خاصة •

ونظرا لعدم وجود امكانيات للطبع فى المنطقة المجاورة للمعسكر كان لابد من طبع الطبعة الاولى من النشرة فى رينيه Rennes فى بريطانيا • وقد صممت الصحيفة ومحتوياتها فى سانت سوفور ثم أرسل رجلان بها الى رينيه حيث سلما المادة الى المطبعة وراجعا البروفات وراقبا الصحيفة حتى خرجت من المطبعة وقد أضيفت لها أخبار اللحظات الاخيرة من جريدة يملكها الفرنسيون ، وكانت تطبع فى نفس المطبعة • ثم نقلت النسخ المطبوعة على عربات الجيب وأعيدت الى المعسكر لتعبئتها فى قذائف المنشورات •

وكانت الطبعة الأولى من هذه الصحيفة مكونة من ورقة واحدة مقاسها ٣٥٫٥ × ٢٥ سم ومطبوعة على الوجهين وكانت تتبع الأسلوب الصحفى وتحتوى على موضوعات تشابه ما يخرج فى الصحف اليومية ، فكانت تحتوى على الاخبار وخريطة للجبهة الغربية وبعض أخبار الرياضة فى ألمانيا وأحد الألغاز •

ولم يكن بها مقالات مدبجة للدعاية ولا مقال افتتاحى ولا دعاية مفتوحة واضحة • وقد تضمنت الطبعة الاولى كذلك رسما كاريكاتوريا ، وظل الرسم

الكاريكاتورى أحد بنود الصحيفة فى جميع الاعداد التالية ، ثم نقل فيما بعد بنجاح كبير الى الراديو فى عمود سمى « اليانكى يتكلم » وكان المقصود من هذا أن يكون صوت جندى أمريكى عادى يتحدث الى جندى ألمانى عادى عبر خطوط القتال . وكان الصوت همسا ولكن بطريقة غير ودية . وكان هذا العمود فرصة طيبة لاظهار الحديث من شخص الى شخص بطريقة غير رسمية وبشىء من الصراحة لم يكن يتوافر فى كثير من الوسائل الاخرى المخصصة للدعاية . وعندما انتقل هذا المظهر الى الاذاعة فيما بعد كانت فقرة « اليانكى » تنتهى دائما « بنكتة » ولكن لم تكن الفكرة هنا لمجرد الترفيه عن الجندى الالمانى بل كان يقصد بها الدعاية فى صورة مقبولة ومناسبة ، وكانت « النكتة » مضحكة دائما الى أبعد حد ممكن ولكنها كانت تتضمن ناحية سياسية أو تشكيكا فى زعامة النازى أو تعليقا تهكميا على الموقف العصيب الذى كان الجندى الالمانى يواجهه .

ان العمود الخاص « باليانكى » يوضح الطريقة المستعملة فى نشر ال Frontpost ثم الـ Feldpost فيما بعد .

وقد استخدمت جميع الوسائل التى أمكن تعلمها من التجارب الصحفية فى قارتين لتحقيق هذا الهدف . وكانت الوسائل تشمل طريقة تقديم الأخبار فى قصص اخبارية على طريقة صحيفة النيويورك تايمز وطريقة الأخبار اللافتة للنظر أو الاخبار المتعلقة باهتمامات الانسان وهى الطريقة التى تتبعها صحافة هيرست وصحف البوليفارد فى أوروبا . وكان هناك شعور بأن كل هذه الوسائل طالما كانت لا تحيد عن قاعدة الصدق الاساسية ، تظل مقبولة على أنها وسائل تستطيع الدعاية عن طريقها أن تحقق أهدافها بسهولة .

وقد يكون من المهم سرد بعض الوسائل الصحفية المستعملة .

كانت هناك أولا الطريقة الصحفية العادية القائمة على العناوين التى تجذب الأنظار وتثير الانتباه والاهتمام بقدر الامكان . والى جانب هذا استعملت الطريقة الروتينية التى تعتمد على الكتابة المثيرة والعناوين اللافتة الى جانب

القصص القصيرة الواضحة الخالية من التفاصيل التى لا لزوم لها أو التعليقات المطولة • وعلاوة على ذلك كانت الـ Frontpost تكتب أخبارا هامة من داخل المانيا ، وذلك لكى تعطى الجندى فكرة عما كان يحدث خلف ظهره •

لقد كانت تنشر الوثائق السرية التى يحصل عليها قسم مخابرات الحرب النفسية الملحق بالجيش الثانى عشر وكان الهدف من نشرها أن تبين :

١ ـ عدم الكفاءة وعدم الدقة وعدم التنظيم فى دوائر الفيرماخت Wehrmacht أى القيادة العليا للقوات المسلحة •

٢ ـ الفساد وعدم الاكتراث وسوء الادارة فى زعامة النازى •

وكانت هذه الوثائق السرية تطبع أحيانا تحت عنوان ثابت وهو Geheim أى « سرى » وذلك لكى تعطى الجندى الألمانى شعورا بأنه كان يطلع على أمور خافية عليه • وكانت تطبع بتواريخ دقيقة وأسماء وأماكن وأرقام مضبوطة وذلك للقضاء على أى شعور بأن هذه الوثائق مؤلفة فقد كان للكثير منها طابع حساس بحيث تثير مثل هذا الشك •

ولما كانت هذه المطبوعات توزع على الجنود الألمان التى تواجه وحدات الجيش الثانى عشر مباشرة فقد بذلت كل الجهود للتركيز على المادة التكتيكية • وكانت مخابرات الحرب النفسية تفحص يوميا ليستخرج منها كل البنود التكتيكية الممكنة الاستعمال • وكانت هذه البنود تطبع عادة فى مواعيد منتظمة تحمل عناوين مثل « أخبار المجتمع » أو « أضواء على الفيرماخت » • وكان قسم التحرير يعتبر هذه البنود من أهم البنود فائدة وفاعلية ، وكانت أهميتها تقوم على أساس أنها ترضى الرغبة فى معرفة أسرار الناس وفضائحهم نظرا لأنها كانت تتحدث عن شخصيات ومواقف من النوع الذى يثير اهتمام المحاربين والتى يجرى تكرارها ومناقشتها • وقد عرف من الاستفسارات أن هذه الاخبار كانت تثير الدهشة بل خيبة الامل عندما كان الجنود يعرفون ما كان يجرى داخل الجيش

الالمانى • وكانت بعض الاخبار تهدف الى التسلية المجردة • ولكن كان أغلبها يدل على عدم الكفاءة وعدم النظام وعدم الدقة وعدم كفاية الامدادات والقيادة ، وكانت هذه الاشياء تزيد من تذمر الجنود ومن الاحتكاكات بين الضباط والجنود •

وأخذت هذه النشرة تتطور حتى أصبحت تطبع فى باريس وخرج أول عدد لها بشكلها الجديد فى أواخر أغسطس عام ١٩٤٤ بحجمأصغر منالأعداد السابقة .

وتقرر فى نوفمبر تغيير مواعيد اصدارها بحيث تطبع مرة واحدة أسبوعيا ولكن فى أربع صفحات • وكان العدد الأول المكون من أربع صفحات هو العدد رقم ٣٣ بتاريخ ١٣ من نوفمبر سنة ١٩٤٤ وكان العنوان الرئيسى فيها « اعادة انتخاب روزفلت » وقد فتحت الصفحات الأربع المجـــال أمام هيئـــة التحرير للتوسع فى تصوير الشخصيات بالكاريكاتير والصور • أما صفحــات الأخبــار فانها لم تتغير، بل استمرت فى الظهور علىصورة آخر الأخبار الواردة باللاسلكى. ولقد استعملت فى الصحيفة عدة طرق لزيادة اهتمام القارىء ، فأضيف اليهـا بعض الصور المتحركة « الكارتون » كما كانت تظهر بعض مقتطفات من خطابات لم يتسلمها أصحابها الى جانب قائمة طويلة بالعنـاوين التى كانت على هـذه الخطابات • وكانت الصفحة الثالثة تحتوى دائما على تقرير خاص أو شـخصية مع الصور الفوتوغرافية اللازمة ، كما كانت تطبع صور زوجات الجنود الالمـان وأطفالهم التى توجد فى الخطابات وكان ذلك يهدف الى اثارة الحنين الى الوطن كما كانت تكتب بعض القصص التى تتخذ مادتها من هذه الخطابات التى كتبهـــا الجنود الالمان من حصن ميتز Metz قبل سقوطه ، مثل قصة فشل مهمة جنود المظلات فى هيدت Heydt أو التقاء أحد أسرى الحرب بزوجته وأولاده عن طريق سلطات الجيش الامريكى ، وتقرير بالصور عن كيفية معالجة الجرحى والمرضى من أسرى الحرب فى المستشفيات الامريكية وهكذا •

وكانت هيئة التحرير تدرس دائما تقـارير اسـتجواب الجنود لتتأكـد من اتجاهات الجندى الألمانى • ما الذى كان يمنحه القـدرة على الاسـتمرار فى

القتال وما الذى لا يجعله يستسلم ؟ وما الذى يقال له بحيث يضعف من روحه المعنوية ويجعله أكثر تقبلا لفكرة الاستسلام ؟ وكانت الـ Frontpost فى أخبارها وشخصياتها تعرض مادة تقوم على الاجابة عن هذه الأسئلة • وفى نفس الوقت فانها وغيرها من مطبوعات الجيش الثانى عشر كانت تعمل على التقليل من قيمة خطوط الدعاية الالمانية دون أن يبدو أنها ترد على الدعاية النازية . ومن الافكار المستمرة الاخرى فكرة التفوق الساحق للحلفاء بالقياس الى ضعف امدادات الألمان • وكانت هذه احدى الوسائل الهامة لاثارة شعور ما لدى الجندى الألمانى الذى يجعله يقول « ما الفائدة ؟ » ومن الكلمات الاخرى المثبطة للهمم درس النطق فى اللغة الانجليزية الذى كان يوجه للجندى الالمانى مع استمرار تأكيد كلمة « استسلام » • وقد عمل كليشيه لهذه الكلمة ، فكانت تطبع فى عشرة أماكن مختلفة من العدد الواحد •

وحتى ديسمبر سنة ١٩٤٤ استطاعت الـ Frontpost أن تحقق الشعار المطبوع على الركن الأيمن العلوى من الصفحة الاولى من كل عدد والذى جاء فيه « ان القوى لا يخشى الصدق » ، ومنذ بدأت الصحيفة فى الظهور كانت الاخبار طيبة من وجهة نظر الحلفاء ، وفى مثل هذه الظروف لم يكن من الصعب قول الصدق • وعندما بدأ الهجوم الالمانى المضاد واجهت الـ Frontpost أول اختبار لها فى معالجة الاخبار التى ليست فى صالح الحلفاء والتى تشجع الالمان • وقد واجهت هذه المشكلة بطبع الحقائق فقط • وقد جاء فى العدد الذى صدر فى ٢٥ من ديسمبر سنة ١٩٤٤ بالخط الكبير الذى يمر بالاعمدة الاربعة « الهجوم الالمانى المضاد » وقد جاء فى القصة الرئيسية « لقد تحولت الفيرماخت الى الهجوم على جبهه طولها مائة كيلو متر فى الغرب • وهناك وحدات قوية من القوات المدرعة والمشاة تتقدم فى المنطقة التى تمتد من جنوب مونشو Monschau الى حدود لكسومبورج الالمانية •وتؤيد القوات الجوية الالمانية Luftwafffe الهجوم ، وقد احتلت القوات الالمانية فى كثير من الاماكن مساحات كبيرة من الأرض » •

ويمكن وصف هذا العنوان أو هذا الخبر بأنه صريح وحقيقى عن واقعة لم يكن هناك ما يجبر الصحيفة على نشره • وقد استمرت الطبعات التالية تسير فى نفس الاتجاه ، فكان عنوان العدد التالى « رأس رمح من القوات المدرعة فى بلجيكا » • ثم ظلت تقارير المعركة تطبع بنفس الطريقة حتى تمت تصفية هذا الهجوم •

وعلى كل فان المشرفين على الصحيفة لم ينسوا أنهم يروجون للدعاية قبل أن يكونوا صحفيين ، أى أنهم لم يروا أن وظيفتهم مجرد تزويد الجنود الالمان بالاخبار ولكنهم كانوا يرون أن واجبهم الاول هو أن يحققوا الدعاية عن طريق نشرة الاخبار •

وقد ثبت فى أوائل نوفمبر أن اسقاط الـ Frontpost بواسطة الطائرات لم يكن يفى بالحاجة الى نقل الاخبار الى القوات الالمانية فى الميدان لان عمليات الاسقاط قد لاتصل الى الاماكن التى يراد التأثير فيها • ولعلاج هذا الموقف تقرر اصدار صحيفة صغيرة الحجم يمكن اطلاقها من قذائف المدفعية • وظهر العدد الاول من هذه الصحيفة الصغيرة الحجم والتى سميت Feldpost أى Field Post بالانجليزية بتاريخ ٥ من نوفمبر سنة ١٩٤٤ وكانت تصدر فى أول الامر مرة كل أسبوع ثم مرتين كل أسبوع •

ولقد كان لفيلد بوست نفس أهداف « فرونت بوست » أختها الأولى ، كما كانت تتبع نفس أسلوبها • وكانت تشمل نفس الشخصيات ولكن فى صورة مصغرة • وحتى فى هذه الصورة المصغرة للصحيفة المحدودة المساحة كان من الممكن ضغط جميع عناصر الصحيفة وهى الاخبار الصحفية الهامة والخرائط والصور الفوتوغرافية والكارتون ودروس اللغة الانجليزية • وكان من الممكن تغيير الشكل العام للصحيفة من عدد لآخر بحيث لم يكن هناك عددان متشابهان . وكانت الفيلد بوست تجد قبولا كبيرا من الجنود • وقد شعر المحررون بسرور كبير عندما علموا أنه عند الهجوم على الراين نقلت آلاف النسخ من الفيلدبوست فى أحد قوارب الهجوم لكى تقذف على الشاطىء الشرقى •

ومنذ البداية كانت هناك نسخة أخرى من الفيلدبوست باللغة الانجليزية وكانت توزع على جنود المدفعية وغيرهم من رجال الجيش الذين كانوا يشتركون فى توزيعها • فقد كان هناك شعور بأنه لابد لهؤلاء الاشخاص من أن يعرفوا ما كانوا يقذفونه على الأعداء وأنهم سيؤدون عملهم بحماس أكثر وبفهم أكبر اذا تمكنوا هم أنفسهم من قراءة الصحيفة التى كانوا يساعدون فى توزيعها على الأعداء •

وعلى الرغم من الشعور بالحاجة الى نسخة أخرى من الفرونت بوست عندما صدرت فان تحقيق ذلك كان صعبا لكثرة العمل وقلة عدد العاملين •

وقد أمكن أخيرا اصدار عدد باللغة الانجليزية من الفرونت بوست منأربع صفحات لتوزيعه على الطيارين والسلاح الجوى الذى كان يقوم بالقاء الصحيفة على الألمان •

لقد كانت جميع المطبوعات التى تصدرها جماعة الحرب النفسية الملحقة بالجيش الثانى عشر حتى نهاية نوفمبر سنة ١٩٤٤ مقصورة على الدعاية بين المحاربين، وتهدف الى التأثير علىالقوات الألمانية التى تواجه جنود الجيش الثانى عشر لاضعاف روحهم المعنوية ومقاومتهم والايحاء اليهم بالاستسلام • ونظرا لازدياد مساحة الأراضى التى أصبحت خاضعة لسيطرة الجيش الثانى عشر ظهر هناك عمل جديد فى مجال النشر ، فقد تقرر أن الوقت حان لنشر صحيفة للمدنيين خلف خطوط القتال •

وهكذا بينما كان قسم التحرير يوالى نشاطه الخاص بالدعاية بين المحاربين اتسع نشاطه الى مجال المدنيين•وعلى الرغم من ذلك فقد كان على المطبوعات الجديدة أن تؤدى وظيفة حربية هامة وهى المساهمة فى احلال النظام والحياة الطبيعية فى المناطق الواقعة خلف الجبهة •

وقد ظهر العدد الاول من الصحيفة المدنية بتاريخ ٢٧ من نوفمبر عام ١٩٤٤ وكان العنوان الرئيسى الذى تحمله هو « لقد حررت ستراسبورج » وأطلق على العدد الاول « الاخبار الجديدة » ولكن العدد التالى والاعداد التالية كانت تحمل اسم « الانباء » •

وكانت صحيفة الأنباء فى حجم الصحف العادية وتتكون من ورقة واحدة مطبوعة على الوجهين • وبدت الصحيفة فى مظهرها ومحتوياتها كأى جريدة عادية وليست صحيفة للدعاية وكانت الاخبار تكتب بطريقة عادية واضحة دون تعليق • ولكن الصحيفة كغيرها من الصحف التى كانت تصدر للعسكريين لم تكن مجرد خدمة مجانية للألمان ولكن كان الهدف منها أن تؤدى وظيفتها العسكرية ووظيفة خاصة بالاحتلال •

وكان من أهم وظائف « الأنباء » أن تنشر البيانات والقرارات والاوامر الخاصة بالقائد العام للقوات المتحالفة الى جانب الأوامر والتنظيمات الخاصة بالحكومة العسكرية • وكانت الصحيفة تشمل جميع المجالات فى ألمانيا المحتلة من السياسية العليا الى الموضوعات الأخرى مثل تحذير الناس فى كولون بضرورة غلى الماء قبل شربه •

وكانت الصفحة الأولى من « الأنباء » تخصص للأحداث التى كانت تقع فى جبهات القتال المختلفة شرقا وغربا ثم الاخبار القصيرة عما كان يحدث فى جميع أنحاء العالم ثم بيان للجنرال أيزنهاور • أما الصفحة الثانية فكانت مخصصة لبعض الشخصيات مع بعض الصور الخاصة لشتى مظاهر التعمير فى ألمانيا المحتلة الى جانب أخبار من المنطقة المحتلة مع القاء الضوء على العودة الى الحياة الطبيعية وكيفية مواجهه المشكلات وحلها الى جانب أحكام المحاكم العسكرية • كما كانت تظهر فى هذه الصفحة أخبار عن ألمانيا التى يحكمها النازى ومقتطفات من الخطابات التى كانت تلقى فى الامم المتحدة وبرامج الاذاعة الى جانب بند كان يسمى « ظل سرا حتى الآن » ، وكان هذا البند قائما على

فكرة أنه خلال السنوات الاخيرة كانت الاخبار ذات الاهمية الدولية تخفى عن الشعب الالمانى أو تقدم له بصورة مشوهة • وقد بدأ هذا الباب فى اعطاء الالمان فكرة دقيقة عما كان يحدث فى العالم وفى بلادهم فى الوقت الذى كانت فيه الدعاية الالمانية تخفى عنهم عمدا الاخبار الهامة أو تشوهها •

ولقد ظهرت الحاجة الى بعض المطبوعات الأخرى مثل Mirreilungen فى أثناء الهجوم الألمانى المضاد ، وأحس الشعب الألمانى فى المناطق المحتلة بالقلق الشديد لهذا الهجوم • وقد أحس الاشخاص الذين كانوا يعملون مع الحلفاء بالرعب والخوف على حياتهم من عودة الالمان وكان البعض الآخر لا يعرف ما الذى سيحدث بعد ذلك ، وأصبح المجال مفتوحا أمام مروجى الشائعات • وفى هذا الجو كانت هذه الصحيفة بتقاريرها الصريحة الواضحة عن الموقف وبخرائطها الدقيقة تقرأ بشغف كبير ، وكان لظهور الصحيفة فى ميعادها وبتنسيقها المعتاد أثر واضح • وقد قالت جماعة الحرب النفسية عن اصدار هذه الصحيفة فى هذه الفترة أنه « عمل شجاع للقضاء على الشائعات وعلى انتشار القلق خلف خطوطنا » •

الكتيبات :

وعندما تتوافر وسائل الاسقاط الجيدة من الجو فان النشرات يمكن أن تدعم باسقاط الكتيبات • وتعطى الكتيبات لرجل الدعاية حيز التحرير والصور وهذا يمكنه من مناقشة حجج العدو تفصيليا وبعمق ، كما أنه من الممكن أن تقدم الكتيبات نقاشا معاونا معضدا ، وبذلك يمكن مواجهة دعاية العدو للمدنيين على مستوى واحد • والكتيبات نافعة فى الرد على مجادلات العدو ولا سيما اذا كانت هذه تعتمد على بيانات رسمية أو على احصائيات أسىء عرضها عن قصد ، ومن ثم فهى تتطلب تفنيدا ودحضا نقطة اثر نقطة •

وعلى خلاف النشرة فان الكتيب قد يصعب اخفاؤه أحيانا • وفى المناطق التى تشتد فيها رقابة بوليس العدو يجب أن يعطى الكتيب تمويها واقيا حتى يسهل تبادله بين الناس •

ولقد أعد الامريكيان دينيس ماك ايفوى ودون براون من ادارة استعلامات الحرب كتيبا ليلقى من الجو على اليابان وقد خط على غلافه بأحرف كبيرة « عدو ٠٠ تحذير ٠٠ هذا الكتيب من مطبوعات العدو أصدرته حكومة الولايات المتحدة ومن يجده يجب أن يذهب به من فوره الى أقرب مركز للبوليس » ٠

كان الكتيب يعرض بالموقف العسكرى الذى تواجهه اليابان ، ووجه الى رجال وموظفى البوليس ٠

وكان ما خط على غــلاف الكتيب دافعــا الى ألا يستبقيه رجال البوليس وأسرعوا فى ارسال ما وجد من النسخ الى رؤسائهم على اختلاف درجاتهم كنماذج من دعاية العدو ٠

وقد طبعت الحكومة اليابانية كتابا بالانجليزية بشكل الكتب الامريكية التى تباع بخمسة وعشرين سنتا مع وضع شعار ناشر أمريكى معروف وكل سمات الكتب الأمريكية وما يختص بحق النشر والترجمة ونحو هــذا ، وكان الكتاب يعارض حرب روزفلت التى أثارها ضد اليابان ، ثم وزع الكتاب على اليابانيين كمطبوعات للعدو مستولى عليها وذلك لاقناع اليابانيين والشعوب الآسيوية التى تناصر اليابان على أنه توجد معارضة للحرب العالمية الثانية داخل أرض الولايات المتحدة نفسها ٠

كما أصدرت أغلب الدول المحاربة فى أثناء الحرب العالمية الثانية كتيبات تحض على ادعاء المرض للتخلص من أداء واجب الاسهام فى جهود الحرب ٠

وقد كشفت هذه الكتب عن أن نظام الرقابة الطبية غير كاف وان كل فرد يجب أن يعمل لنفسه وأن المرض الكاذب هو فى الغالبية البديل الوحيد للمرض الحقيقى ، وقد موهت الكتيبات بحيث تبدو مثل الكتيبات الصغيرة التى توضع فى علب الادوية أو حتى الكتب الرسمية التى تصدرها حكومات الاعداء ، وأعطت النشرات تعليمات لكيفية ادعاء مرض السل أو أمراض القلب وغيرها ٠

عمليات التخريب :

من الممكن ـ بمعاونة الوطنيين الغيورين على وطنهم ـ اكساب الدعاية التى توجه الى مدنيين أصدقاء فى بلد يكون العدو قد اجتاحها واحتلها قوة وفاعلية اللهم الا اذا كانت بعض الاعتبارات السياسية الهامة تمنع هذا التعاون وتحد منه. ويتطلب هذا النوع من العمليات تعاونا وثيقا بين القائمين بالدعاية المكشوفة العلنية وبين القائمين بالعمليات السرية وبعمليات التقويض والتخريب •

ولقد شهدت الحرب العالمية الثانية هذا الطابع المشترك فى كل الجبهات واستخدمه اليابانيون استخداما جزئيا أيام غزو الملايو واحتلال بورما • وفى أثناء العمليات على خط سكة حديد الصين سنة ١٩٤٤ كان الوطنيون الذين يقفون الى جانب العدو يعتبرون من جانب الامريكيين على أنهم « كويز لينجيون » على حين شرفهم اليابانيون واعتبروهم وطنيين غيورين على مصالح وطنهم •

وتسبب عمليات الدعاية السوداء التى تجرى بجرأة ارباكا للعدو . فاسقاط عدة أطنان من العملة المزيفة تزييفا جيدا لابد أن يحدث اضطرابا لادق النظم المالية ، وتتم عمليات تزوير أوراق النقد فى وقت السلم بمواد رخيصة سيئة وفى مصانع بدائية ثم انها تتم سرا تحت ظروف اجهاد وتوتر عصبى ، أما عمليات التزوير التى تحدث فى وقت الحرب فانها تجرى بواسطة وكالات حكومية ، ومن ثم فانها تكون جيدة التزوير بدرجة كبيرة •

ويمكن القيام بعملية هجومية أخرى من هذا الطراز باسقاط مجموعات من مختلف أنواع بطاقات التموين على السكان المدنيين فى بلاد العدو مع تعليمات بسيطة لاتمام عملية التزوير حتى تكون البطاقات صالحة للتداول وللاستبدال بملابس أو بمواد تموينية ، وقد أسقطت هذه البطاقات على المدنيين فى ألمانيا ، وقد أمكن ارباك نظام التموين على أساس أن الكميات التى صرفت بهذه البطاقات كانت كبيرة جدا مما كاد يجن معه أولئك الذين يحملون مسئولية تنظيم الامداد بالمواد الغذائية •

ومن الممكن في البلاد التي يقاسي الناس فيها الأمرين من الاجراءات العتيقة أن تلقى آلاف البطاقات الشخصية والعائلية الجيدة التي تحمل أختاما جيدة التزوير ويستطيع الأهلون لأغراض خاصة أن يستخدموا هذه البطاقات المزورة ، ومن ثم يربكون كل اجراءات الأمن ، وتفشل كل اجراءات السيطرة على تحركات المدنيين .

والفكرة وراء كل هذه الأنواع من الدعاية السوداء اثارة القلاقل في بلاد العدو بالاضافة الى كسب ود جماعات من بين المواطنين مما يسهل نشر الشائعات وسط الجماهير في بلاد العدو حيث تهمس بأن جماعات ثورية جيدة التنظيم معدة اعدادا تاما وانها تنتظر الوقت المناسب للقيام بدورها لانهاء الحرب .

فاذا قلنا أن « الدعاية البيضاء » يمكن أن تقارن بالقاء القنابل الحارقة لبلبلة قوات العدو المسلحة عن طريق احداث اضطراب في الجبهة الداخلية من خلفها ، كان من الممكن أن تقارن « الدعاية السوداء » برقائق القصدير التي تستخدم لتضليل الرادار .

ان ضربات « الدعاية السوداء » توجه مباشرة نحو أمن العدو ، وتحمله أعباء وأعمالا جسيمة ، وبذلك تزيد من الفرص أمام « العملاء » الذين يسقطون في أرض العدو لينجحوا في أعمالهم الخطيرة التي يكلفون بها .

دبابة الدعاية :

ولقد استخدم مكبر الصوت في الحرب العالمية الثانية وتطور استخدامه ببطء ، فقد أعدت وحدات متطورة في حملة شمال أفريقية وفي الساحل الايطالي وفي « انزيو » وعمليات نورماندي ، ولكن كان مكبر الصوت لا يزيد مداه على ٢٠٠ ياردة مما حدد استخدامه بدرجة كبيرة كما استخدم الاسطول الامريكي هذه الطريقة بأن جعل الطائرات تطير على ارتفاع قليل فوق جزر الباسفيك وتخاطب الجنود اليابانيين الموجودين على الارض بواسطة مكبرات الصوت .

وقد تحقق النجاح عندما أمكن ايجاد نوع من مكبرات الصوت وضع على شاسيهات الدبابات فساعد على زيادة مداه الى مسافة ميلين ، وعلى سبيل المثال كانت هناك دبابة مع أحد فيالق الحلفاء تلقى عشرين حديثا كل يوم من أيام آبريل سنة ١٩٤٥ ، وكانت الأحاديث القصيرة تلقى قبيل الاشتباك ، ثم يتوقف القتال الوقت الكافى الذى يمكن الأسرى من أن يفدوا فى جماعات كبيرة ٠

ان كل جندى يعمل فى القوات المدرعة يعلم أن أهم مميزات العمليات التى تقوم بها الدبابة هى احداث صدمة ٠ ان هذه الصدمة تصيب عقلية العدو وتزيد من قلقه وتشل قدرته على القتال ٠ ان الحرب النفسية هى ذلك الفرع من القوات المسلحة الذى يهتم أولا باضعاف قدرة العدو على الحرب ، وذلك عن طريق التسلط على عقله . وقد يظن الانسان أنه بسببهذا التشابه فان الحرب النفسية والاسلحة المدرعة تعمل دائما جنبا الى جنب ٠ ولكن بسبب الاستخدام المحدود للدعاية فى المعارك فى اثناء الحرب العالمية الثانية فان هذين السلاحين لم يستغلا معا خلال هذه الفترة القلقة من السلام ٠

ان دعاية المعارك التى يحسن استخدامها تستغل السرعة والعنف والمفاجأة ، وهذه هى العناصر الكافية فى كل هجوم مدرع حسن التنظيم لزيادة تأثير الصدمة بدرجة كبيرة . ان تأثير هذه الصدمة يصيب العدو بحالة من القلق تجعله غير قادر على أن يحارب بشجاعة بل قد تجعله يستسلم ٠ ونظرا لقلة ما هو معروف عن عمليات تركيب مكبرات الصوت على الدبابات فان القاء نظرة على عمليات الحرب العالمية الثانية لها قيمتها ٠

لقد استخدم مكبر الصوت المثبت على دبابة مع طابور متقدم من الفرقة المدرعة الثانية الامريكية ، وعندما وصل الى احدى المدن المحصنة انتشر الطابور وبدأت المدينة فى اطلاق النار على المدرعات ٠ وهنا صدر الحديث من مكبر الصوت وقال لحامية المدينة ان هنـاك قوة مدرعة ضخمة تقف على مشـارف المدينة ٠ كما قالت هذه الاذاعة أيضا للشعب أن القائد لا يريد تدمير المدينة ٠٠ ثم قيل للحامية بعد ذلك ان المدفعية الامريكية موجهة اليهم ٠

وبواسطة أجهزة اللاسلكى الموجودة فى الدبابة جرى اتصال بالمدفعية الأمريكية التى أطلقت ست قنابل تحتوى على نشرات صغيرة بها تعليمات خاصة بالاستسلام • ثم قيل لأهل المدينة أن قاذفات القنابل المقاتلة تحلق فوق رؤوسهم • ثم طلب قائد الهجوم الجوى الى احدى طائرات القتال أن تهبط قليلا فهبطت وألقت قنبلة تحتوى على مجموعة من النشرات فى منتصف المدينة • ثم تقدمت الدبابات بعد ذلك دون أن تطلق النار فى حين استمر مكبر الصوت يطلب الى المدينة أن تستسلم • وبينما كانت الدبابات تتقدم فى مواجهة ستار من النيران الخفيفة توقفت هذه النيران ورفعت الرايات البيضاء واستسلمت الحامية المكونة من ٨٠٠ جندى مسلح بالمدافع المضادة للدبابات •

ومما لا شك فيه أن هذه العملية كانت مثالية ، فقلما تكون النتائج بهذا النجاح ، وقلما يكون التنسيق بهذا الكمال • وعلى أى حال فهناك عدة مظاهر هامة للدعاية الخاصة بالمعارك يمكن الوصول اليها عن طريق هذه العملية • وأهم هذه المظاهر أنه ليس هناك من يستسلم للدعاية ، ولكن الذين استسلموا انما استسلموا للقوة العسكرية ولهجوم الدبابات • وهناك فكرة خاطئة تنتشر لسوء الحظ بين كثير من الاوساط وهى أن الحرب النفسية انما هى سلاح سحرى يعمل بمفرده لتحقيق نتائج مدهشة • انه فى الحقيقة ليس الا سلاحا مساعدا ، وان تكن قوته لا ينظر اليها النظرة التى تستحقها • انه كأى سلاح مساعد لا يمكن له أن يحقق نتائجه الكاملة الا بالتعاون مع الاسلحة الاخرى • ففى هذا الوقت السابق لم ترد الدبابات ولا أسلحة المشاة المساعدة على النيران التى أطلقت عليها • وهذه احدى وسائل الدعاية فى أثناء المعارك ، وهى تستغل عملية الصدمة التى تسببها الدبابات الى أبعد حد • فعندما تبدأ عملية تبادل اطلاق النار ، فان العدو يجد شيئا من الراحة ويزول بعض قلقه بانشغاله بالعمليات ويصبح من الصعب تحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من النتائج النفسية • وهذا يبين ضرورة التدريب على هذا النوع من العمليات فى زمن السلم • ان الامساك عن اطلاق النار عملية لا يقدر عليها الا وحدة جيدة التنظيم والتدريب •

وعلاوة على ذلك فلابد من تدريب جندى المشاة الذى يعمل مع الوحدات المدرعة والجندى الذى يعمل فى الدبابة على أن يفكرا بطريقة الحرب النفسية •

ففى الوقت الذى يبدأ فيه العدو فى التسليم يستطيع أى جندى أن يغير موقفه نتيجة المعركة باطلاق النار على الجنود المستسلمين ، فهذا يجعل العدو يشعر بأنه قد غدر به ويعاود القتال بعنف من جديد •

وهناك مجموعة من الاسئلة يجب طرحها فى أثناء التدريب لمعرفة جوابها مثل : ما أحسن مكان تتخذه الدبابة التى بها مكبر الصوت فى الهجوم ؟ كيف يعلق جهاز الراديو الملحق بها ؟ من الذى يجب أن يتولى القيادة فيها ؟ عن طريق أى سلسلة من القيادات ؟ ثم هناك أسئلة فنية عن أحسن طريقة لتزويد الاجهزة بالكهرباء وأحسن موضع لمكبر الصوت فوق الدبابة وأنسب مسافة يمكن منها سماع المكبر فى الاراضى المختلفة والاجواء المختلفة •

والى جانب هذا لابد من تقييم المزايا الاضافية المختلفة التى تنتج عن وجود الدبابة ذات المكبر • ومن أبرز هذه المزايا استخدام المكبر فى تنظيم المشاة فى أثناء الهجوم ، فان صوت المكبر يمكنه أن يصل الى اذن كل جندى من المشاة فى الحال دون حاجة الى أن ينتقل عبر شبكة اللاسلكى • فبعد أن تنتهى الدبابات من قذف أحد المواقع الحصينة بالمدافع مثلا يمكن اخطار المشاة بهذا عن طريق مكبر الصوت ، وبهذه الطريقة يستطيع أن يقوم بالهجوم فى الحال دون ذلك التأخير الذى يتيح الفرصة للعدو لاعادة تنظيم نفسه •

ولابد كذلك من التعرض لمسألة عدد الدبابات التى تحمل مكبرات للصوت ولمسألة القيادة التى تتبعها • ان لاسلحة القتال أهمية كبيرة فى هذا الصدد ، ورغم ذلك فان قليلين من خبراء المدرعات أعطوا هذه المسألة الاهتمام اللازم •

واذا نظرنا الى المستقبل فان مكبرات الصوت ستلعب دورا بالغ الأهمية فى الوحدات المدرعة التى تنقل بالطائرات . ففى العمليات الجوية ــ وهى العمليات

التى تسبب صدمة فى أعنف صورها ـ سوف يدوى صوت المكبرات المتحركة فى جميع أرجاء المنطقة • انها تستغل كل فوضى أو اضطراب يحدث فى أى منطقة ، وتدعو العدو للتسليم ، وتزيد من مخاوفه باحداث أصوات المعارك وتزيد من الفوضى عن طريق الاوامر التى تعطى للجنود •

ولزيادة فاعلية الاسلحة المدرعة تحتاج الى مكبرات الصوت التى توضع فى الدبابات ، كما تحتاج الى تكتيك الدعاية فى أثناء المعركة • ولكى تكون الدعاية التى تنشر فى أثناء المعارك ذات فاعلية لابد لها أن تعمل مع المدرعات والقوات المحاربة المتحركة الاخرى ، ولابد أن يتم هذا التنظيم سريعا •

الطائرة كاحدى وسائل الاستخدام :

قد يتبادر الى ذهننا أن الطائرة لا يمكن استخدامها فى الحرب النفسية بأكثر من سلاح فعال يساعد العمليات الحربية فى تقويض الروح المعنوية للعدو ، أو لالقاء النشرات • ولكن الطائرات استخدمت فى الماضى القريب كوسيلة ناجحة من وسائل الدعاية كما يظهر من المثال التالى :

استطاعت تركيا فى الحرب الماضية أن تظل محايدة طوال الحرب ، وكان كل من الحلفاء ودول المحور يخطب ودها • ولكن ألمانيا النازية كانت تعلن عن نيتها على ارغام تركيا على الدخول فى الحرب الى جانب المحور ، ولتحقيق ذلك عين النازى واحدا من أقدر ساستهم فون بابن Von Papen سفيرا لألمانيا فى أنقرة •

وكانت كل من ألمانيا والولايات المتحدة تتنافس فى صرف المبالغ الطائلة لاغراء تركيا لكى تقوم بعمل يتفق وموقف كل منهما ، أى تنضم كشريك فى تحالف عسكرى يهدف الى هزيمة العدو •

ولعبت الدعاية دورا كبيرا فى التقريب بين تركيا وألمانيا النازية ، فقد استغلت قوة ألمانيا العسكرية ووجود قواتها على مسافة قصيرة من تركيا عبر الممرات فى بلغاريا ورومانيا للتأثير عليها للانضمام الى ألمانيا •

وهكذا كان من الميسور لكثير من الاتراك أن يروا ويسمعوا نتيجة للشائعات المبالغ فيها قصصا عن مدى تقدم التكنولوجية الالمانية بالقياس الى دول الحلفاء • ومن الطبيعى أنه لم يكن ينتظر من تركيا الا أن تعمل على ألا تنضم الى الجانب الخاسر محافظة منها على مصلحتها الوطنية •

وفى عامى ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ شعر رجال المخابرات الامريكية فى تركيا بتشاؤم كبير نحو المستقبل . اذ كانوا يلاحظون كيف كان الأتراك يتأثرون تأثرا كبيرا بامكانيات الحرب المتزايدة لدى الالمان • لقد كان الاتراك يراقبون الطائرات الالمانية وغيرها من معدات الحرب على مدى قريب وكانوا يعلمون ـ كما كان يقال لهم دائما ـ أن هذه المعدات قد أدخلت عليها تحسينات كثيرة بالنسبة لما كان قبل الحرب • ومن ناحية أخرى لم يكن المواطن التركى العادى يعلم الا القليل عن الطائرات الامريكية أو عن انتاج الدبابات وغيرها من الاسلحة العسكرية •

ولكن الموقف تغير فجأة ، فقد تحقق عن طريق حادث عرضى اقناع الاتراك بأن الأمريكيين ليسوا متخلفين عن الألمان فى سباق التسلح الجوى ، وهكذا أمكن التأثير بطريق غير مباشر نتيجة الدعاية غير المباشرة التى سببها هذا الحادث على الحكومة التركية لكى تحتفظ بحيادها •

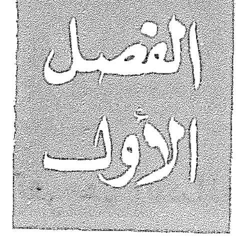
هذا الحادث العرضى يتلخص فى أن احدى قاذفات القنابل الأمريكية فقدت بملاحيها بعد أن قذفت حقول البترول فى رومانيا بالقنابل ، فقد أجبرت على أن تهبط اضطراريا فى أحد المطارات التركية حيث تم التحفظ عليها • وسرعان ما شاع الخبر فى تركيا أن احدى قاذفات القنابل الامريكية هبطت فى الاراضى التركية وانها لا تقل فى تسليحها وقوتها عن الطائرات الألمانية ، على عكس ما كان يقال قبل ذلك •

ان فقد هذه القاذفة والتحفظ على ملاحيها قد تحول الى ميزة نفسية كبيرة في جانب الولايات المتحدة • فبالرغم من أن الحادث لم يكن من أعمال الحرب النفسية المدبرة فقد كانت له نتائج هامة من ناحية الدعاية • ان تأثير الطائرة على الشعب التركى كان أقوى بكثير من التأثير الذى كان من الممكن أن يحدث عن طريق الألفاظ والكلمات التى تستخدمها وسائل الاعلام التقليدية . وقد قيل : أنه لم يكن هناك أى شك فى أن تركيا ستقاوم الضغط النازى ، وستستمر فى سياستها المحايدة بعد هذا الحادث •

الباب الخامس

الشائعات في المجتمع

- الفصل الأول
  الشائعات .. والمجتمع
- الفصل الثاني
  تصنيف الشائعات
- الفصل الثالث
  سيكولوجية الدوافع
- الفصل الرابع
  تحليل الشائعة
- الفصل الخامس
  مقاومة الشائعات



الشائعات والمجتمع

ماذا تعنى كلمة شائعة ولماذا وجدت فى المجتمعات المختلفة ؟ هل هناك ضرورة الى وجودها ؟ وهل سلمت البشرية منها على مدى التاريخ ؟

هل نستطيع أن نضع قانونا محددا أو بمعنى آخر معادلة جبرية لخلق أى شائعة ؟ وما العلاقة بين الشائعة وأى أسطورة تركها لنا أجدادنا وصدقها الكثيرون ؟ هل فى استطاعة أى باحث أن يحدد بدقة ووضوح معالم كل شائعة فى جدول أو يضع لها رسما بيانيا ؟

هذه الأسئلة قد راودتنى فعلا حينما فكرت فى أن أكتب عن الشائعات كسلاح رهيب من أسلحة الحرب النفسية التى تفتك بمعنويات الشعوب وتهدف غالبا الى شل فكر الانسان وجعله ينقاد كما ينقاد قطيع الغنم الذى يهيئه راعيه نحو المستقبل المجهول، أو ينطق نطق الببغاء الذى يردد مالا يعقله، ويحكى مالا يفهمه .

والواقع أن من المنطق أن نجيب عن تلك الاسئلة قبل أن نسبر غور الدوافع الطبيعية فى الانسان ونرى كل ما يساعد على ترويج الشائعات • غير أننا سنحاول تفسير الدوافع السيكولوجية التى تخلق أى شائعة وترويجها ، على أن يلى ذلك تحليل الشائعات ، ثم ننتهى بدراسة للطرق الممكنة لمقاومة هذه الظاهرة الرذيلة • هذا هو المنهج الذى سنلتزم به فى معالجتنا هذا الموضوع • وستتعرض له كل فصول هذا الباب •

تعريف الشائعة :

ليس من السهل أن نضع تعريفا دقيقا محددا لكلمة الشائعة ، فهى تحمل كثيرا من المعانى التى سنحاول أن نبرزها هنا ، ويعرف الشائعة كل من جولدن البورت وليوبوستمان (١) فى كتابهما سيكولوجية الشائعة بأنها « اصطلاح يطلق على رأى موضوعى معين مطروح كى يؤمن به من يسمعه ، وهى تنتقل عادة من شخص الى آخر عن طريق الكلمة الشفهية دون أن يتطلب ذلك مستوى من البرهان أو الدليل » •

على أنه كثيرا ما تنتقل الشائعة عن طريق : الصحافة ، أو الاذاعة ، أو أجهزة الاعلام الاخرى •

وهى تتسم بصفة التناقض ، فقد تبدأ على شكل حملات هامسة أو تهب كريح عاصفة عاتية ، وقد تكون مسالمة لا تحمل أكثر من تمنيات طيبة للمستقبل ، أو مدمرة تحمل بين طياتها كل معانى الحقد والكراهية والتخريب • وهى من جهة أخرى أشبه بموج البحر الذى يعلو فجأة على سطحه ثم يغطس ثانية الى قاعه ليعاود الظهور اذا ما تهيأت الظروف المناسبة ، وعلى كل حال فهى وباء اجتماعى يصيب الانسان ولا يستطيع أن يبتعد عنه أو يتخلص منه بسهولة •

ولما كانت تتضمن عادة موضوعا معينا ، فان الاهتمام بها يكون مؤقتا • فهى تروج فى الظروف الملائمة للموضوع ، ثم تنتهى بموتها ودفنها ، على أنه من ناحية أخرى قد تعاود الظهور مرة أخرى اذا ما وجدت الارض الخصبة المناسبة •

هذا والشائعة تمس أحداثا مثل الحرب ، والفيضانات ، والكوارث، وارتفاع الاسعار ، والعلاقات السياسية والموضوعات الاقتصادية •• الخ ، كما تمس أشخاصا مثل : رئيس الدولة ، أو رجال الحكومة، أو الصحفى ع• أو السيدة س•

---

(١) The Psychology of Rumour, Allport and Postman New York, 1948,PP. IX, X, XI.

هذه بعض النماذج لأهداف الشائعات ، مع أن هناك أشكالا أخرى ملموسة تظهر فيها مثل : الثرثرة ، والنكات ، والتقولات ، والقـذف ، والتنبؤ ــ بخير أو شر ــ بالأحداث المقبلة ٠

وليست كل الشائعات من نسيج الخيال ، فقد يكون بعضها لا أساس لـه مطلقا ، وقد تعتمد على جزء من الحقيقة فيها لخلق كيانها وترويجها ٠ ويجب أن نفرق هنا بين الخبر والشائعة ، فالخبر يعتمد على البرهان والدليـل القاطع أمـا الشائعة فان برهانها يكون باهتا غير واضح ٠ فمثلا اذا نشرت صحيفة ما قانون تأجير المساكن فان ذلك يعتبر خبرا صحيحا ، ولكن حينما يبدأ نقل هذا الخبر بين الافراد مبتعدين عن حقيقة ما جاء به فهنا تبدأ الشائعة ، ويستمر ترديدها دون برهان ولا دليل ، حتى يكاد يصدقها الكثير من الناس وتأخذ فى النهاية أسلوبا معينا فى الترويج ، مثل ذلك « أنهم يقولون ٠٠٠ » أو « سمعت من مصدر مسئول أن ٠٠٠ » أو « لدى أخبار مؤكدة بأن ٠٠٠ » الخ ٠

وهنالك شرط أساسي لاكتمالها ، وهو أهمية الحدث أو الشخص مع ضرورة توافر الغموض الذى يكتنف الشائعة علاوة على الدوافع النفسية التى تبعث على خلقها وترويجها كما سيجىء ذلك فيما بعد ٠

ان الشائعات تروج عندما تكون للأحداث أهمية فى حياة الأفراد ، أو عندما لا ترد عنها أخبار قاطعة ، أو عندما تكون الأخبار غامضة ٠

وقد ينشأ هذا الغموض عندما يصل الخبر محرفا ، أو عندما يصل الى الفرد أخبار متضاربة ، أو اذا عجز عن فهم هذه الأخبار ٠

على أن الشائعة ليست دائما كاذبة وليست دائما قصة خبيثة ٠ وقد تقوم بدور فى تسرب المعلومات ولا سيما فى أثنـاء الحرب حينما تكون الرقابة على المعلومات العسكرية ضرورية بالنسبة للأمن القومى للبلاد ٠

فلو فرضنا أن احدى الطائرات أسقطت فى معركة جوية على أرض الوطن وأسرع الاهالى الموجودون بالمنطقة نحوها لانقاذ ملاحيها فان أولئك الناس لا يمكن أن يروا مثل هذا المنظر دون أن يتحدثوا عنه لاصدقائهم ٠

ومن جهة أخرى فان أجهزة الاعلام لن تتحدث عن مثل تلك الأمور لدواعى الأمن حتى لا تقدم للعدو معلومات سرية ، ولكن تداول الحديث بين من رأوا الحادث وانتقاله الى أصدقائهم وهلم جرا سوف يعمل على نشر المعلومات بواسطة الشائعات ٠

وقد تجىء المعرفة الشخصية بأى حادث عن طريق أقل مباشرة من المثال السابق ، ومع ذلك يؤدى الأمر الى انتشار الحقيقة كشائعة ٠

فقد يعاد أحد الجنود الجرحى من الميدان الى أرض الوطن للعلاج ، وبوصوله الى المستشفى يحضر أهله وأقاربه لزيارته ، وفى مثل تلك الحالات غالبا ما يتعارف أقارب الجنود الجرحى ويسمعون من بعضهم البعض أخبارا تعتبر من الأسرار العسكرية ، وهكذا يتجمع جزء من هنا وجزء من هناك وتنتشر شائعة عما يدور فى أرض المعركة ، وسرعان ما تتطور الشائعة وتنمو ليكون لها طابع قصصى أفضل ٠

وقد تخلق الشائعة من مجرد بعض تخمينات تقوم على بعض حقائق معروفة ، فالجنود الذين يجتمعون فى أحد المعسكرات انتظارا لنقلهم الى أرض المعركة انما يعنون بلا شك بمعرفة قصدهم والمكان الذين سينقلون اليه ٠

ومن الطبيعى وهم فى هذا الموقف أن يقوموا بعدة تخمينات ، فيدور فى أنحاء المعسكر كثير من الشائعات ، فاذا لم يكن الجنود جيدى الضبط والربط ، وعلى مستوى عال من التدريب والوعى وعدم الثرثرة، فان أى اشارة أو حتى مجرد حدس أو تخمين على أساس طبيعة المعدات المزودين بها لابد أن توجد الجو الذى ينشر الحقائق فى شكل شائعه ٠

ولما كان الرجال يحبون القصص التى يصطنعونها ويرفضون الشك فيها ، فان اجاباتهم لما يشكون فيه ويروونه تكون دائما ايجابية وأكثر تفصيلا ، مما يزيد من معقولية الشائعة ، وفى هذه المرحلة تنسب الشائعة الى « مصدر موثوق » ، بل قد تنتشر على أساس أنها بيان من « ضابط ذى مركز كبير » أو « شخص من القيادة العامة » •

ولكن بالرغم من أن الشائعات تتضمن أحيانا حقيقة ، أو قد تقوم على أساس من الحقيقة ؛ فنحن لا يمكن أن نعتمد عليها ، فهى فى الغالبية مجرد تلفيق يستغلها مروجو الشائعات عن عمد لمعاونة العدو كجزء من الحرب التى تدور بالكلمات •

الشائعة والتاريخ :

لا يستطيع الانسان أن يتخيل مجتمعا منذ بدء الخليقة يخلو من الشائعات ، فهذه كغيرها من أحاديث الانسان ظاهرة اجتماعية لازمة • والواقع أن فى تاريخ البشرية أمثلة واضحة تبين أن الشائعة وجدت على الارض مع الانسان ، بل أنها عاشت وتبلورت وترعرعت فى أحضان كل حضارة وثقافة ، وكثيرا ما يحدث أن يظل موضوع شائعة معينة كأنما هو غير قابل للاستنفاد ، وان كان يأخذ أشكالا متنوعة فى أوقات مختلفة ، بل قد يحدث أن يتبلور أحد هذه الاشكال ليصبح اسطورة لا تموت •

ان الشائعات المختلفة سواء كانت قصيرة العمر أو طويلة ، معادية أو مدمرة تعتبر من أخطر الاسلحة الفتاكة للمجتمعات البشرية • ويمكن أن نشبهها بسم الخنجر السام الذى يطعن الابرياء من الخلف مستغلا أحط صفات الانسان من جبن ونذالة ، وغالبا ما يعصف هذا السلاح بكيان مجتمع أو أصول حضارة •

لقد أقلقت الشائعات الحكام منذ فجر التاريخ بدرجة جعلت بعضهم يتجسس على رعاياه بموظفين متخصصين ينقلون اليهم ما يهمس به الناس من الشائعات ، وكانت قصص كل يوم تعتبر « بارومترا » للشعور العام • وعند الضرورة كان هؤلاء الموظفون يقومون بترويج الشائعات المضادة ، ومعنى هذا أن الحرب النفسية ليست شيئا جديدا •

ولقد أشار القرآن الكريم الى كثير من الشائعات التى روجها ضعاف النفوس والمغرضون من اليهود والكفار والمنافقون حول النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه وحول باقى الأنبياء والمرسلين بغية هدم الدعوة المقدسة والتشكيك فيها • ويلاحظ أن الشائعات التى لاكتها الألسنة حول الرسول وصحابته فى صدر الاسلام لم تجد فى مكة الجو الملائم لها قبل الهجرة ، ولكنها وجدت فى المدينة الجو الخصب المناسب لانتشارها : حيث يكثر اليهود ، وحيث ظهرت طوائف جديدة لم يعرفها الاسلام فى المدينة الأولى للدعوة وهى مكة • ومن هذه الطوائف المنافقون الذين مرنوا على النفاق وخبروه جيدا ، وبخاصة عندما كثر عدد المسلمين وقويت شوكتهم •

وكثيرا ما يجد الحاسدون والمراءون والمنافقون فى مثل هذه الأجواء الطاغية باحداثها المثيرة بمشروعاتها لاصلاح العمران مجالا لترويج شائعات هدفها التقليل من اهمية ما يجرى من أحداث واصلاحات ، أو تشويه أشكالها أو التشكيك فى نواياها . ومن بين تلك الشائعات ما أثير من جانب المنافقين حول عائشة(١) أحب زوجات النبى واتهامها فى عرضها فى أثناء احدى غزواته •

---

(١) حديث الافك ، وخلاصته أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان فى احدى غزواته ومعه السيدة عائشة على عادته فى أن يأخذ معه احدى زوجاته بالدور فى الغزوات • وحدث أن انتهت المعركة وعادت القوات العربية بدون السيدة عائشة التى كانت تقضى بعض حاجاتها ولم تتمكن من اللحاق بالمحاربين • ولما لم تجد احدا جلست مكانها لعل الجيش يفتقدها فاذا لم يجدها يعود أحد لحملها ، ولما رآها بعض الصحابة المتخلفين جالسة وحدها حملها على جمله الى المدينة ، ولما رآها بعض الصحابة من ضعاف الايمان على جمل هذا الصحابى تكلم عنها واشاع ما يمس شرفها • وأخيرا جاءت براءتها من السماء فى ١٤ آية من سورة النور ، أولها « ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم » الى قوله تعالى «أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم» ولعل الحادث كان فيه تاديب وتهذيب للمسلمين الذين خاضوا فى الحديث دون علم ، وعلمهم الله كيف يعالجون مثل هذه الأمور فى المستقبل بحكمة حتى لا تضر غيرهم • ومن نماذج التأديب الالهى فى هذا « ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » وبهذا كانت تفخر السيدة عائشة بأن براءتها جاءت من السماء •

ولما كان هذا القول يمس شرف الرسول الكريم فقد تغير من ناحيتها حتى مرضت وذهبت الى بيت أبيها أبى بكر الصديق ولزمته فترة من الزمن تعانى مع الصحابى الجليل أشد الضنك من جراء هذا الحادث وما راج حوله من شائعات ٠

وفى تحليلنا السيكولوجى لهذه الحادثة اذا افترضنا أن الحقائق كما رواها الشاهدون صحيحة ، وأنها تمثل ديناميكية الشائعة فان أثر الكارثة كان على الرسول والمسلمين فظيعا ، بل كاد يعصف بالعقيدة التى ينادى بها محمد ، ومن ناحية أخرى فانها تسعد الكفار والمرتدين وضعيفى الايمان لانها سلاح بتار يقوض من عزيمة المؤمنين . وهذا يعطى الجزء الاول من المعادلة الاساسية لاى شائعة ، وهو أهمية الحدث ، أما الجزء الآخر من المعادلة فيتمثل فى أن أصل الحادث منقول وغير مؤكد وهو ما يطلق عليه تعبير الغموض ٠

كانت كراهية الكفار والمترددين لمحمد الذى جاء يهدم عقيدتهم هى التى أوحت بهذه المعادلة ، ومن ثم كان لابد لهم أن يحولوا انتقامهم وحقدهم الى كبش فداء يتمثل فى عائشة رضى الله عنها ٠

وفى قصة مريم حينما أنجبت عيسى من غير أب نشر اليهود حولها شائعات تمس الشرف وتشكك فى المسيح ٠

لقد كان الابن رمزا للمعجزة الالهية . تكلم فى المهد ، وأبرأ الاكمة والأبرص: وأحيا الموتى باذن الله ، وكان نبيا ورسولا الى بنى اسرائيل يعلمهم الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ٠

كما نجد فى قصة امرأة العزيز ومنازلتها لفتاها يوسف حينما راودته عن نفسه صورة أخرى من أثر الشائعات على الابرياء ، ولقد أراد الله ــ سبحانه وتعالى ــ أن يعصم نبى المستقبل فى مصر من أقاويل السوء والشائعات التى حاول المغرضون الصاقها به ، فهيأ له دخول السجن بضع سنين حتى يقضى على الشائعات التى حوله وهو منها برىء ٠

ولقد أرسلت الشائعة سقراط الى موته بتهمة أنه كان يفسد أخلاق الشبان في أثينا ويدفعهم الى التمرد والعصيان ٠

وقامت الحروب في القرون الوسطى نتيجة للمغالاة في رواية قصص المعجزات والجرائم والاسلاب ٠ وبعد ذلك بقليل بدأ المكتشفون ينتشرون في الأرض بحثا عن كنوز الأساطير وعن أكسير الشباب ، أو لالقاء نظرة على وحوش البحار التي نسمع عنها في الشائعات ، ومهدت أحوال الكنيسة البابوية وحياة رجال الدين الخاصة الطريق لظهور قصص لا تنتهي ساعد بعضها على التمهيد لحركة الاصلاح الديني ٠

ولقد كانت الشائعة أيضا هي التي عاونت على قيام الثورة الهندية عام ١٨٥٧ ، ففي ذلك الوقت كان الجنود يستخدمون بنادق تعمر من أعلى الماسورة ، وكان عليهم أن ينزعوا بأسنانهم قطعة من الورق المشحم من طرف كل «خرطوشة» حتى يمكن أن يسقط في ماسورة البندقية بعض البارود قبل أن « تبيت » « الخرطوشة » في مكانها تماما . وبدأت الثورة بسبب الشحم الموضوع على الورق . لقد قيل للمسلمين أن هذا الشحم شحم خنزير وانهم بهذا يجعلون عن قصد كل جندي مسلم يضع شحم الخنزير المحرم في فمه ، وقيل للهنود أن هذا شحم البقر ومن ثم فانهم يجعلون كل جندي هندي يضع عن عمد شحم حيوان مقدس في فمه ٠ وانتشرت الشائعة انتشار النار في الهشيم ، وحاول الانجليز عبثا أن يصححوا الأمر ، وأن يجعلوا الجنود يقومون بأنفسهم بتشحيم ورق الخرطوش بالزبد النباتي ولكن كل هذا جاء متأخرا ، فقد كانت الثورة قد بدأت عملها ٠

هذه بعض النماذج من الشائعات التي لم تتورع من محاولة النيل من أطهر البشر ، والتي أدت بكثير ممن يحملون مشعل الانسانية اما الى السجن واما الى الموت ، كما أن التاريخ يزخر بكثير من الشائعات التي لا تزال أصداؤها قائمة حتى الآن بين ثنايا المجتمعات المختلفة وفي الاساطير المسجلة ٠ ولكن هل لا تزال

الشائعة فى وقتنا هذا تلعب نفس الدور الذى كانت تلعبه فى الأزمنة الغابرة ، وهل كان للاختراعات الحديثة أثر على ديناميكية الشائعة أو على مدى درجة تأثيرها فى المجتمع ؟ هذا ما سنحاول الاجابة عنه حينما نتحدث عن الشائعة كأساس للتصديق .

الشائعة والأسطورة :

سبق أن حاولنا فى تعريفنا للشـــائعة أن نحدد بعض المعـــالم والســـمات الرئيسية لها ، والان يمكننا أن نتفهم العلاقة بينها وبين الاسطورة . وقد لا نكون مغالين اذا اعتبرنا أن الاسطورة ما هى الا شائعة تجمدت على مر الزمن ، أو بمعنى أدق هى شائعة غير عادية تناولها التاريخ بالتحريف والتغيير ثم ثبتت دون تغيير بعد أن انتقلت من جيل الى جيل .

وفى تعريف الاسطـورة(١) يقـول كل من لابيير La Piere وفارنزورث Farnsworth « الاسطورة عبـارة عن شـــائعة أصبحت جزءا من تراث الشعب الشفهى ، ومن الناحية اللغوية كثيرا ما تستخدم كلمة شـــائعة مكان اسطورة والعكس صحيح » .

وفى بحث نشرته دائرة المعـــارف البريطانيـــة(٢) عن « الانثروبولوجيـــا الاجتماعية » عرضت للأحاديث المنقولة بأن قالت : « انها تعنى حكايات الناس وأساطيرهم التى تنتقل شفاها من جيل الى آخر وتحفظ من الضياع بقوة ذاكرة الذين يتوارثونها طبقة بعد طبقة وانها تخدم غرضين أساسين ، فهى من ناحية تحدثنا بتاريخ الشعوب ، ومن زاوية أخرى فهى ثقافة تصويرية تحـدد مكانة صاحبها فى المجتمع الذى يعيش فيه .

---

(١) Encyclopedia Britanica, 1961 Volume 20 - P. 869, Oral Tradion.

(٢) The Psychology of Rumor, Allport and Postman 1948 P. 163.

ففى أسطورة صحبة الكلب للانسان[1] وخدمته له على الرغم من أن القصص التى دارت حولها ضرب من ضروب الخرافات فى تقدير المستويات العلمية والثقافية الحاضرة ، فان هذه الاسطورة تحتل جانبا كبيرا من قصص الرواة عن الحاميين الزنوج بصفة عامة ، وعند النيليين بصفة خاصة • فمن المعروف أن الحيوانات

---

(١) تقول احدى قصص الاسطورة أن : الأسد ، والضبع ، والفهد ، والكلب ، والقط الوحشى كانوا جميعا أخوة أشقاء عدا الكلب اذ كان من أم أخرى كانت الزوجة الثانية . ومات الأب الذى لم تذكر القصة من هو تاركا وراءه من الماشية والحمير والأغنام والدواجن • وفى ذات يوم جمع الأسد اخوته وقال لهم : « يجب أن نقتسم اليوم ما تركه أبونا » . وادرك الكلب أن الاسد يريد ابعاده لتقسيم التركة بينه وبين الاخوة الاشقاء ، فاصطحب معه صديقه الثعلب وذهب الى مساكن الرجال عند طرف الغابة ، فأسرع الأسد بعد أن ابتعد الكلب وأخذ الماشية لنفسه وأعطى الحمير للضبع وترك الأغنام للفهد ، وكانت الدواجن من نصيب القط الوحشى • وقص الكلب على الرجل قصته وطلب منه أن يعاونه للحصول على حقه فوعده الرجل خيرا وامسك بحربته وحمل فأسا ثم سار يجد والكلب معه حتى أقبلا على المرعى الذى يحفظ فيه الأسد ماشيته ووجداه عند طرف الطريق وقد تأهب للقتال فسأل الرجل الأسد « أليس الكلب شقيقك من أبيك ؟ فأجاب الأسد بالايجاب • فسأله الرجل لماذا تغتصب منه حقه وحق امه ؟ فما كان من الأسد الا أن حاول الانقضاض على الرجل الذى وجه حربته اليه ليقتله فوثب الأسد فوق السياج نحو الغابة تاركا وراءه الماشية التى أمر الرجل الكلب باقتيادها ، واللحاق به • وسارا الى مكان الضبع ودارت نفس المناقشة بين الرجل والضبع وانتهت بفرار الضبع تاركا الحمير فاقتادها الكلب مع الماشية وتكرر الحديث مع الفهد والقط الوحشى ، واستعاد الانسان للكلب كل ما خلفه أبوه من بعده وحمل الجميع الى منزل الرجل وظن الرجل أن عمله قد انتهى •• ولكن الكلب قال للرجل « ليس بى من حاجة الى هذا كله ، ان كل ما أحتاج اليه قليل من اللبن الحامض مع الدجاجات التى تموت •• وكل ما استعدته من اخوتى هو لك لأنك أنت الذى جئت به ممن أراد اغتصابه ، وثق أنهم يتربصون بك ، فلو سقط الأسد على ماشيتك مزقها •• ولو جاء القط والفهد والضبع لقتلوا دواجنك وأتلفوا زراعتك •• فابقنى الى جانبك أحرسها لك •• فان عجزت عن الدفاع عنها تهب أنت لنصرتى بفأسك وحربتك » •

واتفق الانسان والكلب على هذا •• وبقى الكلب منذ ذاك اليوم فى خدمة الانسان .

كتاب الثقافات الأفريقية ١٩٦٥ ـ محمد عبد الفتاح ابراهيم • مكتبة الأنجلو المصرية ص ٤٩ ـ ٥١ .

لا تتكلم ولا تتناقش ولا تفكر الا في نطاق محدود ، وتصرفاتها في أغلب الأحيان غريزية ذاتية . ولذا فان مثل هذه الاسطورة تقيم الكثير من طابع الحياة في المجتمع على أساس أن هذه القصص ما هي الا الظل التصويري لحياة الشعوب وما يدور في مجتمعاتها ، كما أنها من زاوية أخرى تمكننا من سبر غور ما في المجتمع نفسه من حكمة وخبرة مما يساق على ألسنة الحيوان ، وغالبا ما نخرج من مثل هذه القصص بالموضوعات التي تتحدث عن أصول الأشياء أو عن أصل الانسان ، أو عما حققه في الحياة كانسان آدمي .

على أن الاستاذ كلوكهون(١) يرى أن في الاسطورة قوة اجتماعية ، اذ أن الاستشهاد بالماضي ليس مجرد تفسير للحاضر وايضاحه ، بل أنه يجعل هذا الحاضر صالحا وخاصة عن طريق الاقاصيص والاساطير التي فيها مسحة من القداسة ، والتي تستمد منها كل المجتمعات أسس تنظيمها الاجتماعي ودعامة معنوياتها .

وهكذا تعيش الاساطير لأنها تعالج حالات العقل التي لا تموت ولا تتغير . انها توفر الاجابة على ألغاز الحياة كما أنها تفسير الشعور الانساني العميق . وبمعاونة الاسطورة يأخذ العالم معنى التبلور والاستقرار على حد قول كمبال يونغ Kimball Young (٢) ، كما يقول : أن الاطار الذي ترسمه الاسطورة يجعلنا نشعر بالامان في استمرار آيديولوجياتنا .

ان قصص بطولات العرب السالفة لا تزال تملأ نفوس سامعيها من العرب بروح الاستقرار والفخر بأسلافهم ، وكغيرها من الاساطير فانها تعتبر أدوات للتفسير والتوضيح في أثناء حياة الانسان القصيرة على ظهر هذه الارض .

---

(١) Kluckhohn, Clyde, Mirror of Man, London, 1950.

(٢) Young K., Social Psychology, F. S. Grofts and Coy., New York, 1936, P. 437

أما الاساطير التى تعالج القوى الاولية والكون والمعتقدات فيطلق عليها اسم الأساطير الدينية . ولما كانت هذه الأساطير تعالج جزءا كبيرا من فلسفة الحياة التى تشترك فيها الجماعة ذات الحضـارة الواحدة فانها تقاوم التغير ، وبالرغم من وجود قصص كثيرة عن الخلق وعن الحياة الاخرى وغيرها فان كلا منها ثابت داخل دائرته الثقافية • ان ما يتناقله جيل بعد جيل محفوظ فى أشكال ملموسة ، فان الأساطير والشائعات لا تحتوى عادة على لغة مجردة حتى عندما تقوم بمعالجة موضوعات عالمية • ان الموضوعات التى تعالجها الاساطير الدينية هى من أهم الموضوعات التى صادفها الانسان وان كان الدليل الخاص بها دائما من النوع الغامض •

ولما كانت المسائل الدينية قديمة قدم الانسـان نفسه كانت الاسطورة لا الشائعة « هى التى تعالجها دائما » ، ولكن هناك فترات قصيرة ظهرت فيهـا شائعات لم تعش طويلا كان الغرض منها اشباع حب استطلاع الانسان وارواء عطشه الدينى بصفة مؤقتة • وحتى فى وقتنا هذا نجد أنه من آن لآخر تنتشر شائعات عن علامات يوم القيامة ، عن عودة المسيح والمهدى المنتظر وعن علاج روحانى أو تسخير الجان أو ظهور أشباح فى أماكن معينة •

ان التغييرات التى تحدث وتنشأ عنها الاساطير تظهر بوضوح فى القصص التاريخية عن تراجم حياة الغزاة الفاتحين أو الابطال الوطنيين • ان الاعمال التى تروى عن أمثال هانيبال وجنكيز خان عبارة عن امتزاج الخيال بالحقيقة ، وان كانت للاسطورة فيها اليد العليا •

لقد اعتادت الأمهات فى أيام جوفينال أن يرعبن أطفالهن بصرخة يطلقنها : « هانيبال على الابواب » ، وعلى الرغم من الاعمال الكبيرة التى قام بها هانيبال فانه لا يزال يكتنفها الكثير من الغموض والالغاز، كما أن شخصيته لا يعرف عنها أكثر من مجرد الاســم وسجل أعمـاله • ولـكن هل كان هانيبـال ملـكا أو قائدا حربيـا فقط ؟ وما الأهداف التى سـاقته الى أن يهبط فوق ايطاليـا فى سرعة

البرق وضجيج الرعد ؟ وما حقيقة لغز اختراقه لجبـــال الألب على رأس جيش من الفيـلة مما استهوى البـاحثين بضعــة قرون ؟

والواقع أنه لا يمكن لأحد ــ الا اذا كان مؤرخا ــ أن يستخرج من مثل هذه القصة لب الحقيقة ، على أنه من جهة أخرى فان التخريب الذى يقوم به الغزاة أو المنتصرون غالبا ما يدمر ــ كنوع من الانتقام ــ آثار الاعمال التى قام بهـا أعداؤهم ، وقد حدث ذلك فعلا لهانيبال .

فقد تلاشت ذكرى عهـد هانيبال على يد الرومان ، وتلاشت معه ثقـافة قرطاجة وحياتها ، ولم يبق لرجال العصر الحديث من آثار عن هذه الثقافة سوى مدافن المدينة وأسس بعض المعابد بما يحيط بها من ساحات القبور ، ولم تذكر الابتهالات المنقوشة على أنصاب هذه القبور أى شيء عن هانيبال .

وقد نصعد بخيالنا الشاعرى ونتساءل : ما قيمة فصل الحقيقة عن الخيال ؟ أليس ما يمثله أبطال التاريخ وأصحاب الرسالات الانسانية كل طموح الطبقات الغالبة من البشرية وأمانيها ؟ أليست قيمة الاسطورة كرمز أنها تعبر عن هدف روحى لقضية معينة أكثر أثرا وفضلا للبشرية من محاولة مؤرخ القيام بفصـل الحقيقة التاريخية الخالصة عن الخيال الذى جاء بتطور الأجيال ؟

وفى حيـاة كل أمة وحضـارة شـخصيات تاريخيـة قدر لهـا أن تصبح شخصيات أسطورية : أما لبطولة وطنية ، واما لعبقرية فى الفنون والآداب والعلم وغير ذلك مما يؤثر فى حياة المجموع . فلماذا اذا نكون حرفيين الى هذه الدرجة ولا نجعل من كل من أولئك الافراد رموزا روحية تستأهل احترامنا لأعمالهم وأخلاقهم بل نورا وهداية للأجيال القادمة ؟ .

وقد يبدو لنا أن نتساءل هـل للشائعة والاسطورة صفة أخبارية ؟ ان ظاهرهما يوحى بذلك ، ولكن اذا أمعنا النظر نجد أن للكلام الذى تتضمنه كل منهما معنى خفيا أو مجازيا ، فكلتاهما تقول أكثر مما يعنى ظاهرها ، وقد يكون المعنى المستتر أكثر أهمية من المعنى الظاهر .

ومن هذا القبيل أننا نجد فى الأمثال العامية التى تنشر فى مجتمعنا المصرى الكثير مما يحمل معانى أكثر عمقا مما يدل ظاهرها فالقول : « ان جاء الحق فالحق قتله » يضرب مثلا لمن يطالب شخصا بحق وعليه له مثل ما يطالبه به ، أى لا معنى للمطالبة لأن هذا الحق يمحو ذلك فتصوير قتل الحق للحق تصوير مجازى وليس حرفيا ، وحينما تقول « زى القطط بسبع أرواح » لا تعنى أن للقطط سبعة أرواح لأن ذلك زعم باطل ، ولكن المراد بذلك أن تعطى معنى مجازيا لمن تكثر نجاته من الأخطار الشديدة وغيرها • وحينما نقول : « الحرامى على رأسه ريشة » فاننا نعنى بأنه لابد أن يوقع نفسه بشيء يبدو منه ، فان اللص لا يضع ريشة فوق رأسه لتميزه عن باقى الناس •

ولذا فاننا عندما نتحدث عن التحريفات التى تطرأ على الشائعة وتغير من شكلها الاصلى فاننا نستخدم فى مثل هذه الحالة معيارا حرفيا وليس تقييميا ، وهذا فى رأينا عمل خاطىء ، اذ أن الشائعة لو اتخذت على أساس اخبارى أو اعلامى فانها بلا شك تكون مزيفة وخداعة ، ولكن اذا أخذناها على أن لها غرضا تقييميا فانها تصف بدقة رأى من يقوم بترديد الشائعة • فمثلا لو ردد انسان ما شائعة بأن هناك خلافا بين رجال الحكومة فليس هدف هذا الشخص أن يسرد حقائق معينة ولكنه يريد أن يعبر عن عدم تجاوبه مع سياسة الحكم ، وهو فى هذه الحالة يقوم بعملية تقييم فردية من وجهة نظره ، وهذه العملية على حد قول موريس Morris عملية شاعرية تخيلية •

واذا ردد شخص آخر مثلا أسطورة دينية ، أو عن بطل وطنى ، أو عن عمل فنى فانه لا يردد كلاما أعلاميا واخباريا ولكنه يردد كلاما تقييميا حسب نوع الاسطورة •

وهكذا نرى أن الشائعات والأساطير ذات معنى معبر ، واننا يجب أن نحكم عليها كحقائق اخبارية كما قد يتبادر الى الذهن ، ولكن حكمنا عليها يكون على أنها نوع من التقييم • ولكل فرد يعيش فى مجتمع حر الحق فى أن يقول ما يشعر به ، واذا رأى أن يستخدم صيغة مشابهة لصيغة الشائعة فليس هناك ما يمنعه .

وتنشأ المشكلة الاجتماعيه من الشائعة اذا كان المستمع يتلقاها لا على أنها نوع من التقييم من وجهة نظر قائلها ، ولكن على أنها حقيقة اخبارية ٠

وبالرغم من أن الراوى يكشف عن العقدة العاطفية التى عنده تجاه حادث أو شائعة فان المستمع - اذا لم يكن حذرا - يأخذ الكلام على أنه حقيقة ٠ وبهذه الطريقة يخلط بين المعنى المعبر وبين الاشارة الموضوعية ٠ والامر يحتاج الى بصيرة نافذة والى خليط من التقدير والحذر عندما نستمع الى شائعة ٠

قانون الشائعات :

مما لا شك فيه أن الشائعات ذات خطورة قومية للمجتمع ، وهى على نحو ما قلنا وباء اجتماعى وظاهرة من الظواهر التى يجب على كل الشعب أن يتكاتف فى مقاومتها والقضاء عليها ٠

وقبل أن نحاول أن نحلل أسباب ترديد الشائعات والدوافع السيكولوجية التى تدفع الناس الى خلق الشائعات وترويجها يجب أن نصل الى جذور المشكلة ، وذلك بمحاولة وضع قانون يحدد الظروف التى قد تخلق أى شائعة وتعمل على ترويجها حتى نستطيع - اذا تفهمنا ذلك - أن نواصل البحث فى دراسة الدوافع النفسية والتحليلات العلمية للشائعات ، وهذا يوصلنا فى النهاية الى معرفة الأسس الحقيقية التى يستطيع أى مجتمع بصفة عامة أن يبنى عليها خطة الدفاع أو المقاومة ٠

ويرجع البعض أسباب ترديد الشائعات الى : انعدام المعلومات ، وندرة الاخبار بالنسبة للشعب ، ومن هنا ينادون بضرورة تزويد الشعب بجميع الاخبار التفصيلية والدقيقة الممكنة حتى يكون على بينة مما يدور حوله من أحداث وأعمال تؤثر على حياته ومستقبله ٠

هذا القول لا يمكن أن نحكم عليه بالصحة أو البطلان المطلق ، فحقيقة أن الشائعات تنتشر وتردد عند عدم وجود الاخبار أو لندرتها ٠ ولكن من جهة أخرى

غالبا ما نجد أن الشائعات تكثر وتنتشر فى الوقت الذى تكثر فيه الاخبار ولا سيما اذا ما تداول ذلك أحد أجهزة الصحافة والاعلام •

ولنتذكر مثلا حادث الترولى باس الذى ذهب ضحيته فى العام الماضى عدد من المواطنين وغرقوا فى النيل ، فقد نشرت عنه الصحافة بالتفصيل الدقيق، ولكن بالرغم من ذلك ترددت شائعات كثيرة حول سبب الحادث ومدى الاصابات . فالحادث هنا كارثة لا بد أن ينفعل بها الجمهور أجمع ، والغموض هنا موجود • فعلى الرغم من أن المعلومات نشرت على الشعب فان أهمية الموضوع جعلت الناس تتناقله ، ومن هنا جاء التحريف الذى أدى الى ترديد هذه الشائعات •

فانعدام الاخبار وحدها أو ندرتها ليس بكاف لترويج الشائعة ، وانما هناك عوامل أخرى لابد من وجودها لتهيىء الظروف خلق الشائعة وترويجها •

ومع ذلك فاننا نستطيع أن نؤكد أن هناك شرطين أساسيين يتصلان باذاعة الشائعة وارسالها وهما : الأهمية ، والغموض ، ونعنى هنا أهمية الموضوع بالنسبة للأفراد المعنيين وغموض الأدلة الخاصة بموضوع الشائعة •

وغالبا ما نجد الشائعة تحتوى على جزء صغير من الاخبار أو الحقائق ، ولكن عند ترويجها تحاط بأجزاء خيالية بحيث يصعب فصل الحقيقة عن الخيال ، أو يصعب التعرف على الحقيقة من الخيال •

ففى قصص الشائعات كما فى المثال السابق يكون من المستحيل علينا أن نقول على وجه الدقة : أين تكمن الحقيقة ؟ أو بمعنى آخر يصعب علينا معرفة ما اذا كانت هناك أى حقيقة فى القصة •

لقد حاول كل من البورت وبوستمان أن يضعا قانونا أساسيا للشائعة فى شكل معادلة جبرية ، ووصلا الى أنه من الممكن وضع معادلة عن شدة الشائعة على النحو التالى :

شدة الشائعة = الأهمية × الغموض

ونلاحظ أن العلاقة بين الأهمية والغموض هنا ليست علاقة « جمع » ولكن العلاقة بينهما علاقة « ضرب » لأنه اذا كانت الاهمية والغموض « صفرا » لما كانت هناك شائعة ، فمثلا :

لا يحتمل أن يقوم مواطن مصرى بنشر شائعة خاصة عن ارتفاع أسعار لحم الخنزير فى أوروبا لأن الموضوع لايهمه وان توافر فيه الغموض ، كما أنه لا يفكر فى أن ينشر شائعة عن سلوك أهالى الاسكيمو لأنهم لا يهمونه فى شىء ، فالغموض وحده لايكفى لخلق الشائعة أو ترويجها •

كذلك لاتكفى الاهمية وحدها لرواج الشائعات اذ يجب أن يصحب الاهمية الغموض الذى يكشف عن الموضوع • فمثلا اذا فقد جندى فى الحرب احدى ذراعيه فان هذا الخبر ذو أهمية كبرى له ولكن هذا الشخص ليس على استعداد لأن يستمع لأى شائعة عن مدى اصابته لأنه يعرف الحقيقة •

والواقع أن القانون الذى سقناه يمكن التعويل عليه لدرجة كبيرة ، بالرغم من أنه قد يكون هناك من العوامل التى تحد قليلا من قدرته ، فمثلا اذا كانت الأمة خاضعة لرقابة بوليسية شديدة أو اذا كانت العقوبات المفروضة على مروجى الشائعات شديدة ؛ فان الناس تحاول أن تبتعد عنها •

كذلك نلاحظ أن الشائعة تنتشر بين الافراد الذين يتشابه تفكيرهم ، ولهذا فانه فى البلاد التى يكون سكانها مختلفى العقيدة أو اللغة والعادات كما فى الهند مثلا ، أو تكون المواصلات بين أجزائها صعبة كما فى غرب أفريقيا ـ نجد أن الشائعات لاتقدر على اجتياز الحواجز الاجتماعية ولذلك يكون انتشارها محدودا • على أن التطور الكبير فى وسائل الاتصال ومحاولة دول العالم اليوم التجمع لتحقيق أهدافها قد قللت من تأثير هذا العامل الى حد كبير •

وهناك سبب آخر يحد من تأثير القانون سالف الذكر ، فاذا عرف انسان السبب فى محاولته التصرف بطريقة معينة فانه يحاول أن يتصرف بطريقة

مختلفة • انه يحاول أن يتجنب التصرف كآلة أوتوماتيكية ، ومن ثم نجد الشخص الذى أولى حكمه تجاه مقاومة الشائعات، والذى يفهم أنه قد يصدق أو يردد شائعة تحت ظروف معادلة الاهمية والغموض • نجد هذا الشخص عادة لايفعل ذلك •

على أنه لكى تكتمل الشائعة فى صورتها المألوفة ولكى تنتشر بين الناس يجب أن تلازمها دوافع نفسية تعمل على خلقها واستمرار تغذيتها لتنمو •

وقبل أن ننتقل الى تحليل تلك الدوافع نرى من الحكمة أن نحاول تطبيق القانون سالف الذكر على احدى الشائعات التى ترددت فى مجتمعنا •

ففى صيف عام ١٩٦٤ قامت الرجعية والانتهازية بالتعاون مع الاستعمار والصهيونية بترويج شائعة عن محاولة قيام انقلاب عسكرى بمدينة الاسكندرية ضد نظام الحكم ، وتقول الشائعة أن المؤامرة اكتشفت قبل حدوثها بفترة وجيزة وقدضبطت مفرقعات تحت منصة الرئيس وتم اعدام ٥٠ ضابطا من المتآمرين كما تم القبض على بعض كبار المسئولين لاشتراكهم فى تلك المؤامرة •

ونحن لا نستطيع أن ننكر أن حدثا كهذا الذى تتضمنه الشائعة يعتبر موضوعا هاما وحيويا لكل مصرى ، فالمواطن الحر المؤمن ببلده يزعجه ويقلقه أن يسمع ما يهدد كيان بلده واستقراره ويضره أن تحدث أى هزة أو خلخلة تفقده هو والغالبية من الشعب الكثير من المكاسب التى حققتها الثورة • ومن جهة أخرى هناك الشخص المعادى الموتور سواء أكان : رجعيا ، أم عميلا ، أم انتهازيا يهمه أن تقع هذه الكارثة لأنها تصور احدى رغباته الكامنة فيه وتنفث عن حقده وكراهيته • وليس من شك فى أن الشائعة ترضى هذه الفئة الصغيرة التى كانت تتحكم فى مصائر الغالبية من الشعب ، ثم جاءت الثورة وجردتها من أسلحتها التى كانت تسلط على رقاب الناس ، كما ترضى هؤلاء الذين أضيروا نتيجة تطبيق القوانين الاشتراكية وهؤلاء العملاء الذين لا يعرفون أن يعيشوا الا فى أحضان الاستعمار ، والانتهازيين الذين لايجدون سبيلا الا فى التقلبات والاحداث واقتناص الفرص •

وهناك فئة من الناس لا يهمها الا أن تردد ما تسمعه سواء كان حقيقيا او زائفا كنوع من الثرثرة والتظاهر بمعرفة بواطن الامور ٠

هذا من ناحية أهمية الشائعة ، فاذا ما أدرنا نظرنا نحو ما اكتنف هذه الشائعة من غموض نجد أن مصر فى ذلك التاريخ كانت هدفا لحرب نفسية مسعورة من جانب : الاستعمار ، والصهيونية ، والرجعية نتيجة للنجاح الذى أحرزته الثورة فى مختلف الميادين السياسية والدولية ، وقد صاحب هذه الحملة النفسية ضغط اقتصادى مما جعل الناس فى تلك الفترة مهيئين لتصديق أى شائعة تنتشر بينهم ٠ ومن ناحية أخرى كانت الفترة التى راجت فيها تلك الشائعة فترة الاجازة الصيفية التى تتسم بنوع من الركود فى نشاط العمل اليومى ، وقد تصادف فى ذاك الوقت أن ألغى احتفال ٢٦ من يوليو الذى يقام كل عام فى مدينة الاسكندرية ويقوم الرئيس « عبدالناصر » بالقاء خطابه السنوى فيه ٠

كل هذه العوامل ساعدت ــ دون شك ــ على أن يكتنف الغموض تلك الشائعة ، فلم يحاول الذين كانوا يرددونها أن يتحروا ليتأكدوا مما اذا كانت المعلومات التى جاءت بالشائعة حقيقة أم من نسج الخيال ٠ كما لم يكن لديهم الوعى بالتعرف على جذور المشكلة والظروف الصعبة التى تواجهها البلاد من تآمر الاستعمار والرجعية ضد وطنهم ، ثم لم يتصوروا أن الرئيس « عبدالناصر » بشر كمثل باقى البشر له من الطاقة الجسمانية ما لهم ٠

لقد شاءت الظروف أن كان محافظ الاسكندرية يحتفل بزواج ابنته أثناء تلك الفترة ، وقد حضر الاحتفال الرئيس « عبدالناصر » ونشرت صور الاحتفال فى الصحف ، وقد ظهر بها هؤلاء المسئولين ولكن بالرغم من ذلك فان الشائعة لم تدفن الا بعد فترة قصيرة من نشرها ٠

اذا فلماذا استمرت الشائعة فى الذيوع ؟ لقد كان لابد لتلك الشائعة أن تعيش من وجهة نظر من خلقها وعمل على ترويجها حتى تحقق هدفها ، فجندت

الصحافة والاذاعة الاستعمارية والصهيونية أجهزتها للعمل على تغذيتها مستغلة أى غموض فى الظروف لتبنى عليه خيالات زائفة ، معتمدة على أذنابها فى البلاد من رجعيين وعملاء وانتهازيين فى ترويجها ، ونشرها .

ان الذين صدقوا هـذه القصـة ونشروها كانوا محبين للثرثرة أو محبين للعظمة بالتظاهر بعلمهم ببواطن الامور ، واما من كانوا ينتابهم القلق خوفا على مستقبل بلدهم فانهم أخذوا يرددونها دون أن يكون لديهم وعى بالضرر الكامن الذى قد يحدث لبلدهم نتيجة هذا العمل .

أما الذين عملوا على خلق تلك الشائعـة وروجوها فهـم الذين يكرهون عبدالناصر ونظامه . لقد كان الحقد الدفين هو الدافع وراء تلك الشائعة ، وبدلا من أن يقول مروج الشائعة : أننى أكره عبدالناصر ، أو أننى أكره الاشتراكية اتخذ من القصة اداة ليبرر أو يفسر توتره العاطفى الدفين .



تصنيف الشائعات

قامت محاولات عدة من جانب كثير من الباحثين لتصنيف الشائعات واختلفوا حول الاسس التى يبنى عليها التقسيم ، فالعلاقات الاجتماعية بين الناس متشابكة ، والدوافع الذاتية متباينة من مجتمع لآخر • ومن هنا نرى أن من الصعب اقتراح تصنيف عام للشائعات بحيث يمكن تطبيقه على أى مجتمع ، أو ليكون قاعدة علمية يعول عليها حتى وان أعطى للباحث أو الدارس الخيوط التى تساعده فى تفهم الموضوع ، ذلك لاختلاف الزاوية التى يقف عندها الباحثون دائما • فقد يكون مثار الاهتمام الموضوع الذى تعالجه قصة الشائعة ، أو الدافع الذى وراءها ، أو معيار الزمن ، أو الآثار الاجتماعية فى الشعب سواء كانت : ضارة ، أو مفيدة ، أو سلبية •

لقد حاول « بيساو » Bysow (١) أن يستخدم معيار الوقت فى تصنيفه للشائعات وقسمها الى ثلاثة أنواع :

١ ـ الشائعة الزاحفة :

وهى التى تروج ببطء ويتناقلها الناس همسا وبطريقة سرية تنتهى فى آخر الأمر الى أن يعرفها الجميع •

---

(١) Bysow, D, A., Geruchts (Kolner Vierteljahrsschrift Für Soziologie) , 7, 301 - 308, 1928.

ان هذا النوع من الشائعات يتضمن تلك القصص العدائية التى توجه فى مجتمعنا ضد رجال الحكومة والمسئولين لمحاولة تلطيخ سمعتهم ، وكذلك تلك القصص الزائفة التى تروج لعرقلة أى تقدم : اقتصادى، أو سياسى، أو اجتماعى، ويدخل فى ذلك ما يقوم به المروجون من نشر تنبؤات بوقوع أحداث سيئة تمس هذه الموضوعات • ويقوم مروجو هذا النوع من الشائعات بنسج سلسلة لا تنتهى من القصص ويستمرون فى العمل على تغذيتها واستمرار نشرها •

٢ ـ شائعات العنف :

وهى تتصف بالعنف ، وتنتشر انتشار النار فى الهشيم ، وهذا النوع من الشائعات يغطى جماعة كبيرة جدا فى وقت بالغ القصر • ومن نمط هذا النوع تلك التى تروج عن الحوادث والكوارث أو عن الانتصارات الباهرة أو الهزيمة فى زمن الحرب • ولأن هذه الشائعة تبدأ بشحنة كبيرة فانها تثير العمل الفورى لأنها تستند الى العواطف الجياشة من : الذعر ، والغضب ، والسرور المفاجىء •

٣ ـ الشائعات الغائصة :

وهى التى تروج فى أول الأمر ثم تغوص تحت السطح لتظهر مرة أخرى عندما تتهيأ لها الظروف بالظهور ، ويكثر هذا النوع من الشائعات فى القصص المماثلة التى تعاود الظهور فى كل حرب كتلك التى تدور حول تسميم قوات العدو لمياه الآبار ، أو التى تصف وحشية العدو وقسوته مع الاطفال والنساء •

وفى كتاب سيكولوجية الشائعة تأليف البورت وبوستمان نجد مثلا لهذا النوع فى قصة غريبة راجت فى فترة كل من الحربين العالميتين الاولى والثانية ، وهى قصة « اللسان وطابع البريد » وتتلخص فيما يلى :

« كتب أسير حرب أمريكى • كان معتقلا فى معسكر ألمانى فى الحرب العالمية الاولى ، وفى معسكر يابانى فى الحرب العالمية الثانية ـ خطابا أرسله الى أسرته •

ولم يكن الخطاب يحوى شيئا غير عادى اللهم الا ملحوظة كتبها الاسير وطلب فيها من أسرته أن تحتفظ له بطابع البريد الملصق على المظروف • ولما كانت أسرته تعرف أنه لم يكن فى يوم من الايام من هواة جمع طوابع البريد فقد دهشوا لهذا الطلب وقرروا أن يتحروا الامر • فنزعوا الطابع ليجدوا مكتوبا تحته أن آسريه قطعوا لسانه • لقد انتشرت هذه الشائعة فى كلتا الحربين بالرغم من حقيقتين متناقضتين : الأولى ان خطابات أسرى الحرب لا تحمل طوابع بريد • والأخرى أن قطع لسان الشخص يسبب نزيفا يؤدى الى الموت ما لم يقم خبير باجراء العملية الجراحية •

على أن هذا النوع من الشائعات الغائصة غالبا ما تروج ضد رجال الحكم والشخصيات البارزة فى شكل حملات هامسة للنيل من سمعتهم ، أو التشكيك فى نزاهتهم •

وغالبا ما تظل الشائعات من هذا النوع نائمة فى عقول بعض مروجيها ، ثم يقومون بنبشها بعد فترة من الزمن عندما يتشابه الموقف المناسب مع الموقف الذى كان موجودا حينما نشأت الشائعة الاولى ، أو ربما لا تكون الشائعة الثانية استمرارا للشائعة الاولى ، كما أن كثيرا من هذه الشائعات يأخذ شكل الفكاهة والنكات •

ان قصة الصياد والسمكة التى تظهر من آن لآخر فى شكل فكاهة كلما نقصت سلعة هامة من السوق ، أو ارتفع سعر بعض السلع ما هى الا نوع من هذه الشائعات •

ان عجز الناس عن الحصول على تلك الاشياء الضرورية تؤدى الى تعبير عن مخاوفهم اما بنشر شائعة ما ، واما بسرد قصة كتلك القصة دون أن يدركوا أنهم يحيون شائعات قديمة •

وحاول البعض تصنيف الشائعات عن طريق موضوعها ، واعتبره الكثيرون مبدأ آخر من مبادىء تصنيفها . وتعتمد تلك الطريقة على أن يقوم الباحث باحصاء

عدد من الشائعات التى تدور حول موضوع معين • ففى الاحوال العادية يبحث مثلا عن نسبة القصص التى تدور حول : السياسة ، المرض ، الجنس ، العلاقات الخارجية ، الأقليات • والحق أن مجال الموضوعات واسع والتزامه من غير شك يثير شتى صعوبات بخاصة اذا علمنا أن للاقاليم المختلفة ، والجماعات المهنيـة المختلفة ، والمستويات التعليمية المختلفة ـ أثرها فى هذا التصنيف •

وفى زمن الحرب قد يكون لهذه الطريقـة فائدة أكبر لان جميع الشائعات تقريبا تكون موجهة نحو الحرب • ولقد وجد ج• أ• أرفنج J. A. Irving (١) العالم النفسى الكندى عام ١٩٤٣ أن شائعات الحرب فى تلك البلاد كانت تتناول ستة موضوعات رئيسية :

- الرعب والاشمئزاز والموت •
- الاسراف والتبذير •
- الغزو والغارات وتهديد الأمن •
- الشعور بكراهية البريطانيين •
- نوايا الحكومة تجاه التموين ، تمويل الحرب ، التجنيد •
- سوء ادارة العمليات الحربية •

وعلى الرغم من أن هذا التقييم ذو فائدة كبيرة لعملية بناء الروح المعنوية ، والارتفاع بها ، وللعلاقات الحكومية العامة ـ فان الطريقة تبين لنا ماذا يشغل الناس وما موضوع حديثهم ؟ ولكنها لا تصل الى دوافع مروجى الشائعات فضلا عن أنها لا تساعد على الكشف على القوانين العامة للشائعات •

وثمة طريقة ثالثة لتقسيم الشائعات تعتمـد على عامل بواعث الدوافع النفسية ، ففى التجارب التى أجريت على مجموعة مناسبة من قصص الشائعات

---

(١) J. A. Irving, The Psychological Analysis of Wartime Rumor Patterns in Canada, 1943 (Bulletin of The Candian Psychological Associtiom 3, 40, 44) .

التى انتشرت فى الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٢ ثبت أن معظم هذه الشائعات كانت تعبر : اما عن العداوة ، واما عن الرغبة ، واما عن الخوف ، وقليل منها كان يعبر عن توتر عقلى ، أو رغبة فى حب الاستطلاع ٠

ان تصنيف الشائعات حسب بواعث دوافعها أسهل فى زمن الحرب منه فى زمن السلم ، ولكن هذه العناصر الثلاثة « الكراهية والخوف والرغبة » تنشط أكثر من اللازم فى الحرب ، وقد يكون لشائعة الخوف « من وحشية العدو » عناصر جنسية ، أو عناصر مغامرة حتى تستطيع الشائعة أن تحتفظ بكيانها ٠ أما تركيب الدوافع التى تجعل الشائعة مستساغة من شخص فهى موضوع شخصى ، ومحاولة معرفة لماذا يستسيغ شخص معين قصة معينة أمر يحتاج الى دراسة أكلينيكية لهذا الشخص ٠ ونظرا لتشعب البواعث والدوافع ، وامتزاج بعضها ببعض فى الشائعة الواحدة ؛ فان أى تصنيف سيكولوجى للشائعات يكون على الدوام قاصرا ٠

ويقول البورت وبوستمان فى ذلك :

« انه لا ينبغى أن نتوقع شائعة متصلة بعاطفة واحدة أو بميل ادراكى واحد ٠ ان الشائعة لا ترتكز على أساس الوحدة ، فقصة سهلة فى تركيبها قد تخدم عدة أغراض مثل التفسير أو التبرير أو التخفيف لمزيج من المشاعر » ٠

ويوضح هذه الفكرة هذا النوع من الشائعات الذى يطلق عليه اسم « الشائعات العدائية » ٠ قد تذكر هذه اشائعات شريرا واحدا ولكنها غالبا ما توجه هجومها الى أكثر من شرير ٠ ففى أثناء حملة الانتخابات الرياسية بالولايات المتحدة عام ١٩٤٤ انتشرت الأغنية الآتية والمفروض أن المتحدث هو الرئيس روزفلت موجها الكلام الى زوجته :

« عليك أن تقبلى الزنوج ٠٠ وعلى أن أقبل اليهود » ٠

« وبذلك نبقى فى البيت الابيض حسبما نريد » ٠

وفى هذه الاغنية نجد ثلاثة أنواع من الكراهية ـ كراهية للزنوج ، واليهود، والرئيس الامريكى •

على أننا فى محاولتنا وضع تقسيم للشائعـات على أسـاس الدوافع التى وراءها ـ من كراهية أو رغبة أوخوف ـ نراها تختلف تبعا لما تعطيه هذه الدوافع لها من قوة • وبوجه عام يمكن تقسيمها الى ثلاثة أنواع نراها أكثرها انتشارا بين اى مجتمع •

١ ـ الشائعات الحالمة أو بمعنى آخر المليئة بالخيالات التصويرية[1] وهى تعبر عن الأمانى والأحلام ، وفى مثل هذه الشائعات نجد أنهـا تعبر عن سرور مرددها وارتياحه الى تصديق مايأمل أن يكون حقيقة واقعة، وفيما يلى مثال لذلك :

نشرت جريدة الجمهورية اللبنانية المعادية بعددها الصادر بتاريخ ٢٩ من يوليو من العام الماضى تقول : « ان القبائل اليمنية والجمهورية قد أعلنت الحرب على القوات المصرية ؛ لأن الشعب اليمنى يريد الوحدة الوطنية والسلام فى ربوعه» •

لقد استهدفت الجريدة من نشر هذه الشائعة أن تذيع بين الناس أن جميع طوائف اليمن أصـبحت تعـادى القوات المصرية ، حتى الجمهوريين الذين ذهبت القوات المصرية لتأييدهم ، وفى نفس الوقت أرادت الجريدة أن تسىء الى موقف قواتنا فى اليمن ، والى سياسة القاهرة فيها ، وتلك أحـلام وآمال الرجعيـة والاستعمار •

على أن هذا النوع من الشائعات قد يعبر من ناحية أخرى عن أمانى تفاؤلية كقرب انتهاء الحرب مثلا، أو تحقيق القوات المسلحة لانتصارات ساحقة فى الميدان.

٢ ـ الشائعات الوهمية التى تعبر عن « خوف » وليس عن رغبة ، ومن مثلة ذلك الشائعات المغرضة عن اعداد مبالغ فيها من القتلى والجرحى فى حرب

(١) الاصطلاح الانجليزى اصطلاح دارج Pipe - Dream ويعنى به الأحلام التى يتصورها فى غيبوبة مدخن الأفيون على ما يقال فى الاصطلاح العربى الدارج « تفانين الجوزة »

اليمن ، فقد نشرت جريدة الجمهورية اللبنانية بعددها الصادر فى ٢٣ من سبتمبر ١٩٦٤ تقول : « ان عدد القتلى المصريين فى اليمن بلغ ٢٠ ألف قتيل وفى اليمنيين ٢٠٠ ألف قتيل » .

ومما لا شك فيه أن هناك قتلى من أى جانبين متحاربين ، ولكن هذه الجريدة قصدت من وراء تحديد هذه الأرقام الخيالية أن تنشر الذعر بين أهالى الضباط والجنود ، وتعطى صورة قاسية عن الحرب فى اليمن وتسىء فى نفس الوقت الى سمعة القوات المسلحة .

٣ ـ الشائعات التى تهدف لاحداث فرقة وانفصال ، أو بمعنى آخر دق الاسافين ، والمثالان التاليان يعطيان صورة لهذا النوع :

نشرت جريدة النهار اللبنانية المعادية فى عددها الصادر بتاريخ ١٢ من ديسمبر ١٩٦٥ خبرا يقول : « تدل الدلائل على أن القوات المصرية فى اليمن بدأت تخلى الجبهات الشمالية التى يعيش فيها الزيود وتتركز فى المناطق الجنوبية التى يعيش فيها الشوافع » .

وأذاعت محطة اذاعة كولومبيا الاستعمارية فى ٥ من ابريل١٩٦٥ خبرا يقول: « ان هدف ناصر من ارسال قوات مصرية للحرب فى اليمن هو السيطرة على منابع البترول فى السعودية وايران » .

ان هدف هاتين الشائعتين خبيث ومغرض ، فالشائعة الاولى ترمى الى احداث فرقة بين الشوافع والزيود من جهة ، وبين القاهرة والجمهوريين من جهة أخرى على أساس الايحاء بتقسيم اليمن ، وتخلى القاهرة عن الثورة اليمنية .

أما الشائعة الأخرى فغرضها اثارة السعودية وايران لمساعدة أعداء الثورة اليمنية ضد القوات المسلحة .

الشائعات والحرب :

حينما تنشب الحرب تنقلب حياة الناس انقلابا عميقا ، وتتغير أحوال معيشتهم ، وهنا تلعب الشائعات دورها الكبير في التأثير على الروح المعنوية القومية ٠

وقد تكون معنويات الشعب مرتفعة عند بدء نشوب الحرب نتيجة للتعبئة المعنوية أو الروحية أو الدينية ، ولكن كلما طالت فترة الحرب وتعقدت أحداثها يصيب الناس نوع من القلق والخوف ، ويبدو لهم كأن المستقبل سيكون حالكا ٠

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يكتنف الاحداث نوع من الغموض نتيجة لعوامل الأمن والقيود التى تفرضها الحرب على الناس ٠

ومن هنا نجد أن أهمية الحدث وغموضه ترسى القواعد اللازمة لخلق الشائعات فى زمن الحرب، وليس من الغريب أن تسابق الشائعات بعضها البعض نتيجة لأن الناس لا تكون فى الصورة الكاملة من الاحداث ٠

وليست الاهمية ولا الغموض كافيين وحدهما لخلق كل شائعات الحرب، فان الحرب حدث كبير يؤثر على كل فرد في المجتمع ، ولذلك لا نستطيع أن نجرد الناس من عاطفة القلب وتفكير العقل ، ولا بد من أن ينفعل بالحرب كل فرد من الناس ، وتثير هذه العقول كل أنواع الخيالات ، ومن ثم يحاول أغلب الناس أن يفسروا ويتخيلوا نتائج بعيدة ٠

ويجدر بنا أن نوضح نقطة هامة : هى ما يبذله العدو من جهد في خلق الشائعات ونشرها لتقويض الروح المعنوية لجميع أبناء الشعب من : مدنيين ، وعسكريين ، مستغلا فى ذلك المواقف الحرجة التى قد يواجهها أى شعب فيظروف الحرب ، ومعتمدا على تلك الفئة من الخونة التى توجد فى كل مجتمع ٠

كما أن للأسلحة المستحدثة التى تظهر فجأة فى الحرب تأثيرا كبيرا على معنويات العدو ، وتساعد على خلق كثير من الشائعات حولها ، ولنضرب لذلك مثلا ما حدث عام ١٩٤٥ حينما استخدمت القنبلة الذرية عام ١٩٤٥ فى ضرب كل من هيروشيما ونجازاكى ٠

فى الحقيقة لم يعرف فى ذلك الوقت تأثير تلك القنبلة الا أهل هذين البلدين ، ولكن على الرغم من ذلك كانت القنبلة الذرية موضوع شائعات كثيرة ولا سيما بين غير المتعلمين ٠ فأشيع أن الاشعاعات الفتاكة تظل تحلق مدة طويلة فوق مكان الانفجار مما يجعل الحياة مستحيلة ، كما كان الكثير يعتقد أن اكتشاف القنبلة الذرية قد يؤدى الى انفجار الارض ٠

وبالرغم من أن العلماء قد بذلوا جهودا كبيرة لتنفيذ هذه القصص ، فانهم لم يستطيعوا أن يوقفوا تلك الشائعات ، وقد راجت أيضا شائعات براقة لا تزال موجودة حتى فى أيامنا هذه عن التحسينات الكبيرة فى مستويات المعيشة نتيجة لاستخدام الطاقة الذرية ٠ ويرجع ذلك كله الى أن الناس لم يكونوا على استعداد لتقيم الاخبار التى وصلت اليهم عن هيروشيما ونجازاكى ٠

وتأخذ الشائعات عن فداحة الخسائر فى الأرواح والمعدات جزءا كبيرا من شائعات الحرب ، ويرجع ذلك الى التوتر العاطفى للشعب نتيجة الخوف والقلق النفسى اللذين تسببهما الحرب ٠

وينتمى الى هذا النوع قصة من شائعة انتشرت فى أثناء عملياتنا باليمن عام ١٩٦٤ وهى أن جميع المستشفيات العسكرية والمدنية امتلأت بالضباط والجنود الذين أصيبوا فى معارك اليمن ، وأن المرضى المدنيين لا يجدون أماكن فى المستشفيات نتيجة لاحتلال العسكريين محلاتهم ، بالاضافة الى الاعداد الغفيرة التى دفنت فى أرض المعركة ٠

هذه الشائعة الخبيثة تتضمن عديدا من العوامل النفسية المعادية ، فان الذين خلقوها وروجوها يهدفون أولا الى بلبلة أفكار الشعب بأن هناك خسائر فادحة فى أرواح أبنائهم الذين يحاربون فى اليمن ، وبذلك يدقون اسفينا بين الشعب وبين المسئولين كما أنها تهدف الى بث روح الحقد والكراهية بين المدنيين

ضد العسكريين الذين يحرمونهم فرصة العلاج نتيجة احتلالهم المستشفيات ، وتهدف بطريق غير مباشر الى توجيه عداء مستتر كامن نحو الحكم الذى يحمله مسئولية تلك الخسائر ٠

كما ينتمى الى ذلك تلك الشائعة التى تقول : « ان مدمرة عربية كانت تحمل قوات عربية عائدة من اليمن ومتوجهة الى الجمهورية العربية المتحدة فضربت فى البحر وغرقت كما أنه لم يتم انقاذ أحد من ركاب تلك المدمرة ، ونتيجة لذلك قامت القوات العربية بتدمير جميع المبانى التى كانت موجودة على الشواطىء القريبة من مكان الكارثة » ٠

ان الدافع وراء ترديد الشائعتين السابقتين هو عامل الخوف والقلق ٠

ويستغل مروجو الشائعات هذا العامل النفسى فى الناس لبث سمومهم القاتلة ، ففى القصة الأولى نجد أن تضخيم الخسائر فى الأرواح بنى على أساس أنه لابد من أن تحدث خسائر ما نتيجة أى معركة فاستغل مروجو هذه الشائعة عامل القلق والخوف لدى الشعب ، ونسجوا من خيالهم الحاقد باقى القصة التى لا أساس لها من الحقيقة ٠

أما القصة الأخرى فهى قصة من نسج الخيال ، وليس فيها أى أثر من الحقيقة، فان قواتنا لم تخسر فى حرب اليمن أى قطعه بحرية ، كما لم يحدث لأى قوات لنا فى البحر أى خسائر ٠

ان الغموض وجهل الناس بالأخبار ، ودوافع الخوف والقلق كلها لعبت الدور الكبير فى ترديد مثل هذا النوع من الشائعات ٠

ويعطى لنا البورت وبوستمان فى كتابهما « سيكولوجية الشائعة » قصة طريفة تدخل فى هذا النوع من قصص الخوف وانتشرت انتشارا واسعا عام١٩٤٤ وعرفت بقصة « السلال » ٠ اذ قيل : أن امرأة تلقت من وزارة الحرب الامريكية رسالة تطلب فيها أن تقابل زوجها الجندى العائد فى محطة سكة حديد المدينة ٠ وتقول القصة : أن المرأة ذهبت الى المحطة حيث سلم لها زوجها موضوعا فى سلة وقد بترت ذراعاه وساقاه ٠

هذه الشائعة كانت من نسج الخيال ، ففى مدة الحرب جميعها لم تحدث سوى حالة واحدة بترت فيها ذراعا رجل وساقاه • وحقيقة هذه القصة تختلف كل الاختلاف عن قصة الشائعة الاولى التى تنسب القسوة والوحشية الى وزارة الحرب • أن الحقائق المتعلقة بهذه القصة نشرتها الاسوشيتد برس فى ١٢ من أغسطس عام ١٩٤٥ على النحو التالى :

أحد قدامى الحرب الذى فقد ذراعيه وساقيه يتسلم ٦٠٫٠٠٠ دولار نقدا :

تسلم الشاويش فردريك هنسل وهو الجندى الوحيد فى هذه الحرب الذى فقد أجزاء من ذراعيه وساقيه فى المعركة ـ وكانت معه زوجته ـ مبلغ ٦٠٫٠٠٠ دولار بصفة هدية نقدية لهما بمناسبة الاحتفال بعيد زواجهما الثالث وذلك فى المستشفى العسكرى « بيرسى جونز » •

وكان هنسل قد صادف اعجاب الجماهير لدى وصوله هنا من أوكيناوا منذ خمسة أسابيع ، وكان قد أعلن أنه ينوى أن يعد مزرعة للدواجن بالرغم من اصابته •

واعترافا بشجاعته بدأ الناس من جميع أنحاء البلاد يرسلون له التبرعات لمعاونته فى مشروعه • فأرسلت له صحافة ديترويت أكثر من ٢٦٫٩٢٠ دولار وأرسلت له شيكاغو هيرالد اند أمريكان ٢٥٫٠٠٠ دولار • وقد جمعت له آل جرينبرج ولويز فيل ما يقرب من ٤٠٠٠ دولار وبلغت التبرعات المباشرة الى الزوجين أكثر من ٤٠٫٠٠٠ دولار •

ولم يذكر هذا البيان شيئا عن المساعدة الطبية والجراحية والمالية التى منحتها الحكومة لتأهيل هذا الجندى الشجاع •

الشائعات الهجومية :

هناك عمل مضاد فى الحرب الحديثة لمواجهة الشائعات فى جبهة الوطن ، وهو عبارة عن شائعات هجومية موجهة ضد العدو • ففى الحرب العالمية الثانية

مثلا كانت سيكولوجية الحرب التي شنها النازى تتسم باستراتيجية « فرق تسد » كما تتسم باستراتيجية الرعب • ويصف لنا أدموند تيلور Edmund Taylor في كتابه « استراتيجية الرعب » كيف قام الالمان بالتمهيد لغاراتهم الجوية باشاعة روح الهزيمة والرعب عن طريق نشر القصص في نفوس ضحاياهم • واستمرت الشائعة تلو الشائعة تروجها محطات الاذاعة في بولندا وفرنسا والأراضي الواطئة ، وقد كانت هذه الحكايات تقص قصص الغزو المنتظر كما كانت تحكي عن محادثات السلام الوشيكة الوقوع • كان هدفهم هو اشاعة : الارتباك ، والحيرة ، واضعاف الروح المعنوية • كما كانت هذه القصص تنشر الشك في اخلاص الحلفاء وقدرتهم على تقديم يد العون للبلاد التي تحتاج اليه • وفي نفس الوقت كانت القصص الكاذبة تنتشر عن انتصارات بولندية وفرنسية كبيرة مما بعثت أملا غير مستند على أساس ، ثم أدى هذا بعد ذلك الى خيبة أمل ثم الى الرعب • وفي الايام الاولى من انتصارات النازى كانت دعاية الاذاعة النازية غاية في التنظيم ، بمعنى انها كانت تتنوع طبقا للبلاد الموجهة اليها وللحالة الاجتماعية للجماعة التي كانت تحاول التأثير عليها • وعلى الرغم من أن هذه الدعاية لم يكن القصد منها ترويج الشائعات الا أن معظمها كان له هذا الأثر ، لأن الشائعة في زمن الحرب ليست الا دعاية أو قصصا دعائية تداولها ثلاثة أشخاص أو أربعة ، وكانت القصص المذاعة مختصرة وقصيرة ، سهلة الترديد ، تنتقل بسرعة في هذا الجو الذي يتسم بالغموض والذي يسوده التهديد بالغزو • وأعقب ذلك على التوالي الخوف والارتباك والاغراض المتناقضة والانسحاب غير المنتظم •

واذا قارنا استراتيجية الرعب باستراتيجية « فرق تسد » نجد أن الثانية تقتضي مكرا وحيلة أكثر كما تحتاج الى تكرار أكثر • وتوضع الشائعات بحيث تثير العداوة داخل البلاد حتى يكون سقوطها بعد ذلك سريعا • وقد قال هتلر ذات مرة أنه يفتخر بأن دمار أمريكا ستكون عملية داخلية • ولكنه كان يجب أن يعلم أن الشائعات المفرقة لم تكن كافية •

استخدام الشائعات فى الحرب :

لقد كان الألمان سادة الموقف فى الحرب العالمية الثانية فى استخدام الشائعات فى الحرب النفسية . لقد تبينوا أن حملات الشائعات من أقوى الحملات تأثيرا على العدو ، فهى تصل الى السامع دون أن يبدو أنها دعاية ، وتجىء وحدها وكأنها تندفع بقوة متدفقة من داخلها .

ان أية أخبار مثلا كانت تذاع على الموجة القصيرة فى ألمانيا أو أية قصة ينشرها عميل ألمانى فى صحيفة ببلدة محايدة ـ سرعان ما تبدو وكأنها صادرة من العدو ، اذ يضيع أصلها الالمانى تماما فى عملية تداولها .

والحقيقة أن السامع لا يمكن أن يطالب بالدليل ، لأن الذى يعرض مثل هذه الاخبار لا يزعم أن لديه أى دليل ، بل يوضح منذ البداية أن ما يقوله ما هو الا مجرد كلام سمعه ، وعلى هذا الاساس يكرره ويعيد تكراره . ان التصديق فى مثل تلك الحالات أسهل من الكذب ولا سيما اذا كان الامل أو الخوف يعضد الشائعة .

وبوجه عام يمكننا تلخيص الاساليب التى تستخدم فيها الشائعة فى حرب الكلمات فيما يلى :

١ ـ الاستخدام بقصد التفتيت Disruption

وبهذه الوسيلة تلعب الشائعة دورها فى تدمير القوى المعنوية وتفتيتها .

لقد استعان الالمان بالشائعات فى تفتيت معنويات الفرنسيين ، وخلطوا الشائعات المتشائمة بالشائعات المتفائلة .

ففى طوال الاضطراب الذى سببه الهجوم الالمانى على فرنسا كان كثير من الفرنسيين يتأرجحون بين « الابتهاج » وبين « اليأس » ، وسرعان ما وصلوا الى درجة من الحيرة والقلق ، وأصبحوا لا يستطيعون أن يميزوا بين ما هو صادق وما هو كاذب .

وفى هذا الاسلوب يبدأ عادة رجال الدعاية بنشر الشائعات لايجاد جو من عدم الثقه بين الحلفاء ، ولزيادة التفكك داخل البلاد ، ويصبح من السهل تحطيم التعاون اللازم ، وذلك نتيجة مباشرة لازدياد الشك ، فان الشائعة لا تثبت أى شيء بل تؤدى عملها فقط لو استطاعت أن تخلق جوا من عدم الثقة •

٢ ـ استخدام الشائعة كستارة دخان :

هذا الاسلوب يعتمد على حقيقة أن الشائعات يمكن أن تخفى الحقيقة ، فيقوم أحد الجانبين المتحاربين بالسماح بتسرب بعض المعلومات ، وبذلك يصعب على الجانب الآخر اكتشاف الاسرار الحقيقية من الاخبار الكاذبة •

لقد كان الالمان سادة فى هذا الاسلوب ، فقد كانوا يطلقون الكثير من الانباء المتناقضة من داخل المانيا الى البلاد التى يريدون أن يحدثوا فيها اضطرابا بين الناس •

٣ ـ بقصد الحط من شأن مصادر الأنباء :

ولهذا أسلوبه الخاص ، ففى السنة الثانية للحرب العالمية الثانية ، حاول البريطانيون عدة مرات أن يدمروا محطة السكة الحديدية الرئيسية فى برلين ، ولكنهم لم ينجحوا فى محاولاتهم هذه ، وقام الالمان بنشر تقارير غير مؤكدة توحى بأن الانجليز قد نجحوا فى محاولاتهم •

وعندما وصلت هذه الشائعات الى بريطانيا ، اعتبرها الانجليز تأكيدا واثباتا لنجاح محاولاتهم وأذاعوا هذا الخبر • وحينئذ أخذت وزارة الدعاية الألمانية بعض الصحفيين الأمريكيين الى المحطة الرئيسية لاثبات كذب الاذاعة البريطانيه ، وبذلك استطاع الالمان أن يحطموا من شأن هيئة الاذاعة البريطانية على أساس أن أنباءها كاذبة •

٤ ـ استخدام الشائعة كطعم Bait بقصد تبيين الحقيقة :

وخير مثل لذلك ما قام به اليابانيون فى الحرب الثانية ، اذ روجوا شائعات مبالغا فيها عن خسارة الامريكيين فى الاشتباكات البحرية • لقد كانوا

لا يعرفون حقيقة خسائر العدو • وكانوا يهدفون من وراء ذلك الى أن يثيروا الامريكيين فيقوموا بنشر حقيقة خسائرهم •

ولقد نجحت هذه الوسيلة ، اذ أن انتشار هذه الشائعات أثر تأثيرا بالغا فى معنويات الأهلين ، مما جعل الحكومة الامريكية تسرع فى اذاعة الحقائق عن الخسائر رغبة فى دعم الروح المعنوية ، وبذلك استطاع اليابانيون أن يعرفوا الحقائق التى تهمهم •

الشائعات والشغب :

على الرغم من أن الحروب وأعمال الشغب والكوارث والأوبئة كلها مدمرة فى حد ذاتها ، فان دمارها يشتد اذا أضيفت اليها الشائعات •

وان كنا لانستطيع أن ندعى أن الشائعة هى السبب الوحيد أو الاصلى للشغب ، فانه يجب أن نسلم بأنها تلعب دورا مساندا هاما فيها •

والحقيقة أن الدليل على ذلك واضح ومقنع لدرجة أننا نستطيع أن نقول : أن هناك ثمه قانونا سيكولوجيا اجتماعيا يقول « لا يحدث شغب دون أن تكون هناك شائعات تثيره وتصاحبه وتزيد من عنفه » •

وعلى العموم فهناك أربع مراحل لهذه العملية هى :

١ ـ قبل أن يبدأ الشغب تمر فترة يحدث فيها تململ نتيجة عدم الاطمئنان • وقد يأخذ هذا التململ شكلا قصصيا عن : التمييز ، أو الاهانات ، أو الافعال الخاطئة التى يتهم بها كل فريق خصومه •

وفى هذه المرحلة لا تختلف الشائعات الجارية عن القصص العدائية الاتهامية ، وتبدو كأنها ثرثرة يومية • ولكن حينما يزيد رواجها ، أو يشتد شرها فنحن نتوقع حالة تسبق الشغب • وهذه القصص العدائية فى حد ذاتها لا تؤدى الى العنف ، ولكنها فقط عبارة عن « بارومتر » يبين زيادة التوتر الاجتماعى •

٢ ـ وحينما تأخذ الشائعات طابع التهديد تشير الى قرب حدوث خطر ، وتنتشر الشائعات في صور مختلفة : « سوف يحدث شيء الليلة في .. أو لا تنس أن تحضر الى .. لترى ما سوف يحدث » .

ان هذه هي المرحلة التي يمكن التنبؤ فيها بقرب حدوث انفجارات الشغب ، وهنا يجب على الشرطة أن تنظم صفوفها حتى تمنع التهديد من أن يأخذ شكلا عمليا . ان منع الشغب يجب أن يتم قبل أن يبدأ .

٣ ـ وفي أغلب الاحيان تكون الشرارة التي تشعل فتيل البارود هي نفسها شائعة مثيرة . فالشغب الخطير الذي حدث في القاهرة في يناير سنة ١٩٥٢ وأدى الى الحرائق المدمرة جاء في أعقاب روايات مختلفة رددها الذين دبروا هذا الشغب لاثارة الجماهير .

وقد سرت هذه الشائعات بين الناس بسرعة البرق ، فانضمت الى أعمال الشغب ، واشتعلت الحرائق في كثير من المؤسسات ، ونهبت محالات تجارية لا حصر لها ، وأتلفت بضائع تقدر قيمتها بملايين الجنيهات ، وكان أغلب الذين اشتركوا في هذا العمل ممن يقاسون الفقر فانفجروا في أعمالهم المخربة يدفعهم العوز والحاجة .

ويبدو أن أعمال العنف هذه لم يكن لها هدف معين ، بل كانت تسير حسب الظروف ، وهذا يبين لنا كيف أن عنف الجماهير يسير دون خطة ما ودون هدف فور ابتدائه .

٤ ـ وعند حدوث الشغب تروج الشائعات أسرع من رواجها في أى وقت آخر ، وهي تعكس التعصب الشديد ، وأحيانا تكون كلها وليدة الخيال ، فتروج الشائعات عمليات تعذيب وقتل وتلبس ثوبا جنونيا يتفق ويبرز العنف الذي يحدث ويسرع في عملية الانتقام .

ويذكر « لى » Lee وهمفرى Humphrey (١) فى أحد أعمال الشغب التى قام بها السود فى ديترويت بالولايات المتحدة ما حدث حينما وصلت أعمال الشغب الى ذروتها ، اذ انهال سيل من المكالمات التليفونية على شرطة ديترويت للتبليغ عن حوادث مزعومة • فقد أبلغت احدى السيدات أنها رأت « بعينى رأسها » جماهير السود وهم يقتلون رجلا أبيض • وعندما وصلت سيارة النجدة الى المكان الذى قالت السيدة أن الحادث وقع فيه وجدوا بعض البنات يلعبن دون أن يكون هناك أثر لاعمال عنف سابقة • ان زعم السيدة أنها شاهدت الحادثة بعينى رأسها يوحى بأن الشائعة ـ بوحى من شدة التوتر والاضطراب ـ هى ظاهرة مرضية •

وكتب ليتون Leighton (٢) معلقا على هذه النقطة :

« يعرف الأطباء النفسيون الذين يقومون بوضع المرضى تحت ملاحظتهم أن هؤلاء المرضى نتيجة لحالة من الذعر قد يسيئون تفسير أشياء عادية ويصورونها على أنها أشياء بشعة تهددهم • فصفير قطار من بعيد قد يرن فى آذانهم على أنه صرخة شخص يموت ، ورؤية شخصين يتحدثان معا توحى اليهم بأن ثمة شخصين يدبران تآمرا • والاكثر من هذا لوحظ أن بعض المرضى عندما يقعون فى حالة ذعر قد يخيل اليهم أنهم يرون أشخاصا قادمين لمهاجمتهم فى الوقت الذى لا يكون فيه هناك أشخاص مطلقا ، أو قد تصل الى أنوفهم رائحة غاز أو دخان فى الوقت الذى لا يكون فيه أى غاز أو دخان • وقد يحدث نفس هذا الشىء للأفراد العاديين اذا كانوا فى حالة خوف شديد » •

وقد علم ليتون بمثل هذه الشائعات الوهمية فى أثناء تجربته عند عملية الجلاء الامريكى اليابانى من الشاطىء الغربى • وفى أثناء الاضراب الذى حدث فى بوستون ـ أريزونا لاحظ المتظاهرون المضطربون وجود مدافع سريعة الطلقات مع الطاقم الذى يستعملها بالرغم من عدم وجود مدافع أو أطقمها • كان يخيل اليهم

---

(١) Lee A., M., and N. D. Humphrey, Race Riot, New York, Dryden Press, 1943.

(٢) Leighton, A. H., The Governing of Men, Princeton University Press, 1945.

أنهم يرون رجالا يحملون جثث الموتى فى أثناء الليل • كانوا يعتقدون أن السكان يموتون مثل الذباب بسبب حرارة الجو وسوء الطعام ونقص الرعاية الطبية • وكانت الأقاويل تنتشر بأن الأطفال كانوا يهلكون فى غرفهم شديدة الحرارة • ان مثل هذه القصص تمثل المرحلة الرابعة من مراحل الشائعة •

وعندما تصل الشائعات الى المرحلتين الثالثة والرابعة فليس هناك من شيء يمكن للشرطة أو القادة المسئولين أن يفعلوه لوقفها • ان الشيء الوحيد الذى يمكنهم عمله هو الحيلولة دون أعمال العنف، أما القصص الرائجة فليست الا تعبيرا شفويا عنه •

أما فى المرحلتين الاولى والثانية فيمكن أن تكون الشائعة بمثابة تحذير يمكن التعويل عليه من جانب الهيئات المسئولة عن اقرار القانون الذين يمكنهم فى هذه الحالة ـ ودون أى تأخير ـ اتخاذ الخطوات الحاسمة نحو السيطرة على الجماهير المضطربة التى تسير بسرعة نحو ذروة الهياج والعداء التى وصلت اليها وعند ذلك لا يمكن السيطرة عليها •

ويمكن تطبيق نفس هذه القاعدة على أشكال كثيرة من الاعمال الادارية الاجتماعيه • ففى الشركات التجارية وفى المصانع وفى المدارس وفى السجون وعلى ظهر السفن ـ أى فى أى مكان يعيش فيه الناس فى مكان واحد ـ تكون الشائعات بمثابة « الترمومتر » الذى يعبر عن رأى هؤلاء الناس ويرصد حالتهم العقلية • ان القصص العدائية الموجهة الى جهة من جهات العمل تشير الى ضعف الروح المعنوية داخل الوحدة • واذا زادت هذه القصص ولا سيما اذا ظهر فيها عنصر التهديد أو اذا كانت تنبيء بقرب حدوث قلاقل فانه يجب على المسئولين عن الادارة أن يقرأوا فى هذا تحذيرا عن وجود توتر خطير فى الوحدة التى يعملون بها • وهنا يجب عليهم اتخاذ اجراء عملى •

الشائعة والفكاهة :

قلما يخلو مجتمع من روح الفكاهة التى تعبر عن انطباعاته الاجتماعية وتفسر كثيرا من اخلاقه وسلوكه ومعتقداته • فالنكات والقفشات والفوازير

ما هي الا صورة من تلك الصور العديدة التي تسود كل المجتمعات تقريبا لتصور أماني المجتمع ورغباته ، وتعبر من جهة أخرى عن ثقافته ومعتقداته •

والواقع أن هناك علاقة بين الشائعة والفكاهة، وبالرغم من أن الشائعة عبارة عن قضية مطروحة للتصديق ، وتنتشر مبسطة حتى يستسيغها الناس ، فان هناك كثيرا من القصص تنتشر على أنها شائعات وتكون من وحي الخيال الصرف ، ولا تستهدف أكثر من الضحك •

ولكن بالرغم من ذلك فقد تحوى هذه القصص كراهية للحكم ، أو نقدا سياسيا ، أو قد تخفف عاطفة مكبوتة •

ولذا فنحن نجد أن الفكاهات والشائعات يتشابهان تشابها عجيبا في الطريقة التي ينتشران بها ، وكذا الهدف الذي يحققانه •

فقصة الصياد والسمكة التي تعبر عن نقص مواد التموين قديمة كما نعرف، ولكنها تتكرر في أشكال مختلفة كلما شعر الناس بنقص في احدى مواد التموين، فتظهر من آن لآخر وبتحوير سهل •

وكلنا نتذكر أن هذه القصة انتشرت بشكل واسع في أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها في أوقات بعيد بعضها عن بعض •

ان هذا المثل يبين العلاقة السيكولوجية بين الفكاهة والشائعة ، فقد تستخدم هذه أو تلك كأداة للتعبير عن شعور الفرد الخاص دون أن يفصح الراوى صراحة عن كنه شعوره • فالشخص الذي يسيطر عليه فكرة الجنس مثلا لا يعترف بهذه الحقيقة صراحة ، ولا حتى لنفسه ، ولكنه لأتفه الاثارات يندفع في رواية الفكاهات الجنسية ، أو يلجأ الى التحدث في الفضائح الجنسية •

وفي القصة التالية التي ظهرت في كل من الحربين العالميتين الاولى والثانية مثل واضح يبين العلاقة السيكولوجية بين الشائعة والفكاهة •

فقد ذاعت فى بريطانيا فى أعقاب الحرب العالمية الاولى قصة فحواها ان رجلا انجليزيا كان يستحم فى بحر المانش ، وكان يرتدى لباس بحر اقترضه من صديق أمريكى • وكانت « فانلة الاستحمام » منقوشا عليها العبارة الآتية : « لقد كسبت أمريكا الحرب » ونادى الصديق على صاحبه الانجليزى محذرا اياه من سمك القرش • فرد عليه الانجليزى وهو يشير الى الكتابة المنقوشة على الفانلة قائلا : « لست أخشى شيئا • فليس هناك سمك يرضى أن يبتلع مثل هذا الكلام » •

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية راجت قصة تقول أن أمريكيا كان على وشك الاستحمام على شاطىء ميامى وكان يرتدى فانلة استعارها من صديق انجليزى • ولما حذروه من سمك القرش مضى قائلا : « لا تقلقوا فليس هناك سمك يرضى أن يبتلع مثل هذا الكلام » وأشار الى كتابة على الفانلة تقول « سوف تكون هناك بريطانيا دائما » •

ان هذا المثل من الشائعات هو الذى أطلق عليه بيساو اسم « الشائعات الغائصة » حقيقة وليس مجازا • فقد غاصت القصة فى أعماق المحيط الاطلسى لتظهر فى الجانب الآخر منه فى قارة أخرى بعد جيل من الزمان • وفى خلال غوصها قلبت اتجاه الفكاهة التى تحتويها ووضعت ضحية مكان ضحية أخرى •

وتعتمد كل الشائعات الغائصة على تكرر الاحوال السيكولوجية ، فالاحوال فى شائعة تتشابه مع الاحوال فى الاخرى • فكان من نتيجة تحالف البريطانيين مع الامريكيين أن أصبح محتما أن يعيشوا معا فى مناسبات عديدة • وحتى الافراد الذين لم يكونوا يستشعرون الحب نحو الفريق الآخر بسبب تحيز كل فريق لبلاده كانوا مجبرين على الاشتراك معا فى أوجه نشاط واحدة • وترمز استعارة لباس الاستحمام الى هذه الفكرة ـ فكرة الاتصال الوثيق والصداقة ـ التى تنكرها الشائعة • ومن بين ما تتسم به هذه القصة أنها تعكس هذه الحالة المزدوجة من العلاقات بين البلدين المتحالفين : عداء وصداقة •

وتعتبر هذه القصة من النوع « العدائى » وان كان عنصر العداوة فيها ليس حادا • والعاطفة التى تعبر عنها ليست الكراهية نحو الفريق الآخر قدر السخرية

من غرور الفريق الآخر والمنافسة التى بينهما • وعلى عكس معظم الشائعات الأخرى فهذه الشائعة بها فكاهة . ولولا أن فكاهتها هادفة لما عاشت لأن درجة أهميتها تافهة ـ نسبيا ـ للرواة •

على أن ما نشير اليه هو أن الظاهرة الفكاهية تبرز فى هذه القصة لدرجة أننا نجد أنفسنا على حافة « الشائعة » • فالقارىء الفطن قد يقول : « ان هذا المثل لا ينطبق عليه تعريفنا السابق « ان الشائعة قضية للتصديق » ان المفروض فيمن يستمع الى هذه القصة أن يضحك « لا أن يصدق » • ان القارىء الذى يقول هذا على حق • فليس هناك خط فاصل بين الشائعات والفكاهة • ولو أن الثانية تميل الى الخيال بينما تميل الاولى الى الجدية • ولكن فى هذه القصة ـ كما فى كثير غيرها ـ نرى الخيال يعبر عن العداء الحقيقى تحت ستار الفكاهة • فراوى القصة يقول بطريقة تقييمية تخيلية : « يا لهم من بلهاء هؤلاء الأمريكيون أو البريطانيون المغرورون ! » • والحقيقة أن هذه القصة وان كانت لا تعتبر شائعة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى الا أنها تسلك مسلك الشائعة •

ولقد قام الاستعمار والرجعية بترويج كثير من الشائعات العدائية ضد نظام الحكم فى مصر فى شكل نكات بذيئة ، وتضافرت جهود أعداء الوطن على نشرها بين الناس ، وهذا النوع من القصص يطلق عليه اسم « الفكاهة ذات المأرب » فبدلا من أن يصرح الرجعى أو الانتهازى بأنه يكره النظام ، يلجأ الى رواية هذه النكات التى تعبر عن أمانيه الشريرة •

ومن الغريب المخزى أن هناك سفارة أجنبية فى القاهرة كانت تستخدم النكات كوسيلة من وسائل الحرب النفسية علينا ، وكان بها قسم خاص وظيفته خلق الشائعات وترويجها فى شكل نكات يساعدها فى ذلك شرذمة من الخونة والمأجورين •

ان كل مصرى حر يجب أن يضع فى ذهنه أن مثل هذا النوع من النكات لا يهدف الى التسلية ولا الى الضحك ، انما يحمل بين طياته رغبات العدو وأمانيه فى تفتيت عضد الجماعة ، وبث الفرقة بين أبنائها ، وهز الثقة فى قادتها والمسئولين •

أثر الشائعات على الروح المعنوية :

ويمكننا الآن أن نقف لحظة لنتساءل : « ما آثار هذه الشائعات على الروح المعنوية القومية ؟

الواقع أن الشائعة فى مضمونها تلعب دورا كبيرا فى التأثير على معنويات الشعب وان اختلفت درجة تأثيرها تبعا لنوعها والدوافع التى تكمن خلفها ٠

فشائعات الخوف ـ مثل شائعات الامانى ـ لها تأثير كبير على الروح المعنوية فى جبهة الوطن ولا سيما فى أثناء الحرب ٠ ان النوع الاول من شأنه أن يشيع عدم الثقة فى جدوى المجهودات العسكرية ، وهذا يؤدى بدوره الى اشاعة الروح الانهزامية ٠

أما شائعات الامانى فهى تؤدى الى هدوء من نوع ضعيف ، لما فيها من تفاؤل ٠ ولكن هذا الهدوء الشكلى قد يحمل بين طياته موطن الخطر ، فقد يصدم الانسان بالانباء السيئة اذا كان متوقعا احداثا تفاؤلية ، ومن ناحية أخرى قد لا يكترث بما يحمله له المستقبل ٠ وعلى هذا الاساس فان الناس عندما يصدقون الشائعات التى تروج النجاح المرتقب ، أو قرب نهاية الحرب فانهم يميلون الى التكاسل بمجهودهم وتضحياتهم ٠

ومع أن شائعات الخوف يمكن أن يتقبلها الناس تقبلا سلبيا برغم أنها مخاتلة مخادعة ، فانها تستطيع أن تحطم ثقتهم ببطء ٠ ومع هذا فان هناك شائعات أخرى تأخذ شكلا استفزازيا ٠ هذه الشائعات هى التى تبعث الذعر وتعمل على نشره مثل الشائعات عن هزيمة عسكرية أو عن اقتراب قوات العدو ٠

والخطر هنا خطر حقيقى مباشر ، وهو كذلك واضح محسوس ذلك لان من يسمع مثل تلك الشائعة قد يقوم بعمل عنيف ومفاجىء كأن يسارع بالفكاك والهجرة ، فيجمع القليل من أهم ما فى حوزته من ممتلكات ويسارع الى ترك المدينة أو القرية مع أسرته ٠ وهو بتصرفه هذا انما يخلق شائعة مادية قد تجعل باقى الناس يتصرفون مثله ٠

ويكون الموكب المكون من هؤلاء المهاجرين على الطريق أفضل الشائعات صلاحية ، اذ يشكل نموذجا واضحا مرئيا لا يحتاج الى أى كلمات تصفه ·

وبالرغم من أهمية أثر شائعات الخوف وشائعات الامانى بالنسبة للروح المعنوية القومية فانها تعتبر طفيفة نسبيا اذا قورنت بآثار النوع الثالث الذى يعتبر من أخطر أنواع الشائعات ، ذلك لأنها تهدف الى اثارة الفرقة والعداء بين الدول الصديقة ، أو بين الجماعات المختلفة فى داخل الدوله ·

وعلى سبيل المثال كان هناك داخل أرض الوطن سيل من الشائعات لا ينقطع ضد أولئك الابطال الذين يقومون بالتضحية فى أرض اليمن فى سبيل نصرة المبادىء الانسانية ، ودفاعا عن العروبة من الرجعية والاستعمار · ان قصص هذه الشائعات تشكل أثرا ضارا للوحدة القومية ، وتسبب انقساما بين صفوف الشعب ، بل تدعو الى الروح الانهزامية التى يهدف اليها أعداء هذا الوطن ·

وفيما يلى قلة من هذه الشائعات التى راجت فى أثناء وجود قواتنا المسلحة بأرض اليمن :

- ان ارتفاع الاسعار يرجع الى استيلاء القوات المسلحة على معظم مواد التموين ·
- ان الضباط والجنود يحصلون على امتيازات لا يمكن لغيرهم أن يحصل عليها ·
- ان الجيش يستهلك كميات كبيرة من اللحم مما أدى الى نقصها بالسوق .
- ان القوات الملكية باليمن تقوم بشراء الاسلحة من المصريين هناك ·
- ان بعض الضباط والجنود يقومون بعمليات تهريب من اليمن ·

ومما لا شك فيه أن هذه الشائعات افتراءات خبيثة ومن نسج خيال أعداء الوطن الذين يحاولون أولا أن يدقوا اسفينا بين الشعب وقواته المسلحة التى

هى بمثابة الدرع الذى يدافع عن حقوقه ومكاسبه ، كما أنها من ناحية احرى تهدف الى الحط من شأن قواتنا المسلحة وأفرادها بالصاق تهم وفرى كاذبة قد تسبب روحا انهزامية وهو ما يهدف اليه كل عدو أو خائن ٠

على أننا فى هذا المجال يجب ألا نغفل نوعا من الشائعات قد يبدو لنا أثره ضعيفا بالنسبة لمعنويات الشعب برغم أنه يسبب خسائر لقواتنـا المسلحة ٠ ونعنى بهذا النوع من الشائعات شائعات الثرثرة وحب الاستطلاع ٠

فبعض الناس يحاولون أن يكتسبوا الثقة عن طريقة ايحائهم للناس بأنهم على علم بأسرار بالغة الاهمية ٠ وهم بترديدهم هذه الاخبار يعملون على تجسيم الشائعة ونموها نتيجـة التكرار ولا يحس من ينشرها بمسئولية ، فهو مطلق الحريه فى أن يجعل رغباته ومخاوفه وعداءه تعمل عملها ٠

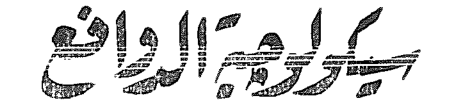
وعلى سبيل المثال نذكر بعض أنواع تلك الشائعات :

- يقال انه قد تم تشكيل فرقة جديدة فى منطقة كذا استعدادا للعمليات٠
- أبحرت البارجة كذا أمس الى اليمن وعلى ظهرها وحدة كذا ٠
- يقال أنه صدرت الاوامر أمس باعلان الطوارىء فى القوات المسلحة ٠

ان ترويج هذا النوع من الشائعات ـ بالرغم من أنه قد لا يحمل بين طياته آثار التخريب المباشر ـ خرق لشئون الأمن القومى الذى يحاول العدو دائما أن يخترق حاجزه ليعرف الكثير مما يهمه ٠

ومهما يكن من شىء فان الشائعات بأنواعها حية رقطاء تستطيع أن تنفث سمومها فى كل قطاعات الدولة ، وهذه السموم التى اذا لم يتكاتف كل أفراد الشعب فى مقاومتها ودرئها بكل عنف وقوة تقضى على الروح المعنوية القومية لأى أمة ، يمكن لها أن توقف انطلاقتها وتشل تقدمها ورفاهيتها ٠





الشائعة كأساس للتصديق :

ظل الناس طوال عصور التاريخ يتساءلون : « ما الحقيقة وما الواقع ؟ » ولم يستطع الانسان فى حياته الطويلة على الارض أن يصل الى اجابة محددة • لقد اختلفت الاجابات عن هذا التساؤل اختلافا بينا سواء جاءت هذه الاجابات على لسان رجال الدين أو الفلاسفة أو العلماء • ومن المسلم به أن يقع ذلك فى كل المجتمعات ، غير أننا لن نحاول أن نتعقبه فيهـا جميعا ، وانما سنقتصر على توضيح نمط التفكير فى المجتمع المصرى ، على أن ننظر فى هذا المجتمع الى الأشخاص والأشياء •

واذا كان علماء النفس قد أكدوا أهمية عملية تلقين الطفل فى سن مبكرة فانه يكفى هنا أن نقول : أن معظم هذا التلقين ينبثق من الاسرة ، والاسرة عندنا تمتاز بالترابط الوثيق، والحب المتبادل بين أفرادها، ومحاولة الأبناء تقليد الأبوين .

والطفل فى سن مبكرة يحاول أن يحصل على اجابات متعددة عن أسئلته التى تبدأ بكلمة « لماذا ؟ » ، وغالبا ما يحاول أحد الوالدين أن يثنيه عن ذلك ، بل قد يلام فى بعض الاحيـان على بعض تلك الاسئلة ، فكأن عليـه أن يتعلم « لا ينبغى » و « ليس من اللائق » حتى لا يخوض فى الأمور أكثر مما يجب !

ثم يتعلم الطفل فيما بعد عن طريق ما يروى أمامه أو ما يسمعه من أفرادها أنماطا مختلفة مثل :

« انهـــم يقـــولون • • • • • • • • • »

« لقـــد ســمعت اليــوم أن • • • • • »

« أظـــن أن • • • • • • • • • • • »

« ان الاذاعة تقول والتليفزيون يقول • • »

« ســـمعت من الجـــار أن • • • • • • »

وفى سن السابعة تقريبا ، يكون قد ألف قبول ما يسمع من أفراد أسرته عن كل الامور تقريبا ، وهو يحفظ القصص منها لانها تعيش فى عالم كله قصص وروايات ، وتلك عادة ليست خاصة بمجتمعنا وانما هى ظاهرة عامة مرتبطة بميل غريزى فى الانسان لسماع الروايات المختلفة •

وفى كتـــاب « الفلسفة فى سبيل جديد » تقول ســـوزان ك• لانجر عن احتياجات العقل البشرى : « ان المخ يؤدى عملا يشـــبه عمل الكليتين والاوعية الدموية ، ولا يستغرق المخ فى سبات عميق حتى اذا لم يكن له هدف واع يخدمه ، فالمخ يمضى طوال الوقت فى انتاج مختلف الافكار التى لا يستخدمها الفرد سواء كان نائما أو مستيقظا » •

والحقيقة أن الدلائل تدعم هذه النظرية ، فلو أن المخ البشرى كان مجرد أداة للنقل وليس أداة للتحويل لما أصبح للشعائر الدينية والموسيقى ، والفنون وكثير من أوجه النشاط الانسانى الاخرى معنى بالنسبة للانسان ، بل كان من المحتمل ألا يمارسها •

ان جانبا ضئيلا ــ وان يكن هاما ــ من السلوك البشرى هو الذى يستهدف الأهداف الواعية ، وتقول لانجر : « عادة ما ينتهى التفكير عندما تبدأ عملية الرمز

من خلال الكلام ، وهذا الرمز فى حد ذاته هو ـ أساسا ـ وسيلة من وسائل الرقابة الاجتماعية » •

ولا شك فى أن الرموز التى تتسابق فى العقل البشرى لابد لها من هدف • ومن الواضح أن الخوف هو القوة الدافعة فى العقول البشرية ، ذلك الخوف الذى تتولد عنه رغبة ملحة فى أن يؤكد المرء ذاته وسط هذا العالم المشحون بالاهوال والاخطار • وهنا يقرر النمط الثقافى للانسان وسيلة التعبير عن هذا السيل من الرموز ، فقد تلجأ جماعة الى استغلال الدين ، وأخرى السياسة ، والبعض الآخر قد يلجأ الى مختلف أنواع السلوك التى سجلها علماء الانسان « الانثروبولوجيا » .

والشائعة لون من ألوان خلق الرموز ، كما أنها نوع من أنواع الحياة الخيالية ، وهى بهذه الصفة شبيهة بالحلم •

ويقول روبرت ه• ناب[١] « تتولد الشائعة من الرغبة فى تفسير العالم تفسيرا ذا معنى ، وكذا من الرغبة فى نفس الوقت فى ارضاء النزعات الانسانية أو التعبير عنها » •

ووظيفة الشائعة هى التعبير العاطفى والتفسير الادراكى • ان الشائعات تعيش على الغموض وعلى النزعات الحادة •

ويقول أولبورت وبوستمان فى كتابهما سيكولوجية الشائعة « انه لا ينبغى فى أى ظرف من الظروف ، اعتبار الشائعة مجرد شىء غريب مستهجن طالما كانت وسيلتها المميزة فى تشويه الذاكرة ، وفى تعمد النسيان ، وفى التخيل والتبرير هى نفس وسيلة التشويه التى نجدها فى معظم أشكال الاتصال بين البشر » •

والحقيقة أن جميع الناس فى أى مجتمع ، وفى أى زمان مهيئون لتلقى الشائعة وتصديقها ، لانه ليس لديهم من الوقت ما يسمح بمراجعة ما يسمعونه وطرحه

---

(١) Knapp, R. H., A Psychologyal Rumor, Public Opinion Quarterly, 8, 23 - 37. 1944.

على معايير الصدق ، فضلا عن أنه يصعب عليهم اثبات تكذيب الشائعة • ومن جهة أخرى كانت صورة العالم في الماضي غامضة في ذهن مختلف الشعوب تبعا للمساحات الشاسعة التي كانت تفصل بعضها عن بعض ، ونتيجة لضعف وسائل الاتصال ، بل لا نكون مبالغين اذا قلنا : انه حتى في الشعب الواحد كانت هناك عزلة أو شيء كالعزلة • ففي مصر كانت القرية الى عهد قريب تعتمد في أخبارها على منادي القرية الذي كان يحمل طبلته ليبلغ أهلها بطريقته الخاصة أخبار القرية وما جاورها من أحداث تهم حياتهم اليومية ، وكانت القرية المصرية في مثل هذا الوقت منفصلة عن غيرها ولا تعرف عن أخبارها أو ما يدور في العاصمة بأكثر مما يحمله اليها وافد عليها في عمل رسمي ، أو أحد أبنائها الذين يقيمون في المدينة •

كل هذه الظروف قد ساعدت الى حد كبير على تهيئة جو الغموض مما كان يشجع على تصديق أي شائعة تأتي من خارج الحدود المحلية والاقليمية •

ولكن في عصرنا هذا نتيجة للتقدم العلمي الكبير، ونظرا للتطور التكنولوجي في الاختراعات الحديثة أصبح حجم العالم أصغر بكثير مما مضى، واستطاع الانسان أن يعبر محيط الجهالة السابقة • ولعبت هذه الاختراعات دورا كبيرا في معركة الشائعات ، فقد قللت أجهزة الاعلام من : صحافة ، واذاعة ، وتليفزيون ، وكذا وسائل الاتصال من : تليفون ، ولاسلكي ، وطيران الى حد كبير على اعتمادنا على الشائعة . وأصبح يبدو وكأن العالم لابد أن يعتمد على الحقائق أكثر من الشائعات، اذ لا نستطيع أن ننكر قيمة هذه الوسائل في اماطة اللثام عن أي غموض، ولا يمكننا أن ننكر من جهة أن الحقائق الموضوعية الخاصة بالاحداث التي تهم كياننا من : سياسية ، واقتصادية ، وعلمية ، وغيرها أصبح من اليسير معرفتها في الوقت الحاضر بدقة وسرعة أكثر من ذي قبل •

ولكن هذه الاختراعات سلاح ذو حدين، فهي من جهة توضح الغموض ، ومن جهة أخرى أداة اثارة ، ومع اتساع أفقنا في التفكير واهتمامنا بالاحداث العالمية تتسع مناطق الغموض •

فاذا أضفنا الى ذلك أن حاجتنا العاطفية لا تختلف عن حاجات أجدادنا، وأن غرائزنا ودوافعنا لا تختلف عما غرسه الله فى آدم وحواء ، فاننا لا نستطيع الا أن نؤكد أن للشائعة نفس الدور الذى كانت تلعبه فى الماضى فى المجتمع ان لم يكن أكثر بكثير .

الشائعة كصورة من صور الرأى العام :

قام البورت وبوستمان بتحليل واسع لطبيعة الشائعة، ومما قالاه « اننا نعلم أن الشائعات المتعلقة بموضوع ما سوف تنتشر داخل جماعة معينة بنسبة الاهمية ومدى غموض هذا الموضوع فى حياة أفراد هذه الجماعة » .

وحقيقة أننا لا نهتم باطلاق الشائعات عن أمور تافهة ، كما أنه ليس مما يستحق العناية أن نحاول اطلاقها فى أمور لدينا عنها معلومات واضحة ، أما الحدث الهام الذى نفتقر فيه الى المعلومات عنه فهو موضوع نموذجى لاطلاق الشائعات عنه .

فمثلا فى أثناء العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ انتشر كثير من الشائعات بين الناس ، اذ كانوا يجهلون أغلب تفاصيل العمليات الحربية استنادا لدواعى الأمن ، ولكن الحدث كان من الأهمية والخطورة بما يكفى لاثارة خيال الرأى العام .

ومن هنا يمكن أن نقول : ان الشائعة تنتشر لانها تؤدى وظيفتين متلازمتين: أولاهما تفسير مظاهر التوتر العاطفى التى يحسها الأفراد ، والاخرى التخفيف عن هذه المظاهر .

وقد أشرف هذان الباحثان أيضا على عدة دراسات تجريبية عن كيفية انتقال الشائعة ، وعن التغيرات التى تحدث فى أثناء انتقالها من فم الى فم .

فمن التغييرات التى تحدث فى أثناء عملية النقل وجد أن الناس تميل الى اختزال ذكرياتهم أكثر من ميلهم الى زيادتها ، كما أن جزءا كبيرا من المادة يحذف

أما التفاصيل فكانت تسقط الى درجة ملحوظة ، ومن ثم فان الشائعة فى انتقالها تستمر فى حجب بعض تفاصيلها الاصلية وتزداد اختصارا فى جوهرها ٠

كما أن هنـاك تغييرات أخرى تحدث فى أثناء الانتقال من حيث الانتقـاء والحفظ والتذكر ، أى من حيث قدرة الادراك على حفظ عدد محدود من التفاصيل من نص أكبر ، ومن ثم فاننا نجد أنه بينما يتم اسقاط بعض التفاصيل ، فان بعضها يظل ثابتا حتى النهاية ٠ ويقول هويبل Whipple (١) فى هذا الصدد :

« تنشأ الرواية الخبرية من عمليات ادراك المحسوسات ، وعلى ذلك فهى تتضمن الشعور ، والانتباه ، والترابط الحسى ٠ وهى تدور حول الحفظ والتذكر وعلى ذلك فهى تتضمن سـيكولوجية الذاكرة ٠ كمـا أنهـا تعبر عن نفسهـا بالكلام ، وعلى ذلك فهى تتضمن سيكولوجية اللغة والتعبير . وهى مشروطة بعوامل ذاتية عديدة وميول مزاجية وعواطف وقابلية للايحاء » ٠

على أن هنـاك تغييرات أخرى تحدث فى أثنـاء انتقال الشائعات ٠ هذه التغييرات تحدث نتيجة تأثير عادات الجماعة وتقاليدها التى تنتشر بينها الشائعة، فان الشائعات من نتاج المجتمع ولابد لها من أن تكون مشبعة بثقافته ، ولها دلالات عامة معبرة عنها ، ولذا فغالبا ما يكون لها لون معنوى أو أدبى نابع من ثقافة هذه الجماعة ٠

وعلى سبيل المثال طلب فى احدى التجارب التى أجريت فى الولايات المتحدة الى أحد الافراد أن ينظر الى احدى الصور ويذكر تفاصيلها الى شخص آخر كان عليه بدوره أن ينقلها الى شخص ثالث ٠ كانت هذه الصورة تمثل شخصا أبيض يواجه أحد السود وقد شهر مدية فى وجهه ٠ وفى خلال عملية انتقال تفاصيل الصورة من شخص الى آخر انتقلت المدية ببطء من الرجل الأبيض الى يد الأسود طبقا لآراء البيض السائدة فيما يتعلق بمسلك السود ٠

---

(١) Whipple, G. M., The Observer as Reporter, A Survey of The Psychology of Testimony, Psychological Bulletin, 6, 153 - 170, 1909.

وفي تطبيقنا هذه التجربة على الشائعة يمكننا أن نقول :

« عند قيام شخص بنشر شائعة فان لب المعلومات الموضوعية التى سبق أن تلقاها أصبحت ثابتة وراسخة جدا فى حياته العقلية النشطة لدرجة أن الناتج لابد أن يكون حصيلة هذه المعلومات » .

وبعد هذا العرض العادى يمكننا أن نتساءل : كيف يمكن أن تكون الشائعة نوعا من أنواع الرأى العام ؟

ان الشائعة تنتشر عن طريق الشعب ، فهى تعيش عليه . انها تؤثر على الافكار وتضبط مجالات نشاطه . ولكن بينما ينمو الرأى العام ببطء فان كثيرا من الشائعات تخرج فجأة بصورة غير متوقعة ، وهى تنمو بصورة فجائية مثيرة . ومن هنا يمكن أن نطلق عليها « الرأى العام الطارىء » حيث نجد أن الوصول الى اجماع عام قد تم فى غمضة عين دون حاجة الى القيام بعملية مجهزة من عمليات التقييم كما فى حالة الرأى العام .

ولكن كلا النوعين يرتفع الى درجة هامة فى حياة الشعب ، وكلاهما وسيلة للتنفيس عن الطاقة الكامنة ، وكلاهما من وسائل العرض وسبل له ، كما أنهما يؤثران على الجو المحيط بالبيئة والمجتمع .

على أننا لكى نوضح أن الشائعة يمكن استخدامها كدليل للرأى العام يجب علينا أن نحدد مظاهرها وهذه المظاهر تأخذ فى العادة ثلاثة أشكال هى :

اعداد الذهن ، حدة الشائعة ، استيعابها .

فالشائعة عند انتشارها تحاول أن تعد أذهان الناس ، وهى فى هذا المظهر تكون قصيرة واضحة سـهلة الفهم والالقـاء ، وتسـتخدم القليل من الكلمات والمعلومات كما تقل فيها التفصيلات .

أما ظاهرة « الحدة » فهى أن تصبح الشائعة حادة عن طريق اختيار بعض التفصيلات القليلة من موضوع الشائعة مع الالحاح عليها ، وغالبا ما تكون هذه التفصيلات ذات أهمية بالنسبة للشخص الذى ينقل الشائعة •

أما ظاهرة الاستيعاب فهى الظاهرة النهائية أى حينما يهضم الافراد عناصر الشائعة التى تدخل فى تفكيرهم وتصير أساسا من مكونات هذا التفكير ، ومن ثم تصبح أكثر تماسكا واكتسابا لعقيدة الناس ، كما تعبر عن نفسها على شكل انعكاس لعواطف الشخص والامور التى يتحيز لها •

ومن هنا يتضح لنا أن الاعتقاد فى شائعة ما ونقل مضمونها هو أمر من الأمور التى تتعلق بدوافع الفرد ، وبمستوى القيم التى يتمسك به ، وكذلك بحالته الذهنية والعاطفية •

ولما كان سلوك الفرد يتأثر الى حد كبير بالسلوك الجماعى كما أنه يكون جزءا من الرأى العام ، فلابد أن يكون لانتشار الشائعة أهمية كبيرة فى استخدامها كدليل للرأى العام •

ولنضرب لذلك مثلا بالشائعة التى انتشرت فى مدينة برلين بعد الحرب العالمية الثانية فكان لها ضجة كبيرة داخل المجتمع الالمانى وخارجه وأثرت على السلوك العام تأثيرا بالغا •

وقصة هذه الشائعة أن رجلا كفيفا كان يسير فى طريقه وهــو يتحسس الطريق • وحينما كان ينتظر ليعبر الطريق عرضت عليه سيدة أن تساعده فشكر لها مساعدتها له وسألها اذا كان فى امكانها أن توصل رسالة منه الى شخص فى مكان على مقربة من المكان الذى كان يسيران فيه • ووافقت السيدة على ذلك وسارت فى طريقها ولكنها التفتت خلفها فوجدت أن الرجل الذى كان يتحسس طريقه منذ لحظة راح يجرى بسرعة مذهلة ولم يكن يحمل اللافتة التى تبين أنه كفيف • وهنا ثار الشك فى نفس السيدة فذهبت الى قســم الشرطة

لتبلغ عما حدث • وقد وجد أن فى المنزل الذى أعطاها الرجل عنوانه جثة آدمى أعدت للبيع على أنها لحم عادى ، وبفض الرسالة التى أعطاها الرجل للسيدة وجد رجال الشرطة بداخلها : « أن هذه هى آخر جثة اليوم » •

والواقع أن هذه القصة تمثل رد فعل عام ناتج عن التوترات النفسية وعن القلق الذى كان يسود مكانا معينا فى فترة معينة ، وهى تعكس التصدع الذى أصاب الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى برلين نتيجة لسلسلة من الكوارث التى لم يسبق لها مثيل من أعمال التعذيب الوحشية وضرب بالقنابل ، ومجاعة وهزيمة ، كما أن الشعب كان فى حالة توتر دائم من التفكير طوال الوقت فى الطعام. ومن ثم فان رخص قيم الحياة والتمثيل بأجسام الناس تمثيلا وحشيا فى معسكرات الاعتقال وفى الضرب بالقنابل قد أصبحا يكونان جزءا اضافيا فى عملية الادراك الحسى المباشر . كما أن صفة الوبال المتزايد التى تتصف بها هذه القصة يجعل لها قبولا عاطفيا اذ لا يمكن انتشار مثل هذه القصة فى جو يسوده الاستقرار الاجتماعى وعدم القلق والخوف • ولذا نجد أن القصص الوبيلة هى أهم أنواع الشائعات وأكثرها انتشارا اذ انتشرت الظروف المحزنة حيث يجد الناس عن طريق هذه القصص تخفيفا عن عواطفهم القاتمة كما يجدون لها مبررا وتفسيرا •

وخلاصة القول أن الشائعة رأى يتقبله الشعب عن رغبة ، لأنه يخدم احتياجاته الخاصة فى أوقات معينة •

لماذا تنتشر الشائعات ؟

والآن يمكننا أن نتساءل . هل يصدق كل الناس الشائعة وهل يعمل أى فرد على ترديدها ونشرها ؟ الواقع أن الشائعات غالبا ما يرددها ويصدقها أغلب الناس حتى أولئك الذين لا يصدقون ما يحكيه غيرهم ، فعادة ما تخرج الشائعة بطابع التشويق ، لأن الذين يعملون على خلقها وترويجها يبذلون أقصى جهدهم فى صياغتها بشكل يحقق رواجها ونشرها مستغلين فى ذلك ما يختلج نفوس الناس من خوف وشك وآمال وأحلام يقظة ونحو ذلك مما لا يستطيعون النطق به مباشرة أو التعبير عنه علانية •

فلو فرضنا أن جنديا لا يحب قائده المبـاشر لأنه يعتقد أنه يعامله بقسوة أو أنه غير عادل ، فان هذا الجندى لن يقوم بعمل مباشر ضد قائده ، ولن يتقدم لمهاجمته ولن يحاول أن يقول له رأيه فيه بصراحة • ولكن لو حدث أن سمع هذا الجندى شائعة بأن القائد الذى يكرهه أو يخشاه قد وبخ أو زجر من رياسته وأن من المحتمل اعفاءه من قيادته ، فانه غالبا ما يقوم بترديد هذه الشائعة دون أن يشعر بالذنب ، فهو يعتبر نفسه غير مسئول عن هذه القصة على أساس أنها مجرد كلام يردده الآخرون • على أنه من جهة أخرى فان انصاته لهذه الكلمـات وفى نقله لها يحقق الرضا النفسى ، فهو يأمل أن تكون الأخبار حقيقة واقعة لأنهـا تمس رغبة تكمن فى داخله •

وشبيه بذلك يحدث فى الحياة المدنية فى أى مكان يلتقى فيه الناس لمجرد تبادل بعض الكلمات والأحاديث العابرة ، أو لمناقشة بعض الأمور التى تهمهم • فالعمال مثلا عندما يجتمعون فى أثناء الطعام فى فترة الظهيرة يتحدثون كثيرا عن مشكلاتهم أو عن الاسلوب غير العادل الذى تسير به الاعمال ، والطوائف المختلفة عندما تجتمع فى أنديتهم تسرى بينهم كثير من الشائعات عن أمور تتعلق بمصالحهم ، أو عن أحداث جارية فى المجتمع •

وقد سبق أن أشرنا أنه فى بعض الاحوال تروج الشائعات وكأنها حقائق ، ولكن غالبا ما نجد البعض الذى ينشر الشائعة يرددها على أنها شائعة فيقول مثلا : « هذا ما سمعته ولست أدرى أحقيقة هو أم كـذب » أو يقول : « الواقع أننى لا أعتقد صحة هذه القصة ، ولكن هذا ما يتحدث عنه الناس فى كل المدينة » •

ان مثل هذه الكلمات تعفى الرجل الذى ينقل الشائعة من الشعور بمسئوليته فى هـذا العمل ، كما أن ذلك يعطيه فرصة لتطوير الشـائعة بأن يزيد بعض التفاصيل التى تجعل قصته شيقة قابلة للتصديق •

ولنضرب لذلك مثلا من شـائعات الحرب العالميـة الثانية ، فقد انتشر فى الولايات المتحدة فى أثناء الحرب كثير من الشائعات مثل :

١ ـ وجد في جيب أحد الطيارين اليابانيين الذين اسقطوا يوم الاغارة على بيرل هاربر رغيف طازج من الخبز ، وقد لف في أوراق أحد مخابز جزيرة هونولولو « الجزيرة التي بها قاعدة بيرل هاربر الأمريكية » ٠

٢ ـ التقطت جثة ملاح المانى من غواصة أغرقها الاسطول الامريكى قرب « كاب كود » ، وكانت في قبعته تذكرة لأحد مسارح نيويورك تاريخها سابق لتاريخ اغراق الغواصة والتقاط جثة الملاح الغريق بيومين ٠

ومهما كان في هاتين الشائعتين من عناصر حقيقية فمما لا شك فيه أن كثيرا من الاضافات والتحويرات قد لعبتا دورا كبيرا فى اخراجها بشكلها النهائى ٠ فليس من المعقول أن يضع الطيار رغيفا من الخبز في جيب رداء الطيران حتى لو حصل عليه فعلا ، والامر الثانى أنه لو التقطت جثة غريق من غواصة أغرقت بلغم أو طوربيد فليس من المحتمل أن تظل القبعة على رأس الجثة ٠

ولا أهمية هنا بكون أمثال هذه القصص غير منطقية أو غير معقولة ، انما المهم أنها تنوقلت المرة بعد الاخرى بواسطة أناس مختلفين وبشكل جارف ٠

وكلما كان الاتصال سهلا انتقلت الشائعة لمسافات كبيرة ، كما أنها تزداد قوة حينما يكون لدى الناس الرغبة في تصديقها ، أو عندما يحسون فى الانصات اليها أو نقلها نوعا من الرضا ٠ فالانسان عادة يسره أن يكرر القصة التى تحقق شكوكه أو التى تعبر عن مخاوفه ، كما أنه يرغب في أن يضحك أو يهزأ على حساب آخر لا يحبه ٠

ومن ثم يمكن القول : أن الرأى العام هو الذى يخلق الشائعات ويبدعها ، كما أن الشائعات القوية الجريئة هى تلك التى تتمشى مع المخاوف والشكوك التى يشترك فيها كل شخص مع غيره من الناس ٠

هذا من ناحية ، أما من ناحية أخرى فان الشائعات قد تخلق الرأى العام أيضا وتوجده ٠

اذا فالشائعات وسيلة بدائية جدا لنشر القصص عن طريق انتقالها من فم الى فم ، وبقدر ما هى بدائية تبدو معدومة الكفاية وغير دقيقة ولا يمكن تعليلها •

ولدى الدول المتحضرة وسائل لنشر المعلومات أفضل من وسيلة الشائعات• لديها الاذاعة ، والتليفزيون ، والصحف وغيرها ، ولكن فى وقت الشدة والاضطراب تبرز الشائعات وتنتشر ويكون لها دورها فى زيادة الاضطراب • وفى مثل هذه الأوقات العصيبة نجد وسيلتين للأنباء تتنافسان : الأولى الصحافة والراديو ، والأخيرة الشائعات •

على أن الشائعات تنتشر على نطاق أوسع فى أثناء الحرب حينما تتطلب السرية فى الكثير من الموضوعات الهامة عدم نشر أخبار عنها • ولما كانت الصحف وأجهزة الاعلام توضع تحت الرقابة وتقل المعلومات التى تنشر على الناس ، فان هؤلاء يحاولون أن يلتقطوا ما يريدون معرفته من الأخبار بأى وسيلة ، وعندما تصل الامور الى هذا الحد فان الشائعات تبرز كبديل لذلك •

والواقع انه فى مثل هذه الاوقات تبرز الشائعات وتنجح فى كل مكان فى صفوف القوات المسلحة وفى صفوف المدنيين ، وتعمل على تقويض الخطط التى تعد بعناية ، بل تؤدى الى فقد الروح المعنوية بين المدنيين والعسكريين على حد سواء ، والى اشاعة الفزع والهزيمة •

هذه بعض العوامل ـ وليست كلها ـ التى تهيىء للشائعات أن تنتشر بين الناس ، وهذه العوامل لا يختص بها مجتمع معين ، وهى ليست بدعة فى وقت الحرب ولكنها طبيعة عامة موجودة فى كل أمة فى كل ركن من أركان العالم ، وفى كل حرب جرت من قبل •

على أن الأهم من ذلك تلك الدوافع السيكولوجية التى تعمل على ترويج الشائعات • هذه الدوافع تلعب دورا كبيرا فى ترويجها ، ومن ثم يحسن أن ننتقل الآن لدراسة الدوافع السيكولوجية وراء الشائعات المختلفة •

الدوافع السيكولوجية وراء الشائعات :

ينجم الغموض الذى يكتنف قصة أى شائعة عن عوامل عدة منها : انقطاع الأنباء أو تناقصها ، وعدم تصديق الشعب لأى خبر يذاع وفى هذه الحال يكون ثمة مجال للتوترات العاطفية التى من شأنها أن تجعل الفرد عاجزا عن الوصول الى الحقائق أو زاهدا فيها !

على أن للقصة أهميتها لأنها تحمل فى طياتها دوافع الشائعة ، فلو لم يكن الموضوع هاما بالنسبة للشخص الذى يروج الشائعة لما حاول أن يرددها . وقبل أن نوضح الدوافع النفسية التى تدفع مروجى الشائعات الى استمرار تغذيتها ، سنتكلم باختصار وبصفة عامة عن مكنونات الانسان الداخلية ، والتى قد لا يدركها أو لا يشعر بها ، ولكنها لها تأثير كبير على دفع معظم شائعات الحقد والكراهية .

ان الانسان من حيث هو آدمى مخلوق معقد يحمل فى أعماقه كل النزعات النفسية المتناقضة من : حب وكره ، وقلق واستقرار ، واقدام واستسلام ، وحزن وسرور وغيرها مما يحسه أى كائن بشرى . وقد يقضى كل منا وقتا طويلا يستبد به القلق من شىء دون أن يدرى ما هو هذا الشىء . وعلى الرغم من أننا قد نكون كبار السن فنحن لا نفتأ نتصرف فى بعض الاحوال كالأطفال ، نخاف ونتألم ونقلق دون أن ندرى لم نخاف ونتألم ونقلق ؟

ولكن هناك سببا واضحا يجعلنا نحن الكبار لا نرى بوضوح مشاعرنا الداخلية . ان للمجتمع حقوقا علينا ، ونريد أن نرتفع فى نظر من حولنا من الناس ، ولكن هناك كثيرا من الأشياء الدفينة نخجل من الاعتراف بها حتى لأنفسنا .

هذا الموقف هو ما يطلق عليه اصطلاح « الكبت » وهو الذى يجعلنا نميل الى التخيل ، أو الى المغالاة فى وجود هذه المشاعر فى الآخرين . نحن نظن أن العيب موجود فى غيرنا وليس فينا على حد قول الشاعر :

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا

فنحن مثلا لا نريد أن نعترف بخطئنا ، ولذلك فنحن نقوم بأعمال عنيفة ونلقى باتهامات واسعة لنغطى هذه الحقيقة ، مثل قاطع الطريق أو السفاح الذى يبرر أعمال القسوة التى يرتكبها ملقيا اللوم على المجتمع بدعوى أنه هو الذى ساقه لهذا المصير •

نحن لا نحب أن نعترف بأننا ضيقو الأفق ، أو بأننا متحيزون ، أو بأننا أنانيون • واذا تهيأ لنا أن نحول اللوم الى جماعة من أعدائنا ونتهمهم بالأنانية ؛ فاننا بهذه الطريقة نحول الانتباه عن تحيزنا ضد هذه الجماعة ، وفى نفس الوقت نتغاضى عن الأنانية الموجودة فى داخلنا •

أجل ، نحن لا نحب أن نعترف بعيوبنا ، فاذا أمكن أن نشير الى هذه العيوب فى الآخرين فان ذلك قد يكسبنا نوعا من احترام النفس • وكثيرون منا يخجلون أو يخافون من دوافعنا ، وهذا يؤدى بنا الى أن نتهم الآخرين بالشذوذ •

وبدلا من أن نعترف بوجود هذه الصفات الانسانية الطبيعية فينا يعمد كثيرون منا الى حبسها فى أقسام من العقل ولا نسمح باقتحامها ، مدعين أنها ليست موجودة • نحن نترك الجزء الامامى من عقولنا مفتوحا لاستخدامنا الواعى ، ولكننا نحتفظ بسرية الجزء الخلفى من عقولنا ولا نسمح بكشفه • نحن نستقبل فى الجزء الامامى ما يظهرنا محترمين أمام الناس ، أما الجزء الخلفى فنظل محتفظين بسريته مانعين الدخول اليه •

هذا هو التفسير الحقيقى لكثير من الشائعات الكاذبة التى تعبر عن الحقد والكراهية • هذه الشائعات التى تدق الأسافين بيننا وبين مواطنينا • انها ليست الحقائق الخارجية التى تدفعنا لأن نسىء الظن ونلطخ سمعة جماعة من مواطنينا ، ولكنها المشاعر التى حبسناها فى الحجرات الخلفية من عقولنا • فمن هذه الحجرات وعن طريق هذه السلالم الخلفية تتسرب الشائعات الخاصة بنقائص الآخرين وانحلالهم • انها تستغل مخاوفنا وتستغل شعورنا بعدم الطمأنينة ، ولكننا نحاول دائما أن نبعدها عن الجزء الامامى من عقولنا •

وبغير ادراك نرفض دائما أن نعترف بنقطة الضعف هذه • ثم بدلا من ذلك نصدق ما يقوله مروجو الشائعة الآخرون • نحن نعكس على ضحية بريئة ما لا نحب أن يكون فينا • وحتى نشعر بزيادة الطمأنينة ننضم الى مروجى الشائعات ضد هذه الضحية ، فنعمل من جانبنا على ترويج الشائعة وأحيانا نضخمها •

ثم هناك شيء أغرب من هذا ولكنه حقيقى • اذا استبدت بنا رغبة ـ ونحن نعتقد أن هذه الرغبة شريرة أو خطيرة ـ فاننا لا نعمد الى قتلها ولكننا نحبسها بالحجرة الخلفية من عقولنا ، ولكن حبسنا اياها لا يعنى أننا سوف لا نحققها ، على العكس أننا نعمل على تغذيتها بالثرثرة والشائعات •

وبالاختصار يمكن أن نستمتع بهذه الملاذ الممنوعة ـ على الأقل ـ فى خيالنا طالما كنا قادرين على أن نحجزها عن الحجرات الأمامية • والحقيقة أن اقفال باب الحجرة الخلفية يعطينا فرصة أفضل للاستمتاع بها • ويصدق هذا طالما عجزنا عن أن ندرك بوضوح الدوافع التى تدفعنا الى هذا ، فاذا نحن أدركنا هذه الدوافع بدأ الخوف يدخل فى نفوسنا وعند ذلك نحاول أن نعثر على « كبش الفداء » فنعكسها عليه ، ولذلك نثير غضبنا عليه •

ومن الاهمية بمكان أن نبين هنا الهدف الذى تسعى الشائعة الى تحقيقه فمهاجمة الشيء الذى يكرهه الانسان يسرى عنه ، ثم ان ذلك يؤدى خدمة أخرى فى نفس الوقت اذ يبرر شعور هذا الانسان نحو الموقف ويفسر لنفسه وللآخرين ملابساته • وهكذا تطبق الشائعة أصول المنطق كما أنها تخفف من شدة توتره العاطفى فيقول شخص مثلا من الاقطاعيين أو المعزولين سياسيا : « لماذا لا أكره هذا النظام وألعن الاشتراكية ؟ أليست هى السبب فى تجريدى من جاهى وسلطانى ؟ » وتقول عانس فاتها قطار الزواج : (ألست أفضل من تلك السيدة التى تعيش هانئة ، مع زوجها وأولادها ؟) ويسأل شخص ما نفسه : (لماذا لا أشعر بالتفوق على زميلى ؟) انى لا أنغمس فى النقائص التى ينغمس فيها هو وأؤدى واجبى خيرا منه » •

غير أن ابراز دوافعنا العاطفية وجعلهــا معتدلة ليسا العملية الوحيــدة لاخضاعها للمنطق • فنحن نحاول دواما أن نستخرج معنى من البيئة التى نعيش فيها • فهناك الى جانب الضغط العاطفى ضغط ذهنى • ان محاولة ايجاد سبب معقول لموقف معقد هو فى حد ذاته دافع • وهذا يعلل حيوية كثير من الشائعات• نحن نريد أن نعرف « لماذا ، كيف ، أين » بالنسبة للعالم الذى يحيط بنا • ان عقولنا تحتج ضد الفوضى وتعترض عليها ، ومنــذ طفولتنا ونحن لا نفتأ نوجه السؤال : « لماذا ، لماذا ، لماذا ؟ ان هذا المجهود الذى نبذله لنصل به الى المعنى هو أوسع بكثير من ميلنا الطبيعى لتطبيق قوانين المنطق وتبرير حالتنا العاطفية المباشرة •

ان النتيجة شائعات حب الاســتطلاع • ان الغريب الذى يفد على مدينــة صغيرة دون أن يعرف أحد عمله ثم يقيم فيها يثير قصصا كثيرة توضح للعقول المتسمة بحب الاستطلاع لماذا وفد على هذه المدينة ؟

أن استخدام الذرة فى خدمة الاغراض السلمية واكتشافات الفضاء ــ التى لا يفهم كنهها الجمهور ــ تثير الرغبة فى معرفة خصائصها •

ومجمل القول ان الشائعات من شأنها أن تلطف أو تخفف من حدة التوتر العاطفى بحكم كونها متنفسا يؤدى الى التفريج • انها تحمى وتبرر وجود هذه العواطف التى اذا واجهها صاحبها قد لاتكون مقبولة لديه •

وأحيانا تساعد على اعطاء تفسير أوسع لمظاهر البيئة المحيرة المختلفة، وبهذه الطريقة تلعب دورا بارزا فى جعل العالم المحيط بالشخص مفهوما •

ولكن هذا الدور نادرا ما يدركه مروج الشائعة • انه لا يعرف لماذا تروق له شائعة معينة ؟ ولماذا تستحق منه هذه الرغبة الملحة فى ترديدها ؟ انه لا يدرك المدى الذى تعكس فيه نفســه فى القصص التى يروجهــا ، لانه لا يفهم عملية الانعكاس •

الانعكاس :

ويفسر البورت وبوستمان تلك الحالة تفسيرا منطقيا واضحا فيقولان : « اذا انعكست حالة الشخص العاطفية ــ دون أن يدرى ــ فى تفسيره لما حوله ، نسمى ذلك انعكاسا • انه يعجز عن استخدام أدلة موضوعية فى تفسيره للحقيقة التى تحيط به •

ان هذه العملية تحدث لكل واحد منا فى الاحلام • ونحن لا ندرك أن رغباتنا الخاصة ومخاوفنا وحبنا للانتقام هى المسئولة عن كل ما حدث فى الاحلام الا بعد أن نستيقظ •

ان الطفل النائم يحلم بأنه اكتشف جبالا من الحلوى « الجعان يحلم بسوق العيش » وان الشاب الضعيف البنية يحلم وهو نائم بالانتصارات التى حققها فى ميادين الرياضة ، وتحلم الأم القلقة بموت طفلها •

وتعتبر أحلام اليقظة أيضا من قبيل الانعكاس ، فنحن نسترخى على مقعد أو سرير ونترك لعقولنا أن تتخيل الاحداث التى تتحقق فيها آمالنا ورغباتنا ومخاوفنا • نتخيل أنفسنا سعداء مسرورين منتصرين ، أو قلقين مهزومين • كل بحسب طبيعته أو بحسب نوع العاطفة التى توجه سلسلة أفكاره الارتباطية •

ان الشائعة هى من نوع حلم اليقظة • فاذا كانت القصة التى نسمعها تفسر لنا الحقيقة التى تتفق مع حياتنا الخفية فنحن نميل الى تصديقها » •

وثمة قصة يمكن أن تفسر عملية الانعكاس ، ووقعت أحداث هذه القصة فى عهد الرايخ الثالث الألمانى وهى تبين كيف كان عامل الرغبة والدوافع الذاتية سببا فى تلوين شائعة زائفة ضد انسان برىء •

لقد كان الجنرال فيرنر فون فريتشه قائدا عاما للقوات الالمانية فى عهد الرايخ الثالث • وكان هذا القائد رجلا صارما مهذبا موهوبا وضابطا لامعا من رجال المدرسة الالمانية القديمة •

ولكن في عام ١٩٣٨ حاول هملر أن يلصق به تهمة ارتكابه جرائم الشذوذ الجنسي ، وقدم لهتلر أوراقا من الجستابو تثبت أنه كان منذ عام ١٩٣٥ يدفع الى مجرم سابق يدعى شميدت أموالا يشترى بها سكوته على الفضيحة .

ولنحاول أن نحلل الدوافع التى أدت الى نشر هذه الشائعة الزائفة ، ولماذا اختير فون فريتشه ليكون كبشا للفداء .

لقد كان جورنج يحلم بالوصول الى منصب هذا الرجل ، وقد مهد قبل ذلك بازاحة بلومبرج من منصب القائد العام بتشجيعه على الزواج من امرأة ذات ماض ملوث مما لا يتمشى مع التقاليد العسكرية الالمانية ، ومن جهة أخرى كان هتلر لا يميل الى فريتشه لأنه كان دائب المعارضة لمشروعاته الضخمة ، يضاف الى ذلك أن عداء فريتشه للحزب النازى ولا سيما للحرس الحديدى لم يكن سرا من الاسرار ، وهو أمر لم يكن قد أثار اهتمام الفوهرر فحسب ، بل استفز أيضا هملر قائد الحرس ورئيس الشرطة ، وحمله على التصميم تصميما حاسما على الاطاحة بهذا الخصم القوى الذى يتزعم الجيش .

أما بلومبرج فقد كان ينفث حقده وسخطه على فريتشه بسبب الموقف الصارم الذى وقفه الجيش من قضية زواجه(١) فلم يحاول أن يقنع هتلر بأن هذه الشائعة فرية ضد رجل نظيف ، بل دفعه حقده لان يسر للفوهرر بأن فريتشه لم يكن ميالا للنساء وعاش حياته كلها عزبا بلا زواج .

ان هذه القصة بالرغم من أنها زائفة فقد بنيت على بعض الحقائق ، فقد كان هناك فعلا ضابط فرسان متقاعد اسمه فريش لا فريتشه ، وكان فعلا مصابا

---

(١) كانت قصة زواج بلومبرج بسكرتيرته ايرنا جرون سببا فى المشكلات والمتاعب التى انتهت بازاحته من منصبه كقائد عام للقوات المسلحة الألمانية . لقد كانت ايرنا جرون امرأة ذات ماض ملوث مما جعل الجيش الألمانى يقف موقفا صارما من هذا الزواج . واستغل هتلر هذا الموقف وتخلص من بلومبرج تنفيذا لخطة التخلص من القادة العسكريين القدامى .

بالشذوذ الجنسى ، وكان هناك حقيقة شخص يدعى هانس شميدت وظيفته منذ حداثته التلصص على أصحاب الشـذوذ الجنسى ثم ابتزاز المال منهم عن طريق تهديدهم بالتشهير .

واستغل الجستابو هـذا الموقف ، ليلصق هذه التهمة الشائنة برجل من أعظم القادة الالمان فى عهد الرايخ الثالث وعمل على ترويجها بين الجيش .

وبالرغم من أن سمعة فريتشه كانت مضرب المثل الأعلى ، وعلى الرغم من أن كبار قادة الجيش أثبتوا بالتحقيق والأدلة أن الفريق فون فريتشه راح ضحية بريئة لمؤامرة قام بها الجستابو مستغلا قصة ضابط الفرسان سالفة الذكر ، فان الجستابو هدد شميدت بالموت اذا لم يصر فى شهادته على أن الذى ضبطه فى موقف شاذ هو الفريق فريتشه ، أما ضابط الفرسان فقد اعتقله الجستابو حتى لا يمكن من أداء الشهادة فى التحقيق ويبرأ فريتشه .

وما يهمنا فى هذه القصة هو عملية الانعكاس ، وقد لعبت دورا كبيرا فى خلق شائعة زائفة ورواجها متخذة فريتشه ككبش فداء .

على أن عملية الانعـكاس قد تأخذ شـكلا أكثر تعقيـدا ، ولتوضيح ذلك سنضرب مثلا بواحدة من تلك الشائعات التى يتضمن أغلبها اتهامات باطلة فى حق جماعة من الناس ، أو هيئة رسمية ، أو القوات المسلحة ، أو الحكومة كلها ، وعلى الرغم مما قد يكون بها من منطقية أو حتى شبهة منطق فان عملية الانعكاس تلعب فيها دورا كبيرا .

ولنتذكر تلك الشائعة التى كانت تدور حول النقص فى اللحوم وارتفاع أسعارها عام ١٩٦٤ ولنفرض أن احدى ربات البيوت قد قالت لصديقة لها فى مقابلة معها :

« لقد سمعت أن عربات الجيش تقوم يوميا بالاستيلاء على جميع اللحوم الطازجة من مراكز ذبحها لارسالها الى القوات العاملة باليمن » .

فما الذى حدا بهذه السيدة الى أن تقول ذلك ؟

قد نجد الاجابة عن السؤال اذا حاولنا أن نطبق قانون الشائعات الاساسى على تلك الشائعة ، فالدليل فى هذه القصة غامض ، فهى فى موقف لا تستطيع أن تصل فيه الى حقائق بشأن هذا الموضوع ، كما أن نقص اللحوم أمر يهمها ويهم بيتها • بل قد يسبب لها بعض المعاناة النفسية فى اعداد وجبة الغذاء • وهى فى هذا الموقف تحاول أن تعرف السبب ، ولذلك فهى فى بحثها عن السبب تحاول أن تجد المصدر المذنب أو الملوم • وربما كان فى مكانها أن تعود باللائمة على اليمنيين أو السعوديين ، ولكن هؤلاء كانوا بعيدين عنهـا لدرجة أنهـا قد لا تدرك علاقاتهم بمتاعبها المباشرة الملموسة ، وفضلا عن ذلك فان وعى هذه السيدة أو درجة تفكيرها لابد أن يكون قاصرا عن معرفة جذور المشكلة الاقتصادية التى نجم عنها نقص اللحوم بحيث لا يكون للجيش دخل فيها ، ولكن ربما تكون هذه السيدة قد تأثرت نفسيا نتيجة مشاهدتها أو سماعهـا شيئا عن تصرف غير لائق من أحد العسكريين فى أمور التموين •

لهذا لابد من أن يتمثل للسيدة المجرم الشرير ، ولا بد من أن يكون هذا المجرم فى صورة الاحداث فتتهم الجيش بأنه السبب فى نقص اللحوم ، وهكذا يكون تفسير الامر وتحديد هدف اللوم • ان هذه العملية يطلق عليها اسم « الانعكاس التكميلى » لانها لا تعكس عواطف الشخص على الآخرين • ولكنها تجد فى سلوك الآخرين تفسيرا معقولا لشعورها •

ولنفرض أن هذه السـيدة اسـتخدمت الغش قليـلا بأن حجزت بعض كوبونات التموين فى أثناء شرائها لوازمها ، أو لنفرض أنها اشترت بعض المواد من السوق السوداء ، فلما كانت هذه المرأة مواطنة وطنية فانها لا تملك الا أن تقع فريسة لتأنيب ضميرها • ويحـاول كثيرون تهدئة ضمائرهم بالالتجاء من آن لآخر الى عملية « الانعكاس المباشر » •

ويشير ألبورت وبوستمان لذلك بهذه العبارة التالية :

« ان انعكاس ذنوبنا انعكاسا مباشرا « لا تكميليا » هو سلاح أمدتنا به الطبيعة لتجنب آلام تأنيب الضمير» . ويشير الى ذلك نفسه اميرسون Emerson بقوله : « ان ما نعتبره خطيئة فى الآخرين نعتبره تجربة بالنسبة لنا . ان الآخرين يخطئون ، أما نحن فلا نخطىء وحتى اذا أخطأنا فان خطيئتنا تافهة اذا قورنت بخطاياهم » .

ونعود الى تلك السيدة صاحبة الشائعة . فربما كان هدفها ـ دون أن تدرى ـ تهدئة ضميرها فتقول لنفسها : « ولماذا أشعر بالذنب ؟ ان عدم مراعاتى لقواعد التموين وأصوله طفيفة ! ان الجيش يستهلك أطنان اللحم ويحرمنا منها ! ان أخطائى اذا قورنت بأخطاء الجيش لا تعد شيئا مذكورا » .

وهناك دليل على أهمية التهرب من الشعور بالذنب بواسطة تصديق الشائعة . لقد وجد ألبورت ولبكين عام ١٩٤٥ ميلا من الناس الذين كانوا يصدقون الشائعات الخاصة باسراف رجال الجيش وتمتعهم بالامتيازات الخاصة بأنهم بالرغم من أنهم كانوا يختلسون فى عملية التموين ـ ويعترفون بذلك ـ فهم لم يشعروا مطلقا بالذنب أو بالخجل من عملهم . وعلى العكس كان الناس الذين يعترفون بأنهم غشوا وعانوا الاحساس بالخجل هم أقل الناس تصديقا للشائعات الخاصة بسوء تصرف الآخرين . بمعنى آخر اذا اعتقدنا بخطأ الآخرين فنحن نحاول أن نهرب من شعورنا بالذنب ومن تأنيب ضمائرنا ، أما اذا انحينا باللائمة على أنفسنا كان تصديقنا للشائعات أقل .

ان الذين يرفضون مواجهة أخطائهم يبحثون عن « كبش الفداء » أما الذين يعرفون نقط الضعف فى أنفسهم فانهم لا يحاولون ذلك .

هذا التحليل يوضح لنا العلاقة الوثيقة بين الشائعة وبين حالتنا العاطفية الذاتية التى غالبا ما تكون وثيقة جدا بقصة الشائعة ، بدرجة أننا قد نصف الشائعة بأنها انعكاس حالتنا العاطفية الذاتية .

هذا التحليل يشبه التحليل الذى أجراه ماك جريجور عام ١٩٣٨(١) عندما شرح أثر عامل الامنية الفكرى فى عملية التنبؤ • ففى تجربة له عام ١٩٣٦ وجه الى الناس سؤالا « هل سيستولى هتلر على السلطةفىمدى عام منهذا التاريخ ؟ » أجاب ٩٥٪ منهم بأنه سوف يفعل ذلك • ثم سئلوا ما اذا كان موقفهم الشخصى من هتلر موقف المناصر ، وأجاب معظمهم بأنهم يكرهونه • النقطة المهمة هنا أن شعور الكراهية لم يؤثر على تنبؤهم لأن الغموض هنا كان محدودا ، وكانت قبضة هتلر على ألمانيا فى ذاك الوقت قوية •

ومن هذا التحليل نخرج بأن معظم الناس يقومون بتنبؤاتهم طبقا لرغباتهم الذاتية دون أن يوجههم الدليل الموضوعى •

يقول ماك جريجور « ان تأثير العوامل الذاتية على التنبؤ محدود بدرجة غموض الموقف المؤثر ودرجة أهمية الموضوع للمتنبىء » ، فاذا كانت درجة الاهمية أو درجة الغموض صفرا يكون أثر العوامل الذاتية على التنبؤ صفرا • ففى الحالة السابقة لم تكن هناك رغبات ذاتية تؤثر على المتنبىء ، ولم يتعد سلوكه تسجيل غموض الموقف المؤثر الموجود ، فاذا كانت درجة الغموض معدومة كان الموقف المؤثر مانعا تماما •

على أنه من جهة أخرى نرى أن أثر الانعكاس والامنية لا يكون مطلقا بل محددا • انهما يعملان فقط اذا سمحت الظروف فيقوم الناس بدعم رغباتهم بالامانى واستخدام المنطق والانعكاس ، وهم يروجون الشائعات بنسبة غموض الموضوع ومقدار أهميته لهم •

وهكذا يظهر أن الشائعة ـ وهى من أقل ألوان النشاط الاجتماعى خضوعا لحكم المنطق ـ ظاهرة محدودة • وهى كالأمانى أو التمنى فى تجربة ماك جريجور تروج عندما تشعر الذات أنها مرتبطة بالموضوع وعندما لا يضع الدليل الموضوعى أو المعرفة قيودا منطقية أو ضغطا منطقيا على الحكم •

---

(١) M'Gegeor D., The Major Determinants of The Perdiction of Social Events, Journal of Abnormal and Social Psychology, 33, PP 159 - 166, 1946.

ويجدر بنا هنا أن نحاول تفسير الدوافع الذاتية التى تكون وراء ترويج نوع من الشائعات بحيث تعمل على النيل من سمعة أفراد من مواطنينا ، وهى ما يطلق عليها شائعات الجنس .

يرجع الدافع الذاتى الأساسى لاطلاق هذا النوع من الشائعات الى ما حبسناه من حياتنا الجنسية فى الغرفة الخلفية من عقولنا واصطلح على تسميته « الكبت » فنحن حينما نهاجم فئة من الناس بترويج شائعات من هذا النوع ضدهم فان الدافع الذاتى يكون فى أعماق نفوسنا ويعكس رغبتنا الكامنة . نحن نحب أن نظهر محترمين أمام الناس فنتظاهر بأننا نخالف تلك الفئة المنحلة التى تسيطر عليها فكرة الجنس ، ولذا فنحن نحاول أن نستمتع سرا بما تقوم به تلك الفئة بتصديق ما يقال عنها وترديده .

وكلما كان المجتمع مقفلا كان الجنس عاملا هاما فى حياة أفراده بحيث يشغل جزءا ضخما من تفكيرهم ، ويحاول أفراد المجتمع أن ينفثوا عن كبتهم الجنسى اما : بالنكات المكشوفة ، واما بترك خيالهم ينسج من القصص ما يروى ظمأهم العاطفى ويفسر رغباتهم الدفينة . ولقد تكون هناك عانس تقدمت بها السن وفاتها قطار الزواج ، وهى فى هذه الظروف لا تكاد تجلس الى أحد حتى تردد شائعات عن كل سيدة أو فتاة تعرفها ، وتنسج من خيالها قصصا زائفة عن سوء أخلاقهن وارتمائهن فى أحضان الرذيلة .

هذه العانس كأى بشر لها رغبات كامنة لم تستطع أن تحققها فى حياتها ، كما أننا لا نستطيع أن ننكر عليها عاطفتها الجنسية . ولما كانت قد حرمت هذه المشاعر الطبيعية وتضخم المكبوت فيها فانها تحاول أن تستمتع بتلك الرغبات بالصاقها ببعض الضحايا الذين يعيشون حياتهم العادية سعداء راضين ، وهى فى ترديدها لمثل تلك الشائعات تكشف عما لم تستطع دفنه بل تحاول تغذيته لاشباع أحلام يقظتها .

وقد يبدو لنا أن نتساءل : لماذا يشعر بعض الناس برغبتهم فى الصاق تهم الجنس بالآخرين ، ولماذا ينغمسون فى ترويج تلك الشائعات ؟

الواقع أن الاجابة عن هذا السؤال ليست عادية ، فهى معقدة ومتشابكة • فهناك كثيرون لا يشعرون فى قرارة أنفسهم بالاطمئنان الى مركزهم الاجتماعى فقط ، وانما أيضا الى مركزهم الاقتصادى وعفتهم الجنسية • ان هذه كلها تحتل مركزا هاما فى حياتهم بحيث لا يمكن الفصل بين الواحدة والاخرى ، وأى تهديد الى واحدة منها تهديد الى الأخرى ، ومن ثم كان لابد لهذه الفئة أن تحاول أن تبحث عمن يكون « كبش الفداء » من بين من لا يحبونه ويرون فيه كل ماكانوا يتمنون فعله لو تركوا لانفسهم الحبل على غاربه •

وربما يكون مروج شائعات الجنس يشعر بعدم الطمأنينة فى عمله نتيجة احساسه بأنه مهضوم الحق ، أو نتيجة لسوء معاملة رئيسه له ، أو قد يكون محروما من مباهج الحياة ، ولهذا ينشأ فى نفسه شعور عميق بالغضب • وفى هذه الحال لا يعرف تماما سبب غضبه كما لا يعرف من ينحى عليه باللوم ومن ثم يحاول أن يوجه عداءه وغضبه نحو ضحية بريئة ، فيختار هذه الضحية من بين الناس الذين يكرههم أو يجد فيهم تهديدا لمركزه : الاجتماعى ، أو الاقتصادى ، أو العاطفى •

وبالاختصار فان السبب فى هذا النوع من الشائعات مرجعه الى العقدة الاقتصادية أو العائلية أو الشخصية الموجودة فى الحاقد نفسه •

وعلى الرغم من تعقيد هذا التحليل لشائعات الجنس ، فاننا لا نبدو مغالين حينما نفسر التعقيد العاطفى الذى يحاول بموجبه أن يشخص مروج الشائعات عوامل الشر ثم يرجعها بعد ذلك الى أفراد قريبة منه ولكنها مختلفة عنه •

ولما كان اللوم الذى يوجهه مروج الشائعات الى هؤلاء الافراد أكثر مما يستحقون فاننا نطلق عليهم اسم « كبش الفداء » على نحو ما رأينا •

على أن هنالك عاملا آخر يعمل على ترديد شائعات الجنس ، فنحن كبشر لا نحاول أن نلقى باللوم على أنفسنا بسبب خطايانا الجنسية ، بل نجد أنفسنا دائما ونحن نتهرب من الشعور بالاثم • ولذا نجد أن من الأفضل التوجه باللوم الى الغير •

وفى هذا المجال نستطيع أن نجد تشابها قريبا بين شائعات الجنس وشائعات الحقد أو الكراهية من حيث أن كلا منهما يحاول التهرب من الشعور بالاثم • ففى كلتا الحالتين يحاول الانسان أن يهرب من ذلك عن طريق صب كل لوم على أناس لا يحبهم أو يكرههم لسبب ما •

ان الذين ينغمسون فى الملاذ الجسدية والمادية لا يحاولون أن ينحوا باللوم على أنفسهم لما يرتكبون من خطايا ، وهذه الفئة قلما تتحرك ضمائرها لتحاسب أنفسها على ما تفعل ، بل انها تتطرف فى القائها اللوم على الغير تبريرا لافعالها غير المشروعة •

ان أمثال هؤلاء الناس تبلدت أحاسيسهم الروحية ، واختلفت فى نظرهم معايير القيم الاخلاقية ، ولذا فان هجومهم على الغير بالنيل من سمعتهم يخفف من عليهم عبء تبرير أعمالهم •

أما الذين يحاسبون ضمائرهم على خطاياهم فهم أقل الناس تصديقا وترديدا لشائعات الجنس •

ولنعرض الآن لدوافع نوع آخر من الشائعات ، وهى شائعات حب الاستطلاع • ان هذه الشائعات تكشف عن جوع ذهنى أكثر مما تكشف عن حاجة عاطفية •

ان الانسان بطبيعته يحب أن يعرف ما هو غامض عليه ، ومن هنا تكون الاهمية ، ولأن بعض الناس لا يعرف ويجد الغموض فى بعض الامور فانه يقع فريسة لاستهواء الشائعة •

ان القصص الغريبة التى يرويهـا الاطفال عن تفسيراتهم لاعمال الطبيعة والعقل والقوة الالهية ، وتلك القصص الباهتة التى يرويها البعض عن أناس يقومون بأعمال خارقة تصل الى درجة الخرافات ، كذلك تلك القصص التى تنتشر فى مجتمعنا لتفسر شيئا غير معروف ٠٠ ما هى الا شائعات دافعها الاساسى حب الاستطلاع ٠ أن الأساطير القديمة ـ التى لا تخلو من الميول العاطفيـة ـ ما هى الا العلم فى صورة بدائية ٠

وبالاختصار فان المجهود الذى يبذل للوصول الى معرفة المعنى يخلق عامل الأهمية الذى يلعب دوره فى ترويج الشـائعة أو الاسطورة ٠ ان الحـاجات الهامة لا تقتصر على النوع المادى فقط ، فقد تكون عقلية أيضا ٠

والآن قد يبدو لنا أن نتساءل : هل يوفى التحليل السـابق تفسـير كل الدوافع التى تكمن وراء أى شائعة ؟ وهل هناك أسباب أخرى تعمل على رواج الشائعة ؟

الواقع أن من الصعب على أى باحث أن يحـدد تلك الدوافع فى شـكل شامل جامع الا اذا كان موضوعا منفصلا فى حد ذاته ، وانما هدفنا من هـذا التحليل هو اعطاء صورة عامة تساعد على تفهم الدوافع الذاتية الرئيسية التى تعمل على ترويج الشائعات ٠

على أنه لكى نستكمل الاجابة عن السؤال السابق ، نجد أن هناك أسبابا ثانوية تعمل على ترويج الشـائعة ، وليس من المنطق أن نقـول أن كل مروج للشائعة يكون الدافع له ما سبق شرحه ٠

فقد يحدث فى بعض الاحيان أن يكون الدافع الى ذلك خاصا ولا علاقة له بموضوع القصة ، فمثلا يكون غرض مروج الشائعة مجرد لفت النظر اليه ٠

فهناك بعض الناس ممن يحبون الظهور والتظاهر بالعـلم ببواطن الأمور يتوهمون فى سلوكهم هذا انهم يصبحون مهمين أمام النـاس ، فيقومون بسرد

أخبار عن موضوعات لا يعرفها المستمع كأن يقول أحدهم مثلا : « أنى سمعت من مصدر مسئول أن الحكومة قررت كذا وكذا ••• أو قالت لى شخصية هامة : أنه صدرت قرارات فى كذا أو كذا ••• » •

والواقع أن أمثال هؤلاء غالبا ما لا يكونون على بينة بأى صغيرة عن الموضوعات التى يتحدثون عنها ، ويبنون من خيالهم ما يوهم المستمع أنهم يعرفون الكثير ، أو قد يكونون على بينة من بعض الامور التى يعرفها الناس فينسجون عليها قصة من خيالهم أو يفسرون رغبة كامنة فى نفوسهم •

ان معرفة شىء من الاشياء يرضى فى الانسان الرغبة فى أن يكون مهما ، لأن الشخص وهو يقص قصة يكون فى أثناء ذلك مسيطرا على سامعيه • هذا الارضاء أو الاشباع لا يستطيع أن يقاومه كل من كانت حياتهم باهتة خالية من الأحداث • أما المستمع الذى يقوم بترديد الشائعة التى سمعها من مثل أولئك الناس فغالبا ما لا يكترث للشائعة نفسها بقدر ما يروجها لمجرد الثرثرة •

كذلك يحدث أحيانا أن يحس الشخص برغبة فى أن يسد فراغا فى حديث له مع صديق بأن يروى له ما سمعه أخيرا • ولذلك نجد كثيرا من الناس ممن لا يشتركون فى الناحية العاطفية التى تتضمنها الشائعة يعملون على انتقالها • ان هؤلاء الناس غير مسئولين عن خلق الشائعة أو تشكيلها ولكنهم يعاونون على انتقالها فقط •

وأمامنا مثلا تلك الفئة من الناس التى تحاول دون وعى أن تستمع الى الاذاعات المعادية وتعمل على نقل دعايتها المسممة الى أصدقائها لمجرد الزهو أمامهم بأنها أكثر علما منهم بما يجرى من أحداث •

وقد نشك لأول وهلة فى ولاء هؤلاء الأفراد نحو وطنهم ، ولكن غالبا ما يكون سبب استماعهم الى هذه الاذاعات نتيجة عقدة حب التظاهر بمعرفة

ما لا يعرفه الناس ، وهم فى ترديدهم لتلك الدعايات المغرضة لا يقدرون أنهم يبثون سموما فتاكة بين مواطنيهم .

وقبل أن ننتهى من هذا نود أن نشير الى الدوافع السيكولوجية التى تدفع الانسان الى التسرع فى نشر شائعات عن أحداث مقبلة كاعلان الهدنة وقت الحرب ، أو انتظار أحداث سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية لهـا تأثير على كيانهم . فان النهاية المتوقعة تكون على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لاناس كثيرين مما يجعلهم يعيشون فى أحلام اليقظة .

ان فى حياة الفرد العقلية حالة من التوقع الديناميكى القوى ، فعندما يتم كل شىء بعد انتظار طويل جدا ولا يبقى الا شىء صغير ، نكون على استعداد لتلقى الخبر . اننا فى موقفنا هذا أشبه بالحيوانات التى تجرى ساعية الى صندوق طعامها ، فهى تزيد من سرعتها ساعة اقترابها للنهاية .

وليتصور كل منا نفسه حينما يكون فى انتظار خبر هـام له ، فانه اذا ما دق جرس التليفون أسرع اليه وهو يحس أن فى المكالمة التليفونية اجابة لموضوعه . واذا دق جرس الباب أسرع ملبيا معتقدا أن من يدق بابه هو الشخص الذى ينتظره ، واذا ما وصل اليه خطاب أسرع الى فضه بأعصاب متوترة ، محاولا أن يعرف فى أقل وقت ماذا فى الخطاب .

وبوجه عام فان الدوافع الذاتية للانسان متشعبة متماسكة ، وهى تلعب دورا رئيسيا فى خلق الشائعات وترويجها ، كما أن هذه الدوافع لها ارتباط مع أهمية موضوع الشائعة وغموضه . ولذا نستطيع أن نقول ان الشائعة تتبع قانونا سيكولوجيا أعم مما سبق ذكره ويمكن أن نلخصه فيما يأتى :

« ان الدوافع الذاتية لها ارتباط وثيق بمعادلة الشائعة الاساسية ، وهى تتأثر بنسبة تأثير امتزاج أهمية الموضوع وغموضه » .



تحليل الشائعة

ازدهرت الشائعة وانتشرت فى أيام الحروب وأيام السلم ، وفى أيام الكساد وأيام الرخاء • هذه حقيقة قديمة ترجع الى أيام نشأة المجتمع الانسانى •

لماذا تنتشر الشائعات ؟ ما الدوافع التى تشبعها الشائعات ؟ ما القوانين التى تتحكم فى مدى انتشار الشائعة ، وما التشويهات التى تلحق بالشائعات الفردية فى أثناء تداولها ؟

لقد كانت هذه التساؤلات محل بحث الفصلين السابقين ، والواقع أن الاجابة عنهـا كانت بمثابة تمهيد لهـذا الفصل ، فان أى محلل للشـائعات لا يستطيع أن يقوم بالتحليل الصحيح الا بعد أن يكون قد ألم تماما بما جاء فى الفصلين السابقين •

ونود أن نذكر القارىء هنا بتلخيص لبعض النقاط الرئيسية التى جاءت فى الفصلين السابقين والتى لابد أن تكون فى ذاكرة المحلل كأساس ضرورى لتحليل أى شائعة •

لقد سبق أن قلنا : ان الشائعة تبدأ عندما لايكون هناك خبر ، ولذلك يجب أن يزود الشعب بأدق الاخبار ، بصفة عاجلة وكاملة ، حتى يكون على بينة بما يدور حوله من أحداث تؤثر فى حياته ومستقبله • فالناس اذا ما تأكدوا من أنهم يقفون على أسوأ الأخبار فليس من المحتمل أن يحاولوا اظلام الصـورة أكثر من ذلك بابتكار صور لا وجود لها بقصد تبرير قلقهم •

وليس من العسير كما بينا أن نبرهن على أن الشائعات تكثر أيضا عندما تكثر الاخبار • لقد لاحظنا أن أغلب الشائعات التى انتشرت فى بلادنا فى السنتين الماضيتين جاءت نتيجة لما كانت تذيعه محطة اسرائيل وتنقله عنها بعض الصحف الأجنبية المأجورة للاستعمار والرجعية • ان الشائعات التى كانت تهدف للاثارة والبلبلة والتى نشرتها الصحف المعادية الاجنبية فى صورة أخبار كاذبة لم تكن أكثر من أمان معادية شريرة تكمن فى نفس كل عدو لهذا البلد •

على أنه اذا لم تكن الاحداث العامة تستحق الاخبار فليس من المحتمل أن تولد الشائعات • ولكن يحدث فى ظروف معينة أنه كلما أفردت الصحافة مكانا بارزا للخبر - بخاصة الخبر الهام - ازداد تحريف الشائعة وتشويشها •

وقد يخطىء البعض فيقولون : ان الشائعة هى عملية فكرية خالصة ، أو انها شىء يستخدمه الشخص بدلا من المعلومات التى يمكن التعويل عليها ، اذ أن هذا الرأى يتجاهل الحقيقة التى تقول أنه عند وقوع احداث على جانب عظيم من الأهمية لايرضى الانسان أن يقف عند مجرد قبول الحادث • ان حياته تتأثر تأثرا عميقا بالحادث ، ولذلك تقوم المؤثرات العاطفية بتوليد كل أنواع الخيالات ، انه يسعى الى التفسير ثم يتخيل نتائج بعيدة الوقوع •

ومع ذلك فان هذا الرأى يكون جزءا من معادلة انتشار الشائعات والسيطرة عليها • فالشائعة تنتشر اذا ما كان للحادث أهمية فى حياة الافراد وعندما تكون الاخبار ناقصة أو غامضة من الناحية الموضوعية • وقد ينشأ الغموض : اذا كان الخبر غير واضح ، أو اذا كان الفرد قدتلقى عدة صور متناقضة عن الخبر الواحد ، أو اذا وجد أنه عاجز عن فهم الخبر •

ولقد خرجنا من ذلك بوجود قانون أساسى لقوة الشائعة يرتبط بالاهمية والغموض واستطعنا أن نحدده فى شكل معادلة جبرية كالآتى :

قوة الشائعة = الأهمية × الغموض •

ثم ربطنا هذا القانون بدوافع ترويج الشائعات ، وأشرنا الى أن الشائعة لا تروج الا اذا كان لموضوعها أهمية بالنسبة للفرد الذى يستمع اليها وينشرها ، وقد وجدنا أن الرغبة أو الاهتمام بالامور الجنسية تعلل كثيرا من الثرثرة كما تعلل معظم الفضائح ، كما أن القلق هو الدافع الى نشر قصص الرعب والتهديد التى كثيرا ما نستمع اليها ، ونجد الأمل والرغبة تعبـــر عن شائعات الاحلام ، أما الكراهية فتولد القصص الخاصة باتهام الناس والنيل من سمعتهم •

ومن المهم أن نلاحظ أن الشائعة ليست عمليـــة سهـلة وانما هى تخدم أغراضا مركبة ، فشائعة العدوان التى تدفعنا الى أن نصنع الشىء الذى نبغضه تخفف عنا دوافع عاطفية أولية • وهى فى نفس الوقت تبرر لنا شعورنا نحو موقف خاص ، وتشرح لأنفسنا وللآخرين لماذا نشعر بمثل هذا الشعور ؟ وهكذا نرى أن الشائعة وسيلة للتبرير والتخفيف •

ولكن تبريرنا لدوافعنـــا العاطفيـــة وجعلهـــا معقولة ليسا الشىء المنطقى الوحيد الذى نقوم به • فهناك بخلاف ضغط بعض العواطف المعينة سعى من جانبنا كى نستخلص معنى من البيئة التى تحيط بنا • فهناك الى جانب الضغط العاطفى ضغط فكرى ، ومحاولة ايجاد سبب معقول لموقف معقد هو فى حد ذاته دافع • وتساعد الرغبة فى الوصول الى نهاية طيبة فى تعليل كثير من الشائعات • فنحن نريد أن نعرف لماذا •• وكيف •• وأين •• بالنسبة للعالم الذى يحيط بنا • ان عقولنـــا تحتج على الفوضى ، ومنذ عهـد الطفولة ونحن نواصـــل طرح الأسئلة • لماذا •• لماذا •• لماذا ؟ ان هذه المحاولة لاستخلاص المعنى أقوى من ميلنا الغريزى نحو تبرير حالتنا العاطفية المباشرة •

واذا ما انعكست حالة الشخص العاطفية ــ دون أن يدرى ــ على تفسيره للبيئة التى تحيط به فنحن نتكلم هنا عن الاسقاط أو الايعاز • فهو لم يوفق فى أن يستخدم دليلا محايدا موضوعيا فى تفسيره للحقيقة التى تحيط به •

ويقوم كل واحد منا بعملية الاسقاط هذه فى أحلامنا • فبعد أن نستيقظ ندرك أن رغباتنا الخاصـــة ومخاوفنـــا وحبنا للانتقـــام هى المسئولة عن كل

ما حدث فى أحلامنا الخيالية • المراهق يحلم فى أثناء نومه بعروس البحر ، ويحلم الشاب الخامل فى الدراسة بنجاحه فى الاختبار ، وتحلم الأم القلقة بموت طفلها •

وتعتبر أحلام اليقظة أيضا نوعا من الاسقاط ، فتصور عقولنا ونحن فى حالة استرخاء أحداثا تصور آمالنا ورغباتنا ومخاوفنا فنجد أنفسنا نحقق نجاحا أو اشباعا لرغباتنا أو هزيمة أو دمارا حسب مزاجنا وحسب عواطفنا التى تقود تداعى أفكارنا فى هذه اللحظة •

والشائعة هى أشبه ما يكون بحلم اليقظة • فاذا كانت القصة التى نستمع اليها تفسر الحقيقة تفسيرا يتفق مع حياتنا الخفية فاننـا نميل الى تصديقها والى نقلهـا •

وبالاختصار تتحرك الشائعة فى الوسط الاجتماعى المتجانس وتستمر فى حركتها طالما استهوت الرغبات الشخصية القوية للافراد المشتركين فى عملية النقل • ويستخدم النفوذ القوى لهذه الرغبات الشائعة كعامل مبرر يتطلب منها لا أن تعبر عن الرغبة العاطفية فحسب بل كذلك تشرح وتوفر معنى لهذه الرغبة وتبررها • ويحدث أحيانا أن تكون العلاقة بين الرغبة وبين الشائعة وثيقـة الصلة لدرجة تحتم علينا أن نفترض أن الشائعة ما هى الا اسقاط لحالة عاطفية شخصية •

الطريق الأساسى الذى يتم فيه تحريف القصة :

من الملاحظ أن نفس نمط التحريف يوجـد فى التغييرات التى يمر بهـا ادراك الفرد وذكرياته على مر الوقت ، وفى التحريفات التى تتم فى القصة فى أثناء انتقالها من شخص الى شخص • وهناك ثلاثة مظاهر لهذا التحريف وهى : التسوية ـ والشحذ ـ والاستيعاب •

فالقصة تميل وهى تنتقل من شخص الى شخص الى أن تصبح أقصر من ذى قبل وأسهل فهما وأيسر رواية • وفى أثناء عملية انتقالها المتوالى « تسوى »

كثير من التفصيلات الاصلية شيئا فشيئا • وقد لوحظ من التجارب التى أجريت على الشائعات ان كثيرا من التفاصيل التى كانت موجودة تسقط بشدة فى أول سلسلة الانتقالات • وفى كل مرة تروى فيها الشائعة يستمر عدد التفاصيل فى الهبوط ـ ولكن ببطء ـ ويحدث نفس الشيء فى الشائعات الفردية • ولكن التسوية التى تتم فى الشائعة الاجتماعية فى مدى دقائق معدودات تستغرق أسابيع فى حالة الشائعة الفردية •

وفى الوقت الذى تتم فيه تسوية التفاصيل تشحذ فيه التفاصيل المتبقية . وتدل عملية الشحذ على ادراك انتقائى وعلى استبقاء انتقائى وعلى رواية تفاصيل قليلة عن الموضوع الأصلى الكبير • وبالرغم من أن عملية الشحذ ـ كعملية التسوية ـ تتم فى كل مرة تروى فيها الشائعة فان العناصر التى يقع التركيز عليها ليست هى نفسها فى كل مرة • ويعتمد هذا كثيرا على تركيب الجماعة التى تنتقل بينها الشائعة ، فتشحذ العناصر التى تلقى اهتماما خاصا من رواة الشائعة •

ما الذى يدفع الى اغفال بعض التفاصيل وابراز البعض الآخر ؟ وكيف نعلل نقل بعض أجزاء مكان البعض الآخر مما يغير من الحقيقة ؟ •

ان الاجابة عن هذه الأسئلة توجد فى عملية « الاستيعاب » التى هى نتيجة للقوة الجذابة للعادات والرغبات والمشاعر الموجودة فى عقل المستمع • فعند رواية الشائعة ثم اعادة الرواية مثلا تحدث عملية لاستيعاب الموضوع الأساسى ، فتشحذ العناصر أو تسوى حتى تلائم الدافع المهم للقصة وتصبح العناصر متلائمة مع هذا الدافع بشكل يجعل القصة فى نهاية الامر أكثر تماسكا وأكثر منطقا وأفضل شكلا • وغالبا ما يتفق الاستيعاب مع المتوقع ، فتدرك الأشياء وتتذكر كما هى فى العادة • وأهم من هذا كله تعبر عملية الاستيعاب عن نفسها بتغييرات وتحريفات تعكس عواطف الشخص العميقة الجذور كما تعكس موقفه وتحيزه •

وبالرغم من أن التسوية والشحذ والاستيعاب يتميــز الواحد منها عن الآخر بغرض التحليل • فانها ليست عمليات مستقلة • انها تعمل مجتمعة فى نفس الوقت ، وهى تعكس العملية الفريدة ذات الصبغة الشخصية التى تؤدى الى التحريف الذى يميز الشائعة •

مزج الموضوعات فى الشائعة :

اذا أردنا أن نعرض للعواطف التى تعتمل وراء اطلاق الشائعة ودعمها نجد انها مهمة شاقة لأن الدوافع اليها معقدة وذات عمق بالغ • وقد بذلت محاولة فى أثناء الحرب العالمية الثانية لتصنيف الشائعات على أساس الدافع الذى تعكسه الشائعة ، وقد دل التحليل الذى أجرى على ألف شائعة من شائعات الحرب التى كانت سائدة فى عام ١٩٤٢ على أن معظم القصص تقريبا كانت تعبر عن العداء أو الخوف أو الرغبة • وكان تصنيف الشائعات طبقا لدوافعها أسهل فى وقت الحرب منه فى وقت السلم • ولكن حتى فى وقت الحرب كان تصنيفهـا طبقـا للشعور بالبغض أو الخوف أو الرغبة ميسرا أكثر مما يجب • فيمكن مثـلا أن يكون مبعث شائعة الخوف « مثل وحشية العدو » عناصر من الرغبة فى الجنس أو المغامرة أو الشعور بالتفوق الأدبى • ان الدوافع التى تدعو الى استيعاب شائعة هى دوافع معقدة مركبة ذات صبغة شخصية •

واذا أردنا أن نعرف لماذا يروى فرد قصة معينة فلا بد من دراسة اكلينيكية لهذا الفرد • ونتيجة لتنوع الدوافع وامتزاجها فى الشائعة نجد أن أى تصنيف سيكولوجى لها يصبح عاديا وبدائيا •

ولهـذا يجب ألا نتوقع وجود شائعـة واحدة ذات صـلة بعاطفة واحـدة أو بميل ادراكى واحد • ان عملية الاستيعاب لا تعمل على أساس الوحدة ، وقد تخـدم القصـة التى تبـدو سـهلة لأول وهلة كمفسر ومبرر ومخفف لمزيج من العواطف •

أسس التحليل :

وحتى يستطيع الشخص أن يكتسب الدراية فى تحليل الشائعة عليه أن يلم بالمبادىء التى سبق أن بسطناها ، ثم عليه بعد ذلك أن يتدرب على تطبيقها • فمما لا شك فيه أن الشخص يحتاج الى درجه معقولة من التشكيك فيما يصل الى أسماعه أو ما يقع تحت بصره ، كما يجب أن يكون من طبيعته مراجعة هذه الوسائل على تجاربه الماضية المتصلة بها ثم طرحها ـ على قدر الامكان ـ على أدلة موضوعية مقنعه •

وفى هذا الفصل ندعو القارىء الى أن يقوم بفحص عينات مختارة من الشائعات • واذا بدا بعض هذه الشائعات قديما فانه يتبين أنها سريعة الزوال • ان الشائعات قصيرة الاجل لأن دائرة اهتمام الناس تتغير دائما وبسرعة • ويمكننا أن نتعلم الشيء الكثير من دراسة أمثلة من شائعات مأخوذة من أجواء اجتماعية مختلفة حتى ولو كان بعضها مؤرخا •

ولا يمكن أن يكون التحليل كاملا من جميع الوجوه بسبب أن الاحوال السيكولوجية والاجتماعية الدقيقه التى راجت فيها القصة لا نعرف عنها الا جزءا صغيرا عن طريق الاشارة فقط • وفضلا عن ذلك ليس هناك قصة واحدة توضح كل مبادىء الشائعة وان كانت معادلة الشائعة الاساسية يمكن أن نراها فى كل حالة •

فاذا تعذر تطبيق المعادلة على الحالة فمعنى ذلك أن العينة التى تدرسها ليست شائعة ، أو أن المعادلة خاطئة • والحقيقة أن سلامة كل المبادىء التى سبق أن ذكرت تبين نجاح المعادلة فى شرح أمثلة الشائعات الملموسة • واذا وجدنا أن بعض المبادىء لا تنطبق على الشائعة فانه يجب أن نطرحها جانبا أو نراجعها •

بعض حالات لدراسة الشائعات :

ولندرس بتفصيل دقيق نموذجين من الشائعات ، واذا كان هذان النموذجان قديمين فهما يوضحان أنهما قصيرا الأجل ، وذلك لأن مجال اهتمام الانسان

يتغير تغيرا سريعا . ومع ذلك فانه يمكننا أن نتعلم من دراسة الأمثلة الشيء الكثير، وهي مشتقة من أجواء اجتماعية مختلفة .

ولا يمكن مطلقا أن يكون تحليل أية شائعة كاملا لأن الاحوال السيكولوجية والاجتماعية الدقيقة التي تقال فيها الشائعة معروفة فقط معرفة جزئية ، وتكون هذه في الغالب عن طريق الاستدلال وحده ، هذا بالاضافة الى أننا لا نتوقع وجود قصة توضح كل مبادىء الشائعة ولكن يمكن الكشف عن قوانينها في كل حالة .

ولقد قام جوردون و. البورت(١) بتحليل لهاتين الشائعتين ، والتعليق عليهما وتعتبران من أفضل النماذج للدراسة والتجربة .

النموذج الأول :

انتشرت عقب وقوع زلزال سان فرنسسكو في ١٨ من ابريل عام ١٩٠٦ مباشرة أغرب الشائعات في المدينة . وقد أورد جوتشمبرلين في صحيفة « صنداي صان » في عددها الصادر في ٣١ من مارس ١٩٤٦ أربعا منها :

- ابتلعت موجة من المد مدينة نيويورك في نفس الوقت الذي وقع فيه زلزال سان فرنسسكو .
- انزلقت شيكاغو وغرقت في بحيرة متشيجان .
- كان من نتيجة الزلزال أن خرجت حيوانات حديقة الحيوان من أماكنها وقامت بالتهام اللاجئين الى حديقة جولدن جيت .
- شوهد الرجال وفي جيوبهم أصابع سيدات لأنه لم يكن لديهم الوقت الكافي لنزع الخواتم من أصابع السيدات . ويرتبط بالقصة الاخيرة أن مرتكبي هذه الجرائم كانوا يشنقون دائما على أقرب عمود للنور .

---

(١) Personality and Social Encounter, by Gordon Allport, 1960, Beacon Press, Boston, PP. 319 - 323.

التعـــليق :

ان القارىء الذى يوصف بالشك ليعجب من أن هذه الشائعات التى يوردها صاحبها بعد وقوع الحادث وتداولها بأربعين ســنة قد تناولها التحوير وأنواع التحريف الاخرى • ومثال ذلك كلمة « دائما » فى الشائعة الاخيرة ، اذ يصعب بكل تأكيد أن نقيم الدليل على أن كل قصـــة من هذه القصص كانت تنتهى بمحاكمة وصدور نفس الحكم •

ولقد سجلت هذه الشائعات التى تداولها الناس عقب الكارثة • ويمكننا أن نفترض ـ لغرض التحليل ـ انهـا لم تتغير كثيرا عن الشائعات التى راجت وقت الحادث •

١ ـ ان المبدأ الواضح الذى تبينه هذه السلسلة هو خصوبة الشائعـة ومقدرتها على التكاثر • وكانت الاهمية البالغة والغمـوض الـكبير مسئولين عن رواج القصة الغريبة وراء القصة الغريبة الاخـرى ، وكثير منها هى صور متغيرة لقصص أخرى • ان سلسلة الترابط واضحة : لقد دمرت مدينة كبيرة ، فلماذا لا ينطبق هذا على المدن الكبرى الاخرى ؟ •

٢ ـ ويحاول الناس قياس أهمية الحادث كمرحلة أولى تستهدف الوصول الى معنى • وكان الناس يقولون مجازا « لايمكن أن تسوء الأشياء أكثر مما ساءت » • فبعد أن فقدوا بيوتهم وخسروا احباءهم بالغوا فى وصف شعورهم بالقلق والحزن بأن أضافوا ما قام به الحيوانات المفترسة والمجرمون من فساد ، وما لحق مدينة أو مدينتين كبيرتين من دمار • وعن طريق هذه الزخارف نقلوا شعورهم نقلا مجازيا بالكارثة الشاملة التى وقعت •

٣ ـ وعندما يحاول النـــاس الوصول الى معنى فانهم يقومون بعـــدة استدلالات كثيرة بعضها معقول وبعضها غير معقـــول • ومن بين

الاستدلالات المعقولة احتمال أن يفك الزلزال سراح الحيوانات التى كانت فى الحديقة • ولا نستطيع فى الوقت الحاضر أن نجزم ما اذا كان هناك ظل من الحقيقة فيما قيل أو لم يكن • ومن المحتمل أن تكون الاقفاص التى تهشمت قد سمحت لبعض الحيوانات أن تهرب• ولكن كان من المحتمل عندما انتشرت الشائعة أن بعض العبارات كانت قد سويت لدرجة أن زيدت حدة اندفاع الحيوانات • كما يبدو أن تركيز القصة هو الذى جاء بهذه النهاية المفجعة للاجئين • ويلعب الخيال ـ فى الشائعة كما فى الاحلام ـ دور الموحد بين الاحداث المتباينة ، فهو يحيل الاشياء المعقدة الى أشياء عادية ، كما يخلع الترتيب والنظام على الفوضى والاضطراب • وفى هذه الحالة المعينة كانت الحيوانات موجودة فى حديقة جولدن جيت كما كان اللاجئون فى حديقة جولدن جيت أيضا ، فكانت النتيجة أن أصبح اللاجئون فى بطون الحيوانات •

٤ ـ أما شنق المجرمين فيمثل نهاية ذات مغزى وانتقاما خياليا • ولما لم يكن هناك سبب شخصى للكارثة فقد كان سالبو الموتى هم كبش الفداء فى طوفان هو من صنع الله •

٥ ـ وشائعات الفزع هى المرحلة الاخيرة من مراحل شائعات التمرد ، فليس هناك شىء غريب لا يمكن تصديقه بشرط أنه يفسر أو يخفف الاضطرابات السائدة • ولكن على خلاف شائعات التمرد فان القصص التى يسببها الفزع ليس لها مراحل سابقة ما لم يتطور هذا الفزع بالتدريج ، وهذا موقف غير عادى •

٦ ـ وهنا لا نستطيع أن نقيم الدليل على وجود سلاسل من الشائعات • لقد كونت الكارثة وحدة كاملة من الاهتمام لدرجة أننا نستطيع أن نتخيل أن أحدا ممن نجوا منها قد قص هذه القصص على رجل غريب • ولا يمكن أن نتصور أن مواطنا من نيويورك أو شيكاغو

يصدق الخبر الذى يقول بتدمير مدينته • ان سكان هاتين المدينتين الكبيرتين لهم مستوى معين من الأدلة مما يجعل تصديقهم لهذه القصص حقيقيا • ومن المشكوك فيه أيضا أن تكون الصحافة قد نشرت أى شائعات يمكن التحقق من صدقها • لقد نشرت قصصا لا يمكن التحقق من صدقها بلا دليل الا دليل السمع فقط واستمر الناس يصدقونها فى جميع انحاء البلاد حتى فقد الموضوع اهتمام الناس به •

٧ ـ ويمكننا أن نتخيل بعد الصيت الذى يظفر به راوى هذه القصص المرغبة • ان الامة جميعها كانت فى حالة من الاضطراب يجعلها تواقةالى الاستماع الى أخبار من أىنوع•فحالما عرفتالخطوط العريضة للكارثة شعر الناس بنهم الى التفاصيل التى تكمل الصورة ورحبوا بها• ولذلك كان الجار الذى يقدم آخر الاخبار محل الترحيب وموضع الاستماع وحتى يمن هذا الجار على جيرانه كان يضيف الى قصته تفاصيل من نسج خياله •

النموذج الثانى :

لقد ذاعت القصة التالية فى أثناء زيارة مدام شانج كاى شيك لامريكا فى عام ١٩٤٣ ويقال ان القصة وقعت فى مدينة بالتيمور • وتقول القصة : انه حدث فى أحد الايام أن دخل رجل محلا لبيع الجواهر وطلب شراء ساعة ثمنها ٥٠٠ دولار • ولم يكن صاحب المحل يبيع سلعا بمثل هذا الثمن المرتفع ، ولكنه استطاع أن يجمع له ساعات قيمه ليختار من بينها ما يريد • فاختار المشترى عددا من الساعات يبلغ ثمنها ٧٠٠٠ دولار • وعندما سأله صاحب المحل عن الطريقة التى سوف يسدد بها الثمن قال المشترى أنه سكرتير مدام شانج وطلب منه أن يضيف الثمن خصما على معونة الاعارة والتأجير •

التعـــليق :

كانت هذه من الشائعات التى انتشرت فى أيام الحرب العالميـة الثانيـة المسماه شائعات « دق الاسافين » ، وكان الغرض منها الوقيعـــة بين الولايات المتحدة وبين حلفائها • وكانت هذه القصص تقض مضاجع المسئولين فى الحكومة• ومن نفس هذا النمط القصص التى كانت تذاع عن استخدام الروس للزبدة التى تصل اليهم من أمريكا طبقا لقانون الاعارة والتأجير لتشحيم مدافعهم • كما كانت هذه القصص تروى أن البريطانيين كانوا يستخدمون أموال المعونة لشراء الجوارب النايلون وغيرها من الادوات الكمالية والادوات الاخرى النادرة ، وهكذا كانوا يحرمون المواطنين الامريكيين من السلع التى كانوا يهفون اليها •

١ ـ ويتضح بالدليل أنه يمكننا أن نتوقع رواج مثل هذه القصص فقط بين جمهور محدود من جماهير الشائعات • ففضيحة مدام شـــانج تستهوى الناس الذين يضمرون الحقد للصين ، أو ـ وهــذا أكثر احتمالا ـ للحكومة الديمقراطية فى واشنطون •

٢ ـ وهذه الشائعة ـ مثل الشائعات العدائية ـ هى نتيجـة الشعـور بالفشل وخيبة الأمل • فكان نقص الأشياء وقت الحرب فى ازدياد ، وكانت الضرائب فى ارتفاع • فاذا كانت السلع التى بهـــا نقص ترسل الى خارج البلاد ، واذا كان ايراد الضرائب يبعثر بغير حساب بواسطة حكومة غير حـكيمة ، ألا يجعلنا هذا نشـعر بالاسـتياء ؟ ونحن على استعداد لأن نقدم التضحيات من أجل الحرب ، ولكننـا لا نشكو من الحرب نفسها ، انما نشكو من عدم كفاية هذه المجموعة من الاساتذة طوال الشعر ومن « ذلك الرجل » الموجود فى واشنطون• وتمثل الشائعة مزجا متقنا للعداء مع خيبة الامل ، وهى تخـــدم غرضين : شرح عدائنا السياسى ، وتبريره •

٣ ـ ويتضمن الدافع أيضا التهرب من الشعور بالذنب • فعندما كانت الحرب على أشدها ، كان كثير من الناس ينغمسون فى الكماليات التى ما كانوا يستطيعون الانغماس فيها وقت السلم ، وما كان هـذا ليتفق مع التأكيد على ضرورة التضحية وضرورة شراء سندات الحرب، ولكن اسرافنا الطفيف هذا يمكن أن نتناساه ونصفح عنه اذا ما قورن باسراف مدام شانج البالغ ـ وهى شخصيـة من أبرز شخصيـات الحرب ـ حيث كانت تبعثر أموالنا القومية لشراء الكماليات الخيالية•

٤ ـ وربمـا كان يوجد عنصر من عناصر التشبيه بالاعتقـاد الذائع عن اسراف كبار الموظفين فى الصين وفسادهم • ولـكن هـذا العنصر ـ ان وجد ـ يكون عنصرا صغيرا حيث أن ضحايا هذا الاختلاس هم الامريكيون لا الموظفون الصينيون •

٥ ـ وحتى يمكن تصـديق القصـة ابتعدت عن التجريد واعتمدت على الحقائق الملموسة ، وعلى ذلك ذكرت مبالغ محددة : ٥٠٠ دولار ، ٧٠٠٠ دولار • واحيطت القصة بما يشبه التفاصيل الدقيقة حتى يكون هذا جزءا من عملية جعلها قصة منطقية •

٦ ـ وبالرغم من أن مكان وقوع هذه القصة ليس مدينة بالتيمور فى كل الاوقات فاننا نعرف أن الاسم الذى خلع على هذه القصة يبقى دون تغيير ، ولا سيما اذا كان هذا الاسم يقع فى بداية القصة • فالعناصر الاولى من القصة هى التى تظل عالقة بالذاكرة •

ولو رويت هذه القصة دون ذكر اسم مدام شانج لما تغيرت المهمة المقصود منها ولكن تعيين اسـم شخصية معروفة هى طريقة شـائعة لتجسيد الشـائعة ولتحويلها الى موضوع يثير اهتمام الناس فى ذلك الوقت بشكل عام وبشكل تقليدى •

دليل لتحليل الشائعات :

ولقد قام البورت بوضع دليل لتحليل الشائعات ، يعتبر من أفضل المراجع التى تساعد أى محلل للشائعات ، كما أنها قد تعين القارىء فى تحليل شائعات مما يسمعه كل يوم . وفيما يلى بعض الاسئلة التى تعينه فى عملية التحليل ، ويستند كل سؤال منها على مبدأ مقرر من مبادىء الشائعات . ولسنا فى حاجة الى أن نقول : أنه ليس من الضرورى امكان تطبيق كل الاسئلة على كل الشائعات.

- هل القضية المطروحة قضية تنال التصديق وتستخدم للاشارة الى الموضوعات السائدة ؟
- هل يعوز راوى القصة والمستمع اليها الدليل على صحتها ؟
- هل تحتوى القصة على عنصرى الغموض والاهمية ؟ وأى العنصرين أبرز من الآخر ؟
- كيف تعكس الشائعة محاولة للوصول الى المعنى ؟
- هل تقدم الشائعة تفسيرا اقتصاديا أو مبسطا لموقف بيئى أو عاطفى معقد ؟
- هل تفسر نوعا من التوتر الداخلى ؟
- هل أساس هذا التوتر عاطفى أو غير عاطفى ؟
- هل هذا التوتر من نوع القلق أو العداء أو الرغبة أو الذنب أو حب الاستطلاع أو حالة عقلية أخرى ؟
- هل تبرر القصة وجود عاطفة أخرى غير مقبولة فى نفس الراوى ؟
- ما الذى يجعل القصة مهمة بالنسبة للراوى ؟
- كيف تقوم رواية الشائعة بعملية تخفيف ؟
- ما هى العناصر المنطقية التى تحتوى عليها القصة ؟

- هل تحتوى القصة أو الشائعة على ما يجعلها تحتمل أن يكون المقصود منها هو الاسقاط ؟
- هل تشبه الشائعة حلم اليقظة ؟
- هل يجوز أن تخدم مهمة التهرب من الذنب ؟
- هل تعكس اعتداء فى غير موضعه ؟
- هل يحتمل أن ينال راوى الشائعة سمعة من وراء روايتها ؟
- هل يجوز أن تكون رواية الشائعة بقصد جلب السرور الى نفس صديق أو لاسداء معروف ؟
- هل يجوز أن تكون الشائعة مجرد حديث عابر ؟
- هل يمكن أن يكشف الانسان جوهر الحقيقة التى تطورت منه الشائعة ؟
- هل هى شائعة محلية ؟
- الا يمكن أن يكون فيها أخطاء عند ادراكها الاول ؟
- ما هو الطريق الذى سارت فيه الشائعة منذ أن خلقت ؟
- ألا يحتمل أن تحتوى الشائعة على اضافات ؟ ومن أى نوع ؟
- هل تحتوى الشائعة على تحريف فى الاسماء أو فى التواريخ أو فى الأرقام أو فى الوقت ؟
- هل تحتفظ بمكانها أو باسمها ؟
- ألا يحتمل أن يكون فيها تغيير تام فى موضوعها .
- هل هناك دليل على محاولة خلق تقليد أو ابتكار مفترى ؟
- ما هو التمثيل الثقافى الذى يبدو أن الشائعة تعكسه ؟
- هل تشترك الشائعة فى صفة من صفات الاسطورة ؟

- هل يمكن أن تحوى قلبا للحقائق ؟
- هل تميل الى الناحية الفكاهية ؟
- هل توضح الحالات التى راجت فيها الشائعة خصوبتها ؟
- ماذا يمكن أن يكون قد حذف منها ؟
- هل احتفظت الشائعة بكلامها الغريب أو الاصرارى ؟
- هل زادت حدة الشائعة نتيجة تداولها ؟
- هل لعبت الحركة أو الحجم أو الرموز المعروفة دورا فى زيادة حدتها ؟
- هل تجسدت الشائعة أو تحولت الى شىء ملموس ؟
- ما الذى توضحه الشائعة من الميول ؟
- هل تعالج الشائعة الاحداث الجارية ؟
- هل تتسم الأحداث الماضية بسمة الأحداث المعاصرة ؟
- هل تعكس ميولا فكرية أو ميولا عاطفية ؟
- هل كل التفاصيل مهضومة فى الموضوع الأساسى ؟
- هل حدث تركيز فى العناصر ؟
- هل هناك دليل على استمرارها استمرارا طيبا ؟
- كيف يتفق الاستيعاب مع المتوقع ؟
- هل تعبر عن عادات لغوية ؟
- هل هناك استيعاب بالنسبة للاهتمام النفسى الخاص بالمهمة أو الطبقة الاجتماعية أو الجنس أو غير ذلك ؟
- هل هناك استيعاب بشأن التحيز ؟

- هل يمكن أن يستند أى جزء من الشائعة على سوء الفهم ؟
- هل تمثل الشائعة مزجا من الانفعال والكراهية ؟
- ما هو المعنى التعبيرى أو المجازى للشائعة ؟
- هل تنتقل الشائعة على هيئة سلسلة من الشائعات ؟ ما جمهورها ؟
- هل تستهوى هذه القصة المعينة الناس لأن عقولهم مقفلة أكثر من اللازم أو لانها مفتوحة ؟
- هل يمكن القول بأنها : شائعة خوف ، أو شائعة عداوة ، أو شائعة رغبة؟
- هل يمكن أن تكون جزءا من حملة همسية ؟
- ما علاقتها ـ اذا كانت ثمة علاقة ـ بالاخبار ؟ بالصحافة ؟
- هل توصف القصة على أنها شائعة أو حقيقة ؟ هل تنسب الى مصدر مسئول ؟ وما تأثير ذلك ؟
- هل يمكن أن تمثل مرحلة من مراحل أزمة نشر الشائعات ؟
- ما أفضل وسيلة لتفنيدها ؟

حالة من مجتمعنا :

والآن سنحاول أن نحلل شائعة خلقتها الرجعية العربية والصهيونية العالمية للهجوم علينا لمحاولة النيل من انطلاقتنا واشاعة عوامل الخوف والقلق بين مواطنينا .

الشائعة :

تبارت الصحف والاذاعات الاجنبية المعادية فى ترويج هذه الشائعة التى نشرتها صحيفة « الجريدة » اللبنانية بتاريخ ٢٣ من يوليو١٩٦٥ تحت عنوان كبير

هو : « محاولة انقلاب عسكرى للاطاحة بنظـام الحـكم فى مصر » وقد أخذت فى سرد بعض الافتراءات الكاذبة فقالت :

١ ــ ان أحداثا خطيرة كادت تطيح بنظام الحكم القائم فى١٦من يوليو الجارى اذ وضــع بعض ضباط الطيران بالاتفــاق مع بعض ضباط البحرية وضباط القوات البرية خطة انقلاب لوضع حد لحجزرة اليمن .

٢ ــ كانت الخطة تقضى بقصف مقر رئيس الجمهورية الصيفى بالاسكندرية ومقر قيادة أركان حرب الجيش ، حتى اذا ما تم ذلك زحفت وحدات من القطاع العسكرى الشرقى على القاهرة .

وبعد هذه المقدمة وصفت تفاصيل هذه المؤامرة الوهمية فقالت :

فى صباح السادس عشر من تموز وصل الى مطار « الدخيلة » قائد السرب محمد عصام النصر يرافقه بعض العسكريين وحاولوا تعبئة القنابل على متن احدى الطائرات المطاردة زاعمين أنهم مكلفون بتهيئة العرض الجوى احتفالا بيوم ٢٣ من يوليو . وعندما أبدى المسئول عن عنبر الذخيرة دهشته من الحاجة الى استعمال ذخيرة فى العرض أطلعه قائد السرب محمد عصام النصر على أمر بالمهمة غير أن المسئول عن الذخيرة شك فىالتوقيع الذى يحمله الامر، وانسحب ليتصل برؤسائه بينما انصرف المتآمرون لتعبئة الطائرة بالقنابل . وعندما تأكد المسئول عن الذخيرة من أن التوقيع مزور صاح بقائد السرب محمد عصــام النصر وبرجاله فبادروه باطلاق النار عليه وعلى رجال الحامية الذين أجابوا بالمثل على اطلاق النار ودحرجوا البراميل على مدرج المطار ليمنعوا الطائرة من الاقلاع . لكن قائد السرب ــ النصر ــ ورفاقه تمكنوا من التحليق بالطائرة تاركين وراءهم أربعة منهم على أرض المطــار . واتجهت الطائرة المعبــأة بالذخــيرة نحو الاســكندرية تطاردها طائرات « الميج » .

وضع حد لحرب اليمن :

ولسنا نعلم أكثر من هذا عن تطورات هذه الحادثة ، ولكننا واثقون من بعض الأحداث ٠

وتروى المعلومات الواردة جانبا من الاحداث التى تلت ذلك كما يلى :

١ ـ اسقطت طائرة قائد الاسراب النصر بعد اقلاعها فى منطقة وادى النطرون ٠

٢ ـ أعلن حالة الاستنفار فى الجيش وألغيت جميع الاجازات ٠

٣ ـ ألقى القبض على عشرات الضباط من القوات الجوية والبحرية ٠

٤ ـ تم ابدال جميع حراس عنابر الذخيرة فى جميع أراضى الجمهورية العربية وعززت بقوات اضافية ٠

٥ ـ وضعت جميع قوى الشرطة تحت تصرف قيادة أركان حرب الجيش ٠

٦ ـ عززت القوات المرابطة على الحدود الليبية الجنوبية لتحول دون هرب بعض الضباط المشتركين فى المؤامرة الذين لم يتم اعتقالهم ٠

وتشير المعلومات أخيرا الى أن المؤامرة التى لم تنجح كانت تعبيرا عن النقمة على حرب اليمن الباهظة التكاليف ، وغير المجدية ووضع حد للسلطة الفردية وللانهيار الاقتصادى فى البلاد ٠

التعليق :

هذه الشائعة فرية كاذبة من خلق الاستعمار والرجعية التى تسانده ، وهى تتكرر فى مثل هذا الوقت من كل عام ، وان كانت تتلون بألوان مختلفة ٠

ولقد اختير هذا الوقت بالذات لاشاعة الخوف والقلق فى نفوس الجماهير فى وقت يستعدون فيه للاحتفال بأسعد مناسبة فى تاريخهم الحديث ٠

١ ـ هذه الشائعة تعكس عداء الاستعمار والرجعية التى هالها انطلاقتنا الثورية ، وترى فى وجود « عبد الناصر » خطرا يهدد مصالحها الاستعمارية والاستغلالية ، وهى تحمل بين طياتها عناصر الحقد والكراهية ، وتعبر عن أمانى ورغبات أعداء الوطن ٠

٢ ـ من الواضح أن معادلة الشائعات تنطبق هنا ٠ فأهمية الحدث هنا لا تؤثر على المصريين فقط ، بل يتأثر بها كل أبناء الوطن العربى الذين يعتبرون القاهرة ركيزة التحرر والانطلاق ٠ أما الغموض فهو يظهر بشكل واضح من تسلسل حوادث القصة ، والتفاصيل التى ترويها ٠ فالناس لا يستطيعون أن يتبينوا ما اذا كان هناك انقلاب حقيقى أم لا ، الا اذا وقع فعلا ، كما أنهم لايمكنهم أن يتأكدوا من حقيقة المعلومات التى تضمنتها هذه الشائعة ، فاذا أضفنا لذلك أثر الحرب النفسية المسعورة التى تعرضت لها البلاد فى ذاك الوقت وجعلت الناس فى قلق وخوف ـ نجد أن كل هذه العوامل ساعدت على اشاعة الغموض ، وزادت من صعوبة اكتشاف لب الحقيقة ٠

٣ ـ وعلى الرغم من أن هذه القصة كلها من نسج الخيال ، فان هناك بعض عناصر المنطق التى تجعلها مطروحة للتصديق ٠

فالناس كلهم يعرفون أن هناك احتفالا سنويا لعيد الثورة ، كما أن الرئيس يقيم فى مقره الصيفى بالاسكندرية بعد احتفالات يوليو ، وكذلك فان القوات المسلحة تشترك فى العرض العسكرى الذى يقام لهذه المناسبة ٠

وبالاضافة لذلك قام خالقو الشائعة باضافة بعض التفاصيل التى تساعد على استيعاب الشائعة ٠

٤ ـ ولكن القصة منجهة أخرى يعوزها الدليل بالنسبة للمستمع، وبالرغم من الاختلاقات والتحريفات التى صيغت بها القصة لتجعلها مستساغة عند سماعها ، فان تسلسل الاحداث وصياغتها يدعوان الى الشك •

ان أول كذب فى الشائعة هو عدم وجود ضابط طيار فى القوات المسلحة باسم محمد عصام النصر، كما أن تفاصيل تطور الأحداث التى وصفتها تلك الصحيفة تدعو المستمع المحنك العاقل الى الشك فى هذه التفاصيل : فاكتشاف تزوير التوقيع ، وشرح المعركة بين رجال الحامية والمتآمرين الوهميين ، ودحرجة البراميل لمنع الطائرة من الاقلاع ، لا نستطيع أن نصفها بأكثر من خيال طفل يحلم بما يراه فى أفلام طارزن أو أعمال قراصنة البحار •

٥ ـ على أن هذه الشائعة ما هى الا أحدى الحملات الهامسة التى تعرضت لها بلادنا من كل أعداء الوطن ، ويجد فيها القارىء من ناحية التحيز نوعا من الاستيعاب • فربط هذه الشائعة بحرب اليمن والتشهير بها وبالوضع الاقتصادى فى البلاد تبرز الحقد الكامن فيمن خلقها وروجها وتحيزلها. ان حرب اليمن ـ وهىمعركة المصير بينالاستعمار والرجعية وبين التحرر والتقدم ـ لابد أن يتصدى لها أولئك الذين يستغلون ثروات الجزيرة العربيـة ، وكذلك الذين يخشـون على عروشهم من المد الثورى ، كما أن التشهير بالوضع الاقتصادى فى الجمهورية العربيـة له شقان : الأول هو محـاولة اظهـار نظامنـا الاقتصـادى أمام الدول المتحررة بأنه فشـل ، أمـا الشق الآخر فهو يهدف الى ضم صفوف الاقطاع الرجعى والرأسمالية المستغلة فى مصر لتشترك فى الخيانة وتبث سموم الافتراءات الكاذبة • ومن ثم فان التحيز يظهر بوضوح فى هذه الشائعة من جانب من يهمهم زوال هذا النظام الذى يحمى مصالح الشعب من براثن أعدائه •

٦ ـ كما كان لهذه الشائعة صفة الاستمرار ، فقد عملت الاذاعات المعادية من استعمار ، ورجعية ، وصهيونية على تغذيتها ، فى وقت كانت فيه

بلادنا معرضة لحملات التآمر ، وللحملات الهامسة ، والضغط الاقتصادى • مما جعل عقول كثير من الناس غير مستقرة • وفى مثل تلك الأحوال يحاول الناس الوصول الى « المعنى » وهم بذلك يصلون الى استنتاجات كثيرة بعضها معقول وبعضها بعيد عن المنطق • ونجد فى تفاصيل هذه الشائعة بعض الحوادث شبه المنطقية التى تكون مثارا للجدل والنقاش مما يساعد على نشر الشائعة واستمرارها • ولقد استمرت هذه الشائعة فترة ليست قصيرة الى أن كذبها الرئيس عبد الناصر فى أحد خطاباته وفند أساليب الاستعمار والرجعية ، فذهبت الى الجحيم مع من خلقها وروجها •

وفى الختام سنقدم للقارىء خمس شائعات الغرض منها أن يقوم هو بنفسه بتحليلها مسترشدا بدليل الشائعات ، على أننا نود أن نذكر القارىء أن هذه الشائعات هى من صنع العدو، وهى تعبر عن أمانيه ورغباته العدوانية ضد وطنه، ويقصد من ورائها بث السموم التى تهدف الى العمل على تقويض مجتمعنا وتقييد انطلاقتنا • وقد أدرجنا تعليقا يسيرا بعد كل شائعة قد يساعد القارىء فى التحليل •

الشائعة الأولى :

نشرت جميع صحف لبنان المعادية يوم ١٨ من ديسمبر سنة ١٩٦٥ أن غواصة مصرية لجأت الى احدى الموانى الفرنسية بعد أن تعطلت ، وذلك للحصول على بعض قطع الغيار اللازمة لها •

• تلك شائعة مغرضة قصد بها تشويه الزيارة الودية التى قامت بها غواصة مصرية لميناء فرنسى ، وتهدف الصحف من نشر هذه الشائعة ايهام الرأى العام بأن الأسلحة المصرية التى وردت من المعسكر الشرقى هى أسلحة تنقصها المعدات وقطع الغيار •

الشائعة الثانية :

نشرت جريدة الجمهورية اللبنانية فى ٢٤ من يونيه سنة ١٩٦٤ تقول : ان البدر حذر من استملاك الاراضى فى اليمن وقال أنه سيرد الاراضى الى أصحابها عندما يتسلم الحكم فى اليمن ، ثم تقول الجريدة : والجدير بالذكر أن عددا كبيرا من المصريين قد استملكوا مساحات شاسعة من الاراضى فى اليمن .

* تلك شائعة وفرية كاذبة قصدت منها الجريدة ايغار صدور شعب اليمن وسائر شعوب البلاد العربية عامة على المصريين ، فتدعى أنهم ذهبوا الى اليمن لامتلاك الأراضى وطرد أصحابها منها .

الشائعة الثالثة :

نشرت جريدة الحياة اللبنانية فى ٩ من ديسمبر ١٩٦٥ أن المشير عامر عقد اجتماعا يوم ١٦/١٠/١٩٦٥ أثناء وجوده فى باريس مع محمد ابن عم البدر ودارت بين الطرفين مناقشات حول مشكلة اليمن تمسك فيها المشير بالنظام الجمهورى ، وانفض الاجتماع دون خصام على أمل عقد اجتماع آخر بينهما .

* هذا الخبر على أهميته لم ينشر فى أى جريدة غربية أو شرقية أثناء رحلة المشير الى باريس وما بعدها حتى الآن .. وهذا يدل على أنه مجرد شائعة ساقتها الجريدة التى تعبر عن رأى الحلف المركزى .. وتمولها المخابرات الأمريكية وقد قصد من نشر هذه الشائعة فى الوقت الذى تعثرت فيه محادثات مؤتمر حرض التأثير فى المؤتمر والتقليل من أهمية اتفاقية جدة التى وقعها الرئيس عبد الناصر شخصيا مع الملك فيصل .

الشائعة الرابعة :

نشرت جريدة الجمهورية اللبنانية فى ١٧ من يوليو سنة ١٩٦٥ تعليقات عن القروض المصرية من دول العالم .. وبعد أن عددت أنواع القروض والقيم المالية

لها ٠٠ وكذا الدول التى وردت منها سواء من الشرق أو الغرب قالت : « انه لم تفتح مدرسة ، ولم يفتح مستشفى جديد أو تستصلح أراضى ٠٠ فأين ذهبت تلك الأموال الطائلة التى لم يظهر لها أثر فى مصر ٠٠ ولكن ظهرت المجاعات والاستنجاد بروسيا وأمريكا لتوريد الغذاء واللحوم ٠

* هذه شائعة هادمة قصد بها الاساءة الى موقف مصر المالى والسياسى، والى ثورتها الاشتراكية وأهدافها القومية ،وتناست الجريدة الاصلاحات الشاملة التى قامت بها الثورة فى شتى المجالات ومنها مجال التعليم والاصلاح الزراعى وغيره كثير وكثير ٠٠٠

الشائعة الخامسة :

نشرت مجلة الدبور اللبنانية فى عددها الصادر فى ١٨ من أكتوبر سنة ١٩٦٥ زجلا باللغة اللبنانية الدارجة أيدت فيه الاقتصاد الرأسمالى والتجارة الحرة فى البر والبحر حتى لا تنقلب الحياة الى عيشة مرة ثم قالت :

يا ألف لعنة عالاشتراكية خلتنا نمشى حد الشيوعية

وكل من بده يتبع هالطريق حيوصل للهلاك ميه بالميه

* ان الأزجال والنكات من أهم وسائل ترويج الشائعات ، وهذا ما لجأت اليه المجلة حينما أرادت أن تربط بين الاشتراكية والشيوعية من جهة ، وحينما أرادت تشويه المبادىء الاشتراكية التى تدين بها القاهرة ٠



مقاومة الشائعات

سبق أن بينا أن الشائعات ذات أثر بالغ على الروح المعنوية القومية لأى مجتمع ، وفى وقت الحرب تزداد خطورتها بما تسببه من خسائر فادحة فى جبهة الوطن نتيجة ما تشيعه بين المواطنين من روح الهزيمة والانقسام داخل البلاد .

وفى هذا الفصل سنحاول أن نتفهم المشكلات الرئيسية التى تجابه المجتمع فى مقاومته للشائعات ، مسترشدين فى ذلك بخبرة الحرب العالمية الثانية ، وهادفين الى أن نصل الى حل معقول لهذه المشكلة .

لقد سببت الشائعات ازعاجا كبيرا للمسئولين فى الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية، وعلى الرغم من أن أجهزة الدولة بها كانت تدرك طبيعة دور الشائعات ومدى تأثيرها على الشعب ، فان المشكلة التى كانت تحيرها هى كيفية تحديد خطة العمل ، ووضع الوسائل الملائمة التى تمكنها من مقاومة الشائعات .

لقد كان أثر الشائعات التى انتشرت فى الولايات المتحدة خطيرا لدرجة جعلت الرئيس روزفلت يلجأ بنفسه الى الاذاعة لينفى شائعة معينة .

وسرعان ما أدرك المسئولون أهمية مقاومة هذا الوباء ، فأسندت مسئولية مقاومة الشائعات الى جهازين رئيسيين: أحدهما مكشوف ويتبع ادارة الاستعلامات الحربية الامريكية ، والآخر سرى كان يطلق عليه « عيادة الشائعات » (١) ٠

ولقد قام الجهازان ـ وقد كان لكل منهما اتجاه وفلسفة ـ بمقاومة الشائعات ، وبذلا مجهودات مشكورة فى توحيد صفوف الشعب ، ورفع معنوياته ٠

كانت فلسفة الجهاز الاول تعول على ايمان بالقاعدة التى تقول بأن « الشائعة تروج اذا غاب الخبر » ٠ ولذلك ركز هذا الجهاز نشاطه على تحسين مستوى النشرات الاخبارية وزيادة ثقة الشعب فيها ، وكان من رأيه أن ترديد الشائعات بغرض تفنيدها يؤدى الى نتائج عكسية على أساس أن خنق الشائعة بواسطة الحقائق أفضل من محاولة اثبات كذبها عن طريق تفنيدها ، فقد يخشى فى أثناء هذه العملية أن تساعد الظروف على انتشارها ٠

أما عيادة الشائعات فقد كانت سياستها تسير فى اتجاه مضاد ، اذ كانت تركز مجهودها على تفنيد القصص الزائفة ، وكانت فلسفتها تعتمد على أن الناس لا يمكنهم الربط بين الحقائق الا اذا وضحت لهم ٠ ولذا كانت تنادى بأن أنجح وسيلة فى مقاومة الشائعة هو ترديدها ثم سحقها بشدة ٠

---

(١) اصطلاح أطلق فى الحرب العالمية الثانية على أسلوب لمقاومة الشائعات فى الولايات المتحدة ، على أساس استخدام الصحافة فى تفنيد الشائعات المغرضة ٠ ويرجع الفضل فى انشاء هذا السلاح الدفاعى الى الصحفى مستر و ٠ ج ٠ جافين W. G. Gavin من صحيفة هيرالد ترافيلر ببوسطن الذى قام فى المدة من مارس ١٩٤٢ حتى ديسمبر ١٩٤٣ باصدار صحيفة أسبوعية بمساعدة بعض علماء النفس المحليين وغيرهم من المواطنين ٠ وصادفت الفكرة هوى فى نفوس أربعين صحيفة وعدد من المجلات فى الولايات المتحدة وكندا ٠

كانت الشائعات التى تنتشر عادة عادية والردود قصيرة ، وفى بعض الأحيان كان يقوم أحد علماء النفس بكتابة أحد الاعمدة لنشر بعض المعلومات والمعارف السيكلوجية اللازمة لفهم الشائعات المعقدة فهما سليما ٠

لقد كانت طريقة العيادة تتلخص فى دحض الشائعات بواسطة الاخبار وأن تمنع القصص الكاذبة بواسطة الحقائق . كانت تساعد الجمهور على أن يميز أو يفرق بين العملين ، وحتى اذا حدث فى بعض أحوال وكان هناك وعى للشائعات أكثر من اللازم فان الشك فى الاخبار وصحتها يكون أخف ضررا من المغالاة فى التصديق .

وعلى الرغم من أن كلا الجهازين استخدم الحقائق والمنطق فى الاسلوب الذى اتبعه فان المعلومات والجدل لم يكونا كافيين لمحو الشائعات التى تعيش على المخاوف والاحقاد ، ففى مثل هذه الشائعات ـ كما وضحنا ـ تكمن فى داخل نفوس مروجيها دوافع ذاتية لا يمكن نزعها منهم بسهولة ، وهم لا يتوانون عن الاستمرار فى تغذية الشائعات وتنويعها بصور وأشكال توحى بتصديقها .

ولذا فان تفنيد هذا النوع من الشائعات يعتبر عديم الجدوى ، وفى مثل تلك الحالات نحتاج الى أكثر من تصحيح المعلومات وأعمال المنطق لاخراس ألسنة مروجى الشائعات المغرضين . ان الأمر يتطلب تخطيطا عاما شاملا على أعلى مستويات الدولة ، كما يتطلب تكاتف جميع أفراد الشعب بروح من الايمان والعقيدة الراسخة للقضاء على هذا الوباء .

والواقع أن أفضل الوسائل هو عدم محاولة ترديد شائعة أو تكذيبها . ان الوسيلة الوحيدة الفعالة فى القضاء عن الشائعات وخاصة التى تحوى بذور الكراهية والحقد هى اصدار البيانات الصريحة التى تقضى على مصدر المتاعب نفسها لا على الشائعة نفسها ، اذ أن الشائعة ليست سوى مظهر من مظاهر المتاعب .

فاذا ما قامت أجهزة الدولة المختلفة متعاونة مع الشعب بالهجوم غير المباشر على مشكلة الشائعة ، باصدار الحقائق المتعلقة بموضوع الشائعة ، وكذا البيانات السليمة التى يجب أن يعرفها الناس ـ أمكن الى حد كبير ازالة كثير من أسباب الغموض الذى يساعد على رواج أى شائعة .

وهنا يبرز دور أجهزة الاعلام من صحافة واذاعة وغيرهما فى تنمية ثقة الناس بالأنباء ، وتوضيح خطورة تداول هذه الشائعات على الروح المعنوية وبالتالى على الوحدة القومية •

على أن اقتفاء خط سير الشائعات ومحاولة الوصول الى جذورها يساعدان الى حد كبير على وضع يد المسئولين على مروجى الشائعات الذين يرتكبون بخلقهم لها وترويجها جريمة فى حق الوطن كمن يقوم بنسف مصنع أو اداة من أدوات الانتـــاج •

ويستطيع علماء النفس بواسطة الوسائل الحديثة أن يراقبوا عملية انتشار الشائعات من مكان لآخر ، وأن يقيسوا سرعة انتشارها • وكلما أمكن انتقال شائعة الى مكان استطاع المختصون ادراك السبل التى سارت فيها وانتشرت عبرهـــا •

ان تحليل الشائعات السليم المبنى على الاسس العلمية قد يعطى للمسئولين فى الدولة صورة واضحة عن الدوافع الذاتية والسيكولوجية التى ساعدت على انتشار الشائعة ، كما تمكن من معرفة ما يدور بخلد الناس • اذ أن الشائعات كما سبق أن أشرنا تساهم الى حد ما فى خلق الرأى العام ، ومن ثم يسهل حل الكثير من المشكلات ، ووضع الخطط المناسبة لكل حالة من الحالات •

ولكن هل يكفى اظهار الحقائق، واصدار البيانات السليمة ، وتكاتف أجهزة الدولة المختلفة فى الحد من انتشار الشائعات ؟ الواقع أنه اذا لم يكن لدى الشعب الوعى الكافى بالنسبة لخطورة الشائعات وبالنسبة للدوافع والعوامل التى تعمل على رواجها يصبح من العســير على المجتمع أن يقضى على السموم التى يبــذرها المروجون والمغرضون •

ويقول كل من البورت وبورتسمان فى هــذا الصدد « ليس من الصواب أن نقول : أن المعلومات الذاتية أو البصيرة تشفى تلقائيا كل عاداتنا الشريرة

أو تضفي علينا حرية لا حد لها من الارادة • ولكن المعروف أن معرفة الطريق التي يعمل بها قانون من القوانين تؤدي غالبا اما الى تغييره واما الى ابطاله •

ولذلك فان الناس الذين لديهم وعي بالنسبة للشائعات من غير المحتمل أن يقعوا ضحايا لها • ولهذا نجد ما يبرر جميع الاعمال التي يقوم بها علماء النفس في زمن الحرب ، وكذلك كتاب المجلات والمذيعون والمحررون الذين يعملون في عيادات الشائعات • وهنا يثار الجدل حول ادخال دراسة الشائعات ضمن برامج الدراسات الاجتماعية في المدارس والجامعات ، فالشبان الذين يعرفون قانون الشائعات يكونون أقدر على تحصين أنفسهم في مواقف كثيرة يكون فيها الدليل غير مضمون • ويجب أن نبذل جهدنا حتى لا يسبب الحرص والتشكك الوصول الى السلبية ، فالشخص الشديد الارتياب في الشائعة قد يتطور به الحال بحيث لا يصدق حتى أصدق الانباء المحققة » •

وليس هناك شك في أن الوعي يلعب دورا كبيرا في مقاومة الشائعات ، ولا سيما اذا كان في مجتمع تسوده المتناقضات الفكرية والاجتماعية ، أو يكون للخرافات والعادات البالية أثر في توجيه الناس لحياتهم العامة •

ان لأولئك الذين لا يزالون يؤمنون بأعمال السحر والخرافات الاستعداد لتقبل أي أحاديث أو روايات يسمعونها •

وتشير الدلائل الى أن معظم الذين يؤمنون بالخرافات غير أذكياء الى حد ما ، بل يفتقرون الى الاستقرار العاطفي ، كما أن آباءهم وأمهاتهم ممن يؤمنون بالخرافات • ويمكن القول : ان الخرافات وثيقة الصلة بالشائعات ، ومن الواضح أن الاشخاص ذوي الاطلاع والدراية يميلون الى عدم قبول الشائعة •

ومن هنا يتضح لنا الدور الكبير الذي يجب أن يلعبه المدرسون والاساتذة في المدرسة والجامعة في خلق الوعي اللازم ، والقضاء على تلك الافكار البالية التي قد تكون موجودة في هذا الجيل الصاعد ، على أنه لكي يكتمل الأمر يجب ألا يغيب

عن بالنا أن توعية الأب والأم من أهم الضروريات • فالمدرسة والبيت متلازمان ، وهما التربة التى يخرج منها النشء بأفكاره وعقائده •

ولنعد الان الى الحديث عن « عيادة الشائعات » التى سبق أن أشرنا اليها • لقد قامت المجلات الامريكية ذات التوزيع الواسع بعمل دعايات واسعة جدا لأغراض عيادات الشائعات ، وعن طريق القصص المختلفة أمكنهـا أن تخلق فى الجمهور بصفة مؤقته وعيا بشأن الشائعات ، كان على هذه العيادات أن تستمد معلوماتها من مصادر مختلفة ، فدعت قراءها كى يصبحوا « مراسلى شائعات » وهكذا أصبح القراء المهتمون بالموضوع المصدر الرئيسى لها • وأنشىء فى بعض المراكز قسم لتحليل الدعايات تحت اشراف لجنة الامن العام المحلية • وفى بعض الاماكن كان ضباط الاشراف على الغارات الجوية وغيرهم يجتمعون اجتماعات دورية ليبلغ كل منهم فيها عن محصول الشائعات التى سمعها فى منطقته خلال هذه المدة • وكان عمال السيارات وسائقوها والحلاقون يعملون كمبلغين عن هذه الشائعات •

ولكن بعض عيوب خطيرة ظهرت نتيجة لاسـتخدام مواطنـين غير مدربين للعمل كمبلغين عن الشائعات. فمن جهة كان كثير من الناس يأنفون من هذا النوع من العمل ، بالرغم من أنه لم يكن محتما ذكر اسم الشخص الذى يقوم بترويج الشائعة • والاخطر من ذلك اكتشف أن قلة من غير المدربين هم الذين كان فى مقدورهم أن يتعرفوا على شائعة ، ويسجلوها وينقلوها لدى سماعها ، ولا سيما أن بعض الناس كانوا يتحرون الصـدق فيما يسمعون ، وعلى ذلك لم يكونوا يميلون الى اعتبار ذلك شائعة • ومن جهة أخرى كانت هنـاك حقـائق ثابتة بالوثائق ، ولكنهـا كانت توصف بأنها من قبيل الشـائعة اذا كان سـامعها لا يستسيغها • ومع ذلك وبالرغم من هذه الصعاب اشترك كثير من الناس فى عملية السيطرة على الشائعات ، وشعروا بالرضا التام عن عملهم الذى ساهموا به فى بناء الروح المعنوية ، وفى الوقت نفسه تعلموا كيف يتجنبون الثرثرة •

ولقد تعرف رجال علم النفس خلال تجربة عيادة الشائعات على كثير من المشـكلات التى كانت تقف عقبة فى طريق عملهم ، وحاول البعض تقييمها من

ناحية أسلوب عملها وأثرها في مقاومة الشائعات ، فيقوم البورت وبوستمان بتحليل رائع لمدى خطورة أسلوب عيادة الشائعات واحتمال نشر القصص الكاذبة في أثناء تفنيدها لها ، وهما يتساءلان في هذا المجال : « هل من المحتمل أن يحدث عند محاربة شائعة أن ننشرها دون قصد ؟ » ولقد أدليا في هذا المجال برأيهما ، ونحن نلخصه فيما يلي :

لا يبدو محتملا أن عملية نفي الشائعة أو السخرية منها يمكن أن يتجاهلها القارىء • كأن من يقرأ الأعمدة الخاصة بالشائعات هم العقلاء من السكان الذين تتسم دوافعهم بالوطنية بينما تستطيع عقولهم نقد الدعاية اذا قدمت لهم المعونة للتعرف عليها • وكانت هذه الاعمدة المكتوبة تعليمية في محتوياتها وفي شكلها . لم تكن تنشر أي شائعة الا ومعها نقضها مستندا الى برهان أو حجة ، وكان هناك تحليل موضوعي للشائعة وتفنيد لها ، وكانت الاحتياطات المتخذة تتضمن ـ الى جانب النفي والنقض بالحجة ـ لفت النظر الى عملية الطبع والى الاسلوب ، اذ يستحسن عدم طبع الشائعة بحروف كبيرة واضحة • والأهم من ذلك يجب افساد ما قد يكون فيها من موسيقى لفظية وروح فكاهية خفيفة •

أما بالنسبة لعيادات الشائعات على الهواء فالأمر يختلف ، ويكمن الخطر في أن المستمع قد يدير جهاز الراديو ليسمع نص الشائعة ثم يقفل الجهاز قبل أن يستمع الى تفنيدها •

وقد أظهرت احدى التجارب التي أجراها مكتب الاستعلامات الحربي الامريكي عدم سلامة هذه الطريقة السلبية ، فقدم برنامجا اذاعيا خاصا بالشائعات الى عدد من المستمعين ـ رجال ونساء • وقد أظهر تحليل تصرفاتهم اتجاهات غير مرضية • فأولا لم ينجح المستمعون تماما في التفنيدات التي سمعوها عن طريق الراديو ، وحتى نفس الشائعات التي أنكروها منذ البداية كانوا لا يتذكرون منها سوى واحدة من كل ثلاث • ومن بين الشائعات التي أذيعت في هذه التجربة كان ٧٠ ٪ منها لم يسمع بها من قبل أو كانت قد نبذت لاقتناع الناس بكذبها ، أما الـ ٣٠ ٪ الباقية وهي التي سمعت وصدقت من قبل فقد ظل ١٤ ٪ منها محل التصديق حتى بعد اذاعتها على الهواء •

ولكن هذه النتيجة لا تعنى أن ننكر قيمة الاذاعة فى الحد من الشائعات • كما أن دور التليفزيون قد زاد من قيمة ذلك على أساس أن الموضوعات المعقدة والعسيرة يمكن تفهمها بطريقة أفضل عن طريق العين • ومن هنا يمكن استغلال الاذاعة والتليفزيون فى نشر برامج مسلية هادفة ، ومن هذه البرامج يمكن تقويض الدعائم الأساسية التى ترتكز عليها الشائعات ، وزيادة الوعى لدى الجمهور » •

وينتقل البورت وبوستمان فى بحثهما الى نقطة أخرى متسائلين :

« هل ساعدت عيادات الشائعات على تخفيض انتشار الشائعات ؟ وفى اجابتهما عن ذلك يقولان : « من الصعب اعطاء اجابة حاسمة ، ولكن هناك خطين من الأدلة فى متناول أيدينا ، وهما حتى الآن فى صالح عيادات الشائعات • ففى المدن التى انتشرت فيها هذه الاعمدة أصبح واضحا أن الجمهور قد نضج وعيه بالنسبة للشائعة • وكانت الاحاديث التى تدور تبين هذه النقطة • فكان اذا سمع أحدهم شائعة يقول : سوف أرسل هذه الشائعة الى العيادة ؟ وقد دلت حوادث لا حصر لها على أن نوعا من المناعة العامة قد زرع فى الناس نتيجة مجهود هذه العيادات •

« وعلى سبيل المثال أجريت تجربة واحدة لاختبار مدى المناعة ضد الشائعات التى حصل عليها قراء هذه العيادات • ففى مدينة سيراكيوز أجرى اختبار شخصى لعدد من السكان عن مدى تصديقهم لبعض القصص الشائعة الخاصة بالاسراف والمحسوبية • فوجد من البحث والتحريات أن تصديق من كانوا يقرأون أعمدة عيادة بوست ستاندرد أقل من تصديق من لم يكونوا يقرأونها بمقدار ٦ر٥ ٪ •

« واذا جمعنا القراء المنتظمين على القراء غير المنتظمين دل على أن مناعتهم بلغت زيادتها ٤ر٤٪، وعلى الرغم من أن الفرق ليس كبيرا ـ وقد يكون ذلك متأثرا بمستوى

التعليم ـ فان معناه كبير ، لأن ٢٧٪ فقط من السكان هم الذين تقبلوا الشائعة • ومن ثم كان مدى تصديق القراء النظاميين للشائعة هو ٢٥٪ اذا قورن بمدى تصديق غير القراء •

« واذا فرضنا أن هذه العيادات نجحت في خلق درجة معينة من المناعة العامة فهل هذا أدى الى خلق نوع من الريبة فى كل الاخبار ؟ اننا نذكر أن شيئا شبيها بهذا حدث فى أعقاب الحرب العالمية الاولى • فقد أصبح وعى الجمهور بأعمال الدعاية قويا لدرجة أنه كان يشتبه في وجود دعاية خلف كل شجيرة وتحت كل سرير • وقد انتقل هذا الشعور الى الحرب العالميــة الثانية لدرجة أن أى تقارير كانت ثابتة ومحققة بالوثائق بخصوص معسكرات الاعتقال وغيرها من أعمال النازى الوحشية ـ كانت محل تكذيب الجماهير على أنها من اختراع أعمال الدعاية . ولكن ليس هناك دليل على أنه كان لعيادات الشائعات أثر مثل ذلك » •

السيطرة على الشائعات :

وبوجه عام فان النقاط والقواعد التالية التى تقوم فى الواقع على ملاحظات فنية يمكن الاسترشاد بهـا فى السيطرة على الشائعات ، وسيجد أولئك الذين يحاولون محاربة الشائعات فائدة كبيرة في اتباعها :

١ ـ الايمان والثقة بالبلاغات الرسمية ، اذ أنه لو فقدت الجماهير الثقة فى هذه البلاغات فان الشائعات تأخذ فى الانتشار •

٢ ـ عرض الحقائق على أوسع مدى ، ويجب أن تستغل الصحافة، والاذاعة، والتليفزيون فى تقديم أكثر ما يمكن من الأنباء ، مع حذف التفاصيل التى قد ينتفع منها العدو • أن الناس تريد الحقائق فاذا لم يستطيعوا الحصول عليها فانهم يتقبلون الشائعات •

٣ ـ الثقة في القادة والزعماء أمر جوهرى في مقاومة الشائعات ، فقد يتحمل الناس الرقابة على النشر أو نقص المعلومات ، بل قد يحسون أن ما يسمعونه ليس الا أكاذيب غير صحيحة اذا ما كانت لديهم ثقة بقادتهم • وفي مثل هذه الاحوال يكون لدى الناس الوعى الكافى لادراك أسباب نقص المعلومات التى لو نشرت قد تفيد العدو •

والثقة بالقادة والزعماء تعنى الثقة بالجهاز الحاكم ابتداء من رئيس الجمهورية حتى أصغر موظف فى الدولة • أما فى القوات المسلحة فيجب أن تشمل الثقة كل الرتب من أكبر القادة الى أصغر عريف •

٤ ـ ان الملل والخمول ميدان خصب لخلق الشائعات وترويجها ، فالعقول الفارغة يمكن أن تمتلىء بالأكاذيب ، والأيدى المتعطلة تخلق ألسنة لاذعة • ولذا فان العمل والانتاج وشغل الناس بما يعود عليهم بالنفع يساعد الى حد كبير فى مقاومة الشائعات •

٥ ـ غالبا ما تكون الشائعات الهجومية المسمومة نتيجة دعاية العدو ، أما من يقوم بترويجها فهم أولئك الذين يعتبرون أعداء للوطن • ولذا فان النجاح فى كشف دعاية العدو بطريقة سهلة واضحة ومحاربة مروج الشائعات بكل وسيلة لهما دعامتان أساسيتان يرتكز عليها تخطيط مقاومة الشائعات •

ولقد سبق أن شرحنا قيمة « عيادة الشائعات » فى مجال مقاومتها ، ولذا يمكن استخدام هذا الاسلوب بصورة مصغرة فى أى مؤسسة أو مصنع أو تشكيل ، ويشجع الافراد على أن يسألوا عن الحقائق وتفند لهم الاكاذيب والأباطيل •

ويستطيع كل مصنع أو معسكر أن يقاوم الشائعات محليا بطريقة سهلة ميسرة ، اذ توضع لوحة فى مكان ظاهر ويسجل فيها كل الشائعات الكاذبة ،

وبعد قليـــل ستملء اللوحة بشائعات متناقضة ، ومن ثم لا يمكن لأى فرد أن يصدق ما يسمع ٠

على أننا نود أن نشير الى نقطة هامة وهى صعوبة جعل كل أفراد الشعب مشغولين ، ولذا فانه يمكن مواجهة ذلك عن طريق عيادة الشائعات والحملات المضادة ٠

كمـا يجب أن نضـع فى أذهاننـا أن الانشغال الزائد عن الحـد المعقول يجعل الفرد يهمس لنفسه برغبات ، وتدور من ثم بخاطره بعض عوامل القلق مما يجعله يبدأ بالحدس والتخمين فيصبح نهبا للشائعات ٠

ولقد ظهر لنا بوضوح فى خلال الفصول المختلفة من هذا الباب أن الشائعة تتغلغل بعمق داخل نسيج المجتمع ٠ ورأينا أن أحداثا تاريخية كثيرة قد حسمها تصرف الناس حيال الشائعات ، كما أن كثيرا من معتقداتهم كانت وليدة القصص والأساطير القديمة ٠

ان سمة الخداع التى تتسم بها الشائعة هى نتيجة كون الشائعة ــ وأن تكن مثيرة ــ تلبس لباسا زائفا ، كأنها الأداة التى توفر الأنباء الموضوعية ٠ والحقيقة أن وظيفتها الخفية أهم بكثير من وظيفتها الاخبارية المزعومة ٠

وكما سبق أن بينا أن صفة التملص التى تتسم بها الشائعة هى نتيجة المزج المركب لعاطفتى الحب والكراهية فيها ٠ ان معناها الوظيفى يمكن التعرف عليه بالتغلغل فى أعماق شـخصية الفرد وفى حياته العقلية ٠ فبعض الجماهير المعينة يستهويها أنواع معينة من الشائعات ٠ وتعتمد سلاسل الشائعات على مدى ما يكون لهذه الشائعات من قدرة على استهواء الافراد الذين يبتكرونها ٠ وكلما اشتد الاضطراب كثر عدد حلقات سلسلة الشائعة ٠ وتعمل الحروب والشغب والانتخابات على توليد هذا النوع الماكر من الشائعات الذى نطلق عليه عادة اسم « الحملات الهامسة » ٠ ومن المؤكد أننا اذا أردنا السيطرة على الشغب يجب أن نحذر الشائعات ٠

ولما كان الناس لا يعرفون الشائعة عندما يصادفونها ، ولما كانوا لا يمتنعون عن تصديقها لأنها توصف بأنها شائعة ، فاننا نستنبط من ذلك أن الجمهور لم يصل بعد الى مرحلة الوعى تجاه الشائعات • انه لم يحصل بعد على مناعة ضدها •

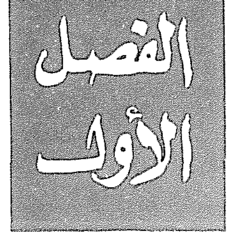
ولا يمكننا أن نتوقع أن نقلل من أهمية الشائعة فى المجتمع الا اذا تحققت عدة أشياء • يجب أن تكون الأنباء أكثر دقة ، وأن تنجح أكثر من ذى قبل فى التغلغل فى عقول كل من يستمعون اليها • ويجب أن يجد الناس الذين يريدون أن يعرفوا تفسيرا لما يجرى حولهم التوضيح الكافى لما يريدون • اذا حدث هذا قلت حالات الكراهية ، وحالات الخوف التى تجد تخفيفا عنها بواسطة التخيلات • وأخيرا يجب أن نصل الى طريقة لعلاج التشويه الديناميكى الذى يحدث لكل عمليات الادراك والتذكر •

ولما كان من غير المحتمل أن تتحقق الأشياء سالفة الذكر فى المستقبل المنظور ، فكل ما يمكن للفرد أن يعمله ليحصل على مناعة ضد الشائعات هو أن يكون ملما على قدر الامكان بظاهر الشائعة السيكلوجية والاجتماعية ، وعن طريق التدرب المستمر تزيد قدرته على التعرف على الشائعات اليومية التى تصل الى أسماعه وتحليلها •

الباب السادس

الدعاية والرأى العام

- الفصل الأول
  تأثير الرأى العام
- الفصل الثانى
  وسائل استخدام الدعاية
- الفصل الثالث
  دور بحوث الرأى فى تقييم الحرب النفسية



تأثير الرأى العام

قد يتساءل القارىء : ما علاقة دراسة الرأى العام بالحرب النفسية ؟ والاجابة عن ذلك سهلة • ان الرأى العام ـ أكثر من أى قوة أخرى ـ هو الذى يحدد كيف يفكر الناس وكيف يتصرفون •

ولقد سبق أن قلنا : ان الحرب النفسية توجه ضد عقل الانسان وضد ما يفكر فيه ، ومن ثم كان لدراسة الرأى العام اتصال وثيق بموضوع هذا الكتاب •

على أننا يجب ألا نجرى وراء الخيال فنقول : ان الفصل سيغطى موضوع الرأى العام ، ولكننا سنعرض له فقط من زوايا معينة هى التى تتصل بموضوعنا .

تعريف الرأى العام :

ان « الرأى العام » تعبير غير دقيق ، أو غامض • ولكن عمليات تحديده قد تكون عديمة الجدوى فى معظم الاحوال ، وذات قيمة فى بعض الاحوال •

لقد اختلف العلماء فى وضع تعريف محدد له ، فمن قائل : انه التعبير عن موضوع مختلف عليه ، ومن قائل : انه رد الفعل الذى يقوم به الناس دون فهم واضح لما يؤمنون به أو لآرائهم وموقفهم وحكمهم •

ولكن مثل هذين التعريفين ضيق ، ولذا علينا أن نعرض كثيرا من التعريفات الأخرى التي قد تنير الطريق . ووفقا لتعريف حديث نقول : ان الرأى العام يعني اتفاق وجهة نظر الناس تجاه موضوع ما طالما كانوا أعضاء في مجتمع واحد ، ويحتمل أن يجمع كثير من الخبراء على هذا التعريف .

وكثيرا ما يردد خبراء البحوث الخاصة بالرأى العام أنه ليس هناك رأى عام « مفرد » لأن الرأى العام يستوعب آراء عامة . حتى كلمة « العام » تستبعد آراء غير العقلاء والصغار والمسنين والمسجونين وغيرهم . ويواصل هؤلاء الخبراء الكلام فيقولون ان الجماهير نفسها تنقسم الى أنواع . فمن الناحية النظرية نرى أن عدد أنواع الجماهير في مجتمع من المجتمعات هو عدد في تجمهرات الافراد . ومن هذه النقطة نقول : ان الرأى العام هو مجموعة آراء فردية بغض النظر عن اتفاقها أو وحدتها . ان درجة تجانسها لا تعتبر شرطا أساسيا في وجود الرأى العـام .

بهذا التعريف الذى نتخذه كنقطة ابتداء نقول: ان الظاهرة الجديرة بالملاحظة في عصرنا الحالى هى أطراد أهمية الجماهير الغفيرة . لقد اتسع نطاق الاتصالات الانسانية وكانت نتيجة ذلك تزايد أهمية العلاقات العامة . ولا ينبغى هنا أن نقصر كلمة « الرأى العام » على جماهير الشعب . وذلك لأنه كان من نتيجة زيادة الجماهير الكبيرة الذين تنتظمهم العلاقات الانسانية ان زاد الاهتمام البالغ بالرأى العام .

ويرى ادوارد الزورث روس(1) Edward Alsworh Ross — العـالم الاجتماعي المعروف — ان الرأى العام يتضمن : الحكم العام ، والميل العام ، والعمل العام. ويبنى روس هذا الحكم على الاكتشاف الذى يقول : ان رأى الفرد عن نفسه

---

(1) روس ، ادوارد الزورث (١٨٦٦ - ١٩٥١) من بواكير كتاب علم النفس الاجتماعى الامريكيين خريج جامعتى برلين وجون هوبكنز ، كان يجيد عرض كتاباته العلمية وقد بذل جهدا لاستمالة الاهتمام بمشكلات الأبحاث الاجتماعية أول كتبه Social Control صدر سنة ١٩٠١ ، واخرج بعدها علم النفس الاجتماعى سنة ١٩٠٨ آخر كتبه New Age Sociology صدر سنة ١٩٤٠

لا يتكون نتيجة ادراك الحواس وانما يشكله الايحاء • فنادرا ما يحدث أن ينظر شخص الى عمل على انه خير اذا كان الآخرون يرون أنه شر • كذلك لا يمكن أن ينظر الشخص الى نفسه على أنه بطل اذا كان الآخرون ينظرون اليه على أنه جبان • ويسترسل روس فى ذلك فيقول : ان السيطرة الاولى للناس على شخص ما هى الا نتيجة قدرتهم على اثارته ضد نفسه • ونادرا ما يحس الشخص العادى بسيطرة الرأى العام عليه لأنه ألف ذلك • ففى عالمنا الحديث ـ على خلاف الأزمان الماضية ـ يكاد يستحيل علينا أن نفكر فى شىء الا فى ضوء تسليمنا ورضانا بما تقرره الجماهير • وليست المسألة خوفا من غضب الجماهير وانما هى العجز عن الوقوف دون تأثر فى مواجهة تعليقات الجموع المعادية ، كما هى العجز عن الحياة على الرغم من الخلاف الدائم فى الضمير والشعور مع هؤلاء الذين يعيشون من حوله •

وهناك محاولة أخرى أكثر طموحا لتعريف الرأى العام ، هى التى قام بها فلويد هـ• ألبورت Floyd H. Allport استـــاذ عـلم النفس السيـــاسى والاجتماعى • وقد ظهر هذا التعريف فى المقال الاول من العدد الاول من « صحيفة الرأى العام » التى تظهر كل ثلاثة شهور •

يعرف البورت الرأى العام بقوله :

« تطلق كلمة « الرأى العام » على موقف عدد من الافراد يعبـرون فيـه أو يطلب منهم التعبير فيه عن موافقتهم أو تأييـدهم ـ أو عكس ذلك ـ لحالة محدودة أو شخص محـدد أو اقتراح محـدد تكون له أهمية واسـعة سواء من ناحية : العدد ، أو القوة ، أو الدوام ممايؤدى الى احتمال التأثير فى العمـــل ـ المباشر أو غير المباشر ـ الذى يحقق بدوره الهدف المنشود » •

اكتشف البورت أن الظواهر التى تدرس تحت كلمة « الرأى العام » هى أساسا أمثلة من أنواع السلوك تصدق عليها الاحوال الآتية :

- انها سلوك الافراد •
- انها تتضمن اللغو •
- يمارسها أفراد كثيرون •
- يدفع اليها ويوجهها هدف أو موقف معروف من الجميع •
- ان الهدف أو الموقف الذى يتصل بها ذو أهمية للكثيرين •
- انها تمثل العمل أو الاستعداد للعمل على شكل موافقة أو عدم موافقة على الهدف العام •
- وغالبا ما يؤديها الشخص وهو مدرك أن الآخرين يتصرفون فى نفس الموقف بنفس الطريقة •
- يعبر الأفراد ـ أو على الأقل يبدون استعدادهم للتعبير ـ عن وجهة النظر أو الرأى الذى تتضمنه هذه الانواع من السلوك •
- ويجوز أن يكون الافراد الذين يقومون بها فى حضور آخرين أو فى غيبتهم •
- يجوز أن تتضمن أشياء شفوية ذات طبيعة ثابتة أو متغيرة •
- قد تكون طبيعتها محاولات لمعارضة شيء أو لعمل شيء يختلف عن السلوك الثابت •
- ولما كانت هذه عبارة عن محاولات لتحقيق هدف مشترك فغالبا ما تأخذ طبيعة المنازعات بين الافراد المتشيعين لكل من الجانبين المتعارضين •
- وهى متعددة وتتسم بالقوة الكافية التى تؤدى الى احتمال تحقيق هدفها •

ومن شأن كل هذه الاستعمالات لكلمة « الرأى العام » ان تستخدم كموجة قوى لنا فى بحثنا عن طبيعة الموضوع الذى نقوم بمناقشته ، لكن مما يؤسف له أنه ليس هناك اتفاق على وحدة المعنى وهــذا يتطلب منا دراسة أوفى لكثير من العناصر التى قد تبدد لنا هذا الظلام .

أهمية الرأى العام :

قال هــوم(١) Hume « ســـوف تحافظ الطبيعة دائما على حقوقهــا وتتغلب فى النهاية على أى حجــة أو منطق مجرد مهما كان » . أى بمعنى آخر ان طبيعــة الكون هى التى تحــدد فى النهاية تفكير النـــاس وتصرفهم . ومع ذلك فان الطريقة التى يتصرف بها الناس فى المواقف المختلفة يحددها لا ما هو كائن ، ولكن ما يؤمن به الرأى العام . فاذا كان الرأى العام مطابقا للحقيقة تصرف الانسان بما يطابق الحقيقة ، اما اذا لم يتقبل الرأى العام الحقيقة أنكرها الانسان كأساس لتصرفاته .

وحتى يستطيع الانسان أن يحقق السلام والرخاء يجب عليه أن يقدر نفوذ الرأى العام تقديرا كليا . ويمكننا أن نتنبأ بتصرفات الناس على أساس أنماط الرأى العام الكبرى . ان القدرة على التنبؤ بتصرفات الناس المستقبلة ذات قيمة كبرى لأنها تتيح الفرصة لتوجيه الجهود الانسانية الى الطرق البناءة .

والواقع ان الانسان يعيش بالحقيقة كما يعيش بالرأى . وبالنسبة الى أعماله نرى أن الرأى يلعب دورا أكثر أهمية من الحقيقة . وهذا يصل بنا الى أن نوجه السؤال التالى : لماذا نعتبر الرأى مهما ؟ .

---

(١) دافيد هوم (١٧١١ ـ ١٧٧٦) فيلسوف ومؤرخ اسكتلندى ترك الدراســة من جامعة ادنبره دون الحصول على درجة علمية ، درس وحده آراء البر ايزاك نيوتن ، قرر فى سن مبكرة احداث ثورة فى فلسفة العلوم المعنوية ، والفلسفة ، والاقتصاديات ، كما أحدث نيوتن ثورة فى علم الفيزياء .

ودون أن نغزو ميادين الدين والفلسفة بالنسبة الى طبيعة الانسان ومصيره يبدو واضحا أن كلمة « الثقافة » هى المفتاح الذى يؤدى بنا الى معرفة السبب فى اهتمام الناس بما يؤمن به الناس الآخرون • ان « الثقافة » هى الكلمة التى تكتسح العلوم الاجتماعية وهى تعنى باختصار – كما سبق أن ذكرنا – ان الناس يتبعون انماطا مكتسبة من السلوك سواء فى : أعمالهم أو فى تفكيرهم • ويشكل الرأى العام قسما كبيرا من الثقافة ، وفى كثير من الاحوال يستحيل علينا فصل الاثنين الا اذا استخدمنا طريقة صناعية •

وقد قام ستيوارت تشيس[1] Stuart Chase بعرض العناصر التى تمثل كل قسم من أقسام العلوم الاجتماعية ليستخلص منها ما يلعب دورا كبيرا فيها ، وكان اختياره الأول هو « الثقافة » واختياره الأخير « بحوث الرأى العام » •

واذا نحن جمعنا مادة الثقافة على مادة بحوث الرأى العام أمكننا أن نقطع شوطا بعيدا فى معرفة كنه سلوك الانسان • وكما تبين الثقافة الدوافع العميقة والأسباب التى تدفع الانسان الى العمل ، فان بحوث الرأى العام تفسر عملا معينا ذا طبيعة مباشرة •

واذا طرحنا جانبا – وبصفة مؤقتة – الأسباب الخفية لأهمية الرأى العام يمكننا أن نورد بعض الظروف التى توضح لنا أهمية الرأى العام • ولقد صرح ايرل ل• فانس Earl L. Vance فى مقال له عن التربية ان الخبر لا يؤثر فقط على تفكيرنا بل أنه تفكيرنا نفسه بقوله :

---

(١) ستيوارت ، تشيس ولد ٨ من مارس سنة ١٨٨٦ درس فى معهد التكنولوجيا بمساسوتس لمدة عامين ثم تركه ليدخل جامعة هارفارد حيث تخرج سنة ١٩١٠ بمرتبة الشرف أهم كتبه فى ميدان العلوم الاجتماعية :

The Proper Study of Mankind (1948)

The Power of Words (1954).

والثانى كتبه بالتعاون مع زوجته ماريان تيلر •

« ان ما نسميه « تفكيرنا » الخاص بمعظم الاحداث والموضوعات ـ الدولية والقومية والمحلية ـ التى تشكل جزءا كبيرا من حياتنا هو الى حد كبير مجرد وظيفة من وظائف « الخبر » • ان تفكير الملايين من الناس يصبح عملا لحفنة من الاشخاص الموزعين توزيعا استراتيجيا : فهذا رجل يقف أمام ميكروفون الاذاعة، وثان يجلس الى مكتب الأنباء ، وثالث يجلس أمام آلة الكتابة ـ وكلهم يبتعدون آلاف الاميال •

« وبغض النظر عن حدة عقل الفرد ، فان فى هذه الأمكنة السابقة يتكون تفكير الشخص وتتكون آراؤه • فالرأى فى جوهره هو خلاصة للمعلومات التى تصل الى الشخص •

« ان السؤال الملح لم يعد كما كان فى الماضى « ما رأيك ؟ » وانما « ماذا قرأت ؟ » و « الى من استمعت ؟ » • هنا يولد العمل • وبالنسبة لما نقوم به من عمل لم يعد يهم : ما شكل الارض ؟ ، ولكن المهم ماذا قيل عن شكل الارض ؟ أن تصرفنا حيال العالم غير مبنى على العالم كما هو ولكن على ما دفعنا الى الاعتقاد عن كنهه • ان الرجل البدائى كان يقدم القربان الآدمى لتهدئة سورة غضب الآلهة ، ولم يكن يهم ما اذا كانت الآلهة موجودة أو غير موجودة لاستلامها • المهم أن الضحية قد ماتت وقد تشعر بها الآلهة •

« ويتصرف الانسان اليوم بما يشبه ذلك تماما ، فمثل العلماء الذين أعطونا القنبلة الذرية ، والسياسيين الذين يقررون استخدامها كمثل الانسان البدائى تماما • انه يتصرف حسبما وصلت اليه المعلومات • فاذا كانت نتيجة العمل وبالا فهو لم يكن يدرك النتيجة من قبل كالبدائى• ان الناس يتصرفون الآن وفق ما دفعوا الى الاعتقاد بأنه الصالح فاذا ثبت بعد ذلك أن ما دفعوا الى الاعتقاد به غير سليم أو أنه كانت هناك حقائق لم يعرفوها اذن فليساعدنا الله » •

ويمضى فانس فى كلامه فيقول « ان ما نسميه بالشخص المتعلم فى أمريكا يحصل على معلوماته الجارية من نفس المصادر التى يحصل منها الرجل الأمى

معلوماته • هناك مكان واحد يستقى منه معظم الافراد شرحا للاحداث الجارية ، ألا وهو رأى الآخرين » •

ومن المؤكد أن رأى الآخرين يلعب بالنسبة للفرد فى حياته العادية دورا لا يمكننا تجاهله ، ومن جهة أخرى فمن الواضح أن قليلين هم الذين لديهم فكرة محددة عن الاشخاص الذين تحترم آراءهم •

ان العامل الذى يقرر كثيرا من سلوك الانسان هو ما يعتقد الناس أن الناس الآخرين يعتقدونه ، وذلك لأن تقدير الفرد لما يعتقده الناس هو الموجه لأعماله • وهكذا يصبح الرأى العام هو المعيار • انه يصبح الحكم النهائى لما يعمل وما لا يعمل • وبالنسبة الى العمل فان هذا النوع من الرأى العام له واقعية يمكن قياسها •

ولما كان الرأى العام نادرا ما يعتمد على الحقيقة قدر اعتماده على ما يعتقد أنه الحقيقة يصبح خرقه موضوعا خطيرا لأنه ليس هناك مخرج من كسر الآراء التى ثبت قبولها • واذ لا يجد معظم الناس طريقا لتقرير صحة رأى بالمقارنة برأى آخر كان تقبل الرأى هو المعيار • وبالاضافة الى ذلك فان الحقائق يصعب عادة الوصول اليها لدرجة أن عمليات الحياة العادية تسير وفق تقنين المعتقدات ، أو وفق ما نسميه بالرأى العام •

ان الرأى العام بمعناه الواسع هو الموجه الأول للفرد فى تقرير سلوكه ، وطالما ظل الرأى العام مستقرا ، وطالما ظل بعيدا عن أنه لا يصطدم بشدة مع الحقيقة ، فانه يكون صالحا لتوجيه سلوك الانسان صلاحية الغريزة فى توجيه سلوك الحيوان •

طبيعة الرأى العام :

تلك كانت أهمية الرأى العام ونستطيع بعد ذلك أن نؤكد أن الرأى العام هو قوة اجتماعية تنظيمية تدلنا على اتجاهات الناس وتسيطر عليها أيضا •

وهناك أنواع مختلفة من الرأى العام • هناك الرأى العام الخاص بالمجتمع الصغير ، وهناك الرأى العام الخاص بالأمة ، والخاص بالعالم ، وأول أنواعه ربما كان أبرز مظاهره •

ولقد عرف جينزبرج M. Ginsberg الرأى العام بقوله : « انه الآراء والأحكام الجماعية التى تعمل فى مجتمع تشكل بصورة محددة تقريبا ويتمتع باستقرار محدد وهو نتيجة العمل المشترك لكثير من العقول » •

وفى هذا المجال أو على هذا الاساس يختلف الرأى العام عن الرأى الشخصى، ومع ذلك فان هناك بعض التقارب والتشابه • فالرأى الشخصى يهيىء القاعدة الضرورية لتشكيل الرأى العام ، اذ ينتج عن تفاعل الآراء الشخصية لعديد من الناس خلق الرأى العام • وقد يكون لرجل آراء شخصية عن أمور كثيرة مثل أسعار اللحم ، أو تكاليف المعيشة ، أو ما شابهها • ولكن الرأى العام يوجد فقط عندما يكون هناك موضوع أو مسألة تتطلب الانتباه العام • ويجب أن تكون هذه المسألة حيوية بما يكفى لحث الناس على اتخاذ موقف بصددها • فقد يكون لكل من زيد أو عمرو آراء شخصية بصدد أزمة المساكن ولكن هذه المسألة لن تصبح رأيا عاما ما لم تشتد مشكلة الاسكان بحيث تصبح مسألة عامة يهتم بها الناس ، ويعبرون عن ذلك عن طريق الرأى العام •

كما أن الرأى العام يضبط بشكل ما الفعل الفردى • ويخضع الفرد ارادته لارادة الشعب كما تخضع آراؤه الى الرأى العام • فقد تكون لدى كل منا رغبة فى أن يسلك سلوكا معينا يخالف رأى الآخرين ، ولكننا نلتزم دائما بما يعتقده الآخرون خشية الرأى العام •

والرأى العام ليس الارادة الجماعية للشعب • فانه ينمو فقط عندما يكون هناك اختلاف أو اتفاق فيما يتعلق بموضوعات معينة • فاذا كان هناك اجماع فليس هناك حاجة لوجود الآراء • فالرأى يستلزم وجود الجدل والنزاع •

ويعرف بلومر Blumer (١)الرأى العام بأنه : « رأى مركب مكون من عدة آراء يتمسك بها الشعب ، أو النزعة الرئيسية التى تنشأ عن النزاع بين هذه الآراء المنفصلة » .

ولفت لورنس لوويل Lawrence Lowell (٢) الانتباه الى قوة الايمان كعامل فى تكوين الرأى العام فيقول : « ان هناك انطباعا عاما بأن الرأى العام يعتمد على عدد الأشخاص الذين يقفون فى أحد جوانب مشكلة ما ، ولكن هذا أبعد عن أن يكون صوابا . فاذا كانت نسبة تسعة وأربعين فى المائة من مجتمع ما تقف بدرجة قوية جدا الى أحد جوانب مسألة ما بينما تقف نسبة واحد وخمسين بفتور الى الجانب الآخر ، فان الرأى السابق يعنى أن القوة العامة الأعظم هى التى خلقته . ومن المؤكد أن ينتشر فى النهاية ، اذا لم ينتشر فى الحال . وآراء الأشخاص الذين لديهم أعظم قدر من المعلومات بصدد موضوع ما تكون أيضا أكثر وزنا من آراء عدد مساو لهم من الجهلاء . فالشخص الواحد الذى يتمسك تماما بما يعتقده أقيم بكثير ممن يتمسكون بآرائهم بضعف ، لأنه يكون أكثر تهجما وعدوانا وبذلك يجبر الآخرين ويخيفهم بما يدعوهم الى الاتفاق الظاهرى معه أو على الأقل الى السكون والركون الى السلبية . وباختصار فان الرأى العام ليس هو بالتحديد رأى الأغلبية العددية ، ولا تقيس أية صورة من صوره التعبيرية مجرد الاغلبية لأن الآراء الفردية توزن وتحسب أيضا الى الحد ما . ودون محاولة دراسة كيف يمكن أن نقيس بدقة القوة والذكاء ، فانه مما يكفى لتحقيق غرضنا أن نشير الى أنه عندما نتكلم عن رأى الاغلبية فاننا نقصد ، الأغلبية الفعالة ذات التأثير ، لا أغلبية العددية .

---

(١) بلومر ، هيربرت أستاذ جامعى ولد ٧ من مارس سنة ١٩٠٠ حصل على الدكتوراه من جامعة شيكاغو سنة ١٩٢٧ عمل أستاذا للعلوم الاجتماعية فى عدة كليات عضو الجمعيات الأمريكية للعلوم الاجتماعية والسياسية كان عضوا للجمعية الدولية للدراسات الاجتماعية ١٩٤٥ ـ ١٩٥٥ تولى تحرير كتاب « الجانب الانسانى للتخطيط الاجتماعى » Humen Side of Social Planning.

(٢) الأسقف لورنس لوويل (١٨٥٦ ـ ١٩٤٣) من رجال التربية والمحاماة الأمريكيين ، كان رئيسا لجامعة هارفارد من ١٩٠٩ الى ١٩٣٣ . معجم ويبستر ص ٨٧٠ .

القوى المحركة للرأى العام :

يشير « كمبال يونج Kimball Young »[1] الى مراحل ثلاث لنمو الرأى العام هى :

١ ـ نشـــأة الموضـــوع :

يبدأ الرأى العام بمشكلة عامة ، اذ طالما كانت الأمور تسير بطريقة تلقائية روتينية ، والمسائل العامة تعالج طبقا للعادات والقوانين فلن يشغل أحد نفسه بالتفكير ؛ لأنه قلما يشغل أحد نفسه بالتفكير لمجرد النقد • ولقد ذكرنا فعلا المثال الخاص بالاسكان • فطالما كانت هناك مساكن كافية فى المدينة فلن يهم أحدا مجرد التفكير بشأن هذا الموضوع ، ولكن حينما تظهر المشكلة فان الناس تبدأ فى ترديد السؤال : ماذا تفعل وزارة الاسكان أو لماذا لا تحل هذه المشكلة ؟

٢ ـ مناقشة الموضوع والحلول المقترحة :

تبدأ هذه المرحلة « بمحاولة » للتعرف بالموضوع ووضع الأمل فى ايجـاد حل فى صورة فعل • ويتبع هذا مناقشة أكثر تفصيلا ولكنهـا تظل فى مرحلة تفسيرية وأولية • ويجرى فحص السمات المختلفة للمشكلة مثل مدى خطورتها وانعكاساتها المحتملة الوقوع على السمات الأخرى للحياة الجماعية • وفى الوقت الذى تتقدم فيه المناقشات والمحادثات والمشاورات تبرز حلول مختلفة ، وغالبا ما تكون متعارضة مثل ذلك ، يجب أن تعمل الحكومة على زيادة المساكن الشعبية والمتوسطة ، أو يجب مساعدة القطاع الخاص للمســاهمة فى مشكلة الاسكان ، أو يجب العمل على وقف الهجرة للمدينة وتحديد العلاقة بين المالك والساكن .. الخ

وأما بالنسبة لسبل حل الموضوع فغالبا ما تظهر اختلافات شديدة فيها • وفى هذه المرحلة تبدو عوامل الاختــلاف وعوامل الاتفــاق أكثر وضوحا • وفى

---

(١) Kimball Young, Social Psychology, F. S Crofts and Coy, Nnw York, 1936.

الوقت الذى يتم فيه التعبير عن الآراء المختلفة تتكون جماعات صغيرة تدافع كل منها عن وجهة نظر معينة • ثم تتبلور الآراء ، وتنبــذ الحلول الخيــالية ويتم الوصول الى حل وسط ، أو قد تؤدى الاختلافات الى عدم التوفيق بينها • وأحيانا تبذل محاولات لضم حلين أو أكثر فى حل واحد شامل •

٣ ـ الوصول الى اتفاق عام :

عندما تكون الموضوعات عاجلة لا يمكن أن نستمر فى المناقشــات الى مالا نهاية • والوصول الى حل ما أمر حيوى • فعندما يكون هناك مشكلة اسكان فان النقاش يحدده رأى الأغلبية ، ولا يمكن أن يحدث اجماع عام أو تام • ولكن غالبا ما يكون هناك اتفاق على الاختلاف ؛ فيعطى أحد الحلول المعينة فرصة اثبات قدرته حتى ولو كان البعض غير مقتنع بأنه أفضل حل ممكن • هذا هو السلوك العام ، ولكن هناك اختلافات وفروقا عديدة • ان القوى الاجتماعية لا تعمل دائما طبقا أو وفقا للنمط الموضوع • ان من السهل أن نصل الى اتفاق عام فى مجالات معينة كما أنه من الصعب الوصول الى ذلك فى مجالات معينة أخرى ، وحتى فى أوقات الأزمات نميل الى أن نتبع أهواءنا فيما يتعلق بالطعام والملبس ، بينما قد نكون أكثر استعدادا للتخلى عن بعض أموالنا • وللثقافة أيضا دور كبير فى هذا ، فبعض الثقافات تشجع الفردية بينما تمجد غيرها السير على نمط واحد •

قياس الرأى العام :

الواقع أن أفضل سبيل لمعرفة ماذا يفكر الشعب فيه هو السؤال عن ذلك . ولكن الأمر ليس سهلا كما يبدو ، ففى الغالب لا نستطيع أن نسأل كل الشعب .

ومن هنا برزت الحاجة الى الأخذ بطريقة « العينة » ، ولــكن قد تتشوه الأسئلة فى أثناء عملية توجيهها ، كما قد تقدر الاجابات على أساس اعتبارات

تختلف عن تلك التى أثارتها الأسئلة ، أو قد تتدخل قوى معطلة سواء بطريقة شعورية واعية أو بطريقة لا شعورية • وبالاضافة لذلك فان الناس فى هذه العملية قد لا تذكر كل شيء سواء عن قصد أو عن غير قصد • ومن ثم فان المشكلات الخاصة باخفاء المعلومات وتشويهها تعتبر عاملا معطلا فى قياس الرأى العام •

ويذكر أسش Asch (١) ان السنوات الاخيرة شهدت نمو حركة جديدة فى العلوم الاجتماعية هى عمل استفتاءات أو مسح للرأى العام • وتحظى هذه باهتمام عام لأنها تزعم أنها تتأكد بصورة دقيقة من آراء السكان بصدد موضوعات تؤثر على رفاهية الشعب • ومثل هذه المعلومات ، اذا أمكن الحصول عليها ، تمدنا بمعلومات عن الاحتياجات والنوايا العامة ، كما انها تعد مصدرا أساسيا للمعلومات والتحريات فى العلوم الاجتماعية • لذلك سوف تحل محلها الاعتماد على الملاحظات المبنية على غير أساس والتى غالبا ما تكون منحرفة ، ويذكرها القادة السياسيون والمعلقون والصحف أيضا » •

والاقتراع أهم أشكال قياس الرأى العام • ففى الاقتراع يوجه للشعب عدد من الأسئلة : اما شفاها « فى المقابلة » ، واما كتابة « الاستفتاء » • وهناك نوعان من الأسئلة ، أسئلة ذات المجال المفتوح ، والاقتراع • ففى النوع الاول تكون الاجابة المطلوبة هى الى حد ما لها طابع المناقشة المفتوحة بينما تكون الاجابات المختلفة الممكنة فى النوع الثانى مدونة ومحددة وعلى الشخص أن يختار واحدة منها •

ويمكننا أن نذكر الآن الخطوات العامة للقيام ببحث عن الرأى وهى :

١ ــ القيام بدراسة للاسترشاد لجماعة صغيرة أو لعينة فرعية ، وذلك عن طريق استفتاءات مفتوحة ، وهو الأمر الاكثر احتمالا •

---

(١) Asch, S. E., Social Psychology. Prentice Hall, New York, 1952.

٢ ـ اجراء مقابلات مع عينة أكبر عددا للاجابة بواسطة الاقتراع ، أو بواسطة عبارات محددة ، أى عن طريق استفتاء مقنن ٠

٣ ـ دراسة عينة فرعية صغيرة ، وذلك بنمط من الأسئلة مفتوح المجال لسبر الغور عن أحد فروض الدراسة الكبيرة ٠

٤ ـ تفسير النتائج فى ضوء أبحاث الرأى الأخير ٠

وسواء كان الاقتراع يوضح الحقيقة فيما يتعلق بالرأى العام أو لا يعطى الصورة الحقيقية ، فان نتيجة الاقتراع تكون من المؤكد أفضل من تعميمات بنيت على أساس مشاعر تم جمعها من بضعة أحاديث عشوية مع عدد ضئيل من أفراد المجتمع ٠ وحتى مع الاعتراف بأننا نتحسس طريقنا فى الظلام ، فانه يبدو أننا نتلمس طريقنا الى هدف ، كما يبدو أيضا أن هناك بصيصا من الضوء يبدد هذا الظلام ٠

لقد كان هـ٠ بلومر H. Blumer واحدا من أقسى نقاد اتباع أسلوب الاقتراع فى جمع الرأى العام ٠ وقد ذكر أنه جرت عمليات اقتراع واسعة ، ولكن المعلومات التى توافرت ، نتيجة لها ، عن طبيعة الرأى العام كانت ضئيلة جدا ٠ فهناك قلة أو ندرة ان لم يكن نقص تام فى التعميمات الخاصة بالرأى التام بالرغم من القدر الكبير من الدراسات القائمة على الاقتراع والخاصة بالرأى العام .

ومن النقاط الهامة ـ فيما يتصل بقياس الرأى العام ـ تلك الخاصة بالشدة . فقد تعطى لنا أحد أبحاث الاقتراع صورة على أن الشعب يتمسك بآراء معينة ٠ ولكن هذه المعرفة ليست كافية ٠ فاننا يجب أن نعلم أيضا ما اذا كان يتمسك بها على اعتبار أنها مبادىء يعتز بها ، ولديه الرغبة فى الثبات عليها بأى ثمن ، أو أنها سطحية الى الدرجة التى يكون فيها على استعداد لنبذها لدى أتفه اثارة ٠

كما اقترحت أيضا دراسات النماذج كطريقة أخرى من طرق زيادة كفاءة عمليات مسح الرأى العام • وفى هذه الطريقة يتم اجراء المقابلات مع جماعة صغيرة ممثلة ، وذلك بصورة متكررة خلال فترة من الزمن لدراسة تغيرات الرأى التى تحدث •

أخطار عمليات مسح الرأى العام :

وجه كل من كريش Krech (١) وكرتشفيلد Crutchfield الانتباه الى بعض هذه الأخطار : « ان لدينا جميعا رغبة طبيعية وأحيانا رغبة سقيمة لمعرفة شىء عن المستقبل • وعمليات مسح الرأى العام أحيانا تحاول أن تتنبأ باتجاهات الأحداث المستقبلة • وهناك خطورة فى التنبؤ ، فقد لا تكون التنبؤات صحيحة كما أنها قد تثير خيبة الأمل أو تضلل • على أن هذه الاخطار قلت بدرجة كبيرة ، لأن الرحلة عبر المستقبل أصبحت مبنية على دراسات علمية بحتة للحاضر • ولكن العلوم البحتة ليست سهلة جدا فى هذا المجال • فلسوف يكون هناك دائما عنصر عمل قائم على التخمين ، وأن يصبح أقل وأقل بتحسن الأساليب •

ويشير المؤلفان الى أن اضعاف القيادة السياسية أو الزعامة خطر محتمل آخر فيقولان : « من الخير للقائد أن يعرف فيما يفكر الشعب فيه ، ولكن من الضار أن يفكر فيه طوال الوقت • فالقائد ينبغى عليه ألا يتبع الرأى العام عن عبودية ، ولا يتملقه بصفة مستمرة • فأحيانا يكون الجهل نعمة حقا ، لأنه يمنح القائد الفرصة للاستمرار فيما يعتقد أنه حق دون الالتفات كثيرا جدا الى ما قد يقوله الناس الآخرون • وعمليات مسح المعلومات العامة قد تمد القائد بمعلومات كثيرة

---

(١) Krech, D. and Crutchfield, R. S. Theory and Problems of Social Psychology, Mc. Grew Hell, New York, 1948.

جدا ، ولكنه قد يشعر بالخوف أو التوتر ، كما أنه سيكون أكثر شجاعة اذا كان لا يلتفت الى كل هذه المعلومات » •

والواقع أن هناك ظروفا يفضل فيها أن تتجاهل القيادة السياسية الرأى العام ، فمثلا فى الرأى الذى يعبر عنه الشعب بصدد موضوع لا يعرف عنه الا القليل جدا ، أو اذا نصح الرأى العام بعدم القيام بأى نشاط فى أمور معينة ، فان القيـــادة الحكيمـــة يجب ألا تعتمد على هـــذا الرأى كعذر لتجنب نتـــائج معينـــة •

وبالاضافة لذلك هناك أيضـــا الخطر الاساسى من أن الرأى الذى تجمع نتيجة لعملية الاقتراع قد لا يمثل حقا ارادة الشعب ، وأنه بالرغم من أنهم قد يختارون أمورا بديلة فان أفكارهم الحقيقية تكون بعيدة عنها •

تغـــير الرأى العام :

على أن وسائل الدعاية التى عرضنا لها فى هذا الكتاب هى كلها من وسائل تغيير الرأى العام • ومن الطبيعى أن العقل والادراك يبينان لنا أن أفضل السبل لتغيير الرأى العام ـ اذا ما كان على خطأ ـ هو أن نقدم للشعب مزيدا من المعلومات ذات الطابع الخاص لتصحيح معلوماته ، وليرى موضع الخطأ ، وبالتالى يغير موقفه واتجاهه • ولكن لسوء الحظ لا يتلقى الشعب دائما مثل هذه المعرفة !

كما أن الفرد حينما يوفق بين بضعة آراء معينة يكون ذلك نتيجة رغبته فى التوافق والمطابقة ، وبسبب أناس آخرين يرون هذه الآراء ، وهو يرغب فى أن يعتبر عضوا نافعا فى الجماعة • ويمكن تحقيق التغيير فى وجهة النظر باثبات ان التوافق والمطابقة قد يكونان متفقين مع المنطق •

يجب أن تكون المعتقدات التى يعتنقها الفرد مفهومة له فيما يتعلق بكونها صورا دقيقة صادقة للعالم الذى يعرفه • كما أن الحقائق الجديدة التى قد تؤثر على رغبته فى التوافق والمطابقة يجب تقديمها اليه ، بخلق اطار جديد يجهل المقاييس القديمة •

وهناك أسلوب آخر لتغيير الاتجاه وهو ما يعرف بأسلوب الثواب والعقاب ، فنحن لا نتقبل الآراء فقط ، ولكننا أيضا نغيرها بما يناسب الشعب أو الجماعة التى نعيش معها • فاذا نال الفرد استحسان الجماعة بتغيير رأيه فقد تتولد لديه الرغبة فى دراسة التغيير ، حتى ولو لم يكن هو شخصيا مقتنعا بالحاجة اليه • وهذا عكس المبدأ الاول • ففى الاول يضطر الفرد الى تغيير رأيه على حساب عدم رضا الجماعة بسبب الأسس المنطقية والمعقولة ، وأما فى الثانى فان الرأى الزائف لأحد الافراد يتغير الى رأى حقيقى يتفق مع التطابق والموافقة والاستحسان العام •

واقترح البعض أسلوب التنفيس عن النفس كوسيلة ثالثة لتغيير الرأى العام ، فالمناقشة الحرة بين أعضاء احدى الجماعات تساعد على اخراج كل المشاعر المكبوتة أو الكامنة ، ويتبع ذلك خلق جو ملائم لتغيير الرأى • اذ أن مشاعر الذنب والعداء والتوتر تختفى كلها فى الحرية التى تتولد عن الاختلاط العقلى ، وهذه هى الفكرة التى تكمن خلف مائدة المؤتمر • فليس شكل المائدة هنا هو المهم ، ولكن التفتح الذهنى للمشتركين هو الذى يساعد على سير المناقشات • ومثل هذه المناقشات تساعد الفرد المشترك على أن يعبر عن نفسه وبذلك يوضح عن نواحى الصراع الداخلى • وهذا التوضيح يؤدى الى ادراك أسلم وهذا بدوره يمكنه من أن يستغل ذكاءه بصورة أكثر فاعلية فيما يدور من مناقشات •

طريقة تحليل المضمون :

وكما أن الوقوف على اتجاهات الرأى العام الداخلى يعتبر من الأمور الهامة ، فان معرفة الرأى العام العالمى لا تقل أهمية عن سابقتها ، اذ من الضرورى أن

تحاط الحكومات علما بآراء الشعوب واتجاهاتها فى الخارج ، ليتسنى لها رسم سياستها الخارجية تجاه هذه الشعوب بنجاح • وتهتم أغلب الدول بدراسة اتجاهات الرأى العام فى جميع دول العالم ، وعلى الأخص فيما يتعلق بسياستها ازاء الموضوعات والمشكلات المختلفة •

ولعل من الواضح أنه لن يتيسر دراسة اتجاهات الرأى العام العالمية باستخدام طريقة الاستفتاء أو المسح كما ذكرنا من قبل ، ولذلك لجأ علماء الرأى العام الى معرفة اتجاهات الرأى العام العالمى نحو دولة ما ، بدراسة اتجاهات الصحف والمجلات والنشرات والكتب التى تصدر فى الدول المختلفة ، وكذا برامج الاذاعة والتليفزيون التى تمس هذه الدولة باعتبار أن هذه المواد الاعلامية تعبر عن اتجاهات موجودة بالفعل ، أو تعمل على تكون اتجاهات جديدة • فهى تأخذ من الرأى العام وتعطيه ، وتؤثر فيه وتتأثر به ، تقود الجمهور وتنقاد له ، توجه الحكومات وتتلقى توجيهاتها ، وهكذا • وبذلك يعتبر كل ما يصدر عن هذه الوسائل تعبيرا عن اتجاهات الرأى العام فى صورة ما لا تصل فى دقتها الى معرفة حقيقة الرأى العام ، ذلك لأن وسائل الاعلام المختلفة وأخصها : الصحافة ، والاذاعة ، والسينما ، أصبحت تتسم بالطابع التجارى أو تعبر فى كثير من الأحيان عن رأى الحكومة اذا كانت الصحيفة تنطق باسمها ، أو كانت الرقابة محكمة بحيث لا يرى منها الا مكان ممثل لوجهة نظر الحكومة ، وحتى البلاد الديمقراطية فانها قد تقع تحت تأثير بعض الأفراد والهيئات الرأسمالية ، وقد يصل الحال الى درجة الاحتكار •

ولعل أبرز مثال على ذلك موقف الصحافة والاذاعة الأمريكيتين اللتين تسيطر عليهما المنظمات الصهيونية الرأسمالية •

وبالرغم مما يوجه لهذه الطريقة من عيوب فانها الى حد ما تعطى فكرة عن الرأى العام فى بلد ما بخصوص المسألة التى تخص دولة أخرى باعتبار أن وسائل

الاعلام تتأثر بالرأى العام وتؤثر فيه ، وباعتبارها الوسيلة الاقرب الى الموضوعية وهى الوحيدة التى يمكن الالتجاء اليها فى معرفة اتجاهات الرأى العام الخارجى •

وتستخدم طريقة تحليل مضمون المقال فى قياس اتجاهات الرأى العام العالمى ازاء مشكلة معينة فى وقت معين ، وكذلك تستخدم فى الكشف عن بعض المفاهيم التى استقرت فى دولة ما ، وسنبين فيما يلى الطريقتين :

أولا ـ الطريقة الأولى :

لما كانت بحوث الرأى العام بنوعيه الداخلى والعالمى تهدف فى النهاية الى ترجمة الاتجاهات النظرية الى أرقام لها دلالات احصائية ـ أى ابرازها فى صورة نسب مئوية توضح الاتجاهات المؤيدة والمعارضة والمحايدة ـ لذلك جرت معاهد الرأى العام العالمية على تجميع جميع المواد الاعلامية التى تناولت موضوعا يخص دولة أخرى فى فترة معينة ، ثم تحليلها بطريقة المضمون ، وهذه الطريقة عبارة عن تلخيص لكل وحدة اعلامية سواء كانت هذه الوحدة : مقالا صحفيا ، أو حديثا اذاعيا ، أو برنامجا تليفزيونيا بحيث يبرز هذا التلخيص جميع الآراء والأفكار التى تتضمنها هذه الوحدة الاعلامية الى جانب روح المقال الذىيكشف عن الاتجاه الذى يغلب عليها « مؤيد ، معارض ، محايد » •

وفيما يلى نموذج لتحليل احدى المقالات التى نشرتها جريدة « فرانس أوبزرفاتور France Observateur » الفرنسية الاسبوعية تحت عنوان « مصر عبد الناصر » بقلم الكاتب الفرنسى ألبير بول لانتات جاء فيها ما يلى :

« ان ثورة الرئيس عبد الناصر هى امتداد للانتفاضات الثورية الشعبية التى بدأت عام ١٩١٩ ، ولكن انقلاب ٢٣ من يوليو يبدو فى حلقات هذه السلسلة الطويلة من الانتفاضات ذا معنى خاص فى تاريخ العرب الحديث •

لقد أعلن هذا الانقلاب عمليا بأن اقطاعيــة الارض لم تعد صــاحبة الكلمة الأخيرة فى تقرير مصير الجمهورية العربية المتحدة ، بل ان الشعب هو صــانع مصيره ، فبعد أن كانت مصر حتى عام ١٩٥٢ مجرد حقل كبير لانتــاج الاقطان التى تحتاج اليها المصانع البريطانية ، ولا سيما مصانع لانكشاير ، فقد بدأت بعد الانقلاب تتخذ شخصية جديدة ، هى شخصية البلد المصمم على تصــنيع نفسه ، وتطبيق سياسة الاكتفاء الذاتى فى أقل الاعتبارات .

ان الثورة قد ردت الى مصر كرامتها ضامنة للبلاد استقلالا وطنيا حقيقيا فى الداخل وفى الخارج ، أما فى الداخل فهو فى انشاء اقتصاد مستقل عن طريق سياسة التصنيع الواسعة وسياسة التنمية الزراعية المتكيفة مع حاجات البلاد الداخلية ، وأما فى الخارج فهو فى الالتزام بمبدأ الحياد الايجابى أو سياسة عــدم الانحياز » .

ويصير تحليل مضمون هذا المقال على الوجه التالى :

الاشادة بثورة ٢٣ يوليو ، على أساس أنها نجحت فى الداخل بتصنيع البلاد والعمل على توسيع الرقعة الزراعية ، بقصد تحقيق الاكتفاء الذاتى . وفى الخارج باتباع سياسة الحياد الايجابى وعدم الانحياز ، وواضح أيضــا أن روح المقال مؤيد .

ويخضع للتحليل – فى عملية قياس الرأى العام العالمى – جميع المقالات التى تصدر فى كل صحف مختلف الدول ، وكذا تعليقات الاذاعة والنشرات والكتب التى تتعرض لهذا الموضوع بالتأييد أو المعارضة أو الوقوف موقف الحياد ، ثم تبوب وترتب فى صورة احصائية ليتسنى تفسير نتائجها .

ثانيا ـ الطريقة الثانية :

وبما أن الصحف تختلف فى درجة توزيعها ، ومدى تأثيرها ، ومكان نشر المقال ، ودرجة بروزه فى الصحيفة ، فلا شك أن كل ذلك يوجد مشكلة تقويم تأثير المقال بصورة كمية . وقد رأى أحد علماء الرأى العام أن يحل هذا الاشكال بمعرفة العدد التقريبى لجمهور كل وسيلة من وسائل الاعلام المختلفة على حدة ، ثم بعد ذلك يضع الوسائل المؤيدة فى جانب ، والوسائل المعارضة فى جانب آخر ، والمحايدة فى جانب ثالث ، ثم يجمع جمهور المؤيدين والمعارضين والمحايدين كل على حدة فى المسألة موضوع الدراسة ، ويقارن هذه الاعداد ويعرف نسبها المئوية التى تؤدى الى نسب الاتجاهات المؤيدة والمعارضة نحو هذا الموضوع . غير أنه وجه الى هذه الطريقة نقد شديد ، اذ أنها تتجاهل تأثير كل وسيلة . فقد يحدث أن توجد صحيفة تتمتع بتوزيعها المرتفع ، ولكنها قليلة التأثير ، والعكس صحيح . كذلك تجاهلت هذه الطريقة مكان نشر المادة الاعلامية ، وطريقة بروزها ، لأنه لا يعقل أن يكون تأثير مادة اعلامية لها عنوان كبير « مانشيت » أو مقال افتتاحى التأثير نفسه لمادة اعلامية على شكل خبر ، مجرد خبر ، أو فى داخل طيات الصحيفة . ولذلك اتفق على أن يراعى فى تقدير الاتجاهات النظرية التى تتضمنها الوسائل الاعلامية المختلفة الشروط التالية :

- أن يقدر لمضمون المادة الاعلامية درجة واحدة .

- أن يضاف لمضمون المادة الاعلامية درجة ثانية لانتشار الوسيلة الاعلامية مثل التوزيع فى حالة الصحف .

- أن يضاف لمضمون المادة الاعلامية درجة ثالثة لشدة تأثير الوسيلة الاعلامية ، فصحيفة مثل التايمز توزع ثلث مليون نسخة ولكنها أقوى تأثيرا من صحيفة نيوز أوف ذى ورلد التى يزيد توزيعها على أربعة ملايين نسخة .

- أن يضاف لمضمون المـادة الاعلامية درجة رابعـة لمكان النشر ودرجة البروز فى الصحف • كما ينطبق ذلك أيضا على مكان الخبر بالنسبة للنشرة الاذاعية ، أو التليفزيون ، أو السينمائية ، وباتباع هذا المعيار يصـــير تقـــويم كل مقال بين درجة وأربع درجات بحسب الشروط السابقة • وعلى ذلك ينبغى على خبير الرأى العام أن يعرف عند قيامه بعملية تحليل الرأى العام العالمى درجة انتشار كل وســـيلة اعلامية وشدة تأثيرها •



وسائل استخدام الدعاية

كتب صن تزو Sun - tzu الاستراتيجى العسكرى الصينى فى القرن الخامس قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام يقول فى القتال الليلى :

« تستعمل الطبول والنيران العالية بكثرة ، وفى القتال النهارى تستعمل أعداد كبيرة من : الاعلام ، واليفط ، وبذلك ترهب عيون العدو وآذانه » ٠

وفى الكتاب الهندى الكلاسيكى عن « فن الحكم » المسمى « ارثازاسترا لكويتليا » نجده يقول : « ان المنجمين وغيرهم من أتباع الملك يجب أن ينفخوا فى الجيش عن طريق تأكيد الصبغة القوية لتنظيمات جيشه ، كما يجب أن يقوم العملاء السريون بالاختلاط بقوات العدو لنشر الشائعات عن هزيمته الأكيدة ٠

كما توجد وثائق منذ العهد اليونانى الرومانى « الجريكورومان » تشرح طريقة التغلب فى المناقشة وطريقة كسب الانتخابات ٠ ويحتوى أدب الدعاية على وثائق تشرح طريقة تبشير الكفار ، والتأثير على الشباب ، ونشر المؤامرات ومنعها ، والحصول على الهدايا وعمليات البيع ، بل لا نجد موضوعا لم يكتب عنه كتاب متخصص ٠

وعلى الرغم من ذلك فان العلماء والمفكرين لم يبدأوا الا منذ عهد قريب فى قياس مكان التأثير الجماهيرى فى التطور الاجتماعى ٠ وهناك دوافع كثيرة معروفة

للنشاط الدعائي ، فقادة الثورات السياسية والاجتماعية يرون أن فى استطاعتهم انقاذ الجنود ، وتوفير الاموال عن طريق استعمال عبارات تثير الرغبة فى الطاعة للنظام الجديد • وقد وضعت الاسس الأولى لاقامة الامبراطوريات حين تعلم الغزاة أهمية تحويل البلاد المغزوة الى جانبهم بدلا من القضاء عليهـا • ولعل طريقة الطابور الخامس التى تستهدف التغلغل فى صفوف العدو لاغراض سياسية جاءت نتيجة لدراسة عمليات التبشير الناجحة التى قامت بها الاديان المختلفة •

والواقع أن كلمة « دعاية » بالانجليزية Propaganda وثبت عـام ١٦٢٢ من ذلك القسم فى الفاتيكان « الكرسى البابوى » الذى كان واجبه نشر العقيدة والدعوة للايمان ، على الرغم من أن حقيقة الدعاية ترجع الى قديم الزمان •

التعاريف الواسعة والتعاريف الضيقة :

هناك فى تعريف الدعاية عدد من التعريفات لا حصر له ، ومن بين الكتاب الذين كتبوا الكثير من الكتابات التاريخية والتحليلية والنقدية عن « الدعاية » نجد وولتر ليبمان وهارولد لاسويل وليونارد دوب ، كذلك أسهم عدد كبير من الاساتذة العالميين فى محاولة تعريفها وايضاح اتجاهاتها ، وأعمال بعض هؤلاء لها أهميتها الكبيرة • وقد نستطيع أن نقول عن الدعاية هنا انها « تتكون من الاستخدام الذى يقوم على تخطيط معنى به لاى صورة من صور الاعلام بقصـد التأثير فى العقول ، والعواطف ، وفى أعمال جماعات معينة لغرض خاص » •

وقد يقال : ان هذا تعريف واسع ، ومن ثم يجب أن تستبعد صور الدعاية التى تستهدف التأثير فى الاغراض الخاصة غير السياسية ، وبذلك يمكن أن يقال :

« تتكون الدعاية من الاستخدام المعنى به لاى صورة من صور الاعلام العامة أو الشعبية بقصد التأثير فى العقول والعواطف لجماعة معينة لغرض عام معين سواء أكان هذا الغرض عسكريا ، أم اقتصاديا ، أم سياسيا » •

وقد يكون هذا التعريف الاخير هو التعريف العادى للدعاية ، كما يستعمل فى أغلب كتب التعليم المدنية فى الجامعات ، على أنه من الضرورى للاغراض العسكرية أن نهذب من أطراف هذا التعريف من جهة واحدة أو أكثر مع تطبيقه بدقة على العدو وجعله كما يلى :

« تتكون الدعاية العسكرية من الاستخدام المعنى به لاى نوع من وسائل الاعلام بقصد التأثير فى عقول وعواطف : جماعة معادية معينة ، أو جماعة محايدة ، أو جماعة صديقة أجنبية لغرض استراتيجى أو تكتيكى معين » .

لكنه ما لم يكن الاستخدام لوسائل الاتصال والاعلام طبقا لخطة موضوعة فانها لا تكون دعاية .

وبالاضافة الى ذلك يجب أن يكون للدعاية غرض معروف ، وهذا هو الجوهر الأساسى الذى يجب أن يتضمنه التعريف . وتحدث فى وقت الحرب والسلم اتصالات كثيرة بشتى صور الاعلام ، حيث يسبب سرور المذيع أو الكاتب فى السخرية والاستهزاء بالعدو ردودا عكسية على المستمع . ولقد عرفت الحرب الماضية اسلوبا طريفا بارسال صور كاريكاتورية لليابانيين بها رسوم تهدف الى السخرية منهم والاستهزاء بهم ، كما أرسلت بطاقات للالمان فيها سخرية باللغة الألمانية ، وأطلقت أسماء أو نعوتا غير كيسة على الايطاليين ، وقد وجد مرسلو هذه البطاقات متعة وسرورا فى هذا النوع من السخرية .

ولقد كان هذا العمل فى الواقع دليلا على الحماقة لأن التأثير الفعلى الواقعى لهذه الصور والرسوم أغاظ الجانب الآخر وزاد من رغبته فى المقاومة ومتابعة القتال .

ولا شك أن ازعاج العدو ومضايقته لا تزال لهما مكانتهما فى الدعاية العسكرية الحديثة ولهما دورهما ، ولكن هذا الدور يعتبر دورا خاصا من النادر استخدامه ، فاذا ما استخدم وجب أن يوضع له تخطيط جيد .

أنواع الدعاية :

قد لا نستطيع أن نتفهم الدعاية دون أن نبحثها من زوايا معينة ، فالمصدر مثلا يلعب دورا كبيرا فى تقسيمها الى أنواع مختلفة . فاذا كان المصدر مكشوفا ومعروفا فان الحكومة التى تصدر الدعاية تعرضها باسمها أمام العالم كله ، ومن ثم يجب أن تصدر هذه الدعاية بقدر كاف من الكرامة مقدرة كل الاحتمالات للمستقبل ، واذا كان المصدر مزورا فمن المهم أن تثق الحكومة أو الجيش بأن التزييف جيد جدا ، وأنه ليس من السهل تعقب الدعاية لمعرفة مصدرها وما بها من زيف .

ويستخدم هنا اسلوبان مختلفان كل الاختلاف ، فالمصادر العلنية المكشوفة تتطلب موظفين عموميين مسئولين. ويفضل الرجال ذوو الشهرةالدولية الذى يمكن ان يحققوا أفضل تأثير من أسمائهم ومن التسهيلات التى توفرها الحكومة . واستخدام المصدر المكشوف فى الغالبية — وليس دائما — يشمل ايمان رجل الدعاية بصحة المادة التى يقوم بتوزيعها ، وتتطلب المصادر المزيفة « المفبركة » أشخاصا مهرة بارعين فى قوة التخيل والتزييف والاختلاق ، ونتيجة لهذا الفهم المبنى على تقسيم الدعاية من ناحية المصدر وجدت الانواع الثلاثة التالية :

الدعاية البيضاء :

تصدر من مصدر معروف وفى العادة يكون المصدر وكالة من الوكالات الحكومية بما فى هذا القيادات العسكرية على مختلف مستوياتها ، ويشترك هذا النوع من الدعاية مع العمليات النفسية العلنية المكشوفة .

دعاية رمادية :

لا توضح أى مصدر .

دعاية سوداء :

تدل على أنها تنبعث من أى مصدر غير المصدر الحقيقى ، ويشترك هذا النوع من الدعاية مع عمليات الحرب النفسية السرية المغطاة • ونظرا لاهمية هذا النوع فاننا سنعود اليه فيما بعد •

ومن أنواع الدعاية البيضاء النشرة التى ألقيت على الوحدات الألمانية فى الحرب العالمية الثانية حاثة الجنود على الاستسلام ، وقد طبعت باللغــات الانجليزية ، والفرنسية، والألمانية وتقول : ان الجندى الالمانى الذىيحملها يقدم دليلا على رغبته فى الاستسلام، ومن ثم ينزع عنه سلاحه ويعنى به، ويقدم له الغذاء والعلاج الطبى الذى يحتاج اليه ثم يرحل من المنطقة الخطرة بأسرع ما يمكن • وقد علا النشرة الأختام الرسمية لبريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة ، ووقعها دوايت أيزنهاور بامضائه كقائد عام لقوات الحلفاء وبذلك يكون المصدر واضحا •

كما وزع الحلفاء نشرة مضادة للدعاية الالمانية طبعت بالانجليزية والالمانية خاصة بالضباط ، وبها معلومات صحيحة ، ولكن لم يذكر المصدر مما جعل كثيرا ممن قرأوها يعتقدون أنها مرسلة من داخل الاراضى الالمانية نفسها •

ولقد كانت الحاجة ماسة الى هذين النوعين المختلفين من الدعاية ، فكل منهما كانت تكمل الاخرى ، ولكن رئى أن تبقيا منفصلتين الى غاية ما يمكن •

ولقد كان الفرق بين الدعاية البيضاء والدعاية السوداء فى مجال الاذاعة أكثر وضوحا ، ففى أثناء الحرب العالمية الثانية كان جو أوروبا مشحونا بالنداءات الموجهة من محطات الاذاعة العامة والسرية ، فكان الانجليز يتحدثون الى الالمان من الاذاعة البريطانية B. B. C.دون أن يبذلوا أى جهد لاخفاء حقيقةأنهم انجليز، ولكنهم كانوا يتحدثون الى الالمان من محطات سرية فيزعم المتحدثون أنهم من النازيين الأحرار ، أو أنهم من محطات اذاعة الجيش الألمانى ، أو من جماعات حرة

أخرى ، وكان الالمان يرسلون الانباء الالمانية الرسمية الى الولايات المتحدة باللغة الانجليزية ، ولكنهم كانوا يزعمون أنها اذاعة أمريكية من الاراضى الامريكية فى الغرب الاوسط •

وفى بعض الاحوال كانت الدول المتقاتلة تستخدم أجهزة الاذاعة للدعاية العلنية والدعاية الخفية السرية ، ولقد عرفنا من قبل أن اذاعة «سيبان» وهى تحت ادارة الامريكيين كانت فى أغلب الوقت بديلة لاذاعة برامج محطة سان فرانسيسكو واستعارتها « منظمة الخدمة الاستراتيجية » O S S فصارت محطة « يابانية » •

على أنه من ناحيـــة التوقيت يمكن أن تقســـم الدعاية الى نوعين : دعاية استراتيجية ودعاية تكتيكية ، وتدار الدعاية الاستراتيجية دون أن يكون لها تأثير مباشر واضح مرئى ، وغرضها اجهاد العدو بتغييرات سيكولوجية يمكن أن تمتد على مدى شهور ، أما الدعاية التكتيكية فهى تهدف الى تحقيق غرض مباشر قصير الاجل ، وهى عادة لا تغطى فترة زمنية طويلة •

ويمكن أن نعرف هذين النوعين على النحو التالى :

١ ـ دعاية استراتيجية : توجه ضد قوات العدو ، وضد شعوب العدو ، وضد المناطق التى يحتلها العدو متناسقة مع تخطيط استراتيجى ، وتوضع بقصد تكملة نتائج مخططة ينشد تحقيقها على مدى أسابيع ، أو شهور ، أو سنوات •

٢ ـ دعاية تكتيكية : توجه لمستمعين معينين يذكر أسماؤهم فى الغالبية ، وتعد وتنفذ لتعضيد عمليات القتال المحلية •

على أنه من الممكن ابراز فروق مميزة أخرى ، ويتوقف هـذا على العـلاقة بين عملية الدعاية التى يقوم بها أحد الجانبين وعملية الدعاية التى يقوم بها العدو فى الوقت نفسه ، أى أن تكون هناك دعاية هجومية ، ودعاية دفاعية •

ولقد ظهرت أهمية هذا الفرق قبل الحرب العالمية الثانية ، ولكن التجربة فى كل الجبهات دلت على أن هذا لم يكن يعنى الا القليل عندما يطبق على الاحتياجات اليومية فى الاجراء الفعلى ، وتنسق الدعاية تنسيقا وثيقا مع الانباء ومع موقف الرأى حتى انها لتحمل فى الغالبية تحليلات متقنة محكمة سابقة للعمليات ، ولكن التخطيط المتقن ينتهى فى الغالبية الى الملفات المغلقة ومن ثم فان التمييز على أسس « هجومية » و « دفاعية » يكون قليل المعنى فى العمل الروتينى الرتيب ٠

الاستراتيجية :

تعتمد الاستراتيجية الصحيحة للدعاية على الاطار العام للسياسة وللظروف التى تساعد على النجاح أو تقف فى طريقه ٠ والغرض الأساسى للسياسة يمتد من اعادة بناء المجتمع الى موضوعات محلية عاجلة ، ومن الاعتماد الكامل على الاقناع الى القضاء التام على الدعاية ٠

واذا كانت هناك خطة شاملة للتغير الاجتماعى يراد اتباعها عن طريق الوسائل السلمية ، فان المشكلة الاساسية للتخطيط الاستراتيجى هى : هل يمكن الاسراع فى النجاح على حساب الاستغناء عن بعض التفاصيل ؟ ففى وقت ما فى الصين مثلا لبس الجزويت ملابس العلماء المحليين كوسيلة لتعديل غرابة طريقة الحياة المسيحية ٠

وهناك موضوع آخر متصل بالاستراتيجية وهو كيف يمكن التركيز على نشر دعوة ما ، وما مدى استعمال نداءات مساعدة ؟ فمن عمل البعثات التبشيرية نجد أن نواحى النشاط الثانوية هى التى صارت الوسيلة المتبعة للاتصال غير المباشر بالسكان المحتمل تبشيرهم ٠ فبعثات التبشير البوذية دائما تشجع الاعمال الخيرية ، ولكن يقال : أنه فى الصين استطاعت ترجمة مبادىء البوذية أن تلعب دورا هاما فى اثارة اهتمام بعض الطبقات ٠

وأحيانا ما تكون مهمة الدعاية هى اعداد الطريق لبعض نواحى النشاط التى لابد من أن تفشل اذا تم شرحها مقدما ، فقبل الاستيلاء على السلطة فى ألمانيا كانت

استراتيجية الحزب الاشتراكي الوطني هي منع تجمع الاشتراكيين والشيوعيين والمحافظين ، ذلك التجمع الذى كان من شأنه أن يقف ضدهم• وبمجرد أن استولت الاشتراكية الوطنية على الحكم ، انتقلت المشكلة الى نطاق السياسة الدولية وصارت مهمتها منع كل من الشرق والغرب من اتخاذ أية خطوات عملية ، بينما قامت ألمانيا بالتسلح واحتلال أرض الراين واستيعاب النمسا ، وتقسيم تشيكوسلوفاكيا ، ثم بدأت الحرب ضد بولندا • وبعد فسخ العلاقة مع السوفييت صار الغرض الاستراتيجى الأساسى هو الفصل بين الشرق والغرب حتى يمكن الهرب من القتال على جبهتين •

التكتيك :

ان مشكلات الدعاية التكتيكية تنتج من تكييف الموقف حسب الحدود التى تفرضها ، ويجب اختيار الجماهير الصالحة والوسائل الصالحة حتى يمكن الحصول على التأثير المطلوب ، كما يجب خلق هيئة لها القدرة والاخلاص المطلوبان لتحقيق هذه الاغراض •

وعند تقرير ما يراد نشره يجب مراعاة أبعاد الجماهير ، وهذه الابعاد هى : مزيج من المفاهيم للنفس، ومن الرغبات المطلوبة، والاعتبارات المنتظرة•ويمكن تصنيف الابعاد حسب الثقافة والطبقة والشخصية • ولنفترض أن المشكلة التكتيكية هى جعل أكبر عدد من جنود العدو وضباطه يسلمون أنفسهم • فى هذه الحالة سيدرس الداعية ثقافة العدو وهل تجعل الشرف العسكرى مثلا أعلى ؟ سيحاول أن يكتشف هل هناك ظروف يعترف فيها العدو بأن التسليم شرف أيضا ؟ وفى هذه الحالة سيقوم الداعية بتوزيع بيانات بأن أية مقاومة بعد ذلك ليس لها أى معنى عسكرى • وسيقوم فى نفس الوقت باعداد أمر عال يجب اطاعته •

كما أن ابعاد الجمهور من الأمور الهامة التى يجب أن تراعى فى المجال التكتيكى حينما يقرر المعلومات التى يجب منع نشرها • ففى الحرب العالمية

الثانية كانت الفكرة السائدة هي أن الجماهير الالمانية كانت على حذر شديد من أن تقع فريسة مرة أخرى لخديعة الحلفاء وأنها حذرة ضد الدعاية • ومن هنا قرر الداعون الانجليز والامريكيون اتباع الطريق الطويل الذى يرمى الى كسب ثقة الجمهور عن طريق اعطاء معلومات دقيقة . وكانت الخطة هى كسب « معركة الثقة » عن طريق اتباع الحق ، وذلك بنشر بيانات فى استطاعة الجماهير الالمانية التأكد منها • وكنتيجة لدراسة طبيعة الجماهير فى ألمانيا ، كانت البيانات الحقيقية كثيرا ما تخفف لهجتها حتى تبدو معقولة ، فكانت الحقائق عن الانتصارات العسكرية وانتاج الاسلحة والاغذية والمعدات كثيرا ما يقلل من شأنها حتى تبدو حقيقية •

ومن المعروف أنه من الصعب اخفاء الحقائق عن الجماهير ، ومن ثم صار من المعتقد أن نشر المعلومات السيئة فى الحال أقل ضررا من اخفائها أو من نشرها بصورة غير كاملة • لقد تعلمت السكك الحديدية ، وتبعتها شركات الطيران أن تنشر أخبار حوادثها بمجرد وقوعها . وغالبا ما توجد حقائق غير مرضية للجانبين، وفى الخلافات المريرة نجد من الطبيعى أن يحاول الداعون الحصول من المخابرات على معلومات يمكن استعمالها بطريقةخاصة للضغط على الخصم وارغامه على ألا ينشر معلومات معينة •

والمشكلة الدائمة التى تواجه رجل الدعاية التكتيكى هى مدى مدح النفس والهجوم على العدو • ونجد أن المتنافسين التجاريين مثلا يبتعدون عن الهجوم ضد منافسيهم على أساس أن الشك يمكن أن يثار لا على « الماركة » بل على نفس السلعة التى يراد بيعها • وبعكس الدعاية التجارية نجد أن الدعاية السياسية تتصف بتقديم السياسة كدراما تتصارع فيها قوى الخير وقوى الشر • وتحاول الحركات الثورية أو الاصلاحية أن تخلق شعورا بالجرم بين منافسيها ، وشعورا بالصلاح بين مؤيديها • وقد ينجح هذا التكتيك فى اثارة نضال فى الضمائر •

تكنيكات الدعاية السوداء :

والآن ننتقل الى الحديث عن تكنيك الدعاية السوداء ومتطلباتها التى تعتبر من أخطر أنواع الدعاية فى الحرب النفسية ، وأكثرها استخداما •

والواقع أن كل شخص يعمل فى ميدان الحرب النفسية يجب أن يعلم ماهيتها ، وكيف تعمل ، وأن يكون قادرا ما أمكن على ألا يفسد فاعلية الجهود التى تقوم بها القوات التى ينتمى اليها بالحديث دون حذر •

وكقاعدة عامة ليس من الضرورى فى حرب الدعاية أن يعلم رجل الدعاية المكشوفة ما يقوم به رجل الدعاية الخفية ، وبمعنى آخر لا داعى الى أن تعرف اليد اليمنى ما تفعله اليد اليسرى • ان أحسن طريقة لضمان سلامة عمليات الدعاية السوداء هى عدم الكشف عن وجودها الى أى شخص الا اذا كانت هناك ضرورة تستدعى المعرفة •

ان الدعاية السوداء من العمليات الاخبارية الهامة ، لا لأنها تتخذ المادة الاخبارية ذخيرة لها فحسب ، ولكن لانها كذلك مناورة مستقلة تتم فى جو من السرية والخفاء • وان الدعاية السوداء لا يمكن أن نتعرف على مصدرها الحقيقى ، وهى تتظاهر بأنها تبدأ داخل أراضى العدو أو الاراضى التى يحتلها أو بالقرب منها ، وان الذى يقوم بها عناصر هدامة بين الاعداء • انها نشاط بالغ السرية ذلك لان كشفها يقضى على فائدتها •

ان بريطانيا بصفة خاصة تتمتع بمهارة فائقة فى أعمال الدعاية السوداء • ان أكثر الجهود التى فاقت بها أية دولة نجاحا حتى الآن هى العمليات السرية التى قامت بها الوكالات البريطانية فى أثناء الحرب العالمية الثانية • وكان من أهم هذه العمليات انشاء محطة ارسال سرية اسمها « المذيع السرى رقم ١ » كانت ترسل عليها اذاعات أحد رجال الدعاية الذى اتخذ لنفسه اسم «الزعيم» وكان هذا الزعيم صحفيا بريطانيا اسمه سيفتون ديلمار Sefton Delmer وقد صار واحدا من

رجال الاسرار المبدعين فى الحرب العالمية الثانية عندما اختفى فجأة • وكان زملاؤه يطلقون عليه «اللحية» لانه كان يترك الشعر على جانبى لحيته طويلا . وكان يسمى فى الولايات المتحدة « هنرى الثامن » لانه كان يذكر الناس بذلك الملك • وكانت مهارته محل اعجاب فى جميع أنحاء العالم ، ويعتبر ديلمار فى الوقت الحاضر من أبرز الاخصائيين ممن يزاولون الدعاية السوداء •

وعند الارسال كان ديلمار يدعى أنه من كبار ضباط الجيش الالمانى ممن لهم سجل حافل بالاعمال العظيمة فى الحرب العالمية الاولى . لقد كان يظهر «وطنية» متطرفة ولكنه كان يعارض كل شيء . كان يكره : البريطانيين واليهود والسوفييت والنازى ، وكل شخص فى هذه الدنيا • ان هذا الخليط من الكراهية جعله عنيفا ولكن الجنود كانوا يحبون أن يستمعوا الى شخص يبدو كما لو كان صدى لآلامهم . وكان هناك شيء آخر يجذب المستمعين الى « الزعيم » • لقد كان لا يقيم أى وزن للقيم ولا للاخلاق ولا للاديان • وكان يتلاعب بالالفاظ الخاصة بالجنود ولكن هذه الالفاظ كان يقولها بطريقته الخاصة فكانت تسمع وكأنها ألفاظ التعزيز والتكريم .

وكان الزعيم يذهب الى أبعد ما يمكن لكسب ثقة مستمعيه الالمان ، فقد حدث مرة أن تخير ضابطا ألمانيا معروفا بعدم كفاءته وبأن أخطاءه قد تسببت فى القضاء على احدى الكتائب ، وندد به فى احدى اذاعات هيئة الاذاعة البريطانية العلنية الموجهة الى ألمانيا . وقد علم فيما بعد أن هذا الهجوم كانت له آثاره السيئة على هذا الضابط ، فقد أمرت القيادة الالمانية العليا بالقبض عليه وحاكمته أمام مجلس عسكرى . ولما رأى الزعيم « أن الأمر قد وصل الى هذا الحد قرر أن يتدخل فقام بحملة عنيفة على القيادة العليا الألمانية لأنها تصرفت بناء على اشـــارة من الاذاعة البريطانية، وأخذ يتساءل بحماس قائلا « متى بدأنا نتلقىأوامرنا من هؤلاء البريطانيين الملاعين ؟ » ومن هم هؤلاء البريطانيون وكيف يسمحون لانفسهم بأن يقولوا لنا ما الذى يجب أن نعمله مع ضباطنا ؟ ان هذا الحال اذا استمر فسنجد كل ضباطنا يقدمون الى المحاكمة أمام المحاكم العسكرية ، أليس هذا ما يريده

هؤلاء البريطانيون الملاعين ؟ ان الخطأ من طبيعة البشر أليس كذلك ؟ ان معظم ضباطنا يخطئون من آن لآخر ولا ذنب لهم في ذلك اذا كانت النتيجة هي القضاء على احدى الكتائب ! ان الحرب هي كذلك !

لقد كان هذا « الزعيم » الذى تحرر من جميع القيود والقيم يتحدث فى الاذاعة موجها حديثه الى الالمان بطريقته العابثة المستهترة حاملا اليهم أخبارا مثيرة تخفى بين ثناياها ـ بطريقة ماكرة ـ الدعاية التى يريدها • وكان يتحدث عن أدق تفاصيل حيـاة هتلر الخاصـة ، ويكشف الغطاء عن الخـلافات داخل القيـادة الألمانية العليـا حول بعض خطط العمليـات • وكان يثير الفضـائح والأقاويل • وكان هذا انتصارا للأخبار كدعاية ، وكان هذا يبين امتياز المـادة الاخبارية التى كان « الزعيم » يبنى عليها فضائحه وأقاويله المبتذلة •

وبالرغم من أن الجنود الالمان كانوا يستمعون بانتظام الى الزعيم فانهم لم يساورهم الشك فى أن هذه الاذاعةكانت اذاعة من الاعداء• ومما هو جدير بالذكر أنه حتى يونية عام ١٩٤٢ لم يعرف جهاز المخابرات العسكرية الامريكى بالدليل القاطع أن محطة الاذاعة هذهكانت حيث هى• ولم يطلع البريطانيون أى شخصعلى السر ، ولكن كشفوا هذه العملية الاخبارية المدهشة لاثنين من رجال المخابرات الامريكية حينما واجها البريطانيين بدلائل قاطعة استطاعوا الحصول عليها بعد عملية دقيقة من عمليات المخابرات •

والى جانب الاذاعة كانت الدعاية السوداء تستعمل وسائل أخرى متعددة مثل الصحف السرية التى تقلد فى مظهرها الصحف اليومية المشهورة • ومن الأمثلة المشهورة لهذه الوسيلة الصحيفة التى ظهرت تقليدا لصحيفة « سوار » SOIR الواسعة الانتشار ، وكان البلجيكيون ينشرونها سرا فى أثنـاء الحرب العالمية الثانية • ومن الوسائل الاخرى التى تستعملها الدعاية السوداء تهريب المطبوعات الهدامة الى عناوين معينة عن طريق البريد • وتشمل العمليات الألمانية فى هذا الميدان ارسال خطابات الى الجنود الفرنسيين من قراهم أو مدنهم تؤكد

أن زوجاتهم يرتكبن أعمالا فاحشة • وكان النازى يرسل كميات ضخمة من دعايتهم بهذه الطريقة عن طريق البريد الامريكى ، كما كانت مطبوعات مماثلة ترسل عن طريق البريد اليابانى وكلها كانت ترسل من مصادر سرية •

ان ارسال كميات ضخمة من الرسائل البريدية يتم مع الاعتقاد بأن كثيرا من هذه الرسائل قد لا يصل الى الجهات المرسلة اليها ، وبالرغم من ذلك فان لها فائدتها لأنها تثقل كاهل الرقابة وتعمل على تعطيل البريد العادى ، وهى بهذه الطريقة تؤثر على الروح المعنوية •

ان النشرات السوداء تعتبر ذات فاعلية كبرى عندما تحسن صياغتها ويحسن توزيعها •

ان وسائل الدعاية السوداء متعددة ، ويمثل بعضها خرقا لا مبالاة فيه للقانون الدولى ، ويسبب مضايقة لا حد لها للعدو • ومن هذه الوسائل الجريئة : تزوير العملة والنقد الخاص بالاعداء ، وتزوير بطاقات التموين وأوراق تحقيق الشخصية • واذا لم يكن لهذه العمليات فائدة ، فانها على الأقل تشغل الأجهزة الادارية للأعداء وتعطلها ، كما تشغل رجال الأمن الذين يشغلون فى البحث والاستقصاء • ان أساس هذا ـ كما هو الاساس فى كل أنواع الدعاية السوداء ـ احداث الارتباك فى أجهزة الدولة المعادية •

تقييم الفاعلية :

ليست هناك مشكلة من مشكلات الحرب النفسية أكثر تعقيدا من مشكلة ضرورة القيام بمحاولات من وقت لآخر لتقييم النتائج التى أمكن الحصول عليها من العمليات الدعائية السابقة ، ولكن ليس هناك ما هو أكثر صعوبة من هذا • والواقع أن الانسان اذا كان صادقا كل الصدق فى اجابته ، فانه لا بد من أن يعترف بأنه لا يمكنه أن يثبت أن الدعاية التى تنشر تحقق النتائج المرجوة ، بالرغم من تيسر الوسائل السليمة التى تستطيع أن تحدد مدى فاعلية أعمال الدعاية •

ان مشكلة تحديد مدى الفاعلية تحددها عدة عوامل ، فالعلوم الاجتماعية الحديثة توصلت الى وسائل فنية للتقييم، كما أن لها فائدتها فى تقدير مدى مايصل اليه البرنامج ، ولكن لم يتم التوصل الى نفس المستوى فى الوسائل التى تقيس بطريقة علمية التأثير الذى تحدثه رسالة معينة أو مجموعة من الرســـائل على مجموعة من المستمعين • أى أنه من السهل نسبيا التأكد من المدى الذى يحققه البرنامج، ولكن من الصعب جدا معرفة مدى التأثير الذى وقع على عقلية المستمعين.

وعلى الرغم من ذلك فان الابحاث التى أجريت فى وســائل الاتصــال وفى أبحاث الاسواق ، والتطوير المستمر الذى أدخل عليها أظهر أن كثيرا من هــذه الوسائل مفيدة فى قياس النتائج فى عمليات الأخبار والمعلومات الأجنبية وعمليات الحرب النفسية • واذا كانت النتائج التى أمكن تحقيقها باستخدام احدى الوسائل لا تصل الى درجة كبيرة من الدقة ، فان هذا لا يمنع من استعمال هذه الوســائل بحيث تكون مفيدة ونافعة •

وعند تقييم النتائج فى الحرب النفسية بعكس الحال فى الدراسات التى تمت فى ابحاث الأسواق المحلية ، فان المشكلة ليست مشكلة اختيار بين الوسائل المختلفة ، ولكنها مشكلة استعمال الفطنة والخيال وتحسين تطبيق وسائل البحث المتحدد الأطراف ، وتقدير مدى فاعلية أحد البرامج أو الاعمال الدعائية ، وكذا لتأكيد التأثير المحتمل على المجموعة أو المجموعات التى تتلقى الدعاية •

على أننا نرجو أن نلفت نظر القارىء هنا الى دراستين هامتين فى هذا الكتاب وهما تقييم الدعاية فى أثناء المعارك ، ودور ابحاث الرأى فى تقييم الحرب النفسية ، اذ أنهما يمثلان للقارىء جزءا كبيرا من العقبات التى لابد من التغلب عليها قبل أن نستطيع أن نتأكد من التأثيرات التى يمكن الحصول عليها من أى مجهود محدد •

كما نرجو أن نشير الى أن هذه الدراسات ليست كافية لتغطية الموضوع ، فهناك الكثير من الأبحاث وتجارب الماضى تؤكد أهمية الوسائل الناجحة فى تقييم

النتائج التى يمكن الحصول عليها • وليس هناك ما يوحى بأن جميع الوسائل والتكنيك المفيدة في تقييم العمل قد نوقشت في هذا الفصل •

على أننا من ناحية الوصف يمكن أن نحدد عملية التقييم بأنها تشمل على الأقل ثلاثة أنواع من النشاط :

١ ـ قياس الانتاج ويشمل تحديد مدى كفاية الادوات المستعملة •

٢ ـ تحديد نوع الاستقبال المحتمل لوسائل الدعاية المختلفة المستعملة •

٣ ـ تحديد التأثير الممكن أو المعروف للرسالة أو الحملة أو الخطة الاستراتيجية على المجموعة التى توجه اليها الدعاية ، أو بمعنى آخر تحديد نوع التغييرات التى حدثت فى السلوك والاتجاهات بين المجموعة التى يراد التأثير فيها والتى يمكن ارجاعها لمجهودات الحرب النفسية •

ومن بين أبسط وسائل التقييم المستخدمة فىعمليات الحرب النفسية طريقة تجميع ملخص للانتاج بالنسبة لعدد الوسائل، مثل: النشرات، وصحائف الاخبار، وعدد ساعات الاذاعة ، والافكار التى أمكن تغطيتها • فمثلا فى حالة النشرات وصحائف الاخبار يسجل عدد كل منهما ونوعه ، وفى الصحافة والمطبوعات تسجل الاعداد المتداولة ، وفى الافلام والمعارض الفنية يسجل عدد الاشخاص الذين يشاهدون كلا منها • وبالنسبة للاذاعة وعمليات الارسال يسجل بيان بعدد ساعات الاذاعة وكمية البرامج المختلفة كما لو كانت كمية النشاط نفسها برهانا على الفاعلية •

ويجب ألا يغالى الانسان فى الافتراض بأن لكمية الانتاج أو تنويع البرامج أية علاقة بدرجة الفاعلية أو مداها ، ولكن بالرغم من ذلك فان المشرفين على الدعاية نظرا لأنهم ينقصهم المقاييس العلمية الصحيحة لتحديد مدى الفاعلية ، فقد جعلوا هذه الارقام أول دليل على هذا ، بالرغم من أنه ليست هناك علاقة مباشرة واضحة بين مقدار الدعاية أو كميتها ، والتأثيرات الناتجة بالنسبة لتغيير الاتجاهات ، وأنواع السلوك بين المجموعات التى توجه اليها الدعاية •

ان تجميع المعلومات عن الانتاج هو مجرد وسيلة للاحتفاظ بعمليات ضبط التشغيل والتكنيك ، وهي الاشيـاء التي يسمح تحليلهـا في المستقبـل باجراء دراسات فعالة • ومن الامثلة التي تبين كيفية استعمال عمليات تجميع الانتـاج في دراسات مدى الفاعلية المثال الآتي :

« في أثناء العام الأول من الحملة الكورية كان الأفراد القائمون على عمليات الحرب النفسية فيقيادة الشرق الاقصى بطوكيو بالرغم من قلة عددهم بشكلواضح يحتفظون بسجلات رائعة لعدد كل نشرة صدرت والمكان الذى القيتعليه والوقت الذى القيت فيه • وقد تم خلال الاسابيع الستة الاولى من حملة كوريا طبع عدة ملايين من النشرات ، وتم توزيعها • ومنذ بداية القتال قامأفراد المخابرات ـ وهم أشخاص ليسوا مشتركين اشتراكا مباشرا في عمليات الدعاية ـ باستجوابأسرى كوريا الشمالية عن تأثير دعاية الأمم المتحدة في اقناعهم بالقاء أسلحتهم ليصبحوا أسرى حرب • وقد قرر حوالى ثلث عدد الاسرى الذين تم استجوابهم أن دعاية الامم المتحدة لعبت دورا كبيرا في اغرائهم بالاستسلام • وقد شعر موظفو الحرب النفسية المسئولون عن التخطيط للنشرات وانتاجهـا بكثير من الرضـا لهـذا الاكتشاف ، ولكن ظهر فيما بعد أنهم ضللوا باجابات بعض الاسرى من كوريا الشمالية في عمليات استجوابهم •

ولقد ظل موظفو الحرب النفسية القليلو العدد في « قيادة الشرق الاقصى » طوال شهرى يونية ويولية وفى الاسبوع الاولمن أغسطس سنة١٩٥٠ يعملون بلا توقف • فقد كانت تجهز عدة نشرات وتطبع ، وكانت ملايين النسخ توزع ولكن في كل حالة طوال هذه الفترة الاولى من القتال كانت النشرات توجه الى قوات كوريا الجنوبية والموالين ، ولم توجـه أية نداءات للقوات الشيوعيـة في كوريا الشمالية •

ولم تجهز أول نشرة أعدت خصيصا للجنود في كوريا الشمالية وألقيت عليهم الا بعد الأسبوع السابع من الحملة • وعلى الرغم من ذلك فقد ظهر في أثناء

استجواب أسرى كوريا الشمالية أن حوالى ½ جنودها ممن وقعوا فى الاسر فى هذه الفترة المبكرة قد استجابوا لنداءات دعاية الأمم المتحدة ، وهكذا نسب الى الحرب النفسية فضل لم تكن تستحقه ٠

تقييم دعاية المعارك :

واذا كانت عملية تقييم نشاط الحرب النفسية تعتبر شيئا آخر غير العملية الاخبارية ، فانها على الرغم من ذلك أقل العمليات التى تتوافر لها الامكانيات من بين جميع مظاهر عملية الدعاية ٠ ان هذا صحيح سواء كان الانسان مهتما بالمظهر الاستراتيجى العام لاحدى العمليات ، أو مهتما بالمظاهر التى ترمى للتأثير على قوات العدو عبر الخطوط ٠ ولكننا نجد الشخص المسئول عن الحرب النفسية يسأل دائما السؤال الآتى :

هل للحرب النفسية حقيقة أى تأثير ؟ ٠

الواقع أنه لم يعط التفكير الكافى لمشكلة توفير الاجابات الشافية لوضع اجابة عن هذا السؤال ونحوه ، كما أن مشكلة التقييم لم نعط التفكير اللازم ، وكانت النتيجة أن تأثر برنامج الحرب النفسية ٠

ان لتقييم عمليات الحرب النفسية أهمية ، وذلك لسببين :

أولا : ان المعلومات التى يتم الحصول عليها نتيجة عملية التقييم تعتبر موردا جديدا لقسم المعلومات، لاخطار العاملين وغيرهم عن المدى والوسائل التى أمكن بها التأثير على المجموعة الهدف ٠

ثانيا : ان التقييم القائم على التكنيك الصحيح يمكن القيادة العسكرية أو غيرها من الجهات أن تتأكد بوسائل غير مجرد التخمين من أنه اذا كان من المرغوب فيه أو غير المرغوب عنه الافادة بنسبة مئوية أكبر أو أقل من الموارد المتوافرة من الرجال والمواد فى عمليات الحرب النفسية ٠

الأهداف الكبرى التى يخدمها تقييم البرامج الجارية :

على أن الرجال الذين يقومون بعملية التقييم ويستخدمون تكنيك العلوم الاجتماعية الذى يمكن تطويره لاستعماله فى مناطق القتال ، قد يستطيعون تقديم بعض الأدلة المفيدة التى تفى بالاحتياجات العاجلة المستمرة لمعلومات أكثر فيما يختص بما اذا كان انتاج الدعاية يصل الى الهدف المقصود بالطريقة المطلوبة وبالنتائج المتوقعة .

ان لمادة التقييم من الناحية الكمية والنوعية فائدتها من حيث هى مصدر جديد للأخبار . وهكذا تمكن المادة النافعة القائم بالدعاية من أن يقرر كيف يمكن تحسين برنامج اليوم التالى أكثر من برنامج اليوم السابق .

ومن الأغراض الاخرى التى يخدمها التقييم تلك العملية التى يمكن أن توصف « بالعلاقات العامة » . وعلى سبيل المثال : تعرض مديرو عمليات الدعاية من أعلى المستويات فى واشنطون الى الموظف الذى يعمل نصف الوقت فى عمليات الحرب النفسية مع موظفى احدى الفرق المحاربة من آن لآخر - لهجوم عنيف بسبب نشاطهم الذى يوصف بأنه « مضيعة للوقت ولا فائدة منه » . وقد طلب أعضاء لجان الكونجرس وضباط أركان الحرب فى بعض القيادات العسكرية ممن لايميلون الى الحرب النفسية وغيرهم أدلة على فاعلية هذه الحرب النفسية كشرط ضرورى للموافقة على استمرار تأييدهم لبرامج الحرب النفسية . ولم يكن من المستطاع دائما الرد على اعتراضات النقاد ، ذلك لأنه لم يتحقق الا القليل فيما وصلت اليه هذه الجهود وفى مدى ما حققته من نتائج بطريقة علمية . ومما هو جدير بالذكر أن النقاد والافراد الذين يعملون فى ميدان الدعاية لم يستطيعوا أن يكونوا فهما واضحا لرسالة الدعاية وطبيعة عملياتها .

ولكن كان هناك استنباط بأن ثمة علاقتى سبب ونتيجة بين تأثير الدعاية والاستجابة السلوكية ، ولم تظهر الا أمثلة قليلة ثبت فيها صحة هذا القول وذلك عن طريق استعمال تكنيك العلوم الاجتماعية . وهكذا ، فان كثيرا من المناقشات حول فاعلية الحرب النفسية قام بها بعض المديرين أمام لجان الميزانية أو لجان

الكونجرس ، أو على صورة تقارير شخصية ظهرت فى الصحف أو المجلات أو المذكرات • وكان معظمها يتسم بصبغة العلاقات العامة لمواجهة النقد الذى كان يوجهه الافراد غير المؤمنين باستخدام الحرب النفسية فى تحقيق أهداف قومية أو عسكرية •

صعوبة تكون عملية تقييم علمية يعتمد عليها :

ولقد كانت معظم جهود التقييم فى الماضى ذات قيمة محدودة لأسباب ثلاثة هى :

١ ـ لم يكن لدى الاشخاص المشتركين فى عمليات الدعاية ، ولا الاشخاص القائمين بعملية تقييم نتائج العمليات فهم واضح ثابت لطبيعة هذا النشاط ورسالته •

٢ ـ لا يوجد فى الوقت الحاضر مقياس واضح لمعرفة تأثير الدعاية الا فى مواقف محددة ومحدودة •

٣ ـ وجود عوامل أخرى تعوق نجاح من يقوم بأعمال التقييم لنتائج العمليات التى تتم فى أثناء المعارك •

ونظرا لأهمية هذه العوامل ، فاننا نرى من الأوفق أن نعرض لها بشىء من التفصيل ، حتى تتضح لنا معالم المشكلة •

نقص الفهم الواضح :

ان أولى الضروريات لرجال التقييم لكى يستطيعوا أن يقيسوا مدى فاعلية الحرب النفسية بصفة عامة ، أن يضعوا أمام أعينهم الحقائق التالية :

١ ـ الحرب النفسية لا يحتمل أن تحقق نجاحا يذكر بمفردها لأنها سلاح مساعد •

٢ ـ تأثير الدعاية لايتحقق الا بعد مؤثرات متكررة ، فهى ليست موضوعا بهذه البساطة بحيث يستطيع الانسان أن يوجد التأثير فى صورة نشرة أو نشرتين أو ثلاث ثم يتوقع بعد ذلك أن يحقق نتائج سريعة ٠

٣ ـ لاجدال فى أن حملة تأثير الدعاية السابقة الى جانب الموقف الحربى القائم تعتبر من العوامل الاخرى التى لا تقل أهمية عن الدعاية الحالية فى التأثير على قوات العدو ، لتجعل جنوده تهرب من الميدان أو تتصرف بأى طريقة أخرى يراد الوصول اليها ٠

على أننا نود أن نشير هنا الى اجابة عن سؤال وجه عام ١٩٥٠ الى ضابط أمريكى كان مسئولا عن « راديو سيول » (١) ٠

وقد دلت اجابته على أنه ربما كان لا يميل الى عمله ولا يهتم به ، أو أنه ربما لم يكن يفهم المسئولية الملقاة على عاتقه ٠ ونورد فيما يلى نص الاجابة :

« ان الموظفين الكوريين الذين يعملون فى عمليات الاتصال ليس لديهم مفهوم تام عن ضرورة المواظبة على المواعيد ، كما أن الوطنيين الذين يكتبون للاذاعة والذين يعملون تحت اشرافى يقدمون موضوعات من المفروض أن تذاع فى فترة خمس عشرة دقيقة ، ولكن كان لا يمكن اذاعتها فى أقل من ١٧ أو ١٨ دقيقة ٠ كما أن المذيعين أو المعلقين الذين يجب أن يبدأوا ارسالهم فى الساعة ١٢ ظهرا يبدأون عملهم متأخرين سبع دقائق بعد الميعاد ٠ ونظرا لطول الموضوعات التى تكتب وعدم دقة المواعيد التى يبدأون فيها عملهم ، فانهم غالبا ما كانوا يتأخرون عن موعد الانصراف بحوالى عشر دقائق أو اثنتى عشرة دقيقة ٠ ولذلك فاننى أعتقد ان من أهم واجباتى تدريب هؤلاء الكوريين الجنوبيين من أصدقائى ممن يعملون فى الاذاعة على ضرورة بدء العمليات حسب الميعاد المقرر لها ، والانتهاء منها فى الوقت المحدد لذلك » ٠

---

(١) محطة اذاعة كانت تقوم بعمليات الحرب النفسية التكتيكية التابعة لقيادة الشرق الاقصى الأمريكية ٠

ويقول دانيال ليرنر Daniel Lerner (١) فى تحليله المفصل للحرب النفسية فى المسرح الاوروبى فى الحرب العالميه الثانية أنه وجد عددا كبيرا من الاشخاص لديهم خبرة فى الدعاية فى هذه المنطقة • ومن بين الأسئلة التى كان يسالها لهم « ما رأيك فى رسالة الحرب النفسية أو مهمتها فى أوروبا فى أثنا الحرب العالمية الثانية ؟ » وقد تلقى ٢٩ اجابة معقولة تحتوى على ٥٦ واجبا منفصلا ونضعها أمام القارىء فى الجدول التالى :

جدول استفتاء لتحديد أهداف الحرب النفسية

مسرح العمليات الأوروبى فى الحرب العالمية الثانية

الأهداف	عدد من ذكرها
اضعاف رغبة العدو فى المقاومة	١٣
القضاء على رغبة العدو فى المقاومة . . .	٦
تحطيم رغبة العدو فى المقاومة	٤
القضاء على رغبة العدو فى النصر . . .	١
الاغراء على الاستسلام	٨
تقصير الحرب	٦
تشجيع المقاومة فى المناطق التى يحتلها العدو . .	٦
وضع الاساس لسلام عادل	٣
القضاء على مركز حكومة النازى	٢
اظهار أهداف الحلفاء ومثلهم بوضوح . . .	٢
تسهيل التعامل مع العدو عندما يستسلم . .	٢
تأييد الحملة العسكرية	٢
السيطرة على السكان فى المناطق التى يحتلها العدو .	١
المجموع	٥٦

(١) Daniel Lerner, Sykewar: Psychological Warfare Against Germany, D - Day to VE - Day, George W. Stewart Publisher, Inc., New York 1949, P. 303 FF.

ويبدو أن ليرنر افترض افتراضا أو أكثر عندما سأل أسئلته ، وكانت افتراضاته قائمة على أساس خاطىء. لقد كان السؤال يوحي بأن هناك هدفا واحدا أو على الاقل هدفا واحدا أساسيا للحرب النفسية فى مسرح العمليات الاوروبية ، ولكن هذا الافتراض لا يمكن أن يكون دقيقا الا اذا كان قائما على قاعدة عريضة مثل « المساعدة فى كسب الحرب » والسلام . كما أن السؤال يعنى أن الانسان يستطيع أن يقدر نتائج الدعاية التى تنشر فى أثناء المعارك وغيرها من وسائل الحرب النفسية بصفة عامة دون اشارة محددة للأهداف المعروفة ، ومثل هذا التصرف لا يؤدى الى أى نتائج نافعة .

أهمية السجلات الدقيقة :

على أن طبيعة السجلات الرسمية للاحداث الماضية غالبا ما كانت تترك كثيرا من الشكوك فى عقول القائمين بعمليات التقييم نحو الهدف الذى يحتمل أن تحققه دعاية معينة ، ولذا فانه لاغراض التقييم لابد من وجود السجلات الدقيقة التى توضح الامور التالية :

١ ـ ماذا حدث بعد الدعاية ؟

٢ ـ ما أنواع النشاط الاخرى التى كان من الممكن أن تؤثر فى النتائج ؟

٣ ـ طبيعة الهدف الذى يهاجم ، هل كانت روحه المعنوية عالية أو هابطة ؟

٤ ـ طبيعة الأرض .

٥ ـ طبيعة الاحوال الجوية .

٦ ـ درجة دقة الأخبار المتعلقة بالهدف .

ان كل هذه العوامل مجتمعة او بعضها من الممكن أن تؤثر على درجة النجاح الذى تحقق فى عملية معينة ، ولكى يكون هناك تقييم علمى له معناه لنشاط

الحرب النفسية أو عمل من أعمالها فانه لا بد من أن يكون للانسان فكرة سليمة وفهم واضح للغرض المطلوب الذى يرمى اليه رجل الدعاية ، كما أن التقييم لابد من أن يكون فى ضوء أهداف محددة ليست عامة ، كذلك لابد لتقارير العمليات المباشرة والمساعدة من أن تحتفظ بتفاصيل لا تترك مجالا للشك فى عقول القائمين بالتقييم نحو ما كان يراد تحقيقه وما حدث فعلا • ولكن حتى الآن لم يعط الاهتمام الكافى لضرورة الاحتفاظ بمثل هذه المعلومات التى تمكن من القيام بعملية تقييم علمية •

المعايير اللازمة لقياس النتائج :

من المتفق عليه بصفة عامة أن للتقييم فى عمليات الحرب النفسية مظهرين كبيرين • أولا : لابد من تحديد ما اذا كان الهدف المطلوب قد تحقق بالقوة والثبات المطلوبين ، وأخيرا : لابد من التأكد من مدى تأثير هذه الجهود على الافراد أو الجماعات التى تخاطب •

ان رجال الدعاية وأفراد العلوم الاجتماعية المتخصصين لعمليات الحرب النفسية لم يتوصلوا بعد الى تكوين معايير علمية لتقييم نتائج الحرب النفسية • وهذا شىء لابد منه فى موقف لا يتوافر فيه الفهم أو الاتفاق حول الاهداف التى يراد تحقيقها • وحتى اذا كان هناك اتفاق حول رسالة الحرب النفسية فهناك صعوبات كامنة حول اقامة معايير مقبولة لقياس النتائج أو تقييم التأثيرات •

وقد أشرنا فى مجالات كثيرة من هذا الكتاب الى أن الافراد المشتغلين بالعلوم الاجتماعية ممن حاولوا تقييم نتائج الحرب النفسية يفضلون استخدام وسائل القياس الكمى • وكثيرا ما كان رجال الدعاية أنفسهم يعتمدون على ابراز أرقام ضخمة بخصوص الانتاج مثل عدد النشرات المطبوعة التى وزعت وعدد برامج الاذاعة وساعات الارسال ومجموع الوقت الذى استنفد فى الاذاعة بمكبرات الصوت على خطوط الجبهة كما لو كانت هناك علاقة بين كمية الانتاج والنتائج التى أمكن الحصول عليها •

ورغم أن قدرا كبيرا من الدعاية فى الماضى كان يوجه لاغراء جنود الاعداء على الاستسلام ، بالاضافة الى أن من الامور السهلة نسبيا سرد عدد الجنود الذين استسلموا فى فترة معينة ، فلم يكن سهلا اكتشاف دوافع معينة فى سلوك جنـود العدو • وحتى أسرى الحرب قد لا يمكنهم أن يصفوا بدقة السبب الذى جعلهم يتصرفون بطريقة خاصة • فمثلا ليس هناك من يستطيع أن يجزم بأن أحد جنود العدو استسلم بسبب رسالة فى احدى النشرات ، وليس بسبب الجوع وقلة الذخيرة ، أو لأنه قد سئم الحرب •

ان المادة الخام التى تستعمل فى التقييم لابد من أن تأتى نسبة كبيرة منها من أسرى الحرب أنفسهم من الاجابات التى يدلون بها عند استجوابهم والتحـدث اليهم ومناقشتهم • وبصرف النظر عن الوسائل المستعملة فى تحليل المادة أو المعلومات فان النتائج لا يمكن أن تكون أكثر صحة من الاجابات التى يتم الحصول عليها من الأسرى ثم تدخل فى التحليل • وهناك عوامل متداخلة فى مواقف القتال بحيث يمكن أن يكون لها تأثير مضاد على المادة أو المعلومات التى تجمع لتحليلها •

وبالرغم من أنه لاتوجد طريقه سهلة أو معتمدة للحصول على تقييم صحيح ومضبوط يبين دقة نشر الدعاية ، فان المشكلة تثير مصاعب أقل من المصاعب التى يقابلها الاشخاص الذين يحاولون قياس تأثير احدى الرسائل ، أو مجموعة من الرسائل، أو غير ذلك من أعمال الحرب النفسية على الآراء وعلى سلوك المجموعة التى يراد التأثير عليها • ويزيد من هذه الصعوبة ظروف العمـل فى مناطق القتال وقت النزاع المسلح •

ولقد استخدم أسرى الحرب فى عمليات التقييم بثلاث طرق رئيسية :

أ ـ للحصول منهم على معلومات (كمية) عن طريق الاستفتاءات الشفهية والمكتوبة التى صيغت بطريقة خاصة لضمان الحصول على أشيـاء معينة •

ب ـ للحصول على معلومات ذات صبغة نوعية أو ذاتية يتم الحصول عليها عادة من مجموعة مختارة من أسرى الحرب عن طريق المقـابلات الشخصية ٠

جـ ـ عن طريق تقارير صيغت بعناية لمناقشات أسرى الحرب ، حيث كان يوجه انتباه الشخص الذى يسأل الى نقط معينة لهـا أهميتهـا بالنسبة للأفراد الذين يقومون بأعمال الحرب النفسية ٠

وعند استخدام أسرى الحرب للحصول على معلومات كمية كان التكنيك المستعمل فى الولايات المتحدة وغيرها من الدول الغربية لقياس الرأى العام هو نفس التكنيك الذى استخدم فى الحرب ٠ وقد وصف ليرنر الأعداد الضخمة من أسرى الحرب الالمان فى أوروبا فى الحرب العالمية الثانية الذين أمكن استجوابهم بواسطة أجهزة الحلفاء بأنها « أعداد خيالية » ٠ ان التحليل الكمى للاستجوابات يتطلب عينة كبيرة متجانسة فى ناحية واحدة على الأقل ٠

ولقد سبق أن ناقشنا فى الفصل السابق مسألة مدى تمثيل أسرى الحرب لقوات العدو التى لا تزال مشتركة فى القتال ، ولكن مما لا شك فيه أن هنـاك أوجه شبه كثيرة مشتركة بين أسرى الحرب وقوات العدو مثل التراث الثقافى والآمال الوطنية واللغة ٠ أن الفرق الهام بينهما ـ وهو الفرق الذى يجب أن يعمل له حساب فى تحليل ردودهم ـ هو أن الاسرى حسب طبيعة وضعهم فى الاسر يقلقهم نوع من المشـكلات مختلف عن مشـكلات جنود العـدو الذين لا يزالون مشتركين فى القتال ٠ ان هذه الحقيقة وهى تعتمد على الظروف والثقـافة قد تشكل بطريقة شعـورية أو لا شعـورية الردود التى تعطى فى أثناء المقابلات الشخصية أو الاستجوابات ٠

أن أسرى الحرب يمكن أن يستجيبوا لأغراض الحرب النفسية فى الساعات الاولى لأسرهم ، فهناك أنواع أخرى من النشاط لها أولوية واضحة ومنطقية فى جمع الاخبار ٠ وهكذا فانه ليس غريبا أن يستجوب الاسرى عن الامور المتعلقة

بالحرب النفسيه فى المعتقلات بعد مرور أيام أو أسابيع من وقوعهمفى الاسر ، وهذا يمكنهم من أن يشكلوا سلوكهم بطريقـة تظهرهم أمام الآخرين فى صـورة مقبولة بالنسبة لتراثهم الثقافى • وحتى فى أحسن الظروف ومع الاسرى الذين تتسم نواياهم بالصدق فانه لا ينتظر منهم أن يعطوا أى قدر من الاهمية للعوامل المختلفة التى كانت تتحكم فى تصرفاتهم وتوجيهها •

وفى الحرب العالمية الثانية كان من الاشيـاء العـادية أن يسـأل رجال الاستجواب الاسرى اليابانيين ان يصفوا لهم الطريقة التى وقعوا بها فى الاسر • ولقد وصفوا جميعا كيف أنهم خدعوا أو وقعوا فى الأسر وهم نيام وبدون أن يكون لديهم فرصة أو وسيلة للانتحار • أما فى المواقع الخلفية فكانوا كثـيرا ما يقررون أنهم وقعوا فى الاسر على غير رغبة منهم وفى ظروف لا حيلة لهم فيها • وكان من النادر أن تتفق هذه التقارير مع التقارير التى كانت تصدرها الوحدات التى قامت بعملية الأسر • وكان هذا الخلاف يرجع الى أن الجندى اليابانى كان يظهر السلوك بطريقة تجعله يتناسب مع طبيعة السلوك الذى ينتظر من مواطن يابانى •

وبالرغم من أن استخدام أسرى الحرب لأغراض الاستجواب قد تكون له فائدته ، فان استخدامهم دون بعد نظر كاف ، أو مراعاة للاعتبارات الثقافية لهم قد يؤدى الى نتائج سيئة •

وكما هو الحال بالنسبة لجميع الامور المتعلقة بالحرب النفسية وبالنسبة للاستجوابات ، فان أعظم نجاح يمكن أن يحققه أولئك الذين يقومون بالاستجواب يبرز من بين أولئك الذين كان لديهم أكبر قدر من المعلومات عن المجموعة التى يراد التأثير فيها أو لديهم اهتمام بشأنها •

ومن الخطر اصدار أحكام عامة عن أحسن الطرق التى يمكن للانسان أن يتبعها بالنسبة لثقافة أو أخرى لتحقيق أحسن النتائج فيما يختص باستجواب الاسرى • ان الاجراءات التى قد تنجح تحت ظروف معينة مع مجموعة معينة قد لا تنجح مع مجموعة أخرى مختلفة الثقافة •

وعموما فهناك اتفاق فى الرأى على أن الاسرى الذين يجرى تنظيمهم على هيئة مجموعات متعاونة للمناقشة تكون لهم فاعليتهم فى أى منظمة للحرب النفسية • وبهذه الصورة يمكن تشجيعهم جماعيا وفرديا لمناقشة فائدة طرق الدعاية المختلفة ومدى فاعلية الوسائل المختلفة •

ومن السهل نسبيا تحديد مدى تأثير مجموعة من البرامج أو عمليات الدعاية ، ولكن لا يوجد حتى الآن الا وسائل قليلة يمكن الاعتماد عليها علميا لقياس التأثير الذى يظهر على مجموعة من الاشخاص نتيجة تعرضهم للدعاية • والحق أن التقييم يقوم على الحكم الناتج عن الخبرة أكثر من قيامه على القياس العلمى •

تحديد ظروف القتال :

هناك ظروف كثيرة فى مواقف القتال تجعل من الصعب استخدام وسائل العلوم الاجتماعية لقياس فاعلية الدعاية التى تحدث فى أثناء المعارك ، فهناك دائما حد أقصى تفرضه الاعتبارات العسكرية يحدد عدد الافراد الذين يمكن ضمهم لاحدى العمليات العسكرية للقيام بأعمال خاصة •

كما أن استخدام وسائل قياس الرأى العام يتطلب قدرا من التدريب المتخصص لابد من توافره فى الافراد الذين يقومون به ، وهذا مالا يتوافر فى أنظمة الجيش • ولكن ليس هناك احتمال كبير فى أن يتوافر الشخص ذو التدريب الكافى والخبرة اللازمة للقيام بأعمال التقييم فى الفرق العسكرية عند اللزوم •

وحتى اذا عين مثل هذا الشخص الذى يتمتع بهذه المميزات للقيام بهذا العمل ، فان الاعتبارات الخاصة ـ مثل ضرورة الحصول على اجابة تقريبية عن عمليات الغد بدلا من الانتظار للحصول على اجابة أكثر دقة فى الاسبوع التالى عندما يكون الموقف الحربى قد تغير ـ تقضى على كثير من الوسائل والتكنيك المتبع فى التحليل الذى يستخدم فى وسائل الاعلان الحديثة وعمليات قياس

الرأي العام ، واذا كان الموقف على ما أوضحناه ، واذا كان تطور العلوم الاجتماعية الحديثة خاليا من الوسائل المفيدة التي يمكن استعمالها في مناطق المعارك لقياس الفاعلية ــ فكيف استطاع رجال الدعاية في الحرب العالمية الثانية وفي غيرها من من عمليات القتال أن يتأكدوا مما اذا كانوا يصيبون الهدف المطلوب ، واذا كانوا يصيبونه فما النتيجة ؟ ليست هناك اجابة واحدة عن ذلك ولكن هناك اجابة جيدة كتبها مارتن هيرز Martin Herz (١) وهو من أقدر كتاب النشرات في الحرب العالمية الثانية • ويتحدث في التقرير التالى عن الخبرة التى اكتسبها في أوروبا :

« كيف يمكن الحكم على الفاعلية ؟ »

ومن المعقول جدا أن يسأل كيف أمكن أن يعرف في أثناء الحرب العالمية الاخيرة ما اذا كانت النشرات التى تنشر في أثناء المعارك ناجحة أم غير ناجحة • ان الضابط المختص باخبار الحرب النفسية لا يمكنه الا في أندر الظروف أن يلاحظ في أثناء المعركة سلوك وحدات العدو التى ألقيت عليها نشرات معينة •

« ان الدلائل على الفاعلية أو عدم وجودها قد أمكن الحصول عليها من المصادر الآتية :

١ ــ عدد النشرات التى وجدت مع الأسرى •

٢ ــ تذكر الأسرى لفحوى النشرات وتعليقهم عليها •

٣ ــ مناقشات الجنود التفصيلية خلف الخطوط الالمانية كما جاء في التقارير الجماعية للاسرى •

٤ ــ الوصف التفصيلي للجنود عن استسلامهم •

---

(١) Martin Herz, « Some Psychological Lessons From Leaflet Propaganda in World War II. » Public Opinion Quarterly, 13 : 472-73 (1949) .

٥ ــ اهتمام الدعاية الالمانية المضادة بنشرات خاصة من نشرات الحلفاء بما فى ذلك ما تستعيره دعاية الالمان من أفكار ٠

٦ ــ تعليقات قيادة الأعداء عن الروح المعنوية للجنود وهى التعليقات التى وجدت فى الوثائق التى أمكن الحصول عليها ٠

« وفى بعض الحالات التى رئى فيها ضرورة الاستمرار فى نشر نشرة معينة كان من الممكن استعمال رد الفعل لدى الجنود لزيادة فاعلية النشرة كما فى حالة نشرة « المرور الآمن » المشهورة التى صدرت الطبعة الاولى منها فى الأيام الأولى بعد غزو نورماندى وعليها ختم الولايات المتحدة والشعار الملكى البريطانى وبها نص باللغة الانجليزية واللغة الالمانية يطلب الى جنود الحلفاء عند الخطوط الامامية أن يعاملوا أسراهم معاملة طيبة ٠ وعندما طبعت الطبعة السادسة من النشرة كان قد ادخلت عليها التغيرات التالية نتيجة للمقابلات والاحاديث مع أسرى الحرب :

١ ــ وضع النص الالمانى فوق النص الانجليزى ٠

٢ ــ أضيفت ملحوظة تقول: ان النص الانجليزى هو ترجمة للنص الالمانى.

٣ ــ أضيف للنشرة توقيع الجنرال أيزنهاور ٠

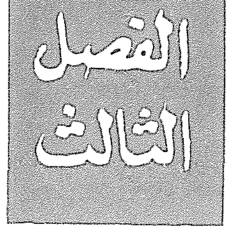
٤ ــ كتب اسم ايزنهاور بالحروف وكتابة لأنه عرف أن الالمان لم يكونوا يعرفون أن التوقيع المذكور هو توقيع ايزنهاور ٠

٥ ــ طبعت النشرة باللون الأحمر بدلا من اللون الأخضر مما جعلها أكثر وضوحا وهى ملقاة على الارض ٠

٦ ــ أضيفت ملاحظة تحت عبارة « المرور الآمن » تشير الى أن الوثيقة صالحة « لفرد أو لأكثر ممن يحملونها » ٠

وقد نتجت هذه التحسينات من الفحص المستمر لفاعلية المنشور » ٠

وهكذا ، كما يظهر من قراءة خاتمة الموضوع الذى كتبه هيرز فان معظم عمليات التقييم المفيدة التى تمت فى أثناء الصراع الأوروبى كان من النوع الكيفى لا الكمى • ان رجال التقييم القلائل الذين أرسلوا الى الميدان خصيصا لتقييم النتائج كانوا يميلون الى الاهتمام بجمع المعلومات الكمية • وبالرغم من ذلك فانه نظرا للظروف الخاصة لمنطقة القتال ـ وهى الظروف التى تحد من القدرة على جمع المعلومات وتحليلها علميـا ـ فـانه لابد من زيادة الاعتمـاد على التقييم النوعى أو الكيفى، ولو أن لهذا التقييم عيوبه• وكما هو الحال بالنسبة لتقييم برامج الاخبار الاستراتجية فان تقييم الدعاية التى تنشر فى أثناء المعارك صعب ، فليس هناك الا القليل يمكن عمله لقياس التأثير غير الاستمرار فى الاعتماد على الأدلة غير المباشرة وغير العلمية • وعلى كل حال فمن المعتقد أن لمثل هذه الدلائل قيمة كبيرة . ان مثل هذا التقييم يعطى نقطة للبداية يمكن أن ترتكز عليها العمليات التالية والابحاث التى يدخل فيها استعمال الحرب النفسية فى العمليات التكتيكية •



دور بحوث الرأى
فى تقييم الحرب النفسية

على الرغم من الدور الكبير الذى أسهمت به بحوث الرأى فى تقييم الدعاية الاستراتيجية ، فانه لا تزال هناك بعض الصعاب يتحتم التغلب عليها •

وفى هذا الفصل سنحاول عرض دور بحوث الرأى فى تقييم الحرب النفسية. وابراز الاسهامات التى اضطلعت بهـا ، وما عجزت عن تحقيقه ، والاسـاليب المقترحة لعلاج ذلك •

دور بحوث الاتصالات فى تقييم الاذاعة الدولية :

يعهد عادة الى الاجهزة التى تقوم بدراسـة البرامج ، بمهمة تقييم جميع مراحل عملية الاتصال ابتداء من عمليات الانتاج الاذاعى الى بيان أثر الاذاعة على المستمعين •

وفى لغة بحوث الاتصالات ، نستطيع أن نقول أن هذا العمل هو تقييم عملية الاتصال التى تحاول بها احدى الوسائل العاملة فى بلد ما ابلاغ رسائلها الى الجماهير المستمعين فى معظم أنحاء العالم •

ان المشكلات والاساليب فى هذا المجال ، تشبه فى كثير من جوانبها المشكلات والاساليب المعروفة التى تحدد العمل اليومى فى بحوث الاتصال الداخلى، أى العمل

اليومى فى أحد أقسام البحوث التى تعمل فى تقييم أثر برامج الدولة اليومية المتعددة .

الا أن المشكلات المختلفة فى الاذاعات الدولية تظهر نتيجة لاشراف الحكومات على الاتصال ، وتوجيهه الى البلاد الاجنبية .

ان تقييم الاذاعة الدولية يشترك مع كل بحوث الاتصال الاخرى فى اسلوب عام وفى هدف نظرى عام كذلك .

والهدف النهائى ، مثله مثل كل الاهداف النهائية، عسير المنال على الارجح، اذ يتضمنه الوصف المعروف الذى وضعه لاسويل لبحوث الاتصالات ، فيقول : « ثمة عملية تحليل لأربعة أشياء : الناقل WHO ، والمادة المنقولة، Says What والمنقولة اليه To Whom ، ومدى التأثير With What effect .

ان النجاح النهائى لبحث الاتصالات لابد أن يتضمن القدرة على اجابة هذه الأسئلة بدقة لا بالنسبة لحالة اتصال قائمة فحسب ، بل كذلك بالنسبة لاى حالة منظورة أو مرغوب فيها .

فرجل الحرب النفسية لن يحتاج الى أكثر من أن يحدد للباحث الآثار التى يريدها ، أما البـاحث الذى لا يزيد عن متخصص فنى فانه يعمل على صياغة الرياضيات ليحدد بالتالى المضمون الدقيق الذى سينشر من خلال رسائل محددة الى جمهور محدد لتحقيق النتائج أو الآثار المرغوب فيها .

وفى الممارسة اليومية ، يمكن الاجابة عن الاسئلة الخاصة بالعناصر التى ذكرناها جزئيا وبشروط خاصة ، ولكن تتعذر الاجابة عن سؤال منها بدقة كاملة، أو يصعب تحديد العلاقة بين العناصر من زاوية السببية الضرورية أو الكافية .

عنصر الناقل The Element of Who :

عادة ما يحذف السؤال الخاص بتحديد المتحدث ـ فى معرض تقييم الاذاعة الدولية ـ من مهمة الذين يتولون عملية التقييم أو عملهم ، وذلك لأن المتحدثين أنفسهم هم الذين ينظمون عملية التقييم هذه . ومن ثم فان سؤال تحديد المتحدث، لا يدخل فى اختصاص الهيئات الحكومية التى تشتغل بأبحاث الاتصالات فعلا .

عنصر المضمون The Element of Content :

يمكن الاجابة عن السؤال الخاص بالمادة المنقولة ، اجابة تفصيلية بواسطة تحليل المضمون .

وليست الحاجة كبيرة الى عرض امكانيات تحليل المضمون ، ويدرك الباحثون فى الرأى ادراكا تاما أن تحليل المضمون فى أيدى المتخصصين المدربين ، يمكن أن يصف مادة معينة مثل الاذاعة فى ضوء أى جوانب تكون هى نفسها قابلة للوصف بواسطة المعايير الموضوعية .

ولبحوث تحليل المضمون فوائد قيمة ، وفى معظم الدول الكبيرة بل المتوسطة يوضع انتاج الاذاعات الخارجية بكل اللغات خلال فترة زمنية ـ ولتكن اسبوعا مثلا ـ موضع تحليل المضمون ، ويستطيع بذلك مخرجو البرامج فى « الاذاعات الدولية » ، من أن يتحققوا من كيفية تنفيذ سياستهم ، اذ يمكن مقارنة البرامج بعضها بالبعض الآخر ، وكذلك مقارنتها بالاذاعات المنبعثة من بلاد أخرى .

ولبحوث تحليل المضمون قيمة اضافية وهامة هى توضيح معايير العمل الحقيقية التى تصاغ على أساسها النصوص والبرامج Scripts and Programming .

ولقد سبق أن أشرنا الى دراسات تحليل المضمون فى الفصل الأول من هذا الباب ، ونشير هنا الى أن الاختلافات فى أسلوب المناقشة والجدل كانت ماثلة فى الاذاعات الموجهة الى البلاد المختلفة ٠

لقد كانت هذه الاختلافات، تعكس فى جزء منها الاحتياجات المختلفة بالفعل، والتى ينطوى عليها الوصول الى مختلف المستمعين والاحتفاظ بهم ، ولكن هذه الاختلافات تمثل ـ فى جزء منها ـ ميولا أو أهواء عشوائية نحو أساليب معينة فى الجدل والمناقشة ٠

ونتيجة لتحليلات المضمون ، يمكن ادراك هذه الميول والاهواء وابعادها عن الاذاعات حيث وجدت ٠

أما التحليل الكمى للمضمون ، فانه لم يعالج بنجاح حتى الآن سوى أجزاء من الاذاعة منفردة كانت أو فى تكوينات عديدة ، الا أن ذلك النجاح لم يتعد أجزاء معينة ٠

وثمة تحد للتحليل يكمن فى ضرورة رصد الاوصاف الدقيقة الموضوعية لجوانب المضمون التى لا تقبل الوصف الكمى بالرغم من أهميتها الواضحة ٠

وفضلا عن ذلك ، فليس ثمة تحليل للمضمون ـ سواء كان كميا أو نوعيا ـ يمكن أداؤه مع التأكد الحقيقى بأن المكونات التى يبرزها التحليل هى بالضرورة العناصر الضمنية Contextual elements التى ترتبط ارتباطا سببيا بأى تأثير ملحوظ أو مرغوب فيه على المستمعين ٠

فاذا كان هناك ـ على سبيل المثال ـ تعليق سياسى موضع انتقاد بوصفه بعيدا عن العاطفة أو الانفعال بعض الشىء ، فلن نستطيع التأكد مما اذا كان رد فعل المستمع نتج عن بعد « المادة » كثيرا عن اهتماماته أو مصالحه المباشرة ، أو أن الاهتمام ركز أكثر من اللازم على المشكلات الدولية القائمة دون أن يوجه

بنفس القدر الى الامل فى عالم أفضل ، أو أن رد فعل المستمع كان ناتجا عن نوع من « الاصطلاح أو القول » الذى لا يشك فيه المحلل أدنى شك، وكذلك لا يشك فيه المستمعون ٠

وقصارى القول ، أن الوصف الكامل للمضمون فى اطار عناصر الاتصالات المتصلة بها لا يمكن أن يتحقق الا حين ينجز تحليل المضمون أو أى اسلوب آخر شيئين يعتبران فى الوقت الحالى متجاوزين لامكانياته الظاهرة ألا وهما :

١ ـ أن يستطيع وصف الجوانب غير الملموسة حاليا فى المضمون ٠

٢ ـ وأن يستطيع الربط بطريقة منهجية لا بطريقة التجربة والخطأ ، بين مضمون معين أو عناصر معينة، وبين الآثار الملموسة أو المنظورة .

عنصر المستمع The Element of Audience :

ويمكن لبحوث الرأى أن توفر فعلا للمشتغلين بالحرب النفسية قدرا عظيما من المعلومات المفيدة القيمة ، بيد أن هناك معلومات كثيرة يريدها رؤساء أركان الحرب النفسية تقصر بحوث الرأى عن تزويدهم بها ٠

ونجد غالبا فى الجانب الدائن من الحساب ، كل المعلومات التى يمكن لاساليب الاستفتاء الدقيقة أن توفرها ٠ فاذا أمكن مثلا تحديد عينة تمثل السكان والاتصال بهم ، فان هذه الوسيلة تنجح غالبا فى أن توضح بدقة كبيرة الحجم الطبيعة الاجتماعية والاقتصادية لجمهور المستمعين ٠

ويبدو أن الاستقصاءات المرسومة بعناية أو الاساليب المشابهة لها ، بما فى ذلك المقابلات ، قادرة على توفير معلومات كثيرة عن قنوات الاتصال غير الرسمية ، وعن نوع المادة التى تناقش على نطاق واسع ، وربما عن سرعة الانتشار والذيوع ودقتهما ٠

كما أن الاساليب المماثلة ، المخططة أو الموجهة بالتعاون مع علماء الاجناس البشرية وخبراء المنطقة الهدف، يمكنها أن توفر معلومات عن الرموز الفعالة والقيم السائدة بين المستمعين ، وكل هذه المعلومات ذات قيمة لا تقدر بالنسبة لكل من يعمل بالحرب النفسية •

ولقد قام رجال التقييم فى مكتب الاذاعة الدولى بالولايات المتحدة باجراء استقصاءات عادية فى بلاد عديدة هى : النمسا ، ألمانيا ، فرنسا ، ايطاليا ، النرويج ، السويد ، فنلندا ، شيلى ، وأروجواى ، ولكن رجال الحرب النفسية يريدون معلومات مماثلة عن جميع دول العالم • ان رغبتهم هذه تطرح تحديا جديد أمام علم الاجتماع ، لان جزءا كبيرا من الكرة الارضية ليس ميسورا سهلا لاجراء البحوث المنهجية فيه •

وعلى سبيل المثال هناك بلاد كثيرة ، لا يزال فيها علم الاجتماع الكمى : اما أنه غير معروف على الاطلاق ، واما أنه لا يزال يحبو فى مدارجه الاولى •

وفى مثل هذا البلد ، نجد أن الافتقار الى البيانات الاحصائية أو الخاصة بالتعداد لا توفر الا معلومات قليلة ناقصة عن خصائص السكان ، بحيث يتعذر تحديد عينة تمثل السكان كلهم • وفضلا عن ذلك فان أى مقابلة علنية منهجية تعتبر أمرا غريبا ، وينظر اليها بعين الشك والاستغراب بل الكراهية بحيث تكون البيانات التى يحصل عليها من أى عمليات مسح علنى موضع شك ، أو ينظر اليها بحذر شديد •

ونتيجة لذلك نجح « مكتب الاذاعة الدولية » فى الولايات المتحدة فى استخدام ما يمكن أن يسمى « منهجا انثروبولوجيا مشاركا » ، اذ درست عادات الاتصال للسكان على يد مراقبين مدربين تدريبا خاصا فى اطار الانماط العامة للثقافة ، والانماط العامة للمعيشة اليومية •

ولقد أتى هذا الاتجاه العريض فى البحث بنتائج طيبة للغاية • ويتجه المرء للاعتقاد بأن المناهج الجامعية المعدة اعدادا دقيقا والتى تتيح التدريب فى مجموعة

كبيرة من العلوم الاجتماعية ، يمكن أن تخرج باحثين فى الرأى ذوى سعة فى الأفق والخيال وكفاءة فنية يندر وجودهم اليوم ·

ومن التحديات الاخرى المطروحة على علماء الاجتماع ، مشكلة اعداد السكان الهائلة الذين يتعذر سياسيا اجراء استقصاء منهجى عليهم·وتنشأ هذه الصعوبة بطبيعة الحال كلما وجد التوتر بين أمتين أو بين مجموعات من الأمم ، ومؤدى ذلك القول : ان هذه الشعوب عسيرة المنال ، أو الوصول اليها سياسيا صعب عسير .

أن الحصول على معلومات عن سكان يتعذر اجراء البحوث عليهم يعتبر مشكلة جديدة ، وهذه المشكلة تظهر الآن بوصفها تحديا لعلماء الاجتماع · ان صياغة المشكلة فى حد ذاتها توحى باسلوبين أو بمنهجين على الاقل يستحقان البحث ، ولكن قبل تحديد هذين المنهجين يحسن أن نلاحظ كيف تظهر المشكلة من جديد حين تحاول بحوث الاتصال الاجابة عن أكبر سؤال ينطوى عليه تقييم الحرب النفسية ، ذلك هو بطبيعة الحال السؤال الخاص بالتأثير وهو : ماذا ينتظر أن تفعله ذخيرة الاتصال بالنسبة للمستمعين ؟

مسألة التأثير The Question of Effect :

ولعله من الادق هنا أن نتكلم عن ردود الافعال ، وعن الرأى المتغير على نحو يمكن تحديده وتعريفه ·

وفى اقتفاء ردود الافعال هذه أو تتبعها نرى أن أدوات بحوث الرأى المألوفة ذات فائدة عظمى ، اذ أن اختبارات البرامج وجهاز تحليل البرامج ، وجداول المواقف والاتجاهات ، وتحليل الصفات الكامنة الموضوعة أحيانا فى اطار التجارب المحكومة مع المجموعات المتكافئة المستمدة من عينات سكانية مرتبة أفقيا ـ كل هذه الاساليب أتاحت ـ بطبيعة الحال ـ كنزا من المعلومات لرجال الحرب النفسية ·

ويكفينا هنا الاشارة الى المشكلات القديمة ، فهناك على سبيل المثال ، الصعوبة المألوفة عن ربط العلة بالنتيجة · فازاء حقيقة معينة لابد أن نبحث

مثلا الامتزاج بين : المضمون ، والموقف الاجتماعى النفسى ، وكذلك الظروف التى يمكن فى ظلها تكرار التأثير أو منعه ، وما التطور المحتمل مثلا خلال ثلاثة شهور مقبلة أو أربعة • ثم هناك بعد هذا المشكلات المألوفة التى يستطيع الباحثون فى الاتصال أن يذكروها ، ولكن تقييم الاذاعة الدولية ـ ولا سيما الاذاعة السياسية فى المضمون والغرض ـ تنطوى على تحديات جديدة •

أما الصعوبة الأولى الخاصة بتحديد التأثير فانها تظهر فى التعقيد الذى ينفرد به نوع التأثير الذى نهتم به • فاذا كنا نتردد فى الحديث حديثا مطلقا عن تأثير اعلان معين لنوع معين من السلع الاستهلاكية فانه لابد من أن يكون ترددنا أكبر كثيرا منه حين نتحدث عن المواد المعقدة الخاصة بالاتجاهات السياسية الشخصية •

ان التحولات أو التغيرات الدقيقة التى قد تكون الحلقات الاولى فى سلسلة من ردود الأفعال ، من العسير بل من المستحيل أحيانا تعريفها ، بل أن مثل هذه التغيرات لا يمكن الافتراض بسهولة أنها ناتجة عن اتصال معين •

ولا شك أن قوى عديدة تشكل اتجاه الفرد نحو نوع من السلع ، ولكن كم عدد القوى التى تتجمع لتشكيل مفهوم الفرد ونظرته الى السياسة العالمية ؟

يبدو أن الرد على هذا التحدى يكمن أساسا فى حماس أكبر نحو تحسين امكانياتنا وقدراتنا فى المنهاج التجريبى •

ولكن ثمة مشكلة أكثر صعوبة تظهر فى محاولتنا تحديد آثار الاذاعة الدولية ونتائجها ، وهذه المشكلة كامنة فى المستمعين الذين يتعذر الوصول اليهم .

وقد تنشأ هذه الصعوبة ـ كما سبق القول ـ من : قصورالعلوم الاجتماعية الكمية فى المنطقة الهدف، أو من التناقضات التى تسببها السياسة الدولية ، أو من أى أشياء أخرى • ولكن مهما كان السبب ، فان فى مناطق عديدة من العالم تنعدم فرصة استخدام أى عدد كبير من السكان كمواد للبحث، وبحيث يشكلون أنفسهم المجموعة التى نهتم بها •

التحدى الكبير والحلول المحتملة :

لهذا فان عالم الاجتماع الذى يطلب منه تقييم الاذاعة الدولية يواجه فى عمله بنفس التحدى ، أى مشكلة للحصول على معلومات دقيقة عن أعداد كبيرة من السكان دون استخدام منهجى للسكان أنفسهم ، ويمكن ذكر هذا التحدى بوضوح وعلى نحو لا يحتمل اللبس •

وعلى الرغم من حدة المشكلة ، فانه يبدو أنها قد صيغت صياغة مجردة ، فضلا عن اكتشافها بواسطة البحث الاجتماعى • ولقد ظهرت المشكلة قبل ذلك فى البحوث خارج نطاق الرأى والاتصال فى محاولات وصف النمط السلوكى للمجتمع شبه العالمى •

وفى كل حالة، وضعت صيغة معتدلة أو اقترح حل وسط لمواجهة احتياجات الاستفسار المباشر ، ومثل هذا الحل الوسط أو الصيغة المعتدلة والادراك العام يوحى باسلوبين على الاقل يستحقان البحث المنهجى، ويمكن أن يطلق عليهما للافتقار الى تسميات أفضل « الاسلوب الاقرب تماثلا » The Most - Like Approach و « أسلوب الحكم المؤهل » The Qualified Judge Approach

الأسلوب الأقرب تماثلا The Most-Like Approach :

ان المنطق الغامض وراء هذا الاسلوب ، يبدو أنه يتصور فردا اسطوريا يشبه عضوا فى الجماعة موضع البحث فى جميع النواحى عدا انتمائه لعضويتها ، ومن ثم يكون له نفس التكوين النفسى •

ودون الوصول الى هذا النموذج الاسطورى ، يظهر أن هذا المنطق يفترض ارتباطا من التشابه العام والتماثل النفسى المحدد •

لقد استخدم رجال التقييم فى « مكتب الاذاعة الدولية » هذا الاسلوب ، فى مقابلة اللاجئين للحصول على معلومات عن الجماعات الموجودة وراء الستار

الحديدى ، فاللاجئون على أية حال يشبهون غير اللاجئين فى الاصل القومى ، وفى التاريخ الثقافى واللغوى • ويمكن جمعهم لتمثيل السكان الاصليين فى التعليم والسن ، وفى كل وجه من الوجوه فيما عدا وجها واحدا • ذلك أن اللاجئين هربوا من أرضهم الاصلية وغيرهم لم يتركها، ولهذا لابد من ربط هذا الاختلاف مع الرأى بطريقة غاية فى التعقيد •

ولكن ما هذه الطريقة ؟

لقد حاول مكتب الاذاعة الدولية وضع تقدير معين لميول اللاجئين « الاقرب شبها » عن طريق أسئلة معدة اعدادا دقيقا تفحص مفهوم اللاجىء ونظرته الى غير اللاجئين ، وأعدت كل البيانات موضع التحليل بواسطة المتخصصين فى المنطقة• ولقد أثبت هذا التقدير الفائدة الكبيرة لهذه الأساليب، وسيظل الاسلوب الوحيد الممكن حتى يتاح أن تصاغ تجريبيا تعريفات أفضل لهذا المنهج •

أسلوب الحكم المؤهل :

وفى هذا الاسلوب يطلب من الشخص الذى يعتقد أنه يعرف الجماعة موضع البحث وضع تقديرات معينة عن الجماعة عسيرة المنال • ولا يلزم أن يكون الشخص المختار ـ باعتباره مصدرا للمعلومات ـ شبيها بالمجموعة موضع البحث، بل يجب أن يكون بالاحرى حكما مؤهلا ، ومقدرا حكيما لسلوك هذه الجماعة وآرائها •

ويستخدم هذا الاسلوب على نطاق واسع فى تقييم الحرب النفسية ، ومن ثم نجده يسعى دائما نحو الافراد المؤهلين لمعرفة السكان الذين يتعذر الوصول اليهم ، ويعهد الى هؤلاء الافراد بالقيام بعمل ملاحظات أو تحليلات اجتماعية دقيقة •

وبهذا الاسلوب يتحقق تكامل محقق لمناهج العلوم الاجتماعية ، فالمعلومات التى تجمع بواسطة دراسات على مستوى محدود ، انما تحلل بمعرفة علماء

الأنثروبولوجيا ، كما أن أفضل تخمينات هؤلاء العلماء تخضع بدورها لتقييم علماء السياسة وخبراء المنطقة.

على أنه من جهة أخرى فان ذلك الاسلوب يفرض قيودا مصدرها انعدام المعرفة التجريبية للخصائص المطلوبة فى « الحكم المؤهل » .

فعلى سبيل المثال قام مكتب الاذاعة الدولية بسلسلة من « الاختبارات اللغوية » وضعت فيها برامج اذاعة صوت أمريكا بلغات مختلفة موضع نقد لجان مختارة . ولما كان من المتعذر اختبار البرامج اللغوية المختلفة أمام جمهور من المواطنين الامريكيين ، فقد استبدل بهذا الجمهور لجنة يمثل جزء منها اللاجئين ، أى المستجيبين المماثلين للأصل ، أما الجزء الآخر فيتكون من الأشخاص الذين يعتقد أنهم من القضاة أو الحكام المؤهلين . وقد أختير هؤلاء الحكام على أساس معرفتهم الدقيقة بالعادات اللغوية للبلد الهدف ، وكان من بينهم صحفيون ومدرسون ، وكانت تعليقاتهم ذات فائدة كبيرة .

وقصارى القول فان الصفات المطلوبة « للحكم » غير معروفة ، كما اننا فى استخدام منهج « الحكم المؤهل » لا نتجاوز مستوى أفضل تخمين ممكن تماما كما يحدث عند استخدام الاسلوب الاقرب تماثلا !

الخلاصة :

وفى تلك المجالات أو الميادين التى يمكن لبحوث الرأى أن تقدم أفضل تخمين ممكن ، يتحتم علينا أن نواجه اهتماما منهجيا منظما ، ولقد أكد هذا البحث شيئين :

١ ـ ضرورة الاسلوب المنهجى لربط تحليل المضمون بدراسات التأثير .

٢ ـ ضرورة البحث أن الدراسة التجريبية لوسائل الحصول على معلومات عن مجموعات كبيرة من الاشخاص الـذين يتعذر وضعهم موضـع البحث ٠

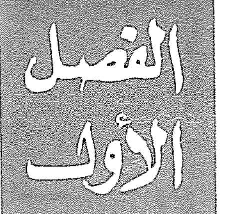
وبالنسبة للشيئين ، فان بحوث الرأى التى أسهمت اسهاما كبيرا فى الحرب النفسية لا تستطيع أن تقدم سوى أفضل تخمين ممكن ٠

ولا سبيل للتقليل من شأن التخمينات، اذ أنها ارهاصات ضرورية، أوتمهيد لازم للبحث التجريبى وللصياغة النهائية للعلاقة ، وهى الدافع وراء أى علم جاد نشيط ٠ لقد لعبت بحوث الرأى دورا نشطا فى تقييم الحرب النفسية ، ولكن هذا النشاط لابد من أن يتبعه منهج ناضج متكامل حتى يؤتى ثماره ، ويحقق نتائجه ٠

الباب السابع

المخابرات والتحليل

- الفصل الأول
  دور المخابرات فى الحرب النفسية
- الفصل الثانى
  مخابرات الدعاية .
- الفصل الثالث
  تحليل الدعاية .



دور المخابرات في الحرب النفسية

يتوقف مستقبل أى أمة على دقة المعلومات التى تصل اليها المخابرات(١) ، والتى تنير الطريق أمام القرارات العليا للدولة فى سياستها القومية ، ولا سيما فى عالم مضطرب تتقاطع فيه أغراض قوى عديدة، وأيديولوجيات متباينة .

ففى هذا العصر عصر التطور الذرى ، يتوقف كيان الدولة وأمنها على مدى المعرفة التى تتجمع لديها . والمعرفة المبكرة للدولة أمر لابد منه لتجنب المفاجأة ، ولتمكنها من وضع سياستها وادارة دفة دبلوماسيتها قبل المعارك الاستراتيجية الطاحنة .

ولم تكن الحرب يوما تعتمد على الشجاعة والتجربة فقط ، فقد كانت الموهبة العقلية تفرض نفسها دائما فى الحروب ، ولكن الحرب الشاملة غيرت المفهوم التقليدى للحرب ، بما كان يعتمد عليه فى الماضى من مظاهر القوة المادية

---

(١) اختلفت آراء الشراح والمفسرين فى تعريف معنى المخابرات ، فالمعنى العادى لها هو : القدرة على التعلم والاستفادة من التجارب والاستجابة السريعة لأى موقف جديد . أما التعريف الفنى للمخابرات فهو يحدد بوضوح مهمتها وواجباتها « فالمخابرات كعملية أو كنشاط هى عبارة عن المجهود المنظم لجميع المعلومات وتقديرها قطعة قطعة ، وتجميعها معا حتى تتكون منها صورة أكبر وأكثر وضوحا الى الحد الذى يمكن من رؤية صورة الأشياء المتوقعة . انها مجهود متواصل لاختراق الضباب المخيم على الحرب والدبلوماسية حتى يمكننا أن نرسم خطط الغد » .

والعسكرية • ومع تطور المجتمع نفسه ، لم تعد الحروب مقصورة على الجيوش التى تقاتل فى ميادين منعزلة ، بل امتدت الى ميادين عديدة •

ومن أهم هذه الميادين ما يسمى بحرب الدهاء أو حرب المواهب العقلية • وفى هذه الحرب تحتل قوة المواهب العقلية مكانها الى جانب، القوة الأرضية، والقوة البحرية ، والقوة الجوية ، وباقى القوات التقليدية للحرب • ويمكن القول بصفة عامة أن الحرب الحديثة أدت الى تحسين الحرب فى جملتها بتحويلها من الاعتماد على المادية الى مظاهر ذهنية فى النزاع البشرى ، والمخابرات هى العنصر الفعال فى تلك الحرب •

والمخابرات لا تكون مجدية قط الا اذا أديرت على قواعد علمية صحيحة ، ترتبط فيها الاسباب والمسببات ارتباطا وثيقا ، وفى كلمة موجزة يمكن القول أن المخابرات بجميع فروعها تهدف الى الوصول للحقيقة •

والمخابرات متشعبة الواجبات ، ولكننا يمكن تقسيمها بصورة عامة الى قسمين رئيسيين : مخابرات ايجابيـــة Positive Intelligence ومخابرات وقائية Passive Intelligence •

وليس هذا الفصل مجال بحث واجبات المخابرات عامة ، ولكننا نرى من الأفضل أن نلمس هذين القسمين لمسة خفيفة حتى يمكن أن يتضح للقارىء فكرة عامة عن هذه الواجبات تمهيدا لدراستنا لدور المخابرات فى الحرب النفسية •

المخابرات الايجابية :

يشمل نشاط المخابرات الايجابى الاجراءات التى تتبعها أجهزة المخابرات لتحصل على المعلومات سواء : بالملاحظة والمتابعة ، أو القيام بعمل ايجابى « أعمال التجسس » أو بعبارة أخرى النشاط الذى يهدف الى الحصول على جميع المعلومات التى يجب أن نعرفها قبل أن نبدأ فى اتخاذ طريق معين ، حتى يكون المسئولون على علم مقدما بما سيواجههم به العدو من اجراءات قبل وقوعها ، ومثل ذلك الامر ينطبق على المخابرات : السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، والعلمية، وغيرها .

ويشمل نشاط المخابرات الايجابى أيضا : أعمال التخريب ، والاعمال السياسية ، والمظاهرات ، والدعاية ، وحرب الشائعات ، وكل ما يتطلب خططا ايجابية لتنفيذ أغراض معينة للمعاونة فى التغلب على العدو فى أى ميدان من ميادين : الحياة العسكرية ، أو السياسية ، أو الاقتصادية ٠٠ الخ ٠

المخابرات الوقائية :

أما المخابرات الوقائية فهى اصطلاح شامل لجميع الاجراءات والعمليات التى تقوم بها الدولة لتحقيق أمنها وحفظ أسرارها من نشاط الجواسيس وضد التخريب المادى والمعنوى والدعاية ، هادفة بذلك الى المحافظة على كيانها ، وحدودها ومنشآتها ، كما تشمل المخابرات الوقائية جميع الاجراءات التى تحرم العدو ومنظمات مخابراته من مفاجأتنا ، كذا الاجراءات الوقائية التى تمكننا من الحصول على التفوق على العدو والانتصار عليه فى النواحى : السياسية والاقتصادية والعسكرية ٠٠ الخ ٠ ويطلق عليها فى بعض الاحيان اسم المخابرات المضادة ٠ وتنقسم المخابرات الوقائية الى العناصر الآتية :

(أ) مخابرات الأمن ومسئولياتها : مكافحة التخريب ، والتآمر والتمرد ، والنشاط الهدام ، وكذا مسئولية الأمن بمفهومه الشامل من : أمن شخصى ، وأفراد ، ومنشآت ، ومعلومات ٠٠ الخ ٠

(ب) مقاومة التجسس ٠

أ ــ مخابرات الأمن Security Intelligence :

ويقصد بمخابرات الامن المجهودات التى تبذل لاخفاء السياسة القومية والمعلومات العسكرية أو القرارات الدبلوماسية وغير هذا من المعلومات ذات الطابع

السرى الذى يؤثر على أمن الدولة ، ومنع تسرب هذه المعلومات لغير المختصين عن طريق تحديد وصولها الى الاشخاص المسئولين الذين يجب أن يلموا بها وحدهم •

وأساس مخابرات الامن السرية بصفة عامة ، ويتشعب اختصاصها فى مختلف النواحى فى الدولة • فهى تستصدر القوانين والتشريعات التى تمنع الافراد من محاولة الحصول على معلومات ليس من حقهم الحصول عليها ، وهى تتولى اختيار الاشخاص الذين يمكن الوثوق بهم والذين تتوافر لديهم موهبة تقدير أهمية الامن للقيام بالاعمال الخاصة ، وهى تضع الخطة اللازمة لصيانة الموارد الطبيعية ، ومناطق الانتاج الصناعى ضد أعمال المخابرات والجاسوسية والتخريب التى يلجأ اليها العدو • وبالاضافة الى ذلك تقوم بعمليات مخادعة لتضليل العدو عن طريق نشر معلومات غير صحيحة •

وهناك فرق واضح بين مخابرات الامن ومقاومة التجسس بالرغم من وحدة الهدف الذى يربط بين الاثنين ، وهو منع العدو من الحصول على المعلومات ذات الطابع السرى • فاذا قلنا أن عملية مخابرات الأمن هى عملية وقائية فان مقاومة الجاسوسية هى عملية ايجابية تهدف الى اصطياد الجواسيس والقبض عليهم قبل أن يرسلوا معلومات ذات قيمة للاجهزة التى يعملون لحسابها • لذا يرى بعض الاخصائين فى علوم المخابرات أن أعمال مخابرات الامن تتسم بطابع التوجيه والتوعية أكثر من أجهزة مقاومة الجاسوسية التى يتسم عملها بالطابع الايجابى • ولعلنا نكون قد أوضحنا بعد هذا التقديم لواجبات مخابرات الأمن مدى ضخامة المسئوليات الملقاة على عاتقها •

وفى الواقع توجد وظيفتان رئيسيتان للمخابرات فى الحرب النفسية تقوم بها كل من المخابرات الايجابية والوقائية ، وبالرغم من أن هاتين الوظيفتين منفصلتان من ناحية الشكل فهما مرتبطتان موضوعيا :

١ ـ الوظيفة الأولى هى ما تسمى بتحليل الدعاية ونعنى دعاية الدولة وكذا دعاية العدو ، والتى سوف نشرحها بالتفصيل فى الفصلين القادمين •

٢ ــ الوظيفة الأخيرة وتتلخص فى الحصول على المعلومات لمن يقومون بادارة الحرب النفسية • ان الذى يقوم بواجب توجيه الحرب النفسية لن يستطيع التأثير فى الجماهير الا اذا دعم بمعلومات دقيقة عنها ، وفى أثناء الحرب تأتى معظم هذه المعلومات عن طريق وسائل التجسس، ولذلك يكون من الصعب غالبا الحصول عليها • ومن جهة أخرى نجد أن هناك صراعا طبيعيا بين موظفى المخابرات الذين يحاولون دائما الاحتفاظ بسرية هذه المعلومات ، وبين موظفى الحرب النفسية الذين يبحثون دائما عن الجزء الواقعى من المعلومات لتقوية الرسائل التى يوجهونها • وهذه المشكلة تعانى منها كثير من الدول بل لا تزال هذه المسألة عرضة لخلافات واسعة النطاق حتى فى الدول الكبرى • ان الوسيلة الوحيدة للتغلب على تلك المشكلة هو التنظيم الجيد للتنسيق بين الطرفين، وتفهم كل منهما لمسئولية الآخر.

على أن عليها واجبا ثالثا يتفرع من هاتين الوظيفتين، وهو مسئولية اجراءات الامن فى الحرب النفسية • وكما سبق أن أشرنا الى الصراع الذى يحدث غالبا بين موظفى المخابرات ، وموظفى الحرب النفسية نتيجة طبيعة عملهما ، ومن ثم كان من المنطق أن نحاول ابراز أسباب هذا المشكل ، وذلك قبل أن نخوض فى تفاصيل الواجبات • هذا المشكل سنطلق عليه قيود الامن •

قيــــود الأمن :

لا ريب أن أية دولة من دول المجتمع الدولى تسعى دائما الى تحقيق أمنهــا وان اختلفت وسائل الامن فى كل منها • الا أن القيود التى تنشأ من مشكلات الأمن كثيرا ما تؤثر على أعمال الحرب النفسية اذا لم يبذل الجهد فى تذليل هذا التعارض ، وتفهــم كلا الطرفين المسئوليــة المشتركة للعمليتين • فمن ناحيــة يستهدف الامن دائما منع وصول المعلومات السرية الى العدو ، على حين تحرص عمليات الدعاية على أن يصل الى العدو أكبر كمية من المعلومات الحقيقية التى قد تتعارض مع سريتها • كما يتطلب الامن منع الانباء العسكرية عن العدو على حين تهدف الدعاية الى اخطار العدو بالانباء أسرع مما قد تصل اليه عن طريق مصادره الخاصة وهو يهدف من ذلك الى تقليل قيمة ما يذيعه العدو من أنباء على مواطنيه •

وفى اختيار الافراد الذين يعملون فى ميـدان الحرب النفسيـة يظهر هذا التعارض بصورة واضحة بين الدعاية والامن ، اذ يحاول الامن ابعاد الاشخاص المشكوك فيهم أو المشتبه فى صلتهم بالعدو بعيدا عن وسائل الاتصال ، أما رجل الدعاية فغالبا ما يكون اختياره للأفراد الذين يعملون معه على أساس الكفاية والمواهب التى يتمتع بها الافراد كقدرتهم على النطق بلغة العدو جيدا أو تفهـم نفسيته وغير ذلك من العوامل المطلوب توافرها فى رجل الدعاية • وغالبا ما يغفل رجل الدعاية عامل الامن حينما يبحث بعينه الفاحصة لالتقاط هؤلاء الافراد من بين الجموع الغفيرة •

ولذا نجد أن رجـال الحرب النفسـية ورجـال الامن غالبـا ما تتعـارض مسئولياتهم ، مما يثير صعوبات قد يكون لها أثر بالغ فى تحقيق أهداف الطرفين. ولكن ليس من الصعب أن تنسق الجهود المشتركة التى تساعد على تحقيق أهداف الامن والحرب النفسية ، وذلك بانشاء منظمة للرقابة تساعد على التنسيق وتفهم كل منهما مسئولية الآخر وحدودها •

ان اجراءات الامن العادية يجب أن تطبق فى جميع الظروف ، والطريقـة المثلى لتحقيق ذلك فى ميدان الحرب النفسية هى توعية جميع القائمين بها فى زمن السلم بأهمية الامن سواء كانوا مدنيين أو عسكريين ، فغالبا ما يتحدث كثير من هؤلاء الافراد الى بعض من يثقون بهم بدافع غريزى فى موضوعات هامة تتعلق بأعمالهم قد تبدو لهم أنها لا قيمة لها لايهام هؤلاء الناس بأنهم عليمون ببواطن الأمور مما قد يؤثر تأثيرا بالغا فى مجهودات الأمن •

وهناك سلاح خطير لو تفشى بين القائمين بالحرب النفسية لاستطاع أن يهدم الكثير من مجهوداتهم ألا وهو سلاح الشائعات والاكاذيب التى قد أفردنا لها بابا خاصا لأهميتها • لذا يجب ألا يتأثر القائمون بادارة الحرب النفسية على جميع المستويات بأى شائعات أو أكاذيب ينشرها العدو ، بل أن واجبهم هو فل هذا السلاح وتحذير الشعب والجنود من التأثر بما ينشره العدو من دعايات مغرضة •

ان اجراءات الامن التى تتبع فى الحرب النفسية هى نفس القواعد التى يعنيها مفهوم الأمن بشكله العام • وبالرغم من أن تحقيق الأمن يتطلب اتباع قواعد معينة فان الحس والذوق الغريزى يلعب دورا فعالا فى الاجراءات التى يجب أن تتبع ولا سيما فى عمليات الحرب النفسية ، ونستطيع لمجرد الدراسة أن نوجز القواعد الاساسية التى قد تحقق الغرض فى القواعد الآتية :

تقييم المواد من ناحية درجة السرية :

ونعنى بذلك أن يكون تصنيف المواد أو المعلومات التى تستخدم فى الحرب النفسية تبعا لدرجة سريتها ، وكثيرا ما تنشأ مشكلات لرجال الأمن نتيجة لعدم اعطاء درجة السرية المناسبة للمعلومات التى تحتفظ بها الادارات المختلفة التى تعمل فى هذا الميدان • وكقاعدة عامة يجب الا تعطى درجة سرية عالية لأى معلومات لا تفيد العدو • ان مسئوليه تقدير درجة سرية المعلومات غالبا ما تترك الى ضباط مدربين على هذا الواجب • وقد ترتب على اهمال هذا العامل فى الحرب العالمية الثانية كثير من المشكلات العسكرية ، فمثلا وجد فى أحد ميادين الباسفيك وثيقة ذات درجة عالية من السرية فى أحد أدراج مكتب سكرتيرة قائد أمريكى . واستطاع العدو أن يحصل عليها بمنتهى السهولة ، لان هذه السكرتيرة لم تستطع أن تقدر درجة السرية للمعلومات التى كانت بها ، وفى الحقيقة لم تكن هذه مسئوليتها بل مسئولية أولئك الذين لم يضعوا على هذه الوثيقة درجة السرية التى تستحقها •

تحديد الأفراد الذين يتعاملون مع المعلومات السرية :

وحينما يحدد الافراد المسموح لهم بالتعامل بالاطلاع على المعلومات ذات درجات السرية المختلفة ، يجب أن يطبق الامن على كل من يستخدمها ، اذ غالبا ما يحاول الافراد الذين يعملون معهم ويحرمون من هذه المعلومات أن يبحثوا بالغريزة عما وصل لأولئك الآفراد من معلومات، فاذا ماتحصلوا عليها لايستطيعون أن يقدروا قيمة هذه المعلومات بل غالبا مايحسون بالامتعاض والاستياء من اخفائها

عنهم • وهم في بحثهم عن هذه المعلومات لا يتعدى أن يكون الدافع هو الفضول وحب الاستطلاع • ومن ثم نجد أنه من الناحية النفسية يشعر هؤلاء الأفراد أنهم غير مرتبطين بالابقـاء على سريتها ، ولذا فان اجراءات الأمن بالنسـبة لتداول المعلومات السرية يجب أن تطبق على المجموعات المختلفة كليا وليس فرديا •

التفرقة بين اجراءات الأمن والرقابة على النشر :

ويجب أن نفرق بين اجراءات الامن التى تتخذ فى عمليات الحرب النفسية وبين عمليات الرقابة على النشر ، فالرقابة على الصحف Censorship وظيفـة أخرى لها ظروفها وقواعدها • ان اجراءات الأمن غير السليمة واعطاء سـلطات تحكمية فى مسائل الرقابة لضباط الامن قد تغرى ضابط الامن بأن يعبر عن تفضيله لاشخاص فى ميادين التحرير أو الفن أو السياسة تحت ستار المحافظة على الامن ، والمعقبات التى لا معدى عنها لهذا العمل عدم توفيق الأمن وعـدم نجاح الاجراءات •

وان الرقابة يجب أن تطبق بتنسيق تام مع سياسات الرقابة القومية أو سياسة الرقابة الخاصة بمسرح العمليات ، ومن جهة أخرى فان تقدير قيمة الانتاج الاذاعى أو انتاج النشرات يعتبر وظيفة أخرى الغرض منها تقييم الانتاج ، ومدى تمشيه مع خطة الدعاية الاستراتيجية •

ومن السهولة بدرجة كافية القيام بالرقابة على المواد المطبوعه فى مسرح العمليات ، اذ يمكن ارسـال النشرات الى أركان الحرب للعمليـات رقم ٢ G. 2 لفحصها ، أو الى الشخص الذى توكل اليه وظيفة الامن •

الرقابة على الاذاعة :

ولكن مشكلة أمن الاذاعة شىء آخر ، وتدلنا تجارب الحرب العالمية الثانية على أن الأنباء العاجلة الخاطفة Spot News لا يمكن أن تتبع الاجراء الروتينى للأمن • وأنها يجب أن ترسل بسرعة ، ولهـذا فانه من المرغوب فيه دائما أن يكون ثمة نوعان من الرقابة يكمل كل منهما الآخر •

١ ــ أما النــوع الأول فيمــكن تحقيقــه باقامة خــدمة اتصـــال للأمن Security Liasion على أســـاس عمــل متواصــــل طوال الأربع والعشرين ساعة مع العاملين فى الاذاعة ، وذلك لسرعة تمرير الأنباء العسكرية ، ويجب أن يلقن ضابط الأمن « المنوب » المبــادىء التى تحقق التعــاون التام على أســاس تفهم قيمة الدعاية • ويجب أن يدرك أن مهمته هى أن يوضح لرؤسائه احتياجات الدعاية الاذاعية بدلا من أن يتجه الى اعتبار نفسه أسمى من العــاملين فى الاذاعة • ولهذا سبب نفسى معقول ، فان وجود ضابط الامن الودود المشجع يزيد من التعاون من جانب مذيع الدعاية ، أما الموقف غير الودود فانه يدفع بالاذاعى الى أن يعمل دائما للاحتفاظ بالكرامة الوظائفية لمكتبــه ولمركزه ، فاذا ما زاد التنــافر بين ضــابط الامن والكاتب الاذاعى أو المذيع فان ذلك يؤدى دائما الى أسوأ النتائج بخاصة اذا ما أثر هذا التنافر على الروح المعنوية لرجال الدعاية •

٢ ــ أما النوع الآخر فانه يمكن ممارسته باشراف الأمن ورقابته بواسطة الوسائل الميسرة للاستماع : أى يمكن أن يزود ضباط الأمن بأجهزة اســتقبال جــيدة فينصتون للاذاعات دون مقابلة المذيعين ، ومن المرغوب فيه أن يكون لهؤلاء الضبـــاط طاقة من الوعى وقدرة على النقد ، اذ هم على نقيض ضباط الاتصـــال ليس من الضرورى أن يكونوا متعاونين عن قرب ، فان نقدهم يجىء بعد أن تكون العملية قد تمت والاذاعة قد وجهت ، وبذا يمكن أن يبرزوا نقدهم بمعدلات صارمة عنيفة للعمل بها فى المستقبل •

ومن هنا كانت العمليتان مختلفتين من ناحيتى الشكل والتوقيت ، فالأولى تقوم بمراجعة انتاج الدعاية فى أثناء الارسال ، والاخرى يبتدىء دورها بعــد انتهاء العملية •

ان النقطة الرئيسية التى يجب أن تكون دائما فى أذهان من يقومون بادارة الحرب النفسية ألا يخلقوا من ضباط الأمن رجال دعاية، اذ أن ذلك مثل من يحاول أن يخلق من المذيع رجل أمن • ان الطريقة المثلى هو أن يتفهم كل منهما مسئولية الآخر ويعرف حدوده ، وأن يبذل كل منهما جهده فى التعاون لتحقيق رسالة الآخر •

ونستطيع الآن أن ننتقل الى بحث وظيفة أساسية من وظائف المخابرات فى الحرب النفسية وهى مهمة جمع المعلومات •

مهمة جمع المعلومات :

يمكن أن تتم عملية جمع المعلومات الخارجية بطرق مختلفة ، ليست كلها غامضة أو سرية • وهذا ينطبق بصفة خاصة على المخابرات المكشوفة التى تستقى معلوماتها من : الصحف ، والكتب ، والمطبوعات ، والتقارير الرسمية ، والاذاعة ، والتليفزيون ، وقد تحتوى قصة ما أو أية مسرحية على معلومات نافعة عن حالة أمة من الأمم •

ان كل المعلومات المكشوفة هى « طحنة » تدخل طاحونة المخابرات • ولكن هناك من تلقوا تدريبا يمكنهم من أن ينتقوا حبة القمح من بين جبال « التبن » • وفى البلاد ذات الصحافة الحرة والتى لا تتدخل فيها الحكومة عند نشر البيانات الرسمية تكون عملية المخابرات المكشوفة ذات قيمة خاصة ، وذات فائدة مباشرة فى اعداد تقديرات المخابرات •

ان المجهود الذى يبذل فى عملية الجمع السافرة هو مجهود واسع وضخم • انه يحاول ألا يغفل شيئا يمكن الحصول عليه وله فائدته • ولكن ربما كانت هناك موضوعات قد تكون حاجتنا اليها شديدة ولكن لا تغطيها هذه المادة ، أو قد تنقص هذه المادة التفاصيل الكافية، أو لا تكون حاسمة ، أو لا تكون موضع الثقة التامة • فمثلا لا يمكن أن نعول على ما تفصح عنه اسرائيل ـ سواء بقصد أو

بغير قصد ـ فيما تحتاج حكومتنا الى معرفته • انها لا تفصح الا عما تريده منا أن نصدقه ، فاذا هى أدلت ببيانات رسمية فانه لا يمكن أن تكون هذه البيانات موضع ثقتنا •

ومن جهة أخرى يمكن التلاعب فى الصور الفوتوغرافية كما يمكن تزييفها على نحو ما حدث عندما عرض السوفييت ـ لغرض الدعاية ـ صورة كومة من المهملات وقالوا : انهم أسقطوا طائرة أمريكية من طراز « ى ٢ » كذلك عرض السوفييت فى يوم استعراض الجيش الاحمر صاروخا شاهده وصوره رجال الصحافة الغربية والملحقون العسكريون ، ولم يكن فى الحقيقة الا شيئا لا قيمة له مكونا من أجزاء متفرقة من صواريخ مختلفة لا يمكن أن تكون قذيفة صالحة • وكما هو سهل أن نجمع المعلومات المكشوفة فمن اليسير أن نحيط هذه المعلومات بعنصر الخداع • لكل هذه الاسباب يجب أن يظل جمع المعلومات بالطريقة السرية « التجسس » هو النشاط الأساسى للمخابرات •

ان عملية الجمع السرية هى أساسا عملية التغلب على العقبات بقصد الوصول الى الهدف • اننا نختار الهدف ويقوم خصومنا بوضع العراقيل والعقبات ، وهو عادة يدرك أى أهداف يهمنا أن نصل اليها ، ثم يحيطها بكل ما يستطيع من العقبات الوعرة •

ويستغل الجمع السرى الافراد فى هذه العملية فيستخدم : « العملاء » و « المصادر » و « المبلغين » ، كما تستخدم الآلات • وهناك آلات تستطيع أن تفعل ما لا يقدر الانسان أن يفعله ، وان ترى أشياء يعجز عن أن يراها • ولما كان كل جانب يحاول وقف هذا النشاط اذا استطاع أن يحدد مكانه أو اذا أمكنة الوصول اليه فان كلا منهما يقوم بهذا النشاط بطريقة سرية ، ولهذا يطلق عليه اسم الجمع السرى ، والكلمة التقليدية التى تطلق عليه هى « التجسس » •

ان جوهر التجسس هو الوصول الى الهدف • يجب أن يتمكن انسان ما أو آلة ما من الاقتراب من هذا الشيء ، أو هذا المكان ، أو هذا الشخص ليرى أو يكتشف الحقائق المطلوبة دون أن يثير انتباه من يتولون حراسته . ثم بعد ذلك لابد من أن تبلغ هذه المعلومات الى من يطلبها من المسئولين ، ويجب أن يتم ذلك بسرعة حتى لا تفقد قيمتها ، كما يجب ألا تضيع أو يقطع عليها طريق العودة •

ان التجسس فى أقل صـــوره لا يعدو أن يكون نوعا من الاســتطلاع المستتر • وقد يكفى هذا عندما يقتصر المطلوب على القاء نظرة خاطفة • فيقصد العميل هدفا من الاهداف ويلقى عليه نظرة ثم يقفل راجعا ليبلغ عما رأى • وفى هذه الحالة يكون الهدف عادة كبـيرا وسـهل الرؤية ، مثـال ذلك : تجمع القوات ـ التحصينات ـ المطارات ، وأحيانا يستطيع العميل أن يجد طريقه الى داخل المكان المقفل ويستطلع ما فيه أو يخرج منه بوثائق • وعلى كل حال تكون فترة بقائه محدودة لأن بقاء العميل مـدة طويلة أمر صعب طالما وجـد بطريقة سرية وغير شرعية •

وهناك ما هو أكثر قيمة من الاستطلاع ونعنى « التغلغل » الذى يقـوم به العميل ويستطيع فيه أن يصل الى داخل الهدف ويبقى فيه • ومن بين الطرق المستخدمة فى هذا النوع أن يتسلل العميل الى المكاتب أو الى دوائر الصـفوة المختارة بحيلة ما وبذلك يكون فى موقف يستطيع منه أن يسـتخرج المعلومات المطلوبة من الاشخاص الذين يأتمنونه ، والذين لايدركون دوره الحقيقى ، ويطلقون على هذه العمليـة اصطلاحا يسـمى « الزرع » وهى من أقدم أنواع الطرق فى التجسس •

ويستند هذا النـوع من التغلغل الى مظاهر الولاء والاخلاص التى غالبا لا توضع موضع الاختبار • كما أنه ليس من السهل اختيارها ولا سيما اذا كان الخصوم يتكلمون نفس اللغة ، ولكن فى الوقت الحاضر عندما أصـبحت الخطوط التى تفصل أمة ومذهبا سياسيا عن أمة أخرى ومذهب سياسى آخر واضحة ،

أصبح الاحتفاظ بمظاهر الولاء والاخلاص لفترة طويلة عسيرا ، وان كان يمكن تحقيقه . ومن بين عمليات التجسس السوفييتية المشهورة قبل الحرب العالمية الثانية وفي اثنائها هي عملية الشبكة الجاسوسية في الشرق الأقصى التي كان يتولى ادارتها ريتشارد سورج ، وهو ألماني كان يعمل في طوكيو كمراسل لصحيفة فرانكفورتر زايتونج . لقد كان سورج يقوم « بزرع » مواطنيه في السفارة الالمانية في طوكيو ، ونجح فعلا في الحاق نفسه بقسم الصحافة بالسفارة وكان هذا بمثابة ستار له يعمل من ورائه مع عملائه اليابانيين فضلا عن أن هذا كان يوفر له الفرصة للحصول على المعلومات المباشرة عن سير حرب النازي وعلاقتهم مع اليابان .

وحتى يستطيع سورج تحقيق ذلك كان يلعب دور النازي الصالح ، وقد أحرز في ذلك كل النجاح بالرغم من أنه كان يمقت النازي . لقد كان رئيس الجستابو في السفارة كما كان السفير والملحقون أصدقاء له . ولو نقب الجستابو ماضيه ـ كما فعلوا بعد أن قبض عليه اليابانيون عام ١٩٤١ ـ لعرفوا أن سورج كان عميلا شيوعيا في ألمانيا في السنوات العشرينية وأنه أمضى بعض سنواته في موسكو .

ولننتقل الآن الى دراسة الواجب الاخير من دور المخابرات في الحرب النفسية وهي ما يتعلق باجراءات الأمن ، ويمكن تقسيم هذا الواجب الى أقسام رئيسية :

- مقاومة التخريب — Counter Sabotage
- مقاومة التآمر والتمرد — Counter Insurgency
- مقاومة النشاط الهدام — Counter Subversion
- الأمن الداخلي — Domestic Security

وفى نطاق هذه المسئوليات تتولى مخابرات الامن بأجهزتها المختلفة حماية أسرار الدولة ومنشآتها .

مقاومة التخريب Counter Sabotage :

التخريب(١) صورة من الحرب المدمرة ، وهو عادة يستهدف اتلاف النظام ، أو تدمير التنظيم العسكرى ، أو الاقتصادى للعدو . وهو عمل مضاد لنظام العدو الادارى ، وانتاجه الصناعى والغذائى ، وقواته المسلحة ، وخطوط مواصلاته ، بل عموما ، ضد أى شيء يعاون المجهود الحربى للعدو .

ويحدث التخريب فى عدة صور متباينة ليس من الضرورى أن تبدو كلها عنيفة . فهناك عمليات مباشرة أى عمليات تخريب نشيطة عنيفة مفاجئة ضد الأغراض والأهداف الرئيسية ، وهناك أيضا أعمال غير مباشرة أى سلبية ضد معنويات العدو وموارده المادية فى أسلوب وبوسائل غير عنيفة . كما أنهناك صورة أخرىتسمىالتوجيه السيكلوجى Psycological Training الهدف منه تكوين اتجاه عام وسط الجماهير للقيام بالاضراب أو لنشر الذعر والفوضى والاضطراب .

وتنفذ الأعمال المباشرة بعدة وسائل وعلى مستويات مختلفة ، وقد توجه ضد أغراض أساسية هامة كالمصانع فى المناطق التى تتوافر للعدو فيها مؤسسات هامة ، أو ضد أهداف صغيرة كأكشاك التحويل على الخطوط الحديدية وغيرها من

---

(١) جاء الاصطلاح الانجليزى Sabotage أى الاتلاف والتخريب ، من الكلمة Sabot وتعنى هذه الكلمة الحذاء الخشبى الذى كانت ترتديه الطبقات الفقيرة فى بعض البلاد الاوروبية ، وقد اعتبر هذا الحذاء الخشبى رمزا للثورة من جانب عمال الزراعة وغيرهم ممن يعملون فى أملاك السيد أو الامير . وكانوا يلقون بهذه الاحذية الخشبية فى آلات المصانع طوال فترة الاضطراب فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وقد اصطلح فيما بعد على اطلاق كلمة Sabotage على التخريب المقصود لممتلكات الغير طبقا لأهداف خاصة وسمى الذين يقومون بهذا العمل Saboteurs .

الأهداف التى تعرقل فى النهاية المجهود القومى • ويعتبر الاحراق ، والتدمير ، والقاء المتفجرات ، وتعطيل الآلات أو نسفها ـ الصورة العادية لاعمال التخريب المباشر ، وتتفاوت الوسائل طبقا لطبيعة الهدف وظروفه •

ويعد التخريب البحرى وهو الذى يوجه ضد السفن ، والمنشآت البحرية ، وطرق الملاحة ـ من أخطر أعمال التخريب ، وذلك لفداحة الاضرار التى تترتب عليـــه •

أما العمليات غير المباشرة أو عمليات التخريب السلبية فانهـا تصل الى تحقيق أهدافها دون عنف واضح، والصورة المألوفة لهذا هى التشجيع على تخفيف مستوى الانتــاج أو الابطاء فى اتمام الأعمال الانشائية ، أو الاهمال الذى يبدو غير متعمد ، ولكنه يؤدى فى النهاية الى الاضرار بالكفاءة الانتاجية ، أو السلب المنظم للمستودعات وما الى ذلك •

على أن التخريب السيكولوجى الذى يستهدف ازعاج العدو فى عقر داره أو فى المناطق التى تحتلها قواته المسلحة يعد من أخطر الانواع كما سبق أن أشرنا الى ذلك • كما أن للتخريب السيكولوجى الذى يعتمد على الشائعة والنكتة آثارا لا تقل فى خطورتها عن التخريب العنيف بل يفوقه أحيانا كما ظهر لنا فى الباب الخاص بالشائعات •

وعمليات التخريب تعد سلاحا رئيسيا من أسلحة الحرب النفسية ، وهى كأعمال المخابرات تتطلب تحضيرات عسكرية، واقتصادية، وفنية ، وسيكولوجيه، وتعتمد فى خطتها أساسا على المعـــلومات التى توفرها لهـا أجهزة المخابرات الايجابية ، وغالبا ما يقوم بتنفيذها عملاء من رعايا الدولة نفسها التى تتم فيها الحوادث •

ومن أجل هذا تقوم المخابرات الوقائية باجراء الاحتياطات المضادة عن طريق تأمين المنشآت والمصانع والمرافق الحيوية بعد دراسة دقيقة للموقع ونظام العمل وطبيعته ، والافراد الذين يعملون فيه ، وهذا ما يسمى بمشروع الأمن •

على أن أسلوب مقاومة التخريب يجب أن يهدف الى مقاومة جميع الأعمال التخريبية فى جميع أشكالها وصورها مادية، أو معنوية ، مباشرة ، أو غير مباشرة . وتعتمد مقاومة التخريب على الدراسة العلمية لاحتمالات التخريب والأماكن المعرضة له ، وعموما تعتمد على العناصر الآتية :

١ ـ استعمال الدراسة والمعرفة فى توجيه الاعمال التنفيذية .

٢ ـ اعتقال المخرب قبل أن يبدأ عملياته ، ومن الأمثلة الحية التى مارستها مخابراتنا فى هذا المجال قضية العميل الاسرائيلى « وولف جانج لوتز » الذى كلفته المخابرات الاسرائيلية بما يلى :

- جمع معلومات عن المجهود الحربى .
- جمع معلومات عن الخبراء الأجانب الذين يعملون فى تطوير المجهود الحربى بغرض مباشرة عمليات التخريب المادى بالقيام بأعمال التدمير والاغتيال ، وكذا مباشرة تعليمات التخريب المعنوى بارسال خطابات التهديد لهم ، وتوزيع المنشورات المعادية التى تهدف الى التفرقة والانقسام .

ومن ذلك يتضح فى هذه الحالة أنه لا يمكن أن نفرق بين مقاومة التجسس ومقاومة التخريب .

مقاومة التآمر والتمرد Counter Insurgency :

والمقصود بالتآمر والتمرد هو وجود تدبير للقيام بثورة ضد السلطة الحاكمة يهدف الى تغيير نظام الحكم ، أو الشخصيات الحاكمة ، أو فرض مطالب معينة لتحقيق أهداف القائمين بالتآمر . وتعنى كلمة التآمر فى ابعادها : التمرد والعصيان ، ورفض اطاعة السلطات أو القانون السائد . ويستعمل اصطلاح العصيان المدنى Civil Disobedience فى بعض الحالات بديلا لكلمة التمرد .

وقد يكون التآمر فى بعض الحالات نابعا من داخل الشعب نفسه دون تحريض أو مساعدة من الخارج ، ولكنه غالبا ما يكون موجها من الدول التى تتعارض مصالحها مع نظام الحكم القائم •

ومهمة مخابرات الأمن الكشف عن أى محاولة للتآمر أو التمرد ، والقضاء عليها ، والقبض على مدبريها قبل أن تتم •

وتستخدم مخابرات الأمن فى عمليات مكافحة التآمر والتمرد أساليب المخابرات المختلفة ، مستفيدة من كل العناصر والامكانيات البشرية والفنية التى تتشابه الى حد كبير مع الوسائل المتبعة فى مكافحة الجاسوسية ـ أى أن مخابرات الأمن تقوم بنشاط ايجابى مضاد فى هذا المجال •

والمؤامرات والانقلابات التى تحدث فى الدول ما هى الا سلسلة من الاعمال الموجهة من الخارج أو الداخل، وعادة تكون بتوجيه من جهات أجنبية أو تشجيعها، ولذلك تعتبر من الواجبات الأساسية للأمن القومى • ان مقاومة التآمر هى الأداة التى تساعد على الاحتفاظ بالاستقرار القومى ، وتعتبر العناصر الآتية أساسا لمقاومة التآمر •

١ ـ استخدام جميع أساليب المخابرات الفنية ووسائلها لغرض الحماية والسيطرة على الميادين ، والهيئات ، والمؤسسات التى يحتمل أن يباشر أفرادها أى نشاط ضد الحكم القائم •

٢ ـ تحديد الدول التى ينتظر أن تساند مثل هذه المؤامرات ، أو تشجيعها وذلك بدراسة الأهداف والمبادىء السياسية التى تعتنقها الدولة ، والتى لا تتفق مع أهداف تلك الدول وسياستها •

٣ ـ مراقبة نشاط الفئات ، والأفراد ، والهيئات التى تعتبر هدفا لمدبرى المؤامرات والانقلابات •

٤ ـ يعتبر الوقوف على مشــاعر الجماهير ومــدى تجاوبها وأحاسيسها بالنسبة للاحداث الجارية « الرأى العام » ووضع المسئولين فى صورة كاملة من هذه الأحاسيس أساسا للوقاية ضد المؤامرة •

مقاومة النشاط الهدام Counter Subversion (١) :

تعتمد مقاومة النشاط الهدام أساسا وفى الدرجة الأولى على التوعية ، لأن النشاط الهدام عادة يبدأ بالتشكيك في مذهب الدولة أو اتجاهها ، وفي معظم الأحوال يتبنى عقيدة مضادة لعقيدة الدولة • ويعمل النشاط الهدام على الترويج للمذهب المضاد ولا سيما في الاوساط المهيأة نفسيا وعقليا لتقبله • وبالرغم من أن نشاطه عادة يكون نشاطا سريا ، فهو يكتفى فى مراحله الاولى بغزو العقل دون اللجوء الى العنف • لذا فان الطريق السليم لمكافحة النشاط الهــدام هو مقارعة الفكرة بالفكرة وتنظيم الحملات الفكرية المدروسة • وهذا لا يمنع مخابرات الأمن من اللجوء الى الأساليب الايجابية لمواجهة النشاط الهدام ، بخاصة اذا ما كانت قوانين الدولة تحرم مثل هذا النشاط •

على أنه يجب أن نشير هنا الى أن مسئولية حماية نظام الدولة الاشتراكى فى الجمهورية العربية المتحــدة من واجب كل مواطن ، وعليه أن يتفهم العقيدة الاشتراكية والعقائد الاخرى المتباينـــة ، ويتحتم على كل فرد مداومة الاطلاع ومتابعةالانتاج الفكرى في العالم ، والتعمق فى دراسة الايدلوجيات والنظريات المختلفة •

---

(١) أصل الكلمة Subvert أى اسقاط أو تدمير شىء قائم ، ويمكن أن تعنى نشر الفساد والفوضى فى الاخلاق والمبادىء والمعنويات وهذا هو المعنى المقصود • ويختلف النشاط الهدام من دولة الى أخرى طبقا لمبادئها السياسية ، أو الاجتماعية ، أو الاقتصادية •

وهناك فرق ولا شــك بين النشاط الهــدام ، وبين التآمر والتمرد ، فعادة يسبق الأول الثانى ، وبالاضافة الى ذلك هناك فروق أيضا فى طريقة المكافحة •

الأمن الداخلى Domestic Security :

عبارة عن جميع الاجراءات الوقائية التى تتخذها الدولة للتحفظ على أسرارها لاخفاء السياسة القومية، والمعلومات العسكرية، والعلمية ، والاقتصادية، والقرارات الدبلوماسية ، وغير ذلك من المعلومات ذات الطابع السرى والتى تؤثر على أمن الدولة وسلامتها ، كما يحقق الأمن الداخلى مقاومة لجاسوسية العدو ، وذلك بتحديد حركات عملائه ، ومنع تسرب أى معلومات لها قيمتها الى مخابرات العدو ، ففى الدول الدكتاتورية والفاشية حيث يسيطر على الدولة الأسلوب البوليسى ، نجد أنه يسهل على أجهزة الأمن استمرار السيطرة على جميع المقيمين بالدولة ، بعكس الدول الديمقراطية التى يتمتع فيها الفرد بحرية أوسع مما يعرقل كثيرا من مجهودات الأمن ٠

وتتدرج اجراءات الأمن الوقائية من التحفظ على المعلومات ذات الطابع السرى ومنع تسربها ، الى مقاومة أى تسلل الى المراكز الحساسة فى جميع قطاعات الدولة ٠ وتكون المرحلة النهائية هى تدابير مقاومة التجسس ، ويجب ألا نغفل هنا أهمية وعى الأمن لدى الشعب الذى يساعد كثيرا على نجاح خطة الأمن ٠

ب ــ مقاومة التجسس :

تعتبر مقاومة الجاسوسية الجانب الايجابى من المخابرات الوقائية ٠ ويمكن أن نعرفها بأنها المعرفة ، والتنظيم ، والتحليل ، والنشاط الذى تستخدمه مخابرات الدولة لشل نشاط المخابرات المعادية ٠

ويوجه نشاط مقاومة الجاسوسية ضد جهود الجاسوسية الاجنبية ، ومهمتها الأساسية هى التعرف على نشاط عملاء العدو السريين ، واستغلاله والسيطرة عليــه ٠

ان الهدف الشامل من تلك الجهود ، هو وقاية أمن الدولة وسلامتها ، وكذا منع تسلل عملاء العدو داخل المراكز الحساسة بها • وهى فى هذا المجال تحاول أن تصل عن طريق المعرفة الى ازاحة القناع عن نشاط منظمات العدو ، وكشف خططه ونواياه •

وبالرغم من أهمية الأهداف Targets التى تسعى اليها أجهزة مقاومة الجاسوسية والمخابرات المضادة ، فان تحديد الغرض Object يسبق دائما تحديد الأهداف • وللدراسة الدقيقة ، والتحليل الشامل أهمية كبيرة فى تقدير قيمة الهدف وأهميته •

ويهتم رجال مقاومة الجاسوسية عامة بأربعة مجالات أساسية لها أهمية كبيرة فى تحديد المعلومات الايجابية اللازمة لمقاومة التجسس ، كما أن هذه المجالات تسهم أيضا فى جمع المعلومات الايجابية الهامة للمخابرات ، وهى التى تبنى عليها خطة العمل والتنفيذ •

١ - أول هذه المجالات ، الافراد الذين يعملون فى أجهزة المخابرات المعادية وعملاؤهم وخاصة الذين يعملون فى الدولة التى تعتبر هدفا للجاسوسية • ان اكتشاف الاشخاص الذين يشك أنهم عملاء للعدو يعتبر واجبا يتطلب وقتا كافيا ، كما يستدعى الدقة ، اذ غالبا ما يكون اتصال رجال مقاومة التجسس مع منظمات العدو عن طريق هؤلاء العملاء • لذا يجب أن توجه عناية كبيرة لفحص هؤلاء العملاء ومحاولة الحصول على معلومات تفصيلية شاملة عن نشاطهم ، وأسرارهم ، ومعارفهم ، وأصدقائهم •

٢ ـ أما المجال الثانى فهو الاسلوب الذى تستخدمه منظمات العدو فى عمليات التجسس ، ويتضمن هذا الاسلوب كثيرا من العناصر منها استخدام الساتر ، وطريقة التجنيد ، والاتصال ، والتمويل ، واختيار محطات العمل السرى. وعلى الرغم من أن هذه العناصر تحكمها عوامل تكنيكية ثابتة Techinques ، فان لكل منظمة عادة أسلوبا فنيا فى نشاطها • وتكرار هذا الأسلوب ، حتى يثبت نجاحه أكثر من مرة كثيرا ما يؤدى الى كشف نشاطها وشل عملياتها من جانب رجال مقاومة الجاسوسية ، وهذا يرغمها على تغيير خطتها وأساليبها، وقد يدفعها لتجميد نشاطها لفترة قد تطول • لذا فان الابتكار والبحث عن طرق جديدة دائما ، وتهيئة الجو المناسب للعمل ـ هو أساس نجاح عمليات التجسس •

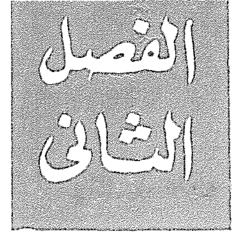
٣ ـ والمجال الثالث الذى يبحث فيه رجال مقاومة الجاسوسية ، هو مركز حشد قوات العدو ، ونوع المعلومات التى تحظى باهتمامه الخاص ، وأى الميادين يصلح للاثارة او النشاط الهدام ، ومدى الاستجابة المتوقعة . وينبغى أن تغطى المعلومات عن هذه الأهداف كل ما يختص بالأماكن والمواقع ، كما تشتمل على كل ما يختص بالأفراد •

٤ ـ والمجال الرابع والاخير الذى يهتم به رجال مقاومة التجسس هو الاغراض والنوايا القريبة والبعيدة لمنظمات التجسس •

هذه المعلومات قد لا يمكن الوصول اليها بطريق مباشر ، ولكن الدراسة والتحليل للاهداف المعروفة لمنظمات التجسس ، ودرجة كفاءة هذه المنظمات ،

ومدى تطبيق تعليمات الأمن فى الدولة الهدف ٠٠ كل هذا يساعد رجال مقاومة التجسس على التكهن بالاهداف التى تسعى هذه المنظمات لاختراقها ، وتنير الطريق أمامهم ٠

هذه المجالات الأربعة التى يهتم بها رجال مقاومة التجسس لا يمكن اعتبارها أهدافا أو أغراضا ، ولكنها تعتبر الميادين الاساسية التى يهتمون بها للحصول على المعلومات التى تساعدهم فى تنفيذ مهام عملهم ، ووضع خطتهم وتنفيذها ٠



مخابرات الدعاية

الخيال الخصب والعمل الجاد :

ليس هناك بد لنجاح عملية المعلومات من خيال خصب وعمل جاد ، ولقد قدم لنا صحفى ألمانى مثالا رائعا لفاعلية البحث وتحليل المعلومات، ولقد اشتهرت حالة بحثه فى جميع أنحاء العالم فى مارس عام ١٩٣٥ ٠

لقد خطف هذا الرجل ـ واسمه برثولد جاكوب ـ بواسطة عملاء البوليس السرى الالمانى من سويسرا ٠ وكان جاكوب قد سبق أن كتب بتوسع عن الجيش الألمانى الذى كان فى ذلك الوقت يمر بمرحلة اعادة التسليح ، وكان قد نشر كتابا صغيرا قدم فيه كل التفصيلات عن هيئة أركان الحرب العامة التى أعيد تنظيمها من جديد ، كما نشر معلومات تفصيلية عن قيادات الجيش ، وعن المناطق العسكرية المختلفة ، والوحدات العسكرية التى شكلت حديثا ، وأورد بالكتاب قوائم لعدد ١٦٨ من قواد الجيش ، وصورا لتاريخ حياتهم ٠

وعندما أطلع هتلر على الكتاب ثار وغضب ، واستدعى الكولونيل والدز نيكولاى مستشاره فى شئون المعلومات وسأله :

« كيف تسنى لرجل واحد أن يكتشف كل هذه المعلومات ؟ وقرر نيكولاى أن يعرف الرد عن ذلك السؤال من جاكوب نفسه، فكلف عميلا اسمه هانز ويزمان بالاتصال بجاكوب وايقاعه فى فخ ٠

ولتنفيذ الخطة قام ويزمان ـ وكان يعيش في سويسرا ـ بانشاء دار للنشر بالقرب من الحدود الالمانية ، ومثل دور لاجىء • وأخذ يعقد صداقات مع عدد كبير من المنفيين من ألمانيا النازية ، ثم اتصل بجاكوب فى لندن ودعاه للحضور الى سويسرا لمناقشة صفقة أدبية •

وذهب جاكوب الى « باسـل » ومعه زوجته واستقبله ويزمان ، وتركا مسز جاكوب فى فندق ثم ذهبا الى مطعم فاخر لتناول الغذاء • وفى أثناء الحديث الممتع بينهما اعتذر جاكوب عن ذهابه الى دورة المياه وخلال غيابه وضع ويزمان مخدرا فى كأسه • وعاد جاكوب وشرب الكأس وهو لا يشك فى شىء • وجلس ويزمان فى كرسيه يراقب جاكوب وهو ينام تحت تأثير المخدر • واعتذر ويزمان للساقى عن سكر صديقه وطلب منه مساعدته لكى يحمله معه الى عربة كانت فى الانتظار • وبعد لحظة كان جاكوب فى طريقه الى ألمانيا وبذلك نجح ويزمان فى اختطافه •

ووصل جاكوب قبل منتصف الليل بقليل الى برلين وهـو يدرك تمـاما ما حدث • ثم سيق مباشرة الى مقر رياسة الجستابو ، واقتيد الى غرفة فى الدور الثانى حيث كان فى انتظاره لجنة من الضباط والمدنيين •

وكان على رأس اللجنة الكولونيل والدز نيكولاى ، وفى اللحظة التى دخل فيها جاكوب الغرفة ، انقض عليه نيكولاى بهذا السؤال : « اخبرنا ياهر جاكوب من أين حصلت على البيانات التى كانت أساسا لكتابك ؟ » •

وبدأ جاكوب يشرح شرحا بدا للسامعين أنه عمل باهر من أعمال المخابرات وقال « كل شىء فى كتابى جاء من تقارير نشرت فى الصحافة الالمانية ، فعندما ذكرت فى كتابى أن ماجور جنرال هاس كان الضابط القائد للوحدة السابعة عشرة وموقعها فى نورمبرج ، فاننى استقيت معلوماتى هذه من اعلان وفيات فى جريدة نورمبرج ، اذ جاء فى الجريدة أن جنرال هاس الذى قدم من نورمبرج وهو قائد الفرقة السابعة عشرة المنقولة حديثا حضر جنازة فى نورمبرج » •

واستطرد جاكوب « وجدت فى جريدة U. L. M. فقرة فى صفحة المجتمع عن حادث سعيد ، وهو زواج ابنة كولونيل فيرو للماجور ستيمرمان، ووصف فيرو فى الفقرة بأنه الضابط القائد للفرقة ٣٦ فى الوحدة ٢٥ • ووصف ماجور ستيمرمان بأنه ضابط الاشارة فى الوحدة ، وكان يحضر حفل الزواج أيضا ماجور جنرال سكالر الذى وصف فى القصة بأنه قائد الوحدة الذى كان قد قدم ــ كما قالت الجريدة ــ من شتوتجارت حيث كان مقر قيادة الوحدة » • وهكذا انتهى الاستجواب •

ولحسن حظ جاكوب كان نيكولاى يحترم عمل المعلومات الجيد وكان اعجابه بالعمل الذى قام به جاكوب السبب فى أن يعامله معاملة انسانية • هذا بالاضافة الى المجهودات الجبارة التى بذلتها زوجة جاكوب لكى تنجح فى اطلاق سراح زوجها • وصارت قضية جاكوب حادثا دبلوماسيا ، فقد طالبت سويسرا بأن تفرج ألمانيا عن جاكوب فورا • وأحس المكتب الخارجى الالمانى بالحرج وأجرى البحث عن جاكوب ، واكتشف أنه فى سجن الجستابو ، وبعد شهور أعيد جاكوب الى سويسرا حيث قص تفاصيل مغامرته •

ورفع نيكولاى تقريرا لهتلر عن نتائج بحثه « لم يكن لجاكوب شريك سوى مجلاتنا العسكرية وصحفنا اليومية • لقد أعد تقريره عن نظام المعركة Order of Battie من قطع من المعلومات اكتشفها فى اعلانات الوفيات واعلانات الزواج وغيرها » •

وأضاف نيكولاى بصوت خافت وبلهجة تدل على الاعجاب : « جاكوب هذا يعتبر أنبغ رجال المخابرات الذين صادفتهم فى حياتى التى دامت ٣٥ عاما فى هذه الخدمة » •

وبدت القضية فى أول الامر أنها سوف تتكشف عن فضيحة جاسوسية سوف تهز الجيش الالمانى ، ولكن لم يكن بها جاسوس بل كانت عبارة عن نجاح ساحق حققه رجل مدنى ممتاز كانت كل أدواته مقصا ، وزجاجة صمغ ، وملف بطاقات ، وعقلية ضابط مخابرات •

هذه القصة الطريفة قد تكون مفيدة لكل من يعمل فى ميدان المعلومات . وقد آثرنا أن نذكرها فى أول هذا الفصل حتى تكون واضحة دائما للقارىء عند بحثنا للدوافع التى يتضمنها هذا الفصل .

طبيعة مشكلة المعلومات :

كتب صن تزو فى كتابه « فن الحرب » :

« اذا عرفت العدو وعرفت نفسك ، فليس هناك ما يدعو الى أن تخاف نتائج مائة معركة . واذ عرفت نفسك ولم تعرف العدو ، فانك سوف تقاسى من هزيمة مقابل كل انتصار . واذا لم تعرف نفسك ولم تعرف العدو ، فانك أحمق وسوف تواجه الهزيمة فى كل معركة » .

ان نصيحة صن تزو لا تزال الى اليوم سليمة كعهدها منذ ٥٠٠ عام قبل الميلاد ، ومن الممكن تطبيقها على مجال الاتصالات الدولية . والحرب النفسية والدبلوماسية ، والحرب التقليدية .

وتعتمد الحرب النفسية على المعلومات الموجودة فى كل نواحى عملياتها . وبدون معرفة حديثة بقدرة المرء ، وادراك متعاطف واقعى بآمال الاشخاص وأمانيهم وتواريخهم السياسية والاجتماعية والثقافية، فانه من المؤكد أن مجهودات الحرب النفسية التى توجه لهم سوف تبوء بعدم التوفيق . وكلما ازدادت معرفة المرء بالناس الذين يوجه لهم نداء الدعاية ازداد أثر هذا الشخص على هؤلاء الناس وعلى سلوكهم وآرائهم ، وعن طريق هذا يؤثر على أنماط سلوكهم .

ومن الممكن أن نعرف « معلومات » الحرب النفسية بأنها المجموعة من المعرفة الناتجة من الجمع ، والتقييم ، والمقارنات ، والتفسير ، وذلك فيما يتعلق بالآراء ، والاتجاهات ، والمعتقدات ، والاحساسات ، وأنماط السلوك المنطقى، وغير المنطقى، التى قد تميز جماعة ما يأمل المرء أن يؤثر فيها عن طريق نداءات الدعاية والأجهزة الاخرى .

احتياجات المعلومات :

وهذا النوع من البيانات Data الذى يتعلق بأهداف الحرب النفسية، والذى يطلق عليه كلمة « معلومات » مطلوب لاغراض ثلاثة رئيسية فى عمليات الحرب النفسية :

١ ـ فهى تساعد المخططين من اعداد خطط واقعية صالحة تقوم على التعرف على خطط العدو ومواقفه ٠

٢ ـ وتمد القائمين بالتنفيذ بمادة من الممكن استخدامها فى انتاج الدعاية ٠

٣ ـ وتمكن أخيرا الذين يعملون فى ميدان الحرب النفسية من تقييم فاعلية العمليات السابقة ٠

المعلومات من أجل التخطيط :

ان أهم وظيفة للمعلومات بل أكثرها أهمية فى عمليات الحرب النفسية هى الوفاء بحاجات التخطيط ٠ فسواء أكان من يعمل بميدان الحرب النفسية موجودا فى وحدة عسكرية فى الخطوط الاولى من منطقة القتال ، أو فى قيادة استراتيجية بعيدة كل البعد عن الناس الذين توجه اليهم مجهودات الحرب النفسية ، فان هذا الشخص سوف يحتاج الى بيانات عن الجماهير التى توجه اليها الحرب النفسية ٠ ويطلق على عملية جمع المعلومات ، وتحليلها ونشرها الى أشخاص من الممكن أن يستخدموها ـ اصطلاح « تحليل الهدف » ٠

« وتحليل الهدف » يعنى الفحص الدقيق ، أو التقييم لكل البيانات المطابقة المتوافرة التى تتعلق بالجماعات أهداف الحرب النفسية ، ويدخل فيه الظروف العسكرية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والسياسية التى قد تؤثر على الاستعدادات النفسية ، والايديولوجية ، السابقة لهذه الجماعات ٠

والغرض من وراء جمع هذه البيانات وتقييمها هو التأكد من نواحى ضعف نفسية يمكن توجيه هجوم نفسى عليها بوسائل ملائمة ٠ واذا كان العامل فى ميدان الحرب النفسية مسئولا فقط عن جمع المعلومات وتقديرها لاستخدامها فى مناطق اهتمام ضيقة كجبهة قتال ، فان البنود الرئيسية للاهتمام سوف تتضمن ما يأتى :

١ ـ سلوك القوات والضباط فى معسكر الاعداء ازاء الصراع القائم ، ودرجة اشتراكهم الشخصى فيه ، والظروف التى يجبرون فى ظلها أن يخوضوا المعارك ٠

٢ ـ سلوك الضباط والرجال تجاه حكومتهم القومية ، وقادتهم وأى جماعات أو دول متحالفة معهم فى الكفاح المشترك ٠

٣ ـ معلومات مفصلة لتاريخ حياة الأشخاص ويشمل ذلك قادة العدو فى الميدان ، وكذا الضباط الموجودين من القوات الصديقة عبر خط القتال مباشرة ٠

أما فى عمليات الدعاية الاستراتيجية ذات المستويات العالية فان احتياجات المعلومات تتطلب سمة فنية من أولئك الذين يعدونها أو يستخدمونها ، وهذه البيانات اللازمة لأغراض التخطيط تضم :

١ ـ بيانات خاصة بحجم أو « تكوين » جماعة معينة تكون هدف الحرب النفسية ، وكذا معلومات عن ايديولوجيتها واستعداداتها وميولها السابقة نحو ذلك ٠

٢ ـ بيانات تدل على الاشخاص والقوى التى تؤثر فى الجماعة ، وأسباب هذا التأثير وقدره فى المنطقة الهدف ، ومن هم الأشخاص الذين يجب مخاطبتهم فى اتصالات الحرب النفسية ٠

تحليل الهدف :

وبالرغم من أن التجارب السابقة أثبتت أهمية الحاجة الى تحليل الهدف، فان الاجابة عن احتياجات هذا التحليل التى تتطلب معلومات لا حد لها ليست بالشىء السهل الذى يمكن تنفيذه بطريقة مرضية دائما ٠

ولقد طور محللو العلم الاجتماعى منذ الحرب العالمية الثانية تكنيكات وطرقا لتحليل الهدف ، وقد نتوقع تطويرا وتحسينا أكثر من ذلك فى المستقبل ٠

على أنه فى هذا التطوير يجب أن تقوم التحليلات على فهم للعلاقات القائمة بين الأنظمة السياسية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية للمنطقة ، وطرق الاتصالات بين الاشخاص كأفراد ، وبين الجماعات كمجموعة ، وبين القوى المحركة المحتملة التى تؤدى الى تغيرات فى الاتجـــاهات والســلوك من جانب الافراد والجماعات ٠

وفى المرحلة الحاليــة لتطور العلوم الاجتمــاعية ، يكون من الســذاجة أن نصر على طريقة معالجة واحدة أو اسلوب واحد فى تحليل الهدف ٠ فكل جماعة « هدف » للحرب النفسية تتطلب اعتبارات خاصة ، وهذا يتطلب تعديلات فى الاسلوب أو المنهاج ٠

وعلى سبيل المثال جاءت البيانات اللازمة عن العدو لتحليل الهدف فى أثناء الحرب العالمية الثانية من مصادر ثلاثة :

- تقارير استجواب أسرى الحرب ٠
- الوثائق التى ضــبطت ، والبريد الذى وقع فى أيدى الجانب الآخر ، ومطبوعات العدو الدورية التى احتفظ بها فى البلاد « المحايدة » ٠
- تقارير اذاعات العدو ٠

وعند مناقشة المصادر التى نحصل بها على بيانات رئيسية من أجل تحليل الهدف ، جدير بنا أن نذكر مصدرين آخرين هما : استفتاءات الرأى العام ، والدراسات الاساسية التفصيلية التى تجرى على منطقة أو دولة ٠

على أننا نرجو قبل أن ننتقل الى شرح التكنيك الحرفى لتحليل الهدف أن نشير الى أثر التحليل السليم أو الخاطىء على التخطيط ٠

ففى دراسة جويل بريمان لحرب الدعاية اليابانية الموجهة للولايات المتحدة صورة صحيحة توضح الاثر البالغ لتحليل الهدف حينما يكون تحليلا خاطئا ، أو غير تام ، أو قديما جدا ٠

لقد حلل بريمان محتويات عدد من الاذاعات اليابانية على الموجة القصيرة الموجهة للولايات المتحدة فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وعن طريق مثل هذه التحليلات استطاع بريمان أن يبنى من جديد تقدير معلومات الدعاية اليابانية للظروف التى كانت سائدة فى الولايات المتحدة خلال الحرب ٠ وظهر من هذه الدراسة أن مخطط الدعاية اليابانى لم تكن لديه صورة دقيقة عن الاحداث والقوى المحركة فى أمريكا ، ولذلك فان معظم مجهودات الاذاعة اليابانية لم تصب الهدف المحدد ٠

وخلال الحرب العالمية الثانية أعد طبيب نفسى بريطانى دكتور ه٠ف ديكس عددا من التقارير المفيدة جدا لقسم الحرب النفسية الانجليزية الامريكية فى القيادة العليا للحلفاء ٠ ولقد استطاع دكتور ديكس بفضل معرفته وفهمه للغة الالمانية والشعب الالمانى والثقافة الالمانية ، أن يدخل معتقلات أسرى الحرب متنكرا فى زى فاعل خير ، وأن يستجوب الجنود النازيين الأسرى من غير أن يعرفوا شخصيته الحقيقية ، أو أغراضه من دخول السياج الحصين ، وتمكن من أن يستطلع بفراسته اتجاهات جديدة فى كيانهم النفسى ، وأن يعرف العوامل الرئيسية التى دفعتهم لهذا السلوك ٠

واستطاع أطباء نفسيون ، وعلماء نفس ، واخصائيون في علم الأجناس أن يطوروا وينقحوا في نصوص أخرى الطرق التي استخدمها دكتور ديكس وزملاؤه في وقت الحرب ـ من تحليل الخلق الالماني • وتضمنت الطرق اجراء عـدد من المحادثات غير الرسمية، والمقابلات الشخصية الممتدة مع مساجين من رتب مختلفة. ودرست الوثائق المضبوطة المناسبة ، وأجريت محادثات استطلاعية مع رؤساء قسم المخابرات والقائمين على الاستجواب بغرض تفهم أنماط الخلق النازى • وكانت نتيجة الاساليب المختلفة بحثا تركيبيا جديدا لبيانات المعلومات الموجودة التى تؤدى الى تشخيص جديد للجندى الالمانى ، وهو الهدف الاول لمجهودات الحرب النفسية الانجليزية ـ الامريكية المشتركة •

الأنباء كمعلومات :

ان رجل الدعاية الذى لا يستطيع أن يوصل الى العدو تلك الانواع من المعلومات التى تستهدف تمزيق وحدته ، والتى تجعل تقديراته وتوقعاته مرتبطة بهذه المعلومات ، لا يكون قد أدى مهمته على أكمل وجه• ورجل الدعاية لا يستطيع أن يفعل هذا بواسطة اسطوانات الموسيقى ، أو المحاضرات الثقافية أو السياحية بغض النظر عن مدى جمال الموسيقى أو طرافة المحاضرات • انه يجب أن يتحول بكل جهده الى أول سلاح للدعاية ونعنى « سلاح الانباء » •

ورجل الدعاية المحترف ليس بصحفى حتى ولو كان أصل صناعته الصحافة، فهو يتحدث باسم جيش أو باسم حكومة ، كما أن كل ما يتلفظ به له مسئوليته الرسمية • وهو يجب أن يكون دقيقا فى توقيت دعايته ، أى تصدر فى موعد محدد مهما كانت وسيلة الاعلام المستخدمة ، وهذا شبه ما يحدث فى صحافة أيام السلم التى لا تتأخر عن الصدور فى موعدها المحدد ، ولكنه فى نفس الوقت يجب أن يكون حريصا حرص مندوب صحفى حكومى • وهو فى الواقع تتجاذبه مسئوليتان : مسئولية نحو عمله في الدعاية وذلك يتطلب منه الحصول على معلومات طريفة يبعث بها عن طريق الاذاعة ، أو عن طريق النشرات الى العدو بسرعة ،

ومسئولية تجاه السياسات الرسمية لحكومته • وهذا يلزمه بألا ينشر أو يذيع شيئا غير مؤكد أو يكون ضارا بوطنه أو حكومته •

ومصادر الانباء كثيرة متعددة ، فمثلا تحتوى التقارير عن العمليات الواردة من الميدان على مواد فى غاية الطرافة والاهمية للعدو ، ولكن هناك أسبابا واضحة تحول دون وصـول مثل هذه المعلومات لرجال الدعاية لانهم يفكرون أولا فى المستمع ، ثم يفكرون بعد ذلك في موضوع الأمن • وهنا يلعب التعارض بين الأمن والدعاية دورا كبيرا في حجب الكثير من المعلومات الطريفة والهامة عن رجل الدعاية •

وفى البلاد المتقدمة تقوم الهيئات العاملة فى الصحافة والاذاعة بالاعمال المألوفة في الانباء ، والعادة أنها تقوم بعملها أفضل مما يقوم به موظف هاو فى خدمة الحكومة •

والواقع أن طبيعة الانباء لا تتأثر بالتصنيف الذى يحدد درجة سريتها ، والفرق بين الانباء التى تصدرها الهيئات الحكومية وتلك التى تصدرها الهيئات التي تعمل في ميدان الأنباء خارج الحكومة هو أن الأخير أفضل من ناحية الطابع المهنى أى طابع الحرفة •

أما من ناحية اجتذاب الانتباه فانه يجب أن تنافس المعلومات التى تستخدم فى عمل الدعاية ما ينشر بالصحف الكبيرة فى بلاد العـدو ، اذ يجب أن تكون حديثة جيدة الاعداد موثوقا بها ، فليس من محل فى الدعاية للكذب أو الهزل أو السخرية بأكثر مما قد يكون فى صحيفة من الدرجة الاولى ، وحتى اذا ظهرت مبالغات أو توافه في الصحف التجارية فان رجل الدعاية يجب أن يعتبر نفسه أركان حرب للعمليات ، وظيفته أن يرسل للعدو الأنباء ذات الفاعلية التى لها تأثير سيىء عليه ، ولكنها يجب أن تشير الى كل موضوع هام يستحق الذكر ، وأن يكون هذا في شكل مستساغ مقبول •

ولكن هناك مسألة تستحق الذكر هنا ، وهي أن في العقل البشرى ناحية خداعة قد تعاون كل رجال الدعاية على ارسال الانباء التى يجب أن يكون لها تأثير سيىء • اذ يكمن فى داخلية أغلب الناس جزء من الميل نحو اللامسئولية ، وهذا يجعل الأنباء السيئة لهم أكثر طرافة من الأنباء الجيدة، فهم يتوقون للأنباء السيئة، ويميلون الى نشرها وتناقلها ، وهى تزيد من حدة التوتر فى الفرد منهم وتزيد اهتمامه بالاشياء ، على حين ترفع الانباء الجيدة عن كاهل الفرد التوتر والقلق •

ويستطيع رجل الدعاية أن يحصل على الانباء من مختلف المصادر باشتراكه فى كل الاجهزة التى تشتغل بالانباء ، مثل الصحف ، شركات الانباء ، أجهزة التيكر « الانباء بالبرق » وغير ذلك ، أما فى الميدان فان ضابط الدعاية يستطيع أن يسترق الأنباء عن طريق التقاط اذاعات الأنباء من وطنه ، أو من دول الحلفاء •

تواؤم المعلومات مع الموقف :

وتحتاج بعض مواد الدعاية البيضاء وكل مواد الدعاية السوداء ، الى أن تكتب بحيث تتواءم مع ما يطالعه العدو ، أو يستمع اليه ، أو يتحدث عنه فى وطنه • واستخدام لغة عامية قديمة مهجورة ، أو فكاهة قديمة مبتذلة ، أو اشارة الى رجل عظيم باعتباره حيا مع كونه مات منذ سنوات طوال ، ونقص تفهم الاحوال والظروف وألوان القلق التى يعيش فى ضوئها المستمعين •• كل هذا يفسد برنامج الاذاعة • ومن ثم فان رجل الدعاية الاذاعية يجب أن يعيش فى العصر والظروف التى يعيش فيها المستمعون لاذاعاته •

ولما كان غير معقول أن يتحرك رجل الدعاية بحرية بين وطن العدو ، وبين محطة الاذاعة التى يعمل فيها كان من الضرورى أن يكون على صلة بسير الأمور فى بلاد العدو حتى أقرب دقيقة ، والا فانه يفقد فاعليته ، ويصبح متحدثا عن أشياء قديمة لا تأثير لها على الموقف الذى يحاول التأثير فيه •

على أنه ليس من الصعب أن يكون رجل الدعاية دائم الصلة ببلاد العدو وذلك عن طريق أحدث المطبوعات التى يصدرها العدو ، أو عن طريق استجوابات الاسرى أو المدنيين الأعداء ، أو عن طريق تحليل اذاعات العدو لمواطنيه •

وعلى سبيل المثال أخطأ النازيون بافتراضهم أن دعاة العزلة فى الولايات المتحدة استمروا على حالهم بعد عملية « بيرل هاربر » • وقد يكون الالمان على صواب فى افتراضهم بوجود كثير من الناس يبدون مشاعر معادية لروزفلت ، كما كان هناك الكثيرون ممن لا يريدون تدخل الولايات المتحدة دوليا • ولكن الألمان أخطأوا فى استخدام لغة منتصف عام ١٩٤١ فى منتصف عام ١٩٤٢ لأنه حدث تغيير جوهرى فى الشعب الامريكى بعد بيرل هاربر وتعرف الى آراء جديدة ومعتقدات أخرى ، ولذا فقد بدا الالمان فى أعين الناس جهلة لا يعرفون مجريات الأمور ، ولم يكسبوا أنصارا لدعايتهم •

لقد كان ينقصهم عنصر الملاءمة ، وكان فى قدرتهم أن يتغلبوا على ذلك بشراء أحدث المطبوعات الامريكية من لشبونة والقيام بدراستها للتعرف على سير الامور بين الشعب الامريكى •

التعرف على خطط العدو ومواقفه :

للدعاية طبعها الذى لا معدى عنه ، والذى يظهر تدريجيا واضحا تماما للقائم بتحليل الدعاية ، فاذا كان حريصا أريبا يعنى بدقة الحكم فى تقدير قيمة المهام الخاصة ، فسيجد أن ملفاته تزخر بأهداف مباشرة ، وأهداف طويلة المدى للعدو • ويصبح هذا مستطاعا فقط حينما يكون ثمة مادة كافية هى حصيلة انتاج فترة زمنية مناسبة • وهذه المادة تعطى بيانا كاملا عن الاغراض المحتملة لدعاية العدو للمدة التى تغطيها المادة المتوافرة للقائم بالتحليل •

على أنه يمكن ملاحظة هدف الدعاية وقصدها بالصورة التى يمكن بها ملاحظة العمل والاجراء الذى يقوم به العدو ، كما أنه من الممكن عن طريق الدعاية التى

يطلقها العدو أن نتوقع وننتظر الاجراء الذى سيقوم به ، دون حساب للمدى الزمنى الذى يمكن أن يتم الاجراء فيه ٠ واذا ما تقرر الاجراء ، فانه يمكن تعقب العلاقة بين موضوعات الدعاية الاخرى ، وبين هذا الاجراء ٠

والواقع أن أى اجراء فى الحرب يستهدف الاضرار بالعدو من ضربات توجه ضد انتاجه الى اثارة للفزع بين مواطنيه ، ومن ايجاد مشاعر عدم ثقة بين قراء صحفه والمستمعين لاذاعتــه الى خلق تفكك لوحــدة الزعامة السياسية فى بلده مما يوجد توقفا فى الحركة العامة فى البلاد ٠٠ وهكذا ، أما الاجراء فى وقت السلم أو فى الفترة السابقة للعمليات ، فانه يستهدف القضاء على طاقة استمرار الحرب أى أنه يوجه ضد الحرب نفسها ٠

تقدير موقف دعاية العدو :

وبالاضافة الى عرض صورة أهداف العدو وتقدير الوسائل السيكولوجية التى تعتبر مفيدة لتحقيق هذه الأهداف ، فان لتحليل الدعاية فائدته فى عرض موقف دعاية العدو ، فالعدو يتجنب بعض الموضوعات المعينة لانه يجد لزاما عليه أن يفعل هذا ، ثم هو يتحدث عن موضوعات أخرى لان الظروف ترغمه على أن يفعل هذا ٠

فمثلا ، لو حدث أن توقف الالمان فى أثناء الحرب العالمية الثانية عن ترديد الدعاية ضد ما يستهلكه اليهود فى ألمانيا من مواد غذائية أولى بها أفراد الشعب الالمانى المحارب ، لكان معنى هذا أنه اما أن يكون الشعب الالمانى قد شبع من الدعاية ضد السامية ، واما كرأى تبادلى ، ان السلطات النازية ألغت بطاقات التموين لليهود وتركتهم يتضورون جوعا ٠ ولو اتبع الألمان هذا بتصريح عن سوء محصول الشعير لكان من الممكن أن يعنى هذا أنهم يعــدون الناحية الانسانية والمشاعر العاطفية فى مستمعيهم لتقبل التصريح بتضور اليهود جوعا ٠

ويمكن فى الأغلب تقدير معنويات العدو عن طريق تحليل الدعاية قبل أن يمكن الحصول على وصف هذه المعنويات بوساطة شاهد عيان ، وهنا عدة ملاحظات قد يكون لها تقديرها عند التحليل ، فاغفال الهجوم على معتقدات الناس مثلا قد يدل على أن المشكلة الدينية صارت حساسة ، والتحدث عن الاطفال قد يدل على حقيقة شكوى الآباء من المدارس التى لا تتوافر فيها معدات الدراسة مع سوء الغذاء أو عدم تيسر الرعاية الطبية ، كما أن اللهجة الهادئة فى الدعاية تدل على أن الروح المعنوية عالية • وعموما فان الروح المعنوية السيئة تظهر من النقيضين المتطرفين : الصمت المطبق ، أو الحدة البالغة •

تحليل الدعاية Propanal كمصدر للمخابرات :

يمكن أن تخدم تحليلات الدعاية ـ أو على ما يقال لها اختصارا Propanal على أنها مصدر قيم للمخابرات حتى وان لم تكن مرتبطة مباشرة مع عمليات الدعاية المضادة ، والعدو يجب ـ لكى يجتذب الانتباه للدعاية ـ أن يقدم بعض الأنباء وبعض التعليقات التى تدل على اتجاهات رأيه ، كما يقدم بعض المواد الترويحية والترفيهية •

والمحتويات العرضية للدعاية فضلا عن تكوينها هى فى حد ذاتها مادة صالحة للدراسة ، فاذا كان خبر نشراته رديئا مثلا والورق سيئا واللغة ركيكة كان معنى هذا أن العدو يحس نقصا فى المواد والافراد ، واذا تفاخر العدو بانتصاراته فانه قد يكشف عن تسمياته لبعض المناطق وبذلك يعاون الجانب الآخر فى اعداد خرائط القتال ، واذا ما ذكر أسماء الابطال فانه قد يكشف عن تنظيم المعركة وتوزيع قواته ، واذا ما قدم حديثا ضافيا عن موقفه الاقتصادى فانه يسد الثغرات الموجودة فى الاحصائيات حتى ولو كانت الارقام مزيفة • وهذه يجب أن تزيف عن قصد ، ولكن يمكن استخدامها الى جانب غيرها لاعداد التقديرات •

ولا يماثل المخلوق البشرى فى الحذق والذكاء الا مخلوق بشرى آخر ، وما يحاول رجل ما أن يحققه عن طريق الخداع والتضليل يستطيع رجل آخر أن يتصوره ويتخيله • كما أن مواد الدعاية تمتلىء بالمعلومات عن العدو ، وعن رأيه فى نفسه ، وعن رأيه فيك ، وحالته الفكرية ، وتوزيعه لقواته ، وتنظيمه للمعركة ، ونظامه الاقتصادى وكل ما عدا هذا •

ولقد أبقت الحكومة اليابانية الولايات المتحدة طوال الحرب الاخيرة على دراية تامة بالاحوال التى تسودها ، اذ كانت تذيع لها بالانجليزية التغييرات التى تحدث فى الوزراء وكبار الموظفين فى الحكومة مما أعطى الولايات المتحدة فكرة جيدة عن الموقف السياسى دائما • ويبدو أن مجلس المعلومات الامبراطورى Joho Kyoku قد افترض أنه لا فائدة من اخفاء هذه التغييرات لفترة طويلة، ووازن بين اتجاهين، ورأى أن مثل هذه المعلومات ستجعل رجال الصحافة الامريكيين والموظفين والضباط الأمريكيين وغيرهم يطالعون وينصتون لمواد الدعاية للحصول على الحقائق •

وبالاضافة الى ذلك فان الامداد المباشر بالأنباء غير الممتزجة بغيرها وبالمعلومات المستنبطة من دعاية العدو فى وقت الحرب أو فى أوقات الازمات ، يقدم دليلا ومرشدا يوضح استراتيجية العدو •

ففى عام ١٩٤١ / ١٩٤٢ بدأت الاذاعة اليابانية فى اذاعتها باللغة اليابانية، وباللغات الاجنبية تبرز اهتماما بجزر كريسماس على أنها ذات أهمية من ناحية الاستراتيجية البحرية ، وقد تبع هذا أن احتلت القوات المسلحة اليابانية تلك الجزيرة ، ولقد سر اليابانيون عندما عرفوا من اذاعاتهم أنه قد تم الاستيلاء على هذا الموقع الاستراتيجى الهام • والواقع أن جزيرة كريسماس لم تكن بالاهمية التى صورتها لها الاذاعة اليابانية ، ولكن الشىء الهام هو أن الاذاعة اليابانية قد تحدثت عنها سابقة للزمن ، فأعطت للحلفاء بذلك انذارا مبكرا باعتزام اليابان احتلالها •

وقد يسبق توقع العدو للهزيمة استهانته بأهمية المنطقة التى ستحدث فيها الهزيمة ، أو قد يسبق هذا أن يوصف للمستمين فى الجبهة الداخلية القوة الكبيرة التى للعدو فى تلك المنطقة • على أنه يمكن ـ اذا ما توافر للعدو وعى للأمن ـ أن ندرك أن شيئا ما وراء صمته المطبق بالنسبة لموضوع معين ، ولا شك أنه كان غريبا أن يتوقف الامريكيون تماما عن التحدث عن انشطار الذرة فى الوقت الذى لم يكن يمر شهر فيه خلال السنوات التى سبقت الحرب العالمية الثانية دون أن تنشر صحف نيويورك مقالات عن هذا الموضوع •

وقد تزعم الدولة التى تعد عدتها لتوجيه ضربة قوية فى منطقة ما أن العدو يعد العدة للاعتداء ، وقد تطلق الدولة التى تجمع أمرها على نقض السلم ، دعاية عجاجة صياحه محاولة أن تجعل المستمعين يلقون بالمسئولية على الدولة التى ستكون ضحية للاعتداء ، وعلى سبيل المثال كان هتلر يتحدث عن حبه لحياد النرويج عندما وجه اليها ضربته زاعما أنه فعل هذا لحمايتها من الانجليز •

الواقع أنه لا توجد قواعد ثابتة لكل الحروب ولكل المقاتلين ، فلقد عمل الالمان على أساس طابع معين وعمل اليابانيون بطابع آخر غيره •

وعلى سبيل المثال حرصت القيادة الألمانية العليا على أن تتجنب التفاخر أو التباهى بما لا تستطيع أن تحققه فعلا ، وكان الالمان يوجهون ضربتهم دون أى انذار أو تحذير ، ولم يقولوا قط انهم سيوجهون ضربة ما عندما كانوا يعتقدون أنهم لا يستطيعون القيام بهذا•ولقد أعد الانجليز والامريكيون جدولا زمنيا لهذا ، وكان فى استطاعتهم أن يقدروا عن حدس السرعة التى يظن الألمان أنهم سيتقدمون بها فى داخل الاراضى السوفييتية ، وعلى أساس هذه المعرفة وضع الانجليز والأمريكيون خطتهم لدعايتهم كعامل مضاد للمباهاة والتفاخر من جانب الألمان ، وحاولوا أن يثبتوا أن الالمان لن يستطيعوا الاستيلاء عليها ، وذلك ليوضحوا لشعوب أوروبا أن ألمانيا النازية قد ازدردت ما لا تستطيع أن تهضمه •

ولقد تذكر الحلفاء فيما بعد هذه العادة الالمانية عندما بدأت الاذاعة الالمانية تتحدث عن أسلحتهم السرية ، وعندما بدأت بريطانيا تقذف « روافع » Ramps

الصواريخ ف ـ ١ على الساحل الفرنسى بالقنابل صمتت الاذاعة الألمانية عن هذه الأحاديث ، ومن ثم توافرت للانجليز فرصة للتأكد من أن هذه الروافع التى حطموها كانت جزءا من الأسلحة السرية التى تفاخر الألمان بالحديث عنها ٠

وسرعان ما عرف الانجليز أن الالمان قد يحاولون العمل ضد التأثير السيكولوجى لاعلان الحلفاء عن « يوم الغزو » D - Day لقلعة هتلر الاوروبية باذاعة أنباء براقة من جانبهم ، وعندما عاد الالمان الى ذكر الاسلحة السرية شك الانجليز فى أن الالمان قد أصلحوا التلف الذى سببوه لآلات اطلاق الصواريخ ٠

وجاء يوم الغزو وفى اذاعة واحدة أراد الألمان أن يؤثروا فى اليابانيين والصينيين ، فأعلنوا أن عمليات الأسلحة السرية تكاد تبدأ ، وأن الكثير من الأسلحة السرية ستستخدم الواحد تلو الآخر ٠ وبعد يوم واحد أصاب أول صاروخ ف ـ ١ مدينة لندن ٠

ولكى يمكن تعقب هذا اللون من الدعاية يحسن اعداد لوحة لرسم بيانى لفترة مدتها ثلاثة شهور ، وتختار بعض الموضوعات البارزة ٠ وعلى مثال ما يجرى فى الرسوم البيانية يكون لكل موضوع لون خاص فى اللوحة ، وترسم الخطوط على اللوحة لبيان عدد المرات التى يذكر فيها كل من هذه الموضوعات فى اذاعات العدو ، وتكفى اذ ذاك نظرة الى اللوحة لبيان سير اهتمام العدو بكل من هذه الموضوعات فى مدة زمنية محددة ضمن المدة التى يغطيها الرسم البيانى ٠

ومن الممكن أن يشتمل هذا الرسم البيانى على عدد الكلمات التى يعرض بها العدو لكل من هذه الموضوعات الرئيسية ، وكذلك المساحة التى يخصصها فى صحفه لكل منها ٠

وقد أعد بول لاينبارجر لوحة تقدم سير دعاية الالمان عن ثلاثة موضوعات رئيسية هى « الغذاء » و « الحرب البحرية » و « الاسلحة السرية » فى المدة من أول يناير سنة ١٩٤٤ حتى الثلاثين من يونيو من نفس السنة ، وقسم المدة

الزمنية الى فترات كل منها عشرة أيام ، ودلت اللوحة على أن الالمان استمروا يتحدثون عن الامداد بالغذاء وعن الحرب البحرية حتى منتصف شهر مارس على أساس افتراضهم أن سفنهم ستجيء بمزيد من الغذاء • وفي مايو عندما اعترف الالمان أنفسهم بالموقف البحرى السيىء أسقطت الحرب البحرية من حسابهم ولم يذكر عنها شيء قط ، واستمر الامداد بالغذاء يذكر باعتدال نظرا لأنهم راحوا يتحدثون عن صعاب أخرى ، ولكن الألمان عندما شعروا بالحاجة الى شيء جديد يشعل الحماس ، ويشجع المستمعين في الجبهة الداخلية ــ بدأوا يتحدثون عن الأسلحة السرية •

وسواء أكانت هناك أسلحة سرية أم لم تكن ، فان الامر كان يتوقف على مظهر السلوك القومي ، ولقد زعم كل من الألمان واليابانيين أن لديهم الكثير من الأسلحة السرية التي يعدونها ــ والتي سوف تهز العالم ، وأطلقوا فعلا بعض الأسلحة السرية ، أما اليابانيون فلم يكشفوا عن شيء حتى انتهت الحرب •

على أنه اذا أعدت مثل هذه اللوحات الاحصائية عن دعايتنا ، وقورنت باللوحات الخاصة بدعاية العدو ، فانها تبين كيف استطعنا أن نرغم العدو على أن يتحدث عن شيء لم يكن يود أن يخوض فيه •

ويمكن اعداد مثل هذا الفحص الاحصائي بطريقة فعالة اذا احتفظ للعدو بسجلات تقيد بها دعايته ، واتجاهاته ، والموضوعات التي تعرض لها ، مع اعداد ملف لكل من الموضوعات الهامة ، ومع تقييد الوقت الذى يخصص للحديث عن كل من هذه الموضوعات ، والمساحات التي يغطيها في مواد الدعاية المطبوعة وذلك بالنسبة للفترة الزمنية موضع الفحص •

ولهذه المادة الاحصائية نفعها في تحليل الدعاية ، ولا يمكن تجاهل قيمتها بالنسبة للحرب النفسية • فمن جهة تنخل المعلومات العادية عن الدعاية ، ومن جهة أخرى تجمع المعلومات ذات القيمة لرجال المخابرات لاستخدامها بدورهم ، ثم الى جانب هذا تعد التحليلات اللازمة لاغراض الحرب النفسية •

ومن الضرورى أن نتذكر ـ أنه للأغراض الخاصة بوقت السلم ـ قد يخفى الاعداء علماءهم، أو استعداداتهم الحربية، وأسلحتهم السرية، الا أنهم لا يستطيعون أن يخفوا الفرصة لاشعال الحرب،كما لا يستطيعون أن يخفوا ترتيباتهم للاستعداد لها ، ولا تستطيع حكومة أن تتخيل وجود المعتدى الذى يظهر بوضوح أنه غير كفء للاعتداء .

ان عملية « تحليل الدعاية » قد تكون واحدة من أفضل التنظيمات للتنبؤ بالحرب فى عصر الأسلحة الشديدة التدمير ، وقد يمكن تمويه عملية التعبئة للحرب ولكن لا يمكن اخفاؤها بحال ما .

تحليل الرأى العام :

يمكن بوساطة العملاء والجواسيس فى الظروف الحسنة القيام « بعملية استفتاء » فى الشوارع الرئيسية وسط عاصمة بلاد العدو ، وكلمتا « عملية استفتاء » هنا بمعنى تقديرى ، ذلك لأن الذى يجرى فى الحقيقة هو اختبار اتجاهات الناس وما يشغلهم وماذا يرون فى موضوعات معينة ، ثم ما آمالهم وآلامهم ؟ وعندما يتم هذا الاستقصاء تكون فى متناول يد رجل الدعاية مادة لموضوعات يستطيع أن يعمل على أساسها ، واذا لم يتيسر للعملاء والجواسيس القيام بذلك . فانه يمكن الوصول الى نفس النتائج عن طريق التحليل الجيد لدعاية العدو بشتى صورها ، ومن الممكن تصوير آراء العدو واتجاهاته عن طريق ما يقوم به رجال دعايته سواء فى الميدان المحلى أو فى الميدان الخارجى .

ويجب أن تكون عملية « تحليل الرأى » منسقة منظمة حتى يكون لها نفعها. وعلى سبيل المثال أجريت محاولات فى الولايات المتحدة لاستجواب آخر القادمين من طوكيو فور قيام الحرب العالمية الثانية وذلك لاستخلاص ما يكون لديهم من معلومات ، وقد أمكن الحصول منهم فعلا على معلومات ولكن كانت تعليقاتهم عديمة الجدوى ، فلا قيمة لما يفكر فيه العدو بصورة عامة الا عندما تكون قواتك فى ضواحى عاصمة بلاده ، واذا اعتمدت على أن الشخص الذى تستجوبه سيعلن عن نوايا العدو صراحة فان ذلك يكون هراء ومضيعة للوقت .

وسؤال « ماذا تظن أنك تظن ؟ » يبدو سخيفا ، ولكى يكون هذا السؤال مفيدا يجب أن يتجه الى التخصيص ، كأن تقول : « ماذا تظن فى سعر معطف جديد ؟ » و « ماذا تظن فيما تتناول من أجر ، وهل هو كاف ؟ » •

ان ما يفكر فيه شخص ما « رأيه » له صلة عملية بما يقوم به ، وفى الحياة العملية يكون لرأى الشخص تأثيرة لانه جزء من رأى الجماعة •

ويقول لاينبارجر « ان بعض الجماعات تتكون بسبب اشتراكها فى رأى واحد دون أى عامل مشترك آخر ، ففى الاجتماع الدينى تجد مدير البنك يجلس الى جانب المرأة التى تحمل له الفحم الذى يستخدم فى مدفأته . ان أغلب الجماعات تتكون بحيث تضم أناسا من نوع واحد (زنوج مثلا) ، أو تضم أناسا يعملون فى مهنة واحدة ، كما تتكون بعض الجماعات على أساس ما يملكه أعضاؤها (ملاك أراض ، أصحاب عمارات) ، والمجتمع العملى يجعل الجماعة ذات رأى واحد نظرا لابرازه المشكلات التى يظن أنهم جميعا يواجهونها ولها تأثير على مصلحتهم المشتركة ، وهذه الجماعات ليست (جماعات رأى) فحسب بل هى (جماعات مصالح) ، وهذه الجماعات ذات الطابع الجماعى والتى تجمع بينها حرفه واحدة أو مصلحة مشتركة هى التى تحاول الدعاية اثارتها وتحريكها ضد بعضها بعض مع العمل لادراك هذا الهدف بكل وسيلة مستطاعة •

ولا ينبغى أن يعتقد رجل الدعاية أنه نظرا لوجود جماعات مختلفة فى المجتمع يكون هذا مصدرا للضعف أو سببا للانقسام ، فلا يقف العمال دائما موقف التضاد من المؤسسات التى يعملون بها ، ولا يقف كبار السن دائما ضد الشباب ، ولا النساء ضد الرجال ، ولا بحارة السفن ضد رجال السكك الحديدية • وفى المجتمع الجيد التوجيه يكون للجماعات مصالحها الخاصة الى مدى محدود ولأغراض معينة ، ورجال السكك الحديدية ليسوا دائما أعداء لسيارات نقل الركاب ولا لشركات الطيران ، ولكنهم أحيانا يفقدون عقولهم ويظهرون استياءهم ضد شركات التأمين عندما يختلفون مع هذه الشركات على تقديراتها للتعويضات » •

ورجل الدعاية الضعيف هو الذى يحاول التدخل فى كل خلاف بين الجماعات ، بل يحاول التدخل مع عدم وجود أى خلاف ، ولكن الدعاية الحكيمة هى التى تتخير « الموضوعات الجماعية » المستحكمة بالقدر الذى يجعلها لا تستطيع معه العزوف عن تقبل معاونة صغيرة من الخارج •

فاذا ما كانت هذه المعاونة من الخارج مثلها مثل « قبلة الموت » للجماعة التى تتقبل المعاونة ، كان من الواضح هنا أن الدعاية المستخدمة هى «الدعاية السوداء» لا « الدعاية البيضاء » ، وعلى أية حال فان الاستخدام الحكيم المعقول للمعلومات هو العامل الأول فى محاولة « المعالجة السيكولوجية » لجماعة العدو •

الاستفتاء :

يمكن أن يقدم تحليل الرأى منظرا جانبيا للرأى العام للعدو ، وللحصول على هذا المنظر الجانبى أبدأ العمل على نحو ما تعمل عند تجميع سلخات الخرائط التى تلتقطها آلات التصوير الجوى • قسم كل بلاد العدو الى جماعات أساسية حسب النسبة المئوية لمجموعات السكان ، تخير هذه الجماعات التى يهمك التحدث اليها ، ولو توافر لك عدد من الانصار الموالين أرسلهم الى بلاد العدو ليسألوا مواطنى العدو سؤالا واحدا معينا تضعه لهم ، على أن يوضع محل الاعتبار التمثيل النسبى للجماعات المختلفة داخل أرض الهدف ، وكذا توزيع السكان بين الحضر والريف ، والقوى السياسية التى لها تأثير على شعب الاعداء •

ولا ينبغى أن يوجه السؤال للجميع بشكل واحد ، ولكنه يجب أن يتضمن كل التفاصيل ، وتستطيع أن تستكمل نتائج الاستفتاء عندما يعود مندوبوك ، فاذا لم يكن لديك هؤلاء المندوبون تستطيع أن تحصل على هذه النسبة من كتب المراجع • وحاول أن تقدر عدد الجماعات التى تشعر بمرارة بالنسبة لموضوع خاص ، ومن ثم تتوافر لك القاعدة التى تبدأ منها عملك •

الاستجواب :

وعندما تقوم بعملية استجواب الاسرىفان الطريقة المثالية أن تعمل للحصول منهم على معلومات معنوية الى جانب المعلومات العسكرية ، فلا ينبغى أن تستهدف الاسئلة مثلا معرفة الى أى مدى يعتقد الاسير فى وجود الله ، أو ما رأيه فى زعمائه وفى بلاده ، بل يجب أن تسأله عن الاشياء التى يهتم بها الاسير نفسه :

- اسأله عما اذا كانت زوجته قد كتبت لـه عن أن لدى أطفالـه الغطاء والغذاء الكافى ٠
- اسأله عن خدمة البريد ٠
- اسأله أيشعر بقلق من احتمال أن يشغل أحد عمله السابق الذى كان يقوم به ٠
- اسأله عن الغذاء ٠
- اسأله هل يعامله ضباط الصف معاملة حسنة ٠
- اسأله كم يدخر من مرتبه ٠
- اسأله هـل يظن أن بعض النـاس فى أرض الوطن يكسـبون الكثير من المال ٠

وتذكر أن بعض الافراد عندما يجندون يظل لهـم اهتمـامهم بمشـكلات صناعاتهم قبل التجنيد ، فالنجار مثلا قد يصبح « عريفا » فى المشاة من طراز ممتاز ولكنـه لا يزال نجارا فى تفكيره ويهتم بمشكلات النجارين ، مثل هؤلاء الافراد نستطيع أن نسألهم عن مشكلات الصناع المهرة وأعضـاء النقـابات فى الوطن ٠

على أنه من جهة أخرى يمكن أن تطبق التنظيمات والاساليب التى تستخدم فى استفتاءات المدنيين وتحليل الدعاية على الموقف فى الميدان ٠

ويؤكد بول لينبارجر نجاح ذلك بقوله :

« ... وتستطيع أن ترسم لوحات بيانية لهذا ، وعلى سبيل المثال لو حدث عند استجوابك لعدد ٦٩٩ أسيرا كان منهم ١٦٧ من أعضاء اتحادات العمال فى الحياة المدنية . ووجدت أنه قد ذكر طواعية واختيارا فى أثناء الاستجواب ٣٣٤ مرة شكوى من سياسة الحكومة تجاه اتحادات العمال فان هذه النتائج العددية تكون مرشدا لك ، ولو حدث أى تغيير فيها فى مناسبة أخرى بارتفاع أو انخفاض لكان هذا موجها لك ومرشدا لتوجيه سياستك الدعائية ، ولاحظ أن هذا العمل هو على أساس كمى Quantative أى على أساس العدد ولكنك تستطيع أن تعمل سجلا على أساس نوعى Qualitative ، لما يثار من عوامل عدم الرضا فى أقسام رئيسية مثل نظام التموين بالاحذية والرعاية الطبية ومدى احترام الرؤساء الحكوميين .. الخ . ويجب أن يستجوب كل أسير حرب ، وكل مدنى معتقل فى هذه الموضوعات الرئيسية التى تتخيرها ، ثم ضعه تبعا لرأيك فى اجابته ضمن مجموعة ما ، وتستطيع فى النهاية أن تخرج بنسبة مئوية لوجهات النظر بالنسبة لكل من هذه الموضوعات ، وبذلك تستطيع أن تقدر نسبة مئوية لعوامل عدم الرضا داخل كل مجموعة قسمت اليها مجتمع العدو .

« على أنه يجب ملاحظة أن هذه الارقام قد تكون مؤثرة من الناحية الشكلية فى الوثائق ، ولكن ليس لها من الناحية العملية الدور الذى للنسبة المئوية التى تجىء من دراسة كل موضوع على حدة ، وعند دراسته فى طابع متخصص من ناحية الموضوعات أو الجماعات .

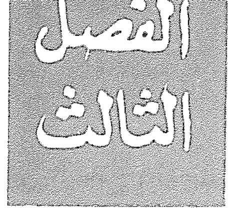
« فاذا شعرت أنك تقوم بعرض لا فائدة منه ، خذ متوسطات النتائج التى وصلت اليها واجمع هذه المتوسطات كلها معا فيما يطلق عليه (جملة متوسطات معنويات العدو) ، ولكن لاحظ أنك لاتستطيع أن تفعل شيئا (بهذه) المتوسطات ولا عن (هذه) المتوسطات وكل ما تستطيع أن تنتفع به هو أن تقيدها فى اللوحة المعلقة فى المكتب الخارجى التى تتغير من شهر الى آخر حيث يمكن أن يشعر الزوار بسرور لان يطلعوا على سر عسكرى عن العدو . ولو حدث أن رأى هذه اللوحة

عميل للعدو، ثم بعث بأرقام المتوسطات الى العدو، فثق أن خبراء العدو سيفقدون عقولهم وهم يحاولون معرفة الوسيلة التى استطعت الوصول بها الى هذه الارقام وماذا يمكن أن تعنيه منها » .

حالة التخصص :

وفى النهاية فان مخابرات الدعاية الجيدة تمكن من الحصول على :

- الأنبـــاء .
- معلومات عسكرية يمكن أن تذاع وأن تنشر على أنها أنباء .
- معلومات عسكرية لا يمكن أن تذاع أو أن تنشر كأنباء ، ولكن الالمام بها يمكن أن يمنع رجل الدعاية من ارتكاب أخطاء أو سوء تقدير فى سرد الأنباء .
- أنباء عن العدو .
- ألوان عدم الرضا عن سلطات العدو .
- التعرف على الشخصيات التى لا شـعبية لهـا والتى لها شعبيـة فى صفوف العدو .
- كل المعلومات الاخرى التى تمكن من يعمل فى الحرب النفسية منالعمل بقوة وبمودة الى جانب أى مجموعة معينة من العدو ضد أى جماعات أخرى للعدو .



تحليل الدعاية

تحتاج دراسة الرأى العام الى تحليل الدعاية تحليلا كاملا ، ولـكن مما يؤسف له أنه لم يتم بحث عملية تحليل الدعاية على نطاق واسع بسبب الكبر أو الغطرسة. وكما سبق أن ذكرنا فى الفصل السابق يختص تحليل الرأى بما يفكر فيه الناس ، أما تحليل الدعاية فيعنى ما يحاول أحد الناس أن يجعلهم يفكرون ، وكل من هذين اللونين من ألوان التحليل يعتبر من أهم العـوامل اللازمة فى ميدان البحث الاجتماعى ٠

ان العالم الحديث ــ كما يبدو ــ لا يتسم بالهدوء ولن يصل الى هذه الحالة بعد وقت طويل جدا ، ولا يبدو محتملا أن يتقدم تحليل أعمال الدعاية أبعد مما حدث فى الماضى ٠ ولذلك جدير بنا قبل أن ندخل فى التفاصيل الحرفية أن نعرض لآراء بعض ذوى الخبرة فى الفترة ما بين نهاية الحرب العالمية الأولى وبداية الحرب العالمية الثانية ، وهى الفترة التى ننظر اليها الآن على أنهـــا كانت فترة هدوء نسبى ٠

لقد قال « ادوارد ل٠ بيرنيس Edward L. Bernays (١) فى عشرينات هذا القرن ان الدعاية لا يمكن أن تموت ٠ ويجب أن يدرك العقـلاء أن الدعاية

---

(١) Bernays, Edward L., Altitude Polls Servants or Masters, Public Opinion Quarterly Vol 9, 1945.

هى السلاح الحديث الذى يمكنهم من تحقيق الأهداف الانتاجية واحلال النظام محل الفوضى • ويقول بيرنيس « ان ماكان يعيب التربية والعمل الاجتماعى هو أنه لم تقدم لهما الدعاية الكافية » •

وعلى نقيض من بيرنيس يقف نورمان أنجل(١) فى كتابه « العقل العام Public Mind » الذى يمكن تلخيصه بأنه اعتراض على الدعاية لأنها مبنية على الخوف من المخابرات ولأن فيها قلبا للحقائق • ولم يكن انجل موفقا لأن السنوات العشرينية كانت تتم فيها صفقات بيع كبيرة استلزمت الدعاية بأشكالها المختلفة •

أما فى الثلاثينات فقد عادت فكرة تقييم الدعاية الى الظهور • فكتب فردريك لاملى Frederick Lumley (٢) كتابا مدرسيا بعنوان « تهديد الدعاية » ساعد على جعل الدعاية حقلا للدراسة فى مجال العلوم الاجتماعية. وأعقب ذلك ظهور كتاب « الدعاية : نفسيتها وأسلوبها » تأليف ليونارد دوب Leonard Doob (٣) وقد كتب يقول « ان الدعاية ضرورية ما دام العلم لم يقدم لنا حلول المشكلات التى تواجهنا • ولكن أى نوع من الدعاية يجب علينا أن نقبله وأيها يجب أن نرفضه ؟ ان أسباب طرح هذا السؤال واضحة ، ولكن أين الجواب ؟ ليس هناك جواب » • وأعقب الكتاب الاخير سلسلة من المقالات مثل « الدعاية والدكتاتورية » لهارولد لورنس تشيلدز Harword Laurence Childs وقد كتب يقول ان الدعاية فى الدكتاتوريات والديموقراطيات كانت وما زالت شيئا لا بد منه للسيطرة والاشراف الاجتماعى •

على أنه فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ازدادت المؤلفات عن تحليل الدعاية بشكل واسع وبدرجة تدلنا على اهتمام الدول المتزايدة بهذا الموضوع •

---

(١) Angell, Norman. The Public Mind, New York, The Macmillan Co, 1927.

(٢) Lumely, Fredrick E. The Propaganda Menace, New York, Appelton Century, 1933.

(٣) Doob Leonard W., Propaganda and Its Psychology and Technique, Henry Holt and Co., New York, 1950.

ان قوائم الكتب العديدة عن الدعاية والرأى العام التى تنتشر فى أنحاء العالم ويعاد طبعها منقحة بين حين وآخر ليست الا أحد ظواهر الاهتمام للوصول بنتائج البحوث الفنية والاجتماعية الى طابع عصرى مستحدث .

كما أن كل الدراسات الخاصة بالتعليم النظرى ، والتحول الدينى ، ومنظمات العمل والسياسة العملية ، والتآمر الثورى ، بل حتى الاعلانات التجارية لها أثرها فى تحليل الدعاية .

تكنيك العمل :

قد تكون الطبيعة المشتركة للانسان أساس كل الدعاية والسياسة ، ولكن حوافز العمل تتوافر ولا شك فى الدوافع التى تجىء من العوامل الفسيولوجية ، والبيئية ، والثقافية ، وغيرها كما بينا فى الفصل الاول من هذا الكتاب .

لقد كتب الصينيون القدامى بضعة سطور فى الحكمة حاول على أساسها ملايين الصينيين أن يتعلموا القراءة والكتابة ، وقد جاء فيها :

« عندما يولد الناس فانهم ينشأون نشأة طيبة ، ومع أنهم كلهم فى طابع متماثل تقريبا فالواجب أن تراهم عندما يتهيأ لهم الوقت ليختلف أحدهم عن الآخر بأن يلتقط العادات من هنا ومن هناك » .

هذه الحكمة لا يمكن أن نقول أنها صحيحة بدرجة مطلقة ، ولا يمكن أن نحكم عليها بالبطلان ، فهناك مثلا مسألة « البقاء على قيد الحياة » أو « انتهاء الحياة » التى نعتقد أن كل المخلوقات البشرية تقف منها موقفا متماثلا وتكون استجابتها كلها واحدة متشابهة .

ففى مسألة « التسليم » والاستسلام التى سبق أن ناقشناها وضح الخلاف فى التفكير بين الأمريكيين واليابانيين فى مجرد اللفظ .

لقد كان للفرق اللفظى بين كلمة « تسليم » وكلمة « استسلام » أهمية كبيرة كالفرق بين الحياة والموت ، فاليابانيون لا يمكن أن يقبلوا البقاء على حساب

شرفهم ، ولكن اذا شعروا بأن شرفهم قد حوفظ عليه ، فانهم يستطيعون التوقف عن متابعة القتال ٠

ومن ثم فان تحليل الدعاية يحتاج الى بصيرة نفـاذة ومعرفة تامة بتفكير الناس محل الدراسة ٠ ويشير بول لاينبارجر فى ذلك بقوله : « ان الدعاية توجه الى التفاصيل الدقيقة الرقيقة من الفـكر التى يحفظ بهـا النــاس تنظيمهم وتوجيههم الشخصى فى عالم مزعزع الصلات بين الناس ٠ ويجب أن تستـخدم الدعاية لغة الأم ٠٠ لغة المدرس ٠٠ لغة الحبيب الودود ٠٠ لغة صغار الطير ٠٠ لغة رجل الشرطة ٠٠ لغة الممثل ٠٠ لغة الكاهن ٠٠ لغة « البلطجى » ٠٠ لغة الصحفى ٠٠ وأن تستعمل هذه اللغات على التوالى ، وعمليـــة تحليل الدعاية لقياس قيمتها يجب أن تكون أكثر تميزا وادراكا فى تقريرها ما اذا كانت الدعاية جديرة بأن تحقق غرضها أم لا ؟ ٠

مواد الدعاية :

والمطلب الأول لتحليل الدعاية هو الحصول على المواد التى ستحلل فعلا ، والعادة أنه يكفى فى وقت السلم الاشتراك فى الصحيفة ، أو المجلة ، أو سلسلة النشرات ، وشراء الكتب حال صدورها ٠ ولكن من الصعب الحصول على مواد الدعاية هذه دائما ، اذ يتطلب الامر فى الغالب القيام باتصالات فى نفس مكان الاصدار ٠ ولقد استطاع الدكتور دافيد روا أن يحصل من الصين المحتلة فى الأيام الأولى للحرب الصينية اليابانية على سلسلة طريفة من المواد ، ولكن كان لابد من الحصول عليها من ذهابه شخصيا الى الصين وقطع عشرين ألف ميل ليعود بها الى أمريكا ٠

ولكن من الممكن تحقيق نتائج أفضل لو أمكن تتبع نفس المصادر باستمرار ولفترة زمنية مثل أربعة شهور أو ستة شهور ، بل ربما أطول قليلا بالنسبة لبعض مصادر الاعلام ٠ على أنه اذا كان تحليل الدعاية فى هذه الحال مسئولية رجل واحد فى دولة صغيرة أو فى منطقة صغيرة فى وقت السلم ، فان هذا الرجل

يستطيع أن يجمع مختلف أنواع النماذج لوسائل الاعلام فى مارس مثلا ، ثم يقضى بعض شهور متابعا تطور الدعاية ، ولكن فى الوقت الذى يتم فيه اعداد تقريره يكون هذا التقرير أقل طرافة بالنسبة لمستلم التقرير مما اذا كان قد أعده عن الاسبوع السابق لموعد صدور التقرير ، هذا عدا أنه ما لم يكن محلل الدعـاية على دراية جيدة بالمنطقة أو الدولة التى يحلل دعايتها فانه قد يتعرض لخطأ تقدير بعض الموضوعات الاساسية وبعض الموضوعات العابرة ٠

وما لم يكن لدى محلل الدعاية عدد كاف من الموظفـين الذين يعملون معه فانه قد يغفل بعض العوامل الهامة التى لها وزنها فى تحليله ، ومن الضرورى أن يتخير بعناية وسائل الاعلام التى يختبرها ، وأن يتقبل نصيحة الافراد الذين يعرفون المنطقة جيدا ٠ ومن الحكمة أن يتخير فى المناطق التى تتوافر فيها السيطرة على الآراء صحيفة دعائية تشرف عليها الحكومة ، وصحيفة شبه مستقلة للمعارضة لو كان هذا ميسورا ، وتعتبر الصحف المحلية مرشدا جيدا للدعـاية الداخلية أكثر من الصحف الكبيرة التى تصدر فى العواصم الـكبرى ، ورجـال الدعـاية يعرفون أن الهيئات الاجنبيـة تعنى بمراقبة الصـحف الـكبيرة ومن ثم فانهم يحتفظون بجهدهم الأكبر للصحف الاقليمية المحلية ٠

ومع متابعة الصحف الاقليمية المحلية فى منطقة أو اثنتين يحسن تخيرهما يجب أن يتخير محلل الدعاية عددا من الشخصيات الحكومية ويتعقب كل كلمـة تصدر منهم ويحصل هو عليها ٠

والمبدأ الاساسى أن يقرر محلل الدعاية مدى المواد التى يغطيها بفحصه ، ليزن منذ البداية العمل الذى يقوم به ، وهذا بدوره يتوقف على الوقت المتيسر له ، ودرجة المامه باللغة ، ودرجة قابليته للعمل ، ثم مقدار المعوقات المتوقعة من الموظفين الآخرين وما الى هذا من العوامل الشخصية ٠

ولكى يكمل محلل الدعاية تحليله يجب أن يتصل بالمستمعين الذين يتلقون هذه المواد ليحصل منهم على تأثير الدعاية التى تلقوها ، ونود أن نشير هنا الى ما جاء فى الحديث عن « الاستجواب » فى الفصل الخاص بمخابرات الدعاية ٠

المواد المطبوعة :

ليست المواد المطبوعة أيسر المصادر التى يمكن الحصول عليها بخاصة فى وقت العمليات العدائية ، فقد لا يكون من السهل الحصول على وسائل الاعلام المطبوعة بعملية ارسال حوالة بريدية دولية ، والتأخير الذى يمكن أن يحدث فى نقل المواد المطبوعة قد يجعلها عديمة القيمة بالنسبة للتحليلات السريعة الفورية وان كان لها نفعها فقط فى الدراسات الاساسية الطويلة الاجل للتعرف على القوى المعنوية ، وقد يضطر رجل الدعاية الى أن يقرأ عددا من المقالات الافتتاحية فى الراديو ·

ويذكر لنا لاينبرجر مثالا لذلك بقوله :

« حدث فى أثناء الحرب العالمية الثانية أن ذعر الضباط والمدنيون الامريكيون عندما سمعوا راديو طوكيو يعلق على مقالات صدرت فى مجلة « لايف » وفى جريدة « النيويورك تايمز » قبل ساعات ، وظنوا أن لليابانيين محطة ارسال على الموجة القصيرة من نيويورك الى طوكيو مباشرة ، وغابت عنهم حقيقة أن ادارة استعلامات الحرب ربما تكون قد أرسلت بعض المقالات بطريقة المورس البطىء الى الصين عبر الباسفيك ، وأن اليابانيين التقطوها واستخدموها فى ارسالها من جديد الى الولايات المتحدة » ·

والعادة أن ترسل المواد المطبوعة على الهواء فى أى عملية أنباء رئيسية ، وقبل أن تتطور عملية التليفون الكاتب « التلبرنتر » كانت المشكلة مشكلة عامل الوقت فقط ، ولكن اليوم أصبح من اليسير أن تطبع نسخة من جريدة واحدة فى مدينتين تبعد كل منها عن الاخرى آلاف الاميال وبفرق زمنى غير محسوس ، وقللت الصور المرسلة باللاسلكى هذا الفاصل الزمنى ، وبذلك يمكن ببساطة أن يقرأ كل من الجانبين المتقاتلين الصحف الرئيسية للجانب الآخر ·

المواد المذاعة :

والواقع أن الراديو سيظل فى الوقت الحاضر أكبر المصـــادر لامتصـاص الدعاية ، وهو وسيلة ملائمة مناسبة ، كما أنه من الممكن التقاط الاذاعة بطريقة « غير قانونية » دون الخوف من أن يكشف الجانب الآخر هذا . والاذاعة أرخص وسيلة عندما نفكر فى العدد الكبير من الملايين الذين تصل اليهم المادة المذاعة ، كما أنها معرضة نفسها للالتقاط .

ان الدفاع الوحيد ضد استخدام العدو للالتقاط الاذاعى والحصول على محتويات الاذاعه هو تطبيق نظام الراديو « المتصل بالأســلاك » Wired Radio أى أن تكون كل أجهزة الاستقبال متصلة بشـبكة التليفونات ، ومن ثم فانه لا يرسل أى شىء على الهواء ، وبذلك يمنع العـــدو من التصنت على الاذاعات والتسمع اليها .

ولكن عملية وضع أجهزة الراديو على شـبكة التليفون عمليـــة باهظة التكاليف ، وبالمثل فان كبت الاستقبال بالراديو عملية صعبة ، وأولئك الذين ينجحون فى الاستماع سرا للاذاعة قد صاروا بمثابة صحف تسير على قدمين ، فيدورون فى المدن ناشرين الآمال التى تبعث على الطمأنينة .. هذه الآمال التى تعمل سلطات العدو على كبح جماحها . والواقع أن ندرة الانباء تزيد من قيمة هذه الوسيلة ، ولا يمكن تصور الدور الذى تلعبه الشائعات حينئذ .

ويتبع تحليل الدعاية بوساطة الراديو نفس الاعتبارات التى تحكم اختيار المواد المكتوبة . ان تتبع برنامج أو اثنين من محطة واحدة وسيلة أفضل وأكثر ضمانا للخروج بتحليل جيد بدلا من انتقـاء متنوعات من الاذاعـات فى جولة عاجلة من هنا ومن هناك .

وللاذاعة فائدة أخرى تفضل بها استخدام المادة المكتوبة للدعاية ، فان عددا قليلا جدا من الأمم هى التى تطبع مواد دعائية منفصلة بكل لغة أجنبية لتعدها بصفة خاصة لمنطقة معينة محددة ، على حـين أن لكل دولة كبـيرة بل

حتى لكل دولة متوسطة ترتيباتها للاذاعة باللغات الاجنبية لكى تغطى الاذاعة الموجهة بعض الدول فى كل أركان العالم • ولما كانت برامج الاذاعة الموجهة ترسل الى مجموعات متعددة من الناس بلغات مختلفة كان من الضرورى أن تعد خطوط الدعاية لكل مجموعة من هذه المجموعات تبعا لأسس خاصة نتيجة لدراسات سابقة • ولا شك أن هذه « الخطوط » أو الاتجاهات الدعائية تختلف بين كل مجموعة وأخرى وتتباين لهدفها ، أو تبعا لطبيعة علاقتها مع الدول الموجهة اليها الاذاعة •

والاذاعة ـ على نقيض مواد الدعاية المطبوعة ـ ليس من السهل الاحتفاظ بها كسجل للقائم بتحليل الدعاية ، وليس من الميسور أن تسجل كل اذاعات العدو ليحتفظ بها للرجوع اليها كلما دعت الحاجة الى ذلك •

ولكن من جهة أخرى اذا كان مركز التحليل كبيرا كما لو كان فى جوار مركز رياسة الحكومة، أو مركز رياسة قيادة مسرح الحرب، فانه يمكن التغلب على كل المشكلات الخاصة بالترجمة وبالكتابة على الآلة الكاتبة • ومن المحتمل أن يجيد المستمعون للاذاعات الكتابة على الآلة الكاتبة فيكتبون الاذاعات كاملة كلمة كلمة اما وهى تذاع على الهواء ، واما من الشرائط التى يسجلونها عليها • ويختبر المحرر بعد ذلك الأجزاء الهامة من الانتاج اليومى اما لتسجيلها والاحتفاظ بها ، واما لتوزيعها ونشرها على الجهات المعنية • ومن الممكن أيضا أن تطبع المواد الهامة فى الملخص اليومى لدعاية العدو ، أما الباقى فيرسل للمختصين أو يوضع فى الملفات ، أو يرسل لأقسام المعلومات ، ثم يعدم ما لا حاجة اليه بعد ذلك •

ولقد لعبت التقارير المكتوبة « كلمة كلمة » دورا هاما خلال الحرب العالمية الثانية • لقد قامت هيئة مخابرات الاذاعة الاجنبية بهذا العمل فى الولايات المتحدة طوال سنى الحرب تحت اشراف لجنة المواصلات الفيدرالية ، ثم حولت بعد ذلك الى قسم المواصلات الاجنبية فى وزارة الحرب وانتقلت مرة أخرى من وزارة الحرب الى المخابرات المركزية •

وقد لا تعتبر محتويات هذه التقارير سرية ، وان اعتبرت « محظورة » فى أغلب سنى الحرب •

الاستماع بوساطة فرد واحد :

ومن المرغوب فيه حينما يتم الاستماع بواسطة فرد واحد أو بواسطة هيئة صغيرة العدد من المستمعين أن تتعرف على الاذاعة الرئيسية للأنباء ، وأن تقيدها كاملة كلمة كلما أمكن • هذا الاجراء يعطى للمحلل فرصة الاطلاع على هذه المواد ، ويحول دون أن يصدر حكما سريعا على ما هو هام أو غير هام فى أثناء استماعه للاذاعة •

وتختلف أجهزة الراديو فى الاستماع تبعا للأحوال العامة المحيطة بعملية الاستقبال ، ولكن أغلب أجهزة الاستقبال فى سرايا الاشارة للقوات المسلحة بل حتى أجهزة الراديو العادية الكبيرة تستطيع القيام بهذا الواجب على أكمل وجه ، على أنه أحيانا قد لا يمكن تمييز اذاعة محطة ما مهما كانت قوة جهاز الاستقبال المستخدم فى هذا بسبب التدخلات التى يوجدها وضع هذا الجهاز فى مبنى بالمدينة ، وفى هذه الحال فان استخدام سيارة الراديو للاستقبال من منطقة مرتفعة فى الضواحى ، أو من نقطة على حافة بحيرة ييسر عملية التقاط اذاعة تلك المحطة بوضوح تام للتغلب على التدخلات ، على أنه من الضرورى أن تتوافر أجهزة استقبال على الموجة القصيرة لو كان من الضرورى التقاط اذاعات محطات عبر المحيط •

وليس من الحكمة التقاط خطبة تلقى بسرعة ، وأفضل استقبال هو ارسال الأنباء بطريقة مورس أو اذاعة الأنباء بطريقة السرعة الاملائية من محطة مركزية مع مختارات من البرنامج اليومى • وتعطى ترتيبات التقاط البرنامج اليومى « كلمة كلمة » مع المراجعة اليومية للانباء بواسطة اجراءات التحليل العادية فرصة جيدة للفحص الكامل لاذاعة العدو •

الدعاية ضد الحقيقة :

لا معدى من أن يثار هنا أكثر من سؤال هام :

« ان كل ما سبق قوله يبين لنا كيف ننصت الى اذاعة أجنبية ، ونحصل منها على الأنبـاء ، المحاضرات ، المسرحيـــات ، وما عدا ذلك من مواد برنامج الاذاعة . ولكن كيف يمكن أن نعرف ما هو حقيقى وما هو دعاية ؟ كيف يمكن أن نفصل بين هذا وذاك ؟ »

ومع أن هذه الأسئلة تبدو فى طابعهـا العـام محيرة فان اجابتها هينة ومرجعها المستمع نفسه . فاذا اتفق ما يذاع مع ما يؤمن به المستمع وما يعرفه كان حقيقة لا شك فيها ، أما اذا لم يتفق معه فهو دعاية .

فاذا قلنا أن كل ما نسمعه فى اذاعة أجنبية هو دعاية ، فماذا يمكن أن يحدث بالنسبة لها فى تقاريرنا الخاصة بتحليل هذه الدعاية ؟

ان المخلوقات البشرية تتحـدث . وهى تواقة للكلام والثرثرة ، وأغلب المحادثات الخاصة مملة لا قيمة لها ولكن المعتوه وحده هو الذى يمكن أن يتحدث فى المذياع لا لغرض الا أن يسمع صوته . ان الدعاية عرض كلمـات لغرض ، وهذا « الغرض » هو الذى يجعلها دعاية ، ولا أهمية هنا لنصيبها من «الصدق» أو « عدم الصدق » .

ان الاذاعـات التى تلتقط من أى دولة حديثـة فى كل يوم لتحوى من الحقائق أكثر مما يمكن أن يقرأه رجل واحد فى حيـاته كلهـا . ان المحررين والكتاب ، ومندوبى الصحف الذين يجمعون الحقائق لا يجمعونها فحسب ، بل أيضا يتخيرونها ، وهم يجب أن يفعلوا هذا . ولكن المسألة الخاصة بالدعاية هى لماذا يتخيرون هذه الحقائق التى يجمعونها ؟

فاذا كانوا يتخيرونها بقصد التأثير فى عواطف مجموعة معينة من النـاس لغرض معين كانت دعاية ، أما اذا كانت تذاع كمجرد أنباء فانها لا تكون دعاية .

ويعطى لاينبارجر مثالا لذلك فيقول :

« اذا ما أعلنت احدى محطات الاذاعة الامريكية أن عاملا ملونا أمريكيا فى جرينز بورو من أعمال ولاية كارولينا الشمالية قد حصل على ثمانين سنتـا كأجر له عن عمل عنيف يوما كاملا فمن الممكن أن يعرض هذا النبأ وأن يفسر كما يلى :

١ ـ مجرد نبأ صغير ، لو كان هناك مزيد للقصة حول ما قاله العامل من أنه كيف أنفق الثمانين سنتا على شراء طعام لحيوانه المدلل .

٢ ـ دعاية مضادة للرأسمالية لو قيل : أن مبلغ الثمانين سنتا هو مبلغ تافه زهيد اذ يدفعه رجال الاعمال الامريكيون لعمالهم .

٣ ـ دعاية معاونة للرأسمالية لو استطاعت الاذاعة أن توضح أن هذه الثمانين سنتا يمكن أن تشترى بضائع اسـتهلاكية بأكثر ممـا يستطيع عامل فى ولاية أخرى أن يبتاعه من أجره لمدة أسبوعين .

٤ ـ دعاية ضد البيض لو وضحت الاذاعة أن هذا العامل أعطى ثمانين سنتا لا لسبب الا كونه ملونا » .

ثم يعلق على ذلك بقوله « وهكذا فانه يمكن الخروج بتفسـيرات كثـيرة مختلفة متباينة ، مع ملاحظة أن الحقائق ثابتة وموجودة فى كل حالة . حقائق خاصة بوجود الرجل ، قيامه بعمل عنيف ، تناوله لأجر جملته ثمانون سنتا ، ان هذا حدث فى جرينزبورو ، وان العمل استغرق يوما كاملا . فالحقائق هنـا هى : « الرجل » و « ماحدث » و « المبلغ » و « المكان » و « الوقت » . وهذا لم يختلف أى عرض فيه ولكن التفسير الذى يصحب النبأ ، ومن الذى يعرضه ؟ ولمن ؟ ولماذا ؟ ومتى ؟ فكلها العوامل التى تجعل من هذا النبأ دعاية .

« وقد تستطيع الا ترضى عن تفسير ، بل تستطيع أن تقتل رجلا لأنه يصدق هذا التفسير الذى لا ترضاه أنت ، وتستطيع أن تقوم بدعاية لتحويله عن اعتقاده • ولكنك لا تستطيع أن تجلس أمام مكتبك لتثبت أن هذا التفسير غير صحيح وغير حقيقى » •

ان الحقائق والمنطق نافعان فى الدعاية ، ولكنهما لا يستطيعان أن يرتفعا الى المستوى الذى يمكن معه أن تؤكد ان « هذه دعاية أو هـــذا حديث غير صحيح » ، ولكن غالبا ما تكون كل دعاية جيدة ـ مهما كان نوعها ـ فيهـــا نصيب من الحقائق لأنها تحسن اختيار الحقائق التى تستخدمها •

ولا توجـد « وصفــة » سرية يمكن ـ فى ضوئهـــا ـ أن تمدك باختبـار صائب للدعاية ، وليس من الممكن لشخص لا يلم الالمام التـــام بهذا الجزء من العالم الذى يتأثر بالدعاية ، وبالموضوع الذى يناقش ، وبالأطراف المعنية ، وبالسياسات المباشرة التى يتضمنها الموضوع ـ ان يضع أصـبعه على النبـأ ويقول : « ان القصد الصحيح من ذلك دعاية » ثم يلتفت اليك ثانية ليقول : « ولكن التقرير الصحيح ان كل ما قيل حقيقة » • على أنه قد تذكر تقارير غير صحيحة أحيانا لاغراض غيرالدعاية ، كما أن التقارير الصحيحة تكون أحيانا فى حد ذاتها دعاية أو قد لا تكون • كما يجب أن ينتمى من يقوم « بتحليـل الدعاية » الى الطرف الذى يهتم بالموضوع ، وعليه أن يقرر مبكرا ماذا يمكن أن يعتبره دعاية وما لا يعتبره دعاية ، وهو يجب أن يفعل هذا ليحدد ميدان تحليلاته قبل أن يبدأ العمل • ولا يستطيع فرد واحد ، بل لا يستطيع نفر من الموظفين أن يتعقبوا كل الدوافع وراء بيان واحد •

ومحلل الدعاية ينظر عادة فى الاتجاه الذى تسير فيه المادة المذاعة ، فقد يعرف ويحدد « الغرض الدعائى » بالنسبة للأشخاص الذين ترسل من أجلهم هذه الاذاعات على ضوء تقديره لما يتوافر له من معلومات عامة عن الموقف ، وهو اذا لم يعرف الغرض من الاذاعة يستطيع أن يتكهن به من طبيعة المستمعين أو

من التأثير الذى يفترض أن تخلقه الاذاعة فى هؤلاء المستمعين ، ومن جهة أخرى فان المحلل اذا لم يعرف المستمعين فانه يستطيع أن يتعقب الطابع الذى ترسل به الاذاعة ، وبأى لغة تذاع ؟ ومن أين ؟ والى أين ؟ ومتى ؟

ويعطى لنا لاينبارجر أسلوبا نموذجيا معاونا لعملية التحليل وقد وجد انه صالح فى تحليل الاذاعات الالمانية العلنية والسرية ، وفى تحليل مواد الدعاية اليابانية فى الشهور الأخيرة من الحرب العالمية الثانية •

هذا الأسلوب أطلق عليه كلمة STASM وهى مركبة من الحروف الأولى لعناصر التحليل كما يلى :

المصــدر	(S) ourse	بما فى هذا وسيلة الاعلام
الوقت	(T) ime	
المستمعون	(A) udience	
الموضوع	(S) ubject	
المهمــة	(M) ission	

وهذا الاشتقاق اللغوى بتكوين كلمة جديدة هى كلمة « ستاسم »STASM انما يقصد به فى الواقع المعاونة على استيعاب هذه العناصر الخمسة التى تتركب منها هذه «الكلمة» • ويقول « ان أفضل استخدام لهذا الاسلوب ، هو استخدامه فى معالجة المواد التى يستمع لها فى الاذاعة ، والتى يعرف مصدرها ، وعند معالجتها يجب أن تجرى الآتى :

« لاحظ أولا طبيعة المصدر ، وهنا فى الواقع يكون له عدة أوجه : فهناك المصدر الحقيقى أى المصدر الذى اذاع النبأ أو الموضوع ، والمصدر الظاهرى أى المصدر الذى ارتبط اسمه به ، والمصدر الاول فى الاستعمال أى المصدر الذى

استعمله لأول مرة ، ومصدر الاستعمال الثانى أى المصدر الذى استغل الموضوع للاستشهاد به أو اقتبس منه عبارات » •

وقد يكون من المفيد أن نعرض الآن لدراسة العناصر المكونة لتحليل موضوع من موضوعات الدعاية :

المصــــدر :

١ ــ المصدر الحقيقى ، من أين جاء الموضوع فعلا ؟

أ ــ مسرب الاطلاق ، كيف خرج الموضوع ؟

ب ــ الشخص أو الهيئة التى تولد الموضوع باسمها •

جـ ــ مسرب الارسال ، من جاءنا به ؟ الشخص أو الهيئة المؤثرة فى وسيلة الارســـــال المعروفة • يجب هنا اغفــال ما يتيسر من وسائل لمحلل الدعاية •

٢ ــ المصدر الظاهرى أو الصورى .
ما هو المصدر الذى يزعم بأنه نقل عنه ؟ ، وما مسرب الارسال ؟

٣ ــ مصدر الاستعمال الأول والثانى :

المصدر الأول « هو الذى يقال بأنه أول من استخدمه » ، المصــــدر الثانى « الذى يدعى أنه يقتبسه عن مصدر آخر » •

أ ــ ما العــلاقة بين مصدر الاســـتعمال الأول ومصدر الاستعمال الثانى ، والمألوف أن تكون هذه العلاقة فى الشكل الذى يجىء فيه الاقتباس ، ومن النادر أن يكون هذا انتحــالا أو اغتصابا لحق من استخدام الموضوع أولا •

ب ـ التعديل بين الاستعمال الاول والاستعمال الثانى اذا كان النص معروفا فى الحالتين ؟ •

- هل حذفت فقرات ؟
- هل هناك تعديلات فى النص ؟ •
- هل حدث أى دمج مع مواد أخرى مرسلة على الاذاعة ؟ •
- هل هناك تزييف يبدو متعمدا ؟ •
- ما التأثير الذى يحدث نتيجة النقل من لغة الى لغة أخرى•

الوقت :

١ ـ وقت الحوادث الذى يشير له الموضوع •

٢ ـ وقت الارسال •

٣ ـ وقت تكرار هذا الارسال •

٤ ـ الاسباب ـ لو وضحت ـ لهذا التوقيت •

المستمعون :

١ ـ المستمعون المقصودون مباشرة •

٢ ـ المستمعون المقصودون بطريقة غير مباشرة مثل « برنامج مرسل بالانجليزية لأمريكا الشمالية ولكنه يصل الى هونج كونج وسنغافورة بتخطيط مقصود من جانب مرسل البرنامج » •

٣ ـ مستمعون أو مشاهدون غير مقصودين كأن يطلع أحد مواطنى غرب أفريقيا على مجلة الحوادث اللبنانية ، أو يستمع رجل يابانى لخطبة الجمعة التى تذاع قبل الصلاة •

الموضوع ، ماذا يقول ، ماذا يحتوى ؟

١ ـ توضع المحتويات تحت رؤوس الموضوعات الصالحة لها ٠٠ هـل هى « مجرد أنباء » دون خداع أو هل هى « معلومات » ٠

٢ ـ تلخيص المحتويات لاظهار اى تكنيك جديد للدعاية ٠

٣ ـ فرز المحتويات التى تهنا نفعها فى الدعاية المضادة ٠

٤ ـ تقييم أهمية المحتويات لتحليلات المخابرات ٠

المهمـــة :

١ ـ الأمة أو الجماعة أو الشخص الذى يتعرض للهجوم ٠

٢ ـ العلاقة بموضوعات سابقة فى نفس المهمة أو العلاقة بمهام سابقة ٠

الباب الثاني

التطبيق

- الفصل الأول

ثورة ٢٣ يوليو في مواجهة أساليب الاستعمار والرجعية

الفصل الأول

ثورة ٢٣ يوليو
فى مواجهة أساليب الاستعمار والرجعية

مقـــدمة :

فى الثـــالث والعشرين من يوليـو عـام ١٩٥٢ انبثقت الثورة المصرية بعد ما يقرب من قرن من الزمان عاشتها مصر فى ظل الاســتعمار وأعوانه من رجعية وعملاء ـ مفجرة الطاقات الكامنة للشعب المصرى ٠

وبعد عامين على الأقل من قيام الثورة كانت المسألة الوطنيــة هى التى تمثــل التحدى الأول . ولقد حــاول الاســتعمار البريطانى ممارســـة أساليبه القديمة فى المراوغة والتسويف ولكن ما لبث أن شعر بالمواجهة الحقيقية لأول مرة . وأطلق الرئيس عبد الناصر عبارته المشهورة « على الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل ... »

وبعد توقيع اتفاقية الجلاء فى ١٩ من أكتوبر عام ١٩٥٤ كان هنــاك ثمة شــعور دولى عام بأن الصراع الطويل الذى دام ما يقــرب من ٨٠ عاما بين الشعب المصرى والاستعمار البريطانى قد آن له أن ينتهى ٠ وحاولت الدعاية البريطانية أواخر عام ١٩٥٤ وأوائل عام ١٩٥٥ بأساليبها الماكرة التمهيد لما تسميه بالعلاقات الجديدة فى الشرق الأوسط ٠

ولكن الموقف في الشرق الأوسط تغير في نهاية العام نفسه ، وتغيرت بذلك أساليب الدعاية الموجهة الى شعوب المنطقة ٠

لقد أصبح هم اسرائيل منذ قيام الثورة المصرية أن تنبه الى الخطر الذى يهدد كيانها وآمنها من جانب قادة هذه الثورة ، وتزايدت مخاوفها بعد جلاء القوات البريطانية عن منطقة السويس ، وكانت هذه القوات تشكل حزام الأمن للدولة العميلة ٠

وبدأت تحرشات اسرائيل بالثورة المصرية بالاعتداءات المتكررة على الأراضى المصرية ، وكان الهدف الأساسى من هذه التحرشات اشعار العالم الغربى بصفة خاصة أنه لا بد من ضمان دولى جديد لكيان اسرائيل ، وفى نفس الوقت حاولت هذه الدولة التقليل من هيبة الثورة المصرية أمام الرأى العام العربى ٠

ولقد كانت قيادة الثورة على وعى كامل بالأهداف الحقيقية البارزة وراء تحرشات اسرائيل وعدوانها المتكرر ، وكان لابد من مواجهة اللعبة الاسرائيلية بالحزم والتصميم ٠

ولما كانت اسرائيل وما زالت ترسانة للسلاح الغربى فى منطقة الشرق الأوسط ، فقد حاولت مصر الحصول على السلاح اللازم لأمنها القومى من الغرب ، ولكن كل جهودها باءت بعدم التوفيق ورفض الغرب تقديم أى مساعدات.

فالغرب كما هو معروف لا يقدم السلاح للدول العربية الا فى أضيق الحدود وبمساومات سياسية ٠

وكان لابد من الحصول على السلاح ٠ ان أحد المبادىء الستة الكبيرة لثورة ٢٣ من يوليو هو اقامة جيش وطنى قوى ، وبداهة لا يوجد جيش وطنى قوى بدون سلاح حديث ٠

وكانت اسرائيل قد تمكنت من الحصول على الكثير من الأسلحة من بعض الدول الشرقية منذ عام ١٩٤٨ وما بعدها • لقد كانت ـ ولا تزال ـ تسعى الى الحصول على أى سلاح من أى مورد بصرف النظر عن حقيقته أو عقيدته •

وعقد مؤتمر باندونج الأول فى ١٩٥٥/٣/٢٩ وخرجت الثورة المصرية من نطاقها المحلى العربى الى آفاق رحبة • لقد كانت روح باندونج تجسيدا حيا للواقع النضالى لشعوب آسيا وأفريقيا التى تكافح من أجل : الاستقلال الوطنى ، والحرية السياسية ، والعدالة الاجتماعية •

ولقد قامت مصر بدور قيادى بارز فى الاعداد لمؤتمر باندونج حتى اعلان قراراته الشهيرة ، كما كان المؤتمر أرضا صالحة للتعارف الوثيق بين الرئيس عبد الناصر ومعظم القادة المناضلين فى أفريقيا وآسيا •

وبعد عودة الرئيس عبد الناصر الى القاهرة فى أبريل عام ١٩٥٥ كواحد من أبرز أبطال باندونج بات مؤكدا أن الغرب أصبح لديه الآن ما يزيد من مخاوفه اذا ما تمكن الجيش المصرى من الحصول على أسلحة حديثة •

ويأتى عام ١٩٥٥ مشحونا بالعمل الثورى المصرى على نطاق الأمة العربية .

فى هذا العام بالذات تأكدت المعالم الواضحة لثورة ٢٣ يوليو بعد أن أعلنت القيادة السياسية فى القاهرة محاصرتها لحلف بغداد ، وفى هذا العام بالذات تأكدت المعالم النضالية للثورة المصرية عندما أخذت على عاتقها الوقوف بحزم ضد اتجاهات الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا فى ربط الدول العربية بالأحلاف العسكرية •

وفى هذا العام بالذات أيضا تمكنت الثورة المصرية من خوض تجربة رائدة كان لها أثرها الدولى البعيد عندما عقدت القيادة السياسة المصرية ـ ولأول مرة ـ صفقة الأسلحة التشيكية •

كذلك فانه فى هذا العام بالذات تكشفت تماما النوايا العدوانية للاستعمار الغربى ضد ثورة ٢٣ يوليو وبدأت سلسلة الضغوط •• النفسية ،

والاقتصادية ، والعسكرية ضد مصر .. هذه السلسلة الطويلة التى بدأت منذ عقد صفقة السلاح التشيكى ولما تنته حتى الآن !

لقد كان تسليح الجيش المصرى فى حد ذاته ـ وبصرف النظر عن مصدر السلاح ـ هو الذى أرق الغرب الاستعمارى طويلا .

ان بناء القاعدة المادية لقوة الثورة المصرية متمثلة فى جيشها الوطنى كان هو الخطر الذى حاول الاستعمار تأخيره بكل الوسائل والأساليب . وعندما تمكنت مصر من كسر مبدأ احتكار السلاح كان ذلك سابقة خطيرة فى عرف الدبلوماسية الغربية وسياستها العسكرية .

وبدأت حرب الدعاية بكل وسائلها وكل أساليبها توجه ضد الثورة المصرية من كل عواصم الغرب واسرائيل ، وكل العواصم العربية التى تدين بوجودها واستمرار بقائها للاستعمار نفسه .

ولقد قيل يومها ان مصر قد اشترت سلاحا ملحدا ، وبدأ الاستعمار يكتشف فجأة مدى تعاطفه مع الاسلام وهو الذى استذل شعوبه زمانا طويلا . وارتفعت شعارات الفرعونية ، والأطماع المصرية وأحلام ناصر ، وظهر تباكى اسرائيل على انهيار مبدأ توازن القوى فى الشرق الأوسط الذى لم يعد فى صالح أمن اسرائيل وقوتها العسكرية ، وقال الحكام العرب الضالعون مع الاستعمار : أن الشيوعيين تمكنوا من ايجاد موضع لقدم فى الشرق الأوسط .

وبعد عام واحد من حصول الجيش المصرى على أسلحة حديثة لم يكن أمام الغرب الاستعمارى من سبيل يرتاده ضد الثورة المصرية بعد استنفاد كل ضغوطه الدعائية والنفسية ـ الا استخدام الحرب المسلحة ضد مصر .

ولقد كانت ملحمة بناء السد العالى هى الفرصة المواتية التى استخدمتها بريطانيا وفرنسا واسرائيل . وقصة تمويل السد من جانب الولايات المتحدة والبنك الدولى وبريطانيا معروفة ، ويتذكرها العالم أجمع كدليل واضح على فساد

الدبلوماسية الغربية وضيق نظرتها وعصبيتها تجاه حركات التحرر الوطنى ليس فى الشرق الأوسط فقط ولكن فى العالم أجمع .

وكما رفض الغرب تقديم السلاح للجيش المصرى لبناء جيش وطنى قوى يحمى مكاسب الشعب المصرى ـ رفض أيضا وبعناد المساهمة فى تمويل مشروع السد العالى لبناء القاعدة الاقتصادية التى تمكن الشعب المصرى من الوصول الى الحد الأدنى للمستوى اللائق لحياة الانسان فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وكان الرد المصرى الثورى هو تأميم قناة السويس ليكون عائدها فى خدمة تمويل السد العالى .

ولقد كان التمهيد للعدوان على السويس فى حد ذاته من جانب : بريطانيا ، وفرنسا ، وتهيئة الرأى العام العالمى لقبوله ، واستخدام أحدث أساليب الدعاية والاثارة ، وتسخير كل أجهزة الدعاية والاعلام والصحافة والاذاعات على أوسع نطاق ممكن ضد مصر ـ كان كل هذا مادة تصلح كأساس لدراسات عديدة مستقلة تبحث فى هذه الأساليب ، ومناهجها ، وطرق تخطيطها ، ومدى ما أحرزته من نجاح أو فشل .

كذلك فان بسالة الشعب المصرى ومقدرة جيشه على صد العدوان المسلح وادانة الرأى العام العالمى للعدوان قد جعلت حرب السويس ذات دلالة تاريخية بالغة الأثر . ولم تعد أساليب القهر والعدوان المسلح ، والتواطؤ تجدى فى صد حركات التحرر العالمية أو انحرافها عن أهدافها الحقيقية .

لقد أدان ضمير العالم هذا العدوان ، وكان الانتصار المصرى عليه تجربة رائدة وضعها النضال المصرى فى خدمة الشعوب التى تكافح من أجل استقلالها الوطنى فى : أفريقيا ، وآسيا ، وأمريكا اللاتينية .

وليس صدفة أن قمة المد التحررى فى العالم كله سجلته سنوات ما بعد حرب السويس ـ وعبثا حاول الاستعمار التقليل من أهمية الخيبة التى أصابته فى حرب السويس ، وكان لابد من تغيير مخططاته . واذا كانت الحرب المسلحة لم تقدم حلا حاسما ، فلا بأس من العودة الى الأساليب التقليدية .

وبدأت الحرب الاقتصادية لتجويع الشعب المصرى ٠

وبدأت عمليات التشكيك على أوسع نطاق فى سلامة الاقتصاد المصرى ، وفى قدرته على الوفاء بالتزاماته الداخلية والدولية ٠

وبدأت عملية عزل ثورة مصر فى داخل حدودها بعيدا عن التيار التحررى الثورى الذى أشعل شرارته المتوهجة حرب السويس لتشمل كل المنطقة العربية ٠

وعاد الخوف الغربى التقليدى من التوغل الشيوعى فى الشرق الأوسط ، واصطنع الغرب مشروع أيزنهاور كبديل مادى لخوف غير منظور فى منطقة أصبح ثابتا ومؤكدا أن أهلها هم الذين يصنعون مستقبلها وفق ارادتهم الحرة .

وكما أن حلف بغداد لم يعد أكثر من مجرد اسم فى التاريخ ، فكذلك كان مشروع أيزنهاور ٠ وفى هذه الفترة تزايد الضغط على الشعب السورى كنوع مباشر من الضغط على الشعب المصرى ، وكان الرد العربى الحاسم هو قيام الجمهورية العربية المتحدة باقليميها المصرى والسورى فى ٢٢ من فبراير سنة ١٩٥٨ ٠

وتزايد اشتعال ريح الدعايات الغربية ضد دولة الوحدة ، ومرة أخرى تزايدت الأحاديث عن امبراطورية ناصر التى تتحكم فى ٩٠٪ من بترول الشرق الأوسط ٠

وبدأت حرب التخريب فى داخل دولة الوحدة ومحاصرتها من خارجها وأقيم الاتحاد الملكى الهاشمى المصطنع فى مواجهتها ٠ ولكن قامت ثورة ١٤ من يوليو فى العراق لتهدم اتحاد التيجان ولترفع اسم بغداد من فوق واجهة الحلف الذى صنعه الاستعمار ورفع شعاراته نورى السعيد ٠٠ وظهر واضحا أن المد الثورى العربى يسير فى طريق قدره ٠

وبصدور قرارات يوليو الاشتراكيه فى عام ١٩٦١ ، واستيعاب الثورة الوطنية لأبعادها الاجتماعية لم يعد أمام الاستعمار الغربى الممثل الشرعى للرأسمالية فى قمتها الاحتكارية الا طريق التآمر ٠

وكان الانفصال فى ٢٦ من سبتمبر ١٩٦١ الذى احتفل به الاستعمار والرجعية العربية رسميا فى شتورة فى أغسطس ١٩٦٢ .

ولكن المد الاستعمارى الرجعى لما ينته قبل أن تثبت الثورة العربية أصالتها وعراقتها وامتداد جذورها فى التربية العربية • فلقد أفاق العالم على ثورة شعب اليمن ضد الطغيان الامامى الرجعى المتخلف فى ٢٦ من سبتمبر عام ١٩٦٢ •

وقبل أن يتمكن الاستعمار من محاصرة ثورة اليمن فى طريق التخلص منها نهائيا كانت ثورة ٢٣ يوليو المصرية عند التزامها واقفة الى جانب شعب اليمن وثورته •

كذلك قضى شعب العراق على انحرافات عبد الكريم قاسم وشعوبيته فى فبراير عام ١٩٦٣ .

وبرز المضمون الاجتماعى لثورة ٢٣ يوليو عندما اختارت طريق التحول الاشتراكى باعلان الميثاق الوطنى فى ٢١ من مايو ١٩٦٢ واقراره من جانب اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية فى ٢٠ من يونيو من نفس العام • وقال الاستعماريون : ان الميثاق قابل للتصدير الى كل الدول العربية ، وأن اشتراكية مصر هى اشتراكية عدوانية قابلة للانتشار •

واذا كان الاستعمار والرجعية فى المنطقة العربية قد جربا كل أساليب الحرب الخفية والعلنية ابتداء من حملات : التشكيك ، والتسويف ، وعقد الأحلاف العسكرية ، وبناء كيانات اتحادية هزيلة الى الحرب المسلحة فى السويس ، والحرب المأجورة ضد ثورة اليمن ـ فانهما لجأ الى وسيلة جديدة هى الحلف الاسلامى الذى يتزعمه الملك فيصل فى الدول العربية والاسلامية ، ويعاونه بورقيبة فى تونس ، وشاه ايران ، ويحرك خيوطه صانعو السياسة فى واشنطون ولندن • غير أن مصير الحلف الاسلامى حدده الشعب العربى منذ عام ١٩٥٧ عندما حاول الملك سعود بتكليف خاص من الرئيس السابق أيزنهاور أن يدعو له فى المنطقة العربية •

ان جوهر ثورة ٢٣ يوليو المجيدة هو أنهـا اكتشفت طريق اليقظة العربية التى تمكنت من احراز النصر الكامل فى كل المعارك التى خاضتها وتخوضها فى المستقبل •

الوسائل والأساليب :

ولم يتوان الاستعمار والرجعية فى استخدام كل الوسائل النفسية للقضاء على الثورة ، وعلى سبيل المثال لا الحصر يمكننا أن نذكر عـدة وسائل رئيسيـة استخدمها أعداء ثورة ٢٣ يوليو على مـدى الأربعة عشر عاما الماضية • ولقـد استخدمت هذه الوسائل جميعها فى وقت واحد فى بعض الاحوال كما استخدم بعضها فى ظروف خاصة ، وان كان الهدف النهائى لم يتغير فى كل الأحوال وهو محاولة القضاء على فاعلية الثورة المصرية سواء فى نطاقها الداخلى ، أو العربى ، أو العالمى •

١ ـ الاذاعات السرية :

لقد وعدنا القارىء فى الباب (الرابع) بالعودة الى الحـديث عن الاذاعات السرية التى تعرضت لها بلادنا ، ولقد سبق أن وضحنا مدى خطورة استخدام هذا النوع من الاذاعات • والواقع أن اسـتخدام الاذاعات السرية كان من أول الوسائل ـ وأهمها ـ التى استخدمها أعداء الثورة المصرية فى مرحلة مبكرة ، فلقد تم استماع أول اذاعة سرية معادية موجهة الى الشعب المصرى فى أوائل عام ١٩٥٥ وكانت تحمل اسم محطة « صوت مصر الحرة » وآخر محطة سرية ما زالت تذيع حتى الآن هى اذاعة الملكيين التى يديرها الاستعمار والرجعية السعودية الحاكمة لحساب الامام المخلوع أحمد البدر وتوجه اذاعاتها ضد ثورة اليمن ومؤيديها •

وتزايد عدد المحطات السرية ونشاطها عام ١٩٥٨ وبلغ عددها احدى عشرة اذاعة سرية توجه كل أحاديثها المحمومة ضد شعب الجمهورية العربية المتحدة . ولقد كان من بين هذه الاذاعات السرية المعادية ما هو موجود بالفعل فى أراض عربية

مثل اذاعة « صوت الحق » وكانت أجهزتها فى بيت نورى السعيد نفسه وجعلت مهمتها التمهيد لحرب السويس فى شتاء ١٩٥٦ ، وأنشأ كميل شمعون اذاعة صوت لبنان السرية فى ١٩٥٨ وكانت توجه اذاعتها ضد الجمهورية العربية المتحدة •

كذلك اتبع عبد الكريم قاسم نفس الاسلوب وأنشأ فى بغداد اذاعة سرية تحت اسم « صوت دمشق الحرة » ووجه اذاعتها عام ١٩٥٩ ضد دولة الوحدة • وفى الاردن أيضا تم تجهيز اذاعة سرية بعد ثورة ١٤ يوليو العراقية عام ١٩٥٨ حملت اسم « صوت العراق » وكانت مهمتها مهاجمة ثورة العراق وكان الملك حسين بنفسه قد نبه الى وجود هذه المحطة فى حديث صحفى نشرته له جريدة الصنداى تايمز البريطانية يوم ٢٧ من يوليو ١٩٥٨ وقد سبقت اذاعة اسرائيل الملك الى الاعلان عن هذه المحطة الاردنية السرية •

وفى أكتوبر ١٩٦٣ أنشأ حزب البعث الحاكم فى العراق اذاعة سرية باسم « صوت الجماهير » ركزت الهجوم على القاهرة بعد عدم توفيق مباحثات الوحدة الاتحادية الثلاثية بين القاهرة ، ودمشق ، وبغداد •

ومن الأراضى الفرنسية ظهرت اذاعات « صوت مصر الحرة » و « صوت الأحرار » •

وفى الجزائر أنشأ جاك سوستيل محطة سرية أطلق عليها اسم « محطة كليبر » وكانت تذيع على طريقة اذاعة صوت العرب وتقلد أصوات مذيعها وذلك بقصد تحطيم الثقة التى اكتسبتها اذاعة صوت العرب عند جميع المناضلين الثوريين العرب •

كذلك تحولت اذاعة الشرق الأدنى التى كانت تديرها بريطانيا الى اذاعة صوت بريطانيا ابان حرب السويس ، وكانت وظيفتها اذاعة بلاغات العدوان الثلاثى على الشعب المصرى، ولقد توقفت هذه الاذاعة بخيبة أمل المعتدين والعدوان.

ولقد جاءت هذه الاذاعات جميعها بنتائج عكسية تماما ، اذ كان يستمع اليها أفراد الشعب المصرى بالسخرية والاستهزاء • وأكثر من ذلك أن الصحف

المصرية نفسها كانت تكتب عن هذه الاذاعات ، كما أن الرئيس عبد الناصر أشار اليها أكثر من مرة ، وكان تعليقه الدائم عليها « دع الكلاب تعوى ما دامت القافلة تسير » .

وقد يكون من المفيد الآن أن نتناول دور هذه الاذاعات فى العمليات النفسيه التى وجهها الاستعمار بشىء من التفصيل .

أنشئت اذاعة مصر الحرة بعد تولى الرئيس عبد الناصر رياسة الجمهورية . وبعد أن أممت مصر قناة السويس بدأ الاستعمار يدبر مؤامراته ضد حكام مصر ولا سيما ضد الرئيس عبد الناصر شخصيا ، حيث ساهمت المحطة المذكورة فى المؤامرة التى كانت تدبر فى لندن عقب تأميم قناة السويس .

وكان هدف هذه المحطة اثارة شعب مصر ضد الرئيس عبد الناصر ونظام حكمه ، فقامت بتأليب شعب مصر ضد حكامه قبل العدوان الثلاثى لكى يصبح مستعدا لمناصرة المستعمر اذا وقع العدوان منه . وبعد قيام الوحدة بين مصر وسوريا حاولت بكل جهد تفتيتها والقضاء عليها .

وكانت هذه المحطة تهاجم حكام مصر بألفاظ بذيئة عبرت عنها جريدة التايمز بأنها غير قابلة للنشر ، وكانت تستهدف أن تتعود الجماهير المصرية تحقير زعمائهم .

كما استمرت المحطة فى حملاتها دائبة على سياستها الهجومية على نطاق أعنف مستغلة بشكل ظاهر عملاءها من الخونة والمأجورين .

ولما لم تنجح المحطة فى تحقيق الاغراض التى وجدت من أجلها توقفت فى ١٩٥٩/٧/٣٠ ثم عادت للظهور باسم صوت الاحرار فى ١٩٥٩/١٢/٤ .

كان هدف « صوت الأحرار » هو الهجوم على الرئيس عبد الناصر شخصيا ، والتنديد بسياسته الداخلية وذلك بترديد الحديث عن : المعتقلات ، والسجون ،

وارهاب رجال المباحث ، والزعم بتفشى الانحلال الخلقى ، والتشكيك فى مدى فائدة المشروعات الصناعية والانتاجية ٠

كما جعلت من مبررات التشهير أنها تسير فى الفلك الشيوعى ، وذلك لاثارة الرأى العام العربى فى مصر ، وحاولت مرارا اثارة الكراهية ضد المصريين فى سوريا بعد قيام الوحدة محاولة تفتيتها ٠

وفى يوم ٣/١٢/٥٧ ظهرت اذاعة « صوت الاصلاح » وادعت بأنها تذيع من سوريا ، وقد توقفت المحطة بعد ذلك عدة أيام ثم استأنفت عملها مما يدل على أنها كانت فى دور التجربة ٠ وقد وجهت دعايتها أول الامر الى حكومة سوريا ٠ ثم استمرت فى اذاعتها المعادية ضد الجمهورية العربية المتحدة حتى توقفت ٠

وكان هدف المحطة اثارة شعب الجمهورية العربية المتحدة ضد نظام الحكم القائم ، وركزت دعايتها على الاقليم السورى مخاطبة شعبه زاعمة له أن مصر تحاول استغلال سوريا وأنها السبب فى سوء الحالة الاقتصادية ٠ وكان هدفها من هذا واضحا وهو تحطيم الوحدة بين الاقليمين بعد أن خذلت فى منع قيامها ٠

وابان ثورة لبنان والمقاومة الشعبية لحكم كميل شمعون ، ظهرت اذاعة « صوت لبنان » لتؤيد كميل شمعون وسياسة الاحلاف ، وتهاجم رجال المعارضة اللبنانية ٠

وفى ١٩٥٨/٧/١٨ ظهرت اذاعة صوت العراق بهدف تحطيم ثورة العراق واعادتها الى حظيرة التاج الهاشمى تحت قيادة الملك حسين ، فأخذت تشكك الشعب العراقى فى ثورة الجيش ، وتهاجم الجمهورية العربية المتحدة وحكومة الثورة فى العراق ، وتتهم مصر بأنها تجر الدول العربية تجاه موسكو ٠

كما كانت تهاجم الصحافة والاذاعة فى الجمهورية العربية المتحدة ، وتقول: ان أموال الدولة تنفق على الدعاية والاعوان ، وتهاجم نظام الحكم الداخلى، وتحاول تفتيت الوحدة ، واثارة الرأى العام فى الاقليم الشمالى والقول بعدم توفيقها ٠

أما فى مجال السياسة الخارجية فكانت تعمل على التهوين بقوة الجمهورية العربية المتحدة والاقلال من فاعلية الجيش المصرى فى صراعه مع اسرائيل، والايقاع بين الجمهورية العربية المتحدة والدول العربية الاخرى •

وكانت تزعم بأن السد العالى سلم للاستعمار الشيوعى ، وأنه وسيلة لتحكم السوفييت وتغلغل الشيوعية ، كما كانت تقوم بتحريض أهل فلسطين ضد الجمهورية العربية المتحدة ، وتهاجم جامعة الدول العربية محاولة هدمها •

وفى فترة الاعتداء الثلاثى على مصر والتمهيد له ظهرت محطة سرية جديدة عرفت باسم « صوت الحق » ، وكان هدفها فى أوائل نشأتها عام ١٩٥٦ هو التمهيد لاثارة الشعب المصرى ضد حكامه لاسقاط الحكم القائم ، والتشهير به وبخاصة الرئيس عبد الناصر فى الميدانين الداخلى والخارجى •

وفى ٢٥ من ديسمبر ١٩٥٩ ظهرت اذاعة عرفت باسم « صوت دمشق الحر » ومقرها بغداد حيث استورد عبد الكريم قاسم محطة اذاعة لتقوية اذاعة بغداد ، ولكنها نصبت فى قصر الحارث قرب أبى غريب لتذيع باسم صوت دمشق الحرة •

وفى ٣٠ من سبتمبر ١٩٦٢ أمكن العثور على محطة أطلقت على نفسها اذاعة الأحرار وتدعو الى الالتفاف حول الامير الحسن ، وتعمل على موجة قصيرة طولها ٨ر٤٩ •

وتعتبر السعودية صاحبة المصلحة الأولى فى هذه المحطة وتسييرها ، كما ترددت أنباء بأن القوات الأمريكية الموجودة فى الظهران ، والقوات البريطانية الموجودة فى عدن قد تقدمت بمساعدة هذه الاذاعة والاشراف عليها فنيا •

وكان هناك اذاعة كليبر وهى الاذاعة السرية التى يشرف عليها جاك سوستيل والمعروفة باسم حركة النهضة الجزائرية والموجهة بخاصة للثوار الجزائريين ،

ولقد اتبعت ادارة المحطة الصادرة من فرنسا طريقة اذاعة صوت العرب ، وبنفس الألحان المميزة لصوت العرب مع احداث شوشرة توهم المستمع بأنها صادرة من القاهرة .

وكان هدف هذه الاذاعة تحطيم الثقة التى اكتسبتها اذاعة صوت العرب لدى الثوار الجزائريين والمناضلين فى شمالى أفريقيا خاصة والعالم العربى عامة ، وكانت تقوم باذاعة الأنباء والمعلومات على أنها صادرة من اذاعة صوت العرب من القاهرة ، بما يتمشى مع المخطط المعادى للقاهرة .

٢ ــ النشرات السرية :

وتوزع عادة عن طريق البريد العادى ، أو توضع مباشرة فى صناديق البريد الخاصة فى المنازل ، ويصل الأمر فى بعض الأحيان الى حد وضعها تحت أبواب الشقق الخاصة .

وتتضمن النشرات السرية وجهات نظر معادية ضد نظم الحكم الشرعية وهى فى العادة وجهات نظر لا يستطيع اصحابها الاعلان عنها بالطرق المشروعة .

ولقد تعرض الشعب المصرى لكثير من أنواع هذه النشرات وان كان الملاحظة بصفة عامة أنها جميعها كانت تطبع فى الخارج وتتسرب الى داخل البلاد عن طريق : البريد ، والمطارات ، والبواخر ، وفى بعض الحالات حقائب الدبلوماسيين الأجانب .

وأساليب النشرات تعتمد فى الغالب على التأثير العاطفى للقارئ دون مخاطبة عقله . وطابع السرية فى الكتابة والنشر والتوزيع قد يعطى أهمية للنشر لا تستحقها اذا كانت معروضة بطريقة علنية .

وقد ظهرت بعض النشرات تعتمد على الرسوم الكاريكاتورية دون تعليق أو مع تعليق صغير عليها يسهل انطباعه فى ذهن القارئ ، فمثلا فى عهد

الوحدة ظهرت نشرة تعتمد على الكاريكاتير وتشير الى أن خيرات الشعب المصرى تذهب الى سوريا ، بينما لا يجد المصريون الا القليل من خيرات بلادهم ، والهدف واضح بالطبع من النشرة ٠

وكذلك فى عام ١٩٦٢ نشطت حركة توزيع نشرات سرية كانت تطبع فى فرنسا وتوزع عن طريق البريد الجوى ، ويتولى الاشراف على العملية نفس الجهاز الذى كان يدير اذاعة مصر الحرة السرية ٠

ولقد وصلت هذه النشرات الى عناوين محددة فى مصر من بينهم ضباط سابقون فى الجيش المصرى ٠ وتضمنت هذه النشرات بعض التعليقات الاذاعية التى تذيعها المحطات السرية ٠ وكانت هذه النشرات تتهم النظام القائم فى مصر بالفشل وتدعو الجيش والشعب الى معاداته ٠

تقليد الأصوات المعروفة :

لقد كانت اذاعات صوت العرب وأصوات مذيعيها هدفا دائما وثابتا لمحاولات تزييفها من جانب أعداء الثورة العربية ٠ كانت صوت العرب وما زالت تمثل الامل لكل المناطق العربية التى ما زالت تكافح من أجل استقلالها الوطنى ٠ وكان خطر هذه الاذاعة أنها تحمل الصدق الوطنى للشعب العربى كافة ٠ ولقد حاول جاك سوستيل المقيم الفرنسى فى الجزائر اقامة اذاعة كاملة تشير فى كل ملامحها ، واذاعاتها ، وحتى فواصلها الموسيقية ، وبرامجها المميزة الى اذاعة صوت العرب فى القاهرة لكى تذيع الى شعب الجزائر ما يريده الاستعمار الفرنسى ولكن سرعان ما تنبه شعب الجزائر الى هذا الزيف وحول مؤشرات اذاعاته الى « صوت العرب » فى القاهرة ٠

ولعل الحادث الذى وقع للطالب الاردنى نبيل محمد فتحى انشاص يشير الى هذا الخطر الذى ما زال يلاحق الحكم الراهن فى الاردن من اذاعات صوت العرب ومذيعيها ٠

فلقد حاول : مدير المخابرات الأردنية ، ومدير الأمن العام ، وقائد شرطة العاصمة ارغام هذا الطالب بالتهديد تارة والترغيب مرة أخرى بتقليد صوت المذيع أحمد سعيد وذلك فى برامج مشابهة لحقائق وأكاذيب بما يتفق مع سياسة الحكومة الاردنية ولكن الطالب الاردنى رفض هذا التزييف •

الصور المزيفة :

نشرت مجلة قرندل العراقية الموالية لحكومة نورى السعيد يوم ٢٧ من مارس ١٩٥٨ صورة بحجم الكارت بوستال عن اجتماع مزعوم بين الرئيس عبدالناصر وبين موشى ديان وكتب تحتها تعليقا جاء فيه :

« هذه الصورة وصلت الينا بالبريد ومن مصدر لا نعرفه لأن المرسل لم يشر الى نفسه • والصور يظهر فيها الرئيس عبدالناصر والمدعو موشى ديان القائد العام للقوات الاسرائيلية •• انها صورة غريبة حقا •• وقد كتب مرسلها تحتها انها التقطت قبيل العدوان الثلاثى فى اجتماع تم بمستعمرة فى شمالى غزة . ونحن ننشر هذه الصورة الغريبة ونستبعد أن يحدث مثل هذا اللقاء بين أى زعيم عربى وهذا القائد الصهيونى وليس بينه وبين عبد الناصر فقط •• اننا نطالب بايضاح من المسئولين المصريين لهذه الصورة العجيبة ! » •

ومن المعروف أنه من الممكن فنيا عن طريق الخدع التصويرية أن يتم تزييف أى صورة تضم مجموعة من الافراد ، وبهذه الوسيلة تمكن المسئولون فى العراق فى ذلك الوقت من تزييف صورة الاجتماع المزعوم بين الرئيس عبد الناصر وبين موشى ديان •

ومن الواضح أن صورة هـذا الاجتماع المزعوم ظهرت عقب ظهور توزيع صورة لاجتماع كان قد تم بين نورى السعيد وبين موشى ديان فى أنقرة •

وقد أحدثت هذه الصورة ضجة كبيرة في كل الأوساط العربية ، وحاول نورى السعيد بتزوير صورة الرئيس أن يشكك الرأى العام العربى فى الصورة الحقيقية التى جمعت بين نورى السعيد وديان ، وذلك على اعتبار أن الرأى العام العربى رفض بداهة الصورة المزيفة التى جمعت بين الرئيس عبد الناصر وموشى ديان ، ومن ثم فان نورى السعيد يستطيع أن يصل الى هدفه النهائى وهو التشكيك أيضا فى صورته مع القائد الاسرائيلى ٠

الشائعات :

أما الشائعات التى أفردنا لها بابا منفصلا فى هذا الكتاب فكانت أكثر الاسلحة لدى الاستعمار والرجعية فى شن حربهم الشعواء على النظام ٠

ونعتقد أنه لا داعى هنا الا لنذكر القارىء بخطر هذا السلاح الرهيب من أسلحة الحرب النفسية ٠

على أننا نود أن نشير الى نقطة سبق أن شرحت بالتفصيل وهى أن أغلب الناس بصفة عامة مهيئون لتلقى الشائعة وتصديقها لأنه ليس لديهم من الوقت ما يسمح بمراجعة ما يسمعونه على معايير الصدق أو لصعوبة ذلك ٠

وقد استخدمت جميع أنواع الشائعات التى تحدثنا عنها فى الباب الخاص بالشائعات وهى أساسا تحمل كل الحقد والكراهية للنظام القائم ٠

كما كان الاقتصاد المصرى هدفا لكثير من الشائعات نقدم لها نموذجا ما نشرته جريدة النهضة البيروتية فى ١٨ من يوليو١٩٦٥ عن بيع احتياط الذهب المصرى فى سويسرا ، وما نشرته أيضا جريدة الصفاء اللبنانية عن بيع مصر للقمح الذى تستورده من الولايات المتحدة ٠

ومن نماذج الشائعات السياسية ما يمكن أن يقال بصفة عامة عن مسئولية القاهرة الكاملة والمباشرة عن كل الحركات والانقلابات التى تحدث فى العالم حتى أن ثورة كاسترو فى كوبا كانت من تدبير القاهرة ، واغتيال فيرفورد فى جنوبى أفريقيا كانت القاهرة من ورائه أيضا ٠

الاتحادات :

وبعد أن فشل حلف بغداد فى أداء مهمة تطويق القاهرة وقامت الجمهورية العربية على أساس الوحدة بين مصر وسوريا فى فبراير ١٩٥٨ أنشأت بريطانيا حلفا ملكيا يضم ملكى العراق والأردن وروجت له دعايات حلف بغداد • وقيل يومها : ان هذا الاتحاد الهاشمى هو الطبيعى والممكن والقابل للبقاء • ولكن ثورة ١٤ يوليو العراقية تكفلت بوضع نهاية هذا الاتحاد الذى لم يمارس لحظة واحدة فاعلية وجوده •

شراء جرائد وأقلام عربية وأجهزة تشويش وتقوية اذاعات الاستعمار :

ومن الاساليب التى استخدمت فى مواجهة الجمهورية العربية المتحدة انشاء مكاتب صحفية فى بعض البلدان العربية ، وشراء أقلام تكتب لصالح الرجعية والاستعمار ، وقد تمثل ذلك فيما يلى :

١ ـ تأسست فى بيروت شركة فى عام ١٩٦٠ باسم دار الصحافة رأس مالها الظاهر فى العقد مليون ونصف مليون ليرة يرأسها روبير ايبللا الذى يحمل الجنسية البريطانية ، وقد جىء بشخص بريطانى من انجلترا لادارة هذه الدار التى تصدر ثلاث صحف : اثنتان تكتبان باللغة العربية ولكنهما تنطلقان باسم الممولين الحقيقيين فى لندن ، بينما تصدر الجريدة الثالثة باللغة الانجليزية • ومن جهة أخرى حاول الاستعمار القضاء على الصحف القومية فى بيروت وذلك عن طريق تخريب دور هذه الصحف ووضع المتفجرات فيها ففى ١٩٦٠/١٠/١١ وضعت قنبلة فى جريدة الحوادث القومية كما وقع انفجار فى مبنى دار الصياد لصاحبها سعيد فريحة فى ١٩٦٠/١٠/١٣

٢ ـ من جانب العراق عمل رأس المال الانجليزى مع عبد الكريم قاسم على توسيع نشاط صحيفة الحياة البيروتية فاشتريت لها آلات خاصة لنقل الاخبار والصور من جميع أنحاء العالم ٠

٣ ـ وفى الأردن ركزت الحكومة على جريدة الجهاد فقدمت لها ١٠٠ ألف دينار ومرتبات شهرية ثابتة للمحررين ٠

٤ ـ فى السودان وضعت الحكومة هناك يدها فى ١٩٥٨/١٢/١٧ على مستندات تثبت أن حكومة السودان السابقة وافقت على مؤامرة استعمارية لانشاء محطات اذاعة فى أماكن متفرقة من السودان للتشويش على اذاعة الجمهورية العربية المتحدة ٠

هذا ومن المسائل التى استخدمت فى محاربة أجهزة الاعلام العربية أن الكونجرس الأمريكى اعتمد مبلغ ٤٠ مليون دولار لتقوية اذاعة صوت أمريكا عام ١٩٥٩ فى : الشرق الاوسط ، وأفريقيا ، وأوروبا ٠

الأحلاف الرجعية :

لما كان الاستعمار فى محاولة دائمة لتغيير شكله القديم الى أشكال جديدة فهو ينتقل من القواعد العسكرية الظاهرة ، الى النشاط الخفى للشركات الاحتكارية، الى تجميع للحكام والعملاء الرجعيين فى أحلاف تتخذ من العقيدة والدين ستارا لها يخفى طياته النشاط الخفى للشركات الاحتكارية النازحة لثروات الشعوب ٠

فمثلا عندما ووجه نورى السعيد بمقاومة مشروعه الاستعمارى «حلف بغداد» ، حاول أن يعطى الحلف صفة التجمع الاسلامى لكى يمكن قبوله ٠ ولقد قام الملك سعود بعده بثلاث سنوات بنفس الدور عندما حاول أن يضفى على مشروع أيزنهاور عباءته الدينية ولكنه لم يوفق أيضا ٠

ونفس الدور يمثله الآن الملك فيصل امتدادا لحلف بغداد ومبدأ أيزنهاور وهو يدعو الآن صراحة الى الحلف الاسلامى دون مرادفات أجنبية ظنا من الملك انه يتجنب أخطاء نورى السعيد ، والملك سعود ·

المجـــلات :

لعل الظاهرة البــارزة فى وســائل الاعــلام المعادية ما حاولتــه الدوائر الاستعمارية فى بيروت من تزوير كامل لأعداد من المجلات العربية ذات التأثير فى الرأى العام ومن بينها مجلة روز اليوسف · فقد تم اعداد طبعــات مماثلة تماما من مجلة روز اليوسف وتحمل نفس الاسم ولها نفس مواصفات الطباعة ، والتغليف والرسوم ، والاختلاف الوحيد هو المادة نفسها التى تتضمنها صفحات المجلة بمعنى أن الاستعمار يقوم بعملية تزييف كاملة لمجلة معروفة للرأى العام العربى ولميولها القومية ؛ لكى يفاجىء القارىء بحدوث تغيير فى طريقة تحرير المجلة واتجاهاتها القومية ·

المزيد من النصر يقابله المزيد من حملات النقد :

واذا كنا قد استعرضنا أهم الوسائل والادوات التى يستخدمها الاعداء والخصوم فى الترويج لوجهات نظرهم المعادية ، فان ذلك معناه أن هذه الادوات جميعها ، أو بعضها ، أو أكثر منها قد استخدمت أو ما زالت تستخدم بطريقة أو بأخرى ·

والملاحظة العامة التى يمكن أن تعطيها طبيعة القاعدة ، أنه كلما أحرزت الجمهورية العربية المتحدة انتصــارا تزايد نشــاط أساليب الدعايات المعادية وأدواتها وتعددت وجوهها ، وتمايزت مراحلها ، ولكن جميعها تسير فى اتجــاه مصلحة واحدة هى التقليل من قيمة الانتصار ، أو التشكيك فيه ، أو اتهامه .. الخ .

وبصفة عامة يمكن رصد الحركة التصاعدية للدعايات المعادية والضغوط النفسية التى تعرض لها الشعب المصرى عن طريق رصد نفس الحركة التصاعدية لانتصارات الشعب المصرى وتزايد مكاسبه ، ولقد أشار الرئيس عبدالناصر الى هذه الحقيقة عندما قال فى احدى خطبه : انه يتفاءل من تزايد نباح الخصوم لأن ذلك اعتراف حقيقى من جانب الاعداء بأننا نسجل المزيد من الانتصارات .

وانه لمن الممكن رصد حركات الهجوم المضادة التى قوبل بها كل انتصار أحرزته الجمهورية العربية المتحدة .

القومية العربية فى مواجهة الاستعمار :

للقومية العربية مع الاستعمار تاريخ طويل ومؤامرات منسقة من قبل أطرافه ، وقد كان الباعث الأول للاستعمار على قيامه بمؤامراته ضد القومية العربية هو عزلتها منذ القرن الثالث عشر ، وتفضيلها أن تظل معزولة بالقدر الذى يسمح لها بصد الغزوات التى تعرضت لها ومنها الحملة الصليبية التى كانت تتألف من جيوش مأجورة خرجت من ظلمات أوروبا لتبحث عن المراعى الخصبة تحت ستار الدين .

أما الباعث الثانى للاستعمار فى اقدامه لفرض سيطرته على العالم العربى فقد كان البحث عن الاسواق ومصادر الخامات بعد أن ظهرت الآلة فى أوروبا واجتاحتها موجة من الانقلابات : الاجتماعية ، والثقافية ، والسياسية، خاصة وان أوروبا كانت قد ذاقت خيرات الشرق الاقصى وعرفت خاماته الطيبة بعد الرحلات التى قام بها : البرتغاليون ، والاسبان والانجليز ، والفرنسيون الى هذه المناطق عن طريق رأس الرجاء الصالح وخلال الفترة التى كان لا يزال العرب فيها يتمتعون بهيبة ومنعة .

أما الآثار التى ترتبت على فرض الاستعمار الاوروبى سيطرته على العالم العربى فهى عديدة ، ولكن هدفهـا الاول كان التفتيت والتجزئة بالوسـائل المختلفة من وسائل الدعاية والاغراء وعن طريق الأعوان المتطلعين الى السلطان ، وعن طريق تسميم الثقافة وبث الشك فى طبيعة أهداف المنطقة التى كانت لديها بالأمس امكانيات غزو أوروبا نفسها لولا أن اعترتها العثرات الداخلية •

ونحن لا نتابع الاحداث فى هذا المجال ـ فهذه مهمة المؤرخ ـ وانما نريد أن نكشف عما سببته صحوة القومية العربية المفاجئة لكل من الكتلتين العالميتين ـ بخاصة الغربية منهما ـ من محاولات فى تغيير الخطط والاساليب فى عمليات بسط نفـوذها ، أو على الاقل خلق علاقات جديدة تهيىء لها ما تصبو اليه من الحفاظ على البقية الباقيـة من النفوذ • ومع ذلك كان كثير من المراكز الدوليـة قد تأثر بهذه الصحوة المفاجئة من القومية بالرغم من المحـاولات اليائسة التى بذلت لوقف تطور هذه الصحوة ، ونشير الى بعض التغييرات التى طرأت كنتيجة لهذا التطور فى المحاولات التالية :

١ ـ تغيير أهداف الدعاية وأساليبها الموجهة الى المنطقة حتى تتـلاءم مع الظروف الجديدة •

٢ ـ تغيير واضح فى مجال العلاقات بين دول الغرب نفسهـا من حيث تنفيذ التحـالف ، ومن حيث زيادة الصراع الذى كان يأخذ صـورا عديدة فيمـا بينها ولا سيما بريطانيا وأمريكا •

٣ ـ تغيير فى الموقف العسكرى فى المنطقة نتيجة لجلاء قوات بريطانيا عن بعض المناطق العربية ، ومحاولات انشاء منظمات دفاعية جمـاعية وفشلها ، وتأثير ذلك على موقف الاتحاد السوفييتى •

٤ ـ تغيير فى سياسة الكتلة الشرقية ازاء منطقة العالم العربى بعد أن كانت تنظر اليها على أنها منطقة نفوذ خالص للدول الغربية •

٥ ـ تغيير فى السياسة الامريكية بالذات حتى تبدو فى دور المهدىء وتحل محل حلفائها الذين تقلص نفوذهم فى المنطقة ، وحتى تمنع الكتلة الشرقية من أن تدعم علاقاتها مع هذه المنطقة ، وفشل دورها هذا وعودتها الى حظيرة التحالف الغربى •

٦ ـ تأزم العلاقات بين القومية الصاعدة والدول الغربية الى الحد الذى نتج عنه قيـــام اعلان الحرب من قبـل كل من بريطانيا وفرنسا بالاشتراك مع اسرائيل كمحاولة للقضاء على قيادة هذه القومية فى مصر •

٧ ـ نشأة كتلة جديدة حيادية قوامها الدول التواقة الى التحرر فى آسيا ، وأفريقيا من مجالات النفوذ ، وتسخير امكانياتها لخدمة شعوبها •

٨ ـ تغيير لأساليب الحكام المحليين فى منطقة الشرق العربى ، وتملقهم للشعوب العربية ، وعدم جدوى هذا التغيير الظاهرى •

وبصفة عامة فان الآثار التى ترتبت على نجاح القـومية العربيـة وحققت شوطا كبيرا من أهدافها ـ كانت بعيدة العمق حتى امتدت الى الحياة اليومية للفرد الاوروبى فى فترة من فترات الصراع الاستعمـارى التى نشـأت عقب تأميم قناة السويس ووقوع العدوان الثلاثى على مصر •

مؤتمر باندونج الأول « مارس ١٩٥٥ » :

ان الأثر العظيم الذى أحرزه انتصار باندونج فى مجال العلاقات الدولية ، والعمل العظيم الذى قامت به مصر من أجل نجاح أول مؤتمر يضم شعوب آسيا وأفريقيا الحرة لأول مرة كان من شأنه زيادة مخاوف الامبرياليين القدامى • لقد

كان انتصار باندونج انتصار الارادة الحرة للشعوب التى غلبت على أمرها ، وعانت طويلا من النهب الاستعمارى المنظم لخيرات بلادها ·

لقد كان من بين قرارات باندونج أن الاستعمار شر يجب وضع نهاية عاجلة له ، وأن خضوع الشعوب للاستعباد والسيطرة الاجنبيين يناقض ميثاق الأمم المتحدة ، وانه يجب اعطاء الحرية والاستقلال لكل الشعوب ·

وطالب المؤتمر فى قراراته : بفتح باب الامم المتحدة لجميع الدول ، ونزع السلاح ، وتحريم انتاج الاسلحة الذرية والهيدروجينية وتجاربها · ونادى المؤتمر بأن دول آسيا وأفريقيا محتاجة الى التقدم الاجتماعى ورفع مستوى المعيشة ، وأنه لابد من استقرار السلام ·

وكان من البديهى أن يهاجم مؤتمر باندونج من جانب أولئك الذين يقفون حجر عثرة فى سبيل تحرير الشعوب من أجل مواصلة نهب خيراتها · ان ذلك هو ما حدث بالفعل ، ولكن الشىء العجيب حقا هو ما أثبتته الدراسات التى أجريت فى القاهرة حول ردود الفعل العالمية للقاء شعوب آسيا وأفريقيا فى باندونج · لقد سجلت هذه الدراسات مثلا أن نسبة الهجوم والانتقاد الذى وجه الى مصر والرئيس عبدالناصر يوازى ثلاثة أضعاف ما وجه الى مؤتمر باندونج ككل ·

ان تزايد الهجوم الاستعمارى والرجعى على قائد الثورة المصرية بعد باندونج معناه أن هذه الدعايات المعادية لم تتمكن من تقليل هيبة الزعيم المصرى فى نطاق بلاده ، وانها لا شك ستكون أكثر صعوبة وتعقيدا بعد أن عاد الرئيس المصرى الى بلاده كواحد من أبرز أبطال المؤتمر ومن أكبر قادة النضال فى أفريقيا وآسيا · ولقد صح بالفعل ذلك ، وأصبحت مهمة الدعايات المعادية لثورة ٢٣ يوليو من أصعب المهمات ·

تأميم قناة السويس « ٢٦ من يوليو ١٩٥٦ » :

وفى حالات نادرة فقط بعد نهاية الحرب العالمية الثانية يمكن أن يقال : أن وسائل الاعلام والدعاية العالمية تتوقف عاجزة تماما لفترة عن التعبير عن حقيقة مشاعرها واتجاهاتها بسبب فداحة المفاجأة أو خطرها • ولقد كان قرار تأميم قناة السويس من بين هذه الحالات النادرة التى أصابت معظم الدعايات العالمية بما يشبه الذهول الذى يتحول فيما بعد الى هذيان محموم •

ولقد كان أول انطباع عبرت عنه الدعايات المعادية فى اليوم التالى لقرار التأميم هو جزعها البالغ من هذه « البساطة المتناهية التى أعلن بها الرئيس عبد الناصر قراره التاريخى فى الاسكندرية » •

وبالفعل • ثبت فيما بعد أن هذه البساطة المتناهية التى تم بها قرار اعلان التأميم هى التى جعلت انطونى ايدن يفقد توازنه • ويعتبر أن قرار التأميم هو اهانة شخصية توجه الى رئيس وزراء بريطانيا • ومن ثم فان تفكير ايدن المنفعل بدأ منحرفا وخاطئا • وجعل من حقده الشخصى على الرئيس عبد الناصر أساسا لجميع تصرفاته المستقبلة • وما دام رئيس وزراء بريطانيا بدأ تفكيره منحرفا فان النتيجة الحتمية هى أن ينتهى تفكيره الى نتائج منحرفة ، ولقد كان ذلك هو ما حدث تماما •

لقد ذكر ايدن فى مذكراته التى طبعها بعد عشر سنوات من حرب السويس الفاشلة أنه قال بعد سماعه نبأ التأميم وكان فى حفل عشاء خاص يحضره نورى السعيد والأمير عبد الاله الوصى فى ذلك الوقت على عرش العراق :

« ان المصرى وضع أصبعه على قصبتنا الهوائية • وانى أفضل أن أرى الامبراطورية تسقط فى ارتطامة واحدة بدلا من أن أراها تتفتت قطعة وراء قطعة » •

وأثبتت هذا التعليق أيضا جريدة الصنداى تايمز فى سلسلة تحقيقاتها عن ظروف حرب السويس التى يكتبها هيوم توماس ٠

والواضح أن هذا التعليق العصبى لايدن لا يحمل شيئا من الحقيقة ؛ فلم تكن قناة السويس قطعة من الامبراطورية البريطانية ، كما أن الامبراطورية نفسها كانت قد ارتطمت بالفعل ٠

ومن صيغة التعليق يمكن أن يشم القارىء رائحة الحرب النفاذة ، وكان ذلك هو رأى ايدن منذ اللحظة الاولى التى سمع فيها قرار تأميم قناة السويس ٠ وكان عليه أن يثبت بحق ـ كما تهكم عليه بعض زملائه المحافظين ـ ما اذا كان يحمل تحت أنفه شاربا حقيقيا ٠

ولم يكن مؤتمر لندن الأول والثانى ، ولم تكن جمعية المنتفعين لقناة السويس والذهاب الى مجلس الأمن الا مجرد وقت يكسبه ايدن ومؤيدوه للتجهيز للحرب ٠ لقد قال نورى السعيد ناصحا ايدن يجب أن تضرب الآن ٠ وكان ذلك هو نفس رأى ايدن الذى اختلف عليه قادته العسكريون لأنه كان لابد من بعض الوقت للتجهيز والاعداد ٠

والى جانب الاعداد للحرب كان هناك التمهيد النفسى للعدوان وقد تكفلت به على خير وجه معظم أجهزة الدعاية ووسائل الاعلام فى أوروبا والولايات المتحدة ٠ كان لابد من التمهيد للحرب الساخنة بحرب أخرى نفسية اتخذت لنفسها أربعة أشكال مميزة :

الشكل الأول : وكان موجها للشعب المصرى ، هدفه فى الأساس أن العمل الذى أقدم عليه الرئيس عبد الناصر لا يمكن أن يمر بسهولة الى جانب ان خسائره ستكون أكثر من مكاسبه ٠

الشكل الثانى : وكان موجهـا الى الشـعوب العربيـة ، هدفه محـاولة عزل مصر عن بقية الدول العربية ومحاصرة الشعب المصرى داخـل أراضيه ٠

الشكل الثالث : وكان موجها الى شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية التى استقلت حديثا ، أو التى ما زالت تكافح من أجل استقلالها الوطنى ٠ وكان هدفه العمل على احترام العهود والمواثيق الدولية٠ وان الشعوب الصغيرة لاينبغى أن تتورط فى أعمال لا تستطيع بقوتها المحدودة مواجهة عواقبهـا ٠

الشكل الرابع والأخير : وكان موجها فى الاساس الى الرأى العام الاوروبى والأمريكى وكان هدفه واضحا وهو تهيئة الأذهان لتقبل مبـدأ العدوان المسلح على مصر لاسترداد القناة ووقف أطماع مصر عند حد ، وتأمين مصـادر البترول فى الشرق الأوسـط ٠ ولقـد ارتفع فى ذلك الوقت شـعار لابد من تأديب العصاة ٠

وكان عمل أجهزة الدعاية العدوانية فى بريطانيا وفى فرنسا وفى اسرائيل وأتباعها متناسقا ومتوازيا ويعرف أهدافه ، وهو فى النتيجة النهـائية يخـدم فكرة العدوان ٠

وعندما وقع العدوان بالفعل فى ٢٩ من أكتوبر عام ١٩٥٦ لم يكن مفاجأة لأحد ، ولكن نتـائج العدوان المعـاكسة كانت هى المفـاجأة الـكاملة والمذهلة لدعاة الحرب والمروجين لها ٠

ومرة أخرى تصاب أجهزة الاعلام الاوروبية والامريكية بما يشبه الصـدمة والذهول والتخبط ٠

وعلى مدى عشر سـنوات كاملة فشـل العـدوان ولـم تختلف مصـادر الأنبـاء فى العـالم على شىء قدر اختلافهـا على حرب السـويس ، مقوماتهـا ونتائجها ٠

والأمر الثابت فى كل أجهزة الدعاية العالمية المعادية منها قبل المؤيدة هو أن حرب السويس كانت الارتطامة الكاملة للامبراطورية البريطانية ، والتسجيل الحاسم لانتصار ارادة الشعوب الحرة ، والادانة الكاملة للحرب كأداة لاخضاع الشعوب .

التواطؤ :

وقد ذكر العديد من الآراء والتكهنات حول التواطؤ بين بريطانيا وفرنسا من جانب ، واسرائيل من جانب آخر. وليس هناك دليل صدق على وجود التآمر الثلاثى أكثر من المحاولات الفاشلة من قبل بريطانيا بنفى وجود التآمر ، وظهر ذلك بوضوح فى الدراسة التى قام بها المؤرخ البريطانى الشهير هيو توماس ونشرته جريدة الصنداى تايمز . لقد كانت هناك وقائع اتفاقية « سيفر » السرية التى ختمت التواطؤ بين بريطانيا وفرنسا واسرائيل على العمل المشترك لغزو مصر وطلبات بن جوريون لكى تتحرك اسرائيل ، ويقول هيو توماس بالنص عن هذه المطالب :

- ضرورة أن تقوم بريطانيا وفرنسا بتحطيم السلاح الجوى المصرى قبل أية خطوة .

- ضرورة أن تقوم فرنسا وبريطانيا بالرقابة كاملة على المطارات المصرية حتى لا يقوم منها خطر ينقض على اسرائيل .

- ضرورة أن تتولى فرنسا اقامة حزام بحرى واق حول اسرائيل حتى تمنع البحرية المصرية من التهديد .

ويقول هيو توماس فى دراسته بالنص عن اتفاقية « سيفر » ما يلى :

« أصر بن جوريون على أنه لا يستطيع أن يعود الى اسرائيل الا بورقة مكتوبة يطمئن بها زملاءه فى الوزارة الى أنهم يستطيعون الحركة ، وعندما كلف ايدن

وكيل خارجيته باتريك دين بتوقيع هذه الورقة لبن جوريون رفض بن جوريون وطار بينو وزير خارجية فرنسا الى لندن فى مهمة سرية سريعة ليعود بتأكيد شخصى من ايدن يضمن الصفقة ٠

« وفى يوم ٢٢ من أكتوبر وصل بن جوريون وديان وبيريز ومعهم الكولونيل مانجان الى باريس فى طائرة من طراز « د س ٤ » كان ترومان قد أهداها الى ديجول فى أعقاب الحرب ٠ وهبطت الطائرة فى مطار فيلاكوبلى ، واستقل الجميع سيارة قطعت بهم ميلا أو ميلين الى فيلا فى « سيفر » احدى ضواحى باريس ٠ وانضم اليهم فيما بعد بينو ومولييه ٠ وقد جاء بن جوريون لعدة أسباب ٠ كان يريد أن يتأكد أولا من أن السلاح الجوى المصرى سيدمر قبل أن تزحف القوات الاسرائيلية عبر سيناء ، وكان يريد فرض مراقبة دولية فوق المطارات المصرية تبدأ منذ اللحظة التى تجتاز فيها القوات الاسرائيلية حدود مصر ، وكان يطالب باتفاق مكتوب توقعه الدول الثلاث لكى تتحرك اسرائيل ، وان يحضر المناقشات الأخيرة التى ستدور حول الاتفاق وزير بريطانى مسئول ٠ وأخيرا طلب ضمانات بألا تؤدى التسوية التى كانت على وشك أن تتم فى نيويورك بين فوزى وهمرشلد الى تأجيل الحرب ، وأن تحمى السفن الفرنسية سواحل اسرائيل ، وان تتولى « قلة » من الطائرات المقاتلة الفرنسية حماية المدن الاسرائيلية ، وان تلقى الطائرات الفرنسية بالمظلات المواد الغذائية والذخيرة والسيارات على القوات الاسرائيلية الزاحفة ٠ وكان من المقرر أن تنطلق تلك الطائرات من قبرص ٠ وفى تلك الليلة سافر « الوزير البريطانى المسئول » ومعه أحد المسئولين سرا الى باريس وليس ثمة ما يدعو الى الشك فى أن الوزير الذى سافر الى باريس هو لويد وأن المسئول الذى رافقه هو باتريك دين ، المستشار القانونى السابق لوزارة الخارجية البريطانية الذى خدم ايدن باخلاص طوال الأزمة ، ولقد قال لى بينو باخلاص فى خلال حديث معى : ان الوزير كان « مندوبا بريطانيا » ٠

فترة التوتر مع السوفييت :

ولم يأت عام ١٩٥٥ حتى كان الشعور القومى وكراهية الغرب قد بلغا غايتها فى الشرق الاوسط ، وأصبح الغرب فى تراجع مستمر عن هذه المنطقة ، ورأت دول الشرق الاوسط أن ارتباطها بالاتحاد السوفييتى يزيدهاقوة فى مواجهة الغرب ، كما أن هذا الارتباط يعود عليها بفائدة كبيرة ممثلة فى السلع الرئيسية والعتاد الحربى السوفييتىعلاوة على أن الكتلة الشرقية ستصبح سوقا واسعا لخامات الشرق الاوسط ٠

وقد ازداد التبادل التجارى زيادة كبيرة بين دول المنطقة والكتلة السوفييتية منذ عام ١٩٥٤ ، بينما كانت نسبة صادرات المنطقة الى تلك الكتلة ٨٪ من مجموع صادراتها عام ١٩٥٣ قفزت هذه النسبة الى ٣٢٪ عام ١٩٥٨ ، واستطاع الاتحاد السوفييتى أن يحقق نصرا كبيرا فى تحويل نسبة كبيرة من تجارة الشرق الأوسط نحو الكتلة السوفييتية بخاصة أنه قدم تسهيلات كبيرة فى قروض التنمية الاقتصادية والعسكرية ٠ وقد بلغت قروض الكتلة السوفييتية الى دول المنطقة أكثر من ١٣٠٠ مليون دولار منذ عام ١٩٥٥ ، حصلت منها مصر وحدها على أكثر من ٦٠٠ مليون ٠

ومنذ عام ١٩٥٥ عمل الاتحاد السوفييتى على اقامة روابط ايجابية مع مصر عقب اتمام صفقة السلاح الاولى ٠ وحينما نشأت أزمة السد العالى وما أعقبها من تأميم قناة السويس وقفت الكتلة الشرقية بجانبنا مؤيدة قانونية الاجراء ، وقامت بتقديم عرض تمويل السد العالى ، ثم استمرت العلاقات بين البلدين تنمو فى جميع المجالات ولا سيما فى المجال الاقتصادى فى ظل من الاحترام المتبادل ٠ وقد ظهر ذلك بوضوح فى المحادثات والخطب التى تمت خلال زيارة الرئيس السابق خروشوف للجمهورية العربية المتحدة فى ربيع عام ١٩٦٤ ٠

الا أن هذه العلاقات انتابها نوع من الفتور والتوتر فى الفترة التى تلت الوحدة بين مصر وسوريا نتيجة ملابسات سياسية واختلافات مذهبية • لقد كانت سوريا قبل الوحدة مركزا هاما للنشاط الشيوعى ، وكانت الفوضى الحزبية وعدم الاستقرار السياسى قد وصلا فيهما الى درجة مهدت للشيوعيين المحليين احتمالات السيطرة على الحكم ، ولكن بعد أن تمت الوحدة ضعف مركز الشيوعيين بخروج بعض زعمائهم من سوريا •

وفى ١٤ من يوليو قامت ثورة العراق وتم لعبدالكريم قاسم الاستيلاء على الحكم ولكنه انحرف عن الخط العربى ولجأ الى الشيوعيين المحليين فى ضرب القوى القومية بالعراق ، واستمر العراق فى حالة من الفوضى وعدم الاستقرار السياسى وصلت ذروتها فى مذبحة الموصل وكركوك •

لم تواجه الوحدة ضغطا من الغرب فقط ولكنها جابهت عدة مشكلات مع الكتلة الشرقية فى نفس المرحلة •

وقد نددت الجمهورية العربية المتحدة فى ذلك الوقت بنشاط الشيوعيين المحليين فى العالم العربى مما حدا بالاتحاد السوفييتى والكتلة الشرقية الى أن تجند أجهزتها الاعلامية للهجوم على اتجاه الجمهورية العربية المتحدة القومى والوحدوى وحملاتها ضد الشيوعيين •

وكان لخطاب السيد الرئيس فى بور سعيد يوم ١٩٥٨/١٢/٢٣ والذى حمل فيه على الشيوعية فى : الجمهورية العربية المتحدة ، والبلدان العربية ، والعراق بصفة خاصة ـ أثر كبير فى الاتحاد السوفييتى والبلدان الاشتراكية ، مما أدى الى قيام أجهزة الاعلام بها الى مهاجمة الجمهورية العربية المتحدة •

اذاعة موسكو :

هاجمت أى تقارب بين الجمهورية العربية المتحدة والغرب ، كما هاجمت الرئيس عبد الناصر وقالت : ان موقف ناصر من الشـيوعيين هو بمثابة ضربة تنزل بالديموقراطية ، كما أشـادت بدور السوفييت فى مسـاعدة الجمهـورية العربية المتحدة فى أثناء العدوان • كذلك أذاعت كلمة محيى الدينوف فى مؤتمر الحزب الشيوعى الذى هاجم بعض الدول العربية لمعاداتها للشيوعيين وقال : ان هؤلاء لا يخدمون أمتهم ، وتناولت بالهجوم شخص الرئيس عبد الناصر وقالت انه ما زال يواصل افتراءاته على عبد الكريم قاسم ، واتهمت الجمهورية العربية بالثورة التى قامت فى الموصل ، ونددت بحملات الجمهورية العربية المتحدة على العراق وقالت : انها ترغب فى ضم العراق . وحاولت اظهار الاتحاد السوفييتى بمظهر المتسامح ، وأن هناك حرية أديان وأن المسلمين فيه يتمتعون بكل شىء فى حرية تامة ، وذلك ردا على ما أشيع من أن فى القاهرة مصدرا يقول أن الاتحاد السوفييتى يسىء معاملة المسلمين، وأكدت الاذاعة عدم تدخل خروشوف فى الشئون الداخلية للجمهورية العربية المتحدة ، والعمل على مناصرة الحكم القائم فى العراق، والدفاع عن الأوضاع الداخلية بها • كما أنكرت قيام هجرة اليهـود من دول الكتلة الشرقية الى اسرائيل •

واشتركت كل من اذاعات : بكين، وتيرانا ، وصوفيا، وبرلين فى الهجوم على القاهرة ، فقامت اذاعة بكين بالهجوم على الرئيس عبد الناصر لمعاداته لعبد الكريم قاسم واتهمته بالمساعدة لقيام ثورة الموصل •

وأما اذاعة صوفيا فقد نددت بالاجراءات التى اتخـذت ضد الشـيوعيين وخاصة فى الجمهورية العربية المتحدة ، ووصفت الشيوعيين بأنهم القوة المحركة فى الوحدة الشعبية فى البلدان العربية •

وأما اذاعة برلين الشرقية فقد هاجمت صحف القاهرة ووصفتها بأنها تروج الاكاذيب لافساد العلاقات بين الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفييتى •

صحيفة البرافدا :

ولقد قامت صحيفة البرافدا بالاشارة الى أن صحف القاهرة تردد ما تقوله صحف الرجعية فى أمريكا على العراق ، ونددت بصحف القاهرة لنشرها ما يفيد أن الاتحاد السوفييتى يشجع الهجرة الى اسرائيل ، كما أشادت بالعلاقات بين السوفييت والعراق وعبد الكريم قاسم وهاجمت الجمهورية العربية المتحدة وسوريا لهجومهما على العراق • وقالت : ان الأعمال والخطب التى يقوم بها عبد الناصر تؤيد السياسة الاستعمارية الأمريكية ، وأعربت عن أملها فى زوال التوتر بين العراق والجمهورية العربية المتحدة • وهاجمت الجريدة أيضا مجلة روز اليوسف القاهرية لعطفها على الأمريكيين ، كما استنكرت المحاكمات التى وصفتها بالصورية ضد الشيوعيين وعددهم ٦٤ مواطنا بالاسكندرية ، وهاجمت القاهرة لنشرها أنباء غير ودية عن زيارة خروشوف للولايات المتحدة ، كما نشرت أن فى مصر محاكمات عسكرية سرية ضد التقدميين •

ويعتبر ما نشرته جريدة ازفستيا الشيوعية مقاربا لما جاء بجريدة برافدا من هجوم على الجمهورية العربية المتحدة والاشادة بثورة العراق وحكامها ، كما هاجمت الصحف المصرية وقالت : ان الصحافة لم تقدر الصداقة ، وأبرزت أسف خروشوف لوجود نزاع بين العراق والجمهورية العربية المتحدة •

على أن هذه الحملات مالت بعد ذلك الى الهدوء ، وأخذت العلاقات بين البلدين تتجه الى النمو فى جميع المجالات ، وأصبحت العلاقة بين البلدين مبنية على أساس من التفاهم والاحترام المتبادل ، والحرية السياسية والعقائدية •

قوانين يوليو الاشتراكية :

وجاءت قوانين يوليو الاشتراكية فى يوليو عام ١٩٦١ ، فأثارت مختلف الدعايات العالمية ، فبالنسبة لليونان مثلا أثارت قرارات التأميم موجة من القلق فى الاوساط الاقتصادية والسياسية اليونانية لما ترتب عليها من بعض الاضرار

المالية التى لحقت ببعض أفراد الجالية اليونانية ، ولما نجم عن هذه القرارات من ازدياد هجرة اليونانيين • ويلاحظ أنه بالرغم من ذلك امتنعت الصحف اليونانية عن التعليق •

ولقد تزعمت كل من الدعاية الاسرائيلية، واذاعة طهران كعادتهما الاذاعات المجهولة ، وسارتا فى خطط استعمارى واحد هدفه النيل من أى انتصار تحرزه الجمهورية العربية المتحدة •

أما بالنسبة لبعض الدول الآسيوية الأفريقية حديثة الاستقلال فقد لوحظ أنها لم تبد حماسا لهذه التشريعات ، وقد يرجع ذلك الى رغبة حكومات بعض هذه الدول فى عدم تشجيع شعوبها على المطالبة بمثل هذه القوانين الاشتراكية •

ومع ذلك فان نقابات العمال فى غينيا اجتمعت واتخذت قرارا بمطالبة الحكومة بتطبيق القوانين الثورية فيما يتعلق بالعمال من حيث حصولهم على ٢٥٪ من الارباح وتمثيلهم فى مجلس ادارات المؤسسات •

أما موقف الدول العربية فقد اختلف بسبب ظروف كل دولة وحالتها الداخلية ، وانفردت صحافة لبنان وحدها بالتعليق على الموضوع ، بل وقفت الصحف المعادية للجمهورية العربية المتحدة موقفا موحدا هدفه تحطيم القرارات والتخويف من تطبيقها فى لبنان ، فى حين أيدت الصحف التحررية هذه التشريعات ، وطالبت بتطبيق هذه الاشتراكية العربية فى لبنان •

ولنحاول أن نتتبع أهم الأهداف الدعائية التى برزت فى مختلف الدعايات لأنها تلقى ضوءا نحن نحتاج اليه لنرى الطريق بوضوح •

فبالنسبة لمحاولة التشكيك فى قدرة هذه التشريعات على النجاح فقد قامت على أساس أن التأميم سياسة ثبت فشلها بدليل انخفاض انتاج المؤسسات التى أممت من قبل • وأشارت الدعايات الى عدم كفاية الجهاز الحكومى لادارة هذا العدد

الضخم من المؤسسات والشركات التى شملها التأميم • كما زعمت أن الاتحاد السوفييتى سيلحق ضررا كبيرا باقتصاديات الجمهورية العربية المتحدة نتيجة عدم رضاه عن هذه التشريعات لارتباط الاقتصاد فى الجمهورية العربية المتحدة بالاقتصاد السوفييتى (القطن ـ صفقة الاسلحة) •

وبالنسبة لمحاولة تشكيك العمال والموظفين فى الحقوق التى كفلتها لهم هذه التشريعات ، رددت الدعايات أن تخفيض ساعات العمل سيؤدى الى ايقاع الضرر بالمؤسسات الاقتصادية اذ سيؤدى الى رفع تكاليف السلع ، وأن قرار منح العمال ٢٥٪ من الربح لن ينفذ بسبب سيطرة الحكومة على المؤسسات ، وبسبب ضعف الربح ، وكما ستؤدى القوانين الاشتراكية الى تحميل العامل أعباء مالية جديدة : كالتأمينات والخدمات الاجتماعية ، فانها قد خلت من بعض المواد التى تحمى العامل من الفصل التعسفى ، كما أن قوانين العمل الجديدة سوف تسبب التضخم •

وبالنسبة لمحاولة اثارة القلاقل حول الوضع الاقتصادى فى الجمهورية العربية المتحدة فلقد روجت هذه الدعايات أن التشريعات اتخذت من أجل العجز الموجود فى الميزانية ، ولأن الاقتصاد المصرى أصبح اقتصادا منهارا تسيطر عليه الحكومة سيطرة تامة ، كما زعمت أن هناك حركات استياء داخل أوساط العمال لعدم رضاهم عن التشريعات العمالية ، وأن التشاؤم أصبح علانية الآن لدى أصحاب المحلات وصغار رجال الأعمال ، كذلك قالت : أن هجرة التجار الأجانب التى بدأت منذ عام ١٩٥٦ بتأميم قناة السويس ازدادت ، وسوف يسرى تعديل فى العملة فى شكل تخفيض مقنع • وقالت : ان التشريعات أحدثت هزة كبيرة فى الأسواق المحلية ، وأن الذهب اختفى من الأسواق ، وأن انخفاض أسعار السندات يدل على الذعر الذى أصاب أصحابها ، ثم رددت الشائعات أقوالا عن استقالة كل من : حسن عباس زكى ، والدكتور القيسونى لعدم علمهما بصدور هذه القرارات وعدم رضاهما عنها •

هذا وحاولت الدعايات اثارة الاقليات والهيئات والطوائف فى الجمهورية العربية المتحـدة بقولها : أن قوانين التأميم اضطهاد للأقليات وبالذات للجالية اليونانية ، فضلا عن أن هذه القرارات الاشتراكية تتعارض مع الدين الاسلامى ، وتطبيقهـا فى الاقليم السـورى أضر بالاقتصـاد السـورى حتى أوجـد حالة سخط عامة .

ثم حاولت الطعن فى حياد الجمهورية العربية المتحدة فرددت بأن الرئيس ناصر يترسم باصداره هذه القوانين خطى ستالين ، وأن هذه القرارات شيوعية وليست اشتراكية ،وقد أحدثت نفس الأثر الذى أحدثته قرارات التأميم فى الدول التابعة للكتلة الشرقية .

الضغوط الاقتصادية :

كشف العدوان الفاشل على السويس عن مدى خطر سيطرة الأجانب على المراكز الحساسة فى الاقتصاد المصرى ، وفى كل اقتصاد قومى توجد مواقع يمكن عن طريقها السيطرة على الاقتصاد القومى وأهمها : البنوك، وشركات التأمين، وهيئات التمويل بصفة عامة ، وكان الكثير منها تحت سيطرة الانجليز والفرنسيين(١) .

لذلك وبمجرد فشل العدوان بدأت الثورة باتخاذ سلسلة من الاجراءات لاستخلاص هذه المواقع لمصر ولصالح شعبها ، فبدأت بانشاء المؤسسة الاقتصادية فى ١٣ من يناير سنة ١٩٥٧ بالقانون رقم ٢٠ ، ثم بتمصير البنوك فى ١٥ من يناير ١٩٥٧ بالقانون رقم ٢٢ .

ولقد حاولت دعايات الولايات المتحدة بعد ذلك أن تقف بين العالم العربى وبين ما تصفه بالارتماء فى أحضان السـوفييت وذلك كسـتار لأن تأخذ مكان

---

(١) صلاح نصر : الحرب الاقتصادية ص ١٨١ - ٢٠٦ دار القلم بالقاهرة ١٩٦٥ .

بريطانيا وفرنسا فى الشرق العربى لتملأ الفراغ المزعوم الذى ادعت وجوده بعد جلاء النفوذ البريطانى والفرنسى عن المنطقة، فأعلن الرئيس أيزنهاور عن مشروعه الذى يعرض فيه المعونة العسكرية لمساعدة دول الشرق الاوسط اذا ما تعرضت لهجوم عليها ، واستعداده بمدها بمعونة قدرها ٢٠٠ مليون دولار ٠

واقترن انسحاب القوات المعتدية عن السويس بنوع من الحصار الاقتصادى قام به الغرب منذ عام ١٩٥٧ هادفا من ذلك التأثير على تجارتنا الخارجية وعرقلة اقتصادنا القومى ٠

وتمثل ذلك فى التضييق على صادراتنا الى البلاد التقليدية كبريطانيا وفرنسا بصفة خاصة ، والامتناع عن بيع القمح والأدوية لنا الا نقدا وبالعملة الصعبة ٠

كذلك أعقب فشل العدوان الثلاثى اتباع دول غرب أوروبا والولايات المتحدة سياسة تهدف الى حصار مصر والضغط عليها اقتصاديا ، وتركزت هذه السياسة حول القطن المصرى واتخذت مظاهر عديدة ٠ منها امتناع دول غرب أوروبا والولايات المتحدة عن شراء القطن المصرى ، وامتناع البنوك المحلية التى كانت تعتبر آنذاك فروعا لمراكزها فى الخارج عن تمويل محصوله ٠ وكانت تغطى كل هذه الاهداف حملة دعائية منظمة شنتها دول غرب أوروبا والولايات المتحدة ، فأشاعت مثلا أن مصر رهنت محصولها من القطن مقابل صفقات الأسلحة من الكتلة الشرقية ، وسياسة الاغراق التى اتبعتها الولايات المتحدة تقوم على بيعها لأقطانها طويلة التيلة فى الأسواق العالمية بأسعار منخفضة ٠

وساهم فى زيادة حدة الموقف بالنسبة لمصر توسع السودان فى زراعة القطن طويل التيلة ، وتعمد بيعه فى الأسواق العالمية بأسعار منخفضة، وقد شكلت

هذه العوامل مجتمعة ضغطا على أسعار القطن المصرى وجعلتها تبدو مرتفعة فى السوق العالمية مما أضعف الطلب عموما على القطن المصرى فانخفضت صادراتنا الى حوالى ٥ر١ ، ٥ر٧ مليون قنطار عامى ٥٦/٥٧ ، ١٩٥٨/٥٧ على التوالى ٠

وتعتبر الفترة التى أعقبت العدوان الثلاثى مباشرة وامتناع الكتلة الغربية عن شراء القطن المصرى هى الفترة التى قام فيها الغرب فعليا بضغطه الاقتصادى علينا ، أما ما تلا ذلك من انخفاض فى نسبة واردات الكتلة الغربية من القطن المصرى فيرجع الى تحول تجارة القطن نحو أسواق جديدة نتيجة هذا الضغط ٠

ولقد أوقفت بريطانيا مد مصر بالبنكنوت المصرى المطبوع فى بريطانيا وحصلنا على كميات منه عن طريق السودان ، وعملية طبع البنكنوت من العمليات الهامة والحساسة فى الحروب الباردة والساخنة على السواء ، وان امتناع الطابعين عن التوريد أو افشاء سر الطباعة لتسهيل التزييف أمر قد يؤدى الى ارباك الاقتصاد القومى وتخريبه ٠

وقبل العدوان قامت اسرائيل فعلا بتزييف ورقة البنكنوت فئة الجنيهات الخمسة ، ولولا فشل العدوان فى الحال لغمرت اسرائيل مصر بالأوراق المزيفة وبعد العدوان تسربت بعض هذه الأوراق الى مصر عن طريق بنك أنترا ببيروت ، ولكن اكتشاف التزييف قضى على هذه المحاولة فى حينها ٠

أمثلة للهجوم على مصر :

١ ـ اتهمت اذاعة لندن بتاريخ ٦١/١٠/١٩ الرئيس عبد الناصر بخفض مستوى المعيشة فى مصر، كما شككت فى جهود المسئولين عن الاقتصاد المصرى ٠

٢ ـ عزت الاذاعة سوء الوضع الاقتصادى الى المشكلات المتنوعة ، وافتقار مصر للعمال المهرة ، وبطء الاتحاد السوفييتى فى تنفيذ مشروعات السد العالى ٠

٣ ـ تهكمت اذاعة اسرائيل بتاريخ ٦١/٧/٢٧ على أعضاء مجلس الأمة وهم يناقشون الميزانية، وقالت الاذاعة أن المجالس المحترمة تستغرق شهرين فى بحث الميزانية بينما ناقشها أعضاء مجلس الأمة فى ست جلسات استغرقت ثلاث ساعات ٠

٤ ـ ادعت الاذاعة الاسرائيلية بتاريخ ٦١/٧/٣٠ بأن البطالة متفشية فى مصر ، وذكرت أن قرار عـدم الجمع بين وظيفتين سيزيد المشكلة تعقيدا ، كما ادعت الاذاعة بتاريخ ٦١/٩/١٣ بأن الحكومة أهملت الريف ٠

٥ ـ زعمت اذاعة طهران فى ٦١/٨/١٢ أن مستوى المعيشة فى مصر أقل المستويات فى العالم وأن ٩٠٪ من أفراد الشعب حفاة ، وادعت أن أكثر من نصف الميزانية ينفق على التسليح ٠

٦ ـ أبرزت اذاعة « صوت الأحرار » فى ٦١/٨/١٤ الوضع الاقتصادى فى مصر على أنه فى منتهى السوء حيث زعمت أن الشعب المصرى يقف طوابير أمام المخابز ليحصل على أرغفة العيش، وأن الأرز اختفى من الأسواق .

٧ ـ شككت اذاعة باريس بتاريخ ٦١/٩/٢٥ فى نجاح قانون الاصلاح الزراعى ، كما قالت : ان التجار مستاءون من القيود التى فرضت على الاستيراد والتصدير ٠

الدعاية المعادية للوحدة المصرية السورية :

واجهت الجمهورية العربية المتحدة منـذ قيامها فى فبراير عام ١٩٥٨ من الغرب كثيرا من مظاهر الضغط تمثلت فى الحملات الاعلامية ضد الوحدة واظهارها فى شكل استعمار مصرى ، واعادة تأكيد البيان الثلاثى الصادر يوم ٢٥ من مايو سنة ١٩٥٠ عن الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا لتأمين حدود اسرائيل ٠

وقد صاحب ذلك حملة صهيونية شديدة ضد الجمهورية العربية المتحدة وضد حظر مرور السفن الاسرائيلية فى القناة ، ومصادرة البضائع الاسرائيلية المحملة على السفن الاخرى، وقد بلغت هذه الحملة ذروتها فى حادث مقاطعة الباخرة « كليوباترة » فى ميناء نيويورك وتلكؤ حكومة الولايات المتحدة فى اتخاذ اجراء حاسم لوقف هذه المقاطعة .

وكانت أهداف الغرب من هذه الضغوط النفسية واضحة ، فهو يسعى الى فصم الوحدة مع سوريا والقضاء على عقيدة القومية العربية أو محاصرتها حتى لا تتسع رقعتها، كما كان هدفه تشجيع الرجعية العربية وأعوان الاستعمار داخل الجمهورية العربية المتحدة للعمل على التخريب ، وأخيرا يحاول أن يساند اسرائيل بمحاولة التأثير على سياسة المقاطعة واجراءاتها بشأن الملاحة فى قناة السويس .

ان التركيز على اثارة السوريين ضد الوحدة بين مصر وسوريا قد بدا بوضوح عقب قيام الاتحاد العراقى الاردنى ، ووجهت هذه الاثارة الى معظم طوائف الشعب السورى :« جيش .. بوليس .. صحفيين .. رجال الأحزاب .. شخصيات سياسية .. تجار .. صناع .. مزارعين .. رجال اقتصاد .. بدو ».

ويمكن اجمال نقاط الدعاية المعادية للوحدة المصرية السورية منذ قيامها فيما يأتى :

١ ـ اتهام المصريين بالسيطرة على سوريا لمحاولة اثارة السوريين ضد الوحدة .

٢ ـ محاولة الدس والوقيعة بين رجال الحكم المصريين والسوريين .

٣ ـ الزعم بأن الصحافة المصرية ستغزو سوريا بعد تنظيم الصحافة فى كلا البلدين محاولة بذلك اثارة الصحفيين السوريين .

٤ ـ اتهام الرئيس عبد الناصر بأنه أبعد جميع خصومه فى سوريا وتركيزه النشاط السياسى فى القاهرة فقط دون دمشق .

٥ ـ اثارة رجال الاحزاب السوريين عن طريق الترديد بأنهم غير راضين عن التنظيمات : الادارية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والعسكرية .

٦ ـ مهاجمة القوانين الاقتصادية التى صدرت ، ومحاولة اثارة رجال : الاقتصاد ، والتجارة ، والصناعة ، والتدليل على ذلك بكساد سوق القطن وانخفاض أسعاره فى سوريا ، وكساد التجارة السورية بعد الوحدة .

٧ ـ محاولة اظهار فشل الوحدة بين سوريا والجمهورية العربية المتحدة ، والتركيز من جديد على اتحاد سوريا والعراق الذى يؤكد أنه طبيعى .

وعندما وقع الانفصال فى سبتمبر ١٩٦١ كان هناك ما يشبه الفرحة الكاملة فى كل أجهزة الدعايات المعادية . ففى يوم ٢٩/٩/٦١ أوردت اذاعة باريس اتفاق جميع الصحف الفرنسية الصادرة فى هذا اليوم على أن الانقلاب السورى سيشكل انتكاسه شخصية للرئيس عبد الناصر، كما زعمت صحيفة لوفيجارو بأن الانفصال سيهدد حياته ، وتقول الاذاعة بتاريخ ١٤/١٠/١٩٦١ أن الانقلاب السورى أحدث رد فعل قويا فى مصر ، وأن الضباط فى الجيش المصرى أعربوا عن استيائهم من سياسة حكم القاهرة ، وبتاريخ ٦/١١/٦١ ذكرت الاذاعة الفرنسية أن اطاحة الحكم الناصرى فى سوريا فتح الباب أمام تحسن العلاقات بين الدول العربية وتضامنها فى جميع الميادين .

الخلافات العقائدية فى المنطقة العربية :

قوبلت الاشتراكية العربية ، عقيدة وتطبيقا ، بهجوم مركز من جانب القوى الرجعية فى المنطقة العربية . فمن استعراض بعض الحوادث والقاء الضوء عليها وربط بعضها ببعض نخرج بأن الغرب كله وراء هذا الهجوم المعادى . ولقد صدر العديد من الكتب وكلها يهدف الى تشويه النظام الاشتراكى فى الجمهورية العربية المتحدة .

قامت هذه الحملات على أساس أن الاشتراكية عقيدة غريبة عن شرقنا ، وعن المسيحية والاسلام بصورة خاصة ، وعن تاريخنا وتقاليده . وان الاشتراكية ظهرت على أيدى ماركس وانجلز ومن سبقهما مثل توماس مور أو لحق بهما مثل لنين وستالين ، وأنها وليدة ظروف أوروبية خاصة فى القرن التاسع عشر .

وتقول الحملة : ان الاشتراكية العربية التى اختارتها القاهرة لم تكن بمفهوم واحد منذ بدأت الدعوة اليها . فقبل سنة ١٩٦١ كانت تدعو الى اقامة مجتمع اشتراكى ديموقراطى تعاونى وتهاجم الشيوعية . ثم جاء عام ١٩٦١ فكان حدا فاصلا للتحول فى مفهوم الاشتراكية المصرية ، اذ محا الميثاق ما قيل من قبل ، واعتبر الاشتراكية العلمية الصيغة الملائمة لايجاد المنهج الصحيح للتقدم .

وهاجمت الدول الرجعية فى المنطقة الاشتراكية فقالت أنها تخالف كل المخالفة القائلين بأن ديننا دين اشتراكى ، لأن غاية الاشتراكية العربية من هذا القول ، كما يزعمون هو ترغيب المصريين المتمسكين بالدين الاسلامى فى اعتناق الاشتراكية ، وأن الدين ينبغى أن يحافظ على جلاله وقداسته وألا نهبط به الى مستوى الاشتراكية فليس الاسلام بدين اشتراكى .

وتزعم الحملة أن هناك تشابها بين المبادىء الأساسية للميثاق وبين تلك التى جاء بها ماركس وردووا أمثلة لذلك على النحو التالى :

١ ـ اعتمد ماركس قبل كل شىء على الثورة وجعلها الوسيلة الوحيدة للتغيير وأساسا لكل تقدم ، وفى الميثاق هناك الحاح شديد على الثورة .

٢ ـ دعا ماركس عمال العالم كلهم الى الاتحاد والعمل الثورى ، وكذلك دعا الميثاق المصرى الى جعل الثورة الاشتراكية هدفا للبلاد العربية جمعاء .

٣ ـ نادى ماركس بالغاء ملكية الأرض وجعلها للدولة ، والقوانين الاشتراكية فى مصر ليس فيها ما يشير الى أن التحديد قد وقف عند حد ١٠٠ فدان للأسرة المكونة من الزوج والزوجة والأولاد القصر .

٤ ـ نادى ماركس بالاستيلاء على وسائل الانتاج ، وقال الميثاق المصرى بسيطرة الشعب الكاملة على كل أدوات الانتاج .

٥ ـ نادى ماركس بالقضاء على سيطرة رأس المال ، والميثاق أيد ذلك .

٦ ـ هاجم ماركس الاقطاع والاحتكار والبورجوازية ، ونجد فى الميثاق هجوما وتأكيدا للقضاء على الاقطاع والاحتكار والاستغلال وسيطرة رأس المال .

٧ ـ نادى ماركس بتأميم وسائل النقل والمواصلات قبل كل شيء ، والقوانين الاشتراكية فى مصر أممت قبل كل شيء وسائل النقل والمواصلات .

وتستمر الحملة على الاشتراكية العربية فتقول :

« هل هو الشعب المصرى الذى اختار الحل الاشتراكى أو فرض عليه هذا الحل الاشتراكى ؟

ان الاختيار يدل على حرية الارادة ويدل على حرية الفكر والرأى ، فهل كان الشعب المصرى منذ قيام ثورة ١٩٥٢ حر الارادة حر التفكير حر الرأى ؟

والآمال العريضة للجماهير متى ظهرت وما هو مدى عرضها ومن الذى عبر عنها ، أهى حقا آمال جماهير أم مطامع فئة ثائرة ؟

لم يكن الشعب كله هو الذى اختار الاشتراكية ولم تكن الآمال عريضة كما وصفها الميثاق » .

وتحاول الحملة الرجعية أن توضح أن الاشتراكية العلمية تعادى الدين ، وأن الحاكمين فى مصر لم يتجاهلوا الدين وانما أرادوا أن يجابهوه بشكل ايجابى

لا سلبى ، ويزعمون أن موجهى الاشتراكية فى مصر لجأوا الى اتخاذ الدين الاسلامى نفسه طريقا الى الاشتراكية التى صد عنها الناس ، وجعلوه منفذا يدخلون منه الى قلوب العوام ٠

وتحاول الرجعية العربية دائما أن تضم الاشتراكيات الثورية العربية فتقول : أنها قامت كلها بالقوة والعنف على أثر انقلاب عسكرى أو ما يشبه الانقلاب ، وتستند الى قوة الجيش قبل كل شيء وليس لديها لصفتها الثورية تأييد شعبى الا من فئة قليلة ، كما شلت الحريات وليس فيها ديموقراطية سياسية ، وعملت على تصفية البورجوازية والرأسمالية بعد أن وصمتهما باطلا بالرجعية ومعاونة الاستعمار ، وصادرت أموال الناس ولم ينج من ذلك حتى الفقراء ٠

وتزداد الرجعية العربية فى افتراءاتها فتقول : ان الاشتراكية العربية لم تحترم الدين اذ جعلته عبثا فى أقلام الكتاب والدعاة ، يجعلونه اشتراكية ماركسية تارة ، ويفسرون التاريخ الاسلامى تفسيرا ماديا تارة أخرى ٠

كما تردد أن الأزمات الاقتصادية تتوالى على البلاد التى تطبق الاشتراكيات، فتضطرها الى دفع الشعب الى الجوع والقلق على الغذاء ، أو تصطدم بارتفاع الأسعار ، او تدفعها الى الاستعانة بالقروض الخارجية حتى من دولة قد نسميها بالرأسمالية ٠

وتركز الرجعية العربية أيضا على أن المحاولات المختلفة لم تمكن هذه الاشتراكيات من اكتساب جماهير الشعب ، ولا الامتداد فى جميع بلاد العرب ، وأصابتها نكسات داخلية ٠

* * *

والواقع أن الهجوم الذى تشنه الدول الرجعية فى المنطقة على الاشتراكية العربية والدول التقدمية فى المنطقة التى تحكمها نظم تقدمية ثورية يخلط عن عمد خبيث بين : الماركسية ، والمفهوم للاشتراكية العربية ٠

تصر الرجعية العربية دائما على الخلط بين : الاشتراكية العلمية بالمفهوم الماركسى ، والمفهوم العربى للاشتراكية العلمية فى الميثاق • لقد أوضحت نصوص كثيرة من الميثاق وخطب الرئيس فى أكثر من مناسبة اختلاف علمية الاشتراكية العربية عن مفهوم الماركسية العلمى ، فهذا يقوم على القوانين المادية الجدلية تمييزا لها عن الاشتراكيات المثالية والخيالية السابقة لها ، أما الاشتراكية العربية فهى علمية بمعنى أنها مفتوحة للاستفادة من الفكر والتجارب العالمية فيما يتعلق بالاشتراكية ، وهى تستفيد من التجارب السابقة عليها دون نقلها ، كما أنها اشتراكية تتفق فى مقوماتها مع طبيعة وظروف وتاريخ وطبائع الشعب المصرى معتمدة على نتائج العلم الحديث •

وبالرغم من وضوح الفرق فى مفهوم العلمية بين الاشتراكية والماركسية والتأكيد على هذا فى الميثاق وفى كثير من المناسبات ، فان الرجعية العربية تصر — خوفا على مصيرها — على أن تؤكد التوافق بين المفهومين وقصر « العلمية » على المفهوم الماركسى •

ان ادعاءاتها الباطلة دليل على أنها تنطق عن الهوى ، فالدين الاسلامى يحتم ضرورة تحرير الانسان من الاستغلال وتحقيق العدالة الاجتماعية ، وهذا ما تنادى به الاشتراكية العربية التى نعود ونكرر أنها ليست ماركسية بالمفاهيم التى أصر عليها موجهو الحملة الرجعية ، فضلا عن أن الاديان السماوية بعامة والدين الاسلامى بخاصة لا يمكن أن تتعارض رسالاتها مع فكرة تحقيق العدالة وتعمل من أجل رفاهية الانسان •

ومن الواضح أن التعبيرات والاصطلاحات التى تستخدمها الدول النامية عموما ، والتى قامت فيها ثورات للاصلاح سواء السريع الشامل أو الهادىء التدريجى ، تكاد تتوافق فى الفاظها ومرادفاتها • بل انها تكاد تتفق أيضا مع الاصطلاحات المستخدمة فى الأفكار الاشتراكية والاصلاحية التى سبقت الماركسية ومع الاشتراكيات التى نادت بها أو طبقتها بعض الاحزاب التى سميت باليسارية فى البلاد الاوروبية ذاتها • ولكنهم يصرون على اعتبار مثل هذه التعبيرات جميعا نابعة من الماركسية فقط وعلى اعتبارها كناية

حتمية للاتجاه الماركسي في التطبيق • وبالتالى لا يأخذون بما يرد من شرح لمفاهيم هذه التعبيرات سواء في الميثاق أو في خطب المسئولين ، وان أشاروا الى لمحة منها فانهم يعتبرونهـا مرحلة للوصـول الى الماركسـية • ومما لاشـك فيه أن الماركسية تمثل أهم الاشتراكيات المعروفة في النظرية والتطبيق، ولذا ليس غريبا أن تتوافق بعض التعبيرات المترجمة عن الاصل المـاركسي الى اللغـات الاخرى ومنها العربية ، ولكن الاصرار على اعتبار هذا التوافق كناية عن الهدف النهائي وهو تطبيق الماركسية التي ترادف الشيوعية يفضح خططهم وغرضهم المنسق مع شروحهم في دعاياتهم المختلفة •

ومن تحليل الرجعية لمعنى الملكية في الاشتراكية العربية نراها تدعى أنها مرحلة تنتمي حتما الى الزوال تشبها بالاشتراكية الماركسية ، ولكن الحقد الدفين أوغر صدور الرجعيين ، وأعماهم عن أن يتلمسوا في الميثاق تفرقته بين نوعين من الملكية : الملكية المستغلة، والملكية غير المستغلة• فبينما شجب الميثاق الاولى اعتبر الثانية حقا لأفراد المجتمع ، بل انه احتفظ للاجيال القادمة بحقها في أن تتطلع الى الملكية ما دامت غير مستغلة وتؤدى وظيفتها الاجتماعية • وبين الميثـاق اقرار الملكية وتوسيع نطاقها في الاشتراكية العربية ويوضح حدودها للاطمئنان الى عدم الاستغلال •

أما عن الفقرة التي يتساءلون عنها : هل هو الشعب المصري الذي اختار الحل الاشتراكي أو أنه فرض عليه هذا الحل الاشتراكي ؟ نرى أن دعاة الرجعية قد ساروا شوطا بعيدا في خطتهم لشجب الاشتراكية العربية وبلبلة الرأى العام في كل الأقطار العربية •

ولو كانوا ينحون نحو الانصاف بدلا من اتباع الهوى في استقراء تاريخ الشعب المصري قبل الثورة وبعدها ـ لرأوا أن حرية الارادة والفكر والرأى كانت بعيدة عن منـال هذا الشعب ، وأن قيـاداته التي كانت تدعى تمثيـله والتحدث باسمه لم تكن تعنى في مجموعها الا بمصالحها الذاتية • وأسوأ من هـذا أنهـا

فى حرصها على هذه المصالح كانت تعمل بوعى منها أو بغير وعى لمصلحة الاستعمار. بينما حققت مبادىء الثورة والاشتراكية العربية : الكفاية، والعدل ، والحرية الاجتماعية لأفراد الشعب الذين كانوا يستشعرون مغزى الحرية فى ظل : الاقطاع ، والاستغلال ، والرأسمالية .

والطليعة الواعية هى التى تستشف آمال الجماهير ومتطلباتها قبل أن تبلورها الجماهير فى صيغة مطالب لانها - أى القيادة - بصدق احساسها وطبيعة نبوعها من وسط الجماهير الشعبية تعرف ما تتطلع اليه هذه الجماهير وتسعى الى اتخاذ الاجراءات والوسائل التى تحقق أهدافها . وفى نفس الوقت تعتمد فى زيادة قوتها وصلابتها فى السير فى هذه الطريق على مساندة الشعب لاجراءاتها .

وقد أوضح الميثاق فى الباب السادس « فى حتمية الحل الاشتراكى » أن هذا الحل حتمية تاريخية فرضها الواقع وفرضتها الآمال العريضة للجماهير ، كما عرضتها الطبيعة المتغيرة فى العالم فى النصف الثانى من القرن العشرين . وبالتالى فان طليعة هذه الامة أخذت تلك العوامل فى الاعتبار ، وترجمت الآمال العريضة فى الاشتراكية العربية نظرية وتطبيقا .

وهل يختلف اثنان فى أن الكفاية التى تحقق للامة : تقدمها ، وعزتها ، وقدرتها على مواجهة قوى الشر فى العالم - وما أكثرها - وكذا العدالة الاجتماعية التى تهدف الى تحقيق الرفاهية ، يعكسان مطلبا قوميا خالصا أمينا لجماهير الشعب عامة .

وتتناسى الحملات الرجعية عامدة مناقشة الميثاق فى مؤتمر شعبى ، والاستفتاءات العامة التى أجريت فى الجمهورية العربية المتحدة ، والتجاوب الفريد الذى لاقته هذه الاستفتاءات وأسفر عن تأييد شعبى اجماعى .

وتذكر حملات الدعاية الرجعية أن موجهى الاشتراكية فى مصر لجأوا الى اتخاذ الدين الاسلامى نفسه طريقا الى اشتراكيتهم التى صد عنها الناس .

ولسنا نعلم من أين استقوا علمهم ذلك ؟ • لقد نسوا أن الاشتراكية فى حتميتها مبدأ وعقيدة وتطبيقا وضعت لصالح الغالبية العظمى من « الناس » أى جماهير الشعب التى ضمها تحالف قوى الشعب العاملة فى الاتحاد الاشتراكى العربى •

وواضح أن موجهى هذه الحملات يصدرون فى كتاباتهم عن منطوق واحد التزموه وهو أن الاشتراكية الماركسية الحادية ، والاشتراكية العربية صورة من الماركسية ، والأخيرة حين تراعى ايمان الشعب المصرى بالدين واجهته ايجابيا ومرحليا بادخال الاشتراكية والاسلام فيما يدل على انهما صنوان ، حتى اذا تمكن ذلك من نفوس الشعب فان الزمن الطويل كفيل بمحو أثر الدين •

وفى مجال تأييد أقوالهم فى هذا الصدد يشيرون الى أن الدين الاسلامى لم يرد ذكره فى الميثاق مرة واحدة فى مجال يفيد أن هذا الدين مصدر من مصادر تشريعنا ، أو أنه يرجع اليه فى تنظيم شئون الحياة •

ويجهل هؤلاء - أو يتجاهلون - طبيعة الميثاق وأهدافه وأن الدستور المؤقت « مارس ١٩٦٤ » نص فى مادته الاولى على أن الجمهورية العربية المتحدة دولة ديموقراطية اشتراكية ، ونص أيضا فى المادة الخامسة على أن الاسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية • وأوضحت مقدمة الدستور أنه صدر تأكيدا للميثاق الذى أقره مؤتمر القوى الشعبية • وفى نفس الوقت ، مراعاة لحرية الاعتقاد المنصوص عليها فى المادة (٣٤) ينص الدستور فى مادته السابعة أن « الاسرة أساس المجتمع ، قوامها : الدين ، والاخلاق ، والوطنية » •

ويجهل هؤلاء - أو يتجاهلون - التطور الكبير الذى حدث فى عهد الثورة وعمل على التوعية الدينية فى أجهزة الاعلام الرسمية ، وبصفة خاصة فى برامج الاذاعة حتى أنشئت محطة القرآن الكريم ، وفى برامج التليفزيون ، وفى تطوير الجامعة الازهرية بشكل يزيد من فاعليتها وخريجيها ، مما أثار حفيظة الاوساط

الاستعمارية فى الخارج خوفا منها على تقلص نفوذها المتمثل فى جهودها التبشيرية فى البلاد الافريقية بشكل خاص ٠

ولو توخينا الرد على كل دعوى أو زعم ورد فى هجوم الدول الرجعية لكان فى ذلك تكرار لما ورد فى كثير من الوثائق والاحاديث الرسمية ، وأهمها الميثاق ، والدستور ، ولذا نكتفى فى ايجاز بالاشارة الى النقاط التالية :

انهم يصرون باستمرار على الخلط بين الاشتراكية العربية والماركسية بالرغم من أنهم يوردون فى أحاديثهم ما ذكره الرئيس عبد الناصر فى أحد خطاباته بالنسبة لعلمية الاشتراكية العربية ما يلى :

« واذا كنا نريد اشتراكية سليمة ناجحة يجب أن تكون بطريقة علمية وعكس الطريقة العلمية هى الطريقة الفوضوية ، فاشتراكيتنا اذا اشتراكية علمية قائمة على العلم وليست قائمة على الفوضى ، وهى ليست أبدا اشتراكية مادية ، لم نقل أن اشتراكيتنا اشتراكية مادية ولم نقل أن اشتراكيتنا ماركسية » ٠

ولم تشر الدعايات الرجعية الى أن الميثاق فى شجبه للتجارب الرأسمالية لتلازمها تلازما كاملا مع الاستعمار وقيامها عن طريق النهب ، ولتحقيق أهدافها على حساب زيادة شقاء الشعب العامل واستغلاله لصالح رأس المال ، شجب فى نفس الوقت التجارب الاخرى للشيوعية التى حققت أهدافها تحت ضغط تطبيقات مذهبية لا تتمشى مع واقعنا وثقافتنا وقيمنا ٠

ولم يشيروا أيضا الى الاهتمام الكبير فى الميثاق بدور القطاع الخاص ورأس المال الوطنى غير المستغل فى أكثر من موضع نقتبس من بينها :

« ان استمرار دور القطاع الخاص بجانب القطاع العام يزيد من فعاليات الرقابة على الملكية الشعبية العامة ، ويقوم بدور عامل منشط لها بما يفتحه من مجالات المنافسة الحرة فى اطار التخطيط الاقتصادى العام » ٠

وفى هذا تشجيع للمبادرة الفردية فضلا عن التركيز على دعم روح المبادرة فى القطاع العام أيضا .

واستمرارا فى تعرضهم لثورتنا واشتراكيتنا يذكرون أن :

« الأزمات الاقتصادية تتوالى على البلاد التى تطبق الاشتراكيات ، فتضطرها الى دفع الشعب الى الجوع والقلق على الغذاء ، أو تصطدم بارتفاع الاسعار، أو تدفعها الى الاستعانة بالقروض الخارجية حتى من دول قد تسميها بالرأسمالية .

ولو أنصفوا وعدلوا فى نقدهم لرجعوا الى تاريخ مصر حتى قيام الثورة لتعمق حتمية قيامها واستهدافها فى كل أعمالها مصالح الشعب العريضة وأمله فى الارتفاع بهذه الامة بكل وسيلة ممكنة ، ولتوخوا الانصاف أيضا فى سرد بعض انجازات الثورة ولو على سبيل المثال ، ولحاولوا - ولو فى ايجاز - أن يتصوروا وضع مصر ووضع العربى فيها فى ظل حكمها السابق أو أى نظام يختاره رأسماليا صريحا أو غيره . وبدلا من ذلك أشار موجهو هذه الدعاية الخبيثة فى مكر واضح - الى بعض الحالات التى تعرض لها الاقتصاد العربى مشيرين الى نقص بعض المأكولات والى الاعتماد على القروض من الدول الرأسمالية ، ويتجاهلون أن دولا رأسمالية كبيرة اعتمدت بعد أن أصابها دمار الحرب على معونة دول رأسمالية أخرى لاقالتها من عثرتها ، وأن بريطانيا حاليا مثلا تعتمد على قروض ضخمة للاحتفاظ بكيانها الاقتصادى وبقيمة الجنيه الاسترلينى ، وأن الدول النامية عموما وهى تشكل معظم دول العالم تطالب بزيادة الاموال المتاحة لتنمية اقتصادياتها كحق مقابل لما تعرضت له بلادها من نهب وسلب من الدول الرأسمالية خصوصا .

وحين تردد الدعايات المعادية أفكارا خاصة عن الثورات عموما والثورة الماركسية خاصة وتخلص بأن الثورة ليست طريقا للتقدم لأنها « تتم بالعنف والدم وتأتى بالخراب والدمار والرجوع الى الوراء » تتناسى - اشباعا لأحقادها -

أن من أكبر مفاخر الثورة العربية سماحتها ـ فهى ليست دموية ـ بحيث أصبحت هذه من مآثرها • وورد عنها فى مقدمة دستور ١٩٦٤ « أنه تتويجا لمرحلة التحول العظيم التى تم فيها ، بالتطور السلبى والثورى فى نفس الوقت ، تحقيق سيطرة الشعب على ملكية وسائل الانتاج وادارتها » ووضح لكل ناقد أمين سعيها الدائم للبناء ، ومقاومتها المستمرة لكل جهد منحرف هدام ، وعملها المتواصل على حل مشكلات التنمية ، ورفع مستوى المعيشة ودعم دفاعها لليوم الموعود بوسائل أصبحت تمثل نموذجا يحتذى يخشاه الاستعمار بجميع صوره وأشكاله والرجعية المتحجرة ، وأصبح محل دراسة المفكرين فى بلاد العالم غربا وشرقا ، وكذا فى البلاد الساعية للتنمية •

صدى الميثاق الوطنى :

طوال الاسبوع الثانى من شهر مايو عام ١٩٦٢ ومعظم أجهزة الاعلام ووسائل النشر العالمية تتحدث عن مشروع الميثاق الذى أعلن فى القاهرة أن الرئيس عبدالناصر سيذيع نصه الكامل فى أول جلسة يعقدها المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية • وقد دارت تكهنات كثيرة فى مختلف صحف العالم حول ما قد يتضمنه الميثاق من مبادىء واتجاهات من شأنها أن تؤثر فى المدى البعيد على الصورة العامة للمجتمع داخل الجمهورية العربية المتحدة •

ومظهر الاهتمام البالغ بمشروع الميثاق قبل اعلانه تفسره تعليقات كثيرة لصحف الغرب ، ولا سيما فى بريطانيا ، وهى تشير فى مضمونها الى أن الجمهورية العربية المتحدة لن تكون وحدها الارض الخصبة الصالحة لاستيعاب محتويات الميثاق ، ولكن بذوره قد تجد نفس الخصوبة فى أراض عربية أخرى كثيرة •

والشىء الثابت أن ملامح كثيرة من محتويات الميثاق قد تضمنتها تعليقات معظم صحف العالم قبل اعلانه • الأمر الذى يؤكد أنه بعد عشر سنوات كاملة استطاعت ثورة ٢٣ يوليو أن تقدم للعالم مفهوما كاملا عن الصورة الثابتة للنظام

السياسى ، والاجتماعى ، والاقتصادى الذى تحاول ارساء دعائمه الجمهورية العربية المتحدة ٠

والذى حدث أنه بعد ٦ ساعات كاملة استغرقها الرئيس عبدالناصر فى اعلان مشروع الميثاق « ٣٠ ألف كلمة » أمام أول اجتماع للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية يوم ٢١ من مايو صدرت معظم صحف العالم فى اليوم التالى لتعلن أن البرامج المنظمة المدروسة التى قدمها مشروع الميثاق لم يكن من بينها ما يمكن اعتباره مفاجأة غير متوقعة بالنسبة لأحد ٠ ولقد صار ما يشبه الاتفاق بين جميع مصادر الأنباء على أن مشروع الميثاق جاء وثيقة استكملت ملامح كثيرة وحددت بوضوح موضوع الثورة العربية الرائدة التى تقودها القاهرة ، وحددت مكانها بين الثورات الأخرى الكبيرة المماثلة التى كان لها تأثيرها المباشر على تاريخ العالم ٠

وبعد أسبوعين من اعلان الميثاق فى القاهرة كتب جون كميش فى جريدة الجويش أوبزرفر معلنا أن الحقيقة الكبرى التى يجب أن يتذكرها الجميع بشأن الميثاق هى أنه لم تعد هناك أية متناقضات فى تفكير ناصر ٠

ثم يضيف أن الرئيس عبد الناصر « يعلم الآن ما يريده ، وقد قال ذلك للشعب المصرى ، وللأمة العربية » ٠

ولقد يبدو غريبا أن تكون مصادر الأنباء فى بريطانيا من اذاعة وصحف هى أنشط وسائل الاعلان فى العالم استقبالا وتعليقا على مشروع الميثاق الوطنى قبل وبعد اعلانه ٠ ولكن وصف الميثاق فى بريطانيا بأنه « القران الجديد » وقال راديو لندن ان الاسبوع الذى ظهر فيه الميثاق كان « أسبوعا خالدا فى تاريخ الأمة العربية » ٠

وكانت صحف ايطاليا من أكثر صحف أوروبا عموما تعليقا على الميثاق فور اعلانه ، والذى لا شك فيه أن الصحف الايطالية ـ بخاصة الاشتراكية ـ كانت

من أفضل صحف العالم استقبالا للميثاق العربى وترحيبا به • ولقد أثار هذا الترحيب من جانب الصحف الاشتراكية الايطالية نقمة معظم الصحف الصهيونية فى العالم الى الحد الذى قالت فيه صحيفة الجويش أوبزرفر : ان بيترونينى الزعيم الاشتراكى الايطالى « قد رحب بالفعل بالميثاق دون أن يعرف ما الشىء الذى يرحب به » •

والمعروف أن بيترونينى قد استقبل الميثاق العربى على أنه « حدث بالغ الاهمية ، وأنه على الاشتراكيين فى ايطاليا أن يتصلوا بأخوانهم فى الجمهورية العربية المتحدة » •

أما مصادر الاعلام الفرنسية فقد كان لها وجهة نظر أخرى ، اذ أذاع راديو باريس فور اعلان الميثاق أن ناصر عاد فوضع مصر من جديد على رأس العالم العربى ، وأضاف الراديو أن هذا القول لا يتجاوز كونه مجرد رأى خاص لأنه حتى الآن لم ترغب أية دولة عربية فى تنصيب مصر الناصرية زعيمة للأمة العربية • ولقد استقبلت الصحف الفرنسية مشروع الميثاق بحذر شديد ، وكانت بعض تعليقاتها لا تخلو من الاتهام التقليدى للجمهورية العربية المتحدة بأنها تحاول فرض نفسها زعيمة ورائدة للعالم العربى • ولكن ذلك لم يمنع اذاعة تشيكوسلوفاكيا فى اذاعة لها يوم ٦ من يونيو من ترديد ماتناقلته أوساط الكتاب والسياسيين فى باريس حول الميثاق ، وهو يشير فى مضمونه الى أن الميثاق أصبح دستورا للدولة العربية ، وانه بات من المحتمل أن تخطو دول عربية أخرى هذه الخطوة الجريئة • ومن بين دول الكتلة الشرقية كانت يوغوسلافيا وحدها بصحفها واذاعاتها الى جانب الميثاق فور اعلانه • واعتبرته جريدة اليوربا برنامج الأمة العربية فى العمل وطريقها للتطور الديموقراطى الذى يقوم على أساس حلول اشتراكية •

وأما فى الدول العربية فقد اختلفت طريقة استقبال مشروع الميثاق فور اعلانه • ففى لبنان ظهر اتجاهان ، أولهما يؤكد كل ما جاء بالميثاق ويرد شعاراته

الى ضمير الامة العربية كلها ، والآخر وتمثله الصحافة الموالية للمغرب فى بيروت وجه انتقادات عنيفة لكل ما جاء فى الميثاق • ولقد كان هجوم بعض الجرائد اللبنانية الموالية للاستعمار على الميثاق يحمل طابع التعصب والتخبط ولا يرفع الا شعار هدم كل ما هو قادم من القاهرة • ومن ثم فان المراقب لم يفته أن انتقادات هذه الصحف تفتقر الى عنصرين أساسيين هما موضوعية النقد ونزاهته • ولقد بذلت فى جرائد العراق والاردن والمغرب محاولات للتجاهل واكتفت بتلخيص بعض محتويات الميثاق • وانتهزت جريدة البلاد التى تصدر فى بغداد فرصة اعلان الميثاق لكى تذكر اللواء قاسم بوعد قديم كان قد قطعه على نفسه باعلان دستور لشعب العراق ، الامر الذى لم يحدث حتى نهاية حكمه •

وفى المغرب بينما كانت جرائد الحكومة تكتب عن الميثاق بحذر دون تورط فى مدح أو هجوم ، انطلقت جرائد المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية تعلن ترحيبها بالميثاق •

وفى السودان لم تعلق جرائد الحكومة أو الموالية لها على الميثاق • وقالت الجرائد المستقلة أن الميثاق هو الطليعة الاولى لأسلوب العمل السياسى الذى تفتقر اليه دول الشرق الاوسط ، ووصفت جرائد الختمية الميثاق بأنه سيكون عظيما اذا نجح • أما الجرائد المعروفة بعدائها الصريح للجمهورية العربية المتحدة فلم تعلق عليه ولم تكتب عنه •

وفى السعودية قادت صحف الملك سعود أعنف هجوم وجه الى الميثاق وقد وصفته بأنه نوع من الالحاد والكفر وطالبت بمقاومته ، وقالت ان الاسلام لا يعرف الاشتراكية التى يدعو اليها عبد الناصر •

وجرائد السعودية لم تنشر تعليقا واحدا موضوعيا أو مدروسا فى نقد أحد بنود الميثاق أو مبادئه أو شعاراته ، ولعل ذلك يرجع فى الأصل الى المستوى المنهار الذى تعانى منه صحافة السعودية والمشرفون عليها •

وفى آسيا كانت صحافة الهند أكثر من غيرها اهتماما بمشروع الميثاق فور اعلانه ، وقد نشرت بعض محتوياته وان كانت معظم تطبيقاتها دارت حول الميثاق ولم تتدخل لمناقشة مضمونه • ولم تظهر انتقادات بوجه عام فى معظم ما نشرته صحف الهند حتى الآن •

أما فى اسرائيل فقد قادت صحف تل أبيب واذاعتها أكبر حملة تشكيك حول كل ما تضمنه الميثاق، وقالت انه متناقض وغامض لأنه لا يقدم حلولا معقولة لمشكلات المجتمع فى الجمهورية العربية المتحدة • ويؤكد ما جاء فى كتاب فلسفة الثورة عن أطماع الرئيس ناصر فى الدول العربية •

والى جانب حملة التشكيك قادت الصحف والاذاعة فى اسرائيل حملة تحريض منظمة وموجهة ضد بقية الدول العربية على زعم أن الميثاق « قد تجاهل حكام هذه الدول ، واستهان بهم ، واستمر فى التدخل فى شئون بلادهم وطمع فى تحقيق نظامه الاشتراكى على المستوى العريض الذى يشمل كل الأمة العربية » . ولقد استندت دعايات اسرائيل الى أن اشتراكية ناصر لا يمكن أن يكتب لها البقاء فى داخل الجمهورية العربية المتحدة فقط • ولكن هذه الاشتراكية يجب أن تمتد وتنتشر فى كل أجزاء الأمة العربية كشرط أساسى لابد من توافره لنجاحها • ومن ثم فان اشتراكية ناصر تهدد الاوضاع القائمة فى بقية الدول العربية ، وظلت اسرائيل لفترة طويلة تحذر الحكام العرب من هذا المصير • واطلقت نفس هذا التحذير الى : باريس ، ولندن ، وواشنطون على اعتبار : « ان مصالحها مهددة بالخطر فى حالة تغير الاوضاع القائمة فى المنطقة بسبب اشتراكية ناصر » • ومعنى هذا أن دعايات اسرائيل حاربت الميثاق على جبهتين عريضتين : الأولى تمثل الجبهة العربية والأخيرة تمثل كل ذوى المصالح الذين يهمهم الابقاء على الاوضاع الراهنة فى المنطقة دون تغيير •

واذا كانت الابواب العشرة التى تضمنها مشروع الميثاق الوطنى قد حظيت باهتمام بالغ من جانب معظم مصادر الأنباء العالمية ، فقد لوحظ أن أبوابا

معينة سلطت عليها الاضواء بطريقة جعلتها أكثر اثارة ، وهذه الابواب هى : الثالث ، والخامس ، والسابع ، والتاسع. كذلك كانت المبادىء الثلاثة الكبرى التى تضمنها مشروع الميثاق ودارت حولها معظم المناقشات والتعليقات العالمية هى :

١ ـ الحرية السياسية :

مدلولها ٠ وضماناتها ، والوسيلة المؤدية اليها ٠

٢ ـ الاشتراكية العربية :

حدودها ٠ أبعادها ٠ وطبيعة الأوضاع التى انبثقت عنها ٠

٣ ـ الوحدة العربية :

مفهومها ٠ حتميتها ٠ ثم كيفبة الوصول اليها ٠

وتقول جريدة النهار البيروتية أن معظم العقائد والبرامج الحزبية جاءت قبل الحكم ، وهذه هى نقطة الخلاف الجوهرية بين ميثاق ناصر وبرنامج حكمه عن سائر العقائد والبرامج الحزبية ٠ وتضيف نفس الجريدة بأن كلا من لنين وهتلر وموسولينى أعلنوا عن عقائدهم ورسموا الاطار الذى يسيرون فيه قبل وصولهم الى الحكم ٠ ونفس هذا المعنى تقريبا قاله جاى ويلز فى تعليق له حول الميثاق نشرته جريدة النيويورك تايمز وجاء فيه : « ان كل ما فعله الزعيم المصرى بعد عشر سنوات من ثورته ضد الملكية هو أن يضع سلطته وتفكيره الذى كان غامضا فى اطار تنظيمى ٠ ولكن جريدة الجويش أوبزرفر لها رأى آخر فى الميثاق الوطنى أعلنه جون كمش بقوله : ان ميثاق ناصر هو نوع من التروتسكية العربية ٠ والذى أفزع جريده الجويش أوبزرفر فى الميثاق أنه جعل مصر المسئولة عن القيادة الثورية الشعبية للامة العربية ٠ فقد جاء فى الميثاق : أن ثورة الشعب المصرى حركت احتمالات الثورة فى العالم العربى كله ، وأنه لم يعد هناك من شك فى أن الشعب المصرى مطالب اليوم بأن يضع مزايا انتصاره فى خدمة الثورة العربية الشاملة ٠

أما وسيلة العمل الى تحقيق العمل الثورى الرائد الذى يقع على عاتق القاهرة فى محاولتها لضمان الحرية والاشتراكية والوحدة العربية فتنقله جريدة الجويش أوبزرفر عن الميثاق الذى جاء فيه : أن الجمهورية العربية المتحدة ــ وهى تؤمن بأنها جزء من الامة العربية ــ لابد لها أن تنقل مبادئها لتكون تحت تصرف كل مواطن عربى دون التردد لحظة أمام الحجة البالية التى تعتبر هذا تدخلا منها فى شئون دول أخرى ٠ ومن ثم فان واجب الجمهورية العربية المتحدة هو مساندة كل حركة شعبية وطنية ، وان تدفع النضال الى مداه ، وان تفتح أفاقا جديدة للتعاون بين جميع الحركات التقدمية الوطنية فى العالم العربى ٠ وعلى هـذا فان قيام اتحاد للحركات الشعبية الوطنية التقدمية فى العالم العربى سوف يفرض نفسه على المراحل القادمة من النضال ٠

ومعنى هذا فى اعتقاد جرائد اسرائيل عموما هو تسخير الجامعة العربية لتكون وفق هوى ناصر ٠ وهكذا تبدو خطورة الاتحاد الاشتراكى العربى الذى أعلن عنه الميثاق والذى اعتبرته كل مصادر الأنباء فى العالم حدثا جديدا وبالغ الأهمية قد يكون له أثره على المستوى البعيد ٠

وتقول مجلة الاكسبريس الفرنسية فى تعليق لها يوم ٧ من يونيو حول الميثاق : بأن نهاية طريق الميثاق الوطنى هى الشيوعية، وأن عبد الناصر قد يضطر فى النهاية الى أن يسلك نفس الطريق الذى وصل اليه كاسترو ٠!! ومخاوف المجلة الفرنسية ٠ من هذا المصير الذى تزعمه تبنيها على نتائج انتخابات المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية الذى يقع على عاتقه تحريك الميثاق وتنفيذه :

١ ــ من بين ممثلى المؤتمر يوجـد ٣٧٥ وفدوا من الريف ومعظمهـم من صغار الفلاحين ٠

٢ ــ الطبقة العاملة فى المؤتمر تفوق فى عددها الطـوائف الاجتماعية الاخرى ٠

٣ ـ طبقة الرأسمالية الوطنية فى المؤتمر تشعر بمركب نقص ·

٤ ـ ٥٠٪ من العمال والفلاحين فى كل المجالس التشريعية ·

وتضيف مجلة الاكسبريس الفرنسية أن حث الفلاحين والفقراء والمغلوبين على أمرهم على الاحساس بالعزة والمسئولية وهم ما زالوا فى حاجة الى قوتهم اليومى لابد ، أن يؤدى فى النهاية الى انطلاق القوى الثورية التى ظلت حتى الآن كامنة فى أعماق الشعب المصرى ، ومن ثم تصعب الحيلولة دون انفجاره · ولكن المجلة نفسها تقرر أن الرئيس عبد الناصر لا يتعرض لأى خطر من هذا القبيل ، وان الشيوعية فى الجمهورية العربية المتحدة لا وجود لهـــا يخشى منه · وان الرئيس ناصر يحتل القوى النظامية الوحيدة فى المنطقة · ثم تعود المجلة لتعلن أن مخاوفها تزداد اذا تعرض الأمر لدول عربية أخرى مضطربة مثل ســوريا والعراق حيث توجد أحزاب شيوعية منظمة وأجهزة للحـــكم تعـانى ضغطا واضطرابا بالغين · وتقول مجلة الاكسبريس انه فى هذه الحالة لن تقنع الاحزاب الشيوعية فى العراق وسوريا بهذا النظـام الاشتراكى الذى وضـعه الرئيس عبد الناصر ·

كذلك كان من قبيل المزاعم نفسها ما رددته جريدة ها آرتس الاسرائيلية ونقله راديو اسرائيــل ، فان ما يفهم من أقوال الرئيس فى الميثــاق أن نظام الحكم الجديد فى الجمهورية العربية المتحدة سيــكون شبيها بنظم الحـــكم فى الجمهوريات الشعبية فى أوروبا الشرقية ·

وفى الجانب الآخر تمـاما تقول بعض صحف بيروت وهو نفس ما يردده راديو اسرائيل : أن الميثاق جعل من ثورة عبد الناصر ثورة محافظة تريد الاحتفاظ بمكاسبها وأنها معنية فى المكان الأول بالاصلاحات الداخلية لان هذه الاصلاحات ستكون وحدها الطريق الحقيقى والفعلى للوحدة العربية · وفى تعليق آخر نجد نفس المعنى كتبته صحف بيروت وتقول : ان الميثاق يعنى أن تبنى مصر نفسها

أولا على أساس تجربتها الاشتراكية لتكون مثالا يحتذى تتجه اليه آمال الحركات التقدمية فى العالم العربى ، وعلى هذا الأساس يبرز اتجاهان متعادلان فى كتابات الصحف ذات الميول المعادية للميثاق :

١ ـ الاتجاه الاول يقول ان الميثاق وضع شعارا هو « مصر فى خدمتكم » ٠

٢ ـ الاتجاه الأخير يقول ان الميثـاق وضع شعارا هو « مصر فى خدمة نفسها أولا » ٠

غير أن عملية « التخويف » التى تنظمها الدعايات المعادية ضد الميثـاق فى الدول العربية لا تقوم على أسس حقيقية تدعمها ، ونجد أن معظم صحافة الغرب قد أكدت بما لا يدع مجالا للشك أن اشتراكية ناصر بعيدة تماما عن شيوعية موسكو وبعيدة أيضا عن اشتراكية تيتو « صديق ناصر المقرب » ولا تبدو فى كثير من عناصرها دخيلة أو مستوردة ٠

فأهم ما يميز اشتراكية ناصر ـ كمـا قالت صحف الغرب ـ أنها رفضت الصراع الحتمى للطبقات ، وأنها احترمت الملكيات الخاصة ، وأنها تمسكت بالعامل الروحى ، وأنها رسمت حدودها داخل اطار من الدين ٠

ويقول راديو لندن فى اذاعة له عقب اعلان الميثاق بيومين فقط « ٢٣ من مايو »: أنه قد أصبح من الواضح أن اشتراكية ناصر تختلف عن اشـــتراكية أوروبا الغربية ، ولكنها تختلف أيضـا عن اشتراكية الروس ، ذلك أنهـا فى الأصل اشتراكية تمت صياغتها فى ضوء ظروف الجمهورية العربية المتحدة وواقعها ٠

وعلى هذا الاساس يبدو تماما أن هجوم الدعايات المعادية لاشتراكية ناصر ليس أساسه أنه قد ينتهى بها الطريق الى الشيوعية ، ولكن سر هذا الهجوم

الحقيقى هو ما أعلنه راديو اسرائيل فى اذاعة له يوم ٢٣ من مايو عن أن ميثاق ناصر تمخض عن « اشتراكية عدوانية » .

وعدوان اشتراكية ناصر فى عرف دعايات اسرائيل وغيرها هو أن الميثاق لم يكتب لشعب الجمهورية العربية المتحدة وحده ، ولكنه كتب لكى يكون صالحا للتصدير خارجها . وهنا يكمن الخطر الذى يواجه اسرائيل ومن ورائها كل القوى الاجنبية ذات المصالح الحيوية لا فى المنطقة العربية فقط ولكن فى مناطق أخرى كثيرة فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية حيث تنشط حركات التحرر القومية التى أصبحت الطابع المميز للنصف الثانى من القرن العشرين .

نفس هذه الاشتراكية العدوانية تتحدث عنها الصحف الاجيرة فى بيروت وتقول هذه الصحف : « هنيئا باشتراكية ناصر فى داخل بلاده فقط أما فى لبنان فلا !! » .

وابتدأت هذه الصحف تتحدث عن الخلافات الجذرية بين الاوضاع الاجتماعية القائمة فى داخل الجمهورية العربية المتحدة ومثيلتها فى لبنان .

وقد خلصت الى نتيجة تقول : ان اشتراكية ناصر تصلح للجمهورية العربية المتحدة ولكنها لا تصلح للبنان ، ومن ثم فليس من القريب أو البعيد أن تظهر الدعايات فى الاردن والعراق وغيرهما فى المستقبل لتردد نفس ما سبقت اليه دعايات بيروت من القول بأن اشتراكية ناصر لا تصلح الا للجمهورية العربية المتحدة ، فان دافعا آخر تتبناه دعايات السعودية فى الجزيرة العربية ومؤداه أن الاشتراكية مفهوم غريب على الاسلام والمسلمين .

ومن ثم فان دعايات الجمهورية العربية المتحدة عليها أن تتوقع مزيدا من النشاط الذى سوف تبذله الدعايات المعادية على الجانب الآخر ، وعلى أوسع نطاق .

والذى لا شك فيه أن المعركة التى ستخوضها دعايات الجمهورية العربية فى المنطقة العربية ستكون ساخنة وسيكون خصومنا على أكثر من جبهة • وعملية خداع الجماهير قد تبدو سهلة ، ودعايات الجمهورية العربية المتحدة مطالبة بحماية الجماهير العربية التى تمثل قاعدة التقدم الثورى للجهود الرائدة التى تبذلها القاهرة من أجل الامة العربية •

ثورة اليمن :

بعد المظاهرة الاستعمارية الرجعية الصاخبة التى تم عقدها فى مصيف شتورا فى لبنان لمحاكمة الوحدة العربية فى نهاية صيف ٦٢ فوجئ العالم بعدها بأيام بقيام ثورة اليمن التى قضت على الحكم الامامى الرجعى فى صنعاء •

ولقد كان استقبال الدعايات العالمية ومصادر الأنباء لقيام الثورة اليمنية وأثرها على الجزيرة العربية بخاصة والأمة العربية بعامة ما يمكن اجماله بالطريقة التالية :

أولا ـ الجزيرة العربية :

منذ قيام ثورة اليمن وحتى انعقاد مؤتمر القمة العربى الاول اشتركت كل من اذاعات : مكة ، وعدن، والملكيين فى توجيه حملات دعائية معادية ضد ثورة اليمن والجمهورية العربية تستهدف تأكيد شرعية البدر ، وتفكيك جبهة الثورة ، واثارة الشعب اليمنى ضد قوات الجمهورية العربية المتحدة فضلا عن محاولة النيل من شخصية الرئيس عبد الناصر واثارة الرأى العام العربى والدول ضده •

وفى خلال الفترة من مؤتمر القمة العربى الاول حتى عقد اتفاقية جده يلاحظ أن اذاعة مكة خففت من حملاتها الهجومية ضد الجمهورية العربية المتحدة وثورة اليمن بينما استمرت كل من اذاعة عدن والملكيين فى اتجاهها المعادى

السابق بنفس القوة بالاضافة الى محاولة استغلال كل ما يدل على تورط الجمهورية العربية المتحدة فى اليمن وتجسيمه •

وبعد توقيع اتفاقية جدة أوقفت اذاعة مكة هجومها ضد الثورة اليمنية والجمهورية العربية ، وأخذت تشيد بجهود الملك فيصل والرئيس عبد الناصر لاحلال السلام فى اليمن ، وتهتم بأنباء لجنة السلام بينما استمرت كل من اذاعتى عدن والملكيين فى شن الهجوم ضد الثورة وموقف الجمهورية العربية المتحدة منها دون أن يطرأ أى تغيير على موقفهما •

ويلاحظ على موقف اذاعة الكويت فى هذا الصدد أنها التزمت جانب الحيطة والحذر فى تناولها لانباء تطورات الموقف فى اليمن ، فمنذ قيام الثورة وحتى الآن وهى تذيع أنباء الثورة اليمنية فى جميع نشراتها بصورة اخبارية •

ثانياً ـ المشرق العربى :

فى بداية قيام ثورة اليمن اتفقت اذاعة دمشق وبغداد فى تأييد الثورة وان عارضت كل منهما ارسال القوات العربية لتبقى فى اليمن ، واتخذت اذاعة بيروت موقفا سلبيا من الثورة ومن موقف القاهرة تجاهها فى حين عارضت اذاعة عمان ثورة اليمن وشنت حملاتها عليها ، وعلى سياسة القاهرة تجاه الثورة ، وعارضت بقاء القوات العربية فى اليمن •

واستمرت اذاعة بيروت على نهجها السلبى حتى الآن، وبعد تولى حزب البعث الحكم فىسوريا خفت معارضة اذاعة دمشق لبقاء القوات العربية فى اليمن•وانتهى ذلك الموقف المهادن عقب اعلان القاهرة فشل محادثات الوحدة الثلاثية فى صيف عام ١٩٦٣ اذ تحولت اذاعة دمشق الى الهجوم علىالسلال ونظام حكمه، وعلىموقف القاهرة من ثورة اليمن ، ولم تخفف من حملاتها الا بعد مؤتمر القمة العربى الثالث ، وكثيرا ما كانت تركز على ضرورة اشتراك شعب اليمن فى تقرير مصيره.

أما اذاعه عمان فقد استمرت فى معارضتها للثورة وشن حملاتها على سياسة القاهرة تجاه اليمن حتى مؤتمر القمة العربى الأول حيث تلاشت المعارضة والحملات، واستمرت اذاعة بغداد فى تأييدها للثورة ومعارضتها لبقاء القوات العربية فى عهد عبد الكريم قاسم ، وخفت هذه المعارضة فى عهد حكم البعث حتى نجاح ثورة الرئيس عارف على حكم البعث حيث سارت اذاعة بغداد فى تأييدها القوى للثورة ولموقف القاهرة منها •

ولقد اتفقت اذاعات كل من : بيروت ، وعمان ، وبغداد فى الترحيب باتفاقية جدة ، وأشادت بمباحثات الرئيس عبد الناصر ، والملك فيصل فى سبيل عقدها بينما انفردت اذاعة دمشق فى معارضة هذه الاتفاقية ، وقد خفت هذه المعارضة بعد مؤتمر القمة العربى الثالث •

وسارت صحف : سوريا ، والاردن ، والعراق على نفس الاتجاه الذى سارت فيه اذاعاتها • اما صحف لبنان فقد تناولت تطورات القضية اليمنية منذ قيامها حسب ميولها واتجاهاتها المختلفة ، فبينما أيدت الصحف القومية والشيوعية الثورة اليمنية شككت فيها بعض الصحف الغربية الميول والبعثية •

ثالثاً ـ المغرب العربى :

كان موقف وسائل الاعلام فى دول المغرب العربى من ثورة اليمن على النحو التالى :

١ ـ منذ قيام الثورة وحتى مؤتمر القمة العربى الأول :

فور قيام الثورة سارعت وسائل الاعلام الجزائرية والتونسية بتأييد الثورة ، فأشادت بها ، ونددت بنظام الامامة الرجعى ، وهاجمت التدخل السعودى فى شئون اليمن •

ولم تمض عدة شهور حتى تغير موقف الاذاعة والصحافة التونسية، وأخذت تشن هجوما شديدا على ما أسمته التدخل المصرى ، وتحولت الى العطف على السعودية وترديد انتصارات الملكيين •

أما الاذاعة الليبية فقد اقتصرت على ترديد البيانات الرسمية ونقل الأحداث بصورة اخبارية معبرة فى ذلك عن موقف حكومتها الانعزالى محاولة عدم التدخل فى الخلافات العربية • اما الصحافة الليبية فقد انقسمت على نفسهـا وتزعمت صحيفة الرائد الجانب المؤيد للثورة والجمهورية العربية المتحدة ، كمـا تزعمت صحيفة الميدان الجانب المعادى •

وفى المغرب وقفت الاذاعة والصحافة الرسمية وشبه الرسمية الى جانب القوى الرجعية ، فعملت على اذاعة الاخبار التى فى صالح النظام الملكى ، وأهملت أخبار الجانب الثورى ، فى حين وقفت صحف المعارضة الى جانب ثورة اليمن منذ اللحظة الأولى ، ونددت بالحكومة المغربية لعدم اعترافهـا بالثورة ، واتهمتهـا بالتحالف مع الرجعية •

٢ ـ الفترة من مؤتمر القمة العربى الاول حتى اتفاقية جدة :

اهتمت وسائل الاعلام الجزائرية بالمساعى التى بذلت من أجل انهاء الحرب فى اليمن ، وأشادت بمحاولة الجزائر التوسط فى النزاع ، كما أشادت بمبادرة عبد الناصر حين قرر السفر الى السعودية •

ولم تجد الصحف الرجعية المعادية للجمهورية العربية المتحدة فى تونس ، وليبيا ، والمغرب فى نفسها الجرأة والقدرة على مهاجمة النظام الجمهورى والمطالبة بعودة النظام الامامى الرجعى لليمن ، ولذلك اتجهت الى الانحياز للكتلة الثالثة فى اليمن ، أو الجمهوريين المنشقين وتأييد النعمان ، ومهـاجمة السـلال وحكومته العسكرية على أساس أنه يؤيد بقاء القوات المصرية فى اليمن •

وعمدت الاذاعة والصحف التونسية الى تصوير الجيش المصرى بأنه جيش احتلال ، وأكدت أن اليمنيين يثورون ضده ، وأنه لن يثبت طويلا أمام الهزائم

المتكررة ، كما هاجمت السلال ، وأشادت بالنعمان ، وطالبت بانسحاب القوات المصرية واعطاء شعب اليمن الفرصة لتقرير مصيره بنفسه ٠

واستمرت الاذاعة الليبية فى موقفها السلبى ، وانضمت صحيفة الميدان الى صحيفة الزمان فى موقفها المعادى للتدخل المصرى وللمشير السلال ، وأيدت الجمهوريين المنشقين ، فى حين أبدت الصحف القومية وجود المصريين وهاجمت المنشقين على السلال ٠

وفى المغرب اقتصرت الاذاعة على نقل الاحداث بصورة اخبارية ، وقل اهتمام الصحف بمشكلة اليمن الا أن صحيفة العلم « حزب الاستقلال الوطنى » هاجمت السلال ، وأيدت النعمان ، ودعت الى وقف القتال مع التلميح بضرورة سحب القوات المصرية ٠

٣ ـ بعد توقيع اتفاقية جدة :

لم يكن تأييد الصحف الجزائريه لاتفاقية جدة تأييدا مطلقا فذكرت أنها لا تعنى زوال الخطر على اليمن ، وأن القاعدة ليست تحقيق السلم بأى ثمن ولكن تحقيقه فى اطار يضمن الوحدة الوطنية والاستمرار فى الخط الثورى ٠

وأظهرت وسائل الاعلام التونسية اتفاقية جدة على أنها هزيمة منكرة للجمهورية العربية ، وانتصار لليمنيين أنفسهم ، وتطبيق لما اقترحته تونس من قبل ٠

أما وسائل الاعلام الليبية فقد أجمعت على الاشادة باتفاقية جدة ، وان كانت بعض الصحف المعادية حاولت التشكيك فى جدية الاتفاق ٠

وفى المغرب أشادت الاذاعة والصحف الحكومية بالاتفاق ولكن ترحيب المعارضة به كان أشد وأوضح ، ورأت فيه انتصارا للشعب اليمنى وضمانا لعدم استقرار وضع اقطاعى أو رجعى فى اليمن ٠

رابعاً ـ اسرائيل :

ولقد استغلت الدعاية الاسرائيلية حرب اليمن للوقيعة بين الدول العربية وتنفيرها من الجمهورية العربية المتحدة عن طريق تصوير تأييد الجمهورية العربية المتحدة لثورة اليمن على أنه استعمار مصرى وأطماع ناصرية فى العالم العربى ، كما حاولت استغلال الحرب لتأليب الغرب على الجمهورية العربية المتحدة ٠

والى جانب ما سبق يمكن ايجاز أبرز الاتجاهات الدعائية فيما يلى :

١ ـ محاولة تفريق الصف العربى ٠

٢ ـ بداية التشكيك فى نجاح الثورة ٠

٣ ـ النيل من زعامة الجمهورية العربية المتحدة للعالم العربى ٠

٤ ـ الرغبة فى استمرار تورط مصر فى اليمن ٠

٥ ـ اثارة الرأى العام المصرى ضد الحكومة المصرية ٠

٦ ـ اثارة الشعب اليمنى ضد الجمهورية العربية المتحدة ٠

٧ ـ اظهار الجمهورية العربية المتحدة فى حالة اليأس من وصولها الى أهدافها ٠

٨ ـ النيل من زعامة الرئيس عبد الناصر شخصيا ٠

٩ ـ التركيز على أنباء انتصارات القوات الملكية والمبالغة فى تصوير خسائر القوات العربية ٠

١٠ ـ ترديد كل ما يسىء الى الجمهورية العربية المتحدة وقواتها ٠

١١ ـ محاولة اقناع الرأى العام بوجود عدم ثقة بين مصر والسعودية ٠

١٢ ـ محاولة اثارة الشكوك حول الجهود المبذولة للوساطة والتقليل من شـأنها ٠

١٣ ـ اتهام قوات الجمهورية العربية المتحدة باستخدام الغـازات السامة وضرب القرى والسكان الآمنين فى اليمن بالطائرات ٠

١٤ ـ تخويف الدول العربية من أطمـاع الجمهورية العربيـة المتحـدة فى البترول العربى ٠

١٥ ـ التشكيك فى نتائج محادثات الرئيس عبد الناصر والملك فيصل ٠

١٦ ـ اعتبار اتفاقية جدة هزيمة دبلوماسية للرئيس عبد الناصر ، ونصرا للملك فيصل ٠

١٧ ـ اتهام كل من القاهرة وصنعاء بنقض اتفاقية جدة ٠

١٨ ـ العمل على الوقيعة بين الجمهورية العربية المتحدة ، والسعودية لعدم اتمام تنفيذ اتفاقية جدة ٠

١٩ ـ محاولة التقليل من شأن مؤتمر حرض الذى عقد فى خلال هذا الشهر والتشكيك فى نية القاهرة بالنسبة لتنفيذ قرارات المؤتمر ٠

٢٠ ـ الادعاء بوجود خلافات فى صفوف الجمهوريين اليمنيين والاشـارة الى ترابط الملكيين ٠

خامساً ـ الدول الغربية :

أما فى العالم الغربى فقد شنت وسائل الاعلام حملة دعائية ضخمة ضد الثورة اليمنية ظفرت فيها وسائل الاعلام البريطانية بنصيب وافر ، ولا سيما الصحف البريطانية المحافظة والصهيونية ٠

وفى ضوء هذه الدعايات نجد أن أبرز خطوط هذه الحملة تتركز فى الآتى :

١ ـ اظهار عدم الاستقرار فى اليمن ، وعدم ولاء القبائل للثورة اليمنية ٠

٢ ـ ترديد النغمات التقليدية عن صلة الجمهورية العربية المتحدة بهذه الثورة ٠

٣ ـ محاولة الصاق صفة الشيوعية بالثورة خصوصا من جانب أجهزة الاعلام البريطانية ٠

٤ ـ تسليط الأضواء على البدر وابرازه بصورة المناضل ٠

٥ ـ تضخيم الانتصارات المؤقتة التى أحرزها الملكيون ، وتهويل خسائر الجمهورية العربيه المتحدة والقوات اليمنية الجمهورية ٠

٦ ـ الادعاء بأن القوات العربية فى اليمن قد قامت بتصرفات بشعة حيال ما أسمته بالشعب اليمنى الآمن ٠

٧ ـ التقليل من كفاءة الجيش العربى ٠

٨ ـ صورت وجود الجمهورية العربية المتحدة فى اليمن بأنه « احتلال مصرى » ومحاولة للسيطرة على منابع البترول فى شبه الجزيرة العربية ٠

٩ ـ صورت الجانب السعودى فى مركز قوة بينما أبرزت ما أسمته بانهيار اقتصاديات الجمهورية العربية المتحدة نتيجة لحرب اليمن ٠

ومع مضى الوقت اشتدت حدة الهجوم على الجمهورية العربية المتحدة واليمن مع انضاح أهداف الحملة التى يمكن بلورتها فى الآتى :

« محاولة تفكيك جبهة الثورة اليمنية عن طريق بث الخلاف بين الشخصيات القيادية فى اليمن ، وكذلك بين قادة الثورة ، والعمل على تهيئة سخط شعبى فى الجبهه اليمنية ضد ما أسمته بالاحتلال المصرى ، وأثارة جو من عدم الثقة بين رجال القبائل وقادة الثورة بترديد أن الثورة ستجردهم من السلاح وأنها ستعزل مشايخ القبائل لتحل محلهم بعض الضباط ، وأن السلال خائن للدين » .

وفى مرحلة تالية هدفت الحملة الدعائية الى بث الفرقة بين الجمهورية العربية المتحدة والدول العربية ، ولا سيما بعد مؤتمر القمة العربى الأول عن طريق :

١ ـ تصوير مساعدة الجمهورية العربية المتحدة للثورة اليمنية بأنها تستهدف السيطرة على بترول شبه الجزيرة العربية .

٢ ـ ابراز أن الرئيس عبد الناصر يتخذ من اليمن وسيلة لفرض زعامته على العالم العربى .

٣ ـ اظهار أن الثورة اليمنية ستؤثر حتما على أنظمة الحكم الملكية العربية، وأن المد الثورى فى اليمن يحمل بذور تغير كبير فى شبه الجزيرة عملا على اثارة أصحاب العروض العربية ضد هذه الثورة .

٤ ـ الادعاء بأن الجمهورية العربية المتحدة تستعد بصورة جدية لغزو المملكة العربية السعودية، وأنه يتم فعلا من حين لآخر فى شكل غارات جوية مصرية على الأراضى السعودية .

ولم تتوان الدعاية الغربية عن تأليب الرأى العام العالمى ضد الرئيس عبد الناصر ، فادعت أن الجمهورية العربية المتحدة تتدخل فى شئون الدول الاخرى الداخلية ، ولا تحترم ميثاق الامم المتحدة ، كما أن الجمهورية العربية المتحدة لا تحترم الاتفاقات الدولية التى تحث على وقف اطلاق النار باليمن .

كذلك قامت بالاساءة الى سمعة اقتصاد الجمهوريةالعربية المتحدةفى الأوساط الدولية بهدف منع اتمام أى عقود دولية فى صالح اقتصادياتها وذلك عن طريق:

١ ـ ابراز انهيار اقتصاد الجمهورية العربية المتحدة الداخلى نتيجة لحرب اليمن التى تستنزف موارد الجمهورية العربية المتحدة بغير طائل ؛ فزعمت بانفاق مليون دولار أمريكى يوميا فى حرب اليمن بالرغم من افتقار الجمهورية العربية المتحدة للعملة الصعبة .

٢ ـ محاولة الاساءة الى العلاقات العربية الامريكية باظهارها أن الجمهورية العربيـة المتحـدة تستغل المساعدات الامريكية فى تأجير الطيارين السوفييت لضرب اليمن الآمن .

الحلف الاسلامى :

الواقع أن فكرة المؤتمرات والتكتلات الاسلامية بدأت منذ أربعين عاما تقريبا حين دعا الملك عبد العزيز آل سعود الى عقد مؤتمر اسلامى فى ١٩٢٥/١٢/٥ يضـم وفودا من الدول الاسـلامية بهـدف مبايعته ملكا على الاراضى الحجازية المقدسة .

وعلى الرغم من أن هذا المؤتمر لم ينعقد نتيجة لعدم استجابة كثير من الدول الاسلامية للدعوة فقد كانت فى حد ذاتها مقدمة شجعت على قيام عـدة تجمعات اسلامية أبرزها مؤتمر العالم الاسلامى بكراتشى الذى أخذ يتوسع حتى أصبح له ٥٢ فرعا و ٥ مكاتب اقليمية ، والمؤتمر الاسلامى العام فى القدس ، ورابطة العـالم الاسلامى التى انبثقت عن المؤتمر الاسلامى الذى دعا اليه الملك السابق سعود خلال موسم الحج فى مايو ١٩٦٢ ويقوم كل من : الحاج أمين الحسينى ، وانعام الله خان ، وسعيد رمضان بدور رئيسى فى النشاط الذى تمارسه هذه المؤتمرات .

ويعتبر حلف المعاهدة المركزية « بغداد سابقا » ـ الذى أنشىء عام ١٩٥٥ بغرض تكملة الحزام الغربى المضروب حول العالم الشيوعى ـ امتدادا للمحاولات التى سعت اليها تركيا قبل الحرب العالمية الثانية لتكوين حلف فى منطقة الشرق الأوسط التى انتهت بتوقيع ميثاق سعد آباد عام ١٩٣٧ وهو عبارة عن معاهدة

عدم اعتداء بين كل من : تركيا ، وايران ، والعراق ، وافغانستان لم تسفر عن أى نتائج سياسية ايجابية فى منطقة الشرق الأوسط •

غير أنه نتيجة للضعف الذى انتاب حلف بغداد بسبب اشتراك بريطانيا فى العدوان الثلاثى الفاشل على مصر عام ١٩٥٦ ساد اتجاه دفعته الولايات المتحدة بين دول الحلف الاسلامية : « العراق ـ تركيا ـ ايران ـ باكستان » الى اخراج بريطانيا من هذه المنظمة واحلال حلف اسلامى محلها يقتصر على الدول الاسلامية. وقد تزعمت باكستان وايران الدعوة لهذه الفكرة التى لم توفق ازاء رفض كل من مصر ، وسوريا ، والاردن ، والسعودية •

وعلى أثر الضربة التى تلقاها حلف بغداد بقيام ثورة العراق عام ١٩٥٨ وانسحابها منه أعلن شاه ايران فى ١٩٥٨/٩/٢٧ أنه يعمل شخصيا على تكوين حلف يضم الدول الاسلامية ، وهذا ما أيدته تركيا وباكستان . الا أن هذه الجهود منيت بالفشل ازاء قوة اندفاع الحركة القومية فى تلك المرحلة •

وبفشل هذه الأساليب فى ضم دول اسلامية جديدة الى الحلف المركزى ، أو خلق تجمع اسلامى موال للغرب اتجهت الدول الاسلامية أعضاء الحلف ، (باكستان ـ ايران ـ تركيا) فى يوليو ١٩٦٤ وبدفع من الولايات المتحدة ، وتأييد بريطانيا الى تكوين تنظيم اقليمى يحمل اسم منظمة التعاون الاقليمى وهى ذات طابع اقتصادى وفنى ، وتعمل بصورة مستقلة ظاهريا عن الحلف المركزى أملا فى أن يكون ذلك غطا للتجمع الاسلامى الذى يدعون الى قيامه •

وبعد أن أدرك الغرب انعدام فاعلية الحلف المركزى بالرغم من تعدد المحاولات لدعمه وتقويته أخذ يعاود جهوده الرامية لاحياء فكرة الحلف الاسلامى مستهدفا دعم استراتيجية الدفاع عن منطقة شرقى السويس والحفاظ على مصالحه البترولية التى اتسعت فى الدول العربية وايران • فبدأ يدفع السعودية للقيام بالدور الرئيسى فى احياء هذه الفكرة مستغلا مخاوف الملك فيصل من المبادىء القومية التحررية والاشتراكية أو احتوائها على الاقل داخل النطاق الاسلامى •

ولقد رحبت الدوائر الدعائية البريطانية بقيام التحالف الاسلامى وما يترتب على نجاحه من بروز الملك فيصل فى المنطقة بصفة عامة ، وفى شبه الجزيرة العربية بصفة خاصة ، حيث ترى فيه الوريث الذى يمكن أن يملأ الفراغ السياسى فيما لو انسحبت من المنطقة ، وتعتقد أنه الشخصية التى تستطيع التصدى لتيار المد التحررى الذى يهدد مصالحها فى الجنوب والخليج وبالرغم من أن بريطانيا تحرص ـ من وجهة النظر الرسمية ـ على ألا يكون ترحيبها بفكرة التحالف الاسلامى علينا ، والا يظهر لها دور فعال فى تحقيقه تلافيا للوقوع فى أخطاء حلف بغداد فانها أبدت نشاطا فى هذا المجال يتمثل فى الاتصالات المتعددة التى أجرتها الخارجية البريطانية مؤخرا مع الممثلين الدبلوماسيين : للاردن ، والسعودية ، وايران ، والعراق. هذا فضلا عن زيارة كريستوفر سومز (وزير الخارجية فى الظل البريطانية) لايران والاردن فى شهر يناير الماضى وتصريحه فى طهران بأن مركز القوة فى الشرق الاوسط يتحول من القاهرة الى طهران والرياض .

وبالرغم من أن الولايات المتحدة تنفى باصرار وجود أى علاقة لها بالحلف الاسلامى ، وتدعى أنه مجرد خرافة أسطورية ابتدعها الصحفيون ـ فهى تؤمن بأن قيام مثل هذا الحلف يعتبر تدعيما لاستراتيجية الدفاع الغربى فى منطقة شرق السويس فضلا عن المحافظة على مصالحها البترولية فى المنطقة .

الخلاصة :

فى ضوء الأساليب الدعائية والمخططات الغربية منذ عام ١٩٥٥ الى عام ١٩٦٦ نلحظ أن الاهداف الاستعمارية هى هى بعينها ، وقد يبدو من التخطيط لتحقيق هذه الاهداف أحيانا أن ثمة أفكارا جديدة ، ولكن باستقرائها نرى أنها صورة لاساليب ومواقف سابقة لعام ١٩٥٥ ومن بين الاهداف التى وضعت عام ١٩٥٥ ولم توفق المخططات المعادية فى تنفيذها :

١ ـ عزل الرئيس عبد الناصر عن مسرح السياسة العربية بعد الخيبة فى تقويض حكمه داخل مصر .

٢ ـ الادعاء بتغلغل شيوعى فى سوريا ووجود نفوذ سياسى وعسكرى فى مصر للاتحاد السوفييتى ٠

٣ ـ خلق نوع من التحالف بين الدول الاسلامية فى اطار حلف بغداد ، ومحاولة ضم السعودية الى : العراق، وباكستان، وتركيا، وايران ٠

٤ ـ ظهور آراء لبعض الحكام العرب عام ١٩٥٦ تنادى بتسوية النزاع العربى الاسرائيلى يتزعمه نورى السعيد فى العراق ٠

٥ ـ اتساع دائرة الدول الافريقية المستقلة ، وكذا بعض الدول الآسيوية وأثره على الصراع الدائر بين مصر والغرب ٠

وهكذا مضت وسائل الاعلام الغربية والمعادية فى محاولة التشكيك فى نوايا مصر تجاه الدول العربية منذ قيام الثورة وترديد الادعاءات القائلة بوجود أطماع توسعية مصرية فى العالم العربى ، كما أخذت تشكك فى سلامة التخطيط السياسى والاقتصادى للثورة المصرية ، وقامت باثارة الرأى العام الداخلى ضد نظام الحكم القائم ، وتشويه جميع مكاسب الثورة المصرية منذ قيامها حتى الآن ٠

وواضح أن هذا هو نفس الاسلوب الدعائى المتبع الآن ، وبالرغم من ذلك فان الثورة المصرية تمضى فى طريقها الذى رسمته لنفسها من بدء قيامها ٠

ولقد مهدت وسائل الاعلام الغربية والاسرائيلية لعدوانها على مصر والتدخل فى الشئون السياسية للوطن العربى ، الادعاء بوجود تغلغل شيوعى فى سوريا وتدفق أسلحة شيوعية على مصر فى أوائل عام ١٩٥٥ ٠

والآن وفى عام ١٩٦٦ ما فتئت وسائل الاعلام الرجعية فى بعض الدول : العربية ، واسرائيل، والغرب الاستعمارى تردد مزاعم جديدة عن بدء غزو شيوعى لمصر وسوريا ومن بين هذه المزاعم ما يلى :

١ ـ وجود قواعد سوفييتية فى الموانى المصرية على : البحر المتوسط ، والبحر الأحمر ٠

٢ ـ انحياز سوريا الى المعسكر الشيوعى من جديد ٠

٣ ـ فتح مصر المجال أمام الاسطول السوفييتى فى البحر الاحمر وذلك بعد التواجد المصرى فى اليمن ٠

٤ ـ الادعاء بتحريك سياسة المحاور فى نطاق الدول العربية ٠

وفى عام ١٩٦٦ عادت فكرة الحلف الاسلامى للظهور تنادى بها : العربية السعودية ، وايران ، وانحاز الاردن الى هذا الحلف بعد أن قضى الملك حسين على الحكم الوطنى الذى كان قائما عام ١٩٥٧ ، واتخذت باكستان موقف التريث من هذه الدعوة لوضعها الحالى فى آسيا وعلاقاتها بالغرب والشرق . وما زال فيصل يجرب حظه مع الدول الاخرى عسى أن يجد منها من يتجاوب مع مخططات الاستعمار التى تهدف الى السيطرة على المنطقة ٠

أما بالنسبة للقضية الفلسطينية فقد استمرت وسائل الاعلام المعادية خلال عام ١٩٥٦ وما أعقب ذلك فى اتهام مصر بالمتاجرة بالقضية الفلسطينية وقد تردد فى هذه الفترة ٠

١ ـ قام نورى السعيد عام ١٩٥٦ بالمنادة بتسوية القضية الفلسطينية على ضوء قرارات الامم المتحدة كوسيلة للاستقرار فى الشرق الاوسط ٠

٢ ـ بعد عام ١٩٥٦ أطاحت الاردن بالحكم الوطنى الذى كان يتجاوب مع القاهرة فى التخطيط لتحرير فلسطين ٠

والآن عام ١٩٦٦ استبدل بنورى السعيد الحبيب بورقيبة حيث ينادى بالصلح مع اسرائيل ، أما فى الاردن فان الملك حسين يرفض التعاون مع منظمة تحرير فلسطين ، وتتكرر صورة الاعتقالات التى كانت تقع عام ١٩٥٧ ويسير فى نفس المخطط السابق ٠

وهكذا تدور أجهزة الاعلام الاستعمارية والرجعية منـــذ سنوات عدة فى حلقة مفرغة ، تعيـــد اليوم ما قالته بالأمس مهما غيرت من أساليبها ، وغقت فى ألفاظها ، وأضفت عليها صفة الجدة ، ولكن كل هذا الهذيان الاستعمارى الرجعى يصير الى لا شيء ٠

وتبقى ثورة الشعب العربى على دربها تسير بأقدام ثابتة ، ترســم على الصخور طريق :

الحرية ٠٠ الاشتراكية ٠٠ الوحدة ؟

أهم المراجع الأجنبية

1 – Adinarayan S. P. Social Psychology, Allied Publishers Private LTD, Bombay, 1964.

2 – Allport, F. H. and Lepkin, M. «Wartime Rumors of Waste and Special Privilege : Why Some People Believe Them,» Journal of Abormal Psychology, January 1945, P. P. 3-36.

3 – Allport, G. W. and Postman Leo; Analysis of Rumor, Public Opinion Quarterly, Vol. 10 No. 4, 1946, PP 501 - 517.

4 – Allport G. W. and Postman Leo; «The Psychology of Rumor», Henry Holt and Company, New York, 1947.

5 – Allport G. W., Personality and Social Encounter, Beacon Press, Boston 1964.

6 – Angell, Norman. The Public Mind. New York, The MacMillan, 1927.

7 – Angell, M., The Scientific Study of Social Behaviour, London, 1957.

8 – Asch, S. E., Social Psychology. Prentice Hall, New York, 1952.

9 – Bernays, Edward L., Attitude Polls - Servants or Masters, Public Opinion Quarterly, Vol 9, 1943, PP 264 - 68.

10 – Bonner, H., Social Psychology, American Book Coy, New York, 1963.

11 – Chadwick, T., The Infiuence of Rumor on Human Thought and Action. Sherrat and Huges, Manchester, 1932.

12 – Chorus A., Basic Law of Rumor, Journal of Abnormal Psychology, April 1953, P. P. 313-314.

13 – Doob Leonard, W. « Gobbels Principles of Propaganda » Public Opinion Quarterly, 14: 419-442 (1950) reprinted in Wilbur Schramm, The Process and Effects of Mass communication, 1954, PP 517 - 36 and in Daniel Katz, Public Opinion and Propaganda; 1954 PP 508 - 22.

14 – Doob, Leonard W., Propaganda and its Psychology and Technique, Henry Holt and Co., New York, 1935.

15 – Doob Leonard W. Public Opinion and Propaganda, Henry Holt and Co., New York, 1950.

16 – Edmond Taylor E. Strategy of Terror, Houghton Mifflin Company, Boston 1943.

17 – Edmond Taylor E., Richar By Asia, London, 1945.

18 - Edward W. Barret, Truth is Our Weapon, Funk and Wagnalls Co., New York, 1953.

19 - Ellis M. Zacharias, Secret Missions, G. P. Putnam's Sons, New York, 1946.

20 - Eysenck, H. J., Dimensions of Personality, London 1947.

21 - Farago Ladislas, British Propaganda: The Inside Story, United Nations World, 2-22-26 (Oct. 1948).

22 - Fargo Ladislas (ed), German Psychological Warfare, G. P. Putnam's Sons, New York, 1941.

23 - Farago Ladislas, War of Wits, The Anatomy of Espionage and Intelligence, Funk and Wagnall Co., New York, 1954.

24 - Firth, R., Rumor in a Primitive Society, Journal of Abnorrnal Social Psychology, Vol 53, 1956, P. P. 122 - 132.

25 - George L. Alexander, Propaganda Analysis Row Peterson and Company, New York, 1959.

26 - Gordon W. Allport, The Nature of Prejudice, Doubleday and Company, inc, New York, 1958.

27 - Hans Herma, Gobbl's Conception of Propaganda, Social Research, 10: 200-18, 1943.

28 – Hans Sperier, War Aims in Political Warfare, Social Research, 13; 157 (May 1945) Reprinted in Daniel Lerner's Propaganda in War and Crisis, George W. Stewart, Publishers, Inc, New York, 1951, P. 69.

29 – Hans Sperier, «The Future of Psychological Warfare;» Public Opinion Quarterly, 12: 7-8 1948.

30 – Hermans Raushning, The Voice of Destruction. New York, 1940.

31 – Henry Lichten Berger, The Third Reich, Book V, New York, 1937.

32 – Irving, J. A., The Psychological Analysis of Wartime Rumor Patterns in Canada, 1943, Bulletin of the Canadian Psychological Association, 3, 40, 44.

33 – Jean - Marie Domenach, Leninst Propaganda, Public Opinion Quarterly 15: 272 (1951).

34 – J. Peters, The Communist Party - A Manual on Organization, Workers Library, New York 1935 7:14.

35 – John, Scott: Political Warfare, A Guide to Competive Co-existnce, The John Day Co. New York, 1955.

36 – Joseph Stalin, Problems of Lenininsm, Foreign Language Publishing House, Moscow 1940, P. 211.

37 – Knapp, R. H., : A Psychology of Rumor, Public Opinion Quarterly, 8, 23-37, 1944.

38 – Krech, D. and Crutchfield, R. S. Theory and Problems of Social Psychology McGraw Hill New York. 1948.

39 – La Pierre, R. T.; and P. R. Farnsworth, Social Psychology, McGraw - Hill Book Company, Inc., New York 1936.

40 – Lasswell, H. D, Political and Psychological Warfare, in Daniel Lerner (ed), Propaganda in War and Crisis, George W. Stewart; Publisher, Mc. New York, 1950.

41 – Lee, A. M, and N. D. Humphrey, Race Riot, Dryden Press, New York, 1943.

42 – Linebarger, Paul M. A. Psychological Warfare 2nd. ed, Combat Forces Press, Washington, D. C. 1954.

43 – Mark Clark, From the Danube to Yalu, Harper and Brothers, New York, 1955 P. 371.

44 – Maslow A. H. and Bela Mittelman, Principles of Abnormal Psychology, Harper and Brothers Publishers, New York, 1951.

45 – M., Gregor D., The Major Determinants of The Prediction of Social Events, Journal of Abnormal and Social Psychology, 33, 197, 204, 1938.

46 – Miller, N. E. «Theory and Experiment Relating Psychoanalytic Displacement to Stimulus - Response Generalisation», The Study of Personality (Ed Brand, H.) New York and London, 1954.

47 – New - comb, T. M. Role of Behaviour in the Study of Individual Personalitv and Groups, Journal of Personality, X VIII. Durham, N. C, 1950.

48 – Peterson W. A. and Gist, N. P., Rumor and Public Opinion, American Journal of Sociology, Vol 57, 1951, P. P. 159-167.

49 Philip Selznick, The Organizational Weapon : A Study of Bolshevick Strategy and Tactics, Mc Graw-Hill Book company Inc, New York, 1952.

50 – Radhakamal Mukerjee, «The Philosophy of Personality», Allied Publishers Private Ltd, 15 Gr. Road, Bollard Estate, Bombay.

51 – Robert H. Bruce Lockhart, Comes the Reckoning, Putnam and Co. Ltd, London, 1947.

52 – Robert H. Bruce, Lockhart «Political Warfare», Journal of the Royal United Services Instititation 95 : 1950.

53 – Sargent, SS. and Williamson, R. C., Social Psychology. Ronald Press Company New York, 1950.

54 – Scott, John, Political Warefare: A Guide to Competive Co-existence, The John Day Company, New York, 1953.

55 - Thouless, R. H., «General and Social Psychology» 4th ed University Tutorial Press Ltd, Clifton House, Euston Rd, London, N. W. I, 1963.

56 - Vladimir I. Lenin, A Training Pamphlet, 1920.

57 - Vladimir I Lenin, Selected Works, International Publishers Co., New York, 1935.

58 - Wise David and Thomas B. Ross, The Invisible Government. New York 1964.

59 - Young K, Social Psychology, F. S. Crofts and Company, New York, 1936.

60 - Encyclopeadia Brtiannica.

61 - Webster's New International Dictionary of the English Language, 2nd ed, Unabridged G. and C. Merriam Co. Springfield, Mass, 1951.

فهرست

الباب الثانى

التنظيم والأفراد

١٢٣-١٨٦

الباب الثالث

التخطيط والعمليات

الباب الرابع

مجالات التوصيل

٢٥٥-٢٩٨

الباب الخامس

الشائعات أفعى المجتمع

٢٩٩ - ٤٠٨

الفصل الثانى : وسائل استخدام الدعاية ٤٣٣

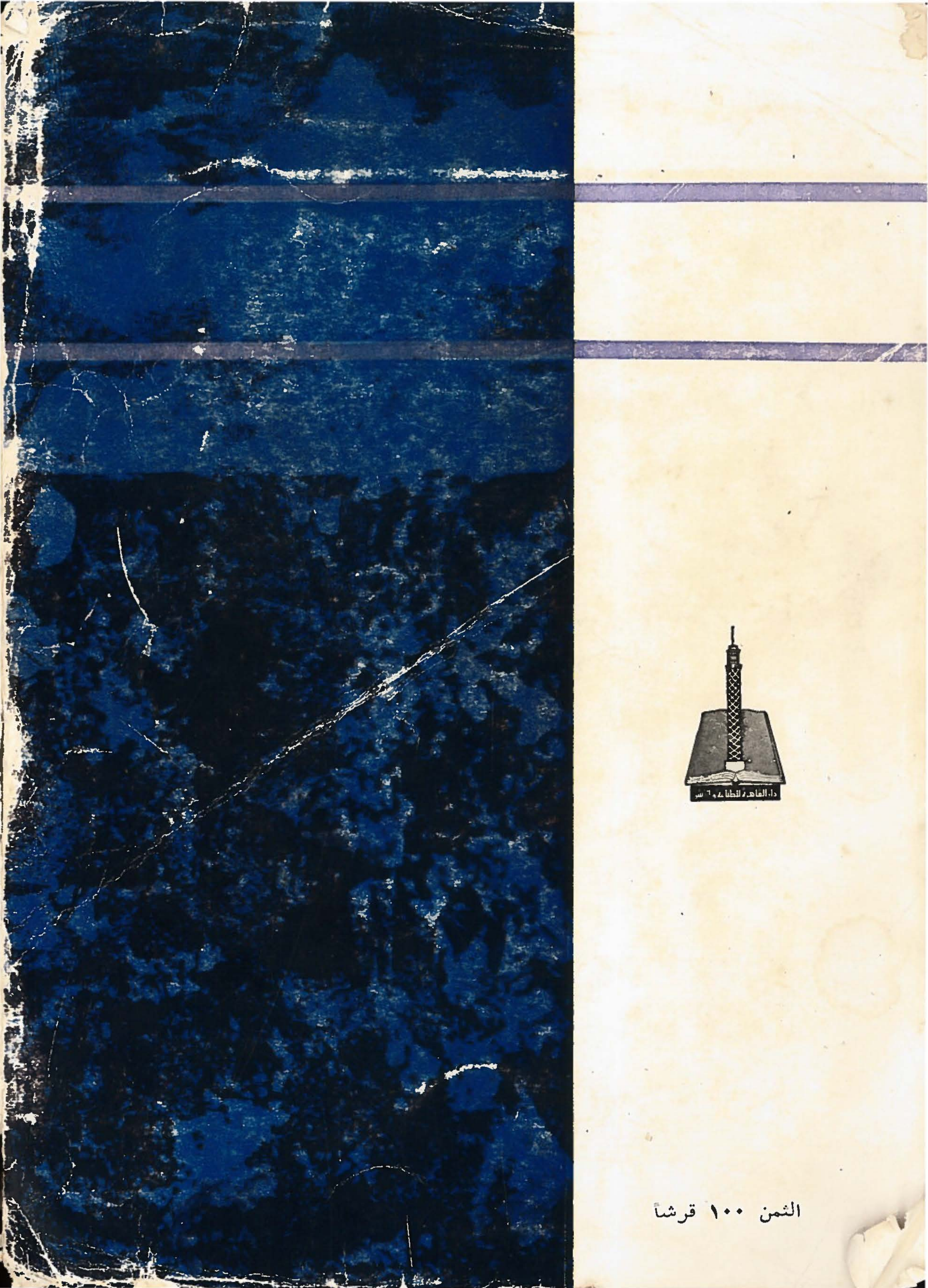
الفصل الثالث : دور بحوث الرأى فى تقييم الحرب النفسية ٤٦٣

الباب السابع

المخابرات والتحليل

٤٧٥-٥٣٨

تم الجزء الأول ويليه الثانى


الثمن ١٠٠ قرشاً

الحرب النفسية

معركة الكلمة والمعتقد

صلاح نصر

الطبعــة الأولى : ١٣ سبتمبر سنة ١٩٦٦
الطبعة الثانية : ١٣ أبريل ســنة ١٩٦٧

دار القاهرة للطباعة والنشر ـ القاهرة

الإهداء

إلى أصحاب العقائد الراسخة النابعة من الضمير الإنساني وإرادته الحرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو الجزء الثانى من كتاب (الحرب النفسية — معركة الكلمة والمعتقد) أدفع به الى القارىء ليرى بعد ما قدمناه فى الجزء الأول عن « معركة الكلمة » صراعات الانسان فى مجال الأفكار والأيديولوجيات المختلفة ، ولهذا سميناه « معركة المعتقد » هادفين الى أن يفهم هذا الجيل ما يدور حوله من أحداث عالمنا الذى يعيش على فوهة البركان ، والى أن يتعرف الضغوط السيكولوجية التى تمارسها قوى الشر للسيطرة على المجتمعات الحرة النامية .

وعندما نتحدث فى هذا الكتاب مثلا عن : عملية « غسيل المخ » والتحولات المذهبية والعلاج النفسى ، وتكشف عن حقيقة برامج الاصلاح الايديولوجى لدى بعض الدول الكبيرة ، ونقف عند السحر وغيره من الوان المعتقدات الزائفة .. انما نحاول أن ندفع بشبابنا الى أن يقوض كثيرا من دعائم الرواسب البالية التى فرضها الدخلاء قديما على حضارتنا وقيمنا وثقافتنا لتؤدى الى أخطر مما نراه اليوم من تفكك فى جسم الأمة العربية .

وقد لا يكون الخطر بالغا اليوم ، ولكن من المؤكد أن الدول ذوات المصالح الاستغلالية ترمي الى تحقيق نزواتها اللا انسانية عن طريق « المعتقد » فتدمره ، وتقيم على أنقاضه ما تراه متمشيا مع سياستها الاستعمارية الغاشمة .

لقد أصبحنا اليوم نعانى ما سميناه فى الجزء الأول بالقلق النفسى ، ونريد أن ندرأ عن أنفسنا خطر هذا القلق . وطبيعى لن يكون ذلك الا بمعرفة متأصلة بالصراعات المذهبية وخاصة تلك التى برزت بعد الحرب العالمية الثانية بين معسكرى الشرق والغرب ، وبمعرفة عميقة بالوسائل التى تستغل فى هذا الصراع .

ان الكتاب يناقش هذا الموضوع ، واذا كنا قد تطرقنا فيه الى أشياء قد يراها البعض مقحمة فذلك لأن طبيعة البحث تقتضيه ، فتجارب بافلوف مثلا التى أشرنا اليها فى الباب الأول ، لا تخدم فى مجال علوم الحيوان بقدر ما تخدم فى الحرب النفسية ، كما استغلت نتائجها فى معركة المعتقد على نطاق واسع . وبالمثل : التنويم المغناطيسى ، واستخدام العقاقير ، والتحليل النفسى ، وتعاطى المخدرات والجنس ، فكلها كانت من أسلحة معركة المعتقد ، وكان علينا أن نتعرفها بالتفصيل من أجل الوصول الى طبيعة المعركة التى تشتد علينا كأفراد وجماعات .

على أننا يجب أن نفرق بوضوح بين التغييرات التى تحدث تدريجيا فى وجهات النظر والسلوك نتيجة التقدم فى العمر والخبرة ، ونتيجة أعمال العقل والفكر ــ وبين التحول الشامل المفاجىء فى وجهات النظر الذى كثيرا ما يحدث بسبب تأثير

الآخرين ، والذى يؤدى الى التسليم بالمعتقدات الراسخة القوية ، وتبنى معتقدات جديدة غالبا ما تكون مخالفة تماما للمعتقدات الأولى .

واذا كنت قد ابديت فى هذا الكتاب ألوانا من الآراء الحرة التى قد يجد فيها أى قارىء مساس بمنطقه الدينى او الأخلاقى ـ بالرغم مما بذلته من جهود لتجنب ذلك ـ فانى ابين فى وضوح اننى لم أهدف بهذه الدراسة الى الاساءة الواضحة او الخفية لأى معتقدات أو افكار معينة .

ونؤكد ما قلناه فى مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب باننا نؤمن بحرية العقيدة ونحترم اى مذهب او عقيدة ـ ولو كنا نخالفها ـ ما دامت نابعة من الضمير الانسانى وارادته الحرة .

واخيرا نقول ما قلناه فى الجزء الأول : اننا لا نزعم اننا قدمنا كل شىء عن الحرب النفسية ، ولكننا قدمنا ، ما يمكن ان يكون بداية لأبحاث أخرى تجدى فى معركة البقاء من أجل حياة افضل .

والله ولى التوفيق ؟

صلاح نصر

القاهرة فى ٢٧ من أكتوبر سنة ١٩٦٦


الجزء الثاني
معركة المعتقد

الباب الأول

معركة العقل بين الماضي والحاضر

- الفصل الأول
  معركة العقل في الأزمنة الغابرة
- الفصل الثاني
  اصطلاح جديد .. غسيل المخ
- الفصل الثالث
  تجارب على سلوك الإنسان والحيوان



حركة العقل في الأزمنة الغابرة

حاول العلماء والفلاسفة والمفكرون منذ أمد بعيد أن يصلوا الى أعماق النفس البشرية فى دراساتهم وابحاثهم عن الانسان ، ولكن الصعوبة الأساسية التى واجهتهم ـ وظلت قائمة حتى عهد قريب ـ هى أنه لم يكلف احد نفسه مئونة تقرير كنه الطبيعة البشرية على أساس علمى .

لقد قيل فيما مضى ـ صراحة أو ضمنا ـ : أن الطبيعة البشرية ثابتة غير متغيرة ، وأنها تدفع الانسان الى أن يسلك طريقا خاصا ، وكان من نتيجة هذا الفرض الذى ثبت عدم صحته فى الوقت الحاضر أن نشأت قديما عدم القدرة على تفهم كثير من مشكلات العلوم الاجتماعية .

والواقع أن النظريات عن السلوك الانسانى ـ كما سبق شرحه فى الباب الأول من الجزء الأول ـ كثيرة جدا يتناول كل منها جانبا معينا من حياة الانسان . لكن واحدة منها لا تفى بمفردها بالغرض المنشود . فالانسان مخلوق مركب معقد ، يتأثر سلوكه بكثير من العوامل الظاهرة والخفية ، وهو حيوان يستجيب لدوافع معينة بعضها ينبثق من نفسه وذاته ، وبعضها ينبعث من البيئة التى يعيش فيها .

ومن الأمور المقررة أن السلوك الاجتماعى يحدث فى اطار من التأثيرات المتداخلة المترابطة الصادرة من داخل الفرد ، أو من العوامل الخارجية عنه ، وهذا يتطلب عملا ضخما فى الممارسة الفعلية لفرز التأثيرات الاجتماعية وغيرها من التأثيرات الاخرى الصادرة من الاجواء المحيطة لانها ترتبط ببعضها البعض ، وكذلك التأثيرات الصادرة من الفرد نفسه لانها تتأثر ببعضها البعض •

ان كل كائن بشرى يفكر وينفعل ويسلك سلوكا معينا ، ولا يفترق أحدنا عن الآخر فى ذلك ، ولكن الطريقة التى تؤدى بها هذه الأفعال هى التى تصنع شخصيتنا وتحدد طبيعتها •

والناس يختلفون فى طبيعتهم وتكوينهم : فمنهم اللين الوديع ، ومنهم الصامت الذى قد يجلس فى أى مجتمع دون أن يشعر بوجوده أحد ، ومنهم الصلب العنيد الذى قد يسلك أحيانا سلوكا جافيا او شريرا ، كما أن منهم الهوائى القلق الذى تستبد به الشكوك فى أى تصرف ينحوه ، وهناك الانسان الحاد الطبع الذى يستثار لأى سبب عادى ، أو البارد الطبع الذى لا يثور لأى سبب من الأسباب •

ولهذه الأنواع المتباينة من البشر جميعها مطالب لعقولها اللاواعية ، وقد لا يحسونها غالبا ، ولكن سواء شعروا بها أم لم يشعروا تكون كامنة فى الأعماق دائما ، ويتم التعبير عنها عن طريق الأفكار والمشاعر التى تظهر فى سلوكهم خلال حياتهم اليومية ، أو فى أحلامهم فى أثناء النوم •

وغالبا ما يثور الصراع والاصطدام فى كل فرد بين هذه الاستجابات ، وهنا يعرف الانسان رغباته التى يحققها ، وتلك المكبوتة التى يخفيها حتى عن أقرب الناس اليه •

ولكل انسان مطالب أساسية كثيرة حتى يستطيع البقاء ، فمثلا يجب عليه أن يكيف نفسه طبقا لأحوال بيولوجية معينة ، ولكن ليست البيولوجية هى كل

شيء لدفع عجلة الحيـاة ؛ فالانسـان يحتـاج الى : الحب ، والدفء ، والمأوى ، والجنس ، كما أن الانســان اجتماعى بطبيعته لا يطيق العزلة ، اذ يحس آمانا بوجوده مرتبطا بالمجتمع الذى يعيش فيه •

اننا لم نستهل هذا الفصل على هذا النحو الا لنوضح نقطة حيوية هامة لها أثر كبير على دراستنا ، وهى أن الانســان تحــدث له فى حياته ردود فعل نتيجة محاولاته لتحقيق مطالبه الضرورية ، وتتوقف طبيعة هذه الردود على مدى نجاحه فى موازنته بين هذه المطالب الضرورية وبين ردود الفعل من الخوف واليأس والكراهية وغيرها ، وهى الركيزة الاساسية التى يستغلها أولئك الذين يحاولون السيطرة على معتقدات الناس بمحاولتهم استمرار خلقها واثارتها ، وذلك بفرض مؤثرات معينة على مخ الانسان بدرجات تتفاوت مع طبيعته حتى يصل الى درجة الانهيار ، بحيث يتوقف المخ ويصبح مستعدا لتقبل أى ايحاءات تفرض عليه كما سيأتى فيما بعد بالتفصيل •

والآن يحسن لنا أن نسأل : هل تعرض الانســـان فى حياته الطويلة على الأرض لصراعات عقلية فرضت عليه أفكارا ومعتقدات معينة ؟ وهل كانت ارادته كاملة حينما تقبل هذه المعتقدات ؟ وما الأساليب التى استخدمت لفرض هذه المعتقدات ؟

الحقيقة أن الانســان منذ فجر التاريخ ــ على ما تكشف عنه الدراســات المحققة ــ واجه دائما صراعا عقليا كبيرا سواء فى معتقداته الدينية ، أو فى حياته الاجتماعية والسياسية • ولعل فى تحويل الانسان من دين لآخر ، أو فى تغيرات السياسة والقيم الاجتماعية عنده أبرز الأمثلة لما كان يستخدمه الزعماء ، ورجال الدين والاصلاح فى توجيه العقل البشرى •

* * *

ففى مصر القديمة كان المصريون يعتقدون فى فكرة الخلود أى العـودة الى الحياة بعد الموت ، وقد ساعد على تثبيت هذه العقيدة ــ التى ظلت مسيطرة على الديانة المصرية آلاف السنين ــ بقاء أجسام الموتى سليمة بصورة تسترعى النظر فى أرض مصر الجافة ٠

لقد كان المصريون يعتقدون أن الجسم تسكنه صـورة اخرى مصغرة منه تسمى القرينة ــ الكا ــ كما تسكنه أيضا روح تقيم فيه ٠ وهذه الثلاثة مجتمعة ــ الجسم والقرينة والروح ــ تبقى بعد الموت كما أن فى استطاعتها أن تنجو منه وقتا يطول أو يقصر بقدر ما يحتفظون بالجسم سليما من البلى ، كما اعتقدوا أن الاله أوزير يستطيع أن يبرئهم من جميع الذنوب ، وأن يسمح لهم أن يعيشوا مخلدين فى الحدائق السماوية حيث النعيم الأبدى والأمن الدائم ٠

وكان أوزير ــ على حسب اعتقادهم ــ يحاسب الموتى ويزن قلب كل من يريد الانتقال الى الحقول الفردوسية فى كفة ميزان تقابله فى الكفة الأخرى ريشة ليتأكد بذلك من صدق قوله ، وكان الذين لا ينجحون فى هذا الاختبار يحكم عليهم بأن يبقوا أبد الدهر فى قبورهم يحسون الجوع والظما وليس لهم طعام الا من التماسيح البشعة ، ولا يخرجون من هذه القبور ليروا الشمس ٠

واستغل الكهنـة هـذا المعتقد وادعوا أن ثمة طرقا ماهرة لاجتيـاز هذه الاختبارات ، وأن فى قدرتهم تعريف الناس بها نظير أجر يحصلون عليه ٠ فمن هذه الطرق أن يهيأ القبر بما يحتاج اليه الميت لغذائه من الطعام والشراب ، أو يملأ قبره بالطلاسم التى تحبها الآلهة من : أسماك ، ونسور ، وأفاعى ، وجعارين والتى كانت فى رأيهم رمزا لبعث الروح ٠ فاذا ما بارك الكاهن هذه الأشياء حسب الطقوس الصحيحة ، فانها تخيف كل معتد ، وتقضى على كل شر ٠

وكان شراء كتاب الموتى(١) يعتبر خير الطرق لاجتياز الاختبارات ٠

والكتاب عبارة عن قراطيس ملفوفة أودع فيها الكهنة أدعية وصلوات معينة ، وصيغا وتعاويذ من شأنها أن تهدىء من غضب أوزير ، بل قد تخدعه ٠

ومن الطرق الاخرى ان تعلن الروح براءتها من الذنوب الكبرى في صورة « اعتراف سلبى » ، وهذا الاعتراف من اقدم ما عبر به الانسان عن مبادئه الاخلاقية ٠

ويذكر ول ديورانت هذا الاعتراف في قصة الحضارة :

« سلام عليك أيها الاله الاعظم ، رب الصدق والعدالة ، لقد وقفت امامك ، يا رب ، وجىء بى لكى اشاهد ما لديك من جمال ٠٠٠ احمل اليك الصدق ٠٠٠ انى لم اظلم الناس ٠٠٠ لم اظلم الفقراء ٠٠٠ لم افرض على رجل حر عملا اكثر مما فرضه هو على نفسه ٠٠٠ لم اهمل ، ولم أرتكب ما تبغضه الآلهة ٠٠٠ ولم اكن سببا فى أن يسىء السيد معاملة عبده ، ولم أمت انسانا من الجوع ، ولم ابك احدا ولم اقتل انسانا ٠٠٠ ولم اخن أحدا ٠٠٠ ولم أنقص شيئا من مئونة الهيكل ، ولم اتلف خبز الآلهة ٠٠٠ ولم ارتكب عملا شهوانيا داخل اسوار المعبد المقدس ٠٠٠ ولم اكفر بالآلهة ٠٠٠ ولم اغش فى الميزان ٠٠٠ ولم انتزع اللبن من أفواه الرضع ٠٠٠ ولم اصطد بالشباك طيور الآلهة ٠٠٠ انا طاهر ٠٠٠ انا طاهر ٠٠٠ أنا طاهر » ٠

الا انه من جهة اخرى ، انصرف الكهنة الى بيع الرقى ، وغمغمة العزائم ، واداء المراسم والطقوس السحرية ، ولم يعيروا اهتماما تعليم الناس المبادىء

---

(١) كتاب الموتى اسم حديث اطلقه لبسيوس على نحو الفى ملف من ورق البردى وجدت فى عدة قبور ، وتمتاز عن غيرها من الأوراق باحتوائها صيغا لارشاد الموتى ، واسمها المصرى هو : الخروج من الموت بالنهار ، ويرجع تاريخها الى عهد الأهرام ، ولكن بعضها اقدم من ذلك ٠

الخلقية ، وكان كل همهم جمع المال والاثراء ، وخاصة من كتاب الموتى ٠٠ الذى يشبه الى حد كبير « صكوك الغفران » التى احتكرتها الكنيسة فى أوروبا فى القرون الوسطى ٠

وكانت الآلهة تستخدم السحر والرقى ليؤذى بعضها بعضا ، وتبين الاوراق التى تركها المصريون أهمية السحر فى حياة المصريين ، فقد جاء بها الكثير عن السحرة الذين يجففون البحيرات بكلمة ينطقون بها ، او يجعلون الاطراف المقطوعة تقفز الى أماكنها ، ويحيون الموتى ٠

وكان للملك سحرة يعينونه ويرشدونه ، وكان الاعتقاد السائد أن له هو نفسه قوة سحرية ينزل بها المطر ، او يرفع بها الماء فى النهر ، وكانت الحياة المصرية مملوءة بالطلاسم والعزائم ٠ والرجم بالغيب ، وكان لابد لكل باب من اله يخيف الارواح الخبيثة ، أو يطرد ما عساه يقترب منه من أسباب الشؤم ٠

ونسى الناس فى خضم هذه المعتقدات على مر الزمان ما بين الدين والأخلاق من صلات ، فلم تكن الحياة الصالحة هى السبيل الى السعادة الابدية ، بل كان السبيل اليها هو : السحر ، والطقوس ، واكرام الكهنة ٠

وهكذا انقطعت أسباب التدرج فى نمو المبادىء الاخلاقية التى كان يتميز بها الشرق القديم ، وذلك نتيجة الاساليب البغيضة التى لجأت اليها طائفة قاسية من الكهنة حريصة كل الحرص على التكسب من أهون سبيل ٠

فاذا انتقلنا الى حضارة بابل نجد ان عقيدة الخلود ـ عكس الحضارة المصرية ـ لم يكن فيها ما تبتهج له نفس البابلى ، ذلك لان دينه كا ندينا أرضيا عمليا ، فاذا صلى لم يكن يطلب فى صلاته ثوابا فى الجنة ، بل كان يطلب متسعا فى الارض ٠

كانت فكرة البابليين عن الحياة الآخرة هى : فكرة وجود موتى ـ منهم القديسون والانذال ، وفيهم العباقرة والبلهاء ، وكل هؤلاء يذهبون الى مكان مظلم فى جوف الارض ، ولا يرون الضوء من بعد ذلك ٠

وكانوا يعتقدون في وجود الجنة ، ولكنها اختصت بالآلهة ، اما « ارالو » التى تهبط اليها جميع الناس ، فكانت دارا للعقاب في معظم الاحوال ، تقيد فيها أيدى الموتى وأرجلهم أبد الدهر ، وترتجف فيها اجسامهم من البرد يجوعون فيها ويظماون ، الا اذا وضع أبناؤهم لهم الطعام فى قبورهم فى أوقات معينة ٠

وكانت أكثر اجسام الموتى تدفن فى قباب ، ومنها ما كانت تحرق ثم تحفظ بقاياها فى قوارير ، ولم تكن الجثث تحنط على غرار ما كان يحدث عند قدماء المصريين ، ولكن كانت تغسل الجثة بواسطة أناس محترفين ، ثم يلبسونها ثيابا حسنة ، ويصبغون خديها ، ويسودون جفونها ، ويلبسونها خواتم فى أصبعها ، ويضعون معها بديلا من الملابس الداخلية التى تلبسها ٠

واذا كانت الجثة لامرأة وضعت معها قوارير العطور ، والامشاط ، وكحل للعينين ، وذلك لكى تحتفظ بطيب رائحتها وجمال وجهها في الدار الآخرة ٠

وكان الدين عند البابليين يعنى بالمراسم الصحيحة أكثر مما يعنى بالحياة الصالحة ، فاذا أراد الانسان أن يؤدى ما يجب عليه نحو الآلهة ، كان عليه أن يقرب القربان اللائق للهياكل ، ويتلو الصلوات والادعية المناسبة ، أما فيما عدا هذا فقد كان فى وسعه أن يفقا عين عدوه المهزوم ، ويقطع أيدى الاسرى وأرجلهم ، ويشوى ما بقى من اجسامهم وهم أحياء ، دون أن يؤذى بذلك آلهة السماء ٠

هذا كله خليط من الافكار ليست كلها منطقية أو متماسكة ، ولكن فيها ما يكفى لحفز البابلى الساذج على ان يقدم لآلهته وقساوسته كفايتهم من الطعام والشراب ٠

على ان الاناشيد والمزامير كانت من مراسم الديانة البابلية ، فكان الكهنة ينشدونها تارة ، والمصلون تارة ، او ينشدونها معا ، وهم يتمايلون ذات الشمال وذات اليمين ٠

ولم تكن الخطيئة عند البابليين مجرد حالة معنوية من حالات النفس . بل كانت كالمرض تنشأ من سيطرة شيطان على الجسم فى مقدوره أن يهلكه ، كما كانوا يعتقدون أن الشياطين المعادية للناس تعيش فى شقوق عجيبة وتتسلل الى البيوت من خلال أبوابها ، أو من فتحات مزاجها ، وتنقض على فريستها فى صورة مرض أو جان .

وكان من المعتقد أنه يمكن اتقاء شر هؤلاء الشياطين الى حد ما باستعمال التمائم والطلاسم وما اليها من الرقى والاحاجى .

وقد وجدت فى الآثار البابلية كتابات كثيرة محتوية على صيغ سحرية لطرد الشياطين واتقاء أذاها ، والتنبؤ بالغيب ، كما وجدت الواح نقش عليها كتب فى التنجيم وارشادات تهدى الى طريقة قراءتها ، كما عثر على بحوث فى تفسير الاحلام لا تقل براعة وعمقا عن أرقى ما اخرجته بحوث علم النفس الحديث .

على أن اغرب المعتقدات التى تستلفت النظر ما كتبه هيرودوت فى احدى صفحاته الذائعة الصيت عن العهر المقدس اذ جاء بها ما يلى :

« ينبغى لكل امرأة بابلية أن تجلس فى هيكل الزهرة مرة فى حياتها ، وأن تهب نفسها لرجل غريب ، ومنهن كثيرات يترفعن عن الاختلاط بسائر النساء ، لكبريائهن الناشىء من ثرائهن ، وهؤلاء يأتين فى عربات مقفلة ويجلسن فى الهيكل ، ومن حولهن عدد كبير من الحاشية والخدم .

« أما الكثرة الغالبة منهن فيتبعن الطريقة الآتية : تجلس الكثيرات منهن فى هيكل الزهرة وعلى رءوسهن تيجان من الحبال ، بين الغاديات والرائحات اللاتى لا ينقطع دخولهن وخروجهن . وتخترق جميع النساء ممرات مستقيمة متجهة فى كل الجهات ، ثم يمر فيها الغرباء ليختاروا من النساء من يرتضون ، فاذا جلست امرأة هذه الجلسة كان عليها ألا تعود الى منزلها حتى يلقى احد الغرباء قطعة من الفضة فى حجرها ويتصل بها جنسيا خارج المعبد ، وعلى من يلقى

القطعــة الفضية ان يقول : اضرع الى الآلهــة « ميلتـا » أن ترعاك ، ذلك لان الاشوريين(١) يطلقون على الزهرة اسـم ميلتا ، ومهما يكن من صغر القطعة الفضية فان المرأة لا يجوز لها ان ترفضها ، فهذا الرفض يحرمه القانون لما لها في نظرهم من قداسة ٠

وتسير المرأة وراء أول رجل يلقيها اليها ، وليس من حقهـا أن ترفضه ايا كان ٠ فاذا ما تم الاتصال الجنسي بينهما وتحللت مما عليها من واجب للآلهة ، عادت الى منزلها ، ومهما بذل لها من المال بعدئذ لم يكن في وسعه أن ينالها ٠ فمن كانت منهن ذات جمال وتناسب في الاعضاء ، فانها تعود سراعا الى دارها ، اما المشوهات فيبقين في الهيكل زمنا طويلا ، وذلك لعجزهن عن الوفاء بما يفرضه عليهن القانون ، ومنهن من ينتظرن ثلاث سنين او أربعا » ٠

ويعلق ول ديورانت على ذلك بقوله :

« ماذا كان منشأ هذه السنة العجيبة ؟ هل كانت بقية من بقايا الشيوعية الجنسية ، اى رخصة يمنح بها عريس المستقبل « حق الليلة الاولى » للمجتمع الممثل في المواطن العارض غير المعروف ؟ أو هل كان منشؤها خوف العريس من ارتكاب جريمة سفك الدماء التى تحرمها الشرائع ؟ أو هل كان استعدادا ضمنيا للزواج شبيها بالسنة التى لا يزال يسير عليها بعض القبائل في استراليا الى هذه الايام ؟ أو أنهـا لم تكن أكثر من قربان يقرب للآلهة ـ فتقدم لها باكورة الفاكهة ؟ من يدرى ؟ » ٠

والواقع أنه كان يسمح للبابليين في العـادة بقسط كبير من العـلاقات الجنسية قبل الزواج ، ولم يكن يضن على الرجال والنساء أن يتصلوا اتصـالا غير مرخص به « بزيجات تجريبية » تنتهى متى شاء احد الطرفين أن ينهيها ٠

---

(١) كان اليونان يطلقون اسم الآشوريين على الآشوريين والبـابليين على السواء ، وكانت « ميلتا » صورة اخرى من الالهة اشـتار التى كانت دائما ظمأى الى الحب ، ثم تزوجت تموز ابن الاله العظيم اى ٠

كما كان الشبان يصبغون شعرهم ويعقصونه ، ويعطرون أجسامهم ويحمرون خدودهم ، ويزينون انفسهم بالعقود والاساور ، والاقراط والقلائد ٠

ولما فتح الفرس بلادهم وقضوا بذلك على عزتهم النفسية ، تحرروا أيضا من جميع القيود الخلقية ، وسرت عادات العاهرات الى جميع الاوساط ٠ وأضحت نساء الاسر الكبيرة يرين أن اظهار محاسنهن أيا كانت ليستمتع بها أعظم استمتاع أكبر عدد مستطاع ليس شيئا أكثر من مجاملة عادية ٠

وهكذا انهمك أهل بابل في ملاذهم ، واشباع رغباتهم الجنسية ، ونسوا واجبهم الوطني حتى فرض عليهم نتيجة ذلك أن يخضعوا : للكاشيين والاشوريين، والفرس ، واليونان ٠

* * *

وكان اليونانيون القدامى يستشيرون قراء البخت لاسباب معينة ملحة كلما احتاجوا الى مشورة أو علاج نفسي كما يزور أحد في أيامنا هذه طبيبا من أطباء الامراض النفسية ، وكما يفسر المعالجون من أنصار فرويد أو يونج الاعراض البدنية على أنها صراعات في العقول اللاواعية مفسرين أحلام مرضاهم الرمزية في أثناء علاجهم وهم على المسند ، فان القساوسة اليونان يفسرون احلام الزوار المرضى لمعابدهم ويردون الاعراض الهستيرية الى أسباب دينية ، ولم يكن كتاب مدرسة أبوقراط الطبية التي كان مقرها جزيرة سوس اقل نقدا لهؤلاء الاطباء النفسيين من القساوسة ، عن نقد أطباء الاعصاب المحدثين لاصحاب النظريات النفسية في الوقت الحديث ٠

فاذا قلد المريض : عنزة ، أو زأر ، أو تشنج بطريقة هستيرية فانهم يقولون أن السبب هو الآلهة ٠٠ واذا أرغى وأزبد من فمه وركل فان السبب يعزى الى الأبراج السماوية ، واذا كانت الأعراض عبارة عن مخاوف ومفزعات في الليل وهلوسة وقفز من الفراش واندفاع نحو الابواب فانها توصف بأنها هجمات من جانب « آلهة الفجر » أو اغارات أرواح الموتى ٠

ويبدو ان الاحلام والغيبوبة كانت تحدث عمدا بواسطة الايحاء • ويصف ماركوس ابليمز Marcus Apulims فى كتابه The Golden Ass الاحـلام التى خبرها فى معبد « اس » بعد تحوله الدينى الرائع بقوله :

« هل تصدق انه بعد ان ظهرت لى الرؤيا بوقت غير طويل كانت التعليمات الصادرة الى هى ان امر بعملية تعليم ثالثة لاكون عضوا فى الطائفة ، فدهشت وأحسست عجزى عن فهم الامر ، لاننى كنت قد مررت بطقوس الرسامة مرتين ، فظننت انه من المؤكد أن القساوسة اما أنهم قد تخلوا عنى ، واما أنهم قد اعطونى تنزيلا مزيفا أو أنهم حبسوا عنى شيئا آخر ، واعترف اننى بدات اشك فيهم وأعتقد أنهم خدعونى • ولكن بينما كنت لا أزال فى حيرتى حول المسالة شعرت بأنه قد مسنى الجنون تقريبا من جراء القلق حتى عطف على اله لا أعرف اسمه وفسر لى الحالة فى حلم من الاحلام •• » •

ومن ثم فان المعالج النفسى الحديث غالبا ما يعانى نفس هذه الصعوبة المبكرة فى سبيل الاحتفاظ بايمان مريضه ، وانه لابد من أن يعود باستمرار الى أفكاره الاولى عن المرض حتى يحلم المريض فى النهاية بالحلم المطلوب منـه أن يحلمه ، ويساق ذلك على أنه دليل ايجابى على أن التشخيص سليم •

ولقد استعمل اليونانيون القـدامى كذلك الرقص الدينى كعلاج شاف للامراض العصبية ، وكانت طقوسهم المحمومة تتكون من الرقص بشكل مبالغ فيـه على نغمـات الزار ودقات الطبول حتى ينهـار الراقصـون والراقصـات من الاعياء •

ويلاحظ جورج تومسون أن كثيرين من الكتاب اليونانيين يصفون بالتفصيل الآثار الانفعالية للرسامة الصوفية ، التى كان من المعروف أنها أمر طبيعى ، وهى تتكون من : الرعشـة ، والرعدة ، والعرق ، والاضطراب الذهنى ، والوجل ، والفرح الممتزج بالخوف ، والبلبلة •

ومع ذلك ففى لويباديا تولى قساوسة تروفينوس قراءة البخت ، ونظرا لان الزوار لم يتعهدوا بالسرية التامة فلا زالت بعض المعلومات عن الاجراءات المتبعة معروفة كما شرحها بوزابياس حوالى سنة ١٧٤ بعد الميلاد ، وكان قد زار بنفسه قارىء بخت من التروفينوس .

يقول بوزابياس : « ان قارىء البخت ليس برجل بل هو فتحة واسعة عميقة في الارض وهى ليست فجوة طبيعية ولكنها مبنية بناية دقيقة وشكلها يشبه اناء لخبز الخبز .

« ولا يوجد ممر يؤدى الى القاع بل يذهب الشخص الى تروفينوس فيجيئونه بسلم خفيف ضيق ، وعندما ينزل يرى ثقبا بين الارض والبناء . وعلى ذلك يلقى بنفسه على ظهره على الارض ويمسك فى يده كعكة من الشعير معجونة بعسل الشهد، ويدفع بساقيه أولا فى الثقب ويندفع بنفسه بعد ذلك محاولا ادخال ركبتيه فى الثقب ، وعندما تمران فان بقية جسمه يسحب بعدها مباشرة ويندفع داخل الثقب مثلما تبتلع دوامة رجلا فى نهر قوى سريع الجريان » .

ويضيف بوزابياس بأن أسلوب التنوير يختلف باختلاف الزوار فقد تستعمل المثيرات السمعية مع البعض والبصرية مع البعض الآخر ، ولكنهم يعودون جميعا من نفس الفتحة وأقدامهم فى المقدمة .

ويقال : انه لم يمت أحد ممن نزلوا الا واحد من حرس ديمتريوس .

وقد جاء وصف ما بعد العلاج كذلك :

« وعندما يخرج الشخص من الفتحة يأخذه القساوسة من يده ثانية ويجلسونه فوق ما يسمى « بكرسى الذاكرة » الذى لا يبعد كثيرا عن المذبح وباجلاسه هناك يتلقى الأسئلة منهم عن كل ما شاهد وسمع ، وعندما يخبرهم بذلك يسلمونه الى أصدقائه الذين يحملونه وهو لا زال فاقد القدرة على الحركة من تسلط الخوف عليه ، ولا يدرى شيئا عن نفسه .

وفى قصة ثيماراكوس الشاب الملهوف على المعرفة ، نجد أنه ذهب الى كهف تروفينوس وأدى جميع الطقوس المطلوبة لكسب الحكمة ، وظل هناك ليلتين لدرجة ان أصدقاءه يئسوا من عودته وحزنوا على فقده ، ولكنه خرج فى الصباح التالى بوجه مرح وذكر لهم أشياء عجيبة كثيرة رآها وسمعها .

فبمجرد أن دخل أحاطت به ظلمة كثيفة ، وبعـد أن انتهى من صلواته استلقى لمدة طويلة على الارض ولكنه لم يكن متأكدا ما اذا كان فى صحوة ام فى حلم ، فتصور فقط ان ضربة بارعة هوت فوق رأســه وأن روحه خرجت من بين فتحات فى جمجمة راسه .

ومن العسير أن نعرف ما اذا كانت الآثار التى وصفها حينئذ كانت حقيقة ام مجرد هلوسة وخيال .

وعندما نظر الى أعلى لم ير الارض بل راى جزرا تضىء بأنوار نيران هادئة كانت تتبادل الالوان طبقا للتباين المختلف فى الاضواء ، وهى لا تعد ولا تحصى وهى كبيرة جدا وان كانت ليست متساوية السعة ولكنها كانت مستديرة كلها .. وعندما نظر الى أسفل ظهرت هناك فجوة ضخمة رنت فى اذنه منها آلاف الصيحات، وعواء الحيوانات ، وصراخ الاطفال وزمجرة الرجال والنساء وكل أصناف الاصوات المفزعة ، ولكنها كانت خافتة كما لو كانت بعيدة جدا ، وسرت فى الفضاء الشاسع وقد أشاع فيه ذلك مزيدا من الخوف .

وبعد ذلك ببرهة قصيرة تكلم شىء خفى وقال لتيماركوس : ماذا تريد أن تفهم ؟ فأجاب : « كل شىء » .

ثم ألقى عليه الشىء الخفى عددا من الفقرات عن التبشير الفلسفى عنـدما واتته حالة عقلية مناسبة من الاستعداد :

« لكل نفس نسبة من العقل ولا يستطيع الانسان أن يكون انسانا بدونها ، ولكنه كلما اندمجت كل روح باللحم والشهوة تغيرت وأصبحت غير منطقيــة

بسبب الآلام والملاذ . هنـاك أربعة أقسام لجميع الاشياء : أولها قسم الحيـاة والثاني قسم الحركة ، والثالث الولادة ، والرابع الفساد ، ويرتبط الاول بالثاني بوحدة وهي المادة المرئية ، ويرتبط الثاني بالثالث بالفهم والشمس ، ويرتبط الثالث بالرابع بالطبيعة في القمر » .

وتوحي الاقسام الاربعة هذه بأن القساوسة يوحون الى تلاميذه تروفينوس بأن الجزء الأكثر نقاء من الروح لا يهبط الى البدن ولكنه يسبح في أعلاه ويمس أبعد جزء من رأس الانسان ، فهو مثل وتر يشد ويوجه الجزء السفلي من الروح طالما أثبت طاعته ، وطالما ظل غير خاضع لشهوات البدن .

ويستمر الصوت أكثر من ذلك ويتحول تيماركوس كما قال ، ليعرف من الذي يتكلم ، ولكنـه يحس ألما عنيفا في رأسـه كما لو كان أحد قد ضغط على جمجمته وأمسك برأسه حتى يفقد كل حس وكل قدرة على الفهم ، ولكنه يفيق بعد برهة قصيرة ويجد نفسه عند مدخل الكهف حيث كان مستلقيا في البداية .

وقد طبق مثل يوناني آخر انتقل الى الرومان وكان يطبق على أي فرد يتحدث أو يتصرف تصرفا غريبا بشـكل يثير الشك في قواه العقلية : يجب أن يزور انتسيرا ! وقد اتفق الجميع بصفة عامة على اعتبارها اكثر مكان في العالم يبعث على الامل والرجاء في الشفاء ، وانتسيرا مدينـة بنيت على شـكل قوس برزخ صخرى نصف قطرها ثلاثة أميـال وتبرز في خليج كورنثيا بالقرب من جبل بارناسوس ، ويقول ستيفانوس المؤرخ البيزنطي تحت عنوان « Antioyra » بأن هرقل كان يعالج هناك من جنون القتل الامر الذي يوحي أن مؤسسة الشفاء كانت مؤسسة قديمة .

ويرجع سترابو المؤرخ سبب شهرة انتسيرا الى تنوع ألوان الدواء الناجع لعلاج العته وكان يطلق على هذا الدواء اسم الحشائش الطبية وهي تنمو هناك بصفة خاصة نموا حسنا ، وكانت هذه الحشائش تخلط بوساطة الصيادلة المحليين بحشيش آخر محلي غير شائع هو بذور السمسم ومن شأنه أن يجعل تأثيرها اكثر أمنا وأقوى أثرا .

وكانت هذه الحشائش نوعين فمنها الابيض والاسود ، وطبقا لاقوال البعض فان انواع الحشائش الطبية السوداء منها والبيضاء كانت تنمو احسن نمو فى انتسيرا ، وعلى الرغم من أن الحشائش الطبية البيضاء تشبه السوداء تماما باستثناء لون الجذور فان ديوسكوريدس وبوسيناس وبليني اتفقوا جميعا على ان البيضاء منها تسبب القيء ، والسوداء كانت مطهرا قويا ٠

ويقول بليني : ان الحشائش الطبية السوداء كانت توحي برهبة دينية قوية أكثر من البيضاء ، وكانت تجمع باحتفال كبير ، كما أن البذور التى خلطها صيادلة انتسيرا بالحشائش الطبية البيضاء كانت هى الاخرى مطهرا قويا ، ولكن هذه الحشائش الطبية السوداء والبيضاء والبذور التى تتعاطى بعد صيام فى شوربة الفول لم تكن لها القدرة على الشفاء ، اذ يقول بليني أن الحشائش الطبية البيضاء والسوداء هى حشائش مخدرة ، ومن الواضح أن العلاج كان يتضمن صورة من عقار التفريغ الانفعالى الذى يصاحبه ايحاء قوى ، والخوف الذى ينبعث من المكان المظلم الكئيب وأعراض العقار السام المخيفة مما يزيد الانسان ضعفا وانهاكا ، وفى أثناء الاغفاءة غير الطبيعية التى كانت تحدث بعد تعاطى الحشائش الطبية تستعمل القسيسات بدون شك طقوسا غير دنيوية لتساعد على تبديد اعراض المرض ٠

* * *

وفى الديانة الهندية القديمة كثر بها الكتب التى تشرح أصول التصوف والسحر والعرافة ، والتى تذكر الصيغ السحرية التى تهيىء السبيل لتحقيق أى غاية كانت ٠ ومن ثم كان يعتقد الهندى الساذج فى التنجيم وكان يسلم بأن كل نجمة لها تاثير خاص على الذين يولدون وهى فى أوجها ٠

وقد جاء فى كتاب « كاوشتياكى ــ يوباتشاذ » أن سر النجاح المادى هو تقديس الهلال كلما ظهر ٠ وكان العرافون والسحرة والمتنبئون بالغيب يستغلون هذه العقائد فيزعمون أنهم يخدمون الشياطين ويسحرون الثعابين وينبئون بالغيب ، كما ادعى السحرة أن فى مقدورهم أن يسلطوا الشياطين على العدو وأن ينزلوا الموت المفاجىء عليه ، أو يلحقوا به علة ليس لها شفاء ، كما زعموا أن فى

قدرتهم تجديد الحيوية الجنسية او خلق الحب فى أى انسان لآخر ، أو تهيئة سبيل الانجاب للعاقرات من النساء • ولم تكن رغبة الهنود فى الاطفال يعادلها أى شىء ، ومن ثم كانت رغبة الهندى شديدة فى القوة الجنسية ، وتقديسه الدينى للرموز التى تشير الى النسل والخصوبة ، فعبادة العلاقة الجنسية التى سادت معظم الاقطار فى مختلف العصور لبثت قائمة فى الهند من العصور القديمة الى القرن العشرين •

وكان « الهها » هو « شيفا » ورمزها هو عضو التذكير ، وكان الهنود تارة يتصورون « شاكتى » ومعناها القوة التى تبعث النشاط بأنها « كالى » زوجة « شيفا » وتارة أخرى يتصورون أن القوة الباعثة « لشيفا » على نشاطه الجنسى هى عنصر نسوى فى طبيعة « شيفا » نفسه •

وبهذا تكون طبيعة شيفا مشتملة على قوتى الذكورة والانوثة معا ، وهاتان القوتان يمثلهما الهنود باوثان يطلقون عليها اسم « لنجا » أو « يونى » ، وهى تصور عضوى التناسل عند الرجل والمراة •

وتتضح هذه العبادة للعلاقة الجنسية على الآثار القديمة التى تركها الهنود الاقدمون ، ففى معبد « نيالير » مثلا نجد التماثيل الرمزية لاعضاء التناسل • كما نجدها فى أوثان «اللنجا» الهائلة التى تزين أو تحيط بمعابد شيفا فى الجنوب •

ومن ثم نجد أن الوسائل التى استخدمت فى الازمنة الغابرة للتاثير على عقول الناس والسيطرة على سلوكهم تكاد تتشابه وأن اختلفت فى الشكل وهى تعتمد على الوسائل الميتافيزيقية والسيكولوجية وعلى الاستجابات الانفعالية التى تحدث للانسان نتيجة استخدام هذه الوسائل •

ولقد رأينا ان نستهل هذا الجزء من الكتاب بشرح تلك الوسائل حتى يستطيع القارىء ان يقارن بينها وبين تلك الوسائل التى استخدمت فيما بعد والتى ستجىء بالتفصيل فى الفصول القادمة ، ونحن نرى انه ليس هناك ثمة اختلاف بينها سوى أن الاساليب الحديثة طبقت بشكل أكثر شمولا واعتمادا على التجريب •

الفصل الثانى

اصطلاح جديد
غسيل المخ

تحدثنا فى الفصل السابق عن الاساليب التى استخدمت فى الازمنة الغابرة للسيطرة على عقول الناس وتوجيهها نحو معتقـدات معينة ، وان اختلفت هذه الاساليب فى الشكل الا أن هدفها وتاثيرها كان واحدا ٠

وحديثا ومنذ فترة قريبة ظهر تعبير جديد فى قاموس المصطلحات السياسية هو « غسيل المخ » ولا يختلف هـذا عن تلك الاساليب التى استخدمت قديما للسيطرة على معتقدات الناس الا من ناحية الوسيلة والشمول ٠

وعلى الرغم من ان عملية « غسيل المخ » عرفتها البشرية فى مختلف العصور المتلاحقة ؛ فان الكتابات التى ظهرت فى هذا العصر تحاول أن تلصق هذه العملية ــ أو بمعنى آخر هـذا الاصطلاح ــ بالجهود التى يقوم بها الشيوعيون لاستمالة غير المؤمنين بالشيوعية ، مع أن القليل منهم اشار الى علاقة هذه العملية بعمليات التحويل الدينى ، والسياسى ٠

ولذا فاننا عندما نحاول أن نتصدى للنقاش الذى لا نهاية له عن موضوع « غسيل المخ » يجب علينا تناوله دون تحيز محاولين أن نصل الى تحليل واقعى لما قد يجابهه الانسان الحر من معارك ضد عقله وارادته لتغيير معتقداته وفكره ٠

ولقد استخدمت كلمة « غسيل المخ » لاول مرة بواسطة الصحفى الامريكى ادوارد هنتر Edward Hunter (١) فى ترجمته للكلمة الصينية « هسى ناو » Hsi Nao المستخدمة للتعبير عن النظرية الصينية « اصلاح الفكر » أو اعادة التشكيل الايديولوجى فى مجال سزو هسينج كاى تساو Szu Hsiang Kai - Tsao أى برنامج التثقيف السياسى الذى يقوم أساسا على أن كل النـــاس الذين لم يثقفوا فى المجتمع الشيوعى لابد أن يكون لديهم اتجـــاهات ومعتقدات بورجوازية ، ومن ثم يجب اعـادة تثقيفهم قبل أن يحتلوا مكانهم فى المجتمع الشيوعى ٠

وقد اقترن اسم البروفيسور ايفان بتروفيتش بافلوف استاذ علم وظائف الاعضـاء الروسى بعملية « غسيل المخ » ، نتيجة تجـاربه المتقدمة على غرائز الحيوانات وسلوكهـا ، وقد ركز بافلوف فى أبحاثه على « نظام الاشـارات » Signal System وهو ما يقصد به الحس الغريزى الموجه الذى يصل مبـاشرة بين الحواس، وبين العقل . وانتهت المرحلة الحاسمة من أبحاثه بتجارب على الحيوان والانسان لاثبات نظريته « الفعل الشرطى المنعكس » Conditioned Reflex وتعنى القيـام بسلوك معين نتيجة لمؤثرات خارجيـة ، مثل سيل اللعاب عند رؤية الطعام ، أو عند حدوث أى أثر مقترن بالطعام ٠ كما توصل بافلوف الى أنه بتغيير بيئة الانســان يمكن تغيير طبيعته الذاتية ٠ والواقع أن أبحاث بافلوف كانت هى المشـاعل التى أنارت الطريق أمام الشـيوعيين للتوسع فى عملية « غسيل المخ » على ما سنرى ٠

على أن التعريف فى رأينا أبعد من ذلك بكثير ؛ فاننا يمكن أن نطلق كلمة غسيل المخ على أية محاولة تستخدم لتوجيه الفكر الانسانى أو العمل الانسانى ضد رغبة الفرد الحر أو ضد ارادته أو عقله ٠

Edward Hunter, Brain Washing, Farrar, Straus and Cudahy, New York, 1956. _ (١) ·

ويستخدم الدكتور ميرلو العـالم النفسى الهولندى كلمة « Menticide » للتعبير عن عملية غسيل المخ ، وهذه الكلمة معناها « قتل العقل » ذلك لان العملية توجد خضوعا لا اراديا ، وتجعل الناس تحت سلطان نظام لا تفكيرى وتكون فى غمرة رق آلى لا حيلة لهم فيه ولا قدرة .

وربما اختلط بنا الامر فنمزج بين عملية غسيل المخ ، وبين عمليات التوجيه الدينى والتعليمى والاجتماعى . فمثـلا قد يتساءل الكثير من أصحـاب الحرف التربوية والاجتماعيـة عمـا اذا كانوا يمارســون فى صميم عملهم نوعا من «غسيل المخ» المدرس قد يتساءل عن جوهر عمله التربوى، واطباء العقول يسالون عن حقيقة تدريبهم للمرضى بواسطة العلاج النفسى ، ورجال الدين يسالون أيضا عن طبيعة وسائلهم الاصلاحية . وهنا يتصدى خصوم هذه الاوجه من النشاط لاصحابها فيزعمون بان أعمالهم كلها ليست شيئا آخر غير غسيل المخ .

وطبيعى أن « غسيل المخ » ليس هـذا . ومعنى ذلك أنه اذا اسـتخدم استخداما مطلقا يجعل المصطلح نقطة تجمع للخوف والامتعاض ، ولتوجيه التهم جزافا دون تقدير لاى مسئولية .

* * *

ومما لا شك فيه ان برنامج غسيل المخ ليس بجـديد تماما ، فلقد عرفت كل أمة وفى كل مرحلة من مراحل تاريخها نوعا من فرض المذاهب والعقائد على مواطنيها ، فهى عرفت عمليات « الاستنطاق » وعرفت « الاستقصاء » كما مرت بها عمليات التحويل الجماعى .

ان أسلوب استخلاص الاعترافات كان معروفا فى التحقيقات البابوية التى جرت فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ثم فيما بعد وبخاصة داخل مجالات تحقيق البوليس السرى الروسى أيام القيصرية ، وفى وسائل تنظيم سجون الاصلاح ، ومستشفيات الامراض العقليـة وغيرها من المؤسسات التى أقيمت لاحـداث التغييرات العقائدية عند الافراد ، كما استخدمت أساليبها فى الطوائف الدينية

المختلفة ، وفى جماعات الصفوة السياسية ، وفى المجتمعات البدائية عند تكريس الاعضاء الجدد • ولكن الشيوعيين جاءوا بمنهجهم فى ضوء أكثر شمولا وتنظيما ، كما أنهم استخدموا فيه مجموعة من الاساليب الفنية السيكلوجية المترابطة •

ومهما كان الوضع الذى طبق فيه توجيه الفكر الشيوعى فانه يتكون من عنصرين أساسيين :

١ ــ الاعتراف : وذلك بالكشف والتصريح عن كل شر ارتكب فى الماضى والحاضر •

٢ ــ اعادة التعليم والتثقيف : أو بمعنى أدق اعادة تشكيل الفرد فى الطابع الشيوعى الصحيح •

هذان العنصران يترابطان بل يتداخلان معا ، اذ ان كلا منهمـا يبرز على المسرح سلسلة من الضغوط والعوامل الثقافية والعاطفية والبدنية التى تهدف كلها الى السيطرة الاجتماعية ، والى تغيير الفرد •

* * *

وتختلف الاساليب المتبعة فى تقويم الفكر تبعا للظروف ، وتبعا للجماعة التى تكون هدفا للبحث ، ولكن الاصـول الاساسية واحـدة متماثلة فى كل الحالات ، فهى تهدف الى السيطرة على جميع الظروف المحيطة بالحياة الاجتماعية والجسمانية للفرد ، أو للجماعات لاثبات أن الافكار الفردية غير صحيحة ويجب أن تتغير ، كما تهدف الى تنمية الطاعة والاخلاص لعقيدة معينة •

فللسيطرة على بيئة الشخص الاجتماعية تبذل كل محاولة لتحطيم ولائه لأى فرد أو جماعة خارجة ، ويصحب هـذا ان يوضح للشخص أن اتجـاهاته وطوابع تفكيره غير صحيحة ويجب تغييرها ، كمـا يجب أن يعطى ولاءه الكامل لعقيدة معينة ويخضع لها دون تردد •

وعلى سبيل المثـال استخدمت الاسـاليب التالية فى السجون السياسية المختلفة :

١ — عزل الشخص عن الحياة العامة :

وذلك بان يزج بالفرد فى زنزانة ذات أبواب حديدية وفى داخل اسوار حديدية بعيدا عن كل معارفه القدامى وعن كل مصادر المعلومات وصور الحياة العادية ، وهو فى هذه الحالة يصبح نهبا للتعليقات والتحذيرات المفزعة ويغشى عقله غيوم تحجب عنه ما يدور خارج سور زنزانته . ولم يختلف التكنيك الذى يستخدم اليوم عن ذلك الذى استخدم أيام محاكم التفتيش او الذى استخدمه النازيون مع أسراهم فى معسكرات الاعتقال .

لقد كان يترك الاسير لمدة طويلة دون ان توجه اليه اية اتهامات ، ودون السماح بتسرب أية اخبار اليه عن اسرته أو عن العالم الخارجي ، فيشعر الفرد بانه اصبح وحيدا فى هذا العالم ، ولا يوجد بجواره من يستطيع ان يعاونه فى محنته . يشجع على ذلك ان أخلص اصدقائه وأحبائه عادة لا تواتيهم الجرأة ليسالوا عن مكانه ، أو يشيروا الى أنهم على معرفة به خشية التعرض للاعتقال والاستجواب ، ومن ثم يتم عزله !

وبعد فترة من القلق المستمر ، وبتطبيق بعض الاساليب الاخرى التى سنذكرها بعد ذلك يبدأ الاستجواب . ومن المحتمل أن يتحطم الانسان تلقائيا وبدرجة ملموسة نتيجة القلق والتفكير الطويل فيما يعترف به ، ويصبح فى حالة ياس وتعاسة .

وغالبا ما يناله الضعف والوهن نتيجة هذه الآلام الطويلة وما يصاحبها من ضغط فسيولوجى بحيث يصبح عقله ملبدا بالغيوم ، فلا يستطيع ان يميز اى شىء ويهبط الى قرارة نفسه أى ايحاء يقدم اليه بواسطة الاجبار أو الحيلة .

وهناك وسيلة معروفة استخدمت فى السجون السياسية وهى أن يوحى الى السجين بأن بلاده لم تعد ترفع صوتا واحدا من أجله ، وأن محبيه واصدقاءه تخلوا

عنه ، مما يجعله يشعر بانه أصبح وحيدا تماما فينقاد الى المحاكمة المحزنة مسلوب الارادة تحت أشد الظروف وطأة وعنفا •

ويصف ادوارد هنتر ذلك بقوله : « لا يهم أن يكون الرجال الذين قابلنهم قد جاءوا من دولة تابعة فى أوروبا أو من الصين الحمراء ، فقد أخبرهم غاسلو المخ بأن بلادهم وكنيستهم وأصدقاءهم تخلوا عنهم وخانوهم ، وبذلك يداخلهم الشعور بأنهم أصبحوا وحيدين » • لقد تشبع ذهن روبرت فوجيلر Robert Vogeler من بودابست بهـذا الانطباع لدرجة أنه حاول تسلق السور والقاء نفسه منتحرا للتخلص من تلك الوحـدة الرهيبة • وقد قيل ذلك أيضـا الى روبرت • ت • بريان Robert. T. Bryan من ولاية جيرسى وهو محـامى أمريكى ولد بالصين فى شنغهاى كما قيل نفس الشىء لاسرى الحرب فى كوريا •

٢ – الضغط الجسمانى :

وهذا يتفاوت من الحرمان من الطعام ، ومن النوم ، الى التصفيد بالاغلال كعقوبة لعدم التعاون مع المستجوب ، والهدف من هذا كله هو الوصول بالفرد الى درجة من الاعيـاء والانهيار بحيث يكون عقله قابلا لتقبل أى توجيـه من المستجوب •

والواقع أن الجوع يلعب دورا أساسيا فى عملية غسيل المخ ، لان الانسان لا يستطيع أن يستمر فى حياته العادية دون أحوال بيولوجية معينة ، منها الغذاء اللازم لبناء خلايا الجسم وتجديدها •

والتغذية السليمة هنـا ليست بكمية الغذاء الذى تمتلىء به المعدة ، فاننا نعرف أن الجسم يحتاج الى نسـبة معينة من المواد العضوية والفيتامينات التى تمكنه من تأدية وظيفته ،والوجبات الغذائية غير المتوازنة تخلق فى الانسان نوعا من الجوع ، فالعبرة هنا ليست بالبطون المنتفخة ذات البنية الضعيفة والذهن المشتت ، ولكن التغذية الجيدة هى التى تعمل على توازن الوجبـات التى تعطى الجسم طاقته اللازمة •

ولقد استخدم التجويع بهذا المعنى كعنصر من عناصر عملية غسيل المخ ، اذ كان يعطى للسجين ما يكفيه من أطعمة تمكنه من البقاء على قيد الحياة وليس بالكمية التى يتطلبها الجسم لجعل ذهنه يؤدى وظائفه بدرجة كافية • وكانت الاطعمة التى تقــدم له تعدل بين فترة واخرى لتحقيق الهدف المطلوب ، اذ كانت نسب الطعام توضع تبعا لصفات المقاومة التى يتصف بها الفرد ، فكلما ازدادت مقاومته تعمد المستجوبون تجويعه •

ان الجوع يجعل الانسان يسير نحو حتفه بمحض ارادته ، بل قد يدفعه اذا وصل الى درجة مفزعة الى أن يتخلى عن معتقداته وقيمه ، وخاصة اذا عاون ذلك ظروف مضنية اخرى •

والاجهاد لا يقل تأثيرا على الانســان عن الجوع بل قد يبزه ، اذ أن الجسم يحتاج يوميا لعدد معين من الساعات للراحة والنوم ، وقد يظل بعض الناس فى فترة من الفترات دون نوم لمدة يوم كامل ، وظل الكثيرون على قيد الحياة بقسط لا يذكر من النوم ، الا أن الاستمرار فى ذلك من شانه أن يقضى على صفاء الذهن ، ويؤدى باقوى الاشخاص الى الجنون والانتحار ، لان الانسان يصل فى النهاية الى درجة من الانهيار ، وتشويش ملكاته العقلية ، وفقدانه كل احساس •

ويشير الدكتور هنرى •ب• لوجين Henry. P. Laughlin الأستاذ بكلية الطب بجامعة جورج واشنطون فى مناقشة لدراسة اكلينيكية لاثر اطالة فترات اليقظة على الانسان بقوله : « ان مثل هذه الحالات تؤدى الى فقدان الاحســاس بالواقع ، وتشويش الملكات العقلية فيصبح الفرد كالحالم فى حالة انفصــال عن العالم • والفرد الذى عانى الحرمان من النوم يصبح أكثر قابلية لتقبل الايحاء وأكثر استعدادا لتنفيذ تعليمات الذين يطلبون منه أن يسلك سلوكا معينا ، كما يقل احتمال مقاومته لمطلب أى انسان من ذوى السلطة » •

ويستغل المستجوبون فى السجون السياسية هذا كله مهيئين بيئة يصبح فيها النوم شبه مستحيل ، اذ يوقظون الفرد فى ساعة غير عادية ، أو يجبرونه على

الاستيقاظ كلما نام ، أو يوقظ فى غلظة وخشونة ثم يستجوب لفترة قصيرة ويعاد ثانية لزنزانته . والهـدف من هذا كله هو اجهاد المتهم أو الاسير حتى يصل فى النهاية الى درجة من الانهيار تمكن المستجوب من الايحاء اليه بما يريد .

٣ – التهديدات وأعمال العنف :

يتخذ هذا الاسلوب شكلين متناقضين ، فاما أن يكون مباشرا كاستخدام العنف والضرب والركل حتى الموت وربط السـجين بشـدة الى أسفل بحيث لا يستطيع حراكا ، ثم يوضع حجر ثقيل فوقه ويترك هكذا لمدة طويلة ، الى غير ذلك من الوسائل غير الانسانية .

واما أن يكون التهديد والعنف بشـكل غير مبـاشر ، فمثـلا قد يتحدث المستجوب مع السجين بمنطق هادىء بينما يجعله يكتشف عن طريق شخص آخر أن صديقه الذى لم يتعاون قد ضرب أو أعدم .

وكانت لهذه الطريقة وسـائل كثيرة فمثلا قد يعامل الفرد معاملة ودية طيبة ، ويتكرم المستجوب فيعطيه لفافة تبغ ، وفى أثناء الحديث يسمع هذا الفرد زميله فى الغرفة المجاورة يصرخ من الالم لرفضه الاجابة عن نفس الاسئلة الموجهة اليه ، أو أن يوضع عدد من الاسرى فى زنزانة واحدة وعندما يعود أحد الزملاء مخضبا بدمائه كقطعة من اللحم أو تعاد ملابسه فى لفافة صغيرة يكون هذا كافيا للآخرين كصورة من التهديد غير المباشر .

ومن الاساليب الوحشية التى تستخدم فى مثل تلك الحالات وضـع الفرد فى غرفة على شكل اناء كبير ، ثم يوثق داخل الاناء بحيث لا يستطيع التحرك ، ويصب الماء بعد ذلك ببطء داخل الاناء حتى يصل مستوى الماء الى طرف أنفه . على أن الشخص الذى تقـام عليه هذه التجربة وتكرر لفترات طويلة قد تصل الى الشهر لا يستطيع فى كل مرة أن يعرف عند أى مستوى سيصل الماء ، فتاره يقف المستوى عند عقبيه ، وأحيانا يصل الى فمه مما يجعله يصارع بشدة لابقاء رأسه خارج مستوى الماء .

ومن هذه الاساليب نفسها مثل ماخوذ من الحرب العالمية الثانية ، اذ يجرد أسير الحرب من ملابسه ويوضع في العراء في طقس درجة حرارته تحت الصفر ، ثم يدلى بقدميه في حوض كبير ممتلىء بماء سرعان ما يتجمد • أو يوضع الاسير في أحد الاركان ويستجوب في اثناء تساقط قطرات من الماء فوق رأسه كل دقيقة ويستمر ذلك لساعات كاملة •

٤ — الاذلال والضغوط :

تعتمد هذه الوسيلة على اتباع كل نظم السجن التي تتطلب الخضوع التام مع الاذلال في أسلوب : تناول الطعام ، والنوم ، والاغتسال ، وما الى هذا طبقا لنظم محددة ، مع عدم القيام بأى عمل دون الحصول على اذن من الحارس ، واحناء الرأس ، وابقاء الاعين موجهة الى الارض أثناء التحدث الى الحراس •

كما تستخدم الضغوط الاجتماعية مثل الاستجواب لمدد طويلة ، ومثل عقد اجتماعات يحاول فيها الافراد الذين تقدموا في عمليات التقويم حث الافراد الاقل تقدما باستخدام عدة وسائل مختلفة : كالتملق ، والمداهنة ، والازعاج ، والمضايقة ، أو محاولة اذلالهم وسبهم ، وسنوضح ذلك بالتفصيل في فصول تالية •

٥ — الدروس الجماعية :

واستخدمت الدروس الجماعية اليومية في الصين حيث كانت تدرس العقيدة الجديدة بواسطة قراءات ومحاضرات تتبعها أسئلة ليثبت كل فرد هضمه للدراسات التي يتلقاها ، على أن يتبع هذا بمناقشات يطلب فيها من كل فرد أن يوضح كيف يستنبط الاهداف من مقدمات الدراسات الشيوعية ، وكيف يمكنه تطبيقها هو بالنسبة لنفسه • ويعتبر النقد المتبادل ونقد النفس جزءا هاما من المناقشات التي تجرى بين أفراد الجماعة •

وفى هذه الجلسات يمارس موظفو السجن والزملاء فى زنزانات السجن ضغطا مستمرا على السجين لجعله يعيد تقييم ماضيه من وجهة النظر الشيوعية ليتحقق من اثمه ويعترف بجريمته ٠

وتعرف الجرائم فى هذه العملية بانها « افعال » او « أفكار » تضر بصورة أو بأخرى بقضية الشيوعية ، كما يتضمن الاعتراف حوادث واقعية فعلا ، ويجب أن يوضح الفرد الاخلاص والوفاء وذلك بالتشهير : بالوالدين ، والاصدقاء ، والاقارب ، والمعارف ٠

وعندما يدرك السجين جرمه واثمه اى عندما يتقبل التفسير الشيوعى لاعماله ويقوم باعتراف مرضى مقبول ويثبت ما يوضح تغيير اتجاهه وتبدل وجهة نظره ، يقدم للمحاكمة فيحكم عليه بعد ادانته بما اعترف به من جرم ، ثم يحكم عليه بجزاء لين نتيجة أنه قد تم تقويمه ، ويستغرق هذا من نصف سنة الى أربع سنوات أو أكثر ٠

* * *

وبرغم ما كتب من الكثير عن عملية « غسيل المخ » ، ولا سيما فى الدول الغربية ، وبرغم اهتمام الدول والصحافة الغربية بهذا الموضوع مستندين الى ما جاء به أسرى الحرب فى كوريا وأولئك الذين تعرضوا لتجارب التوجيه سواء من المدنيين الغربيين أو المثقفين الصينيين أثناء وجودهم بالصين ، وكذا المعلومات التى توافرت لديهم عن حملة التطهير الستالينى التى قامت فى الاتحاد السوفييتى قبل الحرب العالمية الثانية بفترة وجيزة ، فان المعلومات التى تجمعت لدينا حتى الآن هى فى الغالب مثيرة للعواطف فى طابعها ، كما أنها ينقصها التأكيد والوضوح لعدم كفايتها ، أو قد تبدو قاتمة مبهمة نتيجة ما يبدو من الانفعالات القوية التى تثيرها عملية غسيل المخ عند كل فرد ٠

والواقع أن حالة الخوف والغموض كانت باعثة على الجدل عند الباحثين أكثر من أن تؤدى الى تفهم العملية نفسها ٠

ولذا فاننا لكى نحاول أن ننظر الى تلك العملية نظرة خالصة وعادلة يجب علينا أن نجيب عن عدة أسئلة هامة قد تنير الطريق امامنا للوصول الى الجذور الاساسية لعملية معركة العقل وغسيل المخ ٠

هذه الأسئلة هى :

ـ هل يمكن اجبار الفرد على ان يغير مذهبه او عقيدته ، واذا حدث ذلك فالى أى مدى يمكن أن يستمر ؟

ـ ما علاقة غسيل المخ بالتحول الدينى ، والسياسى ، والاجتماعى ؟

ـ ما طبيعة التحول ، أو بمعنى آخر ما النواحى السيكولوجية وراء تحول الفرد ؟

ـ ما علاقة هذه العملية بغيرها من الحركات الجماعية بناءة كانت أو هدامة ؟

ـ هل هناك علاقة بين الاعترافات والاستنطاقات التى تتبع فى هذه العملية ، وبين غيرها مما يتبع فى المجتمع الانسانى منذ خلقه ؟

ـ هل يصدق الفرد الذى يستجوب اعترافاته التى ادلى بها حتى ولو كانت زائفة غير صحيحة ؟

ـ هل لهذه العملية صلة بالتنويم المغناطيسى ، والعلاج النفسى ، واستخدام العقاقير ، وعلاج طب الامراض العقلية ؟

ـ ما مدى العلاقة بين الاساليب الميتافيزيقية والسيكولوجية ، وعملية غسيل المخ ؟

ـ الى اى مدى كان للأيديولوجيات المختلفة اثر على الصراعات التى قامت بين الناس ؟

- الى أى مدى تنجح عمليــة تقـويم الفــكر واعــادة التشــكيل الايديولوجى ؟

- هل يمكن أن تحدث تحولات داخل عقيدة أو مذهب واحد ، وما آثار هذه التحولات عليها ؟

- الى أى مدى كانت تجارب بافلوف على الانســان والحيوان لها أثر على توجيه هذه العملية ؟

- كيف نستطيع أن ندرك ما يماثل هذه العملية فى مجتمعنا وفى ثقافتنا الخاصة ؟

- هل نستطيع ان نقاوم هذه العملية أو ما يماثلها ، وما واجب كل فرد منا ازاء ذلك ؟

هذه الأسئلة سنحاول ان نجيب عنها فى فصول هذا الجزء ، وان كان من العسير أن ندخل فى بعض التفاصيل ، على أننا يجب ان نذكر هنا ان جميع المعارك التى واجهها الانسان ضد عقله ونفسه تحت ظروف خارجه عن ارادته ما هى الا نوع من عمليات « غسيل المخ » على نحو من الايحاء .

الفصل الثالث

تجارب على سلوك الانسان والحيوان

في احد الايام بعد جهد مضني ولسنين طويلة في حياة شاقة ، استدعى بافلوف الى الكرملين لمقابلة لينين كرئيس دولة ، واستقبل استقبالا حافلا ، وطلب منه لينين فورا أن يشرح له بالتفصيل نتيجة اعماله • وقد ذكر له في اثناء الحديث انه لم يكن شغوفا بابحاثه الاولى على الجهاز الهضمي ، ولا بدراساته عن الدورة الدموية ، ولكن ما يهتم به هو تجاربه على الكلاب !

واستضاف لينين بافلوف في الكرملين ووفر له كل اسباب الراحة الممكنة ، وطلب منه أن يكتبملخصا وافيا عن كل اعماله المتصلة بالكلاب وسائر الحيوانات الأخرى ، ولكن من ناحية امكان تطبيقها على الآدميين ، وطلب منه أن يكون دقيقا في التفاصيل فيما يختص بالابحاث المتصلة بالجنس البشرى •

وكان بافلوف في حديثه مع لينين يؤكد أن ما توصل اليه عن الافعال الشرطية والامتناع الوقائي Protective Inhibition نتيجة تجاربه على الحيوانات سوف تكون نعمة للبشرية في يوم ما في كفاحها ضد الآلام الانسانية •

وبعد ثلاثة شهور في عمل متواصل أتم فيها بافلوف كتابة حوالى اربعمائة صفحة بخطه ، قابل لينين وكان قد قرا هذه الابحاث بعناية ، وقال له بحماس كبير : « لقد انقذت الثورة ، وان ما قمت باكتشافه ليضمن مستقبل الشيوعية الدولية » •

لقد كانت تجارب بافلوف على الانسان والحيوان الركيزة التى اقام عليها الشيوعيون عملية تطويع الارادة الحرة وتسخيرها لارادة الحزب والثورة • ومع أن الاقدمين استخدموا وسائل ميتافيزيقية وسيكولوجية للسيطرة على عقول الناس لتحويل معتقداتهم ، فان الجديد فى نظرية بافلوف أنها تعتمد على الوسائل الفسيولوجية أكثر من غيرها •

كان بافلوف عالما روسيا من علماء النظام القيصرى ، ولما جاءت الثورة آمن لينين بقيمة أعماله ايمانا كبيرا جعله يتبناها ويشجعها بالرغم من ان بافلوف كان شديد النقد لنظام الحكم السوفييتى ، ولم يتقبل الحياة فى ظل النظام الجديد الا فى أخريات أيامه ، وبرغم ذلك فقد اعتبره السوفييت بطلا من ابطال الثورة •

وعلى الرغم من أن تجـارب بافلوف على الكلاب كانت تعتمد على تعريض الحيوان لتوترات مؤلمة من أجل البحث العلمى ، فانه لم يكن ساديا يستمد اللذة من ايلام الغير • لقـد كان اهتمامه بالقضـاء على الانهيارات العصبية فى الكلاب مماثلا لخلقها •

وعموما فان أعمال بافلوف تمت بمنتهى الدقة والعناية ، وكان لها فضل كبير على طب الامراض العقلية ، وان تكن هوجمت من كثير من علماء الغرب ونظر اليها من زاوية دورها السياسى على أساس أنها استخدمت فى عمليات التبشير المذهبى •

على أننا فى دراستنا لتجارب بافلوف وتطبيقاتها على السلوك الانسانى لن نتعرض لها بالتفصيل من ناحية ميدان طب الامراض العقلية فهناك من هم أكثر دراية منا بذلك ــ فضلا عن أنها ليست موضوع بحثنا ــ ولكننا سنحاول ان نوضح للقارىء فى يسر العامل الفسيولوجى فى هذه التجارب، وكيف كانت نتائج التجارب على الكلاب أساس ما طبق على الانسان فى عمليات التبشير المذهبى •

ولقد سبق أن أشرنا الى أن المرحلة الحاسمة من أبحاث بافلوف على الانسان والحيوان انتهت باثبات نظرية « الفعل الشرطى المنعكس » كذلك نذكر أنه توصل الى أنه بتغيير بيئة الانسان يمكن تغيير طبيعته الذاتية •

* * *

والآن لناخذ في دراسة نتيجة ابحاثه على الحيوان بتفصيل أكثر ، ونقارن بين هذه التجارب ومدى صلاحيتها للتطبيق على السلوك الانساني •

تعني كلمة « شرطي » في تجارب بافلوف القيام بسلوك معين نتيجة لمؤثرات خارجية مثل : سيل اللعاب عند رؤية الطعام ، أو ظهور أي اشارة مقترنة به كرنين جرس ، أو ظهور اشارة ضوئية أو صدمة كهربية • اما الفعل غير الشرطي فهو عبارة عن الاثر الغريزي على نحو ما يحدث عندما ترف العين لا اراديا بسبب اصطدامها بجسم غريب ، او حينما يتبول الانسان اذا ما شعر أن مثانته قد امتلأت وتحتاج الى التفريغ •

ومن ناحية اخرى قد يتسبب الانسان في احداث فعل شرطي منعكس عمدا وذلك بمحاولة خلق تغيير أساسي في الطبيعة البشرية لتسلك سلوكا جديدا بعيدا كل البعد عما اعتادته من قبل •

وعلى هذا الاساس جرت تجارب بافلوف على الكلاب ، وبعد ابحاث امتدت ثلاثين عاما اقتنع بان هناك اربعة أمزجة اساسية في كلابه تقترب كثيرا من مثيلاتها في الانسان • وبرغم انه ميز هذه الأنماط المزاجية الأساسية في كلابه بصفات واسماء معينة ، فهو في الواقع لم يات بجديد ، اذ سبق أن ورد ذكر هذه الانماط في مؤلفات الطبيب اليوناني القديم أبو قراط •

فالنوع الاول اطلق عليه بافلوف اسم « النمط الشديد الاثارة » Strong excitatory وهو يقابل ما سبق أن سماه أبو قراط « المزاج النارى » Choleric ، وقد وجد بافلوف ان هذا النوع من الكلاب اذا تعرض لمنبهات معينة فانه يتحول الى درجة كبيرة من الوحشية ، ويحدث له ردود فعل تجعله غير قابل للانقياد بالمرة •

اما النوع الثاني فقد سماه بافلوف « المزاج النشط » Lively وهو يقابل « المزاج الدموى » Sanguine في مؤلفات أبو قراط ، وهذا النوع من الكلاب يتصف بمزاج أكثر اتزانا من غيره ، ولذا فانه عندما كان يتعرض لمؤثرات خارجية

وتفرض عليه منبهات مشابهة للنوع الاول ، فانه غالبا ما يخضع للسيطرة ، برغم أنه في بعض الاحيان كان يعمد الى أن يسلك سلوكا عدوانيا ٠

أما النوعان الآخران من كلابه فقد أطلق بافلوف عليهما « المزاج الوديع » Imperturable « والمزاج الضعيف المكبوت » Weak inhibitory وهما يقابلان عند أبو قراط « المزاج الهادى أو المائى » Phlegmatic « والمزاج الحزين » Malancholic ٠ وقد وجد بافلوف أن هذين النوعين من كلابه كانا يقابلان المنبهات ومواقف الصدام اما بسلبية زائدة ، واما بكبت بدلا من مقابلتها بردود فعل عدوانية كالنوعين السابقين ٠ كما اكتشف ان كلبا من النوع الضعيف المكبوت كان يميل دائما لمواجهة الأمور المثيرة بالسلبية وتفادى المنبه ، لأن اى ضغط كان يعرض على جهازه العصبى كان يسبب له فقد توازنه وتوقف وظائف مخه . ولذا كان هذا النوع من كلابه يعتبر استثناء من قاعدة تجاربه ، لأن الأنماط الثلاثة الأخرى حينما كانت تتعرض لضغط آكثر مما تسببه الوسائل العادية فانها كانت تنتهى الى حالة من حالات « توقف وظائف المخ » Brain Inhibition وقد اعتبر ذلك نتيجة وقائية يلجأ اليها المخ عادة كملاذ اخير اذا ما فاق الضغط قدرته على الاحتمال ٠

وكان بافلوف ــ بعد تمييزه للأمزجة المختلفة ــ يولى اهتماما متزايدا فى تصنيف كلابه طبقا لأمزجتها الموروثة قبل ان يعرضها لأى تجربة من تجارب التكيف ، ذلك لأن الكلاب حينما كانت تتعرض لتوترات تجريبية أو مواقف صدام متشابهة فان ردود الفعل والاستجابات التى كانت تحدث لها تختلف من كلب لآخر حسب اختلاف أمزجتها ، كما كان علاج كل كلب من الانهيار يتوقف أولا على نوعه الوراثى ٠ فمثلا أثبت بافلوف أن « البروميد » يساعد كثيرا فى استرجاع الاستقرار العصبى للكلاب التى أصيبت بالانهيار ، ولكن الجرعة من البروميد التى يحتاج اليها كلب من النوع الشديد الاستثارة تبلغ من خمسة أضعاف الى ثمانية ما يحتاج اليه كلب من النوع الضعيف المكبوت ، والذى يبلغ وزنه نفس وزن الآخر تماما ٠

* * *

وفى الحرب العالمية الثانية ثبتت هذه القاعدة بالنسبة للآدميين الذين أصيبوا بانهيار عصبى مؤقت نتيجة المعارك ، أو بسبب التوتر الناجم عن الغارات الجوية ، وقد اختلفت الجرعات التى اعطيت لهم اختلافا كبيرا طبقا لأنماطهم المزاجية ·

ويقول وليم سارجنت فى ذلك (١) : « لقد وجد دليل اضافى على صلاحية اكتشافات بافلوف عن الكلاب فى تطبيقها على المشكلات السيكولوجية للانسان ، اذ استجاب مرضانا للعلاج استجابة كاملة · لقد وجد بافلوف أن المهدىء الشديد الأثر قيم للغاية فى مساعدة الكلاب التى أصيبت بالانهيار العصبى نتيجة التوترات التى تعرضت لها ، وتفاوتت جرعات المهدئات التى اعطيت للكلاب تبعا لأمزجتها الأربعة الرئيسية ، وقد احتاج الأمر الى جرعات متفاوتة للكلب الشديد الاستثارة والكلب الضعيف الذى يساويه فى الوزن · ووجدنا نفس الشىء فى المرضى الذين أعطوا مهدئا من مهدئات الطوارىء فى خط الجبهة الأمامية حينما كانوا يصابون بالانهيار من التوتر الناشىء عن قصف القنابل ، وقد أمكن تصنيفهم فى نفس الفئات ، وظهر ان كمية المهدىء التى يحتاجون اليها تتفاوت تفاوتا كبيرا ·

« ولقد لوحظ قيمة مهدىء الطوارىء الذى يعطى فى خط القتال الأمامى فى منع النورستانيا الحادة من التحول الى حالة مزمنة وذلك فى مرحلة مبكرة من الحرب ، الا أن الحاجة الى جرعات مختلفة لم تنل التقدير بصفة عامة حتى ذلك الوقت ، فقد وضعت جرعات متساوية فى أغلب المراكز لكل أنواع الاشخاص الذين يصابون بالانهيار العصبى نتيجة المعارك الجوية ، ولكن بمجرد ان اصبحت اكتشافات بافلوف معروفة ، وبعد أن اعدنا تقدير هذه النقطة قررنا أن الجهاز العصبى للانسان يستجيب للتوترات الشديدة بنفس الطريقة التى تستجيب بها الكلاب » ·

« والحقيقة انه ظهرت كل الحالات التى اثبتها بافلوف على كلابه فى الانسان خلال الحرب العالمية الثانية ، كما ظهر بشكل واضح توقف وظائف المخ عندما كانت تنهار الحالة انهيارا عصبيا فى النهاية ، ففى عام ١٩٤٢ كشفت الحالات التى

---

(١) Battle for the mind William Sargant, Richard clay and Company Ltd, 1963.

عرضت فى احد مراكز الأمراض العصبية المخصصة للمرضى المدنيين والعسكريين بالقرب من لندن ان ١٤٤ حالة من كل ١٠٠٠ حالة كانت تعانى من فقدان مؤقت للذاكرة ، وغالبــا ما كان ذلك رد فعل لتوقف وظائف المخ نتيجة التوترات الشديدة التى لا يستطيع مواجهتها » ٠

* * *

ولقد أدرك بافلوف تماما فى تحديده للانماط السلوكية الاساسية لكلابه الأهمية الكبيرة للبيئة ، وكذا التكوين الفسيولوجى والعوامل البيولوجية ، كما وجد ان بعض الغرائز الأساسية المعينة مثل غريزة الجنس ، او الحاجة الى الطعام كانت تتعدل باستمرار لتساير التغييرات التى تحدث فى البيئة ٠

وحينما كان بافلوف يحاول فى أواخر أيامه أن يطبق نتيجة تجاربه فى كلابه تطبيقا تجريبيا على فسيولوجيا الانسان ، اهتم اهتماما متزايدا بما كان يحدث حينما يصاب الجهاز العصبى العالى لكلابه بتوتر يفوق حدود ردود الفعل العادية ، وقارن تلك النتائج بالتقارير الاكلينيكية الخاصة بالحالات المختلفة من حالات الانهيارات العصبية المزمنة فى الانســان ، واكتشف أن التوترات الأشد التى تطول مدتها يمكن تطبيقها على الكلاب العادية من ذوات الطراز النشط أو الوديع دون أن تسبب لها انهيارا عصبيا بعكس الانواع الشديدة الاستثارة أو المكبوتة الضعيفة ٠

* * *

ولقد اكتشف فى احدى تجاربه طريقة لاختبار درجة توقف وظائف المخ وردود الفعل فى أى كلب وفى أى وقت من الاوقات باستخدام طريقة الافعال الشرطية المنعكسة للغدة اللعابية ٠

ويصف لنا ادوارد هنتر احدى هذه التجارب التى كان قد شاهدها فى فيلم تعليمى بقوله : « والفكرة الرئيسية ظهرت فى منظر يستعرض كلبا مربوطا

فوق منضدة تشبه منضدة العمليات ، وفى حجرة مليئة بالأجهزة الآلية والعدادات الغريبة ، وكان الأمر الذى جذب انتباهى مباشرة عبارة عن اناء زجاجى ادخل فى جانب الفك الأسفل للكلب ، وكان المفروض ألا يسبب هذا أى ألم ، وقد بدا أنه لا يضايق الكلب فعلا • وانشغل الأطباء الذين لا يعرفون الابتسامة بالتجربة ، فامسك احدهم بصمام فى نهاية أنبوبة من المطاط وعن طريق العصر حرك ضغط الهواء صينية مستديرة عليها اناء به طعام يستطيع الكلب المربوط ان يصل اليها ، وبمجرد أن حدث ذلك ومض نور فنظر الكلب نظرة جوع الى الطعام الذى يقترب منه ، وبدأ لعابه يتساقط فى أنبوبة الاختبار المتصلة بفكه فقاموا بعد قطرات اللعاب وسجلوها فى جدول بيانى •

ولم يعرف الكلب فى البداية اى انتباه للضوء ، واحيانا كانت تحضر المنضدة المتحركة بآنية فارغة الى فم الكلب ، ولكن كلما حدث ذلك كانت لا تضاء الأنوار فلا ينســاب اللعاب • واستمرت التجربة بطريقة روتينية أى عندما كانت تضاء الأنوار يظهر الطعام ويفرز اللعاب ، وحينما لا تضاء الأنوار يمتنع افراز اللعاب •

وبعد مدة لم يعر الكلب الا القليل من الانتباه للاناء ، فقد ربط بين الضوء والطعــام ، وكان الضوء علامة كافية تعودها الكلب • على أن النقطة الهــامة فى التجربة كانت قد وصلت حينئذ ، اذ ضغط طبيب فى لباس أبيض على زر فظهر النور ولــكن لم تات المنضدة المستديرة بطعام ومع ذلك انساب لعــاب الكلب كالمعتاد ، لأن الضوء حل محل الطعام فى ذهن الكلب •

وبهذه الطريقة أمكن بافلوف خلق فعل شرطى منعكس فى المخ بين لحظة الاشارة ولحظة تقديم الطعام ، كما امكن قياس كمية اللعاب بدقة بواسطة عدد قطراتها وتسجيل أى تغييرات فى ردود الفعل للافعال الشرطية المنعكسة ، وكذا الأنماط السلوكية المفروضة •

على أن تأكيد التوافق بين تجارب بافلوف على الافعال الشرطية المنعكسة وسلوك الانسان اليومى شرحها وليم سارجنت فى كتابه «Battle for the mind»

بقوله : « ان الكثير من السلوك الانسانى ما هو الا نتيجة للانماط السلوكية المشروطة فى المخ ولا سيما فى أثناء الطفولة • وقد تستمر هذه الانماط دون أى تعديل يذكر ، ولكن غالبا ما ينالها بعض التعديل تدريجيا بسبب التغييرات التى تحدث فى البيئة • ولكن كلما تقدم عمر الانسان استعصى عليه أحداث ردود فعل جديدة تتفق مع هذه التغييرات ، فالاتجاه حينئذ عادة ما ينمو لجعل البيئة تناسبه أو يناسبها من ناحية ردود الافعال التى تزداد قدرته على التنبؤ بها • ان جزءا كبيرا من حياتنا الانسانية كذلك ليس الا عبارة عن السير دون وعى وراء أنماط من الافعال الشرطية المنعكسة التى سبق اكتسابها عن طريق الدراسة المستفيضة، ومثل واضح لذلك ما يحدث لسائق السيارة من ردود فعل مختلفة قبل أن يستطيع قيادة سيارته فى شارع مزدحم من شوارع المدينة دون أن يلقى انتباها شعوريا للعملية • والاسم الذى يطلق على ذلك هو « القيادة الآلية » فاذا ما خرج السائق الى الريف المنبسط الفسيح فانه يتحول الى نمط جديد من انماط السلوك الآلى • فالعقل البشرى فى الواقع يكيف نفسه دائما وآليا طبقا للتغيير فى البيئة على الرغم من أن الدروس الأولى ـ كما هو الحال فى قيادة السيارة ـ قد تتطلب جهودا صعبة ومملة فى التركيز على القيادة •

وتضطر العقول البشرية وعقول الكلاب الى بناء سلسلة من ردود فعل سلبية وايجابية وأنماط سلوكية • ان اغلب رجال الأعمال والقوات المسلحة يتعلمون كيف يسلكون سلوكا سلبيا أو ايجابيا أمام رؤسائهم ، وقد يصل الحد الى السلوك الهجومى فى حضور مرءوسيهم • ولقد بين بافلوف أن الجهاز العصبى فى الكلاب ينمى قدرات خارقة للعادة فى بناء هذه الاستجابات السلبية والايجابية ، كما بين أنه من الممكن جعل الكلب يفرز اللعاب حينما يرتفع صوت نغمة لها خمسمائة ذبذبة فى الدقيقة ، اذا كانت هذه عبارة عن اشارة من اشارات الطعام ، فاذا نقص المعدل الى اربعمائة وتسعين فقط ؛ فان الكلب لا يمكنه ان يتوقع طعاما ومن ثم فانه لا يفرز لعابا » •

وبرغم أنه قد يكون غير صحيح تماما أن نقارن بين سلوك الانسان والحيوان لأن للانسان عقلا وذكاء أكبر وأكثر نموا من الحيوان ، فان تجارب بافلوف على

الكلاب اثبتت انه يمكن تطبيقها تماما في بعض المشكلات المعينة من مشكلات السلوك الانساني بحيث تصبح تلك الملاحظة في كثير من الأحيان غير ذات موضوع •

فلقد هيا سلوك الانسان عندما تعرض في أثناء الحرب العالميـة الثانية لتوترات وضغوط معينة فرصـا هائلة لوضع نتائج بافلوف التي تثبت هـذا التشابه موضع الاختبار •

فمثلا ادخل في شهر يونيو سنة ١٩٤٤ الكثير من المرضى المصابين بصدمات عصبية نتيجة انفجار القنابل مستشفيات الطوارىء في انجلترا ، وكان هؤلاء المرضى اما من العسكريين الذين اخلوا من مناطق القتال في نورماندى ، واما من مدينة لندن المحترقة •

ولقد ظهرت على البعض الأعراض العادية للقلق والاكتئاب التي تظهر في حالات الأمراض العقلية أيام السلم ، كما ظهر على آخرين أعراض أعياء عادية مصحوبة بنقص ملحوظ في الوزن ، وفي كثـير من الحـالات الأخرى لوحظ ان المرضى يظهر عليهم اهتزازات وتقلصات مفاجئة غير متوافقة ولكنها منتظمة ، وقد تزداد حدة بضعف القدرة على الكلام ، أو بالتهتهـة ، أو بانفجـار مفاجىء في الحديث • ولقد برزت بوضوح في مقارنة سلوك هذه الحالات بسلوك الكلاب في تجارب بافلوف ـ عندما تتعرض لتوترات تجريبية ـ القيمة الكبرى للأفعال الشرطية المنعكسة في علاج كثير من حالات طب الأمراض العقلية •

ونشر روى سوانك وزملاءه منذ عام ١٩٤٥ سلسلة من البحوث مستندة الى دراستهم على حوالى خمسة آلاف من جرحى المعارك في حملة نورماندى ، وكان اغلبهم من الامريكيين ، وتشير اكتشافاتهم المفصلة الى الأثر الهائل للخوف من الموت والتعرض للتوتر الدائم على زيادة الاعياء في أثناء القتال • كمـا يؤكد سوانك أن رد الفعل الاول للقتال هو الخوف ، ولكن الجزء الأكبر من الرجـال استطاعوا السيطرة على مخاوفهم الى حد بعيد ، واكتسبوا معرفة بالقتال وأصبحوا واثقين من أنفسهم ومن قدرتهم على خوض المعارك •

ولم يحدث الا بعد فترة من القتال الفعال ، والصراع الشديد الذى اختلفت درجته من رجل لآخر ، أن ظهر أول دليل من أدلة الاعياء من القتال • ويقول سوانك فى مقارنته عن توقف وظائف المخ عند الكلاب فى تجارب بافلوف بما لاحظه فى حالات الحرب : » ظهر على الرجال حالة من حالات الاجهاد الشديد لم يستطيعوا التخلص منها الا بعد أيام عديدة من الراحة • لقد فقدوا قدرتهم على تمييز الأصوات المختلفة من أصوات القتال ، وأصبحوا عاجزين عن تمييز أصوات مدفعية الأصدقاء من مدفعية الأعداء ، وأصبح من الصعب السيطرة على أى اثارة أو توترات يتعرضون لها • ولذا صار من السهل تخويفهم واشاعة الاضطرابات فيهم ، فقد فقدوا ثقتهم فى أنفسهم ، وازداد توترهم بحيث أصبح من السهل تقبلهم لأى إثارة • وغالبا ما كانت ترتعد فرائصهم ، ويستجيبون أكثر مما يجب لجميع عوامل الاثارة » •

* * *

على ان اكتشافا من أهم اكتشافات بافلوف يهمنا فى هذا البحث وهو ما اطلق عليه « الصراع فى النشاط العصبى العالى » Rapture in higher nervous activity ، وقد وصل هذا الاكتشاف عن طريق مراقبة ما يحدث للأنماط السلوكية الشرطية فى الكلاب حينما يستثار مخ كلب بواسطة توترات أو صراعات تزيد على قدرته على الاستجابة العادية • ولقد استخدم فى تجاربه هذه أربعة أنواع رئيسية من التوترات التى كان يفرضها على كلابه •

كان أولها ببساطة زيادة شدة الاشارة التى اعتادها الكلب وكيف بها نفسه ، فاذا كان التيار الكهربى المسلط على رجله اشارة من اشارات تنادى الطعام فانه يزيد ضغط التيار تدريجيا ، حتى تصبح الصدمة الكهربية أقوى مما يتحمله جهازه العصبى ويبدأ الكلب فى التهاوى والانهيار •

اما الوسيلة الثانية فكانت عبارة عن محاولة لزيادة الوقت بين لحظة اعطاء الاشارة ولحظة وصول الطعام • فاذا كان الكلب قد تعود مثلا ان يتلقى الطعام بعد اعطاء اشارة الانذار بخمس ثوان ، فان بافلوف كان يقوم حينئذ باطالة هذه الفترة بشكل ملحوظ ، وفى الحال يكون القلق والسلوك الشاذ من جانب الكلاب

الأقل استقرارا ، وهذا يحدث أيضا فى الانسان بعد فترات الانتظار الطويلة المصحوبة بالقلق انتظارا لحدوث شيء ما ، وهذه الفترة قد تكون أشد قسوة لديه من حدوث الأمر نفسه فى النهاية •

أما الوسيلة الثالثة التى استخدمها بافلوف لاحداث الانهيار العصبى ، فكانت مزيجا من عدة وسائل مختلفة ، وذلك باستخدام وسائل شاذة فى اشارات التكيف التى تعطى للكلب ، فمثلا كانت تعطى اشارات سلبية وايجابية مستمرة ومتتالية بحيث يصبح الكلب الجائع غير متأكد مما سوف يحدث له بعد ذلك ، ولا يدرى شيئا عن الكيفية التى سيواجه بها تلك الظروف أو المواقف المضطربة ، ومن شأن ذلك أن يبلبل استقراره العصبى العادى كما يحدث للانسان تماما •

أما فى الوسيلة الرابعة فقد عمد بافلوف لاحداث الانهيار عن طريق تعريض جسم الكلب للاجهاد العنيف المتواصل ، أو لبعض الاضطرابات المعوية ، أو الاخلال بوظائف غدده •

وعلى الرغم من عدم نجاح الوسائل الثلاث الأخرى التى سبق ذكرها فى احداث انهيار عصبى فى كلب معين فانه من الممكن التحكم فيه فيما بعد باستخدام نفس النوع من التوترات بعد ازالة غدده الجنسية ، أو احداث اضطرابات معوية له •

ولقد أثبت بافلوف أن قدرة كلب على مقاومة التوتر الشديد تتذبذب تبعا لحالة جهازه العصبى وصحته بصفة عامة، ولكن بمجرد أن يحدث لمخه «توقف كامل» Transmarginal Inhibition فان تغيرات غريبة للغاية تحدث فى وظائف مخ الكلب •

* * *

ولقد ميز بافلوف فى أثناء تجاربه ثلاث مراحل اضطرارية للتغييرات التى تحدث فى هذه العملية ، فأطلق على الأولى « المرحلة المتعادلة » Equivalent لنشاط اللحاء الخارجى للمخ Cortical ، وهذه المرحلة يعطى فيها المخ نفس الاستجابة لكل من المثيرات القوية والضعيفة •

واذا ما تعرض المخ لتوترات عصبية أشد ، تلى المرحلة المتعادلة مرحلة أخرى تسمى « مرحلة التناقض » Paradoxical حيث تحدث فيها المثيرات الضعيفة استجابات أكثر حيوية من تلك التى تحدثها المثيرات الأكثر شدة ، وفى هذه المرحلة يرفض الكلب الطعام المصحوب بمثير قوى ، ولكنه يتقبله اذا كان المثير على درجة كافية من الضعف . هذه المرحلة المتناقضة يمكن أن تحدث كذلك فى السلوك الانسانى عندما يكون التوتر الانفعالى شديدا ، وفى مثل هذه الظروف نجد أن سلوك الفرد العادى يبدو غير معقول لا بالنسبة لمراقب يراقبه عن بعد بل كذلك بالنسبة للفرد نفسه .

وفى المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل التوقف التى سماها بافلوف « المرحلة الشديدة التناقض » Ultra Paradoxical تتحول الاستجابات الايجابية الشرطية فجأة الى استجابات سلبية ، والسلبية منها الى ايجابية . فمثلا قد يلتصق الكلب فى هذه المرحلة بخادم من خدم المعمل كان يكن له الكراهية قبل ذلك ، أو يحاول أن يهجم على سيده الذى كان يكن له الحب ، ويصبح سلوك الكلب فى الواقع متناقضا مع جميع حالات سلوكه السابقة .

* * *

والواقع أن الجهاز العصبى للانسان مثل الجهاز العصبى للكلب يكون فى حالة من الاتزان الديناميكى بين الاثارة والتوقف الوقائى ، ولكنه اذا تعرض لاستثارة شديدة فانه يصل الى نفس الحالات من الاثارة الشديدة أو التوقف الكامل التى وصفها بافلوف ، فيصبح المخ حينئذ عاجزا مؤقتا عن تأدية وظائفه العادية .

ولقد ذكرت أمثلة عدة لهذه الظاهرة فى كثير من المجلات الطبية ، فقد اندفع مثلا جنود الخطوط الأمامية العاديون بعد تعرضهم لحالة من حالات الاستثارة الشديدة ، وأخذوا يجرون عبر الأرض الحرام دون مبرر ، وأخذوا يندفعون اندفاعا انتحاريا لا جدوى منه فى مدى نيران المدافع الرشاشة ، وقد قيل عن أحد الرجال عام ١٩٤٥ : أنه تقدم مرتين تحت النيران ليساعد زميلا نسف ساقه ، ولكنه كان فى كل مرة يبدو مكبوتا للغاية عند وصوله بدرجة تجعله عاجزا عن

تقديم الاسعافات ، ثم تتغلب عليه حالة من حالات الاثارة الشـــديدة المفاجئة فينطح الشجرة برأسه مرارا ، ويندفع فى وحشية طالبا عربة اسعاف ، وعندما وصلت عربة الاسعاف فى النهاية أسرع هو فى الدخول اليها بكل قوة ٠ وحاول جندى آخر بعد مصرع زميل له مهاجمة دبابة بيده ، وقد تطلب الأمر أن يمنعه زملاءه وأن يرسلوه الى مركز من مراكز علاج الامراض العقلية ٠

ويبـــدو كذلك أن حالة « الامتنـــاع الوقائى » Protective inhibition التى لاحظها بافلوف على كلابه وهى تحت وطأة التوتر الحاد ظهرت فى جرحى الحرب ، وكانت تتملكهم حالة من الاستسلام الهادىء ، أو يصابون بفقد الذاكرة ، أو بعجز يقعدهم عن استعمال أطرافهم ، أو بنوبات من الغيبوبة ٠٠ الخ ٠ كما شوهد آخرون فى حالة شلل فعلى نتيجة الخوف وتعرض غيرهم للاعياء العصبى Nervous exhaustion ، وعادة يكون هؤلاء من الرجال الذين يتمتعون بشخصية مستقرة ولكنهم حرموا الطعام والنوم لفترات طويلة بالاضـافة الى التـوترات العقلية الأخرى ٠

وقد وصف ادوارد سبيرز ذلك فى أثناء الحرب العالمية الثانية بقوله : « لقد كان ذلك من الاوقات السيئة للغـاية عندما انهـار خندق وهو ممتلىء بالقتـلى والجرحى نتيجة قصفه بالقنابل ، وحينما أخـذ الرجال يحفرون فى غضب بالغ لاخراج صديق وسحبوه الى الخارج توقفوا بعـد ذلك عن الحفر ففى مثل هـذه الحالات يستولى على الجنود حالة من حالات الاستسلام ، ويجب على الضابط ان يقضى عليها فورا اذا ما لاحظها بين جنوده » ٠

* * *

ولقد تضمنت التقارير الاكلينيكية لحالات الحرب تغييرات مفاجئة كتلك التى كانت تحدث فى كلاب بافلوف من اثارة الى توقف أو العكس ، فلقد استلقى رجل مثلا فى خندق وهو يرتعد ، وقد سبب له الخوف شبه شلل عندما صدرت الأوامر لفرقته بالهجوم ، ولكن بمجرد أن عيره ضابطه بقوله : « من المؤكد ان تظهر أى فتاة بمظهر أفضل من مظهرك هذا » انتابته فجأة ثورة محمومة وصاح « هيا يا رجال » وقفز من الخندق ليقوم بالهجوم ثم انتابته غيبوبة ٠ وفى حالة

أخرى سقط رجل آخر مشلولا فاقد النطق فى أحد شوارع قرية تعرضت لوابل من قذائف المدافع ، ولكن كينما التقطه زملاءه أخذ فجأة فى الصياح والصراخ ٠

ولقد لوحظ كذلك أمثلة مذهلة للسلوك الانسانى فيما يتعلق بالمرحلة التى أطلق عليها بافلوف « المرحلة المتناقضة » ٠ ويصف سارجنت صورة من تلك الحالات التى شاهدها بقوله :

(لقد كنا فى حيرة قبل قراءتنا قصص تجارب بافلوف على الكلاب ، فلم نستطيع فهم حالة كالتى سأسردها ٠ لقد تعرض مريض كان يحظى بشخصية عادية لتوتر شديد للغاية نتيجة انفجارات متواصلة للقنابل ، وحينما طلب منه الطبيب رفع يديه ليرى ما اذا كانتا مصابين بالرعشة اطاع ٠ ولكنه وجد نفسه فجأة عاجزا عن انزالهما ثانية أثنـاء ملاحظة الطبيب ، وقد أقلق المريض ذلك وقال : أنه يحس أنه يستطيع انزالهما آليا اذا توقف عن محاولة فعل ذلك ٠ أو اذا فكر فى شىء آخر ٠

وقد زالت هذه الحالة بعد العلاج ، ولكن كان لدينا عدد كبير من المرضى الذين يعانون من الخوف الشديد ومن شلل الأطراف ٠ فكان كلما أجهد أحدهم نفسه فى محاولة تحريكها ازداد شللها ، ولكنه كما توقف عن قلقه وتفكيره فى صعوبة اجراء ذلك فانه يكتشف تحسن حالته » ٠

* * *

على أننا نستطيع أن نلاحظ تلك التغيرات المفاجئة التى تحدث فى المراحل المتناقضة والشديدة التناقض ـ والتى بينها بافلوف فى تجاربه على الكلاب ـ فى سلوك الانسان فى زمنى السلم والحرب على السواء ٠ فقد تظهر فجأة مشاعر الجبن فى بعض الناس الذين يتصفون بالسليقة بالسلوك العدوانى ، وقد يحس فجأة بعض أولئك الذين يستمتعون بأعظم قدر من متعة الحيـاة برغبة جامحة فى التخلص منهـا ، أو قد نشاهد انسانا يتحول فجـأة من سلوك سلبى الى عدوانى مفاجىء ٠

وفى تجارب بافلوف وجدنا أن الكلاب كان يحدث لها حالات من الانهيار العصبى نتيجة اطالة وطأة التوترات المفروضة ، وقد لوحظت نفس الظاهرة مرارا

فى المرضى الذين تعرضوا لتوترات تفوق تحمل المخ • ففى أثناء احتراق لندن فى الحرب العالمية الثانية بدأ المدنيون يشكون من أعراض النورستانيا ومن عجزهم عن فهم أسباب ظهور هذه الاضطرابات الشديدة نتيجة انفجار القنابل فى الوقت الذى ظلوا فيه غير عابئين بها لمدة أسابيع أو شهور ، وقد لوحظ فى كثير من هذه الحالات أن المرضى فقدوا ما يتراوح بين خمسة عشر وثلاثين رطلا من أوزانهم قبل أن تصبح حساسيتهم المتزايدة من انفجار القنابل ظاهرة وملحوظة •

وقد ينهار أكثر الأفراد استقرارا بعد فقد ثلاثين رطلا من وزنهم نتيجة النقص فى الاغذية ، أو عدم النوم ، أو نتيجة عوامل أخرى مشابهة كتلك التى يقابلها الجنود وقت الحرب ، وهذه نقطة هامة استغلت فى عمليات الاستجوابات والتبشير المذهبى كما سيجىء شرحها فيما بعد •

وتلقى اكتشافات بافلوف كذلك الضوء على ألوان مختلفة من السلوك الشاذ الذى يلاحظ فى صور عادية من صور مرضى الأعصاب أو الأمراض العقلية ، وقد نشر وليم جوردون مقالا هاما للغاية عام ١٩٤٨ أشار فيه الى أن المخ الناضج يبنى أنظمة للاستجابات السلبية والايجابية المشروطة تمكن الفرد من أن يكيف نفسه لبيئته وفى أغلب الظروف يؤسس سلوكه على خبرته السابقة وتتقرر سلامته العقلية على كفاءته فى هذا التكيف ، ففى حالات الاضطراب العقلى الحاد مثل الفصام العقلى(١) Schizophrenia يلاحظ انقلاب جزئى أو كلى فى التكيف السابق •

ويؤمن جوردون مثل بافلوف بأن الفصام العقلى ينتج من المرحلة الشديدة التناقض فى نشاط المخ ، ويشير الى أن المصابين بالفصام يوصفون غالبا بأنهم قد فقدوا كل اهتمام فى ملاذهم واهتماماتهم السابقة ، وسرعان ما يميلون فجأة الى سلوك مسلك انتحارى مناهض للمجتمع ، ويمكن تفسير هذا التغير أحيانا بأن المريض يستجيب ايجابيا حينئذ لتكيفه السلبى السابق ، ويتكيف سلبيا لتكيفه الايجابى السابق : أى أن حالته تنقلب رأسا على عقب •

---

(١) الفصام مرض عقلى خطير يتميز بالانسحاب من الواقع ، والعزلة ، مع اضطراب فى : التفكير ، والوجدان ، والسلوك ، وظهور اعتقادات خاطئة ، وينتهى فى كثير من الحالات بتدهور فى الشخصية •

ويصف سارجنت مدى الدمار الذى ينتج عن هذا الانقلاب المفاجىء للتكيف فى الاتجاه السلبي أو الايجابى فيقول :

« ان الكائن البشرى ينمى عادات الأكل ويكتسب فيها عددا من عوامل الاثارة منها : الشم ، والابصار ، والسمع ، والتذوق تكيفا ايجابيا قويا ، بينما تكتسب الأخرى تكيفا سلبيا مساويا ، فبعض الروائح مثلا قد تجعل فم الانسان يفرز اللعاب كما هى الحال فى كلاب بافلوف عندما تتوقع تقديم الطعام ، وتسبب الاخرى القرز وفقدانا مؤقتا للشهية ، ولكن المرضى بعقولهم يبدأون فجاة فى تناول الطعام بعد أن كانوا يتقززون منه سابقا ، ويرفضون أطعمة اخرى سبق لهم الاقبال عليها » ٠

* * *

ويمكننا الآن ان نلخص اكتشافات بافلوف فى النقاط الرئيسية الآتية حتى لا تغيب عن ذهن القـــارىء لمحاولة الربط بينها وبين عمليات التبشير السياسي والمذهبى التى ستجىء فى الفصول التالية :

١ ــ عند حدوث توترات معينة أو صدمات فان الكلاب تستجيب تماما مثل الانسان تبعا لاختلاف أمزجتها المختلفة الموروثة التى سبق ان أشرنا اليها ٠

٢ ــ لا تتوقف ردود فعل الانسان والكلب للتوترات العادية على كيسانه الموروث فقط ، بل كذلك على المؤثرات البيئية التى يتعرض لها ، وهذه المؤثرات تغير تفاصيل ســلوكه فقط ، ولكن لا تغير النمط السلوكى الأساسى ٠

٣ ــ تنهار الكلاب كالآدميين وذلك حينما تصبح التوترات أو الصدمات أكثر مما ينبغى أوبدرجة لاتستطيع أجهزتها العصبية السيطرة عليها.

٤ ــ يختلف مقدار التوتر الذى يستطيع الانســان أو الحيوان السيطرة عليه دون أن يصاب بالانهيار باختلاف حالته البدنية ، كما يمكن

تقليل المقاومة بوسائل أخرى مثل : الاجهاد ، والحمى ، والمخدرات ، والتغيير فى وظائف الغدد •

٥ ـ عندما يستثار الجهاز العصبى استثارة شاملة ، ويحدث له توقف كامل كعامل وقائى فاننا نستطيع أن نميز ثلاث مراحل مختلفة من التغييرات فى السلوك وهذه المراحل هى :

أ ـ المرحلة « المتعادلة » حيث يعطى فيها المخ نفس الاستجابات لكل من المثيرات القوية والضعيفة •

ب ـ مرحلة التناقض وهى التى يستجيب فيها المخ للمثير الضعيف بشكل أكثر ايجابية من المثير القوى •

جـ ـ مرحلة التناقض الشديد وهى التى تتحول فيها ردود الفعل الشرطيـة والأنماط السلوكية من الموجب الى السالب أو بالعكس •

* * *

ولقد نجح بافلوف فى تجارب متكررة فى اثبات أنه يمكن تكييف الكلب مثل الانسان على كراهية من كان يحبهم سابقا ، أو حب من كان يمقتهم قبل ذلك ، وهذا الاكتشاف ذو أهمية كبيرة فى عمليات التبشير المذهبى ، أو فى عمليات التحول الدينى •

وأخيرا فان هدف هذا الجزء ليس سرد تفاصيل لتجارب بافلوف ، كما أنه ليس الغرض منه دراسة للسلوك الانسانى ، اذ أن كلا الموضوعين واسع ومتشابك ، ولا يهمنا تفاصيله ، ولكننا آثرنا هذه الدراسة لأنها تتعلق بدرجة كبيرة بموضوع تغيير أفكار الناس ومعتقداتهم تغييرا شاملا ، كما أنها استخدمت فى حالات كثيرة من حالات استنطاق الاعترافات والتحويل الايديولوجى •

حقا أن بافلوف بدأ آخريات حياته يقارن نتائج الاضطرابات فى وظيفة المخ التى لاحظها فى حيواناته بتلك الاضطرابات التى تلاحظ فى الكائنات البشرية ،

ولكن هذه المرحلة لم تلق العناية الجديرة بها من ناحية دراستها خارج روسيا ، ولا يزال يهملهـــا عدد كبـير من علماء الأمراض العصبية فى كل من انجلترا والولايات المتحدة ٠

وبرغم أن بافلوف منح جائزة نوبل على أعماله ، فان أغلب علماء الامراض العصبية يفضلون أساسا أوسع مدى لعملهم من مجرد طريقتـه الفسيولوجية والآلية الميسرة ٠ كما أن العالم الغربى لا يزال ينظر الى ابحاث بافلوف نظرة مقت ، ويرون أن المعتقدات الثقافية تمنح الانسان بالاضافة الى مخه وجهـازه العصبى روحا عقلية مستقلة تساعد على التحكم فى سلوكه الاخلاقى ، وتصبغ عليه قيمته الروحية ٠

ومع ذلك فقد أصبح البحث فى الأمراض العصبية فى بريطانيا أكثر واقعية بكثير منذ الحرب العالمية الثانية لأن العقاقير ووسائل العلاج الفسيولوجى قد انتهت الى نتائج لا يمكن نكرانها فى علاج المصابين بأمراض عصبية حادة من المدنيين والعسكريين ، لدرجة أن الوسائل الفسيولوجية المعاونة لطب الامراض العصبية أخذت مكان الصدارة فى البحوث ، ولا تزال هذه السياسة مستمرة ٠

وفى الواقع كان استخدام العقاقير فى العلاج النفسى هو الذى حتم الدراسة الحالية لأساليب بافلوف التجريبية التى تستهدف تغيير الانماط السلوكية فى الحيـوان ، وكذا الأساليب المختلفة وراء الفنون التاريخية للتبشير السياسى ٠ والتحول الدينى ، وغسيل المخ ، وما شابه ذلك ٠

* * *

على أننا قبل أن ننتهى من هذا الفصل نود أن نشير الى حادث عرضى لكلاب بافلوف فى أثناء اجراء تجاربه عليها ، ففى عام ١٩٢٤ حدث فيضـان بمدينة لنينجراد وتصادف أن تعرضت الكلاب للوقوع فى فخ هذا الفيضان الذى تسرب تحت أبواب المعمل وارتفع تدريجيا ٠ وفى هذا الوقت كانت الكلاب داخل أقفاصها فأخذت تسبح فى فزع محاولة أن ترفع رءوسها الى قمة أقفاصها ، وشعر خادم من خدم المعمل بخطورة الموقف فاندفع فى اللحظة الأخيرة ودفع الكلاب الى أسفل خلال المياه ، وأخرجها من أبواب الاقفاص الى الأمان ٠

والحق ان هذا الحادث هو الذى كشف لبافلوف النقاب عن الكيفية التى يمكن بها محو ما علق بالمخ محوا تاما ولو مؤقتا من كل الأنماط السلوكية المشروطة التى غرست فيه حديثا • فقد جعلت هذه التجربة المفزعة بعض الكلاب يتحول من حالة الانفعال الحاد الى حالة من حالات التوقف الوقائى الكامل التى سبق ان أشرنا اليها •

وعندما أعاد بافلوف اختباراته على كلابه وجد أن الافعال الشرطية المنعكسة التى غرسها حديثا فى بعض كلابه تلاشت تماما فى هذه الكلاب ، الا أن الكلاب الاخرى التى واجهت نفس المحنة لم تتأثر تأثيرا مشابها ، بل استمرت بها الانماط السلوكية المغروسة •

وقد تتبع بافلوف هذه الظاهرة فى لهفة ، ووجد انه بالاضافة الى ما وصل اليه من امكانه احداث شذوذ فى انماط سلوك كلابه فى المراحل « المتعادلة » و « المتناقضة » و « الشديدة التناقض » التى سبق أن أشرنا اليها فان هناك درجة أخرى من « النشاط الامتناعى » Inhibitory activity تستطيع أن تقضى على جميع الأفعال الشرطية المنعكسة التى غرست حديثا ومؤقتا فى الكلاب . واستطاعت أغلب الكلاب التى وصلت الى هذه المرحلة من العودة الى أنماطها السلوكية القديمة بعد ذلك • وفى احدى التجارب سمح بافلوف ببعض المياه للتسرب تحت باب المعمل فكانت جميع الكلاب ولا سيما التى تلاشت منها أنماطها الحديثة شديدة الحساسية لهذا المنظر لدرجة أنه أصبح من السهل التأثير عليها بهذه الوسيلة مرة أخرى •

* * *

ومن ثم فان اكتشافات بافلوف التجريبية على الكلاب أبرزت الأثر الفسيولوجى والميكانيكى الذى يحدث فى الانسان فى عمليات التحول الدينى والسياسى •

ويقول سارجنت فى هذا المجال : « ان تطبيق اكتشافات بافلوف فى الكلاب على ميكانيكية أنواع عديدة من التحول الدينى والسياسى فى الكائنات البشرية

توحي بانه لكي يكون التحويل مؤثرا يجب أن تستثار انفعالات الشخص حتى يصل الى درجة شاذة من درجات : الغضب ، أو الخوف ، أو النشوة ، فاذا أمكن الاحتفاظ بهذه الحالة ، أو أمكن زيادة حدتها بوسيلة أو باخرى ، فقد ينتهي الأمر بالشخص الى حالة من حالات الهستيريا ، وحينئذ يصبح الانسان أكثر استعدادا لتلقي الايحاءات التي قد يتقبلها في الظروف العادية على الاطلاق ، وقد يحدث بديلا لذلك مرحلة من المراحل : «المتعادلة» أو «المتناقضة» أو «شديدة التناقض»، أو قد يحدث « انهيار امتناعي كامل » Complete inhibitory collapse يقضي على كل المعتقدات السابقة .

هذه الأحداث يمكن أن تكون عاملا مساعدا في غرس معتقدات وانماط سلوك جديدة وسوف نلاحظ نفس هذه الظاهرة في كثير من العلاجات الحديثة الناجحه في مرضى الطب النفسي Psychiatric ، على أنه يمكن احداث جميع مراحل النشاط الذهني من زيادة الاثارة الى حد الانهاك الانفعالي والانهيار الى الاستسلام الهادىء الصامت : اما بوسائل سيكولوجية ، واما باستخدام العقاقير واما بالعلاج بالصدمات الكهربية ، واما بتخفيض كمية السكر في دم المريض بحقنة بالأنسولين ، كما تأتي بعض النتائج الأفضل في علاج حالات من أمراض الطب النفسي مثل العصاب(١) Neurosis أو الذهان(٢) Psychoses باحداث حالات من حالات « الامتناع الوقائي » وهذا يحدث دائما بالاستمرار في فرض التوترات الصناعية على المخ حتى يصل الى مرحلة نهائية من مراحل الانهيار الانفعالي المؤقت والاستسلام المؤقت Emotional collapse and stupor ويبدو أنه من المحتمل أن تتبدد بعدها بعض الانماط الشاذة الجديدة كما يحتمل عودة الأصح والأسلم منها أو غرسها في المخ من جديد » .

---

(١) العصاب مجموعة الأمراض النفسية وتحوي : القلق النفسي ، والهستريا ، والوسواس القهري ، والاجهاد ، والاكتئاب النفسي .

(٢) من الأمراض العقلية وتحوي عادة امراض الفصام العقلي والهوس الاكتئابي وعادة ما يكون المريض بعيدا عن الواقع ، مضطرب الشخصية تحت تاثير اعتقادات خاطئة مع تغير في المزاج والوجدان .

الباب الثاني

الوسائل والأساليب

- الفصل الأول
  أساليب الانقلابات الدينية والتحولات المذهبية
- الفصل الثاني
  طبيعة التحول ..



أساليب الانقلابات الدينية والتحولات المذهبية

كان الهدف من الفصل السابق أن نبين كيف أن تجارب بافلوف وآثارها على الانسان فى تجارب الحرب العالمية السابقة أثبتت أنه يمكن تثبيت او ازالة أنماط سلوكية فى الانسان والحيوان نتيجة عوامل فسيولوجية متشابهة ، اذ انه عندما ينهار المخ تحت وطأة توترات شديدة فان السلوك الناجم عن ذلك يتغير سواء كان ذلك فى الانسان أم فى الحيوان ، ويعتمد ذلك على المزاج الموروث فى الفرد وعلى الأنماط السلوكية التى كونها عن طريق التكيف التدريجى للبيئة .

وفى هذا الفصل سنحاول أن نبين كيف يمكن غرس أنواع مختلفة من العقائد فى كثير من الناس ، بعد أن تكون وظائف المخ قد اضطربت اضطرابا كافيا نتيجة تعرضه لتوترات خارجية شديدة مثل : الخوف ، والغضب ، أو القلق، أو الاستثارة سواء أكانت عرضية أم مقصودة .

ولقد سبق أن أشرنا الى أن أساليب الانقلاب السياسى والدينى التى استخدمت قديما نظر اليها حتى الآن من زوايا السيكولوجية والميتافيزيقية أكثر مما نظر اليها من زوايا الفسيولوجية والميكانيكية ، ولكن الواقع ان هذه الأساليب غالبا ما تقترب جدا من الأساليب السياسية الحديثة التى تستخدم فى عمليات غسيل المخ والسيطرة على عقول البشر ، بدرجة أن كلا منها يلقى ضوءا على ميكانيكية الأخرى .

ومن ثم فمن الأجدر أن نبدأ بدراسة بعض الأساليب التى استخدمت فى عمليات التحويل الدينى المفاجىء فى الأديان المختلفة التى استطاعت أن تجعل فردا أو جماعة من الأفراد تعتنق عقائد جديدة ، أو أنماطا من السلوك نتيجة لأضواء وأنوار تنبلج فى الذهن فجأة وبشدة هائلة ، وذلك عقب فترة من التوتر الانفعالى الشديد ٠

وفى الأديان المختلفة التى عرفها الانسان منذ فجر التاريخ ، يبدو أن دعاة العقائد الناجحة لم يستغنوا اطلاقا عن الأسلحة الفسيولوجية فى اضفاء بركاتهم الروحية على أتباعهم ٠ فالصيام وتجويع الجسد والرياضة الروحية القاسية لتطهير النفس وتنقيتها ، واستخدام السحر فى حل الألغاز الرهيبة ، ودق الطبول والرقص والتسبيح بالأناشيد والطقوس الدينية الصارمة ، واستخدام البخور والعقاقير المنومة ٠٠ ما هى الا بعض الأساليب المعروفة من تلك الأساليب العديدة التى استخدمها الانسان لتعديل وظائف المخ لأغراض دينية ٠

أما الزعماء السياسيون فقد عرفوا أيضا الكلمات والأعمال التى يستطيعون بها أن يثيروا الناس ويسيطروا على عقولهم لتحويل معتقداتهم وأنماط سلوكهم غير المرغوب فيها الى معتقدات ووجهات نظر جديدة ٠ وفى كثير من الأحيان ارتبط الانقلاب السياسى بعامل الدين مستغلا سطوته وقوته لتحقيق أطماع سياسية بحتة ، وتغيير معتقدات الناس : السياسية ، والدينية والاجتماعية ٠

ولذا فقد آثرنا ألا نفصل فى هذا الفصل بين أساليب الانقلابات الدينية وتلك فى التحول السياسى ، لأن أساليبهما تكاد تتشابه مع بعضهما البعض ، وذلك فضلا عن ارتباطهما الوثيق فى كثير من الحالات ٠

* * *

ففى اقدم المدنيات حدثت فى مصر القديمة تغييرات فى دين قدماء المصريين خلال العصور المختلفة فى تاريخهم الطويل ، حيث ظهرت ، آلهة جديدة ، ومذاهب جديدة ، وعلاقات جديدة بين العابد والمعبود ، كما ظهرت أساليب جديدة فى بناء المعابد وتقريب القرابين وغير ذلك من الطقوس الدينية ٠ الا أن

هنـاك نوعا من التغيرات طرات فجاة على ديانة القوم وتختلف كل الاختـلاف عن سـائرها ، وذلك حينما قام أمنحتب الرابع أو « اخناتون » حـوالى عـام ١٣٧٥ ق٠م يدعو الى دينّه الجديد ، ويصدر الامر الى الناس لتنصرف عن عبادة جميع الآلهة التى يقدسونها ، وأن يعبدوا فى مناسك فخمة واحتفالات متهللة الها واحدا أعلى هو الشمس فى السموات العليا ، وقد ربط الصلة بين هذا الاله وبين الملك والملكة فكانا ولديه وممثليه على الارض ٠

لقد كان « رع » اله الشمس أحد الآلهة التى يعبـدها المصريون ، وكان مركز عبادته فى عين شمس بالوجه البحرى ، وظلت هذه العبادة قرونا لا تحصى من أظهر السمات فى الديانة المصرية القديمة خاصة فيما يتصل بالملكية ٠

فكان « رع » بوصفه منظم الفصول ، ومقلب الليل والنهار ملكا فى السماء ، ومثالا للملك على الارض ، وكان الملك حينئذ يدعى « ابن رع » ٠

وكان يقال تعليلا لوجود معبود غير اله الشمس فى بعض الاحوال كالاله التمساح « سبك » مثلا أنه مظهر خاص من مظاهر رع ، فيضاف اسم رع الى اسمه ٠ وأشهر مثال لذلك هو « آمن » وهو اله محلى كان مغمور الشأن خامل الذكر فى طيبة فى عهد الدولة القديمة ، ثم علا شأنه وكبرت قيمته أيام الاسرة الثانية عشرة ، فاذا هو يسمى « آمن ــ رع » ويصبح له معبد عظيم ، فلما كان عهد الامبراطورية دان القوم « لآمن ــ رع » رب الحاضرة الملكية ، واعتبروه نصير الجيوش الفرعونية وواهبها الظفر والغلبة ٠

ومع أن الاله المشترك « آمن ــ رع » كان رب طيبة والدولة ، فان الرب الذى كان الطبقة المتعلمة تعظمه وتؤثره هو « رع » لا « آمن » ، فالى قرصها كان أولئك يتوجهون بدعواتهم وصـلواتهم ليل نهـار ، فحين تبزغ الشمس تنير الارض ، وحين تجنح فى روعة وجـلال الى الغروب تنير من وراء المغرب عالم أوزوريس ــ عالم الاشباح تحت الارض ٠

ولذا فان الطريق كان ممهدا بعض التمهيد عند طبقة معينة من النـاس لهذا الاصلاح الديني العاصف الذي جاء به اخناتون ، برغم أن صلواتهم وتراتيلهم كانت حتى وقتئذ حافلة بالمعاني والالفاظ المأخوذة عن أساطير الاولين ٠

وحينما تولى اخناتون الملك بعـد وفاة أبيه الملك أمنحتب الثالث ، كان لا يزال في الحادية عشرة من عمره متأثرا الى حد كبير بما كانت توحيه اليه مربيته وأمه ، وكذا ما كان يشاهده في مقاصير الحريم ، لكن يبدو أنه كان فتى باكر النمو فقد أعرض وهو لا يزال يافعا عن جمود التقاليد ، وانبرى يفسر الكون كما يراه متأثرا بظروفه البيئية ٠

كان اخناتون يعرف أن الشمس معبودة منذ أمد طويل في بيت رع بمدينة عين شمس ، وأن العجل الاسود من مظاهرها البديعة المثال ، ولكنه تجاهل من الاسماء الدينية التقليدية التي كان يطلق عليها عين شمس اسمي «توم وخبر رع» كما تجاهل المدلول الديني والاسطوري « لحورس » وآشو بن رع وشقيق الربة تفنوت ٠

ومع أنه لم يسبق لفرعون من الفراعنة أن تلقب بلقب كهنوتي فان هـذا الملك الشاب انبرى في خيلاء يجهر بهذا التحدي على رءوس الملأ ورجال الدولة وكهنة آمون ٠ وقد صرف همته كلها الى اتمام بنـاء معبد أو أكثر في طيبة على الصورة التي ابتدعها خاصة لاله الشمس متخذا جانبا على الاقل من بناء شيده والده أمنحتب الثالث لبعض الآلهة الاخرى ، فأبدل اخناتون في الاشكال والاسماء المحفورة على جدرانها ٠ وأصبح آتون اسم الاله الجديد ممثلا على الدوام في صورة قرص الشمس تحت قبة السماء ، وتتدلى من حافته أفعى من نوع الكوبرا ، وهي شارة للملكية كانت دائما رمزا للشمس وما للملك من قوة مهلكة ، ولكن اقترنت في ذلك العهد برمز الحيـاة البهيجة ، ومن هـذا القرص تنبثق أشعة ممتدة كالاذرع ، تنتهي بأكف آدمية هابطة من السماء الى الارض تحتضن الملك ، وتضع رمز الحياة على خياشيمه ، وتتقبل القرابين المقدمة على المذبح ٠ ولم يبق من الاسماء الآلهية التي كانت مقترنة قديما باسم الآلهة رع الا اسم واحد ٠

واستمرت هذه الديانة نحو ثمانية عشر عاما ثم زالت ، اذ عاد الشعور الديني المصرى القديم الى مجراه المعتاد بعد حركة تمرد على ديانة آتون شاعت في جميع أنحاء مصر ، وانتهت بذلك حركة التوحيد أو التغليب كما يسميها البعض أيام توت عنخ آمون حيث عادت الى مصر ديانتها القديمة وجموع آلهتها الغفيرة ٠

وقام المصريون القدماء بالانتقام فأزالوا أسماء اخناتون وصوره وصور أسرته من الآثار وعروا مبانيهم الفاخرة وأحالوا تلك الى محاجر ٠ وكان توت عنخ آمون وخليفته « اى » يكنان بعض الاحترام لذكرى الراحل المبتدع ، فلما تولى الملك حور محب أعرض عن كل ذكر لاخناتون وسلالته ، فاذا اقتضى الحال ذكر أحد منهم لم يكن يلفظ باسمه وانما كان يشار اليه اشارة الخفيظة والاحتقار فيقولون « مجرم اخيتاتون » ٠

كانت ديانة اخناتون ترى الشمس أنها من أجدر الكواكب فى السماء بالعبادة ، اذ لا يعتريها التغير فى فلكها الرحيب ، كما أنها معروفة فى جميع الاقطار التى كان للمصريين علم بها ، وهى تصرف الليل والنهار ، وتقلب الصيف والشتاء ، بنورها تستيقظ الخليقة ، وبدفئها تقوم الحياة والنمو ، فالشمس هى الاله المنظور ٠

ولقد تأمل الملك الشاب مطالع الحياة البهيجة ، فانطلق يسبح من أعماق نفسه بالحمد للشمس ويمجدها ، لان بدونها تنعدم الحياة والوجود ٠

ولا نبغى من هذه القصة سرد أحداث تاريخية ، ولا نقد معتقدات معينة ، وانما هدفنا أن نبرز الظروف والعوامل السيكولوجية والفسيولوجية التى جعلت اخناتون ينقلب فجأة على دين قومه ويخرج بدين ومعتقدات جديدة ، وكذا لنوضح سبب انقلاب الناس ثانية ضد هذه المعتقدات وعودتهم الى آلهتهم القديمة ومعتقداتهم التى ورثوها عن أجدادهم فى تاريخهم الطويل ٠

لقد كان آباؤه وأجداده الفراعنة يعتمد ملكهم على الوهية فرعون والسطوة والجاه ، واستباحة الاستمتاع بكل ملاذها ومتع الحياة ، فجاء اخناتون يمحو ضلالة العقيدة في ألوهية فرعون ، وليشهد الناس أن فرعون ما هو الا بشر مثلهم رفعه الله مكانة عليا ، وأنه يشعر بما يشعرون ويصبو كما يصبون ، وكثيرا ما كان يشاهده الناس يقبل زوجته وهو يقود عربته ، أو وهو جالس بجوارها يستمتعان بجمال الطبيعة •

وفى هذه السن المبكرة ولا يزال عقله مشبعا بأحلام الطفولة كان مخه مهيأ لتقبل ايحاءات أمه ومربيته ، وكانت الشمس أقرب الكائنات الى مخه لتبرير عبادتها فمنها تنبعث الحياة •

على أنه يقال : أن الملك الشاب كانت كثيرا ما تنتابه فجأة حالة من الغيبوبة أقرب الى الصرع فينصرف الجميع من حوله الا أمين القصر ، وبعد فترة يصحو فيسلك سلوكا يناقض كل العادات والتقاليد التى تسود القصر •

لقد كان القصر يعج بحريم فرعون ، وفى احدى المرات افاق من غيبوبته وأمر أمين قصره أن يصرف هؤلاء النساء ، ويقدم لهن الرعاية لانه ليس فى حاجة الى هذا الجيش الغفير منهن •

والانسان فى مثل هذه السن يكون مخه مستعدا لتقبل اى ايحاءات خارجية، فاذا ما تقبل هذه الايحاءات واقتنع بها يصبح متحمسا لها بدرجة كبيرة ، ويبدو أن الانفعالات التى كانت تسببهـا تأملات اخناتون احدثت له نوبات الاغماء هذه وكانت معروفة فى هذه الايام باسم « الجنون الملكى » •

ولكن اخناتون لم ينجح فى ازالة معتقدات قومه ، ولا أن يغرس فيهم آراءه الجديدة اللهم الا فى فئة من الانتهازيين والوصوليين كانت مصالحهم مرتبطة به ، وذلك لانه لم يسـتطع أن يسبر غور نفوسـهم ، فلم تكن تسبيحاته الدينية ولا الطقوس التى ابتدعها أو تمرده على التقاليد كافية لابعاد الناس عن معتقداتهم التى غرست فى عقولهم منذ أمد بعيد •

ولذا لم تنجح دعوته وثار النــاس عليهــا بعــد فترة وعادوا الى دينهم ومعتقداتهم القديمة ، وربما يرجع عــدم النجاح الى أنه لم يستخدم أى عامل من العوامل السيكولوجية أو الميتافيزيقية التى كانت معروفة حينئذ لازالة أنماط السلوك القديمة وغرس المعتقدات الجديدة .

على أنه من ناحية أخرى استغل كهنة آمن ـ الذين رأوا فى هــذا الدين خطورة عليهم ـ هذه العوامل لاثارة الفتن والتمرد حتى نجحوا فى النهاية بالقضاء على اخناتون ودعوته .

فبالاضافة الى المامهم بالاساطير وأعمال السحر لعبت « العرافة » دورا كبيرا فى اعطائهم قوة للتأثير على الناس ، وكان هناك أنواع كثيرة منها : فمثلا كانت هناك واحدة تسمى « هتفات الآلهة » أى أن تماثيل الآلهة كانت تنطق وتتكلم . وعلى هــذا النحو كان تمثال الاله آمن يفصــل فى مهام شــئون الدولة ويقوم بذلك التمثال الذى كان يقيم فى قدس الاقداس بالمعبد . وعند استشارته كان الكهان يحملونه فى زورقه على أكتافهم ، ثم يقفون ليسأله رئيس الكهان أو فرعون اسئلة هامة خاصة بمصيره ، فيجيب عليها بحركات خاصة ، أو بأصوات وكلمات معينة . وفى واقع الامر كان الكهان هم الذين يجيبون عن الاسئلة من طرف خفى . وهذا ما حدث فى معبد الاله « آمن » فى واحة سيوه عندما زار الاسكندر الاكبر هذا الاله فى معبده . فقــد وصف بعض الذين حضروا مع الاســكندر فى هــذا المعبد ما حــدث أمامهم . كان تمثال الاله « آمن » يحمله الكهان على أكتافهم فى زورق من الذهب الخالص . وكانوا يسيرون به فى أى مكان شــاء وكان جمع خفير من النسوة والفتيات يرتلن ، وينشدون الاناشيد للاله . وكانت اجابة الاله على الاسئلة يعرفهــا القوم من مشية الكهان وخطواتهم فهم مسيرون بأمر الاله وحده .

* * *

وفى سيرة بوذا أو الامير سيدهاتا بن الملك سود هوادانا صورة من صور التحول الدينى المفاجىء الذى نجح وامتد أثره الى آفاق بعيدة .

لقد كان هذا الامير يعيش منذ طفولته حياة ترف ونعيم لم يستمتع بهما الا قلة من الناس ، وبرغم هــذا النعيم تحــول الامير فجــأة الى راهب متسول

يحاول ان يبحث عن الحقيقة بعد أن شاهد فى أثناء تجواله فى المدينة ثلاث صور من شقاء الحياة ، فالصورة الاولى وهى الشيخوخة تمثلت له حينما رأى كهلا رسم الحزن والجهد على وجهه أثر الشقاء ومحنة الايام ، ممددا على الارض دون غطاء فى يوم عاصف الريح • أما الصورة الثانية وهى صورة المرض ، فقد رسخت فى ذهنه حينما رأى مريضا ملقى على الطريق يتوجع ويئن فأدرك أن هذا الامر يتعرض له كل انسان غنيا أم فقيرا ، حكيما أم صعلوكا • وأما الصورة الثالثة والاخيرة فقد أكدت له حتمية الموت ، اذ شاهد جنازة أحد المتوفين وهو محمول الى مكان حرق جسده ، ومن خلفه تسير امرأته وأولاده يبكون لفراقه •

وأثرت هذه الصورة فى نفسية بوذا لدرجة أنها تعتبر نقطة تحول فى تفكيره الدينى ، فقد قرر منذ هذه اللحظة أنه لابد أن يكون هناك عيب فى الحياة لانها تحمل فى طياتها : المرض ، والشيخوخة ، والموت •

ومن ثم فقد بدأ يتعمق فى بحثه عن حقيقة الحياة ، وأخذ يتساءل عن سر الفناء • لقد عجزت الكتب المقدسة التى قرأها عن تفسير هذا السر له ، ثم أخذ يتساءل من جديد :

« لماذا لا يكون كل الناس فى مملكة أبيه سعداء مثله هو وأسرته ؟ » وثار سيدهاتا على تعاليم دينه ، وتعجب لماذا قسم براهاما(١) الناس الى مثل هذا العدد

---

(١) براهاما هو الخالق عند طائفة البراهمية ، وتصفه « أسفار اليوبانشاد » وهى احد الكتب المقدسة عند الهندوس بقولها :

ان جوهر النفس ليس هو الجسم ، ولا العقل ، ولا الذات الفردية ، ولكنه الوجود العميق الصامت الذى لا صورة له ، والكامن فى دخيلة انفسنا ، واسمه آتمان •

اما جوهر العالم الواحد الشامل الذى لا هو بالذكر ولا بالأنثى اى روح العالم غير المشخص فى صفاته والمحتوى على كل شىء والكامن فى كل شىء والذى لا تدركه الحواس فاسمه « براهاما » ، واتمان وبراهاما ما هما الى حقيقة الحقيقة •• روح الأرواح ، وما هما الا اله واحد بعينه ، لأن الروح اللافردية وهى القوة الكائنة فى الانسان هى بعينها روح العالم -

الكبير من الطوائف الطبقيـة(١) ، وبدا له أن ذلك ظلم ، وجعله يحس أن كل ما تعلمه فى الكتب المقدسة والتراتيل الدينية غريب باطل •

وفى أحد تأملاته الاولى وهو لا يزال فى قصر أبيه سمع صوت موسيقى وغنـاء ينبعث من داخل القصر ، فزاد ذلك شـقاءه وتوتره وانفعاله لدرجـة أنه اشمأز من أن يكون لرجل واحد كل هذا النعيم بينما هناك الآلاف من التعساء يعانون الفقر والمرض والشقاء » •

وفجأة ترك سيدهاتا قصر أبيه وأخذ يضرب فى الارض متوغلا فى الغابات مرتديا ملابس راهب متسول ، وكان لا يزال فى سن التاسعة والعشرين •

واستمر بعد هذا الحادث سبع سنوات يبحث عن الحكمة والمعرفة • وكانت تعاليم براهاما تقول : لكى تبحث عن المعرفة يجب أن تطهر النفس ، ولتطهير النفس يجب تعذيب الجسد ، فبتعذيب الجسد وتجويعه تتطهر النفس •

ومارس سيدهاتا هذا الاسلوب داخل الغابة ، فظل أياما دون طعام حتى اضمحل جسمه ، وضعفت قواه ، وأصبح جسما بشريا نحيلا لا يستطيع القيام بأى حركة حتى ظنه زملاؤه من الرهبان أنه قد فارق الحياة •

وفجأة انتعش واستعاد قدرته على الكلام فبادر زملاءه بقوله :

« أيها الاخوان منذ هذه اللحظة سأكف عن تجويع نفسى » •

لقد تبين له أن الحكمة والفلسفة اللتين يبحث عنهما لم يكونا خارج نفسه واتضح له أنه لن يستطيع الحصول عليهما : بدراسة الفيدا(٢) ، ولا بتجويع

---

(١) فى عقيدة الهندوس ان براهاما خلق الناس من « ماتو » أول البشر على درجـات غير متساوية فمن راسه جاء افضل الناس واعظمهم قدسية وهم الكهنة البراهمة ، ومن ذراعه جاء من يلونهم فى الأفضلية وهم الملوك والمحاربون ويسمون بالاكشترية • ومن فخذيه جاء ارباب المهن فى العالم بين زراع وتجار وعليهم أن يوفروا مسائل العيش للكهنة والملوك والمحاربين ويسمون الفيشية • اما من قدميه فقد جاء بقية الناس الذين ينتمون الى الطبقات السفلى ، وليس لهم من عمل سوى خدمة الطوائف الثلاث الأخرى فى اخس حاجاتها ويطلق على هذه الطائفة الشوادر او المنبوذين •

(٢) اسفار مقدسة عند الهندوس تحدد قوانين دياناتهم وشرائعها وتعاليمها •

نفسه ، ولا بالجلوس على المسامير والحجارة الخشبية أو الزجاج المكسور كما يفعل الآخرون من الرهبان ، بل أصبح يعتقد أنه يمكن أن يجدهما فى أعماق نفسه ، وأن كل انسان يستطيع أن يحصل عليهما من داخله وفيها يجب أن يبحث عنهما .

وأخيرا ثار على كتب الفيدا ، وهاجم عبادة الاصنام التى لا تستطيع أن تغير شيئا فى هذا الوجود ، وأعلن لزملائه من الرهبان أن عبادتهم كلها ضلال ، فالصلوات التى يقيمونها لآلهتم العاجزة لا تستطيع أن تغير شيئا من قوانين الطبيعة ، فالماء يجرى دائما من أعلى التل ، والنار ساخنة دائما . وجادل بالمنطق أنه لا يمكن لهذه الآلهة أن تغير مجرى الماء ليصعد فى التل ، أو تجعل النار بردا وسلاما ، ذلك لان فى الحياة قوانين تجعل هذه الاشياء كائنة على ما هى عليه ، فما يتم حدوثه لا يمكن الغاء حدوثه ولو قدمت القرابين لكل أنواع الآلهة .

وأذاع بوذا تعاليم دينه الجديد بعد أن أعلن أن براهاما لم يخلق شيئا ، وأن العالم سيبقى الى الابد ولن ينتهى لان كل ما ليست له بداية ليست له نهاية .

ونادى بأن هناك طريقين يجب أن يبتعد عنهما الانسان ، أحدهما حياة الانغماس فى المتعة وهى حياة أنانية دنيئة ، والاخرى حياة التعذيب وهى ليست جديرة بأن يحياها الانسان ، وعلى المرء أن يسلك طريقا وسطا وذلك باتباع قواعد الحياة الثمانية(١) التى كانت أول تعاليم البوذية ، ولم يمض وقت

---

(١) ◆ الايمان بالحق : وهو الايمان بأن الحقيقة هى الهادى للانسان .

◆ القرار الحق : بان يكون المرء هادئا دائما لا يفعل اذى باى مخلوق .

◆ الكلام الحق : بالبعد عن الكذب والنميمة ، وعدم استخدام اللفظ الخشن .

◆ السلوك الحق : بعدم السرقة والقتل وفعل شيء ياسف له المرء فيما بعد او يخجل .

◆ العمل الحق : بالبعد عن العمل السيىء مثل : التزييف ، وتناول السلع المسروقة : وعدم اغتصاب ما ليس له .

◆ الجهد الحق : بالسعى دائما الى كل ما هو خير والابتعاد عما هو شر .

◆ التأمل الحق : بالهدوء دائما وعدم الاستسلام للفرح او الحزن .

◆ التركيز الحق: وهذا لايكون الا باتباع القواعد السابقة، وبلوغ المرء مرحلةالسلامالكامل

طويل عليها حتى كان لبوذا آلاف من الاتباع ، ومضت شهرته متنقلة من مملكة الى مملكة حتى بلغت بلاد الساكى •

وبرغم أن فكرة بوذا عن الدين كانت خلقية خالصة ، تعنى بسلوك الناس ولا يهمه الطقوس وشعائر العبادة وما وراء الطبيعة ، الا أن أتباعه بعد وفاته نسوا هذا كله وراحو يؤلهونه •

وبعد أن كان بوذا يعظ ضد الاصنام ، اقام له اتباعه التماثيل فى كل معبد وجعلوا منه هو نفسه الها معبودا •

ففى هذه القصة نجد أن هناك ردود فعل حدثت لبوذا نتيجة الصراعات العقلية التى أثرت فى نفسه نتيجة مشاهداته فى شرخ شبابه لصور بغيضة فى الحياة من مرض وشيخوخة وموت ، ولقد أثرت هذه الصورة فى نفسيته بدرجة كبيرة ففرضت على مخه توترات ازدادت شدتها حينما لمس التناقض الحاد فى المجتمع الذى يعيش فيه •

فمن حياة الترف والبذخ التى لا توصف والتى كان يعيشها فى قصر أبيه ، صدم بما تقاسيه البشرية من أهوال • ولقد أدى به هذا الصراع النفسى الى نقمته على الحياة غير العادلة ، وعلى الآلهة التى لا تستطيع أن تجد حلا لهذه المشكلات •

وكان نتيجة ذلك كما رأينا أن تحول بوذا من أمير بين يديه كل مسببات الترف والجاه الى راهب متسول يبحث عن حقيقة الحياة • وفى بحثه عن هذه الحقيقة اشتد الصراع على عقله نتيجة محاولته ممارسة طقوس الفيدا من : تجويع النفس ، والرياضة النفسية العنيفة ، حتى وصل الى مرحلة الانهيار التى سبق ان أشرنا اليها ، وفى هذه الحالة لابد أن يكون مخه قد توقف تماما ووصل الى درجة تقبل أى ايحاءات •

هذه الايحاءات كانت فى الواقع قد غرست فى عقله من قبل ، سواء أيام اقامته فى قصر أبيه ، أو فى أثناء تجواله كراهب متسول ، ولذا فاننا

نجد بوذا ينتفض فجأة من صومه الطويل ، وينفض يديه من كل تعاليم الكتب المقدسة التى كان يؤمن بها من قبل محاولا أن يبحث عن الحقيقة من داخل نفسه ، منقلبا على آلهته وتعاليمها •

* * *

على أن هناك نوعا آخر من المعارك التى وجهت ضد العقل البشرى عرفها الانسان منذ أقدم المدنيات • وعلى الرغم من اختلاف مظاهرها وأساليبها فان هذه المعارك كانت مهـدا لكثير من الجمعيات السرية التى آثرت الظلام فى عملها على النور ، لغاية ظاهرها محاولة الوقوف على أسرار الكون الخفية ، وباطنها دوافع سياسية تنشد ابدال مجتمع بمجتمع أو سلطان بسلطان • ونحن نذكرها هنا لنتبين الاساليب المختلفة التى استخدمتها هذه الجماعات للسـيطرة على عقول الناس وتحويل معتقداتهم الدينية والسياسية •

ففى الحركات الهدامة التى قامت منذ صدر الاسلام تهدف الى هدمه ، أمثلة للاساليب والوسـائل المتنوعة التى لجأت اليها تلك الحركات للتأثير على عقول الناس بغرض تحويل معتقداتهم الدينية الى معتقـدات جديدة تحقق غاياتهـا المحددة •

ففى مبـادىء الازادمردية(١) ــ وهم شيعة ــ نجـد مخططا ثوريا يمعن فى الهدم ويرمى الى سحق تعاليم الاسلام كلها بهدف تحطيم السلطة السياسية التى تقوم على هذه التعاليم • وكان اتباعهـا يميلون كثيرا الى الاسماعيلية ، وتحولوا الى الباطنية أيام المأمون ، وانتشروا أيام المعتصم متحدين مع البابكية والخرمية وبثوا مبـادىء التقويض والهـدم واليهم ينتمى أعظم الدعاة الثوريين والمتآمرين • وبرغم أن حركة الباطنية « الشيعة » كانت حتى منتصف القرن

---

(١) الازادمردية هم الأحرار وكانوا من السلالات الحاكمة فى فارس ، واختاروا فى الاسـلام مذاهب الشيعة وجذبوا اليها سواد الشعب ممن لا يجرى فى عروقه الدم العربى ودان بالاسلام مؤثرا مبادىء الشيعة من اسماعيلية وغيرها •

الثالث تضفى على نفسها الصبغة الدينية ولا تعنى بالهدم من المبادىء الا ما ترى أنه يخالف مبادئها ويتعارض مع غاياتها السياسية ، فانها تحولت بعد ذلك الى أداة رهيبة لهدم جميع المعتقدات الدينية ، والنظم السياسية، وسحق جميع المبادىء الاجتماعية والاخلاقية اسلامية أو غيرها ، وبلغ من تاثيرها أنهـا جذبت اليها « الافشين » قائد عام قوات الخليفة المعتصم فصلبه هذا سنة ٢٢٤ هجرية .

ومن أبرز الذين حملوا معول الهدم على هـذا النحو الشامل هو عبد الله بن ميمون القداح(١) الذى وصفه المؤرخون بأنه أعظم هدام وأذكى متآمر عرفه التاريخ . وقد اعتمد دعاته فى نشر دعوته على : تزييف الاحاديث ، ونشر مبادىء الانكار والهدم ، والاباحية بين العامة ، وهم فى الوقت نفسه يظهرون تشيعا لاهل البيت اخفاء لحقيقة مقاصدهم . واستغل دعاته الشعوذة والسيمياء ، وتفرقوا فى الانحاء يدعون كل طائفة بما يناسب عقولها وميولها ، ويظهرون للعامة فى ثوب الورع والزهد .

ولم يبحث ابن ميمون عن أنصـاره الحقيقيين بين الشيعة المخلصين ولكن بين الثنوية(٢) والوثنيين وطلاب الفلسـفة اليونانية . وكان دعـاته الذين تلقنوا أن أول ما يجب عليهم هو اخفاء حقيقة عواطفهم ، والتظاهر باعتناق آراء سامعيهم ـ يظهرون فى أثواب مختلفة ، ويحدثون كل طبقة باللغة التى تروقها ، ويسيطرون على الجميع بأعمـال الشعوذة ، ويثيرون شغفهم بالالغاز والاحاجى الخفية ، ويتحجبون أمام المؤمنين بقنـاع الزهد والفضـيلة ، ويتظاهرون أمام الصوفية بأنهم صوفية ، ويكشفون عما خفى من معـانى الغيب أو يشرحون الاساطير ومجازاتها . وقد أسفرت هذه الوسائل التى كانت تهدف الى السيطرة على أذهان المجتمع عن نتيجة رائعة هى اعتناق كثير من الناس المختلفى المذاهب هذا المذهب حيث استغلوا أسوأ استغلال فى تحقيق غاية لا يعلمها سوى القليل من الدعاة .

---

(١) عبد الله بن ميمون القداح ، ابن فقيه ملحد من جنوبى فارس هو ميمون بن ديصان . وقد زعم انه وقف على الأسرار الروحية والعلوم الخفية وانتشرت دعوته فى جنوبى فارس حوالى ٢٦٠ هـ

(٢) الثنوية مذهب فلسفى دينى يقول : ان كل كائن مركب من عنصرين هما الخير والشر ، او النور والظلام .

وقد وصف المؤرخ دوزى فلسفة ابن ميمون فقال :

« أن يدمج المغلوبين والغالبين فى هيئة واحـدة ، وأن يجمع فى حظيرة جمعية سرية هائلة ذات مراتب عدة بين أحرار المفكرين ـ الذين لا يرون فى الدين سوى وسيلة لاذلال الشعب ـ وبين الغلاة من جميع الطوائف ، وأن يجعل من المؤمنين آلة صماء تمد المتشككين بالقوة ، وأن يحمل الظافرين على قلب الدولة التى شادوها ، وأن ينشىء حزبا كبيرا مؤتلفا منظما يرفع فى الوقت المناسب ـ ان لم يكن هو ـ فعلى الاقل أبناؤه الى العرش » .

هكـذا كانت غاية ابن ميمون ، وهى فكرة خبيثة نفـذها بحذق ماهر ، وبراعة نادرة ، وخبرة عميقة بعقول البشر ، مستخدما تلك الوسائل التى اختطها بخبث ودهاء .

وفى عام ٢٧٨ هجرية قام أحد دعاته ويسمى الفرج بن عثمان القاشـانى ويعرف بذكرويه(١) وأطلق على نفسه اسم قرمط وكون مجتمع القرامطة الذى يقوم على شيوع الملكية والاباحة . وقد بدأ قرمط يجمع من أنصـاره الضريبة العامة بنسب كبيرة ، وانتهى بأن أقنع سوادهم بمزايا الغاء الملكية الفردية ، ونظم لهم فى كل مكان وجدت فيه طائفة منهم مجتمعا شيوعيا ، بل قد تطرف فى هذا الشيوع فقرر شـيوع المرأة وغيره من صنوف الاباحة القائمة على اسـتغلال الشهوات والاهواء البشرية .

وقد وصف دى ساسى دعوته معتمدا على بعض المراجع العربية فيما يلى :

« لما نجح قرمط بتنفيذ كل ذلك ووافقه عليـه كل صحبه أمر دعاته أن يجمعوا النساء فى ليلة معينة بحيث يتمكن الرجال من أن يستمتعوا بهن فى اختلاط وشيوع .. وكان يقول : أن ذلك هو الكمال وأقصى درجات الصداقة والاخاء .

---

(١) ان رواية ابن خلدون عن شخص قرمط مضطربة جدا ، ففى مبدا كلامه عن القرامطة يقرر بوضوح ان قرمطا والفرج بن عثمان او ذكرويه شخصان مختلفان بيد انه بعد ذلك يقلبل فى روايته عن محاربة عامر الكبشى للقرامطة يوحى بان ذكرويه هو قرمط غير ان ابن الاثير واضح فى التفريق بين الرجلين .

وأحيانا كان الزوج يقدم زوجته بنفسه الى رفاقه متى سرهم ذلك(١) • ولما رأى قرمط أنه صار السيد المتسلط على عقولهم ووثق من طاعتهم ، بدأ يسير بهم نحو طريق آخر ، فنشر فيهم مذهب التنوية واعتنقوا كل تعاليمه بسهولة ، ولم يلبث أن نزع منهم كل دين وأحلهم من كل فروض العبادة والتقوى ، وأباح لهم النهب وكل أنواع الرذيلة ، وأمرهم أن يتركوا الفرائض ملقنا اياهم أنه لا فريضة عليهم ، وأن لهم أن ينهبوا أموال أعدائهم وخصومهم ، وأن يسفكوا دماءهم بلا وازع ولا عقاب ، وأن معرفة رب الحقيقة الذى دعاهم اليه يملأ لديهم فراغ كل شي آخر ، وأن هذه المعرفة تبعد عنهم كل خطيئة وعقاب •

ولقد أذاع بعض القرامطة كتابا نسبوه الى الفرج بن عثمان تضمن المبادىء التى تقوم عليها جماعتهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، يقول الفرج بن عثمان داعية المسيح ، وهو عيسى ، وهو الكلمة ، وهو المهدى ، وهو أحمد بن محمد بن الحنيفة ، وهو جبريل ، وذكر أن المسيح تصور له جسم انسان وقال له : انك الداعية وأنك الحجة ، وأنك الناقة وأنك الدابة وأنك زكريا وأنك روح القدس •• والقبلة الى بيت المقدس ، والجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيه شيء ، والسورة الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه ، المتخذ لأوليائه بأوليائه ، قل ان الاهلة مواقيت للناس ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والايام ، وباطنها أوليائى الذين عرفوا عبادى سبيلى ، اتقونى يا أولى الألباب ، وأنا الذى لا أسأل عما أفعل وأنا العليم الحكيم ، وأنا الذى أبلو عبادى وأمتحن خلقى ، فمن صبر على بلائى ومحنتى واختبارى ألقيته فى جنتى وأخلدته فى نعمتى ، ومن زل عن أمرى ، وكذب رسلى أخلدته مهانا فى عذابى ، وأتممت أجلى وأظهرت امرى على ألسنة رسلى فأنا الذى لا يتكبر على جبار الا وضعته ، ولا عزيز الا أذللته •• والصوم مشروع يوم المهرجان والنيروز ، والنبيذ حرام ، والخمر حلال •• ولا يؤكل ذو ناب ولا ذو مخلب ومن خالف وحارب وجب قتله ومن لم يحارب أخذت منه الجزية » •

---

(١) اشار ابن الأثير الى واقعة من هذا النوع حيث نسب الى ابى سعيد الجنابى زعيم القرامطة فى البحرين انه قدم زوجته الى يحيى ابن ذكرويه ليستمتع بها •

وسرعان ما تحول القرامطة بعد هذا التحول الى عصابة هائلة من السفاكين والاشقياء ، لا عمل لها الا قتل خصومهم وسلب أموالهم وأعراضهم ونشر الرعب والدمار بين ربوع البلاد • وعلى الرغم من أن فكرة ابن ميمون كانت لا ترتكز على العنف الظاهر فان تعاليمه السرية كانت تهدف الى هدم كل المعتقدات الدينية من أساسها تدريجيا والى خلق حالة من الفوضى الفكرية الا المادية ، لانه كان يعتقد أن العنف دائما يستثير العنف • ولكن القرامطة عجلوا بانفجار قبل أوانه مما جعلهم يفقدون كثيرا من أنصارهم • وليس من المبالغة أن نقول : أن انفجار القرامطة كان من أهم الاسباب التى مهدت الى سقوط الدولة العباسية •

* * *

وهناك حركة أخرى مشابهة من حركات الباطنية أو الاسماعيلية[1] لعبت دورا كبيرا فى التأثير على عقول البشر بطريقة مثيرة ، هى حركة الحشاشين وقد حشدت هذه الطائفة جموع البسطاء والدهماء باسم الدين لتحقيق أغراض سياسية ، واعتمدت فى محاربة خصومها على الاغتيال الخفى المنظم ، بأكثر مما اعتمدت على الحروب العلنية •

وكان الذى نظم هذه الحركة ووضع برنامجها الفذ هو الحسن ابن على المعروف بالصباح • وقد أشار فون هامار الذى يعتبر الحسن الصباح عبقرية كبيرة الى برنامجه التنفيذى فى هذه العبارة « ان الآراء ضعيفة قاصرة اذا ما وقفت عند اجهاد المخ دون تسليح اليد فلم يظفر التشكك والتفكير الحر بسحق عرش من العروش حينما اكتفيا بالاضطرام فى عقول الكسالى والفلاسفة ، بيد أن التعصب الدينى والسياسى هما أنفذ أسلحة فى يد الامم لسحق العروش • ان ذا الاطماع لا يعنى بما يعتقد الناس ، ولكنه يعنى كل العناية بمعرفة الوسيلة التى يستطيع بها أن يستعملهم فى تنفيذ مآربه » •

---

(١) يطلق الاسماعيلية على انفسهم ايضا الباطنية لقولهم بالامامالمستور والباطن ، وقيل: انهم سموا كذلك لقولهم بباطن القرآن دون ظاهره اذ يزعمون ان للقرآن ظاهرا هو الألفاظ وباطنا هو المعانى الخفية ، وقيل لأنهم كانوا يلقون تعاليمهم سرا ويكتمونها عن العامة •

ولما كان الاغتيال المنظم هو الوسيلة الفعالة التى اعتنقهـا الصباحية أو الحشاشية ، فقد اعتمدت على الفدائيين واعتبرتهم عماد حركتها الثورية •

ولكى تؤثر فى عقلية هؤلاء الافراد بدرجة تمكنها من تحويلهم الى آلة صماء تحقق أهدافها ، كانت تأتى بهم أطفالا الى منازل الدعاة وتربيهم منـذ الحداثة على مبادىء المخاطرة والتضحية واحتقار الحياة الدنيا ، وتلقنهم أن قوام الاسلام الصحيح هو بذل النفس ، وأن الحياة الدنيا انما هى تجربة خلو من النعيم الحق لا تعدل فى متاعبها وآلامها ذرة من رغد الحيـاة الاخرى ونعيمها البالغ ، وأن السبيل الحق الى اكتساب الجنة والتقلب فى نعمائها ، وسعادتها الخالدة هو افتداء النفس بعمل من أعمال الدنيا •

وكان الزعماء يتلمسون لغزو هذه العقيدة فى نفوس أولئك الفتيان أغرب الوسائل ، وقد وصف عبد الله عنان فى كتابه الحركات السرية صورة من هذه الاساليب التى كانت تتبعها هذه الطائفة فى السيطرة على عقول أولئك الفتيان بأسلوب شيق فيقول :

« من ذلك أنهم كانوا ينشئون حول قلاعهم الحدائق الفيحاء ، قد غرست فيها أطيب الفواكه وأذكى الازهار والورود ، وشـيدت الفوارات والشـلالات البديعة وجهز المكان بأنفس أنواع الرياش والبسط ، وغصت بالغيد الكواكب يرقصن بأقداح ذهبية من الخمر • وكان من يرى فيه النجابة والاخلاص من الفتية الفدائيين يدعى الى مجلس شيخ الجبل وهو أعلى درجات هذه الطائفـة ويسقى جرعة من المخدر[1] ثم ينقل خفية الى احدى هذه الحدائق الغناء ، ويزج به الى احدى الابهاء الضخمة فتوقظه ألحان الموسيقى الشجية وخرير الفوارات، ويحيط به الغيد والغلمان، ويسقى أطيب الخمر، ويتمتع ما شاء بهذا النعيم . ثم يسقى المخدر ثانية وينقل خفية الى مجلس شيخ الجبل وقد رتب على نظامه الاول فاذا انتبه أكد له

(١) غالبا هو الحشيش الذى كان مستخدما فى هذا الوقت ، وقد سمى الصليبيون الاسماعيلية بالقتلة ASSASSINS ولعل ذلك لامعانهم فى الاغتيال والقتل ، او لعله ـ كمـا يرى البعض ـ تحريف لكلمة حشاشين التى ربما اطلقت على الاسماعيلية فى هذه العصـور بسبب طريقتهم فى استعمال المخدر فى اغواء الفدائيين على النحو المذكور •

الشيخ أنه لم ينتقل من مكانه ، وأن الذى رآه وآنسه فى ذهوله انما هو الفردوس بذاته وأنه يفوز بهذا الفردوس الى الابد بحسن طاعته وبذل نفسه ، فيلتمس الفدائى من أمامه فرصة للتضحية وبذل النفس ، فيدفع به الى الامام الى قتل من تقرر قتله من خصـوم الطائفة من الامراء والوزراء والفقهاء وغيرهم • وبهذه الوسيلة اسـتطاع الاسماعيلية أن يحشـدوا فرقة هائلة من فتيان مقاتلين ، لا يرهبون الموت بل يطلبونه ويطاردون فرائسـهم بعزم لا مثيل له فى تاريخ الجريمة » •

وقد لا نكون مغالين اذا شبهنا هذه الاساليب بتلك التى استخدمتها فلول جماعة الاخوان المسلمين المنحلة فى ايامنا هذه ، من اسـتغلال الدين لتحقيـق أطماع سياسية • فهذه الجماعة استطاعت أن تحشد جموعا غفيرة حولها مستغلة الدعوة للدين للتأثير على عقول كثير من البسطاء فى تحقيق مآربها للسيطرة على السلطة • ان أسوأ ما فى البشرية أن تقوم الجماعات الدينية المختلفة بالجمع بين السلطة الروحية والزمنية ، فحينما تحولت هذه الجماعة من جماعة روحية تحاول أن تطبق تعاليم الاسلام الى جماعة سياسية تحاول السيطرة على السلطة والحكم مستغلة الدين كان فى ذلك دمارها وخرابها • ولقد استغلت نفس الوسائل التى استخدمت قديما فى التأثير على العقول ، وجمعت أعدادا غفيرة من : المتطرفين ، والمتعصبين، والبسطاء ، والمضللين، واستغلتهم أسوأ استغلال فى عمليات الاغتيال والارهاب • ولئن اختلفت الوسائل فى الشكل فان الاساليب التى استخدمتها هذه الجماعة هى نفس الاساليب التى استخدمتها الجماعات الهدامة القديمة •

ان الجهاز السرى الذى أنشأته هذه الجماعة للقيـام بعمليات الاغتيـال والارهاب بين ربوع البـلاد العربية جمعاء لدليل واضح على الوسيلة الفاضحة التى استخدمتها هذه الجماعة فى السيطرة على السلطة • ويمكننا أن نتساءل هل يستطيع الارهاب وحده أن يؤثر فى عقلية الجماعات والافراد ؟ الاجابة عن هـذا السؤال سهلة للغاية وهى أن الارهاب قد يفيد فى بعض الاحيان ولفترة وجيزة فى تغيير عقلية بعض الناس ، ولكن حينما يزول هذا الخطر فانه ليس هناك مانع من أن يرتد هؤلاء الذين اعتنقوا هـذا المذهب تحت ظروف معينة الى عقيدتهم القديمة •

لقد بث في عقول أفراد الجهاز السرى للاخوان المسلمين عقيدة تعصب وزيف ، وأصبحوا اداة صماء في يد تلك الجماعة تحركها تبعا لأهواء المسيطرين على هذه الحركة ، من أعمال الاغتيال والارهاب • ان الأمثلة على ذلك واضحة وبارزة في تلك الصور العديدة من أعمال الاغتيال والارهاب التى قامت بها هذه الجماعة ضد كثير من الحكام منذ نشأتها ، بل ضد أبناء الشعب الذين لا يسايرونها ولا يؤمنون بأعمال العنف والتخريب •

* * *

وفى المسيحية قامت جمعيات سرية كثيرة على نمط نفس تلك الجمعيات التى قامت لهدم الاسلام كان هدفها هو الثورة على النصرانية وتقويض تعاليمها • ان جمعية « فرسان المعبد » Les Templiers التى أنشئت عام ١١١٨ ميلادية لتعتبر مثلا حيا لتلك الجمعيات التى تحاول أن تسخر عقول البشر لتحقيق مآربها • وحينما قام البابا بمطاردتهم ومحاكمتهم قبض على جميع فرسان المعبد الفرنسيين فى أكتوبر سنة ١٣٠٧ ميلادية ووجه اليهم المحقق العام التهم الآتية :

- ان رسوم اللحاق بجمعيتهم تقترن بأهانة الصليب وانكار المسيح مع أعمال فجور شنيعة •
- انهم يعبدون صنما يقال أنه صورة للآله الحقيقى •
- انهم يغفلون ألفاظ التقديس حين القاء القداس •
- ان زعماءهم يزاولون حق منح الغفران مع أنهم ليسوا من رجال الدين •
- انهم يبيحون ارتكاب الشذوذ الجنسى •

وفى التحقيق الذى أجرى مع أعضاء هذه الجمعية اعترف كثير من الفرسان ومنهم الاستاذ الأعظم بالتهم المنسوبة اليهم ، وقرر بعضهم أنهم عند الحاقهم بالجمعية كان يقدم اليهم صليب نصب عليه تمثال المسيح ، ثم يسألون عما اذا كانوا يعتقدون فى الوهيته ؟ فاذا أجابوا بنعم ، قيل لهم : انهم على ضلال ، لأن المسيح ما هو الا نبى زائف • وقرر آخرون أنهم قدم اليهم صنم أو رأس ملتح

ليعبدوه ، كما اعترف آخرون أنهم كانوا يؤمنون بالبصق على المسيح ، وقال كثيرون منهم أنهم أجبروا على ارتكاب أفعال شائنة من الفجور مثل ممارسة الشذوذ الجنسي وقد هددوا بالعذاب والقتل اذا لم يمتثلوا .

وعلى كل حال فان العقيدة التي استغلها الفرسان كانت عبارة عن خروج على النصرانية ، ويعرف لوأزلير نظريتهم في الألوهية بقوله :

« يعترف فرسان المعبد في نفس الوقت باله خير لا يصل البشر اليه وليست له أشكال مادية ظاهرة ، واله شرير يمثلونه بصنم رائع الشكل ، وهو الاله الأدنى منظم العالم المادى وسيده ، خالق الخير والشر ، الذى نفث الشر في الخليقة » .

* * *

وبرغم ذلك فان دعوة الهدم تخمد بمطاردة الفرسان وحل جماعتهم . ولكنها نفذت في الواقع الى أعماق البيئات المظلمة في مختلف الدول الاوروبية ، واتخذت مبادىء الالحاد والثورة على الدين أطوارا جديدة . ففى أوائل القرن الرابع عشر اتخذت الحركات الهدامة وسائل جديدة هي : ايثار الشر ، وعبادة الشيطان أو التوسل بالقوى الشريرة الخفية على محاربة القوى الخيرة ، أو بعبارة أخرى ما يسمى بالسحر الأسود . وقد كان التوسل بالخفاء والظلمات معروفا منذ العصور الغابرة ، كما أن للسحر دولة ترجع الى أقدم المجتمعات الانسانية سواء في الشرق أو الغرب . ولكن حركة السحر الاسود التى ظهرت في خاتمة القرون الوسطى واجتاحت كل المجتمعات الأوروبية كانت دعوة منظمة ، وثورة واسعة النطاق على سلطان الكنيسة وتعاليم النصرانية ، وان بدت في ظاهرها طائفة من الحركات المحلية .

وفكرة هذا المذهب هى التدنيس ، فلا تتم شعائر التوسل بالشيطان الا بتدنيس شعائر الدين وسحق أقدس رسومه ورموزه . وهو ما يعنيه ابن خلدون في مقدمته بقوله : « رياضة السحر كلها انما تكون بالتوجيه الى : الأفلاك ، والكواكب، والعوالم العلوية، والشياطين بأنواع التعظيم، والعبادة ، والخضوع ، والتذلل ، فهى لذلك وجهة الى غير الله وسجود له ، والوجهة الى غير الله كفر » .

والواقع أن ريحـا عاتية شـاملة من شغف الخفـاء ليث نحو ثلاثة قرون تعبث بعقلية المجتمعات الأوروبية ، وتمعن فى تحطيم التعاليم والتقاليد الدينية والكنيسة ، ولبثت الكنيسة من جانبها تطارد هذه الحركة بكل قوة وعزم تارة بانشاء الجماعات الدينية الرجعية ، وأخرى بواسطة مجالس التحقيق . وفى عام ١٤٦٠ م ظهرت بادرة بوجود طائفة سرية منظمة لعبادة الشيطان ومزاولة السحر حيث اندس السحرة والمشعوذون فى جميع المجتمعات الاوروبية ، وعهد فى معظم الدول الى القضاء المدنى بمحاكمة أعضاء هذه الطائفة لاستفحال أمرها واشتداد عبثهـا . وقد كانت ميول العصر وتقاليـده ترمى الى أن تلحـق المخـترعين والكيمائيين وغيرهم من النابهين بطائفة السحرة وأخوة الشياطين ، وكان العلم يعتبر من العناصر الشيطانية حتى أن معظم العلماء والفلاسفة الذين كان تفكيرهم يسمو على هذا العصر كانوا معرضين دائما للريب والشبهات .

ويقول فولتير : « كان يلجأ عادة الى اليهود فى تأدية الشئون السحرية ويرجع هذا الوهم القديم الى أسرار الكابالا(١) التى يزعم اليهود أنهم وحدهم يملكون اسرارها . وكانت كاترين دى مديتشى ، والمارشال دانـكر وكثـيرون غيرهما يستخدمون اليهود من أجل هذا الامتياز » .

والحقيقة أن نسبة السحر الأسـود الى اليهود منذ أقدم العصـور برغم ما يشوب هذه الروايات من مبالغة له أساس ، فقد جعلوا من أنفسهم موضعا للشبهة والشك بالانهماك فى مزاولة فنون السحر ، وأكثر من ذلك أن التوسل الى الشياطين فكرة يهودية فى الأصل ، بل هى من تقاليد اليهـود ومعتقداتهم القومية فقد ورد فى التلمود مثلا :

---

(١) الكابالا مزيج من الفلسفة والتعاليم الروحية ، والشعوذة والسحر متعارف عليهـا عند اليهود منذ اقدم العصور ، وقد ظهر اثر تعاليمها فى المجتمعات الأوروبية وبالأخص منذ القرن الثانى عشر ، وخلاصة هذه التعاليم هى ان الله هو كائن مطلق ولما كان هذا الكائن يشعر بوجوده فهو ينفث نفسه الى عالم الأرواح النقية والملائكة من طرق مختلفة ، وان روح الانسان تنتقل من جسم الى جسم حتى تعود فى النهاية الى الله وتفنى فيه .

« اذا استطاعت العين أن تبصر الشياطين التى تعمر الـكون كله كانت الحياة ضربا من المستحيل ، ذلك لأن الشياطين أكثر منا عددا ، وهم يحيطون بنا من كل صوب ، ولكل منا على يساره ألف شيطـان ، وعلى يمينه عشرة آلاف » ويعدد التلمود فوق ذلك الطريق التى يستطيع الانسان أن يبعد بها الشياطين وغيرها من ضروب التخويف والوهم ٠

* * *

ولا ريب أن السحر كان قوة عظيمة فى مثل تلك العصور التى كان يعصف فيها الجهل المطبق بعقلية المجتمع ، وكان للخرافات والأوهام السخيفـة التى تلصق بالدين سلطان قاهر على النفوس ، كما كان التماس السحرة لعالم الخفاء والغيب فتنة خلابة للذهن البشرى ، ومن ثم كان نفوذهم وكان انتشار تعاليمهم وطرقهم فى جميع أنحاء العالم ٠

وفى منتصف القرن السابع عشر عصف بالمجتمع الأوروبى وباء رهيب من الشعوذة ، واجتاحها شغف الاحاطة بما وراء الطبيعة والغيب ، وذاع السحر فى معظم البلاد الأوروبية ٠ وقد ظهر هذا التطور واضحا فى فرنسا فى عهـد لويس الرابع عشر حيث اجتاحت المجتمعات الراقية حمى الأبحاث الطبيعية ، كمحاولة استخراج الذهب من المعادن الرخيصة ، وصنع السموم والمخدرات والمركبات الغرامية ٠ وظلت تلك الأعمـال الرهيبـة التى كانت تروع الناس بأسرارهـا وضحاياها مستمرة مختفية حتى اكتشفت مأساة السموم سنة ١٦٦٦ م عقب موت الشيفاليه دى سانت كروا ، والقبض على خليلته المركيزة دى برافلييـه ٠ ولم يكن السحرة الذين يعملون فى هذا الوقت أفرادا متفرقين يعملون باستقلال ذاتى ، انما كانوا ينتمون الى جمعية سرية كبرى ذات شعب وفروع فى جميع أنحاء أوروبا ، وقد كشفت التحقيقات عن هذه المأساة مفاجأة غريبة ، فقد ظهر أن المتآمرين حاولوا مرارا أن يقتلوا : الملك ، وولى العهـد ، وكوليـير ، ومدام دى لافلير ، بواسطة السم ، وأن الكثيرين من الخاصة وعظماء البـلاط كانوا يلجأون الى السحرة والمسممين للانتقام وقضاء حاجاتهم ، حتى قيـل أن مدام دى مونتسبان خليلة الملك كانت تسعى الى استبقاء غرامه ووده باقامة القداس الأسود ، والاستعانة بلافوازان أشهر ساحرة فى هذا العصر ٠

وفى القرن الثامن عشر حيث كانت النهضة العلمية لا تزال فى المهد وصلت أساليب الجمعيات السرية الى ذروتها من الانتشار والتسلط على الأذهان • هذا الدور الجديد كان يكمن فى القوة الخارقة التى يدعى السحرة والمشعوذون أنهم بلغوا فيها درجة لا تضارع من الازدهار ، فذاع أمر أكسير الحياة ، وظهر جماعة من أقطاب الدعاة السريين بذوا سلفهم فى الابتكار والتأثير ، والتسلط على الأنفس •

كان هذا العهد عصرا ذهبيا للأدعياء والعرافين السحرة ، وكان أولئك الدعاة يناهضون العلم من جانبه الغامض ، ويزعمون أنهم وصلوا الى ما لا يستطيع العلم ادراكه • ففى الوقت الذى بدأ فيه العلم دراسة الموضوعات الطبيعية دراسة جديدة نهض فردريك مسمر(١) الالمانى زاعما أنه يستطيع شفاء جميع الأمراض ، ولا سيما الأمراض العصبية وذلك بتعريض أجسام المرضى الى تأثير ما كان يسميه بالمغناطيسية الحيوانية • واستطاع أن يؤسس من الذين وفدوا اليه طلبا للشفاء جمعية سرية عرفت « بأصدقاء التناسق » • وان كنا لا نستطيع أن نقدر من الناحية العلمية قيمة ما قام به هذا الالمانى من أعمال اذ كان الشفاء يأتى للمرضى على أثر نوبة عصبية تعترض المريض ، الا أننا نستطيع أن نقول : أن ايمان المريض وعقيدته كانا يساعدان غالبا فى نجاح التجربة فى كثير من الأحوال .

وبالاضافة الى تلك الجهود التى قام بها مسمر آمن بتجاربه وعلمه نفر من الأطباء والعلماء ، ورأوا أنه افتتح الطريق الى ميدان مثمر جدا ، واعتبروا أن مغناطيسية مسمر الحيوانية هى التى تطورت بعد تجريدها من نواحيها الخرافية الى علم حقيقى نعرفه اليوم باسم التنويم المغناطيسى والذى سنتحدث عنه فيما بعد •

---

(١) ولد فرانز انطوان مسمر فى عام ١٧٣٣ م فى قرية صغيرة فى النمسا هى قرية ايسنانج بالقرب من بحيرة كونستانس • وكان مسمر قد عقد النية على الرهبنة فالتحق بمدرسة الرهبان حتى سن الخامسة عشرة ثم تحول الى القانون ، وفى نهاية الأمر درس الطب وحصل على درجته العلمية وهو فى سن الثانية والثلاثين بعد أن قدم رسالته عن تأثير الكواكب على الجسم البشرى ، وتضمنت رسالته هذه أول اشارة الى آرائه عن « المغناطيسية الحيوانية » وهى نظرية توسع فى شرحها بعد ذلك فى « مجموعة المقترحات السبعة والعشرين » المشهورة وتضمنت فى جوهرها النقاط الرئيسية لتعليمه •

وفي هذا العصر أيضا ظهر كثير من السحرة الأصاغر مثل : شريدر الذى أسس عام ١٧٧٦ م جمعية سرية لمزاولة السحر، وجاسنر الالمانى الذى عكف حينا على مزاولة الأعمال الخارقة والمعجزات ، وليون اليهودى وهو عضو من طائفة لبثت حينا تغرر بعقول البسطاء وتسلب أموالهم بعرض المرايا السحرية التى يرون فيها أصدقاءهم الغائبين • ومن هنا نجد أن هذا العصر انتابته هذه الموجة العاصفة من الاعتقاد في تلك الاعمال ، مما مكن هؤلاء المشعوذين من أن يسيطروا على عقول العامة وعقول الطبقة المختارة من النبلاء وغيرهم ، وذلك لأن شغف الخفاء كان ينتاب هذا المجتمع •

ومن ثم فاننا نجد أن هذه الحركات التى سبق ذكرها استخدمت كثيرا من الوسائل السيكولوجية والميتافيزيقية المعروفة من : ارهاب ، وخوف ، وقلق • واستغلال التعصب الدينى والسياسى ، وكذا الشهوات والأهواء البشرية ، واعمال الشعوذة والسحر الاسود ، والمخدرات ـ فى السيطرة على عقول الناس وتحويل معتقداتهم وأنماط سلوكهم الى معتقدات جديدة وأنماط من السلوك تختلف تماما عما اعتادوها من قبل •

* * *

على أن المقارنة بين الأساليب التى سبق ذكرها ، وتلك التىتستخدم بواسطة القبائل البدائية فى جميع أرجاء العالم لاعداد المراهقين من الصبية وتكييفهم نحو المجتمعات الدينية يجدر بنا ذكرها لأن العوامل الفسيولوجية التى تحكمها تكاد تتشابه • ومع ذلك ففى مثل هذه الحالات نجد أن للميول الجديدة المطلوب تثبيتها اتصالا وثيقا مع تجاربها السابقة وتقاليدها الثقافية الموروثة •

ويصف جوستاف بولندر فى كتابه « أكمة الشيطان » كيف يؤخذ أبناء غرب أفريقيا من والديهم الى معسكر فى الغابات حيث يخلعون ملابسهم ويتعرضون الى عناء فسيولوجى شديد باثارة الخوف فيهم ، فكان أول ما يتعرضون له هو أن يقدم المشرف عليهم لهم شرابا ويوحى اليهم بأنه سوف يقتلهم عاجلا أو آجلا اذا ما كشفوا أسرار هذا المجتمع أو تفاصيل الطقوس التى سيمارسونها ، ثم يتلو ذلك الحمام الدينى ، وعند الأصيل يقفون فى صف واحد ليشرح لهم :

« ان الحياة خارج « بورو PORO » لا تساوى شيئا ، والانسان الذى لا يحصل على شرف عضويته يسبح فى الظلام ، اذ أنه لا يمكن له الا عن طريق « بورو » أن يدرك الهدف الذى يعيش من أجله ، والشخص الذى يرغب فى أن يصبح عضوا فى « البورو » لا بد له أن يودع الحياة التى عاشها من قبل ، ومن ثم يولد من جديد ! » •

وحينئذ يعرض عليهم وهم فى هذه الحالة من التوتر والخوف قناع الجمعية السرية ، فيقترب منهم بعيون جاحظة وحواجب كثة مع فكين متضخمتين كفكى التمساح الذى تتلألأ أسنانه وهى مخضبة بالدماء ، وتنساب لحيته كالشبح المسن، وله قرون وريش فوق رأسه بحيث يظهر على شكل لا علاقة له بالشكل الآدمى ، بل يكون أقرب الى صورة الشيطان •

ويبدو هذا الشيطان حقيقيا بالنسبة للأولاد فيزداد رعبهم ، الا أنه ليس مسموحا لهم أن يحدثوا أى صوت يعبر عن الجزع ، ثم يوضعون جنبا الى جنب على الارض ، ويقوم مساعد الشيطان بحمل كل واحد منهم بالدور ويضعه بين فكي الشيطان وهو فاقد الوعى نتيجة الخوف • وحينئذ ينقلون ثم يتعرضون فجأة لطقوس أليمة من الوشم الدينى ، ويصاحب الحفل أصوات عالية من أصوات الآلات الخشبية •

وبالتدريج يسترد الأطفال أنصاف الواعين حواسهم ويحسون اقتناعهم بأن الشيطان قد انتهى معهم ، وقد رفعهم بورو الى مستوى حياة جديد •

وبعد أن يتم اندمال الوشم فى أيام قليلة ، يبدأ الاولاد عملية تدريب طويلة فى المعسكر المخصص كأعضاء نافعين للقبيلة والمجتمع الذى أصبحوا من افراده ، وتتبدد عادات الطفولة فيتعلمون الى جانب ما يلقنونه من التعاليم الاتجاهات الصحيحة التى يجب عليهم السير فيها لزيادة صلابتهم وقوتهم ، كما يدربون تدريبا جيدا على: الأشغال اليدوية البدائية، والتجارة ، وصيد الأسماك ، وما شابه ذلك •

ولازالة بقايا الشخصية الفردية أو الآراء غير المستقيمة تستخدم تدريبات معينة تبدأ بحركات مملة يقوم بها الولد وتنتهى بطقوس صوفية ، والعامل الاول هنا هو الرقص . فيقوم الأولاد بالرقص حول الشجرة فى بطء ورءوسهم منحنية تصاحبهم الطبول الخشبية بأصواتها وبدون توقف ، ويستمر الرقص البطىء المتوافق ساعات بعد ساعات ، وفى النهاية يصبح الأولاد نصف وأعين يتحركون آليا على النغم المستمر المتـكرر ، فيحسون أنهم ارتفعوا عن الارض وأصـبحوا مندمجين فى وحدة مع شيطان الغابة القوى ، ويشعرون أن روحهم قد ارتفع شـــأنها .

ويقص فريزر أمثلة أخرى عن الاعداد الدينى فى كتابه « الغصن الذهبى » The Golden Bough فيقول :

« ان بعض القبائل فى شمال غينيا الجديدة . وكثيرا من القبائل الاسترالية كذلك تجعل الختان مظهرا جوهريا من مظاهر الاعداد القبلى ، وهم يعتقدون أن هذا الاعداد عبارة عن عملية ابتلاع يقوم بها حيوان أسطورى ضخم يسمع صوته عند همهمة آلة خشبية أسمهـا Bull Roarer تدور حول الرأس فوق وتر فتطلق صوتا يشبه صوت الثور الذى يخور ، أو العاصفة العاتية » .

ويستمر فى شرح هذه العملية ووصف بعض وسائل الابتلاع التى لابد للشخص من أن ينجو منها بقوله :

« والآن عليه أن يمر بعملية الختان الخطيرة ، ويفسر البتر الذى يتم بمبضع الجراح على أنه عضة أو هرشة يقوم بها الوحش الرهيب فى الشخص عندما يلفظه من بين فكيه القويين ، وفى أثناء العملية تطلق الدفوف الخشبية المتأرجحة صوتا رهيبا لتمثل زئير الوحش فى أثناء عملية ابتلاعه للشيطان .

وبعد أن تتم طهارة الصبية يبقون لبضعة أشهر فى خلوة ، ويحرم عليهم اى اتصال بالنساء أو حتى مجرد رؤيتهن ، فيعيشون فى الكوخ الطويل الذى

يمثل بطن الوحش الهائل • وفى النهاية عندما يرقى الصبية الى رتبة المتبتلين يردون بحفل صاخب الى القرية فيستقبلون بدموع الفرح من جانب النساء كما لو كانت القبور قد لفظت من فيها من الموتى » •

لقد ترك كل واحد منهم قريته طفلا ، وها هو ذا يعود اليها رجلا له شأنه ، ومن ثم فهو يثب فى الفضاء بنشاط وخفة مزهوا بنفسه ليثبت اكتمال قوته ورجولته •

وفى احتفالات أصحاب الأديان البدائية ، نرى دقات الطبول المنتظمة وحركات الرقص العنيفة تصل بالانسان الى حالة من حالات الانهيار الانفعالى والفسيولوجى ، اذ يحدث أن تشيع الفوضى فى وظائف المخ الطبيعية نتيجة الهجوم عليه بأنغام صوتية متوافقة قوية تليها أخرى بتوقيت مختلف مع حركات الرقص العنيفة ، وغالبا ما تستعمل المشروبات الكحولية ، والعقاقير لزيادة استثارة الراقصين الدينيين •

هذه العوامل مجتمعة تساعد على أحداث الانهيار العصبى ، وتسيطر على النفس مشاعر التحرر من : الاثم ، والخطيئة ، والاحساس ببداية حياة جديدة ، ويكون الانسان مستعدا لتقبل أى ايحاءات أو معتقدات •

وتوضح الطقوس الدينية التى تمارسها بعض القبائل فى غرب افريقيا مدى سهولة تقبل الايحاءات عن طريق تعرض المخ لتوترات فسيولوجية عنيفة ، وللساحر فى هذه القبائل أساليب متعددة من العبادة ، ويمارس الأهالى طقوسهم فى جو صاخب من دقات الطبول ، والرقص العنيف •

فاذا ما أصيب شخص بمس مثلا فانه يحضر الى الساحر الذى يأمره بان يقوم بحركات تنسجم مع ما يتطلبه نوع معين من الطقوس الدينية حتى يصل الى مرحلة من الغيبوبة ويفقد القدرة على التذكر ، ولكنه عندما يسترد وعيه مرة أخرى بعد ساعة ، أو أكثر يشعر كأنه ولد من جديد •

وتبين حالة الرجال والنساء الذين أعدوا لحالة من الحالات القابلة للايحاء بواسطة دقات الطبول قوة مثل هذه الاساليب ، فزيادة الاستثارة والقابليةنتيجة تغيير ارتفاع دقات الطبول ، وقوة الغناء والتصفيق بالايدى لزيادة حدة الحماسة الدينية تؤدى فى النهاية الى احداث الانهيار التام حيث يتحـــول الافـــراد الى استسلام تام ، وحينما يستيقظون بعد ذلك يشعرون بمشاعر البعث الجديد .

ويؤيد ذلك ما تقـــوله بيرل بريمس Pearl Primus الكاتبة الزنجـــية الامريكية فى كتابها « الرقص الافريقى » :

« لا أستطيع أن أفـكر فى أفريقيا دون أن أســـمع ثانية دقات الطبول العالية ، ودون أن تمر أمام عينى حشود الراقصين ، وسرعان ما أحس الاستجابة حتى كأنى أفكر فى نفسى وكأننى أركع على ركبتى أمام « أوانى » زعيم شعب « الايفى » IFE لأسمع من بين شفتيه « أومى .. والى » أى « الطفلة التى تعود الى وطنها » ، وكلما خطر لى هذا أحس وكأن قوة خفيـــة تمسك بذراعى معطلة سير عجلة الزمن فاتوقف عن الكتابة لأهدىء هذا الجانب من روحى الذى يصرخ بى قائلا : « أرقصى .. أرقصى » .

وليس من الصعب أن ندرك السبب الذى يجعل للرقص مع ما يصحبه من دقات الطبول والموسيقى والغناء هذه المكانة الكبيرة فى حياة القبيلة ، فالرقص والغناء هما فى أبسط صورهما تعبيـــر أولى عن عوامل اثارة المشـــــاعر ، وعن الاستجابة طواعية للباعث عن هذه المشاعر ، فاذا كان الباعث يسبب توترات فى بعض المناسبات فان الحركات والتعبيرات الصوتية لا تلبث أن تاخذ طابع اظهار السرور فى الزواج أو عند مولد طفل .

وتتوافر مظاهر ردود الفعل لهذه المناسبات فى أنها لا تجىء وسيلة لاطلاق العاطفة فحسب ، بل فى زيادتها وتعظيمها ، فمثلا تعمل الروح الاعتدائية التى يُعبر عنها برقصة الحرب على ايجاد اندفاع تعصبى بين أفراد القبيلة نحو العدو .

* * *

على أنه اذا كان الرقص يلعب هذا الدور الكبير فى حياة القبائل البدائية الدينية ، فانه كان له الأثر فى المجتمعات الاوروبية ٠

ففى القرن الرابع عشر انتشر الطاعون فى أوروبا وقضى على الملايين من البشر ، وسرعان ما ساد وهم غريب فى ألمانيا استولى على أذهان الرجال بأن رقصة القديس جون ، أو بمعنى آخر القديس فينس تقى الناس هذا الوباء ٠ وصدق الكثيرون هذا الوهم متأثرين بالقفزات الكهنوتية التى كان يتميز بها هذا النوع من الرقص ، وكانت حركات الرقص العنيفة ، وصراخ الراقصين ، وثورة غضبهم تعطى مظهرا بأنهم قد مسهم الجن أو الشيطان ٠

ويصف ج٠ ف٠ هيكر جنون الرقص الهستيرى الذى انتشر فى أوروبا بقوله :

« يكون الراقصون دائرة فى الشوارع أو الكنائس ، ثم تتشابك أيديهم ويستمرون فى الرقص دون أن يأبهوا بالواقفين الى جوارهم لساعات كاملة ، وفى النهاية وبعد هذه الثورة الهوجاء يسقطون على الارض فى حالة انهيار تام » .

وحتى بداية القرن السادس عشر عندما أصبح جنون الرقص موضوع اهتمام طبى من جانب باراسيليس الالمانى وغيره كانت الكنيسة وحدها هى التى تعتبر قادرة على علاجه ، وقد تنبأ هيكر بأن الدواء الناجح لشفاء هذه الحالات هو أن تجعل المريض يستمر فى رقصة حتى يصل الى نقطة الانهاك الكامل والانهيار العصبى ٠

وكان الواقفون أمام حلقات الرقص لايستطيعون أن يكبحوا جماح الراقصين الا بوضع عوائق ومقاعد فى طريقهم ، حتى يستطيعوا أن ينهكوا قواهم باغرائهم بالقفز عاليا ٠

وكان الراقصون بعد أن تنهك قواهم يتساقطون على الارض كالأموات ، ثم يستردون قواهم تدريجيا وببطء ٠ على أن العلاج بواسطة أحداث مثل هذه

النوبات نجح تماما لدرجة أن عاد كثير من المرضى الى مصانعهم أو مزارعهم وكأن شيئا لم يحدث لهم .

وظهر جنون مشابه تماما فى القرن السابع عشر فى ايطاليا حيث عزيت الأعراض العصبية الى عضة عنكبوت الذئب الضخم Tarantula Spider واستخدمت رقصات الذئب لضمان شفاء المرضى ، ويذكر هيكر أن هذا الاعتقاد كان لا يزال قويا للغاية لدرجة أنه شاهد مرضى يقاسون من أمراض الحمى الخبيثة وهم يجبرون على الرقص على نغم الموسيقى لخشيتهم من أن تكون الاعراض راجعة الى عضة الذئب . وقد مات واحد من هؤلاء فى الحال ولحقه اثنان بعد فترة وجيزة .

* * *

ولقد اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية الطاعون « الموت الاسود » كنوع من العقاب نتيجة مساوىء أمة المسيحيين ، واستغلت التهديد بعودته كوسيلة من وسائل اعادة النفس الى الخضوع ، والى التفكير الحقيقى .

وقد تم بموافقتها انشاء جمعية « اخوان الجلادين » والتى كانت تسمى « اخوان الصليب » حيث كانت تتم فيها اجتماعات للاعتراف علانية بالخطايا ، والتوسل الى الله لرفع غمة الطاعون ، وأصبحت جماعات « اخوان الصليب » منظمة تنظيما جيدا .

وعلى الرغم من أنها بدأت كطبقة عاملة ، وحركة من حركات عمال الزراعة فان الطبقات الأكثر ثراء هى التى سيطرت عليها . وكانت وسائلها للاستثارة الجماعية فعالة للغاية ، اذ كانوا يدقون النواقيس وينفخون المزامير ، ويجلدون أنفسهم حتى تسيل الدماء . وقد وجد قادتهم أن من المفيد أن ينظموا الحملة ضد اليهود لا لتهمة صلب المسيح القديمة ، ولكن لتهمة جديدة وهى نشر الطاعون عن طريق تسميم الآبار .

وكما لقى هتلر فى تحويله الجماهير الالمانية للعقيدة النازية العون من : نغمات الموسيقى ، والأغانى الحماسية ، ومواكب الشعلة ، وما شابه ذلك لاثارة

الناس وجعلهم فى حالة من الهستيريا لتقبل أى ايحاءات قبل أن يتحدث اليهم ، فان نفس الأساليب ساعدت اخوان الصليب الذين تنبأوا بغضب المجتمع على السامية ، ففى مدينة مينز وحدها انتحر فى يوم واحد اثنا عشر يهوديا ، وغالبا ما كان وصول موكب من مواكب اخوان الصليب الى أى مكان علامة من علامات المجزرة التى ستحدث •

* * *

على أن التبشير عن طريق العقل دون احداث استثارة انفعالية فى المستمع يعتبر عديم الجدوى ، ففى حركة الاحياء الدينى لمذهب جون ويزلى لم تنجح جهوده كمبشر وواعظ الا بعد أن نجح فى خلق نوع من الانفعالات فى مستمعيه ، وتمكن من مخاطبة العاطفة أكثر من مخاطبة الذكاء ، وقد حصل بذلك على أسلوب فعال فى تحويل الناس نحو مذهبه الدينى •

كان أول شىء يقوم به ويزلى هو أن يخلق توترا انفعاليا عاديا فى من يود تحويلهم ، ولقد وجد أن من السهل اقناع عدد كبير من المستمعين بأن عدم التوفيق فى الحصول على الخلاص يستتبعه دائما عذاب الجحيم الأبدى ، وكان تقبل الناس لهذا الايحاء تجعلهم فى حالة توتر انفعالى شديد لدرجة أن أى شخص كان يغادر الاجتماع دون أن يتحول ، ثم يصيبه حادث مفاجىء خطير قبل أن يكون قد حصل على الخلاص فأنه يشعر بأنه يسير مباشرة الى أتون النار ، وكان هذا الشعور الملح يزيد القلق السائد الذى يمكن نقل عدواه الى جماعات الناس كلما ازدادت القابلية للايحاء •

ويصف جون نلسون وهو واحد من أقدر اتباع ويزلى التائبين كيف تحول فجأة نحو هذا المذهب بقوله :

« وبمجرد أن اعتلى ويزلى المنصة دفع بشعره الى الخلف ، واتجه بوجهه نحوى حيث كنت أقف ، واعتقد أنه ثبت عينيه على وأشاع منظره الرعدة فى أوصالى قبل أن أسمعه يتكلم ، لدرجة أنه جعل قلبى يدق كبندول الساعة ، وعندما تكلم شعرت أن حديثه كله كان موجها الى » •

وقد عرف ويزلى فى الوقت المناسب أنه لكى يسيطر على السـامع يجب عليه أن يقيس أولا قدراته العقلية والانفعالية ، ويقول فى تقرير له عن تجواله فى أيرلنده عام ١٧٦٥ ميلادية :

« وكبت الى ووتر فورد وألقيت موعظة فى فناء صغـير عن قسنا العظيم الاعلى الذى انتقل الى ربه فى سمائه من أجلنا ، ولكننى سرعان ما وجدت أننى ارتقيت بأسلوبى الى مستوى أعلى من مستوى أغلب المستمعين اذ كان واجبى يقضى على بالتحدث عن الموت ويوم الحساب • وفى مساء الثلاثاء نظمت حديثى بحيث يناسب المستمعين فلاحظت الانتباه العميق وقد ارتسم على كل وجه » •

ويصف ويزلى احدى نتائج عظاته بقوله :

« بينما كنت أتحدث سقط واحد أمامى كالميت ، وفى الحال تبعه ثان وثالث، وغاص خمسة آخرون فى أماكنهم لمدة نصف الساعة ، وكان أغلبهم يعانون آلاما عنيفة ، اذ سيطرت عليهم فكرة عذاب السعير ، وتحكمت فيهم فخاخ المـوت ، وحينما توسلنا الى الله استمر أحدهم يحس أوجاعه الشديدة لمدة ساعة ، وظلت الآلام تؤرق واحدا او اثنين آخرين لمدة ثلاثة أيام ، على حين ظهرت راحة النفس على الآخرين فى تلك الساعة ، وانصرفوا فرحين مهللين ومكبرين لله » •

ويلاحظ أن فى مثل هذه الاساليب من الوعظ لا تكفى الهجمات الانفعالية على المخ للقضاء على الأنماط السابقة للسلوك ، لأن الانسان غالبا ما يحاول أن يهرب من هذا التوتر الاجبارى ، فنيران الجحيم تتراءى للعين فقط كنتيجة لرفض هبة الخلاص الأبدى الذى يكتسب بالايمان ، ولذا فان الانهيار العصبى الناجم عن محاولة الخلاص من العذاب الأبدى عن طريق التحول الـكامل يمكن تعزيزه حينئذ بالاستعانة بدستور حب الله • ومع أن العقاب على الارتداد عن العقيدة يجب أن يكون عالقا بالاذهان ، فان استغلال الحب حينئذ بدلا من اثارة المخاوف يساعد الى حد كبير فى تثبيت هذا الكسب •

على أن هناك تباينا شاسعا من ناحية درجة الخوف أو المتاعب التى يتعرض لها الانسان قبل أن يحصل على دليل للخلاص ، أو العفو ، أو القبول عند الله ، فبعض الناس يشعرون منذ البداية بأمل وشجاعة زائدة عن غيرهم ، ويلاقى البعض متاعب نفسية أقل بكثير من غيرهم ، اذ يبدو الموضوع بالنسبة لهم سواء ، كما كان يخشى آخرون غضب الله والخطر المحدق بهم من اللعنة لدرجة انهم لم يستطيعوا النوم ليلا ٠

وفى أغلب الأحيان كانت المخاوف الرهيبة والمتسلطة على الأشخاص تزداد بصورة أكثر كلما شعروا بقربهم من لحظة الخلاص على الرغم من أنهم غالبا ما كانوا يمرون بتغييرات وتحولات فى نطاق عقولهم وظروفها ، فأحيانا كانوا يعتقدون أنهم فقدوا الوعى تماما ويخشون أن روح الله قد تخلت عنهم وتركوا لأقدارهم الصعبة ، وفى أحيان أخرى يبدو لهم أنهم قد امتحنوا امتحانا قاسيا من هذا الخوف وأصبحوا فى لهفة تامة نحو الايمان مرة ثانية ٠

* * *

على أن الطقوس الدينية التى كان يمارسها راسبوتين الراهب الروسى الارثوذكسى، والتى كان لها سحرها العميق على آخر قيصرة فى روسيا ، اعتمدت على احداث الاثارة الانفعالية فى أتباعه كما أنها لا تختلف عن الأساليب المعروفة التى استخدمت فى عمليات التحويل الدينى أو السياسى ٠

ويصف الامير يوسو فوف الذى أحس عام ١٩١٦ م أن واجبه الوطنى يحتم عليه اغتيال راسبوتين هذه الأساليب بقوله :

« لقد خضع راسبوتين لنفوذ قسيس أيقظ فيه الروح الصوفية الا أن تحوله كان يعوزه الاخلاص ٠ وتبعا لطبيعته الشهوانية الوحشية انجذب بسرعة الى طائفة الجلادين الذين يدعون أنهم تلقوا وحى الكلمة ، وأنهم تجسدوا روح المسيح ٠

« وقد اعتاد اتباعه الاجتماع ليلا في كوخ او منطقة فضاء في احدى الغابات تضاء بمئات القناديل • وكان هدف هذه الاجتماعات هو خلق انفعال ديني وثورة عصبية ، وبعد ترتيل التواشيح يكون الاتباع حلقة ثم يتمايلون في حركات متوافقة ، ثم يدورون بعد ذلك وتزداد حركة دورانهم •

« ونظرا لأن حالة من حالات الغشيان تعتبر جوهرية من أجل الفيض الآلهي، فقد كان سيد الحفل يجلد أي راقص يخبو نشاطه ، وينتهي الحفل بخلاعة بشعة فيتمرغ كل شخص على الارض وهو في حالة غيبوبة ، أو في حالة تشنج فيقولون : ان الشخص الخاضع لسيطرة الجن لا يملك نفسه بل يصبح مملوكا للجن الذى يسيطر عليه ، ويعتبر مسئولا عن جميع أعماله وعن كل خطيئة يرتكبها » •

* * *

ويصف لنا د • فورستيه في كتابه عن الماسونية صورة لما كان يحدث في احتفالات الماسونيين الفرنسيين ، وهي صورة أخرى للأساليب التي تستخدم لخلق استثارة انفعالية في الأعضاء حتى يصبحوا في حالة استعداد لتقبل تعاليم الجمعية :

« يبدو ان المائدة كانت النقطة الثابتة التي تجمع البنائين الأحرار • انهم يريدون ان يأكلوا ويشربوا ويستمتعوا ، وهذا ما يثير تأملاتهم » •

كان الشراب يتغير على المائدة ثلاث مرات أو خمسا أو سبعا أو تسعا ، وكانوا يطلقون على الزجاجة برميلا صغيرا وعلى الخمر والماء بارودا • ان الماء بارودا أبيض والخمر بارودا احمر • وكانوا يتدربون على طريقة خاصة للشراب فحينما يشربون في الاحتفالات يقولون : « أعطني من البارود » فيقف كل منهم ، ويقول المحترم « عبئوا » فيضع كل منهم خمرا في طاسته لأنه كان لا يسمح لهم باستخدام الكئوس •

ثم يقال لهم بعد ذلك : « ارفعوا الأيدي الى السلاح ، النار ، فيقومون بحركات ثلاث وهم يشربون ــ ففي الحركة الأولى يضعون الأيدي على الطاسة ،

وفى الثانية يضعونها امامهم كأنهم يعرضون سـلاحهم ، وفى النهاية يشربون وعيونهم مصوبة الى المحتـرم ليقوموا بالتمرين دفعة واحدة • وحين يسحبون الطاسات يضعونها أمامهم ثم يحملونها الى الثدى الايسر فالى الثدى الايمن ، ويقومون بهذا العمل ثلاث مرات ، ثم يهتف كل منهم بصـوت عال ثلاث مرات كلمة يعيش •

ولما كانت الوليمة لا تتم دون أغان فان البنائين الاحرار قد نظموا أغنيات تؤكد ايمانهم بباخوس « اله الخمر » وبالمحبة الانسانية •

وكانت هناك محافل كثيرة يجرى فيها الغناء مصحوبا بأصوات أبواق الصيد وغيرها من الآلات ، حيث ينشر اتساق النغم شعائر الاتحاد الوثيق ، وفى نهاية الوليمة كان المدعوون يشكلون سلسلة بتشابك ايديهم وينشدون نشيد انتهاء المحفل بحماسة شديدة وهم متأثرون من الخمر :

ايها الاخوان والرفاق فى الماسونية ••

لنستمتع دون غم ••

بمسرات الحياة ••

وليكن شرابنا نخب اخواننا ••

برهانا على اتفاقنا ••

* * *

ولقد أثبتت تجـارب بافلوف وتجـارب علاج مرضى الاعصاب فى الحرب العالمية الثانية أهمية العوامل السيكولوجية والفسيولوجية فى مسائل التحول الدينى والسياسى • وقد رأينا أن نجـاح غرس العقائد الجديدة ، وازالة أنماط

السلوك القديمة تطلبت خلق حالة من التوترات الشديدة لدرجة قد تؤدى الى حالة من الانهيار وتوقف وظائف المخ ٠

ويصف آرثر كوستلر Arthur Koestler (١) فى كتابه « السهم الازرق » Arrow in the blue كيف تحول فجأة الى الشيوعية :

« على الرغم من أننى كنت أميل الى الشيوعية لمدة أكثر من عام ، الا أن القرار النهائى الذى أصبحت بموجبه عضوا فعليا فى الحزب الشيوعى جاء نتيجة سلسلة كاملة من أحداث بشعة تجمعت كلها فى أمسية من أمسيات شهر ديسمبر عام ١٩٣١ م لتجعلنى استثار الى درجة من الغضب والمهانة والاشمئزاز » ٠

والحق ان الانسان اذا ما استثير الى مثل هذه الدرجة ، فانه غالبا ما ينهار ويصبح من السهل تقبله لاى ايحاءات ، لان الانسان كما وضحنا فى الفصل السابق حينما يتعرض لتوترات شديدة متزايدة فان اضطرابات مختلفة تحدث فى وظائف مخه تبعا لنمط مزاجه ، ويكون حينئذ مستعدا لتقبل أى ايحاءات ، كما أنه تنقلب أنماط سلوكه المشروطة كما سبق ذكره ، ويتجه نحو أنماط جديدة ٠

ويستمر كوستلر فى وصف حالته فيقول : انه ذهب فى مساء يوم سبت لاحضار سيارته من ورشة مكثت بها لمدة ثلاثة أسابيع لاجراء بعض الاصلاحات ، ولما استلمها كان سعيدا بعودتها اليه فقادها الى مسكن صديق حيث اجتمع مع بعض الأصدقاء وأخذوا يلعبون الورق ٠ وكان كوستلر يحب البوكر ولم يكن ماهرا فى اللعب ولكنه كان من النادر أن يخسر كثيرا ، الا أنه خسر فى هذا المساء ما يساوى أجر عدة اشهر وبشكل لا يمكن أن يتحمله ٠

وغادر المكان فى حالة ألم ويأس الى حفل ساهر استمر حتى الثالثة صباحا حيث شرب حتى الثمالة ، وعند انصرافه لم يتنبه الى أن البرد قد اشتد بدرجة كبيرة ، وأنه ليس فى السيارة جهاز مضاد للتجمد . فعندما تحركت السيارة

---

(١) A. Kostler, Arrow in The Blue, Hamish Hamilton, London, 1952.

انفجرت الماكينة التى دفع ثمن اصلاحها فى صباح اليوم ، وبرزت كتلة من الجليد خارج رأس احدى الاسطوانات ، فكان المنظر يجعل أى قائد سيارة يبكى حتى ولو لم تكن السيارة ملكا له .

وازدادت متاعبه بعد ذلك ، فقد رأته فتاة ريفية فى تلك الحالة المحزنة وعرضت عليه استضافته فى مسكنها القريب ، وحينما استيقظ فى الصباح شعر بوطأة تأنيب الضمير ، واللوم والقلق ، والاحساس بالذنب ، اذ وجد أنه اتصل جنسيا بفتاة لا يحبها ولا يشعر بها ، فضلا عن تحطيمه ماليا وتخريب سيارته .

ويعلق كوستلر بقوله :

« فسلسلة الحوادث المؤسفة فى مساء هـذا السبت بدت كأن القـدر قد رتبها ، فعند عودتى الى مسكنى كان قرارى قد اتخذ على الرغم من شعورى بأنه ليس قرارى ، ولكن القرار هو الذى صنع نفسه . وفى أثناء سيرى جيئة وذهابا فى حجرتى انطبع فى ذهنى انطباع مفاجىء مؤداه أننى كنت أنظر الى أسفل ومن ارتفاع شاهق الى الطريق الذى كنت أجرى فيه ، فشاهدت نفسى بوضوح كخيال أو ظل يخدم الثورة بالكلام ، تلك الثورة التى كانت تهز الارض هزا » .

وتحول كوستلر الى الشيوعية وظل شيوعيا مخلصا لمـدة ست سنوات تالية ، الا أنه حدث له بعد ذلك انقلاب مفاجىء يستوى فى شدته مع الاول ، وقد جاء هذا الانقلاب نتيجة سلسلة من الصدمات الانفعالية بعد أن أسر وسجن فى أثناء الحرب الاهلية الاسبانية .

لقد كان الخوف من التعذيب والاهانة ، وتصوره للموت الذى ينتظره بعد الحكم عليه بالاعدام ، ثم تصوره أمام حائط فى الشارع لنشر صورته فى متحف الاوغاد ويداه مصفدتان بالاغلال فى وسط جماهير معادية ــ كل هذه لعبت دورها فى احداث حالة له من التوتر الانفعالى .

وزاد هذا التوتر ما شاهده وهو فى السجن من عمليات الاعدام بالجملة ٠ ثم آتت فى ذهنه المثيرات التي أحدثت له التوترات السابقة وأوصلته الى اعتناق الشيوعية فقللت من مقاومته ٠

لقد تراكمت متاعبه الجديدة على القديمة حتى أثبتت وطأتها المستمرة أنها أكثر من أن يحتملها جهازه العصبى ، ومن ثم فقد جاء القرار ثانية بالعودة الى سلوكه القديم والارتداد عن اخلاصه للشيوعية ٠

الفصل الثانى

طبيعة التحول

تحدثنا فى الفصل السابق عن الاساليب التى واجهها الانسان عبر التاريخ لتحويل معتقداته الدينية والمذهبية ، والتى لاحظنا فيهـــا الارتباط الكبير بين الدين والسياســة ، كمــا يمكننــا أن نرى بانه فى كثير من حالات التحــول استغل الدين للسيطرة السياسية على جماهير الشعب ، كما أن الوسائل التى اتبعت والتى وقع على آثرها التحول كانت وسائل ذات طبيعة اخاذة مثيرة بلغت فى بعض الاحيان حد الهستيريا الجماعية •

والآن يجــدر بنا أن ندرس العوامل السيكولوجية التى تتضمنهــا عملية التحول الفردية ــ تلك العوامل التى سجلت فى كتابات السيرة لاشخاص جربوها بانفسهم • ويصف ذولس R. H. Thouless (١) فى « كتاب سيكولوجية الدين » الصراعات الكامنة وراء مثل تلك التحولات فى ثلاثة مجالات : صراعات فى غالبيتها خلقية ، وصراعات طابعها الســائد عقلية ، وصراعات فى معظمها اجتماعية ، ويقول : ان من المحتمل جدا أن تدخل العوامل الثلاثة فى معظم التحولات •

ومن الواضح أن عملية التحول تقوم على صراع عقلى وعلى احساس بعــدم الكفاية ، والا فلن يكون هناك مغزى من وراء تغيير معتقدات الفرد • وفى هــذا

(١) Thauless, Robert H. The Psychology of Religion, Cambridge University Press.

الصدد تشبه هذه العمليــة حالة الوقوع فى الحب التى يشرحها المحلل النفسى « ثيودور ريك » بقوله : « ان الحبيب المرتقب يعانى أولا من شعور عدم الرضا ، فقبل أن يقابل فاوست جرتشين وقبل أن يقـابل روميو جوليت كان كلاهما لا يحسان الرضا • ان الحب ليس أزمة ظهرت نتيجة لحالة عـدم رضاء نفسى ، فبعد ان يفشل الفرد فى تحقيق المثل الاعلى للأنا Ego-ideal ، يستخدم الفرد الحب كوسيلة لايجاده فى شخص آخر وبهـذه الطريقة يحقق صورة متكاملة • والشخص المحبوب يعتبر بديلا للمثل الاعلى للأنا ، والمحبان اللذان يقعان فى الحب يتبادلان تغيير المثل العليا للأنا بينهما • والتحول بالنسبة للكثيرين هو وسيلة لاسترجاع المثل الاعلى للأنا المفقود وهى عمليــة الوقوع فى الحب ، ولكن حتى الكراهية أو امكان ايجاد حل خلاق تستطيع أن تلعب دورا » •

يقول هوفر فى هذا الصدد : « ان هؤلاء الذين يسيطر عليهم الاحساس بالافتقار الى هدف فى حياتهم ـ قد يجدون مضمونا جديدا لا بتكريس انفسهم فحسب لقضية دينية ، ولكن أيضا بالتدريب على الاحساس بالتذمر المتعصب ، والحركة الدينية تتيح فرصا غير محدودة لكليهما » •

وقال وليام جيمس(١) متحدثا عن سيكولوجية الاستسلام النفسى •

« هناك طريقان فقط يمكن بهما التخلص من : الغضب ، والقلق ، والخوف ، واليأس ، أو العواطف الاخرى غير المرغوب فيهـا • الطريق الاول هو أنه من الواجب أن تجتاحنا عاطفة مضادة ، والطريق الثانى هو أن نرهق أنفسنا بالكفاح لدرجة تضطرنا الى التوقف • وهكذا فاننا ننهار ونستسلم ولا نهتم أكثر من ذلك • وتبدأ مراكز المخ الانفعالية فى العمل ، وننغمس فى حالة تبلد مؤقتة فى الشعور » •

---

(١) James William, The Varieties of Religious Experience, Fontana.

وقد اشرنا من قبل الى ان حالة الارهاق المؤقت تكون أحيانا جزءا من أزمة التحول ، كما ذكرنا كيف ان بافلوف أظهر بالتجربة أن الاجهاد العصبى هو أحد الظروف او الاحوال التي ادت الى تدمير انماط المخ القديمة .. واستبدالها بانماط جديدة .

ويؤكد جيمس هذا الاستنتاج بعد دراسته لآداب التحول فيقول : « ان الحب سعيا وراء موضوع ما ، والكراهية ، والغضب والقلق ، والياس والاجهاد الناجم عن الصراع العقلى أو الاجهاد البدنى ـ كل هذه حالات تعد العقل ـ فى ظروف بيئية مناسبة ـ للتحول الدينى .

وفى التاريخ امثلة كثيرة تؤكد ذلك ، فقد تعرض « القديس اوغسطين » قبل تحوله لضغط شديد من والدته التى حاولت اقناعه على التخلى عن عشيقته ، كما انه فى قصة « رابعة العدوية » نجد أن الطبيعة الانفعالية التى اتصفت بها عملية تحولها بعد ذلك كانت تحكمها الى حد كبير اعادة توجيه حبها الدنيوى الى الله ، وكانت القديسة كاترين فى جنوا ، ومدام جيون فى منتهى التعاسة فى حياتهما الزوجية قبل تحولهما الذى اتسم بطابع التصوف .

وينتقد براون J. A. C. Brown (١) عمل بافلوف فيقول : « ان العيب فى عمل بافلوف هو أنه اذا لم يكن لدينا بعض المعلومات عن الامراض النفسية من الناحية الشخصية كما يقدمها فرويد، فاننا سوف نضل الطريق لو استمررنا فى الاصرار على الاعتقاد بأنه من الممكن محو كل شىء من العقل ـ اذا تعرض لضغط ـ حتى يصير لوحة نظيفة تماما ، وبأنه من الممكن فرض أنماط جديدة عليه ـ أنماط لا صلة بينها وبين ما وقع من قبل ، ومعنى هذا أنه من الممكن تغيير الشخصية تغيرا كاملا الى شخص يختلف تماما عن الشخص الاصلى .

---

(١) Brown J. A. C. Techniques of Persuation, From Propaganda to Brain Washing, Penguin Book, Cox and Wpman Ltd, London, 1963.

وليس هناك ادلة تثبت ان هـذا صحيح فالتحول يوصف عادة على أنه عملية فجائية وأن ذروة العمليـة غير قابلة للتغير في غالبيتها ولكن من السـهل أن نستكشف من حالة مدروسة بعناية الطريقة التى سارت بها الحالة طوال الطريق. فالاتجاهات الجديدة تتخذ ، ولكن الاعتقاد بها يسير بنفس الطريقة التى اتبعت فى الاتجاهات القديمة . فكلاب « بافلوف » التى أظهرت أكبر مقاومة ممكنـة أمام انهيار الانماط القديمة ، كانت قد اظهرت أكبر مقاومة ممكنة للتحول الى الانماط الجديدة ـ فقد ظلت الكلاب كلابا عنيدة ! » .

وأحيانا تكون المعتقـدات الجديدة مشابهة بصـورة عجيبة فى المضمون الانفعالى للمعتقدات القديمة ، وأحيانا وحتى بعد التحول تدفع المعتقدات القديمة نفسها للظهور فى مجال الشعور من حين لآخر مبينة انهـا لم تمح نهائيا من صفحات العقل ولكنها كبتت فى اللاشعور الذى برزت منه المعتقدات الجديدة فى الاصـل .

وعلى سبيل المثال هنـاك حالة سردها « ذولس » عن رجل مهـذب كان يفرط فى شرب الخمر ولكنه كان يعيش على وفاق مع زوجته وأولاده ، ولم يهمل اى واجب عائلى ، وعندما تحول بفضل منظمة دينية تخلى عن عائلته وترك لها مالا قليلا حتى عانت ألوانا من الفقر ، وبعد عامين عاد الى حالته الاولى ، ولكنه عاد ليعيش مع عائلته فى جو ودى رسمى ـ ثم عـاد الى شرب الخمر مرة اخرى . ومرة أخرى تحول وفى هذه المرة عاش على المرتب الضئيل الذى منحته له المنظمة الدينية ، ورفض أن يعول زوجته وعائلته اطلاقا ، وأعلن أن عائلته « تعيش فى الخطيئة » ، وباع المنزل بينما كانت العائلة تعيش فيه . وهنا نرى كبتا مترددا للجوانب « الطيبة » و « السيئة » فى طبيعة هذا الرجل .

ويجب أن ننظر الى كل انسان على أنه يملك عددا من الطاقات أو مجموعات من الافكار ، التى لا يستفيد منها دائما استفادة كاملة فى الاحوال العادية ، ففى الحقيقة يكون بعضها مكبوتا فى اللاشعور حتى يستطيع الانسان أن يتوافق مع النظم الاجتماعية القائمة .

وقد أوضح فرويد ذلك بقوله : « بأن الافكار المكبوتة ليست الافكار غير المقبولة اجتماعيا فقط ولكن الافكار التى لا تتفق مع الكيان القائم للشخصية » ٠

وعلى سبيل المثال يذكر « شارلز داروين » فى الكتاب الخاص بتاريخ حياته كيف أن اهتماماته تركزت على دراسة العلوم ، وكيف فقد الاهتمام بالشعر ومسرحيات شكسبير ــ وهى النواحى التى كانت عنصرا هاما فى حياته قبل التحول ٠

* * *

والجنس وما يرتبط به من الشعور بالاثم يلعب دورا كبيرا فى التحول وفى الظواهر الدينية بصفة عامة ٠

وجدير بنا أن نلاحظ ــ كما اوضح ستاربك Starbuck فى كتابه « سيكولوجية الدين » ــ ان معظم حالات التحول تحدث بين سن العشرين والخامسة والعشرين ، وهى الفترة التى يمر بها الشباب بالعواصف والضغوط التى ترتبط بفترة المراهقة ٠ ومثل هذه التحولات تميل الى أن تكون غير دائمة ، وتميل الى الاختفاء كلما زالت الضغوط تدريجيا وبنفس الطريقة ، فان الاطباء النفسيين يؤكدون أن حالات الكآبة التى تظهر عند تغيير النمو فى الرجال والنساء قد تتضمن أحيانا عنصرا كبيرا من عقدة الذنب والاعتقاد بالخطيئة الذى يرتبط بالانغماس فى الأمور الدينية ٠ ولذلك فالعاطفة الدينية تنمو وتخبو ، وهذا يتفق مع تغيرات مماثلة فى الحياة الجنسية ، ففى فترة المراهقة وفترة منتصف العمر تميل الرغبة الجنسية الى أن تزداد ثم تضعف بعد ذلك ٠ ولقد لاحظ الكثيرون أن الكتب الدينية تستخدم الرمزية الجنسية فى كتاباتها ، وأنها تميل الى التعبير عن الشعور الدينى بصور عن الحب الشهوانى حتى تصل الدرجة الى وصف الحب الشهوانى بصورة من الممكن أن يظن المرء أنها وصف لعملية الشبق الجنسى لو أنها وردت فى كتاب آخر ٠

* * *

على انه من جهة اخرى نجد فى الاحزاب السياسية فى البلاد المختلفة أن أولئك الذين انضموا الى جماعات الاقلية ، هم أولئك الاشخاص الساخطون الفاترون غير المستقرين المنبوذون غير المتلائمين اجتماعيا والطموحون الذين لم يوفقوا فى ايجاد مكان لائق لهم فى المجتمع ٠

والواقع أن التحول الى آراء خاصة عمل يبدأ احيانا بعدم القدرة الاجتماعية على ملاءمة الفرد لنفسه مع جماعته ، كما أن البحث المستمر عن فلسفة حقيقية يخفى احيانا البحث عن جماعة اجتماعية يستطيع المرء أن يتلاءم معها حتى يتوقف عن كونه منبوذا فى نظر نفسه ٠ وعندما يجد تلك الجماعة ، سوف يقبل معتقداتها ودرجاتها مهما بدت حمقاء ، ولذلك فان محاولة ازالتها سوف تلقى مقاومة كبيرة من هذا الفرد الذى يخشى العودة الى وضعه القديم ـ كمنبوذ ٠

ولنحول اهتمامنا الى ظواهر أكثر اثارة فى عملية التحول ـ ظواهر لها صلة أكبر « بغسيل المخ » ـ وذلك باستخدامها لمؤثرات مثل : الصيام ، الارهاق البدنى ، بث الخوف المشوب بالذعر ، تنظيم التنفس كما يوجد فى « اليوجا » ، دق الطبول ، الرقص ، الغناء واستخدام العطور أو العقاقير المخدرة ٠٠ الخ ٠ كما سبق أن اشرنا لذلك ٠

وقد يكون من المناسب أن نعود فنقول : « ان اثارة انفعالات قوية من القلق والاحساس بالذنب ، أو الغضب ، أو اثارة صراعات عقلية ، أو ارهاق الفرد عقليا وجسمانيا ، وتطويل مدة الضغط وذلك بترك الفرد فى حالة شك لاوقات مختلفة من غير أن يدرى ما يكون مصيره ـ كل هذا سوف يؤدى الى حالات من القابلية للاستهواء فى الكائنات البشرية ، كما حدث فى حالة كلاب بافلوف ٠

ويستخدم « المسيحى الأنجيلى الأصولى » طرقا ثلاثا :

أولا : لا يجادل أبدا ، ولكنه يغرس المعتقدات عن طريق التأكيد والجزم لسامعيه بأن المسيح ينتظرهم ، وعن طريق تكرار التهليل ومدح الله ٠

ثانيا : تصدر منه تحذيرات رهيبة عن نيران الجحيم ، ولذلك فان احتمال عدم وجود النار « الجحيم » لا يخطر فى بال المستمعين اطلاقا ٠

ثالثا : بعد أن ينجح فى بث الخوف والذنب فى نفوس جمهور المستمعين ، يخبرهم المسيحى الانجيلى عن الطريق الذى يمكن به خلاصهم ــ وباعتباره رسول العناية الالهيــة فان جمهوره لن يشكو اطلاقا فى قدرته على الوفاء بوعده لهم : « اندموا وسوف تنقذون » ٠

ولقد كانت حركة الاحياء الدينى فى نيو انجلند ــ وهى الحركة التى لعب فيها ادواردز دورا كبيرا ــ احدى المظاهر المبكرة للحملات الانجيلية فى الازمنة الحديثة ٠ لقد بدأ أنصار هذه الحركة نشاطهم الدينى فى مدينة نورثمبتن ــ فى نيو انجلند ــ عام ١٧٣٤ م بعد حالتين من الموت المثير فى ابراشية ادواردز ٠ وبعد موعظة لادواردز فى يوم من أيام الأحد عن الايمان وجد أن كل شــخص كبير أو صغير بعد القاء موعظته ــ قد أدرك الاشياء العظيمة فى الحياة الخالدة ، ومن الســكان الذى بلغ عددهم ١١٠٠ قام ٣٠٠ شــخص على الاقل بالاعتراف الارثوذكسى وأعلنوا أنهم تحولوا الى الدين الجديد ٠

وكان الاعتراف العام اجراء غريبا اتسم بطابع من الشبه الكبير لما نعرفه اليوم باسم أســاليب « غسيل المخ » الفنية ٠ فقــد كان اعتراف التائب أمام الاجتماع الدينى ــ بلغة منمقة مبالغ فيها تذكرنا باللغة التى استخدمها ضحايا حركات التطهير الستالينية فى الثلاثينات : « اننى أبدو لنفسى شريرا كريها حقيرا بل أحقر المخلوقات على الارض » ٠ هــذا هو نوع من الكلمات التى نطق بهـا احد التائبين ، وفى تلك الحالة يسأل التائب قائلا : « ماذا أستطيع أن أفعله حتى يتم خلاصى ؟ » ، ويكون الرد على هــذا السؤال : « لا شىء » ٠ هنــاك فرصة ضعيفة واحدة ، وهى فضل الله ــ وهذه لا يمكن كسبهــا بمجهود من جانبك ، ولكنك تستطيع أن تأمل فيها ، والطريق الآخر هو اللعنة الابدية » ٠

وفى المرحلة الثانية ــ يوصل التــائب الى المرحلة التى يقول فيهــا أمام الاجتماع الدينى : ان « الله قد يمجد نفسه فى لعنتى » ، وأنه اذا رفض قبول العقيدة فان كل شىء آخر لا فائدة منه ٠

وهكذا عندما قال شخص تائب : ان المسيح كان قد ظهر له ، وانه أنقذ ، قيل له : ان هذا ليس كافيا ـ بل عليه أن يكون مستعدا لان يقول : أنه سوف يستمر في حب المسيح حتى ولو قرر المسيح أن يلعنه الى الابد • ويبـدو على التائب التردد في قول هذا ـ وعندئذ يقال له أن عليه أن يوافق على ذلك اذا أراد الخلاص لنفسه •

وعندما اشتدت حركة « الاحياء العظمى » الى ذروتها كان الخوف يبث في نفوس الناس بدرجة كبيرة ويقال عن أحد التائبين : أنه « عندما كان ينغز في قلبه ، وعندما رأى نفسه معلقا فوق حفرة تشب منها نيران خالدة بلغ به الالم والضيق درجة كبيرة لمدة نصف الساعة حتى اضطر أن يخفى فمه بيديه لكى يمنع نفسه عن الصراخ » • وعندما بلغت حركة الاحياء العظمى ذروتهـا وصل من انجلترا « هوايتفيلد » زميل جون ويزلى الذى جعل الامور أسوأ مما كانت ، فقد كان هناك : نحيب جماعى ، وثنى جماعى للايدى وحالات غيبوبة ، وانهيار بدنى ، ورعشة وبث مظاهر الهستيريا الجماعية • واخيرا ظهرت فضيحة كان من شانها ان وضعت حدا نهائيـا لحركة الاحياء • فقـد ادعى أن شـبان المدينة وصبيانها يقرأون كتبا اباحية • ونادى ادواردز بعقد اجتماع وطالب الآثمين بالحضور للمثول أمام الشيوخ ـ ولكن عنـدما اكتشف أن بعض الاولاد الذين اشتركوا فى هذا الاثم هم ابناء أبرز الشخصيات فى المدينة ، فقد الآباء حماسهم سريعا فى القضية ، وبدأ الشـباب يتحدى ادواردز تحـديا سـافرا ـ وسرعان ما تدهورت سمعته ومكانته •

وتحول جون وشارلز ويزلى خـلال أيام قلائل من الاعتقـاد بأن انجـاز الاعمال الطيبة قد يؤدى الى الخلاص والى ادراك أن الايمان هو الطريق الوحيد للخلاص • وجدير بالملاحظة أن التحولات وقعت عقب نوبة كآبة عقلية عنيفة فى حالة الشقيقين • وكان جون قبل ذلك واعظا ليس له أثر كبير نسبيا ، ولكنه ـ كما سبق أن ذكرنا ـ اكتشف بنفسه الوسـائل الفنية التى حققت نجاحا كبيرا فى نيو انجلند • وبهذا فهو سوف يخلق حالة توتر انفعالية قوية فى نفوس جمهوره وذلك ببث الخوف من الجحيم أو النار الابدية •

ويقول « سرجنت » في هـذا الصدد : « ان جهنم كانت في ذهن ويزلي حقيقة واقعة واضحة مثل البيوت والحقول التي كان يلقي فيها مواعظه • وكما هو الحال في حالة كلاب بافلوف ، فان أي فرد يصير متورطا انفعاليا سواء أكان ذلك ايجابيا او سلبيا ، فانه عرضة للتحول لان الغضب ضـد الافكار الموحى بها وكذلك الخوف يستطيعان بث الاضطرابات النفسية التي تجعل الفرد قابلا للاستهواء أو تعكس أنماط سلوكه الشرطي ـ كما يقول بافلوف » •

واحيانا كان ويزلي ـ الذي يتميز بقوة الالهام والشعور الداخلي ـ يركز عينيه على رجل واحد او امرأة واحدة من بين جمهوره ويجعل منه أو منها هدفه الرئيسي ، وكان هذا الشخص هو موضوعه المباشر ، فاذا استطاع اقامة علاقة تتسم بالتعاطف معه فان العدوى سوف تسرى منه الى الجمهور •

ثم ظهرت حركة الاحياء في ولاية كنتوكي سنة ١٨٠٠ م فأوردت أمثلة مثيرة لحالة الهستيريا الجماعية ، وكان المسـيحي الانجيلي في هذه الحركة هو القس جيمس ماك جريدى المتعصب من أنصـار كالفين • وكان أتبـاعه معظمهم من لصوص الخيل ، ولصوص البنوك ، والقتلة والمجرمين العديدين الذين هربوا من الولايات الامريكيـة الاخرى التي تحترم القـانون • وكانت المرحـلة الاولى لحركة الاحياء تشبه الى حد كبير حركة ويزلي في وسائلها ونتائجهـا حتى جاء الصيف من نفس العام ، فتقرر تنظيم خدمة دينية كبرى في الهواء الطلق • ولمدة شهور كانت الجماهير تقدم الى الولاية على ظهور الخيل وفي عربات مغطاة ، وظل الاجتماع الديني يعقد في الخلاء لعدم وجود مكان يتسع للعدد الكبير من الناس المشتركين في الاجتماع • وكانت تقطع جذوع الاشجار لكي تستخدم كمقاعد للناس ، وصفت منصة من جذوع الاشـجار ، وكان ماك جريدى ومساعدوه يسيرون جيئة وذهابا في الخلاء بين الجمهور حاثين اياهم على التوبة ، وعلى الهرب من اللعنة الخالدة • وكان الاجتماع يستمر انعقاده مدة طويلة من يوم الجمعة حتى الثلاثاء التـالي ـ وكان الاجتمـاع يضاء بالنيران المشـتعلة من أكوام من الخشب •

وفى ظل هذا السيل من الوعظ والصلاة والترتيل أصيبت امرأتان بحالة هستيرية ــ وعندئذ ألقى مئات من الرجال والنساء الآخرين بأنفسهم على الارض وهم فى حالة انهيار ، وفى بعض الحالات كانوا يظلون غائبين عن الوعى لمـدة ساعات ، وعندما كانوا يفيقون بعد ذلك كانوا يعلنون أنهم أنقذوا .

وفى الاجتماع الذى أعقب ذلك فى سنة ١٨٠١ م اجتمع ٢٠٫٠٠٠ رجل وامرأة وطفل فى الخلاء واستمعوا الى مذهب نيران جهنم واللعنة الابدية التى تلحق بالشخص الذى لا يتوب أو يندم ــ وحالما استمعوا الى ذلك ظهرت حالة اضطراب عامة فجرى البعض فى أرجاء المكان صائحين فى ألم ، وتدحرجوا على الارض لمدة ساعات فى فترة واحدة ، بينما اندفع آخرون الى الغابة المحيطة بالمكان صائحين بأعلى أصواتهم : « لقد ضعنا ــ لقد ضعنا » . وبدأ يسيطر على عـدد كبير من الموجودين حركات عصبية واهتزازات عنيفة سرعان ما انتقلت عدواها الى عدد كبير فى الجمهور ، بينما قام عـدد من الرجال والنساء بممارسة عملية أخرى « لطرد الشيطان » ــ وكانوا يزحفون حـول المكان على أيديهم وأرجلهم وهم يعوون ويزمجرون الواحد ضد الآخر لفترات طويلة من الزمن ، وكانت هناك ظاهرة أخرى يطلق عليها « قفز الضفادع » ــ فكان الرجال والنساء سواء ، يشغلون أنفسهم بالقفز الواحد فوق الآخر بشكل يشبه قفز الضفدعة . وكما يتوقع المرء ــ فانه فى نهاية الاجتماع كان عدد كبير يروح فى غيبوبة ، أو كان يسيطر عليهم هلوسة بصرية وكان الامر ينتهى بهم الى ممارسة عمليات جنسية متطرفة .

والرقص الى حـد الاجهاد وخاصـة مع اسـتخدام المشروبات الكحولية والمخدرات قد يؤدى الى حالات مماثلة من الانهيار العقلى والجسدى ، ففى عشيرة الفودو فى هايتى مثلا يعتقد الناس أن الآلهة تسيطر على الشخص أو تمتلكه حينما يرقص على دقات الطبول ، وهؤلاء الذين تمتلكهم الآلهة يسلكون نفس السلوك الذى يسلكه الآلهة طبقا للتقاليد الخاصة ، وعندما يفيق هؤلاء الأشخاص بعد ساعة أو أكثر لا يتذكرون ــ كما يزعمون ــ أى شىء مما فعلوه ولو أن ما عملوه فى نظر المراقب قد بدا له أنه عمل يتسم بالذكاء والفاعلية .

وفى جنون الرقص الذى أعقب الموت الاسود فى أوروبا ، والذى وصفناه فى الفصل السابق يمكننا أن نلاحظ الظواهر بين هؤلاء الذين مارسوه .

لقد كان الراقصون لا يرون أو يسمعون شيئا لانهم كانوا غير حاسين بالانطباعات أو الآثار الخارجية عن طريق الحواس ، ولكن كان يسيطر عليهم رؤيا معينة ، وكانت أوهامهم توحى اليهم بالارواح التى كانوا ينادونهـا بأسمائها وهم يصيحون ، وبعضهم كان يؤكد بعد ذلك أنهم أحسوا كما لو أنهم غمسوا فى بركة من الدماء ـ الامر الذى كان يرغمهم على القفز عاليا .

وكانت الظواهر الاخرى التى ظهرت بعد « الطاعون » عندما كان سكان أوروبا كلها فى حالة رعب مصحوب بالذهول هى جماعات الضـاربين انفسهم بالسياط لينالوا رضا الله . لقد كانوا يسيرون فى موكب من مدينة الى مدينة وهم يضربون انفسهم بالسياط او العصى وأحيـانا كانت عدوى هـذا العمل تسرى بين ربوع البلاد التى ينتقلون فيها .

وهناك أدلة كافية تثبت أن الرقص لعب دورا هاما فى المسيحية الاولى وأن سانت امبروز ـ احد الاباء الاولين المشهورين ـ كتب يقول : « ولهذا السبب لا يجب على الحكيم أن يعتبر الرقص دلالة على الاحترام للغرور والفخفخة ـ ولكن يجب أن ينظر اليه على آنه شيء يعمل على رفع كل جسم حى بدلا من أن يسمح للاطراف أن تظل ساكنة على الارض ، أو أن يسمح للقدم البطيئة أن تحسس بالتنميل .. وعنـدما تريد أن تأتى الى حوض المعمودية ارفع يديك .. اننا ننصحك أن تسير بخطوات أسرع حتى يمكنك أن تصعد الى الحياة الخالدة فالرقص حليف للايمان ، وتكريم للرشاقة » .

ويتضح الدور الذى لعبته الدوافع الغريزية الجنسية المكبوتة فى انتشـار الهستيريا انتشارا وبائيا من المرات العديدة التى تكرر حدوثها فى الاديرة .

وقد أورد الدوس هاكسلى مثالا مفصلا فى كتابه « Devils of Loudun » , (١)
والامثلة الاخرى تتضح فى حالة معروفة فى القرن الثامن عشر ـ وهى تتعلق بدير فى فرنسا حيث بدأت راهبة تصدر صوت القطة حتى صار المجتمع كله يصدر صوت القطة ولم يتوقفوا عن ذلك الا بعد استدعاء المليشيا المحلية، ثم هناك حركة هستيرية جنونية اخرى وهىهستيريا العض والتىانتشرت فى الأديرة فى : ألمانيا ، وهولندة ، وايطاليا . وفى الحالة الاخيرة ظهرت الاثارة الجنسية واضحة لا فى العض فحسب بل فى مظاهر بعيدة كل البعد عن اللياقة ، مثل : تمزيق الشعر من جذوره ، والعواء الجماعى ، أو القرض على الاسنان بصورة جماعية .

ولقد بين الدوس هاكسلى أهمية هذه الظواهر مع اشارة خاصة الى اثر الرقص والغناء والترتيل والغناء التوقيعى : « لا يستطيع الرجل ـ مهما بلغت درجة تمدينه ـ أن يستمع مدة طويلة لدق الطبول الافريقية ، أو الغناء الهندى ، أو ترتيل التراتيل الويزلية مع الاحتفاظ بشخصيته النقادة الواعية لا تمس ، وسوف تكون تجربة مثيرة لو أخذنا جماعة من كبار الفلاسفة من أكبر الجامعات واغلقنا عليهم غرفة جوها حار ومعهم دراويش مغاربة أو أنصار الفودو ، ثم نقيس بواسطة ساعة ايقاف قوة المقاومة السيكولوجية لديهم ضد آثار الصوت التوقيعى .. وكل ما نستطيع أن نتكهن به ونحن واثقون هو أنه لو تعرض الفلاسفة لهذه التجربة مدة طويلة ، لانتهى بهم الامر الى اصدار اصوات وحركات هؤلاء المتوحشين » .

ومن الواضح أنه من الجائز جدا أن التحول يسبقه نوع من الصراع العقلى ذلك لان هؤلاء الراضين عن أنفسهم هم أقل الناس استعدادا للتحول . وجدير بالذكر أن التحول أحيانا ما يتبع حالات من الارهاق العقلى أو البدنى وكثيرا ما تنتج الحالات التصوفية أو شبه التصوفية من تجارب يمر بها المرء عندما يكون منفردا فى زنزانة ، أو فى سجن ، وخاصة عندما يفرض الرعب أو الخوف نفسه فرضا سائدا على التوتر .

(١) Huxley, Aldous, The Devils of Loudun, Chatto and Windus.

ويصف جيمس حالة سكير كان قد رهن كل بضائعه وباع كل شيء يملكه لشراء المشروبات الروحية :

« لم أكن قد تناولت طعاما لمدة أيام ، ولمدة أربع ليالى سابقة كنت أقاسى من حالة هذيان تصاحبها رعشة من منتصف الليل حتى الصباح . لن أجد نفسى فى مأزق ـ اذ عندما تحين الساعة ـ لو قدر ذلك ـ فاننى سوف أجد مأوى فى قاع النهر . ولكن الله أراد غير ذلك فعندما حانت الساعة لم أكن قادرا على السير ربع المسافة الى النهر . وبينما كنت أجلس مفكرا بدا لى احساس بوجود شيء هائل عظيم لم أدرك كنهه فى تلك اللحظة . وعلمت بعد ذلك أنه كان المسيح ـ صديق الخاطيء . وسرت الى البار ودققت عليه بقبضة يدى حتى اهتزت الزجاجات من عليه . وحملق فى هؤلاء الجالسون يحتسون الخمر بحب استطلاع مشوب بالاحتقار . وقلت اننى لن أتناول جرعة خمر مرة أخرى حتى لو مت فى الطريق ـ وهذا ما احسست أنه سوف يحدث لى قبل الصباح . وهتف هاتف « اذا اردت أن تحافظ على وعدك فاذهب واحبس نفسك » وذهبت الى أقرب مخزن للسكك الحديدية وحبست نفسى فيه » .

وبعد ذلك بوقت قصير ذهب الى ارسالية ومارس عملية التحول .

ويسرد جيمس حالة اخرى عن رجل أحس نوبة حادة من الخطيئة امتنع بعدها عن الأكل طيلة اليوم ، وحبس نفسه فى غرفته فى حالة يأس كامل وهو يصيح بصوت عال : « حتى متى يا الله .. حتى متى يا الله ؟ » ويستمر فى الحديث فيقول : « بعد أن كررت هذا بكلمات مماثلة عدة مرات بدا لى أننى اغوص فى حالة من اللاشعور . عندما أفقت لنفسى كنت جالسا على ركبتى اصلى لا من اجل نفسى ولكن من أجل آخرين .. لقد احسست بالخضوع لارادة الله صاغرا .. لارادته أن يفعل بى ما يراه خيرا لى . وتحول اهتمامى بنفسى الى الاهتمام بالآخرين » .

ولقد اوضح لوبا Louba (١) ـ الذى أجرى دراسات عديدة على ظواهر التحول ـ أنه ليس من الضرورى أن توجد صلة بين مضمون التحول وبين الدين اطلاقا ـ وأعطى أمثلة عن تحولات السكارى الى امتناع كامل عن تعاطى الخمر ـ فقد كانت التحولات تتسم بالطابع الخلقى ولا تتضمن أية معتقدات دينية .

ويذكر لوبا أنه كم من مرة صاحب التحول شعور من عدم الكمال أو شعور من عدم الكمال الخلقى ، أو الخطيئة يصاحب شعور الشغف والتلهف .

ويورد لذلك أمثلة عديدة تتراوح فيهـا الخطيئة بين العربدة وبين العزة الروحية .

ومغزى هذا بالاصطلاحات السيكولوجية هو أن الخاطىء يحس أنه معزول عن الحقيقة اما فى صورة الله ، واما فى حياة الكائنات البشرية الأخرى ، ويحس رغبة قوية لازالة السدود . وهذا له أهميته خاصة عندما نتحدث عن الاعترافات فى الباب (الرابع) ، ذلك لأنه يجب أن ندرك أنه يوجد فى معظم النـاس رغبـة طبيعية لمشـاركة الآخرين فى تجـاربهم وخبراتهم العقليـة والانفعالية ـ وهى التجارب التى يحس فيها المرء أنه معزول عنها لأنه يحس أنه مختلف اما بسبب الشعور بالخطيئة واما لايمانه بمعتقدات تتعارض مع معتقدات الآخرين .

والاحساس بالحاجة الى التخلص من الشعور بالانعزال عن طريق الاعتراف هو احســـاس حقيقى جـدا بل ملح . ولقـد بين المحللون النفســيون مثل « أوتورانك » و « ايريك فروم » حقيقة هى أن عبء الفردية الانعزالية هو عبء ثقيل بالنسبة لنا وخاصة بالنسبة للأشخاص الذين يعانون من أمراض عصبية ، ويوجد فى الانسان احساس بالخوف من الحرية ، احساس يدفع الناس الى اغراق أنفسهم داخل جماعة ما . والاعتراف هو أحد الوسائل الممكنة الواضحة التى يستطيعون به أن يفعلوا ذلك ـ لأنهم بهذه الطريقة يفقدون خواصهم التى هى

---

(١) Louba, H., The Psychology of Religious Mysticism, Kegan Paul.

سبب الاحساس بالانعزال • والوسيلة الأخرى هى أن يفقد المرء الاحساس فيه بكيانه الشخصى وذلك باغراق كيانه الشخصى وادماجه فى السلوك الجماعى للجمهور •

وكما يقول هوفر : « لأننا عندما نتخلى عن الذات ونصير جزءا فى كل متكامل متماسك ، فاننا لا نتخلى عن مميزاتنا الشخصية فحسب بل نتخلى أيضا عن المسئولية الشخصية • وعندما نفقد حريتنا الشخصية فى تضامن أو اتحاد حركة ديكتاتورية ، فاننا نجد حرية جديدة بأن نفعل كما تفعل الغوغاء ـ وقد تتخذ تلك الحرية أشكالا مختلفة مثل « طرد الشيطان » ، أو الذهاب فى حالة غيبوبة طويلة ، أو من ناحية أخرى ـ اكتساب الحق فى الكراهية ، أو معاملة الآخرين بقسوة ، أو الكذب أو التعذيب أو القتل ، بل اقتراف أية جريمة من غير الاحساس بالذنب أو العار أو الندم » •

على أن هناك من ناحية أخرى جانبا هاما من « قابلية الاستهواء » وهذا الجانب هو أنه خلال الحياة ـ بوجه عام ـ نجد أننا نكافأ لأننا نفعل كما يفعل الآخرون ، ونعاقب لأننا لم نوفق فى التوافق والامتثال ويقوى من هذا الدافع للتقليد أو المحاكاة شعور القلق ، لأن القلق ـ كما يقول فرويد ـ هو التعبير عن الدوافع الفطرية القوية المضادة للمجتمع من اللاشعور ـ وهو الذى قد يؤدى بنا الى أعمال لا يوافق عليها المجتمع ، ولذلك قد نكون على استعداد لتحاشيها وبهذا نظهر بمظهر الموافقين أو الممتثلين بدرجة أكبر •

ولقد أظهر بعض علماء النفس أن القلق يؤدى الى تضييق مجال الانتباه ـ الذى يطلق عليه « نفق الرؤيا » Tunnel Vision ، وعندما يحس الناس القلق يصبحون غير قادرين على الاهتمام بالموقف كله بالدرجة التى تمكنهم من القيام بهذا بصورة معقولة منطقية ، وتدفعهم النوازع الفطرية الى القيام بالتصرف بأول ما يخطر ببالهم ، وهذا يحدده ما يفعله الآخرون فى نفس الوقت •

والتحـول الدينى ـ من وجهـة نظر العالم النفسى ـ قد يتخـذ صـورة هى ملء الفراغ الذى تسبب فى التذمر أو عدم الرضا من الشخصية القائمة ، وفى تلك الحالة يقدم التحول ـ الجزء الناقص من اللغز ، أو قد يتخـذ التحول صورة أخرى هى استبدال جزء من السلوك بآخر ربما ظل فى ثبات لعدة سنوات سابقة • ومن الواضح ـ أن التحول يغير معتقدات الفرد وأعماله ، ولكن ما كان هذا يحدث لو أن المعتقدات الجديدة لم تكن فى حالة اتفاق تام مع شخصية الفرد الأساسية •

واخيرا نود أن نشير الى أن العوامل أو العناصر الانفعالية التى أكد هاكسلى اهميتها فى حالة الفودو ، والتى استخدمها سارجنت فى كتابه « معركة العقل » لكى يبرهن على رأيه « بأنه من السهل التعـامل مع النـاس » ـ هذه العوامل الانفعالية من الممكن أن تفسر تفسيرا آخر • وهناك دليل يقدمه المتخصصون فى هذا الميدان ـ وهم أكثر تخصصا من هاكسلى وسارجنت ـ بأن مثل هذه الأعمال تتسم بطابع القصد والارادة أكثر مما يبدو لنا ـ فهى فى الواقع « أعمال تقوم على المحاكاة والتقليد » •

وهكذا فان تلك الأعمال وغيرها ذات الطبيعة المماثلة هى أعمال يدخل فيها عنصر « النية والارادة » وهذا يتعارض مع هاكسلى الذى يقول : « بأنه لو وضع فلاسفة فى جو تسوده الأصـوات التوقيعية الصـادرة من طبول الفودويين من تاهيتى ، لانتهى الأمر الى الصياح والعواء والرقص مثل المتوحشين » •

وبالرغم من كل هذه الاختلافات والتناقضات فاننـا لا نستطيع أن ننكر أن تأثير النغم والترتيلات ودقات الطبول وغيرها مما سبق أن شرحناه لها تأثير كبير على العقل البشرى ، وقابليته للاستهواء •

الباب الثالث

بين العلاج النفسي وطب الأمراض العقلية

• الفصل الأول
أساليب العلاج النفسي
واستخدام العقاقير

• الفصل الثاني
الصدمات الحديثة
وجراحة المخ .

الفصل الأول

أساليب العلاج النفسي واستخدام العقاقير

قد يبدو لنا أن نتساءل هل هناك علاقة بين أساليب العلاج النفسي وتلك التى تستخدم فى عمليات التحول الدينى او السياسى ؟ وهل هناك ارتباط بين الآثار الفسيولوجية التى تنتج عن كل منها ؟

لقد سبق أن أشرنا الى أن العلاج الحديث الناجح فى الطب النفسى استطاع أن يحدث فى الفرد جميع مراحل النشاط الذهنى من مرحلة زيادة الاستثارة حتى مرحلة الانهيار والاستسلام الصامت : اما بوسائل سيكولوجيــة ، واما بتلك الأساليب التى تستخدم فى علاج مرضى الطب النفسى •

والواقع ان بعض أساليب العلاج النفسى توضح أن أساليب التحول الدينى والسـياسى لهــا ما يقابلهــا فى تجــارب الطب النفسى Psychiatric اذ يمكن احداث التحولات الفسيولوجية فى وظــائف المخ باستخدام مثيرات سيكولوجية متكررة دون الالتجاء الى العقاقير ، أو احداث انهاك خاص للفرد ، أو أى ضغط صناعى يعين المريض على عملية التفريغ الانفعالى ، بالرغم من أن هذه الوسائل تساعد فى الاسراع على احداث التفريغ الانفعالى المطلوب •

وهذا الفصل يختص بدراسة بعض الأساليب التى تستخدم فى علاج مرضى الطب النفسى حتى نستطيع أن ندرك مدى العلاقة بينها وبين تلك التى تستخدم فى عمليات التحول الأخرى •

على أننا سنقصر بحثنا فى هذا الفصل على : التنويم المغناطيسى ، والتحليل النفسى ، واستخدام العقاقير لما لها من تشابه كبير بأساليب التحول الدينى والسياسى من ناحية الآثار الفسيولوجية التى تحدثها فى وظائف المخ •

التنويم المغناطيسى وقابلية الايحاء :

ارتبط التنويم المغناطيسى فى الماضى بمفاهيم أو تصورات خيالية مثل : المغناطيسية الحيوانية ، وأثر النجوم ، وأكاذيب مماثلة وبرغم أن الناس لا يزالون يتخبطون حول حقيقته فان نظرية التنويم المغناطيسى وممارستها من الموضوعات الهامة التى تشغل الرأى العام ، وهى ترتبط ارتباطا وثيقا بما نحن فيه فى هذا الجزء من الكتاب •

ولقد كان أبرز ما اهتمت به الأعمال التجريبية فى هذا الميدان فى السنوات الأخيرة ، هو تحديد الأخطاء التى وقع فيها المنومون المغناطيسيون الأول •

وقبل أن نحاول شرح المظاهر الرئيسية للتنويم المغناطيسى نذكر القارىء هنا بما أشرنا اليه فى الباب الثانى عن « المغناطيسية الحيوانية » التى ترتبط بشخصية « فرانز أنطوان مسمر » الغامضة •

ولندخل فى شىء من التفصيل عما جاء به مسمر ، اذ تقوم نظريته على أن هناك تأثيرا متجاوبا بين الأجرام السماوية والأرض والأجسام الحية ، ووسيلة هذا التأثير هى المادة السائلة أو الغاز المنتشر فى الكون • ولقد دلت التجارب على أن انتشار المادة دقيق بدرجة كافية لأن تنفذ فى كل الأجسام بدون فقدان كبير للطاقة •

ويتم هذا العمل من مسافة بعيدة بدون أى تدخل أو مساندة من مادة وسيطة • وهذه المادة ــ مثل الضوء ــ تنعكس عن طريق المرايا •

وهكذا كان من المعتقد أن المغناطيسية الحيوانية نوع من السائل أو الغـاز الذى لا يمكن لمسه أو الاحساس به ، وكان السـائد أن الافتراض بأن الارادة البشرية كانت تتحكم فيانتشار هذا الغاز - غير القابل للمس - وتوزيعه وعمله ، كما كان معتقدا أيضا أن من الممكن انعكاس هذا الغاز بواسطة المرايا ورؤيته ٠

كما أعتقد أن الذين ينومون مغناطيسيا أو الذين يمشون وهم نيام كانوا يرون هذا الغاز وهو يسبح من أعين المنومين المغناطيسيين وأيديهم ، ومع ذلك لم يتفق هؤلاء على لون هذا الغـاز ، وهل كان أبيض أو احمر او أزرق اللون ٠ وكل هذا يبدو فى نظر المفكر الحديث غير معقول ولكن مسمر يؤكد فى ادعائه أن هذه المبادىء سوف تشفى الأمراض العصبية ٠

ولم تلق الأساليب التى اتبعها مسمر قبولا فى الأوساط الطبية والدينيـة ولا سيما الأوساط الطبية فى فيينا ، كما كان نجـاحه المؤكد فى شفاء المرضى الذين استعصى على الأطباء علاجهم - سببا فى اشتداد الكراهية نحوه - وأخيرا عندما أوشك مسمر على شفاء فتاة ذات مركز مرموق من العمى ، نجح الأطبـاء المؤمنون فى ابعاده عن فيينا ، فذهب الى باريس ٠

واشتد ضغط العمل على مسمر ، فاضطر الى ادخال العلاج الجماعى وهذا يشبه الى حد كبير الطريقة التى اضطرت العيادة النفسية الحديثة الى اتباعها ٠ ويبدو أن عيادته كانت مكانا مرموقا حقا ٠ وكان العلاج يجرى فى قاعة واسعة كانت تغلق فيها النوافذ لكى يسود الظلام ، وكان يضع فى وسط القاعة حوضا واسعا مفتوحا يبلغ ارتفاعه حوالى قدم ، وكان كبيرا بدرجة تسمح لثلاثين مريضا بالوقوف حوله ٠

وكان الحوض يملأ بالمـاء ، ويوضع به برادة حديد ، وزجاج مسـحوق ، وزجاجات من أنواع مختلفة مرتبة على نمط منتظم ٠ وكان الحوض مغطى بقطع طويلة رفيعة خشبية لها فتحات تبرز خلالها قضبان حديدية متصلة ، وكانالمرضى يضعون تلك القضبان الحديدية على مواضع الألم، وبذلكيسمحون للقوى العلاجية

الكامنة فى المغناطيسية الحيوانية أن تعمل • وكان يطلب من المرضى أن يلتزموا الصمت ، كما كانوا خلال هذه التجربة يستمعون الى موسيقى تعزفها فرقة موسيقية مختفية عن الأنظار • وفى اللحظة السيكولوجية كان مسمر يظهر مرتديا روبا حريريا زاهيا ، وكان يتنقل بين المرضى وهو يحملق فى عيونهم ويمر بيديه فوق اجسامهم ، ويلمسهم بعصا خشبية طويلة •

وليس هناك من شك فى أن عددا كبيرا من هؤلاء المرضى كانوا يعتبرون هذا العلاج مفيدا ، بل كانوا يعلنون ان مسمر استطاع شفاءهم بعلاجه •

ويصعب علينا اليوم أن نقرر : هل كان مسمر دجالا استغل قابلية مرضاه للاستهواء ، أو انه كان يؤمن باخلاص فى الحقيقة العلمية التىتقوم عليها نظريته .

ولقد هاجم «برنهيم» تدجيل مسمر المقصود وأثره السيىء على ممارساته ، ولكن « مول » الذى يعتبر حجة فى الكتابة عن تاريخ التنويم المغناطيسى كان اقل قسوة من برنهيم فى حديثه عن مسمر فقال :

« اننى لا اريد أن أنضم الى ركب هؤلاء الذين يشنون هجوما على مسمر فقد مات مسمر ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه الآن ضد هؤلاء الذين لم يضعوا فى اعتبارهم الظروف أو الوقت الذى عاش فيه • اننى أميل الى الاعتقاد بأن مسمر اخطأ فى تعاليمه ، ولكن هذا لا يبرر شن الهجوم ضد خلقه الشخصى ، ولذلك دعنا نتدارس ما كان يعتبر جريمة مسمر الكبرى • لقد اعتقد مسمر فى البداية أنه يستطيع شفاء الأمراض بواسطة المغناطيس ، واعتقد بعد ذلك أنه يستطيع شفاء الأمراض بفضل قوة كامنة فيه يستطيع نقلها الى الحوض المملوء بالمياه • كانت هذه عقيدته القوية ولميحاول اخفاءها . ولقد اعتقد آخرون انخيال المريض كان يلعب دورا ، أو أن مسمر كان يحدث آثاره بوسائل خفية معينة •

« وبعد ذلك وتدريجيا ظهرت الأسطورة بأن مسمر كان يمتلك سرا ما ، وأنه استطاع عن طريق هذا السر أن يحدث آثاره على الناس ، ولكنه رفض الكشف

عن هذا السر • والحقيقة هي ان المسألة لم تكن مسألة سر اخفاء مسمر طالما كان يتخيل انه يمارس قوة فردية من نوع ما •

« أخيرا ، فاذا كان مسمر يسـتخدم هذه القوة المزعومة من اجل كسب المال ، فانه لم يكن اسوأ من الأطباء الحديثين الذين يعالجون المرضى لكسب قوتهم وهم محقون فى هـذا • ولم يكن سلوك مسمر أسوأ من هؤلاء الذين يكتشفون هذه الأيام عقارا جديدا ويعتبرون انتاجه مصدرا للربح • لذلك يجب الا نتجنى على مسمر ونوقف حملات الهجوم ضده ، فهو لم يفعل أكثر مما يفعله هؤلاء الناس الذين أشرنا اليهم • هؤلاء النـاس الذين لا يتعرضون للنقـد أو التجريح حتى ولو كانت العقاقير التى يكتشفونها لا تملك أية خواص علاجية » •

وفى باريس تدخلت الحكومة فى أعمال مسمر فعينت لجنة للتحرى فى مدى صحة مزاعمه ، واهتمت اللجنة بوجه خاص بما كان يطلق عليه « أزمات مسمر » .

وفيما يلى ما أدلى به الماجور « شارلز دى هاسى » أحد المرضى الذين عالجهم مسمر الى تلك اللجنة بعد أن أقسم على صحة أقواله :

« بعد أن عالجنى اطباء آخرون طيلة اربع سنوات من غير جدوى استشرت « مسمر » ، وكان رأسى يهتز بصورة مستمرة ، وكانت رقبتى تميل الى الأمام ، وكانت عيناى جاحظتين وملتهبتين ، وكان ظهرى مشلولا تقريبا ، وكنت أنطق الكلمات بصعوبة ، وكنت اضحك برغمى ولأسباب غير واضحة ، وكنت أتنفس بصعوبة ، وكنت اقاسى من ألم شديد بين كتفى ، وكنتأعانى من هزات عصبية ، وكنت اترنح فى سيرى •

وعالجنى مسمر ، ومررت بازمات عاطفية قوية وكنت احس برودة الثلج تسرى فى اطرافى يعقبها حرارة شديدة وسيل من العـرق ، واختتم دى هـاسى تصريحه بقوله : واخيرا وبعد مرور اربعة شهور شفيت من مرضى » •

ولقد وصلت تلك اللجنة الى قرار وهو : « لقد ظهر بالتجارب القاطعة أن الخيال بدون القوة المغناطيسية يؤدى الى الهزات العصبية أو الاضطرابات ، وان

القوة المغناطيسية من غير الخيال لا تترك أى أثر » ، واتفق أعضاء اللجنة بالاجماع على راى فيما يتعلق بوجود القوة المغناطيسية وفائدتها فقالوا : « ليس هناك ما يثبت وجود السائل او الغاز المغناطيسى الحيوانى ، ولذا فان هذا السائل او الغاز ليس له اثر مفيد طالما كان غير موجود · ان التأثيرات العنيفة التى نشاهدها فى المرضى تحت العلاج هى تأثيرات تعزى الى اضطراب الخيال ، والى المحاكاة الآلية التى ترغمنا لا اراديا على أن نكرر ذلك الشىء الذى يصيب احساساتنا » ·

وفى نفس الوقت تقريبا نشرت الجمعية الطبية الملكية تقريرا مماثلا مؤداه « انه من وجهة النظر العلاجية فان المغناطيسية الحيوانية ليست الا فنا يجعل الناس الحساسين يصابون بهزات عصبية عنيفة » ، وكانت نتيجة تلك التقارير ان قضى على مستقبل مسمر كطبيب يعالج الحالات العقلية ، وغادر مسمر فرنسا بعد ذلك بوقت قصير ·

لقد ارتبط فى أذهان الناس ان مسمر كان أول من اكتشف التنويم المغناطيسى ، ولكن الواقع ان الظاهرة الطبيعية للتنويم المغناطيسى كانت معروفة منذ آلاف السنين ، وان مسمر ــ فى الحقيقة ــ لم ينوم مرضاه تنويما مغناطيسيا .

لقد بدا أن بعض مرضاه كانوا يصابون بهزات عصبية هستيرية ، وبهزات عاطفية مماثلة ، ولكن ليس هناك فى عمل مسمر ما يشير الى ظاهرة التنويم المغناطيسى الطبيعية الحقيقية · ويعجب المرء كيف ارتبط اسم مسمر باكتشاف التنويم المغناطيسى مع ان ذلك كان اكتشاف أشخاص آخرين !

كان أول من توصل الى ايجاد حالة النوم الهادىء « الغيبوبة » وهى الحالة التى تعتبر جانبا أساسيا فى التنويم المغناطيسى هو المركيز بايسجور احد تلاميذ مسمر ، فبينما كان يحاول احداث الهزة العصبية الهستيرية العادية لشاب راعى غنم يدعى فيكتور باستخدام طريقة التنويم بالتأثير المغناطيسى ، اكتشف المركيز بايسجور ان فيكتور راح فى نوم هادىء لم يستيقظ منه الا بعد وقت طويل ، ولم يستطع فيكتور أن يتذكره بعد أن أفاق لنفسه ·

وقد لفتت تلك الظاهرة الأنظار ، وسرعان ما تحدث آخرون عن ظواهر مختلفة للتنويم المغناطيسى مثل الحالات الهستيرية السلبية ، كأن لا يرى الشخص اشياء موجودة فعلا ، ومثل حالات عدم الاحساس كعدم احساس الشخص عندما يلمسه آخر ، وحالة عدم الاحساس بالألم وغيرها من الحالات من الحـالات التى سوف نناقشها فيما بعد •

* * *

والآن قد نتساءل كيف تحدث حالة التنويم المغناطيسى ؟

فى الواقع هنـاك وسـائل عديدة لاحداث التنويم المغناطيسى ، وكل منوم مغناطيسى مجرب له وسائله التى تختلف اختلافا طفيفا عن الوسائل التى يتبعها الآخر ، ومن الجائز أن أكثر الوسائل شيوعا هى الوسيلة التى تتبع الأسلوب التـالى :

فالمنوم المغناطيسى يحـاول الحصول على تعـاون من الشخص الذى ينومه مغناطيسيا وذلك بأن يوضح له مزايا حالة النوم المغناطيسى كالمسـاعدة التى يحصل عليها المنوم لمعالجة مرض عصبى •

ويحـاول المنوم المغنـاطيسى ازالة أية مخـاوف فى نفس الشـخص المراد تنويمه ، وقد يخبره بأن المرور بحالة الغيبوبة ليس دليلا على الضعف أو عدم الاستقرار فى شخصيته بل بالعكس فان المرور بحالة الغيبوبة والخضـوع لتأثير المنوم المغناطيسى هى دليل على ذكائه ، وقدرته على التركيز •

وتاتى بعد ذلك الخطوة التـالية ، وهى أن يطلب المنوم من الشخص الذى يراد تنويمه أن يرقد على مسند ، أو يجلس جلسة استرخاء فى كرسى مريح ، ثم تقلل المؤثرات الخارجية الى الحد الأدنى ، وذلك باسدال الستائر وبالتخلص من الضوضاء التى قد تكون مصدرا لتشتيت الانتباه فى أثناء العملية • وأحيـانا يطلب المنوم من الشخص المراد تنويمه أن يتجه بأنظاره الى شىء معلق فى السقف فوق مستوى النظر حتى يضطر الى النظر لأعلى قليـلا ، وهـذا يؤدى سريعـا الى اصابة أعصاب العين بالتعب فيزداد تقبل الشخص الذى سينـام للاستهواء

بانه يحس التعب وان عينيه مغلقتان ، ثم يبـدا المنوم فى التحدث اليه بلهجـة خافتة ، ثم يكرر له مرات ومرات الايحـاءات بانه يحس ميلا الى النوم والتعب وان عينيه مغلقتان وانه يروح فى سبـات عميق ، وانه لا يسمع سوى صوت المنوم • فاذا كان الشخص المراد تنويمه حساسا ، فانه يروح فى الغيبوبة بعد دقائق قليلة ، ويبدا المنوم فى العمل على تعميق تلك الغيبوبة فيه ، وعلى اختبار ردود الأفعال من جانبه وذلك عن طريق ايحاءات يقوم بهـــا المنوم ويصعب على النائم تنفيذها • فمثلا يطلب المنوم من الشخص المراد تنويمه أن يشبك يديه ثم يخبره بانه من المستحيل أن يفصل يديه بعضهما عن بعض ويحاول الشـــخص المنوم ـ لدهشته الكبيرة ـ أن يفصل بين يديه ، ولكنه لا يستطيع فعلا • ومثل هذه الايحاءات الناجحة هي اداة مسـاعدة لتعميق فترة الغيبوبة أو فترة النوم المغناطيسى حتى يمكن استخلاص كل الظواهر المغناطيسية فى النهاية ولا سيما فى حالة الأشخاص المنومين الذين يستجيبون •

هذه باختصار هى الوسيلة العادية لوضع الشخص المراد تنويمه فى حالة غيبوبة ، وانه ليصعب ان نحدد أى عامل من العوامل المشار اليها هو المؤثر فى العملية •

فالعزلة مثلا والهدوء والظلام ليست أمورا هامة ، فقد تمت عملية التنويم المغناطيسى فى مناسبات كثيرة بنجاح فى جو من الضوضاء وفى وضح النهار • بل كثيرا ما تتم عملية التنويم المغناطيسى بنجاح على خشبة المسرح أمام حشـــد من الجمهور ، والاكثر من ذلك أن بعض المنومين المغناطيسيين يزعم أن الضوضاء والضوء يساعدان على احداث حالة الغيبوبة العميقة للاشخاص المراد تنويمهم •

وان كانت لم تجر اعمال تجريبية على هذه النقطة فان الرد على ذلك هو أن الظروف المختلفة تناسب اشخاصا مختلفين • فبينمـا يكون من الأسهل تنويم الأشخاص ذوى النفس الانبساطية والأشخاص المصابين بحـالة هسـتيرية فى ظروف يسودها الضوضـاء والاضطراب ، يفضل الأشـخاص الذين يتصفون بالانطواء النفسى والأشخاص القلقون أن ينوموا مغناطيسيا بعيدا عن الاضواء ،

بل فى جو هادىء فى غرفة الاستشارة · وبالرغم من ذلك فان كل هـذا مجرد حدس وتخمين ولم يصل الأمر الى الحقيقة الثابتة ·

وبعكس ما يعتقد معظم الناس فانه ليست هناك صعوبة كبيرة فى ايقـاظ الشخص الذى ينام عندما يقرر المنوم انهاء فترة الغيبوبة · وعادة يوحى المنوم له بأنه عندما يصل فى العد حتى رقم ١٠ ، سوف يستيقظ من حالة الغيبوبة ، وبانه سوف ينسى كل ما حدث له فى أثناء فترة الغيبوبة ، وأنه سوف يحس الانتعاش · وليست هناك سجلات تشير الى صعوبات واجهها المنوم عندما حاول ايقاظ أى شخص تحت تأثير التنويم المغناطيسى ، وحتى فى الحالات التى يصعب فيها على المنوم ايقاظ الشخص لأسباب ما ، فان كل ما يمكن أن يحدث هو أن يستمر هذا الشخص فى نوم عميق طبيعى يستيقظ منه بعد ساعات قليلة ·

* * *

والآن يمكننـــا ان نســـال : ما هى انواع الظواهر الطبيعيــة التى يمكن استخلاصها ؟

ان أول ظاهرة بل اكثر الظواهر وضوحا هى الزيادة الهـائلة فى تقبـل الشخص الواقع تحت تأثير التنويم لأى ايحاء يقدمه المنوم ، ويحاول تنفيذه بقدر المستطاع · فاذا اوحى المنوم اليه انه كلب فانه سوف يزحف على يديه ورجليه ويدور فى الغرفة وهو يعوى ، واذا أوحى اليه أنه هتلر فانه سوف يرفع يديه فى الهواء ويبدأ فى الخطابة على طريقة الفوهرر ·

وقد نكون مبالغين لو قلنا : ان الأشخاص المنومين مغناطيسيا يتقبلون جميع الايحاءات من المنوم المغناطيسى حتى فى حـالة الغيبوبة العميقة ، وينطبق هـذا بوجه خاص على الحـالة التى يوحى فيها المنوم المغناطيسى للشـخص بعمل شىء يتنافى مع المفاهيم الأدبية او الخلقية التى يؤمن بها هذا الشخص · ونسوق على سبيل المثال قصة تؤيد هذا ، فقد كان شاركوت اخصائى الأمراض العصبيـة الفرنسى يلقى محـاضرة عن التنويم المغناطيسى ، وكان يشرح ظواهر الغيبـوبة المغناطيسية مستعينا فى شرحه بفتاة فى سن الثامنة عشرة · وعندما نومها تنويما مغناطيسيا استدعى فى امر هام خارج قاعة الدرس ، وتولى احد مساعديه اتمام

الشرح والايضاح • ولما كان المساعد شخصا تنقصه الجدية ، فانه أوحى الى الفتاة الواقعة تحت تأثير التنويم المغناطيسى أن تخلع ملابسها • ولكنها استيقظت على الفور وصفعته على وجهه وخرجت من الغرفة !

وأحيانا لا يستجيب الشخص المنوم لايحاء المنوم لأسباب غير معروفة • اسباب لا ترتبط بالمفاهيم الأدبية أو الخلقية ، فمثلا قد يوحى المنوم له أنه منضدة او سيارة ، ولكن الشخص لا يستجيب له ، ويرفض مثل هذا الايحاء •

وفى هذه الحالة لابد من وجود سر وراء هذا السلوك ، ولا بد من اجراء تجربة طويلة على مثل هذا الشخص لمعرفة السر وراء رفضه تقبل هذا الايحاء •

والظاهرة الطبيعية الثانية التى نراها فى أغلب الأحيان هى المعروفة باسم « الهلوسة أو الهوس الايجابى » وفى هذا المقام يرى ويسمع ويحس الشخص الذى نوم اشياء ليست موجودة موضوعيا • فاذا قيل له : « أن خطيبته تجلس فى كرسى امامه فانه يبدأ فى تحيتها ثم يعبر الغرفة ويقبلها • واذا قيل له : أن أسدا دخل الغرفة من النافذة فان كل أعراض الخوف تظهر عليه ، بل قد يندفع مرعوبا خارج الغرفة •

« والهلوسة السلبية » عكس « الهلوسة الايجابية » هى حالة يصاب بها الشخص المنوم ايضا • وفى هذه الحالة لا يستطيع الشخص أن يرى او يسمع أو يحس أشياء أو اشخاصا موجودين فعلا أمامه • فاذا أوحى اليه مثلا أنه والمنوم هما الشخصان الوحيدان فى الغرفة فانه لن يلتفت الى الآخرين الموجودين فى الغرفة ، ويسلك سلوكا كما لو أنهم غير موجودين فعلا فى الغرفة ، واذا أوحى اليه أنه لا يستطيع أن يحس اية لمسة لجلده ، أو بأنه لا يستطيع أن يسمع صوتا معينا ، فانه سوف يسلك سلوكا مطابقا لذلك •

وكما ان الهلوسة السلبية يمكنها احداث حالة فقدان الاحساس بحيث لا يستطيع الشخص المنوم أن يحس لمسة فوق جلده ، فانه من الممكن أيضا احداث حالة عدم الاحساس بالالم •

ولقد ظلت هذه الظاهرة موضع شك وهدفا للسخرية عدة سنوات ، لان معظم الظواهر التى وضعت حتى الآن كان من الممكن أن تختلط بالزيف والخداع •

ومع ذلك فقد نجح خلال منتصف القرن الماضي طبيب هندى يدعى « ايسديل » في استخدام التنويم المغناطيسي في اجراء العمليات الجراحية ، وكانت العقاقير المخدرة لم تكن قد اكتشفت بعد •

واليوم بعد أن ارتقى استخدام العقاقير المخدرة الى درجة كبيرة فانه يندر استخدام التنويم المغناطيسى فى العلاج الطبى لغرض التخفيف عن آلام المريض على الرغم من أنه يفوق فى نواحي كثيرة أفضل العقاقير المخدرة •

ولقد نجح المنومون المغناطيسيون أخيرا فى خلع الاسنان والضروس من غير أن تنزف دماء . ومنذ سنوات قليلة مضت وفي معرض أقيم في الولايات المتحدة وأمام حشد كبير من أطباء الاسنان استطاع منوم مغناطيسى أن يخلع ضرسين فى الفك العلوى وضرسا فى الفك السفلى فى الجانب الايمن من الوجه بدون استخدام أى عقار أو بنج ، ولم يحس المريض الذى كان فى حالة غيبوبة كاملة أى ألم ، ولم ينزف منه دماء •

وهناك ظاهرة أخرى لوحظت منذ الايام الاولى لاستخدام التنويم المغناطيسى وهى الصلة الوثيقة أو التعاطف المتبادل بين المنوم وبين الشخص المراد تنويمه ، وهذه العلاقة الخاصة تجعل الشخص يتلقى الاوامر والتعليمات ويتقبل الايحاءات من المنوم بالذات لا من أى شخص آخر •

فاذا ما أمكن ايجاد هذه « العلاقة الخاصة » فانه من الممكن نقلها الى أناس آخرين طبقا لاوامر المنوم المغناطيسى •

على أن فقدان الذاكرة التى تعقب عملية التنويم المغناطيسى أو التى تصاحبه هى فى الواقع ظاهرة مصاحبة لحالة الغيبوبة العميقة •

وحالات فقدان الذاكرة هذه هى حالات شائعة فى حالات الغيبوبة العميقة ، وهى حالات لا يستلزم الايحاء بها للشخص المنوم ، ولكنها حالات تعتبر نتيجة

تلقائية لحالات الغيبوبة العميقة ، فاذا لم تكن حالة الغيبوبة عميقة بالدرجة الكافية وجب على المنوم أن يوحى الى الشخص المنوم بضرورة نسيان كل ما حدث ، وعادة تطاع مثل هذه الاوامر بسهولة ٠

ولذلك فان هناك استمرارا بين اللحظة الاخيرة قبل ان يروح الشخص المنوم فى غيبوبة ، وبين اللحظة الاولى عندما يستيقظ وهو لا يذكر تماما اى شيء حدث بين اللحظتين ٠

وليس هناك شك فى القوة الكبيرة الكامنة فى « الايحاء ما بعد التنويم » وقدرته على احداث فعل ما ، ولتوضيح ذلك نعطى المثال التالى :

لقد كان موضوع التجربة عالم نفسى معروف يهتم اهتماما كبيرا بظواهر التنويم المغناطيسى ، وكانت شخصيته مستقرة وقوية ، ولم يكن بها أثر من آثار الضعف العصبى ٠ ولقد أعرب عن رغبته فى أن يجرب ظواهر التنويم المغناطيسى بنفسه ، فنوم تنويما مغناطيسيا وراح فى غيبوبة عميقة ٠ وفى أثناء الغيبوبة أوحى له أنه عند اعطاء اشارة متفق عليها من قبل ، يقوم من كرسيه ويعبر الغرفة ويجلس فى كرسى آخر ٠

ثم أوقظ من الغيبوبة المغناطيسية وبعد نصف الساعة اعطيت الاشارة المتفق عليها من قبل ، فبدأ عليه الاضطراب قليلا وبدأ ينظر عبر الغرفة متجها بنظره الى الكرسى الآخر وأخيرا قال : « اننى أميل ميلا شديدا الى عبور الغرفة والجلوس فى ذلك الكرسى ٠ اننى متأكد انك أعطيتنى ايحاء بعد التنويم بهذا المعنى ٠ حسنا على اللعنة اذا كنت افعل هذا ! ٠

واستمر يشترك فى الحديث ولكن بدا عليه أنه مشتت الفكر ، ثم قفز فجأة من كرسيه وعبر الغرفة وجلس فى الكرسى الآخر وصاح قائلا : « لم استطع المقاومة أكثر من ذلك » ٠

لا عجب اذن فى أن المحاولات قد بذلت لاستخدام « الايحاء بعد الغيبوبة المغناطيسية » كعامل معالج ٠ وكانت هذه الفكرة واضحة بوجه خاص عندما عرف أن الايحاء بعد التنويم المغناطيسى يستطيع أن يدوم فترات طويلة ٠

وقال بعض المجربين الموثوق بهم أن الايحاءات بعد التنويم تدوم فترات تتراوح بين سبعة شهور وعام ، وبالرغم من ذلك فان نتائج استخدام الايحاء بعد التنويم المغناطيسى لم تكن ايجابية عادة •

ولنفترض أنك أردت أن تقلع عن عادة تخدير نفسك بالمشروبات الروحية أو التبغ ، فمن الممكن أن تعطى ايحاء بأن المشروبات الروحيـة سوف تمرضك ، وأن التبغ سوف يكون طعمه كطعم نبات الصبار المر • وسوف يكون لهذا الايحاء اثره فى اثناء فترة الغيبوبة المغناطيسية ، وحتى عندما يعطى الايحاء بعد التنويم المغناطيسى فان آثاره سوف تدوم لمدة يوم أو يومين بعد ذلك ، ولكن قوة الايحاء تتضاءل تدريجيا حتى يزول الاثر بعد أسبوع ، ويعود الشخص المنوم مرة اخرى الى ادمانه الاصلى • ومن الممكن طبعا اعادة تنويمه كل بضعة أيام قليلة ، ولكن هذا الاجراء غير محبب لان الكثير من الناس يخشون أن يتحول التنويم المغناطيسى فى حد ذاته الى ادمان ، بل قد يكون أسـوأ وأكثر تكاليف بالنسـبة للفرد عن المشروبات الروحية أو التبغ ، ولذلك ففى الوقت الحاضر لا يستخدم الايحاء بعد التنويم الا نادرا ، بالرغم من أنه يبدو أنه لو أجريت تجارب صادقة مخلصة ذكية على هذه الطريقة لتحققت نتائج أفضل وأكثر فاعلية •

وهناك ظاهرة أخرى نلاحظهـا أحيانا فى التنويم المغناطيسى وهى سمو أو ترقية طاقة العمل العادية ، ولقد بالغ بعض الـكتاب القدامى مبالغة تتسم بالحمق فى قدرة الشخص المنوم على الاتيان بأعمال خارقة ، ولكنهم لم يجربوا ما اذا كانت هذه الاعمال من الممكن تنفيذها فى الحالة الطبيعيـة • وبالرغم من ذلك فنحن لا ننكر أن بعض الاعمال تتم تحت تأثير التنويم المغناطيسى بسرعة أكثر وبدقة أكثر عنها عندما تتم فى حالة اليقظة العادية •

ثم ظاهرة أثارت اهتماما أكبر من غـيرها من الظواهر بسبب ما تبشر به من نتائج طيبة فى الميـدان العـلاجى ، هى تحسين الذاكرة تحت تأثير التنويم المغناطيسى • ويقول اخصائيو التنويم المغناطيسى : ان الشخص تحت تأثير التنويم المغناطيسى يسـتطيع أن يتذكر أمورا قد لا يسـتطيع أن يتذكرها فى حالتـه الطبيعية • ويقال : ان الشخص تحت تأثير التنويم المغناطيسى من الممكن «ارجاعه»

الى مرحلة مبكرة ، وانه فى هذه الحالة سوف يمر بنفس الاحداث التى كانت قد وقعت طوال المرحلة ، بل سوف يحس العواطف نفسها التى أثارتها تلك الاحداث فى نفسه • ولقد أثار هذا الادعاء أو هذا الرأى الذى ذهب اليه الاخصائيون فى التنويم المغناطيسى جدلا وانتقادا ، لا سيما أن أصحاب هذه النظرية ، نظرية ارجاع الشخص تحت تأثير التنويم المغناطيسى الى مرحلة مبكرة قد بالغوا كثيرا فى آرائهم ، حتى زعموا أنه من الممكن اعادة الشخص الى الفترة التى كان فيها جنينا لم ير النور بعد • ومثل هـذا الزعم لا يمكن أن يجعل الموضـوع مقبولا لدى العلماء الناقدين •

على أن هناك شيئا له أهميته ، فنحن اذا نظرنا الى ذلك الشيء الذى يحدث عندما ينام الشخص عائدا الى المرحلة المبكرة نراه يستخدم عادة اللغة التى يتوقع المرء أن يسمعها من شخص عاد بذاكرته الى مرحلة مبكرة ، وقد يصبح صوته كصوت الاطفال ، وربما احتفظ بلهجته أو نغمته العادية ولكنه لا يستعمل سوى الكلمات والعبارات السهلة ، ويميل سلوكه العام الى ما يطابق السن المبكرة التى أرجع اليها ، فاذا أعيد الى سن الخامسة مثلا فمن المفروض أنه يلعب بالدمى ويبكى ، أو يحتج مثل الاطفال فى حالة تحطيم الدمية ، واذا رسم فستكون رسومه فى مستوى رسوم أطفال هذه السن •

ولقد لوحظ فى احدى تجارب ارجاع فتاة فى العشرين من عمرها الى أعمار متفاوتة تحت تأثير التنويم المغناطيسى أنها نقلت قطعة الطباشير الى يدها اليسرى فى مرحلة السنوات الست من عمرها ، لانها كانت تفعـل ذلك وهى فى هـذه السن ، ثم أجبرت على التغيير بعدها •

كما أجريت أنواع أخرى من الابحاث على سلوك الاشخاص المنومين الذين أعيدوا الى الوراء فى مراحل مبكرة ، وذلك فى اختبارات ذكاء واختبارات تحصيلية من أنواع مختلفة ، ووجد عادة أنه عندما يعاد النـاس الى مرحلة معينة فانهم يميلون الى السلوك الذى يتناسب تقريبا مع السن المحددة •

هذا وأثبتت التجارب بما لا يترك مجالا للشك أن هناك جانبا من الصدق والصحة فى الافتراض بأن اعادة الذاكرة الى الوراء يحدث فعلا ، وأنه من الممكن

استرجاع الذكريات التى يظن بعض الناس أنهم قد نسوها تماما ، كما أنه من الممكن استغلال تلك الحقيقة لاغراض علم النفس العلاجى • ونستطيع أن نسوق مثالا نشرح به كيف تستخدم عملية استرجاع الذاكرة فى العلاج النفسى •

ففى احدى حالات العلاج كانت المريضة سيدة متزوجة فى سن الاربعين ذكية ومطلعة ، وظلت هذه السيدة أعواما طويلة تعانى من نوبات الربو وكان عملها يتطلب منها التردد على المستشفيات ، فقد كانت تعمل كاخصائية اجتماعية فى العيادات النفسية • وفى كل مرة تدخل فيها مستشفى كانت تحس خوفا ، وكانت الاسباب التى تسبب لها الخوف غير معقولة ، اذ كانت تخاف عندما ترى يد رجل شعراء أو عند رؤيتها سكاكين ، كما كانت تعانى من الكابوس والاحلام المزعجة • وفى ذات يوم وبينما كانت فى حالة غيبوبة نتيجة لايحاء ذاتى أعيدت ذاكرتها الى الوراء لسن مبكرة حيث وقع لها حادث كانت قد نسيته تماما •

لقد تذكرت هذا الحادث وهى فى الغيبوبة فبدت راقدة على منضـدة تحت أضواء براقة يقف بجانبها رجل ممسك سكينا صغيرا ، وكان هناك شيء غامض يسقط من مكان فوق رأسها ثم رسا هـذا الشيء على وجهها ، وأحست الرعب وحاولت النهوض ولكن ذراعين يغطيهما الشعر أمسكتاها بخشونة وأرغمتاها على النوم على المنضدة ، واستمرت تناضل ولكن شخصا ظل يهزها ويصفعها ، وأخيرا رسا ذلك الشيء على وجهها وكتم أنفاسها •

وبالاستفسار اتضح أنها فى طفولتها أجريت لها عملية جراحية فى أذنها ، ولكنها ظلت مريضة مدة طويلة بعد العملية نتيجة المضاعفات التى نجمت عن صدمة شديدة • وكانت ممرضتان فى المستشفى قد أبلغتا أمها بأن طبيب البنج كان قاسيا للغـاية مع الطفلة ، وأنهما قدمتا استقالتيهما احتجاجا على ذلك • وظلت الطفلة وقتا طويلا بعد ذلك تعـانى من الـكابوس ومن القلق العصبى • وبدأت أول نوبات الربو عندها بعد هذه العملية الجراحية • وكانت نتيجة التنويم المغناطيسى أن عولجت هذه السيدة من الربو ، وزال خوفها من الايدى الشعراء ، ومن منظر السكاكين ، ومن ارتياد المستشفيات •

وقد يبدو للقارىء ان يتساءل بعض الاسئلة التى قد توضح الهدف من هذا الجزء وهى :

- هل من الممكن اقنــاع الأشخاص تحت تأثير التنويم المغناطيسى بارتكاب الجرائم أو السلوك بما يتعارض مع اخلاقهم ومعتقداتهم ؟
- ما عدد الناس القادرين على أن يناموا تنويما مغناطيسيا ؟
- ما علاقة التنويم المغناطيسى بالعلاج النفسى ؟

أما فيما يختص بالسؤال الاول فان الكتاب المتزنين حتى الآونة الاخيرة يميلون الى تكذيب هذا الرأى ، وكانوا يدللون على ذلك بحالة المساعد الشاب للاخصائى النفسى « شاركوت » ذلك الشاب الذى لم يوفق عند تغيب استاذه فى حث فتاة تحت تأثير التنويم المغناطيسى على أن تخلع ملابسها .

ويعتقد هؤلاء الكتاب أن الايحاء لشخص تحت تأثير التنويم المغناطيسى بالقيام بعمل مناف لمبادئه واخلاقه لا يجد استجابة من الشخص المنوم ، بل على العكس قد يدفع الشخص المنوم الى أن يستيقظ من حالة التنويم المغناطيسى . وهناك ملاحظات عديدة من هذا النوع فى الادب التجريبى ، توحى بأن الشخص المنوم لن يستجيب لايحاء صريح بالقيام بعمل مناف للمبادىء والاخلاق .

الا أنه فى الآونة الاخيرة أجريت عدة تجارب تبين أن هذا الحكم ليس صحيحا بصورة عامة ، كما أن اطار ذلك النوع من التجربة اطار ضيق جدا ، ويكفى مثال واحد لكى يبين نوع التجريب المرتبط بهذه المسألة .

فقد أجريت تجربة « ايحاء ما بعد التنويم المغناطيسى » على جندى مكلف بواجب عسكرى . وقد نفذ الجندى ايحاء ما بعد التنويم المغناطيسى وترك واجبه ، وهذا عمل مناف للعمل الاجتماعى ويؤدى بصاحبه الى عقوبة صارمة اذا لم تكن الظروف معروفة . ونرى من ذلك أن الاعمال المنافية للاعمال الاجتماعية من الممكن احداثها عن طريق التنويم المغناطيسى حتى ولو لم تبد هذه الاعمال للقارىء ذات طابع خطير جدا .

والصعوبة ـ بالطبع ـ هى أنه لو كان هذا العمل المنافى للمبادىء الاجتماعية ذا طابع خطير جدا فان تنفيذه يؤدى حتما الى عقوبة توقعها المحاكم على المنوم والشخص الذى نوم •

ولا يختلف التكنيك الذى يستخدم لاقنـاع الشخص المنوم على الاتيـان باعمال تتنافى مع المبادىء الاجتماعية والخلقية ، عن ذلك الذى يلجأ اليه بعض الناس فى الحياة العادية • ولنضرب مثـالا لذلك بشخصية « سير بمبر دينك فلانل فلانل » ذلك الافاق فى الميلو دراما فى عصر فيكتوريا الذى كان هـدفه الاعتداء على الفتيات العذارى ، فلماذا كان يفعل ؟ كان يلجأ الى اسلوب يقوم على محاولة خلق اثر موقف معين على عقل الفتاة وهو موقف غير موجود بالفعل ، فهو يتظاهر بالحب الخالد ، كما يتظاهر بالرغبة فى الزواج منها ، ويقوم ببذل الوعود ، والنتيجة دائما كانت ناجحة كما تدل احصائيات الاطفال غير الشرعيين •

* * *

ولننتقل من مرحلة الافتراض الى مرحلة التجريب ، ففى احدى التجـارب التى اجريت على جنـــدى أمريكى يبلغ من العمر عشرين عاما وضـــع فى حالة « غيبوبة » فى حضور ضباط برتب كبيرة من الجيش ، ووقف ضابط برتبة عقيد امام الجندى مباشرة وعلى مسافة ١٠ أقدام منه ثم وضع الجندى حينئذ فى حـالة غيبوبة ، ووجه اليه هذا الايحاء :

« سوف تفتح عينيك بعد دقيقة • سوف ترى أمامك جنديا يابانيا ، انه يمسك بالسونكى ، وهو يستعد لقتلك اذا لم تبـدأ بقتله • عليك أن تخنقه بيديك » • وفتح الجندى عينيه ، وبدأ يزحف للامام ببطء وأخيرا قفز قفزة سريعة وأوقع الضابط على الارض وبدأ يضرب رأســه ويخنقه بيديه • وتطلب الامر ثلاثة رجال لشده وابعاده عن الضابط ، ولم يعد الى هدوئه الا بعد أن استطاع المنوم أن يرسله فى سبات عميق • ولقد قال الضابط أن هجوم الجنـدى عليه لم يكن تمثيلا ، وانه كان من الممكن أن يقتله أو يصيبه باصابات خطيرة لولا أن هب الآخرون لانقـاذه • ولما كان ضرب ضابط فى الجيش مخـالفة خطـيرة فانه يتضح لنا أن المنوم المغناطيسى الماهر يستطيع بسهولة أن يؤثر على المنوم ويحثه على الاتيان بأعمال خطيرة • اذا ما أضفنا الى تلك الاعتبارات حقيقة أن من الممكن

تنويم الشخص تنويما مغناطيسيا برغم ارادته ، فاننا نستطيع أن ندرك خطورة الموقف بالرغم مما يقال أنه لا يقع ضرر كبير تحت تأثير التنويم المغناطيسى بسبب الضمانات الكامنة فى المبادىء الخلقية عند الفرد • ونحن نحتاج الى جهود كبيرة قبل أن نعرف كيف نقيد تحكم المنومين المغناطيسيين فى الافراد الآخرين • ولذلك يجب علينا ألا نقلل من شأن الاخطار الكامنة فى قدرة المنوم على حث الافراد على الاتيان بأعمال منافية للآداب والاخلاق •

أما السؤال الثانى الخاص بنسبة الناس الذين لديهم قابلية واستعداد للتنويم من بين أفراد المجتمع فهو سؤال لا يظفر بأى رد واضح • فهناك ظروف لها مواصفاتها ، ولم تجر تجارب كافية لتوضيح آثار هذه الظروف ، فان الحدس أو التخمين ليس له ما يبرره ، ومع ذلك يقول كثير من الثقات : أنه اذا توافرت ظروف معينة مثل وجود منوم مغناطيسى كفء مستعد لقضاء اربع ساعات على الأقل مع الشخص المراد تنويمه ، واذا ما تيسرت الظروف الملائمة للتنويم فان ظواهر التنويم المغناطيسى يخضع لها ٨٥٪ من الناس ، بل من الممكن أن يرتفع هذا الرقم الى ١٠٠٪ ولذلك فان التنويم المغناطيسى ليس بظاهرة نادرة معزولة ، ولكنه ظاهرة لها صلة بالغالبية العظمى من الناس بل بكل شخص •

وللاجابة عن السؤال الثالث قد يكون من الافضل أن نشير الى الدراسات الاولية التى قام بها « فرويد » فى علاج الهيستيريا ، فقد لاحظ أن بعض المرضى يستريحون بالتنفيس عن طريق الكلام ، كما اكتشف فرويد أن الذكريات العديمة الاثر التى لا يتم فيها أى تفريغ انفعالى كانت عديمة الجدوى ، أى بمعنى أوضح أنه اذا لم يستطع الطبيب المعالج جعل مرضاه يعيشون الانفعالات التى ارتبطت أصلا بتجربة مكبوتة وكانت سببا فى حالة المريض ، فان مجرد تذكر التجربة لا يشكل علاجا •

كما عرف سادلر Sadler فيما بعد أن « التخلص من العقد عبارة عن عملية احياء ذكرى تجربة غير سارة ، والعمل على خلق الانفعالات المرتبطة بها وبذلك يمكن تخليص الانسان من آثارها •

ولقد اجريت محاولات عديدة في الحرب العالمية الاولى لتخليص عدة مصابين ببعض الامراض العصبية من العقد بواسطة التنويم المغناطيسي، وكللت التجارب بنجاح .

وفي كل من الحربين العالميتين الاولى والثانية كان لعلاج التخلص من العقد بواسطة التنويم المغناطيسي مكان محدد في علاج حالات نورستانيا القتال الحادة .

وقد كتب ميلز كلبن Millais Culpin (١) يقول : « بمجرد أن يتغلب الشخص على المقاومة الواعية لمناقشة خبراته في الحرب ، فانه يتبع التفريغ الانفعالي للاحداث خلاص عظيم . وقد بدا كأن الانفعالات الكامنة ـ نتيجة هذه المقاومة الواعية ـ قد تمخض عنها ـ نتيجة التوتر ـ ظهور بعض الاعراض، فالتذكر ـ وهو أمر لا شك فيه ـ يبرز حينئذ، وربما يعقب عودته : ازدياد في امتلاء شرايين الوجه ، وضغط بالايدي على الوجه ، ورعشات، وعلامات بدنية أخرى للانفعال » .

وعلى كل حال ، فقد يود القارىء أن يتأمل أوجه شبه بين : تطور نظرية مسمر ، وبين تطور التنويم المغناطيسي ففي كلتا الحالتين هناك شخصية قوية تعتبر المؤسسة للفكرة ، ولكن هناك جماعة كبيرة من أتباع كل مدرسة تتعصب لمبادىء مدرستها والدعوة لها ، كما أن هناك مدارس جديدة انشقت على بعضها البعض وكونت مدارس جديدة . وهناك صياغة لنظريات غير عادية تقوم على أساس براهين لم تثبت صحتها ، وفي كل الحالات نجد تقارير تفيد بنجاح العلاج في بعض الحالات ، ولكن لا توجد التجربة الموجهة المقيدة وهي الوحيدة التي تستطيع أن تتحقق من صدق ادعاء كل منهما .

على أننا قبل أن نختتم هذا القسم نود أن نشير الى نقطة هامة تتعلق بالايحاءات ، فمن المعروف أن الكثيرين من المرضى الذين تعرضوا لعملية التفريغ الانفعالي خلال شهور أو حتى سنوات على مسند المعالج النفسي يصبحون شديدي

---

(١) Culpin M. - Recent Advances in the Study of Psychoneuroses, J. and A. Churchill, London, 1931.

الحساسية من ناحية ايحاءات الطبيب المعالج • وقد يكون قادرا حينئذ على تغيير أنماط سلوكهم السابقة بدون صعوبة كبيرة ، اذ أنهم يستجيبون برغبة أكبر حينما يحاول أن يزرع افكارا جديدة فيهم ، أو يبعث تفسيرات جديدة لآرائهم القديمة • وتلك أمور من المؤكد أنهم كانوا يرفضونها دون تردد قبل أن يحدث لهم هذا التغيير •

التحليل النفسي Psycho Analysis :

لقد قامت دراسات عديدة في السنوات الاخيرة في موضوع الارتباط بين الاضطرابات النفسية ، وبين الاحوال الفسيولوجية ، ومعنى هذا أن بعض اضطرابات الجسم قد تتسبب عن احداث سيكولوجية مثل الانفعالات القوية ، وانه من الممكن ان يتحقق علاج الاضطراب الجسماني اذا امكن أولا آداء عملية تطهير سيكولوجية •

هذا التاكيد للعلاقة بين الجسم والعقل والتفاعل بينهما ـ يدل على اتجاه حديث ، ويرجع الفضل الى فرويد والمحللين النفسيين الآخرين في اكتشاف ما اعتبره كثير من الناس حقيقة جديدة هامة في ميدان الطب •

ونظرية الارتباط بين الاضطرابات النفسية ، وبين الاحوال الجسمانية هي على الاقل نظرية قديمة قدم التفكير الانساني عن العقل والمادة ، وكل ما نراه في هذه النظريات الحديثة نستطيع أن نراه في اعمال الفلاسفة اليونانيين او ما قبل ذلك • وليس تطبيق المبادىء التي تستخدم في التشخيص الطبي والعلاج الطبي امرا جديدا •

وعلى سبيل المثال نروى قصة قيلت في القرن الخامس عشر في كتاب فارسي معروف • وتقول القصة : أن الطبيب العظيم « رازيس » استدعى الى ترانسكيا لمعالجة الامير منصور اذ كان يعاني من روماتزم المفاصل الذى لم ينجح

احد من أطباء الامير فى شفائه • وعندما وصل « رازيس » الى ضفة نهر اوكسوس رفض أن يعبر النهر فى القارب الذى أعد له لان القارب كان صغيرا وضعيفا ــ ولكن رجال الملك قيدوا يديه ورجليه وألقوا به فى القارب رغما عنه • وشرح لهم رازيس سبب مقاومته لهم فقال : أنه يعرف أن آلاف النـاس تعبر نهر أوكسوس بسلام ، ولكن لو تصادف وغرق هو فى النهر يقول الناس عنه أنه كان مغفلا لانه عرض نفسه للمجازفة بمحض ارادته ، ولكنه لو هلك وهو يقاوم أثناء ارغامه على عبور النهر قسرا لكان الناس يحسون الرثاء من اجله • وعنـد وصوله الى بخارى حاول « رازيس » طرقا مختلفة للعلاج ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح • وأخيرا قال للامير « سوف احاول طريقة جديدة فى العلاج غدا ولكنها سوف تكلفك أفضل جواد وأفضل بغل فى اسطبلاتك » وبعد أن وضع الجواد والبغل تحت تصرفه ، ساق رازيس الامير الى حمام ساخن خارج المدينة ــ وهناك ربط الجواد والبغل بعد أن وضع على كل منهما السرج واللجام ودخل غرفة الحمام الساخن ومعه مريضه « الامير » وأخرج سكينا وأخذ يهدد به الامير داخل الحمام مهددا اياه بالقتل بسبب المعاملة السيئة التى لاقاها عندما نقله رجال الامير برغم أنفـه فى القارب الذى عبر به النهر • وغضب الامير وبدافع من الغضب أو الخوف وقف على قدميه بقوة بالرغم من عجزه السـابق عن ذلك ــ وهرب « رازيس » من الحمام حيث يقف الجواد والبغل وتابعه ، وفر بأقصى سرعة من البلاد وعبر نهر أوكسوس ، ولما وصل رازيس الى « ميرف » كتب للامير يقول :

« أتمنى لك طول العمر فى صحة وسـلطة دائمة • لقـد استخدمت كل قدراتى لمعالجتك • لقد ادركت أن أصل الداء هو نقص الحرارة الطبيعية فيك • وما كنت أريد اطالة مـدة العلاج ــ ولذلك لجأت الى العلاج النفسى ــ وعنـدما امسكت بالسكين وتفوهت بألفاظى التى تذكرها وهددتك بالقتل فاننى كنت أقصد استثارتك حتى تزيد فيك الحرارة الطبيعية ، ولقد نجح علاجى هذا عندما رأيتك تقف على قدميك » •

وسر الامير لانه وجد أنه استعاد صحته فكافأ رازيس : بعباءة ، وعمامة ، وأسلحة ، وبزوج من العبيد ، يتميزان بجمال التقاطيع ، وبجواد ، وامرأة ، ومنحه هبة سنوية قدرها ٢٠٠٠ دينار •

* * *

وقصة شبيهة بهذه تلك القصة التى رواها ابن سينا أكبر طبيب فى عصره ، وكان المريض فى هذه الحالة امرأة فى حاشية الملك ، وبينما كانت تنحنى لاعداد المائدة اصيبت بتورم روماتزمى مفاجىء فى المفاصل لم تستطع بعد ذلك أن تقف منتصبة القامة • وطلب من طبيب الملك شفاؤها ، ولما لم تكن لديه المعدات الطبية لجأ الى « العلاج النفسى » • واستعان فى علاجه بانفعال الخجل وبدأ يخلع عنها ملابسها ــ فبدأ بالبرقع ثم بالفستان وما أن وصل الى هـذا الحد حتى « سرت حرارة فى جسم المريضة ازالت التصلب الروماتزمى » ووقفت المريضة منتصبة على قدميها وقد شفيت تماما •

ونستطيع أن نروى قصصا أخرى من نفس النوع من الكتب التاريخية لبلاد عديدة • وكل هذه القصص تشير الى أن المعرفة بمبادىء معينة تتحكم فى العلاقة بين الجسم والعقل ، كانت أمرا مفهوما منذ القدم •

* * *

وفى الفصل السابق بينا أنه حينما يستثار مخ الانسان بدرجة تفوق قدرته على احتمال التوترات المفروضة عليه فانه يحدث له « توقف وقائى » ، واذ ذاك لا تكبت فقط تلك الانماط السلوكية التى سبق أن غرست فى المخ بل قد يحدث كذلك أن تتحول الاعمـال الشرطية المنعكسة السابقة من ايجابية الى سلبية أو بالعكس ، فيصبح الفرد أكثر قابلية للايحاء حتى ليتقبل أى شىء يلقى عليه ــ ولو كان لغوا ــ على أنه حقيقة ثابتة غير مفروضة عليه •

ويمكن ملاحظة كل هذه الآثار حينما يتعرض مرضى الامراض العقلية فى وقت السلم الى تكرار العلاج بالتفريغ الانفعالى سـواء باستخدام العقاقير كما سيأتى فيما بعد أو بدونها •

وكلما كانت شخصية المريض أكثر ميلا الى المزاج الطبيعى ازدادت ثقتها عند رؤية الامور فى ضوء جديد • وبعد تفريغ انفعالى عنيف بدرجة معينة فان المريض يتحول تماما فى آرائه عن الدين أو السياسة أو فى وجهات نظره تجـاه العائلة أو الاصدقاء ، وقد تتحول وجهات النظر هذه بسرعة ، كما أنه يمكن زيادة القابلية للايحاء ولو مؤقتا عن طريق التفريغ الانفعالى المتكرر ، فقد يصبح المريض أكثر قابلية للتأكيدات العادية من الطبيب النفسى المعالج، وهذه التأكيدات قد يستحيل أن يتقبلها من محاميه ، أو من الواعظ ، أو طبيب العائلة وهو فى حالة عقلية أكثر هدوءا •

ويعتمد التحليل النفسى أساسا على مثيرات سيكلوجية متكررة ، اذ يستلقى المريض فى أثناء العلاج على مسند حيث يشجع يوميا ــ لعدة شهور وقد يمتد الزمن الى سنوات ــ على الاندفاع فى « عملية التداعى الحر » •

وغالبا ما يكون المرضى على جانب كبير من الحساسية تجـاه المعالج الذى يحاول أن يحدث فيهم فورات انفعالية متكررة ، ويطلق المحللون النفسيون على هذه الظاهرة « تكوين تحويل ايجابى أو سلبى تجاه أنفسهم » • وعلى أسـاس هذه الظاهرة يقترح فرويد ومدرسته وسائل علاجهم • وعلى الرغم من أنه من المعترف به الآن بصفة عامة أن الصـدمات الجنسية ليست سبب كل الامراض العقلية فانهم لا يزالون يشجعون المريض عمليا على اثارة الطاقة الجنسية مبكرا ، او ما يصاحبها من مشاعر الاثم الجنسى ، وبذلك يساعدون على أن يثيروا فى نفسه الانفعالات الضرورية للتفريغ الانفعالى الناجح •

ونعود الآن الى المريض وهو مستلق على مسند المحلل النفسى • ان عليه أن يعود الى نزواته الجنسية الماضية ويعيش ثانية حوادث من تلك التى أثارت فيه

ولا سيما في طفولته قلقا شديدا : كالخوف ، أو الشعور بالذنب ، أو الاعتداء ، ويتقدم التحليل وربما تزيد العواطف الانفعالية حتى يصبح المريض أكثر حساسية تجـاه المحلل ، وتنمو ما نسميه « مواقف التحول » الموجبة أو الســالبة نموا فسيولوجيا ، وغالبا ما يلقى ذلك مساعدة في مراحل العلاج الاولى نتيجة التعب والارهاق الناجم عن القلق الذى يستثار • وقد يزداد توتر المريض واعتماده على الطبيب المعالج زيادة كبيرة ، وفى النهاية يصل الى مرحلة تضعف فيها المقاومة امام تفسيرات الطبيب المعالج لاعراض المرض عند المريض ، وقد يبدأ فى تقبلها باستعداد أكبر من ذى قبل ، فيؤمن حينئذ بنظريات عن حالته العصبية تتعارض فى أغلب الاحيان مع معتقداته السابقة ، ويجوز كذلك أن ينقلب عدد كبير من أنماط الفرد السلوكية المعتادة نتيجة هذه العملية وتحل محلها أنماط جديدة •

وتعزز هذه التغييرات بجعل سلوك المريض متمشيا بقدر الامكان مع الفهم الجديد الذى اكتسبه ، ويؤيد ذلك ما أشار به أحد المرضى بعد أن عالجه فرويد بالتحليل النفسى :

« كنت عاجزا فى الاشهر الاولى القليلة عن الشعور بأى شىء اللهم الا القلق المتزايد والمهانة والذنب ، وأصبح كل شىء عن حياتى الماضية لا يرضينى بعد ذلك ، وبدت لى كل آرائى القديمة عن نفسى متناقضة ، وعندما وصلت الى حالة من حالات اليأس التام بدأ فرويد يسترجع لى ثقتى فى نفسى ، ويضع كل شىء فى وضع جديد » •

* * *

على أننـا يجب أن نشير هنـا الى ثلاثة اكتشافات هامة من بين الاعمـال الكبيرة التى قدمهـا فرويد ، وهى تتصل بصفة خاصـة بهذه الدراسة • هذه الاكتشافات هى :

• هنـاك جزء « لاشعورى » من عقل الانســان يرغب فى أشياء كثيرة لا يقرها الجزء « الواعى » من العقل • ان الكبت النفسى والتعليـل العقلى ما هما الا شيئان مشتقان لهما أثر عظيم على السلوك •

• كثيرا ما يخترع العقل خيالات وتصورات وكثيرا ما تكون لهذه الخيالات والتصورات نفس السيطرة التى للحقائق على السلوك الانسانى •

• يلعب « الجنس » دورا هاما فى تقرير اعمال الانسان •

وعلى أساس هذه الاكتشافات ، وعلى أساس عوامل كثيرة أخرى شيد فرويد صرحه الضخم • وما كاد ينشر موضوعا يعالج فيه نقطة معينة حتى بدأ كثيرون فى الكتابة ليدللوا على صحة ما كتب أو ليعارضوه • وكان من أثر الخلاف الشديد الذى كان بين أنصار فرويد أو الذى كان بين أنصاره ومعارضيه أن ظهرت كتابات كثيرة متعارضة أو متناقضة لدرجة لا تسمح لغير من أوتوا مقدرة كبيرة أن يميزوا فيها بين الغث والسمين •

وكان هناك خطان كبيران للهجوم : الاول أنه لم يكن هناك دليل لتأييد معالجة فرويد لعلم النفس ، والآخر أن فرويد كان ينسب صحة ما يقول الى عوامل لا تنطبق ولا تنتشر الا فى المجالات الاوروبية •

أما بالنسبة لخط الهجوم الاول فهو معقد الى حد ما • ان المعالجة الساذجة — طالما عجزت عن أن تجرى التجربة على فأر فليس هذا من علم النفس فى شىء — قد طرحت فى معظم الاحوال وتركت • وظل بعد ذلك شك فى كل نظريات فرويد على أساس أنه يعوزها الدليل • ويقف أغلب علماء النفس موقفا يشبه الموقف الآتى : « ان علماء التحليل النفسى — مثل فرويد ويونج وأدلر وغيرهم — قد ساهموا دون شك فى مشكلة « الدافع » أو « الباعث » ولكن نظرا لحماستهم الشديد فانهم مدوا نظرياتهم الى ما هو أبعد من الحدود العلمية . وفى أحوال كثيرة قاموا بتفسير مادتهم بعبارات غير دقيقة وأعطوها مدلولات غامضة • انهم يتحيزون الى « الشاذ » بحيث يعالجون الشخص « العادى » على ضوء الشخص « الشاذ » •

ولكن مهما اختلفت الآراء فان الخبرة الاكلينيكية تؤيد بعض نظريات فرويد . ان كثيرا من معتقداته الكبرى قد أكدته أحسن البراهين برغم أن كثيرا م التفاصيل لم يمكن اثباتها •

ويقول تقرير كينسى Kinsey (١) فى أحد أقسامه : « ان هذه البيانات عن النشاط الجنسى للذكور الصغار تزودنا بالدليل على صحة وجهة نظر فرويد عن الجنس اذ يقول : أن الاخير موجود فى الحيوان الانسانى من بدء الطفولة • ولكنه لا يؤيد وجهة نظر فرويد التي تقول بوجود مرحلة مبكرة يشعر فيهـا الصغير بالشهوة التناسلية التى تسبق النشاط التناسلى • كما أنها لا تبين أى ضرورة لفترة يكون فيها الجنس خامدا فى السنوات المتأخرة من المراهقة الا اذا كان هناك كبت من الوالدين ، أو كبت اجتماعى فى الطفل النامى » •

أما النقد الثانى الخاص بأن فرويد عمم أمثلة يختص بها السلوك الاوروبى فهو نقد صحيح ، فقد كتب العـالم الفرويدى المعروف كارين هورنى Karen Horney عن عقدة أوديب يقول : « يفترض أن الدوافع الغريزية أو العلاقات الموضوعية الكثيرة الحدوث فى معتقداتنا تقررها طبيعة الانسان ، أو أنها تنبع من مواقف لا تتغير • ان اغفال فرويد للعوامل الثقافية لا يؤدى به فقط الى تعميم خاطىء ولكنه يقف فى طريق فهم القوى الحقيقية التى تدفعنا الى العمل • وانى اعتقد أن هذا الاغفال هو السبب الرئيسى الذى دفع علماء التحليل النفسى الى أن يصلوا فى النهاية الى طريق مسدود برغم ما يبـدو من أن مجاله غير محدود • وهـذا يبدو فى ظهور النظريات المبهمة العسيرة الفهم وفى استخدام الالفاظ الغامضة غير الواضحة •

« ان مشاهدات فرويد بشأنعقدة أوديب كانتعلى اشخاص مصابين بأمراض عصبية ، ففى هؤلاء وجد أن الغيرة الفائقة الحد التى تؤدى الى ردود أفعال تجاه أحد الوالدين كانت من النوع المدمر الذى يثير الخوف ، ويحتمل أن يكون له أثر باق فى تكوين الخلق وفى العلاقات الشخصية • وما أن لاحظ هذه الظاهرة كثيرا

---

(١) الفريد تشارلس كينسى (١٨٩٤ – ١٩٥٦) من علماء علم الحيوان الأمريكيين ، كان هو الذى قام بالمسح الاجتماعى للسلوك الجنسى فى الولايات المتحدة ، واهم ما كتبه :

- السلوك الجنسى عن الذكر •
- السلوك الجنسى عن الأنثى •

فى المصابين بأمراض عصبية حتى افترض أنها عامة • ولم يكتف بأن جعل من عقدة أوديب أس الامراض العصبية بل أنه حاول أن يفهم الظواهر المعقدة فى الثقافات الأخرى على نفس الأساس • أن هذا التعميم هو موضع الشك • ليس هناك أى دليل على أن ردود أفعال الغيرة المدمرة التى نفكر فيها عندما نتحدث عن عقدة أوديب موجودة فى ثقافتنا أو فى الثقافات الاخرى ، كما أنها ليست عامة كما يفترض فرويد » •

والواقع أن نظرية فرويد أجرى فيها بعض التعديلات والتفسيرات سواء من جانب العلماء الفرويديين أو غيرهم ، الا أن هذا التعديل أو التغيير لم ينقص من قدر العالم النفسى الكبير •

ولكى نوضح كيف أعيد تفسير نظريات فرويد الأصلية نضرب مثلا بأريك فروم Erich Fromm (١) فهـذا العـالم يرى أن الخلق هو الذى يتحكم فى السلوك الجنسى ، وذلك عكس ما كان يقول فرويد : أن التطور الجنسى هو الذى يتحكم فى الخلق •

والآن ما علاقة النظرية الفرويدية بموضوع دراستنا ؟

يجيب فروم على ذلك بقوله :

« لقد ظل الانسان يدرس فقط البيانات الخاصة بما يفكر فيه الناس بدلا من دراسة القوى العاطفية خلف هذا التفكير • ان الاحصاءات الخاصة بالرأى قد تكون ذات أهمية فى بعض الأغراض الا أننا فى حاجة الى أن نعرف المـزيد • أنها ليست الأدوات التى تساعدنا على فهم القوى التى تعمل تحت سطح التفكير • اننا عن طريق هذه القوى الاخيرة فقط يمكننا أن نتنبأ كيف يتصرف أعضاء

---

(١) ايريك فروم عالم فرويدى مشهور ولد بفرانكفورت بالمانيا (٢٣ من مارس ١٩٠٠ م) حصل على الدكتوراه من جامعة هيلدبرج سنة ١٩٢٢ ، عمل فى معهد الأبحاث بنيويورك (١٩٣٢ ــ ١٩٣٩) ، يعمل فى معهد ابحاث امراض العقل بواشنطون منذ سنة ١٩٤٣ واستاذا بجامعة مكسيكو سنة ١٩٥٦ م •

تجتمع من المجتمعات حيال مواقف حرجة بالنسبة لأفكار يؤمنون بها ، وبالنسبة لأيديولوجيات جديدة كانوا يعرضون عنها • فمن وجهة نظر علم القوى الاجتماعية ان الرأى لا يساوى أكثر من القالب العاطفى الذى صب فيه » •

ثم يمضى فروم فيقول : « أننا ما زلنا بعيدين عن رسم صورة شاملة عن الخلق الاجتماعى ، ونحن ما زلنا نفتقر الى معلومات كثيرة عن معظم مشكلاتنا الملحة ، فمثلا الى أى حد يمكن أن نعرف درجة تأثير علم الاخلاق على سلوك الرجل الحديث ؟ • وهل للمستويات الخلقية أى تأثير ؟ أو هل أعمالنا : يمليها الخوف ، أو يمليها عدم الموافقة ، أو تمليها العقوبة ؟ » •

ومن رأى فروم أن السبب فى عدم سبر غور هذه الموضوعات يرجع الى موقف معظم علماء النفس التحليلى • وهو يقول : ان معظم هؤلاء الذين يبدون اهتماما بالظواهر الاجتماعية يعتقدون أنه ما لم يقوموا بدراسة هذه الاشياء وهؤلاء الناس بطرق تسمح بتحليل كمى دقيق ، فانه لا يمكن دراستهم مطلقا • وبدلا من أن يقوم علماء علم النفس الاجتماعى بابتكار طرق جديدة تكفل دراسة هذه المشكلات الهامة الخاصة بالناس يجعلون من طرق العلوم الطبيعية أصناما • وتكون النتيجة أن تحدد الطريقة اختيار المشكلات بدلا من أن تقوم المشكلة بتحديد الطريقة •

ولقد اثبتت مرجريت ميد(١) فى دراستها النفسية الانثروبولوجية ان العقد والغرائز مثل مركب أوديب لا توجد فى بعض القبائل فى جنوب أمريكا وغيرها وهذا يدل على أنها مكتسبة بواسطة البيئة والثقافة•

* * *

---

(١) مرجريت ميد ١٩٠١ ــ من علماء علم الأنثروبولوجيا الأمريكان ، درست العلم فى جامعة كولومبيا وقامت بالبحوث العملية فى جزيرتى « ساموا ، ادمير » • التى عملت فى ادارة المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى • ومن اهم كتبها :

1) Coming of Age in Samoa.

2) Growing up in New Guinea.

ونود أن نشير هنا الى أن القضاء على الأنماط السلوكية القديمة للمريض هو فى الواقع من بين الأهداف التى يسعى اليها المعالج ، ويستعين على ذلك باثارة الانفعالات الشديدة والقابلية المتزايدة للايحاء عند المريض • وهذا الأسلوب يساعد المعالج لا على تغيير تفكيره الواعى فقط ، بل أيضا على توجيه ما ينتابه من أحلام فى حياته اليومية ، وغالبا ما يعتبر التحليل كاملا اذا ما تشرب المريض وجهات نظر المعالج تماما ، وانهارت مقاومته تجاه تفسيراته للاحداث الماضية •

وهذه الطريقة فى العلاج قد تشابه بعض الاساليب فى عمليات التحويل الدينى • والقدرة على أن يحلم الانسان بأنواع معينة من الاحلام لمعالج معين تشاهد كذلك بين الشعوب الأكثر بدائية ، ويوضح بنجت صندكلر (١) Bengt Sundkler فى كتابه « أنبياء البانتو فى جنوب أفريقيا » كيف أن رعاة الكنيسة من البانتو يعلقون أهمية كبيرة جدا على جعل الذين يسعون الى التحول الدينى ، أو الذين تحولوا حديثا الى دين جديد يحلمون بالنوع الصحيح من الأحلام ، يقول :

« لقد شعر بعض رجال الارساليات بالمهانة بل حتى بالفضيحة بسبب الأهمية التى يوليها الأفريقيون للأحلام ، ويحس المبشرون صدمة لأن الثروة الروحية مثل التحول الدينى تبدو ناشئة فى حالات عديدة من حلم سخيف أكثر من رجوعها الى القرار الواعى للارادة » •

ويدلى الينا صندكلر بتفصيلات أخرى عديدة وطريفة عن الأحداث الصناعى لهذه الأحلام بقوله :

« يعرف بعض الصهيونيين ما يشيرون اليه « بهبة الأحلام » ومرة أخرى لابد من تدريب آخرين وتلمذتهم فى الأحلام حتى يتسنى احراز الحلم الصحيح المطلوب •

---

(١) B. G. Sundkler - Bantu Prophets in Africa - Lutterworth press, London, 1948.

وعلق النبى × قيمة كبرى على أحلام اتباعه الجدد فبعد اعتراف عام مبدئى بالخطايا ، يطلب منهم الذهاب الى بيوتهم ثم العودة بعد ذلك ليقصـوا عليه كل ما حلموا به ، وأكد لهم أنهم لا يمكن ألا يكونوا قد حلموا بحلم ذى مغزى، والشيء العظيم الذى ينتظره والذى يتوقعه من الحالم هو ظهور ياهـوا Jehovah أو الملاك ، أو يسوع فى ثياب طويلة بيضاء لامعة دائما » •

وليس الغريب أن يتسنى تبشير الشخص العادى بسهولة أكثر من الشخص الشـاذ ، وحتى التحليل النفسى القوى قد يحرز نجاحا قليـلا جدا فى مثل الاضطرابات النفسية الشديدة ــ كالفصـام والاكتئاب ــ التى تشيع الانقباض فى النفس ، ويمكن أن تكون بنفس القدرة عديمة الاثر فى بعض الحالات المعينة كالقلق والكآبة المزمنة • ويعتبر المجتمع الشخص عاديا أو طبيعيا لأنه يتقبل أغلب مستوياته الاجتماعية وأنماطه السلوكية ، الأمر الذى يعنى فى الواقع أنه على استعداد للايحاء ، وأنه قد أقنع بأنه يسير مع الغالبية فى جميع المناسبات العادية أو الشاذة جدا •

والناس الذين يعتنقون آراء الأقلية على الرغم من احتمال ثبوت صحتها من قبل ، غالبا ما يسمون فى أثناء حياتهم بالمجانين أو على الاقل « بالشواذ » ولكن نظرا لامكان اعتناقهم آراء تقدمية أو حديثة لايستسيغها المجتمع ككل ، فان ذلك يظهرهم على أنهم أقل قابلية للايحاء من زملائهم العاديين الذين يتمتعون بقدرة أعظم على التكيف طبقا للظروف •

وهذه الظاهرة تتمشى مع ظاهرة التحول الدينى أو السياسى •

ويقول سارجنت فى ذلك :

« من الخطأ الشائع أن الشخص العادى أكثر استعداد من الشاذ لمقاومة أساليب غسيل المخ الحديثة • ولو لم يمتلك العقل الانسانى قدرة خاصة على التكيف طبقا لبيئة دائمة التغير وعلى تكوين اعمال شرطية منعكسة باستمرار وأنماط لردود الفعل ، وكذا الاستسلام مؤقتا حينما يبدو عدم جدوى أية زيادة

فى المقاومة ، لما استطاعت البشرية أن تعيش وتصبح العنصر السائد ، فالشخص الذى يتسم بالقدرات العاجزة عن التكيف ، والجمود الشديد فى السلوك أو الفكر يتعرض باستمرار لخطر الانهيار العصبى ، أو الدخول فى مستشفى من مستشفيات الأمراض العقلية ، أو أن يصبح مصابا بمرض عقلى مزمن ٠

ويعتبر ارتفاع نسبة أعراض الهستيريا بين الاشخاص العاديين تحت وطأة التوترات الحادة للحرب بمقارنتها بتلك التى تحدث من نفس النوع من الناس تحت وطأة التوترات الأخف فى وقت السلم ـ أو بين المصابين بقلق مزمن أو المجانين سواء فى وقت السلم ، أم فى وقت الحرب ـ قرينة أخرى على الرأى الذى نحاول تكوينه ، ألا وهو من الجائز أن يكون البسطاء والأصحاء من بين أكثر الضحايا استعدادا لغسيل المخ أو التحول الدينى » ٠

استخدام العقاقير فى العلاج النفسى :

فى أوائل الحرب العالمية الثانية فى أثنـاء علاج حالات الأمراض العصبية الحادة الناجمة عن توترات الحرب ، أصبحت قيمة بعض العقاقير المعينة واضحة فى مساعدة المرضى على التخلص من الانفعالات التى علقت بأذهانهم نتيجة المحن المخيفة التى تسببت فى انهيارهم العصبى ، وقد استخدمت هذه الوسيلة أيضا على نطاق محدود للغاية فى ممارسة العلاج أيام السلم بواسطة كثير من الاطباء ٠

واليوم أصبح من الميسور أن تستخدم أنواع من العقاقير تحقن فى وريد المصابين بأحد الأمراض العصبية أو العقلية أو عضلهم لتساعد على الانطلاق فى الحديث وتذكر أحداث عاشها من قبل ٠ ففى الوقت الذى يبدأ فيه العقار أثره بعد الحقن يبذل الطبيب جهده ليجعل المريض يعيش مرة ثانية فى القصة التى تسببت فى انهياره العصبى ٠ وفى بعض الأحيان تكون تلك القصة أو القصص قد ضاعت من ذاكرة المريض فيتطلب الامر اعادتها الى ذاكرته ، وأحيانا أخرى يتذكر المريض القصـة الا أن الانفعالات التى تصاحبها تكون قد كبتت منـذ حدوثها ٠ ومن ثم فان التحسن الذى قد يلاحظ فى حالة المريض من ناحيـة جهازه العصبى يعزى الى اطلاق هذه الانفعالات الاصلية وتفريغها ٠

وقبل أن نحاول أن نبحث أثر استخدام العقار في علاج حالات الامراض العقلية والعصبية ، وقبل أن نحاول أن نربط بينها وبين تجارب بافلوف ـ نود أن نشير الى أن عناصر هذه الامراض كامنة في كل عقل بشرى ، ولكنهـا في العقل السليم محجوبة عن الظهور بطبقة رقيقة من الارادة سهلة العطب ، ولعل هذا ما حدا بفرويد الى أن يقول :

« أننا نسير فوق طبقــة رقيقة من طبقات العقل السليم على سطح كرة تشتعل بالجنون » ، ان هذا يعنى أن العقل عرضة لهزات نفسية عنيفة وصدمات توترية تشبه البراكين قد تؤدى بأى عقل ســليم الى حالة من حالات الامراض العقليـــة ٠

والحقيقة أن مخ الانسان يمكن أن نشبهه بآلة دقيقة ســهلة العطب قد يعتريها الخلل لأقل المؤثرات ، وفي كثير من الأحيان تبقى آثار الاختــلال غير محسوسة ظاهريا ، بينما هي تعمل دون وعى فيظهر صاحبها عاقلا في تصرفاته وسلوكه بينما يكون في الواقع مختل الفكر في تصوراته وتأملاته وتخيلاته ، ولا يمكن كشف ذلك الا عن طريق الطبيب المختص ٠

واقرارا بالواقع قلمــا يخلو عقل ولو بدرجة خفيفــة من وجود ظاهرتين متباينتين من ظواهر الاختلال العقلى : احداهما من النوع الهستيرى والاخرى من النوع النورستانى ، والظاهرة الأولى تدفع الانسان الى النشاط في الحياة والجد في العمل ، فاذا ما قويت دفعته الى التهور ، واذا وصلت الى اشدها فانه يصل الى درجة من التهيج ويتبع نمطا من السلوك الاعتدائى ٠

أما الظاهرة الأخرى فانها تجعل الانسان يميل الى : الروية ، والحكمة ، وحب العزلة ، والهدوء والفكر العميق ، فاذا ما ازدادت هذه الظاهرة نتيجــة عوامل خارجية فانها تؤدى الى القلق والاضطراب الفكرى ، وقد تصــل هــذه الحالة الى أشدها فتتحول الى « الاكتئاب » ٠

ونود ان نشـير هنـا الى رأى « يونج » Jung الذى قسم البشر من الوجهة النفسـية(١) قسـمين رئيسيين أطلق على الأول اسـم « الانبساطى » Extravert وعلى الثانى « الانطوائى » Introvert ويقول يونج أن النوع الاول تجذبه مباهج الحياة ويحب الاختلاط بالناس ويألف المجتمعات ، والنوع الآخر لا يعبأ بمظاهر الحياة ويحب العزلة ويميل الى الاعتكاف عن الناس • النوع الأول يكون عرضة « للهستيريا » أما الآخر فعرضة للنورستانيا ،وهو يقول أيضا : ان كلتا الظاهرتين فى نهاية الأمر متضادتان من حيث النتائج ، فالهستيريا تنتهى باتخاذ المسلك الاعتدائى ، والنورستانيا قد تؤدى الى الانتحار ، والأولى قد تنتهى بالجنون الحاد ، والاخرى قد تنتهى بالبلة والعتة •

ويمكننا الآن أن نشير الى الفصل الثانى من الباب الاول فيما لاحظه بافلوف فى كلابه نتيجة الانهاك البدنى الذى كان يعجل من احداث انهيار عصبى تحت وطأة التوترات التى كانت تفرض عليها ، كما يجب أن نذكر مالوحظ فى ظهور أعراض من النورستانيا على المدنيين فى أثناء احتراق لندن وعجزهم عن فهم أسباب ظهور هذه الاضطرابات الشديدة نتيجة قصف القنابل فى الوقت الذى ظلوا فيه غير عابئين بها لمدة أسابيع أو شهور • وقد سبـق أن أشرنا الى أن هذه الحساسية المتزايدة فى المرضى جاءت بعد نقص أوزانهم بين خمسة عشر ، وثلاثين رطلا •

على أن عددا كبيرا من ردود الفعل التى تظهر بوضوح أكثر نتيجة توترات الحرب يطلق عليها « هيستيريا القلق » Anxiety Hysteria وقد خلع بافلوف نفس الاسم على نفس الاستجابات فى كلابه عند انهيارها تحت وطأة التوترات المفروضة ، وشخص الحالة فوجدها حالة من حالات التنويم المغناطيسى •

وتسجل أوصاف الهستيريا فى جميع كتب طب الامراض العقلية أعراضا غريبة لايمكن فهمها دائما الا بمقارنة وجه الشبه بينها وبين تجارب بافلوف الآلية على الكلاب . وغالبا ما يكون « الانحراف العقلى » Mental aberration المعروف عن الهستيريا مشابها لصورة من صور التوقف الوقائى ، وينطبق نفس الشىء

---

(١) Psychological Types by Jung, Printed 1924, P. P. 412.

على « الشلل الهستيرى » Hysterical paralysis ، وحتى فى وقت هستيريا السلم فان هنـاك مرحلة تقرب مما يطلق عليـه مرحلة « صـدمة القنـابل » Bomb Happy (١) التى تعتبر مرحلة نورستانيا الحرب الحادة ٠

وبمجرد حدوث حالة من حالات الهستيريا فى الرجال أو الكلاب بزيادة التوترات حتى يصبح المخ عاجزا عن احتمالها ، فان من المحتمل أن تحدث حالة « الامتناع الوقائى » التى قد تثير الاضطراب فى الانماط السلوكية المشروطة العادية للفرد والكلب فتظهر حالات من القابلية الشديدة المتزايدة للايحـاء ، أو يحدث العكس عندما يصم المريض أذنيه عن كل ايحاء مهما كان معقولا ٠ ولقد أتاحت الهستيريا مخاوف مفاجئة لا يمكن تفسيرها فى أغلب الحروب ، وغالبا ما كانت بين القوات المشهورة بسجلها العظيم فى القتال ، فقد كان جنود فيلق قيصر القدامى من بين أعظم المحاربين فى العالم القديم ، واختار حملة النسر من بين أشجع المحاربين ، ومع ذلك قد أصيبوا بالانهيار العصبى فجأة بعد عشر سنوات أو خمس عشرة سنة من الغزو المستمر فى بلاد الغال ٠ وسجلت مذكرات « سيتونوس » Seutonius حالتين لاثنين من حملة النسر أصيبا بالهستيريا وهربا فى مناسبات مختلفة ، وعندما حاول قيصر ابقاءهما حاول الأول ضربه بالسن الحاد لنسره ، وترك الآخر النسر فى يده واندفع الى المعركة بدونه ٠

ولقد لفت بافلوف النظر فى ابحاثه الى أوجه تشابه أخرى بين النورستانيا فى الانسان ، ونورستانيا الكلاب ، فقد كان بافلوف يتعامل مع كلاب عادية فى تجاربه ، وكانت التوترات التى يتعرض لها الكلاب تقترب من تلك التى يتعرض لها الانسان وقت الحرب ٠ فالكلب المعزول داخل قفصه وهو يواجه الغرق فى مياه الفيضان ، والجندى القابع فى خندقه أو فى مكان منعزل أمام نيران العدو ، والمدنى الذى يعمل فى احدى فرق الانقاذ تحت وطأة القنابل ٠ كان على كل منهم أن يتقبل ما يصادفه مهما كان الأمر ، بالاضافة الى أن هذه المحن التى يتعرضون لها تتشابه فى أثرها ٠

---

(١) الاصطلاح يعنى الشعور بالسـعادة لسماع اصوات انفجـار القنـابل ، وليس التعرض لمؤثراتها ، والفكرة ان فى هذه المرحلة تعتبر تمهيدية للاصابة بالنورستانيا ٠

ولقد وجد بافلوف عند احداثه النورستانيا فى كلابه أن من الضرورى أن يضمن تعاونها معه كقاعدة عامة ، فالكلاب التى ترفض وهى فى قفص التجربة أن تتعاون فى اجراء التجربة يمكن أن نشبهها بالجنود الذين يهربون قبل سماع أول طلقة ، وهم بهذا السلوك يستطيعون أن يحافظوا على جهازهم العصبى سليما مؤقتا حتى تداهمهم المتاعب التى سيتعرضون لها •

ولقد آثرنا أن نناقش هذه الحالات حتى نعطى القارىء صورة قد يتعرض لها الانســان نتيجة توترات الحرب ، وكذا لنربط بين آثار هذه التوترات على الانسان وتلك التى فرضت على كلاب بافلوف •

ويمكننا الآن أن ننتقل لدراسة آثار استخدام العقاقير فى علاج حالات أمراض الطب النفسى •

أشرنا فى الفصــل السابق الى أن مهدىء الطوارىء الذى كان يعطى فى الخط الأمامى للقتال فى الحرب العالمية الثانية كان له قيمة فى منع النورستانيا الحادة من التحول الى حالة مزمنة فى مرحلة مبكرة من مراحل الحرب ، كما أن اكتشافات بافلوف اثبتت أن الجهاز العصبى للانسان يستجيب للتــوترات الشديدة بنفس الطريقة التى تستجيب بها الكلاب •

وكان يوصف « البربيتيوريت » Barbiturates فى أوائل الحرب العالمية الثانية بكميات كبيرة شرابا مهدئا للذين بقوا على قيد الحياة بعد معركة دنكرك ، وبكميات أقل حقنا فى الوريد ، وقد أحدثت عملية الحقن فى المرضى حالة نصف ثملة ساعدتهم على تفريغ بعض انفعالاتهم المكبوتة Inhibited emotion من : الخوف ، والغضب ، واليأس ، وخيبة الأمل •

وكان قد سبق أن اقترح وليم براون William Brown عام ١٩٢٠ (١) : أن التفريغ الانفعــالى Emotional abreaction غالبــا ما يكون وســيلة أكثر

---

(١) W. Brown, Psychological Methods of Healing An Introduction to Psychotherapy, University of London Press, 1938.

فعالية بكثير فى شفاء نورستانيا الحرب عن مجرد الايحاء تحت تأثير التنويم المغناطيسي ، فالايحاء يزيل الاعراض ولكن التخلص من الانفعالات يزيل أسباب الأعراض ، اذ تحدث اعادة للارتباطات المصاحبة بشكل كامل ، ومع ذلك فانه يجوز أن يكون للايحاء دور هام في الشفاء بواسطة التخلص من العقد والرغبات المكبوتة بعملية التفريغ الانفعالى •

وكانت نتيجة التقارير التى نشرت عن قيمة « التخلص من العقد » بواسطة العقاقير فى علاج ضحايا النورستانيا فى أوائل الحرب العالمية الثانية أن أصبح هذا العلاج هو الشائع فى بريطانيا ، بل برز ايضا الاهتمام بين أطباء الامراض العقلية الامريكيين نتيجة استخدام كل من جرنكر وسبيجل Grinker and Spiegel (١) عام ١٩٤٢ لنفس العلاج فى شمالى أفريقيا ، على الرغم من أنهم اعادوا تسميته باسم آخر يثير الارتباك وهو « النوم الترابطى » Narcosynthesis « أى العلاج العقلى الذى يهدف لجعل الشخص تحت تأثير وقف النشاط الذهنى يتذكر ويتحدث عن ذكريات مؤلمة حبيسة » • وبهذه الوسيلة يمكن تخليص المريض من الصراع الانفعالى ، مع تمكينه من لم هذه الذكريات ودفعها الى ذاته الشعورية •

وبالاضافة الى ذلك كان هارولد بالمر Harold Palmer (٢) طبيب الامراض العقلية البريطانى فى الطريق الى التوصل لنتائج هامة فى نفس مسرح الحرب باستخدام « الاثير » Ether بدلا من البربيتيوريت ، واحرز تقدما فى فنون علاج الامراض الهستيرية •

وفى عام ١٩٤٤ استخدم الأثير بدلا من « البربيتيوريت » ـ كما اوصى بالمر ـ لاحداث عمليات التخلص من الانفعالات فلوحظ تحسن مباشر فى سلوك المرضى •

---

(١) R. R. Grinker and J. P. Spiegel, War Neuroses in North Africa, The Tunisian Campaign (January May, 1943) Jr. Foundation, New York, 1943.

(٢) H. A. Palmer, « Abroactive Techniques - Ether. » J. Roy. Army Medcoros, LXXXIV, 86; 1945.

ويصف سارجنت ذلك بقوله : « فى أغلب الحالات أحدث « الأثير » انفجارا انفعاليا بدرجة أكبر بمراحل عما سبق ملاحظته باستخدام العقاقير الأخرى ، وكان من نتيجة ذلك أن اتخذ المرضى فى سردهم للحوادث شكلا دراميا أو محزنا ، وكانت هناك ملاحظة أخرى تثير الانتباه وهى أن حالات الانهيـار المفاجىء بعـد الانفجارات الانفعالية يتكرر حدوثها وتستمر أكثر مما يحـدث من اسـتخدام التنويم المغناطيسى أو البربيتيوريت •

« وحينئذ ظهر لزميلى الدكتور H. J. Shorvon ، كما ظهر لى ان ظاهرة الانهيار العصبى المفاجىء هذه التى كنا نلاحظ تكرارها قد تقابل ما سـماه بافلوف « التوقف الكامل » ، وهو يحدث عندما تصبح الطبقة الخارجية للمخ عاجزة عن القيام بأى نشاط •

« ولقـد تذكرنا كيف أنه فى حالة بعض كلاب بافلوف قضى فيضـان لينينجراد صدفة على أنماط السلوك الحديث التكييف التى غرسها بنفسه ، فهل كان يحدث نفس الشىء فى بعض مرضانا الذين انهارت أعصابهم فجأة بهـذه الطريقة ؟ واذا كان الأمر كذلك فانه من الجائز أن نتوقع ايضا أن يصبح الآخرون أكثر قابلية للايحاء أو أن يظهروا انقلابا للأنماط السلوكية والفكرية السابقة لان ظاهرة التناقض أو الشديدة التناقض لنشاط المخ تكون قد حدثت •

« ولقد أمكن اقناع بعض المرضى تحت تأثير الأثير بأن يعيشوا ثانية خبرات الخوف والغضب والانفعالات الاخرى بسهولة ، وقد ينهار بعضهم حينئذ من الانهاك الانفعالى ويسقطون بلا حراك لمدة دقيقة أو ما يقرب من ذلك دون أن يتأثروا بالمثيرات العادية • وقد ينفجرون بالبكاء غالبا ويقررون أن اعراضهم الظاهرة قد اختفت فجأة ، أو يصفون عقولهم بعد أن تكون قد تحررت حينئذ من الخوف الناشىء من بعض الصور التى تسلطت عليها ، ومع ذلك قد يستطيعون التفكير فيها اذا أرادوا ذلك ولكن بدون القلق الهيستيرى السابق، وعندما لا تصل الاثارة العـادية الناجمة عن سرد الخبرات الماضية الى مرحلة التوقف الـكامل

والانهيار قد نلاحظ تغيرا يسيرا أو عدم تغيير بالمرة من ناحية تحسن حالة المريض العقلية ، ولكن اذا تكرر العلاج بطريقة التخلص من العقد والرغبات المكبوتة واستعملت العقاقير لزيادة درجة الاثارة الانفعالية حتى يحدث الانهيار العصبى فمن الممكن حدوث التحسن الفجائى .

ومثل هـذا الاسلوب الهام لم يكن دائما ضروريا ، فمثلا لم يحتج بعض المرضى الذين يعانون من فقدان الذاكرة الا الى جرعة صغيرة من البربيتيوريت عن طريق الحقن فى الوريد ، وذلك لجعل أمخاخهم فى حالة استرخاء ، ومن شأن هذا أن يعيد الذاكرة الى الوراء فتنساب بدون مجهود اضافى ، وقد ثبتت فائدة الاثير فى حالات لم ينجح فيها البربيتيوريت ، وعلى سبيل المثال تلك الحالة التى أصبح السلوك الشاذ منظما وثابتا بحيث تشبه « النمط المتكرر » Stereotypy الذى وصفه بافلوف فى كلابه . ومن الممكن أن تصبح هذه الحالات مستديمة وهى تعمل على مقاومة الاجراءات العلاجية السهلة . الا أن الاثارة الكاملة التى تنتج من تأثير الأثير والتى تنتهى بحالة من حالات التوقف الكامل والانهيار العصبى يمكن أن تقضى على القالب السلوكى الشرير بأكمله ، وتؤدى الى العودة بشكل سريع الى صحة عقلية طبيعية أفضل » .

* * *

وفى الواقع كان للتقارير التى نشرت عام ١٩٤٥ عن استخدام العقاقير مع ضحايا الحرب لمساعدتهم على التخلص من انفعالاتهم المكبوتة فضل فى توضيح هذه الوسيلة كنوع من العلاج .

ويصف سارجنت حالتين من هذه الحالات واثر استخدام العقاقير على كل منها . ففى الحالة الاولى أدخل جندى فى الحلقة الثالثة من عمره الى مركز للاسعاف على ساحل نورماندى باكيا فى صمت ويعانى حالة شلل ، وكان قد قضى فترة اربع سنوات فى خدمة الجيش كسائق لعربة قبل ذلك ولم يحدث أن ذكر عنه أنه يشتكى مرض الاعصاب اطلاقا ، حتى تحول فجأة الى سلاح المشاة وأرسل

الى جبهة القتال حيث تسببت نيران مدافع الهاون والقنابل فى احداث انهيار عصبى سريع ، ولما ثبت عدم جدوى العلاج بواسطة المهدىء لمدة أسبوعين فى فرنسا ، نقل الى انجلترا وعند دخوله أحد مستشفيات طوارىء الحرب ، كان لا يزال يبدو متوترا يرتعد من الخوف وبطيئا من الناحية الذهنية ، فأعطيت له مهدئات اضافية وأجرى له بعد أسبوع علاج بالأنسولين بقصد زيادة وزنه ، ومع ذلك لم تتغير حالته العقلية فكان يسير ببطء مقوس الظهر جامد الملامح . وقد أدى بطء تفكيره وخوفه الى صعوبة استنطاقه ومعرفة قصته .

وفى هـذه المرحلة أعطى حقنـة وريدية من البربيتيوريت وطلب منـه وصف ما حدث فجعله المخدر أكثر استرخاء من الناحية الذهنية ووصف حالته وهو بين وابل من نيران مدافع الهاون لمدة ثمانية أيام فى نفس القطاع من خط القتال ، وحينئذ أخذ عبر نهر من الأنهار الى غابة وصدرت اليه الأوامر بالهجوم ، وفى الغابة زادت عصبيته وبدأ يرتعد ويهتز وقتل العديد من الرجال بنيران الهاون بالقرب منه حيث فقد صوته وانفجر باكيا وأصبح مشلولا شللا جزئيا . وفى النهاية ساعده جريحان على العودة على نقالة ، وقال : « شعرت بنوع من الدوار فجلست أبكى ولم أستطع الكلام ، وكل ما أستطعته هو الصراخ واخراج الأصوات » . ولم يستطع البربيتيوريت أن يحدث فيه سوى انفعـال ضئيل للغاية بينما كان يسرد قصته كما لم يلاحظ أى تغيير فى حالته سواء فى نفس الوقت ، أو فى صبيحة اليوم التالى .

ولكنه أعطى بعد الظهر عقارا يساعده على التفريغ الانفعالى واستخدم فى هذه المرة الأثير بدلا من البربيتيوريت ، وحينما أعيدت عليه القصة الاصلية مرة ثانية قص القصة فى تلك المرة بانفعالات أكبر بكثير . وفى النهاية أصبح فى حالة اضطراب وغثيان وحاول تمزيق كمامة الأثير ، وأخذ يتنفس وهو فى حالة رعب شديد حتى توقف العلاج . وعندما وصل الى الاريكة ونهض منها ظهر عليه تحسن واضح ، اذ ابتسم لأول مرة وبدا عليـه الخلاص وقال بعـد ذلك بدقائق قليلة : ان معظم متاعبه قد تلاشت باستعمال الأثير وأمكن الاحتفـاظ بهذا التحسن لفترة اسبوعين بعد ذلك .

أما الحادثة الأخرى فقد استخدم فيها الأثير ولكن بدرجة غير كافية لاحداث تفريغ انفعالى كامل ، وبعد عدم توفيق مبدئى أثيرت ثورة المريض عمدا حتى وصل الى شفى الانهيار الضرورية وعندئذ تحطم قالبه السلوكى وتحسن تحسناعظيما •

وكان هذا الجندى قد قضى اربع سنوات ونصف السنة فى الجيش سائقا ميكانيكيا ، وكان قد نزل فى نورماندى بعد « يوم الغزو » أى يوم فتح الجبهة الثانية فى غرب أوروبا ، فظهرت عليه الأعراض تدريجيا بعد أن ظل يقاتل لعدة اسابيع فاعطى هو الآخر علاجا مهدئا فى فرنسا لمدة اسبوع ولكنه لم يستجب للعلاج ووجد نفسه وقد نقل الى المستشفى فى انجلترا ، وكان حينئذ مكتئبا منقبض النفس ويشتكى من الغثيان ، وعجز عن تحمل صوت طلقات المدافع أو الطائرات • ولم يستطع تخليص ذهنه من التفكير فى اصدقائه الذين قتلوا فى فرنسا ، والأمر الذى أرقه هو منظر قتل فيه أحد أصدقائه بعد حدوث ثقب فى رأسه وقد طارت ذقن آخر ، وأخذت الدماء تطفح من يد الثالث •

وعلى الرغم من اعطائه مهدئا اضافيا وعلاجه بالأنسولين لزيادة وزنه فقد اشتكى بعد ذلك بأسبوعين أنه كان يشعر بازدياد حالته سوءا عن أى وقت مضى، فقد رسخ المنظر الذى قتل فيه أصدقاؤه أو جرحوا فى مخيلته ، وعندئذ أعطى له الأثير لجعله يعيش هذا المنظر ثانيا وانفعل انفعالا كافيا وقال : انه اعتقد بأن الرأس التالى الذى سيطير سيكون رأسه ، الا أنه لم يصل الى درجة الانهيـار العصبى • وعند استرداده لوعيه بكى وقال : انه لم يشعر بأى تحسن ، اذ أنه كان لا يزال يشاهد المنظر بعقله • وعلى ذلك فقد عولج ثانية بالأثير ، وفى هذه المرة تعرض لتجربة قتال مرة اخرى ، فقد كان قد تعرض لنيران الهاون وقنابل الطائرات المنقضة فى فناء احدى الكنائس ، وعندما أوحى اليه الطبيب المعالج وهو تحت تأثير الأثير أنه أعيد الى هناك مرة اخرى بدأ يخمش الأريكة بأظافره متصورا أنه كان فى خندق ، فاستغل الطبيب المعالج مخاوفه عمدا عن طريق الادلاء اليه بتعليقات واقعية عن حالته التى تزداد سوءا باستمرار حتى وصل الى ذروة الاثارة ، وهنا انهارت أعصابه فجاة وسقط كما لو كان من الاموات •

لقد حدث التوقف الكامل ، وفي هذه المرة عندما استرد وعيه ابتسم وقال : لقد تبدد كل شيء ويبدو أنني أحس ارتياحا آكبر يا دكتور ، وأشعر بأنني افضل حالا مما كنت عندما حضرت الى هنا !

وعندما سئل عما اذا كان يتذكر وجه صديقه عندما نسف زمجر وقال : « يبدو أنني قد نسيت كل شيء عنه • ان فرنسا لا تشغل بالى حاليا » وعندما سئل ثانية عن هذه الحادثة قال : « نعم • وكذلك أتذكر الزميل الذى ثقب رأسه ولكن صورته تلاشت من ذهنى » • وعنـدما سئل لماذا حـــدث ذلك أجاب : لا أستطيع له تفسيرا • وحينئذ ناقش المنظر كله بحرية وبدون الانفعالات المعتادة وقال فى وقت متأخر بعد ذلك : « أننى أحس تحسنا كبيرا ، لقد تخلصت منها ، أننى أعرف كل شيء عنها ولكنها لا تلازمنى ولا تؤثر على بنفس الدرجة ، وبعد ذلك بدأ يتحسن بسرعة •

على أنه ليس من الضرورى دائما أن نجعل المريض يتذكر القصـــة التى سببت انهياره بدقة ، اذ يكفى أن تبعث فيه اثارة مشابهة لتلك التى تسببت فى حالة النورستانية المستمرة حتى ينهار وحينئذ يبدأ فى التحسن •

ويقول سارجنت فى ذلك : « نرى لزاما علينا استعمال الخيال فى اختراع مواقف مصطنعة أو فى تشويه الحوادث الحقيقية ، ولا سيما اذا كان المريض فى اثناء تذكره للتجربة الحقيقية التى تسببت فى النورستانيا أو عندما يعيشها مرة اخرى تحت تأثير المخدر ــ لم يكن قد وصـــل الى درجة الانهيار الكامل اللازم للقضاء على أسلوب السلوك المرضى الجديد • ومن بين المرضى الذين تمكنا من استنباط النتائج الهامة السابقة من حالاتهم نجد جنـــديا فى فرقة من فرق الدبابات أمكن توصيله الى حافة الانهيار الانفعالى تحت تأثير الأثير فقـط عن طريق اقناعه بأنه قد وقع فى فخ دبابة تحترق ، وعليه أن يحاول الخروج منها بأى ثمن ، وبالطبع لم يحدث هذا اطلاقا » •

على أن الاستثارة التى توصل المريض الى نقطة « التوقف الكامل » والانهيار قليلة النفع فى العــلاج ، الا أنها ذات اتصال وثيق بأساليب التحول الدينى والسياسى الذى تحدثنا عنه فى الباب السابق •

وخلاصة القول : ان التفريغ الانفعالى تحت تأثير العقاقير قد يكون عبــارة رنانة أكثر مما ينبغى لظاهرة مألوفة ، فعندما يكون لدى الانسان شىء يقلقه ويود التخلص منه فانه يظهر استعدادا لتناول مشروبات كحولية بكمية كبيرة ، أو لتعاطى أنواع من المخدرات ويتوقع منها أن تفك عقاله •

والتفريغ الانفعالى حيلة فسيولوجية أكل عليهــا الدهر وشرب ، وقد استخدمت بواسطة أجيال من : الوعاظ والديماجوجيين ، أو غشاشى الشعوب لتهدئة سامعيهم ولمساعدتهم على السير فى الأســاليب المرغوبة من العقيــدة والسلوك ، كما سبق شرحه •



الصدمات الكهربية
وجراحة المخ

ذكرنا فيما قبل أن بعض الوسائل السريعة للعلاج نتيجة التفريغ الانفعالى الذى ينجم عن العقاقير والعلاجات النفسية الأخرى انما تحدث حينما تصل حالات الاثارة فى المخ الى مرحلة التوقف الوقائى والانهيار ٠

الا أنه فى حالات الاضطراب العقلى الشديدة قد لا تكفى هذه الوسائل وحدها لازالة الأنماط السلوكية الشاذة التى غرست فى المريض ، ومن ثم فان ربط هذه الوسائل بأحد الأساليب الحديثة كالصدمات الحديثة ، وجراحة المخ Leucotomy تعتبر من أنجح الوسائل فى علاج كثير من تلك الحالات ٠

ويؤيد سارجنت ذلك بقوله :

« من الواضح فى حالات كثيرة انه لكى يمكننا تغيير أنماط السلوك فى فكر العقل البشرى وعمله بشىء من السرعة والكفاءة ، يجب أن تحدث فى المخ صورة من صور الاضطراب الفسيولوجى ، وقد يتطلب ذلك : اخافة المريض ، أو اغضابه ، أو اشاعة اليأس ، أو بث الاضطراب فيه من الناحية الانفعالية بطريقة أو بأخرى ، ذلك لأنه من المحتمل أن مثل ردود الفعل هذه التى تسبب تغييرا فى وظيفة المخ قد تزيد قابليته للايحاء أو تجعله معرضا للتخلص من تكيفه الطبيعى ٠

وأساليب العلاج النفسى التى تتضمن مجرد التحدث مع المريض برهنت على عدم جدواها بصفة عامة فى علاج حالات الاضطراب العقلى الأشد حتى عندما يتسنى اثارة انفعالات قوية ، اذ أنه فى أغلب مثل تلك الحالات من الامراض العقلية نجد أن الأنماط السلوكية الطبيعية أصيبت بالدمار ، وحلت محلها أخرى شاذة ، أو أخرى فى طريقها الى ذلك • وقد يمكن احراز نتائج أفضل بكثير بالربط بين العلاج النفسى بواحد أو غيره من العلاج بالصدمات أو عن طريق اجراء عمليات جراحية فى المخ • ويبين تاريخ العلاج العصبى أنه قد بذلت منذ أزمان بعيدة لا تعيها الذاكرة محاولات لعلاج الاضطرابات العقلية باستعمال الصدمات الفسيولوجية والتخويف ، ومختلف العناصر الكيميائية ، وقد تمخضت هذه الوسائل دائما عن نتائج رائعة فى أنواع معينة من المرضى ، على الرغم من أنها استعملت بدون تمييز أو روية مع مرضى عجزوا عن الاستجابة الى ذلك النوع من العلاج » •

وقد ثبتت قيمة وسائل العلاج بالصدمات الكهربية فى تبديد حالات معينة من الاكتئاب الذهنى الشديد • وهذه الوسيلة ببساطة عبارة عن احداث نوبة صناعية من « الصرع » Epileptic-fit ويحدث ذلك بتمرير تيار كهربى خلال المخ بحيث لا تزيد قوة التيار عما هو لازم لاحداث النوبة •

وقد تؤدى سلسلة من أربع نوبات الى عشر بحيث تكون مرة أو مرتين أسبوعيا الى تحسين مدى الاصابة بالاكتئاب فى فترة أسابيع قليلة ، على حين قد تطول حالة المرضى الى سنة أو سنتين ، أو ربما أطول من ذلك اذا لم تستخدم هذه الوسيلة •

ومع هذا فانه اذا لم تحدث نوبة من نوبات الصرع فان العلاج الكهربى يكون عديم النفع ، فالصدمة الثانوية Sub - Shock أى الصدمة الكهربية التى لا تسبب تشنجا فى المخ Convulsion يكون ضررها أكثر من عدم استخدامها •

ونعنى بالتشنج الكامل أن المخ يستمر فى تشنجاته الى الحد الذى لا يستطيع أن يعمل بعده ، ولكنه يصبح مرهقا ومتوقفا بصفة مؤقتة فيستطيع أن ينفث عن انفعالاته المكبوتة عن طريق التفريغ الانفعالى • ونود أن نشير هنا الى أن هناك تشابها بين التشنج والتفريغ الانفعالى الشديد تحت وطأة العقاقير القوية •

على أنه من جهة أخرى فان من العسير جعل المرضى شديدى الاكتئاب ينفسون عن انفعالاتهم المكبوتة بواسطة العقاقير • ولا تكون الانفعالات حينئذ انفعالات اعتدائية كما هى الحال فى الأنواع المزاجية الأقوى التى سبق أن وصفناها ، ولكنها تأتى فى جملتها على صورة تحقير النفس ولومها •

ومع ذلك فان هذه الحالة الشاذة التى تدل على وجود نشاط عقلى متناقض أو شديد التناقض سرعان ما تتلاشى بعد سلسلة من التشمنجات التى تحدث بواسطة الصدمات الكهربية ، ويبدأ المريض حينئذ فى اظهار الاعتداء ضد العالم مرة أخرى أكثر من لوم نفسه ، كما يتوقف احساسه عن الشعور بالمسئولية عما ارتكبه من أخطاء ، وقد يصب جام غضبه على الطبيب الذى يقوم بعلاجه •

وعند هذه النقطة يصبح المريض مرة أخرى متقبلا للصور العادية للايحاء والعلاج النفسى ، لأن العقل كما يبدو يكون قد تخلص من أوهامه بالذنب ، وذلك بعد أن تحرر من أسباب توقفه ، فنجد أن المشاعر المخيمة عليه تتلاشى وتتبدد •

ونود أن نشير هنا الى أن « الفصام » قبل الحرب العالمية الثانية ولا سيما فى المراحل الأولى من المرض كان يعالج بنجاح بواسطة صدمة الأنسولين ، وهذه الطريقة عبارة عن اعطاء المريض مقادير كبيرة من الأنسولين لتقليل كمية السكر فى دمه ، وبذلك يمكن احداث حالة من الاضطراب والاستثارة العقلية فيرقد لمدة ساعة أو أكثر فى حالة نصف يقظة وهو يهتز ويرتعد ، وربما يتحدث حديثا غير مترابط حتى تحدث نوبة عميقة • وعندما يستعمل طبيب الأمراض العقلية هذا العلاج فى معالجة الفصام قد يبقى المريض فى حالة غيبوبة لفترة نصف الساعة ، فيعطى السكر حينئذ بواسطة أنبوبة معوية أو حقنة وريدية ، فيتنبه بسرعة •

وقد تزول الأعراض بعد علاج من هذا النوع يعطى يوميا مع اضافة علاج عادى من علاجات الامراض النفسية • وعلى ذلك نجد هنا علاجا اضافيا يتضمن مرحلة مبدئية من حالات الاستثارة العقلية التى لا سيطرة للمريض عليهـا ، وتنتهى باستسلام وتوقف مؤقت للمخ •

ويرى سارجنت أن كلا من الصدمة الكهربية وصدمة الأنسولين يصلحان لازالة الأنماط السلوكية الشاذة الحديثة بالرغم من أنهما نادرا ما تكونان فعالتين فى الحالات التى تكون قد رسخت فيها لفترة طويلة ، وهو يفرق بين المجـــالات المفيدة لهذه العلاجات المختلفة بقوله(١) :

« من المعترف به بصفة عامة أن الحالات الشديدة من الفصـــام المبكرة قد تستجيب جدا لعــلاج الأنســولين الاكثر تعقيدا ، على حين أنه يمكن فى أغلب الأحيان شفاء حالات الكآبة العقلية التى قد تحـــدث بسبب طول فترة الاضطراب بوساطة صدمة كهربية فقط ، وقد يستجيب مرضى الأعصــاب فى الحرب الذين تظهر عليهم أعراض الانقباض الناجمة عن توتر شديد العنف مرة أخرى لعمليات تفريغ انفعالى أقل شدة بوساطة العقاقير •

« فالمصــاب بعصــاب الوســواس القهرى المزمن Obsessional Neurotic هو من بين أنواع المرضى المختلفين الذين لا يســتجيبون بسهولة اطلاقا ســواء للعلاج النفسى أو لأى علاج من علاجات الصدمات الحديثـة ، وهو الذى يحس الدوافع للقيام بأعمال متكررة كمــا كان الدكتور جونسون يحس رغبة قاهرة للمس الاعمدة المقامة فى مفترق الطرق للاشارة للاتجاه فى أثناء سيره ذهابا وايابا فى شارع فليت ، وغالبا ما تكون هذه غير مؤذية •

« وســأل مرة أســتاذ كلاسيكى بجامعة أكسفورد فى العشرينات الماضية الدكتور وليم براون وهو قلق عما اذا كانت رغبته الدائمة الجامحة فى الســير

---

(١) William Sargant, Battle for the Mind, Pan Books Ltd, London, 1963, P. 72.

جيئة وذهابا فى الحجرة وهو يلقى محاضرته فى سبع خطوات متتابعة يعتبر أمرا خطيرا ؟ فوضع براون أصبعه على خـده وبدا على ذهنه الهدوء وقال : « عندما لا تجد نفسك سائرا فى خطوات سبع فلتحضر لى ثانية .. لأن الخطوات السـبع لا غبار عليها » .

وفى الواقع هناك درجات مضطردة للشعور بالضيق ، فقد تحس أم مثـلا القـلق المسـتمر خشـية أن تكون قد أسقطت دبوسا فى زجـاجة اللبن ، وأن الزجاجة ستعاد الى محل الالبان دون أن تكون قد غسلت جيدا ، وأن الطفل التالى الذى سيشرب اللبن من الزجاجة سوف يبتلع الدبوس ، وقد تكون مدركة تماما سخافة مثل هذه المخاوف المتكررة التى لا يكون لها سبب محتمل ، ولكنها مع كل ذلك تحس أنها مضطرة لفحص كل زجاجات فارغة خمس مرات أو ست مرات قبل أن يتسلمها اللبان . وقد تكون فى جميع مظاهرها الاخرى ربة بيت عاقلة وعلى درجة كبيرة من الكفاية . أما غيرها ممن تظهر عليهن أعراض أخف من نفس المرض ، فيتأكدون قبل النوم من أن كل صنابير الغاز مقفلة ، وأن كل الابواب موصدة جيدا ، ويكررن العملية مرتين أو ثلاث مرات ، وبالطبع يحتمل أن يبررن سلوكهن أحيانا بقولهن : ان كل العقلاء من الناس يقومون بأعمال امن مختلفة ، والامر يستحق ذلك فعلا .

ويصف سـارجنت مرضى الوسواس القهرى الذين يخيم عليهم الشـعور بالمرض بأنهم يميلون : الى شدة العناية بمظهرهم ، وترتيب منازلهم ، والى غسل أيديهم مرات عديدة دون ضرورة ، والى أن يكونوا جامدين جمودا دائما فى أنماطهم العقلية ، وعادة ما يستطيع الجيران ضبط ساعاتهم بالوقت الذى يسـير فيـه المصابون بالوسواس القهرى فى طريقهم للعمل وعند عودتهم منه . وهذا النوع من النـاس يفخر بأنه لم يحدث أن ذهب متأخرا لعمله فى الثلاثين سـنة التى قضاها فى عمله ، ولم يحدث أن ذهب اليه مبكرا بأكثر من دقيقة او دقيقتين ، وبرغم ذلك فقد تنهال على روحه هواجس تافهة ، وشكوك دينية منفرة يعجز عن تبديدها .

ويقول سارجنت : أنه حينما تتطور حالة المريض الى حالة مزمنة ، ويفقد ارادته بحيث يصبح عبئا على نفسه وعلى من معه ، فانه لا يوجد سبيل لشفائه فى مجال طب الامراض العقلية سوى القيام بجراحة المخ Leucotomy التى خلالها تقطع الالياف العصبية الموصلة بين الفص الامامى فى المخ والتلاموسى وهى احدى الدوائر العصبية التى تعبر عن الانفعال ، والضيق والاكتئاب ٠٠ الخ ٠

كما يشير الى انه كثيرا ما تتلاشى الأعراض الاشد اثارة فى مرضى الوسواس القهرى تدريجيا من تلقاء نفسها على طول الزمن ، وقد يجوز أن تكون حادة فقط عندما تقترن بالانقباض ، فاذا تسنى تخفيفها فان المصاب بالوسواس القهرى يستفيد من علاج الصدمات الكهربية ولكنه يجد من الاستحالة حتى ولو لم يكن الانقباض كاملا مناقشة نفسه فى أتفه التفاصيل ، فمثلا اذا كان يعانى من صدمة قنبلة فقد يناقش بدقة ما اذا كان الانفجار حدث فى الدقيقة الخامسة أو الدقيقة العاشرة بعد الثالثة مساء ٠ وهو فى هذه الحالة سوف يعوق كل المحاولات التى تبذل لاستثارته استثارة كلية لاصراره على الدقة المطلقة فى كل ما يدلى به ، ويصبح بذلك محصنا ضد الايحاء حتى ولو كان تحت تأثير الأثير ٠

ويعلق سارجنت على هذه الظاهرة ، ومدى امكان استغلال التغلب عليها كسلاح ضد عمليات التحول الدينى والمذهبى بقوله :

« لو أمكن اكتشاف طريقة طبية يسيرة للتغلب على الانقباض المزمن فسيكون لدينا أحد الاسلحة الحاسمة النهائية نستعمله ضد الذين يمارسون عمليات التحول الدينى والسياسى ٠ على أنه فى نفس الوقت قد نجحت أساليبهم بدرجة أكبر مع الغالبية التى تتمتع بصحة عقلية سليمة ، وغالبا ما يكتب لهم عدم التوفيق مع الشواذ ما لم يستطيعوا انهاك قواهم البدنية أولا

وارهـاقهم الى الحد الذى تصبح فيه معتقـداتهم أقل رسوخا ، ويرون أن أملهم الوحيد فى البقاء على قيد الحياة هو الاستسلام ، وحينئذ يجوز أن يتحولوا تحولا كاملا ، ويعاد تبشيرهم تبشيرا سياسيا » .

على أننا قبل أن ننتهى من هذا الفصل نود أن نشير الى أن العلاج الوحيد لحالات الفصام الشديدة المزمنة ، وكذا المرضى المصابين بالانقباض والقلق المزمن الذين لا يستجيبون لأى صورة من صور الصدمات العلاجية أو العلاج النفسي والعلاج بالعقاقير ــ هو العلاج عن طريق جراحة المخ .

واذا كان لا يصح أن نعرض لهذا الموضوع لان هناك من يستطيع أن يبحثه افضل منا على أسـاس التخصص ، كمـا أننا لا نستطيع أن ندلى فيـه بآراء أكلينيكية سليمة ، فاننا لأهميته وعلاقته بعمليات التحول الدينى والسـياسى سنكتفى بسرد أراء الدكتور وليام سارجنت الذى بنى هذه الآراء على أسـاس من التجربة والبحث .

يقول سارجنت : ان الجراحة فى صورها المختلفة الحالية تلقى ضوءا كبيرا على الميكانيكية المخية التى يمكن بواسطتها بذر الأنماط السـلوكية والفكرية فى الانسان أو ازالتها ، وقد أدخلت لاول مرة فى سنة ١٩٣٦ على يد طبيب الاعصاب البرتغالى مونيز Moniz الذى نال جائزة نوبل لنجاحه فى تمكين مرضى يشكون المرض المزمن من الخروج من مستشفى الامراض العقلية والعودة الى أعمـالهم وعائلاتهم ، وقد تمت دراسة الآثار المترتبة على هذه الجراحة دراسة دقيقـة فى حالة المرضى البريطانيين الذين تعرضوا لها حتى عشر سنوات ماضية أو أكثر ، فقد تم علاج حوالى خمسة عشر ألف مريض فى بريطانيا العظمى وحدها .

كما يشير الى أنه يحتفظ بجراحة المخ للمرضى الذين يعـانون من حـالات شديدة ومستمرة من القلق والتوتر الناجم فى بعض الحالات من بعض الحقـائق

الثابتة غير السارة أو غيرها من الهلوسة أو الاوهام ، وفى كلتا الحالتين تكون هناك مقاومة عنيدة للعلاج بالطرق غير الجراحية • والجراحة لا سيما فى صورها المتطورة المعدلة الحديثة يمكن أن تقلل التوتر بدرجة كبيرة ، ولو أنها لا تزيل دائما الأفكار التى خلقها التوتر • فالانسان يمكنه فى الواقع بهذه الوسيلة تقليل القلق الحاد الناتج سواء من التفكير العادى ، أو التفكير الشاذ دون أن يؤثر على العمليات الفكرية الاخرى ، أو على الذكاء نفسه • ولقد هذبت العملية تهذيبا كبيرا فى السنوات الاخيرة ويمكنها الآن أن تسبب تغييرا أقل بكثير فى الشخصية بصفة عامة •

ويقول : ان مراقبة التقدم فى مثل هؤلاء المرضى بعد الجراحة معناه أن ندرك انه بمجرد التقليل من قلق المريض من جراء فكرة حقيقية أو وهمية ، فان الفكرة فى حد ذاتها تتضاءل فى أهميتها ، فمثلا يجوز أن يوضع المريض فى مستشفى من مستشفيات الامراض العقلية لانه مريض بوهم مؤداه أن له وجها شاذ التقاسيم يثير ضحك كل من يراه ، وبعد الجراحة قد يظل على تفكيره فى وجهه الشاذ ، ولكنه يتوقف عن اعتباره عجزا اجتماعيا ، وسوف يمكنه هذا من ترك المستشفى والعودة للعمل ، والاستمرار فى الحياة كما يفعل كثيرون غيره ممن لهم بالفعل تشوهات فى وجوههم ، وبعد ذلك بأشهر قليلة نجد أن فكرة تشوه الوجه هذه تتلاشى ، أو تقل فى أهميتها بدرجة ملحوظة من ناحية أنها تتوقف عن تقوية انفعالاته وقلقه من ناحيتها •

ثم يشير الى أثر جراحة المخ على شخصية الفرد فيقول : « يقال ان جراحة المخ تميل الى جعل الناس جامدين وتقليديين بشكل يجعلهم يفقدون شخصيتهم ، والحقيقة أن النتيجة هى بصفة عامة جعل الناس عاديين بشكل أكثر من الافراد العاديين وقابلين للايحاء والاقناع بلا مقاومة عنيدة ، لأنهم لن يفكروا فى آرائهم

بعد ذلك بعمق ، وعلى ذلك فسيفكرون بمنطق افضل ، ويفحصون النظريات الجديدة بدون تحزب انفعالى • وكمثال لذلك كان هناك مريض من المرضى له افكار مسيحية مضللة ، وثبتت مقاومته تماما للعلاج بالتحليل النفسى ، ولكنه استطاع بعد الجراحة التى أجريت له فى المخ أن يناقش آراءه المسيحية مع ممرض ذكي وتخلص منها بعد الجدل • كما يمكننا ان نشاهد كذلك التحولات الدينية الصادقة بعد جراحات المخ الجديدة المعدلة ، لأن العقل يتحرر بعدها من أصفاده القديمة ، وحينئذ يمكن للمعتقدات الدينية أو لوجهات النظر الجديدة أن تحل محل القديمة فى يسر » •

ويرى سارجنت انه من الممكن القضاء على المشاعر الدينية فى الانسان اذا أجريت له عملية أكبر مما ينبغى فى الفصوص الأمامية للمخ Frontal Lobes ويعطى مثالا لاحدى هذه الحالات فيقول : ان عاملة في جيش الخلاص، وضابطة من كبار الضابطات تزوجت أحد رجال الدين وبقيت فى المستشفى لسنوات عديدة وهي تشكو باستمرار ارتكابها الخطايا ضد الروح القدس ، وشكت من هذا لأسابيع وشهور ، وفعل زوجها المسكين كل ما فى وسعه لابعاد الهواجس عنها ولكن بلا جدوى ، وحينئذ تقرر اجراء عملية جراحية لها ، وبعد فك الرباط عنها سئلت عن حالتها ورأيها فى الروح القدس فأجابت وهي تبتسم : آه الروح القدس •• لا يوجد شيء اسمه الروح القدس •

كما يقول : انه مع ذلك أمكن باستعمال أساليب الجراحة الأحدث ، واستئصال أجزاء محدودة من الفصوص الأمامية ـ تقليل أعراض القلق والانقباض المزمن بدون احداث آثار مرغوبة من ناحية المعتقدات الدينية العادية •

ثم يعود فيقول : انه سوف تبقى مسألة ما اذا كان من الخطأ تغيير أناس يتمتعون بتنظيم عقلى الى أناس عاديين ممن لم تكن تعتلج فى نفوسهم مثل هذه

المشاعر العاتية بطريقة أو بأخرى ـ ستبقى مسألة جدلية بالنسبة لعدد كبير من الناس •

وعلى أى حال فان نجاح جراحة المخ ليس الا وسيلة للتذكير بعدم جدوى الطريقة الجدلية المجردة بالنسبة لعـدد كبير من المرضى الذين يعـانون من آراء ثابتة ، ولما يتبع ذلك من الالتجاء التعس لكثير من النــاس عبر التـاريخ الى مستشفيات مرضى العقول ومعسكرات الاعتقال أو المشانق كوسيلة من وســائل تخليص المجتمع من أفراد لا يمكنهم بوسائل أخرى قبـول عقائد يقبلهـا الناس العاديون أو الغالبية العظمى القابلة للايحاء •

الباب الرابع

وسائل الاستجواب

- الفصل الأول
  الاستجواب .. وخداع الاعتراف
- الفصل الثاني
  سيكولوجية وسائل كشف الكذب



الاستجواب وخداع الاعتراف

اهتم أغلب الباحثين الغربيين فى كتاباتهم عن عملية غسيل المخ ببحث الوسائل التى كان يستخدمها الشيوعيون فى استجواب أسراهم أو المرتدين عن الشيوعية من أبناء وطنهم على أساس أنها احدى الوسائل التى استغلها الشيوعيون فى الهجوم على المعتقدات والاتجاهات والقيم ٠

وعلى الرغم من أن الكثيرين قد كتبوا فى هذا الموضوع عند دراساتهم لعملية غسيل المخ بشىء من التفصيل والتحليل ، فاننا نعتقد انهم لم ياتوا بجديد فى ميدان الاستجواب واستنطاق الاعتراف ٠ فالشرطة فى جميع أنحاء العالم تستخدم فى يومنا هذا نفس الأساليب الأساسية لاستنطاق الاعترافات ، كما اتبعت نفس الأساليب الحركة الكاثوليكية المناهضة للهرطقة التى كانت تحاول أن تبحث عن المعلومات الخاصة ، وتجبر الفرد على أن يدلى باعترافات زائفة ٠

ومن هنا نرى أنه لكى نستطيع أن نقيم هذه الأساليب تقييما صحيحا يجب أن نشير الى الأساليب التى استخدمت فى الماضى ، والتى تستخدم اليوم للحصول على الاعترافات ، كما يجب أن نحاول أن نربط بين أهداف هذه العملية فى أنظمة المجتمعات المختلفة ، وان كنا من زاوية أخرى نرى أن الشيوعيين لجئوا الى أبحاث فسيولوجية للوصول الى أسلوب قائم بالفعل الى حد الكمال ٠

لقد اتبع المحققون فى الكنيسة أساليب أساسية قريبة جدا من تلك التى تستخدم فى عملية غسيل المخ ، ففى عام ١٢٢٩ ميلادية أيام البابا جريجوريوس التاسع تقرر انشاء محكمة يقدم اليها كل من اتهم فى دينه الكاثوليكى سواء من : اليهود ، أو البروتستانت ، أو جماعة المفكرين ، أو الاحرار ، أو المسلمين الذين كانوا يعيشون فى أوروبا فى ذلك الوقت ولا سيما أولئك الموجودين فى أسبانيا والبرتغال ، وكذلك كل من كان يتهم بالالحاد والزندقة فى مسيحيته الكاثوليكية .

والعجيب فى هذه المحاكم ـ وهو ما يخص بحثنا ـ أن محاكم التفتيش هذه تحولت لتصبح طريقة جديدة لتحويل الناس الى المسيحية الكاثوليكية ، وكانت نتيجة رفض الناس التحول اليهـا التعذيب حتى الموت • ويشهد التـاريخ أن المسيحيين الاوائل الذين عاشوا قبل قسطنطين ، والذين كانوا يعذبون ويقتلون ويلقى بهم الى الاسود فى روما لم يعاملوا بمثل تلك القسوة التى عومل بها غير الكاثوليك فى ظل محاكم التفتيش التى استمرت أكثر من مائة عام ، وقتل خلالها آلاف الناس بأبشع طرق التعذيب والوحشية ، اذ كانوا : يحرقون احياء على قوائم خشبية ، أو توضع على أجسامهم آلات هـائلة تتفنن فى تعذيبهم حتى الموت ، أو يمزقون اربا بأدوات وحشية رهيبة •

وكان من يطلق عليهم الهراطقة يدعون للتحقيق الأولى ، ويمنعون من التحدث عن استجوابهم لاقاربهم • وبمجرد أن يجدوا أنفسهم فى السجن يواجهون بالتهديد بحرقهم أحياء ، ثم يوحى اليهم أنهم يمكنهم تفادى ذلك بوسيلة واحدة هى الادلاء باعتراف كامل • ونظرا لأن هذا الاعتراف لابد أن يكون اعترافا مخلصا ، فانه يجب عليهم أن يصدقوا أنفسهم باخلاص أنهم مذنبون بارتكاب جرائم يوحى بها المحققون أو يختارها ويزيفها خيالهم المريض نتيجة ما تحملوا من آلام ومشاق •

وكان النادمون الذين يعترفون يمنحون ميزة الموت شـنقا قبل حرقهم ، أو ربما يعتقون ويجردون من كل ممتلكاتهم ، أو يسجنون مدى الحياة ، كما كان يطلب منهم كذلك الادلاء بكل شيء عن عائلاتهم ، وكان عدم الادلاء بأى معلومات تتعلق بجريمة أب أو أحد أفراد العائلة يعرض الشخص للعقاب وبنفس القدر •

وقد نتساءل لماذا يعترف هؤلاء الناس بما لا يعتقدون ؟ لو تصورنا درجة التعذيب التى كان يتعرض لها هؤلاء الضحايا لوضعنا هؤلاء الضحايا فى قائمة الشهداء !

ويصف سليمان مظهر فى كتابه « بين السماء والارض » صورة من آلات التعذيب التى استخدمتها محاكم التفتيش لتحويل عقائد الناس بقوله :

« كانت قاعة التعذيب عبارة عن غرفة مظلمة ، جدرانها سوداء تغلق بباب من الحديد السميك ، وفى داخل هذه الحجرة تفنن الاخصائيون فى اختراع أدوات التعذيب من : مسامير ناتئة فى الحائط ، الى مجالد من الجلد المعقود على رصاص ، الى تلك القيود الحديدية ذات المسامير الناتئة التى كانت تضيق تدريجيا حول راس الضحية ، علاوة على تلك الآلات الرهيبة ذات الرءوس الحادة التى تستخدم لسحب أثداء النساء من الصدور ، وغيرها لسل اللسان من أصله ، وأخرى لتكسير الأسنان ، وغيرها من وسائل التعذيب الرهيبة .

« وفى النهاية نجد تلك المشنقة المعلقة فى السقف لكى تشنق الضحية نصف شنق ، فلا هو حى ولا هو ميت . وفى وسط هذه القاعة نجد ما يسمى « بالجحش الخشبى » الذى كانت تربط اليه الضحية لازهاق روحها بواسطة التضييق على رئتيه . وتحت هذه الظروف كان يستجوب من تعتبرهم الكنيسة كفرة أو هراطقة خارجين عن الكنيسة ، وكلما ازداد ايمان الفرد فى تحدى المستجوب ازداد جزاؤه ، ونال من وسائل التعذيب ما لم تعرفه البشرية » .

كان هدف المحققين من استخدام هذه الاساليب هو الضغط على الهرطوقى حتى ينهار ويعترف ويندم باخلاص . وكانت الأساليب التى استخدمت هى نفس الأساليب المستخدمة اليوم ، فكان يوحى الى المتهم أنه باعترافه وندمه سينقذه من نار الجحيم الأبدى حتى ولو أدانه القانون وقرر حرقه حيا على الأرض ، كما استخدم الجواسيس لمواجهة الهرطوقى الذى لم يعترف بهرطوقى أدلى باعترافه ، كما كانت تعطى الوعود بالعفو بعد الاعتراف وهو وعد كان من الممكن سحبه

فيما بعد ، ومع ذلك فقد تم حرق أشخاص أحيـاء ، ولـكن الكثيرين اسرعوا بالاعتراف وتقبلوا المعتقدات الجديدة والغرامات التى فرضتها الكنيسة ، وكان ضحايا الحرق عادة من الهراطقة الذين سبق العفو عنهم ، ولكن العفو عنهم سحب بعد ذلك ٠

ونروى على سبيل المثال قصة أحد الشـهداء المؤمنين الذين وضعوا تحت اصعب الظروف للحصول على اعترافات زائفة منهم ومحـاولة تحويل عقولهم وعقيدتهم ، لكن ايمانهم الراسخ جعلهم يفضلون الموت والخلاص من هذه الآلام عن متعة الدنيا ٠

حينما قامت هذه المحاكم بمحاكمة صموئيل فرناندس ٠ وواجه من وسائل التعذيب والآلام ما لا يستطيع أن يتحمله بشر لكى يدلى باعترافات زائفة ، استمر فى المقاومة معتمدا على ايمانه الراسخ ٠ ولكن الحوار الذى دار بين رئيس المحكمة وهذا الشهيد ، وكذا الأسلوب الذى اسـتخدم لاستنطاقه الاعتراف بالحـاده الكاثوليكى لا يختلف عن تلك الأساليب البشعة المعروفة . والتى طبقت فيما بعد. وربما فاقتها ضراوة وقسوة ٠

وسنذكر فيما يلى ما دار فى محاكمته فهو يوضح لنا كيف استغلت هـذه المحاكم للقضاء على معتقدات الناس وقيمها ، مستخدمة أبشع ما عرفته البشرية من وسائل سلب عقول الناس وجعلهم آلة صماء مسلوبة الارادة ٠

لقد دار الحوار بين رئيس المحكمة ، والمتهم على النحو التالى(١) :

- ما اسمك ؟
- أنا مسلم مغربى ٠
- لا بل اذكر اسمك المسيحى الجديد ٠

---

(١) بين السماء والارض لسليمان مظهر ص ٤١٧ ــ ٤٢٤ ٠

• صموئيل فرناندس ٠

• ان صموئيل هذا اسم يهودى ؟

• لقد كان المسيح يهوديا أيضا ٠

• قل صدقا ٠ كم عمرك ؟

• ثلاث وثلاثون ٠٠ مثل عمر المسيح ٠

• اذن أنت مستعد للتضحية ؟

• باذن الله ٠

• أتقبل ذلك وأنت راض ؟

• نعم ٠

• ما الذى تفكر فيه الآن وما هو تأثير المحاكمة عليك ؟

• تأثير داخلى ٠

• وماذا يقول لك هذا التأثير الداخلى ؟

• لا أدرى ٠ فانى الآن لا أدرى ماذا أقول ٠

• قل ما فكرت فيه بصوت مسموع ٠

• لا أقدر على الكلام لأنى متألم جدا من الضغط على صدرى والكلام لا يكون حسب الامر بل حسب الاستطاعة ٠

• سننظر ذلك جيدا جدا ٠٠ أيها الحراس ٠٠ أظن أن ضرب وجهه بالسوط يمكنه من الكلام ٠

وسرعان ما جذبه أحد رجال التعذيب ٠ وجعل يجلده على وجهه بجلدة سميكة مبللة بالماء ٠ فاحمر جلد وجهه حتى كاد يخرج منه الدم وأخذ يتلوى من الالم ٠

ثم عاد رئيس المحكمة يسأله :

- أين ولدت ؟
- فى طنجة ..
- اسبانى أنت ؟
- كنت أسبانيا .
- ولماذا تقول كنت ؟
- أقول هذا لانى لست باسبانى لكى أظل اسبانيا الا الابد .
- وأين أبوك وأمك ؟
- ليس لى اب ولا ام .. فقد ماتا .
- وأين ماتا ؟
- فى سجون ديوان التفتيش .
- أحرقا ؟
- بل تعذبا حتى تهرأ جسداهما فماتا من شدة العذاب .
- هل لك أخوة ؟ وأين يقيمون ؟
- بل قل أولا .. اين ماتوا وأين قبورهم ؟
- يظهر أنك تريد أن ينفذ صبرنا معك فسنبدأ بتعذيبك ..
- يسوءنى هذا .
- اذن أنت لا تريد أن تدلنا على البقية الباقية من اخوتك ، ولا عن مكان اقامتهم . ان الديوان المقدس لا يخفى عليه أن لك أخوة على قيد الحياة وأنهم يصلون فى مساجد خفية . ألا تعلم اين هم ؟
- لا أعلم .

• عندما صدر الامر بسجنهم هربوا ، ألا تعلم الى أين ؟ تذكر ٠

• كيف يمكنني أن أتذكر وأنا مضطرب الفكر مسلوب العقل ؟

• يجب ان تساعدنا على معرفة مقرهم حتى نخلص نفوسهم ٠

• كما ستفعلون معى الآن !

• أنت تسكن مع امرأة فمن تكون ؟

• زوجتى ٠٠

• يجب عليك ان تسلمها الى ديوان التفتيش ٠٠ نحن نأمرك ٠٠

• اذا كنتم تأمرونني فأولى بكم أن تقتلوني ٠ وهذا كل ما يمكن أن تفعلوه . وعندئذ سوف تصلى زوجتى من أجلى ٠

• سوف تساق الى التعذيب الآن فأولى لك الاقرار ٠

• لا يعنينى العذاب فان جسمى مخدر لا يشعر ٠

• اذا لم تجب على ما سألناك فسوف نسقيك الماء برغم أنفك ٠٠ يدفع اليك من حلقك حتى يقضى عليك ٠

• لقد احترقت قدماى أولا بناركم فلم أمت حتى الآن ٠

واقترب منه أحد المعذبين وهو يتصنع الرقة والعطف ، وقال بصوت متكلف :

• اعلم يا بنى أننـا لا نرمى من وراء تعذيبك الا أن تقر عن بقيـة أهلك الذين تحبهم ، وبذا تنجى نفسك ونفوسـهم ونصعد بكم الى السماء ٠ أجاب الرجل :

• اذا صعدنا نحن الى السماء فمن يهوى بكم أنتم الى الجحيم ٠

وعندئذ استلمه المتوحشون الواقفون أمام آلات التعذيب ، وبعد أن أوثقوه وضعوه على مائدة خاصة وتقدم أحدهم وهو يحمل جرة مملوءة بالماء وتقدم آخر

وفى يده قمع وأدخله قسرا فى فمه ، ثم صب الماء داخل القمع تدريجيا والطبيب الى جواره يلاحظ عملية التعذيب ليرى الى أى حد يمكن لهذا الشهيد أن يتحمل العذاب الذى يؤدى الى قتله خنقا ، ولكن ايمان الرجل منعه من الاعتراف وظل بطنه ينتفخ الى أن جحظت عيناه ثم مات خنقا بالماء !

هذه صورة من الصور التى كانت تجرى فى محاكم التفتيش ، برغم ما فيها من وحشية وقسوة فان ايمان هذا الرجل بمعتقداته الراسخة جعله يتحمل كل تلك الآلام ، وأن يضحى بنفسه فى سبيل مبادىء معينة .

* * *

وفى هـذا العصر الذى نعيش فيه نجـد أنه حتى فى تلك الدول الكبيره المتقدمة التى تتشدق بالديمقراطية ، وتفخر بسلامة التحقيق وعدالته كثيرا ما يدان أبرياء ويسـاقون الى الاعدام نتيجة استنطاق المتهمـين اعترافات خاطئة ترجع أساسا الى الاساليب التعسفية التى استخدمت فى الاستجواب .

ان قضية تيموثى ايفانز ومحاكمته لاتهامه بقتل زوجته وطفله تعتبر سبة فى جبين الطب الشرعى الانجليزى ورجال سكوتلانديارد ، لانها انتهت باعدام رجل من المحتمل أن يكون بريئا نتيجة استنطاقه لاعترافات تالية خاطئة اقتنع بها البوليس بعد أن عثر على جثتى زوجته وطفله مخبأتين فى حجرة من الحجرات التى كانت تستأجرها الاسرة فى أحد المنازل بلندن .

وفى عـام ١٩٥٣ اكتشف مستأجر آخر لبعض الحجرات فى نفس المنزل بقايا بشرية مخبأة خلف الحائط ، وكشف تفتيش تالى للمنزل والحديقة بقايا جثث لست فتيات قتلن من قبل ، وحوكم مجرم اسمه كريستى وأدين بالقتل بعد أن اعترف بأنه قتل الفتيات الست فى ظروف تشابه مقتل زوجة ايفانز وطفله .

لقد أدلى ايفانز بأربعة اعترافات للبوليس ، ولكنه لم يعترف بالقتل الا فى الاعترافين الثالث والرابع ، وقد كان ايفانز على درجة كبيرة من التخلف العقلى أميا عاش بين يدى رجال البوليس لمدة ٤٨ ساعة دون أى عون قانونى .

ان الاجزاء التى نشرتها الحكومة الانجليزية عن هذه القضية المشهورة تشير الى التوترات الانفعالية المختلفة التى لابد من أن يكون عقل ايفانز المختل قدتعرض لها قبل الادلاء باعترافاته النهائية ، ومن المؤكد ان هذه الاشياء لعبت دورها فى تغيير وظائف مخه والسلوك التالى لذلك .

ويصف سارجنت أسلوب استجواب ايفانز فيقول :

«وأول كل شىء انه مرت بايفانز فترة طويلة من الرعب والقلق بعد أن وجدت زوجته قتيلة فى منزله ومنزل كريستى ، ونتج عن ذلك هربه الى ويلز ، وهناك نجد آن الاعترافين الاولين اللذين أدلى بهما للبوليس يتلخصان فى عملية التخلص من جثة زوجته وليس قتلها ، ثم تبع ذلك سفره بالقطار للعودة الى لندن تحت حراسة البوليس ، وهناك قابل أحد كبار المفتشين الجدد الذى كان قد تولى أمر القضية .

وعند الوصول اعترف ايفانز بانه علم لأول مرة أن طفله الذى كان يحبه جدا قد وجد أيضا قتيلا مثل زوجته وفى نفس المنزل . ومع أنه لم يكن لديه الوقت الكافى ليفيق من هذه الصدمة فقد ازداد توتره حينما عرضت عليه بعد هذا الموقف مباشرة بعض ملابس زوجته وطفله القتيلين ، وكذا حبل طويل وغطاء منضدة أخضر وبطانية ، وقيل له : أن كلها تشير اليه كمتهم لا كقاتل اعترف بقتل زوجته وطفله . كما أن ايفانز أخطر بواسطة رجال الشرطة بالطريقة التى خبئت بها زوجته وطفله فى المنزل وأنه يعتبر مسئولا عن الجريمتين ، وحينئذ أدلى باعتراف عام ثم بعد ذلك باعتراف مفصل عن ارتكابه جريمتى القتل » .

والواقع أن هذا الاستجواب لعب فيه الايحاء فى المستجوب والمتهم دورا كبيرا . وأحدثت هذه القضية ضجة كبيرة فى الرأى العام البريطانى ، واعتقد الكثيرون أن ايفانز لا يمكن أن يكون قد قتل زوجته وطفله . وعلى كل فان المعلومات الخاصة بهذه القضية نشرت فى كتاب أبيض صدر بواسطة الحكومة

البريطانية ، وكذلك في كتاب « الرجل الذى يعيش فى ضمائرنا(١) » وفى نشرة خاصة من جريدة سبيكتاتور بقلم لورد الترنشام وايان جلمور(٢) تحت عنوان « قضية تيموثى ايفانز » ويمكن الرجوع اليها للراغبين فى دراسة تفصيلية ٠

* * *

ويروى هوجو منستر برج الذى كان أستاذا لعلم النفس فى جامعة هارفارد فى كتابه « فوق منصة الشـــهادة » On The Witness Stand قصـــة اعتراف زائف حدث نتيجة توترات فرضت على المتهم ، وملخص هذه القصة فيما يلى :

« ان فتاة قتلت وعثر رجال الشرطة على جثتها فى الطريق ، وحصرت الشبهة فى شاب كان له بها اتصـــال قديم ، فاستدعاه المحققون الى غرفة التحقيق حيث توجد الفتاة ثم كشفوا له الغطاء عنها » ٠

وبدا للشاب وجهها الشاحب المخضب بالدماء فباغته المحققون على الفور بسؤاله : « أين رأيتها ؟ » وخر الفتى جاثيا على ركبتيه ثم وضع كفيه على وجهه لتحجب رؤيتها عن ناظريه ، الا أن المحققين جذبوه بغلظة نحو جثة الفتاة وأمروه أن يضع يده فوق جبينها البارد فأطاع كرها وقسرا ٠ ولكنه لم يلبث أن سحب يده عن بدنها مقشعرا ، وسرعان ما جروه عنوة اليها وأرغموه على أن يضع يده ثانية عليها ٠

وفى خلال ذلك أطلقوا عليه السؤال تلو السؤال حتى أصابوا من عزمه مقتلا ومن ارادته مصرعا ؛ فسقط منهوك القوى واعترف بقتلها فى الحال وهو شارد الفكر مضطرب البال ٠

ولقد أطاع الشاب المحققين فى كل ما طلبوا منه الاقرار به ، بل ابتدع لهم الاسباب وانتحل المعاذير ، وأضاف من بنات أفكاره الى الوقائع بعض التفاصيل ٠

---

(١) M. Eddowes, The Man on Your Conscience, Cassell, 1955.

(٢) Lord Altrincham and I. Gilmour The Case of Timothy Evans, Special Spectator Publication, 1956.

وبناء على هذا الاقرار قدم الشاب الى المحاكمة ، وشاءت الاقدار بعد ذلك أن يكشف الغطاء عن سر قراره الغريب وظهرت لهيئة القضاء براءته بأجلى بيان • اذ اتضح أنه لم يعترف الا بتأثير صدمة عصبية أصابته من جراء الرعب الشديد فتركته في شبه حالة تنويم . فأضحى عقله المضطرب سهل الاقتناع شديد التأثر بفعل الايحاء والتغرير ، واعترف متأثرا بما أوحي به اليه في خلال الاستجواب ، واتهم نفسه معتقدا في نفسه الاجرام وهو بريء » •

ومما لا شك فيه أن الخوف الناتج عن التوتر الشديد قد يصل بمخ الانسان الى حالة من حالات توقف وظائفه التى ثبتت فى تجارب بافلوف كما سبق ان بينا ، ويصبح مخ الانسان خاضعا لاى ايحاءات توجه اليه •

* * *

ويروى لنا سارجنت بعض التفصيلات الطريفة عن الاساليب المستخدمة فى الدول الغربية فيقول :

« اذا كان أسلوب الاستجواب يتخذ طريق العطف واظهار الود للمتهم فمن المستحسن استغلال التبرير النفسي الذى يكون عادة فى ذهن المجرم عند ارتكابه للجريمة ، ولهذا أوحى اليه أنه كان هناك سبب وجيه لارتكاب جريمته ، وبأنه يتمتع بقدر كبير من الذكاء يمنعه أن يفعل ذلك دون مبرر ، وفى حالات جرائم الجنس يشرح للمتهم أن الجوع الجنسى يعتبر غريزة من أقوى الغرائز التى تحرك حياتنا ، وفي حالة السرقة يوحى اليه أنه ربما كان جائعا أو محروما من ضروريات الحياة ، وفى ارتكاب جرائم القتل يقال له : ان الضحية قد أساءت اليه اساءة بالغة ، وربما كان القتل فى الطريق اليه • كن صديقا وعطوفا وشجعه على كتابة القضية وسردها بأكملها حتى ينفس عن نفسه ويبدأ من جديد » •

ويستشهد سارجنت بحديث أدلى به نائب مدير بوليس نيويورك الى مجلة البوليس عام ١٩٢٥ ــ على الاساليب الغريبة المعروفة في استنطاق الاعترافات والذى يقول فيه :

« ان اسلوبى المعتاد هو أن ادون بيانات السجين عندما يحضر امامى فى الشكل الذى يريده تماما ، وفى اليوم التالى بعد آن تكون قد جمعنا معلومات اضافية نقوم باستجوابه ثانية ، ونوجه أسئلتنا على ضوء هذه المعلومات ، وبعد ذلك نحلل التناقض بين بياناته الاولى والاخيرة ، ثم نستجوبه فى اليوم التالى ونحلل مرة ثانية الاختلافات . ثم نضيق عليه الخناق اذا أشارت الحقائق التى تم جمعها الى ادانته بصفة مؤكدة • ونستمر فى اجباره على الكلام مرارا وتكرارا يوما بعد يوم ، وفى النهاية ينهار ويدلى بالقصة كلها وذلك اذا كان مذنبا أو لديه فكرة عن الجريمة •

« وفى حالة وجود مجرم دمث لطيف مستقيم ومثقف تثقيفا طيبا فاننا نستمر معه حتى نكتشف نقطة ضعف ، ومثل هذا المتهم يدلى بروايته الاولى بطلاقة ويكون زلق اللسان فى كل مناسبة تالية ، ولكن التناقض يبـدأ فى الظهور بوضوح متزايد فى كل مرة ، ومن ثم فاننا نكرر عليه السؤال حتى ينهار فى النهاية • وبطبيعة الحال فان المتهم سوف يردد نفس القصة اذا كان صادقا ، أما اذا كان يكذب فان لسانه سوف يزلف فى احدى المرات ؛ لان الكاذب لا يستطيع تذكر كل شىء اذ أنه معرض لنسيان أى شىء ذكره من قبل •

« وهناك اسلوب ثالث هو أن ندفع ببساطة المتهم الى مأزق عقلى بشرط أن يكون مذنبا فعلا ، وحينئذ نجده يتعثر فى كل مرة . ومعنى ذلك انك دققت « اسفينا » كبداية ، فاذا لم يكن لديك مفتاح صغير تبدأ منه لتوجيه اسئلتك فانه يصعب عليك الحصول على الاعتراف ، ولكن بعد أن تستكشف نقطة الضعف يبدا التناقض يتسع فى رواية المتهم حتى يصبح فى النهاية فى غاية الارتباك والحيرة بل يرى أن اللعبة قد بلغت نهايتها بسقوط جميع دفاعاته ويصبح أشبه بالفأر فى المصيدة وحينئذ ينفجر باكيا ويأتيه العذاب من داخل نفسه لا من خارجها » •

ويعلق سارجنت على ذلك وعلى علاقته بالعلاج النفسى بقوله :

« ان الشىء الوحيد الذى يضاف هو أنه من المعروف فى مثل هذا الاسلوب ان تختلط الحقيقة والزيف بشكل يدعو للياس فى عقل كل من المتهم والمستجوب ،

ومن المحتمل اذا لم تبرز ما يسمى بنقطة الضعف فان المستجوب قد يخلق بنفسه الايحاء بالاعتراف اذا أصر على أن يحصل عليه ٠

« ان استنطاق الاعترافات غير الصحيحة التي قد يقتنع بها كل من المستجوب والمتهم عن طريق الايحاء لتذكرنا بظاهرة مشابهة في حجرة استشارة المعالج النفسي عندما يبدأ في تصديق وتقبل ما يصدقه هو ومريضه من أن صدمة في الطفولة مثلا قد سببت هذه الاعراض . وبعد ساعات من امعان الفكر والاضطراب قد ينتهي المريض بالادلاء بروايات مفصلة عن الضرر الانفعالي الذي حدث له في هذه المناسبة أو تلك ، واذا كان الطبيب واحدا من أولئك الذين يؤمنون بالصدمات في الطفولة فيسأل عنها ؛ فان المريض حينئذ يبدأ يتذكرها وهكذا يعيش مرة أخرى في تفاصيلها ٠ ان المريض يردد عن حسن نية ما أوحى به اليه ، ومع ذلك قد يصدق كل من الطبيب والمريض عن اقتناع مثل تلك الحوادث » ٠

وهنا يبدو مدى التشابه بين « غسيل المخ » الحديث ، وبين بعض الاساليب الحديثة للعلاج النفسي ، الا أن خطر تعرض الطبيب النفسي والمريض الى « غسيل المخ » يظهر في كتاب أيرنست جونز الحديث عن فرويد الذي يقول فيه(١) :

« كانت حماسة فرويد في التوصل الى الحقيقة على أعلى درجة من الكمال واليقين ، ومع ذلك فقد لاحظت في حالة مريض كان يعالجه فرويد قبل الحرب وكان تاريخ حياته معروفا تماما لي ، ان فرويد كان يصدق البيانات التي كان يدلي بها المريض المرة تلو الاخرى في أثناء عملية التحليل النفسي ، وكنت أعلم علم اليقين أنها غير حقيقية ، كما كان يرفض عرضا أن يصدق أمورا مؤكدة تماما » ٠

* * *

ومع التطور العلمي استخدمت آلات ومعدات لتساعد المستجوب في استنطاق الاعترافات ، وأهم هذه وأحدثها جهاز كشف الكذب الذي يستخدم في أغلب الدول المتقدمة ٠

---

(١) E. Jones - Sigmund Freud: Life and Work, 2 Vols, Hogarth Press, London, 1955.

وجهاز كشف الكذب الذى تستخدمه هذه الدول الآن فى استجواب المجرمين ما هو الا التطور العلمى لوسائل كشف الكذب البدائية التى استخدمها الاقدمون، فقد كانوا يعتمدون على الوسائل العضوية والنفسية فى محاولة كشف الكذب عند استجواب المتهمين ٠

فمن الوسائل العضوية التى استخدمت قديما تلك التى كان يستخدمها الصينيون الاقدمون مع المتهم وذلك بوضع أرز مسحوق فى حلق لسانه ويأمرونه بمضغه ثم بصقه فاذا وجد جافا فالمتهم مذنب ، وشبيه بذلك ما كان يقوم به العرب من وضع قطعة من الحديد المحمى على لسان المتهم فاذا لم يحرق اللسان من تأثير هذه النار كان المتهم بريئا ٠ كانت مثل هذه الوسائل تعتمد على ردود فعل الغدد واللعاب فى جسم الانسان ٠

كما استخدمت الوسائل النفسية البحتة كذلك لكشف الكذب ، فمن اقدم الامثلة على ذلك قصة سليمان المعروفة حينما جاءته امرأتان تتنازعان طفلا وكل منهما تدعى أنه ابنها ، ولما اقترح سليمان تقسيم الطفل وقبلت احداهما عرف سليمان أنها كاذبة ٠ كما أن هناك تلك الوسيلة المضحكة التى كان يستخدمها اليهود ، اذ كانوا يضعون حمارا مقدسا فى حجرة مظلمة بعد أن يدهن ذيله بمسحوق أسود ، ثم يطلبون من المتهم أن يمسك بذيله فاذا نهق كان مذنبا ٠

وبرغم أن هذه الوسائل تعتبر محل طعن ولا يمكن الاعتماد عليها ، فان جهاز كشف الكذب الذى خرج على أساس علمى يعتبر أيضا آلة لا يمكن التعويل عليها فى قاعة المحكمة ، ولكنها كما يقول مستر كلارنس لى فى كتابه The Instrumental detection of deception « أنه أداة فعالة للغاية لاخافة قليل الخبرة والجاهل من المذنبين واجباره على الاعتراف(١) » ٠

والواقع أن جهاز كشف الكذب واجراءات الاختبار التى يواجهها المذنب يكون لها أثر نفسى قوى على نفسه من ناحية اقناعه بالاعتراف ٠

---

(١) C. D. Lee, The Instrumental Detection of Deception. The Lie Test, Edited by V. A. Leonard Charles C. Thomas, Springfield, Illinois, 1953.

ويقول سارجنت فى كتابه « Battle for the mind »

« ان منظر المؤشرات وهى تتأرجح مع كل دقة من دقات القلب أو نفس من الانفاس قد تحطم معنويات المذنب • كما أن اطلاعه على النتائج المسجلة مع شرح مختصر عن مغزى كل خداع مسجل يتمخض فى الغالب عن نتائج مباشرة » •

ويرى سارجنت أن هذه الوسيلة مباحة وقانونية ، ولكن يجب أن يقتنع المستجوب أولا بتهمة الشخص بوسائل أخرى • ويضيف لى « ان ما بين ٦٠٪ ، ٨٠٪ ممن تظهر ادانتهم باجراء الاختبار عليهم يعترفون فى النهاية ، ولكن النسبة المئوية للاعتراف تتوقف على ثقة المستجوب في نفسه وقدرته على الاقناع وجلده ومثابرته ، واظهار عطفه نحو المتهم ، كما يجب على المستجوب أن يوحى للمتهم بكل الطرق فكرة تأكده من ارتكاب الجريمة ، ذلك لان أى بادرة من بوادر الشك من ناحية المستجوب قد تقضى على هدفه •

ويرى لى نتيجة تجاربه أن أسهل النـاس فى الادلاء بالاعترافات نتيجة استخدام هذا الجهاز هم أولئك الذين يتأثرون بشكل كبير عند مخاطبة انفعالاتهم. ويشمل هذه الفئة من يسمون بالمجرمين العرضيين مثل : المجرم الذى يضرب ويهرب ، أو الذى يقتل فى ثورة غضب ، أو الاحداث الذين يرتكبون جريمتهم الاولى ، وكذلك مرتكبى جرائم الجنس ، والذين يغتصبون الاعراض ، والسفاحين الذين يقتلون بعد هتك العرض ، والساديين ، والماسكويين(١) •

أما الذين يستعصي اكراههم على الاعتراف بواسطة « كاشف الكذب » فهم المجرمون المحترفون ممن يحتمل أنهم تعلموا بالتجربة خطورة التعاون بأى صورة مع رجال الشرطة أثناء استجوابهم أو أثنـاء الاختبار بجهاز كاشف الكذب ،

(١) السادى هو الشخص الذى يجد لذته الجنسية فى ايقاع الألم على الغير وخصوصا فى الجنس الآخر ، والماسوكى هو الشخص الذى يتلذذ ويصل الى نشوته الجنسية من ايقاع الألم على ذاته : اما بنفسه واما بوساطة شريكه فى العملية الجنسية •

فهم يرفضون بتاتا الاجابة على أى سؤال • وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل فى الفصل القادم •

* * *

والآن نستطيع ان ننتقل لدراسة الاساليب التى اتبعها الشيوعيون فى الاستجواب حتى تكتمل الصورة لدينا ونرى الى أى مدى تتشابه أو تتباين تلك الاساليب عن غيرها المستخدمة فى الدول الاخرى •

لقد لجأ الشيوعيون الى هذه الوسائل فى حركات التطهير التى قام بها ستالين قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة ، كما استخدمها الصينيون مع كثير من الاسرى فى الحرب الكورية ، وكذا مع كثير من الصينيين المرتدين عن الشيوعيه •

ونظرا لعدم اتساع المجال فاننا سنأخذ اسلوب الصينيين فى استجواب الاسرى كنموذج لذلك •

كانت الاستجوابات تستمر لساعات ولايام بل حتى لاسابيع ، وفى بعض الاحوال كان المحقق يعيش مع من يستجوبه ويحاول أن يخلق معه جوا من الصداقة •

وكانت النقطة الاساسية على ما يبدو هى جعل الاسير يتكلم دون تحديد موضوع يدور الحديث حوله ، وكان الحديث أحيانا يأخذ طابع الجلسات التهذيبية التثقيفية نتيجة علاقة الصداقة التى أقامها المحقق ، فاذا ما تطرق الضعف الى معتقدات الاسير وبدأ يفحص معتقداته فحصا انتقاديا يكون بذلك قد وصل الى منطقة الخطر حيث يصبح عرضة لان يتغلب عليه المحقق بحججه الجدلية •

ولقد حاول الصينيون أن يوجدوا انطباعا بانهم يستطيعون الحصول على أى معلومات يريدونها من أى فرد ، وذلك باتباع أسلوبهم الخاص فى الاستجواب . فاذا ما استمر أسير ما فى رفض الاجابة عن سؤال معين برغم الاجهاد والضغط وتكرار القاء السؤال عليه المرة بعد الاخرى ، أخرج المحقق من جيبه دفترا صغيرا

وراح يعبث فى صفحاته ثم يلقى على مسامع الاسير الاجابة الصحيحة • وأحيانا تكون الاجابة دقيقة فى أقل التفاصيل بدرجة تثير الدهشة ، وينتقل المحقق عندئذ الى موضوع آخر ويتكرر ما حدث المرة بعد الاخرى حتى يحس الاسير الحيرة متسائلا عما اذا كان ليس هناك شيء لا يكون الصينيون على دراية به •

لقد كان التكرار احد المبادىء العامة فى استجوابات الصينيين للاسرى ، كما كان الصبر الذى لا حد له احدى الخاصيات البارزة فى كل ما يقومون به سواء فى استجواب الاسرى أو الحصول على اعترافات ، فهم يكررون الطلب مرة بعد الاخرى بصبر عجيب ولا ينتابهم اليأس من عدم التوفيق •

وكانت الخاصية الثانية للصينيين هى « التدرج فى المطالب » اذ كانوا يبدأون فى استجوابهم بمسائل تافهة لا قيمة لها ، وبعد أن يغرسوا فى الاسير عادة الاستجابة ينتقلون تدريجيا الى ما هو أهم فأهم تبعا لازدياد تدريبه على الكلام أو الكتابة ، وكانت هذه الوسيلة مؤثرة جدا ولا سيما فى الحصول على اعترافات عن طريق الاستنتاج والاستنباط ، وكذا فى جعل الاسرى يقبلون على نقد أنفسهم ، وعلى تقديم المعلومات أثناء عمليات الاستجواب •

وقد ارتبط بأسلوب « التدرج » أسلوب « المشاركة » أى جعل الاسير نفسه يشترك فى العملية دون أن يدرك الى أى مدى سيوصله ذلك •

واستخدم الصينيون أسلوبا آخر هو أن يطلب من الاسير أن يكتب السؤال ثم يطلب منه الاجابة عنه ، فاذا رفض أن يكتب الاجابة الصحيحة طواعية واختيارا طلب منه أن ينقلها من كراسة المحقق • وهنا لا يجد الاسير أى غضاضة فى نقل هذه الاجابة ما دام لن يوقع فى الورقة التى كتبها ، ولكن كانت هذه الورقة تعرض على زميل آخر للتدليل على أنه قد اعترف بما كتبه بخطه ، كما أن هذه السطور التى كتبها بخطه كانت تستعمل ضده لتهديده ، ذلك لانه فى الواقع يكون من الصعب أن يقنع أى فرد بأن دور زميله انما كان مجرد نقل بعض سطور من كراسة المحقق •

ولقد تضمنت أيضا الاستجوابات التى تعرض لها كل الاسرى تقريبا معلومات غير عسكرية تماما •

كان الصينيون شغوفين بكل صور الحياة فى العالم الغربى • وقد ألقوا الكثير من الاسئلة عن هذه الحياة، وكانوا يطالبون باجابات تفصيلية الى حد بعيد .

وكانوا يستخدمون استمارات مطبوعة بقصد الحصول على تاريخ شخصى لكل أسير ، وشددوا بخاصة على : الماضى الثقافى لكل أسير ، ومستواه الاجتماعى ، وكذا مستوى أبويه ، وما يعملان فيه الى غير ذلك •

وقد عمد اغلب الاسرى فى البداية الى عدم الادلاء بمعلومات حقيقية فملأوا الاستمارات ببيانات مصطنعة ، ولكن طلب منهم بعد فترة ان يقوموا مرة ثانية باعادة ملء هذه الاستمارات • ولما كان من العسير أن يتذكر الاسير ما سبق أن اصطنعه فانه غالبا ما كان يتعرض لمواجهة هذه الاختلافات ويواجه مجاهدات تستلزم منه ان يوضح اسباب هذا الاختلاف والتباين •

فاذا ما شعر الصينيون بأنهم حصلوا على بيان صحيح نسبيا من احد الاسرى كان هذا البيان موضوع مناقشة بين المحقق ، وبين الاسير بقصد تحطيم معتقداته وما يؤمن به من قيم •

وقد استغلت بعض النقاط التى تجىء فى تاريخ كل اسير لتوضح له اخطاءه . فمثلا اذا قال الاسير : ان والديه كانا من الرأسماليين وضح له كيف استغل أبواه العمال الذين لم ينالوا جزءا تافها من هذا الاستغلال •

ومن الاساليب المؤثرة الاخرى التى استخدمت لجعل الجنود يشكون فى معتقداتهم وفى القيم التى يؤمنون بها محاولة جعلهم يعترفون علانية باخطاء اقترفوها ثم انتقاد أنفسهم • وفى طوال الوقت الذى قضاه الاسرى فى المعسكر طلب منهم أن يمروا بهذه « الطقوس » المرة تلو الاخرى • ولقد كان على الاسير أن يعترف بأقل الاخطاء وأتفهها ، وكانت هذه الاخطاء فى الواقع مخالفات

ومناقضات لنظم المعسكر • وكان الاسرى فور وصولهم الى المعسكر الدائم يعطون نسخا من نظم المعسكر ويطلب منهم أن يوقعوا اقرارا بأنهم سيتبعون هذه النظم ، وكان أغلب الجنود يحسون الجوع وكانوا ينتفضون من البرد ، فلم يكن تتوافر لهم الطاقة لقراءة عدة صفحات تجمع أدق التفاصيل للحياة في المعسكر ولذا غالبا ما كانوا ينقضون تعاليم هذه الانظمة نتيجة جهلهم بها •

وعلى سبيل المثال قد تضمنت هذه التعليمات عدة فقرات خاصـة بكيف يستطيع الاسير أن يبصق لطرد البلغم ؟

ولذا فانه كان محتما عاجلا أو آجلا أن ترتكب بعض مخالفات لهذه القواعد والنظم ، وكان يعرض مرتكب المخالفة من فوره على رئيس المعسكر الذى يذكر له أن جريمته خطيره ، وأنه كان لابد أن يعاقب بشـدة لولا سياسة اللطف التى يتسم بها الصينيون ، كما يوضح له أنه ينظر اليـه كشخص مسئول قد وقع كتابة على اتباع هذه القواعد وعدم مخالفتها ، وهنا قد يذكر الاسير أنه فى الواقع لم يقرأ الاوامر التى وقع عليها مما يعرضه الى المزيد من اللوم ، وعندئذ يسأله قائد المعسكر عما اذا كان على استعداد ليعترف بأنه قد خرق القواعد ، وهل هو آسف لهذا السلوك ، وهل يعد بألا يفعل ذلك مستقبلا ؟ فاذا ما وافق الاسير على هذا لا سيما أنه قد لا يبدو له اطلاقا أى خطر فى مثل هذا الاعتراف بل قد يعتبره وسيلة سهلة للافلات من موقفه ، يطلب منه قائد المعسكر توا أن يكتب « اعترافا » بخطئه الذى ارتكبه •

وقد ينتهى الامر أحيانا عند هذا الحد ، ولكن فى العادة كان يطلب منه أن يقرأ اعترافه أمام مجموعة من زملائه الاسرى وأن يتبع هـذا « بنقد نفسـه » الامر الذى يستدعى تحليل الفعل الخاطىء على أساس أنه وراء « فكرة » خاطئة وأنه كان من واجبه أن يكون « عميقا فى اخلاصه » •

وهكذا تنشأ سلسلة متتابعة من « فكر » و « فعل » فيتساءل الاسير : لماذا كان هذا « الفكر خطأ » ولماذا كان هذا « الفعل جريمة ؟ » ويصحب هـذا بتجسيم للوعود عن المستقبل والاعتذار عن الماضى •

وكان في هذا « المحو لاثر النفس » أو بمعنى أدق « طمس النفس » علانية ، اذلال للشخص واهدار لكرامته كما انه يعتبر سابقة سيئة لاولئك الذين كانوا يحاولون مقاومة التكيف .

على انه قد نظر في البداية الى أن كتابة الاعترافات وقراءتها علانية ونقد النفس لاخطاء تافهة في المعسكر مسألة لا أهمية لها اذا ما قورنت فيما يحتمل من توقع عقوبات بدنية أو تعذيب او سجن . ومع ذلك فان هذا الاسلوب على بساطته كان يمكن أن يتحول الى تعذيب سيكولوجي بمجرد أن يتم الاذعان الاول من جانب الاسير ، وكان الرجل الذى يخالف أمرا ما من أوامر المعسكر ويمر بهذه السلسلة من الطقوس من : اعتراف ، الى تسطير اعترافه كتابة ، الى قراءته علانية، ثم الوقوف أمام الآخرين لتوجيه النقد الى نفسه ـ لايلبث أن يعود من جديد لمخالفة امر آخر مما قد يثير عداء الصينيين ، وفي هذه المرة يطالبونه باعادة تلك الطقوس بصورة أكثر تجسيما ، ولكن الفكرة أن الاسير كان في المرة الاولى قد ارتكب الخطأ عن جهل بالقواعد والتنظيم ، واعترف طواعية بخطئه ، ولكنه في هذه المرة يجد نفسه متهما بجرم لا يعرف اذا كان هو على صواب أم خطأ فالتقدير ليس من جانبه ، وفي هذه المرة يجد الاسير ألا مناص له من الاعتراف كوسيلة للخلاص ، ولكن لابد له من أن يجسم هذا الخطأ التافه ويعترف بجرمه الكبير .

وبرغم أن الصينيين قد حاولوا اغراء بعض الاسرى للتعاون معهم عن طريق المكافآت والوعود باعادة ترحيلهم الى أرض الوطن ، الا أنهم استخدموا التهديد بالعقاب في حالات كثيرة .

وقد استخدم الصينيون كل أشكال التهديد من : انذار بالموت ، أو عدم الاعادة الى أوطانهم ، أو التعذيب ، أو انقاص كميات الغذاء ، أو الامتناع عن تقديم الدواء والعلاج .

على أن العقوبة التى استخدمت فعلا كانت « الحبس الانفرادى » وان كان قد أوحى للاسرى أنه من الممكن تنفيذ باقي ألوان التهديدات ، لا سيما أنه من السهل

انكار وجودهم ، اذ لم تكن لدى الأمم المتحدة أى معلومات عن الأسرى حتى تم تبادل البيانات الخاصة بهم فى « بانمونجوم » وذلك حينما قطعت محادثات الهدنة شوطا بعيدا . وكان من الواضح أيضا أن من المستطاع قتل أى أسير وتسجيل أنه مات بسبب نوبة قلبية أو ما شابه ذلك .

وكان الخوف المبهم من المجهول يزيد من شدة تأثير هذه التهديدات ، فلم يكن الأفراد يعرفون ما سيواجههم بعد لحظات ، ولم يستطيعوا أن يقدروا ردود الفعل من جانب الصينيين بالنسبة لأى أمر ، وكانت الوسيلة الوحيدة لتخفيف هذا التوتر هى الاسهام بصورة ما فى مشروعات الصينيين .

وكانت العقوبات الواضحة التى اتبعها الصينيون بصورة علنية تختلف : تبعا للجرم ، وتبعا للموقف السياسى ، وكذا الشخص الذى ارتكب الجريمة .

وقد قام الصينيون فى أثناء عمليات الاستجواب ببعض العقوبات البدنية العادية كالصفع أو الركل بالقدم ، وذلك اذا ما رفض الأسير الاجابة عن سؤال ما ولكن الأسير الذى كان يبقى صامتا كان عادة يصرف من أمام المحقق دون أى عقاب بدنى آخر .

وكان للعقوبات البدنية التى وقعها الصينيون على الأسرى أثر كبير فى انهيار الكثير منهم وهذه العقوبات على سبيل المثال :

- القيام بعمل عنيف مجهد .
- الوقوف فى الوضع انتباه لفترات طويلة .
- التعرض للحرارة الشديدة أو البرد الشديد .
- الحبس الانفرادى فى غرفة ضيقة لا تمكن الأسير من الجلوس أو الرقاد ، وكانوا يطلقون على هذا النوع من الحبس الانفرادى « الاسقاط فى الحفرة » .
- الوقوف على أطراف أصابع القدمين .

• الابقاء فى غرف قذرة دون السماح له حتى بازالة الضرورة فى الأماكن المعدة لذلك •

وكان الصينيون بالاضافة الى هذا يعزلون غير المتعاونين عن باقى الأسرى ، ويبقونهم فى معسكر آخر بحيث يكونون عرضة لنظام أكثر قسوة •

وكحديث عام فان « سياسة اللطف » لم تطبق الا على هؤلاء الذين أمل الصينيون أنهم يستطيعون استخدامهم •

على أن الكثير من صور العقوبات للمخـالفات العادية كانت تأخذ طابعـا اجتماعيا بايقاف الأسـير للاعتراف بأخطائه أمام زملائه ، أو بتسـطير اعترافه وقراءته علانية أمام الآخرين ، أو يجعله يقوم بنقد نفسه ، وذلك بقصد تقليـل قيمته فى نظر نفسه وفى نظر اخوانه •

ولا يوجد أى دليل على أن الصينيين استخدموا العقاقير أو وسائل « التنويم المغناطيسى » كما لم يعرف قط أنهم عرضوا « ممارسات جنسية » أو استخدموا الاتصال بالنساء كوسيلة للحصول على معلومات غير قانونية ، أو الوصول الى جعل بعض الأسرى يتعاونون معهم مقابل ذلك •

وبرغم ذلك فقد تحدث بعض الأسرى عن تعذيب بدنى قاس ، ولـكن من الصعب تقدير المجال الذى حدث فيه ذلك •

ويذكر لنا ادوارد هنتر فى كتـابه « غسـيل المخ » صـورة تفصيلية عن الوسائل والاسـاليب التى استخدمهـا الصينيون الشـيوعيون فى اسـتجواب الدكتور جون د • هيـز John D. Hayes الأمريكى عام ١٩٥١ ، ومحاولة استنطاقه اعترافات خاصة ، ونحن نذكرها هنا على سبيل المثال اذ أنه مهمـا كانت هذه المعلومات تشوبها الدقة أو المبـالغة فانها تعطينا صـورة واضـحة للأساليب التى قد تستخدم فى عمليات الاستجواب واستنطاق الاعترافات(١) •

---

(١) Edward Hunter, Brain Washing, Farar, Straus and Cudahy, New York, 1956, PP. 66 - 88.

كان هيز مبشرا بالوراثة فقد ولد بالقرب من كفو «Chefoo» فى شمالى الصين من أبوين من المبشرين وورث عنهما هذه الوظيفة ، وكان يحس وهو بين الصينيين أنه فى وطنه تماما كما أتقن لغة الـ Mandarin أى اللغة القومية اتقانا تاما ، وكثيرا ما كانوا يقولون : انهم يعتبرونه واحدا منهم ٠

ولكن المتاعب ابتدأت معه حينما أعدمت السلطات الصينيــة عام ١٩٥١ احد أصدقائه الصينيين وكان يعتبره قدوة له ومثله الأعلى ٠ وفى أحد الفصول التى كان يلقى بها دروسه سأله بعض الطلبة الحمر رأيه فى هـذا الموضوع ، فأجاب بصراحة : « لا يمكن لدولة متحضرة أن تعدم انسانا بسبب آرائه السياسية » ٠

وفى اليوم التالى أخبرته السلطات أنه ارتكب خطيئة كبرى للهجـوم على الحكومة ، وأنه لا بد من وجود أشياء أخطر من ذلك وراء هذا الهجوم ، ولذا فان القانون سيتخذ مجراه ٠

ومنذ ذلك الوقت وضع هيز لمدة شهر شبه معتقل فى منزله تحت وطأة قلق وخوف من المستقبل المجهول ، ثم رفعت الحراسة عنه وأبلغ أنه يســتطيع أن يتصرف كما يشاء لعدم ثبوت أى نشاط مضاد له ٠

ولكن فى فجر أحد الأيام سمع طرقا عنيفا على بوابة منزله تبعه صــوت اطلاق رصاصات مسدس على باب حجرة نومه ، وعندما فتح الباب حملق فى ثلاثة مسدسات وكانت أول كلمة سمعها : « انك جاسوس استعمارى » ٠

كان الهـدف من هـذا كله اجهـاد ذهنـه ، ووضعه فى حالة من التوتر النفسى تهيئه للتدرج فى عملية أخرى أشد قسوة وعنفا ٠

وتم بعد ذلك نقله الى احدى الزنزانات، حيث تناوب عليه لفترة تتراوح بين ثلاث ساعات وتسع يوميا ولمدة أربعين يوما متتالية جماعات متتابعة من المسجونين والمبشرين الســياسيين ، وقد حطم التوتر النــاشىء من الضـغط السيكولوجى أعصابه ، وحينئذ بدأت الضغوط البدنية العنيفة المصحوبة بالضغوط الذهنية ٠

ويصف هيز نفسه فى هذه الحالة قائلا :

« كنت جائعا بصفة مستمرة فقد كان غذائى اليومى عبارة عن قليل من الأرز مع ملعقتين من الخضر ، وكنت أحس التخدير نتيجة قلة النوم ، كما كان الامتهان أشد أثرا على نفسى ، وشعرت أن آدميتى قد امتهنت فى بلد أحببته ٠

وحينما كنت أستدعى الى غرفة غسيل المخ أجد نفسى فى حجرة فى الطابق السفلى من السجن مساحتها ١٢ × ١٨ قدما حيث يواجه الانسان فيها عددا من الناس يتراوح عددهم من شخص الى سبعة أشخـاص وذلك كلما نظر الى أى اتجاه ، فمنهم : المستجوب ، والمبشر السياسى ، والجلاد ، والقاضى ، والفضولى ، والمكلف بالتعذيب ٠

وهنا بدأت مرحلة استنطاق الاعترافات حينما أخطره المحققون فى بساطة أنه كبير الجواسيس فى منطقة شرق الصين باكملها ، وطلبوا منه ان يكتب جميع التفصيلات فى اعترافاته ٠

واستخدمت مع هيز أغلب الوسائل والأساليب المعروفة فمن : وعود باغتفار ذنوبه اذا اعترف ، الى ضغوط نفسية حادة ، الى كيل اتهامات واهانات تجعل الانسان ينهار فورا ، ويستغل المستجوب الموقف فورا فيضع البيـان المطلوب فى صيغة سؤال ٠

ولم يكل المستجوبون من عدم توفيقهم فى الحصول على الاعترافات المطلوبة ، بل استخدموا المداورة وخاصة حينما كان يصمت المتهم ٠

وكان المستجوبون فى كثير من الحالات يركزون على تفصـيلات لا ترتبط بالموضوع ويرددونها بين الحين والآخر ، ثم يقفزون فجأة من نقطة لأخرى حتى يسقط الموضوع برمته ويظهر شىء آخر لا علاقة له بالموضوع ، مما يثـير المتهم ويجعله دائما فى حالة من التوتر والانفعال ٠

ففى أحد الاستجوابات مثلا وهى شبيهة بما كان يحدث فى محاكم التفتيش أصر المستجوب على أن يذكر له هيز أسماء المتاجر التى حول السوق ، وبعد أن فكر هيز بامعان أخذ يذكر اسم كل متجر . واستمر الاستجواب المضحك كما يلى:

- هل قلت : أن هناك متجرين للأدوات الكهربية ؟
- نعم ٠
- هل اشتريت من المتجرين ؟
- لا ٠
- من أى متجر اشتريت ؟
- الثانى ٠

ويقوم المستجوب بنهره بصوت حاد :

اشتريت من ذلك المتجر ولم تشتر من المتجر الآخر ولماذا ؟

- آه ٠٠ لا أعرف ٠
- لابد وأن هناك سببا ٠٠ فكر الآن وكن صريحا لماذا اشتريت من ذلك المتجر بالذات ؟
- أعتقد أننى احببت هذا المكان ٠٠ واننى احاول دائما ان اصادق من اشترى منهم ٠
- آه ٠٠ اذا كان هذا هو السبب ٠٠ هل ابتسم صاحب المتجر حينما اشتريت منه ؟
- ابتسم ٠٠ آه ٠٠ ابتسم ٠٠ نعم ٠٠ ابتسم ٠
- لماذا أبتسم ؟
- لماذا ؟ لماذا ابتسم ؟ لا أعرف لماذا ابتسم ٠٠ لقد ابتسم وكفى لأنه ٠٠

ولقد مرت بهيز الكثير جدا من مثل تلك الاستجوابات التافهة ، ولكنها لم تخرجه عن اتزانه ، الا أن الأثر الذى كان يهدف اليه المحقق هو تشويش صفاء ذهنـه ٠

واستطاع المستجوبون فى النهاية أن يصلوا بهيز الى درجة من الهلوسة نتيجـة وطأة المطالب المتتـالية المسـتمرة على ذهنـه فى تلك البيئـة المزعجـة ويقول هيز :

« انه بسبب المحاولات الملحة لجعلى أتذكر كل تفصيل نسيته كانت الغمامة تنحسر عن المنظر طالما تعلق الأمر بالحقائق ، ولـكن المستجوبون كانوا يدقون باستمرار على الوتر فيما يتعلق بأى اتهام يوحى الى ، ولذا كان أمامى خليـط غريب من الحقيقة والخيال » .

وبعد أن وصل المستجوبون بهيز الى هذه الدرجة ولم يستطيعوا أن يقتطعوا منه الاعترافات المطلوبة انتقلوا الى طريق آخر ، ففى احدى الجلسات قال له أحد المحققين :

« لقد وجدنا أنك لست جاسوسا أمريكيا بل جاسوسا دوليا » وترك هيز يتخبط فى حيرته واستطرد المحقق فى القول : « ان لديك أفضل جهاز للتجسس مر بنا أيها الصديق » .

وبعد أن ترك هذا النبأ يغوص فى أعماقه سأله : « أى بلاد زرت ؟ ولقد ذكر هيز تلك البـلاد بعنـاية وهو يدرك أن الدقة مطلوبة فى هـذا النوع من الاستجواب الذى كان يقصد به أن يكون فخا أكثر منه استجوابا .

وقد ذكر هيز كل البلاد ولكن اجابة المحقق على ذلك كانت ضحكة عالية مخيفة مما جعل فرائص هيز ترتعد لعجزه عن فهم مغزى ذلك .

واستدار المبشر العقائدى اليه وقال : « انك لم تذكر الصين فى قائمتك » ثم أمره بالانصراف الى زنزانته مكبلا بالحديد .

هـذه صور لبعض الأسـاليب التى لجأ اليهـا الصينيون فى الاسـتجواب واستنطاق الاعترافات ، وبرغم أن هذه الأساليب لم تنجح مع هيز الا أنها نجحت مع الكثيرين غيره ، وهى فى شكلهـا لا تختلف عن الاسـاليب المعروفة قديمـا وحديثا .

ويقول هيز وهو جالس فى زنزانته يحلل معركته الصغيرة فى حرب العقل : « كلما ازددت تفكيرا فيها ازداد يقينى بأن العقل يتأثر الى حد كبـير ببيئتهـا

وتدريباتها الا أن عامل الروح يعتبر العامل الحاسم الحق فى مقاومة هذه المعركة • فانت لا تستطيع تحطيم الروح اذا كانت سليمة مؤمنة » •

ومن ثم فاننا نجد ان وسائل الاستجواب واستنطاق الاعترافات لا يختلف بعضها عن بعض من ناحية الجوهر فى كل المجتمعات المختلفة ، وان كان الشيوعيون قد استخدموها كوسيلة من وسائل التثقيف الايديولوجى •

والحق أن استنطاق الاعترافات يتطلب دائما من المستجوب أن يحاول خلق مشاعر من القلق والاثم عند الفرد ، وكذا وضعه دائمـا فى حالات من الصراع النفسى • وحتى لو كان المتهم مذنبا بحق فان المسـتجوب يحـاول دائما اثارة الاضطراب فى وظيفة مخه العادية بحيث تصبح احكامه خاطئة •

وحينما يصل الفرد الى درجة الانهيار نتيجة الاستجواب فان عقله لا بد من أن يحدث له أحد أمرين : فاما أن يظهر استعدادا فى زيادة القابلية للايحاءات التى قد يستغلها المستجوب فورا فى عملية اقناع الفرد باعترافه ، واما أن تحدث حالة متناقضة تماما اذا ما أصبح ذهن الانسان فى حالة من الارتباك والفوضى ، وفى هذه الحالة ينتقض الانسان تماما كل معتقداته وأنماطه السلوكية السابقة بشكل يجعله يحس الرغبة فى الادلاء باعترافات تتناقض مع طبيعته وأحكامه العادية •

* * *

وفى الحروب قد يحس الأسرى فى بعض حـالات الاستجوابات تحت وطأة التوتر الناتج مع الظروف القاسية صراعا فى الرغبة فى الاعتراف ، ثم الانصراف عن ذلك ثانية •

ففى هذه المرحلة يبدو للأسرى أشـياء غريبة للغاية ، ومن لحظة لأخرى يتارجح ايمانهم بوجهات نظر وآراء مختلفة تماما ، نتيجة عدم استقرار وظيفة المخ ، ولكن من المحتمل غالبا أن ينتهى هـذا الصراع بتقبـل وجهـات النظر الجديدة ، والادلاء باعترافاتهم •

ويقول سارجنت :

« اذا ضمنا أن الضغط الصحيح يتم تطبيقه بالطريقة السليمة ولمدة طويلة كافية ، فانه لا يتسنى للأسرى العاديين سوى فرصة ضئيلة لتجنب الانهيار العصبي • ومن المحتمل ألا يكون عنيدا غير الشاذ أو المريض عقليا لمدة طويلة ، ودعني أكرر هنا أن الاشخاص العاديين لابد من أن ينهاروا لانهم مرهفو الحس يتأثرون بما يدور حولهم • ان المريض بعقله هو الذى يستطيع أن يكون عنيدا ضد الايحاء ، كما أن الجندى اذا ظل مدة طويلة يحارب في الخطوط الامامية دون توقف لفترة فانه لابد من أن ينهار في النهاية ، وقد حدث ذلك فعلا لجميع رجال الولايات المتحدة المحاربين باستثناء بعض الشواذ • ومع ذلك فانه يمكن حتى للشخص المتوتر عصبيا أن يستثار فى زنزانة السجن وفى مركز الشرطة بواسطة استجواب ماهر ، وبشكل أشد من الاثارة التى قد تحدثها قناصة العدو ، أو رجال مدافعهم الرشاشة القابعون فى خندق » •

والحقيقة أن الاساليب العقلية التى تستخدمها الدول المختلفة فى الاستجواب واستنطاق الاعترافات تهدف كلها : الى اثارة القلق ، وغرس الشعور بالذنب ، واشاعة الاضطراب فى نفسية المتهم وعقله ، كما تهدف الى خلق حالة له لا يعرف فيها ما سيحدث له بين دقيقة واخرى • فاذا أضفنا الى ذلك المثيرات الفسيولوجية التى تنتج بسبب الاعياء والظروف القاسية التى يعيش فيها المتهم مما تؤدى الى القضاء على الانماط السلوكية العادية له ــ فان تلك الاساليب يشوبها احتمال عدم العدالة بالنسبة للمتهم ، وكما أوضحنا سابقا فان هذه الاساليب قد أوصلت الكثير من الابرياء الى الموت نتيجة أحكام خاطئة ، ولذا فان الاعتراف الحق هو الذى يصدر عن المتهم بكامل ارادته وتحت الظروف العادية •

وان كان الشيوعيون قد استخدموا هذه الاساليب كوسيلة من وسائل تقويم الفكر والاصلاح الايديولوجى فقد سبقهم من فاقوهم فى ذلك • ان الانسان لا يمكن أن تفرض عليه أى معتقدات ولا يمكن تقويض قيمه حتى فى أحلك الظروف ، اذ أنه بمجرد أن تزول هذه الظروف الخارجية لا يلبث أن يرتد عن هذه المعتقدات التى أجبر عليها ، ويعود الى عقيدته الاصلية النابعة من : وحيه : وضميره ، وعقله الكامل •



سيكولوجية وسائل كشف الكذب

اشرنا فى الفصل السابق الى بعض الاساليب التى كان يستخدمها الاقدمون لاكتشاف الكذب ، وكذا تحدثنا باختصار عن جهاز كشف الكذب الذى يستخدم فى هذه الايام لاستجواب المذنبين والمجرمين ٠

وفى هذا الفصل سوف نحاول أن ندرس هذه الوسائل بشىء من التفصيل محاولين أن نتعرف العوامل الفسيولوجية والسيكولوجية التى بنيت عليها نظريات وسائل كشف الكذب ، وكذا لتوضيح الاستجابات وردود الفعل التى تحدث نتيجة استخدام هذه الوسائل فى عمليات الاستجواب ، والحصول على الاعتراف ٠

وكما قلنا سابقا فان طرق الكشف عن الكذب التى استخدمت فى الماضى البعيد قد بنيت على اساس فسيولوجى وسيكولوجى ، واغلب هذه الطرق يقرها اليوم علماء علم النفس ٠

ونعود لنضرب مثالا لاحدى هذه الطرق التى استخدمت فى الماضى بشىء من التفصيل ٠ وتتلخص هذه الطريقة فى قصة حدثت منذ آلاف السنين حينما قتل رئيس احدى القبائل ، ووجهت التهمة الى خمسة أشخاص كان رئيس القبيلة قد سبق أن أساء اليهم ٠ وظهرت المشكلة فى التعرف على المذنب ولكن الطبيب

الساحر ـ طبيب القبيلة ـ حل هذه المشكلة ، اذ جمع القبيلة فى شكل نصف دائرة بجانب شاطىء النهر ووقف المتهمون الخمسة يواجهون القبيلة وظهورهم للنهر ٠

وبدأ الساحر وهو يرتدى ملابس مخيفة ووجهه مقنع يرقص من مكان لآخر أمام القبيلة على صوت دقات الطبول المنتظمة ، وبدأ التوتر يزداد لاقتراب لحظة اكتشاف الحقيقة ٠

واخيرا توقف الرقص وبدأ الساحر يملأ خمسة أطباق مصنوعة من سعف النخيل بالارز من اناء كان يحمله ٠ وبدأ يتحدث مع أفراد القبيلة عن خطورة الجرم فى قتل شيخها ، وعن السحر الذى سوف يساعده على اكتشاف القاتل ٠ وقال لهم : أن الابرياء سوف يأكلون الارز بسهولة ، أما المذنب فانه لن يستطيع ابتلاع حبة واحدة ٠ ولكى يكون لحديثه هذا أثر كبير قال : « ان طريقته هذه لاكتشاف المجرم قد حققت نجاحا فى مرات عديدة سابقة » ٠

ثم قدم للمتهمين الخمسة الاطباق المملوءة بالارز فاقبل أربعة منهم عليها بنهم ، ولم يبد عليهم أى أثر من آثار القلق ، بينما وقف الخامس وقد شحب لونه واهتزت ركبتاه محاولا ابتلاع بعض الارز ولكنه لم يوفق ٠ وكان هذا أوضح دليل على جرمه ٠

وأمر الساحر أفراد القبيلة باعتقال الرجل المذنب الذى اعترف بجريمته قبل أن يلقى به الى أفواه التماسيح ٠

ان العمليات السيكولوجية واضحة هنا بصورة معقولة ،فكلنا يعرف عن « جفاف الريق » عند الخوف اذ أن الانفعال الشديد يمنع افراز اللعاب وهو على صلة قوية بالهضم ، وبدون اللعاب يكون ابتلاع الطعام صعبا بل مستحيلا ٠

وفى ضوء هذا نستطيع أن نفسر ما حدث للمتهم الذى ثبت جرمه ، فقد كان المتهم يعرف ذنبه ، ويشعر بخوف من قوة الساحر ، ومن مقدرته على

استخراج الحقيقة منه ، ولذلك فقـد آمن بكل ما قاله الساحر عن الصعوبات التى سوف يلقاها عند محاولته ابتلاع الارز •

ولذلك فان خوفه من اكتشاف جريمته ــ وهو اكتشاف حتمى ــ عمل على تجفيف لعابه ، كمـا أن احساسه بوقوع هذا التغيير زاد خوفه واعتقـاده أن جريمته قد اكتشفت • وحينما قدم له الارز لم يكن فى حالة تسمح له بالاكل •

وقد تبدو هذه القصة بدائية ، ولكن كل الوسائل التى تستخدم حديثا تعتمد الى حد كبير على ما جاء فى هذه القصة • وبالرغم من أن هناك تحسينات فنية معينة فى تسجيل آثار الانفعالات الا أنه من ناحية أخرى فان الوسـائل الحديثة تولد قدرا أقل من الانفعال الذى استطاع الساحر أن يولده فى نفس المتهم • ولو قارنا بين الاثنين فاننا لا نستطيع أن نجزم بأن الوسـائل الحديثة أفضل من الوسائل القديمة •

ومن جهـة أخرى فان خبراء الكشف عن الكذب الحديثين لا يستخدمون « در » اللعاب كدليل على الانفعال ، بل أصبح يعتمد اليوم بدرجة أكبر على : الدورة الدموية ، وعملية التنفس ، والآثار الكهربية على الجلد •

وهناك قصة أخرى اقل فظاعة من قصة الساحر وهى توضح لنا ان هذه الوسائل معروفة منذ الف عام •

هذه القصة رواها « ابن سينا » شيخ الاطباء فى أحسن كتبه « القانون » ، والفصل الذى تحدث فيه عن الحب ــ وهو فصل عن الامراض المخية والعقلية ــ تضمن أيضا الحديث عن : الارق ، والسـبات ، وفقـدان الذاكرة ، والجنون ، والكآبة •• الخ •

ففى احدى جولات ابن سينا وصل متنكرا الى مدينة هيركانيا عن طريق بحر ايجه ، وكان أحد أقارب حاكم هذه المدينة مريضا بمرض حير كل الاطباء المحليين • واستشير ابن سينا فى هذا المرض وبعد أن فحص المريض بعناية طلب أن يؤتى بشخص يعرف كل شىء عن مناطق هذه الولاية ومدنها •

وبدا هذا الشخص يردد أسماء المناطق والمدن بينما كان ابن سينا يضع أصبعه على نبض المريض ، وحينما جاء ذكر مدينة معينة أحس ابن سينا سرعة فى نبض المريض • وحينئذ طلب احضار شخص يعرف كل الشوارع والاحياء فى هذه المدينة •

ومرة أخرى حينما جاء ذكر شارع معين فى هذه المدينة احس ابن سينا ازدياد نبض المريض • ومرة أخرى حينما احضر شخص يعرف كل شىء عن سكان هذا الشارع بدأ هذا الشخص يردد أسماء الاشخاص القاطنين فى هذا الشارع ، وحينما جاء ذكر عائلة معينة ارتفع نبض المريض • وحينئذ توقف ابن سينا عن التجربة معلنا أنه قد توصل الى سبب المرض ، وهو أن المريض يحب فتاة من عائلة فلان تسكن فى الشارع الفلانى فى الحى الفلانى فى المدينة الفلانية ، وأن رؤيته لوجه هذه الفتاة سوف يشفيه من المرض • وتم الزواج بين المريض والفتاة وشفى من مرضه نهائيا •

هذا مثال آخر للاستجابة العاطفية غير الارادية التى عملت على افشاء سر أراد صاحبه لسبب ما أن يخفيه لنفسه ، وهذه الاستجابة غير الارادية هى احدى العوامل المصاحبة المعروفة للانفعال الشديد • وهذه العلاقة أو الصلة الوثيقة من الانفعالات التى تحسها الكائنات البشرية ، ومن التغيرات الفسيولوجية التى تظهر على أجسامهم — هى أساس الوسائل التى تتبع اليوم للكشف عن الكذب.

* * *

ولقد أجرى عدد من علماء الفسيولوجيا وعلم النفس تجارب عن هذا الموضوع ، وقد يكون مناسبا أن نشير هنا الى الجهود التى قام بها « وليام جيمس » مع « لانج » العالم الفسيولوجى ، وخرجا بنظريتهما المعروفة بنظرية « جيمس — لانج » ، وهذه النظرية هى التى قلبت ما يمكن أن نعتبره التتابع الطبيعى للاحداث •

فماذا يحدث حينما نحس عاطفة ؟

اننا نحزن فنبكى ، ونخاف فتزداد سرعة دقات قلوبنا ، ونغضب فتفرز الغدد فوق الكليتين مادة الادرينالين فى أوعية الدم . ومعنى هـذا أن الانفعال كما نحسه عن ادراك ووعى يأتى أولا ثم تأتى العوامل الفسيولوجية المصاحبة بعد ذلك .

ولكن « جيمس ولانج » يعتقدان أن ذلك قلب للاوضاع السليمة ، فيقولان : أن هناك فرقا بين الانفعال وبين الغريزة ويشير جيمس لذلك بقوله : « ان ردود الفعل الغريزية والتعبيرات العاطفية الانفعالية انما تتداخل فى ظلال بعضهـا البعض دون أن تكون محسوسة وكل غرض يثير الغريزة أو يحركها انما يحرك العاطفة بالمثل » . كما قال فى تاريخ لاحق : « يقول المنطق السليم اننا عندما نفقد مستقبلنا فاننا نحزن ونبكى ، وحينما نقابل دبا كاسرا فاننا نشعر بالخوف ونهرب ، وحينما يسبنا خصم نغضب ونسارع الى الاعتداء عليه ، ولكن نظريتى عن هذا كله تناقض كل ما يقال ، فان التغيرات البدنية انما تتبع مباشرة ادراك الحقيقة المثيرة ، فنحن نشعر بالخوف والاسى لاننا نبكى ، ونشعر بالغضب لاننا نضرب من يسبنا ، ونشعر بالخوف أو الغضب لاننا نرتعد تبعا لما تكون عليه حالنا » .

ولقد نوقشت هذه النظرية كثيرا وأجريت عليها تجـارب عديدة ، ولكن المناقشات والتجارب لم تلق الا ضوءا خفيفا على هذه المشكلة ، أى مشكلة العلاقة بين الجسم والعقل بصفة عامة .

وبرغم أنه وجد من الناحية التجريبية أن من الصعب تحديد : هل يسبب الانفعال الاستجابة الفسيولوجية أو أن الاستجابة الفسيولوجية هى التى تحدد الانفعال ، الا أن من المؤكد أن حـدوث أحدهما دليل على حدوث الآخر ، وهذه القاعدة هى الاساس الذى تقوم عليه عملية كشف الكذب ، وليس هناك من شك فى أنها قاعدة علمية سليمة .

والآن فلنحاول أن نبحث طبيعـة ردود الفعل الفسيولوجية التى تشير الى وجود انفعال . فلو تحدثنا بطريقة عامة فاننا نستطيع أن نقول : ان الكائنات

البشرية لها جهازان عصبيان ، الاول ويطلق عليه الجهاز العصبى المركزى وهو المسئول عن نقل الدوافع IMPULSES الى الجهاز العضلى العظمى المسئول عن تنفيذ الحركات التلقائية • فضرب الكرة بالقدم مثلا أو القفز فى البحر وغيرهما كلها أعمال تلقائية قام بها هيكلنا العظمى الذى تتحرك العظام فيه بواسطة عضلات تتلقى الاوامر من الطبقة الخارجية للمخ عن طريق الجهاز العصبى المركزى •

وبالرغم من ذلك فان هناك جهازا آخر أكثر استقبالا عن الجهاز العصبى المركزى يطلق عليه اسم الجهاز العصبى الذاتى ، وهو يتعامل أساسا مع نشاطات أو أعمال لا شعورية تعمل على ابقاء أجسامنا فى حالة طيبة • وهكذا فاننا نتنفس وتدق قلوبنا وتتم عملية الهضم ، وتنصب الهرمونات فى أوعيتنا الدموية ، وتنظم كمية الدم التى تمر بأجزاء الجسم المختلفة بدقة استجابة لدرجة الحرارة ، ويتسع انسان العين أو يضيق استجابة للاختلافات فى درجة الضوء ، وكل هذا يحدث دون أى نوع من « التلاؤم » •

ان هذه الاستجابات الذاتية هى التى تتصل اتصالا وثيقا بالانفعال • وبعض التغيرات الذاتية الاساسية المصاحبة للانفعال مألوفة لدى كل شخص ، ولا تتطلب وسائل للكشف عنها • وهذه التغيرات تتضمن : احمرار الوجه ، أو شحوبه ، وتدفق العرق بغزارة ، وازدياد نبض القلب ، وجفاف الفم ، واحساسات مبهمة أخرى •

كما أصبح من السهل اكتشاف تغيرات فسيولوجية دقيقة أخرى فى المعمل : كارتفاع ضغط الدم ، أو زيادة استهلاك الاكسجين ، أو التمدد فى شعب الرئتين ، او الزيادة فى عدد الخلايا الحمراء فى الدم ، أو اختفاء الادرينالين أو زيادة فى سكر الدم وغير ذلك من الاشياء •

ويبدو أن معظم هذه التغيرات هدفها الملاءمة ، فالانفعالات الرئيسية مثل الخوف والغضب هى عادة دليل سابق أو مقدمة لنشاط عنيف ، وهذا النشاط

يتمثل : اما فى قتال ، واما فى هرب ، ذلك لأن كلا من القتـال والهرب يتطلب كمية كبيرة من الدم ، ونتيجة لذلك فان دقات القلب تسرع لسد الاحتياجات المنتظرة ، فتتحرر بعض الطاقة التى اختزنها الجسم فى الدم ، وهذا يجعل الجهاز العضوى أكثر قدرة على تحمل المجهود .

ومن جهـة أخرى فان الانفعال الشـديد غالبا ما يعوق التوافق العقلى والعضلى اللازم لاداء عمل ماهر . ويستطيع معظم الناس أن يستقوا الدليل على ذلك من تجاربهم الشخصية . فالانفعال الشديد يضعف القـدرة على الحوار الماهر ، ونحن لا نستطيع أن نفكر تفكيرا سليما منطقيا حينما نحس الضيق ، واذا اشتركنا فى مباراة لكرة القدم ، فان الانفعال الشديد قد يجلعنا أكثر دفعا فى اللعب ، وأقل احساسا بالاصابات ، وأقل خضوعا للارهاق البدنى ، الا أنه من جهة أخرى سوف يجعلنا أقل مهارة وأقل لجوءا للعقل أثناء المباراة ، فقد نضرب الكرة بقوة ، ولكن على حساب المهارة والدقة فى تسديد الهدف .

على أن من الوظائف الاجتماعية المفيدة للانفعال هى أنه يساعد على كشف الكذب ، واستخدام تعبير « الكشف عن الكذب » فى هذا المجال هو استخدام مضلل ، وانما ما نكتشفه حقيقة هـو وجود نوع من الاستجابة الانفعالية ، فخوف المذنب من أن يكتشف مرتبطا باصراره على الكذب يهيىء استجابة انفعالية لا تحدث فى حالة قول الصـدق . ونتيجة لذلك تحولت عمليـة « اكتشاف الانفعال » الى عملية « اكتشاف الكذب » فى ظروف معينة أعدت اعدادا خاصا .

ولكن الانتقال الفجائى من اكتشاف الانفعال الى « اكتشاف الكذب » هو انتقال فجائى ، ولذلك يجب أن نحذر ونتأكد أن هـذا الانفعال الفجـائى له ما يبرره كما يجب أن نبتعد عن الاستنتاجات الخاطئة .

ولنضرب مثالا لتوضيح بعض المتاعب التى تنتج من ذلك . ولنفرض أنه فى حالة محاولة الساحر لاكتشاف المجرم كان الاشخاص الخمسة أبرياء ولكن أحدهم كان يعرف أن الساحر كان يكن له حقدا قديما ، وأنه سوف يدينه فى

جريمة القتل • ففي ظل هذه الظروف نتوقع من هذا الشخص أن تظهر عليه علامات الخوف كما لو كان مذنبا حقيقيا ، ونتيجة لذلك الخوف فانه قد لا يقدر على ابتلاع الارز ، وقد يفسر سلوكه هـذا تفسيرا خاطئا على أنه القاتل وعلى أن عدم قدرته على ابتـلاع الارز كانت نتيجة خوفه ، وخوفه نتيجة لجرمه • ولكن هناك طرقا مختلفة تفيد فى تجنب مواطن الخطأ والزلل من هذا النوع والتى سوف نناقشها فيما بعد •

* * *

ولنعد الآن الى الجهاز الذى يستخدم فى الوقت الحاضر لاكتشاف الكذب • ان الفكرة السائدة عن جهاز اكتشاف الكذب هو أنه جهاز يدق جرسا أو يضىء ضوءا لامعا كلما فاه الانســان الموضــوع تحت التجربة بأية أكذوبة ، ولكن لسوء الحظ ليس هناك جهاز بهذه الصورة الدقيقة ، فاكتشاف الكذب يعتمد على الاستنباط والبرهان العارض وعلى نسج مجموعة من الحقائق المفككة •

ويحصل الجهاز على معظم المعلومات التى يعتمد عليها من تسجيل مستمر للتغيرات فى ضغط الدم والنبض والعرق • وتتم هذه التسجيلات على آلة تسمى « بوليجراف » •

وهى تقدم تسجيلا لهذه الاستجابات الفسيولوجية • وتتكون هذه الآلة من ملف طويل من الورق مشدود على سطح يتحرك بسرعة موحدة ، وعليهـا يقوم عدد من أقلام التسجيل يتحكم فى حركاتها آلات مختلفة متصلة بالشخص الذى يجرى عليه التجربة ، وهذه الآلات متصلة بأقلام التسجيل اما بالطريقة الألكترونية ، واما بالآلية •

وعند اجراء حالة بحث حقيقية ، سوف تكون أول مهمة أمامنا هى اختيار غرفة خاصة هادئة للفحص ، ثم توصل الاجزاء المختلفة للجهاز بالشخص الذى تجرى عليه التجربة ويعطى فكرة عن الطبيعة العامة للاختبار •

أما الخطوة التالية فهى أن نجعل الشخص يلقى نظرة على الجهاز ، ويقال له : ان هـذا الجهاز قادر على أن يحـدد ما اذا كان شـخص معين يقول الكذب

أو الصدق • ثم يشرح له أن آلة التسجيل تسجل تغيرات بدنية معينة تستطيع أن تكشف الكذب • على أنه من جهة أخرى يجب تهدئة باله بأن يقال له : أنه لن يحس آلاما جسمانية فيما عدا المضايقة اليسيرة المؤقتة الناجمة عن جهاز قياس الضغط ، وبأن الجهاز سوف يبين بأنه يقول الصدق اذا كان صادقا حقا ، ولذلك فليس هنـاك ما يدعوه الى القلق • وبالاضـافة لذلك يجب أن يطمئن الشخص من أنه لن توجه اليه أسئلة عن مسائل شخصية أو شيء آخر بخلاف الجرم المتهم به • وبعد ذلك يكون كل شيء معدا لاجراء الاختبار • وفى الجزء الاول من الاختبار تجرى محاولات للاشارة الى نجاح الجهاز فى الاختبارات السابقة، ويحاول القائم بالتجربة أن يثبت ذلك بقيامه بتوضيح العملية وشرحها • وفيما يلى الطريقة التى تتبع عادة فى هذا المجال :

يبدأ القائم بالتجربة بالتقاط سـبع ورقات من أوراق اللعب أو ثمان ، ويطلب من الشخص الذى تجرى عليـه التجربة أن يختار ورقة وينظر اليها ويعيدها الى الكوتشينة ، ثم يقول للشخص الذى تجرى عليه التجربة : انه سوف يريه أوراق الكوتشينة الثمانية الواحدة بعد الاخرى ، وأنه يريد منه أن يقول « لا » كلما سأله « هل هذه الورقة التى اخترتها ؟ » ويطلب منه بوجه خاص أن يقول « لا » أيضا عندما يعرض عليه الورقة التى اختارها فعلا ومعنى هذا أنه يطلب منه أن يكذب •

ثم يبدأ فى اجراء التجربة ويريه أوراق الكوتشينة ويطلب منه الاجابة على سؤاله كل مرة ، وفى أثناء ذلك يراقب بعناية حركات أقلام التسـجيل على « البوليجراف » • وفى ٩٥ حالة من بين كل مائة حالة يظهر رد فعل مبالغ فيه من الجهاز العصبى الذاتى للشخص الذى تحت التجربة ـ ويظهر رد الفعل هـذا واضحا فى التسجيل فى كل مرة يقول فيها « لا » حينما تعرض عليه الورقة التى كان قد رآها واختارها •

وللتأكد يعيد القائم بالتجربة الاختبار مرة أخرى ويخبر الشخص الذى تجرى عليه التجربة بالورقة التى كان قد اختارها ، ويبين له التغيرات التى

وقعت فى البوليجراف عندما رد على سؤاله بالكذب • وبهذه الطريقة يثبت القائم بالتجربة للشخص الذى تجرى عليه التجربة أن جهاز اكتشاف الكذب من الممكن أن يكون آلة خطرة على أى شخص يحاول الكذب •

وبعد ذلك يكون الشخص الذى تجرى عليه التجربة فى حالة انطباع ملائمة، فيبدأ القائم بالتجربة بتوجيه أسئلة له لها صلة بالجريمة التى يستجوبه عنها •

* * *

وفى أثناء الاستجواب قد تستخدم وسيلة أو وسيلتان مختلفتان • الوسيلة الاولى هى التى يطلق عليهـا « تكنيك » الاسـئلة ذات الصلة وعديمة الصلة Relevant - irrelevant question technique

وفى هذه الطريقة ـ توجه أسئلة « ليست لها صلة » بالموقف مثل « هل اسمك كذا ؟ » أو « هل ولدت فى مدينة كذا ؟ » ، بالتبادل مع أسئلة لها صلة بالجريمة مثل « هل سرقت الخاتم المـاسى ؟ » أو « هل أطلقت الرصـاص على فلان ؟ » وهذه الطريقة تشبه الى حد ما الطريقـة التى استخدمت فى أوراق الكوتشينة ـ حيث لعبت ورقة الكوتشينة التى اختارها الشخص الذى أجريت عليه التجربة ـ دور « السؤال الذى له صلة ؟ ، كما لعبت أوراق الكوتشينة الاخرى دور الاسئلة الاخرى التى لا صلة لها بالموضوع •

أما ما يدل على الكذب فهو الفرق فى رد الفعل الفسيولوجى حينما ننتقل من « الاسئلة التى ليست لها صلة » الى « الاسئلة التى لها صلة » •

ما هى اذن التغييرات الدالة على الخداع ؟ ان العلاقة التى نستطيع الاعتماد عليها أكثر من غيرها هى ظاهرة الكبت اللاشعورى للتنفس ، وارتفاع ضغط الدم فورا بعد أن يرد الشخص الذى تجرى عليه التجربة على السؤال ، وحتى لو ظهر رد فعل واحد من الاثنين السابقين فان ذلك يكون دليلا كافيا للقائم بالتجربة •

وأحيانا يظهر الخداع أو الكذب بانخفاض فى ضغط الدم ، ويظهر ذلك بعد ثوانى قليلة من الرد الكاذب على سؤال المختبر . وأحيانا يكون «التنفس بصعوبة»

الذى يظهر بعد خمس عشرة دقيقة ، أو عشرين من الرد على سؤال له صلة بالموقف ـ دليلا على الكذب • ولكن من جهة أخرى فان التنفس بصعوبة ظاهرة فسيولوجية مصاحبة للشعور بالامان بعد النجاة من موقف خطير ، وقد تظهر هذه الحالة أيضا فى نهاية فترة الاستجواب عندما يقال للشخص الذى تجرى عليه التجربة : أنه لن توجه اليه أسئلة أخرى • ودليل آخر على الخداع هو البطء فى نبضات قلب الشخص الذى تجرى عليه التجربة بعد رده على سؤال مباشر •

* * *

ولابد من اتباع قوانين معينة فى تفسير تلك الاستجابات أو ردود الافعال ـ ومع ذلك فالقانون الاساسى هو أنه لكى تعتبر الاستجابة دليلا على الكذب ، « فان الاستجابة الفسيولوجية لسؤال له صلة بالموقف يجب أن تكون مختلفة عن الاستجابة الفسيولوجية لسؤال لا صلة له بالموقف » •

وبالرغم من براءة عدد من الناس من الجريمة التى يجرى عليها الاستجواب فانهم يعانون من توبيخ الضمير عموما ، وهذا قد يجعلهم فى حالة عصبية شديدة ، ويجعلهم مستجيبين انفعاليا بشكل مبالغ فيه • ومثل هؤلاء الناس يظهرون استجابة فسيولوجية كبيرة حتى بعد توجيه أسئلة اليهم لا صلة لها بالموقف ، ولذلك فاننا قد نعتبرهم كاذبين اذا لم نأخذ فى الاعتبار هذه الحقيقة •

وهناك ضمانة أخرى يجب أن نراعيها وهى انه يجب الا تؤخذ الاستجابة الواحدة كدليل على الكذب ، فالسؤال نفسه أو السؤال المشابه يجب أن يوجه عدة مرات ، فاذا ظل الشخص الذى تجرى عليه التجربة يردد نفس الاجابة أو يستجيب بنفس الطريقة التى تدل على اقترافه الجرم ، فاننا عندئذ نستطيع اعتبار هذه الاستجابة المستمرة دليلا على كذبه • وهذه ضمانة هامة واحتياط ضرورى •

فالعوامل « العارضة » مثل اصابة الشخص بتقلص فجائى ، أو بالعطس ، أو بسماع صوت عال مفاجىء كلها قد تؤدى الى آثار لا تفترق كثيرا عن المظاهر الانفعالية المصاحبة للكذب ، وهذه العوامل التى لها صلة بالموقف لا يمكن استبعادها الا بتكرار العملية كلها عدة مرات •

وفي ظروف معينة نستطيع اللجوء الى صورة أخرى مختلفة من الاستجواب أو توجيه الاسئلة . ولقد أطلق عليها اسم طريقة « ذروة التوتر » Peak of tension او طريقة « المعرفة الآثمة » Guilty hnowledge وتعتمد هذه الطريقة على حقيقة أن الشخص المذنب قد تكون لديه معرفة لا يملكها أى شخص برىء ، فعند توجيه أى سؤال له صلة بهذه « المعرفة » أو يشير الى هذه المعرفة فان هذا السؤال سوف يؤدى الى ردود أفعال انفعالية من جانب الشخص المذنب وهى ردود أفعال لا تظهر فى سلوك الشخص البرىء .

ويعطى الدكتور « ايسنك » Eysenck أستاذ علم النفس فى جامعة لندن مثالا لذلك يوضح هذه الظاهرة(١) :

فى أحد المستشفيات كانت تجمع مفارش الاسرة مرة كل اسبوع وتوضع فى سلات الغسيل فى كل طابق من طوابق المستشفى . واكتشفت ادارة المستشفى ذات يوم أن المفارش فى احدى السلات كانت ممزقة ، وتكرر تمزيق الملاءات لمدة عدة أسابيع ، ولما كان عسيرا على المرضى أن يصلوا الى مكانها تركزت التهمة على الممرضات اللاتى يعملن فى هذا الطابق بالذات . وروعى الا يتسرب نبأ هذا للممرضات ، ولذلك لم يكن يعلم بهذا الحادث سوى الممرضة التى ارتكبت هذا الجرم . وكان هذا الموقف تمهيدا لاجراء التجربة ، وأبلغ رؤساء القسم الممرضات أنهن سوف يشتركن فى تجربة سيكولوجية حيث تقرأ عليهن كلمات . وأن عليهن أن يذكرن أول شىء يخطر ببالهن عند سماع كل كلمة . ومن بين المائة كلمة التى استخدمت فى التجربة كانت هناك كلمات قليلة لها صلة بالجريمة . مثل « مفرش سرير » ، تمزيق » ، سلة الغسيل » . وبعد اجراء التجربة وتسجيل الكلمات التى نطقت بها الممرضات ، وقورنت الكلمات « المذنبة » بالكلمات « البريئة » لكل من الممرضات ، أظهرت ممرضة واحدة فقط زيادة ملحوظة جدا فى النشاط الذاتى أو الاستجابة الذاتية

---

(١) Sense and Nonsense in Psychology: H. J. Eysenck, Richard Clay and Company, Ltd. Bungay. Suffolk, 1958.

للكلمات « المذنبة » ، وفى حالتها ظهر رد الفعل هذا لكل كلمة من الكلمات المذنبة • وعندما واجهوا المرضة بالتسجيل اعترفت بالجرم ، وكشفت عن دوافعها التى دفعتها لارتكاب تلك الجريمة • وكان الدافع الاساسى لها هو رغبتها فى الانتقام من رئيستها التى كانت تعاملها معاملة سيئة •

* * *

وقد يبدو لنا أن نتساءل الآن :

الى أى حد يعتبر جهاز الكشف عن الكذب صالحا ؟ والى أى حد نستطيع الاعتماد عليه ؟

يجيب ايسنك عن ذلك بقوله :

« هذه أسئلة صعبة ، وقبل الرد عليها يجب أن نضع فى اعتبارنا عوامل معينة • ان احدى الصعوبات الرئيسية فى اختبارات من هذا النوع هى الحالة العصبية التى تظهر على شخص برىء أو شخص صادق فى جو الاستجواب البوليسى • وتظهر هذه الحالة العصبية على التسجيل ، فيبينها الشكل الشاذ للخطوط التى ترسمها أقلام الجهاز ، وكذا عدم النجاح فى الربط بين الاستجابات وبين الاسئلة التى لها صلة بالموقف • ولذلك « فان الاضطرابات الفسيولوجية المرتبطة بالحالة العصبية تظهر على مسجل اكتشاف الكذب بدون أى صلة دائمة بأى سؤال أو أسئلة معينة • وقد يحدث أحيانا اضطرابات مماثلة أثناء فترات الراحة عندما لا توجه أسئلة على الاطلاق • والطريقة المثلى لمنع وجود هذه الحالة العصبية فى الشخص الذى تجرى عليه التجربة هى عن طريق التأكد والتكرار • وتكرار التجربة كلها خمس مرات أو حتى عشر مرات هو بمثابة مهدىء ، لان الشخص الذى يخشى فى الاصل كل هذه الاشياء يصبح معتادا بعد التكرار هذا الاجراء ، ويدرك أنه ليس فى التجربة ما يبعث على خوفه ، كما أن التكرار من حين لآخر يمكن المختبر من البحث عن عنصر الاستمرار فى الاستجابات المبالغ فيها لنفس السؤال أو لاسئلة تعتبر لها صلة بالموقف • على أنه من جهة أخرى نجد أن تشخيص الحالة العصبية أمر أسهل نسبيا، فالامر لا يتطلب عادة فحص مسجل جهاز اكتشاف الكذب لمعرفة ما اذا كان الشخص عصبيا جدا أم لا • والحالة العصبية لا تشكل صعوبة كبيرة فهناك عوامل أخرى يصعب التعامل معها ،

« فالتخلف العقلى » مثلا Mental deficiency يجعل الشخص المجرب عليه لا فائدة منه تقريبا عند اجراء اختبار الكشف عن الكذب ، فالابله أو الغبى بدرجة كبيرة لا يستطيع التمييز بين الصدق والكذب ، ولا يستطيع فهم الواجبات الاجتماعية المرتبطة بقول الصدق • كما أن الفرد الذى لا يخشى مغبة اكتشاف كذبه سوف لا يعطى نتائج مفيدة يمكن تفسيرها بأية صورة • وينطبق هذا أيضا على الاطفال الذين لا يصلحون لان يكونوا موضعا لاجراء اختبارات الكشف عن الكذب •

وتظهر صعوبات ومتاعب أكبر من ذلك من أشخاص معينين لا يستجيبون نسبيا لظروف الاختبار ، فالشخص الذى لا يؤمن بفاعلية الاختبار • والذى لا يحس قلقا كبيرا من أن يكشف عن نفسه لا يظهر انفعالا كبيرا عندما يقول الكذب • ولذلك فان تسجيلات ردود أفعاله على مسجل جهاز « البوليجراف » ، هى تسجيلات يصعب تفسيرها • وبعض الاشخاص يظهرون افتقارا كاملا للانفعال ، ومثل هؤلاء الناس قد نحكم ببراءتهم مع أنهم قد يكونون مذنبين • وهناك بعض الاشخاص الذين يستطيعون التحكم فى ارتباطاتهم العقلية بدرجة تجعلهم يتحاشون ردود الافعال التى تكشف عنهم • ولكن لحسن الحظ وجد أن الناس من هذا النوع الذين يملكون القدرة على « هزم » جهاز الكشف عن الكذب ، هم أناس قليلون جدا ، وهم أولئك الذين يطلق عليهم اصطلاح « المجرمين المحترفين » •

وهناك أشخاص آخرون لهم المام بالأسس السيكولوجية التى يقوم عليها جهاز الكشف عن الكذب ، وهؤلاء يستطيعون اللجوء الى حيل مختلفة تقلل من قيمة أجهزة الكشف عن الكذب ، فكما سبق أن أشرنا فان الكشف عن الكذب يعتمد اعتمادا كبيرا على اجراء مقارنة بين المواقف أو الاسئلة التى لها صلة بالموضوع ، وبين المواقف أو الاسئلة التى لا صلة لها به • فاذا كان الشخص موضوع التجربة قادرا على أظهار ردود أفعال أو استجابات فسيولوجية للأسئلة والمواقف التى لا صلة لها بالموضوع فان المقارنة لن تكون مجدية ، ولن يستطيع المسجل أن يكشف عن معلومات هامة •

* * *

ولننتقل الآن لنحاول أن نقيم الفـائدة العملية لاختبـارات الكشف عن الكذب • وقد يكون من المفيد هنا أن نشير الى آراء « اينبو » Inbau (١) الذى يستند تقـديره على خبرة ١٢ عاما فى « المعمل العلمى للكشف عن الجرائم » فى شيكاغو حيث يقول :

« ان لاختبارات الكشف عن الحقيقة فائدتها العملية اذا ما كان المشرفون عليها أشخاصا أكفاء لهم خبراتهم وتجاربهم • فبالاستعانة بجهاز الكشف عن الكذب يمكن كشف الخداع بدرجة من الدقة أكثر من أى شىء آخر ، كما أن الجهاز والاختبارات والاجراءات المصاحبة له ، كلها لها أثرها الفسيولوجى المحدد فى حث الافراد المذنبين على الاعتراف » •

وتقدير أينبو لدقة وسائل الكشف عن الحقيقة هو أكثر التقديرات اقناعا ، ويقول أينبو :

« ان الباحث يستطيع أن يقوم بتشخيص دقيق محدد للكذب أو الخداع فى ٧٠ حالة من كل ١٠٠ حالة ، وفى ٢٠ حالة تكون التسجيلات غير محددة جدا فى دلالاتها لدرجة لا تسمح للباحث الكفء أن يقوم بتشخيص محدد • والشـك فى هـذه الحـالات قد ينسب : أما الى عامل عدم الثبات والاسـتقرار وطبيعـة الاستجابات السريعة فى التسجيل ، واما الى عدم الاستجابة العامة للشخص الذى يجرى عليه الاختبار • أما فى الحالات العشر الباقية فان أكثر البـاحثين مرانا وتجربة معرض للقيام بتشخيصات خاطئة ، ومصدر الخطأ الرئيسى فى مثل هذه الحالات يكمن فى عدم توفيق المختبر فى الكشف عن الخداع فى شخص مذنب ، اكثر من تفسيره الخاطىء ليسجل ردود أفعال الشخص البرىء » •

ويقول ايسنك : « ان تقدير اينبو معقول ، ويجب أن نقول : أن بعض الخبراء أعلنوا ان نسبة دقة الاختبارات بالطرق التى اتبعوها تتراوح بين ٩٧٪ ، ٩٨٪ أو ٩٩٪ وفى حالة من الحالات وصلت الى ١٠٠٪ وهذه التقديرات مبالغ فيها ، وقد

---

(١) Inbau, F. E. and Reid, J. E., Lie Detection and Criminal Interrogation Third Edition, Baltimor, The Williams and Wilkins Co., 1953.

عول الناس عليها الكثير ، ولكن آمالهم خابت حينما أجريت التجارب لتحقيق تلك النتائج • وكان الاحساس بخيبة الامل سببا فى اضعاف ثقة النـــاس فى طرق الكشف عن الكذب وهـذا ما يحسه بعض أعضـــاء قوة البوليس • ومع ذلك ، فاننا لا نستطيع أن نحول أجهزة الكشف عن الكذب الى أداة عديمة الجدوى » •

* * *

ان أول فائدة لطريقة الكشف عن الكذب هى أنها تساعد فى الحصول على اعتراف فى الحالات التى لم توفق فيها الطرق الاخرى ، وكذا فى الحالات التى تتطلب قدرا كبيرا من العمل • فمواجهة المجرم بدليل موضـــوعى عن كذبه مكتوبا على المسجل فى جهاز « البوليجراف » تجربة مقلقة لمعظم المجرمين ، وقد دلت التجربة على أن عددا من المجرمين أدلوا باعترافاتهم فى حالات كثيرة • وهنـــاك حالات أخرى عديدة اعترف فيها المجرمون لمجرد استماعهم بأن اختبار الكشف عن الكذب سوف يجرى عليهم • وفى حالات أخرى اعترف المجرمون بجرمهم أثنـــاء فترة انتظار اجراء تجربة كشف الكذب عليهم ، واعترف آخرون فى اللحظة التى أتم فيها خبراء جهاز الكشف عن الكذب اعداد الجهاز •

والاعترافات التى يحصـــل عليهـــا لابد من أن تراجع أو تقـــارن بدليل موضوعى ، والاعتراف وحده سواء حصلنا عليـــه باستخدام جهاز الكشف عن الكذب أو بدونه ، وهو اعتراف لن تعتبره المحاكم كافيا فى حد ذاته ، ومع ذلك فالاعتراف يتضمن عادة تفصيلات تجعل من الممكن الحصول على تصديق موضوعى لادعاءات الشخص المذنب • ولقد ثبت من التجارب أنه لم يحدث فى حالة حتى الآن أن أدلى شـــــخص باعترافات زائفـــة بسبب الاثر الفســـيولوجى للجهـــاز أو التكنيكات التى استخدمت فى تشغيله . وفى هذا الصدد هناك فرق كبير بين طرق الكشف عن الكذب ، وبين استخدام طريقة « الدرجة الثالثة » Third degree وهى الطريقة التى أرغمت المتهمين على الاعتراف بجرائم لم يرتكبونها لا لسبب الا لانهم أرادوا الهرب من موقف لا يطاق ولا يحتمل •

وقدرة أجهزة الكشف عن الكذب على حث الاشخاص المذنبين على الاعتراف هى بالنسبة لعدد كبير من الناس ذات فائدة عملية • وبالرغم من تعرضه للخطأ فى نسبة صغيرة من الحالات ، لا نستطيع أن نغفل الدور الذى تقوم به أجهزة الكشف عن الكذب حتى فى الحالات التى لا نحصل فيها على الاعترافات ، فان وجود دليل للحقيقة ولو كانت درجة الاعتماد عليه ٩٠٪ أفضل على أى حال من عدم وجود هذا الدليل على الاطلاق • وفى حالات عديدة ، تمكن سجلات اختبار الكشف عن الحقيقة رجال البوليس من التخلى عن اجراء طويل من التحريات بسبب البراءة الواضحة للشخص الذى تحوم حوله الشبهات • وفى حالات اخرى تبين أن الاشتباه فى جرمه علاوة على ما سجله اختبار الكشف عن الكذب سوف يمكنان البوليس من تركيز الجهود على الاشخاص الذين تحوم حولهم أكبر الشبهات • وفى حالات عديدة ، تساعد بعض تفصيلات الاختبار على الايحاء للبوليس بادلة معينة مثل أسماء أشخاص من المحتمل أن يكون لهم ضلع فى الجريمة ، أو الأماكن التى قد يكون المجرمون قد أخفوا فيها المسروقات • على أنه يجب أن ندرك أن الادانة لا تقوم أساسا وبطريقة مباشرة على تسجيلات جهاز الكشف عن الكذب ، فهذه التسجيلات عامل مساعد فقط يؤخذ فى الاعتبار للوصول الى قرار أو حكم ، ونحن لا نستطيع أن نعتمد على عامل واحد اعتمادا تاما ، ولكن اجتماع هذا العامل بعوامل أخرى تشير الى ذنب الشخص الذى تحوم حوله الشبهات أو براءته •

والذين ينتقدون طرق الكشف عن الكذب لانها طرق لا نستطيع الاعتماد عليها اعتمادا كاملا ، هم أناس تغافلوا حقيقة هامة وهى أن كل الطرق الاخرى التى تستخدم فى الوقت الحاضر للكشف عن الصدق أو الكذب هى طرق معرضة للخطأ أيضا ، بل أكثر تعرضا للخطأ من طريقة الكشف عن الكذب • فالسؤال اذن الذى يجب أن نسأله لا يكون « هل الطريقة الجديدة التى نلجأ اليها هى طريقة دقيقة تماما ؟ » • ولكن السؤال الذى يجب أن نوجهه هو « هل الطريقة الجديدة أكثر دقة من الطرق التى سوف تحل الطريقة الجديدة مكانها ، وهل تعمل الطريقة الجديدة على تحسين درجة النجاح التى نحصل عليها فى الوقت الحاضر؟» فاذا اتبعنا هذا الاسلوب فى التساؤل وجدنا أن طريقة الكشف عن الكذب هى أفضل الطرق •

ونستطيع أن نضيف اعتبارا آخرا للاعتبارات السابقة التى ترجح استخدام أجهزة الكشف عن الكذب • فالطريقة الممكنة الوحيدة التى نستطيع بها أن نطور الطرق غير الكاملة هى طريقــة التجريب والاستعمال • فقولنـا بأنه لا يجب استخدام أجهزة الكشف عن الكذب لانها طرق لا يعتمد عليها اعتمادا كاملا ، يعنى تماما أن الطريق الوحيد المؤدى الى تحسين طريقة الكشف عن الكذب هو طريق مسدود ومن الممكن ـ لحد معين ـ أن نجرى التجارب فى المعمل السيكولوجى ، ولكن لكى يتطور تكنيك معين تطويرا عمليا مثل طريقة الكشف عن الكذب ، فان استخدام هذه الطريقة استخداما فعليا فى ممارساتنا أمر لا غنى عنه •

* * *

على أنه من جهة أخرى ، فان تكنيكات الكشف عن الكذب المستخدمة الآن تقوم على نمط أو مقياس واحد بدرجة كافية وذلك فيما يتعلق بالاجهزة وبطريقة اجراء الاختبار ، وتفسير أو قراءة التسجيلات ، وتدريب المختبرين الاكفاء ، وفى مثل هذه الظروف قد يقوم أشخاص يفتقرون الى الكفاية والنزاهة بتقديم أنفسهم على أنهم « خبراء فى طريقة الكشف عن الكذب » وبذلك قد يسمح لهم بأن يدلوا بشهادات كاذبة أو غير دقيقة •

وغالبا ما يحاول محامو الدفاع الدفع بأن استخدام أجهزة الكشف عن الكذب هو عبارة عن ممارسة « الدرجة الثالثة » وهذا الجدل لم يلق قبولا لدى أكثر المراقبين كفاية أو السلطات القانونية ، فالالم الجسمانى الوحيد الذى ينشأ عن استخدام جهاز الكشف عن الكذب هو ألم طفيف مؤقت ناشىء عن جهاز ضغط الدم ، ثم ان اجراء الاختبار ليس من النوع الذى يشجع أو يجبر الشخص على الاعتراف للهرب من موقف لا يطاق أو لا يحتمل • وجدير بنا أن نذكر فى هذا المجال أن هناك حالات عديدة لم يعترف فيها المتهم تحت ضغط طريقة « الدرجة الثالثة » ، ولكنه اعترف بجريمته فى النهاية بعد جلسة قصيرة مع خبير جهاز الكشف عن الكذب • فاستخدام طريقة « الدرجة الثالثة » يدل على الوحشية والتجرد من الانسانية ، وهى طريقة تفتقر الى الكفاية والفاعلية • ولذلك فان

استبدال هذه الطريقة الوحشية فى استجواب البوليس للمجرمين بطريقة « اختبارات الكشف عن الكذب » من شأنه أن يرفع من مستوى كفاءة الكشف عن الجرائم ٠

* * *

أما مسألة اللجوء الى حيل للحصول على اعترافات من المجرمين فهى مسألة تثير مشكلة قانونية شائكة ٠ وليس من المؤكد تماما أن قولنا « يمكنك أن تكذب علينا ، ولا يمكنك أن تكذب على جهاز الكشف عن الكذب » هو مجرد حيلة ، لأن هذه الجملة صحيحة فى جوهرها ٠ وبطبيعة الحال ، فانه من الممكن أن يعتبر هذا مراوغة لان الجملة تصير حقيقة لانها قيلت ، ولان المتهم قد صدقها ، وبالرغم من ذلك فان عددا من الناس وخاصة هؤلاء الذين يقدرون النواحى الانسانية ويتمسكون بالمبادىء الدينية والخلقية قد اعترضوا على استخدام أجهزة الكشف عن الكذب لان استخدام الجهاز يجعل الكفة غير متعادلة للمتهم ، وان طريقة الكشف عن الكذب ان لم تكن تلجأ الى الحيلة ، فانها تلجأ الى طريقة قريبة جدا من الحيلة ٠ ومحاولة التأكد من أن المتهم يلقى حماية كاملة من المجتمع، ومن أن الظلم لن يقع عليه لانه لا يستطيع الوقوف بمفرده أمام القوى التى تمثل القانون تعتبر جانبا من أهم جوانب الحياة الديمقراطية ٠ ومع ذلك ، فاذا كان من حق المتهم أن يحظى بالحماية من المجتمع وخاصة فى صورته الحديثة ، فان من حق المجتمع أن يحظى بالحماية من المجرم ، ولذلك فانه يجب ألا يقتصر عطف الفرد على المجرم بل على ضحيته الفعلية أو المرتقبة ٠

وعموما فان اختبار جهاز الكشف عن الكذب أسلوب محايد شرعا فى حد ذاته ، وكفايته فى الوقت الحاضر معروفة بدرجة كبيرة وقيمته فى الوصول الى اعترافات صحيحة هى قيمة لاشك فيها ٠ وجهاز الكشف عن الكذب لا يشترك بأية صورة مع وسائل « الدرجة الثالثة » ، فهو لا يتسبب فى الالم للمتهم ، واذا لم يوفق فان عدم توفيقه لا يؤدى الى ادانة الشخص البرىء بل يقتصر على عدم

النجاح فى الكشف عن الشخص الذى كذب ، كما أن جهاز الكشف عن الكذب يعتبر درعا للشخص البرىء ٠

على أننا قبل أن ننتهى من هذا الفصل نود أن نشير هنا الى استخدام العقاقير فى هذا المجال ، والتى سبق أن تحدثنا عنها بالتفصيل فى الفصل الاول من الباب الثالث ٠

كما نود أن نذكر القارىء بأن هذه العقاقير تشبه الى حد كبير المشروبات الكحولية فى أنها تخفض من نشاط المراكز العليا للمخ ، وبذلك تحرر مراكزه السفلى مؤقتا من الرقابة ٠ وفى هذه اللحظات التى يخدر فيها « الرقيب » الذى يكون متيقظا دائما ، يزلف اللسان بكلمات ما كانت تصدر لو أن الرقيب كان متيقظا ٠

فاذا ما ازداد تناول الكمية ، فان المراكز السفلى تصاب أيضا بالشلل ٠ ويروح الشخص فى سبات عميق ، وبعد وقت قصير تستعيد المراكز العليا وظائفها كرقيب ، وفى تلك اللحظة يزلف اللسان بكلمات قليلة لها قيمة عادية ٠

الباب الثاني

الصراع الأيديولوجي

- الفصل الأول
  الأيديولوجيات ومعركة المعتقد
- الفصل الثاني
  برنامج الإصلاح الأيديولوجي لدى الصينيين
- الفصل الثالث
  توجيه الفكر
- الفصل الرابع
  الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى



الأيديولوجيات ومعركة المعتقد

تلعب الأيديولوجية(١) دورا كبيرا فى معركة المعتقد ، فالخلاف فى المعتقدات الذى لا يمس الأسس الرئيسية لا يعتبر أكثر من خلاف فى الرأى ، ففى أى مجتمع قد يرى بعض الأفراد أنه لا داعى لفرض رسوم جمركية على سلع معينة ، بينما يرى الآخرون عكس ذلك • وقد يعتقد البعض أن أفضل استخدام للمدخرات الفردية هى استثمارها أو ادخارها لوقت الحاجة ، بينما يرى آخرون أن انفاق مدخراتهم على الاستهلاك أفضل وسيلة لتحقيق رفاهيتهم • ولكن من ناحية أخرى هناك كثير من المسائل العامة لا يختلف فيها الناس ، فالزواج مثلا يعتبر أفضل نظام لاقامة الاسرة ، وليس هناك انسان حر يختلف مع غيره فى

---

(١) اختلف الفلاسفة على مر العصور فى تفسير اصطلاح الايديولوجية ، ففى فلسفة القرن التاسع عشر كانت الايديولوجية هى : التأمل النظرى او الفكر المجرد ، وعرف معجم ويبستر الايديولوجية بانها نسق من الافكار بشان الظواهر وخاصة الاجتماعية ، وفى تعريف آخر له يقول : انها علم الأفكار اى دراسة اصل الأفكار المستمدة من الاحساس وحده كما جاء فى مذهب كوندياك Condilac ، اما فى النظرية المادية الديالكتيكية فان الايديولوجية لا تشمل نظرية المعرفة والسياسة فحسب بل تشمل ايضا علم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) والأخلاق والدين ، ومع هذه التفسيرات المتعددة يمكن ان نعرف الايديولوجية بانها نظام او نسق لمعتقدات بعيدة الجذور عن المسائل الأساسية فى الحياة او الشئون البشرية •

ضرورة اجراء انتخابات حرة ، او تحقيق العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص الى غير ذلك من الموضوعات المختلفة التى تؤثر على كيان المجتمع .

فاذا ما وصل الخلاف فى الرأى بين الناس الى درجة حادة شاملة ، وأصبحت جماعات المجتمع لا تستطيع أن تتفق على شيء ما فى الميدان السياسى أو الدينى . كان معنى هذا ان الخلافات قد تحولت من مجرد رأى الى أعماق الايديولوجية . وهنا يتأثر هيكل التنظيم ودعامته مما قد يؤدى فى أغلب الاحيان الى صراع عقائدى ، وفى كثير من الاحيان قد يؤدى ذلك الى حرب أهلية أو مذهبية .

فالصراع الايديولوجى القديم بين « الاسلام » و « اليهودية » بدأ ببداية الدعوة الى الدين الجديد ، وظهرت صورته عندما ذهب أهل قريش الى اليهود يسألونهم عما اذا كان فى كتبهم ما يشير الى الدعوة التى جاء بها محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويسألونهم رأيهم فى الدين الجديد .

ومع أن اليهود « أهل الكتاب » من أهل التوحيد فقد أكدوا لقريش ان عبادتهم خير من هذا الذى جاء به الرسول الكريم ، فكان بهذا أن ناصروا عبادة الاوثان على الدعوة الى وحدانية الله .

وقد اعترف بهذا الخطأ كثير من الكتاب اليهود المحدثين وأشار اليها اسرائيل ولفسن فى كتابه « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » .

وقد حاول اليهود عندما هاجر النبى الكريم الى المدينة أن يوقعوا بين المهاجرين والانصار ، كما حاولوا أن يضعفوا من وحدة المدينة فى مواجهة قريش وخاصة عندما خرجت « الأحزاب » لقتال المسلمين ، مما أدى الى مسارعة الرسول الى تصفية الاحياء اليهودية فى المدينة باخراج بنى قريظ وبنى النضير ، ثم القضاء على احيائهم فى خيبر وغيرها على الطريق الى الشام(١) .

---

(١) راجع سورة الأحزاب « الآية ٦٠ مدنية » .

وفى الدوافع وراء الحروب الصليبية يحاول دائما مؤرخو الفرنجة أن يصوروا الحروب الصليبية على أنها حملات قدسية ، وانها كلها قامت تلبية للدعوات الدينية التي يوجهها « بابا » روما ويحمل رسالتها قسس متعصبون • كما يحاولون التبرير بأن الهدف الأول انما كان لانقاذ قبر المسيح ومهاد النصرانية من قبضة الاسلام • مع أن الحقيقة أن هذا الهدف لم يكن الا حجة ظاهرة للسيطرة والتأثير على تفكير المؤمنين من البسطاء وعامة الناس • وكان الغرض الصحيح هو حرص الكنيسة على سيادتها الزمنية وعملها على دعم سيادتها باسم الدين بين أمراء النصرانية ، وتحويل هؤلاء الأمراء عن مناهضتها • ثم اغرائهم بالسلطان والثروة فى بلاد المشرق •

وتبدو هذه الصورة فى سرد « فيل هاردوان » Ville - Hardouin لحوادث الحرب الصليبية الرابعة ، وهى الحرب التى دعا اليها البابا أنوصان الثالث ، وحمل رسالتها القس الفرنسى المتعصب فلك ده تيى وخرج فيها أمراء فى مقدمتهم الكونت تيبو أمير شمبانيا ، وأشرف عليها ومولها فيليب أوجست ملك فرنسا ، وان كان لم يشترك فيها • وبدلا من أن تذهب الحملة الى الشام كالحملات الأولى ، أو الى مصر كما فعل لويس التاسع فقد سارت الحملة من فرنسا الى البندقية ، وعقدوا مع البنادقة معاهدة تلتزم فيها البندقية بتقديم السفن والمؤن نظير أموال وعهود معينة ، وفى البندقية رسم طريق الحملة الى بيت المقدس •

ولكن الصليبيين بدلا من السفر الى مصر أو الشام قاتلوا هم وأهل البندقية ضد ملك المجر ، واستولوا لهم على ثغر زارا ، ثم فاوضوا الكسيوس المطالب بعرش القسطنطينية ، ورحلوا بالسفن الى القسطنطينية لاستعادة عرشه — مقابل تعويض مالى كبير للحلفاء — والعمل على رد الكنيسة اليونانية لحظيرة كنيسة روما •

وفى ربيع سنة ١٢٠٣ ميلادية وصل الصليبيون على سفن البنادقة الى مياه البوسفور، وهزموا الامبراطور الكسيوس الكبير وأجلسوا حليفهم الكسيوس

الصغير على العرش ، فلما لم يف بعهوده تركوه للثوار والخوارج فخلعوه من عرشه وقتلوه وأجلسوا مرزوفليس أحد الخوارج على عرش القياصرة . فوثب الصليبيون على الامبراطور الجديد وخلعوه واستولوا على القسطنطينية وعلى قصورها وقلاعها فى ابريل سنة ١٢٠٤ ، ونادوا بأحد أمرائهم بلدوين كونت فلاندر امبراطورا على عرش القياصرة ، ونشطوا لاخضاع كل مقاومة ، والى توطيد عرشه الجديد ، وتوزيع أسلابه فيما بينهم ، وبذلك اختفت الفكرة الصليبية نهائيا .

* * *

وفى الامبراطورية الاسبانية لعبت محاكم التفتيش كمظهر من مظاهر « معركة المعتقد » دورا مهما فى تحويل الناس الى المسيحية الكاثوليكية وخدمة التاج .

والواقع أنه قد يكون من الضرورى قبل أن نعرض لمحاكم التفتيش التى عرفت باسم « لجان التحقيق الاسبانية » The Spanish Inquistion أن نتعرف الدوافع التى دعت اليها(١) .

فلقد كانت الكنيسة الاسبانية قوية موفورة الثروة بسبب تدين الاسبان الى حد بعيد ، ولأنه كان من المحال أن يحصل أى أجنبى عن البلاد على أية وظيفة من الوظائف الخاضعة للملك . على أنه فى حكم هنرى الرابع ١٤٥٤ ــ ١٤٧٥ م حصل اليهود على قوة ونفوذ ، وكانوا أحيانا يستطيعون بحكم سيطرتهم على المال ونتيجة لتوليهم الأقراض أن يرغموا الناس على أن يتركوا دينهم المسيحى ويرتدوا عنه ، بل أن « المارانو » Marranos وهم يهود متنصرون كانوا يقيمون شعائر اليهودية خفية ، وفى نفس الوقت فان « المرازقة » Mariscos وهم مراكشيون تحولوا للمسيحية ، فازدادت قوتهم ، وأخذوا فى احياء شعائرهم القديمة .

---

(١) دائرة المعارف البريطانية مادة The Spanish Inquistion مجلد ١٢ ص ٣٨١ ط . سنة ١٩٦١

واستشار الملوك الكاثوليك البابا سيكستس Sixtis الرابع الذى أصدر فى أول نوفمبر سنة ١٤٧٨ أمرا بابويا يعطى الملك اختيار اثنين أو ثلاثة من المحققين المعروفين بالفضيلة والعلم لتولى الامر مع اعطائهم سلطة قضائية ٠

وقد نفذت هذه المشورة البابوية بالأمر الملكى الذى صدر فى مدينة ديلا كامبو Madina Del Campo فى ١٧ من سبتمبر سنة ١٤٨٢ بانشاء الادارة المقدسة فى القسطل ٠

والواقع أن من الصعب المبالغة فى استخدام محاكم التحقيق لتقوية الملكية وتوحيد شبه الجزيرة الاسبانية ، كما أن من المبالغة العودة بمغبة الأمر على البابا ، فان موافقة البابا كانت شكلية ٠ وكانت الهيئة العليا التى تسيطر على هذا التحقيق مجلسا ملكيا ، وكان المحققون على اختلاف درجاتهم مأجورين للحكومة يعينون ويطردون من عملهم بأمر الحكومة ٠

كانت محاكم التحقيق نوعا من الحرب النفسية الداخلية ، وأصبح كل فرد يخشاها ، فلم تهتم سلطات التحقيق بأى امتيازات للنبلاء ولا بالحريات ما دامت هذه الحريات تضايق التاج ، والواقع أن التاج استخدم هذه المحاكم لنظر القضايا التى يصعب أن تتولاها المحاكم العادية ٠

وفيما عدا الفترة من ١٥٠٧ الى ١٥١٧ م كان هناك : محقق واحد ، ومحقق عام للبلاد كلها ، وفى ضوء قيام محكمة التحقيق العليا هذه انتهى عمليا تقسيم البلاد الى « القسطل » و « أرجون » و « فالنسيا » و « قطالونيا » ٠

واذا كنا لا ننكر أن محاكم التحقيق قد ارتكبت الكثير من القسوة والفظائع فى تاريخها الطويل ، فقد واجه هذه القسوة كثيرون من ذوى العقيدة الراسخة وضحوا بأنفسهم فى سبيل مبادئهم ، كما شرحناه سابقا فى الباب الرابع من هذا الجزء ٠

وجاءت المبالغة فى وصف اعمالها من الدعاية المضادة لأسبانيا فى ذلك العصر، ومن كتابات جوان أنطونيو لوريلتا Juan Antonio Lorenta (١٧٥٦-١٨٢٣) وغيره من كتاب القرن التاسع عشر •

وقد ألغى جوزيف بونابرت هذه المحاكم سنة ١٨٠٨ ولكنها عادت من جديد فى حكم فرديناند السابع سنة ١٨١٤ ، ثم ألغيت واعيدت ثانية من ١٨٢٠ - ١٨٣٣ ، والغتها أخيرا ماريا كريستينا سنة ١٨٣٤ •

* * *

ولم تجعل النظريات الميتافيزيقية كلا من البروتستانت والكاثوليك يحرقون أنصار العقيدة الأخرى على أساس أنهم هرطقيون كفرة ، وقد حدث ذلك فى الحروب الاولى التى قامت بينهم • ففى القرن السابع عشر عرف البروتستانت تماما ماذا كان يحدث لهم لو أصبح للكاثوليك اليد العليا ، وكذلك كان يعلم الكاثوليك حقيقة مصيرهم لو كان البروتستانت قد وصلوا الى السلطة • وفى كل حالة كان الحكام الجدد فى غمرة خوفهم من ضياع السلطة من أيديهم يستخدمون أساليب بعيدة كل البعد عن الانسانية مستهدفين بذلك القضاء على الحكام السابقين عن طريق السجون المظلمة والقوائم التى يشد اليها من يحرقون أحياء ، وما الى ذلك من الوسائل كتدابير وقائية ضد الثورة • وفى هذه الظروف لم يكن مسموحا للأفراد بالحرية خارج نطاق الايديولوجية الغالبة •

وفى الواقع لا يستطيع أى فرد أن يحترم حرية الحديث ، وحرية الممتلكات والأمن الشخصى لشخص لا يحترم حريته وحقوقه • ان الحد الأدنى المطلق لأى أيديولوجية هو التسليم والاعتراف بأن كل فرد يعيش فى منطقة متناسقة ايديولوجيا - هذه التى أطلق عليها الجنرال النازى « كارل هوزهوفر » متبعا « رودلف كجلين » اصطلاح المنطقة الجيوفيزائية - سيحترم حقوق الأفراد الآخرين الذين يعيشون فى المنطقة نفسها ••

* * *

وفى الحرب النفسية الواقية التى قام بها شوجون(١) توكوجاوا بعد سنة ١٦٣٦م مثل رائع يوضح أثر عقيدة الشوجون في تعبئة عقول اليابانيين عنطريق سيطرة قاسية عنيفة لم يحدث مثلها فى أي مكان آخر بالنسبة لشعب متمدين ٠

فقد كان نظام الشوجون يعطى سلطة وقوة لطبقة المحاربين ، وكان لهذا أهمية بسبب النفوذ المعنوى والروحى لهذه الطبقة ٠

ان الاصطلاح بوشى Bushi أى « المحارب » كان معروفا فى اليابان منذ زمن بعيد ، الا أنه استحدثت كلمة جديدة فى هذا العصر هى Boshido اى « طريق او أسلوب المحارب » وقد استحدثت للتعريف بقانون يماثل قانون الفروسية فى الغرب ٠

ومع أنه لم يكن هناك أى وحى أو الهام وراء طابع المحارب اليابانى بالرغم من أنه يؤدى الصلاة قبل المعركة استجداء للنصر ثم بعدها لشكر الآلهة ، فان عقيدة الشوجون أوجدت عوامل نفسية مانعة قويه من الولاء والنظام مع الشجاعة والجرأة والاقبال على التضحية بالنفس والفداء فى المعركة مع عدم الترفق بالضعفاء ، وفى هذا العصر تطور الاعتقاد المبهم الغامض فى السيف كسلاح ، وكانت الصلوات تقام للتطهير قبل صنع السيوف ٠

---

(١) تعنى كلمة « شوجون » الجنرال ، وكان الامبراطور يمنح هذا اللقب لفرد أو لأسرة عندما تلشا الحال التى توجب اعطاء هذا الفرد او هذه الأسرة قيادة مطلقة لكبح جماح المتبربرين ، وقد منح الامبراطور اللقب اول مرة لأسرة اشيكاجا Ashikaga عام ١٣٣٨ عندما قامت الحرب الاهلية بين اثنين من الاباطرة المتنافسين ، وبقى الشوجون انصارا للامبراطور كوميو امبراطور الشمال ، ومنح الامبراطور اللقب لأسرة توكوجا سنة ١٦٠٣ وبقى هؤلاء يسيطرون على اليابان رسميا حتى سنة ١٨٦٨ عندما الغى نظام اصلاح الحكم هذا التنظيم ، وكان هذا بعد نقل العاصمة الى يدو التى عرفت فيما بعد باسم طوكيو اى العاصمة الشرقية ، ولكن النظام بقى فى الواقع حتى سنة ١٩٤٥ أى الى ان هزمت اليابان فى الحرب العالمية الثانية ٠

وكان من أثر الشوجون في الشعب أن صارت الأسرة النواة التى تدور عليها حياة الفرد ، وصارت هى الوحدة الاقتصادية والاجتماعية ولا تزال كذلك حتى اليوم فى اليابان المعاصرة ٠ وثبت فى عقول الناس : الطاعة ، والصبر ، والتضحية ، وعادة احترام كبار السن وأصحاب السلطة مع الكياسة فى الحديث وفى التصرف ، وكان لهذا كله دوره الكبير على الحياة الاجتماعية للناس(١) ٠

* * *

وفى الدعاية ضد ثورات الفلاحين فى أوروبا الاقطاعية بوصفها أنهـا حركات القتلة القساة صورة أخرى توضح الى مدى كبير العلاقة بين الايديولوجيات التى كانت سائدة ، وأسلوب الحرب النفسية الذى استخدم فى غمار هذا الصراع ٠

فقد صرح ملك انجلترا فى نهاية القرن الثالث عشر بفكرة عقد جمعية عامة تضم كبار الرجال من رعاياه لاستشارتهم والحصول على معاونتهم فى أثناء الأزمات ، وسرعان ما خرجت الفكرة الى الوجود وانتشرت فى كل غرب أوروبا وعرفت هذه الجمعية فى انجلترا باسم Parliament وفى فرنسا Etute وفى المانيا باسم Landtug وفى اسبانيا Cortes وفى دول وسط أوروبا بالاسم اللاتينى Diet ولكن الغرض من هذه الجمعية كان بحث موارد التمويل « الميزانية » أو فرض الضرائب على الرعية مما يمكن الملك من تكوين قوات عسكرية دائمة تخضع له ، ولا سيما فى نهاية القرن الخامس عشر عندما برز طابع الدولة الموحدة التى تخضع لحكم ملك واحد يتولى الامر بحكم الوراثة ، وبمعاونة جيش دائم على أن يكون الملك هو الذى يقرر السلم والحرب ٠

وبدأت فى نهاية القرن الخامس عشر حركة للاصلاح الكنسى ، ثم تحولت هذه الحركة فى القرن السادس عشر الى ثورة ضد البابا مع المطالبة بتغيير كبير فى : النظام الكنسى ، ونظام الرهبنة ، وحقوق الكنيسة ٠

---

(١) Sir Esler Dening, Japan, PP. 35 - 37.

ولكن على الرغم من أن الشعب صاحب كل هذه الحركات فان جمهرة الناس شغلوا بمسائل لا تمس حياتهم فى الأوضاع المدنية ، حتى جاءت ثورة سنة ١٦٩٠ فى انجلترا على أساس المبادىء الأساسية للسياسة الفلسفية التى برزت فى القرن الثامن عشر ، والتى كانت دعامة النظام السياسى للقرن العشرين •

* * *

وفى سنة ١٧٨٩ جاءت أول ثورة شعبية جارفة هى الثورة الفرنسية ، وسرعان ما وجدت لها أصدقاء فى كل ركن من اوروبا • ولهذا فان معاهدة فيينا فى ٢٠ من نوفمبر ١٨١٥ لم تقم لضمان الحقوق الاقليمية فى أوروبا بقـــدر ما استهدفت القضاء على الروح الثورية التى تهدد نظم الحكم القائمة فى أوروبا •

وكان ميترنيخ وزير خارجية النمسا هو الشخصية البارزة وراء هـــذه المعاهدة وقد قال فى سنة ١٨١٧ : أن كلمة « دستور » انما هى دعوة الى الفوضى والاخلال بالنظام ، وأن الهدف الذى يهدف اليه المهيجون من : الكتاب • والمحامين، والمدرسين هو قلب كل شىء يقوم على القانون ، ومن ثم يجب أن يعمل الملوك للمحافظة على بقاء القانون • وقد عرفت مبادىء المحافظة على الوضع القـــائم باسم « نظام ميترنيخ » •

والواقع أن الحوادث كانت تسبق ميترنيخ فقامت فى أوروبا كلهـا عام ١٨١٤ معارضــة « للســلطات المطلقة » المخولة للملوك ، وقد عرفت هـذه الحركات فى البداية باسم « حركة الأحرار » ثم عرفت فيما بعد باسم « الحركات القوميــة » •

وقد بقى ميترنيخ لبعض الوقت يوجه سياسة حكام أوروبا ، واستغل ثورة الطلاب الألمان ، والثورات العسكرية الأربع التى قامت فى أسبانيا سنة ١٨٢٠

ليجمع حكام دول أوروبا كل عام فى أرض النمسا لتقرير أسـلوب مشترك للقضاء على هذه الحركات ، ومن ثم قام نظام بوليسى على جامعات الولايات الالمانية وعلى صحفها بأمر المؤتمر •• بل أن المؤتمر قرر سنة ١٨٢٠ التدخل بواسطة الجيش النمسوى ضد الحركات الشعبية فى مملكة نابولى •

* * *

وفى أثناء هـذا بدات الدعاية ضـد الحركات الشعبية وخاصـة حركات الفلاحين على أنها حركات دموية للمخربين السياسيين الذين يعملون للانتفـاع من الفوضى والاضطراب ، ورمى الثوار بانهم قتلة سفاكون قساة ومن واجب جيوش ملوك أوروبا أن تقضى على هذه الحركات •

ولكن هذا كله لم يقض على الحركات الشعبية التى قامت فى بريطانيا سنة ١٨١٧ ، وفى سويسرا وبلجيكا سنة ١٨٣٠ ، بل فى باريس بعد ذلك بالرغم من أن أغلب هذه الحركات لم تحقق نجاحا •

ولكن سرعان ما تم فى البلاد التى مالت الى القومية والى أزالة الفوارق بين الطبقات نوع من التفاهم • فحدث اتفاق بين النبلاء المجريين ، وبين المحرضـين الشعبيين المتحررين أمثال كوزوت ، وحدث مثل ذلك أيضا فى الولايات الالمانية بعد سنة ١٨٤٠ بمعاونة الاحرار الالمان أنفسهم ، وفى بوهيميا تحت زعامة الأستاذ فولاكى ، وفى كرواتيا تحت رياسة الصحفى جاى(١) •

* * *

ومن الأمثلة السابقة نجد أن الحروب التى دارت استخدمت العقائد كقوة دافعة وراء الحرب • ومن هذه الحروب نستطيع أن ندرس النواحى المسـتحدثة

---

(١) دائرة المعارف البريطانية مادة Europe ٨ : ٨٥٧ ، ٩٥٩ •

فى استغلال الحرب النفسية للعقائد ، ونعرف الى أى مدى يمكن تطبيق هـذه التجارب أو تطويرها فى ضوء العصر الذى نعيش فيه • والبحث هنا يكون فى استغلال نقاط الضعف فى معتقدات العدو بدرجة تسمح بالتأثير عليه بمعتقدات جديدة • وهنا تبرز نقطة هامة هى أنه فى مثل تلك الحـالة يجب أن نتجنب المسائل الرئيسية التى لا يصح الاعتراض عليها من وجهة نظر العدو • فالمسائل والموضوعات التى يبجلها العدو أو يقدرها يجب عدم التعرض لها فى النشرات أو الاذاعات التى توجه اليه • وفى هذه الحروب العقائدية يلعب الخداع والحيلة دورا فعالا للتشكيك فى المعتقدات ، وذلك كمـا جاء فى الصراع بين اليهود والاسلام ، أو بين البروتستانت والكاثوليك ، كما أن للعنف دور فعال فى هذه الحروب العقائدية ، ولكن من وجهة أخرى لا تكفى القوة وحـدها لتغيير عقول الناس • واذا أجبرت شعوب على تغيير عقيدتها تحت ظروف خارجية قاسية لكى تكيف نفسها مع الظروف الجديدة فليس معنى ذلك ألا يرتد الناس ثانيـة الى عقائدهم القديمة اذا ما زالت هذه الظروف كما يحدث بعد عمليات الغزو •

فاذا ما تطلبت عملية تحويل شاملة مباشرة اجراء عمليات حربية قد تكون قاسية أو قد تكون على نطاق واسع ، فان نفس النتيجة يمكن أن تتم بالتسامح مع العقيدة المعترض عليها ، على أن يقترن هذا بالاعلان عن الامتيازات التى تعطى لمتبعى العقيدة الجديدة ، ويترك أفراد الشعب المغزو والمغلوب على أمره يستمتعون بعقائدهم القديمة وأساليب حياتهم المهنية • أما أولئك الذين يسهمون فى الحياة العامة سـواء أكان هذا الاسهام فى النواحى : السياسـية ، أو العقـائدية ، أو الاقتصادية ، فانه يجب أن يكونوا من بين أولئك الذين اتبعوا العقيدة الجديدة ، وفى هذه الحال فان كل الجيل الصاعد فى المجتمع يتجه فى أجيال قليلة نحـو العقيدة الجديدة بفكرة الوصول الى : الثروة ، والقوة ، أو المعرفة ، ولا يـكون ما يبقى من العقيدة القديمة غير خرافة لا حـول لها ولا قوة ، ولا تحظى باجلال واكبار •

* * *

وفى الحرب الأهلية الاسبانية مثل رائع لتأثير الايديولوجيات المختلفة على عقائد الشعب بدرجة أوصلتهم فى النهاية الى فقد الثقة فى بعضهم البعض ، حتى أصبح من الضرورى قيام حرب أهلية استمرت سنوات عديدة قبل أن يشعر أحد الجانبين بالأمن والسلامة ، ومهما كان الشكل الذى اتخذته الدولة بعد انتهاء الحرب ، وبرغم المساعدات المختلفة الخارجية التى كانت ترسلها الفاشية والشيوعية الى كل من المعسكرين ، فان هذا كله تمخض عن وجود حكومة واحدة ، ونظام واحد للسيطرة على الاراضى الاسبانية .

* * *

فاذا ما انتقلنا الى تاريخ أوروبا المعاصر نجد فى النازية مثلا فيما يوضح حقيقة العلاقة بين الحرب النفسية التى شنتها المانيا النازية وأيديولوجية الحزب النازى .

ولنقف لحظة لنتساءل كيف استطاع هتلر بالحزب النازى أن يخوض غمار حرب شاملة متوليا زمام أمة كانت قبل أقل من ربع قرن سابق قد تحطمت فى هزيمة ساحقة ؟ هل كان ذلك مرجعه الى كفاءة القوات المسلحة الالمانية وصناعاتها الثقيلة ، أو مرجعه الى التعبئة : المعنوية ، والعاطفية ، والسيكولوجية التى غرسها هتلر فى الأمة الالمانية ؟

فى الواقع لا نستطيع أن ننكر كفاءة القوات المسلحة الألمانية ولا قدرة الدولة على التعبئة الجيدة الشاملة ، ولكن من جهة أخرى فان التعبئة السيكلوجية التى قام بها الحزب النازى للأمة الالمانية تعتبر حجر الزاوية التى ساعدت المانيا فى صراعها المرير بالداخل والخارج ، بل ما كانت لتستطيع المانيا أن تخوض غمار الحرب : الايديولوجية ، والاقتصادية ، والسياسية فى الفترة من عام ١٩٣٣ـ١٩٣٩

دون رسوخ العقيدة النازية فى الشعب الالمانى • فقد تمكنت هذه الحرب من أن تمنع بعملياتها السرية ضد المجتمع الدولى من تكوين تحالف دولى ضد المانيا ، كما نشرت التفكك والخيانة بين ضحايا الاعتداء الالمانى •

لقد كان هذا المجهود من عمل الحزب النازى الذى أوجده هتلر وسيطر عليه تماما ، ولم يكن من السهل على هتلر أن يحدد أو يحقق طريق العمل ، فبالاضافة الى المشكلات الخارجية التى كانت تواجهه كان عليه أن يوازن بين طبقة الضباط المتحفظين الذين كانوا يرون فى تقاليد الجيش الالمانى خير مثل للجندية ، وبين متطرفى النازية والجيل الصاعد الذى يتطلع للقوة • كما لم يكن تنسيق الارتباط بين الجيش والحزب مسألة هينة ، فان ذلك لم يتم الا بسفك دماء الكثيرين وذلك فى عملية التطهير التى قام بها عام ١٩٣٤ ، ثم بالسيطرة السياسية الكاملة فيما بعد •

وتعتبر سلسلة الانتصارات التى لم تسفك فيها أى دماء منذ بداية احتلال أرض الراين حتى عقد اتفاقية ميونخ هى قمة نجاح هتلر ، بل نستطيع أن نؤكد أن انتصاراته فى ميدانى : الحرب النفسية ، والحرب السياسية لا يمكن مضارعتها•

كانت استراتيجية هتلر الاولى فى غمار هذه الحرب النفسية هى جمع الشعب الالمانى كله فى كتلة واحدة تثير الرعب والفزع فى العالم كله ، وقد تم ذلك جزئيا عن طريق برنامج الحزب النازى الذى عمل لتحطيم : اليهود ، والكنائس ، والجامعات ، واتحادات العمال ، والاشتراكيين ، والشيوعيين ، وغيرهم ممن يشك فى مشاعرهم الدولية واتجاهاتهم الى المسالمة •

لقد تحقق له ذلك بحملة دعائية واسعة ، دعمها بتطبيق النظام الصارم الذى يفرضه الحزب ، وكذا الدعوة الى تفاخر الناس بالطابع الالمانى ، واثارة روح التفاخر فى الأمة كلها •

وليس بغريب أن نجد الحزب النازى يستغل الجذور العميقة فى كيان التاريخ الالمانى من حيث : الطابع العسكرى ، وفكرة وحدة الشعب الالمانى كله ، ومعاداة السامية ومبدأ الجنس السائد ، وتقديس الدولة فيضعها بارزة فى مظاهر برنامج الحزب •

ويقول هتلر فى هذا المجال : « ان بعث الشعب الالمانى لا يتم الا عن طريق استعادته لقواته الخارجية ، ولا يحدث هذا عن طريق الاسلحة كما كان ساستنا البورجوازيون يقولون ، بل أن وسيلته قوة الارادة •

« ان أفضل الأسلحة لا قيمة لها ما دامت تنقصها الرغبة والارادة لاستخدام هذه الأسلحة ولهذا ربما لا تكون مسألة استعادة المانيا لقوتها متوقفة على كيف نستطيع أن نصنع الأسلحة ؟ بل تتوقف أساسا على كيف نستطيع ايجاد الروح التى تعاون الشعب على حمل هذه الأسلحة ؟ (١) » •

وفى تعبئة الشعب الالمانى نفسيا نجد أن هتلر يبعث فى الأمة الالمانيـة الرغبة فى القتال متخذا من الاسطورة التى تقول : ان الجيش الالمانى لم يهزم فى الحرب العالمية الاولى ، بل أن الخيانة فى الجبهة الداخلية هى التى اسـهمت فى نتيجـة الحـرب ، وقد حقق باعطائه هذه الاسـطورة الشـعبية نجاحا لا يمكن تحقيقه بغيرها ، ووصل الأمر الى أن صدق الشعب الالمانى أن القاءهم السـلاح فى نوفمبر ١٩١٨ لم يكن الا رغبة منهم فى تلبيه لوعد ويلسون فى الحصول على سلم عادل ، واعتبر الشعب الالمانى تنصل ويلسون من هذا الوعد أعظم خيانة عرفها التاريخ •

---

(١) Mein Kampf PP. 459 ...... Sand on the Same Theme Ibid P. 624.

بهذه الأسطورة وغيرها أثار هتلر فى قلوب عدد غفير من الالمـــان روح الانتقام ، واحياء النظرية التى كانت تقرر أن المانيا المسالمة طوقت بدول حقود معادية ، كما أوجد روحا اسبارطية وولاء مطلقا للفوهرر الزعيم الذى لا يتوانى عن القيام بكل عمل طيب للسلم العالمى[١] •

وقد استطاع هتلر قبل أن يتولى مركز المستشار للرايخ الثالث أن يخلق الروح العسكرية فى ألمانيا بواسطة قوات الحزب وقوات العاصفة « S. S. » التى تعتبر أعظم جيش خاص فى التاريخ الحديث ، وأصبحت صرخة الحرب شـعار ذو القمصان الرمادية ، وكان واجب الدولة على حد قول هـتلر : « توحيـــد الألمان ، وتجمعهم فى وحـدة واحدة ، وقيادتهم تدريجيـا الى موقف السـيادة على العالم [٢] » •

ولم يعتبر هتلر قط أن القوة هى السلاح المؤثر وحده ، فالقوة والتهديد يجب أن يصحبهما : الكلمات ، والشعارات ، والآراء التى تعتبر من بين الأسلحة الحاسمة ، فقد ثبت ذلك فى الثورة الفرنســية وأوضحهـا « وودرو ولسن » و « البلاشفة » •

لقد كان هتلر أستاذا عبقريا فى استغلال خلافات الآراء بين الحلفاء ، وقد نجح فى مناقشة موضوعات السياسة الاوروبية لا فى الصورة التى يراها هو بها ، بل فى الصورة التى تسبب أقصى خلاف فى الرأى العام الخارجى •

وقد قال روسشنج[٣] : « ان أسلحتنا هى : الارباك العقلى ، وتضـارب المشاعر ، واشاعة الذعر ، واثارة التردد ، وعدم استطاعة خصومنا الخـروج

---

(١) (a) Henri Lichten Berger, The Third Reich, New York 1937 Book V.
(b) S. Hoberts, The House That Hitler Built, New York, 1938, Part IV. Sec 2.

(٢) Mein Kampf PP. 601.

(٣) Hermanin Rauschning, The Voice of Destruction, New York, 1940 P. 9.

بقرار حاسم » ، ولهذا فان التحالف مع اليابان قد أوضح للناس فى العالم خارج المانيا أنه حلف ضد الكومنترن ومن ثم فهو هجوم على الشيوعية ٠

وقد أدرك هتلر أن الخوف من الشيوعية قد قوى بين صفوف المحافظين فى : بريطانيا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة ، اذ رأوا جميعا أن فى هذا الحلف وسيلة لامنهم فى الباسفيك ، وكان المحافظون ينظرون الى هتلر نظرتهم للرجل الذى حل مشكلة العمال لا نظرتهم للرجل الذى جند العمال لصناعة الأسلحة ٠

وباختصار فان استراتيجية الحزب النازى فى السلم والحرب كانت تقوم على الارهاب ، فهو لكى يصل الى القوة فى المانيا كسب معركة الحرب النفسية الداخلية فى المانيا ، ولكى يبقى فى الحكم : عذب ، وسجن ، وذبح أعداءه ، وليشق طريقه فى أوروبا استخدم نفس الوسائل فيما وراء حدود الرايخ ٠

* * *

وقبل أن نختتم هذا الفصل نود أن نشير الى أهم سمات هذا العصر الذى نعيش فيه ، حيث يعانى العالم ما يسمى بالقلق النفسى نتيجة النزاع الأيديولوجى الكبير ٠

صحيح أن العالم قد عرف خلال تاريخه الطويل سلسلة من الحروب والمنافسات ولكن كانت الخطوط المميزة يوم ذاك تختلف تماما عن عصرنا ٠ كانت هناك منافسات أقليمية وحروب « أرستقراطية » وكانت النزاعات محلية ، أما اليوم فان النزاعات عامة والاحداث المحلية تتعلق بالمنافسات العالمية ، وتبدو كل النزاعات وكأنها تتجمع حول نقطة مميزة واحدة هى : « التنافس بين الشرق والغرب أى بين العالم الشرقى وبين العالم الغربى ٠٠ أو بمعنى آخر بين الماركسية والرأسمالية ٠

وفى ضوء هذا يبدو لنا أن التعارض تعارض أيديولوجى تماما ٠٠ فالهدف الأول للماركسيين هو نشر ثورة البروليتاريا فى كل مكان من العالم ســواء بالعنف أو بالوسائل السلمية وفقا لأصلح السبل ، أما البلدان الرأسـمالية فهى تحاول أن تحافظ على مصالحها الرأسمالية الاستغلالية بكل الوسائل العنيفة والسلمية ٠ وفى غمرة هذا نشأ عالم ينقسم الى ثلاث تكتلات :

الكتلة الشرقية ٠

الكتلة الغربية ٠

ثم كتلة ثالثة هى كتلة المحايدين الذين يتأرجحون حينا نحــو الشرق وحينا نحو الغرب ، ولما كانت الحرب الباردة قد سلخت من عمرها ما يزيد على العشرين عاما فأننا نستطيع أن نحصر سماتها المميزة بطريقة موضوعية ، وأهم هذه الســمات :

- تقف في الصدارة زعيمتان هما : الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتى .
- استمرار الصراع مع انتقال الصراع من منطقة الى أخرى تبعا للاختيار ٠
- تهدئات متقطعة قصيرة الأمد حتى لا يمكن أخذها مأخذ الجد ، اللهم الا التهدئة الأخيرة بعد سنة ١٩٦٣ عندما اتفقت موســكو وواشنطن على تحديد التجارب النووية ٠
- يهدف الشرق الى بلوغ مستوى الحياة في الولايات المتحدة حتى يمكن ابراز تفوق نظامه الاقتصادى ٠
- تتنافس المجموعتان فى الجهود لاظهار تفوقهما وخاصة فى غزو الفضاء ، وفى الانجازات الذرية ٠

والواقع أن البحث الدقيق للواقع الاقتصـــادى والاجتمـــاعى للدولتين الكبيرتين : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتى ليكشف لنا على أنه توجـد بينهما نقاط كثيرة مشتركة أكثر مما يوجد من خلاف : التنظيم ، التقدم الفنى ، تحسين الظروف المادية بين الناس ، وتحضير المواطنين وتثقيفهم ، مما يجعلنا نستطيع أن نسأل أنفسنا عما اذا كان هناك احتمال لتقـارب نسبى يؤدى الى تعايش سلمى •

وهكذا فاننا نستطيع أن نفترض أنه اذا استمرت الظروف الاقتصـادية والاجتماعية للدولتين الكبيرتين اللتين تتوليان الصدارة فى الكتلتين المتصارعتين فى التقارب ــ كان من الممكن أن يستقر التعايش بصفة نهائية ، وأن تضعف التعارضات الى حد كبير •



نتائج الاصلاح الأيديولوجى لدى الصينيين

سبق أن أشرنا الى أن برنامج التثقيف الذى كان الصينيون يطبقونه هـو عبارة عن الجهود التى كانوا يقومون بها فى عملية ما يطلق عليها « غسيل المخ » ، كما أشرنا الى أن الكتابات التى نشرت عن هذه العملية اعتمـدت أساسا عـلى استجواب : الاسرى الامريكيين العائدين لبلادهم بعد الاسر ، أو المدنيين الغربيين، والصينيين المثقفين الذين تعرضوا لعملية « غسيل المخ » ٠

وعلى الرغم من أن هذه المعلومات قد يعوزها الدليل ، أو فيها من المغالاة ما لا يخفى على أحد ، فاننا سنحاول دراسة هذا البرنامج من زاوية علمية عامة ، كى نتعرف على مدى الاستجابات وردود الفعل التى تحدث للفرد اذا ما تعرض لمثل هذا الموقف ٠ ولما كانت المعلومات التى أخذت من أسرى الحرب الكورية عن برنامج التثقيف أكثر دقة ووضوحا من غيرها فاننا سنعتمد عليها أساساً فى بحثنا كنموذج يمكن الاسترشاد به في ابراز العناصر الاساسية لهذه العمليـة ٠

كانت صور الحياة فى المعسكرات الدائمة لاسرى الحرب الامريكيين تتشابك من الناحية الواقعية داخل برنامج التثقيف ، على أننا يجب ألا ننظر الى هـــذا البرنامج على أنه مجموعة من الاساليب الفنية الخاصـة تطبق بصورة روتينية رتيبة ، بل يجب أن ننظر اليه كنتاج لمجموعة كاملة من الظروف الاجتماعية تعمل داخلها بعض هذه الاساليب الفنية المعينة ٠

وقبل أن نحاول شرح هـذه الاساليب نرى أنه لكى تكتمل لدينا صـورة واقعية لابد من أن نعطى للقارىء فكرة عما حدث لهؤلاء الاسرى منذ وقوعهم فى الاسر حتى بداية برنامج التثقيف فى المعسكرات الدائمة •

الأسر والاقامة فى المعسكرات المؤقتة :

استخدم الصينيون فى المرحلة الاولى للاسر « سياسة الترفق » مع الاسرى، كما استغلوا قسوة معاملة الكوريين الشـماليين للاسرى ، وحـاولوا أن يظهروا صداقتهم وترفقهم بهم •

كانوا منذ اللحظة الأولى يحاولون اظهـار ترحيبهم بالأسرى موحين اليهم أنهم حرروهم من الاستغلال البورجوازى ، وأنهم يستطيعون من فورهم الانضمام للذين يقاتلون من أجل السلام » •

كما استغلوا العـامل النفسى للتأثير عـلى عقـول الأسرى بأن حاولوا أن يقنعوهم بأن الأمم المتحدة اشتركت فى الحرب بطريقة غير قانونية ، ولذا فان كل جنودها يمكن اعتبارهم من مجرمى الحرب ومن ثم يمكن اعدامهم رميا بالرصاص ، ثم يوحون اليهم أنهم يعرفون أن الجنود العاديين انما ينفذون أوامر قادتهم الذين هم مجرموا الحرب الحقيقيون ، ومن هنـا فان الصينيين يعتبرون الجندى الأسـير « طالبا » وأن من واجبهم أن يعلموه « الحقيقة » ، ومن لا يريد أن يتعاون بالذهاب الى المدرسة والاستذكار طواعية يمكن أن يحول الى « مجرم حرب » ويعدم رميا بالرصاص ، ولا سيما اذا أمكن الحصول منه على اعتراف بجرائمه •

وكان الأسير يمر فى السـاعات الاولى من الاسر « من ٦ الى ٢٤ سـاعة » بصدمة أشبه بحالة فقد للوعى مما يجعله غير قادر على القيام بأى عمل متكامل ، أو الادلاء بأى معلومات عما كان يحسه فى أثناء تلك الساعات الاولى •

وكان يتبع هذه الحالة عادة توقع الموت أو التعذيب من آسريه ، ذلك لان الشائعات كانت تنتشر بين الجنود فى الخطوط الامامية بأن هذا ما يجب أن يتوقعوه عند أسرهم ، وكانت هذه الشائعات تستند الى ما حدث فعلا لبعض الجنود الذين وقعوا فى أيدى الكوريين الشماليين ، ولكن كل هذه المخاوف لا تلبث أن تتبدد نتيجة الشعور الودى الذى يبديه الجنود الصينيون . لقد كان تشديدهم فى الحديث عن السلم أهم الخطوات الاولى التى تجعل الاسير أكثر تقبلا للتثقيف الذى سيواجهه فيما بعد .

وكان الاسير فى الاسابيع أو الشهور التالية يتعرض لصعاب بدنية كبيرة ، ولسلسلة من الضغوط السيكولوجية التى تسبب له توترات شديدة ، وانهيارا نفسيا .

كان الاسرى يجمعون خلف الخطوط الامامية ، ثم يسيرون للشمال فى جماعات تختلف فى عددها ، وكان السير يتم فى أثناء الليل فقط لمسافات تصل الى عشرين ميلا .

كانت أحوال السير سيئة جدا ، وقد قال كثير من الأسرى : انهم لاقوا صعوبة كبيرة فى ازدراد طعام غريب لم يألفوه ، كما أنه كان معدا اعدادا سيئا . ومع هذا فانه كان يذكر لهم دائما سواء عن حق أو باطل لانهم يعطون نفس الطعام الذى يعطى للجنود الصينيين المشاة وكانت الرعاية الطبية معدومة بالنسبة للاسرى ، وكذا للجنود الصينيين وذلك لعدم توافر الامداد بالدواء ، مما نتج عنه اصابة معظم الجنود بالاسهال وبالدوسنطاريا ، كما قاسى الجنود كثيرا من قلة الملابس الضرورية لوقايتهم من الظروف الجوية الصعبة .

وفى عمليات السير هذه التى استغرقت من أسبوع الى أسبوعين ازداد تفكك الأسرى ، وازداد تبلد شعورهم ، وانعدم الترابط بين الأسرى من ناحية القيادة ، فلا قادة ولا جنود ، بل أصبح الاتجاه العام « كل رجل لنفسه فقط » .

وقد أدى التنافس للحصول على : الغذاء ، والملبس ، والمأوى الى استحالة الاحتفاظ بالروابط داخل الجماعة ، وكان أمل الاسرى الوحيد هو الوصول الى المعسكر حيث كان الجميع يأملون أن تكون الحالة أحسن(١) •

على أن الوصول الى أحد المعسكرات المؤقتة كان دائما بمثابة خيبة أمل قاسية ، فالغذاء لا يزال سيئا كما كان من قبل ، وأماكن الاقامة مزدحمة قذرة ، والرعاية الطبية للمرضى والجرحى معدومة •

وكانت الأنباء التى تقال لهم مليئة بالحديث عن انتصارات الشيوعيين العسكرية ، وكان لهذه الأنباء أثر كبير فى اضعاف معنويات الاسرى ، وصار أغلبهم متبلدى الذهن بدرجة أثرت على صحتهم وأدت ببعضهم الى الوفاة •

وقد استمر الصينيون فى الاسراف فى اعطاء الوعود بتحسين الحالة أو سرعة اعادة الاسرى الى أوطانهم ، وكانوا يعزون عدم التوفيق فى تحقيق هذا الى : العراقيل التى تضعها الامم المتحدة ، والى النشاط الجوى لطائراتها ، والى نقص التعاون من جانب الاسرى • كما كانوا يوضحون دائما وبكل وسيلة أن عددا معينا من الاسرى هم الذين يمكن أن يأملوا فى الانتفاع بهذه الوعود ، وهم أولئك الذين قد قاموا بالتعاون ، والذين تعلموا وعرفوا الحقيقة •

وكان الصينيون يوزعون على الاسرى نشرات شيوعية ويطلبون منهم أن ينشدوا الاناشيد الشيوعية ، وطلب من الحراس أن يتعرفوا على الافراد الذين يمكن جعلهم « متعاونين » وذلك بملاحظة ردود الفعل من جانب الاسرى فى أثناء قيامهم بهذه الالوان من النشاط •

---

(١) فى الواقع لم يتعرض كل الأسرى لهذه الظروف السيئة فاغلب الذين اسروا فى سنة ١٩٥١ وسنة ١٩٥٢ قد نقلوا بالسيارات وفى ظروف اقل قسوة ، وقد عنى بالمرضى والجرحى وان كانت العناية لم تصل الى الرعاية الطبية ، على ان الأقاصيص كثيرة بأن الحراس الصينيين كانوا يعاونون الجرحى والمرضى الى حد حملهم كما ان كثيرين من الأهالى المدنيين من كوريا الشمالية كانوا يعاونون الاسرى باعطائهم الغذاء وباخفائهم من مطارديهم •

ولم تبذل أية محاولة لتثقيف الجنود فى أثناء السير . ولا فى أثناء تجمعهم فى المعسكرات المؤقتة ، ولكن أولئك الذين كانوا يصلون أخيرا الى المعسكرات الدائمة كانوا يصلون فى حالة اعياء جسماني ونفسى ، وغير مؤهلين بحال ما لضغوط التثقيف التى سيواجهونها •

الحياة فى المعسكرات الدائمة للأسرى :

كانت أغلب المعسكرات الدائمة أجزاء من قرى كورية صغيرة ، وكان يحاط كل معسكر بنطاقات الأسلاك الشائكة أو بالموانع الطبيعية ، أو قد لا يحاط بأى شيء على الاطلاق • ومع أن الحراس كانوا يوضعون فى النقاط الرئيسية فانهم لم يكونوا بالقدر الذى يكفى لمنع الهرب ، أو على الأقل لمنع الانتقال من قسم الى آخر •

وكان المعسكر فى العادة عبارة عن عدة أكواخ من الطين يعيش فيها الاسرى يفترشون الأرض ، أو ينامون على حشيات من القش ، كما أعد به مبنى للمدرسة يستخدم : للادارة ، ولقاعة المحاضرات ، ولأعمال الترفيه • وكانت أماكن اعداد الطعام أو الأماكن المخصصة لازالة الضرورة غير كافية الى حد كبير ، ولكنها مع هذا كانت أحسن حالا من نظيرها فى المعسكرات المؤقتة •

وقد قسم الأسرى فى المعسكر تبعا : للجنس ، وتبعا لاوطانهم ، ورتبهم العسكرية ، ثم قسموا بعد هذا الى : سرايا ، وفصائل ، وجماعات • كانت الجماعات عادة تتكون من عشرة الى خمسة عشر أسيرا يشتركون معا فى مكان اقامة واحد ، وكان الصينيون يتولون رياسات الفصائل ، كما كانوا يعينون أفرادا من الاسرى لرياسة الجماعات دون تقدير لاى رغبة منهم •

ومع أن النظام الرتيب فى المعسكر كان يختلف من مكان الى آخر فان الاسرى كانوا يستيقظون عند الفجر ، فيمارسون بعض الحركات الرياضية لمدة ساعة ، ثم يوزعون للقيام بعدة أعمال مثل : جمع خشب الحريق ، وحمل المياه ،

وطهى الطعام ، واصـلاح الطرق ، ودفن الموتى من الاسرى ثم يقومون بنظافة المعسكر • وفى قرابة الساعة الثامنة صباحا يتناول الاسرى طعـام الفطور من حساء البطاطس أو غير هذا من ألوان البقول •

وكانت باقى ساعات الصباح والمساء تقضى فى ندوات التثقيف ، أو فى غير ذلك من الاعمال • ويتوقف تقديم وجبة فى منتصف اليوم على : اتجاهات الاسرى وعلى سير الامدادات والتموين ، ثم على الموقف السـياسى ، ذلك لان الوجبـة الرئيسية كانت تقدم فى الساعة الخامسة مساء وتتكون من : الخضر ، والبقول ، والأرز ، مع قطع من دهن الخنزير أو من السمك • ومن الطبيعى أن مثـل هـذا الغذاء القليل كان لا يكفى العمل العنيف الذى كان يقوم به الأسرى •

وقد اختلف الموقف بالنسبة للترفيه ، ففى السنة الاولى أو ما يقرب منها كان التشديد كبيرا على مطالعة الكتب الشيوعية ، ومشاهدة أفلام الدعاية وتمضية الوقت فى لعب الشطرنج ، ولكن مع تقدم سير المحادثات الخاصة بالهدنة ، ومع اشاعة احتمال عودة الاسرى الى بلادهم تحسن الحال بصفة عامة ، وقل التشديد على مطالعة الـكتب الشيوعية ، وأفسح المجـال للاسرى ليقوموا بالترفيه عن أنفسهم كما يحلو لهم •

وقد سمح للجنود بأن يعدوا ميادين للرياضة ، وأن يصنعوا ما يحتاجون اليه من أدوات ، وأعد الصينيون برنامجا لمباريات « أوليمبية » بين المعسكرات ، ولكنهم استخدموها كوسيلة للدعاية • وقد أسهم فيها الجنود الذين تتوافر لهم مهارة رياضية بغض النظر عن المظهر السياسى الذى لها •

ولا توجد أى معلومات دقيقة عن الممارسة الجنسية للاسرى ، مع أنه كان من الميسور أن يتصل الجنود بالنساء الكوريات فى القرى ، ولكن من جهة أخرى تفشى بين الاسرى الشذوذ الجنسى •

معالم برنامج التثقيف :

مما لا شك فيه أن السلوك الاجتماعى للناس يتأثر الى حد كبير بالسلوك الفردى ، وفى مسائل الفكر والمعتقدات يميل الناس أساسا الى الاعتماد على آراء الآخرين وأفكارهم ، وهم فى تبادلهم هذه الآراء والافكار يحاولون أن يقرروا اذا كانوا فى جانب الصواب أم الخطأ •

هذه الآراء غالبا ما تستقى عن طريق وسائل الاعلام والاتصالات الجماعية ، أو قد تكون مستنبطة بوسائل شخصية بحتة •

وفى كل الجماعات المختلفة نجد أنه فى التحولات : الدينية ، والسياسية ، والاجتماعية وغيرها التى عرفها الانسان عبر التاريخ ، استخدم دعاتها أسلوبا واحدا سواء فى ازالة المعتقدات القديمة أو فى التبشير والدعوة الى المذهب الجديد ، وان كانت الوسائل التى اتخذت يختلف بعضها عن بعض تبعا للعصور المختلفة التى عاشت فيها تلك الجماعات •

ونحن فى بحثنا هنا سنحاول أن نبرز معالم برنامج التثقيف الصينى لاسرى الحرب الكورية كجزء لعملية غسيل المخ ، وقد سبق أن بينا فى الباب الثانى الاساليب التى اتبعها الانسان فى تحولاته : الدينية، والسياسية، والاجتماعية، حتى نستطيع أن نحدد مدى التشابه أو التباين بين هذه الاساليب وتلك ، وبذا يتضح لنا مدى نجاح أو فشل هذه الأساليب فى التأثير على معتقدات الناس وقيمها •

ولقد سبق أن أعطينا قبل ذلك صورة لحياة الاسرى داخل المعسكرات المؤقتة والدائمة ، وكان هدفنا من ذلك هو أن نوضح للقارىء الحالة النفسية لهؤلاء الاسرى نتيجة البيئة والظروف غير العادية التى كانوا يعيشون فيها • وعلينا الآن أن ننتقل الى المرحلة التالية حيث نتحدث عن أسلوب الصينيين فى محاولاتهم للقضاء على معتقدات الاسرى والدعوة لمذهبهم •

تهيئة الجو للتبشير المذهبى :

منع الصينيون كل مصادر المعلومات التى اعتادها الأسرى من قبل لمعرفة الأحداث اليومية فى المجال المحلى أو الدولى ، واستبدلوا بذلك صحفهم ومجلاتهم واذاعاتهم • وكانت صحيفة « الديلى ووركر » بمختلف طبعاتها والتى تصدر فى عدة مدن متوافرة فى مكتبات المعسكر ، بالاضافة الى عدد لا حصر له من المجلات التى تصدر فى : الصين ، والاتحاد السوفييتى ، وبولندا ، وتشيكوسلوفاكيا • أما الاذاعات فكانت تعد فى الصين وتذاع على الاسرى فى المعسكرات بواسطة مكبرات الصوت •

كما حددت الاتصالات الشخصية بالزوار الذين يفدون الى المعسكر من الخارج تحديدا دقيقا ، حتى لا يعلم الاسرى حقيقة ما يجرى فى العالم •

وعمل الصينيون باستمرار على تقويض كل روابط العاطفة والصداقة بين الأسرى ، فتغاضوا عن الرتب وحاولوا فى كثير من الاحيان أن يولوا على جماعات الاسرى افرادا منهم صغار السن أو لا يصلحون للقيادة ، بهدف تذكيرهم أن الأسس القديمة للتنظيم لم يعد لها مكان ، كما أخذوا يلحون على أن الرتبة العسكرية لم تعد لها أهمية ، اذ أن كل مجموعة عبارة عن اخوة تعمل من أجل السلام يتساوى الكل فيها تبعا لتعاليم الشيوعية •

وقد صاحب ذلك تقسيم الاسرى مجموعات صغيرة على أساس الجنس Race والرتبة ، وكان الهدف من ذلك استخدام الاقليات من الزنوج لاستغلالها فى عملية التثقيف ، وكذلك تحطيم الكيان الداخلى للجماعة على أساس ابعاد القادة الطبيعيين لكل جماعة •

أما من الناحية المعنوية والروحية فقد منع الصينيون كل صور العبادات الدينية ، وعذبوا باستهانة كل الاساقفة العسكريين الذين حاولوا تنظيم اقامة صلوات دينية ، كما حطموا الارتباط بالاهل والاقارب فى أرض الوطن بتعطيل

البريد ، موحين اليهم أن عدم وصول البريد اليهم معناه أن الأهل والأقارب قد تخلوا عنهم ولم يعودوا يعنون بأمرهم •

واستغل الصينيون الاستخدام المنظم للجواسيس من الصينيين ومن الاسرى لمعرفة ما يجرى فى معسكرات الاعتقال ، وقد ادى ذلك الى ايجاد جو من عدم الثقة بين الاسرى ، وكانت الوسيلة الوحيدة للسلامة هى انعزال كل فرد تماما عن باقى زملائه •

ولذلك كان الصينيون على دراية تامة بأى تنظيمات تقوم بين الأسرى لغرض المقاومة ، وهذه سرعان ما كانت تحطم منذ البداية ، مما يدل على أن أسلوب الكبح والكبت الاجتماعى كان له أثر كبير على السلوك الانعزالى للاسرى داخل المعسكر •

وكانت الجماعات التى تتشكل بين الاسرى تهدف الى ثلاثة أغراض :-

- التخطيط للمعاونة على الهرب •
- منع الافراد من التعاون مع الصينيين •
- أسباب اجتماعية •

وتبعا للمعلومات فان الجماعات التى تشكلت لتعاون على تهريب الاسرى قد حطمت بسرعة • ومع أنه قد وضع تخطيط لعدة محاولات للهرب فان المنطقة الموحشة المجاورة مع الجهل بالارض ، والطرق ، والخوف من عنف الكوزيين الشماليين قد عاونت على الحد من هذه المحاولات •

كما استخدمت المكافآت للتبليغ عن حوادث الهرب ، فاذا هرب أسير مثلا كان من السهل القبض عليه باعلان أن الذى سيجىء به سيعطى جوالا من الأرز ، وقد كانت هذه المكافآت تعتبر من المكافآت السخية للاسرى فى مثل هذه الظروف القاسية التى كانوا يعيشون فيها •

أما الجماعات التى نظمت لمنع الاسرى من التعاون أو التهديد بالانتقام منهم اذا ما تعاونوا مع الصينيين ، فقد كانت تتكون من بعض الذين يجيدون النقاش والجدل ، والذين كانوا من أكثر الجنود عنفا فى أعمال المقاومة •

وقد أطلق الصينيون على احدى هذه الجماعات الاسم « كلوكلوكس كلان » لسياستها الاعتدائية ، وظهر أن هذه الجماعة كانت تتكون من الأفراد الذين تعرضوا أكثر من مرة لسجن الصينيين ، أو الذين اضطهدوا لنقضهم ومخالفتهم قوانين السجن ونظمه •

أما النوع الثالث من الجماعات فقد كان يتكون من الاسرى الذين يسرهم اجتماعهم معا على مثال الجمعية التى كونها كبار السن من الجنود ، وأطلقوا عليها « منزل الجندى العجوز » •

ولقد عهد الصينيون لعدد كبير من الجنود بتشكيل « لجان السلام » وكانت وظيفتها تعويق أى حركات للمقاومة ومنعها • وكان أفرادها يقومون بالأعمال الدعائية مثل : اعداد النشرات ، والتماسات السلام للأمم المتحدة ، وكتابة بعض الاحاديث للاذاعة ، وكانت جهود هذه الجماعات تختفى تحت ستار أعمال الترفيه •

كان أعضاء هذه اللجان يختارون بطريقة ديمقراطية ، ولكن الانتخاب كان يجرى المرة بعد الاخرى حتى يتم اختيار من يريدهم الصينيون فعلا • وفى كثير من الأحيان كان الاسرى يوفرون على أنفسهم العناء بأن يختاروا منذ البداية الافراد الذين يريدهم الصينيون •

وكانت اللجان التى تتولى الاعمال الادارية اليومية الرتيبة فى المعسكرات مسئولة عن : الشئون الصحية ، والغذاء ، والترفيه ، والدراسة ، ويبدو أن اختيار بعض الافراد من « غير المتعاونين » لعضوية هذه اللجان كان يتوقف على مدى رغبة الصينيين فى الابقاء على اتصالاتهم بالاسرى ومعرفة مختلف الاتجاهات ،

وعندما تحسنت الاحوال فى المعسكرات عامى ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ ، كانت هذه اللجان تمثل مختلف الجماعات فى المعسكرات تمثيلا جيدا ، وفى ذلك الوقت لم تكن الحاجة ماسة الى جماعات السلام اذ كان الصينيون قد استنفذوا منها كل احتياجاتهم لحملات الدعاية .

على أن الظاهرة البارزة فى كل هذه اللجان كانت عدم اتزانها ، وعدم استقرارها من وجهة النظر الداخلية ، ذلك أنه بسبب احتمال وجود جواسيس ومبلغين بين أعضائها أوجد جوا من عدم الثقة المتبادل ولا سيما بين جماعات السلام ، فلم يكن أى عضو يستطيع أن يعرف على التحقيق ما اذا كان أى عضو آخر هو من الموالين فعلا أو ممن يتظاهرون بذلك بقصد متابعة الحياة فى هدوء .

وحتى أعضاء جماعات المقاومة ، وجماعات الخدمة الاجتماعية كانوا يواجهون نفس موقف عدم الثقة ، ذلك لأن أحدا لم يكن يستطيع أن يعرف الجواسيس والمبلغين الذين يدسهم الصينيون فى كل من هذه الجماعات للاخطار بنشاطها ، ثم ان توقع الغاء كل جماعة أو حلها فى أى لحظة جعل كل عضو عازفا عن الاعتماد أو الارتباط بأى عضو آخر .

وهكذا حالت هذه العزلة الاجتماعية عن أن يكشف أى عضو عن معتقداته واتجاهاته عن طريق صلاته بأى فرد آخر فى وقت كانت مختلف المعتقدات عرضة لهجمات عنيفة من مختلف الاتجاهات .

المحاضرات والمناقشات :

كانت الوسيلة الرئيسية للتثقيف المباشر عبارة عن سلسلة من المحاضرات يحضرها كل الاسرى طوال مدة أسرهم ، وكانت هذه المحاضرات تلقى يوميا وتستمر من ساعتين الى ثلاث ساعات .

وكان فى كل معسكر معلم سياسى أو أكثر يلقى محاضرته من أوراق معدة له ، والعادة أن يجلس معلم آخر يراجع ما يقرأه الأول على نسخة أخرى من المحاضرة ليتحقق من اتباع النص المكتوب .

وكانت المحاضرات سهلة ، دعـاية مباشرة واضحة تهـاجم الامم المتحـدة بصورة عامة ، والولايات المتحدة بصفة خاصة فى مختلف النواحى : السياسية والاجتماعية ، والاقتصادية ، وفى نفس الوقت تمجد ما حققته الدول الشيوعية وما تتطلع اليه من رفاهية ودعوة « للسلام » ٠

وبرغم عدم دراية الكثير من المعلمين بأمهات الكتب الشيوعية ، فان استمرار الضرب على نقاط معينة ، واقتران ذلك بالاساليب الاخرى المستخدمة وفى موقف لم يتوافر للاسرى فيه أى مصدر آخر للمعلومات ـ جعل الكثير من نقاط الجدل الصينية تنفذ الى أذهان الجنود وتجعلهم يناقشون ببلبلة بعض وجهـات نظرهم القديمة من زاوية أخرى ٠

وكانت دعوات السـلام تلقى استجابة من الجنـود المتعبين الذين أجهدتهم ظروف الحرب لا سيما أن ذلك كان يصاحبه تبرير للأسرى بأنهم انما يخوضون معركة على أرض أجنبية عنهم ، وأنهم يشتركون فى حرب أهلية لا ناقة لهم فيهـا ولا جمل ٠

وقد شـددت المحاضرات والمنـاقشات التثقيفية على التوقعـات التفصيلية لما سوف يحدث للأسـير عند عودته الى وطنـه ، وقد تحقق بعض ما تنبـأ به الصينيون[1] اذ قدروا أن مشكلات معينة من المشكلات العديدة التى سوف تنشأ انما ترجع الى « ضعف » أو عدم عدالة الايديولوجية الرأسمالية ٠

على أن المناقشـات الجمـاعية التى كانت تجرى بعد كل محـاضرة زادت قابلية الاسرى فى تقبل وجهـات النظر الجديدة ، وحـاول الصينيون بكل عزم ودون كلل استغلال ذلك فى عملية التثقيف ٠

---

(١) ناقش هنرى سيجال هـذا فى مجلة علم النفس العقلى الأمريكية مجلد ١٩٥٤ عدد ١١١ ص ٣٥٨ ـ ٣٦٣ ، كما ناقشه روبرت ليفتون فى العدد ١١٠ من نفس المجلة ، الصفحات ٧٣٢ ـ ٣٧٩ ٠

كانت أغلب المحاضرات تنتهى عـادة بسلسلة من الخلاصـات مثـل « بدأ الكوريون الجنوبيـون الحرب بغزو كوريا الشـمالية « أو » « أن غرض الدول الرأسمالية السيادة على العالم » ، ثم يقسم الاسرى بعد ذلك جماعات تذهب الى أماكن اقامتها لتناقش وحدها الخلاصة التى انتهت بها المحاضرة لمدة ساعتين أو أكثر ٠

وكان على كل جماعة اثر انتهاء مناقشتها أن تقـدم اجابات مكتوبة عن أسئلة كانت توزع عليهم أثناء المحاضرة ٠

ولذلك فان مناقشة المحاضرة انما كانت تعنى فى الواقع الاقتناع بالخلاصة التى سبق وانتهت اليها المحاضرة(١) ٠

وقد خصص لكل جماعة « مرشد »لمعاونة الأسرى فى المناقشة ، وكذا للتأكد من أنهم يتبعون الاتجـاه الصحيح السـليم ، ثم عليه أن يجمع منهم الاجابات ويتأكد من أنها تسير فى الاتجاه الصحيح ٠

وفى البداية كان هذا المرشد عادة صينيا يتحدث الانجليزية ، ولكن كلما سنحت الفرصة كان هذا المرشد يكل الامر الى أحد أفراد الجمـاعة الذى يبدى تعاونا وعطفا أكثر على وجهة نظر الشيوعية ٠

وكان التكرار أسلوبا أسـاسيا فى المنـاقشة اذ كانت الاجابات لا تتمشى مع ما يطلبه المرشد ، فاذا قال أحد أفراد الجماعة مثلا : « ان الكوريين الشماليين قد غزوا كوريا الجنوبية كان على الجماعة أن تنصت للمحاضرة ثانية ، وأن تعود لاجراء المناقشة مرة أخرى » ٠

---

(١) فى السنة الأخيرة من الأسر او ما يقرب من هذا اصبح حضور الكثير من هذه المحاضرات اختياريا ، وكان يحضر هذه المحاضرات او يشترك فى المناقشات الأسرى الذين ارادوا أن يعرفوا مزيدا عن الشيوعية ، وكان هؤلاء الذين يحضرون المحاضرات الاختيارية يعرفون باسم « المتعاونين الذين يريدون الدراسة » وقد منحوا عدة امتيازات لم تكن تمنح لباقى الأسرى ٠

وقد يستمر هذا الاجراء لعدة أيام دون أن يمل الصينيون من هذا التكرار ، ويبدو أنهم كانوا يعتقدون بأن فى المناقشات الجماعية الفرصة الكبرى للنجاح فى تحويل الجنود الى وجهات نظرهم عن محاولة تحقيق ذلك بالتثقيف الفردى ٠

وكان نجاح مثل هذه المناقشات غالبا ما يتوقف على درجة الاشراف ، فاذا كان المرشد متهاونا فان من المحتمل أن تقضى الجماعة الوقت فى الحديث عن أى شيء عدا المادة المطلوب مناقشتـها ، ولكن المشرف الذى يكون من أسرى الحرب ، أو من الصينيين الذين تتوافر لهم دراية باللغة الانجليزية كان يدير المناقشـة بنجاح وبقدر كبير ٠

ولم يكن من الضرورى أن تؤدى المناقشات الموجهة الى أن يعارض الفرد أو يتشكك فى معتقداته نفسه ، ففى كثير من الاحوال سمح لاسرى الحرب بدعم معتقداتهم السابقة باعطائهم فرصة للحصول على ادراك لا شعورى بصلاحية هذه المعتقدات ٠ وكان الهدف من ذلك هو الايحـاء للاسرى بأن المناقشات هدفهـا تعليمى وتعتمد على الاقناع ٠

المكافآت والعقوبات :

قد يبدو من تكنيك الصينيين أنهم أرادوا لاغراض الدعاية أن يجذبوا بعض الاسرى بوسائل معينة دون أن يعنيهم أن يؤمن هؤلاء الافراد بالشيوعية ، وذلك لاستغلالهم فى مواقف كثيرة ٠ وقد استطاع الصينيون اجتذاب هذا النـوع من الافراد : بواسطة الحث والمكافآت من ناحية ، أو بواسطة التهديد بالعقـاب من ناحية أخرى ٠

ولقد ظهر للاسرى منذ البداية أن التعـاون مع الصينيين سوف يحقق لهم حياة هينة فى الاسر ، على حين أن عدم التعاون أو المقاومة سيخلق لهم المتـاعب والمضايقات ٠

وقد اختلفت أنواع المكافآت التى كان يمنحها الصينيون للأسرى باختلاف حالاتهم ، وتبعا للظروف التى يعيشون فيها ٠

ففى أثناء عمليات السير ، وفى اثناء الاقامة فى المعسكرات المؤقتة كانت الأحوال تسوء بالقدر الذى يجعل : اعطاء أى كمية اضافية من الغذاء ، أو أى علاج للأسير ، أو منحه أى قطعة من الثياب ، واسكانه فى غرفة غير مزدحمة ــ مكافأة كبيرة القيمة ، فلما وصل الاسرى الى المعسكرات الدائمة كان : مجرد الوعد بالاطلاق المبكر ، واعادة الاسير الى وطنه ٠ أو حتى أى تحسين عادى فى حاله يعتبر وسيلة كافية لاجتذابه واستغلال تقبله ٠

ومع أن الاحوال كانت فى المعسكرات الدائمة جيدة نسبيا وبالقدر الذى جعل الاحتياجات الاساسية لاتعتبر حافزا كبير الاثر للتعاون ، فان الوعد بالاعادة المبكرة الى الوطن ظل حافزا قويا على الرغم من أنه تكرر مرارا ولم يتحقق ٠

وفى هذا الوقت برز حافز قوى جديد هو امكان الاتصال بالعالم خارج الصين ، مما جعل بعض الاسرى ــ فى سبيل أن يعرف أهلهم أنهم على قيد الحياة ــ يتعاونون مع الصينيين: بتسجيل بعض فقرات الدعاية، أو بكتابة الخطابات المليئة بالدعاية ، أو بالتماسات السلام حتى يضمنوا ارسال رسائلهم الى أهليهم ٠

ومع استمرار تحسن الاحوال صارت الكماليات وسيلة جيدة لاجتذاب المتعاونين ، وصارت : السجاير ، والامشاط ، والصابون ، والحلوى ، وبعض قطع الثياب ، والفاكهة الطازجة بل حتى كوب ساخن من الشاى ، أو كأس من الشراب ــ وسيلة جيدة لاجتذاب المتعاونين ، وكان بعض الاسرى يبذلون دائما كل جهد للحصول عليها ٠

على أن الحصول على مثل هذه الكماليات كان يرتبط دائما بمدى رغبة الاسير فى التعاون ، وكان أى اتجاه للتعاون سرعان ما يتبع بزيادة المكافآت المادية ، وبالوعود الخاصة بالمستقبل ٠ وقد ظهر من استجوابات بعض الاسرى بعد

عودتهم الى أرض الوطن أن السوق السوداء قد انتعشت بينهم فى المعسكرات ، اذ كان الاسرى الذين يمنحهم الصينيون هذه الاشياء ولا يرغبون فى استعمالها يبيعونها لزملائهم • وبالاضافة لذلك تداولت السوق السوداء الادوية والعقاقير الطبية التى كان الموالون يحصلون عليها من الصينيين ليبيعونها لمن يحتاج اليها .

ولقد استخدمت هذه المكافآت فى بعض الاحوال بمهارة للربط بينها وبين عمليات التثقيف ، فكانت السجاير والفاكهة الطازجة تعطى فقط فى مقابل كتابة موضوعات عن مسائل معينة فى السياسة الدولية ، وكانت الموضوعات التى تفوز بالجوائز تنشر عادة فى الصحيفة أو المجلة التى تصدر فى المعسكر ، وكان الفوز بالجائزة رهينا بتمشى الرأى الذى يبرزه المقال مع وجهة النظر الشيوعية ، ويكون الاسير الذى يفوز بالجائزة غالبا فى طريقه الى التعاون بصورة ما • وقد نجحت هذه المنافسة فى جعل الكثيرين يشتركون فى الكتابة ، كما أتاحت دراسة مختلف وجهات النظر مناقشة الاسرى لوجهات نظرهم القديمة ونقدها •

وقد استخدم الصينيون أيضا أسلوب المكافأة أو العقاب لتحطيم أى منظمات جماعية يمكن أن تتشكل بين الاسرى •

فعلى سبيل المثال حدث بعد تجمع الأسرى فى المعسكرات الدائمة أن أوحى الى بعض الافراد أنهم لو قاموا باذاعة أحاديث فى الراديو موجهة الى الامم المتحدة ، فان ذلك سيساعد على اطلاق سراحهم فى تاريخ مبكر • ولم تكن محتويات الاذاعة محددة ، ولكن الاسرى وافقوا على القيام بهذه الاذاعات بأمل أن يعرف أهلوهم عن طريق هذه الاذاعات انهم على قيد الحياة ، وقد جمع هؤلاء الافراد علانية أمام باقى الاسرى وسير بهم الى مبنى على مسافة من المعسكر حيث توجد استديوهات الاذاعة ، وفى نفس الوقت أوهم باقى الاسرى بأن هؤلاء سيعطون امتيازات خاصة بسبب تعاونهم فى اقرار السلام فى أرض كوريا •

وظهر أن محتويات الاذاعات كانت مجرد التماسات تشتمل بطريقة ملتوية على ادانة الامم المتحدة ، وعلى تقرير أن الاسرى يعاملون معاملة طيبة كريمة ، وعندما

اطلع الأسرى على نصوص الاذاعات رفض البعض اذاعتها بالرغم من التهـديد بتوقيع عقوبة ، ووافق البعض مع محاولتهم أن يضمنوها بعض كلمات تدل على أنهم تحت ضغط قهرى ٠

وعندما عاد هؤلاء الى المعسـكر بعد تسـجيل الاذاعات ، وجدوا أنهم قد أثاروا الشك والعداء من جانب زملائهم بخاصة أن الصينيين اظهروا رضاهم بأن اسبغوا عليهم بعض التقدير ٠

وقد استمر بعض هؤلاء الافراد فى تعاونهم مع الصينيين معتقدين أن ذلك لا يضر بقضية الامم المتحدة بحال ما ، بل ان بعضهم تصور انهم يقومون بدور عملاء سريين بدافع من أنفسهم لمحاولة التغلغل فى أعماق التنظيمـات الصينية للحصول على معلومات وأنباء يمكن بها معاونة قضية الامم المتحدة ٠

وقد كان فى مقدمة المكافآت التى حرص الصـينيون على منحهـا للأسرى المتعاونين معهم امتيازات رمزية مثل : منح الرتب ، والدرجات فى سلم القيادة فى المعسكر ، ولكن كان الاهم من ذلك منح هؤلاء الافراد حرية التحركات ، اذ كانوا يستطيعون دخول مبنى الرياسة الصينية للمعسـكر فى أى وقت ، كمـا كانوا يستطيعون أن يذهبوا الى المدينة فى أى وقت شاءوا ليلا أو نهارا ، بالاضافة الى أنهم كانوا يختصون بالاعمـال المريحة فى المعسكر ، ويجنبون الاعمـال المرهقة التى تسبب الضيق والاعياء للقائمين بها ٠

وكان الصينيون يستشيرونهم فى المسائل السياسية ، وأعطوا لهم علامة مميزة يعرفون بها ، وهى عبارة عن رسم صغير لحمامة توضع على الياقة أو يضعون علامة تحمل صورة ماوتسى تونج ٠

وقد منح الصينيون الكثير من الوعود الخاصة بمستقبل الاسرى ، وقيل لهم : انهم يلعبون دورا هاما فى حركة السلام ، وأنهم سوف يستمتعون بمكانة عالية فيها لو استمروا فى العمل لها ٠

ولو سألنا أنفسنا : لماذا يسلك الافراد مثل هذا السلوك ؟ ولماذا صدقوا هذه الوعود ؟ للاجابة عن ذلك يجب أن ننظر الى الظروف التى كانت تكتنفهم والتى سبق وصفها ، فان هؤلاء الافراد لم يكن أمامهم بحال ما أى مصدر آخر للمعلومات يعتمدون عليه ، كما أن هناك نقطة هامة هى أن هؤلاء الأفراد اذا ما بدأوا التعاون مع الصينيين ولو فى عمل تافه فانهم كانوا يفقدون الثقة والتعضيد من باقى زملائهم مما كان يدفعهم الى التعاون الى أبعد مدى مع آسريهم سعيا وراء السلامة والطمأنينة .

وليست هذه كل وسائل المكافآت والعقوبات ، فقد ذكرنا الكثير منها فى الفصل الخاص بالاستجواب واستنطاق الاعترافات .

والواقع أنه من الناحية الجوهرية يمكننا أن ننظر الى تجربة كل أسير حرب فى معسكرات الاسرى وكأنها سلسلة من المشكلات كان على كل فرد أن يحلها حتى يستطيع أن يبقى حيا فى حالة متكاملة ، وكان فى مقدمة هذه المشكلات : مشكلة « الحرمان البدنى » ومشكلة « الخوف من عدم الاعادة الى الوطن » أو « التعذيب » أو « القتل للتخلص من الاسير دون أى دليل على وجوده أو أسره » .

على أن المشكلتين اللتين تليان ذلك فى الاهمية هما مشكلة النظر الى الحياة تحت ظروف وأحوال تحطمت واضطربت فى ضوئها القيم والمعتقدات ، ثم مشكلة الاحتفاظ بمكانة صالحة فى مجتمع مع الابقاء على صلات صداقة وروابط مع آخرين فى جو يقوم على عدم الثقة المتبادلة بين الافراد ، وتنعدم فيه القيادة .

استغلال الدعاية :

ولقد استغل الصينيون أساليب الدعاية المعروفة فى أثناء عملية التثقيف ، فقد كانت النشرات توزع ، وتعرض الافلام التى تمجد ما حققه النظام الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى وفى الصين ، وتبين المكاسب والمنافع التى يحققها هذا النظام للعامل والفلاح ، أكثر مما حققه النظام الرأسمالى .

على أن أشد هجوم تعرضت له المعتقدات والاتجـاهات جاء من شـــهادات الأسرى الذين كانوا يعضدون فى وضوح مشروعات الصينيين ، ولقد تضمنت هذه الشهادات : خطبا ، وأحاديث اذاعية ، والتماسات للســلام ، واعترافات دعائية •

وكان لاستخدام هذه الشهادات نفع مزدوج ، اذ أنها من ناحية ساهمت فى تحقيق دعاية الشيوعيين ، ومن ناحية أخرى أضعفت الروابط الجمـاعية بين الافراد • وكان نتيجة ذلك أن كل أسير كان يشعر بالانعزال والوحدة ، وأصبح فى حيرة وشك لا يمكنه من اتخاذ موقف مشترك متماثل مع باقى الجماعة ، بل يضطر كل فرد نتيجة هذه الظروف التى تحيط به أن يعيد دراسة معتقداته ، ومن ثم فانه يتعرض لان ينقاد الى جانب الرأى الذى يتكرر على مسمعه كل يوم •

* * *

وكانت « حرب الميكروبات » من الموضوعات الحيوية التى استغلها الصينيون فى دعاياتهم ضد الولايات المتحدة بارتكابها جريمة كبرى ضد الانسانية ، وقد اعتمدوا فى ذلك على الاعترافات الخاصة بها ، والتى أخذت من عدد من ضــباط السلاح الجوى وجنوده •

لقــد أصبح موضــوع حرب الميكروبات فى كوريا هو الموضــوع الرئيسى للتصريحات الرسمية وشبه الرسمية ، وكانت الاتهامات تدعم بجميع الادلة التي يتقبلها العقل ، اذ جاءوا بالعمال الزراعيين ليقصوا كيف شاهدوا خزانات الجراثيم وهى تتســاقط ، وأطلعوا المخبرين الصحفيين على شظايا القنــابل ، وعرضت صحائف زجاجية يستطيع أن يرى كل انسان عليها بالمجهر خلايا البكتريا وهى تسبح ، كما كان هناك بالفعل بعض الذباب والفيران مما يكفى للعرض فى جميع أنحاء البلاد •

وحاول الموظفون الصينيون مخاطبة فطنة الناس لأن الرؤية هى المعرفة ، كما دعوا بعض المتخصصين فى علم الاحياء ليؤمنوا على أقوالهم ، ولم يبق سوى اعترافات الجماعات المذنبة حتى يصبح الاتهام ثابتا ، وقد تحقق ذلك باستجواب عدد من الطيارين الذين اعترفوا بجرمهم وأسفهم •

ولقد نجح الصينيون فى الحصول على الاعترافات المطلوبة لاعمال الدعاية ، ففى قصة أحد الطيارين الذين استجوبوا وصل به التوتر والانهيار الى حد أنه اعترف وهو محطم الشعور بعقدة الذنب بأنه ارتكب جريمة كبرى فى حق الشعبين : الصينى والكورى ، وأنه يأمل أن يغتفر له ما اقترف من ذنوب واثم ، ثم اخذ يشرح بصراحة مذهلة كيف أنه اشترك فى شن الحرب الميكروبية ضد الفلاحين البسطاء • لقد ارتسم على عينيه وهو يدلى بهذه الاقوال الحزن الشديد ، كما أزالت الطلاقة التى اتسمت بها اجاباته كل ريبة وشك •

لقد كانت أقلام المخبرين الصحفيين تتسابق فى الكتابة وهو يدلى باعترافه ، وكان يبدو أنه مخلص فيما يقول ، مما يوحى للذين يسمعونه أنه فعلا يبدى أقواله دون أى ضغط عليه ، أو ايحاء خارجى •

وقام الصينيون بتصوير أفلام سينمائية تبين بعض الأسرى وهم يدلون باعترافاتهم أمام اللجنة الدولية التى شكلها الصينيون لبحث الأمر ، وعرضوا هذه الافلام فى المعسكرات •

وبالاضافة الى ذلك كان يتنقل ضابط أو ضابطان أمريكيان من معسكر لآخر ليوضحا للاسرى كيف أن قوات الامم المتحدة استخدمت القنابل المعبأة بالميكروبات •

وفى الواقع كان لذلك أثر بالغ ، فان التفاصيل التى شرحت للاسرى ، والافاضة فى الشهادات مع الاخلاص الظاهر فى أحاديث الضابط وحرية تحركه من معسكر لآخر أوحت الى الأسرى أنه ليس هناك أى نوع من القسر والارغام ، مما جعل الكثيرين منهم يؤمنون بأن ما حدث لابد من أن يكون حقيقة واقعة •

كما استخدمت الاذاعة والبرقيات لنشر هذه المعلومات على العالم الخارجى لكسب الرأى العام ، ويقول ادوارد هنتر فى ذلك : « رددت الاذاعات الصينية النبأ وارسلت البرقيات الى جميع أنحاء العالم حتى يتسنى وصولها الى اهالى الهند

الشديدى الحساسية ، وسكان الارجنتين الحادى المزاج ، والسفسطائيين من أهل الريف الانجليزى ، وحتى الى الامريكيين المذنبين أنفسهم • وفى كل مكان من نيودلهى الى لندن ، ومن جاكرتا الى مكسيكو سيتى ، قال عدد كبير من المحررين الذين ادعوا أنهم على يقين مما يقولون : ان مثل هذا الكشف يجب الا يظل فى طى الكتمان • كما عرضت الافلام السينمائية على جماعات منتقاة من الموظفين والمواطنين العاديين فى أثناء الحفلات التى كان يقيمها الدبلوماسيون الصينيون لاقناع المتشككين بالادلة الدامغة » •

وعموما فان هذا الاسلوب وان كان يعوزه الدليل على أن الاعترافات التى استغلت فى الدعاية لم تؤخذ تحت ظروف قهرية ، الا اننا نرى أن هذه الوسيلة قد نجحت الى حد كبير فى أعمال الدعاية ضد الأمم المتحدة عامة ، والولايات المتحدة بصفة خاصة •

* * *

وثمة صورة أخرى من صور الدعاية ، هى ما قام به الصينيون من استخدام الكوريين الشماليين للادلاء بشهادات عن وحشية الأمم المتحدة ، فكانوا يحضرون فى فترات معينة نسوة وأطفالا ليذكروا أمام احدى لجان السلام كيف أن طائرات الأمم المتحدة ألقت على القرى بعض اللعب والدمى الصغيرة التى كانت تنفجر بمجرد أن يلمسها الأطفال •

والحق أنه يصعب تقدير تأثير مثل هذه الدعاية ، ولكن ليس غير محتمل أن الكثيرين من الأسرى وشعوب الدول الأخرى قد اعتقدوا صدق كل هذه القصص وما شابهها ، بل ان هذه الدعاية قد نجحت الى حد كبير لتأليب الكثير من شعوب العالم ضد أعمال الولايات المتحدة •

لقد أصبحت الحرب فى هذا العصر حربا عقلية أكثر منها حربا جسدية ، وأصبح من الواضح أن كسب هذه الحرب العقلية يتوقف تماما على غزو الميول والمشاعر ، وفى هذا المجال يمكن أن نطلق كلمة « سلاح » على كل ما يساعد على تحقيق هذا الغرض •

مدى نجاح برنامج التثقيف :

من الصعب تقدير مدى النجاح الذى حققه الصينيون فى تحويل أسرى الحرب الى الايديولوجية الشيوعية ، وذلك لعدم تيسر وسائل التقدير السليم للتحويل الايديولوجى ، وكذا لاستحالة تقدير التأثيرات المستترة لهذا التثقيف •

على أنه فى ضوء المعيار المكشوف الواضح للتحول الايديولوجى فاننا نستطيع أن نقول : ان البرنامج الصينى كان عملا غير موفق اذا ما قورن بالجهد الذى وجه اليه وبذل فيه ، فان عدد الافراد الذين رفضوا العودة الى وطنهم والذين لا يتجاوزون الواحد والعشرين يعتبر صغيرا جدا ، وربما قد فضل هؤلاء البقاء لاسباب غير التحول الايديولوجى(١) ثم ان الرأى الاجماعى بين الاسرى كان ينصب على أن أولئك الذين تعاونوا كانوا من الانتهازيين ومن الضعفاء الواهنين . وعلى أية حال فان كل ما يستطيعه المرء هو أن يقدر على أساس التخمين والحدس كيف عمل هؤلاء الاسرى الذين آمنوا بالشيوعية على اخفاء اتجاههم هذا عن زملائهم ، كما يستطيع أن يقدر الدرجة التى هيىء بها هؤلاء الأفراد لتقبل العقيدة الجديدة •

والحق أنه من الصعب أن نقرر ما اذا كان عدم توفيق البرنامج الصينى النسبى يرجع الى عدم كفاية مبادئهم للتثقيف ، أو الى ضعف أسلوبهم الفنى لتنفيذ هذا البرنامج أو نتيجة هذين العاملين معا •

على أن الممارسة العملية كانت فعلا غير ذات أثر ايجابى نتيجة أن الكثيرين من المدربين كانت تنقصهم الخبرة بالثقافة الغربية ، ولم يكونوا يجيدون التفاهم باللغة الانجليزية ، وكان الكثير من « الحقائق » التى أعطوها للأسرى عن وطنهم تشوبها الدقة ، ومن ثم فانهم لم ينجحوا فى الحصول على مستمعين يستجيبون لما يقولونه ، هذا عدا أن محاولاتهم للتعليم بواسطة المناقشات الجماعية لم تحقق

---

(١) ناقشت فرجينيا باسلى فى كتابها « ٢١ بقوا » 21 Stayed طبع نيويورك عام ١٩٥٥ بعض العوامل فى حياة هؤلاء الذين بقوا ولكن كتابها مع الأسف لا يعتبر كاملا لأنها أغفلت العوامل والقوى المؤثرة وراء اولئك الذين قرروا العودة بالرغم من تعاونهم بصورة او باخرى

اغراضـــهم لأنهم لم يدركوا ســخرية الأسرى من المصطلحـات الانجليزية التى اصطنعوها للتعبير عن آرائهم ، وذلك نتيجة لضعف تمكنهم من اللغة •

ومع أن وسيلة التعليم عن طريق اقامة علاقات شخصية وثيقة بين المعلمين والطلبة تعتبر وسيلة ناجحة جدا فى نشر البرامج العقـائدية ، فانه لم يتوافر للصينيين فعلا العدد الكافى من المعلمين الصالحين للقيام بهذه التجربة ، ومن ثم لم يوفقوا فى تثقيف أكثر من حفنة من الرجال •

وكان أسلوب الصينيين لتحطيم كل المنظمـات ذات الطـابع الرسمى ، أو المنظمات التى قامت بين الأسرى بدافع من أنفسهم ناجحا جدا فى خلق شعور بالعزلة الاجتماعية والعاطفية ، ولـكن هذا الأسلوب لم يكن كافيا قط بالقدر الذى يجعل الأسرى يعتمدون تماما على الصينيين ، ذلك لأن الفرصة لمقاومة هذا التثقيف كانت تظل قائمة ما دام الاسرى يعيشون معا ويتلقون هذه الدراسات فى جماعة واحدة ، وبذلك كان فى استطاعتهم أن يتعرفوا وجهـات نظر بعضهم بعضا مما كان يهيىء لهم طاقة على تبين الحقيقة بقدر يكفى للمقـاومة بشـكل مستتر ، اذ لم يستطع الاسرى تبعـا للسيطرة والرقابة تكوين مقاومة علنيـة منظمة ، أو اقامة علاقات مع الخارج بواسطة تهريب المعلومات سرا خارج البلاد •

وكانت أقوى دعائم الجدل ضـد الشيوعية تدور حول المستوى المنخفض للحياة فى قرى كوريا الشمالية التى عاش فيها الاسرى ، وجادل الكثيرون منهم كيف يمكنهم أن يصدقوا نظاما تبدو قيمه أخاذة جذابة على الورق دون أن تمارس عمليا ، ولم يستطع الكثيرون أن يتقبلوا ما قيل لهم : ان هذه الاحوال ما هى الا لظروف موقوتة •

ويمكن أن يقال اجمالا : أن الصينيين نجحوا فى تقييد بعض أنواع السلوك بين الاسرى ، ولكنهم لم ينجحوا تماما فى تحويل معتقداتهم • ولكن عدم النجاح الكامل قد يرجع الى عدم كفاية برنامج التثقيف ، نتيجـة قلة توافر المعلومات الصحيحة لدى الصينيين ، وكذا النقص الكبير فى المدرسين والمرشدين •

وفى الحروب قد يحدث تعاون مع العدو من جانب الاسرى بدرجة تقل أو تكثر عن ذلك •

وفى الحرب العالمية الثانية شـاهدت كل معسكرات الاسرى أنواعا متباينة من التعاون الا انه لم يحدث أن واجه الاسرى جهدا منسقا منظما يهدف الى دفعهم الى التحول ايديولوجيا وجعلهم موالين سياسيا للجانب الآخر •

وكانت السابقة الوحيدة فى التاريخ الحديث هى معاملة النازيين للمعتقلين السياسيين على ما وصفها بروتو بيتلهيم بقوله : « لقد استطاع النازيون بواسطة التطرف فى التعذيب البدنى والنفسى ارجاع أسراهم الى « حالة الطفولة » وهى حالة ينظر فيها الاسير الى حارس السجن أو المعتقل برعب ، كما ينظر الطفل الى أبيه الذى يخافه ويخشاه » •

وتحت هـذه الظروف والاحوال ، مال المعتقلون الى ممالأة السـلطات التأديبية ، والى ممارسة الكثير من العادات التى ألفوها فى حياتهم العامة بالمعسكر لا سيما من ناحية السلوك اللائق داخل المعسكر • وقد يتذللون لينالوا حظوة لدى الحراس لدرجة أنهم كانوا يقلدونهم فى ارتداء الثياب وفى أسلوب الحديث ، ثم يحاولون دفع باقى المعتقلين لاتباع قوانين المعسكر بدقة تامة •

ومن المحتمل أن يكون الصينيون قد اتبعوا هذا الاسلوب فى معسـكرات الاسرى الا ان النازيين نجحوا فى جعل المعتقلين لينى الشكيمة ، وهبطوا بهم الى مستوى الاطفـال المستسلمين ، كما حولوهم الى عمـال رقيق يعملون فى خنوع وخضوع ، على حين اتخذ الصينيون سياسة الملاينة ومعاملة المعتقلين كرجال فى حاجة الى التثقيف بغية الوصول الى « مهتدين » يعاونون ايجابيا على وجهة النظر الشيوعية •

ولم يعـامل معاملة تاديبية الا أولئـك الاسرى الذين حاولوا أن يظهروا بمظهر المتخلفين فى الفهم أو الادراك ، أو « الرجعيين » الذين لم يستطيعوا تبين حقائق الشيوعية وادراكها •

وكان لب هذا الاقتراب الجديد يهدف الى سيطرة كاملة على الاسرى جسمانيا واجتماعيا ، أى السيطرة على كل العوامل التى تدعم وتعضد الاتجاهات والمعتقدات والقيم الجديدة ، وتحطم كل الروابط العاطفية التى توطد القيم والمعتقدات القديمة •

واذا كان الاتصال الوحيد الذى كان مسموحا به للفرد هو اتصاله بافراد تسودهم معتقدات تخالف وتباين معتقداته ، فمن المحتمل أنه سيجد فى النهاية بعض المعتقدات المشتركة بينه وبينهم • ومن ثم فانه لا يلبث ان يصير بعد وقت مؤمنا ببعض هذه المعتقدات •

ولنتساءل هل يكفى السلوك المتعاون فى حد ذاته تحقيق عملية التحول الايديولوجى ؟ ••

قد يحتمل أن يقوم المرء بأى أعمال تتفق مع ايديولوجية جديدة ، بل قد يضطر الى اعتناق مبادئها لكى يبرر سلوكه فى المجتمع الذى يعيش فيه •

والانسان تحت ظروف معينة غالبا ما تتشابك آراؤه ومعتقداته مع الجماعة التى يعيش معها ، كما ان هناك من العوامل المتعددة التى قد تجعل الانسان يقتنع بمبررات العقيدة الجديدة •

على ان عوامل التبرير والتسويغ التى تستخدم للتبشير المذهبى الجديد قد لا تتضمن ثبات هذه المعتقدات اللهم الا اذا صحبتها عوامل اجتماعية تعززها ، فقد يؤمن الانسان بمعتقدات جديدة تحت ظروف معينة وبايمان عن تفاؤل من تطور اجتماعى ، ولكنه قد ينفض يديه من هذه المعتقدات اذا تغيرت الظروف وعاد الى عقيدته الاولى ، وحينئذ يجد من المبررات والوسائل ما يجعله يرتد عن العقيدة الجديدة •

وفى برنامج التثقيف الصينى للاسرى نجد أنه علاوة على الصعاب الفنية التى واجهها الصينيون فى اجراء برنامجهم للتثقيف لم يكونوا قادرين على السيطرة على الاتصالات الاجتماعية بالقدر الكافى الذى يمكنهم من تعزيز العلاقات الأجتماعية ذات الطابع الشيوعى ، والتى يمكن بها تبرير هذا التعاون •

على أننـا عندما ننظر الى الاسـلوب الذى عمـل به الصينيون وأدى الى الانعزالية الفردية ، نجد أنه لا يعتبر عملا جديدا أو مخيفا ، كما أنهم لم يخترعوا أى وسائل غامضة للتعامل مع الناس ، وكان أسلوبهم للسيطرة على المعلومات بالرقابة الكاملة على كل وسائل النشر أسلوبا معروفا عن كل الحكومات الطغوائية فى كل مراحل التاريخ • ثم ان أسلوبهم فى الدعاية بواسطة : المحاضرات ، وأفلام السينما ، والنشرات ، والكتب أسلوب معروف له مثيله فى عمليـات التعـليم والاعلان فى النظم الغربية ، كما أن نظام المناقشات الجماعية وغير هذا من الوسائل التى تتطلب اشتراك الافراد معا فى النقاش والجدل لها شبيهها فى التعليم ، وفى علاج الامراض النفسية والعقلية •

لقد كانت مسألة أفضلية المناقشات الجماعية على المحـاضرات للوصول الى قرارات متوازنة من أولئك الذين يشتركون فى المناقشات موضع بحوث ضافية فى مدارس علم النفس الغربية •

وكذلك كانت أساليب الصينيين للاستجواب معروفة وتستخدم على نطاق واسع فى الجيوش الاخرى بل بواسطة : رجـال البوليس ، ومخبرى الصحف ، وكل المهتمين بالحصول على معلومات مستترة مخفية •

وشىء آخر هو أن الاعترافات التى تجىء قسرا وبنقد النفس قد استخدمت بدرجة كبيرة بواسـطة الحركات الدينية كقـاعدة للتحول الدينى ، أو كوسيلة لنشر عقيدة دينية معينة كما جاء فيما قبل •

ثم ان تقييد السلوك عن طريق الحث والمكافأة ، أو عن طريق العقـاب لهو أقل وسائل الصينيين جدة واستحداثا ، ذلك لأن الناس قد سيطروا على بعضهم بعضا بالمنح وبالعقاب منذ أقدم عصور التاريخ •

وكان الشىء الجديد الذى استحدثه الصينيون هو أنهم لجئوا الى كل هـذه الوسائل مقترنة معا فى وقت واحد ، وذلك بقصد الحصول على سيطرة على الجزء الأهم من البيئة الجسمانية والاجتماعية لمجموعة من الناس •



توجيه الفكر

تحدثنا فى الباب الرابع عن أسـاليب الاستجواب واستنطاق الاعترافات فى المجتمعات المختلفة ، كما بينا فى الفصل السابق برنامج الاصلاح الايديولوجى لدى الصينيين بصفة عامة والذى طبق على أسرى الحرب فى كوريا •

وفى هذا الفصل سنحاول أن نبحث بشىء من التفصيل حالتين من الحالات التى واجهت عملية توجيه الفكر فى سجون الصين : احداهما لطبيب فرنسى عمل فى الصين لمدة عشرين عاما قبل سجنه ، ويدعى الدكتور تشـارلس فنسنت ، والاخيرة لقسيس ايطالى يدعى الاب فرنسيس لوقا •

وعلى الرغم من أن هذه المعلومات قد لاتكون دقيقـة تماما ، أو قد يكون فيها مبالغة بخاصة أنها جاءت على ألسنة الذين تعرضوا لها ، فان دراستها من الزاوية العلمية ذات أثر نافع ، فهى تعطينا فكرة واضحة لردود الفعل التى قد تحدث للانسان اذا ما تعرض لمثل تلك التجربة ، كما توضح بعض الأساليب التى تستخدم للتأثير على معتقدات الناس وشل ارادتهم الحرة •

على أننا سنحاول أن نقوم بتحليل سيكولوجى واف للمشاعر التى كانت تختلج فيمن تعرضوا لها ، حتى نستطيع أن نخرج بدراسـة وافية عن هـذا الموضوع •

ونود أن نشير هنا الى أن حالة الدكتور فنسنت تبرز أساليب « اعادة التثقيف » وتوضح حالة الأب لوقا كيف يمكن أن يدلى الانسان باعتراف زائف تحت ظروف وتوترات معينة حتى يصل به الامر الى أن يصدق هو هذه الاعترافات ٠

كما نود أن نشير أيضا هنا الى أحد تعليمات السجن الصينى الشيوعى التى ترتبط ارتباطا وثيقا بعملية « توجيه الفكر » واننا نضع ترجمتها أمام القارىء لأنها تعطى تلخيصا للأسلوب الذى يستخدم داخل جدران السجن لتطبيق عملية التثقيف ٠

« تتبع فى معاملة المجرمين اجراءات مطردة منتظمة من : تجنيد جماعات للاصلاح ، الى مقابلات أو اجتماعات فردية ، مع دراسة الوثائق المقدمة منهم ، ثم اجراء مناقشات منظمة عامة بقصد تعليمهم الاعتراف بالذنب ، واطاعة القانون ، والانصياع للأحداث السياسية الجارية ، علاوة على العمل الانتاجى والتثقيف ٠ وبذلك يمكن الكشف عن طبيعة جرائمهم التى ارتكبوها ، وازالة الأفكار الاجرامية ، واقامة شريعة معنوية جديدة يدينون لها بالولاء » ٠

اعادة التثقيف :

كان الدكتور فنسنت أحد الأطباء الأجانب الذين عملوا فى شنغهاى ، وكان بين عملائه عدد كبير من المواطنين الشيوعيين ، وظل يمارس عمله حوالى العشرين عاما فى راحة ويسر ٠

ولكنه بعد ظهر أحد الايام وهو سائر فى أحد طرق شنغهاى اعترضه خمسة رجال شهروا مسدساتهم نحوه ، وقدموا له أمرا باعتقاله واخذوه الى مكان الاعتقال أو الى « مركز اعادة التثقيف » حيث قضى السنوات الثلاث والنصف التالية ٠

وتعرض فنسنت فى الاسابيع الثلاثة الاولى وهو فى سجنه لتلك الصور التى يستخدمها الصينيون فى استجواباتهم والتى سبق ان شرحناها فى الباب

الرابع ومن ثم لن نعرض لها خشية الملالة • وبعد ثلاثة أسـابيع قضاها في السجن وهو يستجوب تحت تلك الظروف القاسية ، قدم اعترافاته عن جرائمه التي نسجها من خياله نتيجة التوترات الشديدة التي فرضت عليه •

على أنه حين بدأ يتكلم من وجهة نظر الشعب الصيني ـ على حد تعبيرهم ـ شعر فجأة بالتحسن الكبير في أسلوب معاملته ، اذ نزعت عن يديه وسـاقيـه الاغلال والسلاسل ، وسمح له بأن يجلس مستريحا وهو يتحدث الى المحقق ، وقيل له : أن الحكومة تأسف لانه واجه مثل هذه المتاعب وان تكن الحقيقة أنها أرادت بهذا كله معاونته ، وتمشيا مع سياسة الملاينة التي أخـذت بها نفسها فانها لابد من أن تعامله برفق ، وقد تطلق سراحه بسرعة اذا قدم « اعترافا كاملا » وحاول أن يعمل بجهد وجد لاصلاح نفسه » •

وفي هذه المرحلة وجه توجيها وديا لمعاونته في اعادة كتابة اعترافه ، وقد أعطاه هذا التغيير في حالته دافعا لان يكيف نفسه مع الواجب الذي يطالبونه به • ولكنه سرعان ما وجد أن هذا « التوجيه » لم يكن لين الملمس ، ففي مرات ثلاث حينما بدأ نوعا من المقاومة رافضا الاعتراف بارتكابه أمرا معينا قائلا : « انني لم افعل هذا •• » أعيدت الاغلال الى يديه وعاد الى زملائه في غرفة السـجن لمهاجمته بالاقوال المقذعة ، وفي كل مرة كان يظل في اغلاله ليومين أو لثلاثة أيام » .

لكنه على أي حال لم يتعرض ثانية لما تعرض له في الايام الاولى لسجنه ، فكان يسمح له بالنوم ثماني ساعات ، وبدات جلسات التحقيق تاخذ طابعا هادئا وسمح له بالجلوس على مقعد في اثناء التحقيق ، ولم يعد زملاؤه في السجن يثيرون ضجة من حوله • وهكـذا قضى الاسبوعين أو الاسابيع الثلاثة التالية لا يفعل شيئا عدا زيادة تفاصيل اعترافه • وكان في جلسات التحقيق يتلقى من المحقق مزيدا من التعليمات التي تكشف له عن الطريقة الصحيحة لتطبيق « وجهة نظر الشعب » في كل ما يكتب أو يقول •

وبعد هذه المرحلة التي استغرقت حوالى الشهر اخذ فنسنت يسهم بنصيب في عملية « اعادة التعليم » ، وكان معنى هذا الاسهام النشط في برنامج دراسة الجماعة Hsaeh hsi التي كانت تستمر من عشر الى ست عشرة سـاعة يوميا •

وكان الاجراء للدراسة ميسرا كما بينا اذ تجلس الجماعة تحت اشراف رئيس الغرفة « الزنزانة » ، ويقرأ أحد « المسجونين » شيئا ما من : جريدة شيوعية ، أو من كتاب ، أو من نشرة ، فاذا ما انتهى من القراءة كان على كل فرد أن يعبر عن رأيه فيما سمع ، ومن يمتنع عن ابداء رأيه يوجه اليه لوم عنيف من كل الأفراد الآخرين وكان على كل فرد كذلك أن ينتقد وجهات نظر الآخرين ، كما كان من الضرورى أن يعرف كل فرد كيف يعبر عن وجهة النظر الصحيحة فى ضوء ما يرى الشعب ، وأن يطبق هذا لا فى المسائل الشخصية فحسب بل كذلك المسائل : السياسية ، والاجتماعية ، والثقافية • ومع شعور كل سجين بأن حريته واطلاق سراحه رهينان بما يقول ، فان الاشتراك فى المناقشة كان عنيفا نشطا دائما لان كل فرد يريد أن يتكلم وأن يناقش •

ولقد ركزت المناقشات على ما وجهه الغرب للصين فى الماضى من اهانات مثل : التوسع الاقليمى، أو الاعتداء على السيادة الصينية، أو طلب امتيازات خاصة للمواطنين الغربيين ، ووجهت اليه وحده تهمة خطيرة هى أنه تحت ستار معطف الطبيب لم يكن أكثر من : ممثل « للاستغلال » وعميل « للامبريالية » و « جاسوس » كانت كل أعماله منذ البداية « ضارة بالشعب الصينى » •

وكان النقاش الذى يبدأ عادة فى مستوى ثقافى عام يتحول سريعا ليعنى بالتحليل وبالنقد الشخصى ، وعندما كان يبدو أن الدكتور فنسنت تنقصه الخبرة فى مسألة ما ليتعرف على حقيقة وجهة نظر الشعب ، أو عندما تبدو آراؤه خاطئة كان لزاما عليه « أن يفحص نفسه » وأن يتعرف وحده أسباب هذه الاتجاهات « الرجعية » ، كما كان عليه أن يبحث عن المؤثرات « البورجوازية » و « الامبريالية » الضارة التى تلطخ ماضيه وذلك للوصول الى اعادة تقييم حاله ، والى « نقد النفس » حتى يصل الى الحقيقة من « وجهة نظر الشعب » •

وفى بعض الأوقات كانت غرفة السجن تأخذ طابعا أكاديميا ، اذا عرضت للمسجونين النظرية الماركسية ووسائل تطبيقها على المشكلات الصينية والمشكلات الدولية • وكان يطلق على المسجونين فى هذه المرحلة « زملاء الدراسة » كما كان يشار الى موظفى السجن بأنهم « المعلمون » •

وفى عملية اعادة التثقيف كان يفرض على المسجونين الاصغاء الى ما كان يشير اليه المعلمون من تقدم المواطنين ومستقبل الشعب ، وما كانوا يقولونه لهم عن نظريات ماركس في التاريخ التى علمتهم أنه يجب القضاء على الامبريالية •

وكانوا يدللون على ذلك باعطاء أمثلة ، فيشيرون الى أعمال الكبت والقمع التى مارسها الامبرياليون فى الصين ، وكذا الى أعمال الهيئات التبشيرية من الارساليات الدينية التى كانت تساعد الامبرياليين ملاك الارض وحزب الكومنتانج « الصين الوطنية » تحت ستار أعمال الخير ، وكل هذه الامور أضرت بالشعب •

ومن ناحية أخرى كان يشـــار دائما الى تقــدم الاتحاد السوفييتى فى : التصنيع ، والنهوض بالشعب ، ومد يده بالمعونة الاخوية للصين ، ثم تدرس لهم مشروعات : السنوات الثلاث ، والسنوات الخمس الصينية على أساس أنها تسعى للوصول الى مجتمع اشتراكى ، وتهدف الى تحقيق نهضة كبيرة فى : الزراعة ، والصناعات الثقيلة ، والقوات المسلحة المدافعة عن الشعب •

كما كانوا يركزون كثيرا على ارتفاع مستوى معيشة النــاس فى الاتحاد الســوفييتى ، ويدللون على ذلك بعرض أفــلام سينمائية ، واصــدار دوريات اسبوعية ، وصحف يومية •

ثم كانوا يدللون على تحسن أحوال الصينيين بعد التحرير مشيرين الى : النهضات الصحية ، والثقافية ، والاقتصادية ، ومنح الحقوق للاقليات ، واعطاء ما للرجل وما للمرأة من حقوق ، مع عقــد المقارنات بين « الحرية » فى العــالم الاشتراكى وبين الحرية فى العالم الامبريالى • فهم يحلون كل مشكلة عن طريق المناقشة حتى ولو كانت مشكلة الحرب الكورية ، أو الحرب الصينية الهندية ، وهم لا يستخدمون القوة كالامبرياليين بل يرون أن كل مشكلة يجب أن تحل عن طريق النقاش والجدل فى المؤتمرات •

ولقد تعلم الدكتور فنسنت أن يعبر تلقائيا عن كل ردود الفعل ، وعن كل وجهات النظر فى أثناء المناقشات ، كما استطاع أن يبرز « أفكاره الخاطئة » ، ويصف فنسنت حالته هذه بقوله :

« يجب عليك أن تتخلص من كل أفكارك الامبريالية وأن تتنكر لها ، كما يجب أن تنتقد كل افكارك بتوجيه من مستخدمى السجن ، فان لم تستطع فستجد هناك الشخص الآخر الذى يحل مشكلاتك ويوجه اليك الانتقاد بدرجة أكبر ٠ انك تشعر بوجود مسألة محيرة أمامك أو مشكلة معقدة تبدو لك ، ومن واجبك أن تعلن عن هذه المشكلة المحيرة ، ومن الضرورى أن يعاونك زميل من زملائك فى الدراسة أى من الذين يزاملونك فى غرفتك فى السجن ، ومعاونته لك تعنى أن يجعلك تدرك وجهة النظر الصحيحة ٠

وهم يقولون لك : أنت لديك مشكلة ٠ وأقول أنا مثلا : اننى أدهش لماذا لم يصادر الصينيون ممتلكات الرأسماليين كما فعل السوفييت ؟ اننى اظن أنه يكون من الافضل أن يفعل الصينيون ما فعله السوفييت ، وهذه هى مشكلتى التى تحيرنى !

« وهنا يجىء زملاء الدراسة لحل مشكلتى ، وليوضحوا أننى فى جانب الخطا ، ذلك لان الشيوعيين الصينيين يجب أن يعملوا بأسلوب آخر ٠ ان هدفهم الاصلاح لا القسر ٠ ويوضح لى الزميل أن الثورة السوفييتية تختلف عن الثورة الصينية ، وأن الصينيين قد قاسوا الأمرين من الرأسماليين لأن الرأسماليين لم يمنحوهم الفرصة لتطوير صناعاتهم ، ولكن الرأسماليين الصينيين الآن اتجهوا لنفع الحكومة الصينية ، وهم يمرون بعملية الاصلاح ، ولو ساروا فى طريق الثورة فسيكون مستقبلهم زاهرا ٠

« كان عليهم أن يوضحوا هذه الحقائق حتى اقتنع بها ، فاذا لم اقتنع وجب ألا أذكر عدم اقتناعى بل أذكر أننى لم أفهم ما قيل لى ، ومن ثم فانهم يعرضون على حقائق جديدة ، فاذا لم أكتف بهذا كان من حقى أن أستدعى أحد المفتشين ليوضح لى كل شىء ٠

« وهكذا يمر بك اليوم بطوله وأنت تحت ضغط ضرورة الاعلان عن أفكارك، وحل مشكلاتك دون أن تستطيع الفكاك ، ذلك لأنهم يستطيعون ـ على حد ما يقولون ـ معرفة ما يختلج فى نفسك من انفعالات داخلية ، واذا ما تابعت الاعلان عن آرائك فانت تشعر بسعادة للافصاح عن نفسك ، ولا تستطيع مقاومة

هذا الاصلاح » فهم يحفظون لك سجلا يقيدون فيــه كل تصرفاتك ، فاذا مــر أسبوع دون أن تذكر شيئا قالوا لك : انك بدأت فى مقاومة اعادة التثقيف ! أما اذا قدمت خمس مشكلات أو ستا فان ذلك يعتبر دليلا على أنك تتقدم لأنك تريد أن تناقش أفكارك الامبريالية ، وهذا الامر ضرورى لأنك لو لم تتخلص من هذه الأفكار فلن تستطيع الحصول على أفكار جديدة ، فالمسألة هى مسألة تفريغ للشحنة القديمة الموجودة لامكان وضع شحنة جديدة مكانها » •

وحينما كان فنسنت يلتزم الهدوء ولا يعرض ما يكفى من « الآراء الخاطئة » فان الكثير من الاتهام بعدم اخلاصه كان يوجه اليه ، واذا ما تكشفت وجهات نظره عن أقل انحراف أو تحول عن الاتجاه الشيوعى فانه كان يخطر بأنه صار « موضوعيا الى حــد بعيــد » أو أنه « انفرادى » أو أنه اســتعاد « اتجــاهاته الامبريالية » ، واذ يبدو عليه أنه لا يندمج تماما فى عملية الاصلاح فانه يتهم بأنه : ينشر « سحابة من الدخان » أو « يضع سجفا على النافذة » أو أنه « يبحث عن منفذ ومهرب » أو أنه « لم يوفق فى أن يقرن النظرية بالعمل » • وبعد وهلة يجد نفسه متتبعا توجيه الآخرين فى البحث عن هذه الأخطاء فى نفســه عن طريق نقد النفس ، وعن طريق تحليل أسبابها ومغزاها •

وقد أشرنا من قبل الى أن جزءا من ساعات الدراسة كان يخصص كل يوم « لنقد الحياة اليومية » : الخلق العام ، الاتجاهات نحو الآخرين ، الرغبة فى القيام بنصيب الفرد من العمل فى غرفة السجن ، عادات الأكل والنوم • فاذا ما خالف فنسنت شيئا من ذلك دون قصد فانهم كانوا يعزون ذلك الى أفكاره الاستغلالية « الامبريالية » أو « البورجوازية » •

واذا ما لوحظ تراخ فى عمله انتقد على أساس أنه يفتقر الى وجهة النظر الصحيحة للعمل : فلو أسقط طبقا مثلا على الارض كان هذا اسرافا فى نقود الشعب وتبديدا لها ، واذا ما احتسى كميات كبيرة من الماء كان هذا امتصاصا لدماء الشعب ، واذا ما شغل مساحة كبيرة من أرض الغرفة عند نومه كان هذا « اتساعا امبرياليا » •

وظل فنسنت حتى هذه المرحلة يسمع الأحاديث عن الناس الذين أعدموا نتيجة قيامهم بمقاومة لعملية اصلاح أنفسهم ، ولكنه من جانب آخر سمع عن : « المستقبل الزاهر » وعن اطلاق السراح المبكر ، والاقامة السعيدة فى الصين لكل أولئك الذين « تقبلوا عملية اعادة تثقيفهم » •

وبعد مضى عام تقريبا على هذا النحو من اعادة التثقيف تعرض فنسنت من جديد لسلسلة من الاستجوابات تهدف الى اعادة اقامة كيان لاعترافه • وكانت الحكومة تأمل فى أن تهيىء للفرد الذى يقضى عاما كاملا فى السجن ظروفا تمكنه من أن يفهم جرائمه « على نحو أفضل » •

والآن بعد عام كامل ركز القاضى اهتمامه على عدد قليل من النقاط المختارة من الاعترافات الكثيرة التى حررها فنسنت ، وبذلك انتقل من مرحلة الاعتراف المطلق الذى يهتم بالكم الى مرحلة اعتراف مقصور على نقاط معينة •

وكانت اعترافاته الاولى دلت على أنه ارتكب ثمانى جرائم ، فقد : انضم لمنظمة سياسية فرنسية ، وقام بعمليات « تجسس » ، وحاول الحصـــول على معلومات وتعاون مع أمريكيين وكاثوليك وجماعات رجعية أخرى مماثلة ، وقام أيضا بنشاط معاد للشيوعية ، كما أهان الشعب الصينى بالسب •

على أن فنسنت أصبح الآن ينظر الى الأمر من « وجهة نظر الشعب » ، ومن ثم أصبح للاعتراف طابع أكثر واقعية عما كان من قبل • ويصف ذلك بقوله :

« فى بعض الأحيان يتجمع لك الشعور بأن تنظر الى نفسك من وجهة نظر الشعب ، وتحس أنك مجرم فى حقه ، ولكن هذا الشعور لا يستمر طول الوقت ، وتقول لنفسك : « لقد فعلت هذا واذن فانا مجرم ! وحتى عندما تشك فى هذا فانك تحتفظ بهـذا الشك لنفسك لأنك لو صرحت به فانك تعـود من جديد للمجاهدة على أساس انك فقدت ميزة كل التقدم الذى حققته من قبل • وبهذه الطريقة يوجدون فيك : « عقلية جاسوس » ، ويبنون فى أعماقك شخصا مجرما ،

وحينئذ يصبح كل ما اخترعته أنت واصطنعته من اعترافات حقيقة لها كيانها ، وتبدأ تحس جرمك طالما رحت تنظر الى نفسك من وجهة نظر الشعب ، وكلما تعمقت فى وجهة نظر الشعب ازداد ادراكك لجرائمك » •

وكان من أهم النقط التى يرتكز عليها الصينيون فى مناقشاتهم الهجوم على الرأسمالية ، وتفسيرهم لصور استغلالها • فكان المسجونون يدرسون : مفهوم الاستغلال ، ويوضح لهم حقيقة الفرد الرأسمالى ، ومعنى استعباد الشعب واستغلاله ، وكيف يمكن لجماعة صغيرة من الناس أن يستمتع أفرادها بالحياة على حساب الجماهير ، وكيف يحصلون على مالهم من دماء الشعب ، وليس نتيجة عملهم •

وتبعت هذه المرحلة مرحلة أخرى امتدت أربعة عشر شهرا استغلت كلها فى اعادة التثقيف ، واستمر فنسنت يحشد كل جهده لتطبيق النظرية الشيوعية على موقفه الشخصى موضحا ادراكا أوسع لجرائمه •

ولم تكن أوجه نشاطه اذ ذاك مقصورة على حالته وحده بل أصبح الآن قادرا على نقد الآخرين ، ويعاونهم فى الادلاء باعترافاتهم وفى اصلاح حالهم • لقد صار سجينا مدربا على نظام السجن وأخذوا ينظرون اليه على أنه يكشف عن تقدم كبير • والواقع أنه بدأ يصدق الكثير مما يقوله ، وان لم يكن فى أسلوب ميسر عادى •

ويصف فنسنت ذلك بقوله :

« قد تبدأ فتصدق كل شيء ولكن فى طابع خاص من التصديق ، فأنت لا تعتقد بهذا عن ايمان بل تتقبله لكى تتجنب المتاعب ، ذلك لأنك فى كل مرة تبدى عدم موافقتك تبدأ المتاعب من جديد » •

وفى السنة الثالثة من سجنه استدعى من جديد لمراجعة اعترافه ، وكانت وثيقة الاعتراف قد صارت أكثر ايجازا وأكثر اقناعا ، وبدأ يفكر فى الحكم ودرجته مقدرا ذلك من وجهة نظر الشعب على أساس أنها صارت جزءا منه •

كان يشعر أن الحكم سيصدر ، وأنه سيرسل الى مكان ما غير السجن الذى يقضى فيه فترة انتظار الحكم ، كما كان يفكر فى مدة السجن التى سيحكم بها عليه والتى قد تكون عشرين سنة أو خمسا وعشرين ، ثم يتصور أنهم سيرسلونه الى مكان للاصلاح عن طريق العمل ، أو الى مصنع ، أوحقل ‥ انهم متسامحون ‥ ان الحكومة سخية ، والشعب شعب كريم !

وأخطر فنسنت بأن اتجاهه تحسن بدرجة كبيرة ، فنقل الى جناح آخر فى السجن ، وأعطى امتيازات لا تقدر بمال ، كالسماح له بقضاء ساعة فى تدريب خارج المبنى مع أوقات أخرى للراحة فى غرفة السجن ٠ ووجد فنسنت نفسه يعيش حياة متناسقة مع آسريه ، وخلال الشـهور القليلة الأخيرة من سـجنه سمح له : باعطاء دروس فى اللغة الفرنسية للمساجين الآخرين ، والقاء بعض دراسات فى الطب على طلاب يحضرون الى مبنى السجن ، ولم يكن هذا كله دون قصـد ، فقد أدرك فنسنت الهدف من ذلك ، اذ أرادوا أن يوضحوا له أنهم لا يقفون موقف التضاد من عمله أو من مهنته كطبيب ، وانما هم يقفون موقف التضاد فقط من عقليته الرجعية ، كما كان هدفهم أن يوضحوا له أنهم يوافقون على عمله وأنهم يتقبلون نظرياته ٠ لقد كان هدفهم أن يوضحوا له ما معنى أن تعيش بين الشعب كفرد من أفراده ، ويثبتوا له أن الحياة بين أفراد الشعب انما هى حياة طيبة دائما ٠

وسرعان ما استدعى ليوقع رسميا على اعترافه بلغته الفرنسـية ، وعلى ترجمة للاعتراف باللغة الصينية ، ثم التقطت له عدة صور وأخذ له فيـلم سينمائى ، وطلب منه بعد ذلك أن يقرأ اعترافه بصوته لتسجيله ، لكى يذاع على نطاق واسع فى ارض الصين ، وفى أنحاء كثيرة من العالم ٠

وبعد فترة قصيرة استدعى للمثول أمام القاضى ، وتليت عليه الاتهامات التى وجهت اليه ، والتى أعتبر أنه قام بها ضد الشعب الصينى ، ثم صدر الحكم بسجنه ثلاث سـنوات كانت قد استنفـذت كلها ٠ ومن ثم أبعد مبـاشرة من الصين ، وفى مدى يومين كان فى سفينة انجليزية متجهة الى هونج كونج ٠

ويبدو من قصة الدكتور فنسنت أنه كان حصيلة ناجحة « لاصلاح الفكر » ولكنه كان يشعر فى غمرة اضطرابه وخوفه أنه موضع مراقبة مستمرة ، وكانت أعراض « البارونيا » التى ظهرت عليه(١) امتدادا داخليا لما أحيط به فى السجن ، ويصف هذه الحالة بقوله :

« اننى أعتقد أن شخصا ما يتجسس على • ان امبرياليا يتجسس على لأننى قادم من العالم الشيوعى ، كما أنه يهتم بأن يدرك فيم أفكر ؟ وعندما أعمل أى شيء فاننى أحس وكأن شخصا ما يراقبنى بفكره ليعرف ماذا يدور فى قرارة نفسى • لقد دربنا على هذا فى أثناء فترة اعادة تثقيفنا » •

وفى هذه الحالة العقلية يصف فنسنت حالة انفصام الشخصية التى كانت تسود كل تصرفاته :

« عندما تركت الصين كنت أحس هذا الشعور الغريب ، وكنت أهمس لنفسى : أننى ذاهب الى العالم الامبريالى ولن يعنى بأمرى أحد ، سأتعطل عن العمل وسأضيع فى هذا العالم الفسيح ، وسينظر الى كل فرد على أننى مجرم ! على أنه قد خطر لى أيضا أن فى وطنى حزبا شيوعيا وأنا قادم من العالم الشيوعى ولا شك أن الحزب يعرف أننى اجتزت مرحلة التثقيف واصلاح الفكر ، ومن ثم فربما يهمه الاحتفاظ بى ، ولربما يستطيع مساعدتى ومعاونتى ، وبذلك لن أواجه الضياع • سأذهب الى الشيوعيين وأخبرهم من أين جئت وبذلك سيكون لى مستقبل !

ولكن عندما وصلت الى هونج كونج ، تغير الموقف كله ، فقد بعث القنصل رجلا بقارب بخارى لأخذى من السفينة • لقد اهتموا بأمرى وسألونى عن كل ما أحتاج اليه ، وأخبرونى أنهم بعثوا برقية الى حكومتى والى أسرتى ، وجاءوا

(١) Paranoid وهى مرض عقلى قوامه اعتقادات خاطئة اما فى هيئة هذاءات عظيمة واما فى هيئة اضطهاد •• الخ •

بى الى غرفة جيدة الرياش ، وأعدوا لى طعاما جيدا ، وأعطونى نقودا للانفاق ، لقد أبدى العالم الرأسمالى نحوى أكثر مما كنت أظنه سيفعله » •

وفى كفاح فنسنت للوصول الى جانب من الواقعية كانت ادراكاته الحسية لبيئته الجديدة تتذبذب بين عدة معتقدات ومتأثرة دائما بخوفه وقلقه ، وأخذ يستعيد وهو فى هذه الحالة الكثير من التعاليم التى تلقاها فى عملية التثقيف الفكرى •

فمثلا حينما وصل الى هونج كونج قابله أجنبى آخر قادم من الصين ووضعه فى موقف حرج حينما حدثه عن سوء الحال فى شمالى الصين حيث يستحيل الحصول على اللحم هناك ، كما أخبره أنهم يستخدمون بطاقات التموين لأن كل شيء يرسل الى الاتحاد السوفييتى ، وقد رد عليه فنسنت بأنه من المحال أن يكون هذا صحيحا ، فان الأجنبى يحب دائما المبالغة وهو شخصيا لم يسمع قط عن التموين بالبطاقات فى أثناء وجوده بالسجن ، ثم كيف يحصل الاتحاد السوفييتى على مواد الغذاء من الصين فى الوقت الذى يحقق الاتحاد السوفييتى مثل هذا التقدم ؟ لقد عرضوا عليه فى السجن بيانات الوجبات الغذائية فى الاتحاد السوفييتى من الزبد واللحم ، بل كل ما يشتهيه الانسان من ألوان الطعام ، وحينما سمع فنسنت أن الغذاء فى الاتحاد السوفييتى ليس كافيا أصبح فى حيرة وأخذ يسأل نفسه عن الحقيقة •

ومثال آخر وضعه فى موقف مماثل حينما قرأ فى مجلة أمريكية الكثير عن عمليات التطوير التى تجرى فى الولايات المتحدة فى صناعة القطارات الحديدية ، وقد سأل عن هذا مستفسرا فى دهشة لأنهم قالوا له : أن الامبرياليين يعنون فقط بالصناعات الخفيفة لاستغلال الشعب ، وأن الصناعات السوفييتية الثقيلة لها مراكز الصدارة فى كل شيء •

على أن فنسنت لم يلبث أن شعر بالقلق وهو في منتصف الطريق بين سلسلة المقابلات التي تجرى في بيئته الجديدة ، كما بدأ يحس أنه شخص مهمل من المجتمع الذى يعيش فيه • ومن ثم بدأ يقف موقف العداء من كل جديد يراه من حوله ، وهكذا ارتد من جديد الى اتجاهاته السابقة وصار متشككا في الدوافع الخارجية لكل شيء في هذه البيئة الجديدة التي تحيط به ، ويوضح هذا بقوله :

« انني أقرأ كل يوم في صحف هونج كونج أن الأطفال يتلقون اللبن والبيض عن طريق المعونة الامريكية ، ولكنهم قالوا لى في السجن : أن الامبرياليين الأمريكيين يعطون هذه الأشياء للشعوب للتمويه • أنهم يريدون أن يظهروا بمظهر من يهتم بغيره • انني أرى أن هذه في الواقع مسألة سياسية ، ولا شك أن شعورى هذا ليرتبط ارتباطا وثيقا باعادة تثقيفى » •

وصار فنسنت كثير الانتقاد بشكل ملحوظ لكل ما يراه من حوله ، واصبح يتوق دائما الى العودة بكل شيء الى ما قيل له داخل جدران السجن •

اعتراف زائف :

هذه هي الحالة الثانية التي وعدنا بتقديمها على أساس أنها صورة أخرى لعملية توجيه الفكر ، وهي عن الأب فرنسيس لوقا وكان قسا ايطاليا في أواخر الثلاثينيات من عمره ، قضى بين جدران سجن التوجيه في الصين ما يزيد على ثلاث سنوات •

وسنحاول في حالة هذا الأب أن نبرز العوامل : النفسية ، والفسيولوجية التي أدت الى جعله يدلى ببيانات واعترافات زائفة ، وأن نبين الى أى مدى نجحت معه عملية التثقيف •

وسواء أكانت محاولة « اعادة تثقيف » الأب لوقا قد نجحت أم لم تنجح فقد تحول تماما نحو الحياة الصينية ، على الرغم من الآلام والمهانة التي تعرض

لها فى السجن • ولقد كان يحس حسرة حينما ترك أرض الصين بعد السنوات الثلاث التى قضاها فى السجن • وقص على بعض من قابلوه بعد ذلك أنه بكى طويلا حينما غادر أرض الصين ، لأنه أحس أنه لن يجد الفرصة للعودة من جديد اليها ، كما شوهد مرتديا لباسا أسود من تلك التى يرتديها العلماء الصينيون ، وبالرغم من أنه كانت تقدم اليه أجود الاطعمة الغربية فى المستشفى الذى كان يعالج به فى هونج كونج بعد ترحيله من الصين فانه ظل يشكو دائما من أنه لا يستطيع الحصول على طعام صينى جيد ، وهو الطعام الوحيد الذى يتوق الى تناوله •

كان الأب لوقا قد عاش فى الصين حوالى عشر سنوات وهو يعمل فى الكنيسة الكاثوليكية ، ولم يكن اعتقاله بعد حركة التحرير فى الصين مفاجأة له ، فقد سبق أن سمع اتهامات علنية وجهت اليه فى اجتماعات عامة وقيل : أنه يعمل للتخريب ، كما يقوم بنشاط مضاد للشيوعية •

وكان قد قرر فيما بينه وبين نفسه أنه لو سجن فسيدافع عن كنيسته ولن ينطق بكلمة واحدة غير حقيقية •

وحينما سأله القاضى عما اذا كان يعرف سبب اعتقاله ؟ أجاب بأنه : اما أن يكون نتيجة سوء فهم ، واما لمسألة لها صلة بالدين •

وقد أغضبت اجابته هذه قاضى التحقيق الذى أصر على أنه ليس للأمر أى صلة بالدين ، ففى الصين حرية مطلقة للعبادة ، وأعلن أن اعتقاله جاء نتيجة معارضته لمصالح الشعب •

ولاحظ الأب لوقا من الأسئلة التالية التى راح المحقق يوجهها اليه عن نشاطه فى الصين ، وعن معارفه وأصدقائه فيها ، أنه يدور بخاصة حول علاقته بقسيس آخر هو الأب « س » وهو صديق له كان له نشاطه العسكرى والسياسى ضد الشيوعيين موضع نقد الأب لوقا نفسه •

ومع أن جلسة التحقيق الأولى استمرت ساعة واحدة فقط ، فانها كانت ذات أثر فى تهيئة الأب لوقا لاعترافه فيما بعد •

« كان يدور فى رأسى سؤال : « بماذا يتهموننى ؟ وكيف سيصوغون هـذا الاتهام ؟ ومع أننى كنت قد بدأت أدرك أنهم سيضعون علاقتى بالأب « س » فى مكان الصدارة والأهميـة فاننى لم أكن أعرف كيف سـيوجهون الأمر • وكنت قد سمعت أن الشيوعيين يرغبون الناس فى الاعتراف باتهامات غريبة من وحى الخيال ولا حقيقة لها ، ولكننى اعتزمت ألا أعترف اطلاقا بأى شىء غير حقيقى » •

وبنفس الصـورة كان الأب لـوقا وهو فى سجنه متحديا مناوئا ناقدا لمعتقليه ، ولما وجد رئيس الزنزانة التى نزل بها أنه مستمر فى عناده ، حث زملاءه على « معاونته » وهو اصطلاح يعنى سوء المعاملة •

وفى الليلة التالية من اعتقاله أيقظ من نومه بعنف ، وسئل عن اثنين من مساعدى الأب « س » وقد استطاع أن يذكر الاسم الاول لأحدهما ، ولـكنه قال : أنه لا يعرف الثانى ، وهنا أصر القاضى على رأيه بأنه من المستحيل أنه لا يعرف اسم المساعد الثانى ومن ثم فهو ليس بأمين ولا بمخلص •

وقد غضب الأب لوقا لهذا التكذيب وأصر فى غضب على أنه أمين فيمـا يقوله • وأنه لا ينطق الا الصدق • واستجاب القاضى بسرعة لغضب الأب لوقا فأمر بوضع الاغلال حول ساقيه مع ثقل زنته عشرون رطلا •

ثم عاد فسأله نفس السؤال فتلقى نفس الاجابة فصرفه من الغرفة وأمر باعادته الى الزنزانة • وحينما رأى رئيس الزنزانة الاغلال حول ساقيه عنفه بقسـوة ، وبعد أقل من ساعة أعادوه الى غرفة التحقيق ، حيث استمر فى اصراره فأمر بتقييد يديه بالاغلال •

وفى أثنـاء استجوابه فى الليلة الثالثة شـدد قاضى التحقيق على صلته الوثيقة بالأب « س » وكرر بشدة أنه لابد من أنه كان يعرفه قبـل مجيئـه الى الصين • وحينما أصر لوقا على أنه قابله لأول مرة فى بكين ترك القاضى الغرفة •

وكان على الأب لوقا أن يقبع فى ركن الغرفة على الارض وقد مد ساقيه أمامه ، ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بجلسته هذه فرجع بظهره الى الوراء وهنا

وقع كل ثقل جسمه على ساعديه المقيدين وراء ظهره ، وعندما وجد أن أغلاله تضغط بقسوة على ساعديه وأحس أن آلامه لا تحتمل خطرت لأول مرة فكرة الاستسلام والتسليم بكل ما يريدونه منه :

« لقد ذكرت لهم الحقيقة ، ولكنهم لا يريدون الحقيقة ، وخطر لى أن أمامى طريقة واحدة للنجاة وهى أن أخمن ما يريدونه • ومع كل الظروف التى فى حياتى فان الشىء الوحيد الذى يمكن أن يصدقوه هو أن أعود بذاكرتى الى حياتى السابقة فى أوروبا ، ومن الممكن أن أقول : أننى قابلته هناك وهذا شىء غير صحيح ، ولكنه قابل للتصديق » •

وهكذا أجاب الأب لوقا على سؤال القاضى عن التقائه بالأب « س » بأنه قابله فى روما عام ١٩٣٩ •

وسمح له فور هذا أن يقف من جلسته المجهدة فشعر بتخلص مباشر من آلامه وبعد دقائق قليلة أعيد الى غرفة سجنه •

ولكن رئيس غرفة السجن استمر — بناء على تعليمات من سلطة أعلى — يهجم على لوقا ويتهمه بأنه ليس « مخلصا » وقد أمره بالبقاء واقفا لكى « يتدبر » جرائمه •

ومر الشهر التالى بالأب لوقا وهو يواجه استجوابا يدور فى حلقة مفرغة كل ليلة ، ويقضى نهاره فى مواجهة كفاح مستمر ضد زملائه فى غرفة السجن الضيقة دون أن يهنأ بلحظة واحدة من الراحة • فقد أبقاه زملاءه متيقظا : « بالوكز » و « الصفع » و « والقرص » ونظموا هذا الواجب الليلى بينهم حتى يضمنوا يقظته المستمرة ، وقد نتج من وقوفه الدائم تورم قدميه وامتلأت الأورام بسائل مائى • ويذكر لوقا أنه سمح له بالنوم ثلاث مرات فقط ، ويقدر أنه نام لمدة ست عشرة ساعة فقط فى طوال أربعة أسابيع •

وقد تزايد اضطرابه حتى أصبح لا يستطيع أن يفرق بين النهار والليل ، ووجد نفسه تحت ضغط اجهاد متواصل نتيجة محاولته استخدام ذكائه وحصافته ليدرك ما يتوقعونه منه :

« لقد كانت المسألة فى البداية مسألة فضول وحب استطلاع ، ولكن بعد ذلك أصبحت لا أحتمل ذلك ، وكان عقلى مضطربا فخطر لى : لماذا لا أقول تماما كل ما يريدونه منى ؟ صحيح أنه من الصعب أن أتمشى معهم فيما يريدون ، ولكن بعد أسبوعين كان فى استطاعتى أن أقول كل ما يريدون ، ولكن هذا بالطبع لم يكن بالأمر الهين السهل » .

وفى هذه الحال النفسية اعترف الأب لوقا بثلاث جرائم رئيسية هى :

- استخدام جهاز لاسلكى نجح فى اخفائه ، وأنه كان يرسل منه ويستقبل عليه المعلومات الخاصة « بالجاسوسية » .

- تنظيمه لشبكة من الصبيان الصغار بقصد القيام بأعمال التخريب وتوزيع المنشورات المضادة للشيوعية .

- اشتراكه الايجابى فى « شبكة الجاسوسية » التى يقال أنها كانت تحت رئاسة الأب « س » ، بقيامه بأعمال « السكرتارية » لها .

وكانت كل هذه التهم زائفة ومبنية على معلومات مصطنعة فى جملتها وفى تفاصيلها . ولكن تطورات الاستجواب له ، والتوترات التى تعرض لها نتيجة التعذيب جعلته يسهب فى سرد اعترافات كاذبة ، بل الأدهى من ذلك أنه اقنع نفسه بهذه المزاعم والأكاذيب .

ويصف الأب لوقا كيف بدأ اعترافه عن التهمة الأولى الخاصة بالجهاز اللاسلكى بقوله :

« لقد جاءت الفكرة الاولى عن جهاز اللاسلكى حينما قال المحقق : هناك أشياء أخرى لم تتحدث عنها ، ويجب أن تثق بأن الشعب يعرف الكثير عنها ولا تظننا نجهل ذلك ! فقلت له : أننى أعرف أن هناك بعض الناس يقولون : أن لدى جهاز اذاعة خاص على الموجة القصيرة ، وسمعت بهذه التهمة قبل اعتقالى ، وأخبرته بأنه لا حقيقة لهذا كله ــ وحينئذ قال لى : أتقول اذن ما الحقيقة وماذا وضعت فى غرفة المخزن بمنزلك أثر التحرير مباشرة ؟

« وأجبت بأنني لم أضع فيها أى شىء ، وبعد أن فكرت قليلا قلت : قد يكون فى الغرفة شىء ما ولكنه ليس راديو • لقد زارنى صديق قبل وصـول الشيوعيين واستأمننى على بعض متعلقاته ، وحاولت أن أذكر اذا ما كنت قد وضعت بعض هذه المتعلقات فى غرفة المخزن ، ولكن ذاكرتى لم تكن قوية بالقدر الكافى فقلت : حقا ، هناك بعض أشياء ولكنى لا أذكر ! وكنت أعرف كذلك أن صبيا كان يعمل فى خدمتى وأنه قد انقلب ضدنا وربما يكون هذا الصبى قد أبلغ عن أشياء وضعت فى أثناء غيابى ، ومع أننى لم أكن أعتقد انه كان هناك راديو فلم أجرؤ على معارضة ما يقوله القاضى ، وعندئذ سألنى :

« هل هو جهاز للاستقبال أو للارسال ؟ ولم أكن أعرف الكلمة الصينية للاستقبال أو الارسال فأجبت بأنه لا هذا ولا ذاك ، ولكن حينما وضح لى المعنى قلت « ربما للاستقبال •• نعم •• وربما كان للارسال ! وفى لحظة واحدة مرت بخاطرى الصورة الصحيحة لجهاز الارسال ، ولكنى كنت أعرف عن ثقة أن هذا الأمر كله ليس بالأمر الصحيح • كان موقفى موقف الرجل الذى يعيش فى حلم وهو فى الواقع لا يرى شيئا •

« وبعد ذلك عندما سئلت عن كيفية وصول الجهاز الى يدى ، كان على أن اختلق قصة فقلت : ان صديقى كان قد رحل فتركه لى ، وأن خادما قد عاوننى فى فكه ، وحينئذ سألنى القاضى : لابد من أن يكون قد عاونك فى تركيبه أشخاص ممن يفهمون فى الأجهزة اللاسلكية ! وهنا ذكرت رجلين أحدهما كهربائى يعمل فى الكتدرائية ، والآخر صبى صغير كان تواقا الى العمل فى مثل هذه الأجهزة • وجاء الجزء الثانى من الاعتراف تابعا منطقيا لكل ما ذكرته من قبل ، اذ فكرت فى أنه لو كان لدى شخص ما جهاز لاسلكى فان أسوأ مكان لاخفائه هو أن يضعه فى الكتدرائية على أساس أن الشيوعيين يراقبون الكنائس بصفة خاصة ، كما أنهم كانوا دائما يتهمون رجال الكتدرائية باخفاء الرجال الذين يعملون على الأجهزة اللاسلكية فى مبانى الكتدرائيات • وهكذا قلت : أننى قد وضعته فى مكان آخر • ولكننى لا أستطيع تذكر اسم الشارع الذى به المنزل المخبأ فيه الجهاز ،

فأصر المحقق على ضرورة ذكر اسم الشارع • فأجبت دون وعى بأن اسمه شارع الجدار الحديدى Iron Wall St. وعندما أخبرنى القاضى فى اليوم التالى أنه لم يجد هذا الاسم على الخريطة • أجبت بأننى ربما لا أذكر اسم الشارع جيدا •

وعند ذلك تصورت أمام عينى منظر طريق ضيق فيه منزل صغير وبه غرفة أمامية تطل على الطريق ووراء هذه الغرفة غرفة أخرى فيها جهاز الارسال •• كانت هذه الصورة الخيالية واضحة لعينى ولكن دون أن أعرف على وجه التحديد ما اذا كان حديثى هذا حقيقيا أم زائفا • لقد كان الأمر بالنسبة لى شبيها بما سمعت عنه من قبل عن كتابة القصص والروايات ، حيث يتخيل الكاتب أشخاصا يقومون بأعمال ويتحركون طبقا لأسلوب معين محكم • وكل هذا بالنسبة لكتاب الروايات يبدو حقيقيا ، ولكنهم يعرفون عن ايمان أن كل ما يتخيلونه لا نصيب له من الحقيقة ولا كيان له فى الوجود الفعلى ، ولكن الامر بالنسبة لى كان بمثابة حقيقة واقعية ، وان كنت فى الواقع لم أنس تماما أن المسألة كلها غير صحيحة » •

ولقد اقترح عليه زملاؤه فى غرفة السجن بعض الاقتراحات التى تساعده فى مسايرة تطور الأمور ، فأوحوا اليه أن يقول : أنه قد أرسل رسائل بواسطة الجهاز اللاسلكى كما استقبل به بعض المعلومات • وهكذا بدأ الامر تدريجيا يضم أشخاصا آخرين بعضهم من رجال الدين ، وبذلك أصبح أولئك الذين أشركهم فى الأمر يمثلون شبكة كاملة متعددة الأطراف ، واستطاع لوقا وهو فى هذه الحالة النفسية أن يتوهم قيام منظمة للجاسوسية ، ومن ثم اخترع أسماء كما اخترع بعض التفاصيل •

أما عن الموضوع الثانى ـ موضوع حلقة الصبيان الذين يقومون بأعمال الهدم والتقويض ـ فقد تضمن الأمر مواجهة شخصية •

فبعد أسبوع سأله القاضى عن صبى صينى معين، فأجابه بصراحة أن اسمه ليس معروفا له وعندئذ جيىء بالصبى فى مواجهته وأصر على عدم معرفته ، ولكن الصبى قال له : أنه يعرفه كما آنه طلب منه أن يكتب نشرات ضد الشيوعية •

وبدأ على لوقا نوع من الحيرة والتردد ، فهو فى الواقع يتولى شئون آلف صبى فى الأسقفية • وهو لا يستطيع أن يذكر أسماءهم جميعا •

وهنا قال القاضى له : أنه غير مخلص ، وأعاد القيود الى يديه ثانية ، ثم أمره بالجلوس على الأرض فى هذا الوضع المؤلم ، وتركه حتى أعياه الاجهاد فاعترف بأنه يعرف الصبى •

وفى ضوء مثل هذا الاستجواب وعلى أساس المقترحات التى كان زملاؤه فى غرفة السجن يقدمونها له بين الفينة والفينة • بدأ الاعتراف فى جملته يأخذ طابعا معينا • فقد فهم أنهم يتهمونه بأنه قد حرض صبيا على كتابة عدة شعارات معادية للشيوعية ، كما حرضه على قذف مصابيح الاضاءة بالأحجار •

وجاء المزيد من المقترحات ، وراح رئيس غرفة السجن يقول له : « لقد قلت : انك فعلت ذلك فلا بد من أن تكون قد فعلت أكثر مما قلت ، ولا بد من أن تكون قد حرضت صبيانا آخرين فتذكرهم » • وأخيرا أمكن أن يأخذ اعترافه طابعا مجسما فأدلى فى اعترافه الجديد بأنه كانت هناك منظمة فيها خمسة وعشرون صبيا بقصد القيام بأعمال التخريب وكتابة نشرات مضادة للشيوعية •

وفى مسألة منظمة الأب « س » واجه لوقا وهو فى غرفة السجن ضغوطا من زملائه ، وقد أدى ذلك الى تطوير النقاط التى كان اعترف بها الأب لوقا فى جلسات التحقيق السابقة • ويصف لوقا ذلك بقوله :

« وفى غرفة السجن قال لى زملائى : حسنا لابد من أن تكون قد فعلت شيئا من أجل الأب « س » ! فأجبت : ان هذا مستحيل فقد جئت لتوى الى الصين وكنت لا أعرف شيئا عن الموقف ، ثم أننى لم أكن أعرف اللغة الصينية ! فيقولون : أنت لا تعرف اللغة الصينية ولكنك تعرف عدة لغات أجنبية ! واعترفت بأننى أعرف حقا عدة لغات • وهكذا جاء الاقتراح عن الشيء الذى يمكن أن أستطيع القيام به من أجله •• فليكن عملا كتابيا •• وما أستطيع ان أفعله • يمكن أن أكون قد فعلته فعلا • وتذكرت أن الأب « س » قال مرة أمامى : أن له

عما فى سويسره وأنه تعرف على سيدة عجوز تقيم هناك ، ومن ثم يمكن أن أقول أننى قد كتبت نيابة عنه بعض الرسائل لهذا العم ولهذه السيدة العجـــوز ، وهكذا قلت : أننى قد كتبت هذه الرسائل نيابة عنه وأرسلتها الى سويسره •

« وعادوا يقولون : لقد قلت : انك لم تشترك بأى عمل فى منظمته ، والآن تقرر أنك كتبت بضع رسائل نيابة عنه ، وهذا عمل يوجد صـــلة بينك وبين منظمته والآن ماذا هو لقبك ؟ الرجل الذى يكتب مثل هذه الخطابات لمنظمة ماذا يقال له ؟ ما لقبـــه ؟ ولم يفسروا لى شيئا ، ولــكن المعنى الذى يقصدونه كان واضحا • ان مثل هذا الرجل يقال له « السكرتير » ، ولذا كان من الضرورى أن أتقبل لقب « السكرتير » •

« ولم أكن أصدق قط أننى كنت سكرتيرا للأب « س » ولا لمنظمته ، ولكن كان عقلى قد بدأ يضطرب ، وشعرت بأنه من المستحيل أن أنقض أو أفنـــد أسلوبهم الجدلى » •

* * *

والواقع أن تصورات الأب لوقا الزائفة اختلفت فى مداها من لحظات عابرة الى فترات اختلفت بين أسابيع قليلة أو شهور ، وتداخلت فى بعضهـــا البعض كما يتداخل الحلم •

وبالرغم من حالة الأب لوقا المضطربة ، فانه ظل يكافح ضد أى خيـــانة لولائه للكنيسة الكاثوليكية ، فقد قام قاضى التحقيق بالضغط عليه محاولا جعله يعترف بعلاقة الكنيسة بالنشاط الامبريالى للحكومات الغربية ، وحينما رفض أن يقوم بذلك أعيد الى وضعه الأول بالجلوس على الارض ، وقد عقـــدت ذراعاه خلف ظهره ، ثم أوضح له قاضى التحقيق ما يريده منه :

« اننى لا أطلب منك أن تندد بالدين ، بل أتوقع منك فقط أن تدرك أن الامبرياليين استخدموا الدين غطاء وستارا لغزوهم للصين » •

وهكذا تحت ضغط التعذيب ، وفى غمرة هذا التوضيح اعترف الأب لوقا بأن الامبرياليين استخدموا الكنيسة الكاثوليكية ستارا لغزوهم للصين •

ولكن فى قرابة نهاية الشهر الاول كانت حالة لوقا البدنية والعقلية قد بدأت تنهار • كان التعفن قد بدأ يظهر فى ساقيه المتورمتين من ضغط السلاسل والأغلال ، وازداد اضطرابه نتيجة صعوبة احتفاظه بتفاصيل اعترافه متمشية مع بعضها البعض ، اذ أن أى جزء مصطنع من هذه الأقوال كان يتطلب المزيد من الاصطناع لدعمه •

وفى يوم ما أصدر القاضى أوامره باطلاقه من أغلاله ونزع السلاسل من ذراعيه ، ثم أمره بأن يذهب الى غرفته لينام نوما هادئا لمدة يومين كاملين ، وان كان لم يغفل أن يخطره بأنه لا يزال غير راض عن اعترافه ، حاثا اياه على أنه بعد هذه الراحة الطويلة يجب أن يعود بمادة صالحة تدعم كل أقواله السابقة •

وهكذا عاد لوقا الى غرفته ، وبرغم الاجهاد والاعياء الذى كان يعتريه فان مخاوفه حالت دون أن يغمض عينيه الا للحظات قصيرة •

على أن هذا التساهل أو الملاينة لم تعاون لوقا على اضافة أى جديد الى اعترافه ؛ فحينما استدعى بعد عدة ليال قليلة لمقابلة المحقق سأله القاضى « هل تعتزم أن تكون مخلصا ؟ » وأجاب لوقا : « أننى أود أن أكون مخلصا ومطيعا ، ولكننى لا أعرف الوسيلة فهل يمكن أن ترشدنى لها ؟ » وأجابه القاضى بأنه سيوضح له السبيل وسيرشده الى الطريقة • واذ ذاك استدعى القاضى بعض الحراس الى الغرفة وتركهم فيها مع الأب لوقا وانصرف بعد أن أغلق الباب وراءه .

وبدأ الحراس ايذاء الأب لوقا ، وحينما تركوه قرابة الفجر كان فى حالة أعياء شديدة ، ومصابا بسحجات فى عموده الفقرى ، وبعد نحو ساعة دخل الغرفة شاب صينى فى مقتبل العمر لم يره لوقا من قبل ، وأخذ يحدثه باللغة الايطالية بصوت خفيض وبنبرات هادئة عميقة ، وكانت هذه أول مرة يسمع فيها الأب لوقا كلمات بلغته الايطالية منذ اعتقاله • وعاون الشاب الأب لوقا وجعله يحس الراحة والهدوء مترفقا به ، ثم بدأ يحدثه ويناقشه فى التفاصيل التى جاءت فى اعترافه وخاصة ما جاء عن الأب « س » •

وقد تأثر لوقا بهذا العطف الانساني ، اذ كانت طريقة الشاب في توجيه الاسئلة موضوعية ودون تحيز ، ثم أنه يتحدث بلغته ولذا كان من السهل عليه أن يعترف • وهنا قدم لوقا صورة دقيقة نسبيا لكل هذه الحوادث ، صورة تختلف تماما عما جاء في اعترافه الاول ، ولكنه لم يضف شيئا مصطنعا بدرجة كبيرة • وبعد قرابة الساعتين بدأ يظهر على لوقا الالم والاعياء فانصرف الزائر •

ولما ظهر أن الأب لوقا لا يستطيع أن يسير على قدميه حملوه الى غرفة الزنزانة على « نقالة » وقد عرف فيما بعد أنه استجوب بواسطة « سجين موظف » أى سجين وصل الى درجة متقدمة من الاصلاح الفكرى ، وتوافرت له الخاصيات التى تمكنه من أن يكون أحد موظفى السجن • وقد تأثر لوقا بهذا اللقاء حتى أنه فى كل فرصة تالية حينما كان يشعر بأى صعوبة فانه كان يطلب مقابلة هذا السجين الموظف الذى يتحدث اللغة الايطالية •

وفى ذلك الوقت عرض على الطبيب الذى أكد له مخاوفه من أن عموده الفقرى قد كسر ، ولكنه أكد له أيضا أنه سيشفى بعد وقت غير طويل •

* * *

وكانت الشهور التالية مجهدة بصفة خاصة ، فمن الناحية الصحية كان خائرالقوى يعتمد على زملائه بغرفة السجن فى كل احتياجاته ، وكان كل العلاج الطبى الذى تلقاه حتى ذلك الوقت لا يتعدى بعض التمرينات الرياضية التى يؤديها بساقيه ، ولم يعاونه أحد حينما يشعر بحاجته الى التبول أو التبرز ، وكانت حالته الصحية لا تمكنه من السيطرة على العضلات القابضة مما أدى الى بلل ثيابه ، وتصاعد روائح كريهة فى غرفة السجن فزادت غضب زملائه وأخذوا يكيلون له النقد المر •

وبالاضافة الى هذا فان بقاء لوقا طريح الفراش قد أدى الى حدوث أكثر من قرحة فى ظهره وفخذيه وأصابع قدميه ، وقد عولجت هذه فى البداية علاجا أوليا بواسطة الايودين وبعض المطهرات ، ولكن بعد أن أثار هذا العلاج اعتراض زملائه بسبب الروائح التى تنبثق من القرح تلقى علاجا أفضل بالضمادات وحقن البنسلين •

وقد بذل لوقا كل جهد لاستعادة طاقته البدنية ، وبعد فترة قصيرة بدا يحرك أصابع قدميه ، وبعد ثلاثة أشهر استطاع الجلوس ، وبعد عام كامل كان يستطيع الوقوف مستندا الى الجدار ولكنه لم يستطع أن يسير الى دورة الميـاه الا بعد خمسة عشر شهرا من يوم اصابته ٠

ولقد عاونه زملاؤه في أداء التدريبات الرياضية في البداية ، ولكنها كانت معاونة خشنة حتى أنه صرخ مرة من الالم صرخة عاليـة سمعها أحـد موظفى السجن وأسرع من فوره لاستكشاف السبب ، ومنذ تلك اللحظة لم يقـدم له زملاؤه في الفرقة أى مساعدات ٠

* * *

وفوجىء الاب لوقا بعد ثلاثة أشهر من اصابته وأربعة أشهر من اعتقاله بزائر لم يتوقع مجيئه اليه فى غرفة السجن ، وذلك هو قاضى التحقيق الذى جاء ليعلنه باتجاه درامى مضاد لاعترافاته السابقة ٠

لقد قال له القاضى : ان اعترافه يبدو فى جملته مضطربا غير دقيق ، وقدم له بعض الأمثلة على ذلك فمثلا بالنسبة الى « ل » ـ وهو رجل صينى زعم لوقا أنه رئيس منظمة للجاسوسية ـ تحققت السلطات من أنه لا يعرفه ولم يره بتاتا ، وبعد ذلك حث القاضى السـجين على ألا يعود لاسلوبه فى الانكار ، ثم أردف قائلا : « وفى هذه المرة لا تقل غير الحق وحده » كما أخبره كذلك أنه سينقل الى غرفة أخرى حيث تتوافر له امكانيات أكثر للكتابة ٠

وقد صدم لوقا بهذه السخرية الواضحة فى كلمات القاضى ، فمنذ وقت ليس ببعيد أدى تردده فى الاعتراف بعلاقة اجرامية مع الصينى « ل » الى تقييده بالاغلال ٠ والآن أحس درجة كبيرة من السرور اذ بدا له فى الافق فرصة ليوضح الامور ويتخلص نفسه من عبء استمراره فى سرد أكاذيب ، وزاد أمله حينما رأى الجو الافضل الذى يكتنف الغرفة الجديدة اذ لاحظ أن زملاءه فى الغرفة بعض الناس ممن لهم اعتبارهم ٠

ولكن هذا الشعور بالامل لم يلبث أن تبدد عندما بدا يدلى بانكاره للجرائم الثلاث الرئيسية التى سبق أن اعترف بها ، وأخذ يعطى بيانات أكثر دقة عن نشاطه ·

وقد حالت صحته وضعف أسـلوبه الكتابى باللغة الصينية من كتابة الاعتراف بنفسه ، ولكن رئيس الغرفة الجديدة رفض كتابة هذا الاعتراف الجديد ، كما رفض منه هذا النكوص فى اعترافه ، وصرح له بأن هذا يدل على أنه ليس صالحا من الناحية النفسية لكى يعد مادة اعترافه ·

وأصبح لوقا فى حيرة أكثر من أى وقت مضى ، وقد أخبره القاضى بأنه يجب ألا يذكر شيئا غير حقيقى ، وحينما بدا يدلى بأقواله الصحيحة اعتبرها غير كافية ، ولم يسمح له بكتابة أقواله · وهكذا انتابت لوقا غمرة ألم نفسـانى واضطراب فكرى ·

وتبع ذلك العودة معه الى المعاملة الانتقامية من جديد : فمن الهجوم عليه بلاذع القول ، الى وضع الأقلام الرصاص والأصابع والعصى أسفل ذقنه الى الضغط على عنقه ، وشد أذنيه بقوة، وهكذا بدا له أن محاولة ذكر الحقيقة لم تخلصه من محنته .

* * *

وأخيرا بدا للوقا أنه لابد من أن يجـد وسيلة ما لحل مشكلته ، فخطرت له فكرة أن يذكر الحقائق فقط مع عرضها فى طابع اجرامى ·

وأثر هذا مباشرة وفى خضم حركة واسعة النطاق شملت كل من فى السجن من المعتقلين ، وجد لوقا نفسه يستكمل كل نواحى هذا الاتجاه الجديد · وبتراكم الضغوط عليه للاعتراف ، ومع مشاعر التنافس من جانب المسجونين والمعتقلين للاعتراف وجد لوقا نفسه يكافح ، وفى نفس الوقت تجرفه تلك المشاعر الجماعية نحو تجسيم الحقائق ·

ومنـذ ذلك الوقت والى بقية مـدة سـجنه أخـذ لوقا يجسـم المسـائل الحقيقية · ويجعل من « الحبـة قبة » ، فصبغ قصـة عن شـبكة الجـاسوسية

بحوادث مثل المحادثات مع فتيات صغيرات من الجماعة الدينية التى يشرف عليها ، وكذا الاحاديث والتعليقات التى تبادلها مع زملائه عن الموقف العسكرى والسياسى فى الصين ابان الحرب الاهلية • وبهذه الوسيلة استطاع أن يبنى سلسلة أخاذة من الاعترافات ، فمن : « نقل معلومات عســـكرية » الى الأب « س » الى نقل « معلومات سياسية واقتصادية » الى « الامبرياليين » فى هونج كونج ، الى الاشتراك فى « نشاط رجعى » عن طريق « لجيون مريم » ، وهى منظمة كاثوليكية سرية كان الشيوعيون الصينيون يعارضونها بقوة . وأضاف الى هذا كله الكثير من الجرائم التى لم تكن فى حقيقتها أكثر من تجسيم وتجريم لنشاطه الحقيقى •

وبدا استجابة للضغوط المستمرة يملى اعترافه على زميله فى غرفة السجن ، ثم بدأ فيما بعد يكتب بنفسه تقريرا اضافيا طويلا عن مدة اقامته فى السجن يغطى من ناحية عامة « سلوكه » بالصورة التى تجعله « سلوكا سيئا » • وحينئذ أخذ رئيس الغرفة ينظر اليه كرجل يمكن أن يعتمد عليه ، وأخـذ لوقا يحس الحاجة الى أن يقدم مزيدا من المادة الى اعترافه •

* * *

وقد تضاعف هذا الحس بعد أن مرت الســنة الأولى به فى السجن ، فقد حـدث أن أعيـد تنظيم السجن بالقـدر الذى جاء معه بسياسة جـديدة اكثر اعتدالا(١) •

وعلى الرغم من أن الاساليب التى اتخذت ضـد لوقا داخل غرفة السجن كانت صادرة من ســلطات رئيسية ، الا أنه وجه لوم عنيف الى رئيس الغرفة لتشجيعه هذا الايذاء البدنى ، ثم نقل هذا الرئيس بعد ذلك وكل من فى الغرفة الى أماكن أخرى وجىء بمسجونين جدد للاقامة مع لوقا فى زنزانة واحدة •

---

(١) حدث هذا التجديد فى سياسة السجن فى سنة ١٩٥٢ و ١٩٥٣ وقد منعت بعض الاجراءات المتطرفة ولا سيما تلك التى كانت تجرى داخل غرف السجن ، وقد حرم فى بعض السجون أن يناقش المسجونون قضاياهم مع زملائهم واحتفظ بالادلاء بالاعترافات لجلسات التحقيق فقط ، ولكن مع هذا استمر أسلوب اعتراف السجين بجرائمه فى غرفة السجن أثنـاء عملية « اعادة التثقيف الفكرى » •

ولم يتعرض الاب لوقا بعد ذلك للضرب ولا للضغط البدنى من أى نوع ، ولكن الرئيس الجديد بدأ يمارس معه نوعا من الالحاح المصحوب بالمطالب النفسية ويقول الاب لوقا عنه : « وبالرغم من عنايته بجسمى لابرائى من علتى فانه كان مسيئا لى من الناحية المعنوية ، اذ كان هذا الرئيس الجديد يجمع المسجونين من حولى مرتين كل يوم لعقد جلسة لمناقشة « أفكارهم السيئة الرديئة » ثم يلح على لالعن وأجرف نشاطى الكنسى » ٠

وهنا بدأ لوقا يفيض فى الهجوم على تفاصيل كل أوجه نشـاطه الكنسى ونشاط زملائه مبررا هذا النشاط على أنه « أعمال رجعية » ٠

ولاسبوعين لم يفعل الاب لوقا أى شىء عدا كتابة مادة عن نفسـه وعن الآخرين ، فاعترف لاول مرة بأنه نظم هو وآخرون من رجال الدين شـفرة للتراسل بها واستخدموها بصفة خاصة فى بريدهم لاخطار أصدقائهم وأقاربهم فى أوروبا بسلامتهم ، وليعطوا لهم صورة بالحال العامة للكنيسة المسيحية فى الصين ٠ وبالرغم من أنه امتنع عن ذكر هذا ابان فترة اضطرابه الاولى فى الشهر الاول لاعتقاله بل حتى فى حالة الترفق به أثر اصابته ، فانه لدهشته جاء الآن ليعترف بذلك ، ولدهشته أيضا لم يهتم القاضى بهذا الاعتراف الجديد الا قليلا ، ومع هذا فقد أسف فيما بعد عندما اكتشف بعد اطلاق سراحه أن أحد رجال الدين الذين زج بهم فى اعترافه قد اعتقل ٠

وبدأ الأب لوقا يحس أن جهوده تشجع ، فقد جاءه قاضى التحقيق مرة ثانية لزيارته فى غرفة السجن ، وفى هذه المرة كان أكثر توددا وعطفا عندما أكد له أن له كل الحق فى أن ينكر أى اتهام غير عادل ٠ ولكن بالرغم من هذا بقى لوقا يواجه مزيدا من التوتر العاطفى لشهور تالية ، وقد وصلت المشكلة الى ذروتها حينما وجه اليه النقد بالنسبة لعقيدته الدينية ، وقد عارض بقوة ما يقوله رئيس الغرفة من أنه كان يستخدم الدين كمجرد غطاء يخفى نشاطه فى أعمال الجاسوسية ٠

وأجاب لوقا بعنف : « ليس الدين بغطاء ولا بمعطف كما تقول فان الغطاء شيء يمكن أن تنزعه ، ولكن بالنسبة لى فانك اذا أردت أن تأخذ منى عقيدتى الدينية فانه يجب أن تنتزع قلبى وأن تقتلنى » .

وهنا قال له رئيس الغرفة : انه وان كان قد تحسن من نواحى كثيرة فان غضبه هذا لهو نوع من السلوك السيىء الذى يجب أن يذكره فى نقده لنفسه .

* * *

وقرابة السنة الثانية من سجنه بدأ يعمل فى وثيقة اعترافه النهائى ، وقد قيل له فى البداية أن يكتب هذا الاعتراف بلغته ثم يلخص النقاط الرئيسية منه ، ثم طلبوا منه بعد ذلك أن يترجمه بنفسه الى اللغة الصينية .

وبعد ذلك جيء به ليمثل أمام قاض جـديد على مسـتوى أعلى من القاضى الاول ، ومر أسبوع قاس فى اسـتجواب عنيف ، وبمعـاونة القـاضى الأول ، وبمعاونة السجين الموظف الذى يتحدث اللغة الايطالية كتب لوقا اعترافا بحوادث لم تحدث فعلا ، ولكنه تصور أنها حقيقة .

وفى الثمانية عشر شهرا التى قضاها لوقا بعد ذلك فى السجن ركز برنامج الدراسة فى السجن على تحليل نشاط الكنيسة فى الصين ونقده ، وقد قرر لوقا أن أساقفه معينين كانوا منحرفين فى نشاطهم السياسى والعسكرى فى الصين ، كما اعترف أنه قد انتقد هذا العمل من جانب بعض زملائه حتى قبل اعتقاله ، ولكنه فى نفس الوقت أصر على أن الغالبية العظمى من رجال الدين كانوا معنيين فقط بنشاطهم الدينى ، ولقد قيل له : أن اتجاهه هذا ليس تقدميا لانه لا يضع فى الحسبان مبدأ « المسئولية الجماعية » .

وفسروا له مبدأ « المسئولية الجماعية » بقولهم :

« لو أن أحـد أفراد أسرة ما ارتكب خطأ فان هذا الخطأ هو خطأ الاسرة كلها ، واذا فعل أحـد رجال الدين بعض أخطاء ثم لم تقفه السلطات العليا فى الكنيسة فان الخطأ يعتبر خطأ السلطات العليا للكنيسة » .

وعنـدما حاول لوقا أن يشير الى الخير الذى تقوم به الكنيسة فى معالجة المرضى ومعاونة الفقراء قيل له :

« ان ذلك ليس الا صورة للمعونة الامبريالية اذ أن هؤلاء المرضى والفقراء وغيرهم من الصينيين انما يوجهون بذلك الى الاعتقـاد بأن الخير انما ينبعث من الاجانب ، وبذلك يكون دفع الناس الى هذا الاعتقاد عملا من أعمال الدعاية لخدمة أغراض الامبرياليين » ٠

وبالمثل عنـدما حاول لوقا تمشيا مع نقده لبعض تصرفات بعض زملائه من رجال الدين الذين كانوا يتعالون فى حيـاتهم متباعدين عن عامة الشعب الصينى ، مشيرا الى أنه كان يتكامل مع الحياة الصينية ويعيش كمـا يعيش الصينيون ، قيل له : أن سلوكه هذا يعتبر أسوأ من سلوك زملائه الذين يوجه اليهم النقد ، اذ أنه بهذا السلوك كان يخدع الشعب الصينى ٠

وقد استمر فى مواجهة الآلام النفسية كلما نوقشت معه المسائل الدينية ، وكان يوصف دائما لاتجاهه غير الصحيح بأنه : « عنيد » أو « ذاتى الاتجاه » وان آراءه متخلفة ، ولكنه بدأ يكبت كل ما يحسه من مشاعر داخلية وأخـذ يعبر عن نفسه بحرص وحذر وبصورة تتمشى مع وجهات النظر الصينية ما أمكن ٠ وفى نفس الوقت أغرق نفسه فى خضم البحث عن « الحقيقة » وعن « منطقية » الحقائق التى يعرض لها فى مناقشـاته حتى التى يغفل فيهـا عن « تجسيم » التفاصيل ٠

* * *

ولما اعتبر أنه حقق بعض « التقدم » فى قرابة نصف العام الثالث من سجنه نقلوه الى مبنى آخر أكثر نظاما وأكثر تحررا ، وكان يسمح له بقضاء بعض فترات فى الفناء الخارجى ، ومنح حرية الذهاب الى دورات المياه ، وقلت الى حد كبير القيود الخانقة التى كان يعيش فيها فى سجنه الاول ٠ وهنا كان واجبه الرئيسى أن يدلى بأفكاره الحقيقية ، وكانوا يوجهون اليه النقد المرة بعد الاخرى لانه لا يذكر آراءه الحقيقية ، ولذا فان هذا الاهتمام كان يزعجه لأنه كان يشعر أن أقواله صحيحة ٠

وحتى فى فترة « التحسين » هذه ، لم يكن لوقا متحررا تماما من كل علائم الاضطراب النفسى ، وقد قاسى من الاضطراب العصبى العام ومن الارق وعندما اعترف اجابة على سؤال من زملائه فى الغرفة بانه يؤدى الصلاة فى أثناء الليل ، نصحوه بألا يفعل ذلك لان هذا هو الذى يسبب له الارق والسهاد ٠

وقبيل اطلاق سراحه بما يقرب من تسعة شهور واجه ما اعتبره خاتمة المطاف فى خيانته ، فقد أمره القاضى أن يكتب خطابا الى احدى الفتيات الصغيرات اللاتى كن يعملن بجهد ونشاط فى « جماعة مريم » يخبرها فيه بأن هذه الجماعة « منظمة رجعية يتولاها جواسيس » وأنه لا شىء فيها يمت الى الدين بصلة ، وانها يجب أن تعترف للحكومة بكل « نشاطها الرجعى » ، وقد حذروه وبينوا له أن مستقبله يتوقف على الكيفية التى يكتب بها هذا الخطاب ٠

ولقد كتب لوقا هذا الخطاب بعد ضغط وبعد صراع نفسى ، فكتب المشروع الاول للخطاب ، ولما كان قد ذكر فيه بعض ما قامت به « جماعة مريم » من أعمال دينية فقد رفض هذا المشروع ٠ وأخيرا كتب لوقا الخطاب فى صورة ارتضاها القاضى ، فذكر للفتاة : أنه قد خدعها هى وزميلاتها عندما دفعهن للانضمام للجماعة ، وأنه مخطئا عندما طلب منهن « مقاومة الحكومة » ، وأوضح أنه فعل هذا « لصلاته بالامبرياليين » ٠

ولم يكن خطابه هذا يختلف كثيرا عن الطلب الذى طلبوه منه ، ولكنه لم يذكر فى خطابه « أن جماعة مريم لا تمت للدين بصلة » وقد جعله هذا يشعر بنوع من الانتصار ، ولكن الحادثة فى جملتها كانت مصدر ألم كبير له ، وأحس فى قرارة نفسه أن أولئك الفتيات كن أصلب عودا منه ٠

وكانت هناك ظواهر على أن مدة سجن لوقا قد تنتهى فجأة وفى موعد قريب مثل ظهور غرباء آخرين فى غرفة سجنه وبعض رجال الدين الآخرين ، ثم حثه على سرعة اعادة كتابة اعترافه وترجمته وتلخيصه بمعاونة صديقه السجين الموظف ، وكذلك تنبيه الاجانب الى طلب استحضار أمتعتهم الخاصة من الارساليات التى يتبعونها ٠

على أن اعترافه اقتصر في النهاية على مجرد نقطتين اثنتين فقط : علاقته بالأب « س » ونشاطه فى « جماعة مريم » ، فبالنسبة للامر الاول كانت مسألة الجاسوسية لا تزال هى المحور الرئيسى ، أما فى الاخير فقد ركز على تفاصيل التكوين التنظيمى وعضـوية الهيئة • وكان اعتراف لوقا دقيقا الى حد أنه لم يشتمل الا على حوادث واقعية ، وان كان قد شوه فقط فى التفسير لهذه الحوادث • وعندما انتهى الاعتراف الى صورته النهائية استدعى لوقا الى غرفة خاصة حيث التقطت له عدة صور وسجل الاعتراف وهو يقرأه بصوت مرتفع عال •

وفى الاسابيع الاخيرة لسجنه قام لوقا بما يعتبر أكبر درجة من التعاون مع معتقليه ، اذ علاوة على ما اضافه من تفاصيل جديدة عن المقاومة التى قام بها ضد الحكومة أثناء عمله فى جماعة مريم بدأ يساهم بدور ايجابى فى معاونة اثنين من المسجونين الجدد للادلاء باعترافهما ، وقد شعر فى قرارة نفسه بعدالة ما يقوم به نحو هذين المسجونين •

ومرت جلسات التحقيق الاخيرة فى جو من الالفة والمودة ، وهنا قال له القاضى : « ونحن بدورنا نعرف أننا قد ارتكبنا بعض الاخطاء بالنسبة اليك ، ولكن حينما تسافر من هنا يجب أن تظل على اعترافك بما ارتكبت من أخطاء ، ويجب ألا تبالغ فيما يجرى لك ، ويجب أن تدرك أننا فى البداية لم نكن نستطيع السيطرة على كل ما يجرى فى السجون ، ولقـد كان لدينا بعض أناس سيئو التصرف ، ولكن قد توقف الآن كل ايذاء وضرب مما يوضح أن سياستنا الحقيقية ليست سيئة بالقدر الذى يمكن أن تبدو به ، حتى ولو قدرنا فقط ما جرى لك فى العام الاول من سجنك » •

وأجاب لوقا بأنه لاحظ فعلا هذا التحسين فى الاجراءات •

وفى احدى المقابلات بلغ الآب لوقا لاول مرة أنه سينفى من الصين ، وقد جاء التأكيد الرسمى بعد هذا بدقائق قليلة عندما أخذوه لمقابلة قاض ثان قرأ عليه نص الحكم الرسمى فى قضيته •

كانت جرائمه قد خفضت الى ثلاث فقط هى :

- تقديم معلومات عسكرية الى الأب « س » ٠
- نشاطه فى جماعة مريم ٠
- تقديم المعلومات الى الامبرياليين فى الخطابات التى كان يرسلهـا من الصـين ٠

وأحس لوقا مشاعر متضاربة بالنسبة لنتيجة قضيته ويصف ذلك بقوله :

« والواقع أننى شعرت ببعض الراحة ، فقد رأيت أن كل شىء وصل الى نهايته ، ولم يعد من سبيل الى انفعال جديد ، ولكننى فى نفس الوقت أحسست ان هذه الخاتمة ليست طيبة فى جملتها ، فلست اريد ان أترك عملى فى الارسالية ، ولست أرغب فى أن أحرم لقاء الكثيرين من الاصدقاء الذين أتركهم ورائى فى أرض الصين أو أحرم متابعة اتصـالى بهم ، وأحسست كذلك أن كل هذه الاقوال التى جاءت فى اعترافاتى الاولية قد سحبت واستبعدت ، ولكن القضية فى جملتها لم تصل الى درجة اسقاط الاتهام عنى » ٠



الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى

تحدثنا فى الفصل الاول من هذا الباب عن دور الأيديولوجيات بصفة عامة فى معركة المعتقد ، حيث اتضح لنا بعض الصراعات التى قامت بين الناس فى الازمنة المختلفة من أجل هذه الايديولوجيات ، كما تبين لنا الى اى مدى كان المعتقد عاملا أساسيا فى هذه الصراعات •

والآن سنحاول أن ننظر الى الموضوع من زاوية أخرى لنرى كيف يمكن أن يحدث تحول فى الإفكار داخل أيديولوجية واحدة •

ولقد اخترنا لذلك ، موضوعا شغل العالم أجمع ، ولا يزال يتتبع أحداثه ، وهو الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى •

على أننا نود أن نلفت النظر الى أن الهدف من هذا الفصل لا يرمى الى نقد سياسى ، أو تحليل موضوعى شامل ، ولكننا نريد أن يتفهم القارىء الدوافع الكامنة وراء هذا التحول ، ومدى الصراع الذى يحرك هذا التحول •

* * *

لقد تساءل الناس كثيرا عما ذا كانت هذه الثورة : صراعا من أجل السلطة، أو صراعا حول من يتولى الخلافة ، أو أنها صراع أيديولوجى يقوم به الزعماء أنفسهم لاعادة تشكيل عقول الشعب ولاشعال حماسة واظهار أهمية الثورة •

كما قال البعض أيضا : أن هذه الثورة الجديدة ما هى الا تعبير بصورة هائلة لحالة التذمر ضد ماوتسى تونج وحكمه ، وأنه اذا كان هناك صراع من أجل السلطة ، فان ذلك الصراع كائن بين ماوتسى تونج وبين هؤلاء الذين يتحدون مركزه وآراءه •

لقد أطلق الصينيون أنفسهم على تلك الحركة الجديدة اسم « الثورة الثقافية » أى حركة أيديولوجية : لاعادة تشكيل عقول الشعب، ولاستئصال أولئك المنحرفين والبورجوازيين ، والمناهضين للحزب ، والمعارضين لمبادىء ماوتسى تونج ، وهؤلاء الذين يعملون على اعادة البورجوازية للصين •

أما الدارسون الفاحصون لشئون الصين ـ وهم فريق العلماء ورجال الفكر الذين يدرسون الصين بالتلسكوب والميكروسكوب ؛ فانهم قد قدموا تلك التفسيرات وتفسيرات أخرى للتطورات الجارى وقوعها فى الصين •

ولو ألقينا نظرة ثابتة الى الاحداث الجارية فى الصين ونظرنا اليها على أنها كل ، لكان من الصعب على المرء أن يؤيد أية نظرية أو تفسير من التفسيرات السابقة •

والواقع أنه كان هناك نقد كثير للزعامة الصينية فى : كتابات المؤرخين الصينيين ، وفى مسرحيات كتاب المسرح ، ومقالات الصحفيين منذ سنة ١٩٦١ •

وقد يعجب المرء كيف فات السلطات والباحثين المتخصصين فى دراسة الصين أن يفهموا مغزى تلك الكتابات طيلة هذه السنين •

على انه من جهة أخرى فان الانتقادات التى وجهت للزعامة كانت قد أحيطت بسياج كبير من الصمت ، لدرجة أننا لا نستطيع اعتبار تلك الظاهرة موجة متدفقة من التذمر •

أما فيما يتعلق بمركز ماوتسى تونج نفسه ، فليس هناك ظل من الشك فى أن بعض الشخصيات الهامة لابد من أنها اختلفت معه ، ونادت بسياسة مختلفة ، أو طالبت بتأكيد أهمية نواحي معينة فى سياسة الدولة ٠

ولكن من المبالغة أن نقول : أنه كان هناك خطر ما يهدد مركزه وسلطته مما جعله مضطرا الى تنظيم حملات الاصلاح هذه ، وعمليات التطهير حتى يحتفظ بسلطته ٠ ولا يزال ماوتسى تونج ـ بالطبع ـ الرجل الذى يقود الدفة فى الصين ، وهو الذى نظم الحملات والكفاحات الحالية لا للاحتفاظ بسلطته ولكن لكى يضمن لعمله الثورى ولقوة آرائه ومبادئه أن تعيش من بعده ومن بعد الجيل الذى يعاصره ٠

* * *

والواقع أن ماوتسى تونج كان ولا يزال يحس قلقا ازاء مستقبل الثورة فى الصين ، وازاء الحماس الثورى فى نفوس جيل الشباب ٠

وهو يأمل فى أن يورث « التناسق الكامل لافكاره » لا للجيل الحاضر والمقبل فحسب ، بل للاجيال اللاحقة لشعب الصين الكبير ٠

ومن ثم شنت المعركة الايديولوجية الكبرى الاخيرة لصياغة المفاهيم الجديدة، ولكى تضمن اشتعال نار الثورة وتفكير ماوتسى تونج الى الأبد فى عقول الجماهير الصينية ٠

ولقد نشرت جريدة « الشعب » الصينية مقالة افتتاحية بتاريخ ١ من يوليو ١٩٦٦ بعنوان « تحيا افكار ماوتسى تونج » ، وذلك بمناسبة العيد السنوى الخامس والاربعين للجنة المركزية للحزب الشيوعي وجاء فى هذه المقالة : « ان الحركة التى قام بها مئات وآلاف من العمال والفلاحين والجنود لدراسة مؤلفات الرئيس ماوتسى تونج لهى دراسة حية ٠ انها حركة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ ٠ انها حركة لنشر المبادىء الماركسية اللينينية بصورة لم يسبق لها مثيل ٠ لقد صارت الصين البلد الواسع الارجاء الذى يضم ربع سكان العالم

مدرسة واسعة لدراسة الماركسية ـ اللينينية ، وأفكار ماوتسى تونج ، فأذا توافر مئات الملايين من الناس المسلحين بأفكار ماوتسى تونج ، واذا توافر ملايين من الناس يخلفونه فى حمل لواء قضية البروليتاريا الثورية وهم مسلحون بافكار ماوتسى تونج ـ فاننا عندئذ سوف نكون قادرين على تنفيذ الثورة الاشتراكية حتى النهاية ، وسوف نمكن بلدنا من تحقيق الانتقال ـ تدريجيا ـ من الاشتراكية الى الشيوعية ، وسوف تساهم بقسط وافر مع ذلك فى انجاح الثورة العالمية » .

هذا هو ما يراه الصينيون فيما يحدث فى الصين هذه الايام ، وهو تنفيذ برنامج واسع المدى للتلقين فى صورة نضـال أيديولوجى ، وهو أيضا تدريب ملايين الافراد الذين يخلفون ماوتسى تونج على مواصلة العمل الذى قام به وهو ضمان الروح الثورية والعظمة القومية للصين .

* * *

فاذا قلنا هذا ، فاننا أيضا لا ننكر وجود صراع من أجل السلطة يستعر فى الصين هذه الايام وهذا الصراع ملازم لصراع أيديولوجى ضخم . ولقد كتبت جريدة الشعب الصينية فى مقال أفتتاحى عام ١٩٦٤ بعنوان « خلق ملايين الخلفاء للثورة وتدريبهم » وتقول : « انه لابد من أن تكون نواة الزعامة على كل المستويات فى الحزب والدولة من الثوريين الحقيقيين فى طبقة البروليتاريا ، وأنه لابد من اختبارهم وفحصهم فى مجال صراعات طبقية قاسية معقدة » .

والثورة الثقافية تفعل هذا تماما من أجل نواة الزعامة ، مختبرة اياهم فى حوض المعمودية الذى يلتهب بالنيران . ومن الطبيعى فان أكثر أتبـــاع ماوتسى تونج ولاء واخلاصا هم الذين يمرون بالتجربة بسلام ، وهم حتما سوف يكونون نواة الزعامة على كل المستويات بما فى ذلك المستويات العليا : فى الحزب ، والدولة والقوات المسلحة . ومعنى هذا فان « الثورة الثقافية » ما هى الا كفاح من أجل السلطة ومن أجل الخلافة .

* * *

ولكى نقدر الطبيعة الايديولوجية لتلك التطورات حق قدرها ، علينا أن نسترجع عقائد ماوتسى تونج ومفهومه عن الثورة والصراع الطبقى . ان ما يحاول ماوتسى تونج أن ينفذه فى أمسية حياته ليست آراء جديدة ، بل هى آراء طالما كان ينادى بها .

ففى مستهل عام ١٩٤٧ قال ماوتسى تونج : « ان الثورة فى الصين سوف تكون مستمرة مستمرة » طويلة الاجل . وفى عام ١٩٤٩ وحتى قبل النصر النهائى فى الحرب الاهلية ، كان ماوتسى تونج قد حذر بأن النصر سوف يخلق ميولا وطبائع معينة فى الحزب مثل : الصلف ، والغرور ، والكسل ، وحب اللهو ، وتجنب الحياة الكادحة المتواصلة ، وكان ماوتسى تونج يريد تجنب تلك الاخطاء .

وأكد أن النصر فى الحرب الثورية ما هو الا مقدمة قصيرة لمسرحية طويلة . ان تلك المسرحية الطويلة هى مسرحية « الثورة المستمرة » التى تمثل على مسرح الاحداث فى الصين هذه الايام .

* * *

وهناك علاقة وثيقة بين مفهوم ماوتسى تونج عن « الثورة المستمرة » وبين مفهومه للصراع الطبقى فى المجتمع الاشتراكى . وهذا ايذان بتعديل ـ ان لم يكن تخليا عن المبادىء التى كان قد دعا لها ماركس وانجلز .

كان ماركس وانجلز قد تخيلا أن الصراع الطبقى سوف يختفى عندما تنفذ الثورة وعندما يقوم مجتمع لا طبقى . وكان لينين قد عدل من هذه النظرية الى حد ما عندما تحدث عن « التناقضات » فى المجتمع الاشتراكى .

ولكن ماوتسى تونج طور النظرية الحالية عن الصراع الطبقى بطريقة منظمة وجعلها جزءا لا يتجزأ من الماركسية ـ اللينينية .

وقال فى تقرير له عام ١٩٥٧ بعنوان « الطريقة السليمة لمعالجة التناقضات بين الناس » : « ان الصراعات الطبقية الصاخبة التى تشنها الجماهير على نطاق واسع ـ وهى الصراعات التى تميزت بها الفترات الثورية ـ قد انتهت • ولكن الصراع الطبقى لما ينته تماما » • وهو يرى أن تلك الصراعات سوف تستمر بين أربعة أو خمسة أجيال قادمة : بين العمال والفلاحين ، بين المدينة والريف ، بين العامل اليدوى والعامل الذى يعمل بذهنه ، وأن هذه الصراعات سوف يطول مداها ، بل سوف تكون معقدة ومرهقة وحادة » •

وتحدث ماوتسى تونج أيضا عن طريقة معالجة الصراع الطبقى ، وعن التناقضات بين الناس فقال : « نحن لا نستطيع اجبار الناس على تقبل الماركسية ، كل ما نستطيع عمله هو اقناعهم • من واجبنا أن نعارض طريقة ضرب كل شخص حتى يموت » • فالتعليم والمحاجاة والاقناع والتلقين تلك هى الوسائل المتبعة لاقناع الناس على تقبل الماركسية •

* * *

ولكن يبدو أن ماوتسى تونج ـ بجانب معتقداته الايديولوجية الملازمة له ـ قد تأثر تأثرا كبيرا من الدروس التى تلقاها من الثورة المجرية عام ١٩٥٦ ، ومن خلافاته المذهبية مع الاتحاد السوفييتى •

فهناك اشارة فى الأدب السياسى الصينى الى المحاولات التى بذلها رجال الفكر فى المجر لاحداث حركة ثورية مناهضة • وفى الواقع أنه بعد قمع التمرد فى المجر ظل الزعماء الصينيون يشيرون بأصبعهم الى الاخطار التى تنجم عن نقص الاتصال الايجابى بين الحزب والجماهير ، ونظروا الى الاتحاد السوفييتى على أنه « مثال سلبى » بالنسبة لجميع الثوار وبناء الاشتراكية •

وتذهب انتقادات الصينيين للمثال السوفييتى أبعد من مجرد الاعتراض على « شيوعية خروشوف المنحرفة » بل تؤكد تلك الانتقادات وجود نواحى نقص أساسية معينة فى أسلوب ستالين ، بل فى أسلوب ماركس وانجلز •

فمثلا نادى شن يى CHIN - YI برأى يقول : « ان ستالين ساهم فى عملية التدهور وذلك لانه شجع الصناعات والتكنولوجيا من غير أن يحل مشكلة الزراعة • فلم يتخذ اجراءات لازالة الآثار الرأسمالية البائدة السيئة فى أذهان رجال الفكر • لقد كان متسرعا عندما أعلن أنه لا يوجد صراع طبقى فى روسيا ولم يدرك أن هناك احتمالا لوقوع تغير تجاه الرأسمالية » •

وأضاف شن يى : « أن ماركس وانجلز لم يتنبأ بهذا التدهور الرأسمالى للاشتراكية » وقال شن يى أيضا : « اننا نحاول ازالة هذه الفوارق : بين العمل اليدوى والعمل الذهنى ، بين المدينة والريف ، وبين الفلاحين والعمال » وأضاف الى قوله بصراحة : « سوف نحاول ازالة الطبقة الفكرية » •

وبالرغم من ذلك فان المرء يميل الى الشك فى أن ما يدور هذه الايام فى الصين هو عملية « ازالة » رجال الفكر •

وفى خطاب مشهور لماوتسى تونج عن عمل الدعاية ألقاه فى مارس عام ١٩٥٧ ، أشار الى صفة عدم الاستقرار والثبات الكامنة فى رجال الفكر وقال : « لو أن المرء اعتقد أن هؤلاء الذين يعلمون الآخرين لا يحتاجون أنفسهم الى تعليم ، ولا يحتاجون الى مواصلة الدراسة، ولو اعتقد المرء أن الاشتراكية هى مجرد اصلاح الناس الآخرين ـ اصلاح ملاك الاراضى ، والرأسماليين، والمنتخبين الافراد ، وان ليس من واجبها اصلاح رجال الفكر أيضا ـ لو اعتقد المرء هذا لكان مخطئا » •

* * *

والحملة الحالية لا تهدف ـ من الجائز ـ الى ازالة الفكر كما قال شن ، ولكن هدفها اصلاحهم وجمعهم على صعيد واحد مع جماهير الشعب ، وضمان صب كل رجال الفكر فى المستقبل فى القالب البروليتارى الثورى السليم •

وتجرى حركة اصلاح حاليا فى نظم اللحاق بالجامعة والمدارس ، وفى نظم الامتحانات ، والقوانين الجديدة التى تنص على اجراء اختبار سياسى لكل من يريد

اللحاق بالكليات والجامعات علاوة على التغيير الشامل فى نظم الامتحانات كلها : هذه الحركة تهدف الى منع ظهور طبقة من رجال الفكر منفصلة ـ طبقة معزولة عن تاريخ وقيم الفلاحين والطبقة الكادحة « البروليتاريا » ٠

* * *

ومصـدر آخر للخوف الذى يعتمل فى أذهان الزعماء الصينيين هو تلك التنبؤات التى جاءت على ألسنة ساسة الغرب ٠

وتقول تلك التكهنات : انه لو لم يتيسر الوصـول الى توافق مع الجيلين الاول والثانى من الصينيين فقد يكون من الممكن الوصول الى هذا التوافق مع الجيلين الثالث والرابع ٠

ولقـد رفض الصينيون باحتقار تلك اللفتات الاخيرة من جانب الولايات المتحدة ـ اللفتات التى ترمى الى الرغبة فى التوافق والتفاهم ٠

ويعتقد الصينيون أن التعايش السلمى الذى ينـادى به « المستعمرون » ما هو الا استراتيجية تستهدف افساد المجتمعات الاشتراكية ويريد ماوتسى تونج أن يتأكد أن انهيار الثورة ـ الامر الذى يتوقعه وينتظره الغرب ـ لن يحـدث فى الصين ٠

ومنذ عـام ١٩٦٢ مرت بالصين موجات من حملات الاصـلاح الموجة تلو الموجة ٠ والسبب فى تلك الحملات هى الاحداث التى وقعت فى الفترة ما بين عام ١٩٦٠ ـ ١٩٦٢ ـ وهى الكوارث الطبيعية التى أصابت البلاد ، ونواحى الفشل الاقتصادى والنزاع الصينى ـ السوفييتى ٠

ولابد من أن هذا الفشل قد ترك آثاره فى الداخل فقد نشأ عنه حركة تذمر داخلية ، وحركة معارضة لزعامة الحزب ٠

وفى الدورة العاشرة الكاملة للجنة المركزية للحزب الشيوعى سنة ١٩٦٢ فكر ماوتسى تونج فى اتخاذ اجراءات بعيدة المدى لمواجهة الميول البورجوازية المناهضة للحزب ٠

وشنت حملة تعليمية اجتماعية فى الفترة ما بين سـنة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ وكان الهدف من الحملة هو تلقين جماعى لجميع الاشخاص الكبار البالغين ٠ وكانت الحملة تتضمن : الغـاء الرتب فى الجيش ، والتعلم من حملة جيش التحرير ، والحملة الاولى فى السياسة ، والحملة من أجل دراسـة مؤلفات ماوتسى تونج ، وحركة الجمع بين العمل والدراسة ، والحملات لتدريب خلفاء الثورة ٠

كل هـذا مهد الجو « للثورة الثقافيـة » التى جمعت أطراف كل الحملات السابقة وأدمجتها فى حركة واحدة شاملة واسعة المدى ٠

* * *

ولكى نفهم هذه الحركات فهما جيدا يجب أن ندرس الحملة التى قامت من أجل خلق الملايين وتدريبهم على أن يكونوا خلفاء للثورة ٠ لقـد نشرت جريدة « الشعب » الصينية فى مقال افتتاحى فى ٣ من أغسطس عام ١٩٦٤ « أن العمل العاجل أمام الصين هو أن تورث الثورة من جيل الى جيل ، وأن تقوى نواة الزعامة على كل المستويات » ٠

وجاء فى المقال الافتتاحى : « ان نواة الزعامة هى التى تحدد الاتجاه أمام تقدم القضية الثورية ، وأن نجاح القضية الثورية كلها يعتمد كلية على حقيقة هى : « هل تحتوى تلك النواة على عناصر بروليتاريا ثورية حقة أم لا » ٠

وجاء فى المقال أيضا : « اننا عندما نختار الخلفاء وندربهم يجب أن نركز الاضواء على أفراد من عائلات أصلها من العمال والفلاحين الفقراء ، والفلاحين من الطبقة المتوسطة أو الدنيا ، وأنه يجب أن نظهر اهتماما كبيرا باختبارهم وفحصهم فى صراعات طبقية عنيفة معقدة ، وأنه يجب أن ينظم الموظفون على جميع المستويات والشباب الثورى حتى يساهموا بدور وبطريقة مخطط لها فى الحركات الثورية

الجماهيرية ، وأن يتحمل الزعماء العبء الاكبر فى توجيه الصراعات الثورية فى كل الجبهات علاوة على تحمل مسئولية خلق الخلفاء وتدريبهم » •

هذا هو ما تحاول الثورة الثقافية أن تحققه فهى تحاول توجيه صراع طبقى بازالة : العناصر المناهضة للحزب ، والعناصر البورجوازية ، والعناصر المنحرفه . وفى نفس الوقت اختيار نواة الزعامة ـ النواة التى تعتمد عليها جميع المستويات فى الحزب وفى الدولة •

والفكرة الرئيسية التى تغذى الحركة الحالية فى الصين هى اعطاء الاسبقية والاهمية للنواحي السياسية على المهنية ، وللايديولوجية على الخبرة والحذق •

وهـذا لا ينطبق على الحزب والقوات المسلحة فحسب ، بل ينطبق على : المزارع ، والمصانع ، والجامعات والكليات ، والمدارس فلا يكفى الآن أن يكون المرء « مطلعا وعقائديا وخبيرا » ، ولكن من واجب المرء أن يكون عقائديا أكثر منه خبيرا •

* * *

وألقيت الاضواء على تلك النقطة بالذات عندما شنت الحملة التى هدفت الى أن تؤكد : أولوية السياسة ، وزعامة الحزب فى القوات المسلحة •

فقد هاجم « هسياو هوا(١) » HSIAO HUA فى خطابه المشهور فى المؤتمر السياسى العام لجيش التحرير فى يناير عام ١٩٦٥ ، تلك الفكرة التى دعا اليها البعض وهى أن المسائل العسكرية والمسائل السياسية تتساويان فى الاهمية ، وأنه من الواجب اعطاء الاولوية لكل منهما بالدور طبقا للظروف •

---

(١) « هسياو هوا » هو مدير الادارة السياسية العـامة لجيش التحرير • ويحتمل ان يكون من ضمن من طهروا اخيرا ، ولكن هذا لا يقلل من قيمة تلك الاقتباسات التى اقتبست من خطابه وهى تمثل آراء « لين بياو » LIN PIAO وقالت جريدة « جيش التحرير اليومية » فى مقال افتتاحى يكشف عن اعمال التطهير الأخيرة فى الجيش : ان المذنبين كانوا قد وافقوا صراحة ولكنهم عارضوا سرا تعليمات الرفيق لين بياو التى تضع السياسة فى المقدمة ، وانهم تحدثوا عن اعطاء الأولوية للسياسة ، ولكنهم فى حيز المـارسة اعطوا الاعتبارات الاولى للشئون العسكرية وللاعمال الفنية والمتخصصة ، ولا بد من أن هسياو كان فى حديثه مؤيدا لين بياو ، ولكنه لم يكن كذلك فى حيز التنفيذ •

وعارض « هسياو » هـذا الرأى وقال : « أن الشئون العسكرية ما هى الا جزء ، ولكن الشئون السياسية هى كل ، وأن الصلة بين الشئون السياسية والعسكرية هى الصلة بين القائد وبين من يقودهم » .

وأضاف هسياو : « اننا لا نخشى العـدو مهما كانت قوته ، ولا نخشى الاسلحة مهما كانت شدتها ـ هذا فيما يتعلق بالجيش الثورى ـ ولكن ما نخشاه حقا هو : التدهور السياسى ، والانفصال عن الشعب ، ونزع السلاح الفكرى ، وبدرجة أقل روح القتال عن طريق التخاذل .

« ولهذا السبب يجب أن نعطى الاولوية للسياسة ، وأن نعزز عملية الفكر السياسى ، وأن نسلح عقول القادة والرجال بأفكار ماوتسى تونج ، وبهذا نضمن أن تكون الزعامة للحزب وأن تكون له السيطرة على القوات المسلحة أكثر الاجهزة التنفيذية اخلاصا لتنفيذ سياسة الحزب ، وأفضل أداة مدربة فى يد الحزب » .

وليس من الضرورى أن يعنى هذا أن الكفاية العسكرية ليست أمرا هاما ، ولكن يعنى أن قوة الجيش الصينى تقوم أساسا على طابعه الثورى لا على تفوق الاسـلحة ، وهـذا له صـلة بالصراع الايديولوجى من ناحيـة ، اذ أن دعاة « الاحتراف » فى القوات المسلحة لابد من أنهم كانوا يؤيدون الاسلحة والمعدات المتفوقة التى لا تستطيع الصين الحصول عليها الا بالتخلى عن سياستها فى النزاع المذهبى مع الاتحاد السوفييتى .

ويدل اختفاء لو جوى شنج LO JUI CHING (١) رئيس هيئة أركان حرب الجيش من المسرح السياسى على أنه كان واحدا من هؤلاء الذين أكدوا أهمية « الاحتراف » ومن الجائز أيضا أنه كان له دور فى الصراع من أجل السلطة فى الصـين .

---

(١) نائب وزير الدفاع ورئيس اركان حرب الجيش الذى اصبح اهم قائد عسكرى فى الصين منذ يناير ١٩٦٥ ـ عضو سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعى وكان احد نواب رئيس الجمهورية .

وتشير الدلائل الى أن « لين بيــاو » وزير الدفاع الصينى نجح فى فرض زعامته على الجيش ، بل فرض زعامة ماوتسى تونج بأفكاره على الجيش أيضا ٠

ولقـد ظهر لين بياو أيضا لا كمترجم لماوتسى تونج وأفكاره فى القوات المسلحة بل كمترجم لتلك الافكار للشعب كله ، وفى هذا الصدد تدل دعوة هسياو بأن من واجب الجيش : « أن يكون أكثر الاجهزة المنفذة اخلاصا لسياسة الحزب ، والاداة المدربة فى يد الحزب » و « أكثر الاداة مسئولية فى الحزب » تدل هذه الدعوة على أن ما يفعله لين بيــاو لا يهدف فحسب الى اخضاع جيش التحرير للحزب بل الى ابرازه على أنه طليعة الحزب ، وأفضل أداة فى يد الحزب ، بل أقوى بوق ينطق بأفكار ماوتسى تونج ٠

ولذلك فانه يبدو أنه فى الوقت الذى خضعت فيه المسائل العسكرية من الوجهة الرسمية للحزب فان الجيش تحت قيادة لين بياو صار قوة سياسية فى الصين لا عن طريق ابراز تفكيره العسكرى بل عن طريق اضطلاعه بدور « أكثر الادارة مسئولية » للحزب أى لماوتسى تونج ٠

وصار هذا أكثر وضوحا بعد صدور المقال الافتتاحى فى أول أغسطس عــام ١٩٦٦ فى جريدة « الشعب » بمناسبة العيد السنوى التاســع والثلاثين لجيش التحرير ٠

لقد جاء فى المقال : انه نظرا لظروف جديدة فقد ألقى ماوتسى تونج على عاتق جيش التحرير مهام جسيمة ، وأنه طالبه بأن يكون مدرسة كبيرة للثورة ، وأن البلاد كلها ــ المصانع والكوميونات والمدارس والمنظمات الحكومية الخ ــ يجب أن تكون مدارس ثورية مثله ٠ وكل هذا له مغزى هام بالنسبة للصراع من أجل السلطة فى بكين ٠

* * *

وهناك خلافات فى اعطاء تفسير دقيق لمفهوم سيطرة السياسة ، واتضحت تلك الخلافات فى التعليقات التى أبداها فريق من جيش التحرير فى مقال افتتاحى فى جريدة « الشعب » بعنوان « السياسة لها الاسبقية » والذى نشر فى ١٤ من أبريل عام ١٩٦٦ ٠

فبينما أكدت جريدة « الشعب » ضرورة البدء بالناحية السياسية فى ادارة الشئون : العسكرية ، والزراعية ، والصناعية ، والمالية ، والتجارة ، والثقافة ٠ والتعليم ، والعلم ، والتكنولوجيا ، وكل أنواع العمل ، فانها أبدت رأيها فى أن من واجب الثوار أن يكونوا « على وعى سياسى » و « خبراء محترفين » فى نفس الوقت ، وأن السياسة يجب أن تعبر عن نفسها فى العمل ، وأنه « لا توجد حياة سياسية ليست على صلة بالعمل » وأن « اتقان العمل من شأنه اعلاء مركز السياسة ، ووضعها فى الصف الاول » ٠

* * *

ولقد أجرت بعض الكادرات القيادية فى السلاح الجوى بجيش التحرير الشعبى مناقشة حول هذا الموضوع ، وظهر تقرير عن هذا فى الجريدة اليومية لجيش التحرير فى ١٧ من مايو عام ١٩٦٦ تحت عنوان : « ان وضع السياسة فى المقدمة مسألة يجب أن تنفذ فى الثورة الايديولوجية » ٠

وكانت النتيجة التى انتهت بها المناقشة فى جيش التحرير السياسى : « هى ان الآراء التى عبرت عنها جريدة الحزب آراء حمقاء » ٠

وقالت : « ان وضع السياسة فى المرتبة الاولى ليس من أجل تنفيذ العمل بصورة سليمة فحسب ، ولكن من أجل غرض أهم هو ــ بناء جيشنا حتى يصبح جيشا بروليتاريا على جانب كبير من القدرة على القتال ، حاملا لواء الثورة البروليتارية حتى النهاية ، ولتحقيق الشيوعية فى أنحاء العالم أجمع » ٠

وقال التقرير أيضا : « أنه خلال الربع الاول من هذا العام لم ينفذ التدريب العسكرى الا نادرا ، ولكن اهتمام السلاح الجوى كان مركزا على التعليم السياسى» •

وأضاف التقرير ــ الذى يرى أن الانسان أكثر أهمية من التكنيكات ــ قوله : ــ أنه فى حالة رجل الطيران ، فانه لا يستطيع فهم تكنيكات الطيران فهما جيدا اذا لم تكن لديه صلاحية من الناحية الايديولوجية • وحتى ولو استطاع التحليق فى السماء فانه لن يتجاسر على مقاتلة العدو ، وسوف ينتهى به الامر الى الهزيمة » •

وانتهت المناقشة الى نتيجة هامة هى : « ان ما يمجد الآن فى الحملة الحالية ليس العمل مهما كان متسما بالخبرة الفائقة ، ولكن ما يمجد هو روح الشعب ، لان هذه الروح تدفع الشخص الى تجاوز عمله العادى وبذل التضحية الفردية والجماعية » •

وهذا توضيح لمفهوم ماوتسى عن « القنبلة الذرية الروحية » للصين ــ أى طاقة الملايين الملهمة أيديولوجيا والمنظمة سياسيا ، تلك الطاقة التى تواجه التحديات التى تجابه الامة ، والتى تحقق انجازات عظمى فى وجه المصاعب والاخطار •

ومن الطبيعى أن يكون المثقفون ورجال الفكر هم أول الضحايا فى هذه الثورة الثقافية البروليتارية ، فلقد تعرض : الكتاب ، والصحفيون ، واساتذة الجامعة وفوق كل هذا جميع الموظفين فى ادارة الدعاية فى الحزب لحملة التطهير التى شنت على نطاق واسع فى بكين نفسها ، وفى الاقاليم •

ولقد عزل لوتنج يى LU TUNG - YI مدير ادارة الدعاية فى الحزب ونائبه شويانج CHOU YANG من منصبيهما ، وكانا عضوين فى اللجنة المركزية وعزل من منصبه كذلك نائب رئيس الوزراء ووزير الثقافة •

وكان سبب الهجوم على شويانج موقفه المضاد لآراء ماوتسى تونج عن الأدب والفنون فى الثلاثينيات ، ولانه اتبع منذ ذلك الحين ما أطلق عليها « السياسة السوداء » فى الفنون ٠

وفى جيش التحرير تأثر بحركة التطهير لوجوى شنج LO JUI CHING وبعض نوابه فى هيئة أركان الحرب ، وأحد نواب وزير الدفاع ، وعدد من كبار المسئولين فى الادارة السياسية العامة ٠

* * *

وتتجاوز الاتهامات الموجهة الى رجال الفكر مسائل تتعلق بالنقاء العقائدى ٠ فقد تحدثت جريدة « الشعب » فى مقالها الافتتاحى فى أول يوليو عام ١٩٦٦ عن جماعة مناهضة للثورة هاجمت الحزب والاشتراكية وآراء ماوتسى تونج ، ثم تسللت الى الحزب والحكومة والجيش والادارات الثقافية ، ويقال أن هذه الجماعة حاولت سلب السلطة فى الحزب والجيش والحكومة ، وانها كانت تنوى تدبير انقلاب مناهض للثورة ، وانها بذلت جهودا للوصول الى مراكز مرموقة لاعداد العدة لاستعادة الرأسمالية ، ولانجاز انقلاب مناهض للثورة ٠

* * *

والواقع أن الحملة الحالية عملية تطهير وازالة للعناصر الخطيرة ، وهى فى نفس الوقت علاج اجتماعى وقائى على نطاق واسع ٠ وتعلق عـلى تلك النقطـة آنا لويز سترونج ــ اخصائية الدعاية الامريكية للشيوعية الصينية ــ فى أحد خطاباتها الاخيرة من الصين بقولها : « ان الصينيين لاحظوا أن جميع الثورات فى الماضى كان لها ردود أفعال ــ بعـد ذلك ــ ردود أفعال سلبتهـا كثيرا من مكاسبها ٠

« فقد حدث هـذا مع الثورات : البريطانية البيوريتانية ، والفرنسية ، والامريكية ، والروسية ، ومن الممكن أن تحدث للصين أيضا ٠

« ان ما يحاوله ماوتسى تونج الآن هو محاولة تجنب انعكاس الثورة فى الصين ، وهذه الحملة الجماعية التى تصل فى قوتها الى قوة البركان المتفجر هى حملة يقودها ماوتسى تونج شخصيا كهدية منه للثورة التى قادها لمدة تزيد على ٤٠ عاما .

« ان فى كفاح ماوتسى تونج طابع البطولة وكذا صورة تستحق الرثاء ، فكفاحه يهدف : الى ربط الاجيال المتعاقبة بتفكيره ومبادئه ، والى جعل التاريخ يسير على الطريق الذى شقه وخططه بيديه » .

* * *

وبينما نرى أن تغييرا أيديولوجيا فى طريقه الى الوقوع فى الصين ، وأنه أمر لا يقبل الشك ، فان الصراع من أجل السلطة ومن أجل الخلافة هو أيضا جزء متضمن حتما فى هذا التغيير الايديولوجى . وعلى أى حال ، ففى دولة تحكمها دكتاتورية البرولبتاريا طبقا لمبدأ المركزية الديمقراطية ، فان مستقبل الحزب ، والثورة ، والبلاد مسائل غير منفصلة عن مسألة الزعامة .

وفى أثناء هـذا فان عمل ماوتسى تونج لن يقتصر على تعليم الجماهير ، أو تطهير صفوف الحزب ورجال الفكر ، ولكنه سوف يفكر فى اختيار من يخلفه ، أو من يخلفونه .

* * *

وعملية الاختيار تلك ، لابد من أن تتضمن صراعا على السلطة فى القمة ـ وطرد بنج شن Peng Chen (١) ، لوجوى شنج ، هذه كلها دلالات على المناورات

(١) عمدة بكين وعضو اللجنة المركزية والمكتب السياسى للحزب .

والصراع من أجل السلطة ، تلك المناورات التى تجريها جماعة أرادت التخلص من منافسين خطرين ، ولكن كل تلك المنـاورات تحـدث داخل اطار « الثورة الثقافية » •

فقد ذكرت جريدة « الشعب » فى مقالها الافتتاحى الصادر فى أول يوليو تحت عنوان « تحيـا أفكار ماوتسى » ذكرت لاول مرة منذ شهور أسماء زعماء الصين بهذا الترتيب : ليو ــ شاو ــ شى ، شوين ــ لاى ، لين بياو ، تونج ــ هسياو ــ بنج • ولكنها أشارت اليهم على أنهم زعماء يعترفون بآراء ماوتسى تونج وبتفكيره على أنه مساهمة خلاقة أصيلة للينينية والماركسية •

وهذا يدل على أن الولاء لافكار ماوتسى تونج هو المسـألة الرئيسية فى مسألة الخلافة وأن الجولة الاولى فى الصراع من أجل السلطة قد تكون انتهت ، وانه قد تم اقامة توازن ــ قد يكون غير ثابت الاركان ــ بين زعماء القمة الاربعة •

ومن بين هؤلاء الاربعة ، سافر شواين لاى فى زيارة أيديولوجية هامة الى البانيا ، وقد أولت الصحافة الصينية تلك الزيارة أهمية كبرى على صفحاتها ، وبهذا أكدت مركزه فى قمة السلطة . أما ليو ــ شاو ــ شى الذى التزم الصمت فقد القى خطابا هاما عن فيتنام فى ٢٢ من يوليو أكد به أيضا أنه لا يزال فى مصاف القادة الكبار الذين يسوسون البلاد ، بالرغم مما تردد عن تعرضه للهجوم والنقد، ولقد وردت أخيرا أنباء تفيد بأنه قام بعمل منشور يعلن فيه ولاءه لماوتسى تونج ولين بياو ، ويعتذر عما بدر منه ، ويتردد أنه قد يبعد عن مناصبه فى القريب •

أما لين بياو فقد اتسم عمله بالنشاط وهناك أدلة كثيرة على أهميته • أما تنج هسياو بنج فقد وجهت اليه أخيرا اتهامات بالانحراف ومحاولة استغلال منصبه فى الحزب •

أما فيما يتعلق بشواين لاى فان دائرة الصراع تبدو مقصورة على محاولته الاحتفاظ بمنصبه الحالى أكثر منها محاولة سلب السلطة العليا •

ولقد تكهن البعض بأن أول خليفة لماوتسى تونج سوف يكون ليو ـ شاو ـ شى ولكنه سوف يكون زعيما « لسد الفراغ يشارك السلطة مع آخرين يتولون السلطة الحقيقية » •

وهناك نقطة نستطيع بها أن نعارض مثل هذا الترتيب ، وهى أنه اذا كان ماوتسى تونج يقود ويوجه الحملة الحالية لضمان المستقبل البعيد المدى للثورة ، فانه لا يمكن أن يوفق ـ فى نفس الوقت ـ على ترتيب مؤقت « زعيم لسد الفراغ » على مستوى القيادة العليا •

وعلاوة على ذلك فان ماوتسى تونج يرى أن زعيم الحزب الشيوعى يجب أن يكون هو الشخص الذى يتولى السلطات الحقيقية ، لا أن يكون رئيسا رمزيا تحركه شخصيات أخرى من وراء الستار ، هذا الا اذا كان الاختيار قد وقع على اقرار نظام القيادة الجماعية بعد ماوتسى تونج •

ومن بين الرجال الاربعة ، تتركز الاضواء على لين بياو فى الصين هذه الايام • وتشير كل الدلائل الحالية الى أنه زعيم الحزب فى المستقبل • ولكن هناك احتمال يستبعد تولى لين بياو السلطة • ذلك ـ انه جندى محترف ـ والتقليد الشيوعى السائد هو أن الزعامة تكون من المدنيين ، وبالرغم من ذلك فقد حدث فى الصين تداخل الى حد ما بين الادوار العسكرية والمدنية نتيجة للمسيرة الطويلة والحرب الاهلية الطويلة مع تأكيد دور حرب العصابات • وقد حدث أن تولى بعض قواد الجيش مناصب هامة فى الحزب •

وخلال العامين الأخيرين ظهر لين بياو كالمفسر والمترجم لأفكار ماوتسى تونج وكان هو صاحب الفكرة التى دعت الى سيطرة الحزب على القوات المسلحة والى دراسة جميع مؤلفات ماوتسى تونج ، وهى حملة نموذجية موضع التقدير فى كل الصين •

وأوضح لين بياو أيضا بالتفصيل مفهوم ماوتسى تونج عن «الثورة العالمية» فقال : أن أمريكا الشمالية وأوروبا تمثلان المدن فى حين أن أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية تمثل الريف ، وعلى ذلك فالثورة العالمية يجب أن تبدأ من القارات الريفية الثلاث ثم تنتقل الى المناطق الاكثر تقدما •

وكان أول من عرض هذه النظرية هو زعيم الحزب الشيوعى فى أندونيسيا « ايديت » ثم أيده فى رأيه بنج شن ، ولكن لين بياو كان أول من شرح النظرية بالتفصيل ، وحولها الى بيان نظرى رئيسى يشبه بيان ماوتسى تونج عن الثورة فى المنطقة المتوسطة •

وأصدر لين بياو بيانا هاما آخر فى ١١ من مارس عام ١٩٦٦ عندما كتب خطابا الى الادارات الصناعية والتجارية فى الحكومة يطالب فيه : « بتفكير موحد ، وتفكير ثورى ، وتفكير سليم » حتى تتقدم الصين ، وكان هذا تدخلا له مغزاه من وزير الدفاع فى المجالات المدنية فى الحكومة • ومع ذلك فهناك تطور هام آخر وهو دور القيادة الاول الذى قامت به جريدة جيش التحرير اليومية فى « الثورة الثقافية » بينما قامت جريدة الحزب الرسمية « الشعب » بالدور الثانى •

ويشهد المراقب للاحداث التى تقع فى الصين والصراع من أجل السلطة ، بزوغ نجوم جديدة فى الافق ، وهذا له دلالة لا تقل عن مغزى اختفاء أسماء لامعة من الحياة العامة وفى التعيينات الجديدة •

وهناك ميل الى تعيين رجال الجيش فى ادارات الدعاية فى الحزب • من هؤلاء : تاوشو TAO CHOU الذى حل مكان لوتنج كمدير لادارة الدعاية ــ وهو معروف بانه من أنصار لين بياو وأنه من المتزمتين فى سياسة الحزب ، ويقال أنه قال فى فبراير عام ١٩٦٤ : « كل ممتلكات الفلاحين ملك للكوميون فيما عدا فرش الاسنان الخاصة بهم » •

وهناك شخصية أخرى ألقيت عليها الاضواء وهى ييه شين ينج YEH CHIEN - YING وهو أحد الماريشالات السابقين فى جيش التحرير كما أنه عضو فى اللجنة المركزية ، ونائب رئيس مجلس الدفاع الوطنى ، وعضو اللجنة العسكرية فى اللجنة المركزية للحزب برئاسة لين بياو •

وهناك شخصية هامة أخرى وهى أيضا من أتباع لين بياو وهى شخصية يانج شويو YANG CHOU YU وهو أحد نائبى رئيس هيئة أركان الحرب ، ومحارب قديم فى الحرب الكورية ، وقد خلف لوجوى شنج كرئيس هيئة أركان الحرب •

كل هذه التطورات تبدو وكأنها تضع لين بياو فى مركز متفوق فى الصراع من أجل السلطة ، ولكننا لا نستطيع التكهن بشىء لان المعلومات المتوافرة ليست كافية • ان كل ما حاولنا أن نوضحه هو الاشارة الى الاتجاهات والاحتمالات •

* * *

على أن اكثر الاعتبارات أهمية الناجمة عن التطورات الحالية فى الصين هو أثر تلك التطورات على السياسة الداخلية والخارجية للصين • فهل من المحتمل أن تتغير ، أو هل من المحتمل أن تشتد صلابة ، أو تصير أكثر ليونة نتيجة لهذا التغير ؟

وهل من المقدر أن تكون الزعامة الجديدة ثورية وعدوانية أو أكثر لينا ؟ وهل هذه التغيرات مقدمة لقفزة جديدة فى مجال الاقتصاد ؟

وهل سوف تعنى هذه التغيرات استمرارا فى سياسة المواجهة الحالية مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى أو هل تخفف من حدة موقفها ؟

هذه أسئلة أساسية لا نستطيع آن نجزم بالاجابة عنها ، وبالرغم من ذلك فلا يسع المرء الا آن يحاول التكهن بقدر محدود ٠

والملاحظة التى يستطيع المرء أن يبديها فورا هى أن الهدف كله من الثورة الثقافيــة هو المحافظــة على الثورة ، ولذلك فانه لا يمكن أن تكون التطورات أو التغييرات تمهيدا لتخفيف سياسة الشدة التى تتبعها الصين ، فان القومية الصينية ــ أيضا ــ عامل لضمان استمرار سياسة الشدة ٠

لقد صار تفكير ماوتسى تونج بمثابة دعامة تحافظ على تماسك الدولة الصينية الهائلة ، وعلى عظمة الصين ومجده كشعب ، وكقوة عالمية ٠

* * *

وفى المجال الداخلى هل تؤدى تلك الحملات وحركات التطهير الى اعداد الجو « لقفزة كبرى جديدة للامام فى المجال الاقتصادى ؟ » ٠ لقد استخدم الصينيون فى الآونة الاخيرة تلك العبارة مرارا ٠

ويقال : أن شاوشو ــ رئيس ادارة الدعاية الجديد ــ قد صرح فى يونيو عام ١٩٦٥ بقوله :« لو قلنا : أن القفزة العليا الاولى فى الريف وقعت عندما قاد حزبنا الفلاحين على الطريق نحو التجميع الزراعى ، فاننا اذن وبعد أن بدأ الحزب فى آن يقود الفلاحين نحو الاشراف على عملية التعليم الاشتراكى بنجاح ، كاشفا عن الصراع بين طريقين ومندفعا نحو الامام بخطى سريعة للعمل على بناء التفكير

والتنظيم والانتاج بما فى ذلك الاصلاح الفنى للزراعة ، نستطيع ان نقول : أن هذا سوف يؤدى الى قفزة ثورية عاتية فى الريف » •

ويبدو أن الصينيين أيضا قد أحيو « مشروع الاثنى عشر عاما الزراعى » لاعوام ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ ، وهو المشروع الذى وضع هدفا طموحا لتحقيق انتاج من الحبوب[١] قدره ٤٥٠ مليون طن بحلول عام ١٩٦٧ •

وبالرغم من نواحى التقدم الاخيرة فى الزراعة والصناعة ، فانه لم يصل الانتاج الصينى فى الزراعة والصناعة الى مستويات سنة ١٩٥٨ •

وبالرغم من ذلك حقق الاقتصاد تقدما وثباتا واستقرارا وقد يكون فى رأى ماوتسى تونج أن هذا قد يكون قاعدة أو أساسا « لقفزة جديدة نحو الامام » •

ومن الممكن أن الخلافات فى الرأى قد تكون قد ظهرت بين الزعامة حول هذه المسألة كما حدث عام ١٩٥٩ •

وكان من بين الاتهامات التى وجهت الى رجال الفكر هو أنهم وجهوا النقد للكوميونات و « للقفزة الكبرى نحو الامام » ، والصدام فى الآراء حول هذا الموضوع سوف يتضمن بصورة غير مباشرة تغيرا فى الاتجاه ازاء الاتحاد السوفييتى كواحد من مظاهر الجدل أو الخلاف •

والحل البديل « لقفزة جديدة » قد يكون : اما تحمل نسب النمو البطيئة الحالية واما اللجوء الى الاتحاد السوفييتى من أجل المعونة • ولكن يبدو أن ماوتسى تونج رفض كلا الحلين •

---

(١) كان الانتاج الفعلى فى سنة ١٩٦٥ ـ ١٩٠ مليون طن •

وعلى أى حال فليس هنـاك ما يدل على تخفيف فى الضغوط الايديولوجية أو التنظيمية على الشعب ، بل بالعكس قد يشتد الضغط على جماهير الشعب •

* * *

وفى مجال السياسة الخارجية ، لا يلمح المرء أية تغييرات جذرية، فسوف تواصل الصين سياستها القائمة على مناهضتها للاستعمار ، ولن تبذل محـاولة جادة للصلح مع الولايات المتحدة على الاقل خـلال السنوات الاربع أو الخمس المقبلة ، وحتى لو وجدت تسوية لأزمة فيتنام ومسألة فرموزا ، فان النتيجـة لن تتعدى أكثر من عودة العلاقات الطبيعية خلال هذه الفترة ، وبطبيعة الحال فان عودة العلاقات الطبيعية مع الولايات المتحدة سوف يكون حدثا له أهميته الهائلة .

على أنه من جهـة أخرى قد أعلنت الولايات المتحـدة أخيرا أنهـا قوة فى آسيا ، وأنها تنوى أن تظل كذلك ، وهو أمر لا يقبله الصينيون كما أن الصينيين يخشون تلك التلميحـات التى تبدر من واشنجطون والتى تدل على الرغبـة فى الصلح ، وهم يخشون تلك التلميحـات أكثر من خوفهم من التهـديدات التى تصدرها واشنجطون ، فهم يخشون من أفكار « التعايش السلمى » والتدفق الحر للأفكار والسلع وهى الأفكار التى يدعو اليهـا « المستعمرون » ويرون فى هذه الأفكار حيلة استراتيجية يقصد بها افساد روح الثورة •

لذلك فان سياسة الصين ازاء الولايات المتحدة من المنتظر أن تظل سياسة متسمة بالعداء والكراهية ولو على الأقل فى المستقبل القريب ، الا اذا حدث ووقع تدهور فجائى جذرى للعلاقات الصينية ـ السوفييتية •

أما عن الاتحاد السوفييتى فانه من الواضح ألا تتحسن علاقاته مع الصين ، ذلك لأن الثورة الثقافية التى تقع الآن فى الصين موجهة ضد ظهور « الشيوعية المنحرفة من النمط السوفييتى » فى الصين •

والسؤال هو : هل سوف ينعكس الصراع الايديولوجى أكثر فأكثر على العلاقات مع الدول ، وخاصة فى الموقف المتفجر الخاص بالنزاعات حول الحدود • وفى الوقت الذى تسوء فيه العلاقات بين الاتحاد السوفييتى ، والصين يبدو أن الصين ليست مستعدة لصراع رئيسى مع الاتحاد السوفييتى، وليست هى أيضا على استعداد للدخول فى صراع كبير مع الولايات المتحدة بشرط ألا يتسع نطاق الحرب بشكل جنونى فى حرب فيتنام •

الباب السادس
أسطورة العنصر

الفصل الأول
أسطورة زائفة

الفصل الثاني
بين ماض بغيض ومستقبل باسم



أسطورة زائفة

يقول فيليب ماسون(١) :

« لو أن مخلوقا من كوكب آخر ـ غير الأرض ـ قدر له أن ينزل اليهـا ـ وليس له من الوعى السياسى الا قدر يسير ـ لبدا له أن دول هذا العالم الذى نعيش فيه ـ فى عصرنا الحديث ـ قدتقاسمتها الوان شتى من الأفكار المتعارضة فخلقت منها زوجين من المجتمعات المختلفة •

أما الزوج الأول فان كلا من عنصريه يدعى أنه انما يعمل من أجل تحقيق الديمقراطية وباسمها ـ وقد أخذ أولهما تفسيره لهذه الديمقراطية عن فلاسفة القرن الثامن عشر ، بينما اتبع الآخرون تعاليم هيجل وماركس وأعطوا للدولة القيمة الكبرى •

والعنصر الأول يضم مجموعة الدول الغربيـة ، أما العنصر الآخر فيشمل الكتلة الشيوعية •

ولكن مجموعة الدول الغربية ـ التى تبدو فى نظر أنفسها أنهـا تقوم من اجل حرية الفرد يضايقها ما قد يبدو للآخرين منأن مجتمعاتها ليست على تناسق أو توافق بين طبقاتها » •

---

(١) Philip Mason, An Essay on Racial Tension, Royal Institute of International Affairs, London.

لقد حدث أن دفعت القوى المغامرة النشطـة للدول الغربية القديمـة الى التوسع فيما وراء البحار لتغزو وتحكم أناسا آخرين ٠

وهكذا ظهرت مجموعتان من الناس : مجموعة جاءت لتملك امبراطوريات واسعة ـ ومن ثم تحكم أناسا آخرين ـ ومجموعة أخرى يمثلها السوفييت وتدعى أنهـا قد منحت الحكم الذاتى لولاياتهـا ، ومن ثم وقفت فى الميدان كبطل يرمز للقوة لمساعدة هؤلاء المغلوبين على أمرهم ٠

ويبدو الموقف فى الواقع غاية فى التعقيد ، فكلا المجموعتين تحاول أن توسع دائرة نفوذها ، ولكن أبرز ما تتعرض له المجموعة الغربية فى سياستها هو النقد المرير لسياستها العنصرية أو الاستعمارية ٠

وفى خضم الصراع بين الغرب والشرق ، يقف الزوج الآخر من الشـعوب التى تحررت من قبضة الاستعمار ، أو التى لاتزال تناضل من أجل استقلالهـا كقوة لها تأثيرها فى المجال الدولى ٠

ولكن هل هو فى الواقع ذلك الحكم الاستعمارى ـ ولا شىء أكثر منه ـ هو ما تناهضه هذه الدول ؟ ٠٠ ربما يكون من المستحسن أن نقول : ان الدائرة أكثر اتساعا ـ وأن الغالبية العظمى من هذه الدول كانت تعانى من التفرقة العنصرية التى لاقتها من المجموعة الغربية ـ وكثيرا ما يتحدث قادتها فى شعارات وطنيـة عما تلاقيه العناصر غير الاوروبية من هؤلاء الذين يسمون عادة بالبيض ٠

ونتج عن ذلك مشكلات حادة فى حاجة الى حل ٠٠ مشكلات تغذيها الحرب الباردة وتجد فيها ميدانا لاثارتها ، ولكن من الخطأ البين أن نفترض أن هـذه المشكلات تستقى كل خطورتها من الحرب الباردة ذلك لأنه لو انتهت هذه الحرب ، فان هذه المشكلات قد تستمر لانها أمر يخص الانسانية ذاتها ٠

والآن دعنا نفكر قليلا فيما تعنيه المشكلة بالنسبة لبنى البشر ٠٠ قد يكون من الصعب أن نعود قليلا الى نصف قرن مضى ـ أو أن نتذكر ما وصل اليه سكان

أوروبا الغربية من تقدم صناعي جعلهم يشعرون بالتفوق الكامل على بني البشر ٠٠ ومن الناحية السياسية أداروا أو حكموا : جزءا كبيرا من آسـيا ، والغالبية العظمى من مساحة القارات الأخرى ٠

وكان لهذا الغرور والترفع واحتقار الآخرين ٠٠ الذى استمر طويلا حتى فى قارة آسـيا أثر كبير على التوتر العنصرى الذى سـاد العـالم فترة طويلة ، ولا تزال آثاره باقية حتى اليوم ٠

* * *

ومن ثم كان لابد لنا من أن نتفهم جذور هذه المشكلة ، تلك المشكلة التى كانت تحمل الاعتقاد بأن البشرة الشقراء أو البيضاء أكثر احتراما وتبجيلا عن البشرة السوداء أو الملونة ٠

فى هذا الفصل سنحاول أن نتعرف طبيعـة مشكلة اللون ، وكيف كان اختلاف لون الانسان نكبة كبرى على معتقدات البشر ، وكيف بنيت هذه العقيدة على وجود فكرة تفوق جنس على آخر نتيجة سلالته أو لونه ، أما فى الفصل التالى فاننا سنحاول أن نوضح كيف كان للاستعمار ارتباط كبير بهذه المشكلة ، والى أى مدى استغل الانسان أخاه الانسان أسوأ استغلال ، واستعبده على أبشع الصور معتمدا على تلك الفكرة الزائفة بتفوق جنس على آخر ٠

والواقع أن اللون يعتبر نكبة قاسية تفصل بين شعوب العـالم ، بل انه ليعتبر أشد النكبات قسوة لأنه لا معنى له ، ولأنه يقيم فجوة بين هذه الشعوب . انه نكبة يزيدها تعقيدا أساطير الاجناس ، ويجسمها سوء فهم الفروق الاقتصادية والسياسية والروحية بين الشعوب . انها تقيم جدارا حول الناس وحول الشعوب، وتنشأ خلف هذا الجدار أساطير تفوق بعض الشعوب على البعض الآخر ٠ ولمـا كانت هذه الأساطير من النوع النفاذ فانها سرعان ما تختلط بالحقيقة ٠

ولا تعتبر الأساطير الخاصة بالتفوق العنصرى شيئا جـديدا ، فقد فرض المانشو على الصينيين العزلة العنصرية القاسية ، ومنعوا كل زواج مختلط ، كما نشأ نظام الطوائف فى الهند نتيجة غزوات عنصرية ، أما الاضطرابات التى ثارت بعد ذلك فكان ينسج خيوطها الطوائف الواحدة ضد الاخرى ، فيشعر المسلمون فى الهند باضطهاد الهندوس لهم ، بينما يعيش الهندوس فى قلق جنبا الى جنب مع المسلمين فى باكستان . ولقد ظل المسلمون فى الاراضى الشـمالية الغربيـة من الهند يقومون بالثـورات من آن لآخر حتى أخمدهم الصينيون بلا رحمة فى القرن التاسع عشر .

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية فاق المسـتعمرون اليابانيون المسـتعمرين الغربيين عندما حلوا محلهم لفترة قصيرة . وفى نفس الوقت بينما كان الناس فى أمريكا الشمالية ينظرون الى اليـابانيين على أنهم شعب تقدمى ذكى نشـط الا أنهم كانوا ينظرون اليهم تحت وطأة الحرب العالمية الثانية على أنهم شعب ماكر خائن . ثم دارت الايام وأصبحوا ينظرون الى اليابانيين فى الوقت الحاضر بالاعجاب بسبب مهارتهم ، وبسبب أجهزة الراديو الترانزستور التى يصنعونها .

وفى الهند كان الجنود الأمريكيون ينظرون الى الوطنيين على أنهم شىء قذر غـير متحضر ، وفى نفس الوقت كان المفكرون الهنـود ينظرون الى الامريكيين باحتقار على أنهم أجلاف وماديون يعوزهم الفكر والحضارة .

ويعلق توماس باتريك مياليدى(١) على هذه العادة بقوله :

« ان هذه العادة القديمة ليست عادة تنتقل من مكان الى مكان فحسب ، ولكنها قد تنشأ فى نفس المكان . ففى جزر الانتيل الكبرى بعد أن اكتشفت أمريكا بسنوات قليلة كان المستكشفون الاسبان يوفدون الجماعات ليتأكدوا ما اذا كان

---

(١) Thomas Patrick Melady, The Revolution of Color, Hawthorn Books, Inc, New York, 1965, P. 23.

للوطنيين أرواح ، بينما كان الوطنيون يقومون باغراق الاسرى البيض ليتأكدوا ما اذا كان العفن سيصيب جثثهم أم لا • ان هذا العجز عن تقبل هذا التنوع الانســانى وتقديره هو علامة على الوحشـــية والبدائيـــة ، فكان الانسان القبلى المحصور فى جماعة تتشابه معه ينظرون الى أعضاء القبيلة المجاورة على أنهم : أقل منه ، وأقل من البشر ، وعلى أنهم متوحشون » •

* * *

ولقد نشأت الاساطير العنصرية عن مثل هذا التفكير الموروث الذى هو خليط من سوء الفهم ، ومن الخيال ، ومن الخطأ ، وقد أوجزه لنا عالم الاجناس البشرية جوان كوماس(١) بقوله :

« ان فكرة تقسيم البشرية الى أقسام عنصرية منفصلة عن بعضها البعض اتصالا تاما فكرة غير دقيقة • انها مستندة الى مقدمات منطقية زائفة ، وخاصة نظرية الدم الخاصة بالوراثة ، والتى لا يقل زيفها عن زيف النظرية العنصرية نفسها • ان انتماء شخص الى دم معين هو عبـارة لا معنى لها ، حيث ثبت أنه ليست هناك علاقة مطلقا بين عوامل الوراثة وبين الدم ، بل ان هذه العناصر مستقلة ، وهى لا تتحد فحسب ، ولكنها تميل الى ان تتميز • وليست الوراثة عبارة عن سائل يسير مع الدم ، وليس صحيحا ما يقال من أن دم الابوين يتحد فى المولود » •

ان التقسيمات العنصرية العلمية التى يضعها علماء الاجناس البشرية تهدم الافكار الخاطئة السائدة التى تقسم الناس الى : أجناس عليا ، وأجناس دنيا ، ولقد أثبت علماء الاجتماع دون أى شك ان تقسيم الأجناس بمقياس تفوق نسبى لا يستند الى أى أساس علمى •

---

(١) Juan Comas, «Racial Myths» UNESCO Series on The Race Question in Modern Science, Paris, 1958, P. 17.

لقد دار حوار نابه فى مجموعة الكتيبات التى كانت تصـدرها اليونسكو تحت اسم « موضوع الاجناس البشرية فى العلوم الحديثة » • وان قراءة دقيقة لهذه التقارير وهذه البحوث التى توصل اليهـا علماء الاجناس البشرية لتؤكد تعقيد فكرة الجنس البشرى وتهدم التعميمات السهلة التى هى نتيجة السـعى لتحقيق مأرب ، أو التحيز أكثر منها نتيجة لعلم سليم •

ولا يتفق علماء الاجناس البشرية على عدد الاجناس على وجه التحديد ، وان كانوا قد ابتكروا لذلك مقياسا • ان مفهوم « الجنس » فى رأيهم هو عبارة عن عدد من السكان معزولين جغرافيا أو اجتماعيا ويختلف عن غيرهم من السكان . وتقاس الفروق : بواسطة بعض الخصائص والميزات الجسمانية ، ومدى تردد « الجينات » (Genes) التى تنتجها •

ومهما كانت هذه التعميمات فهناك تعميم ينطبق عليها كلها : فكل الناس لها نفس نظام المخ المعقد ، ونفس الجهاز العصبى المركزى. وهذا يؤيد الفكرة التى تقول بعدم وجود : أجناس عليا ، وأجناس دنيا ، وان كانت هناك فروق داخل الاجناس ، وفروق بين الاجناس بعضها وبعض •

وحتى الآن توصلت البيانات العلمية الى وجود فروق جسمانية كثـيرة ، وفروق عقلية محدودة جدا • والنتيجة النهائية ـ كما يقول ج•م• مورانت ـ هى : توازن بين القوة والضعف مما يجعل الاجناس البشرية فى حكم المتساوية • وبعد أن يلاحظ بروفسور مورانت أن الفروق بين الجماعات تؤدى الى المساواة بينها فى النهاية نجد أنه يقول بلهجة علمية كلها تفاؤل :

« ان التنوع بين السكان هو نعمة للانسانية لو أعطى الجميع فرصة تنمية طاقاتهم(١) » •

---

(١) G. M. Morant « The Significance of Racial Differences » UNESCO Series on The Race Question in Modern Science, Paris, 1958, P. 47.

هذه هى اللغة الدقيقة التى يستخدمها العالم عندما يعالج موضوع الأجناس البشرية ، وهى لغة تختلف عن لغة العنصرى الذى يخلط بين الحقيقة وبين الخيال ، بين المظاهر وبين الحقائق • ان العنصرى يؤمن بعدم المساواة ايمانا مطلقا غير مشروط ، يؤمن بوجود جنس متفوق ، وجنس متخلف بغض النظر عن الظروف : المادية والاجتماعية ، والاقتصادية ، والتاريخية •

* * *

واذا نحن طبقنا هذا على الموقف العالمى فى الوقت الحاضر لوجدنا أن تقسيم الاجناس يمكن أن يهبط الى جنسين فقط : البيض ، وغير البيض • ان هذا هو الأساس الذى يقوم عليه التوتر العنصرى • ويمكن أيضا أن نعبر عنه بأنه عبارة عن مواجهة بين : الغرب ، وغير الغرب • وطبقا لهذا التقسيم أيضا تنشأ المشكلة : بين العالم المتقدم ، وبين العالم المتخلف • وعن هذه المعادلات الغرب والتقدم ، غير الغرب والتخلف ينشأ أساس سوء الفهم الذى يسير فى موازاة أحداث اللون القاسية •

ويفسر ميليدى ذلك بقوله(١) :

« ان للهوة التى تفصل الغرب عن غير الغرب أو البيض عن غير البيض جذورا ليست ذات صبغة تاريخية ودبلوماسية ولغوية فحسب ـ بل ان لها صبغة اقتصادية وسياسية وروحية • وبلغة الاقتصاد نقول : ان هناك قلقا من جهة المعونة الاقتصادية ، فهناك احساس بأن المعونة الامريكية الممنوحة الى دول الشرق لا تقارن بمعونة مشروع مارشال الضخمة • وهنا يرد الغرب ويقول : ان البلاد

(١) Thomas Patrick Melady, The Revolution of Color, Hawthorn Books, Inc. Publishers, New York, 1958, P. 26.

المتقدمة يمكن أن تمتص المعونة بوعى اكثر من البلاد المتخلفة • وفضلا عن ذلك فهناك اختلاف فى المقاييس التى تستخدم فى توزيع المعونة ، فهى تعطى لدول الغرب على أساس الكفاية ، أما مع غير الغرب فانها تقاس على أساس فقد جزء من الكرامة القومية » •

* * *

وبينما ينكر الغرب نواياه للسيطرة على العالم غير الغربى الا أن ذكرى الاستعمار لتترك تراثا من القلق ، وتجعل الدول التى عانت من ذلك تنظر الى نوايا الغرب بعين الشك •

ومن ثم نجد أنه فى المجال السياسى ـ كما هو الحال فى المجال الاقتصادى ـ يظل : سوء الفهم وعدم الثقة هما العلاقة بين الغرب وغير الغرب •

وفى عالم الروح أجبر ظهور غير البيض على المسرح العالمى العالم الغربى ، الى أن يعيد دراسة قيمه الرئيسية ومعتقداته ، وأن يواجه بفهم وحذر نظام القيم الخاص بغير البيض • أما الاجناس الملونة فلديها ثقة فى قيمها الروحية وفى تصميمها على الاحتفاظ بها •

ان تقبل فكرة الاله العلوى هو عامل يتغلغل فى كل المعتقدات الاساسية الخاصة بالشعوب الملونة • ان ثقافات الشعوب الافرو أسيوية لتستند الى أساس روحى • ففى طريقة حياتهم نرى معظم سكان أفريقيا وآسيا الأصليين قد أظهروا طيلة قرون طويلة ـ وما زالوا يظهرون ـ قبول القيم الروحية ، القيم غير المادية . وبعبارة موجزة أنهم يؤمنون باله أعلى بالرغم من الاختلاف فى تسميته خالق للحياة يجزى ويعاقب • ويعتبر هذا عاملا أساسيا فى قيمهم •

ان القيم المتشابكة هى اعتراف ثابت بالمسئوليات الاولية • واذا نحن بدأنا بالمسئولية الاولى نحو الوالدين نجد أن معظم الاديان تركز على واجب الفرد نحو الاسرة ، وفضلا عن ذلك فان ضغوط الفقر والجهل والمرض التاريخية قد زادت روابط الاسرة وثوقا ، وقوت ارتباطاتهـا بين الشـعوب الملونة • فنجـد أنهم يتعاونون فى مجتمعاتهم التقليدية بالمشاركة فى تحمل الأعبـاء • انهم يشتركون عن طريق الاحتفالات القبلية والاسرية المختلفة فى مناسبات : الميلاد ، والزواج ، والوفاة ، والمحصول ، والمطر ، والجفاف •

وكما هو الحال فى كل المجتمعات التقليدية نجد أن للأجناس الملونة عقلية احتفالية أو طقوسية • انهم يرون فيها أفضل تعبير لهم عن فرحتهم بالحيـاة ، وفرحتهم بالانشـطة الانسـانية من : جنس ، الى نوم ، الى لهو ، الى طعـام ، ويواجهون الحياة فى أبسط صورهـا ، بروح من الفرحة والبهجة • ولا ينقص حلاوة الحياة بالنسبة لهم الا أنها قصيرة أو قاسية •

وهناك كل الدلائل التى تشـير الى أن معظم الدول التى نالت استقلالهـا حديثا فى أفريقيا وآسيا تشعر بالرغبة فى أن تصفح ، وأن تنسى استعلاء البيض عليهم فى الماضى •

ولكن هذا الأسلوب الخاص « بالصفح والنسيان » لينطبق فقط على الماضى . ولا يمكن أن نتوقع أن تصفح هذه الشعوب وتنسى الاسـاءات المستمرة التى تجرح كرامتهم كآدميين •

وكلما أحرز الانسان تقدما تكنولوجيا كبيرا ـ أحرز : قدرة على التقـدم الانسـانى ، وقدرة على التـدمير ، ومن ثم فان ظهـور الأجنـاس الملونة كقوة مؤثرة فى الشئون العالمية يزيد الامل فى مسـتقبل البشرية • ومن جهـة أخرى فان العنصرية والاساطير الخاصة بالتفوق العنصرى ، لتنـكر القيـم العامة لغـير

البيض كما تنكر المثل العليا للبشرية • ان هذه الافكار لتنبع من العقول المتعصبة المتأثرة : بالجهل ، أو الكره ، أو الخوف فى تحديها للواقع والمعقول • ولكن أهم من هذا كله هو أن الشعوب الملونة أصبح لها نفوذ فى الشئون العالمية ، وأصبحت تسهم بنصيب فى تحقيق الاسرة العالمية • والامل معقود فى أن تستفيد البشرية من هذه القيم العالمية ، وتنظر الى اللون على أنه فرق عرضى لا أهمية له ، وتواجه تحدى المعايشة فى القرن الواحد والعشرين •

الفصل الثانى

بين ماض تعيس ومستقبل باسم

الاستعمار والتفرقة العنصرية :

عبر رابندرانات طاغور(١) عن فكرة السيادة الوطنية بقوله : « لقد شاهدنا فى بلادنا نوعا من الطعام المعلب يعلنون عنه أنه تم صنعه وتم تغليفه دون أن تمسه يد • ونفس هذا الوصف ينطبق على الهند وحكمها • ان هذا الحكم لم تمسسه يد بشرية • فلا الحكام يعرفون لغتنا ولا يلتقون بنا لقاء شخصيا الا كرؤساء •• ولكننا ـ نحن المحكومين ـ لسنا شيئا مجردا • اننا من جانبنا أفراد لهم احساساتهم » •

وفى غينيا صرح الرئيس سيكوتورى للرئيس شارل ديجول عندما خير الشعب فى سبتمبر ١٩٥٨ م عما اذا كان يريد الاحتفاظ برباطه مع فرنسا أم لا ؟ فقال : « نحن نفضل الفقر فى ظل الحرية على الغنى فى ظل العبودية » •

والواقع أن الوطنيين فى آسيا وأفريقيا واجهوا هذا الموقف ـ وهو واضح بالنسبة لمن يرفضون الاستعمار ولا يرتضونه ـ فقالوا مؤكدين : « أفضل لنا أن نحكم بأنفسنا كما لو كنا فى الجحيم ، من أن يحكمنا حكامنا المستعمرون حكما عادلا » •

---

(١) Rabindranath Tagore, Nationalism, The Macmillan Coy, New York 1917, PP. 24.

وقد عبر التصريح الذى أصدرته الامم المتحدة عن هذه الفكرة بلغة تتسم باللباقة الدبلوماسية ٠

« الجمعية العمومية ٠٠٠

اقتناعا منها بأن استمرار وجود الاستعمار يمنع اطراد التعاون الاقتصادى للدول ، ويقف حجر عثرة فى سبيل التنمية : الاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية فى البلاد الخاضعة للاستعمار ، ويقلل من فرص تحقيق مثل الأمم المتحدة فى السلام العالمى ٠٠

لذلك فانها تعلن :

أولا : ان فرض : الاستعباد ، والسيطرة ، والاستغلال على الشعوب هو حرمان لهذه الشعوب من حقوقها الانسانية الاولية ٠ وهو يتنافى مع ميثاق الأمم المتحدة ، كما أنه عقبة فى سبيل تحقيق السلام العالمى ، والتعاون ٠

ثانيا : لكل الشعوب الحق فى تقرير مصيرها » ٠

والواقع أن الاستعمار يفترض تفوق الغرب الابيض على العالم غير الابيض ، وقد عبر عن ذلك فى مدى واسع للسيطرة يمتد من الاستعمار الامبريالى الى الاستعمار الجديد ٠ وهى نفس الفكرة التى تقول بتفوق الدخيل الابيض على الوطنى الملون ٠ ولهذا لم يكن عجيبا ما تختاره الشعوب الملونة بعد ذلك ٠

وقد خربت تجارة الرقيق ــ وهى أسوأ ألوان الاستغلال والاستعباد ــ القارة الافريقية من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر ، وكانت مقدمة للاستغلال والاستعمار اللذين أعقبا ذلك ٠

وقد تضمنت تجارة الرقيق الاطلنطية من ٣٠ الى ٤٠ مليونا من العبيد فى الفترة من عام ١٥١٨ الى عام ١٨٦٥ م ٠ وعبر المحيط الاطلنطى ما لا يقل عن ١٥ مليونا من الافريقيين ٠

ويقول كاولى فى مقدمة كتابه « شحنة سوداء » أن الصفة المميزة لتجارة الرقيق هى :

« لا أخطارها ، ولا عدد الأرواح التى تفقد أثناءها ، ولا حتى ألوان القسوة التى كانت تصيب الملايين ، ولكن كانت قسوة التجار وانعدام العطف الانسانى . ومن بداية هذه التجارة حتى نهايتها كانت تنكر كل المستويات فيما عدا مستويات الربح والخسارة . لقد كانت قيمة الرجل الاسود تقدر طبعا لما يحمله من لحم وثمن ذلك فى السوق . فاذا لم يكن للحمه قيمة فكانوا يلقون به الى البحر كما لو كان حصانا كسرت ساقه(١) » .

وكانت النتائج الوحشية لتجارة الرقيق تضرب فى كل اتجاه . لقد أصابت البحارة البيض كما أصابت شحنة السود . ولما كانت أهمية البحارة تقل عن أهمية العبيد – كانوا يعطون مقدارا من الطعام أقل ، وكانوا يعاملون بقسوة أكثر . ولذلك كانت نسبة الوفيات بينهم أكبر من نسبة وفيات العبيد المشحونين على المركب . وفى أيام تجارة الرقيق كان هناك مثل برازيلى يقول : « ان هذه التجارة كانت : مطهرا للرجل الابيض ، وجحيما للزنجى ، ونعيما للتاجر » .

وفضلا عن ذلك كان العبيد الافريقيون المسروقون يشترون من التجار الوطنيين بعد مساومات مستفيضة . وكان الثمن يدفع على شكل بضائع استهلاكية وعلى شكل بنادق . وكانت الأخيرة تستخدم بدورها بغية الاستيلاء على مزيد من العبيد ، فكانت القبيلة الافريقية تشن الهجوم على القبيلة الافريقية الاخرى لتحصل على العبيد . وكانت النتيجة حالة حرب دائمة فى غرب أفريقيا ، وكان تجار الرقيق يستغلون هذه الحالة من التوتر الشديد ومن العداوات .

وفى نفس الوقت كان أساس الاستعمار فى آسيا ، النشاط الجم الذى كان يبذله التجار الاوروبيون الذين كانت تمثلهم شركة الهند الشرقية الانجليزية

(١) Paniel P. Mannix in Collaboration With Malcoln Cowley. Black Corgoes, The Viking Press, 1962.

وشركة الهند الشرقية الهولندية التى تأسست فى أوائل القرن السابع عشر • وقد ركز الهولنديون من التجار على جاوه وجزر البهار ، كما ركز البريطانيون على الهند • وكانوا قد قفوا على أثر البرتغاليين الذين كانوا يسيطرون فعلا على تجارة المحيط الهندى عن طريق خلجان الشواطىء الصغيرة • وقد اشترك الفرنسيون فى المنافسة عن طريق شركة جزر الهند •

ووصلت العملية الى ذروتها عام ١٨١٨ م عندما أحرزت الشركة الانجليزية تفوقها على الشركات الاخرى ، وكما حدث فى أفريقيا تحت سيطرة الاوروبيين بمعاونة الحكام الوطنيين ومساعدتهم ، وتم للانجليز هزيمة الفرنسيين فى هذا الميدان • وأصبحت الشركة الانجليزية حكومة تسيطر على الهند . وفى عام ١٨٥٨م ألغى البرلمان الانجليزى حكومة الشركة فى الهند . ووضعت محلها البلاد تحت حكم التاج البريطانى • وأصبح سكرتير الدولة فى الهند عضوا فى الوزارة البريطانية .

وقد بدأ سباق الاستعمار فى أفريقيا يأخذ صورة جدية فى السنوات التى تبدأ من ١٨٧٠ م واستقر فعلا فى عام ١٨٩٨ م • وفى هذه الفترة القصيرة تغلغل النفوذ الاوروبى السياسى عن طريق التغلغل الاقتصادى • وجاء مؤتمر برلين عام ١٨٨٤/١٨٨٥م ليضع القواعد الاساسية لاستغلال الاوروبيين لافريقيا وتقسيمها بينهم • وكانت المنافسة تدور بين بريطانيا وفرنسا من أجل السودان ، كما كانت المنافسة تدور بين بريطانيا وألمانيا على الكمرون • وكانت أفريقيا جميعها هى الغنيمة التى تم توزيعها فى بداية القرن على الدول الآتية : بريطانيا ، وفرنسا ، وبلجيكا ، وايطاليا ، والبرتغال ، واسبانيا ، وألمانيا •

واستمرت السيطرة حتى منتصف القرن العشرين . وان حجم هذه السيطرة ومداها ليبدو غير معقول فى هذه الفترة القصيرة • فلم يحدث أن أصبح مثل هذا العدد الكبير ومثل هذه المساحات الكبيرة فى يد مثل هذه القلة . ففى السنوات الخمسينية كانت جملة السكان البيض فى أفريقيا خمسة ملايين ، بينما كانت جملة السكان الافريقيين ١٩٣ مليونا ، واذا استبعدنا المليونين ونصف المليون من

الأوروبيين فى جنوب أفريقيا ، والمليون وستمائة ألف فى شمال أفريقيا الفرنسية ـ لقلنا أن أفريقيا كانت فى قبضة مليون من الاوروبيين البيض .

وكانت الدول الاوروبية تتبع سياسات مختلفة للاحتفاظ بوجودها فى المستعمرات . فكانت لكل دولة أوروبية أسلوبها الاستعمارى المميز الذى كان يختلف من مكان الى مكان . كان البريطانيون يستخدمون نظام الحكم غير المباشر ، فكانوا يديرون البلاد عن طريق الزعماء الوطنيين، وكانوا يعملون بسياسة هدفها اعداد السكان المحليين للحكم الذاتى فى داخل الكومنولث . ففى الفترة السابقة على الاستقلال كان البريطانيون يعدون السكان ـ على مراحل ـ لتولى الحكم الذاتى ، وان كانت الشكوى تقول : ان هذه المراحل كانت بطيئة .

وفى داخل امبراطورية الاستعمار البريطانية كان هناك تنوع فى السياسة . ففى شرق أفريقيا كان حاجز اللون ملحوظا وخاصة فى روديسيا . وفى نيجيريا كان الاستيطان ممنوعا بينما أعطى المستوطنون البيض فى كينيا أفضل الاراضى . ولكن كان هناك دائما شكل من اشكال الحكم غير المباشر .

وكان الهدف من وراء ذلك ليس مصلحة الوطنيين ولا تهيئتهم للحكم الذاتى ، ولكن الاستعمار البريطانى كان يهدف من وراء تلك السياسة ، أن يهيىء جيلا يتعاون معه فى المستقبل بشكل جديد ، ولا يمكنه أن يبتعد عنه ، وهذا بالطبع يعبر عما نراه اليوم فى شكل الاستعمار الجديد .

أما هدف الاستعمار الفرنسى فهو أن يتناول الافريقيين ويحيلهم الى فرنسيين سود . لم يدرب الفرنسيون الوطنيين على الحكم الذاتى ، ولكنهم كانوا يستخدمون الحكم المباشر وهذا يعلل كثرة عدد الاداريين الفرنسيين فى أفريقيا . ففى فترة ما قبل الحرب فى أفريقيا الغربية كان الفرنسيون يحكمون عددا من السكان يبلغون خمسة أثمان العدد الذى كان يحكمه البريطانيون ، ومع ذلك كان عدد ادراييهم ثلاثة أضعاف عدد اداريى البريطانيين (٣١٠٠٠ فرنسيون، و ١١٠٠٠ بريطانيون) . وكان الفرنسيون يسعون الى القضاء على سخط الوطنيين بتثقيفهم

وتعريفهم بثقافتهم ومدنيتهم ، بل كانوا يوفدونهم للدراسة فى باريس • ومن الناحية النظرية كان الافريقيون السود مواطنين فرنسيين ـ فكانوا ينتخبون أعضاء فى البرلمان الفرنسى ، وفى السنوات الخمسينية كان هناك ٥٢ أفريقيا من بين أعضاء الجمعية الوطنية البالغ عددهم ٦٢٦ عضوا • كما كان هناك ٣٨ أفريقيا من بين أعضاء مجلس الشيوخ البالغ عددهم ٣٢٠ عضوا • وكانت النتيجة أن كثيرا من هؤلاء الافريقيين كانوا يشعرون أنهم أحسن حالا وهم فى باريس عنهم اذا كانوا فى : باماكو ، أو داكار ، أو بورتونوفو •

وعلى النقيض من ذلك كان البلجيكيون يؤكدون المنفعة الاقتصادية فى حكمهم ويؤثرونها عن الفرص السياسية • فلم يكن يسمح لاحد ـ حتى ولا للبلجيكيين ـ أن يصوت فى الكونغو • وبدلا من الحقوق المدنية كانت هناك فرص اقتصادية • وقد ظل البلجيكيون الذين كانوا يحكمون الكونغو من بروكسل متناسين نار الوطنية والقومية •

أما البرتغاليون فقد كانوا يتجاهلون الناحيتين السياسية والاقتصادية ، وكانوا أكثر استغلالا لافريقيا من كل من انجلترا وفرنسا • وامعانا منهم فى الاحتفاظ بالحالة الراهنة ـ التى أصبحت مستحيلة ـ عمل البرتغاليون على أن يجعلوا الافريقيون يعيشون فى حالة من الجهل والعزلة • وكجزء من حكمهم الاستبدادى أدخلوا تجديدا واحدا • فاصدروا قانونا بأن الافريقى الذى يمر فى عدة اختبارات معينة بنجاح يصبح رجلا أبيض من حيث الادارة البرتغالية • ولكن كان من العسير على الافريقى أن يمر فى هذه الاختبارات اذ أنه بعد فترة طويلة يقول احصاء عام ١٩٥٠م أن عدد الافريقيين الذين مروا فى هذه الاختبارات فى أنجولا هو ٣٠ر٠٣٩ من جملة عدد السكان ٠٠٠ر٠٠٠ر٤ نسمة • وفى موزمبيق حيث يبلغ عدد السكان ٠٠٠ر٧٠٠ر٥ نسمة بلغ عدد المؤهلين لهذا الوضع ٣٥٣ر٤ أفريقيا •

وبعد نشوب ثورة أنجولا فى عام ١٩٦١ م أعلن البرتغاليون عن عدد من الاصلاحات : المواطنة لكل السكان الوطنيين ، حق الانتخاب بشرط تسديد الضرائب ومعرفة القراءة والكتابة • وكانت هناك مساومات جماعية • ولكن لم

تغير هذه الاصلاحات من الحقيقة التي يعرفها الجميع والتي تقول : « ان هؤلاء الناس يريدون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وأنهم سوف يحصلون على هذا الحق عنوة اذا لم يعط لهم بطريقة سليمة .

أما اسبانيا وألمانيا فكانتا نسبيا عوامل صغيرة فى تجربة استعمار أفريقيا . فبعد أن خرج الالمان من أفريقيا الشرقية فى أثناء الحرب العالمية الأولى خلفوا وراءهم ذكريات عن الحكم العنيف .

وتردد مارجرى بيرهام — الخبيرة البريطانية فى الشئون الافريقية سطرين من قصيدة سير فرانسيس دريك التى يمتدح فيها عملية التوسع الاستعمارى لبنى وطنه فيقول :

« سيغنمون منا معرفة الدين الذى نؤمن به .

وسنغنم منهم الثروات التى تحتوى عليها بلادهم » .

وبينما كانت أفريقيا تقاسى من تجارة الرقيق ، كانت أوروبا تجنى المكاسب الاقتصادية الطائلة . واستفادت شركات الملاحة فى : فرنسا ، وانجلترا ، وهولندا من تجارة الرقيق ، وأمكن قيام صناعات وأسواق جديدة . كان الرق يوفر رأس المال الذى يستخدم فى المناجم والسكك الحديدية ، ومصانع القطن . وفى نصف الكرة الغربى كانت السلع الآدمية تساهم بنصيب كبير فى استقرار القارتين .

وكان التوسع الاستعمارى عاملا اقتصاديا كبيرا فى تقدم الغرب ، وكان من نتيجة قيام الامبراطورية أن جاءت : القوة ، والهيبة ، والأمان للعالم الابيض . كانت المستعمرات تمد البلاد الاوروبية المصنعة بالمواد الخام كما كانت بدورها سوقا للسلع المصنعة . وفى نفس الوقت كانت تنميتها تخدم السلطة المستعمرة وتنفعها . وكان نتيجة ذلك أن ازدادت البلاد الغنية غنى ، كما ازدادت البلاد الفقيرة فقرا — وهذا اتجاه وحشى وخطر وما زال مستمرا حتى اليوم . ان سيطرة البيض على غير البيض فى آسيا وأفريقيا — من جريمة الرق المعنوية الى جريمة الاستعمار السياسية والاقتصادية — هى محل دراسة لأسوأ صور الاستغلال .

انطلاقة التحرر :

وجاءت الحرب العالمية الثانية مصحوبة بنكبات قاسية لدول أوروبا ، واضطرت هذه الدول الى الاستنجاد بشعوب أفريقيا وآسيا ، ومن ثم ذوت فكرة تفوق الجنس الابيض المطلقة ، وانتشرت العقيدة الوطنية بين كثير من شعوب آسيا وافريقيا ٠

وكان من نتيجة قيام العقيدة الوطنية وانتشارها بعد الحرب العالمية الثانية أن تحركت سلسلة من الاحداث كان لها أبلغ الاثر على العلاقات الدولية ٠ وكان أقواها أثرا ما حدث في أفريقيا وآسيا مما كان له تأثير ثورى على البناء : الاجتماعي، والسياسي ، والاقتصادى ٠ فذبلت وذوت الامبراطوريات القديمة ٠ وبعد أجيال من السكوت والسلبية تلقفت الشعوب الملونة القوة ، وانطلقت نحو عصر جديد .

أما دول الغرب فكانت تجابه شيئا من التناقض ٠ لقد خاضت غمار حربين عالميتين من أجل تحقيق الحرية والديمقراطية ، ولكنها لم تقم بتطبيقها على الشعوب المستعمرة ٠ وكان لابد لهذه الدول الغربية بعد أن ساهمت المستعمرات فيها من أن تفكر فى اصلاحات تؤدى الى الحكم الذاتى اذا لم يكن الى تقرير المصير ٠

وفى نفس الوقت كانت ضريبة الحرب العالمية : فى الأرواح ، وفى المدن ، وفى الصناعات فى أوروبا غاية فى الثقل ٠ كانت فى حاجة الى كل نشاط لاعادة بناء الحياة الجديدة على الانقاض القديمة ٠ لقد باتت أوروبا وقد استنفدت مواردها أو رغبتها فى مواصلة النظام الاستعمارى ٠

ولكن حق تقرير المصير كان ولا يزال يفسر على شكل جداول ومراجعات دستورية زاد فى تعقيدها استثمارات الغرب : البشرية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ٠ وأصبحت الأمم المتحدة منبرا لمناقشة هذه المشكلات مناقشة مفتوحة ٠ وبينما كان مجلس الوصاية يسيطر على جزء يسير من البلاد الافريقية التى لم تحصل بعد على حكم ذاتى ، كان هو أيضا منبرا للتحدث عن حق تقرير

المصير • كان هذا المجلس يقدم الى الامم المتحدة تقريرا عن ادارة الوصاية ، وكان يناقش تقدم كل بلد نحو الوصول الى تقرير المصير • وكان الاتحاد السوفييتى والدول الشيوعية الاخرى مصدر مزيد من الضغط على مقاومة الاستعمار •

ومن بين دول الاستعمار القديمة ظلت البرتغال وحدها تتحدى هذه الاستجابات التحررية ، لعجزها عن أن ترى نفسها منفصلة عن مجدها القديم كقوة عالمية • ان هيبة البرتغال الوطنية مرتبطة باعتمادها الاقتصادى على مستعمراتها فيما وراء البحار ، وباهتمامها بانشاء مجتمع من المستوطنين قوامه مواطنون برتغاليون •

ولكن كانت بذور الثورة قد بذرت • لقد بينت أن فى مقدور الأفريقيين والآسيويين أن يديروا شئونهم وبذلك قضوا على أسطورة تفوق البيض • ومما لا شك فيه أن الشكوك كانت قد أثيرت حول الاسطورة قبل الحرب العالمية الثانية • ولكن بقيام هذه الحرب رأى الافريقيون والآسيويون للمرة الثانية كيف قام الرجل الابيض ضد الرجل الابيض فى جبهة عالمية •

وساعد على القضاء على أسطورة تفوق الرجل الابيض بحوث علماء الاجناس البشرية وعلماء الحفريات وأخذ العالم بكشوفهم • لقد تعاون فى ذلك اكتشاف المدن المدفونة فى الصحراء الكبرى مع دراسات المجتمعات التقليدية الحفرية • وقد ساعد علماء الاجناس البشرية الذين كانوا مهتمين باكتشاف أوجه الشبه وأوجه الخلاف فى حياة الاجناس بتوضيح العلاقة العالمية بين البشرية جمعاء بينما كشفوا عن مقدار تنوعها • لقد ساعدت دراساتهم غير البيض على أن يروا مجتمعاتهم التقليدية فى ضوء جديد ، وبذلك قضوا على الاقليمية الثقافية للرجل الابيض •

وأخيرا لقد قوت روح الوطنية فى المستعمرات الهجرة نحو المدينة • فكان أن اجتذبت المدن الافريقيين والآسيويين فوفدوا اليها فى أعداد متزايدة بحثا عن الفرص وعن الاثارة • حتى اذا ما وصلوا الى المدينة تغيروا • فحلت رغبات جديدة وعلاقات جديدة محل القيود التقليدية ومحل القيم التقليدية • فبدلا من حياتهم

التى كانت لا تخرج عن القبيلة عمدت المدن الجديدة الى امتزاج الناس المختلفين فى المشارب بعضهم ببعض وعلمتهم مهارات حديثة • فبدأت الارتباطات تتشكل على أساس المصالح أكثر من أساس المولد • وخاصة فى اتحادات العمال والحركات السياسية • كان ساكن المدينة الجديد يحصى ثروته طبقا لما كان يملكه من : نقود ، ودراجات ، وملابس ، بدلا من ماشية وأرض • كان يهدف الى أن يسير قدما ، الى أن يحسن مستواه الاجتماعي والاقتصادى ، ولم يعد يقنع بأن يستمد رضاه فقط من نجاح القبيلة • وبعد ذلك أصبح أساس مركزه مقدار تعليمه والعمل الذى يزاوله • لقد أصبح ساكن المدينة الافريقى يهتم بانجازاته وتحصيله •

ولكن كثيرا ما كان يحدث أن تتعطل هذه الأهداف ، وتتعثر هذه الامانى نتيجة لعدم توافر فرص العمل أو التعليم • وكان الساخطون يجدون أن من السهل أن ينسبوا عدم توفيقهم الى دولة الاستعمار وخاصة الى ادارة الاستعمار المحلية • كذلك كانت المدن فى مناطق الاستيطان تشكل مصدرا من مصادر الشكوى والاثارة لانها كانت مقسمة الى مناطق للاوروبيين ومناطق للوطنيين • وكانت الهوة فى مستوى المعيشة بين كل من الاتساع بحيث لا يمكن أن تغفل • كان الافريقيون والآسيويون يربطون البيض بالغنى ، وغير البيض بالفقر ، يربطون البيض بالسيطرة والسيادة ، وغير البيض بالخضوع والاستعباد • وكان هذا مصدرا للاستياء •

وكان الاستياء والسخط سهل الانتقال • وكذلك كان الحال مع الافكار والاساليب الجديدة الخاصة بالتنظيم والاثارة • كانت الصحف والكتيبات الافرو آسيوية تنشر القصص والتصريحات المثيرة • وكان الزعماء الوطنيون يثيرون الجموع عن طريق الشعارات الملتهبة • وكانوا يزرعون البلاد طولا وعرضا ينظمون المظاهرات والاجتماعات • ولم تكد تمضى عشر سنوات على الحرب العالمية الثانية حتى كانت الشعوب الملونة قد أدركت وعرفت قوتها وامكانياتها ، واستطاعت أن تترجم هذه القوة وهذه الامكانيات الى عمل سياسى •

وهناك درس غربى قديم تم تطبيقه على عالم غير البيض • لم يعد الرجل جزيرة • فالانسان أصبح يواجه الآخر بشكل لم يحدث من قبل • وأصبحت المدنية تواجه المدنية الاخرى • وأصبحت الثقافات تتغلغل الواحدة فى الاخرى ، كما أصبحت المجتمعات تتـداخل الواحدة فى الاخرى ، والافكار تتوزع بسرعة متناهية لدرجة أن أصبح العالم وكأنه مكون من جيران •

وبالرغم من ذلك وبالرغم من اختفـاء الحواجز المـادية أصبحت المشكلات السيكولوجية تهدد بالفصل بين الناس ، اذ أن عمليـة التكيف أصبحت تواجه البشرية وخاصة الرجل الابيض • ان النفوذ والقوة تتنقل بسرعة فى هذه الايام .

فهناك أولا الجماعة الغربية التقليدية التى تضم أوروبا الغربية ، وأمريكا الشمالية ، وتزيد قوتهـا نتيجة علاقات جانبية بينهـا وبين أمريكا الجنوبية ، واستراليا ، ونيوزيلنده • هذه المجموعة يتسيدها البيض وان كان يوجد بينهـا فوارق دبلوماسية واستراتيجية وسياسية • لم يعد العالم الغربى يتكلم بلسان واحد فى هذا الخضم من السياسات المتغيرة فى : واشنطون ، وباريس ، ولندن ، وبون •

وهناك الـكتلة الصينية السوفييتية وهى موجودة فى مجموعة الاتحـــاد السوفييتى وتتضمن : دول حلف وارسو ، والصين الشيوعية • وفضلا عن أن الانقسامات داخل الكتلة أصبحت أكثر شدة من مثيلاتها داخل جماعة دول الغرب فانه يوجد بينها تماسك نتيجة أنها دول تؤمن بعقيدة واحدة •

واذا نحن رسمنا دائرتين حول هاتين الكتلتين فى خريطة العـالم نجد أن هنـاك مناطق أخرى تظل خـارج أى الدائرتين • هذه المنـاطق هى : القـارة الافريقية ، والقارة الآسيوية ، وأمريكا اللاتينية •

وقبل أن تبدأ حركات الاستقلال كانت الدول الغربية هى التى تسيطر على دول الدائرة الثالثة • ولقد حدث استقلال شعوب غير البيض فى نفس الوقت الذى قامت فيه المجموعة الصينية السوفييتية تتحدى تفوق الغرب • ولقد أضاف

تهديد الابادة المشتركة ـ اذا قامت حرب نووية ـ عنصرا جديدا الى بنيان القوة فى العالم ، وأصبحت الحرب الشاملة شيئا غير معقول • أصبح من الضرورى أن تستخدم طرقا أخرى للقتال فى عصر الصواريخ •

ولكن ما زال الغرب والكتلة الشرقية فى نضال ، وكان من أثر ظهور المناطق التى تسكنها الاجناس الملونة أن ظهرت قوة ثالثة فى هذا النضـــال • ان بروز الشعوب غير البيضاء كقوة لهو أكثر من اعادة تجمع بناء قوة العالم • لقد نمت الثورة نموا مفاجئا بين الامم النامية • وبينما كان الغرب يواجه الشرق بغية أن يدمر الواحد منهما الآخر ، بدأت القوة الثالثة تواجه العالم بالبديل الوحيـد للدمار ـ انه مدنية عالمية جديدة • وهذا مما يربك المتفائلين والمتشائمين البيض . وينظر بعضهم الى تدهور قوة الغرب الابيض على أنها مأساة مروعة . ويرى البعض الآخر أنه ليس هناك بديل سوى حرب بين الشرق والغرب كفيل بأن يدمر العالم .

ان التغييرات التى طرأت على ميزان القوى لها دلالة ضخمة بالنسبة للغرب الابيض • لم تعد لهم السيادة المطلقة على العالم • لقد أصبح البيض أقليــة • انهم يواجهون الآن عالما يختلف اختلافا بينا عن عالم أجدادهم • عالم تتساوى فيه الاجناس من ناحية تقرير مصيرها ، وابراز كيانها •

فاذا رفض الرجل الابيض ـ الذى ظل متعاليا فترة طويلة ـ نظرة المساواة والعدالة الى رجل المجتمع الجديد ، فان ذلك سيؤدى الى كارثة من حمامات دم تتضاءل بالنسبة لها كل فظائع الحروب السابقة •

الباب السابع

السحر وسطوته على العقل

الفصل الاول

السحر وسطوته على العقل



السحر وسطوته على العقل

السحر فن من الفنون التى توارثها الانسان عبر التاريخ عن الحضارات القديمة ، وبرغم التقدم الحضارى الحديث فان العالم لم يخل تماما من المعتقدات والطقوس الوثيقة الصلة بالسحر • على أن السحر بكل صوره وألوانه لا يزال قائما ، ولا يزال حقيقة قائمة فى الثقافات الفطرية وبين الشعوب التى لا تزال تعيش على فطرتها الاولى ، ويعتبر وسيلة عملية لها قدرها فى تحقيق نجاح أى عمل بشرى قاطع حاسم •

وبالرغم من تعدد ما كتبه الكثير من العلماء عن السحر ومعتقداته مستندين الى خبراتهم التى اكتسبوها من المناطق التى أجروا بحوثهم فيها ، فانه لا يزال هناك كثير من المناطق يقوم كل ما كتب عنها على أساس القياس أو الحدس والتخمين ، وذلك بالنسبة للدوافع وراء السحر أو القوى الخفية التى تفتعل فى عوامله • ويرجع النقص هنا الى قلة توافر الدراية الاصيلة باللغة عند محاولة البحث فى الميدان الوصفى للمسائل الخاصة بالايديولوجية فى نطاق ما هو خارج للطبيعة ، وبخاصة ما يمس الارواح •

ولقد سبق أن أشرنا الى أن الوسائل الميتافيزيقية والسيكولوجية قد استخدمت فى الماضى للتأثير على معتقدات الناس وسلوكهم ، ومن ثم لن يغيب

عن بالنا فى مناقشتنـــا موضوع السحر أنه احدى الوســائل التى استغلت فى المجتمعات المختلفة للتأثير على تفكير الناس وعقولهم ٠

ولما كانت المجتمعـات تختلف من مجتمع الى آخر من ناحية : الجنس ، واللغة ، والدين ، والبيئة ، والثقافة ، وغيرها من العوامل التى تحـدد سلوك الانسان ، فاننا سنحاول أن نحدد سمات هذا الموضوع فى مجتمعات مختلفة ، حتى يمكننا أن نخرج فى النهــاية بصورة عن العوامل : البيئية ، والثقـافية ، والسيكولوجية الكامنة وراء السحر ٠

السحر الفطرى :

أثارت أهمية السحر فى الثقافة البدائية مناقشات أسهم فيهـا كتاب من الثقات أمثال : تيلور Taylor وفريزر Frazer وويستر مارك Wester Marck وماريت Marett وليمــان Lehmann ومالينوسكى Malinowski وكان لهـؤلاء بصفة خاصة الدور البارز فى هذا النقاش الذى استغرق بعض الوقت ٠

ولقد قدم السير جيمس فريزر فى كتابه المشهور « الغصن الذهبى » (١) The Golden Bough نظرية منســقة مترابطة عن السحر كانت أساسا لغالبية ما كتبه الآخرون بعد ذلك فى الموضوع ٠

ولقــد عرضت الدراســات المختلفة فى كتــابات : هـ٠ هوبرت Hubert ومارسل موس Marcel Mauss و ر . ر . ماريت R. R. Marett ، وقد يكون من الأهمية بمكان أن نشير هنــا الى التفرقة الهــامة التى فصــل بها فريزر السحر عن الدين ، ولب هــذه التفرقة فى تقدير فريزر أن الســحر يكون بالســيطرة المباشرة للانسان على قوى الطبيعة ، على حين يعتمــد الدين على « اســتعطاف » و « استرضاء » قوى أعلى وأسمى من قوى البشر والطبيعة ٠

---

(١) J. G. Frazer, The Golden Bough, A Study in Magic and Religion, Macmillan, London, 1960.

الطابع الاجتماعي للسحر :

والسحر على ما أوضح فريزر ليس مجرد طابع من طوابع الاعتقاد ، ولا هو جانب من الجهاز الثقافي للانسان ، بل هو فن « يترجم » النظرية والمعتقد Dogma في كل خطوة الى عمل ، وهو دائما مسألة عملية بحيث يستخدم : لاستمطار المزروعات ، وايقاع الصيد في الشباك المعدة لاقتناصه ، ولايجاد الاستقرار داخل المنزل ، واعطاء القارب قوة على مواجهة الامواج ، كما يستخدم : لجلب المرض وابعاده ، أو احداث الموت وكذا لاكتساب قلب « المحبوب » والظفر في الحرب ، وقد يكون : لتحقيق السرعة في السفر ، أو وضع الشخص موضع القبول والتقدير في حفل أو في الرقص ٠

وهكذا نرى السحر فنا يمارسه الانسان بوسائل خاصة بقصد الحصول على ما يهدف اليه من نفع ، وكلمة الانسان هنا تعني المعنى المطلق للفرد وللجماعة ، ويتضمن هذا في نفس الوقت اعترافا بما فوق الطبيعة أي الاعتراف بقوة السحر التي يمكن الانسان بواسطتها السيطرة على قوى الطبيعة ٠

وتمتد جذور السحر الى مختلف ألوان النشاط البشري : فالسحر أسلوب أو طريقة لاخضاع قوى الطبيعة لارادة الانسان ومشيئته ، لتأمين رفاهيته ، ولتشكيل مستقبله ومصيره ٠

ويمد السحر أولئك الذين يمارسونه بقوة أو بسلطة اجتماعية ، ففي كل المجتمعات تقريبا يعتبر « الساحر » الشخص الذي يضارع الزعيم من ناحية : النفوذ ، أو المكانة ، أو السلطة ، ومن ثم يكون السحر بمثابة قوة للرقابة الاجتماعية ٠

وفي الغالبية لا يقوم بالاعمال الهامة الا الاخصائيون الثقات الذين يكونون فيما بينهم طبقة مختلفة متميزة عن باقي المجتمع ٠ وأولئك الذين يريدون منهم أن يضمنوا استمرار بقاء هذه المعرفة والانتفاع بها يحصرون أعمالهم في نطاق محدود ، ويورثون هذه المعرفة أبناءهم وأحفادهم جيلا بعد جيل ٠

وبذلك نستطيع أن ندرك أن السحر عمل له طابع التخصص ، وهو دعامة امتيازات خاصة لأفراد معينين • انه مهنة أو عمل يمارسه الافراد داخل نطاق أسر وعشائر معينة محددة ، وهم وحدهم الذين يتملكون المعرفة التى يستطيعون بها ممارسة طقوس هذا العمل •

وفى السحر مصلحة اقتصادية على أساس أن أولئك الذين يقومون به انما يكافئون بواسطة أولئك الذين يتلمسون منهم المعونة ، وحتى الذين يعطون المعرفة(١) يعوضون بجزاء له قيمته المادية على أساس أن من يعطى هذه المعلومات سينتفع بها فى ممارسة السحر ويتكسب منها •

ويرتبط السحر فى جانبه التقليدى القديم عن طريق الاساطير بهذا الماضى المبهم الطابع لعصر الآلهة والابطال • كما تربطه الاساطير أيضا بأصل الانسان ، وببدايات الثقافة القبلية فى مطلع التكوين الاجتماعى للانسان •

وكل الأساطير المليئة بمعجزات الاعمال التى كان يقوم بها الاسلاف القدامى تحتوى على الادلة للقوة التى للطقوس ، على حين تذكر أسماء هؤلاء القدامى دائما فى « التعاويذ » وفيما يكتب من « تمائم » •

مبادىء السحر أو أسسه :

وكما أوضح الدكتور برونسلاف مالينوسكى فان كل عمل من أعمال السحر يتميز أو يتحدد بواسطة أشياء معينة تقال ، وأشياء معينة تعمل •

ومن هنا أصبح للتعويذة والطقوس أو الشعائر وشخصية الساحر الذى يقوم بالدور أهمية أساسية فى العملية كلها •

---

(١) يلاحظ أنه فى المجتمعات الأفريقية الفطرية يفرقون بين من يمارس السحر خلفا لأبيه وجده ، وبين من يمارسه نتيجة حصوله على المعرفة بطريق الشراء • ويرون أن للأول مكانة تفوق مكانة الآخر وتجعله موضعا لثقتهم •

التعويذة The Spell :

عبارة عن تلاوة بعض الكلمات أو العبارات فى ترتيب منسق معين ، وهى الجزء الظاهر البارز من عملية السحر •

وتستند قوة السحر على العبارة التى تلقى والتى توارثها القائمون بالسحر منذ عصور قديمة جدا ، وكذا على الايمان بأن أى اضطراب فى العبـارة حتى بالتقديم أو التأخير فى ألفاظها يسبب عدم توفيقها فى أداء وظيفتها •

على أن المجتمعات تختلف فى تقدير أهمية تلاوة عبارات « التعويذة » بالنص الاصلى ، فعند البولينزيين : أن أى خطأ فى الكلمات ، أو أى اغفال عن ذكر بعضها يفسد عملية السحر ، واذا كان الخطأ فى الطقوس نجم عنه موت القائم بالسحر بواسطة قوى عالية أكبر من قوة البشر •

ومع هذا فثمة بعض مجتمعات تتسامح فى احداث تغيير فى بعض الكلمات داخل الاطار العام للتعويذة ، ولما كانت التعويذة هى العمود الفقرى أو الدعامة الاساسية لعملية السحر كانت لغتها من الاهمية بمكان •

وفيها دائما اشارة الى « الغرض » أو الى « العمل » الذى يظن بأنه له تأثيره على ما هو مطلوب تحقيقه • فالتعويذة أو التعزيمة عند « الماورى » التى تلقى لاكساب القارب سرعة وقوة على الامواج تتحـدث عن : خفة الطائر على الريح ، وخفة « النورس » الذى يطفو على سـطح الماء ، كما تتضمن ذكر بعض أنواع الاخشاب التى تشتهر بالخفة والقابلية للطفو •

كما تستخدم كل ألوان الاستعارة والتشبيه المعروفة فى اللغة فى صياغة كلمات التعويذة ، فلا تذكر على سبيل المثال أسماء الطيور بل تقلد أصواتها كما تقلد ولولة البحر • ومن العادة أن تتضمن « التعويذة » أيضا أسماء الاسلاف ، وبعض حوادث الاساطير القديمة ، ويصحب هـذا تلاوة التعويذة باللغة القديمة

المهجورة مشتملة على كلمات ذات المعنى أو المغزى الخفى ، مما يجعلها مبهمة وغير مفهومة الا لاولئك الذين يمارسون عملية السحر •

وفي ضوء ذلك يبدو الارتباط القوى الذى بين السحر وبين التاريخ القديم الاسطورى للشعب •

الطقوس أو الشعائر :

وتصحب « التعويذة » السحرية مجموعة من الاعمال هى « الطقوس » أو « الشعائر » والتى تكون وظيفتها الرئيسية نقل « التعويذة » الى الغرض الذى يسعى لتحقيقه •

ولهذا فانه عندما يريد « الماوى » ـ من سكان نيوزيلند الاصليين ـ أن يصيب سهمه أو رمحه « الهدف » يبصق على المقذوف الذى يستخدمه ثم يتلو « تعويذة » تبدأ بكلمات « فلتطر يا سهمى للامام كما يطير النيزك فى السماء » •

وعلى مثال ما قلنا عن « التعويذة » يجب أن تتبع الطقوس أسلوبا محددا يتمشى مع الكلمات التى تلقى فى التعويذة ، فالحركة التى يجىء ذكرها فى التعويذة تقلد أو تمثل ، كما أن الامور التى يراد تحقيقها يمثل شبيها لها ، ومن هنا كان من الضرورى عند القيام بالسحر لاسقاط المطر عند الجفاف أن ترش على الارض بعض قطرات الماء بواسطة الساحر ، وعندما يراد أن يقاسى عدو آلام الحريق يحرق « مثال » يصنع له على شكله ، وعند اجراء السحر لاكتساب قلب «الحبيب» تطلق روائح ذكية تجتذب الافئدة ، واذا ما أريد اعماء المطاردين فى البحر اطلق الملاحون ذرات من الجير لتمثيل الضباب الذى يخفيهم عن العدو •

وهكذا تكون هذه الطقوس هى « الوسيلة » التى تنقل التعويذة أو الكلمات وتحولها الى عمل •

حالة السحر :

ولما كانت للسحر هذه الاهمية فانه يجب أن يجرى ويمارس بعناية وحرص، على أن « الساحر » فى كل المجتمعات يقيد بمجموعة من المحرمات Taboo اذ يمتنع عن تناول أصناف معينة من الطعام ، كما يجب ألا يمارس أى اتصالات جنسية عارضة ، أى لا تكون له علاقة جنسية بأى امرأة غير زوجته ، أما اذا كانت من تمارس السحر امرأة كما فى بعض المجتمعات الافريقية فانه محرم عليها الاتصال بغير الزوج ٠

واذا لم يتبع هذا بكل دقة بطلت قوة تأثير الساحر ، فالعادة أن ارتكاب المحظورات يسبب دائما عدم توفيق عملية السحر ٠

وللحالة الانفعالية أهميتها ، ففى السحر الاسود وهو الذى يقصد به الاضرار بشخص ما كقذفه بسهم ، أو اصابته بطعنة ، يمثل الساحر عملية قذف السهم أو توجيه الطعنة بنفس الانفعال الذى يكون فيه كما لو كان يفعل ذلك فعلا والضحية أمامه وفى متناول يده ٠

ويشدد الدكتور مالينوسكى على أهمية هذا المظهر الانفعالى ويراه القاعدة الاساسية للسحر فيقول : « ان السحر هو التعبير الطقوسى لحالة انفعالية متصلة بالغرض المراد تحقيقه ، ففى الثوران التلقائى الانبعاثى للكلمات والفعل توجد نطقة التعويذة والطقوس ، وعلى توهم وتخيل الممارسة الموضوعية أى فكرة أن هذه الاعمال لها تأثيرها ــ يقوم الاعتقاد بالقدرة أو الطاقة التى للسحر » ٠

لب قوة السحر أو جوهره :

يعزى الدكتور ماريت الفكرة الاساسية للسحر الى اعتقاد الوطنيين فى قوة مبهمة خفية فوق الطبيعة ، وهى قوة لا مادية تحيى وتنعش كل شىء ، أو لو شئنا دقة التعبير الذى قدمه ماريت نقول : هى قوة تبعث الحياة فى كل شىء ٠

وقد وصل « هوبرت » وموس والاستاذ ك• برويس الى مثل هذا الرأى القائل بأن مانا Mana (١) هي الفكرة الاساسية أى « الفكرة الام » للسحر •

ويؤمن كثير من الشعوب التى تعيش على الفطرة بقوة غامضة لا تجسيد بشريا لها ، فيطلق عليها أهل الملجاش أى سكان جزيرة مدغشقر كلمة «Hasina» كما يطلق عليها هنود أمريكا الشمالية بعض مسميات تختلف باختلاف القبائل مثل : « واكان » Wakan و « بوكونت » Pukont و « مانيتو » Manito واورندا Orenda ، ولكن ما يعنى به النـاس من هذه المسميات المختلفة شيء واحد هو « مانا » •

على أن قوة السحر شيء آخر غير « مانا » وليست هى ـ مثل مانا ـ قوة خفية كامنة فى كل الأشياء استخدمها الانسان لتحقيق أغراضه ، بل أن التأثير الحقيقى للسحر يقوم أصلا على أساس « التعويذة التى يتلوها الساحر ، كما يقوم ـ الى حد ما ـ على الطقوس التى تجريها » •

وليس السحر هو الاستخدام الثابت المقرر لفكرة مطلقة عامة بل أنه ليتولد من التوتر الانفعالى لمواقف معينة •

ان الفكرة وراء « مانا » تشتبك دون شك مع عملية « ممارسة السحر » ، ولكن الاثنتين مع هذا بمثابة ساقى شجرتين متشابكتين وملتفتين على بعضهما البعض ولكن كل من الساقين يخرج من جذور غير تلك التى يخرج منها ساق الشجرة الاخرى •

وترجع قيمة ما أسهم به « ماريت » فى نظرية السـحر الى تشديده على « المظهر الانفعـالى » Emotional aspect للعملية السـحرية ، وذلك فى تحليله

---

(١) الاصطلاح « مانا » هو فى الأصل اصطلاح بوليليزى « مجموعة من الجزر المبعثرة فى الباسفيك ومنها هوايبى وسيمو وغيرهما » ، ويعنى القوة غير الطبيعية التى لا تمثيل جسديا لها : اى انها ليست من البشر وتنسب اليها كل الشعوب التى على الفطرة القدرة على السحر ، والقدرة على جعل المستقبل سعيدا •

لعقلية الشخص البدائي الذى يعيش على الفطرة فى اثناء ممارساته السحرية ، ولقد استطاع ماريت بهذه المعالجة السيكولوجية للموضوع أن يحول دون الاتجاه الى الافراط والمبالغة فى الدراسة الثقافية للمعتقدات البدائية •

أزمات الحياة :

فى حياة كل شخص فى المجتمع البدائى أزمات ، منها : ازمة مرحلة البلوغ ، وازمة الاعداد للحياة الجنسية والزواج • وثمة ازمات اخرى : كمواجهة معركة وقتال ضد عدو مغير ، او ضد خصم يقف منه ومن الجماعة موقف المخاصمة لسبب أو لآخر ، أو مثل الخروج للصيد طلبا للغذاء • وفى كل هذه الازمات يحاول الشخص ان يكتسب من مانا « القلب القوى » أى الجرأة على مواجهة الازمة ، وعلى « الحكمة » للوصول الى حل لهذه الازمة •

وتجمع تقاليد الناس فى كل مجتمع ـ وهى تلك التى تضم كل تجارب الماضى البعيد ـ الوسائل الصالحة للتكيف مع الازمة ومع علاج الموقف الناشىء عنها سواء أكانت الازمة : « عضوية » كالمرض ، او ظرفية كالصيد او القتال ، وذلك بتلاوة « تعزيمة » أو اجراء طقوس تعاون النفس على الاستقرار والراحة •

مانا والطقوس :

ولقد كان الدين فى العالم القديم قبل بروز الاديان السماوية غير واضح اللفظ ، أو بمعنى أدق لم تكن له الالفاظ الواضحة المعبرة ، ولذا كان يمارس بالفاظ مبهمة على مثال ما ينطق به البكم ، فكانت « مانا » تهب لنصرة القوة الدافعة التى توجدها الطقوس ـ هذه الطقوس التى كان الناس الذين يعيشون على الفطرة يخافونها ويخشونها بأكثر مما ان يدركوها أو يفهموها •

وحينما تكون الطقوس ذات طابع عام ، وتجرى علانية بمشهد من الجميع ، وتكون متفقة مع العادات والتقاليد ، فان الجميع يحسون أن « مانا » هنا ، « مانا » خيرة تهدف الى الخير ، ويحس الجميع أن هـذا الحفل الطقوسى يجرى فى المناسبة الصحيحة ، ويثق كل فرد بأن المجتمع سيحقق منه خيرا •

ولكن من ناحية أخرى لو أن شخصا ما راح بطريقة سحرية خفية يتصل بالقوة الخفية الغامضة ، فان كل فرد يحس أن « مانا » هنا شريرة ، وأن ضررا سيلحق المجتمع أو على الاقل بعض الناس •

وفى بعض الاحيان يكون من الصعب معرفة الطريقة التى سيستخدم بها الشخص قوته ، ذلك لانه اذا كان الساحر يستطيع ان يعالج جرحا أو أن يشفى مريضا فانه يستطيع فى نفس الوقت أن يبعث المرض فى صحيح البدن ، أو قد يستطيع شخص من أصحاب السلطان أن يستخدم قوة « مانا » التى تتوافر له فى تحطيم عدو عام للجماعة كلها ، أو يكبح جماح ثائر خارج على سلطانه ، والى هذا الحد يكون استخدامه لهذه القوة الخفية استخداما قانونيا مشروعا •

السحر والعلم البدائى :

اعتبر ادوارد تيلور من رواد علم الانسان أن « السحر » عبارة عن تطور لعمليات تفكيرية للانسان الفطرى نتيجة للخطأ فى الربط بين الافكار ، وقد انتهى هذا التطور بأن صار فى النهاية علما كاذبا، وان كان فى نفس الوقت علما منسقا .

على أن جيمس فريزر وضح هذا بدرجة أكبر ، اذ قدم وجهة نظر تقول : ان السحر يمثل فى الحقيقة محاولة من جانب الانسان ليصوغ مجموعة من المبادىء يمكن بها أن يتقرر أى تسلسل للحوادث ، ويقول فريزر : أن السحر نظام زائف للقانون الطبيعى ، كما أنه مرشد خداع للسلوك • أنه علم كاذب مخادع وفن عقيم بلا نتيجة !

ولقد دمغ فريزر السحر بكلمات « علم مغشوش زائف » Bastard Science ، وأثار هذا الكثير من الباحثين الذين عاصروا فريزر أو خلفوه . فأشار هوبرت وموس الى أنه يوجد فرق واضح بين وجهة النظر السحرية للانسان تجاه البيئة التى يعيش فيها ، وبين تفكيره العلمى فى السحر ازاء هذه البيئة نفسها ، وقد خرج الدكتور ماريت من دراساته عن الناحية السيكولوجية بفكرة مماثلة محددا العلاقة بين الدين والسحر .

يقول ماريت :« ان السحر والدين يتبعان دائرة واحدة من التجربة البشرية، وأن هذه الدائرة احدى الدائرتين العظيمتين اللتين تتبعان العالم الخارق للعادة . واعتقد أن السحر يشتمل على كل الاجراءات السيئة ، وأن الدين يشمل كل الاجراءات الطيبة للتعامل مع العالم الخارق للعادة ، ولكن كلمتى سيئة وطيبة ليستا بالطبيعة الكلمتين الصحيحتين اللتين يمكن أن نحكم بهما على أى الامرين » .

وينتقد مالينوسكى نظريات فريزر بقوله(١) : « الواقع أن فريزر يمثل حقبة من حقبات علم الانتروبولوجيا ـ علم الانسان ـ انتهت بموته ، أو أنه قد عنى عناية مباشرة « بالبدائية » سواء أكانت : وصفا للجنس البشرى ، أم وصفا لمعتقدات خاصة، أم لعادات، أم لخبرات . ان الناس سواسية يتماثلون فى الجوهر. وهم يتطورون تدريجيا من المستوى البدائى مارين بمراحل مختلفة من التطور . ويمكن اكتشاف القياس المشترك لاعمالهم وأفكارهم بواسطة الاستقراء أو الاستنتاج الذى يقوم على مسح واسع المدى للمعلومات التى يتم جمعها . على اننا فى مسيرنا للوراء فى مختلف مستويات التطور فان أكثر المستويات بداية هى « الاصل » أى القاعدة الاساسية للافكار والعادات . ولكن فريزر لم يبين حقيقة أسس التطور ، ولا نجد فى كل أعماله تصنيفا للمادة على أساس استخدام مصطلحات « أصل » أو « تحويل » أو « تطوير » ومن ثم فاننا لا نستطيع أن ندرك كيف يتصور فريزر سير عملية التطور ، أو طبيعة القوى الدافعة للتقدم » .

---

(١) Bronislav Nalionoviski, A Scientific Theory of Culture, New York, 1961, PP. 187 - 190.

ثم يعود فيقول : ان فريزر قد انهمك فى التفسير السيكولوجى للاعتقاد البشرى والخبرة ، فقد كانت نظرياته عن السحر نتيجة ربطه بين كل الافكار • ولا شك فى أن نظرياته الثلاث المتتابعة عن أصول « الطوطمية » Totetemism أى فكرة اختيار طوطم كشعار فى ضوء الاعتقاد بروح خارجية ، وعن « الاقتناع السحرى بالاخصاب » و « تجسد الحيوان » قد جاءت بالضرورة فى اعطاف التغييرات السيكولوجية الفردية •

وينقد مالينوسكى اغفال فريزر لمشكلة السيكولوجية الاجتماعية بقوله : « ان فحصنا أسلوب معالجة فريزر لموضوع (المحرمات) » Taboo ولمختلف أوجه ومظاهر الطوطمية ، ولتطور السحر والدين والعلم ، يمكننا أن ندرك أنه اغفل المشكلة السيكولوجية الاجتماعية ، كما يكشف لنا أنه كان يعادى نظرية التحليل النفسى ، كما أن « النظرية السلوكية » Behaviorism لم تدخل نطاق تفكيره •

والواقع أن فريزر كان ميالا : الى أن ينسب المحرمات والمحظورات الى أطماع الرؤساء والكهنة وشغفهم بجمع المال ، والى أنهم استخدموا معتقدات التحريم ركيزة وسندا لسلطانهم وزيادة ثرواتهم • ولم يوضح فريزر تماما ما اذا كانت المحرمات جزءا صغيرا من القانون الفطرى ، أو العادة البدائية ، وهذه بدورها لا يمكن أن توضع على أنها خرافة ، أو أنها خداع سياسى أو دينى » •

على أن الدكتور مالينوسكى يوضح فى تحليلاته لعملية السحر التى يستخدمها مواطنو « ميلانزيا » Melanesia (١) فى زراعة الحدائق ومقارنتها بما يستخدم فى عمليات الزراعة الفعلية ، ويبين أن وجهات نظر المواطنين تختلف بين هذه العمليات وتلك ، فان المعرفة وليدة التجربة والملاحظة ، وخواص التربة، ونمو النبات ، ومواقيت الرياح والعوامل الجوية تستخدم كلها لتتمشى مع ما هو معروف من الاحتياجات الخاصة بالزراعة ، والتى يمكن تقديرها وقياسها •

---

(١) مجموعة الجزر شرقى استراليا فى الباسفيك الجنوبى وتشمل جزر ادميرال – سولومون – نيوكاليدونيا ونيوهيبريد او يفصلها بحر الكورال عن استراليا •

فكل مواطن يعرف : أن العناية بحرث الارض ، وتنقية الاعشاب الضارة التى تنبت وسط المزروعات ، واصلاح الجسور وقنوات الرى والصرف ، وما الى هذا من العمليات انما هى عمليات ضرورية للوصول الى محصول جيد ، ولكن من ناحية أخرى : فان الحصول على القدر الكافى من المطر ومن أشعة الشمس ، وامكان ابعاد الحشرات ، وسد الطريق أمام أى فشل غير مقدر للمحصول ، بل كذلك لابعاد سوء الحظ الذى يكون أحيانا ملازما للفرد ومتعقبا خطاه فى كل عمل يقوم به ، يجعله يحاول دائما أن يلتجىء الى السحر أو يستعين به •

وكذلك فان الرجل الفطرى يعرف أنه : عند بناء قاربه ، أو عند قيامه بصيد السمك أو القتال ، أو عند مضاجعته لزوجته ، أو حينما تضع هذه الزوجة مولودها ، وكذا فى مسائله الخاصة بالحياة والموت أن هناك مجموعتين من الشروط والظروف : احداهما عادية طبيعية : والاخرى غير عادية واسمى من الطبيعية • وهو يستطيع أن يواجه المجموعة الاولى بالخبرة والتجربة والمعرفة حتى لو بقوانين ونظريات فطرية ، ولكنه لا يستطيع مواجهة المجموعة الاخيرة غير العادية والأسمى من الطبيعية الا بواسطة السحر •

ونجد هذا الازدواج واضحا فى الحياة الاقتصادية للماورى ، ومن ثم قد يبدو لنا ذلك مسألة عالمية عامة فى كل المجتمعات الفطرية على الاقل •

على أن الرجل الذى يعيش على الفطرة لا يفتقر الى المعرفة التى تسير جنبا الى جنب مع السحر ، ويرتبط كلا الاثنين ارتباطا وثيقا فى الجانب العملى من نشاطه ، فيستخدم المعرفة المعقولة المنطقية أى المعرفة العلمية الاصيلة بالقدر المتوافر له لممارسة الجانب الآلى ، على حين يستخدم الجانب الطقوسى للسحر فى العوامل التى لا يمكن تقديرها أو قياسها : أى عوامل « الصدفة » و « الحظ » والتى يتوقف عليها النجاح فى العمل •

وهنا قد نستطيع أن نتسامح فيما قاله جيمس فريزر من السحر « علم زائف مضلل » لو استطعنا أن نضع نصب أعيننا التحديدات التى يمكن أن توضع على هذا الاصطلاح •

فالسحر في الواقع مشابه ومماثل للعلم البدائي من حيث هو قائم لخدمة أهداف مماثلة لتلك التي يخدمها العلم ، كما أن له نظرياته ومبادئه وأصوله التي تحدد الطريقة أو الاسلوب الذي تقوم به معالم الطقوس •

وكذلك فان السحر كالعلم قد طور من « تكنيك » خاص ، وانتقل من جيل الى آخر ، ولكن الواقع أن التشابه أو التماثل بين السحر و «العلم البدائي» أكثر قليلا من أن نعتبره نافلة لا أهمية له ولا ضرورة للاشارة اليه ، فالعلم حتى ولو مثلناه بالمعرفة البدائية التي تقوم على الممارسة والتجربة والخبرة المستقاة من الممارسة أو الملاحظة يتطور نتيجة لهذه الممارسة ، كما أنه يتضمن الرغبة للاستزادة دائما من المعرفة ، ومحاولة القيام دائما بتصنيف صحيح للمعلومات •

أما السحر من الناحية الاخرى فتحكمه التقاليد ، وهو لا يتأثر بالدروس المستقاة من الملاحظة ، كما أنه لا يكشف عن أى رغبة في الانتفاع من الممارسة والتجربة للوصول الى معرفة أساليب جديدة يستخدمها •

وهكذا يبدو لنا بوضوح أن الجذور الصحيحة للعلم انما توجد : فيما هو مختزن لدى الفرد من معرفة فطرية ، وفيما يقوم به من محاولات للبحث والتقصى نتيجة للاحتياجات العملية ، والتعمق بهذا البحث في أعماق طبيعة البيئة التي تحيط به ، ومعنى هذا أن هذه الجذور لا يمكن أن توجد فيما يمارسه هذا الرجل الفطرى من السحر •

استمرار الاعتقاد بقوة السحر :

ويقـول ريموند وليم فيرث Raymond William Firth أسـتاذ علم الانثروبولوجيا بجامعة لندن : « ليس من الصعب أن ندرك أن تلك المزاعم التي تعزى القوة عن طريقها للسحر ما هى الا مزاعم جوفاء لا حقيقة لها ، فان السماء لا ترعد وتسقط المطر استجابة لطقوس تضرعية ، كمـا أن الحيوانات لا تذهب طواعية واختيارا لتقع في الشباك التي أعدها الصياد تلبية للكلمات التي ينطق

بها الساحر ، ولا يمكن أن نتصور أن امرأة ما يمكن أن تستلين أستجابة للعصا التى يحركها الساحر ، فلماذا اذن لم يعتبر هذا الخلط المهول الشاذ عميقا باطلا عديم النفع ؟ » ٠

ويعزى فيرث ذلك الى أن الطقوس الكاذبة للسحر لا تقوم وحدها مستندة الى قوتها الخاصة ، بل تشترك معها : « مهارة طبية » أو « دراية سياسية » أو غير هذا من العوامل التى يستطيع أن يستغلها وينتفع بها من يمارس « المهنة » ، وتكون هذه العوامل هى التى تدعم عملية السحر وتعضده عندما تكون فى حاجة الى هذا الدعم أو التعضيد ٠

هذا عدا أن « النجاح » لابد من أن يتحقق ذات مرة طبقا لقانون الصدفة ، وان كان من الضرورى أن نضع أيضا فى الحسبان مهارة الســاحر فى اختيار اللحظة المناسبة لممارسة فنه ٠ وهنا تبرز لنا الوسيلة المعاونة ، وهى عدم قدرة العقل البشرى على تقبل « الدليل السلبى » حينما تقف كل القوى المؤدية الى الايمان والتصديق الى جانب مسألة ما ، فان نجاحا واحدا يرسخ دائما فى الاذهان بأكثر مما قد يحدث نتيجة لاثنتى عشرة محاولة غير موفقة ٠

ومسألة أخرى يجب أن نضعها فى الحسبان أشار اليها الدكتور مالينوسكى وأطلق عليها اسم « الاساطير الجارية عن السحر » ، فان كل ساحر تنتشر حوله عادة سلسلة من الاقاصيص تتحــدث كلها عن أعمال ناجحة قام بها فى الماضى من : معالجة مرضى ، أو اسقاط المطر ، أو الاكثار من الصيد أو الجمع بين الاحبة ، وقد تعزى هذه الى سحرة قدامى لم يعد لهم وجود فى العالم ٠ ومن الطبيعى أن هذا كله ينصرف من الماضى الى الحاضر ، فيتحول من تمجيد للسحرة الى الاعتراف بحقيقة السحر ، والى توقع النجاح دائما من محاولاته ٠

وهكذا فان هذه الصفة الاســطورية التى للمعجزة الســحرية هى القوة الدافعة للاعتقاد فى السحر ، وهى كذلك درعه الواقى ضد أى هجمات معادية له ، ولذا فان الاسس الحقيقية لاستمرار السحر وبقائه أعمق بكثير من النفع الثقافى الذى له ٠

قيمة السحر للانسان :

والسحر ليس مجرد صورة باطلة لعلم أو بمعنى أكثر وضوحا ليس مجرد علم كاذب مضلل ، فبالرغم مما فيه من مغالطة وأباطيل ، وبالرغم من طبيعته الوهمية ـ فان فيه صلاحية حقيقية للحياة البشرية • فانالطقوس السحرية التى تستخدم فى الزراعة توجد الكفاية والمهارة فى المواطن الفطرى ، لان العملية فى أثناء ممارستها تتبع فعلا مراحل الزراعة الصحيحة التى تنتظم تبعا للفصول الزمنية ، كما أنها بتحديدها المحظورات والمحرمات تمنع اهمال أى موسم من هذه المواسم الزمنية ، فتخلق فى المزارع البدائى عادة النظام والترتيب ، والاخصائى الزراعى لا يحتاج الى أكثر من الترتيب والتنظيم لعملية الزراعة كى تأتى ثمارها كاملة •

وكذلك فان طقوس السحر التى تبرز الى المسرح تتعطل عند النقطة التى تبدأ المعرفة المتوافرة للفرد وما يصحبها من بعد النظر ، أى عندما يكون التكنيك التقليدى قد بلغ نهايته •

وهنا يكون امداد الفرد باعتقاد قوى فى أنه يملك قوة أكبر من الطبيعة عن طريق السحر معاونا له بما هو فى حاجة اليه من ثقة بنفسه ، ومن ايمانه بقدرته على ادراك ما يهدف اليه وما يعمل لتحقيقه •

السحر فى مصر القديمة :

جاء فى نقوش المعابد وفى أوراق البردى أحاديث عن السحر ، على أن أكثر ما ورد عبارة عن كلمات تلقى فتشفى الحروق التى تسببها النيران على مثل ما فعلت ايزيس عند حرق ابنها حورس ، وكانت معرفة ايزيس باسم آلهة الشمس هى التى أعطتها قوة سحرية عليا •

وجاء أيضا حديث السحر فيما يقال : أنه من الممكن أن يحدث الفرد بعض الآلام لعدوه اذا ما أذاب له على النار تمثالا مصنوعا من الشمع • كما جاء فى حديث عن الاساور الواقية التى نالت أهمية كبيرة بين الاحياء ، وفيما عثر عليه بجانب جثث الموتى •

ولكن برغم ذلك لم توجد طبقة من السحرة المحترفين فى مصر القديمة ، ولم توجد كلمة تعنى « الســاحر » حتى تاريخ متأخر ، فقــد كان الكهنة هم الذين يمارسون السحر ويكتسبونه من مطالعة الكتب المقدسة ودراستها ٠

ولقــد اســتخدم ما فى هذه الكتب : للفكاك من الموت ، وازالة المرض ، وابعــاد العين الشريرة ، ابراء عضة الافعى ، بل لابعــاد الفئران من صوامع الحبوب ، وكذا لمنع اقتراب العاصفة ٠

ولقد صرف الكهنة كل همهم الى بيع الرقى وتمتمة العزائم ، وأداء المراسم والطقوس السحرية ، وفى كتاب قصة الموتى نجد أن الرقى التى باركها الكهنة تتغلب على جميع ما عساه أن يعترض روح الميت من صعاب فى طريقها الى دار الخلود ٠ وأهم ما يؤكده هذا الكتاب هو قيمة تلاوة الادعية ، فقد جاء فى أحد هذه الملفات : « اذا ما عرف الميت هذا خرج فى النهار أى حيى الحياة الخالدة ٠ ولقد وضعت صيغة التمائم والرقى وبيعت للناس للتخلص من كثير من الذنوب بل لتضمن للشيطان نفسه دخول الجنة ٠ وكان من واجب المصرى الطاهر أن يتلو فى كل خطوة من خطواته صيغا عجيبة يتقى بها الشر ويستنزل بها الخير ٠

ولنستمع مثلا الى ما تقوله أم والهة تريد أن تبعد الشيطان عن طفلها :

« اخرج يا من تأتى فى الظلام ، وتدخل خلسة ٠٠ هل أتيت لتقبل هذا الطفل ؟ لن أسمح لك بتقبيله ٠٠ هل أتيت لتأخذه ؟ لن أسمح لك بأخذه منى ٠ لقد حصنته منك بعشب « أفيت » الذى يؤلمك ، وبالبصل الذى يؤذيك ، وبالشهد الذى هو حلو المذاق للاحياء ومر فى فم الاموات ، وبالاجزاء الخبيثة من سمك الابد وبالسلسلة الفقرية من سمك النهر » ٠

وكانت الآلهة نفسها تستخدم السحر والرقى ليؤذى بعضها بعضا ، وأدب مصر القديم نفسه يفيض بقوة السحر التى تستطيع تجفيف البحيرات ، أو تجعل الاطراف المقطوعة تقفز الى أماكنها ، أو تحيى الموتى ٠

وكان الاعتقاد أن للملك أيضا قوة سحرية ينزل بها المطر ، أو يرفع بها الماء في النهر ، كما كانت الحياة المصرية القديمة مملوءة بالطلاسم وعمليات الرجم بالغيب ، كما كان يسود الاعتقاد أنه لابد لكل باب من اله يخيف الارواح الخبيثة، أو يطرد ما عساه أن يقترب منه من أسباب الشؤم ، وكانوا يعتقدون اعتقادا راسخا أن الاطفال الذين يولدون في الثالث والعشرين من شهر توت سيموتون لا محالة وهم صغار ، وان الذين يولدون في العشرين من شهر شرباخ سيفقدون أبصارهم في مستقبل أيامهم ٠

البيئة السحرية في المسيحية :

كان أبسط أنواع السحر الذى استخدمته الكنيسة في عصور الظلام هو تلاوة « الرقية(١) » وهي عبارة عن مناشدة توجه الى الارواح الشريرة لارغامها على أن تهجر شيئا ما ، سواء كان هذا الشيء شخصا أم مكانا تسيطر عليه هذه الارواح الشريرة وتتحكم فيه ٠

وكان الاعتقاد السائد بين الناس أنه بتلاوة الرقية عدة مرات ، يمكن : اتقاء شر ، أو شفاء مرض ، أو ابعاد عدو من الطريق ٠ وأكبر الظن أن معظم المسيحيين كانوا يعدون : علامة الصليب ، والصلاة الربانية ، واستخدام الماء المقدس ٠ والعشاء الرباني من الطقوس السحرية ذات الآثار المعجزة ٠

واستمرت الكنيسة في أول عهدها تتبع ما أجراه السيد المسيح ــ عليه السلام ــ بنفسه لطرد الارواح الشريرة عن الناس الذين سقطوا تحت سيطرتها(٢) ٠

---

(١) Encyclopaedia Britanniaca, 1961. Vo 18, Exoticism, PP. 972 - 973.

(٢) راجع أعمال الرسل الاصحاح السادس عشر (١٦ ــ ١٨) ٠

وفى القرنين الاول والثانى من العصر المسيحى اعتبرت القدرة فى طرد الارواح الشريرة هبة يمكن أن تتوافر لاى شخص سواء أكان من رجال الدين أو من غيرهم على ما أشـار اليـه « تيرتوليـان » Tertullian (١) فى كتابة « De Idolotaria II »

على أننا اذا رجعنا الى سنة ٢٥٠ بعد الميلاد نرى طبقة خاصة من صغار رجال الدين وكل اليهم هذا العمل وأطلق عليهم «طاردو الارواح الشريرة» Exorcists وفى قرابة ذلك الوقت صارت الرقية طقسا من الطقوس المهدة لتعميد الحديثى التنصير Neophytes وقد تضمنت الرقية انكار الشـيطان وأعماله وأبهته وفخفخته مع صدور الامر الى الروح الشريرة بالابتعاد عن الشخص الذى يجرى تعميده ، ويصحب هذا بعض أعمال مثل رسم علامة الصليب ، والمسح بالزيت •

وقد بقيت « الرقية » جزءا مكملا من طقوس التعميد عند الكاثوليك على أن هذا لم يكن يعنى أن الكنيسة تعتبر الذين يعمدون هم ضحايا للارواح الشريرة ، بل أنها كانت تعتبر هذه الرقية وسيلة لازالة كل الموانع والعوائق التى تمنع من السير فى الطريق المستقيم نتيجـة للخطايا والسيطرة التى للشيطان على النفوس التى تخطىء •

وكذلك فان كل ما يستخدم فى اداء الطقوس المقدسة مثل : الماء ، والملح ، والزيت يجب أن تتلى عليه الرقية لاكسابه طابع القدسية •

وفيما بعد نظمت عملية الرقية لابعاد الارواح الشريرة عن الواقعين تحت سيطرتها طبقـا لقانون الكنيسـة الرومانية الكاثوليكية « ١١٥١/١١٥٢ » ، فلا يقوم قسيس بهذه الرقيـة الا اذا كان قد حصـل على اذن خاص بذلك من الاسقف ، ولا يعطى هذا الاذن الا لقسيس يكون قد عرف بالصلاح والتقوى •

---

(١) تيرتوليـــان ـ سبتيموس فلورنس تيرتوليـــانوس Septimius Florens Tertullianus أب الكنيسة اللاتينية (١٦٠ ـ ٢٣٠) بعد الميلاد « معجم ويبستر ١٩٥٦ ص ١٠٠٥ » •

وفي القرن التاسع الميلادى انتقل كثير من علوم اليونان الى بلاد العرب عن طريق الشام ، فقامت بها نهضة ثقافية من أعظم النهضات ، بينما كانت تجاهد أوروبا المسيحية للتخلص من ظلمات الخرافات والهمجية .

وكان لابد للعلوم والفلسفة أن تنمو خلال العصور الوسطى بأوروبا فى جو من : الاساطير ، والخرافات ، والمعجزات ، والفأل ، والعفاريت ، والسحر ، والتنجيم ، والتنبؤ بالغيب ، وهى العقائد التى لا تنتشر الا فى ظروف الفوضى والخوف .

والواقع أن هذه العقائد انتقلت من العالم الوثنى الى العالم المسيحى ابتداء من عصور الظلام ، وأصبح لها سلطان كبير على عقول الناس وخاصة بعد أيام ابن رشد ، وابن ميمون حيث حطمت فيما بين القرن السادس والقرن الحادى عشر أسوار الثقافة فى غرب أوروبا ، وغرقت عقول الناس فى بحر زاخر من الخرافات . حتى أولئك الذين أوتوا الحكمة آمنوا بها ، فمثلا كان أوغسطين يعتقد بأن آلهة الوثنيين لا تزال موجودة فى صورة عفاريت ، كما كان أبلار يظن أن الشياطين تستطيع أن تقوم بأعمال السحر لمعرفتها بأسرار الطبيعة . وكان الفونس الحكيم يؤمن بالسحر ويقبل التنبؤات عن طريق النجوم .

وعلى الرغم من أن القرن الرابع عشر كان عصر النهضة فقد وسم بانتشار أعمال السحر فى أوروبا ، وكاد الاعتقاد بوجود النساء الساحرات يصبح عاما فى ذاك الوقت ، ففى كتاب التوبة للاسقف « أكستر » Exter يندد بالنساء اللاتى يدعين القدرة على تبديل عقول الرجال بضروب السحر ، كتبديل الكره حبا ، والحب كرها ، أو سحر بضائع الناس وسرقتها ، أو الادعاء بقدرتهن على الركوب فى بعض الليالى على ظهور بعض الدواب مع حشد من العفاريت فى صورة النساء .

كما كان من ضروب سحر النساء السهلة صنع صورة من الشمع للضحية المقصودة ، وتخريمها بالابر ، وتلاوة صيغ من اللعنات عليها .

ومن الطرائف الغريبة أن وزيرا من وزراء فيليب الرابع اتهم بأنه استأجر ساحرة لتفعل هذا بصورة الملك • وكان من المعتقدات المنتشرة أن بعض النساء يستطعن أن يؤذين أو يقتلن بنظرة من عيونهن الحاسدة •

وكانت الكنيسة فى بادىء الامر تتساهل مع أصحاب هذه العقائد حيث ترى فيها بقايا وثنية لن تلبث أن تزول ، ولكن ما حدث كان عكس ذلك ، فقد أخذت هذه الظاهرة تزداد وتنتشر ، حتى جاء عام ١٢٩٨ م فشنت محكمة التفتيش حملة قوية عليها بغية القضاء على السحر فحرقت الكثير من الساحرات علنا •

ولقد كان الكثير من رجال الدين يعتقدون أن كثيرا من النساء كن على صلة بالعفاريت ، وأن من الواجب أن يحمى المؤمنون من رقاهن السحرية •

ويؤكد قيصريوس الهستريا فى أن كثيرين من الرجال فى أيامه يتحالفون مع الشياطين ، وأنهم بذلك يحتقرون الكنيسة ويسخرون من شعائرها بعبادة الشيطان بقداس أسود •

ولقد سبق أن أشرنا الى حركة « السحر الاسود » التى ظهرت فى خاتمة القرون الوسطى ، واجتاحت كل المجتمعات الاوروبية ، وظهرت فى الافق كثورة منظمة ضد سلطة الكنيسة وتعاليم النصرانية واعتمدت هذه الحركة على فكرة التدنيس ، فلا تتم شعائر التوسل بالشيطان الا بتدنيس شعائر الدين ، وسحق أقدس رموزه ، وتحطيم التعاليم والتقاليد الدينية والكنسية • وقامت الكنيسة بمحاربة ذلك بانشاء الجمعيات الدينية الرجعية وبتشكيل محاكم التفتيش التى سبقت الاشارة اليها •

وفى ذلك الوقت ظهر الماريشال جيل رتز كامام للمذهب الجديد المناهض للكنيسة ، وكان رتز فارسا فرنسيا شهيرا خاض غمار المعارك الداخلية التى كانت تضطرم حينئذ بين الامراء الاقطاعيين ، ثم تولى القيادة فى جيش جان دارك ، ورفع الى رتبة الماريشال •

وبعد هزيمة جان دارك وحرقها ارتد الى ضياعه الشاسعة فى بريتانيا ، واطلق العنان لأهوائه وبذخه حتى بدد معظم ثروته وهو فى شرخ شبابه ، ففكر فى التماس المال عن طريق السيمياء ، واستقدم السحرة والمشعوذين من ألمانيا وايطاليا حيث كان للسيمياء شأن كبير ، وأصبح قصره معهدا للسيمياء والشعوذة .

وقد أدى التجاؤه الى السحرة الى أن يخوض غمار حياة غريبة من التماس الوصول الى عالم الغيب والتوسل بالشيطان ، وكان الماريشال نصرانيا مخلصا غير أنه ارتد عن دينه بتأثير حياته الجديدة التى تفرغ اليها بجسمه وروحه، وأقنعه السحرة بأن يلتمس محالفة الشيطان بالمراسلة، فوجه اليه نداء وقعه بدمه يلتمس فيه منه : العلم ، والقوة ، والمال ، متعهدا فى نظير ذلك أن يقوم بكل ما يطلبه منه سوى الحياة والروح ، ولكن الشيطان لم يظهر له ، ولم يجب هذا النداء برغم التضرعات التى سبقت اليه ، والصلوات التى أقيمت لذكره .

وحينئذ ارتد جيل الى حياة آثمة ، وعكف على استعطاف الشيطان والتوسل اليه بأشنع ضروب الجريمة ، فأسرف فى أقامة الرسوم والشعائر السوداء ، وأمعن فى العشق الدنس وغيره من صنوف الاباحية والرذيلة ، وتدرج من ذلك الى احياء الشعائر الوثنية وأراقة الدماء البشرية . فبث أعوانه فى جميع أنحاء البلاد ، يخطفون ويسرقون الاطفال ، وكان يتولى بنفسه تعذيب الفريسة وازهاق روحها بأبشع الاساليب ، وظل يعيش تلك الحياة الاجرامية حتى صدر عليه الحكم بشنقه واحراقه .

ويبدو أن طائفة سرية منظمة لعبادة الشيطان ومزاولة السحر قد انشئت فى ذلك العصر حوالى عام ١٤٦٠ م ، حيث اندس السحرة والمشعوذون فى جميع المجتمعات الاوروبية ، وعهد فى معظم الدول الى القضاء المدنى بمحاكمة أعضاء هذه الطائفة حيث استفحل أمرها وازداد خطرها .

ومنذ فاتحة القرن السادس عشر هبت على جميع المجتمعات الاوروبية ريح عاتية شاملة من دعوة الخفاء ، وظهر السحرة فى كل مكان ، ونشطوا الى بث

تعاليمهم ومعتقداتهم بين العامة والخاصة ، فنشطت السلطات المدنية والدينية فى مختلف الدول الى مطاردتهم ومحاكمتهم ، حتى وصل عدد من أحرق من السحرة عام ١٥١٥ م الى الالفين ونيف •

كانت فكرة السحر الجوهرية فى هذه العصور هى محالفة الشيطان ، وهذا التحالف : اما صريح ، واما ضمنى ، وكان كل من قام بأعمال شيطانية يعتبر كمن قبل سيادة الشيطان • وكان على من يقبل هذا التحالف : أن يشهد الشعائر الرسمية ، والقداس الاسود ، وان يشترك فى جرائم التدنيس والقربان الدموى بسفك الدماء البشرية ، وغيرها من صنوف الفجور والاباحية •

والواقع أنه انتشرت فى العصور الوسطى معظم الوسائل الوثنية التى كانت تتبع للتنبؤ بالغيب أو رؤية الغائبين، ويقال أن توماس أبكت Thomas A Becket أراد أن يسدى النصح الى هنرى الثانى فى مشروعه لغــزو بريطانى فاستشار لذلك : عرافا يزجر الطير ، وقارىء كف عرف مصير الحملة بدراسة خطوط يده •

وكان قارئو الكف يدعون أن عملهم مؤيد من عند الله ، ويستدلون عــلى صدق السحر بآية(١) من سفر الخروج التى تقول : « لا تدع ساحرة تعيش » •

وخلاصة القول أن السحر استغل فى أوروبا خلال العصور الوسطى للتأثير على معتقدات الناس ، الذين عاشوا فى بيئة من الخرافات تحت سيطرة قلة من الناس ، كانوا يهدفون من ورائها الى تحطيم معتقدات الناس لتحقيق اطماع مادية ، وسياسية خاصة •

مدرسة الكابالا اليهودية :

سبق أن أشرنا الى أثر التعاليم اليهودية عــلى الحركات السرية التى قامت لتقويض الاسلام والمسيحية ، وفى الواقع لعبت التعاليم اليهودية الفلسفية السرية دورا كبيرا فى معظم الحركات الثورية والسرية منذ أقدم العصور •

---

(١) الآية الثامنة عشرة من الاصحاح الثانى والعشرين •

ولقد آثرنا أن نعود الى بحث هذا الموضوع بشيء أكبر من التفصيل لارتباط هذه التعاليم بأعمال السحر والخفاء ، حتى يتضح لنا الدور الفعال الذى كان للسحر على معتقدات الناس وسلوكهم ٠

والحق أن التقاليد اليهودية السرية تعتمد على فلسفة الكابالا ، وهى عبارة عن مزيج من الفلسفة والتعاليم الروحية ، والشعوذة والسحر متعارف عليهما عند اليهود منذ أقدم العصور ٠

وخلاصة هذه التعاليم هى أن الله كائن مطلق ، ولما كان هذا الكائن يشعر بوجوده فهو ينفث روحه فى عالم الارواح النقية والملائكة من طرق مختلفة ، كما أن روح الانسان تنتقل من جسم الى جسم حتى تعود فى النهاية الى الله وتفنى فيـه ٠

وكان دعاة « الكابالا » يعلقون أهمية كبرى على السحر والشعوذة وأسرار الطلاسم والرموز والارقام ، وقد أدمجت تعاليم الكابالا وأسرارها ورموزها فى وثيقتين عبريتين هما « السفر جزيرا » و « السفر هازوهار » (١) ٠

ولقد كانت أساطير الكابالا وتعاليهما ورموزها ، مرجعا لمعظم الجمعيـات السرية الغربية في وضع نظمها ورموزها ، كما كانت فى الغالب مبعث الوحى لكثير من الجمعيات الهدامة : كأخوة الشيطان ، وأصحاب القداس الاسـود ، وطوائف السحرة ، وجمعيات الخفاء التى انتشرت في أوروبا فى العصور الوسطى ٠

والواقع أن الدور الذى لعبه اليهود فى الثورات الحديثة ظاهر لا جدال فيه وقد استند هذا الدور الى المال وأعمال الخفاء معا ، وهى الاشياء التى عرف بها اليهود منذ القدم ٠

---

(١) « السفر جزيرا » معناه كتاب الخلق وهو عبارة عن مجموعة من الأحاديث والخطب رويت على لسان ابراهيم ، اما « السفر هازوهار » فمعناه كتاب الضوء المعروف عادة « بزوهار » ، وقد كتب بخط آرامى يحمل على الاعتقاد بانه قد وضع فى القرن الثانى عشر او الثالث عشر ، ويرى بعض الباحثين انه من تصنيف موسى الليونى الاسبانى ٠

وجثم اليهود خلف أى ثورة اجتماعية أو سياسية لينتظروا الجانب الغالب ليأخذوا منه الغنيمة والاسلاب ، وبرغم أنهم كانوا لا يظهرون على المسرح فانهم عرفوا كيف يسيرون هذه الحركات لتحقيق مطامعهم وأهدافهم •

ففى منتصف القرن السابع عشر كانت التعاليم الروحية اليهودية قد نفذت الى جميع أنحاء أوروبا ، والمعتقد أن تيار هذه التعاليم قد تسرب الى أوروبا الغربية من شرق أوروبا ، فمنذ القرن السادس عشر اجتمع اليهود واستقروا فى بولندا ، وظهر هنالك جماعة من السحرة والمشعوذين اليهود تعرف « بالزاركيم » أوجماعة « بعل شم » •

وبعل شم كلمة عبرية معناها « سيد الاسم » ومصدرها نظرية كابالاية تزعم أن بعض اليهود الذين تتوافر فيهم شروط معينة من القدسية يستطيعون أن يستخدموا الاسم الأعظم دون وازع • و « البعل شم » هو شخص يملك هذه القوة ويستخدمها فى : كتابة الطلاسم ، ومخاطبة الارواح ، ومعالجة الامراض ، وغير ذلك •

على أنه فى عام ١٦٦٦ م اضطرب العالم اليهودى بشكل شامل ، لظهور داعية يسمى « شابيتاى تسيبى » وهو ابن تاجر أزميرى يدعى مردكاى ، زعم أنه المسيح المنتظر •

وكانت فكرة المسيح المنتظر ذائعة فى ذاك الوقت فى المجتمع اليهودى ، وكانت الاوساط اليهودية الرجعية تؤمن بقرب ظهـور هذا المسيح ، ولذلك صادفت دعوة شابيتاى تأييدا كبيرا بين يهود فلسطين ومصر وشرق أوروبا ، بل أيدها كثير من اليهود المنبوذين وأصحاب الاموال لاغراض سياسية واقتصادية •

كان شابيتاى متمكنا من تعاليم الكابالا ، عليمـا بأسرارها ونظرياتهـا الروحية • بارعا فى ضروب الشعوذة • وروى عنه أنه كان يأتى الخوارق ، وكان جلده ينضح المسك كما كان يعيش فى حالة ذهول مستمر !

ولقد انقسم اليهود ازاء مزاعم شابيتاى ما بين مناصر ومعاد • فأما الخصوم فقد كانوا من الاحبار الذين ناصبوه العداء خوفا على تعاليم اليهودية من دعوته ،

وأما المناصرين فقد كانوا أولئك الذين استهوتهم دعوته وآمنوا بمزاعمه وتعاليمه بالرغم أن الكثيرين انقلبوا عليه حينما سخر منه سلطان تركيا وطلب اليه أن يثبت دعواه بأن يستقبل السهام المسمومة بصدره ، وقد انتهت قصة الداعية باعتقاله وسجنه فى احدى قلاع بلغراد حتى توفى بها عام ١٦٧٦ ٠

على أن تحطيم المسيح المنتظر لم يخمد من حماسة أنصاره ، بل استمرت دعوة شابيتاى فى القرن الثامن عشر ، وأسفر نشاط المدرسة الكابالاية عن فورة جديدة فى بولندا ، فظهر كثير من دعاة « الزاركيم » و « بعل شم » ٠ وكان أشهر أولئك الدعاة اسرائيل البدولى الذى أسس طائفة « الحسديم » عام ١٧٤٠ ٠

وكان اسرائيل يخاصم اليهودية الرجعية ، ويرجع تعاليمه الى « الزوهار » ، برغم أنه لم يسلم تسليما مطلقا بنظرية الكابالا التى تنادى بأن الكون صورة من صور الله ، بل زعم أن الكون كله هو الله ، وان الشر عنصر من عناصر الله اذ ليس الشر خبيثا فى ذاته ، ولكن فى علاقته بالانسان ، وعلى ذلك فليس للخطيئة وجود مادى ٠

وكان اسرائيل بارعا فى ضروب السحر والشعوذة ، فالتف حول دعوته كثير من اليهود الذين خرجوا على تعاليم التلمود ٠ وبعد اسرائيل ظهر داعية آخر يسمى هايلبرين فعكف على مزاولة الشعوذة والاعمال الخارقة باسم الله وجمع حوله نفرا من الانصار ، استمروا بعد وفاته يستغلون سذاجة العامة فترة من الزمان ٠

وكانت أشهر الجمعيات الكابالاية التى ظهرت طائفة الفرنكيين الذين عرفوا أيضا « بالزوهاريين » أو اخوان الشعلة لانتمائهم الى الزوهار « كتاب الضوء » . وقد أسس هذه الجمعية يعقوب فرنك ، وهو داعية من أمهر دعاة الكابالا واعلمهم بأسرارها وتعاليمها ، فجمع حوله فى منتصف القرن الثامن عشر جمهورا كبيرا من الدعاة والانصار ، وعاش فى بذخ هائل لم يهتد أحد الى حقيقة مصدره ، واستمر يبث بطائفته نظريات الالحاد والهدم بطريقة سرية ، ولما قاومه الاحبار اليهود أعلن خروجه على اليهودية ، واعتنق المسيحية ثم أذاع بواسطة اتباعه فى تركيا انه

اعتنق الاسلام لجذب أنصار اليه • واستقر فى النهاية فى أوفنباخ بالقرب من فرانكفـورت وتسمى بالبارون فون أوفنباخ ويصف مالمان فى كتابه « تاريخ اليهود » أسراف فرنك وحياته البذخة بقوله :

« كانت له حاشية من بضع مئات من الفتيان والفتيات اليهود ذوى الحسن الرائع ، وكان يذاع أن صناديق الاموال تنهمر عليه فى كل يوم ولا سيما من بولندا • وكان يخرج كل يوم فى موكب حافل ليقيم شعائره فى العراء فى عربة تجرها جياد مطهمة ، ويحرسه عشرة فرسان أو اثنان عشر فارسا يرتدون الثياب الموشاه بالذهب ، وقد رفعوا الرماح ، ووضعوا فى قبعاتهم أهلة أو شموسا أو أقمارا • وكان أنصاره يعتقدون فيه الخلود ، بيد أنه توفى عام ١٧٩١ ، ودفن فى بذخ يعادل بذخ حياته » •

ونشـير أيضا هنا الى اثنين آخرين من أقطاب السحرة ظهرا فى القرن الثامن عشر ، وهما : الكونت سان جرمان ، والكونت كاجليو سترو وقد أدعيـا قدرتهما على القيام بالخوارق ، وتمكنهما من اسرار الكابالا ، وعاشا فى رفاهية مستغلين سذاجة الناس بما يقومون به من أعمال •

كما ظهر فى هذا القرن أيضا داعية يهودى يدعى حايم صمويل يعقـوب فوك وكان معروفا باسم الدكتور فوك ، وقد اتصل بالزوهاريين ، ولبث حينا يزاول ضروب السحر والشعوذة فى ألمانيا ، وكان يزعم أن له قدرة خفية ، وأنه يستطيع اكتشاف الكنوز الدفينة •

ويروى المؤرخ أرشنهولتس أنه شهد فوك يأتى بأعمال خارقة فى برنزفيك وينسبها الى تبحره فى الكيمياء ، وقد اضطهد فوك وطورد من وستفاليا وحكم عليه بالحرق لاتهامه بالسحر ففر الى انجلترا ، حيث استقبل بالترحاب وذاع صيته •

وتقد أذيع عن قدرته أغرب الروايات ، من ذلك ما قيل أنه يستطيع أن يبقى شمعة صغيرة تضىء مدة أسابيع ، وانه يستطيع بتلاوة تعزيمه أن يملأ قبوا من الفحم ، وان أية حلية يرهنها لدى المرابى تنسل ثانية الى منزله ، كما قيل أيضا

انه كان يركب عربة ذات يوم فانفصلت احدى عجلاتها وارتاع السائق ، ولكن فوك أمره أن يسوق مطمئنا واستمرت العربة فى سيرها والعجلة المنفصلة تتبعها حتى وصل الى غايته •

والروايات عن خوارق فوك وقدراته العجيبة كثيرة لا نهـاية لها ، وكان المجتمع اليهودى وأحباره يبجلونه الا أن شهرته أثارت نقمة يهودى يدعى أمدن هجاه واتهمه بأنه من أنصار المسيح الكاذب ، وأنه يستغل سذاجة المؤمنين فاخذ يؤلبعليه يهود بولندا متهما أياه : بالنصب ، والاحتيال ، وابتزاز أموال الناس•

وأخيرا نقول : أندعاة مدرسة الكابالا الذيناستغلوا أعمالالسحر والشعوذة للاثراء والعيش فى البذخ كان يكمن وراء أعمالهم حركات سرية هدامة تهدف الى تقويض المجتمعات المختلفة بالتأثير على عقول الناس ، وتوجيههم الى غاية يهدفون لها ، وقد سبق أن أشرنا الى كثير من هذه الجمعيات فى أكثر من مناسبة •

والواقع أن مدرسـة الكابالا ما هى الا نوع من الاسـاليب الميتافيزيقية والسيكولوجية التى استخدمتعبر التاريخ لشل ارادة الناس بالتأثير على عقولهم وجعلهم يتخلون عن معتقداتهم القديمة والايمان بما يوحى به اليهم وهى لاتختلف بتاتا عما يسمى اليوم عملية غسيل المخ •

السحر عند ابن خلدون :

تعتبر مقدمة ابن خلدون من أهم الكتب ذات الاصالة ، ذلك لانه أوضح بعمق عوامل قيام الامم والجماعات البشرية واضمحلالها على أساس قوانين معينة يمكن ادراكها والكشف عليها •

ويبدو ـ تبعا لتحليلات ابن خلدون ـ ان دعامة المجتمع هى « شعـور الجماعة » الموحد تجاه المسائل العامة ، والكثير مما يراه ابن خلدون يمكن أن يطبق عـلى مشكلات العصر الحديث •

واذا كانت « المقدمة » خاصة بكتاب عن تاريخ الناس والبلاد ، فان ابن خلدون فى الواقع جمع فيها فأوعى ، اذ تحدث عن صفات الناس وطباعهم كما

تحدث عن علم السياسة وأصول الحكم وما تفتقر اليه بعض الأمم عندما تتولى الملك والسيادة ، وان كان فى هذا الجانب من الحديث قد حمل على العرب حملات قاسية فى الفصلين الثانى والثالث •

كما اشتمل الكتاب على أحاديث فى الصناعات بمختلف ألوانها من : الفلاحة ، الى الطب ، وقدم دراسة طيبة لعلوم القرآن ، وأشار الى علم الهندسة والمساحة ، وانتقل من الأرض الى السماء يتحدث عن الكواكب ، وقد أردف حديثه فى علم الالاهيات بأحاديث فى علم السحر والطلسمات ، وعلم أسرار الحروف ، وعلم السيمياء • وهذا ما يعنينا فى هذه الدراسة ، وفيما يلى مجمل ما قدمه ابن خلدون فى مقدمته(١) عن علم السحر •

يقول ابن خلدون فى علم السحر والطلسمات :

« علم السحر والطلسمات علم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات فى عالم العناصر ، اما بغير معين ، واما بمعين من الامور السماوية ، والأول هو السحر والأخير هو الطلسمات ، ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر ، ولما يشترط فيها من الوجهة الى غير الله من كوكب او غيره كانت كتبها كالمفقود بين الناس الا ما وجد فى كتب الأمم الاقدمين فيما قبل نبوة موسى ــ عليه السلام ــ مثل النبط والكلدانيين •

« وكانت هذه العلوم فى أهل بابل من الربانيين والكلدانيين ، وفى أهل مصر من القبط وغيرهم ، وكان لهم فيها التأليف والاثارة ، ولم يترجم لنا من كتبهم فيها الا القليل مثل « الفلاحة النبطية » ، من أوضاع أهل بابل ، فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه ووضعت بعد ذلك الاوضاع مثل « مصاحف الكواكب السبعة » وكتاب « طمطم الهندى » فى صور البروج والكواكب ، ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة فى هذه الملة « الاسلام » فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة ، وغاص على زبدتها واستخرجها ، أو وضع فيها غيرها من التأليف وأكثر

---

(١) طبع القاهرة سنة ١٩١١ وبهامشها كتاب « سراج الملوك » للعلامة ابى بكر محمد بن محمد ابن الوليد •

فيها وفى صناعة « السيمياء » لانها من توابعها اذ أن حالة الاجسام النوعية من صورة الى أخرى انما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية » •

ولكن ما حقيقة السحر ؟

يجيب ابن خلدون عن ذلك بأن حقيقة السحر ترجع الى أن النفوس البشرية وان كانت واحدة بالنوع فهى مختلفة بالخواص ، وهى أصناف كل صنف مختص بخاصية واحدة بالنوع ، ولا توجد فى الصنف الآخر ، أما تأثير الانبيــاء فمدد الهى وخاصية ربانية ، ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبــات بقوى شيطانية ، وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد فى الآخر •

مراتب النفوس الساحرة :

ويضيف بأن النفوس الساحرة على مراتب ثلاث: فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير اله ولا معين وهذا هو الذى يسميه الفلاسفة « السحر » والثانية تؤثر بمعين من مزاج الافلاك أو العناصر أو خواص الاعداد ويسمونه « الطلسمات » وهو أضعف رتبة من الاول ، وثالثها تأثير فى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقى فيها أنواعا من الخيالات والمحاكات وصورا مما يقصده منذلك ثم ينزلها الى الحس من الرائين كأن يجعلهم يرون البساتين والانهار والاشجار ، وليس هناك شيء من ذلك ويسمى هذا عند الفلاسفة «الشعوذة» أو «الشعيزة» •

ويرى ابن خلدون أن السحر كفر لا يقره الدين فيقول :

« ولما كان السحر يوجه الى : الأفلاك ، والــكواكب ، والعوالم العلوية ، والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع ــ كان السحر كفرا أو الكفر من مواده وأسبابه ، ولهذا اختلف الفقهاء فى قتل الساحر هل لكفره الســابق على فعله ، أو لتصرفه بالافساد وما ينشأ عنه من الفساد •

واختلف العلماء كذلك فى السحر هل هو حقيقة أو انما هو تخيل ، فمن قالوا : انه حقيقة نظروا الى المرتبتين الاوليــين ، ومن قالوا : انه لا حقيقة له نظروا الى المرتبة الثالثة •

ويؤكد ابن خلدون أن « الغاية » كتاب مسلمة بن أحمد المجريطى هو مدونة هذه الصناعة وفيه استيفاؤها وكمال مسائلها ، ويشير الى أنه جاء بهذا الكتاب : ان بالمغرب صنفا من هؤلاء المنتحلين لهذه الاعمال السحرية يعرفون بالبعاجين ، وهم الذين اذا أشار أحدهم الى بطون الغنم وهى فى مراعيها سقطت أمعاؤها من بطونها الى الارض ، ولهذا كان يسمى الواحد منهم باسم « البعـاج » لان أكثر ما ينتحله من السحر كان يجريه فى الانعام ويرهب أهلها فيعطونه من فضلها .

الفرق بين السحر والطلسمات :

ويفرق ابن خلدون بين السحر والطلسمات فيقول : « ان السحر لا يحتاج الساحر فيه الى معين ، وصاحب الطلسـمات يستعين : بروحانيات الكواكب ، وأسرار الاعداد ، وخواص الموجودات ، وأوضاع الفلك المؤثرة فى عالم العناصر كما يقوله المنجمون ، ثم يشير الى أنهم يقولون : ان السحر اتصال روح بروح ، والطلسم اتحاد روح بجسم ، ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السـماوية بالطبائع السفلية ، والطبائع العلوية هى روحانيات الكواكب ، ولذلك يستعين صاحبه فى غالب الامر بالنجامة .

ولقد استدل الفلاسفة على أن للسحر وللطلسمات أثرا فى النفس الانسانية من جهة التصورات النفسانية كالذى يقع من قبيل التوهم ، فان الماشى على حرف حائط أو على حبل منتصب اذا ازداد عنده توهم السقوط سقط بلا شك ، ولهذا تجد كثيرا من الناس يعودون أنفسهم بذلك حتى يذهب عنهم هذا الوهم فتجدهم يمشون على حرف الحائط والحبل المنتصب ولا يخافون السقوط .

الفرق بين المعجزة والسحر :

ويوضح ابن خلدون الفرق بين المعجزة والسحر عند الفـلاسفة والحكماء بقوله :

« أما الفرق عند الفلاسفة بين المعجزة والسحر فالذى ذكره المتكلمون أنه راجع الى التحدى ، وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادعاه ، ووقوع المعجزة على وفق

دعوى الكاذب غير مقدور ، لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية لان صفة نفسها التصديق ، فلو وقعت مع الكذب لاستحال الصادق كاذبا وهو محال ، فاذا لا تقع المعجزة مع الكاذب اطلاقا ٠

« وأما الفرق بينهما عند الحكماء فهو الفرق ما بين الخير والشر فى نهـاية الطرفين ، فالساحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل فى أسباب الخير ، وصاحب المعجزة لا يصـدر منه الشر ولا يستعمل فى أسـباب الشر ، وكأنهما على طرفى النقيض فى أصل فطرتهما » ٠

السحر فى القرآن :

تقوم نظرة القرآن الى السحر على عالم الارواح الخاص بالجن والشـياطين الكفار الاشرار ، وأهم آية قرآنية بالنسبة لهذا الموضوع هى الآية ١٠٢ « مدنية » من سورة البقرة « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا : انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضـارين به من أحـد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » صدق الله العظيم ٠

هذه الآية الكريمة جاءت ردا على ماقاله اليهود بأن سليمان ـ عليه السلام ـ لم يكن نبيا وانما كان ساحرا ، وتقرر أن الشياطين ـ على قول أصحاب التفاسير مثل الطبرى والرازى ـ هى الأصل فى السحر لانهم كانوا يتسمعون لدى أبواب السماء ، ويزيدون على ما يسمعون أكاذيب من عندهم ويبلغون ذلك الى الكهان فيصنعون منه كتبا يعلمونها للناس ويتلونها ، وكان هذا العمل منتشرا فى زمن سليمان انتشارا عظيما ٠

والحق أن القرآن لم يغفل ظاهرة من ظواهر الحياة ، وكان لها وثيق الصلة بعقيدة الانسان ، بل ربما كانت الظاهرة مثـار للجدل والنقـاش بين فريقين

يختصمان حول الحق والباطل كما اختصموا حول الدعوة الدينيــة فى أزمنة النبوة .

على أن القرآن عرض للسحر من جانب الموعظة والهداية ، وحث المؤمنين عن الابتعاد عن الغواية والاثم ، أما : تاريخ السحر ، ووسائله ، وتطوراته ، وأنواعه ، وتفصيل آثاره ــ فهى تبعد كل البعد عن مقصوده فى التربية والعظة ، كما أنها غير محدودة تختلف باختلاف الازمنة ، وتتفاوت فى تقدير العقول .

وحديث القرآن عن السحر يتصل بموسى ، وكل من له صلة بالقرآن يعرف ما شجر من خلاف صاخب بين فرعون وسحرته وبين موسى ــ عليه السلام ــ الى ان تمكن موسى من الغلبة وبطل السحر ، « وألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين » .

كما يتصل حديث القرآن عن السحر بسليمان ، عليه السلام ــ وبهاروت وماروت ، فقد الصق السحرة بسليمان من الاباطيل مالا يجعله نبيا ولكن يجعله ساحرا ، فبادرت الآيات الى تبرئة سليمان مما نسب اليه « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » .

على أن ادعاء ان الجن يعلم الغيب افتراء باطل فقد استأثر الله به ، لا يطلع احدا عليه الا اذا أراد أن يبلغ من ارتضاه من رسله ما يريد ابلاغه للناس .

« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحــدا ، الا من ارتضى من رســول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا » (١) .

كما أن من تدبير الله فى ملكه أن يفضى الى الملائكة بما كان غيبــا ثم حان وقته فلم يعد غيبا ، وللملائكة فيما بينهم مناجاة بما ألقى اليهم من شئون كونية .

---

(١) سورة الجن آية « ٢٦ ــ ٢٧ » .

وكانت للشياطين جولات علوية تمكنهم من أن يسترقوا السمع بما يدور بين الملائكة ، ثم تهبط الشياطين بما تلقفته ، وتضيف الى ما سمعت كثيرا من الاكاذيب الشيطانية ، وينتهون بذلك كله الى أناس من الاشرار نصبوا أنفسهم للضلال ، واتخذوا الشياطين أولياء لهم ، فأصبح شــياطين الجن والانس أعوان فتنة ، ودعاة افساد ٠

وفى عهد ادريس ـ عليه السلام ـ تفشى السحر بين الناس بدرجة كبيرة ، واستطاع السحرة أن يستعينوا بما يأخذون عن الشياطين « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن ، يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » . وراجت أباطيل السحر فى ذاك الوقت بأرض بابل ، فجرف الناس تيار السحر ، وافتتنوا به حتى التبس عليهم الحق بالباطل ، وتزعزعت عقيدتهم فى كثــير من الحقائق الدينية وظنوا أن السحرة يعلمون الغيب ، ويخبرون بالمستقبل ، وأن مقام السحرة أشبه بمقام الانبياء ٠

وكان من رحمة الله بخلقه من أهل تلك الديار ، أن بعث اليهم من ملائكة السماء هاروت وماروت ـ ليعلما الناس أن الشائع بينهم ما هو الا سحر وليس علما سماويا ، وأن صناعته تكتسب بالتعليم ، كما أن محاولات السحر وهى من فعل الانسان قد تصح أو لا تصح ، وليس هذا من علم السماء بشىء » ٠

ومع تحذير الملكين لمن ينصحانه لم تكن النفوس كلهــا خيرة ، فهناك من اهتدى وهناك من ضل « فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة انهم اتخــذوا الشياطين أولياء من دون الله » ٠

واصبح السحر لديهم مفسدة مستباحة ، يلحقون به الاذى بمن شاءوا ، يفرقون به بين الانسان وأصحابه ، بل بين المرء وزوجه ٠ وبقى السحر ظاهرة متفشية يتوارثها الناس جيلا بعد جيل، الى أن جاء عهد سليمان ـ عليه السلام ـ وقد منحه الله كثيرا من المعجزات التى وصفها الكافرون بأنها سحر من أعمــال الشيطان ٠ فقد كانت من معجزات سليمان : أن يركب الريح ، ويتحكم فى الجن

ويستخدمها في الاعمال على اختلافها ، ويجمع الطير اذا شاء ويرسلها اذا ما اراد .
ولقد حدثتنا عنه الآيات في قوله تعالى : « قال : رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي انك أنت الوهاب • فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب • والشياطين كل بناء وغواص • وآخرين مقرنين في الأصفاد ، هذا عطاؤنا فامنن ، أو امسك بغير حساب » (١) •

وفي قوله تعالى « وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون » (٢) وكذا في قوله « وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه ، أو ليأتيني بسلطان مبين » (٣) •

وفي ضوء هذه المعجزات نشط السحر ، وكثرت اباطيله ، ودأب الساحرون على غيهم ليقاوموا هذه المعجزات ويكذبوها ويسموها بالسحر ، حتى تأثر بذلك كثير من البسطاء واعتقدوا أن معجزات سليمان لا فرق بينها وبين ما يقوم به السحرة من أعمال • وادعى السحرة أن اعمالهم التي يعتمدون عليها في : التعاويذ ، والرقى ، والابخرة ، واستخدام الجن هي نفسها من كتب سليمان •

أما بالنسبة لليهود فالنقاش معهم فيما يختص بالسحر كثير ومعقد ، فبرغم أن التوراة جاءتهم بالحق من عند الله ، وكشفت لهم من أمور الغيب ما يجب الايمان به من أحداث وأحكام ونبوءات متجددة — بل ان فيها تبشيرا بأنبياء منتظرين من غير بني اسرائيل — فان أنانيتهم تدخلت الى اقصى حد في تدليس المعتقدات •

فكان من شأنهم مع المسيح ما تعرفه البشرية جمعاء ، واتهموه بأعمال السحر • وقد أشار القرآن الى هذا مكذبا الكافرين بقوله تعالى « اذ قال الله يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم

---

(١) سورة ص « الآيات من ٣٥ الى ٣٩ » •

(٢) سورة النمل « آية ١٧ » •

(٣) سورة النمل « آية ٢٠ ، ٢١ » •

الناس فى المهد وكهلا ، واذ علمتك الكتاب ، والحكمة ، والتوراة ، والانجيل ، واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى ، وتبرىء الاكمه والابرص باذنى ، واذ تخرج الموتى باذنى ، واذ كففت بنى اسرائيـل عنـك اذ جئتهم بالبينات فقـال الذين كفروا منهم : ان هـذا الا سـحر مبـين (١) »
« صدق الله العظيم » •

ولما جاء محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ووجدوا كتابه مصدقا لأنباء التوراة عن نبى العرب ورسالتهم ازدادوا حنقا والتواء ، حتى أنكروا ما عرفوا ، وتنكروا للتوراة فيما حدثتهم عنه ، ونبذوا الاخذ بها فيما تطابق عليه القرآن والتوراة •

واتخذ المارقون من التوراة السحر علما وعملا وشعارا ، اذ وجدوا فيـه مشتهاهم : من السيطرة على الأوهام ، ومن جمع الأموال ، وافساد العلاقات ، وكل ما تبتغيه النفوس الضعيفة لتحقيق غايتها •

ومن ثم فان اليهود هم الآخذون بالسحر من عهد سليمان ، وعن الملكين هاروت وماروت من قبل • وقد ظل السحر الى يومنا هذا بابا من أبواب الشر ، ووسيلة من وسائل الضلال ، يتخذه الكثير من المضللين والمشعوذين وسـيلة لعيش غير شريف ، وسبيلا الى مخادعة الناس عن الدين وتعاليمه الحقة •

وازداد افتتان الجهلة من الناس بالسحر فى هذا العصر ، فساعد المشعوذون على ازدياد تبذلهم وسفههم ، فموهوا على النـاس بأنه عمـل مشروع مؤيد من القرآن ، وقد يتصـادف أن يتحقق شىء ممـا يعملونه فتتأصل الفتنة ويتركز الضلال •

« وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (٢) •

---

(١) سورة المائدة « آية ١١٠ » •

(٢) سورة النمل آية ٨١ ، وسورة الروم آية ٥٣ •

الباب الثامن

ألوان زائفة من المعتقدات والعادات

الفصل الأول :

ألوان زائفة من المعتقدات والعادات



ألوان زائفة
من المعتقدات والعادات

مما لا شك فيه أن الثقافة تلعب دورا كبيرا فى سلوك الانسان ، كما أن لها تأثيرا كبيرا على السلوك الجماعى للمجتمع ، وتعتمد ثقافة المجتمع الى درجة كبيرة على ما يسود هذا المجتمع من : معتقدات ، وتقاليد ، وعادات توارثها جيلا بعد جيل •

وقد تكون هذه المعتقدات والتقاليد : أصيلة أملتها حاجتهم، وقدرت بعضها غيبيات الدين فى سبيل تقدمهم ورفاهيتهم ، وقد تكون بدعا زائفة دخيلة عليهم لتقويض حياتهم واهدار كرامتهم •

وليس بغريب أن نرى الأمم التى ازدهرت حضارتها عبر التاريخ الا وكان لتقاليدها الثقافية الدور الكبير فى هذه الحضارات ، وبالعكس نجد أن تأخر الشعوب يرجع الى كثير من المعتقدات الزائفة والخرافات البالية مما يجعلها غالبا لقمة سائغة لكل طامع •

ومن الثابت أن المستعمرين والدخلاء يستغلون هذه الظواهر للسيطرة على عقول الشعوب ، فيشجعون على استمرارها وبقائها ، بل كثيرا ما كان المستغل يبتدع من الوسائل والاساليب الخبيثة ما يفت فى عضد الجماعة ويشل عقلها ليلهيها عن أمور الحياة الجدية • ففى كثير من دول أفريقيا مثلا استغل المستعمر :

الخمر ، وأسباب الرذيلة ، والمعتقدات الزائفة للسيطرة على العقول ، وشل الارادة ، ومن ثم تتحقق الاطماع الاستعمارية . وفى الصين لا تزال قصة الافيون عالقة فى أذهاننا ، وفى كل الدول العربية لا تزال ثقافتها مقترنة بكثير من الخرافات والأوهام .

ومما يدعو الى الاسف أنه برغم ما وصلنا اليه نحن من درجات الرقى والتقدم الفكرى والعلمى ، فانه لا يزال بعضنا أسير كثير من : المعتقدات ، والتقاليد ، والعادات البالية ، وثمة من لا يعرف فعلا خطورة ما أدخله علينا المستعمر من عادات استهدف هو بها شغلنا ـ زمنا طويلا ـ عن قضايا التحرر واخماد جذوة العمل الوطنى فينا ، هذا بالاضافة الى خرافات ابتدعها قوم أفاقون عملوا على تقويض دعائم الايمان وبلبلة أفكار الناس لتحقيق سيطرة سياسية ، أو ابتزاز أموال السذج الذين يجرون وراء التفاهات .

فالشعوذة ، وقراءة الطالع ، والزار ، والتوسل الى الأولياء ، والموالد ، والذكر ، والادمان على المخدرات ، ورقصات التويست ليست ـ فى واقع الامر ـ الا بعض الصور التى لا تزال نقطة سوداء تلطخ جبين ثقافتنا .

وهنا نستطيع أن نؤكد أن واجبنا القومى يحتم على كل مواطن شريف أن يعمل جاهدا للمساهمة فى القضاء على أمثال هذه الخرافات . وعلى الاتحاد الاشتراكى بصفته السلطة الشعبية أن يبذل قصارى جهده فى توعية الناس مقرنا ذلك بالعمل السياسى اذ لا يمكن لشعب أن ينجح ويتقدم وفى أذهان أبنائه من رواسب الماضى بخزعبلاته ما يشده الى الوراء .

وفى هذا الفصل اخترنا ثلاث صور من هذه المعتقدات والعادات المتفشية فينا ، وهى الاعتقاد فى : الولاية ، وفى الزار ، وفى الادمان على المخدرات ، لتكون كلها نماذج تنسحب على غيرها مما لم نذكره خشية الاطالة والتكرار .

الولاية والاعتقاد فى الأولياء :

بالرغم مما وصل اليه مجتمعنا من تقدم فكرى وعلمى ، وبالرغم من أن شريعة الاسلام واضحة فى تحديد العلاقة بين الله وعباده بحيث حرمت الوساطة بين الناس والخالق ـ فانه لا يزال يسودنا كثير من المعتقدات التى تعتبر خروجا عن الدين ، وظاهرة من مظاهر التأخر الفكرى والثقافى .

واذا كنا عرفنا من الوسائل السيكولوجية والميتافيزيقية ما استخدم قديما للتأثير على عقول الناس مستغلة جهل السذج منهم لتحقيق مآرب خاصة ، فمن أبرز هذه الوسائل السيطرة على العقول عن طريق غرس معتقدات بوجود طبقة من الافراد يطلق عليها الاولياء : تقام لهم الموالد بين حين وآخر ، ويتوسل الناس اليهم لقضاء حاجاتهم ، ويقوم أتباعهم باقامة طقوس وشعائر تبعد كل البعد عن شعائر الدين الحنيف .

ولكى نستطيع أن نوضح أثر هذه المعتقدات سنحاول فى هذا الحيز المحدود أن نعطى للقارىء صورة مبسطة لها عن طريقها نتبين أوجه الشبه بينها وبين تلك الاساليب التى استخدمت عبر التاريخ للتأثير على عقول البشر من قبل .

وقد جاء الاعتقاد فى الاولياء نتيجة لهذه المعتقدات التى تقول : ان هنــاك طبقة من الافراد يتميزون عن باقى البشر ، فاذا سألنا بم يوصف هؤلاء الافراد ؟ قيل لنا : « انهم أفراد وهبوا أنفسهم لله وبهم ايمــان غير عادى ، وهم على قدر ايمانهم يمنحون القدرة على القيام بما هو فى مرتبة المعجزات ، وان أكبرهم درجة هو « القطب » وان كان البعض يقولون : انه لا وجود لمن له هذه الدرجة ، على حين يقول آخرون بوجود أقطاب أربعة ، وأن هؤلاء الاقطاب الاربعة هم مؤسسو طرق : الرفاعية ، والقدرية ، والاحمدية ، والبرهامية ، ويعتقد الناس أن كلا منهم كان « قطبا » فى عصره .

* * *

والقطب أسطورة خرافية تنزع الى تجريد الله من الربوبية ، وخلعها على وهم باطل سمى فى الفلسفة « العقل الأول » وفى المسيحية « الكلمة » وفى الصوفية « القطب » والقطب هو أكمل انسان متمكن فى مقام الفردية ، أو الواحد الذى هو موضع نظر الله فى الارض فى كل زمان ، وعليه تدور أحوال الخلق ، وهو يسرى فى الكون ، وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح فى الجسد ، ويفيض روح الحياة على الكون الاعلى والاسفل ، وقد يسمى « الغوث » باعتبار التجاء الملهوف اليه .

ويقول « تيجانى » مؤسس التجانية عن حقيقة القطبانية : « ان حقيقة القطبانية ، هى الخلافة العظمى عن الحق مطلقا فى جميع الوجود جملة وتفصيلا حينما كان الرب الها ، كان هو خليفة فى تصريف الحكم وتنفيذه فى كل ما له عليه الوهية لله تعالى ، فلا يصل الى الخلق أى شىء كائنا ما كان من الحق الا بحكم القطب ، ثم قيامه فى الوجود بروحانيته فى كل ذرة من ذرات الوجود ، فترى الكون كله اشباحا لا حركة لها ، وانما هو الروح القائم فيها جملة وتفصيلا ، ثم تصرفه فى مراتب الاولياء ، فلا تكون مرتبة فى الوجود للعارفين والاولياء خارجة عن ذوقه ، فهو المتصرف فى جميعها ، والمد لاربابها ، به يرحم الوجود ، وبه يبقى الوجود وفى بقاء الوجود رحمة لكل العباد ، وجوده فى الوجود حياة لروحه الكلية ، وتنفس نفسه يمد الله به العلوية والسفلية ، ذاته مرآة مجردة ، يشهد فيها كل قاصد مقصده » .

ثم يتحدث عن علم القطب بقوله : « ومما أكرم الله به قطب الاقطاب ، ان يعلمه علم ما قبل وجود الكون ، وما وراءه ، وما لا نهاية له ، وأن يعلمه علم جميع الأسماء القائم بها نظام كل ذرة مع جميع الموجودات ، وأن يخصصه بأسرار دائرة الاحاطة ، وجميع فيوضه ، وما احتوى عليها .

وللقطب أعوان فهناك : « الامامان » وهما بمنزلة الوزيرين له ، أحدهما لعلم الملك ، والآخر لعلم الملكوت ، ثم « الاوتاد » الاربعة ، وقيل : انهم ثلاثة ،

كلما مات قطب العصر أقيم مكانه واحد منهم ، وعلمهم فيض من قطب الاقطاب ، وان ماتوا فسدت الارض • كما أن هناك « الابدال » ، والبدل حقيقة روحانية تجتمع اليها أرواح أهل ذلك الموطن الذى رحل عنه وليه ، وعددهم أربعون ، اثنان وعشرون منهم بالشام ، وثمانية عشر بالعراق ، ثم هناك أيضا من الاعوان « النجباء » وهم دون الابدال ومسكنهم مصر !. وعملهم أن يحملوا عن الخلق أثقالهم وعددهم سبعون ! ثم يجىء فى النهاية « النقباء » وعددهم ثلثمائة ، ويقال خمسمائة ، وهم الذين يستخرجون خبايا الارض » •

ومن ثم فليست هذه المعتقدات الا نوعا من الخرافات التى نجدها فى كثير من الاساطير ، ابتدعها الانسان بتخيلات مخبولة ، ولأهداف رذيلة ، ليستعبد أخاه الانسان لما يشتهيه من رغبات ، وفى الواقع أن هذه الخرافات ابتدعتها أوهام الصوفية ازاء ملكوت الله ، ليسيطروا بها على عقول السذج من الناس ، ويسيرونهم فى متاهة من الضلال وهم مسلوبو الارادة والعقل ، ليغتصبوا من الناس أقواتهم وايمانهم •

ومع أن القطب غير معروف للناس ؛ فان الأماكن المحببة الى نفسه معروفة جيدا ، وان كان من النادر رؤيته حتى فى تلك الاماكن ، ويؤكد كثير من الناس أنه موجود فى مكة فوق سقف الكعبة ، ومع أنه لم يره أحد هناك فالناس يسمعون صوته مرتين عند منتصف الليل وهو يصيح « يا أرحم الراحمين » وهى الصيحة التى تردد من كل مئذنة فى كل مسجد •

ويقال : ان من الاماكن المحببة للقطب فى القاهرة باب زويلة ، وهو الذى يعرفه الناس باسم « المتولى » ذلك الباب الذى لا يغلق أبدا ، والذى يثنى فيه أحد الواح الباب الكبير للداخل نحو الجانب الشرقى للمدخل فيخفى فراغا صغيرا يقال : انه مكان القطب ، وكل من يمر بالباب يقرأ فاتحة الكتاب ويلقى ببعض الاحسان الى متسول يجلس دائما فى جوار البـاب ، ويعتقد الكثيرون أنه أحد

خدم القطب ، والذى يمر بهذا المكان يمكنه أن يرى كثيرين ممن يصابون بالصداع يدقون مسمارا فى الباب للتخلص من هذا الداء ، كما يرى أولئك الذين يشكون من ألم فى أسنانهم ينزعون احدى أسنانهم ويدسونها فى شق الباب لازالة الآلام •

ومن الاماكن المحببة الى القطب قبر السيد أحمد البدوى فى طنطا •

ويعتقد الناس : أن القطب ينتقل من مكان الى آخر فى لمح البصر ، وأنه يتجول فى العالم الفسيح ، ويتخذ لنفسه من الصور ما يشاء بأى لون ، وفى أى ثياب ، ويتكلم بأى لغة •

وكما سبق أن أشرنا فان القطب يليه أولياء من درجات مختلفة مثل : الأبدال ، والنجباء ، والنقباء ، وغالبا ما يرفض هؤلاء مباهج الحياة ، ولا يحبون معاشرة الناس ، ويفضلون الاقامة فى مكان صحراوى للانصراف الى العبادة والصلاة •

كما أن هناك بعض الاولياء يؤلمون أنفسهم على مثال ما يفعل فقراء الهنود ، وقد كان فى القاهرة فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر أحد الاولياء يحيط عنقه بدائرة من الحديد ، ويقيد نفسه بالاغلال الى جدار الغرفة ، ويقال انه بقى بهذه الحالة ثلاثين سنة ، ويقول البعض : أنه كان يجلس على الارض ثم يغطى ببطانية على أساس أنه سينام ، وعندما يرفع الناس البطانية مباشرة لا يجدون أحدا أسفلها •

ويؤمن الكثيرون بمثل هذه القصص ، أو على الاقل لا يعلقون عليها لان الضحك منها أو السخرية بها تعتبر اثما كبيرا قد يعرضهم للهلاك •

ومن القصص الطريفة الغريبة التى تروى ، قصة أحد الاولياء قطعت عنقه لجناية لم يرتكبها ، وكان الرأس يتكلم بعد أن بتر مؤكدا براءته (١) •

---

(١) جاءت قصة مماثلة عن الحكيم « دوبان » Dooban فى كتاب الف ليلة وليلة •

وتروى قصة أخرى أن وليا قطع رأسه فجرى الدم على الأرض ليخط بكتابة عربية ظاهرة مقروءة « أنا ولى الله وقد مت شهيدا » ·

* * *

ويجد كثير من المسلمين الأولياء الموتى ، فيشيد على قبر كل ولى مسجد ، ويقام على القبر تركيبة من الخشب أو الحجر تغطى عادة بالحرير ، وتنقش فوقه آيات من القرآن ، ويحيط بهذه التركيبة سور أو سجف من الخشب أو البرونز يسمى « المقصورة » ·

وفى كل قرية من قرى مصر تقريبا قبر أحد الأولياء أو أحد الشيوخ الذين اشتهروا فى حياتهم بالتقوى والصلاح ، ويزور الناس فى الأقاليم ولا سيما النساء قبر كل من هؤلاء الاولياء فى يوم معين من أيام الاسبوع · ويختلف السبب وراء هذه الزيارة ، فقد تكون التماس انجاب الولد أو استعادة الصحة ، وقد تكون لمجرد ضمان تقبل حسن للصلوات أو الدعوات التى يقومون بها فى هذه الاماكن ·

ويعتقد كثير من المسلمين السذج أن هؤلاء الاولياء وسطاء بينهم وبين الله ، فيبدأ الزائر بالقاء التحية ، ثم يدور حول المقصورة من اليسار الى اليمين ، ويقرأ فاتحة الكتاب عند باب المقصورة وعند كل ركن من أركانها ، ويدعو ويتجه الى القبر وظهره الى القبلة وهو يدعو الله ويستغيث به مستعينا بالنبى وبصاحب هذا « المقام » ، وكثيرون يقبلون الجدار والمقصورة ·

ويوزع ميسورو الحال النقود أو الخبز والفول على الفقراء عندما يزورون هذه المزارات ، ويعطون النقود خاصة لأولئك الذين يحملون قرب المياه ليسقو من يحس الظمأ ، أو من يريد بركة الولى صاحب المزار ، وقد يفرض الزائر على نفسه وعدا « النذر » بان يوزع النقود ، أو الطعام ، أو أن يضحى بذبيحة لو تحقق أمر ما ·

ومن العادات الغريبة المضحكة أنه اذ ما نذر شخص ما بالقرية عجلا صغيرا لأحد الاولياء ليذبحه حينما يشب ويكتمل نموه ؛ فانه يطلق هذا العجل

بموافقة كل الجيران يرعى كيفما شـاء حتى ولو هبط على حقول القمح ، فاذا ما اكتمل نموه ذبح واعد الطعام من لحمه للجميع ، ثم تقام الاذكار فى ليلة الاحتفال بوفاء النذر •

ومن السهل أن نرى بعد ذلك أن هـذه « التقاليد » لا يمكن أن يقبلهـا الا كل ساذج سريع الاستهواء بغض النظر عن عمله ومدى ثقافته • وكثـير منا يعلم أنها ربما عادت كلها أو بعضها الى عهود الوثنيـة الاولى ، غـير أنه يظل ياخذ بها بدعوى أنها لا يمكن أن تكون شركا بالله ولا تضر بقدر ما تنفع •

ويتحدث الجبرتى عن جانب من هذه التقاليد ، هو حق الشفاعة الذى نرى أنه بدعة فاطمية سخر منها أبو العلاء المعرى الشاعر الفيلسوف فى « رسـالة الغفران » المعروفة ، بقوله :

« اذا عرف هـذا فمعلوم ما قد عمت به البـلوى من حوادث الامور التى أعظمها : الاشراك بالله ، والتوجه الى الموتى ، وسؤالهم النصر على الاعداء ، وقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات التى لا يقدر عليهـا الا رب الارض والسموات •• وكذلك التقرب اليهم بالنذور وذبح القربان ، والاستغاثة بهم فى كشف الشدائد ، وجلب الفوائد •• الى غير ذلك من أنواع العبادة التى لا تصلح الا لله • وصرف شىء من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها ، لانه سبحانه وتعالى أغنى الاغنياء عن الشرك ، ولا يقبل من العمل الا ما كان خالصا • كما قال تعالى « فاعبد الله مخلصـا له الدين ، الا لله الدين الخالص • والذين اتخذوا من دونه أوليـاء ، ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون • ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار(١) » • فأخبر سبحانه أنه لا يرضى من الدين الا ما كان خالصا لوجهه ، وأخبر أن المشركين يدعون الملائكة والأنبياء والصالحين ليقربوهم الى الله زلفى ، ويشفعوا لهم عنـده • وأخبـر أنه لا يهـدى من هو كاذب كفار » •

---

(١) سورة الزمر آية : ٢ ، ٣ •

وقال تعالى « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله • قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض ، سبحانه وتعالى عما يشركون»(١) • فاخبر انه من جعل بينه وبين الله وسائط يسألهم الشفاعة ، فقد عبدهم وأشرك به • وذلك أن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه »(٢)• وقال تعالى « فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم »(٣) • وقال تعالى « يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضي له قولا »(٤) • وهو سبحانه وتعالى لا يرضى الا التوحيد ، كما قال تعالى « ولا يشفعون الا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون »(٥) •

« فالشفاعة حق ، ولا تطلب في دار الدنيا الا من الله كما قال تعالى « وأن المساجد لله ، فلا تدعوا مع الله أحدا »(٦) • وقال تعالى « ولا تدع من دون الله ما لاينفعك ولا يضرك •• فان فعلت ، فانك اذا من الظالمين » (٧) •

« فاذا كان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو سيد الشفعاء ، وصاحب المقام المحمود ، وآدم فمن دونه تحت لوائه ــ لا يشفع الا باذن الله •• لا يشفع ابتداء بل يأتي فيخر لله ساجدا ، فيحمده بمحامد يعلمه اياها ، ثم يقال « ارفع رأسك ، وسل •• تعط ، واشفع •• تشفع • ثم يحد له حدا فيدخلهم الجنة فكيف بغيره من الانبياء والاولياء ؟

---

(١) سورة يونس « آية ١٨ » •

(٢) سورة البقرة « آية ٢٥٥ » •

(٣) سورة الروم « آية ٥٧ » •

(٤) سورة طه « آية ١٠٩ » •

(٥) سورة الأنبياء « آية ٢٨ » •

(٦) سورة الجن « آية ١٨ » •

(٧) سورة يونس « آية ١٠٦ » •

وهذا الذى ذكرناه ٠٠ لا يختلف فيه أحد من علماء المسلمين ، بل قد أجمع عليه السلف الصالح من الأصحاب والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم ٠٠ ممن سلك سبيلهم ، ودرج على منهاجهم » ٠

« وأما ما حدث من سؤال الأنبياء والأولياء من الشفاعة بعد موتهم ، وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها ، وأسراجها ، والصلاة عندها ، واتخاذها أعيادا وجعل السدنة والنذور لها .. فكل ذلك من حوادث الأمور التى أخبر بها النبى - صلى الله عليه وسلم - أمته ، وحذر منها ٠٠ كما فى الحديث عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال « لا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمتى بالمشركين ، وحتى تعبد فئات من أمتى الاوثان » ٠

الموالد :

ولكل من الأولياء حفل يقام بمناسبة يوم مولده ، فيقوم الناس بزيارة الضريح لاداء واجب الزيارة ولاكتساب البركة ، وكل الذين يقطنون المنازل المجاورة للضريح يوقدون المصابيح على أبواب دورهم ، ويقضى الناس تلك الليلة فى سماع قصص الرواة والانصات لترتيل القرآن للقيام بالذكر ، وغالبا ما يستمر المولد أسبوعا ! ٠

والذين يقومون بالذكر فى المولد مثل مولد السيد أحمد البدوى فى طنطا ، أو مولد السيد ابراهيم الدسوقى فى دسوق جلهم من « الدراويش » أتباع الطرق المختلفة ٠

وفى مصر كثير من « الدراويش » وبعض هؤلاء يقصرون كل نشاط لهم فى الحياة على الطقوس الدينية ، ويحصلون على رزقهم من الهبات ٠ على أن رجال الطرق يستأجرون أحيانا بعض الافراد للسير فى الزفة تحت الاعلام حتى يظن أن لهم الاتباع الكثيرين ٠

ومن الصعب التعرف على كل طوائف وجماعات الطرق لان هذه لا تذكر لغير المنضمين للطريقة والذين يأخذون « عهدا » على الشيخ ، ويتم اجراء العهد بأن يضع المريد يده فى يد الشيخ مكررا كلمات يلقيها عليه الشيخ واعدا باتباع عقيدته وهدايته وتوجيهه ، وأنه لا ينفصل عنه ولا يتغير عن الطريقة مشهدا الله على هذا ، ثم يقرأ هو والشيخ فاتحة الكتاب وينتهى الحفل بأن يقبل المريد يد الشيخ .

والموالد بدعة أيضا أدخلت على الاسلام ، ابتدعها قوم ضالون لتحقيق مآرب شخصية ، واشغال الناس عن أمور الحياة الجدية . وساعد الدخيل الاجنبى على نشر هذه المعتقدات والخرافات لتسهل له السيطرة على الجماهير ، وتشغلها عن حقوقها القومية .

وفى وصف الجبرتى للمولد الحسينى عام ١٧٩٩ م حينما كانت مصر محتلة من الفرنسيين ما يؤيد هذا القول ، بل فيه شرح لما يحدث فى مثل تلك المناسبات من مساخر ورذائل .

يقول الجبرتى :

« نادى القبطان الفرنساوى الساكن بالمشهد الحسينى على أهل تلك الخطة وما جاورها بفتح الحوانيت والاسواق لأجل مولد الحسين ، وشدد فى ذلك ، وأوعد من أغلق حانوته بتسميره وتغريمه عشرة ريالات فرنسية مكافأة له على ذلك ؛

« وكان السبب فى ذلك ، والأصل فيه ، أن هذا المولد ابتدعه السيد بدوى ابن فتيح مباشر وقف المشهد .. فكان قد اعتراه مرض الحب الافرنجى ، فنذر على نفسه هذا المولد ان شفاه الله تعالى . فحصلت له بعض افاقة ، فابتدأ به ، وأوقد فى المسجد والقبة قناديل ، وبعض شموع ، ورتب فقهاء يقرأون القرآن

بالنهار مدارسة ، وآخرين بالمسجد يقرأون بالليل دلائل الخيرات للجزولي • ثم زاد الحال وانضم اليهم كثير من أهل البدع كجماعة العفيفى ، والسمان ، والعربى ، والعيسوية : فمنهم من يتحلق ويذكر الجلالة ويحرفها ، وينشد له المنشدون القصائد والموالات • ومنهم من يقول أبياتا من بردة المديح للبوصيرى ، ويجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة صلاة على النبى (صلى الله عليه وسلم) •

« وأما العيسوية فهم جماعة من المغاربة ومن دخل فيهم من أهل الاهواء ، ينسبون الى شيخ من أهل المغرب يقال له سيدى محمد بن عيسى • وطريقتهم : أنهم يجلسون قبالة بعضهم البعض صفين ، ويقولون كلاما معوجا بلغتهم بنغم وطريقة مشوا عليها ، وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عليها على قدر النغم ، ضربا شديدا مع ارتفاع أصواتهم • وتقف جماعة أخرى ، قبالة الذين يضربون الدفوف فيضعون أكتافهم فى أكتاف بعض ، لا يخرج واحد عن الآخر ، ويلتوون وينتصبون ويرتفعون وينخفضون ، ويضربون الارض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة ، والقوة الزائدة ، بحيث لا يقوم هذا المقام الا كل من عرف بالقوة • وهذه الحركات والايقاعات على نمط الضرب بالدفوف ، فيقع بالمسجد دوى عظيم ، وضجات من هؤلاء ومن غيرهم من جماعة الفقراء •• كل أحد له طريقة وكيفية تباين الاخرى •

« هذا مع ما ينضم الى ذلك من جمع العوام ، وتحلقهم بالمسجد للحديث والهذيان وكثرة اللغط والحكايات والاضاحيك ، والتلفت الى حسان الغلمان الذين يحضرون للتفرج ، والسعى خلفهم والافتتنان بهم ، ورمى قشور اللب والمسكرات والمأكولات فى المسجد ، وطواف الباعة بالمأكولات على الناس فيه ، وسقاء الماء ، فيصير المسجد بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ، ملتحقا بالاسواق المتهنة •

« ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ••

« ثم زاد الحال على ذلك بقدوم جماعة الاشاير من الحارات البعيدة والقريبة ، وبين أيديهم مناور القناديل والجوامع العظيمة التى تحملها الرجال ، والشموع ، والطبول والزمور . ويتكلمون بكلام محرف ، يظنون أنه ذكر وتوسلات يثابون عليها ، وينسبون من يلومهم أو يعترضهم الى الاعتزال والخروج والزندقة وغالبهم السوقة وأهل الحرف السافلة ، ومن لا يملك قوت ليلته فتجد أحدهم يجتهد بقوة سعيه ، ويبيع متاعه ، أو يستدين الجملة من الدراهم ويصرفها فى وقود القناديل وأجرة الطبالة والزمارة وكل يجتمع عليه ما هو من أمثاله من الحرافيش ثم يقطع ليلته تلك سهران ، ويصبح دائخا كسلان ، ويظن أنه بات يتعبد ويذكر ويتجهد ..

« واستمر هذا المولد أكثر من عشر سنين . ولم يزد الناذر لذلك الا مرضا ومقتا واستجلب خدمة الضريح ما لاح لهم من خساف العقول ، مثل الشمع والدراهم ، واتخذوا ذلك حبالة لاكل أموال الناس بالباطل .

« فلما حصلت هذه الحادثة بمصر ، ترك هذا المولد فى جملة المتروكات ثم حصلت الفتنة التى حصلت ، وسكن الفرنساوى فى خط المشهد الحسينى ، لضبط تلك الجهة ــ وفيه مسايرة ومداهنة ــ فصار يظهر المحبة للمسلمين ويلاطفهم ويدخل بيوت الجيران ، ويقبل شفاعة المتشفعين ، ويجل الفقهاء ، ويعظمهم ويكرمهم وأبطل وقوف عسكره بالسلاح كعادتهم فى غير هذه الجهة . وكذلك منع ما يفعله القلقات من أنواع التشديد على الناس فى مثل القناديل .

« فاطمأن به أهل الخطة ، وتراجعوا للبكور الى الصلاة فى المساجد بعد تخوفهم من العسكر الذى رتب معهم وتركهم التبكير . فلما أنسوا به وعرفوا أخلاقه ، رجعوا الى عادتهم ، ومشوا بالليل أيضا بدون فزع وخوف .

« وترجمانه على مثل طريقته . وهو رجل شريف من أهل حلب ، كان أسيرا بمالطة فاستخلصه الفرنسيس فى جملة من استخلصوهم من أسرى مالطة ، وقدم معهم مصر . فلما أجلس هذا لضبط الخط ، كان ترجمانه يهوديا ، فاحتال بعض

أعيان الجهة ، ورتب هذا الشريف المذكور ، ليكون فيه راحة للنـاس . ففتح له قهوة بالخط بالقرب من دار مخدومه ، وجمع الناس للجلوس فيها ، والسـهر حصة من الليل ، وأمرهم بعدم غلق الحوانيت مقدارا من الليل كعادتهم القديمة . فاستأنسوا بالاجتماعات والتسلى والخـلاعات . وعم ذلك جهـات تلك الخطة ، ووافق ذلك هوى العامة لأن أكثرهم مطبوع على المجون والخـلاعة .. وتلك هى طبيعة الفرنساوية . فصاروا يجتمعون عنده للسمر والحديث ، واللعب والممازحة ويحضر معهم ذلك الضابط ومعه زوجته ، وهى من أولاد البلد المخلوعين أيضا » .

الممارسة الدينية للمريد :

والممارسة الدينية للمريد ــ فيما عدا أداء الصلوات طبقا لتقاليد الطريقة ــ هى القيام « بالذكر » أحيانا وقوفا فى دائرة أو فى صفين طويلين متواجهين بل أحيانا وهم قعود وينشدون معا « لا اله الا الله .. الله .. الله .. » ويكررون الدعـاء مع تحريك رءوسـهم أو أذرعتهم أو بتطويح الجسم كله الى أن يصيبهم الاعيـاء أو الاجهاد الذى يصل بهم الى حالة من الانهيـار ، الا أنهم بالممـارسة يستطيعون القيام بالذكر لفترات طويلة دون توقف .

وغالبا ما يصحب هذه الاناشيد واحد أو أكثر من العازفين على « الناى » أو « الارغول » ، ويستخدم بعض الدراويش طبلة صغيرة أو دفا فى أثناء الذكر كما يقوم البعض برقصات معينة .

ومن الأمور المضحكة المبكية ما يجرى فى طقوس الطريقة السـعدية ، اذ يقوم شيخ الطريقة بالسير بجواده على أجساد أتباعه ويطلق على هذا «الدوسة» .

ويصف عبد الرحمن الوكيل الذكر الصوفى فى كتـابه « هذه الصوفية » بقوله :

« فى أعياد الوثنية التى يسمونها موالد ، وفى معـابد الاضرحة وفى كهوف الدراويش ، وقد اتخموا بطون الطواغيث بالسحت فى تلك الحمات يقيم الصوفية

حانات الرقص ، أو ما يسمونه الذكر ، فيجلس الشيخ بين صفين من دراويش تعشقهم الرذيلة ، ودرويشات نفرت منهن الفضيلة ، ثم يصفق بيديه اللامعتين من دسم الحرام ايذانا ببدء الذكر ، ثم يخرج من شفتيه ومنخريه اسم الله ملحدا في حرفه وفي النطق به !! وغضون جبينه تهمز الحياة وتلمز التقوى ، ومنشد القوم يطربهم بالغزل الداعر في ليلى وسعاد ، أو بالدفوف يدق عليها الشيطان . وبالنايات تصفر فيها الشهوة ، ثم يهب الشيخ ويهب معه المريدون، وثمة من يميلون يمنة ويسرة ، متأودة أعطافهم تأود الراقصات يلمحن فى أيدى الرواد دنان الخمر وفتنة الذهب، وما هي الا لحظة، حتى تجن هذه الأجساد بما فيها من رغبات مكبوتة، مفصحة عن غليلهـا المحترق بالتأوة المخنث ، والتمايل الخليع ، وبالاصـوات المنكرة المبحوحة من عويل الخطيئة والاستغاثة بزينب أو نفيسـة . لا يريدون زينب الطاهرة ، ولا نفيسة العابدة ، وانما يريدون بها شيئا آخر !! فكل يغنى على انثاه !! وهكذا يظلون فى اقتراف هذا الزور الملحد ساعة أو ساعتين ، كل يريد أن يثبت للعيون الرانية فى لهفة ، والزغاريد المغازلة في توجع مشوق ، انه حيوان قوى الجسد !! وبعد هذا يزعمون أنها كانت من ساعات التجلى !! » .

ويعلق على ذلك بقوله : ما هكذا ذكر الرسول ربه ، وما هكذا ذكر الصحابة من بعده ربهم ، ما ذكروه بقيادة واحد منهم ينطق بالاسم مصفقا ، وينطقون به وراءه . ما ذكروه ، ولهم منشد يغازل ليلى !! ما ذكروه وأصواتهم من ضجيجها تفزع الليل ، وتفضحك جنباته ، ما ذكروه جزاء مضغة لحم ، أو نفثة شيشة !! ما ذكروه بالنايات والطبول والدفوف، ولكنهم ذكروه، كما علمهم رسوله . أما عن ذكر الله ذكر الصوفية فهم : مشركو الجاهلية ، وكفرة اليهودية ، والمسيحية » .

والواقع أن ذكر الصوفيـة بدعة يهودية ، فقـد جاء فى المزمور التاسع والأربعين بعد المائة : « ليبتهج بنو صهيون بملكهم ليسبحوا اسـمه برقص ، بدف ، وعود ، ليرنموا ... هللوا ، سبحوا الله فى قدسه ، سبحوه برباب وعود ، سبحوه بدف ورقص ، سبحوه بأوتار ومزمار ، سبحوه بصنوج الهتاف » .

ضرب الزار (١)

الزار أحد مظاهر رواسب الماضي الاجتماعية العقيمة التي لا تزال تسود مجتمعنا برغم أنه يرنو نحو الرقي والرفاهية ، وبرغم ما حققه من أسباب التقدم العلمي والثقافي ، ولا يزال كثير منا يعتقد في هذه الخرافة الزائفة ولا يعلم أنها دخلت مجتمعنا من الخارج •

واحتفالات الزار قريبة الشبه جدا بتلك الاحتفالات الدينية التي تقام في القبائل البدائية لطرد الارواح الشريرة التي سبق أن أشرنا اليها •

وتنتشر بين أولئك الذين يؤمنون بهذه الخرافة أوهام بأن عقد الزار يجرى لتهدئة الارواح التي تعرف بعدة أسماء مثل « الزار » أو « الدستور » أو « الريح الاحمر » كما يعتقدون بأن من تتملكه هذه الارواح تسيطر عليه ويخضع لها ، ويفعل كل ما تأمره به •

ويساعد على استمرار هذه المعتقدات بين الناس ما ينشرة المشعوذون أو من ينتفعون من وراء عقد الزار من شائعات وأساطير خرافية تجعل الجهلة وضعاف النفوس في حالة من البلبلة والاضطراب • ولذا سنحاول قبل أن نحلل هذه الظاهرة سرد بعض القصص حتى يتسنى للقارىء أن يدرك مدى الاثر السيكلوجي الذى قد تتركه هذه القصص في نفوس الكثير من الناس تبعا لاختلاف أمزجتهم •

على أننا نبغي من وراء سرد هذه القصص التي سيتبعها وصف لطقوس احتفالات الزار أن نوضح الاثر الفسيولوجي لهذه الطقوس ، وأن نربط بين هذه الاساليب وتلك المستخدمة في عمليات التحويل الديني والسياسي •

---

(١) كلمة الزار مشتقة من اللغة الأمهرية ومعناها : الروح الشريرة ، وقد بدأ الزار في اثيوبيا ، ومنها الى السودان ، ثم جاء الى مصر من هناك •

ففى احدى القصص يقال : انه كان هناك عامل مسه « الريح الاحمر » لعدة سنوات مما جعله ينفق نقوده على المشعوذين ولكن حالته الصحية ازدادت سوءا ، وأخيرا بدأت حماته تجزع لحالته الصحية وقررت أن تضرب له الزار بأى ثمن ومهما بلغت التكاليف • فاقترضت بعض النقود كما رهنت زوجته حليها واتصلتا « بالشيخة » أو « الكودية » لتقوم بطقوس التهدئة أى « ضرب الزار » • وقد أجرى الحفل واستعاد الرجل صحته بسرعة ، واستطاع أن يقوم بالمزيد من العمل، وأن يستعيد حلى زوجته من المرابى الذى رهنتها عنده ، وأن يسدد لحماته ما هو مدين به لها •

وقرر العامل بعد ذلك أن يرحل الى مدينة أخرى حيث وجد فيهـا عملا افضل ، وتصادف فى اليوم السابق للرحيل أن جاءت الشيخة الى منزله وعرضت أن تحرق بعض البخور الذى يطلبه الـ « دستور » ولكن الرجل رفض هـذا العرض فى عنف غير مهذب وأخذ يسب اسم الـ « دستور » •

وبعد أن ذهب الى مقره الجديد عاوده المرض ثانية ولم يستطع القيام بعمله ، وذات يوم ذهبت الشيخة الى منزل حماته وهى جازعة وقالت : أنهـا فى الليلة السابقة جاءها الـ « دستور » وأخبرها بأن زوج ابنتها سيموت لأنه سبه ورفض أن يحرق « البخور » ، وفى اليوم التالى جاءت برقية تنعى الرجل لاسرته •

والقصة الثانية تختص بفتاة تقدم للبناء بها رجل دفع مهرها واشترى أبوها الآثاث والثياب وأعد كل شىء لاتمام الزواج ، وفى اليوم السابق للزواج بدأت الفتاة التى كان من المعروف أن بها مسا من « الريح الاحمر » تقوم بحركات تدل على الخبل والهوس ، اذ أن الـ « دستور » يعارض هذا الزواج ، وتعرضت الفتاة للاجهاد والتعذيب من السادسة مساء حتى منتصف الليل •

وحار الأبوان فى هذا الموقف ، وحاولا عبثا التفاهم مع « دستور » فالفتاة يجب ألا تتزوج من هذا الرجل والا فانهـا ستموت ، وأخيرا وافق الابوان على ما يطلبه على شريطة أن يتولى هو اخطار الزوج بأنه لا يرضى عن زواج الفتاة منه •

ووافق الـ « دستور » مباشرة على هذا الحل ، وفى الصباح الباكر سمع الابوان طرقا عنيفا على الباب ، وعندما فتح الاب الباب دخل الزوج مذعورا وهو يقول : أنه لا يستطيع أن يتزوج الفتاة لان الـ « دستور » الذى يتملكها عذبه طوال الليل آمرا اياه بأن يمتنع عن زواجها •

كما أن هناك قصة فتاة أخرى أصابها مس وتملكها « دستور » لمدة ثلاث سنوات ، ولم يكن يضايقها كثيرا ، وكانت بين حين وآخر تشترى بعض الثياب الجديدة والحلى التى يطالبها بشرائها وبارتدائها ، وكان أبوها على درجة من الثقافة، فرفض أن يضرب لها الزار • وتصادف أن تقدم للفتاة رجل للزواج منها ، فوعد أمها بأن يهيىء لها فرصة لعقد الزار بعد اتمام الزفاف وذلك لانه بعد أن يتم زواجه سيرحل الى عمل للحكومة فى مكان بعيد •

وبعد أن تمت الاتفاقات الأولية على الزواج أصيبت الفتاة فجاة فى منتصف الشهر العربى اذ كان القمر بدرا بلوثة وراحت تعدو فى فناء المنزل وهى تصرخ كحيوان متوحش ، وأخـذت تلقى بنفسها على الارض وتضرب رأسها بجـدار الحائط •

وكانت الفتاة طويلة القامة نحيلة الجسم ومع هـذا فان أربعة رجال لم يستطيعوا أن يحولوا بينها وبين ثورتها ، واضطروا الى غلق الباب لانها كانت تريد أن تجرى الى الطريق لتلقى بنفسها فى النهر •

وظن بعض الذين اجتمعوا على هذا المشهد أنهم يستطيعون تهدئتها بسكب المياه فوق رأسها فاقتادوها الى صنبور المياه وغمروها من قمة رأسها الى أخمص قدميها بالماء ولكن دون جدوى ، وكانت الفتاة تصرخ فى البداية صرخات عالية غير مفهومه ، ولكنها بعد وقت بدأت تنطق بصوت غريب متهجمة على أمها وعلى أبيها لرفضهما « ضرب الزار » •

وتجمع الجيران الذين جاءوا لرؤية هذه الضجة وحاولوا تهدئة « الريح » وسألوه عما يطلبه فقال على لسان الفتاة : « أريد أن يعرفوا أنني غاضب لانهم رفضوا ضرب الزار لي هذه السنوات الثلاثة » .

وكان الناس قد استطاعوا أن يرغموا الفتـاة على الجلوس ، فجلست على ركام من الاتربة والقـاذورات وكانت كل ثيابها مبتلة بالماء فازدادت قذارة . وكانت تدور برأسها يمنة ويسرة كالحيوان الجريح محاولة انتهاز فرصة لتسرع الى النهر .

وعندما بلغ الاضطراب ذروته جاءت الشيخة التي كانت تسكن في منزل قريب وقد اقبلت في هدوء تسير الهويني متدثرة في ثياب بيض ، وتتحدث بصوت خفيض ، وامسكت بيد الفتاة وهي تقول بصوتها الخافت الهادي :

« لماذا هذا كله ألا تعرفيني أنا « حبوبتك » جدتك ، أن هـذا يضرك ثم ما هذه القذارة يحسن أن تغيري ثيابك وأن ترقدي في فراش نظيف » .

وهزت الفتــاة رأسها يمنة ويسرة في خجل وهي تهمس « معلهش .. معلهش انني آسفة ! » .

وتركت الفتاة الشيخة تقودها الى داخل المنزل ثم رحلت الشيخة الى منزلها بعد أن أبدلت للفتاة ثيابها وأرقدتها في فراشها .

ووافقت الاسرة على ضرب الزار ، وفي الصباح استيقظت الفتاة من نومها مجهـدة وفي وجهها وجسمهـا بعض الكدمات ولكنهـا لم تكن تذكر أي شيء مما مر بها .

* * *

والواقع أن للزار ارتباطا وثيقا بعملية غسيل المخ ، اذ أن الطقوس التي تقام فيه كما سيأتي فيما بعد تصل بالمريض الى درجـة من الانهيار العصبي الكامل بحيث يكون متقبلا لاى ايحاءات توحي به اليه .

على أنه لكي نستطيع أن نوضح الاثر السيكلوجي والفسيولوجي لاحتفالات « ضرب الزار » نرى أنه من المناسب أن نصف طقوس هذه الاحتفالات ٠

والعادة أنه حينما تريد امرأة التأكد من أن بها مسا فانها تذهب الى الشيخة وتعطيها قطعة من ثيابها تكون قد ارتدتها كثيرا « الأثر » فاذا ما جاء الليل رقدت الشيخة بعد أن تضع قطعة الثياب تحت رأسها مع بعض الحلوى والسكر ، وتجيء السيدة المريضة الى الشيخة في المنام لتخبرها عن متاعبها وتكشف عن « الأسياد » وعما يطلبونه منهــا ، وفي الصباح تذهب الشيخة الى منزل المريضة وتحرق البخور ويحل أحد « الأسياد » في المريضة نيابة عن الباقين ، ثم يتحدث بلسان المريضة ليخبر الشيخة بما يريده الأسياد ٠

وعندما تذهب الشيخة الى أي منزل لضرب الزار تصطحب « فتياتها » معها لمعاونتها ، وبرغم أن أجر الشيخة ليس كثيرا ، فان التكاليف الكثيرة للزار ترجع الى أثمان الماشية والطيور التي تذبح في أثنــاء الحفل ، وكذا الى أثمان الحلوى والمشروبات ، ونفقات الطعام للشيخة ولاتباعها ٠

ولما كان « الزار » يقام لمجموعة من الاسياد فان كلا منهم له مطالبه الخاصة من : الثيــاب ، والحلي ، وأغطيــة الوجه والرأس ، والعصي ، وملابس الرجال والنساء ، والحراب وما اليها وكل هذه الاشياء تتكلف الكثير ٠ وقد تستجدي بعض هذه الاشياء أو قد تمنح ، ولكنها لا تعار ولا تقترض ، وكل ما تشتريه امرأة من أجل الزار لا تبيعه ولا يهدى ولا يوهب حتى تموت هذه المرأة ، بل انها تحتفظ بكل الاشياء معزولة عن باقي حاجاتها حتى ترتديهــا بأمر الشيخة ، والمرأة التي تهمل احضار الاشياء اللازمة لاسترضاء « الريح » تعنفها الشيخة ، ثم انها لا تعرف الراحة والهدوء نتيجة لما يقوم به « الأسياد » ٠

* * *

وتبدأ احتفالات ضرب الزار بصورة متماثلة ، فعندما تصل الشيخة الى المنزل يبدأ اعداد الغرفة التي اختيرت للحفل ، فينقل كل ما فيها من أثاث ، ثم تمسح بالماء وتفرش بالحصير أو السجاد من الجدار الى الجدار ٠ وتوضع في جوار

الجدار « مرتبة » أو شلته تجلس عليها المريضة يحيط بها بعض صديقاتها المختارات اللاتى « ذبحن » من قبل وهو اصطلاح يطلق على النساء اللاتى عقد لهن الزار من قبل ٠

وتجلس الشيخة أمام المريضة تحيط بها معاوناتها والضاربات على الآلات الموسيقية ٠ وفى تلك الليلة « تتحنى » المريضة وكأنها فى ليلة زفافها ، وتعطى كل الحاضرات النقود للشيخة داعيات للمريضة بالشفاء ٠

وفى اليوم التالى يبدأ الحفل « بفتح العلبة » وهى عبارة عن صندوق البخور(١) الذى جاءت به الشيخة معها ، فتضع بعضا منه على النار ٠

وتأتى بالآلات الموسيقية التى تستخدم وهى عادة : طبل كبير مستدير ، والطار ، وطشت يقرع عليه بالعصى ٠

ولكل من « الأسياد » ضربات مخصوصة على الطبل ، فتضبط الشيخة النغم والايقاع بادئة بالاسياد الكبار ، ثم تهبط تدريجيا الى الصغار ، ثم تتوسل الى كل من هؤلاء الأسياد لارتداء ثياب خاصة وتدخين السجاير ، وعند التوسل الى كل من هؤلاء الاسياد تقوم النساء اللاتى أجرين عقد الزار من قبل بالرقص وهو عبارة عن اهتزازات وحشية عنيفة مع تحريك أذرعتهن حركات تشنجية ارتجاجية ، أما اللاتى لم يعقدن الزار لانفسهن من قبل فانهن يبقين جالسات ولا يسمح لهن بالرقص ويكتفين بأن يحركن أجسامهن يمنة ويسرة ، كما لا يسمح لهن بالجلوس على المراتب الموضوعة فى جوار الجدار والتى أعدت فقط للصفوة من المختارات اللاتى لهن سابق تجربة فى الزار ٠

وعادة لا يبدأ الرقص الذى تقوم به سيدة واحدة بمفردها الا بعد أن يستمر دق الطبول لوقت طويل ، ويتوقف ذلك على الصورة التى نزل بها « الدستور » عليها أى كيف تملكتها الارواح ٠

---

(١) يتكون بخور الزار من : المصطكاه ، والعود ، والجاولى ، والرحجر ، والكافور الطيار ٠

وقد تبقى بعض النساء جالسات هادئات وسط هذا الهرج الذى يجرى من حولهن ، ولكن أغلبهن يصبن بنوع من الغيبوبة فى أثناء الرقص فتلمع أعينهن وهى ثابتة فى محاجرها نحو اتجاه واحد ، فاذا ما وصلت دقات الطبول الخاصة « بالسيد » الذى ينزل فى أجسادهن الى نهايتها فانه يبدو على وجوههن نظرات حيرة وارتباك وتضع كل منهن يديها على وجهها وكأنها تريد أن تنزع شيئا منه . وقد تتكرر هذه الحركة أكثر من مرة أثناء الرقص ، وأحيانا تحول أعينهن الى أعلى حتى تكون حدقتها البيضاء هى وحدها المرئية الواضحة .

وفى بعض الاحيان عندما تنتهى الغيبوبة التى سببتها دقات الطبول تلقى الشيخة أو مساعدتها الخاصة بعض الرماد المتخلف فى مجمرة البخور على رءوسهن وظهورهن .

والعادة أنه عندما يبدأ دق الطبول فى أول الحفل تحمل مساعدة الشيخة مجمرة البخور فى احدى يديها بينما تحمل صندوق البخور باليد الاخرى ، ثم تنتقل بين النساء فتقدم المجمرة لكل سيدة لتمرر ذراعيها وسط الدخان المتصاعد من المجمرة وتضع المجمرة أسفل ملابسها كما تضع قدميها على التتابع فوق رماد المجمرة وتضع كل من النساء شيئا من النقود فى صندوق البخور .

ويستمر دق الطبول فى كل مرة من عشر الى خمس عشرة دقيقة يتخللها فترات للراحة ، وقد يقدم للمريضة الطعام أثناء فترات الراحة .

ويجب ألا يتخلل حفل الزار أى شجار تشترك فيه المريضة والا انتقم « الدستور » لنفسه من المريضة وربما يقتلها .

ولكل « سيد » من هذه الاسياد « اسم » ، كما أن له دقات الطبول الخاصة به وكذا الثياب التى ترتدى لتمثيل شخصيته .

وفى اليوم الثانى يذبح الحيوان المقدم للضحية ، ويكون قد سبق أن دثر بثوب أبيض وأطلق فى فناء الدار . وتبدأ الشيخة بدق الطبل وترقص النسوة

حول الحيوان الذى يصاب هو نفسه بخبل ويحرك رأسه يمنة ويسرة. ومما يضحك أن تشترط الاسياد صفات خاصة فى الذبيحة كخروف أبيض على رأسه علامة حمراء ، أو ديك أحمر برأس أسود ، وفى نهاية الرقص تمسك الشيخة بطبق تضعه أسفل عنق الحيوان، ثم تمسك النسوة بأرجله، ويقوم الرجل بذبحه، ويجمع الدم ويرش فوق يدى المريضة وقدميها ورأسها ، وبعد أن تلوث المريضة بالدم تستطيع أن تقوم لترقص مع الراقصات عندما تدق الطبول ، كما تستطيع كذلك كل من الصفوة المختارات من النساء أن تضع قطرات من دم الحيوان الذبيح على جباههن ، وفى مقابل هذا فانها تضع فى الطبق الذى به الدم بعض النقود للشيخة.

ويوضع لحم الحيوان فى قدر كبير يغلى على النار ليوم كامل . وفى اليوم الثالث توضع الرأس والأطراف الأربعة فى طبق كبير يحمل الى الغرفة التى بها الزار ، وتقطع الشيخة الرأس وتعطى المريضــة قطعة صغيرة من اللسان والمخ والاذن والرقبة ، وبعد ذلك يقدم اللحم لكل النساء اللاتى حضرن الزار ، ولكن يجب الاحتفاظ بكل قطع العظم لتأخذها الشيخة للاحتفاظ بها لفرصة أخرى بعد انتهاء « ضرب الزار » .

وقرب انتهاء الحفل تستدعى الشيخة كل النساء اللاتى سبق أن عقــدن حفلات للزار ، فيتجمعن قرب جــدار الغرفة مواجهات لبابها وتقف المريضــة فى مقدمتهن ، وعندئذ تقف كل النسوة اللاتى يحضرن الحفل ويصطففن بجوار الجدران ، وتقف واحدة أو اثنتان من مساعدات الشيخة وقد حملتا الطبلة الصغيرة المســطحة والطار ، وهنا تلتمس الشــيخة حضور الشيخ عبد القادر الجيلانى والشيخ محمد لحضور الذكر وهنا تنحنى كل النسوة وكأنهن يقمن بالذكر .

وفى النهاية تعطى المساعدة التى فى المقدمة اشارة بيدها الى المريضة التى تسرع بالخروج من الغرفة وتتبعها كل النسوة الباقيات وهن يقذفن بأيديهن الى اعلى رءوسهن ، وبعد ذلك تعود المريضة الى غرفتها .

وتبقى المريضـة بعد ذلك في منزلها لا تتركه لمـدة سبعة أيام أو عشرة ، ويجب ألا تتعرض لاى انفعـالات محزنة كأن تذهب مثلا الى عزاء ، وان كانت تستطيع أن تحضر زارا آخر أو تحضر حفلة زفاف ٠

على أن اجابة مطالب « الريح » أو « الدستور » من أهم مطالب الاحتفال ، والا فانه حسب قواعد الزار يصبح عديم الفائدة ، بل قد تسوء حالة المريضة لعدم اطاعتها أوامر الريح ٠

* * *

والواقع أن الذين يعتقدون في الزار ، مصابون بأعراض نفسية أو عقليه وتحت تأثير عائلاتهم أو جهلة يؤمنون بالخرافات ٠ فالزار ليس الا وسيلة من الوسائل التى تساعد على التفريغ الانفعالى للمريض ، حيث تسـاعد : أصوات الطبول الصاخبة ، ورقصات المرضى العنيفة ، ورائحة البخور الاخاذة ـ وشكل دم الذبيحة ـ على احداث حالة من الانهيار تعقبها غيبوبة للمريض وهى شبيهة بتلك التى تحدثها الصدمات الكهربية فى علاج مرضى الطب النفسانى ٠

وقد سبق أن بينا أنه بزيادة طول فترات التوتر على الانسان تحدث له فى النهاية حالة من الانهيار العصبى وتوقف كامل لوظائف المخ حيث يصبح الانسان لا يستطيع أن يتحكم فى تفكيره وتزداد قابلية الايحاء عنده ، والطقوس التى تقام فى احتفالات الزار التى سبق أن شرحناها تصل بالمريض فى النهاية الى تلك الحالة ٠

على أن عـلاج المرضى الذين أصـابهم مس عن طريق اشـاعة الفوضى فى الوظائف الطبيعية فى المخ بواسطة الهجوم عليه بأنغام صوتية متوافقة قوية تليها أخرى بتوقيت مختلف معروفة فى جهات كثيرة من العـالم وخاصـة فى القبائل البدائية ٠

وتصف « مادياردين » فى كتـاب Livine Horsemen تفصيليـا الآثار الفسيولوجية والسيكولوجية لدقات الطبول على عقلهـا ، فكانت قد سـافرت

الى جزيرة تاهيتى بمنحة دراسية ولتصوير الرقص التاهيتى فى فيلم سينمائى ، فانتهى بها الامر الى سيطرة « أرزولى » Erzulie اله الحب عليها ، وهى تقول ان الطبول أحدثت فيها تدريجيا حركات بدنية لا يمكن السيطرة عليها ، وفى النهاية شعرت بان شيئا يسيطر عليها ويتحكم فيها . وفى شرحها لهذه الحالة تقول :

« أن جمجمتى كالطبلة ، وفى كل دقة كبيرة أحس شيئا مثل سن العصا يدق ساقى الى الارض ، وملأ الغناء سامعى داخل رأسى .. سميزقنى هذا الصوت لماذا لا يتوقفون ؟ اننى لا أستطيع تحريك ساقى بحرية .. لقد وقعت فى الفخ ولم يعد لى مخرج منه . ان قوة غريبة تسرى فى عروق ساقى كالمد العاتى ولا أستطيع أن أتحملها ، ومن المؤكد أنها ستجعل جلدى ينفجر . واصرخ من أعماق نفسى .. الرحمة فأسمع صدى كلمة Erzulie يتردد من أصواتهم وصراخهم فتميد بى الارض ، وأتهاوى وهذا هو كل شىء » .

ثم تحاول أن تنقل بعض المشاعر والانطباعات الغريبة التى استولت عليها أثناء رقصتها وهى فى غيبوبة حول أعمدة دار اجتماعات طائفة الفودو فتقول :

« اذا كانت الارض سماء فان الهاوية تحت الارض تكون لها سماواتها بالمثل ، ان الفرق بينهما لا يزيد على فرق زمنى وهو الزمن الذى تدور فيه الارض دورتها » .

وحينما أفاقت مادياادرين من غيبوبتها استمتعت بمشاعر البعث الروحى وتصف هذه الحالة بقولها :

« كم تبدو الدنيا صافية عند أول ضوء شامل ، وكم تبدو فى شكلها هى خلوا من أى ظل من ظلال المعانى .. فى هذه اللحظة وكما فعلت أرواح الموتى فعلت أنا بالمثل اذ عدت الى نفسى » .

وقد استخدم اليونانيون القدامى أيضا الرقص الدينى كعلاج شاف للأمراض العصبية ، وكانت طقوسهم المحبوبة تتكون من الرقص بشكل مبالغ فيه على نغمات الزار ودقات الطبول حتى ينهار الراقصون والراقصات من الاعياء .

ويبدو أن الكثيرين ممن يستخدمون نفس هذا الاسلوب لشفاء المرضى الذين مستهم الارواح يحاولون أن يفسروا ذلك مع اضفاء شروح وتفسيرات علمية مختلفة •

فيصف دى براجنو فى كتابه «A Cure for Serpant» علاج فتاة أوروبية فى طرابلس كانت تعانى من الاكتئاب بقوله :

« قيل ان ضفدعة ضخمة أرجلها مخضبة بالحناء تحتوى على الجنى أو الروح الشريرة هى التى منحت شافى الامراض القدرة على الشفاء دون دواء أو بواسطة اثارة التشنجات العضلية فى المرضى • ولقد تطلبت الطريقة أن ترقص الفتاة المنقبضة حتى تصاب بلوثة ، وتستمر فى ذلك لساعات طويلة تصاحبها الدفوف والاناشيد المتوافقة النغم ، واستثارة متزايدة حتى ينساب فيض من الزبد والعرق من جانبى فمها ، وفى النهاية تطلق المريضة صرخة مدوية وتسقط على الارض فتخلع ملابسها ، ويقذف بها فى الماء لعدة مرات •

« وبدت الفتاة فى عريها كما لو كانت قد قدت من العاج ، وهى معلقة بين سواعد الزنجيات اللاتى كن يحملنها الى الحوض ، وعندما شاهدت الفتاة ثانية كانت متدثرة ببطانية وقد تغيرت تماما ، اذ ابتسمت فى وداعة واتجهت بعينيها الى السماء ، وتلقت تهانى صديقاتها وهى باسمة ، ثم صحبها أصدقاؤها الى أقدام الساحر الذى كان يقف صامتا كالتمثال طوال هذه العملية لا يحرك ساكنا الا حينما تحرك ليأخذ الضفدعة المخضبة بالحناء ليضعها فى حجره » •

ويقارن دى براجنو بين هذا الاسلوب وبين استخدام الصدمات الكهربية لاحداث تشنجات وهزات فى المرضى بقوله :

« يبدو أن العلاج باستخدام الصدمات الكهربية لاحداث تشنجات وهزات فى المرضى المصابين بالاكتئاب ينتمى هو الآخر الى هذا النوع من العلاج الفسيولوجى ؛ فالمخ يستثار هنا كهربيا للحد الذى يحدث تشنجا ويستمر هذا التشنج حتى يصير المخ فى حالة توقف كامل ينتهى به الى غيبوبة مؤقتة ؛ ولذا فليس من المستغرب بعد ذلك أن نرى تلك الآثار الهائلة فى علاج مرضى الاكتئاب

بالصدمات الكهربية ثم لا نشبهها بتلك التى تحدث بالاساليب الدينية على الرغم من جميع النظريات الفلسفية والميتافيزيقية المعقدة التى تبررها » ٠

ولكن هناك ظاهرة رئيسية فى مرضى الاكتئاب وهى عدم استجاباتهم بالمرة للجدل العقلى أو العزاء الروحى ؛ لان انفعالات المريض تكون مستمرة سواء كان ما يحيط به سارا أو محزنا ، فتستمر حالته النفسية حتى تزول عنه غمة الكآبة ، وأحيانا تكون النوبات على فترات يفصل بينهما لحظات من السلوك الطبيعى والسلوك الشاذ ، أو قد تكون الحالة مزمنة فتستمر لسنوات ٠

ولذا يرى سارجنت أن استخدام وسيلة فسيولوجية يسيرة للعلاج بالصدمة الكهربية هى الوسيلة الفعالة لعلاج هذه الحالات ٠٠ ويقول فى ذلك :

« ان استخدام وسيلة فسيولوجية عادية عن طريق العلاج بالصدمة الكهربية تشفى كثيرا من المرضى الذين يعجز أكثر رجال الدين قداسة عن عمل أى شىء من أجلهم ، ويتم شفاء هؤلاء المرضى فى فترة ثلاثة أو أربعة أسابيع بدلا من أن يموتوا كما كان يحدث أحيانا نتيجة الانهاك الناجم عن العذاب الدائم من الندم والاحساس بالذنب ٠

وقد لا يحتاج الامر اطلاقا الى علاج نفسى للقضاء على النوبة ، ويبدو العلاج ناجحا فعالا ، ويحدث هذا بالمثل بالنسبة للمصاب بالامراض العقلية تحت تاثير المخدر وهو فاقد الوعى تماما لا يحس شيئا على الرغم من أنه لا يزال من الضرورى أن يمر بنوبة عصبية لكى يصل الى نتيجة طيبة ٠ ومن المهم أيضا أن نلاحظ فى الانواع الاخرى للامراض العصبية كما فى حالة القلق والنورستانيا الحادة أن هذا العلاج القوى قد يصل بالمريض الى حالة أسوأ ، وهذا يقودنا الى أن الانماط المختلفة بسلوك العقل الشاذ كثيرا ما تحتاج الى أساليب مختلفة فى علاجها » ٠

ومن ثم فنحن نرى أن معتقدات الزار كلها أوهام باطلة ، وهى تشبه الى حد كبير تلك الاحتفالات الدينية التى تقام فى المجتمعات البدائية الوثنية ، كما أنها نوع من أساليب غسيل المخ التى تؤثر تاثيرا بالغا فى حياة الانسان الاجتماعية ٠

هذا وبالاضافة الى ما تتكلفه تلك الاحتفالات التى ترهق المريض وأسرته ، فان هذه الطقوس قد تنهك المريض وتزيد حالته سوءا وقد تؤدى بحياته نتيجة الانهيار الذى يحدث له من عنف جو الاحتفال ٠

ولقد أشرنا من قبل الى كيف كان يتساقط المرضى المحمومون فى حلقات الرقص التى كانت تقام فى أوروبا فى القرنين الرابع عشر والسابع عشر للوقاية من مرض الطاعون ، كما سبق أن أشرنا الى أن علاج الامراض العقلية والنفسية يختلف من شخص لآخر تبعا : لدرجة مرضهم ، وأنماط سلوكهم ، وأمزجتهم ٠

ولذا فان الأساليب الطبية هى الوسيلة الوحيدة الناجحة لشفـاء مرضى العقول والامراض النفسية ٠ وان كانت هذه الطقوس التى تجرى فى احتفالات الزار توهم المريض بأنه شفى ، الا أن حقيقة ما يحدث أنه حدث له تفريغ انفعالى مؤقت نتيجة جو الاحتفال ، ولكن سرعان ما يعاوده المرض ثانية بل قد يكون أكثر قسـوة ٠

على أنه من جهة أخرى فان الزار أحد المظاهر التى تدل على تأخر المجتمع : فمعتقداته الخرافية التى يؤمن بها جمع من الناس بعيدة كل البعد عما تنادى به الرسالات السماوية ، وتتنافى كلية مع ما يهديه العلم الحديث للبشرية من وسائل تعمل على اسعاده ، وتبعده عن خرافات الماضى السقيمة ٠

وخلاصة القول أن احتفالات الزار ما هى الا معركة ضد العقل البشرى ، وهجوم على وظائف مخ الانسان ، وهى فى الواقع لا تختلف قط عن وسـائل عمليات غسيل المخ التى تستخدم فى الدين والسياسة ٠

الادمان على المخدرات :

عرف الانسان منذ أقدم الحضارات سر تأثير أنواع كثيرة من المخدرات على عقلية البشر وسلوكهم ، فيقال أن نساء طيبة استخدمن نوعا من العقار كان يبعث فيهن النشوة والسرور ويبعد عنهن الهم والقلق ٠ كما استخدم الحشيش فى

الهند قديما فى الطقوس الدينية ضمن الاناشيد والصلوات التى كانت توجه للآلهة ، وتروى بعض الاساطير الهندية أن الحشيش كان أحب شراب لكبير الآلهة الذى أسبغ شفقته ورحمته على مخلوقاته فبعث بالحشيش الى أهل الارض ليبعد عنهم الهموم والاحزان ، ويمتعهم بمباهج الحياة ، ويقيهم شر القلق والخوف .

والواقع أن السحرة وكهنة المعابد استخدموا عبر التاريخ أنواعا من المخدرات للتأثير بها على معتقدات الناس وغرس أنماط معينة من السلوك تتمشى مع رغباتهم ، وحافظوا على أسرار هذا الصنيع وأخذوا يتوارثونه جيلا بعد جيل حتى شاعت بين جميع الطبقات والامم المتمدينة منها والهمجية .

ولقد سبق أن أشرنا فى الفصل الرابع الى أن طائفة الاسماعيلية استخدمت الحشيش كوسيلة من وسائل التأثير على معتقدات الناس ، كما أوضحنا كيف نجحت هذه الوسيلة فى تحويل كثير من الناس نحو الايمان بعقيدة هذه الطائفة مستغلة الأثر الفسيولوجى الذى كان يحدثه الحشيش فى أمخاخهم ، كما رأينا كيف نجحت هذه الوسيلة فى تحويل كثير من الفتيان النجباء الى قتلة سفاكين يحركون كآلة لتحقيق مآرب سياسية .

وهذه الوسيلة لا تختلف كثيرا عما قامت به أسرة حميد الدين فى اليمن بتشجيع زراعة القات ونشر استخدامه بين الناس لتخمد فيهم جذوة التحرر ، ولتهدر انسانيتهم بغية تحقيق السيطرة السياسية .

ومن ثم فان المخدرات تعتبر من الاسلحة الفتاكة التى توجه ضد العقل البشرى لشل ارادته الحرة ، والتأثير على معتقداته فهى تنقض على مخ الانسان وتشل وظائفه فيصبح الانسان أكثر تقبلا لأى ايحاءات جديدة تغرس فيه (١) .

---

(١) يوجد فارق بين العادة والادمان ، فالادمان يعنى حالة من الاعتماد الجسمى والنفسى على المخدر ، وفى حالة توقف المخدر تحدث اعراض جسمية مؤلمة ، كذلك زيادة الجرعة تدريجيا مع تدهور بطىء فى السلوك والشخصية ، اما العادة فهى اخذ نفس الجرعة دون ظهور اى اعراض عند توقف المخدر .

ان استخدام المخدرات والادمان عليها لا يختلف كثيرا عن تلك الاساليب التى تستخدم فى القضاء على أنماط سلوك الانسان التى تعودها والايحاء اليه بمعتقدات جديدة ، وبمعنى أوسع نوع من عمليات غسيل المخ .

على انه مما يزيد خطورة هذه المشكلة فى مجتمعنا أن الاستعمار وربيبته اسرائيل قد فطنا الى الآثار الفتاكة التى تسببها المخدرات فعملا على ترويجها ، وساعدا على تهريبها داخل البلاد لتقضى على معنويات الشعب ، وتبث فيه عوامل الانحلال الخلقى والاجتماعى ، وتغرس فيه الضعف والاستسلام ، وتلهيه عن الجد والانتاج .

فلقد شجع الانجليز أيام احتلالهم لمصر زراعة الخشخاش . وكل منا يذكر « أبو النوم » الذى كانت الامهات تعطيه لأطفالها حينما يبكون فلا يلبث الطفل أن يسكت بل يضحك ثم ينام ، ولم تكن كل أم تدرى أنها تعطى ولدها الافيون .

وعاش الفلاحون فى ظل الرجعيـة والاقطاع والاستعمار يعـانون القلق واليأس ، فلجأوا الى الحشيش يجدون فيه مفرا من الواقع الاليم ، ووجد الاستعمار والاقطاع الفرصة فى الحشيش لتخدير الفلاح المسكين وابعاده عن التفكير فى حقوقه الشخصية والقومية . فتعاونا على نشره بين الناس .

وحينما منعت مصر زراعة المخدرات بعد ذلك . ظهرت طبقة من المولين الاقطاعيين الذين تجرى فى أيديهم النقود بلا حساب ، ولا تحمل ضمائرهم أى وازع وطنى ، فتعاونت مع أعداء الوطن على تهريبها ونشرها داخل أرض الوطن .

ولذا فان دراسة هذه المشكلة تعتبر من أهم الموضوعات الحيوية التى تجذب انتباه كل مجتمع متقدم حتى يستطيع أن يقى أبناءه آفة هذه السموم الفتاكة .

* * *

وفى هذا الجزء من الدراسة لن نتعرض لمسائل كثيرة من هذه المشـكلة وغيرها مثل النواحى التاريخية أو التشريعية أو آثارها العلاجية وغيرها أو طرق المكافحة اذ أنها ليست موضوع دراستنا ، كما أن الكثيرين قد عالجوها فى كتب

كثيرة • ولكن ما يهمنا فى الواقع أن نتبين الآثار الفسيولوجية التى تحدثها المخدارات فى مخ الانسان ، وكذا الآثار المترتبة على ذلك من ناحية التغيير فى أنماط السلوك ، والاستعداد لتقبل أى ايحاءات جديدة قد تفرض عليه •

والحق أن تأثير المخدرات على الانسان يمكن أن نشبهه بتلك المثيرات التى تنقض على المخ فتحدث اضطرابا فى وظائفه ، وكلما ازدادت شدة الاستثارة بزيادة الكمية التى يتعاطاها الانسان فان المخ يصل الى تلك الدرجة من « التوقف الكامل » التى سبق أن أشرنا اليها ، ويصبح الفرد فى تلك الحالة سهل التقبل لأى ايحاءات تفرض عليه •

وعلى الرغم من أن الآثار العرضية التى تتركها أنواع المخدرات فى نفسية من يتعاطاها تختلف حسب نوع المخدر ، وطبيعة الفرد ، فان جميعها اذا ما أدمن عليها الفرد فانها تصل به فى النهاية الى حالة من الانهيار الكامل وتقف وظائف المخ •

وقبل أن نحاول الربط بين تلك الآثار الفسيولوجية وميكانيكية التحول المذهبى سوف نحاول أن نعطى للقارىء فكرة مبسطة عن التغيير الفسيولوجى الذى تحدثه بعض المخدرات التى تعرف فى مجتمعنا فى جسم الانسان •

فتعاطى الحشيش سواء بالتدخين أو عن طريق الفم يؤثر تأثيرا مباشرا على مخ الانسان ، اذ ينقض على الجهاز العصبى المركزى ويحدث اضطرابا فى وظائف المخ وخاصة تلك المتعلقة بالاحساس والعاطفة •

وقد سبق أن بينا أن الناس تختلف فى تكوينها الجسمانى وأمزجتها المختلفة ، ولذا فان تأثير الحشيش يختلف اختلافا كبيرا باختلاف حالة الشخص الجسمانية والنفسية • فبينما يشعر بعض الأشخاص باحساسات سطحية محدودة عند تعاطيه نرى الآخرين ينتابهم مجموعة من الأعراض الانفعالية والنفسية يمكن أن نلخص أهمها فى الآتى :

- النشوة التى تتفاوت بين الغم والفرح وذلك تبعا لطبيعة الشخص •
- تخدير أعصاب الحس والحركة التى تتطور بازدياد الجرعة الى نوبات تشنجية وتقلصات عضلية •
- ازدياد سرعة النبض ، وانخفاض ضغط الدم قليلا ، وانتهاء النشوة عادة بالنعاس والراحة •
- ارهاف الاحساس مما قد يجعل الفرد يتوهم تضخم المحسوسات •
- نقصان السكر فى الدم ، وذرف الدموع نتيجة تخدير مراكز الجهاز العصبى العليـا •

وبازدياد شدة هذه الأعراض نتيجة استمرار التعاطى ، فان المخ يتعرض لتوترات تفـوق قدرته على التحمل ، وينشأ عن ذلك مؤقتـا حالة توقف كامل بحيث يصبح الانسان مستعدا لتقبل أى ايحاءات •

واذا ما وصل متعاطى الحشيش الى تلك الدرجة ، فانه يفقد قدرته على تمييز الأشخاص أو الأشياء القريبة ، وكذا على تقدير الزمن والمسافات ، وتبدأ رغباته التى سبق أن كبتت فى الظهور ، وهذه الأعراض هامة جدا لأن أثرها الفسيولوجى له علاقة وثيقة بعمليات التحول الدينى والسياسى ، اذ تجعل الانسان وهو فى هذه الحالة ينقض سلوكه السابق ولو مؤقتا ، ويتقبل انماطا جديدة من السلوك •

ونظرا لأن المتعاطى يتوقع الشعور بعـدم المبالاة ، فان هذا يفسر أنواع السلوك غير العادية التى يسلكها الفرد أثناء تعاطيه الحشيش ، ويزداد اضطراب وظائف المخ كلما ازدادت الكمية المتعاطاة ، وينتج عن ذلك أن يزداد التشويش العقلى للفرد تدريجيا ، ويميل الى الهدوء ، ويشعر شعورا سـارا بالاسترخاء العقلى والجسمانى • ويرغب فى جو هادىء يخلو من أى ازعاج •

كما تستولى عليه حالة من الركود والهدوء التام ، فيترك لأفكاره العنان فتتلاحق الأحلام التى لا تنتهى ، وتدور الرؤيا حول المسائل والمغامرات الجنسية،

وقد يتغير شكل المرئيات فى ناظريه فيتخيلها أجمل وأكثر بهاء مما هى عليه • ويعقب هـذا نوم عميق يتراوح بين سـاعة وست ساعات أو أكثر ، وحينمـا يستيقظ تتلاشى كل المشاعر التى كان يحسها •

ومهما يكن من شيء فان الادمان على الحشيش يؤثر تأثيرا بالغا على سلوك الانسان ، وغالبا ما يؤدى به الى حالة من حالات الجنون ، ولقد قسم الدكتور وارتوك جنون الحشيش عدة أقسام أهمها الآتى :

- الهذيان المصحوب بأوهام •

- انسطال وقتى وأعراضه الترنح كما هو الحال فى الكحول ، وأحـلام لطيفة كما فى حالة الأفيون •

- الجنون الحاد ويصحبه الشعور بالعظمة •

- العته المزمن ويصحبه فقدان الذاكرة وسوء الخلق ، وفى هذه الحـالة يكون المدمن قد حدث له انهيار عقلى نتيجة تلف ألياف المخ •

* * *

أما الآثار الفسيولوجية التى يسببها الادمان على الأفيون فهى النحـافة والضعف الجسمانى الظاهر والاضمحلال ، كما يفقد المدمن ارادته ويصبح سريع التأثر قريب الغضب ، شديد الحساسية للألم ، وتتدهور أعصابه حتى أنه غالبا ما يصل فى النهاية الى مرحلة الانتحار •

واذا حاول المدمن الاقلاع عن تعاطى الأفيـون فانه يصاب بضعف وآلام شديدة فى كل أعضائه ، وبرودة الأطراف مما يجعله يحاول أن يسعى الى جرعة أخرى من الأفيون •

ويمكن القول أن الأثر المترتب على ادمان الأفيون هو اضعاف الشعور بالقيم، وهذا النكوص الأخلاقى والاجتماعى يعزى الى الأثر المباشر للمخدر ، اذ يصبح المدمن بعيدا كلية عن الحقيقة ، حاد الطبع ، كما تضطرب وظائف المخ وتقل قدرته العقلية ، ويصبح المدمن منطويا منعزلا عزوفا عن الاختلاط ، غير مستقر انفعاليا .

وغالبا ما نجد المدمن يلجأ لأى وسيلة للحصول على المخدر لتفادى الآلام الشديدة ، وهنا يكمن وجه الخطورة ، لأنه يكون فى هذه الحالة مستعدا لأن يسلك أى مسلك اجرامى ، أو يتقبل أى ايحاءات تفرض عليه •

ونود أن نشير هنا الى قصة الأفيون بالصين التى لا تزال عالقة فى أذهان هذا الجيل ، فقد استطاع الاستعمار أن يسيطر على أبناء الصين بنشر الأفيون بين ربوع البلاد ، وكلنا نعرف كيف كانت حالة الصـــين فى تلك الأيام من تأخر وتدهور وانحلال • ولكن ما أن قامت الثورة الشيوعية بالصين حتى استطاعت أن تقضى على هذا الوباء الفتاك ، فقد أيقنت مبكرا بأن هذه السموم كانت معولا من معاول الهدم الفكرى والانتاجى • أن الفرق بين الصين قبل الثورة وبعدها يؤكد هذا الرأى ، وان تجربة الصين فى حرب الافيـون لهى فى الواقع تجربة ناجحة جديرة بالدراسة والبحث •

* * *

أما المورفين وهو من مشتقات الأفيون ، فان مدمنيه غالبا من الاشخاص الذين تتملكهم الرغبة فى حب الظهور ، والذين يميلون الى جذب انتباه الآخرين - وهذا الطراز مهيـأ للأمراض الهستيريـة ، فغالبـا ما يكونون غير مستقرين ، ولا يستطيعون التكيف مع البيئة ، فاذا كانوا من أصحاب المزاج «الشديد الاثارة» فانهم يعمدون الى موازنة نقص كفايتهم بالبحث عن مثـــير فى المورفين ، وهم يجدون فى الادمان على المورفين تغييرا للجو والبيئة المحيطين بهم فيما يصاحبهم من أحلام اليقظة والمشاعر السارة •

أما اذا كان المدمن من أصحاب الأمزجة الاخرى التى سبق أن أشرنا اليها فى الفصل الثانى ؛ فان الادمان فى هذه الحالة قد يكون معبرا عن الهرب من المشكلة التى غالبا ما تكمن فى عدم التكافؤ الجنسى الصحيح ، أو الشذوذ الجنسى •

والهيروين أحد مستحضرات المورفين التى تؤخذ بطريق الحقن تحت الجلد ، ألا أن تأثيره أكثر شدة من المورفين ، فهو يؤثر تأثيرا بالغا على المـــخ ومجموع الجهاز العصبى ، ويؤدى الادمان عليه الى اضمحلال جسمانى وعقلى كبـير ، بل يسبب خللا وظيفيا فى جميع أعضاء الجسم •

ومن أهم هذه الآثار الضارة اضطراب وظائف الكبد ، اذ يصـــاب بتلف الخلايا وتحللها ، كما أن للهيروين تأثيرا مهيجا على عضلات الامعاء ، ممـا ينتج عنه الامساك المستعصى ، وغالبا ما يحتقن الطحال ، ويقل البول ، ويصاب القلب بالتشحيم والتضخم •

ومدمنو الهيروين أكثر المرضى قابلية للأمراض الصدرية، واختلال التوازن الطبيعى لافرازات الغدد التى يكون لها تأثير كبير على تغيير شخصية المدمن •

* * *

ومتعاطى الكوكايين يحدث له نوع من الاستثارة التى تحدث اضطرابا فى وظائف مخه ، فيتوهم أنه يحس الارتياح ، ويتخيل بعض التصورات السعيدة ، ولكن يعقب ذلك نتيجة ازدياد الجرعة أن يزداد اضطراب وظائف المـخ فيحس تأثيرات عكسية ، اذ يشعر باسترخاء واكتئاب وخمول • ويصحب ذلك اتساع الحدقة مع رجفة يسيرة ، فاذا ما ازدادت الكمية فانها قد تصل بمخ الانسان الى أن يتوقف توقفا كاملا ويحدث له حالة من الانهيار التام •

وفى حالة الادمان المزمن يظهر على المدمن كثير من التغييرات التى تحدث حينما يتعرض المـخ لتوترات وصراعات تزيد على قدرته ، اذ تضعف الذاكرة ، وتنتاب المدمن نوبات من القلق غالبا ما تؤدى به الى حالة من حالات النورستانيا ، ويكون فى شبه حلم مصحوب بتخيلات أقرب الى الرسوم السينمائية المتحركة •

ويستعمل الكوكايين عادة للاستثارة الجنسية ، فيحدث فى الرجال زيادة مؤقتة فى القوة الحيوية مع ضعف فى الانتصاب ، أما فى النساء فهو يستثيرهن بدنيا وذهنيا •

ويلجأ متعاطوه الى اتباع وسائل جنسية شاذة حتى يحصلوا على الاشباع الكافى ، وحينما يتعاطى المدمنون الكوكايين يعملون على استثارة بعضهم البعض برواية قصص مختلقة عن الخرافات ، أو الممارسة الجنسية ، ولا سيما الشذوذ الجنسى •

وغالبا ما يجتذب الكوكايين الاشخاص ذوى السمعة السيئة مثل : رؤساء العصابات ، والمجرمين ، والعاهرات ، ونسبة كبيرة من الذين يتعاطونه من الشباب فى سن بين السادسة عشرة والثانية والعشرين ، وهؤلاء يسهل التغرير بهم ، ويدفعهم الفضول وحب المغامرة والدافع الجنسى فى مرحلة المراهقة المتأخرة الى الانضمام الى مثل هذه الجماعات •

ويستغل رؤساء العصابات الأثر الفسيولوجى الذى يسببه الكوكايين للسيطرة على أفراد العصابة لتحقيق أساليبهم الاجرامية ، اذ يقومون باغراء الأفراد التابعين لهم بالتعود على الكوكايين حتى يصل الى درجة الادمان التى تجعله فى النهاية آلة تتحرك فى اى اتجاه يريده رئيس العصابة •

ويمكننا الآن أن نقول : أن الفرد فى حالة الادمان على المخدرات لا تنمو فيه فقط الرغبة فى تعاطى المخدر ، بل يتولد فيه نوع من الاشتهاء الجنونى له نتيجة التغييرات الفسيولوجية التى يحدثها المخدر فى جسم المدمن لاستخدامه لمدة طويلة ، اذ أن المدمن يحاول دائما أن يزيد تدريجيا من الكمية المتعاطاة حتى يصل على الاشباع الكامل •

واذا منع المدمن فجأة من تعاطى المخدر ، فان ذلك يؤدى الى أعراض فسيولوجية ملحوظة مثل : القلق ، أو الاكتئاب ، أو الانفعال ، ويتوقف ذلك على طبيعة المدمن •

وقد اختلف الباحثون فى تفسير ظهور الأعراض المرضية على المدمن اذا حرم من المخدر ، فبعضهم يرى أن استمرار تعاطى المخدر يكون فى الجسم مادة لها وظيفتها الخاصة لتعادل المادة المخدرة التى يتناولها المدمن ، وهذه المادة سامة جدا فاذا لم يتعاط المدمن جرعة من المخدر ظهر أثر هذه المادة السامة فى شكل أعراض الحرمان التى تزول بتعاطى الجرعة • ولكن البعض يعارض هذا الرأى اذ يرى أن أعراض الحرمان ترجع الى أن الخلايا العصبية بعد التخدير الطويل تصبح حساسة جدا عند يقظتها ثانية ، ولهذا تكون الجرعة التالية ضرورية لكى تهدأ هذه الحالة ، كما أن هناك رأيا ثالثا وهو احتمال حدوث تغييرات من النوع الانحلالى فى خلايا أعصاب المخ تنتج تأثيرات عقلية وجسمانية خاصة •

نتائج هامة

ان جعل مخ الشخص العادى ينهار تحت وطأة التوترات التى تفوق حد التحمل ، ومحو الأفكار القديمة ، والأنماط السلوكية ، وزرع أفكار جديدة فى مخ الانسان يعتبر أمرا واحدا ، ولكن الأمر المختلف عليه هو جعل هذه الآراء الجديدة تتخذ لها جذورا ثابتة راسخة ٠

فكل مدرب من مدربى الحيوانات ، وكل مدرس من مدرسى المدارس يعرف هذا جيدا ، فهو يعرف كيف ينفر من آثار اجازة صيفية طويلة على تلاميذه النجباء ، الا أنه من الجائز أن ينسى : رجال الدين ، أو رجال المنظمات السياسية هذه الأمور ٠

ولقد كان من بين المكتشفات البارزة التى وصل اليها فى السنوات الأخيرة علماء علم النفس وطب الأمراض العقلية أنه من الأسهل تغيير اتجاهات مجموعة صغيرة من الناس وميولهم ـ ما لم تكن هذه الاتجاهات والميول على درجة كبيرة من الشذوذ ـ بأكثر مما يتيسر تغيير اتجاهات شخص واحد وميوله ٠

ولقد استطاع عالم النفس الاجتماعى الامريكى ثراشر Thrasher فى دراسته لعصابات المنحرفين أن يوضح بأن مثل هذه العصابات تعطى : للفتى المراهق ، أو للفتاة المراهقة ـ ارتباطا اجتماعيا هاما ، كما أنها تمنح كلا منهما وضعا معينا يتردد فى النزول عنه ، ولهذا فان أفضل طريقة للتعامل معهم ليست بأن يعالج كل فرد منهم وحده على حدة ، بل جعل رؤساء هذه العصابات وقادتها يحولون انتباههم الى وسائل أكثر تقبلا اجتماعيا لارضاء هذه الاحتياجات والمطالب ، وعندما يتم تحول الرؤساء يتحول معهم كل فرد آخر •

وسبب هذا •• وسبب الكثير من الأمثلة الأخرى لعمليات تغيير الميول والاتجاهات أن اتجاهات الشخص ليست دائما شيئا مغلقا فى داخله ، ولا هى كذلك بسجايا وصفات من بناء شخصيته ، بل أنها الأداء المظهرى لدوره داخل جماعة معينة او سلسلة من الجماعات •

ولما كانت احدى وظائف العقل هى أن يمكن التركيب العضوى من أن يتكيف مع بيئة متغيرة فاننا لسنا فى حاجة لأن نفهم أن الناس الطبيعيين الأكثر استقرارا ليسوا هم فقط الأكثر قابلية لاستيعاب الاتجاهات السارية فى الوسط الاجتماعى الذى يعيشون فيه ، بل انهم كذلك أكثر قابلية لأن يهجروا هذه الميول والاتجاهات الى غيرها اذا ما تغير الوسط الاجتماعى الذى يحيط بهم •

* * *

لقد سبق أن شرحنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب العوامل الرئيسية التى تؤثر على سلوك الانسان ، وذكرنا أن هناك كثيرا من العوامل الخارجية

والداخلية التى تلعب دورا أساسيا فى تشكيل الانسان وتفكيره • وقد يكون من المناسب هنا أن نشـير الى بعض العوامل الخارجية التى كان لها أثرا كبيرا على فكر الانسان •

لقـد كانت الأحوال الاقتصـادية فى بريطانيـا فى القرن التاسع عشر هى التى اجتذبت انتبـاه داروين الى فكرة « أن البقـاء للأصلح » فى المجـال البيولوجى ، كما أن الأحوال الاجتماعية فى هذا العصر الذى نعيش فيـه قد جعلتنـا ندرك أهميـة العـوامل الاجتمـاعية والثقـافية فى « صب قالب » الانسـان •

لقد جعلت الثـورة الصناعية الفـلاسفة وعلماء علم النفس يفكرون فى الانسـان على أنه الى حد بعيـد « تكوين مصنوع من قبـل » يخرج جاهزا من « الرحم » ، وانهم بذلك قد قللوا من الاهميـة التى للطبيعـة الاجتمـاعية ، ونظر هؤلاء العلمـاء الى « الرجل » على أنه جزيرة بيولوجية ، فكانت فـكرة « أن الانسان صنع نفسه » أسطورة تتوافق مع ذلك العصر •

وكانت هذه أسـطورة كاذبة زائفة ذلك لأن كثيرا من النـاس فضـلا عن الطبيعة التى يرثهـا كل منهم فان هنـاك كثـيرا من العوامل التى تعتـبر مسئولة عن بناء شخصياتهم •

* * *

وقد يبدو لنـا الآن أن نتسـائل : الى أى مدى يمكننا أن نحـافظ على شخصيتنا متماسكة بالرغم من أى مؤثرات تفرض على عقولنا ، وتحت ظروف قاسية مثل التى شرحت فى فصول هذا الكتاب ؟

لقد أوضحت تجربة التوعية والتثقيف السياسى فى كوريا أنه ما دامت معنويات الجماعة قوية متماسكة ؛ فان كل صور الضغط ليست بذات أثر على أعضائها • ولهذا كان أحد الجهود الرئيسية التى قام بها الصينيون هو تفتيت هـذا التماسك الجمـاعى باثارة المشـكلات داخل الجمـاعات ، وتحريض أحد الأفراد ضد الآخر ، وبذلك تنقسم الجماعة الى شـيع •

ان معنويات الجماعة نوع من الدرع الواقى يحمى الفرد ضد الضـغوط الخارجية بما فى هذا ضغوط كل وسائل الاعلام الجماهيرية •

وبالطبع يتوافر لكل شخص نوع من المعنويات الشخصية حتى ولو كان يعيش فى نطاق ذاتيته وحدها ، وهو يستمد هـذا من حسـه القوى بذاتيته الشخصية ، وبالاتصالات البيئية التى تحفظ له هذه الذاتية ، بل توجدها الى حد بعيـد ، ولهذا فان الغرض الأول لتكنيك أى عملية لغسيل المـخ هو ازالة كلا الحسـين بوسـائل مختلفة مثـل : العـزل الاجتمـاعى ، أو التعـذيب ، والاذلال ، وغيرها على نحو ما سبق شرحه •

وحتى مع هذا فان الشخص العادى الطبيعى ولو تغير نتيجة لمـا تعرض له من تجربة فانه لا يلبث أن يعـود الى تفكيره الأصـلى ثانية عندما يعـاد الى جماعته الاولى التى كان فيها من قبل •

والشىء البارز فى غسيل المخ السـياسى هو عدم التـأثير الايديولوجى النسبى عندما يترك الشخص الجو الذى حدث فيه هذا التثقيف •

ولا تختلف الصـــورة بالنسبة للمتحولين الى أى عقيدة سياسية ، أو الى أى مذهب دينى ؛ ذلك لأنه ما لم يتطابق المعتقد أو المذهب مع الاتجـاهات الشخصية الأخرى السـائدة ، فان المعتقـد لا يلبث أن يغفل ويضيع تأثيره فور الانقطـاع عن الاتصـــال بالمبشر ، أو الداعيــة الى العقيــدة أو المــذهب الجـــديد •

* * *

وقد يـكون من الطريف فى هـذا المجـال أن ندرس الوسـائل التى اســتخدمها جون ويزل ليمســك فى قبضته أولئك الذين هداهم الى عقيدته التى يبشر بهـا ، ذلك لأن هــذه الوســائل ولو أنهـا تستهدف غاية أخرى مختلفة الا أنهـا تشبه بدرجة تثـير الدهشـــة الوسـائل التى تستخدم اليوم فى عملية غسيل المخ •

لقد كانت اجتماعات طائفة ويزلى تحتاج الى اهتمـــام خاص ، فبعـد أن حول دين عدد كبـير من أهـالى انجلتـرا باســـتعمال وسـيلة اثارة الخوف والألوان المختلفـة من التبشير ، قوى مكاســبه بوسـائل للمتابعة على جانب رفيع من الـكفاية والتى اســتعملت بأسرع ما يمكن بعـد التحـول الدينى المفاجىء أو بعـد أن يحـدث التطهير ، ولقـد قسم ويزلى الذين تحـولوا الى جمـاعات لا يزيد عدد الواحدة منها على اثنى عشر شخصـا ، وكانوا يجتمعون اسبوعيا تحت رئاسـة رئيس معين ، فكانوا يناقشون حينئـذ المشكلات التى تتصل فى طبيعتها اتصالا وثيقا بتحولهم الدينى ، وبطريقة حياتهم المستقبلة وبشكل سرى متفق عليه •

وكان المطلوب أصلا من رئيس الجماعة زيارة جميع الأعضاء المنتمين الى جماعته مرة واحدة على الأقل فى الأسبوع بقصد جمع اشتراكات أسبوعية عادية ، وهذه الوسيلة من وسائل دخول منازلهم سرعان ما جعلته يقرر ما اذا كان التحول الدينى صادقا أم لا ، وقد اختبر بعد ذلك نتائجه فى الاجتماعات الاسبوعية التى كان يعقدها لطائفته فيطرد الأعضاء الذين يثبت عدم توبتهم توبة صادقة مخلصة ، أو الذين يسيرون فى حياتهم على نهج جديد من الطائفة ، وكذلك كان يطردهم من مجتمع أصحاب الطريقة بصفة عامة ، ومن العسير أن نقلل من شأن هذه الاجتماعات الطائفية فى حماية فلسفة أنصار الطريقة فى أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ولقد أراد ويزلى أن يتخلص من كل شخص يشك فى وجهات نظره الخاصة فيما يتعلق بالطريق الصحيح نحو الخلاص .

وفى سنة ١٧٦٣ م كتب بالمثل هافر فورد ويست يقول :

« كنت أكثر اقتناعا من اى وقت مضى بأن الوعظ الدينى على نهج الرسل بدون لم شمل هؤلاء الذين استيقظوا ، وأن تدريبهم على السير فى سبيل الله ما هو الا تنشئة لأطفال من أجل السفاح أو الشيطان » .

وكانت الجماعة تجتمع مرة كل سنة ، وكان يتوقع من الاعضاء فى هذه الجماعات أن يتحدثوا عن تجاربهم ، وما مر بهم فى حياتهم حتى الاعتراف بأخص الأشياء الشخصية .

ومن الواضح أن الاعتراف يوجد تأثيرا ملزما رابطا بين أى جماعة من الناس لأن كلا منهم يشعر بأنه مرتبط بالآخر ليس فقط نتيجة لتجربة

« المشــاركة » بل أيضا نتيجة أن كلا منهم يحس شيئا نحو زميله تبعــا لمــا سمعه من اعترافه عن شئونه الخاصـــة •

وفى نهاية كل ثلاثة شــهور يتلقى كل عضــو بطاقة عضــويته ، وقد توضح فيها أن يحضر الصــلوات الشهرية • وكان ويزلى يتشـــدد فى ضرورة حضــور هــذه الصــلوات المقــدسة بانتظــام ، وكانت قوائم أســماء الذين يحضرون كل صــلاة تحفظ بعنــاية ، ولا يعتبر عضــوا فى الجمــاعة من لا يرد اســمه أو اســمها باستمرار فى هذه القوائم ، وكان التغيب لثــلاث مرات أو أربع كافيا لاعتبار الفرد غير صالح للعضوية •

وقد وجه أكبر الاهتمام الى « ضــم » الشبان والأطفال فى سن مبكرة ، ولما كان ويزلى متأثرا الى حد بعيد بمشروعات روبرت رايكس Robert Raikes الخاصة بمدارس الأحد فانه رأى من الناحية العملية أن يكون فى كل كنيســة مدرسة الأحد الخاصة بهــا ، كما أنه أحيا فكرة « أعياد الحب Love Feasts » التى عرفتهــا الكنيسة القديمــة والتى كانت عبارة عن اجتمــاعات لأتبــاع الــكنيسة حيث يقصــون فيهــا على بعضــهم بعضــا تجــاربهم فى الحيــاة ، ويعمقون بهــا من شعور الاخوة بين أفراد المجتمع ، وكان من المتوقع أن يزور رئيس كل جمــاعة التى تتكون من اثنى عشر عضوا أعضاء جمــاعته مرة كل أسبوع لا ليجمع منهم اشــتراكاتهم فى الجماعة ، وانمــا ليتحقق ما اذا كان تحــولهم الى العقيــدة مخلصــا أم لا ، وكان أولئــك الذين لا يتحقق من أن توبتهم مخلصــة يستبعدون فورا من الجمــاعة ومن مجتمع الكنيســة كله ، وقد كتب ويزلى عن هذا :

« لقد جمعت معا كل رؤساء الجماعات وابديت لهم رغبتى أن يقوم كل منهم بالتحقق من سلوك أولئك الذين نراهم أسبوعيا ، وقد فعلوا هذا ، وبذلك أمكن الكشف عن أفراد لا يسيرون فى الحياة على الطريق السوى ، وقد أمكن فصل بعضهم واستبعادهم ، وقد رأى البعض هذا الابعاد شيئا خطيرا ، وخافوا مغبته ، وعادوا الى الله مؤمنين ، وقد تم اجراء هذا فى لندن بمجرد أن كان مستطاعا وفى أماكن أخرى غيرها ، وقد امكن الكشف عن الشريرين وأبعدوا ، وهم لو تخلصوا من خطاياهم فاننا نستقبلهم بسرور ولكن اذا استمروا فى غيهم وأصروا على خطاياهم فانهم قد عرفوا بصراحة أنهم لم يعودوا منا ، أما الباقون فقد أسفوا لهم وقاموا بالصلاة من اجلهم ، ولكنهم مع هذا ابتهجوا وهللوا لأن الفضيحة قد استبعدت عن مجتمعنا » .

* * *

ويلاحظ سارجنت فى ضوء نظرته الى الأمر من وجهة نظر بافلوف عن « السلوكية » ـ الوسائل المختلفة اللازمة لتحويل الأشخاص ذوى الطوابع المزاجية المختلفة ـ فمثلا يبدو انه يسهل التأثير فى الأفراد الانبساطيين Extraverts العاديين ، ويمكن جعلهم يحتفظون بطوابع جديدة بوساطة وسائل اثارة غير معينة بالذات ، حيث تؤدى هذه الى احداث انفعالات عاطفية قوية مستمرة أو متكررة .

أما الشخص الانطوائى النزعة Entrovert فانه يكون أكثر مقاومة لمثل وسائل الاقتراب هذه ، وبذلك يكون من الضرورى لتغيير سلوكه استخدام وسيلة الانهاك البدنى مع ضغط متكرر فى فترة المتابعة ويصحب ذلك تفسير دقيق للعقيدة .

وتبعا لما وجده ليفتون Lifton (١) ـ وهذا أمر أساسى لتفهم عملية غسيل المخ ـ فان الشخص الذى يغسل مخه يبقى الى حـد بعيد هو نفس الشـخص الذى كانه من قبل ، صحيح أنه فى فترة غسيل المخ تكون فى رأسـه مجموعة جديدة من المعتقدات ، ولكنها سرعان ما تنبـذ وتطرد اذا لم تكن تتمشى مع طبيعته السابقة ، أو اذا توقفت الضغوط المستمرة عليه ، ومن ثم يعـود الى طابعه الأصلى بالملاءمة والتوافق مع أى بيئة يواجهها •

والنقطة الهـامة ذات المغزى هنا أنه لا التثقيف السياسى ولا غسـيل المخ قد أوضح أى نتائج دائمة ، اللهم الا فى تلك الحالات التى كان من المتوقع أن تتقبل المعتقدات التى تتواجد أو تتولد حتى لو أنها قدمت لهم تحت ظروف عادية •

وكمـا سبق أن أوضحنـا فقد تعاون بعض الافراد تحت تأثير التثقيف السياسى لعدة أسباب مثل : متابعة سـير الحيـاة فى يسر ودون مشـكلات ، أو بسبب الخوف ، أو بسبب الشراهة والجشع ، ولكنهم لم يتعاونوا لأسـباب أيديولوجية الا فى أقل القليل من الحالات ، ولم تكن حصيلة النتائج للبرنامج الصينى الشامل فى التحليل الختامى أكثر تأثيرا مما يمكن أن يكون لاجتماع سياسى مثير •

صحيح لقد استطاع الصينيون أن يحصلوا فى بعض الحالات على تعـاون بعض الأسرى ، ولكنهم فى الواقع لم يصلوا الا الى عدد قليـل من المتحولين الأصـليين •

---

(١) Dr. Robert Lifton, Thought Reform and Psychology of Totalism, A Psychiatric Study of Brainwashing in China, W. W. Norton and Coy., Inc., New York, 1963.

والواقع أن لغسيل المخ نفعه فى ابتزاز أو فى اصطناع الأدلة والبينات لاستغلالها فى المحاكمات الزائفة ، ولكن من المشكوك فيه ما اذا كان غسيل المخ ـ كتكنيك ـ يمكن أن يعتبر فى هذا المجال وسـيلة مرضية بدرجة أكبر من اى وسيلة أخرى مثـل التعذيب البدنى الذى اسـتخدمته محاكم التفتيش ، أو الذى استعمله الفرنسيون فى الجزائر .

ولكن كل هذا لا نفع له لانتـاج متحولين يستمرون فى تحولهم بصـورة دائمـــة .

* * *

وقـد يكون من الضرورى هنـا أن نفصـح عن تفـاصيل أكثر فكرتين لالدس هكسلى :

الأولى :

أنه لو أن مجموعة من أبرز علمـاء الفلسـفة قد تعرضـوا لنغمـات مستمرة رتيبـة كدقات الطبـول الأفريقيـــة ، أو كالغناء الهندى المنتظم الايقـاع ـ فانهم ولا شـك سينتهى بهم الأمر الى أن يشـتركوا فى التصفيـق والصياح كمـــا يفعل المتوحشون .

والأخـيرة :

ان وســائل جديدة لاثارة الجمـاهير كان النـــاس يحلمون بها فى الماضى قد اخترعت وأعدت للاستخدام .

* * *

كانت فكرة هكسلى الاولى معنية بالتأثيرات التى للنغمة الرتيبة على العقل البشرى ، وقد قال سارجنت عن هذا :

« يجب أن يكون معروفا على نطاق واسع أن التسجيل الكهربى للعقل البشرى يوضح أنه شديد الحساسية بخاصة الى النغمات التوقيعية الموزونة عن طريق القرع ، وعن طريق الاضواء اللامعة بين كثير من الاشياء الاخرى المؤثرة فيها ، وهذه النغمات والاضواء يمكن أن توجد حالات توتر انفجارية كافية بدرجة احداث نوبات تشنجية Convulsions Fits فى الاشخاص السابق تهيئتهم لذلك ، كما أن بعض الاشخاص يمكن حثهم على الرقص على هذه النغمات الرتيبة حتى يصلوا الى درجة الانهيار ، وفضلا عن هذا فانه من الاسهل ارباك تنظيم الوظيفة العادية للمخ عن طريق مهاجمته فى وقت واحد بعدة أنغام قوية تطلق على سرعات موسيقية مختلفة ، ويؤدى هذا الى توقف وقائى للمخ » .

ولقد استعملت المجتمعات البدائية الاجتماعات الطائفية المنتظمة حيث يتسنى اثارة الانفعالات بواسطة الرقص ودقات الدفوف ، وذلك للمساعدة فى الاحتفاظ بالمعتقدات الدينية ، ولتثبيت الميول الدينية التى سبق غرسها ، ومن الممكن أن تستمر الاستثارة حتى يحل التعب والاعياء ، وهنا يصبح الرئيس أو الزعيم أكثر قدرة على غرس المعتقدات أو تقويتها فى أثناء وجود حالة مصطنعة من حالات زيادة القابلية للايحاء ، ومن المحتمل أن يكون زنوج غرب أفريقية قد نقلوا معهم مثل هذه الاساليب الى أمريكا ، فقد لاحظ سارجنت سنة ١٩٤٧ م أثناء الصلوات العديدة التى كانت تقام فى أمسيات أيام الآحاد فى كنيسة صغيرة من كنائس الزنوج بمدينة ورهام بولاية كارولينا الشمالية أن الجمع كان يلقى التشجيع

للقيام برقصات منفردة على تصفيق الايدى ، أو على دقات الرق المرتفعة المتوافقة النغم ، وكان الرقص متباين الصور عنيفا ، وقد تصيب الجمع حالة من حالات الغيبوبة ، ومع ذلك يستمرون فى الرقص ويكررون باستمرار قول « الله خير » أو « الشكر لله على كل شىء فعله من أجلنا » ، وبعد أن يطلقوا كل ما كانت تعج به صدورهم من انفعالات ويعتريهم الاعياء من جراء ساعات طويلة من الرقص والاستسلام لله وعرفان جميله الذى يقوى بالايحاء ، يعود الزنوج ثانية وهم فى حالة انشراح ليعيشوا لفترة اسبوع آخر فى بيوتهم المكتظة وهم منبوذون متجاهلون من المجتمع الابيض .

على أن القدر المطلوب من التثبيت لغرس الأنماط الجديدة فى التفكير والسلوك لابد أن يعتمد على النوع المعين من أنواع الجهاز العصبى العالى ، وكذلك على الأساليب المستعملة .

ولم تصبح الوسائل المختلفة المطلوبة لتحويل الاشخاص ذوى الانماط المزاجية المختلفة موضوعا للبحث المستفيض ، ولكن من الجائز أن تبرز بعض الحقائق المعينة ، فمثلا يبدو من السهل السيطرة على الشخص الانبساطى وكسبه والاحتفاظ برسوخ أنماطه الجديدة بوسائل الاستثارة البدائية غير المحددة على شرط أن يتمخض عن اثارة انفعالية قوية مستمرة متكررة ، أما الشخص الانطوائى فقد يكون قليل الاستجابة لمثل هذه الوسيلة ، وحينئذ تظهر الحاجة الى استعمال الارهاق البدنى والضغط الفردى المتناهى فى الشدة لتغيير سلوكه ، وفى أثناء فترة المتابعة لابد من التثبيت المتكرر والشرح الدقيق ، على أن المصابين بلوثة عقلية الذين تعلموا بصفة عامة القليل من تدريباتهم الاولى البيئية ، والذين

تبين موجات عقولهم الكهربية عدم نضوج ملحوظ بالنسبة لاعمارهم ، فان من العسير جدا تكييفهم كما سبق شرح ذلك •

وقد يكون من المناسب هنا أن نشير الى أن الناس حينما يتأثرون بدرجة عميقة بدقات الطبول والنغم لا يحدث ذلك نتيجة التأثير الآلى فحسب ، بل بسبب أنهم فى جانب من داخلية أنفسهم يعتقدون بالمذهب أو العقيدة التى تكون دقات الطبول والغناء الوحشى الرتيب دليلا عليها ورمزا لها ، ثم لانهم يسمحون لانفسهم بأن يتحولوا ، أو أن يندمجوا ، فى حالة الخبل والمس ، وهذا بلا شك هو غرضهم من حضور مثل هذه الاجتماعات •

* * *

والآن يجب أن نتحول الى الرأى الثانى لهكسلى والذى يشير الى وسائل الاعلام الجماهيرية • لقد كان هتلر الذى يقال عنه : انه كان أعظم طغوائى فى العصر الحديث يسيطر سيطرة كاملة على كل وسائل الاعلام وكان بالاضافة الى هذا يواجه ملايين الناس الذين كانوا يقفون على حافة الثورة ، واستطاع هتلر أن يحول الميزان لصالح الفاشية لا الشيوعية ، ويرجع هذا بدرجة كبيرة الى أنه قد قدم للناس كل ما كانوا يريدونه •

والواقع أن هتلر لم يكن له من تأثير فيما عدا ما كان له على الالمان السابق اعدادهم وتهيئتهم ، وكذا الاقليات الالمانية فى البلاد الاخرى •

* * *

وحينما ينتقد الغرب حالة الهستيريا الجماعية فى المانيا الهتلرية ، فانهم يتناسون تاريخهم القديم ، ذلك لانه لا يوجد فى القرون الاخيرة ما يمكن حتى أن يصل الى مرتبة تقرب من مظاهر الهستيريا الجماعية التى وضحت فى العصور الوسطى من هستيريا الصليبيين وأطفالهم الى هوس الراقصين الذين يجلدون أنفسهم بالسياط ، ودون استخدام : الراديو ، والموسيقى العازفة ، وأجهزة الارسال ، ومكبرات الصوت ـ استطاع بطرس المتعبد Peter The Hermit بتجواله على ظهر بغله متدثرا فى قميص من الصوف الخشن ـ أن يثير موجة من الهستيريا اكتسحت أغلب أرض أوروبا ، ثم أثار بمعاونة البابا « أربان » الثانى حربا ضد غير المؤمنين ٠

وكان الناس يتقاطرون زرافات ووحدانا لسماع وعظه فى كل مكان حل فيه ٠

ولقد كتب تشارلس ميلز مؤرخ الصليبيين :

« ولقد اعترف بأن دعوة السماء أكثر الزاما من أى مطالبة للانسان ، وأعلن : القتلة ، والزناة ، واللصوص ، والقرصان اعتزامهم أن ينفضوا أيديهم من آثامهم ، وأن يغسلوا ذنوبهم فى دماء غير المؤمنين ، وهكذا تجمع الملايين من القديسين ، والمخطئين المسلحين وأعدوا أنفسهم ليخوضوا معركة الرب » ٠

ولقد قام الحجاج بأعمال السلب والنهب على نطاق واسع فى تقدمهم على طول حوض الدانوب عبر أرض المجر ، ثم فى طريقهم الى ساحل البحر عند القسطنطينية ٠ وخلفوا وراءهم فى كل مكان مروا به آثار : السلب ، والنهب ، والاختطاف ، والاغتصاب ٠

ويقال أن البابا قد قال لهم : « اذبحوا الجميع وسيعرف الرب مسئوليته ... » .

وعندما استمر بطرس فى مسيرته الكبرى تبعه أربعون ألفا من : الرجال ، والنساء ، والأطفال ، ومع أنه قيل : ان هؤلاء جيش الفلاحين الا أنه لم يكن هناك جيشا بمعنى الكلمة .

ولقد ركب فى الحشد عدد قليل من الأشراف بخدمهم وسار بعض الناس المسلحين على أقدامهم ، وجلست بعض النساء من طرقات باريس على عربات نقل العفش ، وتجمهر حول هؤلاء أناس معدمون ضائعون ، وفى خضم هذه الحشود كان يسير : رهبان مزيفون ، ومنشدو الترانيم والتشنجات ، والنشالون .

وانتشرت الشائعات الكثيرة عن رؤية علامات غريبة تثير الذهول ، فقد رؤيت نجوم تسقط مشتعلة من السماء المظلمة ، ولمع سيف مضىء فى السماء يشير الى المدينة المقدسة ، وانتشرت الأنباء عن سقوط جحافل الجراد على كروم الأتراك الكفرة ، وفى « مالفيل(١) » ذبح سبعمائة من المجرمين ، أو أخذوا أسرى .

لقد أطلق الصليبيون لأنفسهم كل نوع من أنواع : الفسق ، والخلاعة ، والخشونة ، والفظاعة ولم تنجح من هذا المرافق العامة ، ولا الممتلكات الخاصة ، ولم يكن حياء العذراء وقاية لصاحبته ، ولم تكن الفضيلة مانعا وحصنا ، وتعهدوا بأن يفعلوا مثل هذا للأتراك .

---

(١) Malleville من المدن القديمة فى حوض الدانوب .

ولقد بدأت دعوة الأطفال الصليبيين سنة ١٢١٢ م بوساطة صبى فرنسى يعمل فى رعى الأغنام اسمه ايتين رأى فى نومه حلما بأن المسيح ـ عليه السلام ـ قد عينه سفيرا له للاعداد للحجيج الى الارض المقدسة حتى يستعيد القبر المقدس من غير المؤمنين ، وقد انضم اليه أثناء سيره عبر فرنسا آلاف الصبيان والفتيات البعض يحملون أسلحة ، والبعض يحملون الصلبان ، وبانتشار هذا الجنون فى البلاد لم يستطع الآباء أن يسيطروا على أطفالهم الذين كانوا يتابعون الصراخ حتى يسمح لهم بالمسير أو يهربون ليلا متدثرين بالظلام على الطريق الى مرسيليا حيث ظنوا أن البحر سوف يفسح لهم طريقا بأمر ايتين ، ولكن لم يحدث هذا .

فقد ركبوا سبع سفن غرقت منها اثنتان بكل ما كان عليها من الصبيان والفتيات ، على حين سارت السفن الخمس الأخرى بما عليها من الصبيان والفتيات وقد بيع الجميع فى أسواق الرقيق ..

وقد حدثت دعوة أخرى للصبيان الصليبيين فى أيرفورت Erfurt (١) سنة ١٢٣٧ م ، وحدثت آخر دعوة لهؤلاء الصبيان فى فرنسا سنة ١٤٥٨ م بعد قرابة قرنين ونصف القرن من الدعوة الأولى .

وبالطبع يمكن أن يناقش الأمر على أساس أن كل الحروب صور من الهستيريا الجماهيرية ولكن هذا يكون حديثا تصوريا مجازيا ذلك لأن الحرب تكون قليلة الأثر والنتائج ما لم تنفذ تبعا لتخطيط طويل دقيق ، وحتى تطرفات هتلر كانت تتم تبعا لتخطيط دقيق معنى به .

* * *

---

(١) مدينة المانية فى اقليم ساكسونيا .

ولكن الحالات التى كنا نناقشها كانت كلها فى الواقع الوانا من هستيريا الغوغاء الدهماء ومع هذا فلها قاعدتها الاقتصادية والسياسية ذلك لأنه من الواضح أن الحملات الصليبية كانت فى ذلك الوقت البعيد مرحلة من مراحل الاتساع والامتداد السياسى والاقتصادى لغرب أوروبا ، وكانت الفصل الخاص بالعصر الوسيط فى تاريخ الامبريالية •

والواقع أننا اذا نظرنا : الى التاريخ القديم ، أو الى التاريخ الحديث ــ لوجدنا أثرا هنا وهناك للدعاية يدل على وجودها وعلى فعاليتها ، فقد كان قيصر روما يستعمل التنبؤات الفلكية ليحدد بها أعماله ، وينشر ذلك على الناس جميعا ، ومثله فعل هتلر اذ كان يستغل التنبؤات الفلكية ليقنع البريطانيين بحتمية انتصاره عليهم ، كما أن ذكر اعلان الاستقلال بعد الحرب الامريكية الأهلية للأضرار التى ألمت بالشعب دليل على أن للدعاية هدفها الذى تسعى من أجله •

ولكن : الزمن ، وتقدم العلوم واسهامه فى التطور الكبير لوسائل الاعلام ، وتغير الفلسفات ، وتغير النظريات الاقتصادية ــ قد أدت الى وجود تغير فى الدعاية أيضا •

وزادت أهميتها عندما أصبحت الحرب شاملة ولما كانت القوات المحاربة تسعى لاضعاف الروح المعنوية للعدو للتأثير على مقاومته فى الصراع القائم ، فان الدعاية تسعى الى تحطيم هذه الروح المعنوية واضعافها ، كما تهدف الى تقوية الروح المعنوية لدى جيش بلادها ، ولدى المدنيين من أبناء شعبها حتى تكون سندا كبيرا للاستمرار فى الحرب حتى النصر •

وكمـا قلنـا فقـد أدى تقـدم العـلوم ، وتقـدم الوسـائل الفنيـة الى اظهـار الحاجة الملحة للدعاية ، والى التنوير بفائدة الدعاية وفعاليتها ، كمـا أدى تقدم العـلوم أيضـا الى خلق سـبل جـديدة وأفاق حديثـة اسـتطاعت الدعاية عن طريقهـا أن تحقق الكثـير • ولما كانت الدعاية تتفاعل مع فلسـفة اجتماعية وسـياسية تضمن للانسان العادى كيانه المستقل ، فقـد نتج عنهـا تركيز على التعليم بحيث وضع هـذا التعليم رجل الشـارع فى متنـاول رجل الدعاية وبحيث تصل رسالته اليه سواء كانت رسالة : شـفوية ، أو مطبوعة ، أو أليكترونية •

وأكثر من ذلك ، فقـد ادى تقـدم العـلوم الى تكاثر وسـائل الدعاية وتطورها ، فوجود دعاية ناجحة احتاج الى وجود دعاية مضادة ناجحة أيضا ، وأدى هذا التسابق ، وهذا التنافس الى وجود المزيد من الوسائل ، وادخـال التحسينات والتعديلات على الوسائل المعروفة •

ومن هنـا يمكن القول : أن الدعاية وجدت قديما وحديثا ولـكنها اليوم أكثر وضـوحا وأهميـة ممـا كانت عليه في الماضى ، فقد اتسعت الجمـاهير وازداد تعقد الحياة ، وتشـابك مظاهرها ، وتعددت كذلك أسـاليب تشـكيل الرأى العام وتعديله وتغيير اتجاهاته ، وقد أصبح للدعاية من الاهمية ما جعل علماء الاجتماع يدرسون أثرها على المجتمعات •

* * *

وقد يبـدو لنـا أن نتسـاءل ؟

هل هناك علم أو فن يمكن أن نسميه علم الدعاية أو فنها ؟ أن هناك قوائم لا حصر لها لمبادىء الدعاية وتعميمات حولها • وقد قدم هذه المبـادىء وتلك

التعميمات عدد من : الزعماء والمفكرين السياسيين والعسكريين ، وعدد من رجال الأعمال ، وأساتذة الجامعات ، وخبراء الاعلان ، وعلماء النفس ، وعلماء الاجتماع ، وكل شخص حاول جهده لجذب أذهان الناس وتوجيه سلوكهم •

وتوجد صعوبات جمة في طريقة تنمية الأسس الهامة لاستراتيجية الدعاية وتكتيكاتها • أن رجال الدعاية أناس يعملون دائما فى عجلة لاقناع الناس بما يريدون أن يقنعوهم به ، ويهتم هؤلاء الناس بما يريدون ، ولكنهم لا يهتمون بفهم مبادىء هذا الاقناع وطرقه •

كمـا أن الذين يعبرون عن استعدادهم لاستنباط المبـادىء من المواقف المختلفة هم أناس عمليـون لا يهتمـون بالبحث والتدقيـق بقدر ما يهتمـون بالعمليات نفسها •

وتجد في نفس الوقت ان هؤلاء لا يهتمون بجمع المعلومات التى تساعدهم على الخروج من المواقف المختلفة بمبادىء سليمة يمكن الاعتماد عليها ، وتكون نتيجة ذلك أن الاشخاص الذين يهتمون بالتحليل والبحث يجمعون معلوماتهم ممن يقومون بأعمال الدعاية الذين يعملون بالخبرة والمران لا بالبحث ، وتكون النتيجة أن المعلومات التى يحصل عليها الباحثون معلومات واردة من أشخاص لم يبنـوا هذه المعلومات على بحث وتدقيق ، وبهـذا تكون المعلومات غير مبنيـة على أساس علمى •

* * *

والى جانب ذلك فان عمليـة تحليـل الدعاية لم تصبح مهنـة يعـترف بها الناس ولها ميدان خاص بها • ان لدى بعض الهيئـات وسـائل للدعاية

أو الحرب النفسية ، ولكن محلل الدعاية يحاول التخصص فى ميدان واحد قد يتصل : بالصحافة مثلا ، أو الاحصائيات ، أو الاذاعة ، الخ ... وتكون نتيجة ذلك أن يكتسب المحلل نظرة واهتمامات محــددة ذات نوع معين . ولعل من الصعوبات الـكبرى التى تعترض اقامة الدعاية على اسس علمية وجعلهــا من العلوم المستقلة هي صعوبة الحصول على بيانات ومعلومات ، وكذا تعقــد هذه المعلومات ان وجــدت ، وصعوبة القياس واجراء التجارب ، والحيرة التى يقــع فيها الباحث عندما يحــاول تقييم كفاية الوسائل الفنية للدعاية ، وكذلك : نقص الألفاظ الفنية المتفق عليها فى هذا الميــدان ، ونقص المســتويات التى يمكن أن يقاس بهــا فعالية الدعاية ، وكذلك نجــد أن المحلل نفســه هو من ضمن الصعوبات الهــامة ، فهــو فى حــد ذاته نتاج دعاية معينــة ، وهو فى تحليله يكون واقعا بالضرورة تحت تأثير ضغوط اجتماعية وغير اجتماعيــة .

هذه العقبات تقف فى طريق تنمية تحليل الدعاية وجعلها من العــلوم المستقلة بذاتها ، وهى بالتالى عقبات تقف فى طريق نمو العلوم الاجتماعية .

* * *

ان النقطة الأولى فى استراتيجية الدعاية هى الاعتقاد بأن الدعاية اللفظية ما هى الا واحدة من مجموعة من الوســائل التى تستخدم للوصول الى هــدف معين ، وان الوســـائل يجب ربطهــا بغيرها من الوســائل المستعملة فى هــذا الميـــدان .

ومن الواضــح أن استراتيجيـــة الدعاية تتـــداخل تداخــلا كاملا فى الاستراتيجية الـكبرى التى تســتخدم للوصــول الى غرض أو لتحقيق هــدف معــين . ولــكن كيف يمكننا أن نضــع هــذه الاستراتيجية . ما الأمور التى يجب أن تحتوى عليهــا ؟ هذه أسئلة يجب أن يجيب عليهــا واضعوا السياســة قبل البدء فى وضع استراتيجية الدعاية .

وترتبط الاستراتيجية فى الدعاية بجميع الاعتبارات التكتيكية ٠ ويفرق هانز سبايز Hans Speier بين الدعاية الاستراتيجية والتكتيكية فيقول : « ان الدعاية التكتيكية توجه أولا ضد جنود العدو وبقصد تأييد العمليات العسكرية فى ميدان القتال ٠ أما الدعاية الاستراتيجية فهى توجه أولا ضد المدنيين من الأعداء ، وكذلك الى جنود الأعداء الذين يوجدون خلف الجبهة » ٠

ويقول لينبارجر Paul Linebarger : « أن التفرقة التى يفرق فيها بين هذين النوعين من الدعاية مبنى على أساس الناس الذين توجه اليهم الدعاية وكذا على الزمن والغرض » ، ويعود فيقول : « أن الدعاية الاستراتيجية توجه ضد قوات العدو وشعب العدو ، وكذلك ضد المناطق التى يحتلها العدو ، وتكون هذه الدعاية جزءا لا يتجزأ من التخطيط للاستراتيجية الكبرى الذى يهدف الى تحقيق أهداف مخططة لفترة معينة ، أما الدعاية التكتيكية فهى توجه ضد مجموعة معينة ، وتعد هذه الدعاية وتنفذ لتأييد العمليات الحربية المحلية » ٠

ونشير هنا الى التفرقة التى كتبها كارل فون كلوزفيتز Karl Von Clausewitz بين : التكتيك ، والاستراتيجية وهى التفرقة الكلاسيكية حيث قال : « ان التكتيكات هى عملية تنظيم عملية عسكرية واحدة معينة والقيام بها ٠ أما الاستراتيجية فهى مجموع هذه العمليات العسكرية الفردية وضم بعضها الى البعض للوصول الى غرض معين من أغراض الحرب ٠

* * *

ولنعـد الآن الى عمليـة التكيف والتحول لنوضح عدة نقـاط هامة •
وأهم هذه النقاط ضرورة الحاجة الى تنويع أسـاليب التكيف ووسائله طبقـا للانماط المزاجية المختلفة ، والتى يمكن ملاحظتهـا بشكل واضح من دراسـة أثر أحـكام السـجون على الأنمـاط المزاجيـة المختلفـة ، ففى أغلب حالات الأشخاص العاديين القابلين للايحـاء أو الذين يتقبلون الايحـاء بقـدر معقول ، نجد أن التهديد بالسجن بما ينطوى عليه من زجر اجتماعى يعتبر رادعا كافيا ضـد الجريمة ، وأن تجربة واحـدة من تجـارب السجن سـوف تنهى فى الحال حياة الاجرام بالنسبة لثلاثة أرباع المجرمين الذين لم يرتدعوا بهذا الشـكل ، ولكن هناك مشكلة عويصة لهؤلاء المتخلفين عقليا الذين لا يمكن تغيير انمـاط نشاطهم العقلى الشاذ بواسطة السجن مهما كانت عنيفة أو قاسية •

ومن الواضـح جدا أن الحاجة ملحة لبحث أكثر استفاضة للـكثير من هذه الأمور • لقـد شاهدنا نوع الاسـاليب المثـيرة التى اسـتخدمت فى كل من المجتمعات البدائية والمجتمعات الراقية لزيادة القابلية الجمـاعية للايحاء ، وبذلك يحتفظ بنمط مشترك من العقيدة ، وأكثر من ذلك لـكى يبشر بعض الافراد بمعتقـدات جديدة تماما ، كمـا شاهدنا كذلك أن الأفراد يتعاونون فى ردود فعلهم تجـاه هذه الأساليب ، وأنه اذا كانت هنـاك رغبة فى تعريضهم لعملية تحـول شـاملة دينيا أو سياسيا ، ثم تثبيت المعتقدات الجديدة ، فان هـذا الأسلوب يتطلب تعديلا فى حالات كثيرة •

ولذا فان الابحـاث المسـتمرة الخاصـة بأسـاليب الاستثارة الجمـاعية مطلوبة لمعـرفة الى أى مدى نجـد لدى بعض الافراد مناعة ضـدها ، ومن الواضح أنه كثيرا ما يحدث أن يظهر كثيرون وقد تأثروا ، ولـكنهم يتبعـون طريقة السلوك التى تسلكها الغالبية من باب المجاراة لا بسبب الاقتناع ، ونحن

فى حاجة الى أن نعرف أكثر مما نعرف عن ردود الفعل المختلفة تجاه أساليب التبشير التى تستعمل مع أشخاص مسجونين سجنا انفراديا ، أو موضوعين فى طوائف منتخبة بقصد اعادة توجيههم وتصبح المشكلة الفسيولوجية أكثر تعقيدا بسبب ادراك أن الأنواع المزاجية فى كل من الانسان والحيوان نادرا ما تكون واحدة تماما •

* * *

لقد وجد بافلوف أن الكثير من كلابه كانت عبارة عن خليط من الأمزجة الأربعة الأساسية ، ويبدو أن نفس الشيء صحيح فى مملكة الانسان • وفى الثقافات البدائية ، حيث الحياة المتواضعة وعملية التكيف عنيفة ، فان الناس من المحتمل أن يقننوا مزاجيا بطريقة أسهل من تقنينهم فى المجتمعات المتحضرة ، وعلى ذلك يمكن تنظيمهم بأساليب أقل تنوعا ، وكلما ارتفعت الحضارة زاد كما يبدو عدد الاشخاص : العاديين القلقين ، والهستيريين ، والمرضى بانفصام الشخصية ، والمكتئبين بشكل يساعد المجتمع على تحملهم ، ويبدو أن الواجب يقتضى استعمال وسائل أكثر من العلاجات المتباينة للجماعات والأفراد لشفاء عدد أكبر من الأمزجة المختلفة للشخصيات ، ولكن لم يتوفر حتى الآن معلومات معينة عن هذه النقطة ، وقد يكون من الصحيح كما يقول الدس هكسلى : « ان كل ما يمكننا فى الوقت الحاضر أن نتنبأ به ونحن مطمئنون ـ هو أنه اذا تعرضنا لفترة طويلة كافية لدقات الطبول والأناشيد ، فان كل فيلسوف من فلاسفتنا سوف ينتهى الى الصياح والعواء مع المتوحشين ، ولكننا نعرف كذلك أن هناك فلاسفة من السهل تحويلهم الى أنماط سلوكية متغيرة ومعتقدات جديدة بوسائل : الصلوات المنفردة ، والصيام ، أو حتى باستعمال العقاقير مثل المسكالين •

ومع ذلك فقد وجد بافلوف أنه عندما يصاب الجهاز العصبى العالى فى الحيوانات بتوترات يكون احتمالها فوق طاقتها بتطبيق ألوان مختلفة من الضغوط تفوق تحمل المخ فانه يحدث نوع من التوقف الشامل فى النهاية فى جميع الأنماط المزاجية ، وقد يحدث هذا فى الأنواع الأقوى فقط بعد فترة طويلة الاضطراب ، بينما قد يحدث بشكل أسرع فى الانواع الضعيفة المكبوتة ، وعلى ذلك يبدو أن هناك مسالك مشتركة نهائية لابد من أن تسير فيها كل الأنواع من الحيوانات على الرغم من استجابتها المزاجية الأولى للتوترات المفروضة والتى تختلف اختلافا بينا ، ومن المحتمل أن يحدث نفس الشىء فى الكائنات البشرية ، واذا حدث فقد يساعد ذلك على تفسير السبب فى أن الطبول المثيرة ، والرقص ، والحركات البدنية المستمرة تستعمل كثيرا فى مثل هذا العدد من الطوائف الدينية البدائية ، والجهود والاضطرابات التى تجعل الرقص يستمر ويزيد لساعات متعددة يجب أن تكون منهكة ، وغالبا ما يخضع للرقص أقوى الأمزجة وأقساها عنادا .

* * *

وأظهرت الحرب الحديثة كذلك أن تجربة الحرب العقلية بكل ما فيها من : جلبة ، واستثارة ، وخوف ، ونقص فى الوزن ، وعدم النوم ـ تنتهى بالانهيار فى جميع الأنماط المزاجية . وعلى الرغم من أن صورة الانهيار « العصبى » المبكر قد تختلف ، فان الظاهرة النهائية لتوقف المخ من جراء الاعياء من الحرب التى جاء لها وصف جيد بقلم سوانك والكثيرين غيره تستمر فى حالة أغلب الانماط الاخرى من الناس ، وعلى ذلك اذا فهمنا القواعد الفسيولوجية الناجحة مرة واحدة فانه يصبح من الممكن أن نصل الى نفس الانسان ، ونحوله ونحافظ على اعتقاده الجديد بمجموعة من التوترات المتباينة المفروضة ، التى

تنتهى بتغيير وظيفة المخ بطريقة واحدة ، ومع ذلك فانه يمكن لبعض الأفراد أن يظهروا عنادا غير متوقع ازاء أساليب صحيحة جدا : ففى كارولينا الشمالية حضر رجل بدين صلوات الاحياء الدينى ، وتضمنت الصلوات رقصا وانشادا واستثارة جماعية تحدث تفريغا انفعاليا كل يوم أحد ولمدة تسع سنوات ، على أمل كسب تجربة التحول الدينى المفاجىء ، وكذلك الخلاص الذى كسبه زملاؤه بنفس الأساليب فعلا ، وحتى تلك اللحظة لم يكن قد نال الخلاص على الرغم من كل جهوده ، ولكنه لم يفقد الأمل ، ومن المحتمل أنه كان من ذوى الأمزجة المكبوتة مثلما وجد بافلوف أن من الممكن اثارتها فى الحيوانات فقط عندما أضاف الاعياء الفسيولوجى أو لجأ الى فرض توترات أخرى .

* * *

ويمكننا أن نتساءل الآن : الى أى مدى يمكن أن نحافظ على تماسك عقلنا ؟ وهل هناك من سبيل لمنع التحولات السياسية والدينية أو غسيل المخ ؟ .

لقد أكدت التجارب صعوبة أحداث الانهيار العصبى فى الحيوان الذى لا يتعاون مع من يجرى عليه التجربة ، وذلك بمقارنتها بالسهولة التى يتم بها الانهيار العصبى فى أولئك الذين يحاولون تقبل تنفيذ المهام التى توكل اليهم ، فعندما يرفض كلب يعتاد أن يوجه أى انتباه للأضواء المبهرة وعلامات التغذية الاخرى التى يقصد بها تكييفه فان مخه يبقى بعيدا عن التأثر ، وعلى ذلك درج بافلوف على احضار كلابه الى العمل وهى فى حالة جوع على أمل أن يركز انتباهها على علامات يمكن أن يليها تقديم الطعام ، والكائنات البشرية مثل الكلاب تستطيع ألا تنهار عصبيا اذا رفضت ببساطة مواجهة مشكلة أو مهمة تعرض عليها ، فكل من يرفض التعاون مع أى وسيلة من

وســائل التحــول الدينى أو غسيل المخ نجــده بدلا من الانتبــاه الى المحقق أو الواعظ يحــاول أن يركز ذهنه على مشكلة أخرى مختلفة تمــاما ، ومن ثم يثبت أطول من الجميع •

لقد قيد الكولونيل ر• هـ• ستيفنس R. H. Stevens الذى أوقعه الجستابو فى كمين سنة ١٩٤٠ م بينما كان يؤدى واجباته فى هولندا ، بالسلاسل الى جانب حائط الزنزانة فى سجنه الالمانى مثــل الكلب لمــدة سنتين كاملتين فى محاولة لتحطيم روحه المعنوية ، ولقــد وجد من المفيد له أن يركز ذاكرته على مهمة اعادة بنــاء منزل طفولته حجــرة حجــرة بأدق التفاصيــل كالوحــدات الزخرفية على الستائر وزركشة المدفأة والكتب التى سيضيفها فى المكتبــة ، وقد ساعده السير على هــذا النهج ليس فقط على الثبات طوال مدته التى كان مقيدا فيها بالاغلال الى جوار الحائط فى سجن انفرادى ، ولكن كذلك على الثبات ثلاث سنوات أخرى فى معسكرات الاعتقال •

ولقد قال طبيب شرعى مرموق فى حديث غير رســمى عن ملاحظتــه فى عمله أثنــاء السنوات العشرين الأخيرة « لو أن المتهمين عندما يستجوبهم رجال الشرطة لا يجيبون الا على الأســئلة التى تقــدم اليهم مكتوبة وعن طــريق دفاعهم ، ولا يجيبون على أى شىء آخر وهو أمر لا يتعدى حقهم الشرعى ، فانه لن تكون هنــاك أية اتهامات من جانب رجال الشرطة ســوى القليــل » وقد عرف المحامون لفترة طويلة كيف أن الصعوبة تكون أعظم بكثير فى ادانة أى انســان لا يمكن اقنــاعه بالكلام ، ومع ذلك فان عــددا كبيرا بل أكبر ممــا ينبغى ومن الذين يلتزمون بالقــانون حتى عندما يكونون مذنبــين يقــومون بســهولة بتوقيع أكثر الاعترافات ضررا لهم وبمحض اختيارهم بسبب وجود لهفــة مبدئية على التعاون مع رجل الشرطة •

وتعتبر درجة التعـاون أو التجـارب الفسيولوجى التى يمكن أن تتم بين محقق « البوليس » والمواطن الذى يجرى اســتجوابه ، أو بين الواعـظ الدينى ومن يعظهم ، والمتحدث السياسى ومستمعيه ـ حيوية بالنسبة للمشكلة ، وكل من يمكن اثارة الغضب أو الخوف منـه بواسطة رجل السياســة ، أو الواعظ ، أو رجل الشرطة ينقاد بسهولة أكثر الى تقبل النمط المطلوب من التعـاون حتى ولو كان من شأن هذا أن يخـالف حكمه فى الظروف العادية ، والعقبات التى يستطيع الساعون الى الانصار السياسيين أو الدينيين التغلب عليها هى عـدم المبالاة أو التسلية المستمرة وعـدم المبالاة من جانب الانســان ازاء الجهود التى تبذل : لجعله ينهار ، أو كسبه الى جانبهم ، أو اغرائه بالجدل •

ويصف سارجنت ذلك بقوله :

« فى مصارعة الثيران توجه الجهود الأولية للمصارع ومساعديه على اثارة الثورة واغضابه واشـاعة اليأس فيه لـكى يتسنى انهـاك قواه ، وبذلك يمكن جعلـه أكثر استجابة وقابلية للايحاء ، ثم يقوم مصـارع الثيران باجبـار الثور على عمـل ما هو مطلوب منـه فى المرحلة الاخـيرة وهو متـابعة حركات قطعـة النسيج الحمراء بطاعة تقرب من الغيبوبة ، والثور الجيـد الذى يحظى بتصفيق المتفرجين ، ثم يجرى ميتـا فى نهـاية الحلقـة هو الثور الذى يتعـاون ، وذلك بثورته وزيادة هجـومه الى أقصى حد ممـكن عنـدما يغريه بالنطـح فيطعن بالحراب فى عضـلات الكتف والغمزات الشائكة ، ويبقى دائما فى حركة دائبـة حتى يصـاب بالاعيـاء الانفعالى والبدنى ، ولا يوجه مصارع الثيران اليه ضربة أخيرة الا بعد أن يعجز نهائيا عن رفع رأسه ، فيوجه اليه ضربته بحربة من حرابه بين كتفيه المسترخيين •

« أما الثور السيىء ما لم تكن لديه عاهة فسيولوجية مثل العمى النصفى تمنعه من متابعة حركات الحربة أو قطعة النسيج الحمراء فانه يرفض أن يستثار ، وعلى ذلك ينجح فى تفادى كل من الاعياء والقابلية للايحاء ، وطبقا لذلك ينبع خوف المصارع من الثور الذى لا يمكن اشاعة الخوف فيه بالوسائل التقليدية ، ويصبح عليه أن يستمر فى التفكير فى نفسه بسبب عجزه عن التنبؤ بردود فعله وعندما يقتل فى النهاية ــ وغالبا ما يحدث ذلك فانه يكون قد أرسل بمصارعه : اما الى المستشفى واما الى القبر ، واما أخرج بالامر من الحلقة بواسطة رئيس الحكام •

والثور الجيد فى الواقع هو الثور الذى يعتبر نفسه : محصنا ضد المحن التى تواجهه ، وممتلئا بالثقة فى شجاعته ، والغضب السريع فى مواجهة الأشياء التى يكرهها ، وقوته البدنية الهائلة ، وقدرته على الحرب حتى النهاية » •

* * *

ويجب على الانسان ألا يسير فى هذا التشبيه الى أبعد مما يجب ، ولكنه قد يفيد هذا المثل فى تأكيد الحقيقة وهى أن بعض الناس يتحولون ضد ارادتهم لانهم يصرون على فعل ما يعتبرونه الشىء الصحيح •

وسوف يكون من الواضح أن ضحايا غسيل المخ ، أو الاعتراف الزائف يجب أن يبذلوا قصارى جهدهم كلما أمكن فى عدم نقصان أوزانهم بسبب الهموم أو القلق ، أو أن يسببوا لأنفسهم تعبا لا ضرورة له ، ويجب أن يتعلموا أن يختطفوا النوم كلما لاحت لهم الفرصة ، والاشخاص من أصحاب الامزجة

المتزنة والقوياء البنيــة الذين يتمتعون باتزان عقلى كامل ، كذلك آراء راســخة سعيدة فى الحيــاة من المحتمــل أن يثبتوا مدة أطول من أولئك الذين يتمتعون بالقليل ، أو بلا شيء من ذلك .

ومن الخرافات أن الوعى الذهنى بما يدور حول الانســان يمكن دائما أن يمنع الشخص من أن يكون ضــحية للتبشير ، فبمجرد أن يصــاب بالاعيــاء ، وتزداد قابليتــه للايحــاء ، أو يدخــل المخ فى مرحــلة التنــاقض أو التنــاقض الشديد ، فان البصيرة بل حتى معرفة ما يجوز أو يحتمــل حدوثه لا يســاعد كثيرا فى الوقــاية من الانهيــار ، وبعــد ذلك ســوف يوجــد لنفســه مبررات المعتقدات التى زرعت حديثــا فى ذهنه ، ويدلى لاصدقائه بتفســيرات وشروح مختلفة ولو أنها سخيفة للأسباب التى دفعتــه لتغيير وجهــات نظره فجــأة ، والمصابون بكآبة عقلية أو نفسية يدركون جيــدا فى فترات الصفاء أنه بمجرد أن يشن هجوم جديد فانهم ســوف يفقــدون كل قــدرة على النظر بامعــان الى سخافة افكارهم المثيرة للكآبة .

وعلى المســجونين الســياسيين أن يدركوا بنفس القدر أنه بعــد احــداث شلل فى وظائف المخ ، فان حكمهم العــادى المألوف ســوف يصــاب بالفساد كما انه بمجرد أن يشعروا بأنهم أصبحوا قابلين للايحاء ، عليهم أن يبــذلوا كل جهــد ممكن للتهرب من أى مؤثر اضــافى جــديد ، وفوق كل شيء عليهــم ان يتــذكروا أن الغضب يمــكن أن يــكون وســيــلة قوية لزيادة القــابلية للايحاء كالخوف والاحساس بالذنب .

* * *

وأخيرا نود أن نؤكد أن الهدف الاساسى من هذا الكتاب ليس نقـد أى نظام أخلاقى أو سياسى ، فهدفه هو أن يبين كيف أن المعتقدات ســواء آكانت خيرا أم شرا ، حقيقية أم مفترضة فانه يمكن بذرها فى العقل الانسانى ، كمـا أنه من الممكن تحويل الناس الى اعتناق معتقدات تسيطر عليهم وتتنافى تمـاما مع ما كانوا يعتنقونه فيما مضى ولو الى حين ٠

أهم المراجع الأجنبية

1 - A. Kostler, Arrow in The Blue. Hamish Hamilton, London, 1952

2 - Allport G. W., Personality and Social Encounter, Beacon Press, Boston, 1964.

3 - Allport G. W. The nature of Prejudice, Doubleday and Coy, inc., New York, 1958.

4 - Argyle, M., The Scientific Study of Social Behaviour, London, 1957.

5 - B. G. Sundkler, Bantu Prophets in Africa, Lutterworth Press, London. 1948.

6 - Bronislaw Malionoviski, A Scientific Theory of Culture, New York, 1961.

7 - Brow J. A. C., Techniques of Persuation, From Propaganda to Brain Washing, Penguin Book, Cox and Wpman. Ltd, London, 1965.

8 - C. D. Lee, The Instrumental Detection of Deception. The Lie Test, Edited By V. A. Leonard Charles C. Thomas, Springfield, Illinois, 1953.

9 – Cuplin M., Recent Advances in The Study of Psychoneuroses, J. and A. Churchill, London, 1931.

10 – Edward Hunter, Brain Washing Straus and Cudahy, New York, 1956.

11 – E. Jones, Sigmund Freud: Life and Work, 2 Vols, Hogarth Press, London, 1955.

12 – Eysenck, H. J., Dimensions of Personality, London 1947.

13 – Eysenck H. J. The Structure of Human Personality, London Methuen and Co. Ltd, 1953.

14 – Eysenck, H. J. Sense and Nonsense in Psychology, Richard Clay and Coy. Ltd, Bungay, Sulfolk, 1958.

15 – Frazer, J. G., The Golden Bough, A Study in Magic and Religion, Macmillan, London, 1950.

16 – Freud S. Civilization and its Discontents, New York, Cape and Smith, 1930.

17 – James William, The Varieties of Religious Experiments, Fontana

18 – Joseph Jastrow, Freud, His Dream and Sex Thories, Cardinal Edition, U. S. A., 1954.

19 – Jung, Psychological Types, London, 1924.

20 – H. A. Palmer, Abreactive Techniques Ether., J. Roy Army Med. Corps, LXXIV, 1945.

21 – Henry Lichten Berger, The Third Reich, Book V, New York, 1937.

22 – Hermanin Rauschning, The Voice of Destruction, New York, 1940

23 – Hoberts S. The House That Hitler Built, New York, 1938.

24 – Huxley Aldous, The Devils of Loudun, Chatto and Windus.

25 – Inbau, F. E. and Reid J. E., Lie Detection, and Criminal Interrogation, Third Edition, Baltimore, 1953.

26 – Lee, A. M, and N. D. Humphrey, Race Riot, Dryden Press, New York, 1943.

27 – Lifton R. J.,: Thought Reform and the Psychology of Totalism, A Study of Brain Washing in China, W. W. Norton and Coy. Inc. New York, 1963.

28 – Linebarger, Paul M. A., Psychological Warfare 2nd, ed, Combat Forces Press, Washington, D. C. 1954.

29 – Lord Altrincham and I. Gilmour, The Case of Timothy Evans, Special Spectator Publication. 1956.

30 – Louba H., The Psychology of Mysticism, Kegan. Paul.

31 – Margery Perham, The Colonial Reckoning, Alfred A. Knopf, New York 1961.

32 – McDougall, W., An Outline of Abnormal Psychology, Methuen, London, 1926.

33 – M. Eddowes, The Man on Your Conscience, Cassell, London, 1955.

34 – Meerloo J. A. M., Pavlovian Strategy as a Weapon of Menticicde, Am. J. Psychiat, 1954.

35 – Miller, E., The Neuroses in War, Macmillan London, 1940.

36 – Paniel P. Mannixin Collaboration With Malcoln Cowley, Black Cargoes, The Viking Press, 1962.

37 – Pavlov, I. P., Conditioned Reflexes, Oxford, 1927.

38 – Pavlov, I. P., Lectures on Conditioned Reflexes, The Higher Nervous Activity (Behaviour) of animals Vol. 1, Translated by Horsley Gantt, Lewrence and Wishart London, 1928.

39 – Pavlov, I. P. Lectures on conditioned Reflexes, Vol 12, conditioned reflexes and Psychiatry. (Eng. trans.) London 1941.

40 – Rabindrananth. Tagore, Nationalism, The Macmillan Coy, New York, 1917.

41 – Rattenbury, J. E. The Conversion of Wesley, Epworth Press, London 1938.

42 – Rupert Emerson, Colonialism Yesterday and Today, New Nations in a Divided World, Kurt Lond (Ed.), Frederick A., Praeger, New York, 1963.

43 – R. R. Grinker and J. P. Spiegel, War Neuroses in North Africa, The Tunisian Campaign, (January May, 1943) Jr. Foundation, New York, 1943.

44 – Shorvons, H. J., Abreaction, Proc. Roy. Soc. Med., XLVI, 1953

45 – Thomas Patric Melady, The Revolution of Color, Hawthorn Books, Inc. Publishers, New York, 1966.

46 – Thouless, R. H., «General and Social Psychology» 4th ed University Tutorial Press Ltd, Clifton House, Euston Rd, London, N. W. I, 1963.

47 – Thouless, Robert H., The Psychology of Religion, Cambridge University Press.

48 – Young K, Social Psychology, F. S. Crofts and Company, New York, 1936.

49 – W. Brown, Psychological Methods of Healing, an Introduction to Psychotherapy, University of London Press, 1938.

50 - Weitzenhofer, A. M. Hypnotism, An Objective Study in Suggestibility, New York, John Wiley and Sons Inc., 1953.

51 - William Sargant, Battle for The Mind, Richard Clay and Company Ltd., 1963.

52 - Encyclopaadia Britannica, 1961.

فهرست

الفصل الثالث : تجارب على سلوك الانسان والحيوان ٤١

الباب الثانى

الوســائل والأساليب

٦١–١١٦

الباب الثالث

بين العلاج النفسي وطب الأمراض العقلية

١١٧–١٧٠

الباب الرابـع

وسائل الاستجواب

١٧١—٢٢٠

الباب الخامس

الصراع الأيديولوجى

الباب السادس

أسطورة العنصر

٣٢٣–٣٤٦

الباب السابع

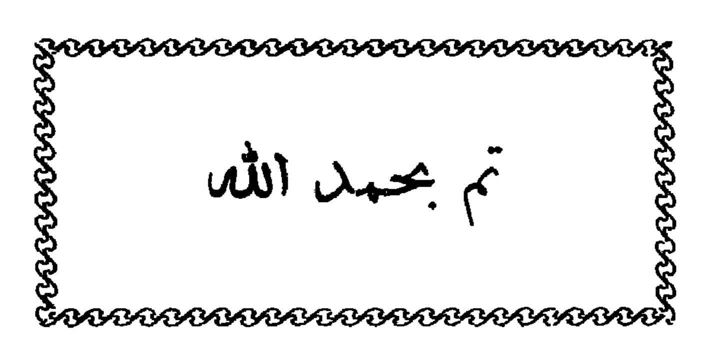
السحر وسطوته على العقل

٣٤٧–٣٨٤

الباب الثامن

ألوان زائفة من المعتقدات

٣٨٥–٤٢٢


تم بحمد الله


Bibliotheca Alexandrina
0416288
الثمن ٨٠ قرشاً